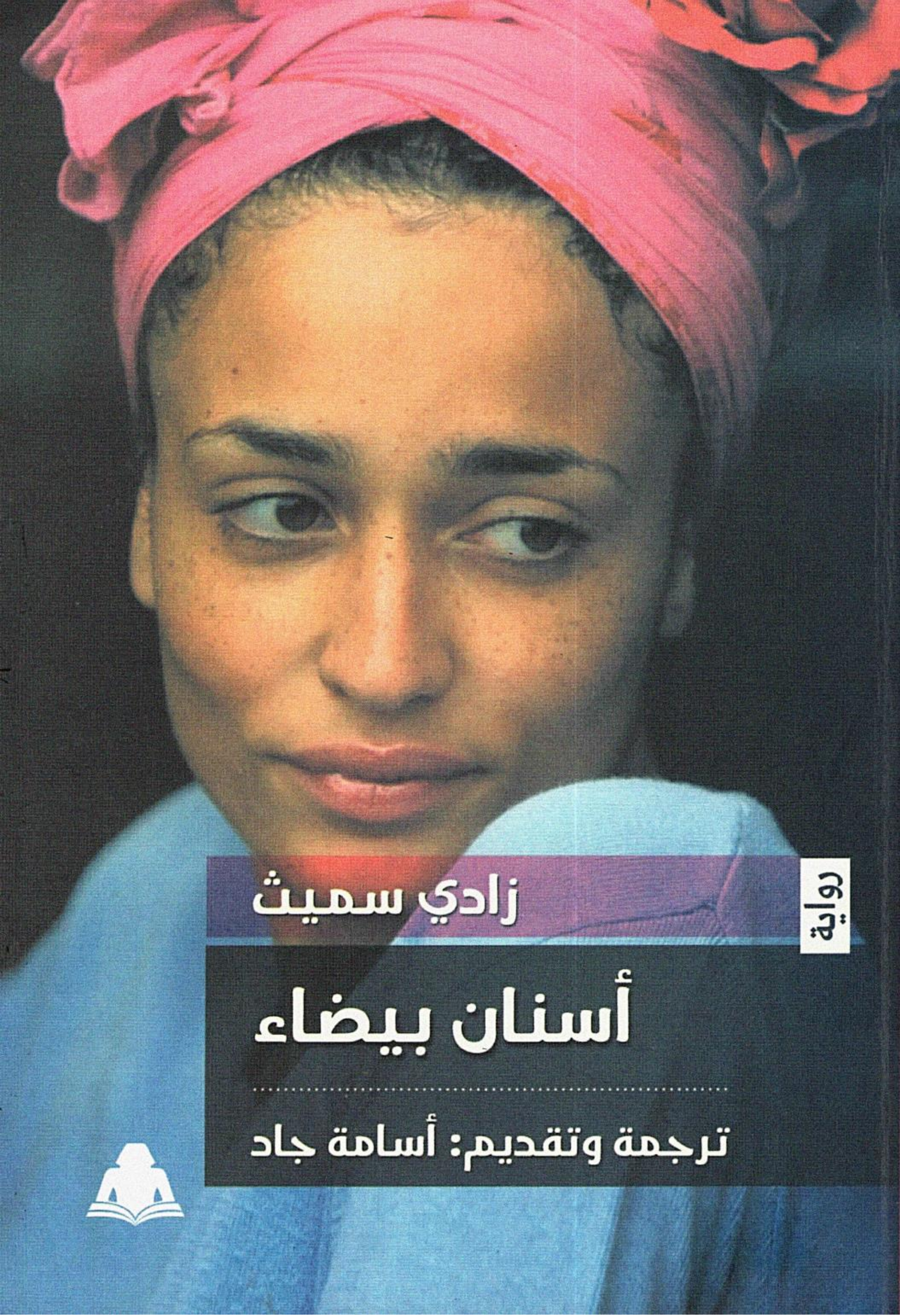


رواية

زادي سميث

أسنان بيضاء

ترجمة وتقديم: أسامة جاد

أسنان بيضاء

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي
المشرف على النشر
د. سهير المصادفة
الإخراج الفني والتنفيذ
محمد خليل
تدقيق لغوي
أحمد اللاوندي
تصميم الغلاف
د. هند سمير
متابعة
سحر محجوب

زادي سميث
أسنان بيضاء
ترجمة وتقديم: أسامة جاد
ط - أولى ٢٠١٧

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)
GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276
website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سميث، زادي ١٩٧٥ -
أسنان بيضاء/ زادي سميث.
ترجمة: أسامة جاد.-
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.
٥٨٤ ص؛ ٢٣سم.
تدمك ٤٩٢٧ - ٩١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- القصص الإنجليزية.
٢- جاد، أسامة (مترجم).
٣- العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٥٧٣/ ٢٠١٧
ISBN: 978 - 977 - 911 - 4927
ديوى ٨٢٣

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

زادي سميث

أسنان بيضاء

ترجمة وتقديم: أسامة جاد

٢٠١٧

«أسنان بيضاء»

كوميديا فائقة مكهربة بالأفكار

ليسَت «أسنانٌ بيضاء» مجرَّد عمل زادي سميث الرِّوائيِّ الأوَّل وانطلاقتها الكُبرى كواحدةٍ مِنْ أهمِّ الرِّوائيَّات البريطانيَّات خلال العقدينِ الأخيرينِ. وإِنَّما «أسنانٌ بيضاء» هي قطعة زادي الفنِّيَّة الفريدة الَّتِي وصفها النُّقَّاد بأَنَّها رحلةٌ برِّيَّةٌ رائعةٌ، وكوميديا فائقةٌ مُكهربةٌ بالأفكار، واحتفاءٌ حقيقيٌّ بالواقعيَّة المجنونة، وبالرِّواية المدهشة الممتعة السَّهلة ما بعد الحداثيَّة.

ربما نتجاوز الدَّهشة الأولى تجاه حقيقة أَنَّ زادي أصدرَت هذا العمل في يناير عام 2000 وهي في سنِّ الخامسة والعشرين (وُلِدَت زادي سميث في شمال لندن عام 1975، لأبٍ بريطانيٍّ وأُمٍّ جامايكيَّةٍ. درسَت الأدب الإنجليزيَّ في جامعة كامبردج وتخرَّجَت في العام 1997) غير أَنَّنا لَنْ نملك شيئًا حيال الإعجاب الكامل بالأسلوب والبناء والحبكة الرِّوائيَّة الَّتِي نسجَتها زادي برهافةٍ سرديَّةٍ فائقة الجمال، جمعَت فيها باحترافيَّةٍ مدهشةٍ بيْن تفاصيل يوميَّةٍ شديدة العاديَّة والبساطة، وبين أحداثٍ كُبرى أثَّرَت في تاريخ العالم وتحوُّلاته المعاصرة.

فما بين طَيِّ أرشيبالد جونز للأوراق في إحدى شركات الطِّباعة، وانحناء صمد مياه إقبال المهذَّب أمام زبائن مطعم القصر حيث يعمل نادلًا، تنكبُّ ألسانا بيجوم معظم ساعات يومها على ماكينة الخياطة السِّنجر، وتواصل كلارا بودين برامجها الدِّراسيَّة المتنوِّعة بعد أَنْ تخلَّت عَنْ كنيسة شهود يَهْوَه وحلم نهاية العالم.

وبين محاولات المهاجرين للاندماج الثَّقافيِّ والشُّعور بالجدارة في المجتمع البريطانيِّ المعاصر، ومخاوفهم تجاه الانصهار وغياب الهويَّة، وبين قبول القوميِّين للمهاجرين، وقبول المهاجرين للتَّغيُّرات الثَّقافيَّة الَّتِي تنتاب الأجيال في مجتمعاتهم الجديدة، يكمن

الماضي ويتجلَّى في تمظهراتٍ كثيرةٍ عبر أسئلةٍ متنوِّعةٍ تتعلَّق بالتَّحوُّلات الثَّقافيَّة، وبمجتمعات المهاجرين، وبالصِّراع الأزليِّ بين الجُذور ومتطلَّبات الحداثة، وصولًا إلى أسئلة التَّطرُّف الدِّينيِّ والسِّياسيِّ والعلميِّ.

غير أنَّ تلك الأحداث العاديَّة في حياة الجميع وراءها دائمًا تواريخ هامَّةٌ وأحداثٌ هائلةٌ توزَّعَت في جهات الأرض، وعادَت بآثارها في دوافع الشَّخصيات وأفعالها واهتماماتها واختلافاتها في مجتمع التَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة الموعود.

وفي سبيل ذلك بذلَت زادي سميث جهدًا دراسيًّا ومعرفيًّا هائلًا في قراءة تاريخ التَّمرد الهنديِّ 1857، والحقبة الاستعماريَّة البريطانيَّة في جامايكا قُبيل زلزال كينجستون الأضخم 1907، وتاريخ الحرب العالميَّة الثَّانية، والحرب الأهلية في اليونان، وصولا إلى المدوَّنات الفقهيَّة في الإسلام، وإصدارات شهود يَهْوَه مِنْ مجلَّة برج المراقبة، والكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد، للوصول إلى «وصفة» درامية بديعة تتخذ مِنْ عالم طبِّ الأسنان مرجعيَّة مركزيَّة لها، حيث القنوات الجذرية للأسنان بمثابة تواريخ ضاربةٍ في القِدَم، والعيوب والتَّشوُّهات التي تُصيب الأسنان هي نتاجات تلك التَّواريخ وتجلياتها في الواقع اليومي. وحيث تلك الأسنان، في بياضها الناصع تحمل المعنى وضده، في انتقالة بين عالمين. هي في بريطانيا علامة طبقية في أحيان كثيرة، فمذيعو التليفزيون ذوي أسنان بيضاء، والأثرياء كذلك. بينما في الكونغو، خلال الحرب كانت الأسنان البيضاء وبالًا على أصحابها مِنَ الزنوج الَّذين يكفي أَنْ تظهر أسنانهم البيضاء حتَّى يمكن للجنود الإنجليز اقتناصهم.

ومن بنجلاديش إلى الهند في أقصى الشَّرق إلى بلغاريا واليونان في قلب أوروبا خلال الحرب العالميَّة الثَّانية تمضي الرِّواية منطلقةً مِنَ المفهوم الَّذي قدَّمه اقتباسها الافتتاحيُّ مِنْ إي إم فورستر حول تبعات الماضي والآثار الَّتي تغْلق بأَيٍّ من تصرُّفاتنا في أيِّ لحظةٍ مِنَ الزَّمان.

والحقيقة أَنَّ مسألة تصنيف النَّوع الرِّوائيِّ الَّذي تنتمي إليه «أسنانٌ بيضاء» أمرٌ عصيٌّ على التَّحديد، نوعًا ما، لأنَّها تحمل سمات وخصائص أكثر مِنْ نوعٍ روائيٍّ في الوقت نفسه.

فمِنْ جهةٍ، هي رواية أجيالٍ، ترصد التَّحوُّلات الاجتماعيَّة الَّتي تطرأ بين جيلٍ جديدٍ والجيل السَّابق عليه، بين الآباء والأبناء: أَيري في مقابل أرشيبالد وكلارا، وماجد ومِلَّة

في مقابل صمد وألسانا، وجوشوا في مقابل مايكل وجويس تشالفين. دون أن نستثني مو حسين إسماعيل وابنه أرشد، أو عبدول ميكي وابنه عبدول كولِن، عَلَى الرَّغم مِنْ هامشيَّة الأخيرين نسبيًّا في الحدث الرِّوائيِّ.

وهي روايةٌ واقعيَّةٌ بما تضمَّنَته مِنْ شخصيَّاتٍ ومصائر تتقاطع عبر تحوُّلاتٍ اجتماعيَّةٍ كثيرةٍ لتقدِّم صورةً حيَّةً لقطعةٍ من الواقع البريطانيِّ المعاصر بكُلِّ أسئلة الغضب والكراهية الَّتي تحتشد بها جنَّة الحلم الأرضيِّ.

وهي رواية أصواتٍ، تقدِّم كُلُّ شخصيَّة فيها رؤيتها للعالم وإجاباتها على أسئلة الواقع والتَّاريخ، أسئلة التَّكيُّف والجذور، بحسب المرجعيَّات المختلفة لتلك الشَّخصيَّات: دينيَّةٍ أَوْ علميَّةٍ، ثقافيَّةٍ أَوْ مجتمعيَّةٍ، تاريخيَّةٍ أو ابنة واقعها وبيئتها، وتقدِّم الحدث الواحد بأكثر مِنْ تَناولٍ، وأكثر مِنْ وجهة نظرٍ.

وهي تنتمي بقدْرٍ ما إِلَى ما يمكن اعتباره ميتا سردٍ، في امتداد مساحتها الزَّمنيَّة إلى فتراتٍ تاريخيَّةٍ مختلفة، وإعادة تقديمها لأحداثٍ مِنْ التَّاريخ وفق منطقٍ دراميٍّ ومعرفيٍّ يخص الشَّخصيَّات وحدها.

كما أنَّها روايةٌ توغل في أسئلة العلم الحديثة، وخاصَّة علوم الجينات والهندسة الوراثيَّة وقضايا «العلم الصَّعب» كما يطرحها مايكل تشالفين عالِم الوراثة اليهوديّ وأسرته.

ومع أنَّ ترجمة الرِّواية، الَّتي يطرحها الكثيرون كتجَلٍّ أدبيٍّ للتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة في بريطانيا، تأَخَّرَت بعض الشَّيء إلَّا أنَّ «أسنان بيضاء» مازالت تعرض للكثير مِنْ أسئلة المرحلة الرَّاهنة مِنْ تاريخ الإنسانيَّة.

أسئلةٌ محتشدةٌ بالغضب والكراهية والتَّطرُّف؛ اللَّونيَّة والعِرْقيَّة والدِّينيَّة، تُشَكِّل مركزيَّاتٍ رئيسةً في هذا العمل الرِّوائيِّ البديع، بالإضافة إِلَى أسئلة العلم والجمال والحبِّ.

ومن خلال سِيَر ثلاث عائلاتٍ إنجليزيَّةٍ مِنْ أصولٍ عرقيَّةٍ مختلفةٍ، بالإضافة إِلَى شخصيَّاتٍ استَقَتهَا الكاتبة مِنْ مكان إقامتها ومسقط رأسها في حيٍّ شمال لندن، حيث يعيش أكبر عدد مِنَ المهاجرين متنوِّعي الجنسيَّات (هنود، وأفارقة، وعرب)، تطرح الرواية أسئلة التَّكيُّف والتَّقبُّل والعُنصريَّة والتَّطرُّف لَدَى الأعراق والإثنيَّات المتنوِّعة، الَّتي تَشَارَكَتْ جميعها حلمَ الجنَّة الأرضيَّة، ولَمْ تتخلَّص تمامًا من جذور نقمتها القديمة تجاه الفترة الاستعماريَّة الَّتي لَمْ تنته آثارها مِنَ العالم بعد.

ومع كُلِّ ما يتضمَّنه هذا التَّنوُّع مِنْ مفارقاتٍ ثقافيَّةٍ وصداماتٍ حضاريَّةٍ وثراءٍ قصصيٍّ؛ فإنَّ زادي تتحفَّظ عَلَى فكرة تمثيلها للتَّعدُّدِ الثَّقافيِّ البريطانيِّ في رواياتها، وتقول: «حسنًا، نعم، باستثناء أنَّني لستُ عَلَى هذا القدرمِنَ الإيغال في نزعة تعدُّد الثَّقافات. كُلُّ ما هناك أنَّني نصف إنجليزيَّةٍ ونصف جامايكيَّةٍ. وقد جرى وصفي عَلَى الدَّوام وكأنَّني مُمثِّلةٌ لكُلِّ الأمم. وأنا لستُ مؤهَّلةً لذلك. الأمرليس بهذا القدرمن الغرائبيَّة، فقد عشتُ في شارع ويلزدن ثلاثين عامًا، هي كُلُّ عمري، والكثيرون، وبصفةٍ خاصَّةٍ في أوروبَّا، يسألونني عَنْ أدب المهاجرين، وأنا لستُ مهاجرةً فلَقدْ وُلدتُ في مستشفى في هامبستيد بشماليِّ لندن.»

لَكِنَّ «أسنان بيضاء»، وافَقَتْ زادي أَمْ نَفَتْ، هي تَجلٍّ حقيقيٌّ لفكرة التعدُّديَّة الثقافيَّة، وربَّما الصِّدَام في مجتمعات المهاجرين، عَلَى اختلاف إثنيَّاتهم وأعراقهم، واختلاف مصائرهم أيضًا.

تنطلق الرِّواية مِنْ محاولةٍ لانتحار آرشيبالد جونز في صبيحة أوَّل يومٍ مِنَ العام الجديد، بعد أَنْ فشل زواجه بإيطاليَّةٍ مُصابةٍ بالجنون المُتوارَث في العائلة، لِكَيْ يتعرَّف مُصادفةً بعدَهَا بكلارا بودين، الجامايكيَّة الَّتِي تنتمي إِلَى طائفة شُهود يَهْوَه، والَّتِي كانت هي الأخرى تنتظرنهاية العالم في اللَّيلة السَّابقة. ومِنْ ثَمَّ يتزوَّجان بعد ستَّة أسابيع.

سوف نعرف بعد قليلٍ أنَّ آرشيبالد (47 عامًا) كان زميلًا في الحرب العالميَّة الثَّانية لمهاجرٍ آخرإِلَى بريطانيا، صَمَد مياه إقبال، البنجلاديشي الَّذِي يشكِّل هو وزوجته ألسانا العائلة الوحيدة الَّتِي تربطها بأسرة جونزعلاقة صداقة، كجزيرتين منفصلتين في الفضاء البريطانيِّ المتحفِّظ جدًّا حدَّ الغداء تجاه مسألة الهجرة وتجاه المهاجرين.

في هذه الدَّائرة تظهرعائلة تشالفين، اليهوديَّة المتطرِّفة في عِلمانيتها، بين الأُمِّ: عالمة البستنة والحدائق، والأَب، العالِم في أبحاث الهندسة الوراثيَّة، العائلة الَّتِي «تُشَلْفِن» كُلَّ شيءٍ: لا تصدِّق بالمعجزات، وترى لكُلِّ شيءٍ أسبابه العلميَّة وحلوله العلميَّة أيضًا.

ومع محاولات الجيل الثَّاني (الأبناء) للاندماج في المجتمع الجديد يبرز الصِّراع عَلَى المستويات كافَّةٍ؛ صراع الأجيال بين الآباء والأبناء، وصراع الآباء والأبناء معًا مع المجتمع في شمال لندن

ومِنْ شهود يَهْوَه الَّذِين يحلمون بدمار العالم وأمطار الكبريت المصهور عَلَى العاصين، إِلَى جماعات التطرُّف الإسلامي الَّتِي ترى كُلَّ المجتمعات علمانيَّةً كافرةً، إِلَى

التَّطرُّف العلميّ الموغل في مُحاولات استغلال فكرة الهندسة الوراثيّة وتعديل «أخطاء» الوجود البشريّ، وصولًا إِلَى تطرُّف جماعات الدِّفاع عَنْ حقوق الحيوانات، تدور الأحداث في سياقٍ محبوكٍ ببراعَةٍ، وخِفَّة ظِلٍّ، تجعل الرِّواية عملًا استثنائيًّا عَلَى أكثر مِنْ مستوىً: سواءً في البناء الكلّيّ، أَوْ في الشَّخصيَّات الَّتِي تكاد تخرج مِنْ صفحات الرِّواية الضَّخمة، حيَّةً، ونعرفَها، عَلَى التَّقريب، في الشَّارع، وفي محطَّة المترو، وفي المواصلات العامَّة: شخصيَّاتٍ مِنْ لحمٍ ودمٍ، نتعرفها، ونتذكَّرها، ويُفاجئنا بدهشةٍ هائلةٍ أَنَّها، وإِنْ كانت في ظاهرها مِنَ الهامش، فهي مركزيَّةٌ جدًّا ومؤثِّرةٌ جدًّا، ولو تصوَّرنا، وتصوَّرت تلك الشخصيَّات، عكس ذلك.

تنسج زادي سميث تحفتها الرِّوائيَّة ببراعةٍ مدهشةٍ، ترصد مِنْ خلالها الأحداث، وتستكشف دوافعها ونتاجاتها، وتجعل مِنْ علوم الوراثة الجيليَّة ومكتشفات الجينوم البشريّ إطارًا ثانيًا يناقش اختلافات التَّوائم، وإشكالات التَّكيُّف والارتباط بالجذور العميقة للدِّين والتَّقاليد: *إِذَا كان الدِّين هو أفيون الشُّعُوب، فإِنَّ التَّقاليد مُسكِّناتٌ أكثر شرًّا، وذلك ببساطةٍ لأَنَّها نادرًا ما تبدو شرًّا. إِذَا كان الدِّين رباطًا ضيِّقًا، ووريدًا ينبض، وإبرةً، فإِنَّ التَّقاليد اختراعٌ أكثرُ ألفةً: بذور خشخاشٍ تستقرُّ في الشَّاي؛ أَوْ مشروب كوكاكولا حلوٌ ممزوجٌ بالكوكايين؛ ذلك النَّوع مِنَ الأشياء الَّذِي قد تكون جدَّتك مَنْ قامت بإعداده.*

كما ترصد الرِّواية عوامل الجنون والغضب في المدينة، وصراعات الحداثة في مقابل التَّقاليد، ويبرز عبر ذلك كُلِّه الأثر الفادح الَّذِي ارتكبه العاهل الإمبراطوريُّ البريطانيُّ بيديه البيضاوَين المنمَّشتَين في هويَّة شعوب المستعمرات، والتَّحوُّلات الدِّينيَّة الجذريَّة في حياة أهل المستعمرات وفق هوى السَّيِّد البريطانيّ أيًّا كان.

وعلى هامش ذلك كُلِّهِ نرى حياة المهاجرين في لندن: الهندوسيّ في المطعم، وجزَّار الحلال في كريكل وود، والمهاجر العراقيّ في قاعة أوكونيل، ومجانين الشَّارع عَلَى تنوُّعهم، في سردٍ يتخلَّص مِنْ زخارف البلاغة الثَّقيلة، ويعتمد السُّخرية عنصرًا مركزيًّا يحوِّل العمل بالكامل إِلَى قصَّةٍ ممتعةٍ، ترتكز عَلَى بنياتٍ مشهديَّةٍ وصوتيَّةٍ وإيقاعيَّةٍ توغل في تفاصيل غايةٍ في الإتقان.

الأمر الَّذِي حاولَت هذه التَّرجمة إبرازه عبر وسائط أدائيَّةٍ متنوِّعةٍ، أوَّلها اللُّغة الَّتِي سعَت إِلَى تقديم صورةٍ موحيةٍ عَنِ الأصل، وليس آخرها الهوامش، التي - عَلَى كثرتها - لم تَسْعَ إِلَى مقاطعة السَّرد، بقدر ما سعَت إِلَى إلقاء الضَّوء عَلَى تفاصيل وأحداثٍ

وشخصيَّاتٍ إنسانيَّةٍ جاءت الإشارة إليها في الرِّواية في سِّياقات معرفيَّةٍ تخصُّ أبطالها، فكان لابُدَّ مِنْ إضاءَتها لِمَنْ شاء التَّوسُّع في الأمر، دون أَنْ يؤثِّر تجاوزها، لِمَنْ شاء، عَلَى سياق الأحداث الدِّراميّ.

كما سعَت الترجمة، قدرما بلغ الجهد، إلى إظهار الأداءات اللُّغوية الممتعة التي تميِّز أسلوب الكاتبة، والَّتِي تجلَّت في البِنَى الاستعاريَّة والكنائيَّة التي احتشدَت بها الرِّواية في فرادةٍ أسلوبيَّةٍ تميِّز كتابة زادي سميث.

ولَمْ يخل الأمر، بالطَّبع، من صعوباتٍ حقيقيةٍ في تقديم المفارقات الصَّوتيَّة التي نجمَت عن اختلاف لكنات النُّطق بالإنجليزيَّة باختلاف ناطقها: الإنجليزيّ والهنديّ والأفريقيّ والجامايكيّ والعربيّ، والجناسات الَّتِي هناك استحالةٌ حقيقيَّةٌ في إيجاد مطابقاتٍ صوتيَّةٍ لها في لغة التَّرجمة، فكان اللجوء إلى الهوامش ضرورةً في بعضها.

بقي أَنْ نذكر أَنَّ «أسنان بيضاء» ليسَت العمل الرِّوائيَّ الأوَّل الَّذِي تترجمه الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب لها إِلَى العربيَّة. وإِنَّمَا سَبَقَتْهُ ترجمة الشَّاعر البديع الرَّاحل مِفْرِح كَرِيم لعملها المُهِمّ «عَنِ الجمال» في سلسلة «الجوائز» في عام 2008.

أخيرًا، فإِنَّ كُلَّ جهدٍ مقصورٌ، وكُلَّ محاولةٍ بها مَا بِهَا مِنَ اختياراتٍ وتوافقاتٍ يحكمها السِّياق وتحكمها ظروف العمل، وقَدْ يتوافق القارئ والكاتب والمترجم بخصوصها، أحيانًا، ولكنهم لا يفعلون دائمًا.

والله مِنْ وراء القصد،،

أسامة جاد

إِلَى أُمِّي وأبي

وإلى جيمي رحمن

مَا مضى تمهيدٌ

ـ نقْشٌ في متحف واشنطن العاصمة

شكر وتقدير

أشعر بالعرفان تجاه كُلٍّ مِن ليزا وجوشوا أبينانيزي عَلَى التَّرتيب فيما بينهما لتوفير غرفةٍ خاصَّةٍ بي عندما كان ذلك أهمَّ المتطلَّبات. الشُّكر أيضًا لتريستيان هيوز وإيفون بيلي سميث عَلَى توفير بيتَين سعيدَين لهذا الكتاب ومؤلِّفته. إنَّني مدينةٌ أيضًا لألمعيَّة ووضوح أفكار التَّالين: بول هيلدر صديقًا ومُناقِشًا. ونيكولاس ليرد زميلي العلَّامة غريب الأطوار. ودونا بوبي الَّتي نظَّمَت كُلَّ شيءٍ بدقَّةٍ. وسيمون بروسر مُحكِّمًا ومُحرِّرًا كَمَا يتمنَّى المرء. وأخيرًا، وكيلة أعمالي؛ جورجيا جاريت الَّتي لا يفوتها شيءٌ.

آرشي

1974 - 1954

كُلُّ ما هو تافهٌ بعض الشَّيء يبدو، لسببٍ مَا، ذا أهميَّةٍ مُطلقةٍ اليوم، وعندما تقول عَنْ أمرٍ إنَّه «لا يعلق به شيءٌ» تبدو المسألة كأنَّها تجديفٌ. لَمْ توجد أَيُّ معرفةٍ قطُّ - كيف أصوغ ذلك؟ - بأَيِّ مِمَّا فعلنا، أَوْ مِمَّا أهملنا، لَنْ يعلق شيءٌ ما إِلَى الأبد.

- إي إم فورستر *«حيثُ تخشى الملائكة أَنْ تخطو»*

الفصل الأوَّل

الزَّواج الثَّاني الغريب لآرشي جونز

في الصَّباح الباكر، مِنْ أواخر القرن، في كريكل وود، برودواي. كان ألفريد آرشيبالد جونز، في تمام السَّادسة و27 دقيقةً مِنْ نهار الأوَّل مِنْ يناير 1975 يرتدي بذلته القطيفة المضلَّعة[1]. جلس ورأسه عَلَى مقود الـ «كافاليير مسكتير» المليئة بالدُّخان، وهو يتمنَّى ألَّا يواجه حسابًا عسيرًا. تمدَّد في وضعيَّة سجود الصَّلب، وقَدْ تراخى فكُّه وتباعدَت ذراعاه إِلَى جانبَيه مثل ملاكٍ ساقطٍ. وخشخشت ميداليَّة الخدمة العسكريَّة في قبضته المضمومة (اليُسرى) ورخصة الزَّواج (في اليُمنى) فَقَدْ قرَّر أَنْ يحملَ خطاياه معه. ومَضَ ضوءٌ أخضرُ خافتٌ أمام عينَيه، وعندما أشار بالاتِّجاه إِلَى اليمين تأكَّد أنَّه لَنْ يتمكَّن مِنْ فعلها. لقَدِ استعدَّ للأمر، وألقى عملةً واستقرَّت عَلَى الوجه. لقَدْ كان انتحارًا مقصودًا. وفي الحقيقة، لقَدْ كان قرارًا للعام الجديد.

لَكِنْ، حتَّى عندما أصبح تنفُّسه متقطِّعًا، وبدأ وعيه في الخفوت، كان آرشي مُنتبهًا لأنَّ كريكل وود برودواي ستبدو اختيارًا غريبًا. غريبًا بالنِّسبة إِلَى أوَّل شخصٍ يلاحظ هيئته المتداعية مِنْ خلال الزُّجاج الأماميِّ، وغريبًا بالنِّسبة إِلَى الشُّرطيِّ الَّذي سيحفظ التَّقرير، وبالنِّسبة إِلَى الصَّحفيِّين المحلِّيِّين الَّذين ستتمُّ دعوتهم لكتابة خمسين كلمةٍ عَن القصَّة، وبالنِّسبة إِلَى الورثة الَّذين سيقرؤونها. لَمْ تكُنْ كريكل وود، المحصورة بين مُجمَّع سينما خرسانيٍّ ضخمٍ مِنْ جهةٍ، وتقاطع طُرُقٍ عملاقٍ مِنَ الأخرى، هذا النَّوع مِنَ الأماكن. لَمْ تكُنْ مكانًا يأتي إليه المرء لكَيْ يموت. بَلْ مكانًا يقصده النَّاس لكَيْ يتوجَّهوا إِلَى أماكن أخرى عَلَى طريق A41. ولكِنَّ آرشي جونز لَمْ يرغب في أَنْ يموت في أماكن مبهجةٍ؛ كغابةٍ

1 ـ تدلُّ البذلة القطيفة المضلعة على شخصية مِنَ الطبقة العاملة، أو تعمل في الحقل الرياضي. (المترجم).

بعيدةٍ، أَوْ عَلَى حافَّة هاويةٍ تحفُّها أعشاب الخَلْنَج الرَّقيقة. الطَّريقة الَّتِي رأى آرشي الأمر بها أَنَّ أهل الرِّيف ينبغي أَنْ يموتوا في الرِّيف، وأَنَّ أهل المدينة يجب أَنْ يموتوا في المدينة. كُلٌّ كما يليق به. *في الموت كما في الحياة* وكُلُّ ما إِلَى ذلك. ومِنَ المنطقيِّ أَنَّ آرشيبالد لا بُدَّ أَنْ يموت في هذا الشَّارع المدينيِّ الكريه الَّذِي انتهى إليه. يعيش وحيدًا في سنِّ السَّابعة والأربعين، في شقَّةٍ بغرفة نومٍ واحدةٍ فوق محلٍ مهجورٍ للوجبات السَّريعة. لَمْ يكن مِنَ النَّوع الَّذِي يضع ملاحظاتٍ بخططه التَّفصيليَّة للانتحار ولا إرشاداتٍ للجنازة، لَمْ يكن مِنْ النَّوع الملائم لأَيِّ خيالٍ خصبٍ. كُلُّ ما يطلبه هو القليل مِنَ الصَّمت، القليل مِنَ الهدوء، حتَّى يتمكَّن مِنْ التَّركيز. لقَدْ أراد للأمر، وما يزال، أَنْ يتمَّ في هدوء تامٍّ، كما في داخل غرفة اعترافٍ فارغةٍ، أَوْ كما في تلك اللَّحظة في الدِّماغ ما بين التَّفكير والكلام. أراد أَنْ يفعل ذلك قبل أَنْ تفتح المحالُّ التجاريَّة.

مِنْ مجثمٍ غير مرئيٍّ بالأعلى أقلع سربٌ مِنَ الطُّيور المحليَّة الضَّارية وحلَّق، وبدا كما لَوْ أنَّه يتَّجه بقوَّةٍ نحو سقف سيَّارة آرشي، قبل أَنْ ينعطف في اللَّحظة الأخيرة في أداءٍ بارعٍ، ويتحرَّك مثل كتلةٍ واحدةٍ في انحناءٍ مقوَّسٍ أنيقٍ لكَيْ يهبط عَلَى متجر حسين إسماعيل، جزَّار الحلالِ الشَّهير. كان آرشي قَدِ ابتعد كثيرًا بحيث لَمْ يعُدْ بإمكانه أَنْ يُثير ضجَّةً حول الأمر، ولكنَّه شاهد الطُّيور بابتسامةٍ داخليَّةٍ دافئةٍ، وهي تُلقي حمولتها وتلطِّخ فخامة الجدران البيضاءِ، شاهَدَهَا وهي تمدُّ رؤوسها وتطلُّ عَلَى مزراب حسين إسماعيل، شاهدها وهي تبصر النَّزف البطيء والمستمرَّ لدماء الذَّبائح: الدَّجاج والأبقار والغنم، الَّتِي تعلَّقت في خُطَّافاتها مثل معاطف في أنحاء المحلِّ. ولسوء الحظِّ أَنَّ تلك الحمائم لديها إحساسٌ غريزيٌّ بقليلي البخت، ولذا فقد عبرت آرشي سريعًا. ذلك لأَنَّه، وإِنْ لَمْ يعلم، وعلى الرَّغم مِنْ أنبوب المكنسة الكهربائيَّة الموضوع عَلَى مقعد الرَّاكب لكَيْ يضخَّ مِنْ ماسورة العادم إِلَى رئتيه، كان الحظُّ إِلَى جانبه في ذلك الصَّباح. وطبقة الحظِّ الرقيقة الَّتِي غَلَّفَته تُشبه النَّدى الطَّازج. وبينما ينزلق إِلَى داخل الوعي وخارجه، قرَّرت مواقع النُّجوم، وموسيقى الرُّعاة، ورفرفة أجنحة فراشة النِّمر الشَّفَّافة في وسط أفريقيا، وكُلُّ تلك المجموعة مِنَ الأشياء الأُخرى الَّتِي تجعل القرف يحدث، أَنْ تمنح آرشي فرصةً ثانيةً. في مكانٍ مَا، بطريقةٍ مَا، من خلال شخصٍ ما، تَقرَّر أنَّه سوف يعيش.

***

كان متجر حسين إسماعيل مملوكًا لِـ مُو[1] حسين إسماعيل، بهيئته الضَّخمة، وشعره الَّذِي ارتفع ثم انخفضِ فِي خصلةٍ خلف رأسه بطريقة «ذيل البطَّة»[2]. يؤمن مُو بأنَّه مع الحمام ينبغي أَنْ تصل إِلَى جذر المشكلة، ليس إفرازات الحمامة، بَلِ الحمامة نفسها. *الخِراء ليس هو الخِراء. الحمامة هي الخِراء.* وهكذا بدأ اليوم الَّذِي أشرف فيه آرشي عَلَى الموت مثل كُلِّ صباحٍ فِي متجرِ حسين إسماعيل بـ مُو وهو يريح بطنه الضَّخم عَلَى حافَّة النَّافذة، ويميل إِلَى الخارج ويلوِّح بساطور اللَّحم فِي محاولةٍ لوقف التَّدفُّق الأرجوانيِّ المراوغ.

«اذهبي مِنْ هنا! اذهَبي بعيدًا، بخرائك أَيَّتها الحمائم بنت الحرام! نعم! ستَّةٌ!»

والتَّعبير مِنْ لعبة الكريكيت، بالأساس، لعبة الرَّجل الإنجليزيِّ الَّتِي تبنَّاها المهاجرون، و«ستَّةٌ» هو أقصى عددٍ مِنَ الحمامات يمكنكَ الحصول عليه فِي تمريرةٍ واحدةٍ.

«ڤارِن!» قال مُو، مُناديًا نحو الشَّارع بالأسفل، وهو يمسك بالسَّاطور الدَّامي فِي انتصارٍ. «ستكون مُساعدي أيُّها الفتى. هَلْ أنتَ مستعدٌّ؟»

بالأسفل، عَلَى الرَّصيف، وقف ڤارِن، فتًى هندوسيٌّ يعاني زيادةً مفرطةً فِي الوزن فِي برنامج منحةٍ تأهيليَّة بسبب سوء تقديراته فِي المدرسة القريبة، ينظر إِلَى الأعلى مثل نقطةٍ مُتجهِّمةٍ تحت علامة الاستفهام الَّتِي جسَّدها مُو. كانت مهمَّة ڤارِن أَنْ يكافح فوق سلَّمٍ متحرِّكٍ وأَنْ يجمع أشلاء الحمام فِي كيس تَسَوُّقٍ صغيرٍ مِن ماركة «كويك سيف»[3] وأَنْ يربط الكيس ويتخلَّص منه فِي الصَّناديق فِي الطَّرف الآخر مِنَ الشَّارع.

«هيَّا أيُّها السَّيِّد بدين،» صرخ أحد موظَّفي المطبخ لدى مُو، وهو يدفع ڤارِن مِنْ مؤخِّرته بعصا مكنسةٍ يستخدمها مثل علامات التَّرقيم مع كُلِّ كلمةٍ: «اِرفع - مؤخِّرة - جانيش[4] - الهندوسيَّة - السَّمينة - هناكَ - أيُّها - الولد - الفيل - واحضر - بعضًا - مِنْ - أشلاء - الحمامات - المهروسة - معك.»

1 - في النص Mo وتستخدم كاختصار لاسم محمَّد. (المترجم).

2 - Ducktail: تسريحة شعر اشتهر بها نجم البوب الأمريكي الأشهر إلفيس بريسلي. (المترجم).

3 - Save - Kwik سلسلة متاجر «سوبر ماركت» بالخصم في أنحاء بريطانيا. وترجع أصولها إلى ويلز. (المترجم).

4 - Ganesh إله هندوسي له رأس فيل. (المترجم).

مسح مُو العرق عَنْ جبهته، ونَخَرَ، ثُمَّ أطلَّ عَلَى كريكل وود، مستعرضًا الكراسي المهملة ذات الذِّراعين وشرائح السِّجاد، وقاعاتَ الهواء الطَّلْق للسكارى المحلِّيِّين، والمجمَّعات الصَّغيرة لماكينات البيع الآليَّة، والملاعق الملطَّخة بالدُّهون، وسيَّارات الأجرة... تغطَّت كُلُّها بمخلَّفات الحمام. يومًا ما، هكذا يؤمن مُو، سيكون لدى كريكل وود وسكَّانها سببٌ لكَيْ يشكروه عَلَى مجزرته اليوميَّة؛ يومًا ما لَنْ يكون رجلٌ أَوِ امرأةٌ أَوْ طفلٌ في برودواي بحاجةٍ مرَّةً أُخرى، قطُّ، إِلَى خلط مقدارٍ مِنْ موادِّ التَّنظيف مع أربعة مقادير مِنَ الخَلِّ لتنظيف تلك الفضلات الَّتِي تسقط فوق العالَم. *الخراء ليس هو الخراء*، كرَّر الجملة بجدِّيَّةٍ، ***الحمامات*** *هي الخراء*. كان مُو هو الرَّجل الوحيد في المجتمع المحلِّي الَّذِي استوعب حقًّا. وكان يشعر كثيرًا بصفاء الـ «زِنْ»[1] تجاه ذلك، بكُلِّ النَّوايا الطَّيِّبة تجاه كُلِّ الرِّجال - حتَّى لمح سيَّارة آرشي.

«أَرْشَد!»

خرج رجلٌ نحيفٌ ذو نظرةٍ ماكرةٍ وشاربٍ يشبه مقود الدَّرَّاجة، ويرتدي أربعة أطيافٍ مختلفةٍ مِنَ اللَّون البُنِّي، مِنَ المحلِّ بكفيَّن مُلطَّختين بالدِّماء.

«أرشد.» كَبَح مُو نفسه بالكاد، ووجَّه إصبعه باتِّجاه السَّيَّارة. «أيُّها الفتى، سوف أسألك لمرَّةٍ واحدةٍ فقط.»

«نعم يا أَبَّا[2]؟» قال أرشد، مُبدِّلاً وقفته مِنْ قدمٍ إِلَى قدمٍ. «ما هذا بحقِّ الجحيم؟ ما الَّذِي يفعله هذا هُنا؟ لقَدِ استلمتُ طلبيَّةً في السَّادسةِ والنِّصف. استلمتُ 15 بقرةً ميِّتَةً جاءَت إِلَى هنا في السَّادسة والنِّصف. عَلَيَّ أَنْ أضعها في الخلف. هذه وظيفتي. هَلْ ترى؟ هناك *لحمٌ* قادمٌ. ولذا فأنا في حيرةٍ...» اصطنع مو نظرة الارتباك البريء. «لأنَّني ظننتُ الأمر مُحدَّدًا بعلامةٍ واضحةٍ كـ منطقة تسليمٍ.» وأشار إِلَى صندوقٍ خشبيٍّ متهالكٍ يحمل علامة **ممنوعٌ انتظار أيِّ سيَّارةٍ في جميع الأيَّام**. «حسنًا؟»

«لا أعرف يا أَبَّا.»

«أنتَ ابني، يا أرشد. أنا لا أوظِّفك لكَيْ لا تعرف. أنا أوظِّفه هو لكَيْ لا يعرف» - مدَّ يده خارج النَّافذة وصفع فارين، وهو يعبر المزراب الخطر كمَنْ يمشي عَلَى حبلٍ مشدودٍ،

1 - Zen إحدى مدارس الماهايانا البوذية الَّتِي تطورت في الصين في القرن السادس الميلادي تحت اسم Chán ثم انتقلت إلى فيتنام وكوريا ثم إلى اليابان. (المترجم).

2 - أبي في منطوقها بالأردية. (المترجم).

مانحًا إيَّاه ضربةً قويَّةً عَلَى مؤخِّرة رأسه ألقَت الفتى عَنْ مكانه ـ «أنا أوظِّفكَ *أنتَ* لكَيْ تعرف الأشياء. لكَيْ تحلِّل المعلومات. لكَيْ تُحضر إلَى الضَّوء هذا الظَّلام العظيم لسديم الخالق غير القابل للتَّفسير.»

«أبًا؟»

«اِعرف ما الَّذي تفعله (تلك السَّيَّارة) هناك، وتخلَّص منها.»

اختفى مُومِنَ النَّافذة. وبعد دقيقةٍ عاد أرشد بالتَّفسير. «أبًا.»

ظهر رأس مُومرَّةً أخرى عبر النَّافذة مثل وقواقٍ مشاغبٍ في ساعةٍ سويسريَّةٍ.

«إنَّه ينتحر بالغاز، يا أبًا.»

«ماذا؟»

هزَّ أرشد كتفيه. «لقَدْ صرختُ عبر زجاج السَّيَّارة وأخبرتُ الشَّخص أَنْ يتحرَّك، وقال: إنَّني أنتحر بالغاز، دعني وشأني... هكذا.»

«لا أحد ينتحر بالغاز في ملكيَّتي،» قاطعه مُووهو يمضي إلَى الأسفل. «ليس مُرخَّصًا لنا.»

وما إنْ أصبح في الشَّارع حتَّى تقدَّم مُونحو سيَّارة آرشي، خلع المناشف الَّتي أغلقَت الفجوة في نافذة السَّائق، ودفعها خمس بوصاتٍ إلَى الأسفل في عنفٍ بُدائيٍّ مُتزايدٍ.

«هَلْ تسمع ذلك، أيُّها السَّيِّد؟ لا نملك ترخيصًا بالانتحار في الجوار. هذا المكان حلالٌ. كوشر[1]، هَلْ تفهم؟ إذا أردتَ أَنْ تموت في الجوار، يا صديقي، فأنا أخشى أنَّه سينبغي لك أَنْ تنزف أوَّلًا بالكامل.»

سحب آرشي رأسه عَنْ عجلة القيادة. وفي اللَّحظة ما بين التَّركيز عَلَى الكتلة المتعرِّقة الضَّخمة مِنْ «إلفيس[2] البشريّ» وملاحظة أنَّه لا يزال حيًّا، حدث لديه نوعٌ مِنَ التَّجلِّي الرُّوحيّ. حدث له ذلك للمرَّة الأولى منذ ولادته. لقَدْ قالتِ الحياةُ نعم لآرشي جونز. ليس مجرَّد «حسنًا» أَوْ «ربَّما ـ ستكمل ـ عَلَى ـ أيَّة ـ حالٍ ـ ما دمت ـ قَدْ ـ بدأتَ،» بَلْ إيجابًا صريحًا.

1 ـ كوشر أَوْ كشروت هو الطعام الكوثر «الحلال» حسب الأحكام اليهودية، مثل الحلال في الإسلام. أما غير الكوشر فيسمى طريفه. (المترجم).

2 ـ إلفيس بريسلي. (المترجم).

الحياة أرادَت آرشي. لقَدِ انتشلَته بغيرةٍ مِنْ بين فكَّي الموت، إلَى حضنها. عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّه لَمْ يكن مِنْ أفضل النَّماذج فيها، فالحياةُ أرادَت آرشي. وآرشي، لدهشته البالغة، أراد الحياة.

فتح نافذتَيه الاثنتَين، في لهفةٍ، وجاهد مِنْ أعماق رئتَيه مِنْ أجل الأكسجين. وبين جرعةٍ وأخرى أخذ يشكرمُوبحرارةٍ، ودموعه تنساب عَلَى خدَّيه، ويداه متشبِّثتَان في مِئْزر مُو.

«حسنًا، حسنًا.» قال الجزَّار، مُخلِّصًا نفسه مِنْ أصابع آرشي وهو يهندم نفسه، «تحرَّك الآن، إنَّني أنتظرلحمًا في الطَّريق، أنا في تجارة الذَّبائح. لستُ مستشارًا. أنتَ تحتاج إلَى شارعٍ مُقفرٍ. هذا معبركريكل وود.»

اعتدل آرشي وهو ما زال يغمغم بكلمات الشُّكر، وحرَّر فرملة اليد، واستدارنحو اليمين.

***

حاول آرشي جونز الانتحار بسبب زوجته، أوفيليا، الإيطاليَّة ذات العينَين البنفسجيَّتَين والزَّغب الخفيف في مكان الشَّارب، والَّتِي انفصلت حديثًا عنه. ولكنَّه لَمْ يقضِ صباح العام الجديد مُكمَّمًا بأنبوب المكنسة الكهربائيَّة لأنَّه أحبَّها. لقَدْ بدا زواج آرشي مثل شراء زوجٍ مِنَ الأحذية، وحملهما إلَى المنزل، واكتشاف أنَّهما غيرمناسبَين. ولأجل المظاهركان يرتديهما. ثُمَّ، وبمفاجأةٍ تامَّةٍ وبعد ثلاثين عامًا، حملت الأحذية نفسها، ومضت إلَى خارج المنزل... لقَدْ غادرت... ثلاثين عامًا.

عَلَى ما يذكر، فقَدْ بدأ الاثنان بشكلٍ جيِّد مثل كُلِّ الآخرين. في أوَّل الرَّبيع مِنْ عام 1946 كان يتعثَّرمِنْ ظلمات الحرب، عندما دلف إلَى مقهى فلورنسيٍّ، حيث قامت بخدمته نادلةٌ تشبه الشَّمس حقيقةً. أوفيليا دياجيلو، ترتدي الأصفربالكامل وتشعُّ بالدِّفء والوعد بالجنس بينما ناولته الكابوتشينو بالرَّغوة. ومضيا في الأمرمثل خيولٍ مغماةٍ. لَمْ تكن لتعرف أنَّ النِّساء لَمْ يبقين دائمًا مثل ضوء النَّهارفي حياة آرشي، أنَّه في مكانٍ ما بداخله لَمْ يكُنْ معجبًا بهنَّ، لَمْ يثق بهنَّ، كان قادرًا ـ فقط ـ عَلَى أنْ يحبَّهنَّ إذا ارتدَين هالاتٍ. ولَمْ يُخبرأحدٌ آرشي أنَّ شجرة عائلة آل دياجيلو تضمُّ عمَّتَين مصابتَين بالهيستيريا، وعمًّا يكلِّم الباذنجان، وابن عمٍّ يرتدي قمصانه بالمقلوب. وعلى ذلك فقَدْ تزوَّجا وعادا إلَى إنجلترا، وسرعان ما لاحظت خطأها، فقَدْ قادها إلَى الجنون بسرعةٍ، وأُرسلت الهالة إلَى السَّندرة مع «الرُّوبابيكيا» وأدوات المطبخ المحطَّمة الَّتِي وعد آرشي يومًا ما بتصليحها. وضمن تلك الرُّوبابيكيا كانت المكنسة الكهربائيَّة.

صباح يوم الصّناديق[1]، قبل ستّة أيّامٍ مِنْ توقُّفه بالسَّيارة خارج جزارة مُو الحلال، عاد آرشي إلى منزلهما شبه المنفصل في هندون للبحث عَنْ تلك المكنسة الكهربائيَّة. تلك هي رحلته الرَّابعة إلَى السَّندرة خلال أيّامٍ كثيرةٍ جدًّا، وهوينقل بقايا الزّواج إلَى شقّته الجديدة، والمكنسة الكهربائيّة ـ مِنْ آخر الأشياء الَّتي قام بتصليحها ـ واحدةٌ مِنْ أكثر الأشياء تحطُّمًا، واحدةٌ مِنْ أقبح الأشياء، تلك الأشياء الَّتي تطالب بها بمحض الرَّغبة في الثَّأر لأنَّكَ فقدتَ المنزل. هذا هو ما يعنيه الطَّلاق: أَنْ تأخذ أشياء لَمْ تعُد تريدها مِنْ أشخاصٍ لَمْ تعُد تحبُّهم.

«*إذنْ هو أنتَ مرّة ثانية!*» قالت مدبِّرة المنزل الإسبانيَّة، سانتا ماريّا أَوْ ماريّا سانتا أَوْ شيءٌ ما، عَلَى الباب. «ميستر جونز، الآن ماذا؟ حوض المطبخ، هه؟»

«مكنسةٌ.» قال آرشي مقطِّبًا. «مكنسةٌ كهربائيَّةٌ.»

خفضت عينيها باتجاهه، وتَفَلَتْ عَلَى ممسحة الأرجل عَلَى بُعد بوصاتٍ مِنْ حذائه. «*مرحبًا يا سينيور.*»

أصبح المكان مأوًى لكُلِّ النَّاس الَّذِين أبغضوه. وبعيدًا عَنِ المساعِدة المنزليَّة وجبَ عليه أَنْ يتعامل مع عائلة أوفيليا الإيطاليَّة الكبيرة، ومع ممرِّضةٍ لصحَّتها العقليَّة، ومع المرأة الَّتي مِنَ المجلس البلديِّ، وبالطَّبع مع أوفيليا نفسها، الَّتي أمكن العثور عليها في قلب مصحَّة المجانين، تلك، مُتكوِّرةً عَلَى نفسها في وضعيَّة الجنين عَلَى الصُّوفا، وهِيَ تُحدِثُ صوتًا يشبه الخوار في زجاجة بيلي[2]. استغرق الأمر حوالي ساعةٍ وربع السَّاعة لكَيْ يدخل إلَى خطوط الأعداء، ولأجل ماذا؟ مكنسةٍ كهربائيَّةٍ غبيَّةٍ، تَمَّ التَّخلُّص منها قبل شهورٍ بسبب إصرارها عَلَى أداء ما هو عكس الهدف مِنْ كُلِّ مكنسةٍ كهربائيَّةٍ: فهِي تقذف الغبار خارجها بدلًا عَنْ شفطه إلَى الدَّاخل.

«ميستر جونز، لماذا تأتي إلَى هنا ما دام ذلك لا يجعلك سعيدًا بالمرّة؟ كُنْ *منطقيًّا*.

1 ـ يوم عطلة رسمية يحتفل به في المملكة المتحدة وكل الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء الولايات المتحدة، ومعظم دول الكومنولث، في 26 ديسمبر مِنْ كُلّ عام غداة عيد الميلاد، ويعرف أيضًا بـ«عيد القديس ستيفن»، ظهر في إنجلترا خلال العصور الوسطى. هناك تباين في النظريات حول أصل التسمية، وأكثرها شيوعًا هو أن التسمية جاءت لأنه في الزمن البعيد كانت الكنائس تضع صناديق في الخارج لجمع الهدايا للمحتاجين. بينما تقول فرضية أخرى مشابهة: إن التسمية جاءت لأن أصحاب المنازل كانوا يعطون الخدم صناديق فيها نقود وهدايا وطعام أحيانًا لأخذها لأسرهم يوم السادس والعشرين مِنْ ديسمبر، غداة عيد الميلاد. (المترجم).

2 ـ ويسكي الكريما الأيرلندي. (المترجم).

ماذا يمكن أَنْ تريد مِنْ ذلك؟» تبعته المساعِدة المنزليَّة في صُعودِ سُلَّمِ السَّندرة، مُسلَّحةً بنوعٍ مِنْ سائل التَّنظيف: «إِنَّها مكسورةٌ، أنتَ لا تحتاج إِلَى ذلك. هَلْ ترى؟ هَلْ ترى؟» أوصلَتها بالقابس وبرهنَت عَلَى تلف المفتاح... نزع آرشي القابس ولفَّ السِّلك حول الآلة. إذا كانت مكسورةً، فقَدْ أتَت معه. كُلُّ الأشياء المكسورة جاءت معه. كان ليصلح كُلَّ شيءٍ لعينٍ مكسورٍ في هذا البيت، حتَّى ولَوْ لكَيْ يُثبت - فقط - أنَّه يصلح لشيءٍ.

«أنتَ لا تصلح لشيءٍ!» تبعته سانتا أيًّا ما كان إِلَى أسفل الدَّرج مرَّةً أخرى. «زوجتك مريضةٌ في دماغها وهذا كُلُّ ما تستطيع أَنْ تفعله!»

ضمَّ آرشي المكنسة إِلَى صدره وأخذها إِلَى غرفة المعيشة المزدحمة، وتحت أنظار عدَّة أزواجٍ مِنَ الأعين، أخرج صندوق أدواته، وبدأ في العمل عليها.

«انظروا إليه،» قالت إحدى الجدَّات الإيطاليَّات، أكثرهنَّ جاذبيَّة بالأوشحة الكبيرة والشَّامات الأقلّ. «قَدْ يأخذ كُلَّ شيءٍ، *كابيش*[1]؟ قَدْ يأخذ عقلها، قَدْ يأخذ الخلّاط، قَدْ يأخذ الـ ستيريو القديم، قَدْ يأخذ كُلَّ شيءٍ ما عدا ألواح الأرضيَّة. إِنَّ ذلك يجعل أنتَ تشعر بالغثيان[2].»

هزَّت المرأة مِنَ المجلس الَّتي تشبه - حتَّى في الأَيَّام الجافَّة - قطًّا مُبلَّلًا طويل الشَّعر، رأسها في موافقةٍ. «إِنَّه أمرٌ مقرفٌ، لا تحتاجين لإخباري، إِنَّه مقرفٌ... وبالطَّبع، نحن الَّذين يتركوننا لترتيب الفوضى. إِنَّه هذا المعتوه هنا هو الَّذي يجب أَنْ ـــــ.»

تدخَّلت الممرِّضة: «لا يمكنها أَنْ تبقى هنا وحدها. هَلْ يمكنها؟... يتركها الآن بهذه الخِسَّة، يا لها مِنَ امرأةٍ مسكينةٍ... إِنَّها تحتاج إِلَى بيتٍ، إِنَّها تحتاج....»

إِنَّني هنا، شعر آرشي بالرَّغبة في أَنْ يقول، *إِنَّني هنا، أتعلمون، أنا هنا، اللَّعنة. وهذا الخلّاط لي.*

لكنَّه لَمْ يَكُنِ الشَّخص المناسب للمواجهة، آرشي. لقَدِ استمع إليهنَّ جميعهنَّ لخمس عشرة دقيقةً أخرى في صمتٍ، وهو يختبر امتصاص المكنسة لمزقٍ مِنْ جريدةٍ، حتَّى غلب عليه الإحساس بأَنَّ الحياة حقيبة ظهرٍ هائلةٌ وثقيلةٌ بصورةٍ مستحيلةٍ، وعلى الرَّغم مِنْ أَنَّ الأمر رُبَّما يعني فقدان كُلِّ شيءٍ، فقَدْ بدا مِنَ الأسهل بشكلٍ غير محدودٍ أَنْ يترك

1 - تعبير إيطالي بمعنى: أترى، أوْ هل تفهم؟ (المترجم).

2 - تعمدت الكاتبة استخدام أدوات النكرة a وخلل الأزمنة النحوية في حديث الجدة الإيطالية فيما أظنه للتدليل على ضعف إنجليزيتها. وهو ما حاولت إظهاره في بناء عبارتها. (المترجم).

كُلَّ الأمتعة هنا، عَلَى جانب الطَّريق، ويمضي في الظَّلام. *أنتَ لا تحتاج إِلَى الخلّاط، أيُّها الفتى آرشي، أنتَ لا تحتاج إِلَى المكنسة. تلك الأشياء كُلُّها أحمالٌ ثقيلةٌ. ضَعْ حقيبة الظَّهر فقط، يا آرش، وانضمَّ إِلَى معسكر السُّعداء في السَّماء.* هَلْ كان ذلك خطأً؟ مانحًا إحدى أذنيه إِلَى زوجته السَّابقة وأقارب زوجته السَّابقة، والأخرى لحشرجات المكنسة، بدا الأمر كما لَوْ أَنَّ النِّهاية قريبةٌ بدرجةٍ حتميَّةٍ. لَمْ يَكُنْ أَمرًا شخصيًّا تجاه الرَّبِّ أَوْ أيٍّ كان. بَلْ شعورًا يشبه نهاية العالم بالتَّحديد. وكان سيحتاج إِلَى أكثر مِنَ الويسكي الرَّخيص، وزينة رأس السَّنة، وصندوقٍ تافهٍ مِنْ حلويَّات كواليتي ستريت ـ بكُلِّ شخصيَّات حلوى الفراولة الهزليَّة ـ لكَيْ يقرِّر أَنْ يعبر إِلَى خريفٍ آخر.

أصلح المكنسة في صبرٍ، وكنس غرفة المعيشة بطريقةٍ غايةٍ في الغرابة، وهو يدفع بالفوُّهة إِلَى أكثر الأركان صعوبةً. ثُمَّ بطريقةٍ رسميَّةٍ، طوَّح عملةً معدنيَّةً (الرُّؤوس، حياة... والذُّيول، موتٌ)[1] ولَمْ يشعر بشيءٍ مُحدَّدٍ عندما وجد نفسه يحدِّق في الأسد الرَّاقص. فصل أنبوب المكنسة في هدوءٍ، ووضعه في حقيبةٍ، وغادر المنزل للمرَّة الأخيرة.

ولكنَّ الموت ليس بالأمر الهيِّن. لا يمكن للانتحار أَنْ يكون في قائمة الأشياء الَّتِي ينبغي القيام بها ما بين تنظيف مقلاة الشِّواء وضبط رِجْل الكنبة بقالبٍ مِنَ الطُّوب. إِنَّه القرار بالامتناع عَنْ، بعدم إتمام، قُبلةٍ في مهبِّ النِّسيان. وبغضِّ النَّظر عمَّا يقوله أَيُّ شخصٍ، فالانتحار يتطلَّب شجاعةً. إِنَّه للأبطال والشُّهداء، رجال الفَخَار الفِعليِّين. وليس آرشي أَيًّا مِنْ هؤلاء. فهو رجلٌ يمكن تقدير أهميته في المخطَّط الأعظم للأشياء مِنْ خلال نسبٍ مألوفةٍ:

الحصاة: الشاطئ
قطرة المطر: المحيط
الإبرة: كوم القش

وعلى ذلك، فقَدْ تجاهل ما قرَّرته العملة لعدَّة أيَّامٍ، واكتفى بالقيادة مع أنبوب المكنسة الكهربائيَّة في الجوار. ينظر في الأمسيات إِلَى السَّماء الجَهْمة عبر الزُّجاج الأماميِّ ويستعيد إدراكه لأبعاده الكونيَّة، وهو يستشعر ما يعنيه أَنْ تكون ضئيلًا جدًّا وبلا جذورٍ. فكَّر في الأثر الَّذِي قَدْ يُحدثه غيابُه عَنْ هذا العالم، وبدا ضئيلًا جدًّا، غايةً في الصِّغر إِلَى الحدّ الَّذِي لا يمكن حسابه. استهلك الدَّقائق الفائضة في التَّساؤل عمَّا إذا كانت «هوفر»

1 ـ يحمل أحد وجهي «الشلن» البريطاني صورة رأس الملك. بينما يظهر أسد بذيل فخور في ظهرها. (المترجم).

أصبحَت اصطلاحًا عامًا يدلُّ عَلَى المكانس الكهربائيَّة أَمْ أنَّها، كما يذهب آخرون، ليسَت سوى اسمٍ لعلامةٍ تجاريَّةٍ. وظلَّ أنبوبِ المكنسة ممدَّدًا طوال الوقت مثل ديكٍ مُترهِّلٍ في المقعد الخلفيِّ، يسخر من خوفه الهادئ، ويضحك مِنْ خطواته الَّتِي تشبه خطوات الحمام المشرف عَلَى الذَّبح، ويحتقر عجزه المتردِّد.

ثُمَّ، في 29 ديسمبر، ذهب لرؤية صديقه القديم صمد مياه إقبال. لَمْ يكُنْ مُنتَظرًا كرفيقٍ مناسبٍ، ولكنَّه ظلَّ أقدم صديقٍ لديه ـ مسلمٌ بنجاليٌّ، قاتَلَ إِلَى جواره عندما كان القتال واجبًا، والَّذِي ذكَّره بتلك الحرب؛ تلك الحرب الَّتِي ذكَّرَت بعض النَّاس بلحم الخنزير المقدَّد الدَّسِم والجوارب الملوَّنة، ولكنَّها استعادَت لدى آرشي طلقات البنادق وألعاب الورق ومذاق الخمور الأجنبيَّة الحادَّ.

«آرشي، يا صديقي العزيز،» قال صمد بنبراته الودودة الدَّافئة. «ينبغي أَنْ تنسى كُلَّ مشكلات هذه الزَّوجة. جَرِّب حياةً جديدةً. هذا هو كُلُّ ما تحتاجه. الآن، يكفينا مِنْ كُلِّ هذا: سأضع مثل شلناتك الخمسة وأزيدك خمسةً.»

جلسا في مُلتقاهما الجديد، قاعة أوكونيل، يلعبان البوكر بثلاث أيادٍ فقط، اثنتين لآرشي وواحدةٍ لصمد ـ لأنَّ يد صمد اليمنى شيءٌ معطوبٌ، بجلدٍ رماديٍّ، وساكنةٌ، ميِّتةٌ تمامًا باستثناء الدَّمِ الَّذِي يجري خلالها. كان المكان الَّذِي جلسا فيه، حيث يلتقيان كُلَّ ليلةٍ لتناول العشاء، نصف مقهًى ونصف صالة قمارٍ، مملوكًا لأسرةٍ عراقيَّة، يشترك الكثير من أفرادها في الحالة السَّيِّئة للبشرة.

«انظر إليَّ. لَقَدْ منحني الزَّواج مِنْ ألسانا هذه الفرصة الجديدة للحياة، هَلْ تفهمني؟ إنَّها تفتح لي إمكاناتٍ جديدةٍ. إنَّها شابَّةٌ جدًّا، ونابضةٌ جدًّا ـ مثلُ نفثةٍ مِنَ الهواء النَّقيِّ. أتيتَ إليَّ لأجل المشورة؟ هذه هي. لا تعش تلك الحياة القديمة ـ إنَّها حياةٌ معتلَّة، يا آرشيبالد. إنَّها لا تمنحك أيَّ خيرٍ. أيَّ خيرٍ عَلَى الإطلاق.»

نظر صمد إلى آرشي في تعاطفٍ جمٍّ، كونه استشعر حنانًا غامرًا تجاهه. لَقَدِ انقطعت صداقتهما في وقت الحرب لمدَّة ثلاثين عامًا مِنَ الانفصال عبر القارَّات، ولكنْ في ربيع 1973 جاء صمد إِلَى إنجلترا، رجلًا في منتصف العمر يبحث عَنْ حياةٍ جديدةٍ مع عروسه ذات العشرين عامًا، ضئيلة الحجم، ذات الوجه القمريِّ، ألسانا بيجوم، بعينيها اللَّمَّاحتين. ولأنَّه الرَّجل الوحيد الَّذِي عرفه صمد في تلك الجزيرة الصَّغيرة، سعى صمد، في نوبة حنينٍ، إِلَى آرشي، وانتقل

إلَى نفس منطقته الإداريَّة في لندن. وببطءٍ وإنَّما في ثباتٍ، تجدَّد نوعٌ مِنَ الصَّداقة بين الرَّجُلين.

«إنَّك تلعب مثل مخنَّث،» قال صمد، وهو يكشف الملكات الفائزة في تعاقبٍ. ويدفعها في حركةٍ واحدةٍ أنيقةٍ بإبهام يده اليسرى، لتسقط عَلَى الطَّاولة في هيئة مِروحةٍ.

«أنا مُسِنٌّ،» قال آرشي، وهو يلقي أوراق لعبه، «أنا مُسِنٌّ. مَنْ سوف تقبلني الآن؟ لقَدْ كان الأمر صعبًا بما يكفي لإقناع أيِّ شخصٍ في البدء.»

«هذا كلامٌ فارغٌ، يا آرشيبالد. أنت لَمْ تلتق حتَّى بالشَّخص المناسب بعد. أوفيليا هذه، يا آرشي، إنَّها ليست الشَّخص المناسب. مِمَّا فهمته منك، هي ليست حتَّى لهذا الزَّمان ـــــ.»

كان يشير إلَى جنون أوفيليا، الَّذِي قادها لأَنْ تعتقد، لنصف الوقت، أَنَّها خادمةٌ لكوزيمو دي ميديشي[1] عاشق الفنِّ الشَّهير في القرن الخامس عشر.

«لَقَدْ وُلِدَتْ، وعاشت ـ ببساطة ـ في الزَّمان الخطأ! ليس هذا يومها بالمرَّة! ورُبَّما ليست ألفيَّتها. لقَدْ داهمت الحياة الحديثة تلك المرأة تمامًا، بشكلٍ مفاجئٍ وإلى أقصى حدٍّ. لقَدْ ذهب عقلها. تَمَّ العبث به. وأنتَ؟ لقَدِ اخترتَ الحياة الخطأ في مرحاضٍ وعليكَ أَنْ تستعيدها. إلَى جانب ذلك، فهي لَمْ تباركك بأطفالٍ... والحياة بلا أطفالٍ، يا آرشي، ما جدواها؟ ولكنْ هناك فرصةٌ ثانيةٌ، أوه نعم، هناك فرصةٌ ثانيةٌ في الحياة. صدِّقني، أنا أعرف. لَقَدْ،» تابع، وهو يجرف 10 بنساتٍ بجانب يده المعطوبة، «كان ينبغي أَلَّا تتزوَّجها.»

بعد فوات الأوان، يا للسَّخافة، فكَّر آرشي. مِنَ اليسير دائمًا أَنْ تعرف بعد فوات الوقت.

في النِّهاية، وبعد يومين مِنْ هذه المناقشة، مع تباشير صباح العام الجديد، بلغ الألم مستوًى حادًّا حتَّى أَنَّ آرشي لَمْ يعد قادرًا عَلَى التشبُّث بنصيحة صمد. قرَّر عوضًا عنها أَنْ يقهر جسده، أَنْ ينتحر، أَنْ يحرِّر نفسه مِنْ مسارٍ قاده عبر العديد مِنَ المنعطفات الخاطئة، قاده عميقًا في العراء، ثُمَّ اختفى تمامًا في النِّهاية، التهمت الطُّيور آثار فتات الخبز الَّتِي تدلُّ عليه[2].

***

ما إنْ أخذَت السَّيَّارة تمتلئ بأوَّل أكسيد الكربون، حتَّى بدأ في معايشة تجربة

1 ـ كوزيمو دي ميديشي (27 سبتمبر 1389 ـ 1 أغسطس 1464): سياسي ومصرفي إيطالي وأول حكام فلورنسا من سلالة ميديشي الَّتِي سادتها معظم عصر النهضة الإيطالي؛ يعرف باسم «كوزيمو الأسن». (المترجم).

2 ـ إشارة إلى القصة الخيالية «هانسل وجريتل» للكاتبين الألمانيين الشهيرين الأخوين جريم. (المترجم).

التَّداعي الحرِّ الملازمة لحياته حتَّى تلك اللَّحظة. اتَّضح أنَّها تجربة مشاهدةٍ قصيرةٍ محبطةٍ، منخفضة المستوى بمقاييس التَّرفيه، هي المعادل الميتافيزيقيُّ لخطاب الملكة. طفولةٌ مملَّةٌ، وزواجٌ سيِّئٌ، ووظيفةٌ بلا مستقبلٍ - ذلك الثَّالوث الكلاسيكيُّ - الَّذي أصيب الجميع سريعًا به، في تقبُّلٍ، مع القليل مِنَ الكلام، وهم يشعرون بنفس ما شعروا به في المرَّة الأولى بطريقةٍ ما. لَمْ يكن مؤمنًا عظيمًا بالقَدَر، آرشي، إلَّا أنَّ الأمر بعد تأمُّلٍ بدا كما لَوْ أنَّ جهود الأقدار الخاصَّة كفلَت انتقاء حياته مثل هديَّةٍ مِنْ إحدى الشَّركات في عيد الميلاد - مبكِّرةً، وتشبه، تمامًا، هديَّة كُلِّ شخصٍ آخر.

هناك الحرب، بطبيعة الحال، لقَدْ كان في الحرب، في عامها الأخير فقط، بالكاد في عمر السَّابعة عشرةَ، ولكنَّ ذلك لا يكاد يحتسب. ليس عَلَى الخطوط الأماميَّة، لا شيء مِنْ هذا القبيل. هو وصمد، سام العجوز، الفتى سامي، لديهما حكاياتٌ قليلةٌ لتذكُّرها وحكايتها. بَلْ إنَّ آرشي لديه بعض الشَّظايا في ساقه لأيِّ شخصٍ قَدْ يهتم برؤيتها - ولكنَّ أحدًا لَمْ يفعل. لَمْ يرغب أحدٌ في الحديث عَنْ ذلك من جديدٍ. بدا الأمر مثل قدمٍ معطوبةٍ، أَوْ شامةٍ شائهةٍ. مثل شعر الأنف. يشيح عنه النَّاس. إذا قال أحدٌ لآرشي: *ماذا فعلتَ في الحياة، إذن؟* أَوْ *ما هي أهمُّ ذكرى لديكَ؟* حسنًا، فليساعده الرَّبُّ إذا أشار إِلَى الحرب: تفقد الأعين بريقها، وتُنقِّر الأصابع عَلَى المنضدة، ويَعرض الجميع شراء الجولة القادمة مِنَ المشروب. لا أحد فعلًا أراد أَنْ يعرف.

في صيف 1955، ذهب آرشي إِلَى شارع فليت وهو يرتدي أفخم حذاء «وينكل بيكرز»[1] لديه؛ لكَيْ يبحث عن عملٍ كمراسلٍ حربيٍّ. قال رجلٌ بمظهر المخنَّثين، ذو شاربٍ نحيفٍ وصوتٍ نحيلٍ: *أيَّة خبرات، يا سيِّد* جونز؟ وشرح آرشي. كُلَّ ما يخصُّ صمد. وكُلَّ ما يخصُّ دبَّابتهما «تشرشل»[2]. ثُمَّ إنَّ هذا المخنَّث استند إِلَى المكتب، بكُلِّ عجرفةٍ، وبكُلِّ رسميَّةٍ، وقال: *نحن بحاجةٍ إِلَى شيءٍ آخر غير مجرَّد مقاتلٍ في حربٍ، يا سيِّد* جونز. *خبرة الحرب ليست ذات صلةٍ فعلًا.*

وهكذا كان، أليس كذلك؟ لَمْ تكن هناك أهميَّةٌ للحرب - ليس في 1955، بَلْ وبشكلٍ

1 - نوع من أحذية الخمسينات تميز بمقدمته المدببة، ارتداه الرجال والنساء من معجبي موسيقى الروك آند رول في بريطانيا. (المترجم).

2 - دبابة مشاة بريطانية ثقيلة استخدمت في الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

أقلّ الآن في 1974. لا يهمُّ الآن أيَّ شيءٍ فعل. المهارات الَّتِي تعلَّمها ليسَت، بتعبيرٍ معاصرٍ، ذات صلةٍ، هي *غيرقابلةٍ للتَّدوير*.

هَلْ هناك شيءٌ آخر، يا سيِّد جونز؟

ولكنْ بالطَّبع ليس هناك أيُّ شيءٍ لتعينٍ آخر، لَقَدْ عرقله نظام التَّعليم البريطانيُّ في سخريةٍ مريرةٍ لسنواتٍ عديدةٍ سابقةٍ. ومع ذلك فقَدِ امتلك عينًا جيِّدةً لفحص أيِّ شيءٍ، وهيئة أيِّ شيءٍ، وهكذا انتهى به الأمر في وظيفةٍ في «مورجان هيرو» لعشرين عامًا ولا يزال في شركة طباعةٍ في «يوستون رود»، في تصميم الطَّريقة الَّتِي ينبغي تغليف الأشياء وفقها ـ أظرُف الرَّسائل، والبريد المباشر، والكتيِّبات الدِّعائيَّة، والنَّشرات ـ لَمْ يكنْ إنجازًا كبيرًا، رُبَّما، ولكنَّك ستجد دائمًا أشياء تحتاج إِلَى التَّغليف، تحتاج إِلَى الطَّيِّ، وإلا ستكون الحياة أشبه بصحيفةٍ مِنَ القطع الكبير: ترفرف في الرِّيح وعلى امتداد الشَّارع ما يجعلك تفقد الأقسام المهمَّة. ليس أَنَّ آرشي يملك الكثيرمِنَ الوقت لصحف القطع الكبير. إذا لَمْ يزعجوا أنفسهم في طيِّها بشكلٍ جيِّدٍ، فلماذا يجب أَنْ يزعج نفسه في قراءتها (هذا ما يريد أَنْ يعرفه)؟

وماذا أيضًا؟ حسنًا، لَمْ يكنْ آرشي دائمًا يطوي الأوراق. ففي أحد الأيَّام كان درَّاجًا في السِّباقات. ما أحبَّه آرشي في سباق الدَّرَّاجات هو الطَّريقة الَّتِي تذهب بها في جولةٍ إثر جولةٍ. جولةٍ وراء أخرى. وتمنح نفسك فرصةً وراء فرصةٍ لكَيْ تحسِّن نتيجتك، لكَيْ تحصل عَلَى دورةٍ أسرع، ولكَيْ تفعل ذلك كما ينبغي. باستثناء شيءٍ واحدٍ بخصوص آرشي، أَنَّه لَمْ يتمكَّن قطُّ مِنْ كسررقم 62.8 ثانيةً. الَّذِي كان توقيتًا جيِّدًا، حتَّى عَلَى المقياس العالميِّ. ولكنَّه عَلَى مدارثلاث سنواتٍ ظلَّ يحقق 62.8 ثانيةً في كُلِّ لفَّةٍ. اعتاد الدَّرَّاجون الآخرون أَنْ يأخذوا استراحةً لكَيْ يشاهدوه يفعل ذلك. يتكئون عَلَى درَّاجاتهم بمحاذاة المنحدرويحسبون توقيته بساعات المعصم في أياديهم الأخرى. 62.8 كُلَّ مرَّةٍ. هذا النَّوع مِنْ عدم القدرة عَلَى التَّحسُّن نادرٌ جدًّا في الواقع. هذا النَّوع مِنَ التَّطابق هو معجزةٌ، بطريقةٍ ما.

أحبَّ آرشي سباق الدَّرَّاجات، وكان جيِّدًا بشكلٍ مستمرٍّ فيه، كما أَنَّه وفَّر له النُّقود الكثيرة الوحيدة الَّتِي حصل عليها. في عام 1948، شارك آرشي جونزفي الألعاب الأولمبيَّة في لندن، مشتركًا في ثلاثة عشرموقعًا في الـ(62.8 ثانيةً) مع طبيب نساءٍ سويديٍّ يدعى هورست أيبلجوفتس. ولسوء الحظِّ فقَدْ تَمَّ حذف تلك الحقيقة مِنَ السِّجلَّات الأولمبيَّة مِنْ قبل

سكرتيرةٍ قذرةٍ عادت ذات صباحٍ بعد استراحة القهوة بشيءٍ آخر يشغل عقلها، وفوّتت اسمه وهي تنسخ قائمة إِلَى قطعةٍ أخرى مِنَ الورق. أسقطت مدام بوستريتي آرشي عِنْ ذراع الأريكة، ثُمَّ نسيت كُلَّ شيءٍ عنه. كان إثباته الوحيد عَلَى أَنَّ هذا الحدث وقع، مِنَ الأصل؛ هو الرّسائل الدَّوريَّة والتَّدوينات الَّتِي استلمها مِنْ أيبلجوفتس نفسه. تدويناتٌ مِنْ نوع:

17 مايو 1957

عزيزي آرشيبالد:

أرفق صورةً لزوجتي الطَّيِّبة وأنا في حديقتنا أمام موقع بناءٍ غير مبهجٍ نوعًا ما. مع أنَّه قَدْ لا يبدو مثل أركاديا، فالأمر هنا أنَّني أنشئ مضمارًا بسيطًا ـ ليس شيئًا مثل ذلك الَّذِي تسابقنا أنتَ وأنا عليه، ولكنَّه كافٍ لتلبية احتياجاتي. سوف يكون عَلَى نطاقٍ أصغر بكثيرٍ، ولكنْ كما ترى فهو للأطفال الَّذِين نسعى إِلَى إنجابهم. أراهم يحرِّكون البدَّال حوله في أحلامي وأستيقظ بابتسامةٍ رائعةٍ عَلَى وجهي! ما إِنْ يكتمل فنحن مصرُّون عَلَى أَنْ تزورنا. مَنِ الأفضل لتعميد هذا المضمار مِنْ منافسك القوي،

هورست أيبلجوفتس؟

والبطاقة البريديَّة الموضوعةُ عَلَى لوحة القيادة في ذلك اليوم تحديدًا، يوم موته تقريبًا:

28 ديسمبر 1974

عزيزي آرشيبالد:

سأبدأ عزف الهارب. هذا قرار العام الجديد، لَوْ شئت. قرارٌ متأخِّرٌ، أُدرك ذلك، لكنَّكَ لستَ كبيرًا جدًّا عَلَى تعليم الكلب العجوز بعض الحيل الجديدة، ألا تشعر بذلك؟ سأخبركَ، إِنَّها آلةٌ ثقيلةٌ ترتاح عَلَى كتفكَ، ولكنَّ صوتها ملائكيٌّ تمامًا وتظنُّني زوجتي مرهقًا جدًّا بسببها. الأمر أكثر بكثيرٍ ممَّا يمكن أَنْ تقوله بخصوص هَوَسِي القديم بالدَّرَّاجات! ولكنْ مع ذلك، فركوب الدَّرَّاجات لا يمكن أَنْ يفهمه إِلَّا فتًى كبيرٌ مثلكَ، يا آرشي، وبالطَّبع كاتب هذه التَّدوينة القصيرة، منافسكَ القديم،

هورست أيبلجوفتس

لَمْ يلتقِ هورست منذ السِّباق، ولكنَّه يتذكَّره بمحبَّةٍ كرجلٍ ضخم بشعرٍ أشقر مائلٍ للحمرة، ونَمَشٍ برتقاليّ، وأنفٍ غير مُنتظمٍ، دلَّت ملابسه عَلَى جَوّابِ آفاقٍ دوليّ، وبدَا ضخمًا جدًّا بالنِّسبة إِلَى درَّاجته. بعد السباق قاد هورست آرشي إِلَى حالة سكرٍ فظيعةٍ، وجلب عاهرتين مِنْ سوهو، بدا أَنَّهما تعرفان هورست جيّدًا («أقوم برحلات عملٍ كثيرةٍ إِلَى عاصمتكم الجميلة، يا آرشيبالد.» أوضح هورست). وكان آخر ما شاهده آرشي مِنْ هورست لمحةٌ غير مقصودةٍ مِن مؤخرته الورديَّة وهي تعلو وتهبط في الغرفة المجاورة في الشَّاليه الأوليمبي. وفي الصَّباح التَّالي، أثناء الانتظار في مكتب الاستقبال، كان خطاب هورست الأوَّل في مراسلاته الممتدَّة:

عزيزي آرشيبالد،

في واحةٍ مِنَ العمل والمنافسة، تكون المرأة حلوةً ومنعشةً فعلًا، ألا توافقني الرَّأي؟ أخشى أنَّني اضطررت إِلَى المغادرة مبكِّرًا للّحاق بموعد الطَّائرة المحتوم، ولكنَّني أؤكِّد عليك يا آرشي: لا تشعر بغربةٍ! إنَّني أفكِّر فينا الآن كرجلين متقاربين كما كُنَّا في النِّهاية! دعني أخبرك، أيًّا كان مَنْ قال إِنَّ الثلاثة عشر كانت نحسًا فهو أكثر حماقة مِنْ صديقك،

هورست أيبلجوفتس

ملاحظةٌ: *أرجو أَنْ تتأكَّد مِنْ وصول داريا وميلاني إِلَى البيت بخيرٍ وعافيةٍ.*

داريا هي الَّتِي كانت مِنْ نصيبه. غايةٌ في النَّحافة، بضلوعٍ تشبه مصائد سرطان البحر وبدون صدر يُذكر، ولكنَّها مِنْ نوعيَّةٍ محبَّبةٍ: لطيفةٌ وليّنةٌ بقبلاتها وبمعصميها ذوي المفاصل المزدوجة[1] اللَّذين تحبُّ عرضهما في زوجٍ مِنَ القفَّازات الحريريَّة الطَّويلة - تكلِّف أربعة كوبونات ملابس عَلَى الأقلِّ. «*أنا أحبُّك*» تذكَّر آرشي أَنْ يقول وهو لا يملك حيلةً، بينما هي تستبدل قفازاتها وتضع جواربها. التفتت نحوه وابتسمت. وعلى الرَّغم مِنْ أنَّها كانت محترفةً فقَدِ انتابه شعورٌ بأَنَّها أحبَّته أيضًا. رُبَّما كان ينبغي أَنْ يغادر معها وقتها، أَنْ يركض إِلَى التِّلال. ولكنْ في ذلك الوقت بدا الأمر مستحيلًا، مندفعًا بشكلٍ كبيرٍ، في وجود زوجةٍ صغيرةٍ حاملٍ (حملًا هستيريًّا كاذبًا، كما ظهر، مجرَّد بروزٍ ضخمٍ ممتلئٍ بالهواء السَّاخن) ومع ساقه المعوجَّة، وفي ظِلِّ ندرة التِّلال.

وللغرابة، فداريا كانت نبضة التَّفكير الأخيرة الَّتِي عبرَت آرشي قبيل غيابه مباشرةً

1 - مفاصل مرنة تنثني بصورة أكبر مِنَ المعتاد، في الاتجاهين، وهي متلازمة شائعة بين الأطفال والنساء. (المترجم)

عَنِ الوعي. فكَّر في عاهرةِ التقاها ذات مرَّةٍ منذ عشرين عامًا مضَتْ، داريا وابتسامتها ما جعلاه يغطِّي مريلة مُو بدموع الفرح، عندما أنقذ الجزَّار حياته. لقَدْ رآها في ذهنه: امرأةً جميلةً بنظرةٍ واعدةٍ عند أحد المداخل؛ ولاحظ أنَّه كان نادمًا لأنه لَمْ يستجب للدَّعوة. لَوْ كانت هناك أَيَّة فرصةٍ لأَنْ يرى تلك النَّظرة ثانيةً. فَقَدْ أرادها؛ تلك الفرصة الثَّانية، أراد الوقت الإضافيَّ. ليس تلك الثَّانية فقط، ولكن ما يليها وما يليها ـ وكُلَّ الوقت في العالم.

في وقتٍ لاحقٍ في ذلك الصَّباح، قام آرشي بأداء ثماني دوراتٍ بسيَّارته حول دوَّار الكوخ السويسريّ[1]، منتشيًا يطلُّ برأسه مِنَ النَّافذة، وتيارٌ مِنَ الهواء يضرب أسنانه ويرجرج شدقيه مثل جورب الرّيح[2]. وفكَّر: *ماذا بعد؟ إذن فهذا هو ما تشعر به عندما ينقذ فتًى ما حياتك. كما لَوْ أنَّك قَدْ تلقَّيتَ حزمةً هائلةً مِنَ الزَّمن للتَّو.* قاد في اتِّجاه شقَّته مباشرةً، متجاوزًا إشارات الطَّريق (هندون 3¾ ميل)، وهو يضحك مثل معتوهٍ. عند إشارة المرور طوَّح عملةً بعشرة بنساتٍ، وابتسم عندما بدت النَّتيجة متوافقةً مع أَنَّ مصيره يسحبه إِلَى حياةٍ أخرى. ككلبٍ في مقوده عند المنعطف. النِّساء، بشكلٍ عامٍّ، لا يستطعن ذلك، ولكنَّ الرِّجال لديهم تلك القدرة العتيقة عَلَى مغادرة الأسرة والماضي. إنَّهم فقط يحرِّرون أنفسهم، كما لَوْ كانوا يزيلون لحيةً زائفةً، ويتسلَّلون في حذرٍ إِلَى المجتمع من جديدٍ، كرجالٍ مختلفين. لا يمكن ملاحظتهم. وهكذا، فإنَّ آرشي جديدًا في طريقه إِلَى الظُّهور. لقَدْ ضبطناه متلبِّسًا. كونه في مزاجٍ يشبه الماضي البسيط والمستقبل التَّام[3]. هو في مزاجٍ يشبه *ربَّما هذا، وربَّما ذاك*. عندما اقترب مِنْ طريقٍ فرعيَّةٍ أبطأ مِنْ سرعته، وتحقَّق مِنْ وجهه غير المميَّز في مرآة الرُّؤية الخلفيَّة، وفي عشوائيَّةٍ تامَّةٍ اختار طريقًا لَمْ يقطعها مطلقًا مِنْ قبل، شارعًا سكنيًّا يقود إِلَى مكانٍ يدعى كوينز بارك. اذهب مباشرةً في طريقك *اذهب!* أيُّها الفتى آرشي، قال لنفسه؛ اجمع مائتين[4]، وبحق الآلهة لا تنظر إِلَى الوراء.

***

1 ـ الكوخ السويسري: منطقة إدارية شهيرة في لندن. (المترجم).

2 ـ محدد اتجاه الريح ويسمى أيضًا «جورب الريح» هو آلة أسطوانية مجوفة مِنَ القماش توضع على صارية لتحديد اتجاه الريح، وتوجد عادة في المطارات. (المترجم).

3 ـ مِنْ أزمنة الأفعال في الإنجليزية. (المترجم).

4 ـ التعبير مِنْ لعبة المونوبلي الشهيرة. (المترجم).

انتبه تيم ويستلي (المعروف أكثرباسم ميرلين)، في النِّهاية، إِلَى الرَّنين المستمرِّ لجرس الباب. حمل نفسه من عَلَى أرضِيَّة المطبخ، وخاض خلال محيطٍ مِنَ الأجساد المستلقية، وفتح الباب لكَيْ يواجه رجلًا في منتصف العمر مغطًّى مِنْ رأسه إِلَى قدميه في بذلة مضلَّعةٍ رماديَّةٍ، ويحمل عملةً معدنيَّةً بعشرة بنساتٍ في راحة يده المفتوحة. عندما يتذكَّر ميرلين واصفًا الحدث في وقتٍ لاحقٍ، فإِنَّ البذلة المضلَّعة نسيجٌ مُرهِقٌ جدًّا، في أيِّ وقتٍ مِنَ النَّهار. يرتديها محصِّلو الإيجار. ومحصِّلو الضَّرائب، أيضًا. ويضيف مدرِّسو التَّاريخ رُقَعًا جلديَّةً عند الكوع. أَنْ تُواجَه بكتلةٍ منها، في التَّاسعة صباحًا، في أوَّل أيَّام العام الجديد، لهو انبعاثٌ قاتلٌ لكمِّيَّةٍ هائلةٍ مِنَ الطَّاقة السَّلبيَّة.

«ما الأمر، يا رجل؟» حدَّق ميرلين على المدخل في الرَّجل ذي البذلة المضلَّعة الَّذِي وقف عَلَى عتبة بابه مغمورًا بشمس الشِّتاء السَّاطعة. «موسوعاتٌ أَمِ الرَّبُّ؟»

لاحظ آرشي أَنَّ الفتى لديه طريقةٌ عصبيَّةٌ في التَّأكيد عَلَى كلماتٍ بعينها بأَنْ يحرِّك رأسه في حركةٍ دائريَّةٍ واسعةٍ مِنَ الكتف اليُمنى إِلَى اليُسرى. ثُمَّ، عندما تتمُّ الدَّائرة، فإِنَّه سوف يومئ عدَّة مرَّاتٍ.

«لأَنَّه إذا كانت موسوعاتٍ فإِنَّ لدينا الكفاية منها، مثل، معلوماتٍ... وإذا كان الرَّبُّ، فقَدْ وصلتَ إِلَى المنزل الخطأ. نحن في مكانٍ للاسترخاء، هنا. هَلْ تفهم قصدي؟» خلص ميرلين، مؤدِّيًا حركة الإيماء، وهو يتحرَّك ليغلق الباب.

هزَّ آرشي رأسه، وابتسم، وظلَّ في مكانه.

«امم .. هَلْ أنت بخيرٍ؟» سأله ميرلين، ويده عَلَى مقبض الباب. «هَلْ هناك شيءٌ يمكنني أَنْ أفعله لك؟ هَلْ أنت منتشٍ بشيءٍ ما؟»

«لقَدْ رأيتُ لافتتكَ،» قال آرشي.

سحب ميرلين المصراع وبدا مستمتعًا. «تلك اللَّافتة؟» مال برأسه لَكَي يتبع نظرات آرشي. كانت ملاءات السَّرير البيضاءُ تتدَلَّى مِنَ النَّافذة العلويَّة. وفي وسطها، بحروفٍ كبيرةٍ بألوانِ قوس قزحٍ، مرسومٌ: **مرحبًا بكم في حفلة «نهاية العالم»، 1975.**

هزَّ ميرلين كتفيه. «نعم، للأسف يا رجل، يبدو أنَّها لَمْ تكن كذلك. مُخيِّبٌ ذلك للأمل بعض الشَّيء. ورُبَّما هو نعمةٌ،» أضاف في وِدٍّ، «يعتمد الأمر عَلَى زاويتك للرُّؤية.»

«نعمةٌ،» قال آرشي بشغفٍ. «نعمةٌ خالصةٌ، مئةٌ في المئة.»

«وهَلْ، امم، هَلْ أعجبتكَ اللَّافتة، إذن؟» سأل ميرلين، وهو يأخذ خطوةً إِلَى الوراء خلف عتبة الباب في حال إذا كان الرَّجل عنيفًا أَوْ مصابًا بالفصام. «هلْ أنتَ مهتمٌّ بهذا النَّوع مِنَ الأحداث؟ إِنَّها مُزحةٌ نوعًا ما، هَلْ ترى، أكثر منها أيَّ شيءٍ.»

«خطفَت عيني، يمكنكَ أَنْ تقول،» قال آرشي، وهو لا يزال مُبتهجًا كمجنونٍ. «كنت أقود بحثًا عَنْ مكانٍ ما، أتَعرِف، مكانٍ لأتناول شرابًا آخر، نهار السَّنة الجديدة، شعر الكلب[1] وما إِلَى ذلك - وبالإجمال فقَدْ واجهتُ صباحًا صعبًا بعض الشَّيء - وخطفَت عيني نوعًا ما. اقترعت إِلَى عملةٍ معدنيَّةٍ وفكَّرتُ: لِمَ لا؟»

بَدَا ميرلين في حيرةٍ أمام المنعطف الَّذِي أخذته المحادثة. «امم... لقَدْ أوشكت الحفلة عَلَى الانتهاء إِلَى حدٍّ كبيرٍ، يا رجل. بجانب ذلك، فأنا أظنك *متقدِّمًا* في العمر بعض الشَّيء... إذا فهمتَ قصدي...» هنا تحوَّل ميرلين إِلَى الرُّعونة؛ كان في جوهره تحت الدَّاشيكي[2] فتًى طيِّبًا مِنَ الطَّبقة المتوسِّطة، تَطَبَّع عَلَى احترام الأكبر منه. «أقصد،» قال بعد وقفةٍ صعبةٍ، «إنَّها لجمهورٍ أصغر في السِّنِّ ممَّا قَدْ تألفه، بعض الشَّيء. هي مُناسَبةٌ تخصُّ مجموعةً مشتركةً نوعًا ما.»

«*ولكنَّني كنتُ أكبر سنًّا بكثيرٍ عندها،*» غنَّى آرشي في مكرٍ، مُقتبِسًا أغنية ديلان[3] ذي العشر سنواتٍ، ومحنيًا رأسه نحو الباب، «*أنا أصغر مِنْ ذلك الآن.*»

أخذ ميرلين سيجارةً مِنْ خلف أذنه، وأشعلها، وعبس. «انظر، أيُّها الرَّجل... لا أستطيع السَّماح لأيٍّ كان مِنَ الشَّارع بالدُّخول، هل تعلم؟ أعني، رُبَّما تكون شرطيًّا، ويمكن أَنْ تكون مهووسًا، ويمكن أَنْ تكون ـــــ.»

1 ـ اصطلاح يقصد به الشراب الكحولي مِنْ نفس شراب الليلة السابقة، الذي يتناوله المرء لتجاوز الآثار الجانبية للشراب في الصباح التالي. وكان الأقدمون يتصورون أنه إذا عض الكلب أحدًا فإن وضع شعرات مِنْ ذيله في مكان العضة سيجعل المرء يتحسن. (المترجم).

2 ـ ثوب فضفاض بألوان صارخة... الاسم مِنَ اللغة السواحيلية. (المترجم).

3 ـ المطرب الأمريكي بوب ديلان (فاز بجائزة نوبل في الآداب لعام 2016). والمقصود أغنيته «صفحاتي الخلفية» مِنْ ألبومه «جانب آخر مِنْ بوب ديلان» 1964. (المترجم)

ولكنَّ شيئًا بخصوص وجه آرشي ـ الضَّخم، والبريء، والآمل في عذوبةٍ ـ ذكَّر تيم بما كان والده البعيد، الكاهن في سنيربروك، لا بُدَّ أنَّه سوف يقوله عَنِ الإحسان المسيحيِّ مِنْ عَلَى منبره كُلّ أحد. «أوه، ولِمَ لا. إنَّه يوم رأس السَّنة، بحقِّ اللَّعنة. مِنَ الأفضل أنْ تأتي إِلَى الدَّاخل.»

تجاوز آرشي ميرلين، ودلف إِلَى ممرٍّ طويلٍ ذي أربع غرفٍ بأبوابٍ مفتوحةٍ عَلَى جانبيه، وسلَّمٍ يؤدّي إِلَى طابقٍ آخر، وحديقةٍ في نهاية كُلِّ ذلك. وغطَّت الأرضيَّة بقايا مِنْ كُلِّ الأنواع ـ حيوانيَّةٍ ومعدنيَّةٍ وخضرواتٍ؛ وكتلةُ فراشٍ ضخمةٍ، رقد النَّاس تحتها نائمين، وتمدَّدوا مِنْ أحد جانبي الرُّدهة إِلَى الجانب الآخر، وبحرٌ أحمرُ ينشقُّ في كُلِّ مرَّةٍ يأخذ آرشي فيها خطوةً إِلَى الأمام. وفي داخل الغرف، في زوايا بعينها، كان يمكن مشاهدة آثار السَّوائل الجسديَّة: التَّقبيل، والرِّضاعة الطَّبيعيَّة، وممارسة الجنس، والقيء ـ كُلِّ الأشياء الَّتِي عرفها آرشي مِنْ خلال مُلحقه ليوم الأحد أمكن العثور عليها في تلك المستعمرة. استمتع للحظةٍ بفكرة دخول الملعب، وأنْ يفقد نفسه بين الأجساد (لديه كُلُّ هذا الوقت الجديد في يديه، كميَّاتٌ وكميَّاتٌ منه، تتسرَّب خلال أصابعه)، ولكنَّه قرَّر أنَّ مشروبًا قويًّا سيكون أفضل. عالج طريقه في الممرِ حتَّى وصل إِلَى الطَّرف الآخر مِنَ المنزل، وخرج إِلَى الحديقة الباردة، حيث البعض، ممَّن فقدوا الأمل في الحصول عَلَى مساحةٍ في المنزل الدَّافئ وآثروا العشب البارد. مع ويسكي بماء الصُّودا في ذهنه، توجَّه نحو طاولة النُّزهة، حيث بدا شكل ولون زجاجات جاك دانييل[1]، مثل سرابٍ ـ نوعًا ما ـ في صحراء مِنْ زجاجات النَّبيذ الفارغة.

«هَلْ تمانعون إذا أنا...؟»

جلس رجلان أسودان، وفتاةٌ صينيَّةٌ عارية الصَّدر، وامرأةٌ بيضاءُ ترتدي سترةً، متحلِّقين عَلَى مقاعد مطبخٍ خشبيَّةٍ، وهم يلعبون الورق. وما إنْ وصل آرشي إِلَى زجاجة الـ جاك دانييل، حتَّى هزَّت المرأة البيضاءِ رأسها وهي تطفئ سيجارةً.

«بحرٌ مِنَ التَّبغ، أخشى ذلك، يا عزيزي. يبدو أنَّ أحد الأوغاد أبناء الشَّيطان وضع كُلَّ سجائره في بعضٍ مِنَ الويسكي الرَّائع جدًّا. يوجد بيبي ـ تشم[2] وبعض (الزِّفت) الَّذِي لا يرحم هنا.»

1 ـ نوعية ويسكي أمريكي شهيرة ـ (المترجم).

2 ـ Babycham مشروب كحولي بريطاني.(المترجم).

ابتسم آرشي في امتنانٍ للتحذير والعرض اللَّطيف. أخذ مقعدًا وصبَّ لنفسه كأسًا كبيرةً مِنَ النَّبيذ الحلو[1] بدلاً منه.

عدَّة كؤوس بعدها، ولم يعد آرشي قادرًا عَلَى أَنْ يتذكَّر لحظةً في حياته قبل أَنْ يعرف كليف وليو، ووان سي وبترونيا، بشكلٍ وثيقٍ. مال بظهره، وتمكَّن بقطعةٍ مِنَ الفحم، أَنْ يذيب كُلَّ آثار القشعريرة حول حلمتي وان سي، وكُلَّ شعرةٍ شاردةٍ سقطَت عَلَى وجه بترونيا وهي تتحدَّث. عند 11:00 صباحًا أحبَّهم جميعهم بكُلِّ مشاعره، كانوا الأطفال الَّذِين لَمْ ينجبهم أبدًا. وفي المقابل، أخبروه أَنَّ لديه روحًا متفرِّدةً لشخصٍ في عمره. واتَّفق الجميع عَلَى أَنَّ هناك بعضًا مِنَ الكارما[2] الإيجابيَّة الكثيفة الَّتِي تغلِّف آرشي وتنبعث حوله، هذا النَّوع مِنَ الأشياء الَّذِي يدفع جزارًا لأَنْ ينزل نافذة سيَّارةٍ في اللَّحظة الحرجة. واتَّضح أيضًا أَنَّ آرشي أوَّل رجلٍ فوق الأربعين تتمُّ دعوته عَلَى الإطلاق لكَيْ ينضمَّ إِلَى المجموعة؛ اتَّضح أَنَّه كان هناك حديثٌ لبعض الوقت عَنِ الحاجة لحضور جنسيٍّ لِمَنْ هو أكبر لكَيْ يُشبع بعضًا مِنْ هؤلاء النِّساء الأكثر مغامرةً. «عظيمٌ.» قال آرشي. «رائع. ليكن ذلك أنا، إذن.» شعر أَنَّه قريبٌ جدًّا منهم، إِلَى الحدِّ الَّذِي جعله يشعر بالارتباك عندما ساءت علاقتهم فجأةً قرب منتصف اليوم، ووجد نفسه يعاني حرقةً مِنْ آثار الشَّراب ومتورِّطًا حتَّى ركبته في جدالٍ حول الحرب العالميَّة الثَّانية، وحول كُلِّ الأشياء.

«أنا لا أعرف حتَّى كيف وصلنا إِلَى هذا،» تذمَّرت وان سي، الَّتِي غطَّت نفسها أخيرًا، بالكاد عندما قرروا الانتقال إِلَى الدَّاخل، وتدلَّى جاكيت آرشي المضلَّع حول كتفيها الصَّغيرتين. «دعونا لا نخوض في هذا. أُفضِّل الذِّهاب إِلَى الفراش عَنِ الخوض في هذا.»

«نحن في قلب هذا، نحن بالفعل في هذا،» صرخ كليف. «هذه هي كُلُّ المشكلة مع جيله، إِنَّهم يظنُّون أَنَّه يمكنهم الصُّمود في الحرب، مثل بعض الـــــ.»

شعر آرشي بالامتنان عندما قاطع ليو كليف وسحب الجدال إِلَى جزئيَّةٍ أخرى غير الموضوع الأصليِّ، الَّذِي بدأه آرشي (بعض التَّعليقات غير الحكيمة لثلاثة أرباع ساعةٍ مضَت حول بناء الخدمة العسكريَّة لشخصيَّة شابٍّ ما) ثُمَّ شعر عَلَى الفور بالنَّدم عندما

1 ـ Liebfraumilch نبيذ ألماني أبيضُ.(المترجم).

2 ـ كارما هو مصطلح شائع في الديانات الهندية (الهندوسية والجينية السيخية والبوذية) ويطلق لفظ كارما على الأفعال الَّتِي يقوم بها الكائن الحي، والعواقب الأخلاقية الناتجة عنها. إنَّ أي عملٍ، خيرًا كان أَوْ شرًّا، وأي كان مصدره، فعل، قول أَوْ مجرد فكرة، لا بُدَّ أن تترتب عنه عواقب، ما دام قد نَتَج عن وعي وإدراك مسبوقين. وتأخذ هذه العواقب شكل ثمارٍ تنمو، وبمجرد أنْ تنضج تسقط على صاحبها، فيكون جزاؤه إمَّا الثواب وإمَّا العِقاب. (المترجم).

تطلَّب الأمر أَنْ يدافع عَنْ نفسه بشكلٍ مطَّردٍ. متحرِّرًا أخيرًا مِنْ ذلك الالتزام، جلس عَلَى الدرج، تاركًا الدَّرس يتواصل بالأعلى بينما وضع رأسه بين كفَّيه.

يا للعار. كان لَيحبُّ أَنْ يكون جزءًا مِنْ هذا المجتمع الصَّغير. لَوْ لعب أوراقه جيِّدًا، بدلًا مِنْ أَنْ يبدأ في التَّصرُّف بحماقةٍ، لرُبَّما حصل عَلَى حُبٍّ مجَّانيٍّ ونهودٍ عاريةٍ تملأ المكان؛ ولرُبَّما حتَّى عَلَى حصَّةٍ مِنْ حصص الحدائق[1] لاستزراع أغذيةٍ طازجةٍ. لبرهةٍ مِنَ الوقت (حوالي السَّاعة 2:00 ظهرًا، بينما يحكي لـ وان سي عَنْ طفولته) بدا الأمر كما لَوْ أَنَّ حياته الجديدة في طريقها لأَنْ تكون رائعةً، ومِنْ الآن فصاعدًا فإِنَّه سوف يقول الشَّيء المناسب دائمًا في الوقت المناسب، وفي أيِّ مكانٍ يذهبُ إليه سوف يحبُّه النَّاس. ليس ذلك خطأ أَيِّ أحدٍ، فكَّر آرشي، وهو يدرس عثراته، ليس خطأ أَيِّ أحدٍ سواي، ولكنَّه تساءل ما إذا كانت هناك نماذج أعلى لذلك. رُبَّما سيكون هناك دائمًا رجالٌ يقولون الشَّيء المناسب في الوقت المناسب، والَّذين يخطون إلى الأمام مثل ثيسبيس[2] في اللَّحظة المناسبة جدًّا مِنَ التَّاريخ، وبعد ذلك هناك رجال مثل آرشي جونز، الَّذين هم هناك ـ فقط ـ كـ «كمالة عدد». أَوْ، وهذا أسوأ، الَّذين يحصلون عَلَى فرصتهم الكبيرة ـ فقط ـ ليأتوا كما هو مقرَّرٌ ويلقَوا حتفهم هناك تمامًا، في قلب المسرح، كَيْ يراهم الجميع.

سوف يتمُّ الآن رسم خطٍّ مظلَّلٍ تحت الحادث بالكامل، تحت اليوم المؤسف بأكمله، لَمْ يحدث أَيُّ شيءٍ يقود إِلَى تحوُّل آرشي جونز في كُلِّ تفصيلةٍ يمكن للإنسان أَنْ يتغيَّر بشأنها؛ بسبب أَيِّ مجهودٍ بعينه مِنْ جانبه، ولكنْ بمفهومٍ عشوائيٍّ تمامًا، بالتَّصادم العَرَضيِّ بين شخصٍ وآخر. كان ذلك الحادث كلارا بودين.

ولكنْ لنضع وصفًا في البدء: كلارا بودين جميلةٌ بكُلِّ المقاييس باستثناء، رُبَّما، كونها سوداء. بشكلٍ كلاسيكيٍّ. كلارا بودين طويلةٌ بشكلٍ رائعٍ، سوداءُ كالأبنوس وفاتنة السَّواد، بشعرٍ مضفورٍ في هيئة حدوة حصانٍ توجِّهها نحو الأعلى عندما تشعر أَنَّها محظوظة، ونحو الأسفل عندما لا تفعل. في تلك اللَّحظة كانت نحو الأعلى. ومِنْ الصَّعب معرفة إذا كان لذلك مغزًى.

1 ـ حصص الحدائق: تتصف بتجمعها في مكان واحد وتشغل عدة أفدنة تخصصها مأمورية المحافظة لتوزيعها بالتأجير على بعض العائلات مِنَ السكان. تكثر مثل حصص الحدائق تلك في سويسرا وألمانيا حيث تقوم العائلة المنتفعة بزراعة حصة الحديقة الَّتي استأجرتها. (المترجم).

2 ـ أبو التراجيديا بحسب أرسطو الذي أوجد فكرة التمثيل، بعد أَنْ كانت الأحداث تروى على لسان رئيس الكورس. (المترجم).

لَمْ تكن بحاجةٍ إِلَى حمَّالة صدرٍ - كانت مستقلَّةً، حتَّى تجاه الجاذبيَّة الأرضيَّة - ارتدَت بلوزةً حمراءَ توقَّفت تحت صدرها، ومِنْ تحتها ظهرت سرَّتُها (في جمالٍ) وتحت ذلك بعض الجينز الأصفر الضَّيق جدًّا. وفي نهاية كُلِّ ذلك صندلٌ مِنْ جلد الغزال البُنِّيِّ الفاتح، هبطت به السُّلَّم في خطواتٍ واسعةٍ كنوعٍ مِنَ الرُّؤيا، أَوْ، كما بدا الأمر لآرشي عندما التفت لكَيْ يلاحظها، كفرسٍ أصيلةٍ جامحةٍ.

الآن، كما فهم آرشي الأمر، في الأفلام، وكما يبدو أَنَّه معتادٌ لدى بعض النَّاس أَنْ يكونوا رائعين إِلَى الحدِّ الَّذِي تصمت الحشود فيه، عندما يهبطون عَلَى السُّلَّم. لَمْ يرَ ذلك في الحياة أبدًا. ولكنَّه حدث مع كلارا بودين. لقَدْ هبطَت عَلَى السَّلالم في حركةٍ بطيئةٍ، محاطةً بالشَّفق والإضاءة الغامضة. ولَمْ تكنْ فقط أجمل شيءٍ رآه في المطلق، وإِنَّما أيضًا أكثر امرأةٍ مريحةٍ التقى بها قطُّ. لَمْ يكن جمالها تجاريًّا صارخًا، أَوْ باردًا. بَلْ كانت تفوح برائحةٍ رطبةٍ، أنثويَّةٍ، تشبه كومةً مِنْ ملابسك المفضَّلة. وعلى الرَّغم مِنْ عدم تناسقها جسديًّا - يتحدَّث ساقاها وذراعاها بلهجة تختلف بعض الشَّيء عَنْ جهازها العصبيِّ المركزيِّ - وحتَّى بمظهرها الطَّويل فقَدْ بدت لآرشي أنيقةً بشكلٍ استثنائيٍّ. ارتدَت أنوثتها في بساطة امرأةٍ أكبر سنًّا، وليس (مثل معظم الفتيات اللَّائي تعرَّف آرشي بهنَّ في الماضي) مثل حقيبة يدٍ تُسبِّب الحرج، لا تعرف أَبدًا كيف تحملها، ولا أين تعلِّقها، أَوْ متى تضعها جانبًا فقطْ.

«ابتهج، يا فتًى،» قالت في لهجةٍ غنائيَّةٍ كاريبيَّةٍ ذكَّرت آرشي بلاعب الكريكت الجامايكيِّ ذاك: «رُبَّما لا يحدث ذلك أبدًا.»

«أظنُّه حدث بالفعل.»

شاهد آرشي، الَّذِي أسقط مِنْ فمه للتَّوِّ سيجارةً تلتهم نفسها عَلَى أيِّ حالٍ حتَّى الموت، كلارا تطأها سريعًا بقدمها. منحَته ابتسامةً واسعةً، كشفَت عَنِ العيب الوحيد فيها؛ نقصٍ كاملٍ في الأسنان العلويَّة مِنْ فمها.

«يا رجل... لقَدْ نالوا ضربةً قاضيةً،» قالت بلثغةٍ، وهي ترى دهشته. «ولكنَّني أفكِّر مع نفسي: عندما تأتي نهاية العالم، فإِنَّ الرَّب لَنْ يمانع إذا لَمْ تكنْ لديَّ أسنانٌ.» ضحكَت في نعومةٍ. «آرشي جونز،» قال آرشي، وهو يعرض عليها سيجارةً مارلبورو.

«كلارا.» صفرَت بلا هدفٍ وهي تبتسم وتستنشق الدُّخان. «آرشي جونز، أنتَ تبدو تقريبًا تمامًا كما أظنُّ. هَلْ تحدَّث كليف وهؤلاء النَّاس بالحماقات معك؟ كليف، هَلْ كنت تعبث مع هذا الرَّجل المسكين؟»

نخر كليف ـ وقَدِ اختفَت ذكرى آرشي بالكامل مِنْ تأثير النَّبيذ ـ وأكمل مِنْ حيث توقَّف، مُتَّهِمًا ليو بعدم فهم الفارق بين التَّضحية السِّياسيَّة والجسديَّة.

«أوه، لا... ليس شيئًا خطيرًا،» غمغم آرشي، بلا حيلةٍ أمام وجهها الرَّائع. «القليل مِنْ عدم التَّوافق، هذا كُلُّ شيء. كليف وأنا لدينا رؤًى مختلفةٌ حول القليل مِنَ الأشياء. فجوةٌ بين الأجيال، عَلَى ما أَفترض.»

ضربَته كلارا عَلَى يده. «اخرس! أنتَ لستَ مسنًّا إِلَى هذا الحدِّ، لقَدْ رأيت مَنْ هم أكبر.»

«أنا كبيرٌ بما يكفي،» قال آرشي، وبعدها، فقط بسبب شعوره بالرَّغبة في إخبارها، «لَنْ تصدِّقيني، ولكنَّني اليوم مِتُّ تقريبًا.»

رفعت كلارا أحد حاجبيها. «لا تقلْ لي. حسنًا، تعال وانضمَّ إِلَى النَّادي. هناك الكثير لدينا بخصوص هذا الصَّباح. يا لها مِنْ مجموعةٍ غريبةٍ هذه. أتعرِف،» قالت، وهي تمرِّر يدًا طويلةً عبر المساحة الصَّلعاء في رأسه، «إِنَّك تبدو بخيرٍ إِلَى حدٍّ كبيرٍ بالنِّسبة إِلَى شخصٍ كان عَلَى بوَّابة سانت بيتر[1]. هَلْ تحتاج إِلَى نصيحةٍ؟»

أومأ آرشي بقوَّةٍ. لقَدْ أراد النَّصيحة دائمًا. لقَدْ كان معجبًا كبيرًا بالآراء الأخرى. ولهذا فلَمْ يكنْ يذهب إِلَى أيِّ مكانٍ بدون عُملةٍ معدنيَّةٍ بعشر بنساتٍ.

«اذهب إِلَى البيت، واحصل عَلَى بعض الرَّاحة. وفي الصَّباح عالمٌ جديدٌ، كُلَّ مرَّةٍ. يا رجل. هذه الحياة ليسَت سهلةً!»

إلى أيِّ بيتٍ؟ فكَّر آرشي. لقَدْ أفلت حياته القديمة، ويسير نحو وجهةٍ مجهولةٍ.

«يا رجل...» كرَّرت كلارا، وهي تربِّت عَلَى ظهره، «هذه الحياة ليسَت سهلةً!»

أطلقت صفيرًا طويلًا آخر وضحكةً حزينةً، وما لَمْ يكن في طريقه إِلَى الجنون فعلًا، فقَدْ رأي آرشي تلك النَّظرة المغوية، المطابقة لنظرة داريا؛ مشوبةً بنوعٍ مِنَ الحزن، وخيبة الأمل؛ كما لَوْ لَمْ يكنْ لها قدرٌ كبيرٌ مِنَ الخيارات الأخرى. كانت كلارا في التَّاسعة عشرةَ. وكان آرشي في السابعة والأربعين.

وبعد ستَّة أسابيع تزوَّجا.

1 ـ البوابات اللؤلؤية هو اسْم غير رسمي للمعبر إلى السماء وفقًا لبعض الطوائف المسيحية. وهو مستوىً مِنْ وصف أورشاليم الجديدة في سفر الرؤيا: الاثنا عشرَ بابا اثنتا عشرةَ لؤلؤة كُلّ واحد مِنَ الأبواب كان مِنْ لؤلؤة واحدة (21:21). وصورة البوابات في الثقافة الشعبية هي مجموعة من البوابات الضخمة، بيضاءَ أَوْ معدنيةً في السحاب، يحرسها سانت بيتر (حارس «مفاتيح المملكة»). (المترجم).

الفصل الثَّاني
متاعب التَّسنين

لكنَّ آرشي لَمْ يلتقط كلارا بودين مِنْ فراغٍ. إنَّها مسألة وقتٍ قبل أَنْ يقول النَّاس الحقيقة حول النِّساء الجميلات. هُنَّ لا يومضن في بئر السُّلَّم. هُنَّ لا يهبطن، كما افترض ذات مرَّةٍ، مِنَ الأعالي، غير متعلِّقاتٍ بشيءٍ سوى الأجنحة. كلارا كانت مِنْ مكانٍ ما. لديها جذورٌ. وبشكلٍ أكثر تحديدًا، فهي مِنْ لامبيث (عن طريق جامايكا) وهي مرتبطةٌ، مِنْ خلال اتِّفاقٍ ضمنيٍّ لمراهقَين، بـريان توبس. لأنَّه قبل أَنْ تكون كلارا جميلةً كانت قبيحةً. وقبل أَنْ يكون هناك كلارا وآرشي كان هناك كلارا وريان. ولَمْ يكنْ هناك مهربٌ مِنْ ريان توبس. فكما يحتاج مؤرِّخٌ جيِّدٌ - بالكاد - لملاحظة طموحاتْ هتلر النَّابوليونيَّة في الشَّرق حتَّى يفهم عدم رغبته في اجتياح البريطانيِّين في الغرب، كان ريان توبس ضروريًّا لأيِّ فهمٍ بخصوص لماذا فعلت كلارا ما فعلت. ريان لا غنًى عنه. لقَدْ كان هناك كلارا وريان لثمانية شهورٍ قبل أَنْ تنجذب كلارا وآرشي إِلَى بعضهما مِنَ الطَّرفين المتقابلين للسُّلَّم. وربَّما لَمْ تكن كلارا لتركض إِلَى ذراعي آرشي جونز ما لَمْ تكن تركض، بأسرع ما تستطيع فعلًا، كَيْ تبتعد عَنْ ريان توبس.

المسكين ريان توبس. كتلةٌ مِنَ الخصائص الجسمانيَّة سيِّئة الحظِّ. نحيفٌ جدًّا وطويلٌ جدًّا، أصهب، مصابٌ بتسطُّح القدم، وممتلئٌ بالنَّمش إِلَى الحدِّ الَّذي كان جلده معه أكثر ندرةٍ مِنَ النَّمش. توهَّم ريان أنَّه عَلَى الموضة إِلَى حدٍّ ما. ارتدى بذْلاتٍ رماديَّةً تفتقد إِلَى التَّناسق مع كنزاتٍ سوداء ذات رقبةٍ. وبينما كان باقي العالم يكتشفون متعة الأورج الإلكترونيِّ، أقسم ريان عَلَى الولاء للرِّجال الصغار ذوي الجيتارات الضَّخمة: للـ«كِنكس»[1]، و«الوُجُوه الصَّغيرة»[2]، والـ«هُو»[3]. يركب ريان توبس فيسبا جي إس

1 - الكنكس، وتعني «مكامن الخلل» فرقة موسيقى روك بريطانية تكونت في مكسويل هيل، شمالي لندن، مِنْ قِبل الأخوين ديف دايفيس وراي دايفيس مع بيت كويف في 1963. وبدأت الفرقة تحقق شهرة كبيرة في منتصف الستينات. (المترجم).

2 - وُجُوه صغيرة: فرقة إنجليزية لموسيقى الروك مِنْ لندن. تأسست الفرقة في عام 1965 مِنْ قبل الأعضاء ستيف ماريوت، وروني لين، وكيني جونز، وجيمي وينستون، على الرغم مِنْ أنه بحلول 1966 حل إيان مكلاجان بدلًا مِنْ وينستون كعازف أورج في الفرقة. (المترجم).

3 - فرقة بريطانية لموسيقى الروك تأسست في عام 1964. (المترجم).

بخاريَّةً خضراءَ، يلمّعها مرّتين في اليوم بحفّاض أطفالٍ ويُبقيها مُغطّاةً في درعٍ حديديَّةٍ مموَّجةٍ مصنوعةٍ خصّيصًا. بالنِّسبة إلى طريقة ريان في التَّفكير فالفيسبا ليست مجرَّد وسيلة مواصلاتٍ، وإنَّما أيديولوجيا، وعائلةٌ، وصديقةٌ، وحبيبةٌ. كُلُّ ذلك في نموذجٍ واحدٍ لهندسة الأربعينات المتأخِّرة.

وكما قَدْ يتوقَّع المرء فلَمْ يكن لـ ريان توبس الكثير مِنَ الأصدقاء.

كانت كلارا بودين، في سنِّ السَّابعة عشرةَ، طويلةً ونحيلةً، لديها ضبٌّ، وإحدى شهود يَهْوَه[1]، ووجدت في ريان روحًا تشبهها. كمستبصرةٍ أنثويَّةٍ مراهقةٍ نموذجيَّةٍ، عرفَت كُلَّ شيءٍ يمكن معرفته بخصوص ريان توبس قبل فترةٍ طويلةٍ مِنْ حديثهما معًا. عرفَت الأساسيَّات: نفس المدرسة (مدرسة سانت جود الأهليَّة، في لامبيث)، ونفس الارتفاع (ستَّة أقدامٍ وبوصةٍ واحدةٍ)؛ عرفَت أنَّه، مثلها، لَمْ يكن أيرلنديًّا، ولا رومان كاثوليك، الأمر الَّذِي جعلهما جزيرتَين عائمتَين في المحيط البابويِّ لسانت جود. التحقا بالمدرسة مُصادفةً بالنَّظر إلَى عنوانَيهما البريديَّين، وتمَّ نبذهما مِنْ قِبَل المدرّسين والطَّلبة عَلَى السَّواء. عرفَت اسم درَّاجته، قرأَت عناوين ألبوماته الأهمِّ عندما برزَت عن حافَّة حقيبته. حتَّى أنَّها عرفَت أشياء عنه لَمْ يكن هو يعرفها: ومثالًا، فلقَدْ عرفَت أنَّه *آخر رجلٍ عَلَى الأرض*. هناك واحدٌ في كُلِّ مدرسة، وفي مدرسة سانت جود، كما في مقاعد الدِّراسة الأخرى، فالفتيات هن اللائي يخترن هذا اللقب، ويوزِّعنه. وهناك، بطبيعة الحال، تفاوتات:

السَّيِّد: *ولَوْ بمليون جنيهٍ.*

السَّيِّد: *ولَوْ لكَيْ أنقذ حياة أُمِّي.*

السَّيِّد: *ولَوْ لأجل السَّلام العالميِّ.*

لكنْ، في العموم، فقَدِ احتفظَت فتيات سانت جونز بوصفةٍ مجرَّبةٍ ومُختَبرةٍ. وعلى الرَّغم مِنْ أَنَّ ريان لَمْ يكن ليطَّلع عَلَى محادثات غرف تغيير ملابس الفتيات في المدرسة، فإنَّ كلارا كانت تعرف. عرفَت كيف يُناقش موضوع شغفها، أنصتَت باهتمامٍ، وعرفَت ما هي قيمته عندما نصل إلَى الأمر، عرفَت بين العرق وحمَّالات الصَّدر في التَّدريب، وفي النَّفض الحادِّ للمناشف المبلَّلة.

1 ـ إحدى الطوائف المسيحية الَّتِي لا تعترف بالطوائف الأخرى وتقوم عقيدتها على انتظار عودة المسيح وشهود قيام مملكة يَهْوَه على الأرض. (المترجم).

«يا للمسيح، أنتنَّ لا تُنصتن. أقول: حتَّى ولَوْ كان آخر رجلٍ عَلَى الأرض.»

«ما زلتُ لَنْ أفعل.»

«هراء، ستفعلين.»

«ولكنِ انصتي: الجميع جرحى، العالم ضربَته قنبلةٌ، كما في اليابان، أليس كذلك؟ وجميع الرِّجال الوسيمين، جميع *الخيّالة* مثل رجلك نيكي ليرد[1]، ماتوا. لقَدِ احترقوا جميعًا حتَّى تحمَّصوا. وكُلُّ ما تبقَّى هوريان توبس وحفنةٌ مِنَ الصَّراصير.»

«في حياتي سأفضِّل أَنْ أنام مع الصَّراصير.»

تساوت شعبيَّة ريان المنعدمة في مدرسة سانت جود - فقط - مع شعبيَّة كلارا. في أوَّل أيَّامها في المدرسة شرحت لها أُمُّها أَنَّها عَلَى وشك الدُّخول إِلَى مخبأ الشَّيطان، وملأَت حقيبتها بمئتي نسخةٍ من برج *المراقبة*[2]، ووجَّهتها لكَيْ تذهب وتُنجز عمل الرَّبِّ. أسبوعًا بعد أسبوعٍ تنقَّلت خلال المدرسة، برأسٍ مشدودٍ نحو الأرض، وهي توزِّع المجلَّات، وتغمغم: «يَهْوَه وحده الحافظ؛» في مدرسة يمكن لبثرةٍ شديدة الإثارة فيها أَنْ ترسلك إِلَى كوفنتري[3]، فإِنَّ مُبشِّرةً سوداء بطول ستَّة أقدامٍ بجوارب حتَّى الرُّكبة، تسعى لتحويل ستُّمئة كاثوليكيٍّ إِلَى كنيسة شهود يَهْوَه تعادل نوعًا مِنَ الجذام الاجتماعيِّ.

كان ريان - إذنْ - أحمرَ مثل جذر البنجر. وكلارا سوداء مثل حذائكَ طويل الرَّقبة. كان النَّمش لدى ريان حلمًا ممتعًا لعشَّاق رسوم *الوصل ما بين النِّقاط*. ويمكن لكلارا أَنْ تقشِّر تفَّاحةً بأسنانها الأماميَّة قبل أَنْ يجد لسانها أَيَّ طريقٍ إليها. حتَّى الكاثوليك ما كانوا ليغفروا لهما ذلك (والكاثوليك يمنحون المغفرة بنفس النِّسبة الَّتي يمنح السِّياسيُّون الوعود بها، وتمنح العاهرات أنفسهنَّ): ولَمْ تكن سانت جود، الَّتي قطعت طريقًا وَعِرةً منذ ابتداء القرن في رعاية الحالات الميئوس منها (بالنظر إِلَى التَّشابه النَّغميِّ بين جود ويهوذا)، جاهزةً بالمرَّة للتورُّط في الأمر.

*

1 - نيكولاس ليرد: روائي وشاعر من أيرلندا الشمالية، ولد عام 1975، من مؤلفاته: «القرد الطلق»، و«نحو خطأ»، «لغرض ما»، و«خطأ جلوفر»، و«التأثيرات والثيمات». (المترجم). وهو زوج الروائية زادي سميث منذ 2004. (المترجم).

2 - مجلة تصدر عن جماعة شهود يَهْوَه في 209 لغات للدعوة إلى مملكة يَهْوَه على الأرض، وتوزع مجانًا. (المترجم).

3 - مدينة بريطانية يأتي ترتيبها رقم 12 في مدن بريطانيا مِنْ حيث المساحة، وتشتهر بكاتدرائيتها الأشهر. (المترجم).

في الخامسة مِنْ كُلِّ يومٍ، وبينما تجلس كلارا في بيتها، تصغي إِلَى رسالة الإنجيل، أَوْ تؤلِّف منشورًا يدين الممارسة الوثنيَّة لِنقل الدَّم، كان ريان توبس يقود درَّاجته بجوار نافذتها المفتوحة في طريقه إِلَى البيت. كانت غرفة معيشة آل بودين تحت مستوى الشَّارع (بدرون)، وبها قضبانٌ عَلَى نافذتها، ولذا بجميع المشاهد جزئيَّةٌ عمومًا، وأمكنها أَنْ ترى أقدامًا، وعجلاتٍ، وعوادم سيَّاراتٍ، ومظلَّاتٍ متأرجحةً. مثل تلك اللَّمحات البسيطة غالبًا ما تشي: يمكن للخيال الحيِّ أَنْ يولِّد الكثيرمِنَ الأسى تجاه الدَّانتيلا البالية، والجورب المرتَّق، والحقيبة المتهدِّلة، الَّتِي شهدَت أيَّامًا أفضل، والَّتِي تتأرجح متدلِّيةً. ولكنْ لَمْ يؤثِّر شيءٌ فيها بشكلٍ أعمق مِنَ التَّحديق بعد زوال عوادم درَّاجة ريان. ومع افتقادها لما يمكن أَنْ تدعو به تلك القرقرات المخاتلة الَّتِي تشعر بها أسفل بطنها في تلك الحالات، أطلقَت كلارا عليها اسم روح الرَّب. شعرَت أَنَّها بطريقةٍ ما سوف تنقذ ريان توبس مِنْ وثنيَّته. أرادَت كلارا أَنْ تجعل هذا الفتى قريبًا مِنْ صدرها، أَنْ تخلِّصه مِنَ الإغواء الَّذِي يعصف بنا في كُلِّ مكانٍ، وأَنْ تعدَّه ليوم فدائه. (ثُمَّ أَلَم يكن هناك في مكانٍ ما، أدنى مِنْ بطنها - في الأسفل، في المنطقة الَّتِي لا يمكن الإشارة إليها - ذلك الأمل بنصف اقتناعٍ في أَنَّ ريان توبس رُبَّما *يخلِّصها*؟).

وإذا ضبطَت هورتنس بودين ابنتها جالسةً في حزنٍ بجوار النَّافذة المحميَّة بالقضبان، تنصت إِلَى حشرجاتٍ متباعدةٍ لمحرِّكٍ بخاريٍّ، بينما صفحات الكتاب المقدَّس الجديد تتقلَّب مع النَّسائم، فإِنَّها كانت تصفع جانب رأسها وهي تذكِّرها بأَنَّ 144000 فقط مِنْ شهود يَهْوَه سوف يجلسون في محكمة الرَّبِّ يوم الحساب. وضمن هذا العدد مِنَ الخلصاء ليس هناك مكانٌ لابن حرامٍ فرضويِّ الهيئة عَلَى درَّاجة بخاريَّة.

«لكنْ ماذا لَوْ خلَّصنا ـــ.»

«بعض النَّاس،» تؤكِّد هورتنس مع شخرةٍ، «لديهم كَمٌّ هائلٌ مِنَ الآثام. لقَدْ تأخَّر الأمر بالنِّسبة إليهم للاهتمام بيَهْوَه. الأمر يتطلَّب جهدًا للاقتراب مِن يَهْوَه. يتطلَّب إخلاصًا وتفانيًا. *طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ.* مَتَّى 5:8. أليس كذلك، يا داركوس؟»

داركوس بودين، والد كلارا، رجلٌ مُحتضَرٌ، في أرذل العمر، برائحةٍ نتنةٍ، يسيل اللُّعاب مِنْ فمه، مدفونًا في كرسيٍّ ذي ذراعَين يسكنه البقُّ، لَمْ يره أحدٌ يتحرَّك مِنْ فوقه مطلقًا، ليس حتَّى، والفضل للقسطرة، لزيارة المرحاض في الخارج. جاء داركوس إِلَى بريطانيا قبل أربعة عشر عامًا، وقضى معظم تلك الفترة في الزَّاوية البعيدة لغرفة

المعيشة، يشاهد التّليفزيون. كانت النِيَّة في الأصل أَنْ يأتي إِلَى إنجلترا ويكسب مالًا كافيًا لكَيْ يُمكِّن كلارا وهورتنس مِنَ الحضور، والانضمام إليه، والاستقرار معه. ومع ذلك، ولدى الوصول، عانى داركوس بودين مرضًا غامضًا. مرضًا لَمْ يستطع أيُّ طبيبٍ معرفة أيٍّ مِنْ أعراضه الجسديَّة، ولكنَّه تجلَّى في حالةٍ لا تصدَّق مِنَ النُّعاس، خلقت في داركوس - وهوليس أكثر الرّجال حيويَّةً، كما يقرِّر الجميع - حاجةً دائمةً إِلَى المساعدة، إِلَى الكرسيّ، وإلى التِّليفزيون البريطانيّ. وفي 1972، غاضبةً مِنْ 14 عامًا مِنَ الانتظار، قرَّرَت هورتنس أخيرًا أَنْ تقوم بالرِّحلة بجهدها الشّخصيّ. والجهد كان شيئًا تملكه هورتنس بوفرةٍ. وصلت إِلَى عتبة الباب هي وكلارا ذات السِّتَّة عشر عامًا، حطَّمت الباب في غضبٍ، وطبقًا لما بلغته الأسطورة في سانت إليزابيث - جلدت داركوس بلسانها عَلَى حياته كاملةً. قال بعضهم إنَّ هذا التّوبيخ استمرَّ أربع ساعاتٍ، وقال بعضٌ آخر إنَّها اقتبست مِنْ كُلِّ فصلٍ في الكتاب المقدَّس مِنَ الذّاكرة، وإنَّ ذلك استغرق نهارًا كاملًا وليلةً كاملةً. الأمر الأكيد أنَّ داركوس انزلق، في نهاية ذلك كُلِّه، عميقًا في تجويف كرسيّه، ونظر في أسى إِلَى التِّليفزيون الَّذِي كانت بينه وبينه علاقة تفهُّمٍ وحنانٍ - بلا أيِّ تعقيدٍ، وبكُلِّ المودَّة البريئة - وانعصرت دمعةٌ خارج قناتها لتستقرَّ عَلَى وجنته. ثُمَّ قال كلمةً واحدةً: همف.

همف هي كُلُّ ما قاله داركوس أَوْ ما سيقوله في المطلق بعدها. اسأل داركوس عَنْ أيِّ شيءٍ؛ اِستَعلِمْ منه عَنْ أيِّ موضوعٍ في أيِّ ساعةٍ مِنَ النَّهار أَوِ اللَّيل؛ اِستجوبه؛ دردشْ معه؛ توسَّلْ إليه؛ اعلن عَنْ حبِّك له؛ اتَّهمه أَوْ برِّئه، وسوف يعطيك دائمًا إجابةً واحدةً.

«أقول: أليس هذا صحيحًا يا داركوس؟»

«همف.»

«وليسَت هذه،» هتفَت هورتنس، عائدةً إِلَى كلارا، بعد أَنْ حصلت عَلَى نخرة الموافقة مِنْ داركوس، «ليسَت روح هذا الشَّابّ ما يجب أَنْ تشغلي نفسكِ بها! كَمْ مرَّةٍ ينبغي أَنْ أخبرك - ليس لديكِ الوقت للأولاد!»

لأَنَّ الوقت ينفد مِنْ آل بودين. كان هذا في 1974، وهورتنس تعدُّ لنهاية العالم، الَّتِي وضعَت علامةً بخصوصها في نتيجة المنزل اليوميَّة، وكتبَت بقلم البيرو[1] الأزرقِ 1 يناير 1975. لَمْ تكنْ تلك حالةً ذهنيَّةً منفردةً تخصُّ آل بودين. وإِنَّما هناك ثمانية ملايينٍ من

1 - Bero pen قلم حبر جاف. (المترجم).

شهود يَهْوَه ينتظرون معها. هورتنس كانت ضمن رفقةٍ كبيرةٍ جدًّا، وإنْ كانت غريبة الأطوار. وصلَت رسالةٌ شخصيَّةٌ إلَى هورتنس (باعتبارها سكرتيرة فرع لامبيث لـ«قاعات المملكة»)، بتوقيعٍ مطبوعٍ من وليام ج. رانجفورث مِنَ المقرِّ العالميِّ لجمعيَّة برج *المراقبة* في بروكلين، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، يؤكِّد فيها الموعد. تأكَّدَت نهاية العالم *رسميًّا* برسالةٍ معتمدةٍ بحروفٍ مطليَّةٍ بالذَّهب، واحتفَت هورتنس بهذا الحدث ووضعَت الرِّسالة في إطارٍ جذَّاب مِنَ الماهوجني. ومنحَتها مكان الصَّدارة عَلَى أحد شراشف السُّفرة، فوق التِّليفزيون، بين تمثالٍ زجاجيٍّ لسندريلَّا في طريقها إلَى الحفل وغطاء إبريق الشَّاي المطرَّز بالوصايا العشر. سألت داركوس هَلْ يشعر بأنَّها جميلةٌ هكذا. ومنَحَها «همف» موافقته.

اقتربَت نهاية العالم. ولَمْ يكنِ الأمر - في فرع لامبيث لكنيسة شهود يَهْوَه ذلك - مثل أخطاء 1914 و1925. لقَدْ وُعدوا أَنْ تلتفَّ أحشاء الخُطاة حول جذوع الأشجار، وستظهر أحشاء الخُطاة ملفوفةً هذه المرَّة حول جذوع الأشجار. لقَدِ انتظروا أنهار الدَّم طويلًا لكَيْ تغمر المزاريب في الشَّارع العامِّ، والآن سيرتوي عطشهم. لقَدْ حان الوقت. هذا هو الموعد الصَّحيح، هذا هو الموعد الوحيد، كُلُّ المواعيد الأخرى الَّتِي رُبَّما تَمَّ الإعلان عنها في الماضي كانت نتيجةً لحساباتٍ خاطئةٍ: شخصٌ نسي إضافة رقمٍ، أَوْ شخصٌ نسي حذفه. الشَّيء الحقيقيُّ هو 1 يناير 1975.

سُرَّت هورتنس بسماع ذلك، لسببٍ وحيدٍ. ففي الصَّباح الأوَّل مِنْ 1925 بكَت مثل طفلٍ عندما استيقظَت لتجد - بدلًا مِنَ البرد والكبريت ودمار الكون - الحياة اليوميَّة مُستمرَّةً، ومسير الباصات والقطارات كما هو معتادٌ. كُلُّ ذلك لأجل لا شيء، إذنْ، كُلُّ هذا الأرق وتقليب الاحتمالات، في اللَّيلة السَّابقة؛ في انتظار أَنْ يغرق كُلُّ هؤلاء الجيران، الَّذِين فشلوا في سماع تحذيراتكِ، في لهيبٍ مُستَعرٍ مُرعبٍ سيسلخ جلودهم عَنْ عظامهم، سيذيب الأعين في محاجرها، ويحرق الرُّضَّع وهم يلقمون أثداء أُمَّهاتهم... الكثير جدًّا مِنَ الجيران سيموتون في ذلك اليوم، حتَّى أَنَّ أجسادهم، لَوْ تَمَّ صفُّها إلَى جوار بعضها، سوف تمتدُّ عَلَى مدار الأرض ثلاثمئة مرَّةٍ، وعلى رفاتهم سيمشي شهود الرَّبِّ الحقيقيون إلَى جانبه.

- جرس *النَّفير*، العدد 245.

يا للمرارة الَّتِي استشعَرَتْ بها خيبة الأمل! ولكنَّ جراح 1925 التأمَت، واستعدَّت هوتنس مرَّةً أخرى للاقتناع بأَنَّ تلك النِّهاية للعالم، كما قال المقدَّسُ الحقُّ السَّيِّد رانجفورث تمامًا وفسَّر، عَلَى مرمى حجرٍ. وأَنَّ الوعد لجيل 1914 ما زال قائمًا: لاَ يَمْضِي

هذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هذَا كُلُّهُ. (مَتَّى 24:34). هؤلاء الَّذِين كانوا أحياءً في 1914 سوف يعيشون ليروا هرمجدُّون[1]. لقَدْ وُعدوا بهذا. مولودةٌ في 1907، تشيخ هورتنس. تشعر بالتَّعب، وأقرانها يموتون أمامها كالذُّباب. يبدو 1975 كما لَوْ كان الفرصة الأخيرة.

أَلَمْ يقضِ مئتان من أفضل مُفكِّري الكنيسة عشرين عامًا في دراسة الكتاب المقدَّس، أَلَمْ يكنْ هذا التَّاريخ هو استنتاجهم بالإجماع؟ أَلَمْ يقرأوا ما بين السُّطور في سفر دانيال، أَلَمْ يتفحَّصوا المعاني الخفيَّة في سفر الرُّؤيا، أَلَمْ يحدِّدوا الحروب الآسيويَّة بشكلٍ صحيحٍ (كوريا وفيتنام) كفترةٍ تحدَّث عنها الملاك: «زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفِ؟» صدَّقت هورتنس أَنَّ هذه علامة العلامات. هذه الأيَّام الأخيرة. ثمانية شهورٍ حتَّى نهاية العالم. وقتٌ لا يكاد يكفي! هناك لافتاتٌ ينبغي صنعها، ومقالاتٌ تنبغي كتابتها («هَلْ يغفر الرَّبُّ للَّذِين يحدِّدون النَّسل؟»)، عتباتٌ ينبغي وطأها، وأجراسٌ ينبغي قرعها. هناك داركوس لتنشغل به - وهو الَّذِي لا يمكنه السَّير إِلَى الثَّلَّاجة بدون مساعدةٍ - كيف سيمكنه أَنْ يسير إِلَى مملكة الرَّبِّ؟ وفي جميع الأحوال فعلى كلارا أَنْ تمنح يدًا للمساعدة؛ ليس هناك وقتٌ للأولاد، لـ ريان توبس، أَوْ للتسلُّل في الجوار، أَوْ لهواجس المراهقين. لأَنَّ كلارا ليسَت مثل المراهقين الآخرين. إِنَّها طفلة الرَّبِّ، طفلة هورتنس المعجزة. كانت هورتنس في الثَّامنة والأربعين عندما سمعَت صوت الرَّبِّ وهِيَ تنظِّف سمكةً ذات صباحٍ، في خليج مونتيجو، 1955. وعلى الفور ألقَت سمكة المارلين، وأخذت عربة التُّروللِّي إِلَى المنزل، وخضعَت لنشاطات طائفتها لكَيْ تحمل بالطِّفل الَّذِي طلبَته. لماذا انتظر الرَّبُّ طويلًا؟ لأَنَّ الرَّبَّ أراد أَنْ يُظهر لهورتنس مُعجزةً. لأَنَّ هورتنس طفلةٌ معجزةٌ بدورها، ولِدَتْ في قلب زلزال كنجستون الأسطوريِّ، 1907، عندما انشغل كُلُّ شخصٍ آخر في موته - تسري المعجزات في العائلة. رأت هورتنس الأمر هكذا: إذا استطاعَت هي القدوم إِلَى العالم في قلبِ هزَّةٍ أرضيَّةٍ، بينما كان جزءٌ مِنْ خليج مونتيجو ينزلق إِلَى البحر، وانحدرَت الحرائق مِنَ الجبال، فَلَيس لأَيِّ أحدٍ أَيُّ عذرٍ عَلَى أَيِّ شيءٍ أَوْ كيفيَّته. تحبُّ أَنْ تقول: «أَنْ تولد هو الأمر الأصعب! وما إِنْ تفعل - فليسَت هناك

1 - هرمجدون (معركة نهاية الزمان في سفر الرؤيا): كلمة عبرية مكونة من مقطعين، هر أو هار: بمعنى جبل، مجدون: اسم وادٍ في فلسطين يقع في مرج ابن عامر على بعد 55 ميلاً شمال تل أبيب و20 ميلاً جنوب شرق حيفا وعلى بعد 15 ميل من شاطيء البحر المتوسط، وتعرف مجدون الآن باسم (تل المتسلم) وكلمة هرمجدون: بمعنى جبل مجدون. وهي إشارة لموقع معركة اليوم الأعظم للرب القادر حسب سفر الرؤيا (في اليوم العظيم، يوم الرب القدير، فجمعهم في المكان الذي يدعى بالعبرية هرمجدون وهذه الكلمة تعني جبال مجدون في الوادي الكبير بمدينة مجدون القديمة حيث دارت معارك الأزمنة الغابرة، وهي تشير إلى معركة شرسة مدمرة ستدور رحاها في ذلك الوادي). (المترجم).

مشكلةٌ.» وعليه، فالآن ما دامت كلارا هنا، كبيرةً بما يكفي لكَيْ تساعدها في طَرْق الأبواب، وفي الإدارة، وفي كتابة الخُطَب، وكُلِّ الأعمال المتنوّعة لكنيسة شهود يَهْوَه، فمِنْ الأفضل أَنْ تشرع فيها. لا وقت للأولاد. عمل هذه الطفلة بدأ للتو. لَمْ تتقبل هورتنس ـ المولودة في انهيار جامايكا ـ الرُّؤى النُّبوئيَّة قبل أَنْ يبلغ المرء العشرين كأَيِّ عذرٍ للتَّأخُّر.

ومع ذلك، وبشكلٍ غريبٍ، ورُبَّما بسبب ميل يَهْوَه الموثَّق جيِّدًا للتحرُّك بطرقٍ غامضةٍ، فقَدِ التقت كلارا بـ ريان توبس وجهًا لوجهٍ، في نهاية المطاف، خلال أداء أعمال الرَّب. أُرسل مجموعةٌ مِنَ الشَّباب في قاعة المملكة في لامبيث لطَرْق الأبواب في صباح الأحد، وفَصل الخِرافَ عنِ الجِداء (متى 46 ـ 25:31) ومع كراهة كلارا لشباب الشُّهود بأربطة أعناقهم السَّيِّئة وأصوات حديثهم النَّاعمة، فقَدِ انطلَقَتْ وحدها، بحقيبتها الخاصَّة لكَيْ تقرعَ الأجراس عَلَى امتداد طريق كريتون. عَلَى الأبواب القليلة الأولى تلقَّتِ الوُجُوه المتعضة المعتادة: نساءً لطيفاتٍ يطردنها بأكبر قدرٍ ممكنٍ مِنَ الأدب، وهنَّ يتأكَّدن أَنَّهن لَمْ يقترين كثيرًا، مذعوراتٍ مِنَ الإصابة بتلك المعتقدات مثلما يحدث في العدوى. ومع وصولها إِلَى النِّهاية الأكثر فقرًا مِنَ الشَّارع، بدأ ردُّ الفعل يصبح أكثر عدوانيَّةً، وجاءت الصَّرخات مِنَ النوافذ أَوْ من خلف الأبواب المغلقة.

«إذا كانوا الملاعين شهود يَهْوَه، فاخبرهم أَنْ يغربوا عَنْ هنا!!»

أَوْ، بإبداعٍ أكثر: «عذرًا، يا حبيبتي، ألا تعلمين أَيَّ يومٍ هذا؟ إِنَّه الأحد، أليس كذلك؟ إِنَّني منهكٌ. لقَدْ قضيت الأسبوع كاملًا في خلق الأرض والمحيطات. إِنَّه يَوْمي لكَيْ أستريح[1].»

عند رقم 75 قضَت ساعةً مع فيزيائيٍّ بارعٍ في الأربعين مِنْ عمره يدعى كولن، أراد أَنْ يدحض ـ عقليًّا ـ وجود الرَّبِّ، وهو يطالع تنُّورتها. ثُمَّ دقَّتْ جرس الباب رقم 87. وأجاب ريان توبس.

«نعم؟»

وقف هناك بكُلِّ رأسه الحمراءِ، بياقة سترته السَّوداء الشَّهيرة، وبشفته ملويَّةً في زمجرةٍ.

«أنا.... أنا...»

1 ـ إشارة إلى سفر التكوين (2:2 و2:3) «وفرغ الله في اليوم السابع مِنْ عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع مِنْ جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح مِنْ جميع عمله الذي عمل الله خالقًا». (المترجم).

حاولَت يائسةً أَنْ تنسى ما ترتديه: قميصًا أبيضَ بالكامل مع كشكشاتٍ للرَّقبة، وتنُّورةً منقوشةً بطول الرُّكبة، ووشاحًا يعلن في فخرٍ أقرب يا ربِّي إليك[1].

«هَلْ تريدين شيئًا ما؟» قال ريان، وهو يسحب نفسًا عميقًا مِنْ سيجارةٍ تموت. «أَوْ شيئًا ما؟»

جرَّبَت كلارا أوسع ابتسامةٍ بارزة الأسنان العلويَّة، وتحوَّلَت إِلَى الأداء الآليِّ. «صباح الخير عليكَ، يا سيِّدي، أنا مِنْ قاعة لامبيث الملكيَّة، حيث ننتظر نحن، شهودَ يَهْوَه، أَنْ يأتي الرَّبُّ ويُنعم علينا بحضوره القدسيِّ مرَّةً ثانيةً؛ كما فعل لفترةٍ وجيزةٍ - ولكنْ للأسف، في خفاءٍ - في عام أبينا، 1914. نحن نؤمن بأنَّه حين يُظهر نفسه فإِنَّه سيُحضر معه نيران الجحيم مضاعفةً ثلاث مرَّاتٍ في هرمجدُّون، ذلك اليوم الَّذِي سوف ينجو فيه القليل مِنَ الخلصاء. هَلْ أنت مهتمٌّ بـ...»

«ماذا؟»

حاولَت كلارا مِنْ جديدٍ، ودموعها تكاد تغلبها مِنَ الخجل. «هَلْ أنتَ مهتمٌّ بتعاليم يَهْوَه؟»

«أنتِ ماذا؟»

«بيَهْوَه - بتعاليم الرَّبِّ. انظر، الأمريشبه درجات السُّلَّم.» كان ملجأ كلارا الأخير دائمًا هو تمثيل والدتها الاستعاريُّ للخطوات المقدَّسة. «أراك تهبط وهناك درجةٌ ناقصةٌ في طريقكَ. أنا - فقط - أخبركَ: انتبه إِلَى خطوتكَ! أريد - فقط - أَنْ أتشارك الجنَّة معكَ. ولا أريد أَنْ أراكَ تكسر ساقيكَ.»

اتَّكأ ريان توبس إِلَى إطار الباب ونظر إليها مطوَّلًا مِنْ خلال ناصيته الحمراء. شعرت كلارا أَنَّها تنكمش عَلَى نفسها، مثل تليسكوبٍ. وكانت مسألة لحظاتٍ - فقط، بالتَّأكيد - قبل أَنْ تختفي بالكامل.

«لديَّ بعض موادِّ القراءة لمطالعتك ــ.» تلمَّسَت قفل الحقيبة، وردَّت الغالق بإبهامها، ولكنَّها أهملَت الإمساك بالجانب الآخر مِنَ الحقيبة. وتبعثرَت خمسون نسخةً مِنْ برج المراقبة عَلَى عتبة الباب.

1 ـ ترنيمة مسيحية تعود إلى القرن التاسع عشر كتبتها سارة فلوار آدامز اعتمدت على قصة حلم يعقوب في سفر التكوين (28: 11 ـ 19). (المترجم).

«يا غبيَّة، أنا لا أستطيع أَنْ أفعل شيئًا تمامًا، اليوم ــ.»

هوَت إِلَى الأرض في استعجالٍ لكَيْ تجمعها وخدشَت جلد ركبتها اليُسرى. «أوه!»

«اسمكِ كلارا،» قال ريان ببطءٍ. «أنتِ مِنْ مدرستي، أليس كذلك؟»

«بلى، يا رجل،» قالت كلارا، وهي مبتهجةٌ جدًّا أنَّه تذكّر اسمها حتَّى أنَّها نست الألم. «مدرسة سانت جود.»

«أعرف *ماذا* تُسمَّى.»

احْمَرَّ وجهُ كلارا بالقدر الَّذي تحمرُّ به وُجُوه السَّوداوات ونظرَت إِلَى الأرض.

«حالاتٌ ميئوسٌ منها. مدارس القدِّيسين تلك،» قال ريان، وهو يلتقط شيئًا مِنْ أنفه خلسةً، وينفضه إِلَى إناء الزُّهور. «هممم. الكثير منها.»

مسح ريان هيئة كلارا الطَّويلة بعينيه مرَّةً ثانيةً، ومنح ثدييها المكوَّرين القدر الأكبر مِنَ الوقت، وهو يتابع الخطوط العامَّة لحلمتَيها البارزتين في أثرٍ ملموسٍ عبر البوليستر الأبيض.

«مِنْ الأفضل أَنْ تأتي إلى الدَّاخل،» قال، في النِّهاية، وهو يخفض بصره لكَيْ يتفقَّد الرُّكبة النَّازفة. «لكَيْ نضع شيئًا عليها.»

في تلك الظَّهيرة ـ بالتَّحديد ـ حدثَت لمساتٌ مُختلسةٌ عَلَى أريكة ريان (ذهبَت إِلَى أبعد بكثيرٍ ممَّا يمكن توقُّعه مِنْ فتاةٍ مسيحيَّةٍ) وربح الشَّيطان جولةً أخرى في لعبة الرَّبِّ للبوكر. تَمَّ قرص الأشياء، ودفعها، وسحبها؛ ومع الوقت دقَّ الجرس لنهاية يوم الإثنين الدِّراسيِّ، ولَمْ يكن ريان توبس وكلارا بودين (في مواجهة الاحتقار الجماعيِّ بمدرستهما) أكثر أَوْ أقلَّ مِنْ أحد البنود؛ بحسب اصطلاحات مدرسة سانت جود، كانا «يُعالِجان» بعضهما بعضًا. هَلْ ذلك كُلَّ ما أمكن لكلارا، في جميع ابتكارات مراهقتها المتعرِّقة، أَنْ تتصوَّره؟

وعلى ذلك، اتَّضح أَنَّ «التَّعامل» مع ريان يشمل ثلاث تسلياتٍ (بترتيب الأهميَّة): الإعجاب بدرَّاجة ريان البخاريَّة، الإعجاب بأسطوانات ريان الموسيقيَّة، والإعجاب بريان. ولكنْ عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ الفتيات الأخريات أحجمن عن المواعدات الَّتِي جرت في جراج ريان، والَّتِي تمثَّلت بالكامل في مراقبته وهو يعتني بمحرِّك الدَّرَّاجة البخاريَّة، ويمتدح تعقيداته وتركيبه، لَمْ يكن هناك شيءٌ أكثر إثارةً بالنِّسبة إلى كلارا مِنْ ذلك. لقَدْ

تعلَّمَت بسرعةٍ أَنَّ ريان رجل الكلمات القليلة المؤلمة، وأَنَّ تلك المحادثات النَّادرة الَّتِي أجرياها لَمْ تتجاوز ريان مطلقًا: أمنياته، ومخاوفه (المتعلِّقة بالدَّرَّاجة البخاريَّة دائمًا) واعتقاده الغريب أَنَّه ودرَّاجته لَنْ يعيشا طويلًا. لسببٍ ما تبنَّى ريان شعار الخمسينيِّين «عش سريعًا، ومُتْ شابًّا»، وعلى الرَّغم مِنْ أَنَّ دراجته لَمْ تتجاوز أكثر مِنْ 22 ميلًا في السَّاعة عَلَى المنحدر، فإنَّه أحبَّ أَنْ يحذِّر كلارا بنبراتٍ كئيبةٍ أَلَّا «تتورَّط كثيرًا» لأنَّه لَنْ يكون هنا لوقتٍ طويلٍ؛ فهو «سوف يذهب» مبكِّرًا وفي «ضجيجٍ». تخيَّلت نفسها تحتضن ريان النَّازف بين ذراعيها، وهي تسمعه أخيرًا يعلن حبَّه الَّذِي لا يموت؛ رأت نفسها كأرملةٍ عصريَّةٍ، ترتدي كنزةً سوداء ذات رقبةٍ لمدَّة عامٍ، وتطلب «غروب شمس واترلو»[1] لكَيْ تُعزف في جنازته. لَمْ يعرف تفاني كلارا الَّذِي لا يمكن تفسيره في ريان توبس حدودًا. لقَدْ تجاوز مظهره السَّيِّئ، وشخصيَّته المملَّة، وعاداته الشَّخصيَّة القبيحة. وبالأساس، تجاوز ريان ذاته، لأَنَّه أيًّا كان ما ادَّعته هورتنس، فكلارا فتاةٌ مراهقةٌ مثل أيِّ فتاةٍ أخرى: غاية شغفها -فقط- شريكٌ في هذا الشَّغف ذاته، الشَّغف الَّذِي عبْرَ قمعه لفترةٍ طويلةٍ يفرض نفسه الآن في ضرورةٍ متفجِّرةٍ. وعلى مدار الشُّهور التَّالية، تغيَّر عقل كلارا، وتغيَّرت ملابس كلارا، وتغيَّرت مشية كلارا، وتغيَّرت روح كلارا. تطلق الفتيات في جميع أنحاء العالم عَلَى هذا التغيير اسم دوني أوزموند[2] أَوْ مايكل جاكسون أَوْ «باي سيتي رولرز»[3]. واختارَت كلارا أَنْ تدعوه ريان توبس.

لَمْ تكن هناك مواعداتٌ، بالمعنى المعتاد. لا زهور ولا مطاعم، ولا أفلام أَوْ حفلات. وفي بعض الأحيان، عندما تكون هناك حاجةٌ للماريجوانا، يصطحبها ريان إِلَى مسكنٍ عشوائيٍّ في شمال لندن، حيث يأتي ثُمْن الأوقيَّة بسعرٍ رخيصٍ، وحيث الناس - مخدَّرين إِلَى الحدِّ الَّذِي لا يلاحظون معه ملامح وجهكَ - يتصرَّفون كما لَوْ كانوا أصدقاءك الحميمين. هنا، يسترخي ريان في أرجوحةٍ، وبعد عددٍ قليلٍ مِنَ السِّيجارات الملفوفة سيتطور مِنْ حالته الأحاديَّة إِلَى الذُّهول التَّامِّ. تجلس كلارا، الَّتِي لَمْ تكن تدخِّن، عند قدميه، معجبةً به، وهي تحاول مواكبة الحوارات العامَّة حولَها. لَمْ تكن لديها حكاياتٌ لكَيْ ترويها مثل الآخرين، ليس مثل ميرلين، أَوْ مثل كليف، أَوْ مثل ليو، أَوْ بترونيا، أَوْ وان سي، والبقيَّة. لا نوادر عَنْ

1 ـ أغنية لفريق The Kinks البريطاني، صدرت منفردة في 1967، ثم صدرت في ألبومهم «شيء ما آخر». (المترجم).

2 ـ دونالد كلارك «دوني» أوزموند: مطرب وممثل وراقص وشخصية إذاعية أمريكي، ورمز سابق للمراهقين. (المترجم).

3 ـ The Bay City Rollers: فرقة اسكتلندية لموسيقى البوب كانت الأكثر شعبية في السبعينات. (المترجم).

رحلات الـ«إل إس دي»[1]، أَوْ عنف الشُّرطة، أَوِ المسيرات في ساحة ترافالجار. إلاَّ أَنَّ كلارا أقامت صداقاتٍ. كفتاةٍ حاذقةٍ، استخْدمَت ما لديها في تسلية وترويع الرِّفقة المتنوِّعة مِنَ الهيبيِّين، والمعتوهين، وغريبي الأطوار، والموسيقيِّين الشَّعبيِّين: بنوعٍ مختلفٍ مِنَ التَّطرُّف؛ حكاياتٍ عَنْ نار الجحيم واللَّعنة، عَنْ حبِّ الشَّيطان للدَّناسة، وشغفه بالجلد العاري، عَنْ مقل الأعين الملتهبة في السَّعير، والأعضاء التَّناسليَّة المسلوخة - كُلِّ الخطط التَّفصيليَّة للوسيفر، ذلك الملاك الأكثر فخرًا الَّذِي سقط، والَّتِي تَمَّ اعتمادها للأوَّل مِن يناير 1975.

وبطبيعة الحال، فقَدْ بدأ الشَّيء المدعو ريان توبس أكثر فأكثر في دفع نهاية العالم إِلَى الغرف الخلفيَّة مِنْ وعي كلارا. هناك الكثير جدًّا مِنَ الأشياء تقدِّم نفسها إليها، أشياء كثيرةٌ جدًّا في الحياة! إذا أمكن لذلك أَنْ يكون، فقَدْ شعرَت كما لَوْ أَنَّها واحدةٌ مِنَ الممسوحين في هذه اللَّحظة، في هذا المكان في لامبيث. وكُلَّما زاد شعورها بالبركة عَلَى الأرض، كُلَّما ندر أَنْ توجِّه تفكيرها نحو السَّماء. وفي النِّهاية، وقعَت الملحمة البطوليَّة مِنَ الانفصال الطَّويل، تلك الَّتِي لَمْ تستطع كلارا - ببساطة - أَنْ تتخيَّلها. الكثيرون جدًّا لَمْ يهتدوا. هناك 144000 رجل، ضمن الثَّمانية ملايين مِنْ شهود يَهْوَه، يمكن أَنْ ينضموا إِلَى المسيح في الجنَّة[2]. والنِّساء الصَّالحات والرِّجال الصَّالحون بما يكفي سوف يفوزون بالجنَّة عَلَى الأرض - ليست بجائزةٍ سيِّئةٍ بلهاء، لَوْ وضعنا كُلَّ الأمور في الاعتبار - غير أنَّ ذلك ما زال سوف يترك مليونَين فشلوا في تحقيق تلك المرتبة. بالإضافة إِلَى المشركين، واليهود، والكاثوليك، والمسلمين؛ وإلى رجال الغابة المساكين في الأمازون، والَّذِين بكَت كلارا مِنْ أجلهم مثل طفلٍ؛ الكثيرين ممَّن لَمْ يتمَّ إنقاذهم. يتفاخر الشُّهود بغياب الجحيم في حياتهم اللَّاهوتيَّة - العقوبة هي العذاب، عذابٌ لا يمكن تخيُّله في اليوم الأخير، وعند ذلك فالقبر هو القبر. لكنْ بالنِّسبة إلى كلارا، فقَدْ بدا ذلك أسوأ - فكرة أَنْ تستمتع الحشود العظيمة بحياتها في الجنَّة الأرضيَّة، بينما المعذَّبون، بهياكلهم المشوَّهة مِنَ الخسران، هناك تحت التُّراب.

1 - ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك (يختصر LSD وذلك من التسمية الألمانية للمركب Lysergsäurediethylamid) هو مركب شبه قلوي ومِنَ المهلوسات القوية المؤثرة على العقل جرعة صغيرة جدًّا تكفي لإحداث اضطرابات في الرؤية، والمزاج والفكر. (المترجم).

2 - يرى شهود يَهْوَه أن 144 ألفا مِنَ الصالحين سيكونون مع المسيح في حكومة السماء. وأن ثمانية ملايين سينعمون وقتها بالفردوس الأرضي، فيما يفنى بقية البشر في النهاية بالكبريت المصهور وتطمر أجسادهم تحت التراب. (المترجم).

في جانبٍ وقفت أفواجٌ هائلةٌ مِنَ البشر عَلَى الأرض، غير ملمّين بتعاليم برج المراقبة (بعضهم بدون خدماتٍ بريديّة)، وغير قادرين عَلَى الاتّصال بقاعة مملكة لامبيث واستلام موادٍّ مفيدةٍ للقراءة حول طريق الفداء. وعلى الجانب الآخر، هورتنس، بشعرها الملفوف في بَكْراتٍ حديديَّةٍ، تقترع وتقلِّب في صحائفها، تنتظر في ابتهاجٍ أمطار الكبريت لكَيْ تنصبَّ عَلَى الخاطئين، لا سيّما المرأة في المنزل رقم 53. حاولت هورتنس أَنْ تشرح: «هؤلاء الَّذِين ماتوا دون أَنْ يعرفوا الرَّبَّ، سيُبعثون وينالون فرصةً أخرى.» ولكنْ بالنِّسبة إلى كلارا، ظلَّت المعادلة غير منصفةٍ، ظلَّت كتبًا غير متوازنةٍ. مِنَ الصَّعب الوصول للإيمان، ومِنْ السَّهل فقدانه. أصبحَت أكثر تردُّدًا فأكثر في أَنْ تترك أثرًا لركبتيها عَلَى الوسائد الحمراء لقاعة المملكة. لَمْ تعد ترتدي الأوشحة، ولا تحمل اللّافتات، ولا توزِّع المنشورات. ولَنْ تخبر أحدًا عَنِ الدَّرجات المفقودة. اكتشفَت المخدِّر، ونست الدَّرج، وبدأت في استخدام المصعد.

في الأول مِنْ أكتوبر 1974 احتجزوها. أُبقِيَتْ لخمسٍ وأربعين دقيقةً بعد المدرسة (بسبب ادِّعائها، في درس الموسيقى، أَنَّ روجر دالتري[1] كان موسيقيًّا أعظم مِنْ يوهان سباستيان باخ[2])، وكنتيجةٍ لذلك، فوّتت كلارا لقاءها في السَّاعة الرَّابعة مع ريان في ناصية شارع لينان. كان البرد قارسًا وبدأ الظَّلام يحلُّ وقتَ خروجها؛ ركضَت عبر أكوامٍ مِنْ أوراق الخريف المتعفِّنة، وبحثَت عَلَى طول وعرض شارع لينان، ولكنْ لَمْ تكن هناك أَيَّة إشارةٍ. تملَّكتها الرَّهبة عندما وصلت إِلَى بابها الأماميّ، وهي تقدِّم العديد مِنَ العهود الصَّامتة للرَّبِّ (*لَنْ أمارس الجنس مطلقًا، لَنْ أدخِّن أَيَّة مخدِّراتٍ أخرى، لَنْ أرتدي تنّورةً أخرى فوق الرُّكبة*) إذا أكَّد لها ـ فقط ـ أَنَّ ريان توبس لَمْ يقرع جرس باب والدتها طالبًا مأوًى مِنَ البرد.

«كلارا! تعالي مِنَ البرد.»

هذا صوت هورتنس بأدائه عندما تكون لديها صحبةٌ ـ مفرطًا في تعويض كُلِّ الحروف السَّاكنة ـ الصَّوت الَّذِي تستخدمه للقساوسة وللنِّساء البيضاوات.

1 ـ روجر هاري دالتري (من مواليد 1 مارس 1944) هو مغنٍ ومؤلف، وموسيقي، وممثل إنجليزي وأحد مؤسسي فرقة الروك الإنجليزية The who. (المترجم).

2 ـ يوهان سباستيان باخ: عازف أرغن ومؤلف موسيقي ألماني ولد في 1685 ورحل في 1750 يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي. (المترجم).

أغلقَت كلارا الباب الأماميَّ وراءها، ومشَت بنوعٍ مِنَ الرَّهبة عبر غرفة المعيشة، متجاوزةً المسيح الَّذِي بكى (ثُمَّ لَمْ يفعل) إِلَى المطبخ.

«يا إلهي الحبيب، إنَّها تبدو كشيءٍ جرَّته القطَّة إِلَى الدَّاخل، همم؟»

«هممم،» قال ريان، وهو يغرف بسعادةٍ من طبق الـأكي والسَّمك المملَّح[1] إِلَى فمه عَلَى الجانب الآخر مِنْ طاولة المطبخ الصَّغيرة.

تمتمت كلارا، وأسنانها الأماميَّة تنحت أشكالًا في شفتها السُّفلى. «ما الَّذِي تفعله *هنا*؟»

«ها!» صاحت هورتنس، في انتصارٍ عَلَى الأرجح. «هَلْ تظنِّين أنَّه يمكنك أنْ تخفي صديقك عنِّي للأبد؟ لقَدْ كان الفتى يشعر بالبرد، وسمحتُ له بالدُّخول، لقَدْ أجرينا محادثةً لطيفةً، أليس كذلك، أيُّها الشَّابُّ؟»

«هممم، بلى، يا سيِّدة بودين.»

«حسنًا، لا تكوني مصدومةً جدًّا. هَلْ ظننتِ أنَّني سأعضُّه أَمْ ماذا، هه يا ريان؟» قالت هورتنس، وهي تتورَّد بطريقةٍ لَمْ ترها كلارا أبدًا مِنْ قبل.

«نعم، صحيحٌ،» ابتسم ريان مُجاملًا. وبدأ ريان توبس ووالدة كلارا، معًا، في الضَّحِك.

هَلْ هناك أَيُّ شيءٍ يمكنه أَنْ يسرق بهجة العلاقة أكثر منه عندما يبدأ العاشق علاقةً مبهجةً مع أُمِّ المعشوق؟ بينما أصبحَت اللَّيالي أقصر وأكثر عتمةً، والعثور عَلَى ريان أكثر صعوبةً في الحشد المتجمهر خارج بوَّابات المدرسة في الثَّالثة والنِّصف، كانت كلارا المكتئبة تقطع طريقها الطَّويلة إِلَى المنزل لكَيْ تجد حبيبها في المطبخ مِنْ جديدٍ، يدردش - فقط - في سعادةٍ مع هورتنس، ويلتهم ما توفَّر مِنْ سلعٍ في منزل آل بودين: الأكي والسَّمك المملَّح، واللَّحم المقدَّد، والدَّجاج بالأرز والبازلَّاء، وكعكة الزَّنجبيل، وحلوى جوز الهند المثلَّجة.

تلك الأحاديث، الحيَّة كما كانت تبدو عندما تدير كلارا المفتاح في الباب، هبطت دائمًا إِلَى الصَّمت مع اقترابها مِنَ المطبخ. كطفلين تمَّت مباغتتهما، يبدوان متجهِّمَين، ثُمَّ مُحرَجَين، ثُمَّ يستأذن ريان للانصراف. هناك أيضًا نظرةٌ، لاحظتها، لقَدْ بدأ الاثنان يمنحانها نظرة شفقةٍ، نظرة تنازلٍ، ليس هذا فحسب - بَلْ شرعا في التَّعليق عَلَى ملابسها،

1 - Ackee and saltfish أشهر أطباق جامايكا، ويتكون من ثمرة الأكي المطهوة مع السمك والأرز. (المترجم).

الَّتِي أصبحَت أكثر شبابًا بشكلٍ مُطَّرِدٍ، وأكثر ألوانًا؛ وريان - ما الَّذِي حدث لريان؟ - ألقى كنزته ذات الرَّقبة، وتجنَّبها في المدرسة، *واشترى ربطة عنقٍ*.

وبالطَّبع، مثل والدة مدمن المخدرات أوجارة القاتل المتسلسل، كلارا آخر مِنْ يعلم. لقَدْ عرفَت يومًا كُلَّ شيء عَنْ ريان - قبل أَنْ يعرف ريان نفسه - لقَدْ كانت خبيرةً بـ ريان. والآن تراجعت كَيْ تتسمَّع تأكيدات الفتيات الأيرلنديات عَلَى أَنَّ كلارا بودين وريان توبس لَمْ يكونا يعالجان بعضهما بعضًا - قطعًا، بالتَّأكيد هما لا يتعاملان مع بعضهما - أوه لا، *ليس بعد الآن*.

لَوْ لاحظَت كلارا ما يحدث، ما سمحت لنفسها بأَنْ تصدِّق ذلك. في المناسبة الَّتِي رصدت خلالها ريان عَلَى طاولة المطبخ، محاطًا بالمنشورات - وهورتنس تجمعها بسرعةٍ في جيب مريلتها - دفعَت كلارا نفسها لنسيان الأمر. لاحقًا في ذلك الشَّهر، عندما دفعَت كلارا ريان كرهًا لمشاركتها في حمَّامها الخاصِّ بذوي الإعاقة، حدَّقت بعينَين نصف مغمضتَين حتَّى لا ترى ما لَمْ تُرِد أَنْ تراه. ولكنَّه *كان* هناك، تحت سترته، هناك بينما انحنى عَلَى الحوض كان وميض الفضَّة، ومَضَ بشكلٍ خاطفٍ - لَمْ يكن ممكنًا أَنْ يكون، *ولكنَّه كان* - وميض الصَّليب الفضِّيِّ الصَّغير.

لَمْ يكنْ ممكنًا أَنْ يكون، ولكنَّه كان. هكذا يصف النَّاس معجزةً ما. التقى الضِّدَّان في هورتنس وريان في أقصى أبعاد المنطق بشكلٍ ما، التقى ميلهما المتبادل لألم وموت الآخرين مثل نقطتَي المنظور لدى مهووسي الأفق. بلغ المهتدي والخاطئ، فجأةً، دائرةً إعجازيَّةً مُكتملةً. وكانت هورتنس وريان يحاولان الآن هدايتها.

«اركبي الدَّرَّاجة.»

كانت كلارا تخطو بالكاد إِلَى خارج المدرسة في الغروب وكان ذلك ريان، ودرَّاجته تزعق بفرملةٍ حادَّةٍ.

«كلاز، اركبي عَلَى الدَّرَّاجة.»

«اذهب واسأل أمِّي إِنْ كانت تريد ركوب الدَّرَّاجة!»

«أرجوكِ،» قال ريان، وهو يقدِّم الخوذة الإضافيَّة. «مسألةٌ مهمَّةٌ. لا بُدَّ أَنْ نتحدَّث. ليس هناك الكثير مِنَ الوقت.»

«لماذا؟» تهكَّمت كلارا، وهي تتراجع في عنادٍ. « هَلْ أنت ذاهبٌ إِلَى مكانٍ ما؟»

«أنتِ وأنا معًا،» غمغم ريان. «المكان الصَّحيح، كما أتمنَّى.»

«لا.»

«أرجوك، يا كلاز.»

«لا.»

«أرجوك، إِنَّه أمرٌ مهمٌ. حياةٌ أَوْ موتٌ.»

«يا رجل! فليكن. ولكنَّني لَنْ أرتدي هذا الشَّيء،» ـ أعادَت إليه الخوذة وركبَت عَلَى الدَّرَّاجة ـ «حتَّى لا أفسد شعري.»

قاد ريان بها عبرلندن وصولًا إِلَى هامبستيد هيث، في أعلى قمَّة تَلِّ البرلمان، حيث، نظرا مِنْ عَلَى تلك القمَّة إِلَى أضواء المدينة البرتقاليَّة الواهنة في الأسفل باهتمامٍ، منحنيًا، وبلغةٍ لا تنتمي إليه، عرض قضيَّته. والخلاصة هي التَّالي: لَمْ يبق سوى شهرٍ واحدٍ حتَّى نهاية العالم.

«والأمر أَنَّنا، هي وأنا، نحن فقط ـــ.»

«نحن!»

«أُمُّكِ ـ أُمُّكِ وأنا شخصيًّا،» غمغم ريان، «نحن قلقان. بشأنكِ. لَنْ يكون هناك الكثيرمِنَ النَّاجين في اليوم الأخير. وأنت مع الحشد السَّيِّئ، يا كلاز.»

«يا رجل!» قالت كلارا، وهي تهزُّ رأسها وتمصُّ أسنانها: «أنا لا أصدِّق ذلك. لقَدْ كانوا أصدقاءَكَ.»

«لا، لا، ليسوا كذلك. ليس بعد الآن. الماريجوانا ـ الماريجوانا شرٌّ. وكُلُّ ذلك ـ وان سي، وبترونيا.»

«إِنَّهما صديقتاي!»

«ليستا فتاتين جيِّدتين، يا كلارا. يجب أَنْ تكونا مع أسرتيهما، وأَلَّا ترتديا ملابس كالَّتِي ترتديان، وتفعلان أشياء مع الرِّجال في ذلك المنزل. أنتِ نفسكِ ينبغي أَلَّا تفعلي ذلك، أنت الأخرى. وترتدي مثل، مثل، مثل ـــ.»

«مثل ماذا؟»

«مثل عاهرةٍ!» قال ريان، وانطلقَت الكلمة منه كما لَوْ يتخلَّص مِنْ حملها. «مثل امرأةٍ سهلةٍ!»

«يا ولد، لقَدْ سمعتُ كُلّ شيءٍ الآن... خذني إِلَى المنزل، يا رجل.»

«سوف ينالون ما يستحقُّون،» قال ريان، وهو يؤكِّد لنفسه، ويمدُّ ذراعه مشيرًا مِنْ أعلى لندن مِنْ تشيسويك حتَّى طريق القنطرة. «لا يزال هناك وقتٌ لأجلكِ. مَنْ تريدين أَنْ يكون معكِ، يا كلاز؟ مَنْ تريدين أَنْ تكوني معهم؟ مع الـ 144000 في الجنة، يحكمون مع المسيح؟ أَمْ تريدين أَنْ تكوني واحدةً مِنَ الحشد العظيم. تعيشين في الجنَّة الأرضيَّة، وهو أمرٌ جيِّدٌ لَكِنْ.... أَمْ ستكونين واحدةً منهم، هؤلاء الَّذِين سيحملون في أعناقهم العذاب والموت. هه؟ إِنَّنِي - فقط - أفصل الخِراف عَنِ الجِداء، يا كلاز، الخِراف عَنِ الجِداء. ذلك مَتَّى. وأظنَّكِ أنتِ نفسكِ حملًا، أليس كذلك؟»

«دعني أخبركَ بشيءٍ،» قالت كلارا، وهي تعود إلى الدَّرَّاجة وتأخذ مكانها في المقعد الخلفيّ: «أنا عنزٌ. أحبُّ أَنْ أكون عنزًا. بَلْ وأودُّ أَنْ أتلظَّى في مطر الكبريت مع أصدقائي، أكثرمِنَ البقاء في الجنَّة، وأنا أشعر بالملل حدَّ البكاء، مع داركوس، ووالدتي، ومعكَ.»

«لم يكن ينبغي أَنْ تقولي ذلك، يا كلاز،» قال ريان بطريقةٍ رسميَّةٍ، وهو يرتدي خوذته. «أتمنَّى فعلًا لَوْ لَمْ تقولي ذلك. لأجل نفسك. فهو يستطيع أَنْ يسمعنا.»

«وأنا تعبت مِنْ سماعكَ. خُذني إِلَى البيت.»

«إِنَّها الحقيقة! إِنَّه يستطيع سماعنا!» صاح، ملتفتًا إِلَى الخلف، وهو يصرخ أعلى مِنْ ضجيج أنبوب العادم وهما يزيدان مِنْ سرعتهما ويمضيان عَلَى انحدار الطَّريق. «وهو يرى كُلَّ شيءٍ! هو يرعانا!»

«انتبه إِلَى حيث تذهب،» صرخَت كلارا، وهما يغيِّران السُّرعات، بينما كانت مجموعةٌ مِنَ اليهود الحسيديم[1] يركضون في كُلِّ اتِّجاهٍ. «انتبه إِلَى مسارك!»

«القليل فقط ـــ. هذا ما يقوله - عددٌ قليلٌ فقط. كُلُّهم سينالون ذلك - هذا ما يقوله سفر التثنية - جميعهم سينالون ما يأتي، وفقط القليلون ـــ.»

1 - الحسيدية أو الحسيديم: حركه روحانية اجتماعية يهودية نشأت في القرن السابع عشر على يد مومى بن نحمان. (المترجم).

في مكانٍ ما، وفي منتصف إضاءة ريان توبس لتفاسير الكتاب المقدّس، ارتطم مثاله الأعلى الزّائف السّابق، فيسبا الـ جي إس بشجرة بلُّوط عمرها أربعمئة سنةٍ. وانتصرَت الطَّبيعة عَلَى فرضيات الهندسة. ونجَت الشَّجرة، بينما ماتَت الدراجة؛ وأُلقي ريان عَلَى جانبٍ؛ وكلارا عَلَى الجانب الآخر.

مبادئ المسيحيَّة وقانون سود[1] (يعرف أيضًا بقانون مورفي) هي نفسها: كُلُّ شيءٍ يحدث لي، هولي. وعليه إذا ألقى رجلٌ قطعة توست وسقطَت عَلَى جانبها المدهون بالزُّبد، فإنَّ هذا الحدث غير المحظوظ يمكن تفسيره كإثباتٍ لحقيقةٍ أساسيَّةٍ حول سوء الحظِّ: أَنَّ قطعة التوست سقطَت هكذا ـ فقط ـ لكَيْ تثبت لكَ، أَيُّها السَّيِّد غير محظوظٍ، أَنَّ هناك قوَّةً حاسمةً في الكون هي الحظُّ السَّيِّئ. أَنَّه ليس عشوائيًّا. فلا يمكن أبدًا أَنْ تسقط عَلَى الجانب الصَّحيح، ولذا يصل الاستنتاج إِلَى أَنَّ ذلك هو قانون سود. وباختصارٍ، فقانون سود يحدث لكَ ليثبت أَنَّ هناك قانون سود. ومع ذلك، وبخلاف الجاذبيَّة، فهو قانون لا يوجد مهما كان ما يحدث: فعندما تسقط قطعة التوست عَلَى الجانب الصَّحيح، يختفي قانون سود بطريقةٍ غامضةٍ. وبالمثل، عندما سقطَت كلارا، مُحطِّمةً أسنانها الأماميَّة، بينما وقف ريان بدون خدشٍ، عرف ريان أَنَّ ذلك لأَنَّ الرَّبَّ اختار ريان كواحدٍ مِمَّنْ نالوا الخلاص، وأَنَّ كلارا واحدةٌ مِمَّنْ لَمْ يفعلوا. ليس بسبب أَنَّ أحدهما وضع خوذةً والآخر لَمْ يفعل. وهَلْ حدث ذلك في الجانب الآخر مِنْ منحنى الطَّريق، هل استخلصت الجاذبيَّة أسنان ريان، وأرسلَتها تتدحرج عَلَى انحدار تَلِّ زهرة الرَّبيع كنثراتٍ ثلجيَّةٍ صغيرةٍ مِنْ طبقة المينا. حسنًا، يمكنك الرِّهان بحياتك أَنَّ الرَّب، في تصوُّر ريان، قام بتصرُّفٍ خفيٍّ.

وكما جرى، كان ذلك هو العلامة الأخيرة الَّتي يحتاجها ريان. عندما اقتربَت ليلة رأس السَّنة، جلس هناك في حجرة المعيشة، في قلب دائرةٍ مِنَ الشُّموع مع هورتنس، يصلِّيان بحماسةٍ لأجل روح كلارا بينما كان داركوس يتبوَّل في قسطرته ويشاهد *لعبة الأجيال* عَلَى قناة بي بي سي الأولى. وفي الوقت نفسه، أضاءت كلارا زوجًا مِنَ المشاعل الصَّفراء، وارتدت ثوبًا أحمر يتدلَّى مِنَ العنق وذهبَت إِلَى حفلةٍ. اقترحت موضوعها، وساعدَت في طلاء اللَّافتة وتعليقها مِنَ النَّافذة؛ ورقصَت ودخَّنَت مع بقيَّتهم ورأَت نفسها، وبدون تواضعٍ غير ضروريٍّ، حسناء المكان. ولكنْ مع القدوم الحتميِّ لمنتصف اللَّيل، ومضيِّه

1 ـ بداهة مرحة تقوم على مبدأ «أن كُلَّ شيء يمكنه أنْ يسوء سوف يسوء». (المترجم).

دون أيّ ظهورٍ لفرسان الدّمار، فاجأت كلارا نفسها بالسُّقوط في الحزن. لأنّ تخليص المرء نفسه مِنَ الإيمان يشبه غلي ماء البحر لاسترجاع الملح - هناك شيءٌ مكتسبٌ ولكنْ هناك شيءٌ مفقودٌ. وعلى الرّغم مِنْ أنّ أصدقاءها - ميرلين، ووان سي، والآخرين - ربّتوا عَلَى ظهرها وهنّؤوها عَلَى طرد تلك الأحلام الحماسيّة بالهلاك والخلاص، إلّا أنّ كلارا شعرَت بالأسى في هدوءٍ تجاه اللّمسة الأكثر دفئًا الّتي ظلّت تنتظرها طوال تلك السّنوات التّسع عشرة، حضن الاحتواء القويّ للمخلِّص، الواحد الّذِي هو ألفا وأوميجا، البدء والنّهاية معًا؛ الرّجل الّذِي مِنَ المفترض أنْ يأخذها بعيدًا عَنْ كُلِّ ذلك، عَنِ الواقع الفاتر للحياة في شقّةٍ في *البدرون* في لامبيث. والآن ماذا بالنسبة إلى كلارا؟ سيجد ريان بدعةً أخرى؛ وداركوس لا يحتاج سوى للتّغيير إِلَى قناةٍ أخرى؛ أَمّا بالنِّسبة إلى هورتنس فإنّ موعدًا جديدًا سوف يتحقّق بالطّبع، مع المزيد مِنَ المنشورات، والمزيد مِنَ الإيمان. لكنّ كلارا ليست مثل هورتنس.

لا تزال هناك رواسب، آثارٌ تبقّت مما تبخّر مِنْ إيمان كلارا. ظلّت تهفو إِلَى منقذٍ. ظلّت تهفو إِلَى رجلٍ يخطفها بعيدًا، يرفعها فوق الجميع لعلّها تمشي معه في ثيابٍ بيضاء: لأنّها (هي) مستحقّةٌ. سفر الرُّؤيا 3:4.

رُبّما استعصى عَلَى التّفسير، وقتها، أنّ كلارا بودين عندما التقت بآرشي جونز في بئر أحد السّلالم في الصّباح التّالي، رأت فيه أكثر مِنْ مجرّدِ شخصٍ قصيرٍ نوعًا ما، أكثر مِنْ رجلٍ ممتلئٍ أبيضَ في منتصف العُمُر ببذلة سيّئة التّفصيل. رأت كلارا آرشي عبر أعينٍ رماديّةٍ خضراءَ مِنَ الخسارة؛ فعالمها قَدِ اختفى للتّوّ، والإيمان الّذِي عاشت حياتها به انحسر مثل مَدٍّ منخفض، وآرشي، بمصادفةٍ تامّةٍ، أصبح مثلما في المزحة: آخر رجلٍ عَلَى الأرض.

الفصل الثالث

عائلتان

لأَنَّ التَّزَوُّجَ أَصْلَحُ مِنَ التَّحَرُّقِ، تقول رسالة بولس إِلَى أهل كورنثوس الأولى، الفصل السَّابع، المقطع التَّاسع.

نصيحةٌ جيِّدةٌ. وبالطَّبع، رسالة كورنثوس تخبرنا أيضًا أَنْ *لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا* - فحاول أَنْ تفهم.

في فبراير 1975، هجرت كلارا الكنيسة وكُلَّ تعاليم كتابها المقدَّس لأجل آرشيبالد جونز، ولكنَّها لَمْ تصبح بعدُ هذا النَّوع الملحد غير المهتمِّ الَّذِي يمكنه أَنْ يضحك بالقرب مِنَ المذابح، ولا رفضَت تمامًا تعاليم القدِّيس بولس. لَمْ تكنِ المقولة الثَّانية مشكلةً - مع عدم وجود ثورٍ، تَمَّ استثناؤها مِنْ قِبَلِ الوكيل. غير أنَّ الأولى منحتها ليالٍ بلا نومٍ. هَلْ مِنَ الأفضل أَنْ تتزوَّج؟ حتَّى ولَوْ كان الرَّجل وثنيًّا؟ لَمْ تكن هناك طريقةٌ لكَيْ تعرف، فهي تعيش بدون دعمٍ الآن، بلا شبكة أمانٍ. قلقةً تجاه أُمِّها، أكثر منها تجاه الرَّبِّ. عارضَت هورتنس العلاقة بشدَّةٍ، عَلَى أرضيَّات اللَّون أكثر منها العمر، وعلى السَّماع بالأمر نبذت ابنتها فورًا ذات صباحٍ عَلَى عتبة الباب.

شعرت كلارا في أعماقها أَنَّ أُمَّها ستفضِّل أَنْ تتزوَّج بالرَّجل غير المناسب عَلَى الحياة معه في الخطيئة، ولذلك فقَدْ فعلَت ذلك بقوَّة الدَّفع، وتوسَّلت إِلَى آرشي أَنْ يأخذها أبعد ما يكون عَنْ لامبيث،* بالقدر الَّذِي يستطيع رجلٌ بإمكانياته أَنْ يتدبَّره - المغرب، بلجيكا، أَوْ إيطاليا. ضم آرشي يدها وأومأ، وهمس بعذوبةٍ لا تعني شيئًا. في معلوماته الكاملة فأقصى ما يستطيع رجلٌ بإمكانياته الوصول إليه هو منزلٌ مِنْ طابقين حصل عليه حديثًا برهنٍ كبيرٍ في ويلْزدِن جرين. غير أَنَّه لا داعي للإشارة لذلك الآن، كما شعر، ليس الآن في خِضَمِّ اللَّحظة. كما لَوْ كان يقلِّلُ مِنْ توقُّعها برفقٍ.

بعد ثلاثة شهورٍ خفَّضت كلارا مِنْ طموحها برفقٍ، وها هما الآن ينتقلان. آرشي متعثِّرًا في صعود السُّلَّم، يلعن ويتحسَّس طريقه كالعادة، وهو يرزح تحت ثقل الصَّناديق الَّتِي استطاعت كلارا حمل اثنين أَوْ ثلاثةٍ منها كُلَّ مرَّةٍ بدون جهدٍ؛ ثُمَّ تأخذ كلارا قسطًا مِنَ الرَّاحة، وتحدِّق في شمس مايو الدَّافئة، وهي تحاول أَنْ تستجمع قواها. تخلع سترتها البنفسجيَّة، وتحدِّق في بوَّابتها الأماميَّة. أَيُّ نوع مِنَ الأماكن هذا؟ هذا هو السُّؤال، أترى، لا يمكنك أَنْ تكون واثقًا. مسافرةً في مقعد الرَّاكب في شاحنة نقل الأثاث، شاهدت الطَّريق السَّريعة، قبيحةً وفقيرةً ومألوفةً (على الرَّغم مِنْ أَنَّه لَمْ تكنْ هناك قاعاتٍ للمملكة أَوْ كنائس أسقفيَّة)، غير أَنَّه في منعطف الزَّاوية تفجَّرت الطَّريق فجأةً بالخضرة، وأشجار السِّنديان الجميلة، وأصبحت المنازل أطول، وأوسع وأكثر انفصالًا، استطاعَت مشاهدة الحدائق، واستطاعت مشاهدة المكتبات. ثُمَّ عَلَى نحوٍ مفاجئٍ ستختفي الأشجار، عائدةً مجدَّدًا إِلَى مواقف الباصات كما لَوْ بضربةٍ لأحد أجراس منتصف اللَّيل؛ في إشارةٍ أطاعتها حتَّى البيوت، فحوَّلت أنفسها إِلَى أحجامٍ أصغر، إِلَى بيوتٍ بلا سلالم، تجثم مفلطحةً في محاذاة ممرَّات التَّسوُّق المهجورة، تلك الخطوط الغريبة مِنَ المؤسَّسات الَّتِي تشمل ـ بدون استثناء ـ مطعمًا مهجورًا للساندويتشات ما زال يعلن عن وجبات الإفطار، ومحلًّا للأقفال غير مهتمٍّ بالزَّخارف التَّسويقيَّة (نخرط المفاتيح هنا)، ومحلًّا مغلقًا بشكلٍ نهائيٍّ كصالونٍ لتصفيف الشَّعر للجلسين، والحامل الفخور لبعض القطع المرحة في صمتٍ (*تخفيضاتٌ أعلى، أَوْ مزايا هامشيَّة، أَوْ شَعر اليوم اختفى غدًا*).

وهكذا، كانت رحلة قيادةٍ تشبه اليانصيب، تبحث، ولا تعرف ما إذا كان المرءُ عَلَى وشك الإقامة مدى الحياة بين الأشجار أَمْ وسط القرف. ثُمَّ، أبطأت الشَّاحنة في النِّهاية أمام منزلٍ، منزلٍ جميلٍ في مكانٍ ما في منتصف الطَّريق بين الأشجار والقرف، وشعرت كلارا بفيضٍ مِنَ الامتنان يغمرها. كان *جميلًا*، ليس جميلًا كما تمنَّت، ولكنَّه لَمْ يكنْ بالسُّوء الَّذِي خشيته؛ يضمُّ حديقتين صغيرتين في الأمام والخلف، وممسحةً أمام الباب، وجرسًا للباب، ومرحاضًا *في الدَّاخل* ... وهي لَمْ تدفع ثمنًا باهظًا. الحبَّ فقط. الحبَّ بالكاد. وأَيًّا ما يمكن أَنْ تقوله رسالة كورينثوس، فالحبُّ ليس شيئًا مِنَ الصَّعب أَنْ تبذله، ليس إذا لَمْ تكن قد شعرت به أبدًا مِنْ قبل. لَمْ تكن تحبُّ آرشي، ولكنَّها حسمتِ أمرها، منذ تلك اللَّحظة الأولى عَلَى درجات السُّلَّم، أَنْ تهبه نفسها إذا

كان سيأخذها بعيدًا. والآن فعل؛ وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها لَمْ تكن المغرب أَوْ بلجيكا أَوْ إيطاليا، فقَدْ كانَ الأمرُ جميلًا ـ ليستِ الأرض الموعودة ـ ولكنها جميلةٌ، أجمل مِنْ أَيِّ مكانٍ كانت فيه مِنْ قبل.

فهمت كلارا أَنَّ آرشيبالد جونز ليس بطلًا رومانسيًّا. كانت ثلاثة أشهر قضتها في غرفةٍ واحدةٍ نتنةٍ في كريكل وود كافيةً للاكتشاف. أوه، يمكنه أَنْ يكون حانيًا بَلْ وساحرًا أحيانًا، يمكنه أَنْ يصفر بملاحظةٍ في وضوح الشَّمس أَوَّل شيءٍ في الصَّباح، ويقود بهدوءٍ ومسئوليَّةٍ، وهو للغرابة طاهٍ محترفٌ، غير أَنَّ الرُّومانسيَّة كانت بعيدةً عنه، والعاطفة خارج التَّصوُّر. وإذا كنتِ عالقةً مع رجلٍ متوسِّط مثل ذلك، شعرت كلارا، فعليه عَلَى الأقلِّ أَنْ يكون مكرَّسًا لأجلك ـ لجمالك، لشبابك ـ هذا أقلُّ ما ينبغي له أَنْ يفعله للتَّعويض عَنِ الأشياء. ولكِنْ ليس آرشي. لَمْ يمض شهرٌ واحدٌ مِنْ زواجهما حتَّى اكتسب بالفعل تلك النَّظرة المزجَّجة المضحكة الَّتِي لدى الرِّجال عندما ينظرون عبرك. لقَدْ عاد بالفعل إِلَى عزوبيَّته: أقداح البيرة مع صديقه صمد إقبال، والعشاء مع صمد إقبال، وإفطار صباح الأحد مع صمد إقبال. كُلُّ لحظة فراغٍ مع ذلك الرَّجل في ذلك المكان اللَّعين، في *أوكونيل*، في ذلك البار اللَّعين المخزي. حاولتْ أَنْ تكون متفهِّمةً. سألته: *لماذا أنت لست هنا بالمرَّة؟ لماذا تقضي وقتًا طويلًا جدًّا مع الهنديِّ*؟ ولكنْ مع تربيتةٍ عَلَى الظَّهر، وقبلةٍ عَلَى الخدِّ، وهو ينتزع معطفه، وقدمه خارج الباب فالإجابة دائمًا هي نفس الإجابة القديمة: *أنا وسام؟ نعرف بعضنا منذ زمنٍ بعيدٍ*. لَمْ تكنْ تستطيع الجدل بخصوص ذلك. لقَدْ كانا معًا مِنْ قبل أَنْ تُولَد هي.

ليس الفارس الأبيض ـ إذن ـ هذا الـ آرشيبالد جونز. لا أهداف، ولا آمال، ولا طموحات. رجلٌ أعظم ملذَّاته الإفطار الإنجليزيُّ واصنعها بنفسك. رجلٌ مملٌّ. رجلٌ مسنٌّ. ومع ذلك... جيِّدٌ. كان رجلًا طيِّبًا. ورُبَّما قَدْ لا تساوي الطِّيبة كثيرًا، قَدْ لا تضيء الطِّيبة الحياة، ولكنَّها شيءٌ ما. رصدَت ذلك فيه في تلك المرَّة الأولى عَلَى السُّلَّم ـ ببساطةٍ، ومباشَرةً ـ بنفس الطَّريقة الَّتِي تستطيع بها تحديد ثمرة مانجو جيِّدةٍ في كشكٍ في بريكستون بدون الكثير مِنْ تحسُّس القشرة.

هذه هي الأفكار الَّتِي تشبَّثت كلارا بها وهي تتَّكئ عَلَى بوَّابة حديقتها، بعد ثلاثة شهورٍ مِنْ زواجها، تشاهد في صمتٍ الطَّريقة الَّتِي يتجعَّد بها جبين زوجها وينكمش مثل أكورديون، والطَّريقة الَّتِي يعلِّق بها بطنه المثقل فوق حزامه، وبياض بشرته، وزرقة

. عروقه، والطَّريقة الَّتي يرتفع بها الأحد عشر الخاصَّة به ـ حبلا اللَّحم اللَّذان يحيطان بحنجرة الرَّجل (هكذا يقال في جامايكا) عندما يقترب وقته مِنَ النِّهاية.

عبسَت كلارا. فهي لَمْ تلحظْ هاتين المصيبتين في حفل الزِّفاف. لِمَ لا؟ لقَدْ كانَ يبتسمُ وارتدى ياقةً بيضاءَ، ولكنْ لا، لَمْ يكن هذا هو الأمر ـ لَمْ تنظر إليهما وقتها، تلك هي المسألة. لقَدْ قضت كلارا معظم يوم زفافها وهي تنظر إِلَى قدميها. كان 14 فبراير دافئًا عَلَى غير المعتاد، وكان هناك تأخيرٌ لأَنَّ العالم كُلَّه أراد الزَّواج في ذلك اليوم في مكتب تسجيلٍ صغيرٍ في لودجيت هيل. تذكَّرت كلارا خلع الحذاء البُنِّيِّ الصَّغير الَّذِي ارتدته، ووضع قدميها العاريتين عَلَى الأرضيَّة الباردة، وهي تحرص عَلَى التَّأكُّد مِنْ بقائهما مرتكزتين بثباتٍ عَلَى جانبي صدعٍ داكنٍ في البلاط، في أداءٍ توازنيٍّ راهنَت به عَلَى سعادتها المستقبليَّة.

في الوقت نفسه مسح آرشي بعض الرُّطوبة عَنْ شفته العليا وهو يلعن أشعَّة الشمس العنيدة الَّتي أرسلت قطرة ماءٍ مالحةً بين فخذيه. اختار بذلة مِنَ الموهير مع ياقةٍ بيضاء، لزواجه الثَّاني، وأثبت الاختياران أَنَّهما مصدرٌ للمشكلات. فقد دفعت الحرارة مجاري العرق لأَنْ تتفجَّر في كُلِّ أنحاء جسمه، فيتسرَّب مِنْ ياقته إِلَى الموهير ويبعث رائحةً لا يمكن إخطاؤها لكلبٍ رطبٍ. كانت كلارا، بالطَّبع، قطَّةً بالكامل. ارتَدَتْ فستانًا مِنَ الصُّوف البُنِّيِّ مِنْ جيف بانكس، وطقمًا رائعًا مِنَ الأسنان الصِّناعيَّة: كان الفستان عاري الظَّهر، والأسنان بيضاء، وانتمت في المشهد العام للعائلة القططيَّة: نمرةً في ثياب السَّهرة؛ ولَمْ يكن واضحًا أين ينتهي الصُّوف لتبدأ بشرة كلارا في الظُّهور للعين المجرَّدة. ومثل قطَّةٍ كانت استجابتها تجاه شعاع الشَّمس المترب الَّذِي مَرَّ عبر نافذةٍ عالية إِلَى الأزواج المنتظرين. أدفأت ظهرها العاري به؛ وبدَتْ منفتحةً إِلَى حدٍّ كبيرٍ. وحتَّى الموثِّق، الَّذِي رأى كُلَّ ذلك ـ نساءً يشبهن الفرس يتزوَّجن رجالًا يشبهون ابن عرسٍ، ورجالًا في ملامح الفيلة يتزوَّجون نساءً مثل البومات ـ رفع حاجبًا أمام تلك الظَّاهرة الأكثر تناقضًا مع طبيعة الاتِّحاد، بينما يقتربان مِنْ مكتبه. قطَّةً وكلبًا.

«مرحبًا، أيُّها الأب،» قال آرشي.

«إِنَّه موثِّق، يا آرشيبالد، أيُّها المعتوه القديم،» قال صديقه صمد مياه إقبال، الَّذِي تمَّت دعوته، هو وزوجته ألسانا، مِنْ غرفة ضيوف الزِّفاف الخارجيَّة ليشهدا عَلَى العقد: «ليس كاهنًا كاثوليكيًّا.»

«صحيحٌ - بالتَّأكيد - أعتذر. التَّوتُّر.»

قال الموثِّق في تجهُّمٍ: «هلَّا بدأنا؟ لدينا الكثير منكم لكَيْ نتعامل معهم اليوم.»

هذا وبعض الأشياء القليلة الأخرى كانت تفاصيل الحفل. تَمَّ تمرير قلمٍ إلَى آرشي، وسجَّل اسمه (ألفريد آرشيبالد جونز)، الجنسيَّة (إنجليزي)، والعمر (47). وتمهَّل لحظةً أمام المربَّع المعنون «المهنة»، ثُمَّ قرَّر تسويد خانة «إعلانات: (منشوراتٌ مطبوعةٌ)»، ثُمَّ وقَّع باسمه. وكتبَت كلارا اسمها (كلارا إيفيجينيا بودين)، الجنسيَّة (جامايكيَّة)، والعمر (19). ولَمْ تجد مُرَبَّعًا يهتمُّ بمهنتها. ذهبَت مباشرةً إلَى خطٍّ مُنقَّطٍ فاصلٍ، مرَّرت قلمها عليه، وعدَّلَت الحرف المختصر الأوَّل مِنْ أ جونز ليكون بحروف كبيرة. أ جونز.. كما لَوْ أنَّه لَمْ يكن هناك آخرون جاءوا قبلها.

وبعدها ذهبوا إلَى الخارج، عَلَى درجات السُّلَّم، حيثُ حملَت النَّسائمُ أوراقَ زينةٍ مُستعملةً، وجرفتها باتِّجاه زوجين جديدين، وحيث التقَت كلارا بالمدعوَّين الوحيدَين لزفافها رسميًّا للمرَّة الأولى: اثنين مِنَ الهنود، يرتديان حريرًا أرجوانيًّا معًا. صمد إقبال، رجلٌ طويلٌ ووسيمٌ بأكثر الأسنان بياضًا، وبيدٍ ميِّتةٍ، ظلَّ يحتفظ بها وراء ظهره باستخدام اليد الَّتي تعمل.

«هذه فكرتي، أنتم تعرفون،» ظلَّ يُردِّدُ مرَّةً تلو أخرى. «فكرتي، كُلُّ موضوع الزَّواج هذا. لقَدْ عرفتُ الفتى الكبير منذ - متى؟»

«1945، يا سام.»

«هذا ما أحاول أَنْ أخبر زوجتك العزيزة به، 1945 - عندما تعرف شخصًا كُلَّ هذا الوقت، وتكون حاربتَ إلَى جواره، فإنَّ مهمَّتك إذن أَنْ تجعله سعيدًا ما لَمْ يكن كذلك. ولَمْ يكن! بل عَلَى العكس تمامًا قبل ظهورك! تمرَّغ في كومةٍ مِنَ القرف، لَوْ تغفرين فرنسيَّتي. لحسنِ الحظِّ، فقَدْ أُرسِلَتْ بعيدًا الآن. هناك مكانٌ واحدٌ - فقط - للمجانين، مع آخرين يشبهونهم،» قال صمد، وهو يفقد أنفاسه خلال الجملة، وبالنِّسبة إلى كلارا فلَمْ تملك أَيَّة فكرةٍ عمَّا يتحدَّث عنه. «على أَيَّة حالٍ، لا حاجة للخوض في... هي فكرتي، عَلَى الرَّغم من ذلك، أنتم تعرفون، كُلُّ هذا.»

وبعد ذلك هناك زوجته، ألسانا، صغيرة الحجم مزمومة الشَّفتين، وبدت غير متقبِّلةٍ لكلارا عَلَى نحوٍ ما (على الرَّغم مِنْ أَنَّها بدَت أكبر منها بسنواتٍ قليلةٍ فقط)؛ وقالت مجرَّد: «أوه نعم، يا سيِّد جونز» أَوْ «أوه لا، يا سيِّد جونز»، ما جعل كلارا متوتِّرةً جدًّا، ومُحرَجةً جدًّا، وشعرت أَنَّها ستضطرُّ إلَى أَنْ تلقي حذاءها عليها.

شعر آرشي بالأسى لأجل كلارا لأنَّه لَمْ يكن حفل استقبالٍ أكبر. ولكنْ لَمْ يكن هناك آخرون لدعوتهم. رفض كُلُّ الأقارِبِ الآخرين والأصدقاء دعوة الزَّواج؛ بعضهم بشكلٍ مقتضب، وبعضهم مصدومين، والآخرون معتقدين أَنَّ الصَّمت هو الخيار الأفضل، قضوا الأسبوع الأخير في مثابرةٍ عَلَى تجاوز البريد وتجنُّب التِّليفون. وكان الوحيد الَّذِي تمنَّى أمنياتٍ طيِّبةً هو إيبلجوفتس، الَّذِي لَمْ يكن مدعوًّا ولا تَمَّ إخباره بالمناسبة، ولكنْ وصلت منه، للغرابة، رسالةٌ في بريد الصَّباح:

فبراير 14، 1975

عزيزي آرشيبالد:

هناك، في العادة، شيءٌ ما بخصوص حفلات الزِّفاف، يُبرِز عداء الإنسانيَّة بداخلي، ولكنَّني اليوم، فيما أحاول أَنْ أنقذ سريرًا مِنْ زهور البتونيا مِنَ الفناء، شعرت بدفءٍ لا يستهان به تجاه اتِّحاد رجلٍ واحدٍ بامرأةٍ واحدةٍ في عِشْرةٍ مدى الحياة. مِنَ اللَّافت للنَّظر حقيقة أنَّنا نحن البشر نصنع مثل هذا الإنجاز المستحيل، ألا تعتقد ذلك؟ ولكنْ لأَكُن جادًّا للحظةٍ: كما تعرف، فأنا رجلٌ مهنته أَنْ ينظر عميقًا داخل «المرأة»، وأنا، مثل الطَّبيب النَّفسيِّ، أحيِّدها ضمن فاتورةٍ كاملةٍ للصِّحَّة أَوْ ما إِلَى ذلك. وأشعر بالثِّقة، يا صديقي (لتوسيع الاستعارة)، أنَّك استكشفت السَّيِّدة خاصَّتك، زوجتك المقبلة بكذا طريقةٍ، روحيًّا وعقليًّا، ووجدتها بلا نقيصةٍ عَلَى أيِّ وجهٍ، ولذا، فأَيَّ شيءٍ آخر يمكن أَنْ أقدِّمه سوى التَّهاني القلبيَّة مِنْ منافسك الجادِّ،

هورست إيبلجوفتس

ما الذِّكريات الأخرى في ذلك اليوم، والَّتِي تجعله متفرِّدًا، وتميِّزه عَنْ الـ 364 يومًا الأخرى الَّتِي تضمَّنتها 1975؟ تذكَّرَت كلارا شابًّا أسودَ وقف بجوار قفصٍ مِنَ التُّفَّاح، يتعرَّق في بذلةٍ سوداء، بدأ في التَّوسُّل إِلَى إخوته وأخواته؛ وسيِّدةً بحقيبةٍ قديمةٍ تستخرج القرنفل مِنَ الصُّندوق لكَيْ تضعه في شعرها. ولكنْ بعدها انتهى كُلُّ شيءٍ: تَمَّ نسيان السَّندويتشات المغلَّفة بالبلاستيك الَّتِي صنعَتها كلارا وجلست تعاني في قاع أحد الأكياس، وتلبَّدتِ السَّماءُ بالغيوم أكثر، وعندما ساروا صاعدين التَّلَّ باتِّجاه حانة الملك لود، مجتازين الهتافات البذيئة لمراهقي شارع فليت وهم يحتفلون بأقداح السَّبت، اكتُشِفَ أَنَّ آرشي حصل عَلَى مخالفةٍ لوقوف السَّيَّارة.

وهكذا حدث أَنَّ كلارا قضتْ أَوَّل ثلاث ساعاتٍ في حياتها الزَّوجيَّة في قسم شرطة شيبسايد، وحذاؤها في يدها، تشاهد منقذها وهو يتجادل بدون كللٍ مع مفتِّش مرورٍ فشل في تفهُّم تفسير آرشي الذَّكيِّ لقوانين الأحد لركن السَّيَّارات.

«كلارا، كلارا، يا حبيبتي ـــ.»

هذا آرشي، يشقُّ طريقه بجهدٍ وهو يتجاوزها إِلَى الباب الأماميِّ، المحجوب جزئيًّا بطاولةٍ للقهوة.

«لدينا آل إكـ-بول[1] سيأتون اللَّيلة، وأرغب في ترتيب هذا البيت بصورةٍ ما - لذا انتبهي للطَّريق.»

«هَلْ تريد مساعدةً؟» سألَتَ كلارا، رغم أَنَّها مازالت في منتصف حلمٍ نهاريٍّ. «يمكنني أَنْ أحمل شيئًا إذا ـــ.»

«لا، لا، لا، لا ـــ سأتصرَّف.»

وصلت كلارا لكَيْ تأخذ جانبًا مِنَ الطَّاولة. «دعني فقط ـــ.»

جاهد آرشي ليحشر نفسه عبر الحيِّز الضَّيِّق، وهو يحاول الإمساك بكُلٍّ مِنْ أرجل الطَّاولة ولوح الزُّجاج الكبير المنفصل عَلَى سطحها.

«إِنَّه عملٌ للرِّجال، يا حبيبتي.»

«ولكن ـــ ،» رفعت كلارا كرسيًّا ضخمًا ذا ذراعين بسهولةٍ تُحسد عليها، وأحضرَته إِلَى حيث أوشك آرشي عَلَى الانهيار، وهو يلهث مِنْ أجل التَّنفُّس عَلَى درج القاعة. «إِنَّها ليسَت مشكلةً. إذا أردت مساعدةً فاطلبها فقط.» ومرَّرت يدها في نعومةٍ عَلَى جبهته.

«نعم، نعم، نعم.» تحرَّر منها في تهيُّجٍ، كما لَوْ يهشُّ ذبابةً. «أنا مؤهَّلٌ تمامًا، تعرفين ـــ.»

«أعرف ذلك ـــ.»

«إِنَّه عملٌ للرِّجال.»

1 - يقصد هنا «إقبال» عائلة صديقه صمد وهو ينطقه بلكنة خاصة. (المترجم).

«نعم، نعم، إنَّني أرى ـــ. أنا لَمْ أقصد ـــ.»

«أنظُري، يا كلارا، يا حبيبتي، ابتعدي عَنْ طريقي فقط، وسأنتهي مِنْ هذا، اتَّفقنا؟»

راقبته كلارا وهو يشمِّر أكمامه مع بعض العزم، ويعالج طاولة القهوة مِنْ جديدٍ.

«إذا أردتِ فعلًا أَنْ تقدِّمي بعض المساعدة، يا حبيبتي، فيمكنك أَنْ تبدئي بإحضار بعض ملابسك. يعلم الله، هناك ما يكفي منها لإغراق سفينةٍ حربيَّةٍ لعينةٍ. كيف يمكننا أَنْ نحشرها في المساحة الصغيرة الَّتي لدينا، أنا واثقٌ أَنَّني لا أعرف.»

«قلتُ مِنْ قبل ـ يمكننا أَنْ نرمي ببعضها إِلَى الخارج إذا كنتَ ترى ذلك أفضل.»

«لا يرجع الأمر لي، الآن، ليس الأمر لي، أليس كذلك؟ أعني، هَلْ هو كذلك؟ وماذا عَنْ حامل المعطف؟»

هذا هو هذا الرَّجل: غير قادرٍ أبدًا عَلَى اتِّخاذ قرارٍ، وغير قادرٍ عَلَى إعلان موقفٍ.

«لقَدْ قلتُ ذلك بالفعل: إذا لَمْ تكن تحبُّها، إذن اعِدْ تلك الأشياء اللَّعينة، لقَدِ اشتريتها لأَنَّني ظننتُ أَنَّك تحبّها.»

«حسنًا، يا حبيبتي»، قال آرشي، بحذرٍ الآن كونها رفعَت صوتها، «لقَدْ كانت أموالي ـ كان ليصبح لطيفًا لَوْ سألتِني عَنْ رأيي عَلَى الأقلِّ.»

«يا رجل! إنَّه حامل معطفٍ. وهو ـ فقط ـ أحمرُ. وأحمرُ هو أحمرُ هو أحمرُ. ما الخطأ الَّذي ظهر فجأةً في الأحمرِ؟»

«إنَّني ـ فقط ـ أحاول،» قال آرشي، خافضًا صوته إِلَى همسٍ أجشَّ كظيمٍ (سلاحٌ صوتيٌّ مفضَّلٌ في ترسانة الزَّوجيَّة: ليس أمام الجيران/الأطفال)، «أَنْ أرفع الأسلوب في المنزل بعض الشَّيء. هذا جوارٌ لطيفٌ، وحياةٌ جديدةٌ، تعرفين. أنْظُري، دعينا لا نتجادل. دعينا نقترع إِلَى عملةٍ معدنيَّةٍ؛ الرؤوس يبقى، والذيول.....»

العشَّاق الحقيقيُّون يتنازعون، ثُمَّ يسقطون في الثَّانية التَّالية في أحضان بعضهما؛ والعشَّاق الأكثر حنكةً سيصعدون السُّلَّم، أَوْ يدلفون إِلَى الغرفة التَّالية، قبل أَنْ يتراجعوا ويتَقَفُّوا خطواتهم. وفي علاقةٍ عَلَى وشك الانهيار سوف تجد أحد

الشَّريكين عَلَى مسافة حجرَين عَلَى الطَّريق أَوْ بلدَين في الشَّرق قبل أَنْ يجذبه شيءٌ، بعض المسؤوليَّة، بعض الذِّكريات، جذبةٌ مِنْ يد طفل أَوْ شعورٌ جارفٌ بالحبِّ، يدفع كُلًا منهما لقطع رحلة العودة الطَّويلة إِلَى نصفه الآخر. عَلَى مقياس ريختر ذلك ـ إذن ـ فإِنَّ كلارا لَمْ تقُمْ سوى بدمدماتٍ أضعف. استدارَت نحو البوَّابة، ومشت خطوتَين فقط، ثُمَّ توقَّفت.

«رؤوس!» قال آرشي، بدون استياءٍ كما بدَا. «فليبق. أترين؟ لَمْ يكن ذلك صعبًا جدًّا.»

«لا أريد أَنْ أدخل في جدالٍ.» استدارت لكَيْ تواجهه، وقَدِ اتَّخذت قرارًا جديدًا بالصَّمت لتتذكَّر دينها تجاهه. «قلتَ إِنَّ آل إقبال قادمان للعشاء. كنتُ ـ فقط ـ أفكِّر، إذا أرادا مِنِّي أَنْ أطبخ لهما بعض الكاري ـ أعني، أستطيع طهو الكاري ـ ولكنَّها طريقتي في الكاري.»

«بحقِّ الرَّبِّ، إِنَّهما ليسا هذا النَّوع مِنَ الهنود،» قال آرشي بانفعالٍ، مستاءً مِنْ هذا الاقتراح. «سام سيتناول لحم الدِّيك الرُّوميّ ليوم الأحد مثل الرَّجل في الجوار تمامًا. إِنَّه يقدِّم الطَّعام الهنديَّ طوال الوقت، ولا يريد أَنْ يأكله أيضًا.»

«كنتُ فقط أتساءل ــ.»

«حسنًا، لا تفعلي، يا كلارا. رجاءً.»

منَحها قبلةً حانيةً عَلَى جبينها، انحنَت مِنْ أجلها للأسفل بعض الشَّيء.

«لقَدْ عرفتُ سام لسنواتٍ، وتبدو زوجته مِنْ نوعٍ هادئٍ. إِنَّهما ليسا مِنَ العائلة المالكة، كما تعرفين. وهما ليسا هذا النَّوع مِنَ الهنود،» كرَّر، وهزَّ رأسه، وهو يعاني مشكلةً ما، مِنْ بعض المشاعر المعقَّدة الَّتِي لَمْ يتمكَّن مِنَ التَّخلُّص منها بالكامل.

***

عاش صمد وألسانا إقبال، اللَّذَان لَمْ يكونا هذا النَّوع مِنَ الهنود (كما لَمْ تكن كلارا، في ذهنيَّة آرشي، هذا النَّوع مِنَ السُّود)، واللَّذَان لَمْ يكونا هنديَّين عَلَى الإطلاق في الحقيقة، بَلْ بنجلاديشيَّين، عَلَى بُعد أربع بناياتٍ في الجانب المعاكس مِنْ طريق ويلزدِن السَّريعة. استغرق الأمر منهما عامًا لكَيْ يصلا إِلَى هناك، عامًا مِنَ العمل الشَّاقِّ بلا رحمةٍ لتحقيق هذه الخطوة المهمَّة؛ مِنَ الجانب المعاكس في وايت تشابل إِلَى الجانب

المعاكس مِنْ ويلْزدِن. عامًا يساوي بالنِّسبة إلى ألسانا أنْ تعمل بلا كللٍ عَلَى ماكينة سنجر للخياطة الَّتِي قبعَت في المطبخ، وهيَ تخيط قطعًا مِنَ البلاستيك الأسودِ لصالح محلٍّ يُدعى «سيطرة» في سوهو (كثيرةٌ اللَّيالي الَّتِي حملَت فيها ألسانا قطعةً مِنَ الثِّياب انتهَت ـ بالكاد ـ مِنْ صنعها، وفق الباترون الَّذِي أُعطي لها، وهي تتساءل ما يمكن أنْ يكون ذلك في الحقيقة). عامًا يساوي بالنِّسبة إلَى صمد أنْ يحني رأسه بالزَّاوية الصَّحيحة الَّتِي تدلُّ عَلَى الاحترام، بقلمٍ رصاصٍ في يده اليُسرى، وهو يستمع إلَى النُّطق المروِّع للبريطانيِّين، والإسبان، والأمريكيِّين، والفرنسيِّين والأستراليِّين:

جو باي إيللو ساج[1]، رجاءً.

دجاج جالفرزهي[2] مع رقائق البطاطس، شكرًا

مِنْ السَّادسة في المساء وحتَّى الثَّالثة في الصَّباح؛ وبعدها يُقضى النَّهار في النَّوم حتَّى يصبح ضوء النَّهار في ندرة البقشيش المحترم. لأجل أيِّ هدفٍ، سيفكِّر صمد، أَنْ يزيح جانبًا ورقتي عملةٍ وإيصالًا لكَيْ يعثر عَلَى خمسة عشر بنسًا، ما المعنى في أَنْ تمنح رجلًا بقشيشًا بنفس القيمة الَّتِي قَدْ تلقيها في نافورةٍ لكَيْ تُلاحق أُمنيةً؟ ولكِنْ قبل حتَّى أَنْ تملك الفكرة غير الشَّرعيَّة لطيِّ الخمسة عشر بنسًا خلسةً في منديل اليد فرصةً لكَيْ تُجسِّد نفسها، فإنَّ موكهول ـ أردشير موكهول، الَّذِي يدير القصر، والَّذِي تذرع خطواته المطعم في إيقاعٍ خفيفٍ وثابتٍ، بعينٍ مراعيةٍ عَلَى الزَّبائن، وعينٍ مراقبةٍ دائمًا عَلَى العاملين ـ يكون موكهول فوق رأسه.

«صاااماااادا» ـ لديه طريقةٌ دهنيَّةٌ مُقرفةٌ في الحديث ـ «هَلْ قبَّلت ما يَلزم مِنْ مؤخِّراتٍ هذا المساء، يا ابن عمِّي؟»

كان صمد وأردشير أبناء عمومةٍ مِنْ بعيدٍ، صمد هو الأكبر بستِّ سنواتٍ. يا له مِنَ استمتاعٍ (نعيمٌ خالصٌ!) ذلك الَّذِي فتح به أردشير الرِّسالة في يناير الماضي، ليكتشف أَنَّ ابن عمِّه الأكبر والأمهر والأكثر وسامةً وجد أنَّه مِنَ العسير الحصول عَلَى عملٍ في إنجلترا، وهَلْ يمكن له أَنْ...

«خمسة عشر بنسًا، يا ابن عمِّي،» قال صمد، وهو يرفع كفَّه.

1 ـ المقصود طبق هندي يضم الجوبهي (القرنبيط)، والآلو (بطاطس)، والساج (سبانخ). (المترجم).
2 ـ دجاج مع البصل والتوابل. (المترجم).

«حسنًا، القليل عَلَى القليل يساعد، كُلُّ قليلٍ يساعد،» قال أردشير، وشفتاه (شفتا السَّمكة الميِّتة) تتَّسعان إِلَى ابتسامةٍ كبيرةٍ. «بها إِلَى جرَّة البول.»

جرَّة البول هي عبارةٌ عَنْ جرَّةٍ مِنَ البالتي[1] الأسود استقرَّت عَلَى حاملٍ صغيرٍ خارج مرحاض الموظَّفين، يتمُّ تجميع البقشيش فيها لاقتسامه في آخر اللَّيل. وبالنِّسبة إلى النُّدُل الأصغر سنًّا، المتأنِّقين، حَسَني المظهر مثل شيڤا، فذلك ظلمٌ فادحٌ. شيڤا هو الهندوسيُّ الوحيد بين الموظَّفين - وكان ذلك بمثابة إشادةٍ بمهاراته كنادلٍ، والَّتِي انتصرت عَلَى الاختلافات الدينيَّة. كان يمكن لشيڤا أَنْ يحقِّق أربعة جنيهاتٍ بقشيشًا في ليلةٍ إذا كانت المطلَّقةُ البيضاءُ البدينةُ في الزَّاويةِ تشعر بالوحدة بما يكفي، لَوْ صوَّب رموشه الطَّويلة نحوها بشكلٍ مؤثِّرٍ. يمكنه أيضًا أَنْ يجمع أمواله مِنَ المخرجين والمنتجين طويلي الياقات (استقرَّ القصر في قلب منطقة المسرح في لندن، وهؤلاء لا يزالون في أَيَّام الديوان الملكي للفتيان الجميلين ودراما حوض المطبخ[2]) الَّذِين غازلوا الفتى، وشاهدوا مؤخِّرته تهتزُّ بشكلٍ مثيرٍ في ذهابه للبار وعودته، وأقسموا أَنَّه إذا تبنَّى أَيُّ شخصٍ رحلةً إِلَى الهند مِنْ أجل المسرح فباستطاعته الحصول عَلَى أَيِّ دورٍ يُرضي هواه. بالنِّسبة إلى شيڤا - إذن - كان نظام جرَّة البول - ببساطة - عمليَّة نهبٍ في ضوء النَّهار، وإهانةٌ لقدراته الَّتِي لا تُبارى كنادلٍ. ولكنْ بالنِّسبة إلى رجالٍ مثل صمد، في أواخر أربعيناته، وللأكبر أيضًا، مثل محمد الأشيب (العمِّ الكبير لأردشير)، في الثَّمانين إنْ لَمْ يكن أكثر، والَّذِي هناك أخاديد عميقةٌ عَلَى جانبي فمه كذكرياتٍ لابتساماته عندما كان صغيرًا، لهؤلاء الرجال فليست جرَّة البول موضع شكاية. أَنْ ينضمُّوا إِلَى المجموعة أكثر منطقيَّةً مِنْ أَنْ يضعوا خمسة عشر بنسًا في جيوبهم في مخاطرةٍ أَنْ يتمَّ كشفهم (وأَنْ يحرموا مِنْ أسبوعٍ مِنَ البقشيش).

«كُلُّكم عَلَى مؤخِّرتي!»، سيزمجر شيڤا، عندما يُضطرُّ إِلَى التخلي عَنْ خمسة جنيهاتٍ في نهاية اللَّيلة، ويضعها في الوعاء. «أَنتم جميعًا تعيشون عَلَى مؤخِّرتي! فليأخذ

1 - البالْتِي هي مجموعة عرقية ترجع أصولها إلى التبت تعيش في منطقة جيلجيت - بالتستان في باكستان. بالإضافة إلى جماعة تعيش في منطقة لاداك، في جاموبكشمير الهندية، وبعضهم ضواحي المراكز الحضرية من لاهور وكراتشي وإسلام أباد، والمقصود هنا فخار البالتي. (المترجم).

2 - مصطلح تمت صياغته لوصف حركة ثقافية بريطانية تطورت في نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات في المسرح والفنون والروايات والأفلام والدراما التليفزيونية والَّتِي يمكن وصف أبطالها بالشباب الغاضبين. واعتمدت أسلوب الواقعية الاجتماعية. (المترجم).

أحدٌ ما هؤلاء الفاشلين عَنْ مؤخِّرتي! هذه خمستي والآن سيتمُّ تقسيمها.عَلَى خمسةٍ وستِّين مليون طريقةٍ لعينةٍ كصدقةٍ عَلَى هؤلاء الخاسرين! ما هذا: شيوعيَّةٌ؟»

وسيتجاهل الجميع نظرته السَّاخطة ويشغلون أنفسهم مُستغرقين في أشياء أخرى، حتَّى قال صمد في إحدى الليالي، في واحدةٍ من ليالي الخمسة عشر بنسًا، بهدوءٍ، وبصوتٍ لا يكاد يسمع: «اخرس يا فتًى.»

«أنتَ!»، التفت شيفا إِلَى حيث وقف صمد، وهو يهرس في حوضٍ كبيرٍ مِنَ العدس، لدال[1] الغد. «أنتَ الأسوأ بينهم! أنتَ أسوأ نادلٍ حقيرٍ رأيتُه عَلَى الإطلاق! لَمْ تكنْ لتحصل عَلَى أيِّ بقشيشٍ ولَوْ سرقتَ هؤلاء الأوغاد! لقَدْ سمعتكَ تُحدِّث الزَّبائن حول بيولوجيَّة هذا، وسياسات ذلك ـ قدِّم الطَّعام فقط، أيُّها الأحمق ـ أنتَ نادلٌ ـ بحقِّ اللَّعنة ـ أنتَ لستَ مايكل باركنسون[2]. هَلْ سمِعتُكَ تقول دلهي؟» ـ وضع شيفا مريلته عَلَى ذراعه وبدأ في الاستعراض في المطبخ (كان مقلِّدًا مثيرًا للشفقة) ـ «لقَدْ كنتُ هناك بنفسي، أنتَ تعرف، جامعة دلهي، إنَّها الأروع، نعم ـ وقاتلتُ في الحرب، لأجل إنجلترا، نعم ـ نعم، نعم، ساحرٌ، ساحرٌ.» سار في المطبخ مرَّةً فأخرى، حانيًا رأسه وهو يفرك يديه مرَّةً تلو أخرى مثل أوريا هيب[3]، منحنيًا وراكعًا إِلَى كبير الطُّهاة، إِلَى الرَّجل المسن الَّذِي يرتِّب كتل اللَّحم في ممشى الثَّلاجة، وللفتى الصَّغير الَّذِي يدعك الجانب السُّفلي مِنَ الفرن. «صمد، صمد...» قال بما يبدو شفقةً لا مُتناهيةً، ثُمَّ توقَّف فجأةً، ونزع المريلة ولفَّها حول وسطه. «يالك مِنْ رجلٍ ضئيلٍ بائسٍ.»

تطلَّع محمد مِنْ وعاء غسيله وهزَّ رأسه مرَّةً وأخرى. وقال للا أحد عَلَى التَّحديد: «صغار السِّنِّ هؤلاء ـ ما هذا النَّوع مِنَ الكلام؟ ما هذا النَّوع مِنَ الكلام؟ ماذا حدث للاحترام؟ ما نوع الكلام هذا؟»

«وأنت يمكنك أَنْ تغرب عَنْ وجهي، أيضًا،» قال شيفا، ملوِّحًا بمغرفةٍ في اتِّجاهه، «أنت أيُّها المُسِنُّ المخرِّف. أنت لست والدي.»

1 ـ الدال هو العدس في اللغة الأردية. (المترجم).

2 ـ السير مايكل باركنسون: مذيع وصحفي ومؤلف بريطاني. اشتهر بتقديم برنامج التليفزيون الحواري الشهير مع باركنسون من 1971 وحتى 1982 ومن 1998 حتَّى 2007. وصفته الجارديان بأنه «أفضل مضيف في البرامج الحوارية البريطانية». (المترجم).

3 ـ فرقة بريطانية لموسيقى الروك تأسست في العام 1969. (المترجم).

«ابن العمِّ الثَّاني لعمِّ أُمِّك،» تمتم صوتٌ مِنَ الخلف.

«اللَّعنة،» قال شيڤا. «اللَّعنة عَلَى ذلك.»

انتزع المسحة متوجِّهًا نحو دورة المياه، عندما وقف أمام صمد ووضع يده عَلَى بعد بوصاتٍ مِنْ فمه.

«قبل هذا،» قال بسخريةٍ؛ وبعدها، منتحلًا تشدُّق أردشير الرَّخو، «مَنْ يدري، يا ابن العمِّ، فقَدْ تحصل عَلَى علاوة!»

هذا ما كان، مثل معظم اللَّيالي: معاملةٌ سيِّئةٌ مِنْ شيڤا والآخرين؛ وتعالٍ مِنْ أردشير، وعدم رؤية ألسانا؛ عدم رؤية الشَّمس؛ والإمساك بخمسة عشر بنسًا ثُمَّ إفلاتها، والرَّغبة البائسة في أَنْ يضع شعارًا، شعارًا أبيضَ كبيرًا يقول:

أنا لستُ نادلًا. لقَدْ كنتُ طالبًا، وعالمًا، وجنديًّا، زوجتي تدعى ألسانا، ونحنُ نعيش في شرق لندن، ولكنَّنا نرغبُ في الانتقال إِلَى الشَّمال. أنا مسلمٌ ولكنَّ الله نبذني، أَوْ أنَّني ضللتُ طريقي، لستُ متأكِّدًا. لديَّ صديقٌ - آرشي - وآخرون. أنا في التَّاسعة والأربعين، ولكنَّ النِّساء ما زلن يلتفتن نحوي في الشَّارع، أحيانًا.

ولكنْ، لا يُوجد مثل هذا الشِّعار، عليه أَنْ يجادل عوضًا عَنْ ذلك، لديه الحاجة لأَنْ يتحدَّث إِلَى كُلِّ رجلٍ، مثلما يشرح البحَّار القديم[1] باستمرارٍ، مع رغبةٍ مستمرَّةٍ في تأكيد شيءٍ ما، أيِّ شيءٍ. أليس ذلك مُهمًّا؟ ولكنْ بعد ذلك هناك خيبة الأمل المفجعة - أَنْ تكتشف أَنَّ إمالة المرء لرأسه، واستعداد المرء بقلمه، هذان أمران مُهمَّان، مُهمَّان جدًّا - مِنَ المهمِّ أَنْ يكون نادلًا جيدًا، أَنْ ينصت عندما يقول أحدهم —

لحمَ خروفٍ داون سوك[2] وأرزًا. مع رقائق البطاطس. شكرًا لك.

وتلمع خمسة عشر بنسًا في الصِّين. شكرًا لك، يا سيِّدي. شكرًا جزيلا لك.

***

1 - قصيدة «قافية البحَّار القديم» هي أطول قصيدة رئيسية للشاعر الإنجليزي صامويل تايلر كولريدج، وكتبها بين عامي في ونشرت في عام 1798 في الطبعة الأولى من ديوانه «قصائد غنائية». (المترجم).

2 - المقصود لحم خروف دالساك ويقصد به اللحم الذي يتم طهوه مع العدس، ويقدم حارًّا وحلوًا. وهو طبق فارسي الأصل يقدم في المطاعم الهندية. وقصدت المؤلفة تحريف الاسم للتأكيد على سخرية صمد من نطق زبائن المطعم لأسماء الوجبات. (المترجم).

في يوم الثُّلاثاء، بعد حفل زفاف آرشي، انتظر صمد حتَّى غادر الجميع، وطوى بنطلونه الأبيضَ اللَّامعَ (المصنوع مِنْ نفس نسيج مفارش المائدة) إِلَى مربَّعٍ تامٍّ، ثُمَّ تسلَّق السُّلَّم إِلَى مكتب أردشير، لأَنَّ لديه شيئًا ما لكَيْ يطلبه.

«يا ابن عمِّي!»، قال أردشير، بتقطيبةٍ ودودةٍ لدى رؤية جسم صمد يستدير بحذرٍ نحو الباب. علم أَنَّ صمد جاء للاستفسار عَنْ زيادةٍ في الأجر، وأراد لابن عمِّه أَنْ يشعر أَنَّه وضع الأمر عَلَى الأقلِّ في اعتباره بكُلِّ حصافته الودودة قبل أَنْ يرفضه.

«يا ابن العمِّ، تعال، ادخل!»

«مساء الخير، يا أردشير موكهول،» قال صمد، وهو يخطو بالكامل إِلَى الغرفة.

«اجلس، اجلس،» قال أردشير بدفءٍ. «لا جدوى مِنَ الوقوف الاحتفالي الآن، أليس كذلك؟»

سرَّ صمد أَنَّ الأمر كذلك. قال ما يكفي. وأخذ لحظةً لكَيْ ينظر بالإعجاب اللَّازم في أرجاء الغرفة، بذهبها الخام، بسجادتها ثلاثيَّة الطَّبقات، وبأثاثها ذي الظِّلال المتنوِّعة مِنَ الأصفر والأخضر. عَلَى المرء أَنْ يعجب بالحسِّ التِّجاريِّ لأردشير. لقَدْ أخذ الفكرة البسيطة لمطعمٍ هنديٍّ (غرفةً صغيرةً، ومفارش مائدةٍ ورديَّةً، وموسيقى صاخبةً، وورق حائطٍ بشعًا، ووجباتٍ لا تُوجد في الهند، وحاملًا دوَّارًا للصَّلصة) وجعلها فقط أكبر. لَمْ يطوِّر أَيَّ شيءٍ، كُلُّ شيءٍ هو نفس الهُراء القديم، ولكنَّه بكامله أكبر في مبنًى أكبر، في أكبر الشِّراك السِّياحيَّة في لندن، ساحة ليستر. عليك أَنْ تعجب بها وتعجب بالرَّجل، الجالس الآن كجرادةٍ سخيَّةٍ، وجسمه الحَشَريُّ النَّحيل غارِقٌ في كرسيٍّ مِنَ الجلد الأسودِ، يميل نحو المكتب، ويبتسم بالكامل، كطفيليٍّ متنكِّرٍ في زيِّ رجل خيرٍ.

«يا ابن العمِّ، ماذا يمكنني أَنْ أفعل مِنْ أجلك؟»

أخذ صمد نَفَسًا، الموضوع أَنَّ....

بدَت عينا أردشير مزجَّجتين بعض الشَّيْءِ بينما صمد يشرح وضعه. ارتعشَت ساقاه النَّحيلتان تحت الطَّاولة، وعالج قصاصةً مِنَ الورق بين أصابعه حتَّى بدت بشكلٍ معقولٍ كحرف الأَلِف. أَلِفٌ لأردشير. الموضوع هو.... ماذا كان الموضوع؟ البيت هو الموضوع. صمد ينتقل من شرق لندن (حيث ليس بمستطاع المرء أَنْ يربِّي أطفالًا،

بالتَّأكيد لا يستطيع المرء أَنْ يفعل، ليس إذا لَمْ يُرِد المرء لهم أَنْ يصابوا بأذًى جسديٍّ، وافقه)، مِنْ شرق لندن بعصابات الجبهة الوطنية[1] فيها، إِلَى شمال لندن، الشَّمال الغربي، حيث الأمور أكثر.. أكثر.. ليبراليَّةً.

هل هذا دوره في الحديث؟ .

«يا ابن عمي ...» قال أردشير، مهيئًا وجهه: «ينبغي أَنْ تفهم... لا أستطيع أَنْ أجعل مهمتي أَنْ أشتري منازلَ لكُلِّ الموظَّفين الَّذِين لديّ، أكان ابن عمِّي أَمْ ليس ابن عمِّي... أنا أدفع أجرًا، يا ابن عمِّي... هكذا هي الأعمال في هذا البلد.»

ارتعد أردشير وهو يتحدَّث كما لَوْ ليوحي بأَنَّه يعارض «الأعمال في هذا البلد» بشدَّةٍ، ولكنَّها موجودةٌ. هو مضطرٌّ، هذا ما قالته نظرته، هو مدفوعٌ مِنَ البريطانيين لأَنْ يحقِّق كميَّةً ضخمةً مِنَ المال.

«أنتَ تسيء فهمي، يا أردشير. لدَيَّ الوديعة للمنزل، إِنَّه منزلنا الآن، لقَدِ انتقلنا ـــ»

كيف *أمكن، في الأرض*، أَنْ يوفِّرها، لا بُدَّ وأَنَّه شغَّل زوجته مثل عبدةٍ حقيرةٍ، فكَّر أردشير، وهو يسحب قطعة ورقٍ أخرى مِنَ الدُّرْج السُّفليِّ.

«أنا بحاجةٍ، فقط، لزيادةٍ صغيرةٍ في الأجر لتساعدني في تمويل الانتقال. لكَيْ تجعل الأشياء أكثر سهولةً بينما نستقرُّ. وألسانا، حسنًا، إِنَّها حاملٌ.»

حاملٌ. أمرٌ صعبٌ. الحالة تستدعي الحدَّ الأقصى مِنَ الدِّبلوماسيَّة.

«لا تأخذ كلامي عَلَى محملٍ خطإٍ، يا صمد، كلانا ذكيَّان، رجلان صريحان كما أظنُّ، يمكنني أَنْ أتحدَّث بصراحةٍ... أعرف أَنَّك لستَ مجرَّد نادلٍ ابن قحبةٍ،» ـ همس بالعبارة البذيئة وابتسم في أريحيَّةٍ بعدها، كما لَوْ أَنَّ تناول مسألةٍ خاصَّةٍ، وخارجةٍ، جعلهما أكثر حميميَّةً معًا ـــ «إِنِّي أرى وضعك... بالتَّأكيد أفعل... ولكنَّك ينبغي أَنْ تتفهَّم وضعي... إذا منحتُ علاوةً لكُلِّ قريبٍ أوظِّفه سأتجوَّل مثل السَّيِّد غاندي اللَّعين بدون جرَّةٍ أتبوَّل فيها. أغزل خيوطي عَلَى ضوء القمر. وعلى سبيل المثال: في هذه اللَّحظة تحديدًا، هذا المبذر السَّمين إلفيس، صهري، حسين إسماعيل ـــ.»

---

1 ـ حزب سياسي يميني متطرف، مقره الرئيسي في كينجستون، تأسس في 1967 لمناهضة الهجرة الآسيوية إلى بريطانيا، وضمت في عضويتها الكثيرين في منطقة شرق لندن وشمال إنجلترا، وتنظم الجبهة العديد من المسيرات والمظاهرات في الشوارع، والتي كثيرًا ما أسفرت عن اشتباكات مع مناهضي الفاشية. (المترجم).

«الجزَّار؟»

«الجزَّار، يطلب أَنْ أرفع السِّعْر الَّذِي أدفعه مقابل لحمه المتعفِّن! ـ لكنَّنا أصهارٌ، يا أردشير! ـ هذا ما يقوله لي. وأظلُّ أقول له: لَكِنْ يا محمد، هذه *تجارة تجزئة*....»

هذا دور صمد في نظرةٍ مزجَّجة. فكَّر في زوجته، ألسانا، الَّتِي لَمْ تكن بالوداعة الَّتِي افترضها عندما تزوَّجا، والَّتِي إليها سيحمل الأخبار السيِّئة؛ ألسانا الَّتِي كانت ميَّالةً إِلَى لحظاتٍ، بَلْ إِلَى نوباتٍ ـ نعم، نوباتٌ ليست بالكلمة المبالغ فيها ـ مِنَ الغضب العارم. اعتقد أبناء العمِّ، والعمَّات، والإخوة أَنَّها علامةٌ سيِّئةٌ، كانوا يتساءلون إذا لَمْ يكن هناك «تاريخٌ عقليٌّ مضحكٌ» في عائلة ألسانا، وتعاطفوا معه بالطَّريقة الَّتِي تتعاطف بها مع رجلٍ اشترى سيَّارةً مسروقةً بأميالٍ إضافيَّةٍ أكثر ممَّا توقَّع في البدء. وبسذاجته افترض صمد أَنَّ شابةً صغيرةً جدًّا سوف تكون... هيِّنةً. ولكنَّ ألسانا لَمْ تكن... لا، لَمْ تكنْ هيِّنةً. وهذه، كما تصوَّر، هي طريقة شابَّات اليوم. عروس آرشي... الثُّلاثاء الماضي، لقَدْ رأى في عينيها شيئًا، ولَمْ يكن هيِّنًا أيضًا. هناك طريقةٌ جديدةٌ لهؤلاء النِّسوة.

وصل أردشير إِلَى نهاية ما شعر أَنَّه خطابه المفوَّه المتقن، واسترخى إِلَى الوراء في رِضًى، ووضع م موكهول المنحوتة مقابل أ أردشير الَّتِي تجلس في حضنه.

«شكرًا لك، يا سيِّدي،» قال صمد. «شكرًا جزيلًا لك.»

في ذلك المساء حدثَت ضجَّةٌ فظيعةٌ. ألقَت ألسانا ماكينة الخياطة، مع الشُّورت الحريميِّ الأسودِ المرصَّع الَّذِي تعمل عليه، إِلَى الأرض.

«أنت عديم الجدوى! اخبرني، يا صمد مياه، ما الهدف مِنَ الانتقال إِلَى هنا ـ منزلٌ جميلٌ، نعم، جميلٌ جدًّا، جميلٌ جدًّا ـ ولكنْ أين الطَّعام؟»

«إِنَّها منطقةٌ جميلةٌ. لدينا أصدقاء هنا.»

مَنْ هم هؤلاء؟ ضربت قبضتها الصَّغيرة عَلَى طاولة المطبخ، وهي ترسل الملح والفلفل طائرَين، لكي يصطدما ببعضهما في الهواء بشكلٍ مذهلٍ. «أنا لا أعرفهم! لقَدْ حاربتَ في حربٍ قديمةٍ منسيَّةٍ مع رجلٍ انجليزيٍّ... تزوَّج بسوداء! أَيُّ أصدقاءٍ هؤلاء؟ هؤلاء هم النَّاس الَّذِين سيكبر ابني بجوارهم؟ أبناؤهم سودٌ مُبْيَضُّون؟ ولكنْ آخبرني،» صرخت، عائدةً إِلَى موضوعها المفضَّل، «أين طعامنا؟» وفي أداءٍ مسرحيٍّ فتحت كُلَّ خزانةٍ في المطبخ

عَلَى اتّساعها. «أين هو؟ هل يمكننا أنْ نأكل الصِّيني؟» تُحطِّم صحنين عَلَى الأرضيَّة. وتربِّت عَلَى بطنها مشيرةً إِلَى طفلها الَّذِي لَمْ يولد ثُمَّ تشير إِلَى قطع الصِّيني. «هل أنت جائع؟»

فتح صمد، الَّذِي كانت له طبيعةٌ ميلودراميَّةٌ مساويةٌ عندما يُحفَّز، باب الثَّلَّاجة بعنفٍ، وانتزع كتلةً ضخمةً مِنَ اللَّحم كدَّسها في منتصف الغرفة. «كانت أُمُّه تعمل خلال اللّيل في إعداد اللَّحم لعائلتها،» قال. «ولكنَّها لَمْ تفعل،» قال، «صرفت ميزانيَّة المنزل، كما فعلتْ ألسانا، عَلَى الوجبات الجاهزة، والزَّبادي، والاسباجيتّي المعلَّبة.»

سدَّدت ألسانا لكمةً بكُلِّ قوَّتها إليه في بطنه.

«صمد إقبال، المتمسِّك بالتَّقاليد! لماذا فقط لا أقرفص في الشَّارع عَلَى دلوٍ وأغسل الملابس؟ هه؟ في الحقيقة، ماذا عَنْ ملابسي؟ هَلْ تصلح للأكل؟»

أمسك صمد ببطنه مِنَ الألم، وهناك في المطبخ مزَّقت كُلَّ غرزةٍ صنعَتها وأضافتها إِلَى كومة لحم الضَّأن المجمَّد، والقطع الإضافيَّة مِنَ المطعم. وقفَت عاريةً أمامه للحظةٍ، بالبروز الَّذِي مازال صغيرًا بسبب حملها في لَقطةٍ كاملةٍ، ثُمَّ ارتدَت معطفًا بنِّيًّا طويلًا، وغادرَت المنزل.

ولكنَّها كانت تفكِّر بعمقٍ في الوقت نفسه، وهي تغلق الباب وراءها، في أَنَّ ذلك حقيقيٌّ: إِنَّها منطقةٌ جميلةٌ. لَمْ تستطع أَنْ تنكر ذلك وهي تندفع نحو الطَّريق السَّريعة، وتتجنَّب الأشجار بينما كانت من قبلٍ، في وايت تشابل، تتجنَّب المراتب الملقاة والمشرَّدين. سيكون ذلك جيِّدًا للطِّفل، لَمْ تستطع الإنكار. لدى ألسانا اعتقادٌ راسخٌ أَنَّ الحياة بقُرب المساحاتِ الخضراءِ أمرٌ مفيدٌ تربويًّا للصَّغير، وهنا عَلَى يمينها وقع متنزَّه جلادستون، أفقٌ واسعٌ مِنَ الخضرة الَّتِي أطلق عليها اسم رئيس الوزراء اللِّيبرالي (كانت ألسانا مِنْ عائلةٍ بنجاليَّةٍ عريقةٍ محترمةٍ، وقرأت تاريخها الإنجليزيَّ؛ ولكن انظر إليها الآن، لَوْ رأوا ما في الأعماق....!) وفي التَّقاليد الليبراليَّة فالمتنَّزه بدون أسوارٍ، عَلَى العكس مِنْ كوينز بارك (الفيكتوريّ)، بأسواره المعدنيَّة المدبَّبة. لَمْ تكن ويلْزدِن في جمال كوينز بارك، ولكنَّها كانت منطقةً جميلةً. لا يمكن إنكار ذلك. ليست مثل وايت تشابل، حيث ألقى ذلك الرَّجل المجنون إكنوك[1] شيئًا ما أَوْ سواه خطابًا دفعهم إِلَى

1 ـ إينوك باول (سياسي بريطاني) وجه خطابًا إلى الاجتماع العام للمركز السياسي للمحافظين في منطقة غرب ميدلاندز (عرف في العادة ب«أنهار الدم»)، ينتقد فيه الهجرة من دول الكومنولث، والتشريعات المناهضة للتمييز الَّتي تم اقتراحها في 20 أبريل 1968. وتسبب الخطاب في عاصفة سياسية وعنف غير مسبوق. (المترجم).

الطَّابق السُّفليّ بينما حطَّمَ الأطفالُ النَّوافذَ بأحذيتهم المدعومة بالصُّلب. كانت أنهارٌ مِنَ الخراء الدَّمويّ. الآن هي حاملٌ، وتحتاج إِلَى القليل مِنَ السَّلام والهدوء. عَلَى الرغم مِنْ أَنَّ الأمر هنا كان مشابهًا بطريقةٍ ما: فجميعهم ينظرون إليها بطريقةٍ غريبةٍ، هذه المرأة الهنديَّة الضَّئيلة تذرع الطَّريق السَّريعة في معطفٍ واقٍ مِنَ المطر، وشعرها الغزير يتطاير في كُلِّ اتِّجاهٍ. كباب مالي، السيد تشيونجس، مخابز راج مالكوفيتش - قرأت لافتات الطَّريق الجديدة غير المعهودة، وهي تعبر. كانت حاضرة البديهة. ورأت ما يعنيه ذلك. «ليبراليَّةٌ؟ هراء الهوش كوش[1]!» لَمْ يكن أحدٌ أكثر ليبراليَّةً مِنْ أَيِّ شخصٍ آخر في أَيِّ مكانٍ وفي أَيِّ حالٍ. الأمر هنا فقط، في ويلْزدِن، أَنَّه لَمْ يكن هناك ما يكفي مِنْ أَيِّ شيءٍ للاحتشاد ضدَّ أَيِّ شيءٍ آخر، وإرساله راكضًا إِلَى الأقبية بينما تتحطَّم النَّوافذ.

«البقاء هو كُلُّ ما يدور حوله الأمرا» خلُصت إِلَى الاستنتاج بصوتٍ مسموعٍ (تتحدَّث إِلَى طفلها؛ تحبُّ أَنْ تمنحه فكرةً منطقيَّةً واحدةً في اليوم)، وهي تحرِّك الجرس أعلى الأحذية المجنونة بينما تفتح الباب. تعمل نينا، ابنة أخيها، هناك. كان محلَّ إسكافيٍّ عَلَى الطِّراز القديم. وكانت نينا تصلح كعوب الأحذية وتعيد تثبيتها.

«ألسانا، تبدين بحالةٍ مزريةٍ،» صرخت نينا بالبنجاليَّة. «ما هذا المعطف البشع؟»

«ليس هذا مِنْ شأنك، هو ما هو عليه،» أجابت ألسانا بالإنجليزيَّة. «جئت لآخذ حذاء زوجي، لا لكَيْ أثرثر مع عار أخي.»

اعتادت نينا عَلَى ذلك، ومع انتقال ألسانا إِلَى ويلْزدِن لَنْ يكون هناك سوى المزيد منه. اعتادت أَنْ يأتي ذلك في جملٍ أطول، مثل: *لَمْ تجلبي سوى العار... أَوْ ابنة أخي المخزية...* ولكنِ الآن وبسبب أَنَّ ألسانا لَمْ يكن لديها الوقت أَوِ الطَّاقة لكَيْ تستجمع شتائمها اللَّازمة كُلَّ مرَّةٍ، فقَدِ اختصرتها إِلَى عار أخي، كتعبيرٍ مناسبٍ يلخِّص الشُّعور العامَّ.

«هل ترين هذين النَّعلين؟» قالت نينا، وهي تزيح إحدى خصلاتها المصبوغة بالأشقر عَنْ عينها، وتأخذ زوج حذاء صمد مِنْ عَلَى الرَّفِّ، وتقدِّم لألسانا البطاقةَ الزَّرقاءَ الصَّغيرةَ. «لقَدِ ارتداهما كثيرًا، يا عمَّتي ألسي، لقَدِ اضطررتُ إِلَى إعادة تشكيلهما مِنَ الأصل. مِنَ الأساس! ماذا يفعل بهما؟ هل يركض في الماراثونات؟»

1 - تعبير يدل على المدن الصغيرة الجديدة (المجتمعات المدينية الشابة). (المترجم).

«إنَّه يعمل،» أجابت ألسانا باقتضاب. «ويصلِّي»، أضافت، كونها تحبُّ أَنْ تُظهر للنَّاس وقارها، إلَى جانب أَنَّها كانت تقليديَّةً جدًّا بالفعل، ومتديّنةً جدًّا، لا تحتاج إلَى شيءٍ سوى الإيمان. «ولا تناديني عمَّتي. أنا أكبر منكِ بعامَين.» دفعَت ألسانا الحذاء في حقيبة تسوُّقٍ بلاستيكيَّةٍ، واستدارت للانصراف.

«ظننتُ أَنَّ الصَّلاة تكون عَلَى رُكَب النَّاس،» قالت نينا، وهي تضحك في خفوت.

«الكُلُّ، الكُلُّ، النَّوم، واليقظة، والمشي،» قاطعتها ألسانا، وهي تمضي تحت الجرس المعلَّق مجددًا. «لسنا بعيدين عَنْ نظر الخالق، قطُّ.»

«كيف هو المنزل الجديد، إذن؟» صاحت نينا عليها.

لكنَّها ذهبَت؛ هزَّت نينا رأسها وتنهَّدَت وهي تشاهد عمَّتها الشَّابَّة تغيب عَلَى الطريق مثل طلقةٍ بُنِّيَّةٍ صغيرةٍ. ألسانا. لقَدْ كانت شابَّةً وعجوزًا في الوقت نفسه، فكَّرَت نينا. تتصرَّف بحساسيةٍ، وباستقامةٍ وجديَّةٍ في معطفها الرَّقيق، ولكنَّكَ ينتابكَ الشُّعور....

«هيه! يا آنسةٌ! ثمَّةَ أحذيةٌ هنا في الخلف تتطلَّب اهتمامكِ،» جاء الصَّوت من داخل المحلّ.

«اتركي نهديك مرتاحَين،»[1] قالت نينا.

في منعطف الشَّارع عادَت ألسانا بسرعةٍ إلَى خلف مكتب البريد، وبدَّلَت صندلها الضَّيِّق لصالح حذاء صمد (ذلك مِنَ الغرائب بخصوص ألسانا. صغيرة الحجم ولكنَّ قدميها هائلتان. تشعر عندما تنظر إليهما، غريزيًّا، أنَّه لا تزال هناك فرصةٌ أمامهما للنموّ). وفي ثوانٍ لمَّت شعرها في كعكةٍ محكمةٍ، وضمَّت معطفها عليها أكثر لكَيْ تحتمي مِنَ الرّيح. ثُمَّ مضت قبالة المكتبة، واستمرَّت عَلَى طريقٍ خضراء لَمْ يسبق لها أَنْ مشت عليها مِنْ قبل. «البقاء هو كُلُّ ما هناك، يا إقبال الصَّغير،» قالت لبطنها البارز مرَّةً أخرى. «البقاء.»

في منتصف الطَّريق، عبرت الشَّارع، وهي تنوي أَنْ تتَّجه إلى اليسار وأنْ تستدير عائدةً إلى الطَّريق السريعة. ولكنْ عندها، وبينما وصلت إلَى شاحنةٍ بيضاء ضخمةٍ لنقل الأثاث، مفتوحةً مِنَ الخلف، ونظرت بحسدٍ إلَى الأثاث الَّذِي تكوَّم بداخلها، لاحظت السَّيِّدة السَّوداء الَّتِي تميل عَلَى سِياج الحديقة، وهي تنظرُ حالمةً إلَى الهواء في اتِّجاه

1 ـ تعبير دارج بمعنى لا جدوى منك، أو لا تزعجي نفسك بالأمر. (المترجم).

المكتبة (نصف عاريةٍ، مع ذلك! بسترةٍ أُرجوانيَّةٍ متوهِّجةٍ، وملابس داخليَّةٍ بالكاد)، كما لَوْ أَنَّ مستقبلها يمتدُّ في ذلك الإتِّجاه. وقبل أَنْ تتمكن مِنَ العبور من جديدٍ لكَيْ تتجاوزها، وجدت ألسانا نفسها مرصودةً.

«السَّيِّدة إقبال!» قالت كلارا، وهي تلوِّح لها.

«السَّيِّدة جونز.»

شعرت كلتا المرأتين بالحرج للحظة تجاه ما ارتدتاه، ولكنْ بالنَّظر إِلَى الطَّرف الآخر، استعادتا الثِّقة.

«والآن، أليس ذلك غريبًا، يا آرشي؟» قالت كلارا، وهي تشبع كُلَّ حروفها السَّاكنة. كانت في طريقها بالفعل لفقدان لكُنتها نوعًا ما وأحبَّت أَنْ تعمل عَلَى ذلك في كُلِّ فرصةٍ.

«ماذ؟ ماذا؟» قال آرشي، الَّذِي كان في الرُّدهة، ساخطًا منْ خزانة الكتب.

«المسألة - بالتحديد - أَنَّنا - بالكاد - كُنَّا نتحدَّث عنكما - أنتما قادمان للعشاء اللَّيلة، أليس كذلك؟»

السُّود ودودون عَلَى الأغلب، فكَّرت ألسانا، وهي تبتسم لكلارا، وتضيف تلك الحقيقة لا شعوريًّا إِلَى الجانب القصير «المؤيِّد» في قائمة التَّأييد والمعارضة لديها تجاه الفتاة السَّوداء. من كُلِّ أقليَّةٍ لا تحبَّها، أحبَّت ألسانا انتقاء مثالٍ واحدٍ عَلَى تسامحها الرُّوحيِّ. وفي وايت تشابل، كان هناك العديد مِنْ تلك الشَّخصيَّات البديلة. السَّيِّد ڤان، الاختصاصيُّ الصِّينيُّ لمعالجة الأقدام، والسَّيِّد سيجال، نجارٌ يهوديٌّ، وروزي، امرأةٌ مِنَ الدُّومينيكان ظهرت في الجوار بشكلٍ مستمرٍّ، وحاولت، ما كان سببًا في حزن ألسانا واستمتاعها، أَنْ تحوِّلها إِلَى إحدى سبتيَّات اليوم السَّابع[1] - كُلُّ هؤلاء الأفراد المحظوظون نالوا أناة ألسانا الذَّهبيَّة واستقراءها السِّحريَّ لجلودهم مثلَ نمور بكِّين[2].

1 - الأدفنتست أوْ السبتيون (السبتية) هم طائفة بروتستنتية ألفيَّة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح حيث إن كلمة أدفنست تعني مجيئيون، وقد عرفوا سابقًا بالميليريون نسبة إلى وليم ميلر مؤسس هذه الطائفة، وهو واعظ معمداني (1782 – 1849) عمل سابقًا كضابط في الجيش الأمريكي. هناك مجموعات مختلفة من الأدفنتست كالأدفنست الإنجيليون وكنيسة الأدفنتست المسيحية، ولكن أكبر مجموعات الأدفنتست هي مجيئيو اليوم السابع الَّتِي أسست بين عامي 1844 و1855 بفضل جهود الوعاظ: جوزيف باتيس وجيمس وإيلين وايت وهم - جميعًا - مواطنون أمريكيون. وقد نالت هذه الجماعة اعتراف السلطات عام 1863. (المترجم).

2 - واحدة من أقدم الفرق في دوري البسيول في الصين عبر تاريخها. (المترجم).

«بلى، لقد ذكر صمد ذلك،» قالت ألسانا، عَلَى الرغم مِنْ أنَّ صمد لَمْ يفعل.

ابتسمَت كلارا. «جيِّدٌ... جيِّدٌ!»

كانت هناك وقفةٌ قصيرةٌ. لَمْ تتمكَّن أيٌّ منهما مِنَ التَّفكير معها فيما يمكن أَنْ تقوله. وخفضت كُلٌّ منهما بصرها نحو الأسفل.

«يبدو هذا الحذاء مريحًا بشكلٍ حقيقيٍّ،» قالت كلارا.

«نعم. نعم. إنَّني أمشي كثيرًا، كما ترين. ومع هذا ـــ.» ربَّتت عَلَى بطنها.

«أنت حاملٌ؟»، قالت كلارا، في مفاجأةٍ. «طفلٌ، حجمكِ صغيرٌ جدًّا، لَمْ أستطع حتَّى أَنْ أرى ذلك[1].»

احمرَّ وجه كلارا خجلًا في اللَّحظة التَّالية لكلامها، دائمًا ما تنجرف للحديث باللَّهجة العاميَّة عندما تشعر بالإثارة أَوِ البهجة تجاه شيءٍ ما. بينما اكتفت ألسانا بالابتسام، وهي غير متأكِّدةٍ من فهم ما قالَته.

«لَمْ أكنْ لأعرف،» قالت كلارا، بهدوءٍ أكثر.

«أيَّتها العزيزة،» قالت ألسانا بمرحٍ مصطنعٍ. «ألا يخبر زوجانا بعضهما بأيِّ شيءٍ؟»

ولكن بمجرَّد أَنْ قالت ذلك، ترسَّخ الاحتمال الثَّاني في دماغي الزَّوجتين الصَّغيرتَين. أنَّ زوجيهما يقولان كُلَّ شيء لبعضهما. وأنَّهما هما مَنْ تختبئان في الظَّلام.

1 ـ قالت الجملة باستخدام تعبير مدغم تداخلت الحروف فيه، كما في لغة الشارع. (المترجم).

الفصل الرابع

ثلاثةٌ في الطَّريق

كان آرشي في العمل عندما سمع الأخبار. أَنَّ كلارا حاملٌ في شهرين ونصفِ الشَّهر.

«الستِ حاملًا، يا حبيبتي!»

«بَلْ حاملٌ!»

«لا، لستِ.»

«بَلْ حاملٌ! ولقَدْ سألتُ الطَّبيب كيف سيبدو، نصف أبيضَ، ونصف أسودَ وكُلّ هذه المسائل. وقال إِنَّ كُلَّ شيءٍ مِنَ المحتمل أَنْ يحدث. هناك احتمالٌ حتَّى أنْ يكون أزرقَ العينين! هَلْ تتخيَّل ذلك؟»

لمْ يكن آرشي قادرًا عَلَى تخيُّل ذلك. لَمْ يكن قادرًا عَلَى تصوُّر أَنْ يمتزج أَيَّ جزءٍ في الجينات منه مع جزء مِنْ كلارا ويفوز. ولكنْ يا له مِنَ احتمالٍ! يا له مِنْ أمرٍ سيحدث! اندفع إِلَى خارج المكتب في يوستن رود لأجل علبة سجائر. وبعد عشرين دقيقةً تبختر عائدًا إِلَى مورجان هيرو ومعه علبةٌ ضخمةٌ مِنَ الحلوى الهنديَّة، وبدأ في شقِّ طريقه في محيط الغرفة.

«نويل، خُذْ شيئًا لزِجًا. هذه القطعة جيِّدةٌ.»

نظر نويل، المتدرِّب في المكتب، داخل العلبة الدُّهنيَّة في شكٍّ. «ما سبب كُلُّ هذا...؟»

خبطه آرشي عَلَى ظهره. «سيكون لديَّ طفلٌ، أليس كذلك؟ بعينين زرقاوين، هَلْ تصدِّق ذلك؟ إِنَّني أحتفل! الأمر هو أنَّه يمكنك الحصول عَلَى أربعين نوعًا مِنَ الدَّال، ولكنَّك لا تستطيع الحصول عَلَى سيجارٍ حقيرٍ في يوستن رود لأجْل الحبِّ أَوْ لأجْل النُّقود. استمِرَّ، يا نويل. ماذا عَنْ هذه القطعة؟»

أمسك آرشي بقطعةٍ نصف بيضاءَ، ونصف ورديَّةٍ ذات رائحةٍ وغير مشجِّعةٍ.

«إمم، يا سيد جونز، هذا غايةٌ في الـ... لكنْ هذا ليس كوبي مِنْ....»

بدا نوبل كأنَّما سيعود إِلَى ملفاته. «مِنْ الأفضل أَنْ أشرع في......»

«أوه، هيَّا، يا نويل. سأرزق بطفلٍ. في السَّابعة والأربعين وسأرزق بطفلٍ صغيرٍ. ذلك يستدعي احتفالًا صغيرًا، أليس كذلك؟ استمرَّ... أنتَ لَنْ تعرف ذلك حتَّى تُجرِّبه. فقط خُذْ قضمةً أخرى.»

«هذا يكفي، الأطعمة الباكستانيَّة ليسَت دائمًا... لقَدْ تعرَّضتُ لبعض الـ..... مضحكة.»

ربَّت نويل عَلَى بطنه وبدا بائسًا. فعلى الرَّغم مِنْ كونه في أعمال البريد المباشر، يكره نويل أَنْ يوجَّه الخطاب إليه مباشرةً. أَحبَّ أَنْ يكون وسيطًا في مورجان هيرو. أَحبَّ أَنْ يمرِّر المكالمات، أَنْ يخبر شخصًا بما قاله شخصٌ آخر، أَوْ أَنْ يعيد توجيه الرَّسائل.

«اللَّعنة، يا نويل... ليسَت سوى حلوى. أنا أحاول الاحتفال فقط، يا رفيقي. ألا تأكلون الحلوى أيُّها الهيبيِّين، أَوْ أيَّ شيءٍ؟»

شعر نويل أطول دائمًا مِنْ أيِّ شخصٍ آخر، وأحضر مرَّةً عود بخورٍ لكَيْ يشعله في غرفة القهوة. كان مكتبًا صغيرًا، وهناك القليل للحديث بخصوصه، ولذا فَقَدْ جعل هذان الأمران مِنْ نويل الثَّاني بعد جانيس جوبلن[1]، تمامًا مثلما كان آرشي جيسي أوينز[2] الأبيض لأنَّه جاء في المركز الثَّالث عشر في الأولمبياد منذ سبعةٍ وعشرين عامًا، ولَدَى جاري في قسم المحاسبة جدَّةٌ فرنسيَّة، ويطلق دخان السجائر مِنْ أنفه ولذا فهو موريس شيفالييه[3]، وإيلموت، زميل آرشي في طيِّ الورق، أينشتاين[4]، لأنَّه يستطيع حلَّ ثلثي كلمات التايمز المتقاطعة.

بدا نويل ممتعضًا. «آرشي... هَلْ تسلَّمتَ مذكرتي مِنَ السَّيِّد هيو بخصوص المطويات عَلَى...؟»

1 ـ مطربة وكاتبة أغانٍ أمريكية اشتهرت في الستينيات. (المترجم).

2 ـ عداء أمريكي شهير فاز بأربع ذهبيات في أوليمبياد برلين 1936. (المترجم).

3 ـ ممثل ومطرب وراقص فرنسي معروف. (المترجم).

4 ـ عالم الفيزياء الأشهر في القرن العشرين وصاحب نظرية النسبية الَّتي غيرت مفاهيم الفيزياء في العالم. (المترجم).

تنهّد آرشي. «على حساب رعاية الأُمّ. نعم، يا نويل، لقَدْ أخبرتُ إيلموت أَنْ يُزيحَ الثُّقوبَ.»

بدا نويل ممتنًّا. «حسنًا، تهانيَّ بخصوص... سأكون متابعًا مع....» وعاد إلَى مكتبه.

غادر آرشي لكَي يحاول مع مورين، موظَّفة الاستقبال. تملك مورين ساقَين جميلتَين لامرأةٍ في عمرها ـ ساقَين مثل سجقٍ معبَّأٍ في أغلفته بإحكامٍ ـ وكانت دائمًا منجذبةً إليه بعض الشَّيء.

«مورين، يا حبيبتي. سأصبح أبًا.»

«فعلًا، يا حُبِّي؟ أوه، أنا سعيدةٌ. بنتٌ أَمْ ـــ.»

«الوقت مبكِّرٌ جدًّا عَلَى أَنْ نقول للآن. بأعينٍ زرقاءَ، مع ذلك!»، قال آرشي، كيف عبرَت تلك الأعين مِنَ احتمالات الوراثة النَّادرة لكَيْ تصبح حقيقةً راسخةً. «هَلْ تصدقين ذلك!»

«هَلْ قلت أعينًا زرقاءَ، يا آرشي، يا حُبِّي؟» قالت مورين، وهي تتحدَّث ببطءٍ، لرُبَّما تجد طريقةً لصياغة ذلك. «لا أقصد السُّخرية... لَكِنْ أليست زوجتك، حسنًا، مُلوَّنة؟» هز آرشي رأسه في تعجُّبٍ. «أعرف! أَنْ يكون لها ولي طفلٌ، اختلاط الجينات، وأعينٌ زرقاءُ! معجزة الطَّبيعة!»

«أوه نعم، معجزةٌ.» قالت مورين في اقتضابٍ، وهي تفكِّر في أَنَّ ذلك هو التَّعبير المهذَّب عما عليه الأمر.

«تناولي قطعة حلوى.»

بدت مورين مستريبةً. وربَّتت عَلَى استدارة فخذيها الورديَّتين اللَّتين تنوء ملابسها البيضاءُ الضَّيِّقةُ بهما. «أوه، يا آرشي، يا حُبِّي، لا ينبغي لي. تذهب مباشرةً إلَى السَّاقين والشَّفتين، أليس كذلك؟ ولَنْ يعود أحدنا أصغر، بالمرَّةِ، ألسنا كذلك، هه؟ ألسنا كذلك، هه؟ لا أحد مِنّا يستطيع أَنْ يعيد عقارب السَّاعة للوراء، هل نستطيع، هه؟ ذلك هه؟ لا أحد مِنّا يستطيع أَنْ يعيد السَّاعة للوراء، هل نستطيع، هه؟ تلك جوان ريفرز(1)، أتمنَّى لَوْ عرفتُ كيف تفعل ذلك!»

1 ـ شخصية تليفزيونية أمريكية وممثلة كوميدية وكاتبة ومخرجة عرفت بـ «ملكة الكوميديا» بعدما استمر حضورها لخمسة عقود كاملة. (المترجم).

ظلت لورين تضحك لوقتٍ طويلٍ. ضحكتها مميَّزةٌ جدًّا في مورجان هيرو: حادَّةٌ وصاخبةٌ، ولكنْ مع الاحتفاظ بفمها مفتوحًا قليلًا، فلديها رهبةٌ مَرَضيَّةٌ تجاه خطوط الضَّحك.

نكزت واحدةً مِنَ الحلويات بظفرٍ مستريبٍ في حمرة الدَّم. «هنديَّةٌ، أليسَت كذلك؟»

«بلَى، يا مورين،» قال آرشي مع ابتسامةٍ بلا معنًى، «حارٌ وحلوٌ في الوقت نفسه . مثلك بعض الشَّيء.»

«أوه، يا آرشي، أنت ظريفٌ،» قالت مورين بحزنٍ، فقَدْ ظلَّت دائمًا منجذبةً لآرشي بعض الشَّيء، ولكنْ ليس أكثر مِنْ بعض الشَّيء أبدًا، بسبب طريقته الغريبة بخصوص نفسه، يتحدَّث مع الباكستانيّين والكاريبيّين كما لَوْ لَمْ يكن يلاحظ، حتَّى. والآن، ها قَدْ ذهب وتزوَّج واحدةً ولم يفكر حتَّى أنَّ الأمر يستحقُّ الإشارة إلَى ما كان لونها، حتَّى حفل العشاء في المكتب عندما اتَّضح أنَّها سوداء كما كُلِّ شيءٍ وكادت مورين تختنق بكوكتيل الجمبري.

تمطَّت مورين عَلَى مكتبها لكَيْ تهتمَّ بتليفونٍ يرنُّ. «لا أظنُّ أنَّني سأفعل، يا آرشي، يا حُبِّي...»

«كما تحبّين. ومع ذلك لا تعرفين ما ستخسرين.»

ابتسمَت مورين بضعفٍ والتقطَت السَّمَّاعة. «نعم، يا سيِّد هيرو؛ إنَّه هُنا بالفعل، لقَدْ عرف للتَّوِّ أنَّه سيكون أبًا... نعم. ستكون له عينان زرقاوان، عَلَى ما يبدو... نعم، هذا ما قلته، شيءٌ متعلِّقٌ بالجينات، أفترض... أوه، نعم، حسنًا... سأخبره، سأرسله إليك... أوه، شكرًا، يا سيِّد هيرو، أنت كريمٌ جدًّا.» مدَّت مخالبها حول السَّمَّاعة، وتحدَّثت بهمسٍ مسرحيٍّ إلَى آرشي: «آرشي، يا حُبِّي، السَّيِّد هيرو يريد أنْ يراك. عاجلًا، كما يقول. هَلْ كنت فتًى مشاغبًا أوْ شيئًا ما؟»

«ليس في هذه الحياة!» قال آرشي، وهوِ يتَّجه نحو المصعد.

قالت لافتة الباب:

كيلڤن هيرو

مدير الشركة

مورجان هيرو

خبراء البريد المباشر

كان مقصودًا أنْ تثير الرَّهبة، وهو ما استجاب له آرشي، بطريقةٍ ما، وهو يقرع الباب بخفوتٍ شديدٍ، ثُمَّ بعنفٍ شديدٍ، ثُمَّ يكاد يسقط عبره، بصورةٍ ما، عندما أدار كيلڤن هيرو، في فراء الخُلد، مقبض الباب كَيْ يسمح له بالدُّخول.

«آرشي،» قال كيلڤن هيرو، كاشفًا عَنْ صفَّين مِنَ البياض اللُّؤلؤيِّ يرجع إِلَى نفقاتٍ فادحةٍ عند طبيب الأسنان، أكثر منه لاستخدام الفرشاة بشكلٍ اعتياديٍّ. «آرشي، آرشي، آرشي، آرشي.»

«يا سيِّد هيرو،» قال آرشي.

«أنت تحيِّرني، يا آرشي،» قال السَّيِّد هيرو.

«يا سيِّد هيرو،» قال آرشي.

«استرح هناك، يا آرشي،» قال السَّيِّد هيرو.

«حسنًا جدًّا، يا سيِّد هيرو،» قال آرشي.

مسح كيلڤن خطًّا مِنَ العرق الوسخ عَنْ ياقة قميصه، وأدار قلمه الباركر الفضيَّ في يده عدَّة مرَّاتٍ، وأخذ سلسلةً مِنَ الأنفاس العميقة. «الآن، هذا أمرٌ دقيقٌ جدًّا... ولَمْ أعتبر نفسي عِرقيًّا، قَطُّ، يا آرشي.....»

«يا سيِّد هيرو؟»

وماذا بعد، فكَّر كيلڤن، ما هي *نسبة العينين إِلَى الوجه*. عندما تريد أَنْ تقول شيئًا حسَّاسًا، لا تريد لنسبة الوجه إِلَى العينين تلك أَنْ تكون شاخصةً تحدِّق فيك. بعينين واسعتين كأعين طفلٍ أَوْ فقمةٍ صغيرةٍ، سمة البراءة في علم الفراسة ـ يشبه النَّظر إِلَى آرشي جونز النَّظر إِلَى شيءٍ يتوقَّع الهراوات فوق رأسه في أيَّة لحظةٍ.

جرَّب كيلڤن مسارًا أكثر نعومةً. «دعني أسمح لنفسي بتقديم الأمر بطريقةٍ أخرى. في العادة، في مواجهة مثل هذا النَّوع مِنَ الأوضاع الحرجة، فسوف، كما تعرف، أنا أناقش الأمرِ معكَ. لأَنَّ لدَيَّ الكثير مِنَ الوقت دائمًا لأجلكَ، يا آرش. أنا أحترمكَ. أنتَ لستَ استعراضيًّا، يا آرشي، لَمْ تكنِ استعراضيًّا قَطُّ. ولكنَّك ــــ.»

«قويٌّ،» ختم آرشي الجملة، كونه يعرف هذا الخطاب.

ابتسم كيلفن، وملأت تجاعيد ضخمةٌ مساحة وجهه، ثُمَّ ذهبت مع الجهد المفاجئ لرجلٍ بدينٍ يسير عبر بابٍ دوّار. «نعم، صحيحٌ، قويٌّ. النَّاس يثقون بك، يا آرشي. أعرف أنَّك تحصل عَلَى القليل، وأنَّ السَّاق القديمة قَدْ تتسبَّب لك في حفنةٍ مِنَ المتاعب - لكنْ عندما تغيَّرَت ملكيَّة تلك الأعمال، احتفظتُ بكَ، يا آرش، لأنَّني أستطيع الرُّؤية بوضوحٍ: النَّاس يثقون بكَ. لقَدْ بقيت في أعمال البريد المباشر لعمرٍ طويلٍ لهذا السَّبب. وأنا أثق بكَ، يا آرش، وأنَّك ستفهم ما سوف أقوله بطريقةٍ صحيحةٍ.»

«يا سيِّد هيرو؟»

هَزَّ كيلفن كتفيه. «يمكنني أَنْ أكذب عليك، يا آرشي، يمكنني أَنْ أخبرك أَنَّنا أخطأنا في الحجوزات، وأنَّه لَمْ تكن هناك غرفةٌ لك، يمكنني أَنْ أُقعي عَلَى مؤخرتي وأبحث عَنْ سببٍ وجيهٍ - ولكنَّك ولدٌ كبيرٌ، يا آرشي. كنتَ لتتَّصل بالمطعم، أنت لست مِنْ قرود البابون، يا آرشي، لديك شيءٌ في الأعلى، ينبغي أَنْ تضع اثنين واثنين معًا ـــ.»

«وتجعل النَّتيجة أربعةً.»

«وتجعل النَّتيجة أربعةً، *بالضَّبط*، يا آرشي. ينبغي أَنْ يكون لديك *أربعةٌ*. هل تفهم ما أقوله، يا آرشي؟» قال السيد هيرو.

«لا، يا سيِّد هيرو،» قال آرشي.

استعدَّ كيلفن لقطع المناورة. «عشاء الشَّركة ذلك، الشَّهر الماضي - كان مُحرِجًا، يا آرشي، لَمْ يكن مبهجًا. والآن هناك هذا العشاء السَّنويُّ في الطَّريق مع شركتنا الشَّقيقة مِنْ سندرلاند، حوالي ثلاثين منَّا، لا شيء فاخرًا، كما تعرف، كاري، وبيرة وبعض الرَّقص... كما أقول، ليس ذلك بسبب أنَّني عِرقيٌّ، يا آرشي....»

«عِرقيٌّ.....!»

«إنني لأبصق عَلَى ذلك الـ إينوك باول. ولكنْ مع ذلك مِنْ جديدٍ، فلديه وجهة نظرٍ، أليس كذلك؟ هناك وجهة نظرٍ، مسألة الكفاية، وأنْ يبدأ النَّاس في الشُّعور بعدم الرَّاحة بعض الشَّيء... أنت ترى، كُلُّ ما قاله ـــ.»

«مَنْ؟»

«باول، يا آرشي، باول - *حاوِل واستمِرَّ* - كُلُّ ما قاله أَنَّ يكفي هي يكفي، بعد نقطةٍ معيَّنةٍ، أليس كذلك؟ أقصد، يبدو الأمر كما لَوْ أنَّ دلهي في يوستن صباح كُلِّ اثنين.

وهناك بعض النَّاس هنا في الجوار، يا آرش ـ ولستُ أضع نفسي ضمنهم هنا ـ الَّذِين يشعرون أَنَّ طريقتك غريبةٌ بعض الشَّيء.»

«غريبةٌ؟»

«أنت ترى الزَّوجات لا يعجبهنَّ ذلك لأَنَّه ـ دعنا نواجه الأمر، إِنَّها طويلةٌ ـ جمالٌ حقيقيٌّ ـ وساقان مذهلتان، يا آرشي، أرغب في تهنئتك بخصوصهما، السَّاقين ـ والرِّجال، حسنًا، الرِّجال لا يحبُّون ذلك لأَنَّهم لا يحبُّون أَنْ يفكِّروا أَنَّهم يريدون قطعةً مِنَ الآخر عندما يجلسون إِلَى عشاء الشَّركة مع السَّيِّدات زوجاتهم، خصوصًا عندما تكون... أنت تعرف... إِنَّهم لا يعرفون ماذا يمكن أَنْ يفعلوا عَلَى الإطلاق.»

«مَنْ؟»

«ماذا؟»

«مَنِ الَّتِي نتحدَّث عنها، يا سيِّد هيرو؟»

«انظر، يا آرشي،» قال كيلڤن، والعرق يتصبَّب الآن بحريَّةٍ، كريهةٍ بالنِّسبة إِلَى رجلٍ لديه تلك الكمِّيَّة مِنْ شعر الصَّدر: «خذ هذه.» دفع كيلڤن رزمةً كبيرةً مِنْ قسائم الغداء عبر الطَّاولة. «لقَدْ تبقَّت مِنْ ذلك السَّحب ـ هَلْ تتذكَّر، للبيافرانيِّين[1].»

«أوه لا ـ لقَدْ فزتُ بالفعل، في ذلك، بقفَّاز فرنٍ، يا سيِّد هيرو، ليسَت هناك حاجةٌ ــــ.»

«خذها، يا آرشي. هناك ما قيمته خمسون جنيهًا ضمن هذه القسائم، يمكن استردادها في أكثر من خمسة آلاف منفذٍ غذائيٍّ في أنحاء البلاد. خذها. تناول بعض الوجبات عَلَى حسابي.»

تناول آرشي القسائم بأطراف أصابعه كما لَوْ أَنَّها تضمُّ الكثير جدًّا مِنْ أوراق الخمسين جنيهًا. وتصوَّر كيلڤن لوهلةٍ أَنَّه رأى دمعة فرحٍ في عينيه.

«حسنًا، لا أعرف ما أقول. هناك مكان أذهب إليه، بشكلٍ معتادٍ. إذا أخذوها فأنا ابن الحياة. شكرًا كثيرًا.»

أخذ كيلڤن منديلًا لأجل جبهته. «لا تفكِّر في الأمر، يا آرش. مِنْ فضلك.»

1 ـ بيافرا: إقليم أعلن الحكم الذاتي واستقلاله عن نيجيريا في الفترة من 30 مايو 1967 حتَّى 15 يناير 1970 وتكوين دولة مستقلة لعرقية الإيبو، وحصلت الدولة الجديدة على اعتراف دولي محدود. (المترجم).

«يا سيِّد هيرو، هَلْ يمكنني....» أومأ آرشي إلَى جهة الباب. «الأمر فقط أنَّني أرغب في مكالمة بعض النَّاس، أنت تعلم، لأعطيهم أخبار الطِّفل... إذا كُنَّا قَدِ انتهينا هنا.»

هزَّ كيلڤن رأسه، في ارتياحٍ. رفع آرشي نفسه مِنْ مقعده. وكاد يصل إلَى مقبض الباب عندما اختطف كيلڤن هيرو قلمه الباركر مرَّةً أخرى، وقال: «أوه، يا آرشي، هناك شيءٌ آخرٌ.... ذلك العشاء مع فريق سندرلاند... لقَدْ تحدَّثت مع مورين، وأعتقد أنَّنا بحاجةٍ إلَى تخفيض الأرقام... لقَدْ وضعنا الأسماء في قبَّعةٍ، وكان اسمك هو الَّذِي خرج. وما زلتُ، لا أتصوَّر أنَّك ستفتقد الكثير، هه؟ هذه الأشياء مملةٌ دائمًا، بعض الشَّيء.»

«أنت محقٌّ، يا سيِّد هيرو،» قال آرشي، وذهنه في مكانٍ آخرٍ؛ وهو يصلِّي للرَّب أَنْ تكون قاعة أوكونيل «منفذًا غذائيًّا» وهو يبتسم لنفسه، ويتخيل ردَّة فعل صمد عندما يصرف خمسين جنيهًا قيمة استمارات الغداء اللَّعينة.

***

بسبب أَنَّ السَّيِّدة جونز أصبحَت حاملًا بشكلٍ سريعٍ جدًّا بعد السَّيِّدة إقبال، بدرجةٍ ما، وبسبب التَّقارب اليوميّ، بدرجةٍ ما (تعمل كلارا في تلك اللَّحظة في دوامٍ جزئيٍّ كمشرفةٍ عَلَى فريق كيلبورن للشَّباب، والذي يبدو كتشكيلةٍ مِنْ خمسة عشر رجلًا ينتظمون في مجموعة لموسيقى الجذور والسكا[1] - بشعرٍ طوله ستُّ بوصاتٍ عَلَى تسريحة الأفرو، وملابس تدريبٍ أديداس، وربطات العنق البنيَّة، والفيلكرو[2]، والنَّظَّارات الشَّمسيَّة الملوَّنة - وتنضمُّ ألسانا إلَى حصص النِّساء الآسيويَّات المشرفات عَلَى الولادة في طريق كيلبورن السَّريعة في الجوار)، تبدأ المرأتان في رؤية إحداهما الأخرى أكثر. بشكلٍ متقطِّعٍ في البدء - القليل مِنْ مواعيد الغداء هنا وهناك، والقهوة في المناسبات - وما يبدأ كظلٍّ خلفيٍّ لصداقة زوجيهما يتطوَّر بشكلٍ سريعٍ. لقَدْ تقبَّلت كُلٌّ منهما التَّقدير الاجتماعي المتبادل بين زوجيهما، ولَمْ يعد ما يتركه هذا مِنْ وقت فراغ أمرًا غير مبهجٍ دائمًا؛ هناك وقت للنُّزهات الخلويَّة والخروج، وللمناقشة والدِّراسة الشَّخصيَّة: للأفلام الفرنسيَّة القديمة حيث تصرخ ألسانا وتغطِّي عينيها أمام اقتراحات أفلام التعري («ابعدي هذا! لا نريد أَنْ نرى الخصيان المتدليَّة!») وتحصل

1 - شكل موسيقي نشأ في جامايكا في الخمسينيات ومنه ظهرت موسيقى الريجي والروك. (المترجم).

2 - اسم العلامة التجارية لمشبك من نوع الخطاف والزالق، اخترع في عام 1948 من قبل مهندس سويسري يدعى جورج دي ميسترال. (المترجم).

كلارا عَلَى لمحةٍ عَنْ حياة النِّصف الآخر: النِّصف الَّذِي يعيش في الرُّومانسيَّة، والشَّغف، ومتعة الحياة. النِّصف الثَّاني الَّذِي يمارس الجنس. الحياة الَّتِي كان ممكنًا أَنْ تكون لها لَوْ لَمْ تكن عَلَى قمَّة أحدَ السَّلالم في يوم جميلٍ، بينما جلس آرشيبالد جونز في أسفله.

وبعدها، عندما يصبح بروز بطنيهما كبيرًا جدًّا، ولا تعود مقاعد السِّينما تستوعبهما، تبدأ المرأتان في اللِّقاء للغداء في متنزَّه كيلبورن، مع عار الأخ غالبًا، تتكدَّس ثلاثتهن في دِكَّةٍ واحدةٍ حيث تدفع ألسانا ترمس الشاي المقرف إِلَى يد كلارا، بدون حليبٍ، وإنَّما باللَّيمون. وتفتح طبقاتٍ متعدِّدةً مِنْ أغلفة البلاستيك لتكشف عَنْ مفاجأة اليوم: مقبِّلاتٍ مِنْ كرات المعجِّنات، والحلويات الهنديَّة المفتَّتة مخلوطةً في مزيجٍ مِنَ الألوان المشهديَّة، ثُمَّ معجِّنات رقيقةٍ محشوَّةً باللَّحم البقريِّ المتبَّل، وسلطةٍ بالبصل، وهي تقول لكلارا: «كلي! املئي نفسك أَيَّتها السَّخيفة! إنَّه هناك في الدَّاخل يتلوَّى في بطنك، ينتظر قائمة الطَّعام. أَيَّتها المرأة، لا تعذِّبيه! هل تريدين تجويع هذا البطن؟» لأَنَّه، وعلى الرَّغم مِنَ المظهر، فهناك ستَّة أشخاص عَلَى الدكة (ثلاثةٌ أحياءٌ، وثلاثةٌ في الطَّريق)؛ طفلةٌ واحدةٌ لكلارا، وطفلان لألسانا.

وتقول ألسانا: «لا أحد يشكو، دعينا نكون مُباشراتٍ. الأطفال نعمةٌ، كُلَّما زادوا كانوا مُبهجين. ولكنَّني أخبركِ، عندما أدرتُ رأسي ورأيت أعمال الألترا الخياليَّة تلك أَوْ أَيًّا كان اسمها.»

«الموجات فوق الصوتيَّة (ألترا *ساوند*).» تصحِّح كلارا، بفمٍ ممتلئٍ بالأرز.

«نعم، لَقَدْ كدتُ أصاب بأزمةٍ قلبيَّةٍ تقضي عَلَيَّ! اثنان! يكفيني إطعام واحدٍ!»

تضحك كلارا وهي تقول إِنَّها تستطيع تخيُّل وجه صمد عندما رأى ذلك.

«لا، يا حبيبتي.» تستنكر ألسانا، وهي تخبِّئ قدميها الكبيرتين في طيَّات ساريها[1]. «لَمْ ير أَيَّ شيءٍ. لَمْ يكن هناك. أنا لا أتركه يرى أشياء مثل تلك. عَلَى المرأة أَنْ تكون لها أشياء خاصَّة ـ لا يحتاج الزَّوج إِلَى الانغماس في شؤون جسد المرأة فيما يخصُّ... أعضائها.»

تمصُّ عار الأخ، الَّتِي تجلس بينهما، أسنانها.

1 ـ السَّاري هوزي نسائي هندي، يتكون من شريط طويل من القماش غير المخاط يمكن لفه بعدّة أساليب، وأكثر الأساليب انتشارًا أن يتم لفه حول الخصر، ثم ترفع إحدى نهايتيه فوق الكتف. (المترجم).

«اللَّعنة عَلَى الجحيم، يا ألسي، كان ينبغي أَنْ يكون منغمسًا مع أعضائك في وقتٍ ما، أَمْ أَنَّ هذا مفهومٌ لعينٌ للطُّهر؟»

«وقحةٌ جدًّا،» تقول ألسانا لكلارا بعجرفةٍ، عَلَى الطَّريقة الإنجليزيَّة. «كبيرةٌ جدًّا عَلَى التَّواقح، وصغيرةٌ جدًّا عَلَى معرفة أَيِّ شيءٍ بشكلٍ أفضل.»

وعندها، وبحكم التَّطابق العرضيِّ الَّذِي يحدث عندما تتشارك اثنتان نفسَ الخبرات، تضع كُلٌّ مِنْ كلارا وألسانا يديهما عَلَى بطنيهما البارزين.

وتسأل نينا، وهي تحاول تخليص نفسها: «نعم... حسنًا... كيف حالكما مع الأسماء؟ أَيَّة أفكارٍ؟»

ألسانا حاسمةً أمرها: «مينا ومالانا، إذا كانتا فتاتين. وإذا كانا صبيَّين فـ ماجد ومِلَّة. حروف الميم جيِّدةٌ. حروف الميم قويَّةٌ. ماهاتما، محمد، وهذا السَّيِّد الظَّريف موركامب[1]، مِنْ موركامب ووايز - حرف يمكنكِ الثِّقة به.»

ولكنَّ كلارا تبدو أكثر تحفُّظًا، لأَنَّ التَّسمية تبدو لها مسؤوليَّةً مخيفةً، مهمَّةً إلهيَّةً أكثر منها شأنًا بشريًّا. «لَوْ جاءت بنتًا، أظنُّ أنني سأفضل أَيْرِي. إِنَّها عامِّيَّةٌ. تعني: كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام، أَوْ طيِّبٌ، أَوْ هادئٌ، أتعرفين؟»

تشعر ألسانا بالفزع قبل أَنْ تنتهي الجملة: «على ما يرام؟ هل هذا اسمٌ لطفلةٍ؟ لعلَّك تسمِّيها أيضًا (*هَلْ تحبُّ يا سيِّدي بعض الخبز الهنديِّ الرَّقيق مع ذلك*)؟ أَوْ (*طقسٌ جميلٌ ذلك الَّذِي نستمتع به*)»

« ـــ وآرشي يحبُّ سارة. حسنًا، ليس هناك الكثير مِنَ الجدل بخصوص سارة، ولكنْ ليس هناك الكثير لكَيْ نبتهج بخصوصه أيضًا. أفترض أَنَّه إذا كان جيِّدًا بما يكفي لزوجة إبراهام ـــ.»

«إبراهيم،» تصحِّح ألسانا، بالسَّليقة أكثر منها حذلقةً قرآنيَّةً. «تنجب أطفالًا وهي في عمر المئة، برحمةٍ مِنَ الله.»

وعندها تتذمَّر نينا مِنَ اتجاه المحادثة: «حسنًا، *أُحبُّ أَيْرِي*. إنَّه عصريٌّ. إنَّه مختلفٌ.»

---

1 - إيريك موركامب كوميديان بريطالي شهير كان أحد مقدمي برنامج جوائز في الإذاعة البريطانية بعنوان «موركامب ووايز». توفي في 1984. (المترجم).

تعشق ألسانا هذا. «بحقِّ الشَّفقة، ماذا يعرف آرشيبالد عَنِ *العصريَّة*، أَو *الاختلاف*. لَوْ كنت مكانك يا عزيزتي،» تقول، وهي تربِّت عَلَى ركبة كلارا، «سأختار سارة وأنهي الأمر. في بعض الأحيان ينبغي أَنْ تتركي هؤلاء الرِّجال يقومون بالأمر عَلَى طريقتهم. أَيُّ شيءٍ مِنْ أجل بعضٍ ـ كيف تقولون ذلك بالإنجليزيَّة؟ لأجل بعض الـــ» وتضع إصبعها عَلَى شفتها المطبقتين، مثل حارسٍ عَلَى البوَّابة ـ «*ششش*.»

ولكنْ في ردِّها، ترتدي عار الأخ لهجةً ثقيلةً، وهي تداعب رموشها الضَّخمة، وتلفُّ وشاح الجامعة حول رأسها مثل البُرْدة. «أوه نعم، يا عمَّتي، نعم، خضوع المرأة الهنديَّة الصَّغيرة. لا تتحدَّثي إليه، هو يتحدَّث إليك. أنتما تصرخان وتزعقان في بعضكما، ولكن بدون تواصلٍ. وفي النِّهاية سيفوز عَلَى أيَّة حالٍ لأنَّه يفعل ما يحبُّ، عندما يحبُّ. أنت لا تعرفين حتَّى أين هو، وماذا يفعل، بِمَ يشعر، لنصف الوقت. إنَّها 1975، يا ألسي. لا يمكنك إقامة علاقاتٍ بهذه الطَّريقة بعد الآن. الأمر لا يشبه العودة إِلَى الوطن. ينبغي أَنْ يكون هناك تواصلٌ بين الرِّجال والنِّساء في الغرب، ينبغي أَنْ ينصتوا إِلَى بعضهم بعضًا، وإلَّا....» تقدِّم نينا أداءً صامتًا بيديها لانفجار سحابةٍ صغيرةٍ مِنْ عشِّ الغراب.

«يا لها مِنْ حمولةٍ مِنَ الهُراء!» تقول ألسانا بصوتٍ ممطوطٍ، وهي تغلق عينيها، وتهزُّ رأسها: «إِنَّه أنت الَّتي لا تُنصتين. بالله، سأظلُّ دائمًا أعطي بنفس القدر الَّذِي أحصل عليه. ولكنَّك تفترضين أَنَّني أهتمُّ بما يفعل. أنت تفترضين أَنَّني أريد أَنْ أعرف. والحقيقة أنَّه، في زواجٍ مِنْ أجل البقاء فإِنَّك لا تحتاجين لكُلِّ هذا الكلام. كلامٌ، كلامٌ، كُلُّ هذا الـ أنا هذا وأنا هكذا فعلًا كما في الصُّحف، كُلُّ هذه *الثَّورة* ـ خصوصًا عندما يكون زوجكِ مُسنًّا، عندما يكون متهدِّلا ومتهاويًا ـ فأنت لا تريدين أَنْ تعرفي ما المخاطيُّ تحت السَّرير ولا ما الَّذِي يقرقع في خزانة الثِّياب.»

تعبس نينا، ولا تستطع كلارا أَنْ ترفع أَيَّ اعتراضٍ جدِّيٍّ، بينما يتمُّ توزيع الأرز مرَّةً أخرى.

«وعلاوةً عَلَى ذلك،» تقول ألسانا بعد وقفةٍ، وهي تضمُّ ذراعيها الرَّخْصتَين تحت نهديها، مسرورةً بالحديث مطولًا عَنْ موضوعٍ قريبٍ مِنْ هذا الصَّدر الهائل، «عندما تكونين مِنْ عائلات مثل عائلتينا فلا بُدَّ أَنْ تكوني قَدْ تعلَّمتِ أَنَّ *الصَّمت*، أَنَّ هذا الَّذِي لا يقال، هو *أفضل* وصفةٍ لحياة الأسرة.»

لأنَّ ثلاثتهنَّ جئن مِنْ عائلاتٍ متديّنةٍ بشكلٍ صارمٍ، فمنازلهن يظهر فيها الرَّبُّ مع كُلِّ وجبةٍ، ويخترق كُلَّ لعبة أطفالٍ، ويجلس في وضعيَّة اللُّوتس تحت كُلِّ بطّانية سريرٍ مع شعلةٍ للتحقُّق مِنْ أَنَّ شيئًا غير معتادٍ لَمْ يكن يحدث.

«دعيني - إذن - أفهم الأمر بشكلٍ مباشرٍ،» تقول نينا بسخريةٍ: «أنتِ تقولين إِنَّ جرعةً مناسبةً مِنَ القمع تحفظ الزَّواج بصحَّةٍ جيِّدةٍ.»

وكما لَوْ أنَّ أحدهم ضغط زرًّا، تنفجر ألسانا بالغضب. «قمعٌ! يا لها مِنْ كلمةٍ سخيفةٍ فارغةٍ! أنا أتحدَّث فقط عَنِ الحسِّ الطَّبيعيِّ. مَنْ هو زوجي؟ مَنْ هو زوجك؟» قالت وهي تشير إِلَى كلارا. «عاشا خمسةً وعشرين عامًا قبل حتَّى أَنْ نولد. ما هم؟ ما الَّذِي يستطيعانه؟ ما الدِّماء الَّتِي يحملانها عَلَى أيديهما؟ ما الملتصق كريه الرَّائحة في مناطقهما الخاصَّة؟ مَنْ يعرف؟» ألقَت يدَيها للأعلى وهي تطلق أسئلتها إِلَى هواء كيلبورن غير الصِّحِّيِّ، وترسل حفنةً مِنَ العصافير معها.

«ما لا تفهمينه، يا عار أخي، ما لَنْ يستطيع أحدٌ في جيلك أَنْ يفهمه....»

عند تلك النُّقطة لا تستطع نينا أَنْ تُوقف قطعة بصلٍ هاربةٍ مِنْ فمها بسبب الانفعال الواضح لاعتراضها. «جيلي؟ بحقِّ اللَّعنة، إنَّكِ تكبرينني بعامين، يا ألسي.»

ولكنَّ ألسانا تتابع بصرف النَّظر، وهي تومئ لعار أخيها بإشارة قطع لسانها الفاحش بالسِّكِّين: «... هو أَنَّ الجميع لا يريدون مرافقة عَرَق كُلِّ شخصٍ آخر، وأجزائه السِّرِّيَّة.»

«ولكنْ، يا عمَّتي،» تتوسَّل نينا، رافعةً صوتها، لأَنَّ هذا ما أرادت أَنْ تتحدَّث عنه، أكبر نقطة خلافٍ عالقةٍ بينهما، زواج ألسانا الَّذِي تقرَّر. «كيف يمكنكِ أَنْ تحتملي الحياة مع شخصٍ ما لا تعرفينه منذ آدم؟»

وفي الرَّدِّ، غمزةٌ غاضبةٌ: فألسانا تحبُّ دائمًا أَنْ تبدو مرحةً في نفس اللَّحظة الَّتِي ترتفع عندها حرارة محاورها تحت ياقته. «لأَنَّه، يا آنسة، يا فهيمة، حتَّى الآن هذا هو الخيار الأسهل. حدث ذلك بالضَّبط لأَنَّ حوَّاء لَمْ تعرف آدم منذ آدم، لأَنَّهما وجدا ذلك حسنًا. دعيني أشرحْ لك. نعم، لقَدْ تزوَّجتُ صمد إقبال في أمسية نفس اليوم الَّذِي التقيتُ به فيه. نعم، لَمْ أكنْ أعرفه منذ آدم. ولكنَّني أعجبتُ به بما يكفي. لقَدِ التقينا في غرفة الإفطار في أحد أيَّام دلهي شديدة الحرارة، وقام بالتَّهوية لي بالتَّايمز. فكَّرت أَنَّ له وجهًا حسنًا، وصوتًا جميلًا، ومؤخِّرته مرتفعةٌ، وجيِّدة الهيئة لرجلٍ في عمره.

حسنًا جدًّا. الآن، في كُلِّ وقتٍ أعرف عنه شيئًا أكثر، أحبُّه بشكلٍ أقلّ. وإذن كما ترين، كُنَّا أفضل حالًا بالطَّريقة الَّتي كُنَّا عليها.»

تتراجع نينا عَلَى كعبها في سخطٍ تجاه المنطق المنحرف.

«بجانب ذلك، فأنا لن أعرفه بشكلٍ جيّدٍ أبدًا. الحصول عَلَى شيءٍ مِنْ زوجي يشبه محاولة عصر الماء عندما يتحجَّر.»

تضحك نينا على الرَّغم منها: «عصر الماء مِنْ حجرٍ.»

«نعم، نعم. أنت تظنّين أنَّني غبيَّةٌ جدًّا. لكنَّني حكيمةٌ بخصوص أشياء مثل الرِّجال. أنا أخبرك ـ» وتستعدُّ ألسانا لتقديم خلاصتها كما رأتها تحدث قبل سنواتٍ عديدةٍ من خلال محاميّ دلهي الشُّبَّان بشعرهم الأملس المفروق عَلَى الجانبين ـ «الرِّجال هم اللُّغز الأخير. الرَّبُّ أكثر سهولةً مِنَ الرِّجال. والآن، يكفي فلسفةً: سمبوسةً؟» تنزع الغطاء عَنِ الصَّحن البلاستيكيِّ وتجلس مسترخيةً كثيرًا، وراضيةً عن استنتاجها.

«المخجل في الأمر أنَّك ستنجبينهما،» تقول نينا لعمَّتها، وهي تشعل سيجارةً. «الأولاد، أعني. مِنَ المخزي أنْ تكوني في الطَّريق لأَنْ يكون عندكِ أولادٌ.»

«ماذا تقصدين؟»

إِنَّها كلارا، الَّتي استفادت مِنْ سرٍّ (أخفته عَنْ ألسانا وعَنْ آرشي) باستعارتها مكتبةً مِنْ نينا لكَيْ تقرأ مِنْ خلالها، في شهورٍ قليلةٍ، «خصاء الأنثى»[1] لجرير، و«الخوف مِنَ الطيران»[2] ليونج و«الجنس لمرة ثانية»[3]، وكُلُّها في محاولةٍ سريَّةٍ، مِنْ جانب نينا، لتخليص كلارا مِنْ «وعيها الزائف».

«أعني، أنَّني أتصوَّر أنَّ الرِّجال تسبَّبوا بما يكفي مِنَ الفوضى في هذا القرن. هناك ما يكفي مِنَ الرِّجال اللَّعينين في العالم. إذا عرفتُ أنني سأرزق بولدٍ ـ» تتوقَّف للحظةٍ لكَيْ تهيِّئ وعي صديقتها الزَّائف لهذا المفهوم الجديد ـ «كنتُ لأفكِّر ـ جدِّيًّا ـ في الإجهاض.»

1 ـ خصاء الأنثى: كتاب لجيرمين جرير، صدر في 1970، وحقق أعلى مبيعات في أنحاء العالم، وكان أحد أهم نصوص الحركة النسوية وقتها. (المترجم).

2 ـ الخوف من الطيران: رواية لإريكا يونج، صدرت في 1973، ونالت شهرة عالمية لموقفها من حياة الأنثى الجلسية، وأسهمت في الحركة النسوية الثانية. (المترجم).

3 ـ ويعرف بـ»الجنس الثاني»: دراسة للكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار، صدرت في 1949، وتناقش معاملة المرأة عبر التاريخ. (المترجم).

تصرخ ألسانا، وتصفِّق بيديها عَلَى أذنيها وإحدى أذني كلارا، وعند ذلك تقريبًا تختنق بقطعةٍ مِنَ الباذنجان. ولسببٍ ما يصدم التَّصريح كلارا في الوقت نفسه بشكلٍ مضحكٍ، هيستيريٍّ، مضحكٍ بشكلٍ فظيعٍ، مضحكٍ بشكلٍ بائسٍ، وتجلس عار الأخ بين اثنتَين مِنَ النِّساء عَلَى شكل بيضتين تنحنيان عَلَى نفسيهما، واحدةٍ مِنَ الضَّحك، والثانية مِنَ الاختناق والرُّعب.

«هَلْ أنتنَّ عَلَى ما يرام، أَيَّتها السَّيِّدات؟»

إِنَّه سول جوزيفويكز، الرَّجل المُسِنُّ الَّذِي ظهر منذ فترةٍ وحمل عَلَى عاتقه حراسة الحديقة (رغم أَنَّ وظيفته كحارس منتزهٍ مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ إنهائها في تخفيضات المجلس البلديِّ للنَّفقات)، يقف سول جوزيفويكز أمامهنَّ، جاهزًا كما دائمًا لتقديم المساعدة.

«سوف نحترق جميعًا في الجحيم، يا سيِّد جوزيفويكز، إذا كنتَ تعتبر ذلك عَلَى ما يرام،» شرحت ألسانا وهي تلملم نفسها.

تقلِّب عار الأخ عينيها: «تحدَّثي عَنْ نفسك.»

ولكنَّ ألسانا أسرع مِنْ أَيِّ قنَّاصٍ، عندما يتعلَّق الأمر بالرَّدِّ السَّريع. «إِنَّني أفعل، إِنَّني أفعل - والحمد لله على أَنَّه رتَّب الأمر عَلَى هذا النَّحو.»

«مساء الخير، يا نينا، مساء الخير، يا سيِّدة جونز،» يقول سول، وهو يقدِّم انحناءةً أنيقةً لكُلٍّ منهما. «هَلْ أنت واثقةٌ أَنَّك بخيرٍ؟ يا سيِّدة جونز؟»

لَمْ تكن كلارا قادرةً عَلَى وقف الدُّموع الَّتِي تتحدَّر عَلَى جانبي عينيها. لَمْ تستطع أَنْ تحدِّد، في تلك اللَّحظة، أكانت بكاءً أَمْ ضحكًا.

«إِنَّني بخيرٍ... بخيرٍ، معذرةً للتَّسبُّب في قلقك، يا سيِّد جوزيفويكز... حقيقةً، أنا بخيرٍ.»

«لا أعرف ما هو المضحك جدًّا جدًّا،» تُمتم ألسانا. «قتل الأبرياء - هَلْ هذا مضحك؟»

«ليس في خبراتي، يا سيِّدة إقبال، لا،» يقول سول جوزيفويكز، بحالةٍ مِنْ ضبط النَّفس تلخِّص كُلَّ شيءٍ، وهو يمرِّر منديلًا إِلَى كلارا. ويُدهش السَّيِّدات الثَّلاث، بالطَّريقة الَّتِي سيدهشهنَّ التَّاريخ بها، بشكلٍ محرجٍ، وبدون سابق إنذارٍ، كحمرة الخجل - ما قد تكونه خبرات حارس المتنزَّه السابق. ويَلُذْنَ بالصَّمت.

«حسنًا، ما دمتنَّ عَلَى ما يرام، يا سيِّدات، سأمضي،» يقول سول، وهو يومئ بأَنْ يمكن لكلارا أَنْ تحتفظ بالمنديل، ويعيد وضع القبّعة الَّتِي نزعها عَلَى التَّقليد القديم. ينحني انحناءةً صغيرةً أنيقةً، مرَّةً أخرى، وينطلق ببطءٍ، عكس اتِّجاه عقارب السَّاعة، في الحديقة.

ما إِنْ يبتعد سول عَنِ المسامع: «حسنًا، يا عمَّتي ألسي، أنا أعتذر، أنا أعتذر.... بحقِّ اللَّعنة، ماذا تريدين أكثر؟»

«أوه، أريد كُلَّ شيءٍ لعينٍ،» تقول ألسانا، وصوتها يفقد انفعاله، إِلَى نبرة الأسى. «كان كُلُّ هذا الكون الحقير واضحًا ـ في قشرة الجوز الصَّغيرة. لا أستطيع أَنْ أفهم شيئًا، بعدُ، وأنا فقط في البدء. هل تفهمين؟»

تتنهَّد، وهي لا تنتظر إجابة، ولا تنظر إِلَى نينا، بَلْ عبر الطريق إِلَى هيئة سول المنحنية وهي تختفي وتظهر بين تعرُّجات أشجار السِّرو. «رُبَّما تكونين محقَّةً بخصوص صمد.... بخصوص أشياء كثيرةٍ. رُبَّما ليس هناك رجالٌ جيِّدون، ليس حتَّى هذان الاثنان الموجودان رُبَّما في بطني... ورُبَّما لا أتحدَّث كثيرًا مع نفسي، رُبَّما تزوجت بغريبٍ. رُبَّما ترين الحقيقة أفضل مما أفعل. ماذا أعرف أنا.. فتاة القرية حافية القدمين.... الَّتِي لَمْ تذهب للجامعات قط.»

«أوه، يا ألسي،» تقول نينا، وهي تغزل بين كلمات ألسانا كما لَوْ كانت نسيجًا؛ وتشعر بالسُّوء. «أنت تعرفين أَنَّني لَمْ أقصد أَنْ يبدو الأمر كذلك.»

«ولكنَّني لا أستطيع أَنْ أظلَّ قلقةً، مشغولةً طوال الوقت بخصوص الحقيقة. ينبغي أَنْ أنشغل بخصوص الحقيقة الَّتِي يمكنني التَّعايش معها. هذا هو الفرق بين أَنْ تفقدي عقلك وتشربي البحر المالح، أَوْ تبتلعي ما تجلبه الفيضانات. تؤمن عار أخي بالعلاج عبر الحديث، هه؟» تقول ألسانا، مع شيءٍ مِنَ ابتسام. «تحدَّث، تحدَّث، تحدث وسيكون الأمر أفضل. كُنْ صادقًا، شُقّ قلبك، وانثر الأشياءَ الحمراءَ الَّتِي تحيطه. لكنَّ الماضي مصنوعٌ مما هو أكثر مِنْ كلماتٍ، يا عزيزتي. تزوَّجنا رجالًا مسنِّين، هَلْ ترين؟ هذه الانتفاخات» ـ تربت ألسانا عَلَى بطنيهما ـ «سيكون لها دائمًا والدٌ بساقين طويلتين[1]

1 ـ إشارة إلى رواية جين ويبستر الشهيرة Daddy longlegs الَّتِي كانت أساسًا لعدة أفلام حول فتاة يتيمة تكتب لمالكها الحارس. (المترجم).

لأجل الأبوَّة. ساقٌ في الحاضر، وأخرى في الماضي. لا كلام يغيِّر ذلك. جذورهم ستظلُّ معقَّدةً. والجذور يتم نبشها. أُنظري فقط في حديقتي - طيورٌ في زراعات الكزبرة في كُلِّ يومٍ لعينٍ....»

ما إِنْ يبلغ سول جوزيفويكز البوَّابة البعيدة، حتَّى يلتفت ليلوِّح، وتلوِّح له النِّساء الثَّلاث في المقابل. ينتاب كلارا شعورٌ مسرحيٌّ بعض الشَّيء، وهي تطيِّر منديله الكريميَّ فوق رأسها. كما لَوْ تودِّع شخصًا في رحلة قطارٍ يعبر الحدود بين دولتين.

«كيف التقيا؟»، تسأل نينا، وهي تحاول رفع السَّحابة الَّتِي حلَّت عَلَى نزهتهنَّ الخلويَّة بطريقةٍ ما. «أقصد السَّيِّد جونز وصمد مياه.»

تُلقي ألسانا رأسها إلى الوراء، في إشارة استخفافٍ. «أوه، في الحرب. قبيل قتل بعض الأوغاد المساكين الَّذِين لَمْ يستحقُّوا ذلك، بلا شكٍّ. وما الَّذِي حصلوا عليه مقابل متاعبهم؟ يدٍ محطَّمةٍ لصمد وساقٍ مضحكةٍ للثَّاني. بعض الجدوى، بعض الجدوى، وكلِّ ذلك.»

«ساق آرشي *اليمنى*،» تقول كلارا بهدوءٍ، وهي تشير إِلَى موضع في فخذها. «قطعةٌ مِنَ المعدن، عَلَى ما أظنُّ. ولكنَّه لا يخبرني بشيءٍ حقًّا.»

«أوه، مَنْ يهتمُّ!»، تصرخ ألسانا. «إِنَّني لأثق بفيشنو[1] النَّشَّال صاحب الأيدي الكثيرة قبل أَنْ أصدِّق كلمةً يقولها هؤلاء الرِّجال.»

ولكنَّ كلارا تعتزُّ بصورة المجنَّد الشَّابِّ آرشي، خصوصًا عندما تكون رسالة آرشي المسنِّ المترهِّل البريديَّة المباشرة فوقها. «أوه، تعالي الآن... نحن لا نعرف ماذا ـــ.»

تبصق ألسانا، في صراحةٍ تامَّةٍ عَلَى العشب. «أكاذيب بذيئةٌ! إذا كانوا أبطالًا، فأين أشياء بطولتهم؟ أين هي قطع وأجزاء البطولة؟ الأبطال - لديهم أشياء. لديهم موادُّ البطولة. يمكنك اكتشافهم مِنْ عَلَى بعد عشرة أميالٍ. لَمْ أَرَ ميداليَّةً قطُّ... ولا الكثير مِنَ الصُّور.» تصدر ألسانا صوتًا مزعجًا بالجزء الخلفيِّ مِنْ حلقها، وهي إشارتها لعدم التَّصديق. «وإذن أُنظري إِلَى الأمر - لا، يا عزيزتي، لا بُدَّ مِنْ ذلك - أُنظري إليه عَنْ قُربٍ. أُنظري إِلَى ما تبقَّى. صمد بيدٍ واحدةٍ؛ يقول إِنَّه يريد أَنْ يجد الرَّبَّ ولكنَّ

1 - الإله الأعلى في الديانة الهندوسية ويصور في هيئة إنسان له عدة أذرع. (المترجم).

الحقيقة أَنَّ الرَّبَّ تجاوزه؛ وظلَّ في بيت الكاري ذلك لمدَّة عامين بالفعل، يقدِّم الجداء السَّمينة للبيض الَّذِين لا يعرفون شيئًا أفضل، وآرشيبالد ـ حسنًا، انظري إِلَى الأشياء عَنْ قُربٍ.....»

تتوقَّف ألسانا لكَيْ ترى مع كلارا ما إذا أمكنها التَّعبير عمَّا يجول بخاطرها أكثر بدون أَنْ تتسبَّب في إهانةٍ أَوْ ألمٍ غير ضروريَّين، ولكنَّ عيني كلارا كانتا مغلَقتَين، وهي تنظر إلى الأشياء عنْ قُربٍ بالفعل؛ فتاةٌ شابَّةٌ تنظر إلى رجلٍ مسنٍّ عنْ قُربٍ؛ وتتمُّ جملة ألسانا مع بداية ابتسامةٍ أخذَت تنتشر عَلَى وجهها:

«.. يطوي الورق لأجل المعيشة، أيُّها المسيح الغالي.»

الفصل الخامس

القنوات الجذريَّة[1] لألفريد آرشيبالد جونز وصمد مياه إقبال

بالإشارة إِلَى ذلك، فكُلُّ شيءٍ جيِّدٌ جدًّا، توجيهات ألسانا تلك بالنَّظر إِلَى الأشياء عَنْ قُربٍ، بالنَّظر مباشرةً بين عيني الجثَّة: نظرةً ثابتةً وصادقةً، والتَّفتيش الدَّقيق الَّذِي يتجاوز صُلب الأشياء إِلَى نخاعها، ويتجاوز نخاعها إِلَى الجذور ـ ولكنَّ السؤال هو إِلَى أيِّ مَدَى في الماضي تريد أَنْ تذهب؟ أيُّ مَدًى سيكون جيِّدًا؟ السُّؤال الأمريكي القديم: ماذا تريد ـ *الدَّم*؟ عَلَى الأرجح فما هو مطلوبٌ أكثر مِنَ الدَّم، همست لنفسها، وهي تفقد المحادثة؛ ميدالياتٌ وصورٌ؛ قوائمُ وشهاداتٌ، وورقٌ مُصْفرٌّ يحمل تواريخ بنِّيَّةً مطبوعةً. أَبْعَد، أبْعَد، أَبْعَد. حسنًا، حسنًا جدًّا، إذن. رجوعًا إِلَى بصقة آرشي النَّظيفة، ووجهه المتورِّد اللَّامع، وهو يبدو كبيرًا بما يكفي في السَّابعة عشر لكَيْ يخدع الرِّجال مِنَ المجلس الطِّبِّيِّ بأقلامهم الرُّصاص وأشرطة قياسهم. ورجوعًا إِلَى صمد، أكبر بعامَين، واللَّون الدَّافئ للخبز الطَّازج. ورجوعًا إِلَى المرَّة الأولى الَّتِي تَمَّ تعيينهما معًا، صمد مياه إقبال (الصَّفِّ 2، تمامًا هنا الآن، يا مجنَّد!) وألفريد آرشيبالد جونز (تقدَّم، تقدَّم، تقدَّم)، اليوم الَّذِي اضطرَّ آرشي فيه إِلَى نسيان المبادئ الأساسيَّة للآداب الإنجليزيَّة. وحدَّق. واقفَين جنبًا إِلَى جنبٍ عَلَى امتداد المسار التُّرابيِّ في الأراضي الرُّوسيَّة، يرتديان بيريهَين متماثلَين في تصميمها المثلَّث فوق رأسَيهما مثل قوارب ورقيَّةٍ، ويرتديان نفس الزِّيِّ الرَّسميِّ الخشن، وأصابع أقدامهما الَّتِي يقرصها الصَّقيع تستريح في نفس أحذية الرَّقبة الملطَّخة بنفس التُّراب. ولكنَّ آرشي لَمْ يمكنه سوى التَّحديق. وتحمَّل صمد ذلك، انتظره

---

1 ـ القناة الجذرية هي الفراغ الموجود داخل جذر السن. وهي جزء مِنَ الفراغ الواقع بشكل طبيعي داخل السن الذي يتكون مِنْ غرفة لب السن (داخل الجزء التاجي من السن)، والقناة الرئيسية، والفروع التشريحية الَّتِي تربط القنوات الجذرية ببعضها أَوْ بسطح الجذر. (المترجم).

وانتظره كَيْ يعبر، حتَّى عندما مرَّ أسبوعٌ مِنَ التكدُّس في دبَّابتهم، يواجهون السُّخونة والاختناق في الآلة الخالية مِنَ الهواء، ومعرَّضًا لنظرات آرشي المحدِّقة بلا هوادةٍ، كان قَدْ تحمَّل أقصى ممَّا يستطيع رأسه السَّاخن أَنْ يتحمَّل أيَّ شيءٍ عَلَى الإطلاق.

«يا صديقي، ما هذا الشَّيء الغامض اللَّعين بخصوصي، الَّذِي يجعلك في هذا الذُّهول المستمرِّ.»

«أنتَ ماذا؟» قال آرشي، مُرتبكًا، كونه لَمْ يكنْ شخصًا يجري محادثاتٍ خاصَّةٍ في وقت الخدمة. «لا أحد، أعني، لا شيء ـــ أعني، حسنًا، ماذا تقصد؟»

تحدَّث الاثنان مِنْ تحت أنفاسهما، فالمحادثة لَمْ تكنْ خاصَّةً بمعنًى آخر، هناك جنديَّان آخران ونقيبٌ في دبابتهم الـ«تشرشل» سعة الخمسة رجالٍ، وهي تنحدر عبر أثينا في طريقها إِلَى سالونيك. كان ذلك في الأوَّل مِنْ أبريل، 1945. آرشي جونز سائق الدَّبابة، وصمد عامل اللَّاسلكي، ورُوي ماكنتوش مساعد السَّائق، وويل جونسون محشورًا في صندوقٍ كمدفعيٍّ، وتوماس ديكنسون سميث عَلَى مقعدٍ مرتفعٍ بعض الشَّيء، لَمْ يسمح اعتزازه برتبة النَّقيب الَّتِي نالها حديثًا بالتخلِّي عنه، عَلَى الرغم مِنْ تعرُّض رأسه للارتطام بالسَّقف. ولَمْ يرِ أحدٌ منهم أَيَّ أحدٍ آخر غيرهم لثلاثة أسابيع.

«أعني أَنَّه مِنَ المرجَّح أَنَّنا سنقضي ما يقاربِ العامين عالقين في هذا الشَّيء.»

خشخش صوتٌ عبر اللَّاسلكي، أجاب صمد، غير راغبٍ في أَنْ يبدو مهملًا لواجباته، بسرعةٍ وكفاءةٍ.

«و؟» سأل آرشي، بعد أَنْ أعطى صمد إحداثيَّاتهم.

«و.. فقط، هناك الكثير مِنْ ذلك التَّحديق الَّذِي يمكن للمرء ملاحظته. هَلْ ذلك لأَنَّك تُعِدُّ بعض الأبحاث حول عُمَّال اللَّاسلكي أَمْ أَنَّك فقط شغوفٌ بمؤخِّرتي؟»

أسكَتَ نقيبهما، ديكنسون سميث، *الشَّغوف* بمؤخِّرة صمد (ولكنْ ليس بها فقط؛ بَلْ بعقله أيضًا؛ وبالذِّراعَين المفتولتَين الملفوفتَين اللَّتَين يناسبهما أَنْ تلتفا حول حبيبةٍ؛ وأيضًا بتلك العينَين الفاتنتَين المضيئتَين بالأخضرِ/البُنِّيِّ)، المحادثة عَلَى الفور.

«إكـ-بول! جونزا تجاوزا الأمر. هل تريان أحدًا آخر هنا يستمتع بالدَّردشة؟»

«لقَدْ كنتُ أبدي اعتراضًا فقط، يا سيِّدي. مِنَ الصَّعب عَلَى الرَّجل، يا سيِّدي، أَنْ يركِّز في *أَلِفِ* الأرنب و*كَافِ* الكلب، ثُمَّ في النُّقطة والفاصلة، عندما يكون لديه كلبٌ أفطسُ يتبع كُلَّ حركةٍ صغيرةٍ منه بعينَي الكلب الأفطس خاصَّته، يا سيِّدي. في البنجال سيفترض المرء أنَّ عينَين مثل هاتَين تنتميان إِلَى رجلٍ مليءٍ بالـــ.»

«اغلق الموضوع، يا سلطان، أيُّها السافل،» قال روي، الَّذِي يكره صمد وطريقته الاستعراضيَّة كمشغلٍ للَّاسلكيِّ.

«*ماكينتوش*،» قال ديكنسون سميث: «تعال الآن، دعنا لا نوقف السُّلطان. استمرَّ يا سلطان.»

كَيْ يتجنَّب أَيَّ إيحاءٍ بأَنَّه منجذبٌ إِلَى صمد، فقَدْ مرَّن النَّقيب ديكنسون سميث نفسه عَلَى إغاظته وتحفيزه بلقب سلطان الَّذِي يكرهه، ولكنَّه لَمْ يفعل ذلك بالطَّريقة الصَّحيحة إطلاقًا؛ كان رقيقًا دائمًا أكثر مِنَ اللَّازم، ومشابِهًا جدًّا لفخامة لغة صمد الخاصَّة، وتسبَّب فقط في كراهة روي والثَّمانين روي الآخرين تحت القيادة المباشرة لديكنسون سميث، وسخريتهم منه، وإظهار عدم احترامهم له علانيةً؛ وبحلول أبريل 1945 كانوا ممتلئين باحتقاره والغثيان مِنْ طرائقه الصِّبيانيَّة الشَّاذَّة للقيادة. وكان آرشي، المستجدُّ في الفوج الهجوميِّ الأَوَّل للمهندسين الملكيِّين، بالكاد يدرك ذلك.

«كُلُّ ما قلتُه له أَنْ يغلق الموضوع، وسيغلقه إذا كان يعرف مصلحته، السُّلطان الهنديُّ ابن الحرام. لا توجد إهانةٌ لك، يا سيِّدي، بالطَّبع،» أضاف روي، كبادرة تهذُّب.

يعرف ديكنسون سميث أَنَّه، في الأفواج الأخرى وفي الدَّبَّابات الأخرى، ليس مِنَ اللَّائق ـ ببساطةٍ ـ أَنْ يردَّ النَّاس عَلَى قادتهم أَوْ يتكلَّموا أيضًا عَلَى الإطلاق. حتَّى لفتة روي المهذَّبة كانت دلالةً عَلَى فشل ديكنسون سميث. في تلك الدَّبَّابات الأخرى، شيرمان، وتشرشل، وماتيلدا المنتشِرة في أوروبَّا المهدورة مثل الصَّراصير المرنة لَمْ تكن مسألة احترامٍ مِنْ عدمه. فقط الطَّاعة أَوْ عدم الطَّاعة، والعقاب.

«سلطانٌ... سلطانٌ....» تهكَّم صمد. «أتعرف، أنا لا أمانع في الوصف، يا سيِّد ماكنتوش، لَوْ كان دقيقًا عَلَى الأقل. هو ليس دقيقًا، مِنَ النَّاحية التَّاريخيَّة. وليس دقيقًا حتَّى عندما نتحدَّث *جغرافيًّا*. أنا واثقٌ أَنَّنِي شرحتُ لكَ أَنَّنِي مِنَ *البنجال*. كلمة

سلطانٍ تشير إِلَى رجالٍ بعينهم مِنَ الأراضي *العربيَّة* ـ عدَّة مئاتٍ مِنَ الأميال غرب البنجال. أَنْ تناديني سلطانًا يتناسب بِاصطِلاح الأميال، الَّذِي تفهمه، مع إشارتي إليك كـ جيري هون[1] أيُّها اللَّقيط البدين.»

«لقَدْ دعوتك سلطانًا وها أنا أدعوك به ثانيةً، هَلْ توجد مشكلةٌ؟»

«أوه، يا سيِّد *ماكنتوش*. هَلِ الأمر معقَّدٌ جدًّا، هَلْ هو مستحيلٌ، ما دمنا أنتَ وأنا عالقَين في هذه الآلة البريطانيَّة، فعلينا أَن نجد بأنفسنا طريقةً لكَيْ نقاتل معًا مثل رعايا بريطانيِّين؟»

خلع ويل جونسون، الَّذِي كان ساذجًا نوعًا ما، الكاب كما يفعل دائمًا إذا قال أحدهم: «بريطانيّ.»

«ما الَّذِي هذا اللُّوطي بصدده؟» سأل ماكنتوش، وهو يعدل كرش البيرة[2].

«لا شيء،» قال صمد. «أخشى أَنَّني لستُ بصدد أَيِّ شيءٍ؛ كنتُ فقط أتحدَّث، أتحدَّث، كنتُ فقط *أفضفض* كما يقولون، وأحاول دعوة المهندس العسكريِّ جونز لأَنْ يتوقف عَنِ التَّحديق، ويبعد أعينه المحدِّقة، هذا فقط، وهذا وحده... وقَدْ فشلتُ في كُلِّ الأحوال، عَلَى ما يبدو.»

بدا كما لَوْ كان مجروحًا بصدقٍ، وشعر آرشي بتلك الرَّغبة المفاجئة الَّتِي لا تناسب الجنديَّ في إزالة ألمه. ولكنَّه لَمْ يكن المكان، ولا كان الوقت.

«حسنًا. يكفي، جميعكم. جونز، افحص الخريطة،» قال ديكنسون سميث.

فحص آرشي الخريطة.

رحلةٌ طويلةٌ، ومرهِقةٌ جدًّا، ونادرًا ما تخلَّلها أَيُّ إجراءٍ. كانت دبَّابة آرشي لبناء الجسور، وهو أحد الأقسام المتخصِّصة الَّتِي لا ترتبط بتحالفات الإقليم البريطانيِّ ولا بنوع التَّسليح، ولكنَّها توفِّر خدماتها، عبر الجيش ومِنْ بلدٍ إِلَى بلدٍ، في إصلاح المعدَّات التَّالفة، ومدِّ الجسور، وإنشاء ممرَّاتٍ للمعركة، وإقامة مساراتٍ في المواقع الَّتِي دُمِّرت

1 ـ هون (أو الهون) هو اصطلاح يشير إلى إمبراطورية الهون في القرون الوسطى. واستخدم في الحرب العالمية الأولى، وكان يظهر على لافتات معارضي الحلفاء. وأصل المصطلح كان خطاب الهون سيئ السمعة للإمبراطور فيلهلم الثاني في 27 يوليو 1900 قال فيه: عندما تواجهون العدو، سينهزم! لن يمنح أي ربع! لن يؤخذ أي سجين! أولئك الذيّن يقعون في أيديكم ليسوا مأمونين! تماما مثلما منذ ألف عام، صنع الهون اسمًا لأنفسهم بقيادة ملكهم أتيلا والذي يظهرهم أقوياء في التقاليد والأسطورة، وهكذا ستنشئون اسم الألمان في الصين لألف عام، بطريقة تجعل الصيني لا يجرؤ مرة أخرى على النظر شزرًا إلى ألماني. (المترجم).

2 ـ الكرش الناتج عن الإفراط في شرب البيرة لفترة طويلة. (المترجم).

مساراتها. لَمْ تكنْ مهمَّتهم أَنْ يخوضوا الحرب بشكلٍ ما، بقدر ما هي التَّأكُّد مِنْ أَنَّ الحرب تمضي بشكلٍ سلسٍ. ومع الوقت انضم آرشي إِلَى الصِّراع، اتَّضح أَنَّ القرارات الدَّمويَّة القاسية سيقوم بها الطَّيران، وليس فَرْق الـ30 سنتيمترًا بين عرض القذيفة الألمانيَّة الخارقة للدُّروع، وتلك الإنجليزيَّة. الحرب الحقيقيَّة، تلك الَّتِي ركعَت فيها المدن إِلَى رُكَبِها، الحرب ذات الحسابات المهلكة في الحجم، والتَّفجير، والسُّكان، تجري عَلَى بعد الكثير مِنَ الأميال عَنْ رأس آرشي. وفي الوقت نفسه، عَلَى الأرض، فلدبَّاباتهم الاستكشافيَّة المدرَّعة مهمةٌ أبسط: أَنْ تتجنَّب الحرب الأهليَّة في الجبال - حربٌ في داخلِ حربٍ - بين جبهة التَّحرير الوطنيِّ والجيش الشَّعبيِّ لتحرير اليونان؛ أَنْ تجد طريقها عبر الأعين المزجَّجة لإحصاءات الموتى و«الشَّباب الضَّائع»؛ للتَّأكُّد مِنْ أَنَّ طرق الخطوط الَّتِي تمتدُّ مِنْ إحدى نهايات الجحيم إِلَى الأخرى متَّصلةٌ بالكامل.

«مصنع الذَّخيرة المقصوف عَلَى بعد عشرين ميلًا في الجنوب الغربيِّ، يا سيِّدي. نحن بصدد جمع ما نستطيع، يا سيِّدي. مرَّر المجنَّد إِك - بول رسالةً لاسلكيَّةً إليَّ في السَّاعة 1647 تبلغني أَنَّ المنطقة، بالقدر الَّذِي يمكن رؤيته مِنَ الجوِّ، يا سيِّدي، غير مأهولةٍ، يا سيِّدي.» قال آرشي.

«هذه ليست حربًا،» قال صمد بهدوءٍ.

بعد أسبوعين، وبينما يفحص آرشي طريقهم إِلَى صوفيا، قال صمد للا أحد بعينه: «لَمْ يكن ينبغي أَنْ أكون هنا.»

كالعادة تَمَّ تجاهله، بأقصى عزمٍ وتصميمٍ مِنْ قِبَل آرشي، الَّذِي رغب بصورةٍ ما في الإنصات.

«أعني أَنَّني متعلِّمٌ. ومدرَّبٌ. ينبغي أَنْ أكون مع القوَّة الملكيَّة المجوقلة[1]، نقصف مِنَ الأعلى! أنا ضابطٌ! لستُ أحد الملالي[2]، أحد الجنود الهنود، أرتدي صندلي في أشغالٍ شاقةٍ. جدِّي الأكبر هو مانجال باندي» - تطلَّع حوله لأجل الاهتمام الَّذِي يستحقُّه الاسم، لَكِنْ كونه لَمْ يلق سوى وُجُوهٍ إنجليزيَّةٍ مسطَّحةٍ، فقدْ أكمل - «بطل التَّمرُّد الهنديِّ العظيم!»

1 - القوات المنقولة جوًّا، وتكون في الغالب وحدات من المشاة الخفيفة يتم انزالها بالمظلات خلف خطوط العدو، ولها القدرة على الانتشار في أي مكان تقريبا. (المترجم).

2 - الملا: اصطلاح يطلق على الفقيه الديني، ويستخدم بشكل شائع في مناطق من قبيل إيران، تركيا، باكستان، أفغانستان، شبه القارة الهندية، آسيا الوسطى والبوسنة حيث يكون خريج مدرسة دينية إسلامية ويطلق على رجل دين محلي أو إمام مسجد. (المترجم).

صمتٌ.

«في عام 1857! إنَّه هو الَّذِي أطلَقَ أوَّل رصاصةٍ عَلَى الخنزير الملطَّخ بالدُّهون، وأرسله يغزل في غياهب النِّسيان!»

صمتٌ أطول، وأكثر كثافةً.

«إذا لَمْ يكن الأمر بسبب هذه اليد التَّعِسة -» سبَّ صمد في سرِّه ذاكرة السَّمكة الذَّهبيَّة لدَى البريطانيِّين تجاه التَّاريخ، ورفع خمسة أصابع ميِّتةً، مقوَّسةً بشدَّةٍ مِنْ مستراحها المعتاد عَلَى صدره - «تلك اليد القذرة الَّتِي منحني إيَّاها لتعاستي الجيش الهنديُّ عديم الجدوى، كنتُ لأبلغ إنجازاته. ولماذا أنا مشلولٌ؟ لأَنَّ الجيش الهنديَّ يعرف عَنْ تقبيل المؤخِّرات أكثر ممَّا يفعل بخصوص الحرارة وعرق المعركة! لا تذهب إِلَى الهند، أيُّها المهندس العسكريُّ جونز، يا صديقي العزيز، إنَّها مكانٌ للحمقى وما هو أسوأ مِنَ الحمقى. حمقى، وهندوسٌ، وسيخٌ، وبنجابيُّون. والآن هناك كُلُّ هذا التَّذمُّر بخصوص الاستقلال - امنحوا *البنجال* استقلالًا، يا آرشي، هو ما أقوله - اتركوا الهند في الفراش مع البريطانيِّين، إذا كان هذا ما تحبُّه.»

سقطَت ذراعه إِلَى جانبه بكُلِّ ثقلها وأراحَت نفسها مثل رجلٍ مُسِنٍّ بعد نوبة غضبٍ. كان صمد يخاطب آرشي دائمًا كما لَوْ أَنَّهما في عصبةٍ معًا في مواجهة البقيَّة في الدَّبَّابة. بغضِّ النَّظر عَنْ قدْر تجاهُل آرشي له، فتلك الأيَّام الأربعة مِنَ التَّحديق خلقَت نوعًا مِنَ الرَّابطة الحريريَّة بين الرَّجلين، انجرف صمد لها كُلَّما واتته الفرصة.»

«أنتَ ترى، يا جونز،» قال صمد: «فالخطأ الحقيقيُّ الَّذِي ارتكبه ممثِّل الملك هو إعطاء السِّيخ أيّ موقفٍ مِنَ السُّلطة. هَلْ ترى؟ لمجرَّد أَنَّهم حقَّقوا بعض النَّجاح المحدود مع الكافير[1] في أفريقيا، يقول: نعم أيُّها السَّيِّد رجلٌ، بوجهك الدُّهنيِّ المتعرِّق وشاربك الإنجليزيِّ المصطنع السَّخيف وعمامتك المستقرَّةِ مثل قذارةٍ ضخمةٍ عَلَى أُمِّ رأسك، يمكنك أَنْ تكون ضابطًا، سوف نهنِّد الجيش، اذهب، اذهب وقاتل في إيطاليا، عمامة رسالدار عظيم[2]، وعمامة دفعدار[3]، مع قوَّاتي البريطانيَّة القديمة العظمى! خطأ!

1 ـ كفير أو كافير: كانت الكلمة تستخدم في جنوب أفريقيا للإشارة إلى أي شخص أسود. تعتبر - الآن - بشكل موسع إهانة عرقية. وكانت في السابق اصطلاحًا محايدًا يدل على السود في جنوب أفريقيا. (المترجم).

2 ـ الرسالدار العظيم: ضابط برتبة رائد في سلاح الفرسان في الجيش الهندي، أنشئت الرتبة في 1886. (المترجم).

3 ـ دفعدار: رتبة تعادل الرقيب في سلاح الفرسان في الجيش الهندي. (المترجم).

وبعدها يأخذونني أنا، بطل خيَّالة شمال البنجال التَّاسعة، بطل فيلق البنجال الطَّائر، ويقولون: صمد مياه إقبال، يا صمد، سنمنحك شرفًا عظيمًا. ستقاتل في أراضي أوروبا الرَّئيسة - لا تجوع وتشرب بولك في مصر أوِ الملايو، لا - ستقاتل الهون حيث تجده. عَلَى عتبة بابه بالفعل، أيُّها المهندس العسكريُّ جونز، عَلَى عتبة بابه تمامًا. وإذنْ! ذهبتُ. إيطاليا، كما ظننتُ، حسنًا، هذا هو المكان الَّذِي سأُظهر فيه للجيش الإنجليزيِّ أنَّ الرِّجال المسلمين في البنجال يمكن أنْ يقاتلوا مثل أيِّ سيخيٍّ. وأفضل! أكثر قوَّةً وهم الأفضل تعليمًا، وهم هؤلاء ذوو الدِّماء الجيِّدة، نحن الَّذِين ننتمي - حقًّا - إِلَى عناصر القيادة.»

«ضباطٌ هنودٌ؟ سيكون ذلك يومًا لعينًا،» قال روي.

«في يومي الأوَّل هناك،» تابع صمد: «دمَّرتُ مخبأً نازيًّا مِنَ الجوِّ. مثل نسرٍ مُنقضٍّ.»

«هراء،» قال روي.

«في اليوم التَّالي، أطلقتُ النَّار مِنَ الجوِّ عَلَى العدوِّ بينما يقترب مِنَ الخطِّ القوطيِّ[1]، ويكسر ثغرة أرجنتا[2] ويدفع الحلفاء عبر وادي بُو[3]. كان اللُّورد مونتباتن[4] ذاته ليهنِّئني بنفسه شخصيًّا. كان ليصافح هذه اليد. ولكنْ حيل دون ذلك كُلِّه. هَلْ تعلم ما الَّذِي حدث في اليوم الثَّالث، أيُّها المهندس العسكريُّ جونز؟ هَلْ تعرف كيف أُصبتُ بالشَّلل؟ شابًّا في مقتبل العمر؟»

«لا،» قال آرشي بهدوءٍ.

---

1 - خط دفاعي ألماني للحملة الإيطالية في الحرب العالمية الثانية. شكَّل خط الدفاع الرئيس الأخير للمارشال ألبرت كيسلرينج على طول قمم الجزء الشمالي من جبال أبنين أثناء تراجع القوات الألمانية في إيطاليا أمام جيوش الحلفاء بقيادة الجنرال السير هارولد ألكسندر. (المترجم).

2 - كانت معركة ثغرة أرجنتا المعركة الَّتِي شكلت جزءًا مِنْ هجوم الحلفاء في ربيع 1945 خلال الحملة الإيطالية للحرب العالمية الثانية. وقعت المعركة شمالي إيطاليا بين 12 - 19 أبريل 1945 بين قوات الفيلق البريطاني الخامس البريطانية بقيادة الجنرال تشارلز فريدريك كيتلي والوحدات ألمانية مِنْ فيلق الدبابات بقيادة الجنرال جيرهارد فون شفيرين. (المترجم).

3 - وادي بو أوسهل نهر بو: من المعالم الجغرافية الرئيسية لإيطاليا. يمتد حوالي 650 كيلومترًا في الاتجاه الشرقي الغربي بما في ذلك نطاقه الفينيتي الموسع والذي لا يرتبط عمليًا بنهر بو. يمتد الوادي من جبال الألب الغربية إلى البحر الأدرياتيكي. (المترجم).

4 - لويس مونتباتن آخر حاكم بريطاني على الهند، اسمه الكامل عند تعميده لويس فرانسيس ألبرت فيكتور نيكولاس أميرباتنبيرج، ولد بتاريخ 25 يونيو 1900 في إنجلترا وتوفي إثر عملية اغتيال بتاريخ 27 أغسطس عام 1979 في أيرلندا. (المترجم).

«سيخيٌّ ابن حرامٍ، أيُّها المهندس العسكريُّ جونز، سيخيٌّ أحمق ابن حرامٍ. بينما نقف في خندقٍ، انطَلَقَتْ بندقيَّته وأصابني في المعصم. ولكنَّني لَمْ أكنْ لأبترها. كُلُّ قطعةٍ منِّي تأتي مِنَ الله. وكُلُّ قطعةٍ ستعود إليه.»

وعليه، انتهى الأمر بصمد في قسم تمديد الجسور المتهالكة في جيش صاحبة الجلالة، مع بقيَّة الخاسرين؛ مع رجالٍ مثل آرشي، مع رجالٍ مثل ديكنسون سميث (الَّذي ضَمَّ ملفُّه العسكريُّ عبارة «الخطورة: الشُّذوذ الجنسيُّ»)، مع حالاتٍ تستدعي جراحة فصٍّ أماميٍّ مثل: ماكنتوش، وجونسون. مخلفاتُ الحرب. كما يسميها روي في رقَّةٍ: كتيبة المنهوكين. وقعَت معظم مشكلات التَّناغم عَلَى عاتق قائد الفوج الهجوميّ الأوَّل: فـ ديكنسون سميث لَمْ يكن جنديًّا. وبالتَّأكيد ليس قائدًا وإنْ كانت القيادة في جيناته. عَلَى غير إرادته تخرَّج في كُليَّة والده، وتخلَّص مِنْ عباءة أبيه، وتَمَّ إعداده ليخوض حربًا، كما فعل والده. ووالده مِنْ قبله، ووالده مِنْ قبله، إلَى ما لا نهايةٍ. وسلَّم الشَّابُّ توماس نفسه لمصيره، وانضمَّ إلَى الجهود المشتركة والممتدَّة (أربع سنواتٍ للآن) لكَيْ يستحقَّ وضع اسمه في القائمة الطَّويلة لآل ديكنسون سميث المنحوتة عَلَى لوحٍ طويلٍ مِنْ أحجار الموت في قرية ليتل مارلو، ويُدفن عَلَى قمَّتهم جميعهم في مقبرة علبة السَّردين العائليَّة الَّتي تهيمن بفخرٍ عَلَى ساحة الكنيسة.

مع سقوطهم قتلى عَلَى أيدي الهون، والإثنيَّات المتحدِّرة مِنْ أصولٍ شرق أوسطيَّةٍ، والإثنيَّات الآسيويَّة، والكافير، والمنحدرين مِنْ أصولٍ فرنسيَّةٍ، والأسكتلنديِّين، والإسبان، والزُّولو، والهنود (الجنوبيِّين والشَّرقيِّين والحمر)، وعرضًا بطريق الخطأ في اندفاع قطعان الأوكابي في مطاردةٍ سويديَّةٍ في لعبة صيدٍ كبيرةٍ في نيروبي، لَمْ تكنْ رغبة آل ديكنسون سميث تُشبع تقليديًّا مِنْ رؤية دماء آل ديكنسون سميث تسيل عَلَى أرضٍ أجنبيَّةٍ. وفي المناسبات الَّتي لا تكون هناك حروبٌ فيها يشغل آل ديكنسون سميث أنفسهم بالوضع الأيرلنديِّ، كنوعٍ مِنْ منتجعات الموت في العطلة، الأمر الَّذي ظلَّ يجري منذ عام 1600، ولَمْ يُظهر أيَّة إشارةٍ عَلَى التَّراجع. ولكنَّ الموت ليس بالحيلة السهلة. فعلى الرَّغم مِنْ أنَّ فرصة إلقاء أنفسهم في مواجهة أيِّ نوعٍ مِنَ الأسلحة الفتَّاكة حملَت نوعًا مِنَ الجذب المغناطيسيِّ للعائلة عَلَى مرِّ العصور، فإنَّ هذا الـ ديكنسون سميث لَمْ يستطع أَنْ يبدو قادرًا عَلَى التَّعامل مع الأمر. فلدى المسكين توماس نوعٌ مختلفٌ مِنَ الشَّهوة للأرض الغريبة. هو يريد أَنْ يعرفها، أَنْ يرعاها، أنْ يتعلَّم منها، أَنْ يحبَّها. كان شخصًا بسيطًا محكومًا عليه بالفشل في لعبة الحرب.

أُعيدَت رواية القصَّة الطَّويلة عَلَى آرشي بخصوص كيفيَّة ذهاب صمد مِنْ ذروة الإنجاز العسكريِّ في الفيلق البنجاليِّ إِلَى كتيبة المنهوكين. أُعيدَت الرِّواية في نسخٍ مختلفةٍ ومع التَّوضيحات عليها، مرَّةً كُلَّ يومٍ ولمدَّة أسبوعَين آخرين، سواءً أكان ينصت أَمْ لا. مملةً كما هي، كانت إضاءاتٌ تجاور حكايات الفشل الأخرى الَّتي ملأت تلك اللَّيالي الطَّويلة، وأبقَت الرِّجال في الكتيبة المنهوكة في حالاتهم المفضَّلة مِنَ الإحباط واليأس. وضمن الرَّسميات البالية كان الموتُ المأساويُّ لخطيبة روي، مصفِّفة الشَّعر الَّتي انزلقَتْ عَلَى مجموعةٍ مِنَ البَكَرات وكسَرَتْ عنقها عَلَى حوض الغسيل؛ وفشلُ آرشي في الذِّهاب إِلَى مدرسةٍ لتعليم قواعد اللُّغة لأَنَّ والدته لَمْ تتمكَّن مِنْ تحمُّل ثَمَن الزِّيِّ المدرسيِّ؛ وأقاربُ ديكنسون سميث القتلى الكثيرون؛ أَمَّا بالنِّسبة إلى ويل جونسون، فلَمْ يكن يتحدَّث في النَّهار ولكنَّه ينشج وهو نائم، وأفصح وجهه ببلاغةٍ عَنْ مآسي البؤس أكثر مِنْ أَيِّ شخصٍ جرؤ عَلَى الخوض فيها. واصلَت كتيبة المنهوكين عَلَى هذا النَّحو لبعض الوقت، كسيركٍ متنقِّلٍ مِنَ السُّخط يتجوَّل عبر شرق أوروبَّا بلا هدفٍ؛ كانوا مسوخًا وحمقى بلا مستمعين سوى بعضهم بعضًا. مَنْ قدَّموا العروض ومَنْ تابعوها في المقابل. حتَّى انحدرت الدَّبَّابة أخيرًا في يوم لا يذكره التاريخ. بَلْ إِنَّ الذَّاكرة لَمْ تبذل أَيَّ جهدٍ للاحتفاظ به. غرق حجرٌ فجأةً. كأسنانٍ صناعيَّة تغرق في صمتٍ إِلَى قاعٍ مِنَ الزُّجاج. في السَّادس مِنْ مايو 1945.

عند السَّاعة 1800 تقريبًا في 6 مايو 1945، انفجر شيءٌ في الدَّبَّابة. لَمْ يكن صوت انفجار قنبلةٍ، ولكنْ صوتَ كارثةٍ هندسيَّةٍ، وأبطأَت الدَّبَّابة حتَّى توقَّفَتْ تمامًا. كانوا في قريةٍ بلغاريَّةٍ صغيرةٍ عَلَى الحدود بينَ اليونان وتركيا، حيثُ أُصيبَت الحربُ بالملل وغادرَت، لتعيد النَّاس إِلَى الرُّوتين الطَّبيعيِّ تقريبًا.

«حسنًا،» قال روي، بعد أَنْ ألقى نظرةً عَلَى المشكلة. «لقَدْ تهالك المحرِّك وانكسر أحد الجنازير. ينبغي أَنْ نرسل إشارةً لاسلكيَّةً لطلب المساعدة، ثُمَّ نجلس حتَّى وصولها. لا شيء يمكننا فعله.»

«أَلَنْ نبذل أَيَّ جهدٍ مِنْ أجل إصلاحها؟» سأل صمد.

«لا،» قال ديكنسون سميث. «المجنَّد ماكنتوش عَلَى حقٍّ. لا توجد طريقةٌ يمكننا التَّعامل بها مع هذا النَّوع مِنَ الأعطال بالأدوات الَّتي في أيدينا. سيتعيَّن علينا الانتظار هنا فقط حتَّى وصول المساعدة.»

«كَمْ مِنَ الوقت سيستغرق ذلك؟»

«يومًا،» تدخَّل جونسون. «نَحْنُ فِي مسارٍ بعيدٍ عَنْ البقيَّة.»

«هَلْ نحن مطالبون، يا نقيب سميث، بالبقاء في المركبة تلك الأربع والعشرين ساعةً؟» سأل صمد، اليائس مِنْ نظافة روي الشَّخصيَّة، والمشمئزُّ مِنْ قضاء أمسيةٍ قائظةٍ بلا حركةٍ معه.

«صحيحٌ، بكُلِّ لعنةٍ ـ ماذا تظنُّ هذا، يوم عطلةٍ؟» دمدم روي.

«لا، لا... لا أعرف لماذا ينبغي ألَّا نتجوَّل قليلًا ـ لا يُوجد معنًى لبقائنا جميعًا مُحتجزين هنا. اذهب أنت وجونز، وأعدَّا تقريرًا، وعندها نذهب أنا والمجند ماكنتوش وجونسون، عندما تعودون.»

وعليه، ذهب صمد وآرشي إِلَى القرية، وقضيا ثلاث ساعاتٍ يشربان السَّمبوكا[1] ويستمعان إِلَى صاحب المقهى وهو يحكي عَنِ الغزو المصغَّر لاثنين مِنَ النَّازيِّين، ظهرا في البلدة، أكلا إمداداته، ومارسا الجنس مع اثنتَين مِنْ فتيات الهوى في القرية، وأطلقا النَّار عَلَى رأس رجلٍ؛ لأنَّه فشل في إعطائهم إرشادات الطَّريق إِلَى لبلدة القادمة بسرعةٍ كافيةٍ.

«لَمْ يكونا صبورَين فِي كُلِّ شيءٍ،» قال الرَّجل المسنُّ، وهو يهزُّ رأسه. وسدَّد صمد الحساب.

وبينما يمضيان في طريق العودة، قال آرشي: «ياللهول، لا يحتاجون إلى الكثير منهم لأجل القهر والنَّهب،» وهو يحاول إجراء محادثةٍ.

«رجلٌ قويٌّ وآخر ضعيفٌ هو استعمارٌ، أيُّها المهندسُ العسكريُّ جونز،» قال صمد.

عندما وصل آرشي وصمد إِلَى الدَّبَّابة، وجدا المجنَّدين ماكنتوش وجونسون والنَّقيب توماس ديكنسون سميث قتلى. جونسون مخنوقًا بسلك الجبن، ورُوي أُطلقَ الرصاص عليه مِنَ الخلف. وكان فك روي مفتوحًا بعنفٍ، وقَدْ أُزِيلَتْ حشوات الفضَّة مِنْ أسنانه؛ وانحشر فكًّا كمَّاشةٍ في فمه مثْل لسانٍ حديديٍّ. وبدا أَنَّ توماس ديكنسون سميث، وبينما يتقدَّم مهاجموه نحوه، هربَ مِنْ مصيره المحتوم وأطلق النَّار عَلَى نفسه في الوجه. الوحيد مِنْ آل ديكنسون سميث الَّذِي يموت بأيدٍ إنجليزيَّةٍ.

***

1 ـ مشروب كحولي إيطالي بنكهة اليانسون. (المترجم).

بينما شرع آرشي وصمد في تقييم هذا الوضع بأفضل ما يستطيعان، جلس الرَّائد يودل[1] في مدرسةٍ صغيرةٍ حمراءَ في ريمس[2] ينفض حبر قلمه. مرَّةً. مرَّتين. ثُمَّ قاد الحبر في رقصةٍ رسميَّةٍ عَلَى الخَطِّ المنقَّط ودوَّن تاريخًا باسمه. نهاية الحرب في أوروبَّا. ما إنِ انتُشلَت الورقة مِنْ قِبَل رجلٍ عند كتفه، حتَّى طأطأ برأسه، مصدومًا مِنَ الإدراك الكامل للوثيقة. ولكنَّ الأمر استغرق أسبوعَين كاملَين قبل أَنْ يسمع أيٌّ مِنْ آرشي أَوْ صمد بخصوص ذلك.

أوقاتٌ غريبةٌ، غريبةٌ بالنسبة إلى إقبال وجونز ليقيما صداقةً خلالها. في ذلك اليوم، وبينما بقيَّة أوروبا تحتفل، وقف صمد وآرشي عَلَى جانب طريقٍ بلغاريٍّ، يمسك صمد بحزمةٍ مِنَ الأسلاك، وبِلَوحٍ، وغطاءٍ معدنيٍّ في قبضته السَّليمة.

«القَدِ انتُهِكَ هذا اللَّاسلكيُّ ببشاعةٍ،» قال صمد. «سوف نحتاج لأَنْ نبدأ مِنَ البدء. هذا عملٌ سيِّئٌ للغاية، يا جونز. سيِّئٌ جدًّا. لقَدْ فقدنا وسائل اتِّصالنا، ومواصلاتنا، ودفاعنا. والأسوأ: فقدنا قائدنا. رجل الحرب بدون قائدٍ هو أمرٌ سيِّئٌ جدًّا بالتَّأكيد.»

تحوَّل آرشي عَنْ صمد وتقيَّأ عَلَى الدَّغل بعنفٍ. فالمجنَّد ماكنتوش، عَلَى كُلِّ الكلام الكبير الَّذِي تعوَّده، تغوَّط عَلَى نفسه عَلَى بوَّابة سانت بيتر، واندفعَت الرائحة إِلَى رئتي آرشي، وأخرجت معها أعصابه، وخوفه، وإفطاره.

وبقدر ما استغرق إصلاح اللَّاسلكيِّ: صمد يعرف *الكيفيَّة*، يعرفُ *النظريَّة*، ولكنَّ آرشي مَنْ يملك اليدين، وموهبةٌ خاصَّةٌ عندما يتعلَّق الأمر بالأسلاك والمسامير والصَّمغ. وكان الأمرُ جدالًا مضحكًا بين المعرفة والقدرة المحدَّدة، ذلك الَّذِي دار بينهما بينما يلصقان القطع المعدنيَّة الصَّغيرة الَّتِي قَدْ تنقذهما معًا.

«مرِّر لي المقاوم ثلاثة أوم، لَوْ تسمح؟»

1 ـ ألفرد يودل (10 مايو 1890 ـ 16 أكتوبر 1946): قائد عسكري ألماني ولد في بافاريا. كان معجبًا بنابليون بونابارت، ودفع أدولف هتلر إلى تقليده. فشل كمستشار عسكري شخصي لهتلر في محاولة إثنائه عَنْ طموحاته الطاغية. وقّع على استسلام ألمانيا غير المشروط في ريمس في 7 مايو 1945م، وكان وقتها رئيسًا لهيئة عمليات القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية، وانتهت بذلك الحرب العالمية الثانية في أوروبا. حوكم في محكمة نورنبيرج وأدين باتهامه بارتكاب جرائم حرب ثُم أُعدم. أعلنت براءته غيابيًّا سنة 1953 بعد إعدامه. (المترجم).

2 ـ مدينة تقع في شامبانيا أردين في شمال فرنسا، على بعد 144 كلم شمال شرق باريس. تأسست قبل مئات السنين، في أثناء الإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

احمرَّ وجه آرشي جدًّا، وهو غير واثقٍ ما الَّذِي يعنيه العنصر الَّذِي أشار صمد إليه. تردَّدت يده في صندوق الأسلاك والأجزاء والقطع. سعل صمد سعلةً مكتومة عندما ضلَّ إصبع آرشي الصَّغير طريقه إِلَى القطعة الصَّحيحة. كان ذلك مُحرجًا، هنديٌّ يخبر رجلًا بريطانيًا بما ينبغي أَنْ يفعل ـ ولكنْ بطريقةٍ أَوْ بأخرى، جعلهما هدوء الأمر، وذكوريته، يتجاوزان ذلك. تعلَّم آرشي في ذلك الوقت قوَّة افعلها بنفسكَ، كيف يكون الأمر عندما تستخدم مطرقةً ومسامير لكَيْ تستبدل الأسماء والصِّفات، كيف يسمح ذلك للرِّجال بالتَّواصل. وهو درسٌ احتفظَ بهِ مَعَهُ طُوالَ حياته.

«رجلٌ بارعٌ،» قال صمد، بينما ناوله آرشي القطب الكهربائيَّ، ولكنْ عندها، وجد أَنَّ يدًا واحدةً لا تكفي لمعالجة الأسلاك أَوْ لصقها بلوح اللَّاسلكيِّ. ناوَل القطعة إِلَى آرشي مرَّةً أُخْرَى وأشار إِلَى المكان الَّذِي ينبغي وضعها فيه.

«سوف ننتهي مِنْ ذلك في وقتٍ قصيرٍ جدًّا،» قال آرشي بابتهاجٍ.

«عِلْكةً! مِنْ فضلك، يا سيِّد!»

بحلول اليوم الرَّابع، بدأت عصبةٌ مِنْ أطفال القرية في التَّجمُّع حول الدَّبَّابة، تجذبهم جرائمُ القتلِ المروِّعة، والبريقُ الأخضرُ لعيني صمد، وعلكة آرشي الأمريكيَّة.

«سيِّدي الجنديُّ،» قال فتًى كستنائيِّ الشَّعر في خفَّة عصفورٍ، بإنجليزيَّةٍ حَذِرةٍ: «عِلْكةً لَوْ سمحتَ، شكرًا.»

بحث آرشي في جيبه، وأخرج خمس شرائح ورديَّةً رقيقةً. وزعها الصَّبيُّ بتَعَالٍ بين أصدقائه. وبدأوا يمضغون بشراهةٍ، وأعينهم على اتساعها في رؤوسهم مِنَ التَّأثير. ثُمَّ، وبينما تزول النَّكهة، وقفوا في صمت وعادوا يتأمَّلون مانحهم في رجاءٍ. بَعْدَ عِدَّةِ دقائق تمَّ إرسال نفس الصَّبي النَّحيل كممثِّلٍ شعبيٍّ لهم مرَّةً أخرى.

«سيِّدي الجنديُّ.» مد يده. «علكةً لَوْ سمحتَ، شكرًا.»

«لا يوجد المزيد،» قال آرشي، مُستخدمًا لغة إشارةٍ تفصيليَّةً. «ليس لديَّ المزيد.»

«مِنْ فضلك، شكرًا لك. أرجوك؟» رَدَّدَ الفتى في إلحاحٍ.

«أوه، بحَقِّ الرَّبِّ،» قاطعه صمد. «ينبغي أَنْ نصلح اللَّاسلكيَّ، ونتمكَّن مِنْ تحريك هذا الشَّيء. دعونا نشرع في ذلك، حسنًا؟»

«عِلكَةً، يا سيِّدي. أيُّها السَّيِّد الجنديُّ، عِلكَةً.» تحوَّل الأمر إلَى غناءٍ، تقريبًا، والأطفال يخلطون الكلمات القليلة الَّتِي تعلَّموها، ويضعونها بدونِ أيِّ ترتيبٍ.

«أرجوك؟» مدَّ الصَّبيُّ ذراعه بطريقةٍ صعبةٍ جعلته يقف عَلَى أطراف أصابع قدميه.

وفجأةً فتح يده، ثُمَّ ابتسم في إغراءٍ، مستعدًّا للمساومة. هناك في قبضته المفتوحة كانت أربع ورقاتٍ خضراء ملفوفةٌ في حزمةٍ تشبه حفنةً مِنَ العشب.

«دولاراتٌ، يا سيِّدي!»

«مِنْ أين حصلتَ عليها؟» سأل صمد، محاولًا انتزاعها. ردَّ الصَّبي يده. وتنقَّل باستمرارٍ مِنْ قَدَمٍ إلَى الأخرى - تلك الرَّقصة الشَّقيَّة الَّتِي يتعلَّمها الأطفالُ مِنَ الحرب. الطَّريقة الأبسط في حماية نفسك.

«العلكة أوَّلًا، يا سيِّدي.»

«آخبرني مِنْ أَيْنَ حصلتَ عَلَى هذا. أحذِّرك مِنَ التَّحامق معي.»

تقدَّم صمد نحو الصَّبيِّ وأمسكه مِنْ كُمِّ قميصه. حاول جاهدًا أَنْ يتخلَّص مِنْ قبضته. ثُمَّ بدأ أصدقاء الصَّبيِّ في التَّسلُّل خِلْسةً، متخلِّين عَنْ بطلهم الَّذِي غرق بسرعةٍ.

«هَلْ قتلتَ رجلًا مِنْ هؤلاء؟»

كافح عِرقٌ في جبين صمد بحماسٍ للانفلات مِنْ جلده. يتمنَّى أَنْ يدافع عَنْ بَلَدٍ لَمْ يكنْ بلده، ويثأر لقتل رجالٍ لَمْ يكونوا ليعترفوا به في شارعٍ بالمدينة. اندهش آرشي. تلك بلده؛ بطريقته الصَّغيرة، الباردة، الاعتياديَّة هو واحدٌ مِنَ الفقرات الأساسيَّة في عموده الفقري، ولكنْ لَمْ يمكنه الشعور بأَيِّ شيءٍ يمكن مقارنته بذلك.

«لا، يا سيِّدي، لا، لا. مِنْ هذا، هذا.»

مدَّ ذراعه الحرَّة وأشار إلَى منزلٍ مهجورٍ ضخمٍ استقرَّ مثل دجاجةٍ بدينةٍ مكتئبةٍ في الأفق.

«هَلْ قتل أحدٌ ما في هذا البيت رجالنا؟» عوى صمد.

«ما الَّذِي تقوله، يا سيِّدي؟» تعجَّبَ الصَّبيُّ.

«مَنْ هناك؟»

«إِنَّه طبيبٌ. هو هناك. ولكنَّه مريضٌ. د. مريض.»

أَكَّد العددُ القليلُ المتبقِّي مِنَ الأطفالِ الاسم بحماسٍ. د. مريض، يا سيِّدي، د. مريض.

«ما الَّذِي يعانيه؟»

مُستمتعًا بالاهتمام الآن، قدَّم الصَّبِيُّ أداءً مسرحيًّا صامتًا لرجلٍ يبكي.

«هل هو إنجليزيٌّ؟ مثلنا؟ ألمانيٌّ؟ فرنسيٌّ؟ بلغاريٌّ؟ يونانيٌّ؟» أطلق صمد الصَّبِيَّ، مُتعبًا مِنْ تشتيت الطَّاقة.

«إِنَّه لا أحد. هو د. مريض، فقط،» قال الصَّبِيُّ باستخفافٍ. «علكةٌ؟»

بعد عدَّة أيَّامٍ، ولَمْ تكنْ أَيُّ مساعدةٍ وصلَت بعد. بدأ الإجهاد مِنَ البقاء في حالة حربٍ بشكلٍ دائمٍ في قريةٍ مُبهجةٍ كتلك يتسلَّل إِلَى آرشي وصمد، وشيئًا فشيئًا بدأ الاثنان يستريحان أكثر وأكثر إِلَى نوعٍ مِنَ الحياة المدنيَّة. يتناولان العَشَاء كُلَّ ليلةٍ في مقهى ومطبخ الرَّجل المُسِنِّ جوزان. يكلِّف الحساء خمس سجائر لكُلٍّ منهما. أَيُّ نوعٍ مِنَ الأسماك يكلِّف ميداليةً برونزيَّةً لرتبة متدنيَّةٍ. ولأَنَّ آرشي يرتدي واحدًا مِنْ أزياء ديكنسون سميث الرَّسميَّة الآن، بَعْدَ أَنْ تهرَّأ زِيُّه الخاصُّ، فقَدْ وَجَدَ البعض مِنْ ميداليات الرَّجُل الميِّت لكَيْ يوفِّرها، واشترى بها بعض السِّلع الترفيهيَّة والضَّروريَّة الأخرى: قهوةً، وحساءً، وشيكولاتةً. ولأجل لحم الخنزير سلَّم آرشي حزمة بطاقاتٍ لدوروثي لامور[1] كانت لصيقةً بمؤخِّرته في جيبه الخلفيِّ منذُ التحق بالكتيبة.

«هيَّا يا سام ـ سوف نستخدمها كرموزٍ، كقسائم للطَّعام؛ يمكننا أَنْ نشتريها مجدَّدًا عندما نمتلكُ وسيلةً، إذا أحببتَ.»

«أنا مسلمٌ،» قال صمد، وهُوَ يدفعُ صحن لحم الخنزير جانبًا. «وريتا هيوارث[2] الَّتِي تخصُّني لَنْ تغادرني إِلَّا مع روحي.»

1 ـ دوروثي لامور (10 ديسمبر 1914 ـ 22 سبتمبر 1996): ممثلة أمريكية. عرفت بأدوراها العاطفية في أفلام المغامرات الهزلية. حققت نجاحات في سلسلة أفلام كوميدية، وكونت ثنائيًّا مع الممثل بوب هوب، ومع الممثل بنج كروسبي. (المترجم).

2 ـ ريتا هيوارث ممثلة أمريكية لمع نجمها في الأربعينيات مِنَ القرن العشرين. ولدت في 17 أكتوبر 1918 وتوفيت في 14 مايو 1987. ولدت في عائلة فنية. بدأت حياتها الفنية كراقصة بملهى ليلي وانتقلت بعدها إلى السينما لتصبح نجمة هوليوود الأولى بعد ذلك، كانت «ريتا» ملكة الإغراء الأشهر واعتبرها النقاد رمز الإغراء الأول في هوليوود. (المترجم).

«لماذا لا تأكله؟» قال آرشي وهو يلتهم قطعتيه في نهمٍ. «أمرٌ غريبٌ، إذا سألتَني.»

«أنا لا آكله لنفس السَّبب الَّذِي لَنْ تستطيعَ معه كرجلٍ إنجليزيٍّ فعلًا أَنْ تُشْبِعَ امرأةً.»

«ولِمَ ذلك؟» قال آرشي، متوقِّفًا عَنْ وليمته.

«إنَّه في ثقافتنا، يا صديقي.» فكَّر لدقيقةٍ. «ربَّما أكثر عمقًا. ربَّما في عظامنا.»

بعد العشاء، سوف يتظاهران بأنَّهما يجوبان القرية بحثًا عَنِ القتلة، ويندفعان نحو البلدة، ويبحثان في نَفْسِ البارات الثَّلاثة سيِّئة السُّمعة وينظران خلف غُرَفِ النَّوم في منزل السَّيِّدات الجميلات، غير أنَّه بعد وقتٍ تمَّ التَّخلِّي عن ذلك أيضًا، وجلسا عوضًا عَنْ ذلك يدخِّنان السِّيجار الرَّخيص خارج الدَّبَّابة، مستمتعَين بغروب الشَّمس القرمزيِّ الممتدِّ ويدردشان حول التَّجسُّد السَّابق كبائع صحفٍ صغيرٍ (آرشي) وطالب علم الأحياء (صمد). تطرَّقا إِلَى أفكارٍ لَمْ يكن آرشي يفهمها عَلَى الإطلاق، وعرض صمد في تلك اللَّيلة الباردة أسرارًا لَمْ يتحدَّثْ عنها بصوتٍ مسموعٍ قطُّ. ومرَّت لحظات صمتٍ مريحةٌ بينهما مثل تلك الَّتِي تَحْدُثُ بينَ امرأتين تعرفان بعضهما لسنواتٍ. تطلَّعا إِلَى النُّجوم الَّتِي تضيءُ بلدًا غير معروفٍ، ولكنْ لَمْ يتعلَّق أَيٌّ مِنَ الرَّجُلين بِوَطَنٍ بعينه. باختصارٍ، كان هذا - بالتَّحديد - ذلك النَّوع مِنَ الصَّداقة الَّذِي يعقده رَجُلٌ إنجليزيٌّ في إجازةٍ، الَّذِي يمكن أَنْ يعقده فقط في إجازةٍ. صداقةٍ تتجاوز الطَّبقة واللَّون، صداقةٍ تقوم عَلَى أساس القُرْبِ الماديِّ، وتعيش لأنَّ الرَّجُلَ الإنجليزيَّ يفترضُ أَنَّ الأساسَ الماديَّ لَنْ يدوم.

مَرَّ أسبوعٌ ونصفٌ مِنْ إصلاح اللَّاسكي ولَمْ يكن هناك أَيُّ ردٍّ عَلَى إشارة طلب المساعدة الَّتِي أرسلا تردُّداتها عبر موجات الأثير بحثًا عَنْ أذنٍ تسمعهما. (في هذا الوقت، علم القُرويُّون بانتهاءِ الحرب، ولكنَّهم لَمْ يرغبوا في الكشف عَنْ هذه الحقيقة لزائرَيهما اللَّذَين حقَّقَت مقايضاتهما اليوميَّة دفعةً للاقتصاد المحلِّيِّ). ومع امتداد وقت الفراغ، سيبدأ آرشي في رفع أجزاء الهيكل المعدنيِّ المثبّت للعجلات بقضيبٍ معدنيٍّ، بينما يتفحَّص صمد المشكلة. وعبر القارات، افترضَت أسرتا الرَّجُلين أنَّهما قُتلا.

«هَلْ هناك امرأةٌ تركتَها وراءك في برايتون سيتي؟» سأل صمد، وهو يحشر رأسه داخل فكَّي الأسدِ بين الهيكل المعدنيِّ والدَّبَّابة.

لَمْ يكن آرشي فتًى حسن المظهر. كان جذَّابًا إذا أخذتَ صورةً له ووضعت إبهامك عَلَى أنفه وفمه، ولكنْ باستثناء ذلك فهو غير ملحوظٍ تمامًا. كانت الفتيات لينجذبن إِلَى عينيه

الواسعتين كعينَي سيناترا[1] الزرقاوين الحزينتين، غير أنَّهنَّ سيتجاوزنه بالنظر إلَى أذنَي بينج كروسبي[2] والأنف الَّذِي ينتهي إِلَى قلب بصلةٍ طبيعيّ متورِّمٍ مثل أنف و. سي. فيلدز[3].

«قليلاتٌ،» قال بلا مبالاةٍ. «أنتَ تعرف، هنا وهناك. وأنتَ؟»

«لقَدِ اختيرت سيِّدةٌ شابَّةٌ بالفعل لأجلي. الآنسة بيجوم ـ ابنة السَّيِّد والسَّيِّدة بيجوم. الحمَوان كما تقولون. يا إلهي الحبيب، هذان الاثنان بلغا الغاية في تأسيس حياةٍ في البنجال، حتَّى أنَّ الحاكمَ اللورد يجلس مؤمِّلًا في انتظار المُلَّا أنْ يأتيه حاملًا دعوة العشاء مِنْ عندهما.»

ضحك صمد بصوتٍ مرتفعٍ وانتظر المشاركة، غير أنَّ آرشي، الَّذِي لَمْ يفهم كلمةً واحدةً، ظَلَّ بوجه لاعبي البوكر كالعادة.

«أوه، إنَّهم علية القوم،» واصل صمد، فقط مع قليلٍ مِنَ الإحباط. «الأفضل في النَّاس. دمٌ غايةٌ في النَّقاء. أضف إلى ذلك، فهناك أفضليَّة بين نسائهم ـ بشكلٍ موروثٍ، عبر العصور، هَلْ تفهمني ـ ثمار شمَّام رائعة.»

أدَّى صمد ما هو لازم مِنْ تمثيلٍ صامتٍ، ثُمَّ أعاد انتباهه لتنظيم كُلِّ سنٍّ في الهيكل المعدنيِّ مع الفجوة الَّتِي تناسبه.

«و؟» سأل آرشي.

«وماذا؟»

«هَلْ هُنَّ....؟» كرَّر آرشي الأداء الصَّامت، ولكنْ هذه المرَّة مع نوعٍ مِنَ المبالغة التَّشريحيَّة جعلَت المرأة الَّتِي رسمها في الهواء غير قادرةٍ عَلَى الوقوف في وضعٍ مستقيمٍ.

---

1 ـ فرانك ألبرت سيناترا (12 ديسمبر 1915 ـ 14 مايو 1998) مطرب أمريكي من أصول إيطالية، يعد من أشهر مطربي القرن العشرين. (المترجم).

2 ـ هاري ليليس «بينج» كروسبي (3 من مايو 1903م – 14أكتوبر، 1977م): مطرب وممثل أمريكي. جعل صوت كروسبي المميز بغناء الباس باريتون واحدًا من الفنانين أصحاب التسجيلات الأكثر مبيعًا في القرن العشرين الميلادي، بما يزيد على نصف مليار تسجيل. (المترجم).

3 ـ ويليام كلود دوكينفيلد (29 يناير 1880 ـ 25 ديسمبر 1946) معروف باسم و. سي. فيلدز: ممثل وكاتب كوميدي أمريكي. كانت شخصية فيلدز الكوميدية شهيرة كشخص أناني وسكير بغيض، والتي ظلت شخصية تحظى بالتعاطف والشفقة على الرغم من ازدراء الأطفال وزمجرة الكلاب نحوه. (المترجم).

«أوه، ولكنْ لا يزال لدَيَّ بعض الوقت للانتظار،» قال، وهو يبتسم بحزنٍ. «للأسف، فعائلة البيجوم ليست لديها طفلةٌ أنثى مِنْ جيلي بعد.»

«هَلْ تعني أَنَّ زوجتك لَمْ تولد، بحقِّ اللَّعنة، بعد؟»

«وماذا في ذلك؟»، سأل صمد، وهو يسحب سيجارةً مِنْ جيب آرشي العلويِّ. ويحكُّ عود الكبريت عَلَى جانب الدَّبَّابة ويشعلها. وآرشي يمسح العرق عَنْ وجهه بيدٍ دهنيَّةٍ.

«مِنْ حيث أتيت،» قال آرشي، «يحبُّ الرَّجُل أَنْ يتعرَّف بالفتاة قبل أَنْ يتزوَّجها.»

«مِنْ حيث أتيت مِنَ المعتاد أَنْ يتمَّ غلْي الخضراوات حتَّى تذوب. ذلك لا يعني،» قال صمد بشكلٍ مقتضبٍ، «أَنَّها فكرةٌ جيِّدةٌ.»

كانت ليلتهما الأخيرة في القرية مُظلمةً تمامًا، وصامتةً. جعل الهواءُ الرَّطْبُ التَّدخينَ أمرًا غير مبهجٍ، لذا ألصق آرشي وصمد أصابعهما عَلَى الأحجار الباردة لسلَّم كنيسةٍ، مع غياب أَيِّ شيءٍ يفعلانه بأيديهما. ولوهلةٍ، في الغسق، نسي آرشي الحرب الَّتِي انتهتْ عَلَى أيَّةِ حالٍ. كانت ليلةً مِنَ الماضي البسيط، والمستقبل التَّامِّ نوعًا ما.

ذلك وقت أَنْ كانا لا يزالان بريئَين في سلامٍ، تلك اللَّيلة الأخيرة مِنْ عدم المعرفة، عندما قرَّر صمد أَنْ يدعم صداقته بآرشي. غالبًا ما يحدث ذلك عبر تمرير جزءٍ فريدٍ مِنَ المعلومات: إحدى الهفوات الجنسيَّة، أَوْ أحد الأسرار العاطفيَّة، أَوِ النَّزعات الخفيَّة الَّتِي يكبح التحفُّظ أمام التعارف الجديد الحديث عنها. ولكنْ، بالنِّسبة إِلَى صمد لَمْ يكنْ شيءٌ أقرب إليه أَوْ يعني شيئًا له أكثر مِنْ دمه. مِنَ الطبيعيِّ - إذن - بينما جلسا عَلَى الأرضيَّة المقدَّسة، أَنْ يتحدَّث عمَّا هو مقدَّسٌ بالنِّسبة إليه. ولَمْ يكن هناك حضورٌ أكثر قوَّةً للدِّماء مِنْ تلك الَّتِي تجري في عروقه، والأرض الَّتِي لونتها تلك الدِّماء عبر القرون، مِنْ قصَّة جَدِّه العظيم الأكبر. وعليه حكى صمد لآرشي عَنْ الخيوط الأكثر إهمالًا، الَّتِي اهترأتْ عَلَى مدى مئة عامٍ بخصوص مانجال باندي.

«إذن، فهو جدُّك؟»، قال آرشي، بعد أَنْ تمَّت رواية الحكاية، وَمَرَّ القمرُ خَلْفَ السُّحب، وكان متأثِّرًا بشكلٍ مناسبٍ. «جدُّك الحقيقيُّ، بعلاقة الدَّم؟»

«جَدِّي *الأكبر*.»

«حسنًا، إنَّه أمرٌ مهمٌّ. هَلْ تعلم: أنا أتذكَّر ذلك مِنَ المدرسة - *فعلًا* - تاريخ المستعمرات، السَّيِّد جوجز. أصلع، بعينَين جاحظتين، الأخرق المُسِنُّ المقرف - أعني السَّيِّد جوجز، وليس جدَّك. تفهم الدَّرس منه، حتَّى ولَوْ تطلَّب ذلك مسطرةً عَلَى ظهر يدكَ.. أتعرف، ما زال يمكنك أَنْ تسمع النَّاس في الكتائب ينادون أحدهم الآخر *باندي*، هَلْ تعلم، إذا كان الرَّجُل متمرِّدًا بعض الشَّيء... لَمْ أُفكِّرْ مطلقًا مِنْ أين جاء ذلك... باندي كان متمرِّدًا، لَمْ يحبَّ الإنجليز، وأطلق الرَّصاصة الأولى في التَّمرُّد. أتذكَّر ذلك الآن، بوضوحٍ مثل جرسٍ. وكان هذا جدك!»

«جَدِّي *الأكبر*.»

«حسنًا، حسنًا. إنَّه أمرٌ مهمٌّ، أليس كذلك؟» قال آرشي، وهو يضع يديه خلف رأسه ويستلقي عَلَى ظهره لكَيْ يطالع النُّجوم. «أَنْ يكون هناك قَدْرٌ مِنَ التاريخ في دمائك عَلَى هذه الصُّورة. يُحفِّزك، عَلَى ما أتصوَّر. أنا مِنْ آل جونز، كما ترى. سلايك وسميث. لسنا ذوي شأنٍ... اعتاد أبي أَنْ يقول: نحن القشر، يا فتى، نحن القشر. ليس أنَّني كنت مهتمًّا بالمرَّة، أَوْ أمانع. هو الفخر ذاته، كما تعلم. سلالةٌ إنجليزيَّةٌ حسنةٌ ونزيهةٌ. لَكِنْ في عائلتك لديكم بطلٌ.»

تَشَامخ صمد في اعتزازٍ. «نعم، يا آرشيبالد، هذه هي الكلمة بالضَّبط. وطبيعيٌّ، سوف تجد هؤلاء الأكاديميِّين الإنجليز التَّافهين يحاولون تشويه سمعته؛ لأنَّهم لا يستطيعون تَحَمُّل أَنْ يمنحوا هنديًّا ما يستحقُّ. ولكنَّه كان بطلًا، كُلُّ تصرُّفٍ قمت به في هذه الحرب كان في ظِلِّ مثاله.»

«هذا صحيحٌ، كما تعرف.» قال آرشي مفكِّرًا. «إنَّهم لا يتحدَّثون بشكلٍ جيِّدٍ عَنِ الهنود هناك في الوطن؛ وبالتَّأكيد لَنْ يحبُّوا الأمر إذا قلتَ إنَّ هنديًّا كان بطلًا... وسينظر الجميع إليك ببعض السُّخرية.»

فجأةً جذب صمد ذراعه. كانت يده دافئةً، هو محمومٌ عَلَى الأرجح، فكَّر آرشي. لَمْ يقبض رجلٌ آخر على ذراعه مِنْ قبل، كان دافعه الغريزيُّ الأوَّل أَنْ يتحرَّك، أَوْ يلكمه، أَوْ شيئًا ما، ولكنْ لاحظ الأمر بعدها فالهنود عاطفيُّون، أليس كذلك؟ كُلُّ ذلك الطَّعام الحارِّ وما إِلَى ذلك.

«أرجوك. اصنع لِي هذه الخدمة الكبيرة، يا جونز. إذا حدث أَنْ سمعتَ أَيَّ شَخْصٍ، عندما تعود إِلَى وطنك - إِنْ عُدتَ، إِنْ عدنا إِلَى أوطاننا - إذا سمعتَ أَيَّ شخصٍ عَلَى الإطلاق يتحدَّث عَنِ الشَّرق،» وهنا انخفض صوته درجةً، وكانت النَّبرة مفعمةً بالحزن، «فاحتفظ بحكمكَ. إذا قيل لك إِنَّهم جميعًا هكذا، أَوْ إِنَّهم يفعلون هذا، أَوْ إِنَّ آراءهم تلك، فاحتفظ بأحكامكَ حتَّى تكون كُلُّ الحقائق أمامكَ. لأَنَّ تلك الأرض الَّتِي تُدعى الهند غنيَّةٌ بآلاف الأسماء، وتعدادها بالملايين، وإذا ظننتَ أَنَّك وجدت رجلَين متماثلَين بين تلك الأعداد الهائلة فأنت مخطئٌ. ولَنْ يعدو الأمر كونه خدعةً مِنْ ضوء القمر.»

أرْسَلَ صمد ذراع آرشي، وفتَّش في جيبه، ودَسَّ إصبعه في صندوقٍ احتفظ فيه بمسحوقٍ أبيضَ، ووضعه في فمه بحرصٍ. اتَّكأ على الحائط ومسح إصبعه عَلَى طول الحجر. كانت كنيسةً تبشيريَّةً صغيرةً، تحوَّلتْ إِلَى مستشفًى، ثم هُجرت بعد شهرين عندما بدأت أصوات القذائف تهزُّ أفاريز النَّوافذ. لجأ صمد وآرشي إِلَى النَّوم هناك لأجل المراتب الرَّقيقة والنَّوافذ الواسعة متجدِّدة الهواء. واتَّخذ صمد اهتمامًا جديدًا (نظرًا للوحدة، قال لنفسه، نظرًا للحزن) بمسحوق المورفين الَّذِي أمكن العثور عليه في كبائن التَّخزين المهجورة في أنحاء المبنى؛ كبيضاتٍ خفيَّةٍ عَلَى طريق فصح الإدمان. كُلَّما ذهب آرشي للتبوُّل أَوْ ليجرِّب اللَّاسلكي مرَّةً أخرى، يهيم صمد عَلَى وجهه في كنيسته الصَّغيرة، لكَيْ ينهب كابينةً بعد كابينةٍ، مثل خاطئٍ يمضي مِنَ اعترافٍ إِلَى اعترافٍ. ثُمَّ، بعد أَنْ عثر عَلَى زجاجةٍ صغيرةٍ مِنَ الخطيئة، كان ينتهز الفرصة لكَيْ يفرك القليل عَلَى لثته، أَوْ يدخِّن القليل منها في غليونه، ثُمَّ يستلقي عندها عَلَى أرضيَّة التراكوتا[1] الباردة، وينظر إلى أعلى إِلَى القوس الرَّائع لقُبَّة الكنيسة. كانت مغطاةً بالكلمات، تلك الكنيسة. كلماتٍ وضعت منذ ثلاثمئة عامٍ مِنْ قبل المنشقِّين، الَّذِين رفضوا دفع ضريبة الدَّفن خلال وباء الكوليرا، حُوصروا في الكنيسة مِنْ قِبَل إقطاعيٍّ فاسدٍ وتُركوا لكَيْ يموتوا هناك - ولكنْ ليس قبل أَنْ يغطُّوا كُلَّ جِدارٍ برسائل للأهل، وقصائد، وبيانات العصيان الأبديَّة. أحبَّ صمد القِصَّة عندما سمعها لأوَّل مَرَّةٍ، ولكنَّها لَمْ تمسَّه بشكلٍ حقيقيٍّ إِلَّا عندما آتى المورفين أثره. عندها كان كُلُّ عصبٍ في جسمه حيًّا، والمعارف، كُلُّ المعارف الَّتِي يضمُّها الكون، وكُلُّ المعارف عَلَى الجدران، فجَّرت فِلِّيناتها وانسابت خلاله مثل كهرباء في سلكٍ أرضيٍّ. كان رأسه ينفتح وقتها مثل كرسيِّ الشَّاطئ. يجلس فيه لبعض الوقت ويشاهد عالمه يمرُّ أمامه. اللَّيلة، بعد أكثر ممَّا يكفي، شعر صمد بالاستنارة

1 - الطين النضيج (المطبوخ) للأرضية. (المترجم).

بشكلٍ خاصٍّ. كما لَوْ أَنَّ لسانه الزُّبد، والعالم بيضةٌ مِنَ المرمر المصقول: وشعر بأنَّه قريبٌ مِنَ المنشقِّين، كانوا إخوة باندي ـ وكُلٌّ متمرِّدٍ، كما بدا لصمد في تلك اللّيلة، كان أخاه ـ تمنَّى لَوِ استطاع الحديث معهم بخصوص الأثر الَّذِي أحدثوه في العالم. هَلْ كان ذلك كافيًا؟ عندما جاء الموت، هَلْ كان ذلك كافيًا فعلًا؟ هل كانوا راضين عَنْ آلاف الكلمات الَّتِي تركوها وراءهم؟

«سوف أخبرك بشيءٍ بلا مقابلٍ،» قال آرشي، وهو يتبع عينَي صمد ويلاحظ انعكاس قُبَّة الكنيسة فيهما. «إذا لَمْ يبق لي سوى ساعاتٍ قليلةٍ، لَمْ أكن لأقضيها في رسم لوحاتٍ عَلَى السَّقف.»

«اخبرني،» تساءل صمد، مُنزعجًا مِنْ مقاطعة تأمُّله المبهج، «ما التَّحدِّي العظيم الَّذِي ستقوم به قبل موتكَ بساعاتٍ؟ حَلُّ مبرهنة فيرما[1]، رُبَّما؟ أَمْ ماجستيرٌ في فلسفة أرسطو؟»

«ماذا؟ مَنْ؟ لا... سوف ـ أنتَ تعرف... أمارس الحبَّ ـ مع سيِّدةٍ،» قال آرشي، الَّذِي جعلَته قلَّة خبرته متحشِّمًا. «تعرف... *للمرَّة الأخيرة.*»

انفجر صمد في الضَّحِك. «للمرَّة الأولى، عَلَى الأرجح.»

«أوه، دعك مِنْ هذا، أتحدَّث بجدِّيَّةٍ.»

«حسنًا. وإذا لَمْ تكنْ هناك سيِّداتٌ في الجوار؟»

«حسنًا، يمكنكَ دائمًا أَنْ» ـ وهنا أصبح آرشي في حمرة صندوق بريدٍ، هذه طريقته الخاصَّة في تدعيم الصَّداقة ـ «أَنْ تصفع السَّلامي، كما يقول الجنود!»

«تصفع،» كرَّر صمد بازدراءٍ، «*السَّلامي*... وهذا هو الأمر، أليس كذلك؟ آخر ما ستتمنَّى أَنْ تفعله قبل أَنْ تغادر هذه الحلقة الإنسانيَّة أَنْ تصفع السَّلامي. أَنْ تُحقِّق الرَّعشة الجنسيَّة.»

1 ـ محامٍ وعالم رياضيات هو فرنسي عاش بين 1601 و1665 وينسب إليه تأسيس نظرية الأعداد الحديثة وحساب الاحتمالات باستقلالية عن باسكال، وكذلك اكتشاف الهندسة التحليلية باستقلالية عن ديكارت، وقد تحصل على نتائج متطورة في مجالي أسس الهندسة التحليلية ، وحساب التفاضل والتكامل، ولكنه لَمْ يتمكن من نشرها، وأعلن أنه برهن المسألة غير المحلولة الشهيرة المعروفة باسم مبرهنة فيرما الأخيرة. تم حل المبرهنة الَّتِي تعرف ـ شعبيًّا ـ باسم «حسبة برما» في عام 1995. (المترجم).

بدأ آرشي، الَّذِي جاء مِنْ برايتون، حيث لا ينطق أحدٌ كلماتٍ مثل *الرَّعشة* مطلقًا، في الشُّعور بعدم التَّوازن مع الحرج الهيستيريِّ.

«مَنِ المضحك؟ هَلْ هناك شيءٌ مضحك؟» سأل صمد، وهو يشعل سيجارةً ذاهلًا عَلَى الرغم مِنَ الحرارة، وذهنه في مكانٍ آخر مِنْ أثر المورفين.

«لا شيء،» بدأ آرشي يتلعثم، «لا أحد.»

«ألا يمكنكَ أَنْ ترى الأمر، يا جونز؟ ألا يمكنك أَنْ ترى....» تمدَّد صمد، نصفه في مدخل الباب ونصفه في الخارج، ويداه ممدودتان نحو السقف، «... المغزى؟ لَمْ يكونوا يصفعون السَّلامي - يقذفون أشياءهم البيضاءَ - كانوا يبحثون عَنْ شيء أكثر ديمومةً.»

«لا أستطيع رؤية الفرق، بصراحةٍ،» قال آرشي. «عندما تموت، فأنتَ ميِّتٌ.»

«أوه لا، يا آرشيبالد، لا،» همس صمد في كآبةٍ. «أنتَ لا تصدِّق ذلك. ينبغي أَنْ تعيش الحياة وأنتَ تعلم بشكلٍ تامٍّ أَنَّ أفعالكَ سوف تبقى. نحن مخلوقاتٌ ذات قيمةٍ، يا آرشيبالد،» قال، وهو يشير إِلَى جدران الكنيسة. «كانوا يعرفون ذلك. وجَدِّي العظيم عرف ذلك. ويومًا ما سيعرف أطفالنا ذلك.»

«أطفالنا!» ضحك آرشي بتكلُّفٍ، مستمتعًا في بساطةٍ. بدَت احتماليَّة أَنْ تكون له ذُريَّةٌ بعيدةً جدًّا.

«أطفالنا سوف يولدون مِنْ أفعالنا. *حوادثنا سوف تكون مصائرهم*. أوه، الأفعال ستبقى. إِنَّها مسألةٌ بسيطةٌ تخصُّ ما سوف تفعله في الأوقات العصيبة، يا صديقي. عندما تغنِّي السَّيِّدة البدينة[1]. عندما تتهاوى الجدران، وتصبح السَّماء مظلمةً، وتهدر الأرض. في تلك اللَّحظة ستدافع أفعالنا عنَّا. وليس هناك فرقٌ سواءً أكنتَ مراقبًا، أَمْ لَمْ تكنْ، مِنْ قِبَلِ الله، أَوْ المسيح، أَوْ بوذا. في الأيَّام الباردة يمكن للمرء أَنْ يرى أنفاسه، وفي الأيَّام الحارَّة لا يستطيع. وفي المناسبتَين، *يتنفَّس*.»

«هَلْ تعلم،» قال آرشي، بعد وقفةٍ: «قبل أَنْ أغادر فليكستو - بالكاد - رأيتُ ذلك المثقاب الَّذِي لديهم الآن، الَّذِي ينقسم إِلَى اثنين، ويمكنكَ أَنْ تضع أشياءَ مختلفةً في

1 - تعبير مرتبط بفن الأوبرا، يستخدم للدلالة على وقت إنزال الستارة على نهاية العرض. (المترجم).

طرفه ـ مفتاح بَرَاغٍ، مطرقةً، أَوْ حتَّى فتَّاحة زجاجاتٍ. مفيدٌ جدًّا، وفي مساحةٍ صغيرةٍ، كما أتصوَّر. أنا أخبرك، سأحِبُّ كثيرًا الحصول عَلَى واحدٍ منها.»

تطلَّع صمد إِلَى آرشي لبُرهةٍ، ثُمَّ هزَّ رأسه. «تعال، دعنا نذهب إِلَى الدَّاخل. الطَّعام البلغاريُّ يقلب معدتي. أحتاج إِلَى قليلٍ مِنَ النَّوم.»

«تبدو شاحبًا،» قال آرشي، وهو يساعده في النُّهوض.

«نتاج خطاياي، يا جونز، نتاج خطاياي، ومازلتُ أكثر خطيئةً مِنَ الخطيئة.» ضحك صمد مقهقهًا لنفسه.

«أنتَ ماذا؟»

احتمل آرشي ثقل صمد عَلَى جانبه وهما يمضيان إِلَى الدَّاخل.

«لقَدْ تناولتُ شيئًا ما،» قال صمد، مُستخدمًا لهجةً إنجليزيَّةً قاطعةً: «يبدو أنَّه لا يتوافق معي.»

يعلم آرشي جيدًا أَنَّ صمد يختلسُ المورفين مِنَ الكبائن، ولكنَّه استطاعَ أَنْ يرى أَنَّ صمد لا يريده أَنْ يعرف، وإذنْ «دعنا نضعك في الفراش،» كُلُّ ما قاله، وهو يأخذ صمد نحو إحدى المراتب.

«عندما ينتهي كُلُّ ذلك، سنلتقي مِنْ جديدٍ في إنجلترا، حسنًا؟» قال صمد، مُندفعًا نحو فِراشه.

«نعم،» قال آرشي وهو يحاول تخيُّل نفسه يمشي عَلَى رصيف برايتون مع صمد.

«لأنَّك رجلٌ إنجليزيٌّ نادرٌ، أيُّها المهندسُ العسكريُّ جونز. أنا أعتبركَ صديقي.»

لَمْ يكنْ آرشي متأكِّدًا ماذا يعتبر صمد، ولكنَّه ابتسم بلطفٍ في تقديرٍ للمشاعر.

«ستتناول العَشاء مع زوجتي ومعي في العام 1975. عندما نكون رجلَين ذوا بطنين كبيرين نجلس عَلَى جبال أموالنا. بطريقةٍ ما سوف نلتقي.»

ابتسم آرشي، المتشكِّك في الطَّعام الأجنبيّ، بزهدٍ.

«سنظلُّ نعرف بعضنا بعضًا طوال حياتَينا!»

مدَّد آرشي صمد في فراشه، وأحضر لنفسه مرتبة، وأدار نفسه لوضعيَّة النَّوم.

«تصبح عَلَى خيرٍ، يا صديقي،» قال صمد، بطمأنينةٍ صافيةٍ في صوته.

***

في الصَّباح، وصل السِّيرك إِلَى البلدة. أيقظه الصُّراخ والضَّحِك الصَّاخب، كابد صمد في ارتداء زيّه الرّسميّ ولفِّ إحدى يديه حول مسدسه. خرج إِلَى السَّاحة المشمسة ليجد جنودًا روسيين في أزيائهم الرَّسميَّةِ الدَّاكنةِ يقفزون فوق بعضهم، ويصوِّبون علب الصَّفيح عَلَى رؤوس بعضهم، ويلقون السَّكاكين عَلَى حبَّات بطاطس مرشوقةٍ في عُصيٍّ، كُلُّ حبَّةٍ منها تحمل غصنًا صغيرًا أسودَ في هيئة شاربٍ. مستنفذًا كُلّ وسائل الاستيعاب، انهار صمد عَلَى الدَّرجات الأماميَّة، وتنهّد، ثُمَّ جلس ويداه عَلَى ركبتيه، وأدار وجهه تجاه الشَّمس. وبعد دقيقةٍ تعثَّر آرشي خارجًا، مرتديًا بنطلونه حتَّى المنتصف، وهو يلوِّح بمسدَّسه، ويبحث عَنِ العدوِّ، وأطلق رصاصةً مذعورةً في الهواء. استمرَّ السيرك، بدون أَنْ ينتبه لها. سحب صمد آرشي بضجرٍ مِنْ ساق بنطلونه، وأومأ له أَنْ يقعد.

«ما الَّذِي يحدث؟» تساءل آرشي، بعينَين مبلَّلتين.

«لا شيء. لا شيء يحدث عَلَى الإطلاق. في الحقيقة، لقَدِ انتهى كُلُّ شيءٍ.»

«ولكنْ قَدْ يكون هؤلاء الرِّجال مِنْ ـــ.»

«انظر إِلَى البطاطس، يا جونز.»

حدَّق آرشي فيه بشدَّةٍ. «ما شأن البطاطس بالأمر؟»

«إِنَّها بطاطس هتلر، يا صديقي. إِنَّها دِكتاتوريّون من الخُضروات. دِكتاتوريّون سابقون.» انتزَعَ واحدةً مِنْ عصاها. «هَلْ ترى هذه الشَّوارب الصَّغيرة؟ لقدِ انتهى الأمر، يا جونز. لقَدْ أنهى أحدهم الأمر لنا.»

أخذ آرشي حبَّة البطاطس في يده.

«مثل حافلةٍ، يا جونز. لقَدْ فوَّتنا الحرب اللَّعينة.»

صاح آرشي عَلَى روسيٍّ نحيف يتوسَّط رماح بطاطس هتلر. «هَلْ تتحدَّث الإنجليزيَّة؟ كَمْ مضى عَلَى انتهائها؟»

«الحرب؟» ضحك متشكِّكًا. «منذ أسبوعين، يا رفيق! ينبغي أَنْ تذهب إِلَى اليابان إذا أردتَ المزيد!»

«مثل حافلةٍ.» كرَّر صمد، وهو يهزُّ رأسه. صعد غضبٌ هائلٌ بداخله، وسدَّت العصارة الصَّفراوية حنجرته. كانت هذه الحرب لتكون فرصته. كان مُنتَظرًا له أَنْ يعود إِلَى الوطن مُكلَّلًا بالمجد، ومِنْ ثَمَّ أَنْ يعود إِلَى دلهي مُنتصِرًا. متى يمكن له أَنْ يحصل عَلَى

فرصةٍ ثانيةٍ عَلَى الإطلاق؟ ليسَت هناك حروبٌ قادمةٌ كهذه الحرب، يعرف الجميع ذلك. تجوّل الجنديُّ الّذِي تحدَّث إِلَى آرشي،مُبتعدًا. وهو يرتدي زِيَّ الصَّيف الرَّسِمِيّ للرُّوس: القماش الخفيف، والياقة العالية، والقبّعة المرنة ذات الحجم الكبير؛ ارتدى حول خصره الضّخم حزامًا اصطاد مشبكه المعدنيّ الشّمس وعكس أشعتها نحو عين آرشي. عندما عبر الوهج، ركّز آرشي عَلَى وجهٍ كبيرٍ ساذجٍ، وحَوَلٍ في العين اليسرى، ورأسٍ ذي شعرٍ رمليٍّ تناثر في مختلف الاتِّجاهات. كان بأكمله ذا مظهرٍ مَرِحٍ في صباحٍ مشرقٍ، وعندما تحدَّث كانت إنجليزيَّته طلقةً بلكنةٍ أمريكيَّة، تنساب إِلَى أذنيكَ مثل الأمواج.

«انتهَت الحرب منذ أسبوعين، ولَمْ تكونا عَلَى علمٍ؟»

«جهاز اللّاسلكيّ الخاصُّ بنا... لَمْ يكنْ....» توقّفت جملة آرشي مِنْ نفسها.

ابتسم الجنديُّ ابتسامةً عريضةً، وصافح يد كُلٍّ مِنَ الرَّجُلين بقوَّةٍ. «مرحبًا بكما في زمن السِّلم، أيُّها السَّيِّدان! ونحن الّذِين ظننَّا الرُّوس أُمَّةً تنقصها المعلومات!» ضحك ضحكته الكبيرة مرَّةً ثانيةً. موجِّهًا سؤاله إِلَى صمد، سأل: «والآن، أين بقيَّتكم؟»

«ليست هناك بقيَّةٌ لنا، يا رفيق. باقي الرِّجال في الدَّبَّابة ماتوا، وليست هناك أيَّة علامةٍ عَلَى كتيبتنا.»

«لستما هنا لأيِّ غرضٍ؟»

«امم.. لا،» قال آرشي، في خجلٍ مفاجئٍ.

«غرضٍ، يا رفيق،» قال صمد، وهو يشعر بغثيانٍ سريعٍ في معدته. «الحرب انتهت، وعليه نجد أنفسنا هنا بلا أيِّ غرضٍ عَلَى الإطلاق.» ابتسم بتجهُّم وهزَّ رأس الرُّوسي بيده الجيِّدة. «إِنَّني ذاهبٌ. فالشَّمس،» قال محدِّقًا. «تؤذي عينيَّ. لقد كان جميلًا أَنْ ألتقي بك.»

«نعم ـ بالتَّأكيد ـ» قال الرُّوسيُّ، وَهو يتبع صمد بعينيه حتَّى اختفى في أعماق الكنيسة. ثُمَّ وجَّه انتباهه إِلَى آرشي.

«رجلٌ غريبٌ.»

«همم،» قال آرشي. «لماذا *أنتم* هنا؟» سأل، وهو يأخذُ سيجارةً ملفوفةً يدويًّا قدَّمها له الرُّوسيُّ. اتَّضح أَنَّ الرُّوسيَّ وسبعة رجالٍ معه في طريقهم إِلَى بولندا، لتحرير

معسكرات العمل الَّتي سمع المرء عنها أحيانًا بأصواتٍ خافتةٍ. وقَدْ توقَّفوا هنا، إِلَى الغرب مِنْ توكات[1]، لكَيْ يقبضوا عَلَى أحَدِ النَّازيّين.

«ولكنْ لا يوجد أحدٌ هنا، يا زميلي،» قال آرشي بعفويَّة. «لا أحد سواي والهنديّ، وبعض المسنّين والأطفال مِنْ أهل القرية. كُلُّ الآخرين ماتوا أَوْ فرُّوا.»

«ماتوا أَوْ فرُّوا... ماتوا أَوْ فرُّوا،» قال الرُّوسيُّ، باستمتاعٍ، وهو يقلِّب عود ثقابٍ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ بين إبهامه وسبَّابته. «عبارة جيِّدةٌ تلك... عبارةٌ مضحكةٌ. لا؛ حسنًا، أنت ترى، كنتُ لأظنَّ نفس الشَّيء، ولكنْ لدينا معلوماتٌ موثوقةٌ ـ مِنْ مخابراتكم السِّريَّة، في الواقع ـ أَنَّ هناك ضابطًا كبيرًا، في هذه اللَّحظة ـ بالتَّحديد ـ يختبئ في ذلك المنزل. هناك.» وأشار إِلَى المنزل في الأفق.

«الطبيب؟ لقد أخبرنا بعض الفتيان عنه. أعني أَنَّه لا بُدَّ أَنْ يكون قَدْ تغوَّط عَلَى نفسه خوفًا إذا كنتم جميعًا وراءه،» قال آرشي، بنوعٍ مِنَ المجاملة: «ولكنَّني واثقٌ أَنَّهم قالوا إِنَّه مجرَّد رجلٍ مريضٍ، إِنَّهم يدعونه الدُّكتور مريض. أوه: إِنَّه ليس إنجليزيًّا، أليس كذلك؟ خائنًا أَوْ شيئًا ما؟»

«همم؟ أوه لا. لا، لا، لا. د. مارك بيير بيريه. رجلٌ فرنسيٌّ شابٌّ. معجزةٌ. شديد الذَّكاء. لقَدْ عمل في المؤسَّسة العلميَّة للنَّازي منذ ما قبل الحرب. في برنامج التَّعقيم، وبعدها في سياسات القتل الرَّحيم. والشُّؤون الدَّاخليَّة الألمانيَّة. وكان واحدًا مِنْ شديدي الولاء.»

«يا ويلي،» قال آرشي، وهو يتمنَّى لَوْ كان يعلم ما الَّذِي يعنيه كُلُّ ذلك. «ما الَّذِي ستفعلونه؟»

«نقبض عليه ونأخذه إِلَى بولندا، حيثُ سيتمُّ التَّعامل معه مِنْ قِبَلِ السُّلطات.»

«السُّلطات،» قال آرشي، وهو لا يزال متأثرًا، ولكنَّه ليس منتبهًا تمامًا. «يا ويلي.»

كان مدى انتباه آرشي قصيرًا دائمًا، وأصبح مشتَّتًا بسبب عادة الرُّوسيِّ الودود الغريبة في النَّظر في اتجاهَين في الوقت نفسه.

«بما أَنَّ المعلومات الَّتي تلقَّيناها مِنْ جهاز الخدمة السِّرِّيَّة الخاصِّ بكم، وحيثُ إِنَّك الأعلى رتبةً هِنا، أيُّها القائد... أيُّها القائد....»

1 ـ عاصمة محافظة توكات تقع في شمال تركيا. (المترجم).

عينٌ زجاجيَّةٌ. كانت عينًا زجاجيَّةً مع عضلةٍ خلفها، لا تعمل.

«أخشى أنَّني لا أعرف اسمك أَوْ رتبتك،» قال الرُّوسيُّ، وهو ينظر إلى آرشي بعينٍ واحدةٍ، وإلى بعض اللَّبلاب الزَّاحف حول باب الكنيسة بالأخرى.

«مَنْ؟ أنا؟ جونز،» قال آرشي وهو يتبع المسار الدَّوَّار للعين: شجرةً، حبَّة بطاطسٍ، آرشي، وحبَّة بطاطس.

«حسنًا، يا كابتن جونز، سيكون شرفًا إذا تولَّيت قيادة الحملة إلَى أعلى التَّلِّ.»

«كابتن - ماذا؟ يا ويلي، لا، لقَدْ فهمتَ الأمر بشكلٍ خاطئٍ،» قال آرشي، وهو يهرب مِنْ قوَّة الجذب المغناطيسيَّة للعَين، ويستعيد التَّركيز عَلَى نفسه، وهو يرتدي ملابس ديكنسون سميث الرَّسميَّة لامعة الأزرار.

«أنا لستُ ــــ.»

«الملازم أوَّل وأنا سنكون سعيدَين بتحمُّل المسئوليَّة،» انفجر صوتٌ خلفهما. «لقَدْ كُنَّا خارج العمل لفترةٍ طويلةٍ. إنَّه الوقت المناسب للعودة إلَى قلب الحدث، كما يقولون.»

خرج صمد إلَى الدَّرجات الأماميَّة في صمتٍ مثل ظِلٍّ، في زِيٍّ رسميٍّ آخر لديكنسون سميث، مع سيجارةٍ تتدلَّى عرضًا عَلَى شفته السُّفلى مثل جملةٍ أنيقةٍ. كان دائمًا فتًى حَسَن المظهر، ومع ارتدائه لأزرار السُّلطة اللَّامِعة كان ذلك واضحًا جدًّا، في ضوء النَّهار السَّاطع، محاطًا بمدخل الكنيسة، الَّذِي منحه هيئةً رائعةً.

«ما يقصده صديقي،» قال صمد، بأكثر إيقاعاته الأنجلو هنديَّةٍ سحرًا، «أنَّه ليس القائد اللَّعين هنا. أنا هو القائد اللَّعين. القائد صمد إقبال.»

«الرَّفيق نيكولاي - نيك - بيسوتسكي.»

ضحك صمد والرُّوسيُّ بحرارةٍ، وتصافحا مِنْ جديدٍ. وأشعل صمد سيجارةً.

«إنَّه ملازمي الأَوَّل. آرشيبالد جونز. ينبغي أَنْ أعتذر عَنِ التَّصرُّف بغرابةٍ منذ قليلٍ، لَمْ يكنِ الطَّعام يوافقني. الآن سننطلق اللَّيلة، بَعْدَ أَنْ يَحِلَّ الظَّلام، أليس كذلك؟ يا ملازم؟» قال صمد، وهو ينظر إلَى آرشي بإيماءةٍ خاصَّةٍ ذات مغزًى.

«بَلَى،» بادره آرشي.

«بالمناسبة، يا رفيق،» قال صمد، وهو يحكُّ عود كبريتٍ في الجِدار ويشعله: «أتمنَّى ألَّا تمانع لَوْ سألتُ - هَلْ هذه عينٌ زجاجيَّةٌ؟ إنَّها تبدو حقيقيَّةً.»

«نعم! لقَدِ اشتريتُها في سانت بطرسبرج. فقدتُ عينِي في برلين. إنَّها تشبهها بشكلٍ لا يصدَّق، ألا تظنُّ ذلك؟»

أبرز الرُّوسيُّ الودود العين خارج محجرها، ووضع اللُّؤلؤة اللَّزجة في كفِّه لكَيْ يراها صمد وآرشي. «عندما بدأت الحرب،» فكَّر آرشي، «كُنَّا، جميع الأولاد، نتحلَّق حول البطاقات المصوَّرة لساقَيْ جرابل[1]. والآن مع انتهاء الحرب نتجمع حول عين لقيطٍ مسكينٍ. يا ويلي.»

***

في تلك اللَّيلة تذوق الملازم أوَّل جونز المذاق الأوَّل للحرب الحقيقيَّة. في سيَّارتَي جيبٍ عسكريَّتَين انطلق آرشي والرُّوس الثَّمانية، وجوزان، مالك المقهى، وابن أخي جوزان، تحت قيادة صمد في مهمَّةٍ إِلَى أعلى التَّلِّ للقبض عَلَى النَّازيِّ. وبينما يعبُّ الرُّوس مِنْ زجاجات السَّمبوكا حتَّى لَمْ يعد رجلٌ منهم قادرًا عَلَى تذكُّر السُّطور الأولى مِنْ نشيدهم الوطنيِّ، وبينما يبيع جوزان قطع الدَّجاج المشوي لأعلى المزايدين، وقف صمد في مقدِّمة الجيب الأماميَّة، عاليًا كطائرةٍ ورقيَّةٍ في غباره الأبيضِ[2]، وذراعاه تتطوَّحان حوله، وتقطِّعان الأمسية إِلَى أجزاءٍ ومِزَقٍ، وهو يصرخ بالإرشادات إِلَى أفراد كتيبته السُّكارى إِلَى الحدِّ الَّذِي لَمْ ينصتوا معه. وكان هو ذاته بعيدًا جدًّا عَنِ استيعاب الأمر.

جلس آرشي في مؤخِّرة الجيب الثَّانية، هادئًا وصاحيًا ومذعورًا، يشعر برهبةٍ مِنْ صديقه. لَمْ يكن لآرشي بطلٌ مِنْ قبل: كان في الخامسة عندما خرج والده لأجل حزمةٍ مِنَ البطاقات الخاصَّة بالأمثال، وتهاون في العودة، ولَمْ يكن قارئًا جيِّدًا بالمرَّة، لَمْ تعبر الكتب الكثيرة المقرفة الَّتِي كُتبت لكَيْ تعرِّف الشَّباب بالأبطال السَّخيفين مساره أبدًا - لا فرسان، ولا قراصنة بعينٍ واحدةٍ، ولا أوغاد لا يعرفون الخوف فيما يتعلَّق بآرشي. ولكنَّ صمد، حيثُ وقف هناك مع أزرار الضُّباط الَّتِي تلمع في ضوء القمر مثل عملاتٍ معدنيَّةٍ في بئر أمنياتٍ، أصاب عالم آرشي ذا السَّبعة عشر عامًا، بضربةٍ قاضيةٍ في الفلكِ،

1 - بيتي جرابل (إليزابيث روث جرابل: 18 ديسمبر 1916 - 2 يوليو 1973): ممثلة وراقصة ومطربة أمريكية ونجمة عقود شركة فوكس القرن العشرين خلال الأربعينيات والخمسينيات. (المترجم).

2 - المخدر: المورفين أو الكوكايين، على هيئة بودرة. (المترجم).

كما يقال: هنا رجلٌ لا يعوق طريقه شيءٌ. هنا جامحٌ طائشٌ يقف عَلَى دبَّابةٍ، هنا صديقٌ، هنا بطلٌ، في صورةٍ لَمْ يتوقَّعها آرشي عَلَى الإطلاق. قطعوا ثلاثة أرباع الطَّريق إِلَى الأعلى، ولكنَّ الطَّريق المخصَّصة للدَّبَّابات بدأت تضيق بشكلٍ غير متوقَّعٍ، لتجبر السَّيَّارة عَلَى فرملةٍ مفاجئةٍ، ألقت بالنَّقيب البطل في شقلبةٍ إِلَى الخلف خارج الجيب، رأسًا عَلَى عقب.

«لَمْ يأتِ أحدٌ إِلَى هنا منذ وقتٍ طويلٍ، طويلٍ،» قال ابن أخي جوزان، وهو يمضغ عظام دجاجةٍ، بشكلٍ فلسفيٍّ. «هذا؟» نظر إِلَى صمد (الَّذِي هبط إِلَى جواره) وأشار إِلَى الجيب الَّتِي جلسوا فيها. «مستحيلٌ.»

ولذا جمع صمد كتيبته الجديدة، المشلولة الآن، حوله، وبدأوا المسير إِلَى أعلى الجبل طلبًا لحرب يمكنه أَنْ يحكي عنها لأحفاده ذات يومٍ، كما قُصَّت مآثر جدِّه العظيم عليه. أعيق تقدُّمهم بسبب كُتَلٍ أرضيَّةٍ ضخمةٍ، اقتُطعت مِنْ جوانب التَّل عَلَى صدى القنابل في الماضي، وتُركَت عَلَى مسافاتٍ عَلَى طول الطَّريق. ومِنْ بين الكثير منها، ارتفعَت جذور الأشجار عاجزةً ترزح في الهواء؛ وحتَّى يتمَّ تجاوزها كان مِنَ الضَّروري اقتلاعها بحراب البنادق الرُّوسيَّة.

«تبدو مثل جحيمٍ!» شخر ابن أخي جوزان، وهو يجاهد ثملًا عبر مجموعةٍ مِنَ الجذور. «كُلُّ شيءٍ يبدو مثل جحيمٍ!»

«لا تؤاخذه. إِنَّه يشعر بالقوَّة لأَنَّه شابٌّ. ولكنَّها الحقيقة. إِنَّها ليست ـ كيف تقول ذلك ـ ليست قضيَّتنا، أَيُّها الملازم أوَّل جونز،» قال جوزان، الَّذِي تمَّت رشوته بزوجٍ مِنَ الأحذية لكَيْ يظلَّ هادئًا بخصوص الارتفاع المفاجئ لرتبتي صديقيه. «ما الَّذِي ينبغي أَنْ نفعله مع كُلِّ ذلك؟» مسح دمعةً، بنصف سُكْرٍ، ونصف جيشانٍ عاطفيٍّ. «ما الَّذِي ينبغي أَنْ نفعله معه؟ نحن أناسٌ مسالمون. لا نريد أَنْ نكون في حربٍ! كان هذا التَّلُّ جميلًا، ذات مرَّةٍ! زهورٌ، وطيورٌ، تغنِّي، هَلْ تدرك؟ نحن مِنَ الشَّرق. ماذا تفعل معارك الغرب معنا؟»

التفَتَ آرشي نحو صمد، غريزيًّا، وهو يتوقَّع واحدًا مِنْ خطاباته، ولكنْ وقبل أَنْ ينتهي جوزان مِنْ حديثه، زاد صمد مِنْ سرعته فجأةً، وخلال ثانيةٍ كان يركض، مندفعًا عبر الرُّوس المخمورين، الَّذِين يتخبَّطون بحرابهم. كانت سرعته كبيرةً حتَّى أَنَّه غاب سريعًا مِنْ أفق الرُّؤية، منعطفًا إِلَى زاويةٍ عمياء ومختفيًا في اللَّيل العميق.

ارتبك آرشي لبضع دقائق، ثُمَّ أفلت نفسه مِنْ قبضة ابن أخي جوزان الصارمة (شرع - بالكاد - في رواية قصَّة عاهرةٍ كوبيَّةٍ التقاها في أمستردام) وبدأ في الرَّكض نحو المكان الَّذِي شاهد فيه ومض أحد أزرار الفضَّة لآخر مَرَّةٍ، في منعطفٍ حادٍّ آخر اتَّخذه المسار الجبليُّ كما شاء.

«يا نقيب إكـ-بول! انتظر، يا نقيب إكـ-بول!»

ركض، وهو يكرِّر العبارة، ويلوح بكشَّافه الصَّغير، الَّذِي لَمْ يفعل شيئًا سوى إضاءة الشُّجيرات المتشابكة في تجسيماتٍ غريبةٍ عَلَى نحوٍ متزايدٍ؛ رجلٌ هنا، وامرأةٌ هنا عَلَى ركبتيها، وهنا ثلاثة كلابٍ تنبح عَلَى القمر. قضى بعض الوقت هكذا، يتعثَّر في الظَّلام.

«اشعل كشَّافك! يا نقيب إكـ-بول! يا نقيب إكـ-بول!»

لا إجابة.

«يا نقيب إكـ-بول!»

«لماذا تناديني هكذا،» قال صوتٌ، قريبٌ، عَلَى يمينه، «عندما تعلم أَنَّني لستُ كذلك؟»

«إكـ-بول؟» وبينما يطرح السُّؤال، تعثَّر فلاش آرشي به، يجلس عَلَى صخرةٍ، ورأسه بين يديه.

«لماذا - أقصد، أنت لست بهذا القدر مِنَ الحماقة، أليس كذلك - أنت تعرف، أفترض أَنَّك تعرف أَنَّنِي في الحقيقة لستُ سوى مُجنَّدٍ في جيش جلالته؟»

«بالتَّأكيد. ينبغي أَنْ نستمرَّ في الأمر، عَلَى الرّغم مِنْ ذلك، أليس كذلك؟ لغطائنا، وما إِلَى ذلك.»

«غطاؤنا؟ يا ولد.» ضحك صمد لنفسه بطريقةٍ صدمَت آرشي مثل آثمٍ، وعندما رفع رأسه كانت عيناه محتقنتَين بالدَّمِ على حافَّة البكاء. «ماذا تظنُّ الأمر؟ هَلْ نمارسُ لُعبةً سخيفةً؟»

«لا، أنا... أنت محقٌّ، يا سام؟ تبدو متوعِّكًا.»

علم صمد بشكلٍ خافتٍ أَنَّه بدا متوعِّكًا. وضع - مبكِّرًا في تلك الأمسية - خطًّا صغيرًا مِنَ المواد البيضاءِ داخل جفونه. وشحذ المورفين عقله إِلَى حدِّ السِّكِّين، وفتحه عَلَى اتِّساعه. كان الأمر رائعًا، وبالغ النَّشوة مع استمرار تأثيره، ولكنْ بعدها بقيت

الأفكار الَّتِي تحرَّرت هكذا تتخبَّط في بحيرةٍ مِنَ الكحول، وأرست صمد في حوضٍ مِنَ الحقد. رأى انعكاس صورته في تلك الأمسية، وكانت قبيحةً. رأى أين كان - في حفل الوداع لنهاية أوروبَّا - وتاق إِلَى الشَّرق. نظر نحو الأسفل إِلَى يده عديمة الجدوى وملحقاتها الخمس عديمة الفائدة؛ إِلَى جلده المحترق حتَّى لون الشيكولاتة البُنِّيِّ مِنَ الشَّمس؛ نظر في داخل مخِّه، الَّذِي تحوَّل إِلَى غبيٍّ عبر محادثةٍ غبيَّةٍ وعبر الحافز المملِّ للموت، واشتاق إِلَى الرَّجل الَّذِي كانه ذات يومٍ: المثقَّف الوسيم ذي البشرة الفاتحة صمد مياه؛ الغالي الَّذِي حفظته أُمُّه مِنْ أشعة الشمس، وأرسلَت إليه أفضل المدرِّسين، وغطَّته بزيت الكتَّان مرَّتين في اليوم.

«سام؟ سام؟ إِنَّك لا تبدو بخيرٍ، يا سام. أرجوك، سيكونون هنا خلال دقيقةٍ... يا *سام*؟»

تجعل كراهيَّة الذَّات المرء متحاملًا عَلَى أوَّل شخصٍ يراه. ولكنَّ الأمر كان محدَّدًا بشدَّةٍ لدى صمد في أَنَّ هذا الشَّخص ينبغي أَنْ يكون آرشي، الَّذِي نظر إِلَى الأسفل نحوه في اهتمامٍ لطيفٍ، مع مزيجٍ مِنَ الخوف والغضب مختلطَين معًا عَلَى هذا الوجه الَّذِي بلا ملامح، وغير المجهَّز للتَّعبير عَنِ المشاعر.

«لا تنادِني سام،» هدر بصوتٍ لَمْ يلاحظه آرشي: «لستُ واحدًا مِنْ رفاقك الصِّبيان الإنجليز. اسمي صمد مياه إقبال. ليس سام. ليس سامي. وليس - لا قدر الله - صمويل. إِنَّه *صمد*.»

بدا آرشي محبطًا.

«حسنًا، عَلَى أيَّة حال،» قال صمد، بفضولٍ مفاجئٍ، وبرغبةٍ في تجنُّب مشهدٍ عاطفيٍّ، «أنا سعيدٌ لأَنَّك هنا لأَنَّنِي أردتُ أَنْ أخبرك أَنَّني في حالةٍ يُرثى لها، أيُّها الملازم أوَّل جونز. إِنَّنِي، مثلما تقول، متوعِّكٌ. إِنَّنِي في حالةٍ يُرثى كثيرًا جدًّا لها.»

وقف، ولكنَّه تداعى عندها إِلَى صخرته مَرَّةً أخرى.

«انهض،» همس آرشي مِنْ بين أسنانه. «انهض. *ماذا بك*؟»

«الأمر حقيقيٌّ، أنا في حالةٍ يرثى لها جدًّا. ولكنَّني فكَّرتُ،» قال صمد، وهو يأخذ مسدَّسه في يده السَّليمة.

«ضع هذا جانبًا.»

«سَوَادٌ. أنا *مشلولٌ*، يا جونز.» قام المسدَّس برقصةٍ مرحةٍ في يده السَّليمة عندما أرجح نفسه مِنْ جانبٍ إِلَى جانبٍ. «وإيماني مشلولٌ، هَلْ تفهم؟ أنا لا أصلح لشيءٍ الآن، ولا حتَّى لله، القويِّ برحمته. ما الَّذِي سأفعله، بعد أَنْ تنتهي هذه الحرب، هذه الحرب الَّتِي انتهت بالفعل - ما الَّذِي سأفعله؟ أعود إِلَى البنجال؟ أَمْ إِلَى دلهي؟ مَنِ الَّذِي يقبل رجلًا إنجليزيًّا هناك؟ إِلَى إنجلترا؟ مَنِ الَّذِي يقبل هنديًّا؟ لقَدْ وعدونا بالاستقلال لأَنَّنا الرِّجال الَّذِين كُنَّا. ولكنَّها صفقةٌ شيطانيَّةٌ. ماذا يجب أَنْ أفعل؟ أبقى هنا؟ أذهب إِلَى مكانٍ آخر؟ أَيُّ مختبرٍ يريد رجلًا بيدٍ واحدةٍ؟ ما الَّذِي أنا مناسبٌ له؟»

«انظر، يا سام... *أنتَ تجعل مِنْ نفسك أضحوكةً.*»

«*فعلًا*؟ وهَلْ هذا ما ينبغي أَنْ يكون، يا صديقي؟» سأل صمد، وهو يقف، ويتعثَّر في حجرٍ، ويرتدُّ مرَّةً أخرى إِلَى آرشي. «في ظهيرةٍ واحدةٍ قُمتُ بترقيتكَ مِنْ جنديٍّ وضيعٍ إِلَى ملازمٍ أوَّل في الجيش البريطانيِّ وهذا هو الشُّكر الَّذِي تقدِّمه لي؟ أين أنتَ في ساعة احتياجي؟ جوزان!» صرخ إِلَى مالك المقهى البدين، الَّذِي يكافح حول المنعطف، في أقصى الخلف، وهو يتعرَّق بغزارةٍ. «جوزان - زميلي المسلم - بحقِّ الله، هَلْ هذا صحيحٌ؟»

«اخرس،» قاطعه آرشي. «هَلْ تريد أَنْ يسمعكَ الجميع؟ ضعه *جانبًا*.»

انطلقَت ذراع صمد الحاملة للمسدَّس في الظَّلام، والتفَّت حول عنق آرشي، فانضغط المسدَّس ورأساهما معًا في عناقٍ جماعيٍّ بغيضٍ.

«ما الَّذِي أصلح له، يا جونز؟ إذا كان لي أَنْ أجذب هذا الزِّناد، ما الَّذِي سأخلفه ورائي؟ هنديًّا، انتهازيًّا هنديًّا إنجليزيًّا بمعصمٍ رخوٍ مثل لوطيٍّ وبدون ميدالياتٍ يمكنهم أَنْ يشحنوها إِلَى الوطن معي.» تخلَّى عَنْ آرشي وأمسك بياقته عوضًا عَنْ ذلك.

«خذ بعضًا مِنْ هذه، بحقِّ الرَّب،» قال آرشي، وهو يأخذ ثلاثًا مِنْ طيَّات صدر سترته ويلقيها إليه. «لدَيَّ الكثير.»

«وماذا بخصوص تلك المسألة الصَّغيرة؟ هَلْ تدرك أَنَّنا هاربان؟ هاربان بشكلٍ فعليٍّ؟ اخطُ إِلَى الوراء لدقيقةٍ، يا صديقي، وانظر إلينا. قائدنا ميِّتٌ. ونحن نرتدي زيَّه، ونسيطر عَلَى ضبَّاطٍ، رجالٍ أعلى رتبةً منَّا، وكيف؟ *بالخداع*. ألا يجعلنا ذلك مارقِين؟»

«لقَدِ انتهَت الحرب! أعني، لقَدْ بذلنا جهدًا للاتِّصال بالبقيَّة.»

«هَلْ فعلنا؟ يا آرشي، يا صديقي-هَلْ فعلنا؟ فعلًا؟ أَمْ أَنَّنا جلسنا في الجوار عَلَى مؤخِّراتنا مثل المارقين، نختبئ في كنيسةٍ بينما العالم ينهار حول آذاننا، بينما يلقى الرِّجال مصارعهم في الميادين؟»

تصارعا لبعض الوقت بينما حاول آرشي انتزاع المسدَّس منه، وصبَّ صمد جام غضبه عليه بقوَّةٍ لا يُستهان بها. وعلى البعد، أمكن لآرشي أَنْ يرى بقيَّة طاقمهم المتنافر ينعطفون عند الزَّاوية، ككتلةٍ رماديَّةٍ ضخمةٍ في ضوء الشَّفق، يندفعون مِنْ جانبٍ إِلَى جانبٍ، ويغنُّون: «ليديا، السَّيِّدة ذات الوشم.»[1]

«أُنظر، ابقِ صوتك منخفضًا. واهدأ»، قال آرشي، وهو يفلته.

«نحن محتالان؛ انتهازيَّان في معاطف الآخرين. هَلْ قمنا بواجبنا، يا آرشيبالد؟ هَلْ فعلنا؟ بكُلِّ أمانةٍ؟ لقَدْ جررتك معي، يا آرشي، ولهذا أنا آسفٌ. والحقيقة أَنَّ هذا مصيري. لقَدْ كُتب كُلُّ هذا عَلَيَّ منذ زمنٍ بعيدٍ.»

أوه ليديا أوه ليديا أوه هل التقيتَ بليديا أوه ليديا السَّيِّدة ذات الوشم!

وضع صمد المسدَّس في فمه بذهولٍ وحرَّر الزِّناد.

«إك-بول، انصت إِلَيَّ،» قال آرشي. «عندما كُنَّا في تلك الدَّبَّابة مع النَّقيب، ومع روي والبقيَّة.»

أوه ليديا ملكة الوشوم! عَلَى ظهرها معركة واترلو...

«تحدَّثنا دائمًا حول أَنْ تكون بطلًا وما إِلَى ذلك-مثل عمِّك العظيم ماذا كان اسمه.»

بجانبه حطام كوكب الزُّهرة أيضًا...

أخرج صمد المسدَّس من فمه.

«*باندي*،» قال. «جدِّي *الأكبر*،» ثُمَّ أعاد المسدَّس إِلَى فمه ثانيةً.

«وها هي-فرصةٌ-إِنَّها تحدِّق فيك مباشرةً. لَمْ ترغب أَنْ تفوِّت الحافلة ولَنْ نفعل، ليس إذا فعلناها بشكلٍ صحيحٍ. وإذن لا تكن عاهرًا سخيفًا بخصوص الموضوع.»

---

1 - أغنية كتبها ييب هاربورج وهارولد آرلين. ظهرت لأول مرة في فيلم الإخوة ماركس «في السيرك» عام 1939. (المترجم).

وبفخرٍ فوق أمواج الأحمرِ، والأبيضِ، والأزرقِ،

يمكنك أَنْ تتعلَّم الكثير مِنْ ليديا!

«يا رفيق! ماذا بِاسْم الرَّبِّ.»

بدون أَنْ يلاحظا، تمشَّى الرُّوسيُّ الودود حتَّى وصل وراءهما، وكان ينظر في رعبٍ إلَى صمد يمصُّ مسدَّسه مثل مصَّاصةٍ.

«أنظِّفه،» تمتم صمد، مرتجفًا بشكلٍ واضحٍ، وهو يخرج المسدَّس مِنْ فمه.

«تلك هي الطَّريقة الَّتِي يفعلون بها ذلك،» أوضح آرشي، «في البنجال.»

الحرب الَّتِي تَوقَّع الاثنا عشر رجلًا أَنْ يجدوها في البيت الكبير القديم عَلَى التَّلِّ، الحرب الَّتِي أراد صمد تخليلها في جرَّةٍ لكَيْ يقدِّمها إلَى أحفاده كتذكارٍ مِنْ شبابه، لَمْ تكن هناك. جلس الدُّكتور مريض بالحالة الَّتِي يشي بها اسمه، عَلَى كرسيٍّ بذراعين أمام نار الحطب. مريضًا. يجثم عَلَى سجَّادةٍ. شاحبًا. ونحيلًا جدًّا. بلا زِيٍّ رسميٍّ، مجرَّد قميصٍ أبيضَ مفتوحِ الرَّقبة وبنطلونٍ غامق اللَّون. كان رجلًا شابًّا أيضًا، لا يزيد على الخمسة والعشرين، ولَمْ يجفل أَوْ يقدِّم أَيَّ احتجاجٍ عندما اندفعوا جميعهم إلَى الدَّاخل، ببنادق عَلَى أهبة الاستعداد. بدا الأمر كما لَوْ أَنَّهم حلُّوا فقط عَلَى بيت مزرعة فرنسيٍّ لطيفٍ، مرتكبين زلَّة القدوم بدون دعوةٍ، وإحضار البنادق إلَى مائدة العشاء. أُضيئَت الغرفة بالكامل بمصابيح الغاز في أغلفتها الصَّغيرة الَّتِي لها هيئة السيدات، وتراقص الضوء عَلَى الحائط مضيئًا مجموعةٍ من ثماني لوحاتٍ تُظهر المشهد الدَّائم للرِّيف البلغاريِّ. في اللَّوحة الخامسة لاحظ صمد كنيسته، لطخةٌ مِنَ الطِّلاء الرَّمليِّ في الأفق. كانت اللَّوحات موضوعةٌ عَلَى مسافاتٍ غطَّت جدران الغرفة في بانوراما. وفي مسعًى مسرفٍ في العاطفة عَلَى الطِّراز الحديث كانت تاسعةٌ غير مؤطَّرة تربض قريبًا مِنَ الموقد عَلَى حاملٍ، والطِّلاء عليها لا يزال ليِّنًا. صُوِّبت اثنتا عشرةَ بندقيَّةً نحو الفنَّان. وعندما التفت الفنَّان الطَّبيب لكَيْ يواجههم، كان ما يشبه الدُّموع المشوبة بالدِّماء ينحدر عَلَى وجهه.

تقدَّم صمد إلَى الأمام. لقَدْ وضع مسدسًا في فمه، وكان أكثر جرأة لذلك. وتناول كميَّةً سخيفةً مِنَ المورفين، وغرق في الفجوة الَّتِي يخلقها المورفين، ونجا. أنتَ لستَ أبدًا أكثر قوةً، فكَّر صمد وهو يقترب مِنَ الطَّبيب، منكَ عندما تحطُّ عَلَى الجانب الآخر مِنَ اليأس.

«هَلْ أنتَ الدُّكتور بيريه؟» سأل، بطريقةٍ جعلَت الرَّجل الفرنسيَّ يجفل مِنْ نطقه للإنجليزيَّة، ويرسل دموعًا داميةً أكثر عَلَى وجنتيه. واحتفظ صمد بمسدَّسه مصوَّبًا نحوه.

«نعم، أنا هو.»

«ما هذا؟ هذا الَّذِي في عينَيك؟» سأل صمد.

«لديَّ اعتلال الشَّبكيَّة السُّكَّري[1]، يا مسيو.»

«ماذا؟» سأل صمد، وهو لا يزال يوجه مسدَّسه، عازمًا عَلَى عدم تقويض لحظة مجده في مناقشةٍ طبيَّةٍ غير بطوليَّةٍ.

«ذلك يعني أنَّني عندما لا أحصل عَلَى الإنسولين، أفرز دمًا، يا صديقي. مِنْ عينيَّ. الأمر الَّذِي يجعل هوايتي،» أومأ للَّوحات الَّتِي أحاطته، «ليست صعبةً كثيرًا. كانت لتكون عشر لوحاتٍ. مشهدٌ عامٌّ بزاويةٍ 180 درجةً. ولكنْ يبدو أنَّكم أتيتم لكَيْ تقاطعوني.» تنهَّد ووقف. «إذن. هَلْ أنتم بصدد قتلي، يا صديقي؟»

«أنا لستُ صديقك.»

«لا، لا أفترض أنَّكَ كذلك. ولكنْ هَلْ في نيَّتكَ أَنْ تقتلني؟ اعذرني إذا قلتُ إنَّكَ لا تبدو مسنًّا بما يكفي لسحق الذُّباب.» نظر إِلَى زيِّ صمد. «يا إلهي، إنَّكَ صغيرٌ جدًّا عَلَى بلوغ ما مررتَ به في الحياة، أيُّها النَّقيب.» تململ صمد بشكلٍ غير مرتاحٍ، وهو يلتقط نظرة آرشي المذعورة في زاوية رؤيته. أبعد صمد بين قدميه قليلًا ووقف في حزمٍ.

«أنا آسفٌ إذا بدَوتُ مملًّا في هذه النُّقطة، ولكنْ... هَلْ في نيَّتك - إذن - أَنْ تقتلني؟»

ظلَّت ذراع صمد في مكانها بشكلٍ صارمٍ، وظَلَّ المسدَّسُ ثابتًا. يمكنه أَنْ يقتله، يمكنه أَنْ يقتله بدمٍ باردٍ. لَمْ يكن صمد بحاجةٍ إِلَى غطاء اللَّيل، أَوْ لذريعة الحرب. يمكنه أَنْ يقتله، ويعرف كلاهما ذلك. مع ملاحظة النَّظرة في عين الهنديِّ، تقدَّم الرُّوسيُّ إِلَى الأمام. «عفوًا، أيُّها القائد.»

ظَلَّ صمد صامتًا، يواجه الطَّبيب، فتقدَّم الرُّوسيُّ إِلَى الأمام. «ليست لدينا نيَّاتٌ في هذا الأمر،» قال الرُّوسيُّ، مخاطبًا د. مريض. «لدينا أوامر بإحضارك إِلَى بولندا.»

---

1 ـ اعتلال الشبكية السكري: يكون الاعتلال بسبب الأضرار الَّتِي تلحق بشبكية العين الناجمة عن مضاعفات مرض السكري، الَّتِي يمكن أن تؤدي في النهاية إلى العمى. (المترجم).

«وهناك سيتمُّ قتلي؟»

«سيكون ذلك مِنْ شأن السُّلطات المناسبة لاتِّخاذ القرار.»

أدار الطبيب رأسه بزاويةٍ ما، وضيَّق عينيه. «إنَّه مجرَّد... إنَّه مجرَّد شيءٍ يرغب المرء في أَنْ يتمَّ إخباره به. إنَّه أمرٌ ذو أهميَّةٍ للمرء أَنْ يتم إخباره. وإنَّه فقط مِنَ الكياسة في أقلِّ الأحوال. أَنْ يتمَّ إخبار المرء إذا ما كان سيموت أَمْ سيتمُّ إنقاذ حياته.»

«سيكون ذلك مِنْ شأن السُّلطات المناسبة لاتِّخاذ القرار،» كرَّر الرُّوسيُّ.

مشى صمد خلف الطَّبيب وألصق المسدَّس بمؤخِّرة رأسه. «امش،» قال.

«مِنْ شأن السُّلطات المناسبة لاتِّخاذ القرار... أليس زمن السِّلم متحضِّرًا؟» علَّق د. مريض، بينما قادته مجموعةٌ مِنَ اثني عشر رجلًا يصوِّبون بنادقهم نحو رأسه، إِلَى خارج المنزل.

***

في تلك اللَّيلة، في قاع التَّلِّ، لاحقًا، تركَت الكتيبة د. مريض مكبَّلَ اليدين إِلَى السَّيَّارة الجيب وتحرَّكوا إِلَى المقهى.

«هَلْ تلعبان البوكر؟» سأل نيكولاي شديد المرح، مُحيِّيًا صمد وآرشي وهم يدخلون جميعهم إِلَى الغرفة.

«ألعب أَيَّ شيءٍ، أنا،» قال آرشي.

«السُّؤال الأهمُّ،» قال صمد، وهو يأخذ مقعده بابتسامةٍ ساخرةٍ، «هو: هل ألعبه بشكلٍ جيِّدٍ؟»

«وهَلْ تفعل، يا نقيب إقبال؟»

«مثل معلِّمٍ،» قال صمد، وهو يلتقط الأوراق الَّتِي وُزِّعت إليه ويرتِّبها في يده الواحدة.

«حسنًا،» قال نيكولاي، وهو يسكب المزيد مِنَ السمبوكا للجميع، «حيثُ إنَّ صديقنا إقبال واثقٌ جدًّا، فقَدْ يكون مِنَ الأفضل أَنْ نبدأ بشكلٍ صغيرٍ نسبيًّا. سنبدأ بالسَّجائر، ولنر إِلَى أين يأخذنا ذلك.»

أخذَتهم السجائر إلَى الميداليات، الَّتِي أخذَتهم إلَى المسدَّسات، الَّتِي أخذَتهم إلَى أجهزة اللَّاسلكِي، الَّتِي أخذَتهم إلَى السَّيَّارات الجيب. ومع منتصف اللَّيلة ربح صمد ثلاث سيَّاراتٍ جيب، وسبعة مسدَّساتٍ، وأربع عشرة ميداليَّةً، والأرض الملحقة بمنزل شقيقة جوزان، وصكًّا بأربعة جِيادٍ وثلاث دجاجاتٍ وبطةً.

«يا صديقي،» قال نيكولاي بيسوتسكي، وقَدْ حلَّ القلق محلَّ طريقته الدَّافئة المنفتحة. «ينبغي أَنْ تمنحنا الفرصة لكَيْ نربح ممتلكاتنا مِنْ جديدٍ. لا يمكننا مطلقًا أَنْ نترك الأمر عَلَى ما هو عليه.»

«أريد الطَّبيب،» قال صمد، وهو يرفض أَنْ يلتقي بعيني آرشيبالد جونز، الَّذِي جلس مفتوح الفم، ومخمورًا في مقعده. «في مقابل أشيائكم الَّتِي ربحتُها.»

«لأَيِّ سببٍ ممكنٍ في *هذا العالم*؟»، قال نيكولاي، في دهشةٍ وهو يتراجع في كرسيِّه. «ما قَدْ تكون الفائدة المحتملة ــــ.»

«أسبابي الخاصَّة. أرغب في أَنْ آخذه اللَّيلة، وأَلَّا يتبعني أحدٌ، وأَلَّا يُكتب تقريرٌ عَنِ الحادثة.»

تطلع نيكولاي بيسوتسكي إلَى يديه، ونظر حول الطَّاولة، ثُمَّ إلَى يديه مرَّةً أخرى. ثُمَّ وضع يده في جيبه وألقى بالمفاتيح إلَى صمد.

وبمجرَّد أَنْ كانا في الخارج، صعد صمد وآرشي إلَى الجيب الَّتِي بها د. مريض، وقَدْ نام عَلَى لوحة القيادة، وشغَّلا المحرِّك وقادا نحو الظَّلام.

على بعد ثلاثين ميلًا مِنَ القرية، استيقظ د. مريض عَلَى جدالٍ مكتومٍ بشأن مستقبله الوشيك.

«ولكنْ *لماذا*؟» همس آرشي.

«لأنَّه، مِنْ وجهة نظري، فالمشكلة الحقيقيَّة هي أَنَّنا بحاجةٍ إلَى دماءٍ عَلَى أيدينا، هَلْ ترى؟ كتكفيرٍ. ألا ترى، يا جونز؟ لَقَدْ كُنَّا نمارس لعبةً تافهةً في هذه الحرب، أنتَ وأنا. هناك شرٌّ عظيمٌ فشلنا في محاربته، والآن تأخَّر الوقت كثيرًا. باستثناء أَنَّه لدينا، تلك الفرصة. دعني أسألكَ: لماذا شُنَّت هذه الحرب؟»

«لا تتحدَّث بالهراء،» توعَّد آرشي، بدلًا مِنَ الإجابة.

«وهكذا فإنَّنا *قَدْ نصبح أحرارًا* في المستقبل. السُّؤال دائمًا: *أَيُّ نوعٍ مِنَ العالم نريد لأطفالنا أَنْ يكبروا فيه*؟ ونحن لَمْ نفعل شيئًا. إنَّنا في مفترق طرقٍ أخلاقيٍّ.»

«انظر، أنا لا أعرف ما أنت بصدده ولا أريد أَنْ أعرف،» قاطع آرشي. «سوف نتخلَّص مِنْ هذا الشَّخص» - أشار إِلَى مريض الَّذِي يكاد أَنْ يكون فاقدًا للوعي - «في أوَّل ثكنةٍ نعبرها، ثُمَّ ستذهب أنت وأنا في طريقَين منفصلَتين، وهذا هو مفترق الطُّرق الوحيد الَّذِي أهتمُّ به.»

«ما لاحظته أَنَّ الأجيال،» واصل صمد وهما يسرعان عبْر أميالٍ وأميالٍ مِنَ الأراضي المنبسطة الَّتِي لا تتغيَّر، «تتحدَّث إِلَى بعضها، يا جونز. إِنَّها ليست خطًّا. الحياة ليست خطًّا - الأمر ليس قراءة كفٍّ - إِنَّها دائرةٌ، وهم يتحدَّثون إلينا. ذلك هو السَّبب في أَنَّك لا تستطيع قراءة المصير، ينبغي أَنْ تخوض التَّجربة.» شعر صمد بالمورفين يمدُّه بالمعارف مَرَّةً أخرى - بكُلِّ المعارف في الكون وكُلِّ المعارف عَلَى الجدران، في وحْيٍ واحدٍ رائعٍ.

«هَلْ تعرف مَنْ يكون هذا الرَّجل، يا جونز؟»، أمسك صمد بالطَّبيب مِنَ الجزء الخلفيِّ مِنْ شعره وأمال رقبته عَلَى المقعد الخلفيِّ. «أخبرَني الرُّوس. إِنَّه عالمٌ، مثلي - ولكنْ ما هو علمه؟ اختيار مَنْ سوف يولد، ومَنْ لَنْ يفعل - يُكاثرون النَّاس كما لَوْ كانوا عددًا كبيرًا مِنَ الدَّجاج، ويدمِّرونهم إذا كانت المواصفات غير صحيحةٍ. إِنَّه يريد السَّيطرة، أَنْ يتحكَّم في المستقبل. إِنَّه يريد سباقًا بين الرِّجال، سباقًا بين الرِّجال غير القابلين للتَّدمير، الَّذِين سينجون في الأيام الأخيرة عَلَى هذه الأرض. ولكنَّ ذلك لا يمكن أَنْ يتمَّ في المختبرات. نعم، ينبغي أَنْ يتمَّ، يمكن فقط أَنْ يتمَّ، بالإيمان! الله وحده هو الحافظ! أنا لستُ رجلًا متديِّنًا - لَمْ أمتلك القوَّة قطُّ - لكنَّني لستُ أحمق بما يكفي لكَيْ أنكر الحقيقة!»

«آه، الآن، ولكنَّكَ قلتَ، أليس كذلك، قلتَ إِنَّه ليس شأنكَ. عَلَى التَّلِّ - هذا ما قلته،» هدر آرشي، متحمِّسًا كونه أمسك بنقطةٍ عَلَى صمد. «وإذن، إذن، إذن - إذن ماذا لَوْ كان هذا الرجل يفعل... أَيًّا كان ما يفعله - لقَدْ قلتَ إِنَّ ذلك مشكلتُنا، نحن في الغرب، هذا ما قلته أنت.»

كانت دموع الدُّكتور مريض الدّامية تتدفَّق الآن كالأنهار، وهو لا يزال مشدودًا مِنْ شعره بيد صمد، ويختنق الآن بلسانه هو نفسه.

«انتبه، إنَّك تخنقه،» قال آرشي.

«وماذا في ذلك!» صرخ صمد في الأفق الَّذِي بلا صدًى. «الرِّجال مِنْ أمثاله يعتقدون أنَّ الأعضاء الحيَّة ينبغي أَنْ تستجيب للتَّصميم. إنَّهم يعبدون علوم الجسد، ولكن ليس مَنْ منحنا إيَّاها! إنَّه نازيٌّ. النَّوع الأسوأ.»

«ولكنَّكَ قلتَ ـــ.» شدَّد آرشي، عازمًا عَلَى توضيح وجهة نظره. «لقَدْ قلتَ إنَّ ذلك لا علاقة له بكَ. ليس قضيَّتكَ. إذا كان أيُّ شخصٍ في هذه الجيب لديه نقطةٌ ليسوِّيها مع جيري المجنون هنا ـــ.»

«فرنسيٌّ. إنَّه فرنسيٌّ.»

«ليكنْ، هو فرنسيٌّ ـ حسنًا، إذا كانت لدَى أيِّ شخصٍ نقطةٌ ليسوِّيها فإنَّه عَلَى الأرجح سيكون أنا. إنَّه مستقبل إنجلترا الَّذِي نقاتل مِنْ أجله. لأجل إنجلترا. أنتَ تعرف،» قال آرشي، وهو يفتش مخَّه، «الدِّيمقراطيَّة، وعشاءات الأحد، و... و... المتنزَّهات والأرصفة، والسُّجقُّ والهريس ـ والأشياء الَّتِي تخصُّنا. لا تخصُّكم.»

«*بالضَّبط*،» قال صمد.

«أنتَ ماذا؟»

«ينبغي أَنْ تفعل ذلك، يا آرشي.»

«ليس في هذه الحياة!»

«جونز، إنَّ مصيركَ يحدِّق في وجهك، وها أنتَ هنا تصفع السَّلامي،» قال صمد مع ضحكةٍ قبيحةٍ في صوته، وهو لا يزال يمسك بشعر الطَّبيب عبر المقعد الأماميِّ.

«اهدأ قليلًا،» قال آرشي، وهو يحاول أَنْ يبقي عينه عَلَى الطَّريق، بينما يُميل صمد عنق الطَّبيب إِلَى نقطة الكسر تقريبًا. «انظر، أنا لا أقول إنَّه لا يستحقُّ أَنْ يموت.»

«افعلها إذن. *افعلها*.»

«ولكنْ لماذا يهمُّك إِلَى هذا الحدِّ اللَّعين أَنْ أفعل أنا ذلك؟ أنتَ تعرف، لَمْ أقتل رجلًا مطلقًا ـ ليس هكذا، ليس وجهًا لوجهٍ. الرَّجل لا ينبغي أَنْ يموت في سيَّارةٍ... لا أستطيع أَنْ أفعل ذلك.»

«جونز، إنَّه ـ ببساطة ـ سؤالٌ حول ما سوف تفعله في *الأوقات الصَّعبة*. هذا سؤالٌ يهمُّني كثيرًا. استدع اللَّيلة التَّطبيق العمليَّ للمعتقدات الرَّاسخة. كتجربةٍ، إذا أحببتَ.»

«لا أعرف ما الَّذِي تتحدَّث عنه.»

«أريد أَنْ أعرف أَيَّ نوعٍ مِنَ الرِّجال أنتَ، يا جونز. أريد أَنْ أعرف ما أنتَ قادرٌ عليه. هَلْ أنتَ جبانٌ، يا جونز؟»

أوقف آرشي السَّيَّارة بشكلٍ حادٍّ.

«أنتَ تريد هذا، اللَّعنة عليكَ، أنت تريده.»

«أنت لا تصمد لأيِّ شيءٍ، يا جونز،» تابع صمد. «لا للإيمان، ولا للسِّياسة. ولا حتَّى لبلدكَ. كيف استطاعت جموعُكَ بالأساس غزو جموعي؟ مسألةٌ لعينةٌ شديدة الغموض. أنتَ صفرٌ عَلَى اليسار، أليس كذلك؟»

«أنا ماذا؟»

«وأحمق. ما الَّذِي ستُخبر أطفالكَ عنه عندما يسألون مَنْ أنتَ، ما الَّذِي أنتَ عليه؟ هَلْ تعرف؟ هَلْ تعرف، عَلَى الإطلاق؟»

«أنت ماذا، ياله مِنْ خيالٍ غريبٍ؟»

«أنا مسلمٌ ورجلٌ وابنٌ ومؤمنٌ. سأنجو في نهايات الأيَّام.»

«أنتَ سكِّيرٌ لعينٌ، وأنتَ ـ أنتَ مُخدَّرٌ، لقَدْ تعاطيت المخدَّرات اللَّيلة، أَلَمْ تفعل؟»

«أنا مسلمٌ ورجلٌ وابنٌ ومؤمنٌ. سأنجو في نهايات الأيَّام،» كرَّر صمد، كأَنَّه يُنشد.

«وماذا يعني ذلك بحقِّ الجحيم الدَّامي؟» بينما يصرخ، أمسك آرشي بـ د. مريض. جذب وجهه المغطَّى الآن بالدِّماء نحو وجهه حتَّى تلامس أنفاهما.

«أنتَ،» نبح آرشي. «سوف تأتي معي.»

«سأفعل ولكنْ، يا مسيو....» رفع الطَّبيب معصميه المكبَّلين.

حَلَّ آرشي أصفاده بالمفتاح الصَّدئ، وجرَّ الطَّبيب إِلَى خارج الجيب، وبدأ يسير بعيدًا عَنِ الطَّريق نحو الظَّلام، وهو يصوِّب مسدَّسه إِلَى قاعدة جمجمة د. مارك بيير بيريه.

«هَلْ تنوي قتلي، يا فتى؟»، سأل د. مريض وهما يمشيان.

«يبدو ذلك، أليس كذلك؟»قال آرشي.

«هَلْ لي أَنْ أدافع عَنْ حياتي؟»

«إذا أحببت،» قال آرشي، وهو يدفعه إِلَى الأمام.

بعد نحو خمس دقائق مِنْ جلوسه في الجيب، سمع صمد صوت طلقٍ ناريّ. جعله ذلك يقفز. سحق حشرةً تدور في طريقها حول معصمه، وهي تبحث عَنْ لحمٍ كافٍ لكَيْ تلدغه. ولمّا رفع رأسه، شاهد آرشي عائدًا: ينزف ويعرج بشكلٍ سيءٍ، جعله يظهر ثُمَّ يختفي، يضيء ويحتجب، بينما يتحرَّك أمام وخارج مدى الضَّوء الأماميّ. بدا كما في عمره المبكِّر، والمصابيح تجعل شعره الأشقر شفَّافًا، ووجهه المستدير مضيئًا مثل طفلٍ كبيرٍ، يدخل إِلَى الحياة برأسه.

صمد

1857 ـ 1984

اختبارُ الكريكيت ـ لأَيِّ جانبٍ سوف يهتفون؟... هَلْ ما زلتَ تنظر إِلَى الوراء مِنْ حيث جئتَ، أَمْ إِلَى حيث أنت؟ ـ

ـ نورمان تيبيت.

الفصل السادس

إغواء صمد إقبال

الأطفال. أُصيب صمد بالأطفال مثل مرضٍ. نعم، لقَدْ أنجب اثنَين منهم برغبته ـ بنفس الرَّغبة الَّتِي يستطيعها كُلُّ رجلٍ ـ ولكنَّه لَمْ يتفاوض عَلَى الأشياء الأخرى. تلك الأشياء الَّتِي لا يخبرك أحدٌ عنها. تلك الأشياء الخاصَّة بمعرفة الأطفال. فطوال أربعين عامًا غريبةً مِنَ السَّفر بسعادةٍ عَلَى طريق الحياة السَّريعة، لَمْ ينتبه صمد إِلَى أنَّه عَلَى طول تلك الطَّريق تنتشر مرافق الحضانة في كُلِّ محطَّة خدمةٍ، حيث تعيش فئةٌ فرعيَّةٌ مِنَ المجتمع، تبكي وتتقيَّأ في مستوياتٍ متدنِّيةٍ؛ لَمْ يعرف شيئًا عنها، ولا شغلت اهتمامه. ثُمَّ، وبشكلٍ مفاجئٍ، في بدء الثَّمانينيات، أصبح مصابًا بالأطفال؛ أطفال النَّاس الآخرين، والأطفال الَّذِين كانوا أصدقاءً لأطفاله؛ ثُمَّ الأطفال في برامج الأطفال في تليفزيون الأطفال. وبحلول 1984 كان حوالي 30 بالمئة عَلَى الأقل مِنْ دائرته الاجتماعيَّة والثقافيَّة أقلَّ مِنْ سنِّ تسعةٍ ـ وقاد كُلُّ ذلك ـ حتمًا ـ إِلَى الوضع الَّذِي وجد نفسه فيه الآن. في *مجلس الأمناء*.

عبر عمليَّةٍ غريبةٍ مِنَ التَّناظر، عكس انضمامه لمجلس الأمناء عمليَّة تحوُّله إِلَى والدٍ. بدأ الأمر ببراءةٍ. بشكلٍ عرَضيٍّ. أنتَ تحضر معرض الرَّبيع السَّنويَّ بكُلِّ طاقتكَ، تساعد في تذاكر اليانصيب (لأنَّ مُدرِّسة الموسيقى الجميلة حمراءَ الشَّعرِ تطلب منك ذلك) وتفوز بزجاجة ويسكي (كُلُّ سحوبات المدرسة مُفبركة)، وقبل أنْ تدركَ أين أنتَ، تبدأ في حضور اجتماعات مجلس المدرسة الأسبوعيَّة، وتنظِّم الحفلات، وتناقش خطط قسم الموسيقى الجديد، وتتبرَّع لتمويل تجديد نوافير المياه ـ أنتَ متورِّطٌ في المدرسة، أنتَ مرتبطٌ بها. وعاجلًا أَمْ آجلًا سوف تتوقَّف عَنْ ترك أطفالكَ عَلَى بوَّابات المدرسة. وستبدأ في الدُّخول في أعقابهم.

«انزل يدك.»

«لَنْ أنزلها.»

«انزل يدك، رجاءً.»

«اتركيني وشأني.»

«صمد، لماذا أنتِ حريصٌ عَلَى إحراجي؟ *انزلها*.»

«لَدَيَّ رأيٌ. لَدَيَّ الحقُّ في أَنْ يكون لي رأيٌ. ولَدَيَّ الحقُّ في *التَّعبير* عَنْ هذا الرأي.»

«نعم، ولكنْ هَلْ يجب أَنْ تعبِّر عنه كثيرًا جدًّا.»

هذا هو الحوار المتبادل في همسٍ بين صمد وألسانا إقبال، بينما جلسا في الخلف في اجتماع الأربعاء لمجلس أمناء المدرسة في أوَّل يوليو 1984، وألسانا تبذل جهدها لكَيْ تجبر صمد عَلَى إنزال ذراعه اليسرى إِلَى جانبه.

«اتركيني، يا امرأةٌ!»

وضعَت ألسانا يديها الصَّغيرتين حول معصمه وهي تحاول تطبيق القرصة الصِّينيَّة[1]. «صمد مياه، ألا تفهم أَنِّي فقط أحاول إنقاذكَ مِنْ نفسك؟»

بينما تَواصلَت المصارعة السِّريَّة، حاولَت الرَّئيسة، كاتي مينيفر، مُطلَّقةٌ بيضاءُ نحيلةٌ في جينزٍ ضيِّق، وشعرٍ مجعَّدٍ للغاية، في يأسٍ أَنْ تتفادى عين صمد. وهي تلعن صامتةً السَّيِّدة هانسون، السَّيِّدة البدينة وراءه، والَّتِي تتحدَّث عَنْ سوسة الخشب في بستان المدرسة، بما جعل مِنَ المستحيل التَّظاهر بعدم رؤية يد صمد المرفوعة. عاجلًا أَوْ آجلًا سوف تضطرُّ لأَنْ تسمح له بالكلام. وبينما تومئ مُتابِعةً للسيِّدة هانسون، خطفت نظرةً جانبيَّةً إِلَى الملاحظات الَّتِي تدوِّنها السِّكرتيرة، السَّيِّدة كيلناني، عَلَى يسارها. أرادَت التَّحقُّق مِنْ أَنَّ الأمر ليس مِنْ خيالها، مِنْ أَنَّها لَمْ تكن غير منصفةٍ أَوْ غير ديمقراطيَّةٍ، أو، وهذا أسوأ، لا تزال عنصريَّةً (لكنَّها قرأَت عمى *الألوان*، نشرةٌ مؤثِّرةٌ مِنَ ائتلاف قوس قزح، وكانت نتائجها جيِّدةً في الاختبار الذَّاتيِّ)، تأصَّلَت العنصريَّة بعدَّة طرقٍ مؤثِّرةٍ اجتماعيًّا إِلَى الحدِّ الَّذِي لَمْ تلفت معه انتباهها. ولكنْ لا، لا. لَمْ تكنْ مجنونةً. أَيُّ اقتباسٍ عشوائيٍّ سوف يبرز المشكلة:

1 ـ طريقة عقاب مدرسية تقوم على جذب جلد المعصم بكلتا اليدين بما يحدث نوعًا من الألم. (المترجم).

13.0: ترغب السَّيِّدة جانيت تروت في إنشاء إطارٍ ثانٍ للتَّسلُّق في الملعب؛ لكَيْ يستوعب العدد الكبير مِنَ الاطفال الَّذِين يستمتعون بإطار التَّسلُّق الحالي، ولكنَّه تحوَّل لسوء الحظِّ إِلَى تهديدٍ للسَّلامة بسبب التَّزاحم الخطر. زوج السَّيِّدة تروت، المعماري هانزفر تروت، عَلَى استعدادٍ لتصميم مثل هذا الإطار والإشراف عَلَى بنائه بدون أَيَّة تكلفةٍ عَلَى المدرسة.

13.1: لا ترى الرَّئيسة أيَّ اعتراضٍ. يتمُّ نقل الاقتراح للتَّصويت.

13.2: يرغب السَّيِّد إقبال في أَنْ يعرف لماذا يمنح نظام التَّعليم الغربي امتيازًا للنشاط الجسديِّ عَلَى نشاط العقل والرُّوح.

13.3: تتساءل الرَّئيسة إذا كانت للأمر علاقةٌ بالموضوع.

13.4: يطالب السَّيِّد إقبال بتأخير التَّصويت حتَّى يتمكَّن مِنْ تقديم ورقةٍ تفصيليَّةٍ بالحيثيَّات الرئيسة، ويشدِّد عَلَى أَنَّ ابنيه، ماجد ومِلَّة، يحصلان عَلَى كُلِّ التَّدريبات اللَّازمة مِنْ خلال الوقوف عَلَى الرَّأس، الَّذِي يقوِّي عضلاتهما ويرسل الدَّم لتحفيز القشرة الحسِّيَّة في الدِّماغ.

13.5: السَّيِّدة وولف تسأل ما إذا كان السَّيِّد إقبال يتوقَّع أَنْ تخضع ابنتها سوزان لإجراء الوقوف عَلَى الرَّأس.

13.6: إقبال يستنتج أَنَّه، بالنَّظر لأداء سوزان الأكاديميِّ ومشكلات الوزن، فإِنَّ نظام الوقوف عَلَى الرَّأس قَدْ يكون مطلوبًا.

«نعم، يا سيِّد إقبال.»

أزاح صمد أصابع ألسانا بقوَّةٍ عَنِ مقبض المشبك الَّذِي ثبَّتوه في طيَّة صدر بذلته، ووقف بلا أيِّ داعٍ، وهو يفرز عددًا مِنَ الأوراق معه في حافظةٍ، وأخرج الَّتِي أرادها وأمسك بها قبالته.

«نعم، نعم. لدَيَّ اقتراحٌ. لدَيَّ اقتراحٌ.»

سَرَتْ مظاهر التَّذمُّر الحاذقة بين مجموعة الأمناء، متبوعةً بفترةٍ قصيرةٍ مِنَ التَّقلقل، والشَّطب، وتقاطع السِّيقان، وتقليب الحقائب، وتعديل وضع المعاطف عَلَى المقاعد.

«*آخرُ*، يا سيّد إقبال؟»

«أوه نعم، يا سيّدة مينيڤر.»

«لقدْ قدَّمت وحدك اثني عَشرَ اقتراحًا اللَّيلة بالفعل؛ أظنُّ أنَّه مِنَ الممكن لأحدٍ آخرَ أنْ ـــ.»

«أوه، مِنَ المهمِّ جدًّا ألَّا يتمَّ تأجيل ذلك، يا سيِّدة مينيڤر. الآن، إذا أمكنني فقط ـــ.»

«*الآنسة* مينيڤر.»

«عذرًا؟»

«إنَّه فقط... إنَّه *الآنسة* مينيڤر. طوال الأمسية وأنت... وهو، همم.. في الواقع ليس السَّيّدة . إنَّه الآنسة. الآنسة.»

نظر صمد متسائلًا إلَى كاتي مينيڤر، ثُمَّ إلَى أوراقه كما لَوْ ليجد الإجابة هناك، ثُمَّ إلَى الرَّئيسة المحاضَرة مَرَّةً أخرى.

«أنا آسفٌ؟ أنتِ لستِ متزوِّجةً؟»

«مُطلَّقةٌ، في الواقع، نعم، مُطلَّقةٌ. إنَّني أحتفظ بالاسم.»

«فهمتُ. مواساتي لك، يا آنسة مينيڤر. والآن، الموضوع أنَّني ـــ.»

«أنا آسفةٌ،» قالت كاتي، وهي تسحب أصابعها مِنْ شعرها العنيد. «امم، إنَّه ليس آنسةً، أيضًا. أنا آسفة. لقَدْ تزوَّجتُ، كما ترى، وإذن ـــ.»

منحت إلين كوركوران وجانين لانزرانو، الصَّديقتان مِنْ مجموعة الحركة النِّسْويَّة، كاتي ابتسامةً مشجِّعةً. هزَّت إلين رأسها مشيرةً إلَى أنَّ كاتي لا ينبغي أنْ تأسى (*لأنك علَى ما يرام، علَى ما يرام فعلًا*)؛ وتمتمت جانين استمرِّي ومنحَتها إبهامًا للأعلى، خِلسةً.

«أنَّني لا أشعر فعلًا بالارتياح ـ أشعر أنَّ الحالة الزَّوجيَّة لا ينبغي أنْ تكون موضوعًا ـ الأمر ليس أنَّني أريد إحراجك، يا سيِّد إقبال. أنا فقط سأشعر بأنَّني أكثر ـ إذا أنتَ ـ هو آنسةٌ.»

«آنزةٌ؟»

«آنسةٌ.»

«وهَلْ هذا نوع مِنَ الخَلْطِ اللُّغويّ بين كلمتي سيِّدة وآنسةٍ؟» سأل صمد، بفضولٍ صادقٍ وغفلةٍ عَنِ ارتعاش الشَّفة السُّفلى لكاتي مينيڤر. «شيءٌ ما لوصف المرأة الَّتِي فقدت زوجها أَوْ لا تملك احتمالًا في العثور عَلَى آخر؟»

تأوَّهت ألسانا ووضعت رأسها بين يديها.

نظر صمد إِلَى حافظة أوراقه، ووضع خطوطًا تحت شيءٍ ما ثلاث مرَّاتٍ، ثُمَّ التفت إِلَى مجلس الأمناء مرَّةً أخرى.

«مهرجان الحصاد.»

تقلقلٌ، وشطبٌ، وتقاطع سيقانٍ، وتعديلٌ لوضع المعاطف.

«نعم، يا سيِّد إقبال،» قالت كاتي مينيڤر. «ماذا عَنْ مهرجان الحصاد؟»

«هذا بالضَّبط ما أريد معرفته. ما كُلُّ هذا بخصوص مهرجان الحصاد؟ ما هو؟ *ولماذا* هو؟ ولماذا ينبغي أَنْ يحتفل أبنائي به؟»

أومأت النَّاظرة، السَّيِّدة أوينز، امرأةٌ أنيقةٌ بوجهٍ رقيقٍ نصف مختفٍ وراء خصلةٍ شقراء مقصوصةٍ بعنايةٍ، إِلَى كاتي مينيڤر أَنَّها ستتعامل مع المسألة.

«يا سيِّد إقبال، لقَدِ استعرضنا مسألة المهرجانات الدِّينيَّة بدقَّةٍ خلال مراجعات الخريف. أنا عَلَى ثقة مِنْ أَنَّك عَلَى علمٍ بذلك، فالمدرسة تعترف بمجموعةٍ متنوِّعةٍ مِنَ المناسبات الدِّينيَّة والعلمانيَّة؛ مِنْ ضمنها عيد الميلاد، ورمضان، والسَّنة الصينيَّة الجديدة، والدِّيوالي[1]، ويوم الغفران، وهانوكا[2]، وعيد ميلاد هيلا سيلاسي[3]، ووفاة مارتن لوثر كينج[4]. ومهرجان الحصاد جزءٌ مِنَ التزام المدرسة المستمرّ تجاه التَّنوُّع الدِّينيّ، يا سيِّد إقبال.»

1 ـ عيد ديني للهندوس والسيخ يحتفل به في فصل الخريف ومعناه عيد الأنوار. (المترجم).

2 ـ ويسمى أيضًا مهرجان الأنوار، وهو عطلة يهودية مدتها ثمانية أيام. (المترجم).

3 ـ إمبرطور الحبشة الأسبق. (المترجم).

4 ـ زعيم أمريكي من أصول إفريقية، قس وناشط سياسي إنساني، من المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد السود، حصل على جائزةنوبل للسلام، اغتيل في الرابع من أبريل عام 1968، واعتبر من أهم الشخصيات الّتي دعت إلى الحرية وحقوق الإنسان. (المترجم).

«فهمتُ. وهَلْ هناك الكثير مِنَ الوثنيّين، يا سيِّدة أوينز، في مدرسة مانور؟»

«وثنيّ - أخشى أنَّني لَمْ أفهـــ.»

«الأمر بسيطٌ جدًّا. في التَّقويم المسيحيُّ هناك سبع وثلاثون مناسبةً دينيَّةً. سبع وثلاثون. والتَّقويم الإسلاميُّ به تسعٌ. تسعٌ فقط. وهي مضغوطةٌ جدًّا بهذا الطَّفح الَّذِي لا يُصدَّق للمهرجانات المسيحيَّة. الآن، اقتراحي بسيطٌ. إذا حذفنا كُلَّ الاحتفالات الوثنيَّة مِنَ التَّقويم المسيحيِّ فسيكون هناك ما مُتوسِّطه» - توقَّف صمد لينظر في حافظة أوراقه - «عشرون يومًا حرَّةٌ يمكن للأطفال فيها الاحتفال بليلة القدر في ديسمبر، وعيد الفطر في يناير، وعيد الأضحى في أبريل، عَلَى سبيل المثال. وأوَّل احتفالٍ ينبغي إلغاؤه - في رأيي - هو مهرجان الحصاد هذا.»

«ما أخشاه،» قالت السَّيِّدة أوينز، بابتسامةٍ لطيفةٍ، ولكنْ حاسمةٍ، وهي تمازح الجمهور، «أنَّ إزالة الاحتفالات المسيحيَّة مِنْ عَلَى وجه الأرض أمرٌ خارج سلطاتي. وإلَّا كنت لأحذف عشيَّة عيد الميلاد، وأوفِّر عَلَى نفسي الكثير مِنَ العمل في حشو الجوارب.»

تجاهل صمد القهقهة العامَّة الَّتِي جلبها الأمر وواصل. «ولكنَّ هذا هو بيت القصيد. مهرجان الحصاد هذا ليس مهرجانًا مسيحيًّا. أين ذُكر في الكتاب المقدَّس: *أنَّه يجب أَنْ تسرق المواد الغذائيَّة مِنْ خزانة والديك وتحضرها إِلَى مجلس المدرسة، وأنَّك ينبغي أَنْ تجبر أُمَّك عَلَى أَنْ تخبز رغيفًا مِنَ الخبز عَلَى شكل سمكةٍ؟* إنَّها قيمٌ وثنيَّةٌ! *اخبريني أين يذكر أنَّك ينبغي أَنْ تأخذ صندوقًا مِنْ أصابع السَّمك المجمَّدة إِلَى عجوزٍ شمطاء تعيش في ويمبلي؟*»

عبسَت السَّيِّدة أوينز، غير المعتادة عَلَى السُّخرية ما لَمْ تكن عَلَى تنويعات المدرِّسين، مِنْ نوع: هَلْ نعيش في حظيرةٍ؟ *هَلْ أتصوَّر أنَّك تعامل منزلك هكذا!*

«بالتَّأكيد، يا سيِّد إقبال، هذا هو بالضَّبط الجانب الخيِّر في مهرجان الحصاد الَّذِي يجعله يستحقُّ أَنْ يبقى. أَنْ تأخذ الطَّعام إِلَى كبار السن يبدو بالنِّسبة إليَّ أمرًا يستحقُّ الثَّناء، سواء أكان يحظى بدعمٍ دينيٍّ أَمْ لا. وبالتَّأكيد لا يوجد في الكتاب المقدَّس ما يقترح أنَّنا يجب أَنْ نجلس لوجبة الدِّيك الرُّوميِّ في يوم عيد الميلاد، ولكنَّ القليل مِنَ النَّاس مَنْ سيندِّدون بذلك عَلَى هذا الأساس. ولكَيْ أكون أمينةً، يا سيِّد إقبال، فنحن نحبُّ أَنْ نفكِّر في تلك الأمور *عَلَى أساسٍ مجتمعيٍّ أكثر منه دينيًّا عَلَى هذا النَّحو.*»

«إله المرء مجتمعه!» قال صمد، رافعًا صوته.

«نعم، امممم... حسنًا، هَلْ لنا أَنْ نُصوِّت عَلَى الاقتراح؟»

بحثت السَّيِّدة أوينز بعصبيَّةٍ عَنِ الأيادي في أنحاء الغرفة. «هَلْ يدعم أيُّ شخصٍ ذلك؟»

ضغط صمد يد ألسانا. فركَلَته في الكاحل. سحق إصبع قدمها. فقرصَته في خاصرته. لوى إصبعها للخلف فرفعَت ذراعها اليُمنى عَلَى مضضٍ، بينما ضربَته بكوعها الأيسر خفيةً بين ساقيه.

«شكرًا لك، يا سيِّدة إقبال،» قالَت السَّيِّدة أوينز، بينما نظرت جانيس وإلين نحوها بابتسامةٍ مشفقةٍ وحزينةٍ خصَّصَتاها للنِّساء المسلمات المقهورات.

«كُلُّ هؤلاء الَّذِين يؤيِّدون الاقتراح بحذف مهرجان الحصاد مِنْ تقويم المدرسة ـــ.»

«على أساسٍ مِنْ جذوره الوثنيَّة.»

«على أساس دلالاتٍ وثنيَّةٍ... معيَّنةٍ. ارفعوا أيديكم.»

تفحَّصت السَّيِّدة أوينز الغرفة. ارتفعَت يدٌ واحدةٌ لمدرِّسة الموسيقى ذات الرَّأس الجميل حمراءِ الشَّعرِ بوبي بيرت جونز، الَّتِي خشخشَت أساورها العديدة تحت معصمها. ثُمَّ رفع آل تشالفين: ماركوس وجويس، زوجان مِنَ الهيبيِّين يرتديان أزياءً هنديَّةً زائفةً، يديهما في تحدٍّ. ثُمَّ نظر صمد بحدَّةٍ إِلَى كلارا وآرشي اللَّذَين جلسا عَلَى استحياءٍ في الجانب الآخر مِنَ القاعة، وارتفعَت يدان أخريان في خجلٍ فوق الجمهور.

«وكُلُّ هؤلاء الَّذِين يعارضون؟»

رفع السِّتَّة والثَّلاثون الباقون أيديهم في الهواء.

«الاقتراح مرفوضٌ.»

«أنا عَلَى ثقةٍ أَنَّ العهود الشمسيَّة لساحرات مدرسة مانور وعفاريتها ستكون سعيدةً بهذا القرار،» قال صمد، وهو يستقرُّ في مقعده.

بعد الاجتماع، وبينما صمد خارجٌ مِنْ دورة المياه، بعد أَنْ أراح نفسه مِنْ بعض المتاعب في المبولة الصَّغيرة، اقتربت مدرِّسة الموسيقى الجميلة حمراءُ الشَّعر بوبي بيرت جونز منه في الممرِّ.

«سيِّد إقبال.»

«همم؟»

مدَّت ذراعها الطَّويلة الشَّاحبة بنمشٍ خفيفٍ. «بوبي بيرت جونز. سآخذ ماجد ومِلَّة في الأوركسترا والغناء.»

استبدل صمد بيده اليمنى المعطَّلة الَّتِي قصَدَتْ أَنْ تصافحها يده اليسرى الَّتِي تعمل.

«أوه! أنا آسفةٌ.»

«لا، لا. إنَّها لا تؤلم. هي فقط لا تعمل.»

«أوه. جيِّد! أقصد، أنا سعيدةٌ أنَّه ليس هناك، أنت تعرف، *ألمٌ*.»

كانت ما يمكنك أَنْ تدعوه جميلةً بلا جهدٍ. في حوالي الثَّامنة والعشرين، وربَّما الثَّانية والثَّلاثين عَلَى أقصى تقديرٍ. نحيلةٌ، ولكنَّها ليست يابسة الجسد عَلَى الإطلاق، بقفصٍ صدريٍّ منحنٍ مثل طفلٍ؛ وثديين طويلين مسطَّحين مرفوعين من أطرافهما؛ وقميصٍ أبيضَ مفتوحِ الياقةِ، وبنطلون ليفاي مهترئ وحذاءٍ رياضيٍّ رماديٍّ، والكثير مِنَ الشَّعْر الأحمرِ الدَّاكن معقوصًا في هيئة ذيل حصان ليِّنةٍ. مع زغبٍ خفيفٍ في العنق. منمَّشةٌ. بابتسامةٍ لطيفةٍ جدًّا وحمقاءَ بعض الشَّيء، تلك الَّتِي تُظهرها لصمد الآن.

«هَلْ هناك شيءٌ ترغبين في مناقشته بخصوص التَّوأم؟ مشكلةٌ؟»

«أوه لا، لا... حسنًا، أنتَ تعرف، هما بخيرٍ. لدى ماجد بعض الصُّعوبات، ولكنْ مع علاماته الجيِّدة أنا واثقةٌ أَنَّ عزفه عَلَى الفلوت لَنْ يكون عَلَى قائمته طويلًا، ومِلَّة لديه الذَّوق الحقيقيُّ للسَّاكس. لا، أردتُ فقط أَنْ أقول إِنَّني أشعر أَنَّكَ قَدَّمت نقطةً جيِّدةً، أنتَ تعرف»، قالت، مشيرةً بإبهامها تجاه القاعة مِنْ فوق كتفها. «في الاجتماع. لقَدْ بدا مهرجان الحصاد سخيفًا دائمًا بالنِّسبة إِلَيَّ. أعني، إذا أردتَ أَنْ تساعد كبار السِّنِّ، تعرف، حسنًا، صوِّتْ لحكومةٍ مختلفةٍ، لا أَنْ ترسل لهم علبًا مِنَ الاسباجيتِّي.» ابتسَمَتْ له مَرَّةً أُخرى، ودسَّت خصلة شعرٍ وراء أذنها.

«إنَّه لعارٌ عظيمٌ أَنَّ الكثير مِنَ النَّاس لا يوافقون،» قال صمد، وهو يشعر بالرِّضا عَلَى نحوٍ ما مع الابتسامة الثَّانية ويشفط بطنه البارز ابن السَّبعة والخمسين عامًا. «ظهرنا كأقليَّةٍ إِلَى حدٍّ كبيرٍ هذه اللَّيلة.»

«حسنًا، لقَدْ كان آل تشالفين في صفِّك - هما شخصان *لطيفان - مثقَّفان*،» همسَت، كما لَوْ أنَّه أحد الأمراض الغريبة مِنَ المناطق الاستوائيَّة. «هو عالمٌ وهي شيءٌ ما في البستنة - ولكنَّهما واقعيَّان جدًّا تجاه الأمر. تحدَّثتُ إليهما وهما يظنَّان أنَّك يجب أنْ تناضل مِنْ أجل ذلك. تعرف، في الواقع، *أتصوَّر* أنَّنا ربَّما نستطيع أنْ نصل إلَى نقطةٍ ما خلال الشُّهور القليلة القادمة ونعمل عَلَى اقتراحٍ ثانٍ لاجتماع سبتمبر - تعرف، أقرب إلَى الوقت الفعليِّ، ونجعله أكثر تماسكًا، رُبَّما، ونطبع منشوراتٍ، وما إلَى ذلك. لأنَّه كما تعرف، أنا شديدة الاهتمام بالثَّقافة الهنديَّة. إنَّني فقط أعتقد أنَّ تلك المهرجانات الَّتي أشرتَ إليها ستكون... ملوَّنةً... أكثر بكثيرٍ، ويمكننا ربطها بالأعمال الفنيَّة، والموسيقى. مِنَ الممكن فعلًا أَنْ يكون الأمر *مثيرًا*،» قالت بوبي بيرت جونز، بحماسٍ حقيقيٍّ. «وأظنُّ أنَّ ذلك سيكون جيِّدًا فعلًا، تعرف، للأطفال.»

لا يمكن، يعرف صمد، أَنْ يكون لدى تلك المرأة أَيُّ انجذابٍ جنسيٍّ تجاهه عَلَى الإطلاق. ولكنَّه ظَلَّ يتطلَّع حوله بحثًا عَنْ ألسانا، وظلَّ يصلصل بمفاتيح سيَّارته في جيبه في توتُّرٍ، وظلَّ يشعر بشيءٍ باردٍ يحطُّ عَلَى قلبه وعرف أَنَّه خوفه مِنْ ربِّه.

«لستُ مِنَ الهند، *في الواقع*، تعرفين،» قال صمد، بصبرٍ غير محدودٍ، أكثر كثيرًا مما كان لديه في أَيِّ وقتٍ توجَّب عليه فيه أَنْ يكرِّر تلك الجملة منذ انتقل إلَى إنجلترا.

بدَتْ بوبي بيرت جونز مفاجأةً ومحبطةً. «لستَ مِنَ الهند؟»

«لا. أنا مِنْ بنجلاديش.»

«بنجلاديش....»

«باكستان سابقًا. وقبل ذلك، البنجال.»

«أوه، صحيحٌ. نفس الطَّبيعة، إذن.»

« هو الملعب ذاته بالكاد، نعم.»

مرَّت لحظةٍ صعبةٍ مِنَ الصَّمت، رأى صمد خلالها بشكلٍ واضحٍ أَنَّه أرادها أكثر مِنْ أَيِّ امرأةٍ قابلها في العشر سنواتٍ الماضية. هكذا فقط. رغبةٌ لَمْ تكلِّف نفسها عناء مراقبة الطَّريق، والتَّحقُّق ما إذا كان الجيران هناك - رغبةٌ ركلَت الباب واستراحَت بدون أَيِّ تكلُّفٍ. وشعر بانزعاجٍ. ثُمَّ أدرك أَنَّ وجهه ينتقل مِنَ الإثارة إلَى الرُّعب في

محاكاةٍ ساخرةٍ لما يدور في عقله، وهو يتخيَّل بوبي بيرت جونز وكُلَّ العواقب الماديَّة والميتافيزيقيَّة الَّتي أوحَت بها. ينبغي أنْ يتحدَّث قبل أنْ يسوء الأمر.

«حسنًا... همم، إنَّها فكرةٌ جيِّدةٌ، أنْ نعيد تقديم الاقتراح،» قال عَلَى غير رغبته، لأنَّ شيئًا أكثر وحشيَّةً مِنْ إرادته يدير المحادثة الآن. «إذا أمكنكِ توفير الوقت.»

«حسنًا، يمكننا أنْ نتحدَّث حول هذا. سأهاتفك بخصوص الأمر خلال أسابيع قليلةٍ. يمكننا أنْ نلتقي بعد الأوركسترا، رُبَّما؟»

«سيكون ذلك... جيِّدًا.»

«عظيمٌ! متَّفقان، إذن. تعرف، أنَّ ابنيك رائعان فعلًا - غير اعتياديين جدًّا. كنت أقول ذلك لآل تشالفين، ووضع ماركوس إصبعه عَلَى المسألة: قال إنَّ الأطفال الهنود، إذا لَمْ تمانع في أنْ أقول ذلك، في العادة أكثر ــــ.»

«أكثر؟»

«هدوءًا. يتصرَّفون بأسلوبٍ جميلٍ، ولكنه، لا أدري، أكثر *انهزاميَّةً*.»

«جفل صمد في داخله، وهو يتخيَّل ألسانا تستمع إِلَى ذلك.»

«أمَّا ماجد ومِلَّة فإنَّهما... صاخبان كثيرًا.»

حاول صمد أنْ يبتسم.

«ماجد مثيرٌ جدًّا للإعجاب ذهنيًّا بالنِّسبة إِلَى عمر تسع سنواتٍ - الجميع يقولون ذلك. أقصد إنَّه رائعٌ حقًّا. يجب أنْ تكون فخورًا. إنَّه يبدو مثل رجلٍ ناضجٍ صغيرٍ. وحتَّى ملابسه. لا أظن أنَّني عرفتُ طفلًا في التَّاسعة بهذه *الصَّرامة* في ملابسه قط.»

كان كلا التوأمين محدَّدَين دائمًا في اختيار ملابسهما، ولكنْ بينما ظلَّ مِلَّة يزعج ألسانا في شراء ماركات نايكي ذات الشَّرائط الحمراءِ، وأوشكوش بي جوش[1]، والصِّديريَّات الغريبة برسومها في الدَّاخل والخارج، أمكن رؤية ماجد، أيًّا كان الطَّقس، في سترةٍ رماديَّةٍ وقميصٍ رماديٍّ، وربطة عنقٍ سوداء، مع حذائه الأسودِ اللَّامع ونظَّارة الخدمات الصِّحيَّة الوطنيَّة فوق أنفه، مثل قزم المكتبة. قَدْ تقول ألسانا: «أيُّها الرَّجل

1 - علامة تجارية (ماركة) لملابس الأطفال. (المترجم).

الصَّغير، ماذا عَنْ واحدةٍ زرقاءَ، لخاطر أَمَّا، همم؟» وهي تدفعه نحو قسم الألوان الأوليَّة في ماذركير. «واحدةً ـ فقط ـ زرقاءَ. ستكون جميلةً جدًّا مع عيليك. لأجل أَمَّا، يا ماجد. كيف يمكن أَلَّا تهتم بالأزرقِ؟ إنَّه لون السَّماء!»

«لا، يا أَمَّا. السَّماء ليست زرقاءَ. هناك ـ فقط ـ ضوءٌ أبيضُ. الضَّوءُ الأبيضُ يضمُّ كُلَّ ألوان قوس قزح بداخله، وعندما ينتشر خلال الكمِّ الهائل مِنَ الجزيئات في السَّماء، فإنَّ الموجاتِ القصيرةِ الزَّرقاءِ والبنفسجيَّةِ هي الَّتِي ترينها. السَّماء ليست زرقاءَ فعلًا. إنَّها فقط تبدو كذلك. وذلك يدعى تشتُّت رايلي.»

طفلٌ غريبٌ بذكاءٍ باردٍ.

«يجب أَنْ تكون فخورًا جدًّا،» كرَّرَت بوبي بابتسامةٍ كبيرةٍ. «كنتُ لأكون كذلك.»

«للأسف،» قال صمد متنهِّدًا، مشتَّتًا عَنِ انتصابه بالفكرة الكئيبة عَنِ ابنه الثَّاني (بفرق دقيقتَين)، «مِلَّة لا يصلح لشيءٍ.»

بدَتْ بوبي محرجةً لذلك. «أوه، لا! لا، لَمْ أقصد ذلك بالمرَّة... أقصد، أظنُّ أَنَّه ربَّما متهيِّبٌ من ماجد عَلَى تلك الطَّريقة بعض الشَّيء، ولكنَّه يملك شخصيَّةً مميَّزةً! إنَّه فقط ليس... أكاديميًّا جدًّا. ولكنَّ *الجميع يحبُّونه فعلًا* ـ يا له مِنْ ولدٍ جميلٍ أيضًا. بالتَّأكيد،» قالت، وهي تمنحه دفعةً وخبطةً في الكتف، «جيناتٌ قويَّةٌ.»

جيناتٌ قويَّةٌ؟ ماذا تعني، *جيناتٌ قويَّةٌ*؟

«مرحبًا!» قال آرشي، الَّذِي مضى خلفهما، وهو يمنح صمد خبطةً قويَّةً عَلَى الظَّهر. «مرحبًا!» قال مرَّةً ثانيةً، وهو يصافح يد بوبي، بالطَّريقة الأرستقراطيَّة الزَّائفة الَّتِي يستخدمها عندما يواجه أناسًا متعلِّمين. «آرشي جونز. والد أيري، ثمن خطاياي.»

«بوبي بيرت جونز. سآخذ أيري إِلَى ـــ.»

«الموسيقى، نعم، أعرف. إنَّها تتحدَّث عنك باستمرارٍ. محبطةٌ بعض الشَّيء لأَنَّك تجاوزتها كعازفة كمانٍ أُولى، رغم ذلك... رُبَّما العام القادم، هه؟ إذن!» قال آرشي، وهو ينظر مِنْ بوبي إِلَى صمد، الَّذِي وقف بعيدًا عنهما بنظرةٍ غريبةٍ، فكَّر آرشي، نظرةٌ لعينةٌ غريبةٌ عَلَى وجهه. «لقَدِ التقيتِ إكـ ـ بول الشَّهير إذن! كنتَ مُبالِغًا بعض الشَّيء في ذلك الاجتماع، يا صمد، هه؟ أَلَمْ يكن كذلك، هه؟»

«أوه، لا أعرف،» قالت بوبي في عذوبةٍ. «أعتقد أَنَّ السَّيِّد إقبال قدَّم بعض النِّقاط الجيِّدة، في الواقع. لقَدْ أعجِبتُ بالكثير مما قاله حقيقةً. أُحبُّ أَنْ أكون عَلَى درايةٍ بالكثير جدًّا مِنَ الموضوعات. للأسف، فأنا محدودة المهارات نسبيًّا. هَلْ أنت، لا أعرف - *أستاذٌ* أَوْ شيءٌ مِنْ هذا القبيل - يا سيِّد إقبال؟»

«لا، لا،» قال صمد، غاضبًا مِنْ عدم قدرته عَلَى الكذب بسبب آرشي، وهو يجد كلمة «نادلٍ» واقفةً في حلقه. «لا، الحقيقة أَنَّنِي أعمل في مطعمٍ. لقَدْ قمتُ ببعض الدِّراسات في أَيَّام الشَّباب، ولكن جاءت الحرب و....» هزَّ صمد كتفيه كنهايةٍ للجملة، وهو يشاهد بقلقٍ وجه بوبي بيرت جونز المنمَّش يلتوي إِلَى علامة استفهامٍ كبيرةٍ حمراءَ.

«حربٌ؟» قالت، كما لَوْ أنَّه قال لاسلكي أَوْ بيانولا أَوْ جرامافون. «جزر فوكلاند؟»

«لا،» قال صمد بشكلٍ قاطعٍ. «العالميَّة الثَّانية.»

«أوه، يا سيِّد إقبال، لَمْ أكن لأخمِّن أبدًا. لا بُدَّ أَنَّك كنتَ صغيرًا جدًّا.»

«كانت هناك دبَّاباتٌ أكبر سنًّا منَّا، يا حبيبتي،» قال آرشي مع ابتسامةٍ.

«حسنًا، يا سيِّد إقبال، تلك مفاجأةٌ! ولكنَّهم يقولون إِنَّ البشرة الدَّاكنة أقلُّ تجاعيد، ألا يفعلون؟»

«هَلْ يفعلون؟» قال صمد، وهو يجبر نفسه عَلَى تخيُّل جلدها الورديِّ المشدود، ملتفًّا في طبقةٍ إثر طبقةٍ مِنَ التَّجاعيد. «ظننتُهم الأَطفال مَنْ يحتفظون بالرَّجل شابًّا.»

ضحكَت بوبي. «ذلك أيضًا، أتصوَّر. نعم!» قالت، وقَدْ بدَت طاهرةً وخجولًا وواثقةً مِنْ نفسها، في الوقت نفسه. «تبدو جيدًّا جدًّا في ذلك. أنا واثقةٌ أَنَّه جرت مقارنتك بعمر الشَّريف مِنْ قبل، يا سيِّد إقبال.»

«لا، لا، لا،» قال صمد، متوهِّجًا بالبهجة. «المقارنة الوحيدة تكمن في عشقنا للبريدج. لا، لا، لا... وهو صمد،» أضاف. «ناديني صمد، رجاءً.»

«ستنادينه صمد في وقتٍ آخر، يا آنسةٌ،» قال آرشي، الَّذِي استمرَّ في مُناداة المعلِّمات بآنسةٍ. «لأَنَّنا يجب أَنْ نذهب. زوجتانا تنتظران في الممرِّ للعشاء، عَلَى ما يبدو.»

«حسنًا، لقَدْ كان لطيفًا الحديث إليكما،» قالت بوبي، وهي تبلغ اليد الخطأ مرَّةً ثانيةً، ويحمرُّ وجهها بينما يقابلها بيده اليسرى.

«نعم، إلَى اللِّقاء.»

«هيَّا، هيَّا،» قال آرشي، وهو يقود صمد خارج الباب وعلى ممرِّ السَّيَّارات المنحدر حتَّى البوَّابة الأماميَّة. «يا إلهي الحبيب، انعم عَلَى هذا الشَّخص، كما أنعمت عَلَى كلب الجزَّار! بيي ـ يووو. لطيفٌ، لطيفٌ جدًّا. يا عزيزي، كنتَ تبذل محاولةً... وما الَّذِي كنتَ بصدده ـ حبٌ *متبادلٌ للبريدج*. لقَدْ عرفتكَ لعقودٍ ولَمْ أركَ تلعب البريدج مطلقًا. إنَّ بوكر الكروت الخمسة لعبتكَ المفضَّلة.»

«اخرس، يا آرشيبالد.»

«لا، لا، إحقاقًا للحقِّ، لقَدْ كان أداؤك جيِّدًا جدًّا. ولكنَّه لا يشبهك عَلَى الرَّغم مِنْ ذلك، يا صمد ـ كونك وجدتَ الله وما إلَى ذلك ـ لا يشبهك أَنْ تنشغل بالانجذاب إلَى الجسد.»

نفض صمد يد آرشي مِنْ حيث كانت تستريح عَلَى كتفه. «لماذا *أنتَ* مُبتذلٌ جدًّا بشكلٍ لا يمكن إصلاحه؟»

«لَمْ أكن *أنا* مَنْ....»

ولكنَّ صمد لَمْ يكن ينصت، كان يتلو في سرِّه بالفعل، مكرِّرًا عبارتين إنجليزيَّتين حاول جاهدًا أَنْ يؤمن بهما، كلمتين تعلَّمهما خلال السَّنوات العشر الماضية في إنجلترا، كلمتين تمنَّى أَنْ تنقذاه مِنَ السُّخونة البغيضة في داخل بنطلونه:

كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ [1]. كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ. كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ.

لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك. لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك. لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك.

ولكن دعنا نراجع الأمر قليلًا.

1 ـ كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ

الجنس، غواية الجنس عَلَى الأقل، ظلَّت مشكلةً لفترةٍ طويلةٍ. عندما بدأ الخوف مِنَ الله يتسلَّل في البدء إلَى عظام صمد، حوالي عام 1976، بعد زواجه مباشرةً مِنْ ألسانا صغيرة الكفَّين، ضعيفة المعصمين، فاقدة الاهتمام، استشار عالمًا مُسنًّا في المسجد في كرويدون إذا كان مسموحًا للرَّجُل أَنْ... باستخدام يده عَلَى...

1 ـ من رسالة بولس الرسول إلى تيطس 1:15: كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ، وَأَمَّا لِلنَّجِسِينَ وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ شَيْءٌ طَاهِرًا، بَلْ قَدْ تَنَجَّسَ ذِهْنُهُمْ أَيْضًا وَضَمِيرُهُمْ. (المترجم).

وقبل أَنْ يبلغ منتصف الطَّريق خلال محاولته في الإيماء، ناوله العالِم المسنُّ منشورًا مِنْ كومةٍ عَلَى الطَّاولة، ووضع إصبعه المجعد بحزمٍ أسفل النُّقطة رقم ثلاثةٍ.

هناك تسعة أفعالٍ تُبطل الصَّوم:

(1) الأكل والشُّرب.

(2) ممارسة الجنس.

(3) العادة السِّرِّيَّة (الاستمناء)، الَّتِي تعني إيذاء النَّفس وصولًا إِلَى القذف.

(4) أَنْ تنسب الأشياء الزَّائفة إِلَى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أَوْ إِلَى نبيِّه أَوْ إِلَى خلفاء الرَّسول الكريم.

(5) ابتلاع الغبار الكثيف.

(6) غمر رأس المرء كاملًا في الماء.

(7) البقاء في الجَنَابة أَوِ الحيض أَوِ النِّفاس حتَّى أذان صلاة الفجر.

(8) الحقنة الشَّرجية.

(9) القيء.

«وماذا، أيُّها العالِم،» استفسر صمد، خائفًا: «إذا لَمْ يكن صائمًا؟»

بدا العالم المسنُّ رزينًا. «لقَدْ سُئل ابن عمر عَنْ ذلك، وأجاب، بحسب ما ورد: *وما هو إِلَّا أَنْ يعرك أحدكم ـــ حتَّى ينزل الماء. إِنَّما هو عصبٌ تدلِّكه*»[1].

شعر صمد بالرَّاحة تجاه ذلك، غير أَنَّ العالم واصل: «عمومًا، فقد أجاب ابنُ عبَّاسٍ في رواية أخرى: أَنَّه محرَّم فذاك ـــ نفسه.»[2]

«ولكنْ ما هو الاعتقاد الصَّحيح؟ أهو حلالٌ أَمْ حرامٌ؟ بعضهم يقولون....» بدأ صمد يشعر بالخجل: «*كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ*. إذا كان المرء صادقًا وصارمًا مع نفسه، فإنَّه لَنْ يضرَّ أحدًا سواه، ولا يُسيء....»

1 ـ أوردت المؤلفة القولين لابن عمر، بينما المذكور في المرويات أن القول الأول «وما هو إلا...» لابن عباس ووردت بلفظ صريح، والثاني «إنما هو عصب...» لابن عمر. (المترجم).

2 ـ وردت بلفظ صريح في رواية حكيم بن عباد بن حنيف الأنْصَارِيّ عن ابن عباس. (المترجم).

ولكنَّ العالم ضحك عَلَى هذا. «ونحن نعرف مَنْ هؤلاء. يرحم الله هؤلاء الإنجيليِّين! يا صمد، عندما ينتصب عضو الرَّجل، يذهب ثلثا عقله،» قال العالِم، وهو يهزُّ رأسه. «وثلث دينه. هناك حديثٌ عن النبي محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام! ـ يقول: *اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي.*»[1]

«ولكنْ مِنَ المؤكَّد... مِنَ المؤكَّد أنَّه إذا كان الرَّجل نفسه طاهرًا، فعندها ــــ.»

«أَرِني الرَّجل الطَّاهر، يا صمد! أَرِني الفعل الطَّاهر! أوه، يا صمد مياه... إنَّ نصيحتي لك أَنْ تبقى بعيدًا عَنْ يمناك.»

بالطَّبع، كونه صمد، فقَدْ وظَّف صمد أفضل ما في براجماتيَّته الغربيَّة، وعاد إِلَى البيت وتصدَّى للمهمَّة بقوَّةٍ بيده العاملة اليُسرى، وهو يردِّد: *كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ، كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ*، حتَّى وصلت نشوته أخيرًا، لزجةً، وحزينةً، ومُحبَطة. واستمرَّ ذلك الطَّقس لحوالي خمس سنواتٍ، في غرفة النَّوم الصَّغيرة أعلى المنزل، حيث ينام منفردًا (حتَّى لا يوقظ ألسانا) بعد أَنْ يتسلَّل عائدًا مِنَ المطعم في الثَّالثة مِنْ كُلِّ صباحٍ؛ في سرِّيَّةٍ وصمتٍ، كونه، صدِّق أَوْ لا تصدِّق، يتعذَّب مِنْ ذلك، مِنَ استلاله خلسةً، وعصره، وإراقته، مِنْ خشية أَنَّه لَمْ يكنْ طاهرًا، أَنَّ أفعاله لَمْ تكنْ طاهرةً، أَنَّه لَنْ يكون طاهرًا، عَلَى الإطلاق، وبدا أَنَّ ربَّه يرسل له دائمًا إشاراتٍ صغيرةً، وتحذيراتٍ صغيرةً، ولعناتٍ صغيرةً (التهاب مجرى البول، 1976، وحلم الخصاء، 1978، والقذارة، وملاءةً ملوَّثة تَمَّ اكتشافها ولكنَّ عمَّة ألسانا الكُبرى لَمْ تفهم الأمر، 1979) حتَّى وصل الأمر إِلَى النُّقطة الحرجة في عام 1980، وسمع صمد هديرًا مِنَ الله في أذنه مثل الأمواج في صدفة محارةٍ، وبدا الأمر أَنَّه وقت إبرام اتِّفاق.

2 ـ لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك

الاتفاق هو التَّالي: في 1 يناير، 1980، مثل مُتَّبع الحميَّة الغذائيَّة في العام الجديد، الَّذِي يتخلَّى عَنِ الجبن بشرط تناول الشيكولاتة، تخلَّى صمد عَنِ العادة السِّرِّيَّة لكي يتمكَّن مِنَ الشُّرب. كان ذلك اتِّفاقًا، عرض عملٍ، ذلك الَّذِي أبرمه مع الرَّب: صمد الطَّرف

1 ـ أبو داود، أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، والترمذي، كتاب الدعوات، باب حدثنا أحمد بن منيع، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر السمع والبصر، وفي السنن الكبرى له، ومسند أحمد، وغيرهم. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وصحيح النسائي. (المترجم).

الأوّل، والرّب الشّريك النّائم. وتمتّع صمد منذ ذلك اليوم بسلامٍ روحيّ نسبيّ. والعديد مِنْ أقداح جينيس ذات الرّغوة مع آرشيبالد جونز؛ بَلْ لقَدْ طوّر عادة أَنْ يأخذ آخر جرعةٍ وهو ينظر إِلَى السّماء مثل مسيحيّ، يفكّر: إِنّني بالأساس رجلٌ طيّب. أنا لا أصفع السّلامي. امنحني فرصةً. وأنا أحتسي الشّراب الغريب. لا يمكن *قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك*.

ولكنْ بالطّبع لقَدْ كان في ضلالةٍ بسبب التّسويات والصّفقات والاتّفاقات والضّعف، ولا يمكن *قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك*. يدعم الفريق الخطأ. لو كان ما يريده هو التّعاطف والتّجاوز، إذا أراد التّفسير اللّيبرالي، أَوْ إذا أراد أَنْ يُمنح فرصةً. لَمْ يكنْ ربُّه هذا السّاحر الأخرق أبيض اللّحية لدى الكنائس الأنجليكانيّة[1]، أَوْ الميثوديّة[2]، أَوْ الكاثوليكيّة[3]. لَمْ يكنْ ربُّه في أعمال *إعطاء النّاس فرصةً*. في اللّحظة الّتي وضع صمد عينيه عندها عَلَى مدرّسة الموسيقى الجميلة حمراءِ الشّعر بوبي بيرت جونز في يوليو مِنْ 1984، عرف حقيقة الأمر في النّهاية. عرف أَنَّ ربّه ينتقم منه، عرف أَنَّ اللُّعبة انتهت، ورأى أَنَّ اتفاقه كان لاغيًا، وأَنَّ سانتا كلوز لَمْ يكن، في النّهاية، موجودًا، أَنَّ الإغواء مقصودٌ، وأَنّه أُلقي في طريقه بلا رحمةٍ. وباختصارٍ، فكُلُّ الاتّفاقات لاغيةٌ.

1 ـ مصطلح الأنجليكان و(الكنيسة الأنجليكانية) (من القرون الوسطى اللاتينية Ecclesia Anglicana أي: الكنيسة الإنجليزية) يستخدم لوصف الأفراد والمؤسسات والكنائس، فضلًا عن التقاليد الدينية والطقسية والمفاهيم المتقدمة، التي أنشئت في كنيسة إنجلترا الأنجليكانية والكنائس الأنجليكانية المستمرة المنتسبة إلى مجموعة من الكنائس المستقلة التي انفصلت عن الاتحاد الأنجليكاني نتيجة للاختلافات المذهبية والطقسية. في بعض أجزاء العالم، تعرف الأنجليكانية بالأسقفية. الطائفة الأنجليكانية هي واحدة من أكبر الطوائف البروتستانتية. وتعتبر الكنيسة الأنجليكانية نفسها جزءًا من الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية. كما يعتبر البعض منهم كينستهم كاثوليكية وتم إصلاحها، فهي تمثل عندهم الكاثوليكية غير البابوية. (المترجم).

2 ـ الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقًا من خلال الأنشطة التبشيرية في المستعمرات البريطانية حتَّى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد، واعتمدت فيما يتعلق بمسألة الخلاص على اللاهوت الأرميني (نسبة إلى جاكوب أرمينيوس) القائل بإمكانية خلاص كُلّ إنسان، مناقضة بذلك عقيدة الاختيار المسبق للكالفينية. تنسب الحركة الميثودية نفسها إلى الصحوة الإنجيلية في بريطانيا في القرن الـ18. (المترجم).

3 ـ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (باللاتينية: Ecclesia Catholica Romana) هي أكبر الكنائس المسيحية، رأسها هو البابا أسقف روما وبحسب تقليدها الكنسي خليفة بطرس تلميذ يسوع المسيح. لقبها الرسمي هو الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية. مثلت هذه الكنيسة القوة الروحية الأساسية في تاريخ الحضارة الغربية، إلى جانب الأرثوذكسية الشرقية والبروتستانتية. تتبعها في الشرق كنائس عديدة في شراكة كاملة معها تعرف بالكنائس الكاثوليكية الشرقية. (المترجم).

استؤنفت ممارسة العادة السِّرِّيَّة بشكلٍ جدِّيٍّ. وكان هذان الشَّهران، بين رؤية مُدرِّسة الموسيقى الجميلة حمراءِ الشَّعر لأَوَّل مرَّة ورؤيتها ثانيةً، أطول ستةٍ وخمسين يومًا، وأكثرها لزوجةً ورائحةً في حياة صمد. أينما كان، وأيًّا كان ما يفعله، يجدُ نَفْسَهُ مُداهمًا فجأةً بنوعٍ مِنَ التَّعلُّق الشُّعوريّ بتلك المرأة: يسمع لون شعرها في المسجد، ويشمُّ ملمس يدها في قطار الأنفاق، ويتذوَّق ابتسامتها بينما يمشي في براءةٍ عبر الشَّارع في طريقه إِلَى العمل؛ وقاده ذلك إِلَى معرفة كُلِّ حمَّام عامٍّ في لندن، وقاده إِلَى نوعٍ مِنْ ممارسة العادة السِّرِّيَّة الَّتِي كان فتًّى في الخامسة عشرةَ مِنْ عمره يعيش في شتلاند رُبَّما لَيجدها مفرطةً. عزاؤه الوحيد أَنَّه، مثل روزفلت[1]، أبرم صفقةً جديدةً: سوف يفوز ولكنَّه لَنْ يأكل. وسعى بطريقةٍ ما لأَنْ يطهِّر نفسه مِنْ مشاهد وروائح بوبي بيرت جونز، ومِنْ خطيئة الاستمناء، وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه لَمْ يكنْ موسم الصِّيام، وأَنَّها أطول النَّهارات في العام، ظَلَّ كُلُّ شيءٍ ممنوعًا مِنْ عبور شفتيه ما بين شروق الشَّمس وغروبها، ولا حتَّى لعابه، بفضل المبصقة الصِّينيَّة. ولأَنَّه لَمْ يكن هناك أَيُّ طعامٍ يدخل مِنْ أحد نهاياته، فما خرج مِنَ النهاية الأخرى كان نحيلًا وضئيلًا وهزيلًا وشفَّافًا، حتَّى أَنَّ صمد كاد يقنع نفسه أَنَّ الخطيئةَ تتخفَّفُ، وأنَّه سيتمكَّن في يومٍ رائعٍ مِنْ تدليك «جاك الأعور» بالقوَّة الَّتِي يرغبها، ولا يخرج منه سوى الهواء.

ولكن عَلَى الرَّغم مِنْ شدَّة الجوع - جسديًّا ونفسيًّا وجنسيًّا - ظَلَّ صمد يؤدِّي ساعاته الاثنتي عشرة يوميًّا في المطعم. وبصراحةٍ، لقَدْ وجد أَنَّ المطعم المكان الوحيد تقريبًا الَّذِي يحتمل البقاء فيه. لَمْ يتحمَّلْ رؤية أسرته، ولا تحمَّل الذِّهاب إِلَى أوكونيل، ولا تحمَّل أَنْ يمنح آرشي متعة رؤيته عَلَى تلك الحالة. ومع منتصف أغسطس زاد ساعات عمله إِلَى أربع عشرة ساعةً في اليوم: منحَته طقوسه - في حمل سلَّته مِنَ المناديل الورديَّة عَلَى شكل بجعةٍ، ومراجعة زهور القرنفل البلاستيكيَّة الَّتِي وضعها شيفا، أَوْ تصحيح ترتيب السَّكاكين والشُّوَك، وتلميع الزُّجاج، وإزالة آثار الأصابع عَنْ أطباق

1 - فرانكلين ديلانو روزفلت (30 يناير 1882 - 12 أبريل 1945): رجل دولة وزعيم سياسي أمريكي شغل منصب الرئيس الثاني والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1933 حتى وفاته في عام 1945. وفاز في أربعة انتخابات رئاسية متتالية وبرز كشخصية مركزية في الأحداث العالمية خلال منتصف القرن العشرين. قاد حكومة الولايات المتحدة خلال الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية. اعتبر قائدا مهيمنا على الحزب، وقام ببناء تحالف الصفقة الجديدة، وأعاد تنظيم السياسة الأمريكية في نظام الحزب الخامس، وأعاد تحديد الليبرالية الأمريكية خلال الثلث الأوسط من القرن العشرين. وغالبا ما يصنفه الباحثون كأحد أكبر ثلاثة رؤساء أمريكيين، إلى جانب جورج واشنطن وأبراهام لنكولن. (المترجم).

الصِّيني ـ الهدوء أحيانًا. وأَيًّا كانت درجة سُوئه كمسلمٍ، فلا أحد يمكنه أَنْ يقول إِنَّ صمد لَمْ يكن نادلًا بارعًا. لقَدْ أخذ مهارةً واحدةً مملَّةً وشحذها حتَّى الكمال. وهنا عَلَى الأقل يمكنه أَنْ يظهر الطَّريق الصحيحة للآخرين: كيفية إخفاء قطعة بصلٍ بلا معنًى في الباجهي[1]، وكيف تجعل عددًا أقل مِنَ الجمبري يبدو كثيرًا، وكيف تشرح لأسترالي أنَّه لا يريد كمية الفلفل الحار الَّتِي يتصور أنَّه يريدها. خارج أبواب القصر كان مستمنيًا، وزوجًا سيئًا، وأبًا غير مبالٍ، مع كُلِّ أخلاقيَّات الأنجليكانيِّين. ولكنْ في الدَّاخل هنا، داخل تلك الجدران المطليَّة بتصميم البيزلي[2] الأخضرِ والأصفرِ، كان عبقريًّا بيدٍ واحدةٍ.

«شيڤا! توجد زهرةٌ مفقودةٌ. هنا.»

كان ذلك بعد أسبوعين مِنْ صفقة صمد الجديدة بعد ظهر الجمعة تقريبًا، خلال تجهيز القصر.

«لقَدْ فوّتَّ تلك المزهريَّة، يا شيڤا!»

تجوَّل شيڤا مرَّة أخرى لكَيْ يفحص مزهريَّة الأكوامارين الدَّقيقة مثل قلمٍ رصاصٍ عَلَى الطَّاولة رقم تسعة عشر.

«وهناك بعض محلول الملح يطفو فوق صلصة المانجو في حامل الصَّلصة عَلَى الطَّاولة رقم خمسة عشر.»

«فعلًا؟»، قال شيڤا بجفاءٍ. شيڤا المسكين؛ في حدود الثَّلاثين الآن؛ ليس جميلًا جدًّا؛ ولا يزال هنا. لَمْ يحدث له أبدًا أَيًّا ما ظنَّه سوف يحدث له. لقَدْ ترك المطعم بالفعل، يتذكَّر صمد بغموضٍ، لفترةٍ قصيرةٍ في 1979، لكَيْ يبدأ شركةً أمنيَّةً، ولكنَّ «أحدًا لَمْ يرغب في توظيف حارسٍ باكي[3]» وعاد مِنْ جديدٍ، أقلَّ عدوانيَّةً، وأكثر يأسًا، كحصانٍ مكسورٍ.

«نعم، يا شيڤا. *فعلًا وحقًّا*.»

1 ـ الباجهي هو مقليات هندية متبلة من خضراوات متعددة. (المترجم).

2 ـ أسلوب زخارف هندي من أصل فارسي يقوم على استخدام وحدات تكرارية نباتية في شكل قطرة، تستخدم في المنسوجات والطلاء. (المترجم).

3 ـ كلمة تطلق على الشخص من جنوب آسيا. (المترجم).

«وهذا ما يقودك إِلَى الجنون، أليس كذلك؟»

«لَنْ أذهب إِلَى حدِّ القول إِلَى الجنون، لا... إنَّه يزعجني فقط.»

«لأنَّ هناك شيئًا،» قاطعه شيفا، «يجثم عَلَى مؤخِّرتك، مُؤَخَّرًا. نحن جميعًا لاحظنا ذلك.»

«نحن؟»

«نحن. الأولاد. بالأمس حبَّة ملحٍ في منديلٍ. واليوم الَّذِي يسبقه لَمْ يكنْ غاندي معلَّقًا بشكلٍ صحيحٍ عَلَى الحائط. والأسبوع الماضي كنتَ تتصرَّف مثل الفوهرر نافد الصَّبر،» قال شيفا، وهو يومئ برأسه تجاه أردشير. «كرجلٍ مجنونٍ. إنَّك لا تبتسم. ولا تأكل. وتنتقد الجميع باستمرارٍ. وعندما لا يكون النادل الرَّئيس حاضرًا، يتشتَّت الجميع. مثل كابتن كرة القدم.»

«أنا واثقٌ أَنَّنِي لا أعرف ما الَّذِي تشير إليه،» قال صمد، وهو يناوله المزهريَّة.

«وأنا واثقٌ أَنَّك تفعل،» قال شيفا باستفزازٍ، وهو يضع المزهريَّة الفارغة مرَّةً أخرى عَلَى الطاولة.

«لَوْ كنتُ مشغولًا بأمرٍ ما، فلا يوجد سببٌ لكَيْ أعطِّل عملي هنا مِنْ أجله،» قال صمد، وقَدْ أصبح مذعورًا، وهو يناوله المزهريَّة مِنْ جديدٍ. «أنا لا أرغب في إزعاج الآخرين.»

أعاد شيفا المزهرية إِلَى الطَّاولة مرَّةً ثانيةً. «إذن هناك شيءٌ. هيَّا يا رجل... أنا أعرف أَنَّنا لَمْ نتوافق دائمًا، ولكنَّنا علِقنا معًا في هذا المكان. لِكَمْ مِنَ الوقت عملنا معًا؟ يا صمد مياه؟»

تطلَّع صمد فجأةً إِلَى شيفا، رأى شيفا أَنَّه يتعرَّق، أَنَّه بدا في حالة ذهولٍ تقريبًا. «نعم، نعم... هناك... شيءٌ ما.»

وضع شيفا يده عَلَى كتف صمد. «إذن لماذا لا نضع زهور القرنفل اللَّعينة تلك ونذهب لنطهو لك بعض الكاري - ستشرق الشَّمس خلال عشرين دقيقةً. هيَّا، يمكنك أَنْ تخبر شيفا بكلِّ شيءٍ عَنْ ذلك. ليس لأَنَّنِي أهتمُّ عَلَى الإطلاق، أنتَ تفهم، ولكنَّنِي ينبغي أَنْ أعمل هنا أيضًا، وأنت تقودني إِلَى الجنون، يا زميلي.»

تأثَّر صمد بشكلٍ غريبٍ لهذا العرض الأنيق بأذنٍ مُنْصِتةٍ، ووضع بجعاته الورديَّة جانبًا وتبع شيڤا إِلَى المطبخ.

«حيوانٌ، أَمْ خُضَرٌ، أَمْ معدنٌ؟»

وقف شيڤا أمام سطح التَّجهيز ، وبدأ في تقطيع صدور الدَّجاج إِلَى مكعَّباتٍ مُتقَنةٍ، وخلطها في دقيق الذُّرة.

«عفوًا؟»

«هَلْ هو حيوانٌ، أَمْ خضراواتٌ، أَمْ معدنٌ؟» كرر شيڤا بنفاد صبر. «الشَّيء الَّذِي يزعجك.»

«حيوانٌ، بالأساس.»

«أنثى؟»

تراجع صمد إِلَى مقعدٍ قريبٍ، وخفض رأسه في خجلٍ.

«أنثى،» استنتج شيڤا. «زوجةٌ؟»

«إِنَّه أمرٌ مخجلٌ، وسوف يصل ألمه إِلَى زوجتي، ولكنْ لا... ليست هي الموضوع.»

«عصفورةٌ أخرى. موضوعي المتخصِّص.» قام شيڤا بأداء حركة تشغيل كاميرا، ودندن بثيمة العقل المدبر[1]، وقفز إِلَى اللَّقطة:.. «شيڤا باجواتي، لديك ثلاثون ثانية لكي تَنْكِحَ امرأة أخرى غير زوجتك. السُّؤال الأوَّل: هَلْ هذا صوابٌ؟ الإجابة: الأمر يعتمد. السُّؤال الثَّاني: هَلْ مآلي إِلَى الجحيم؟ ــــ.»

قاطعه صمد، باشمئزازٍ. «أنا لا... أمارس الحُبَّ معها.»

«لقَدْ بدأتُ، إذن سوف أكمل: هَلْ أذهب إِلَى الجحيم؟ الإجابة ــــ.»

«يكفي. انسَ الأمر. أرجوك، انسَ أَنَّنِي ذكرت أَيَّ شيءٍ مِنْ ذلك.»

«هل تريد باذنجان في هذا؟»

«لا... الفلفلُ الأخضرُ يكفي.»

1 ـ برنامج مسابقات تليفزيوني بريطاني معروف بأسئلته الصعبة، في إطار من الضغط والإثارة، وأجواء من الجدية. استمر عرضه من عام 1972 وحتى 1997 على قناة الـ بي بي سي. (المترجم).

«حسنًا جدًّا،» قال شيڤا، وهو يلقي حبَّة فلفلٍ أخضرَ في الهواء، ويلحقها بطرف سكّينه. «واحدٌ دجاجٌ بهونا[1] في الطَّريق. منذ متى يجري الأمر، إذن؟»

«لا شيء يجري. لقَدِ التقيتُها لمرَّةٍ واحدةٍ فقط. أنا ـ بالكاد ـ أعرفها.»

«إذن: ما المشكلة؟ لمسةٌ؟ قُبلةٌ؟»

«مصافحةٌ، فقط. إنَّها مدرِّسة ابنيَّ.»

ألقى شيڤا البصل والفلفل في الزَّيت السَّاخن. «لقَدْ كانت لديكَ فكرةٌ طائشةٌ. وماذا في ذلك؟»

وقف صمد. «الأمر أكثر مِنْ مجرَّد أفكارٍ طائشةٍ، يا شيڤا. كُلُّ جسمي متمرِّدٌ، لا يفعل شيئًا ممَّا أقوله له. لَمْ يحدث مِنْ قبل أَنْ تعرَّضتُ لمثل هذه المهانة الجسديَّة. وعلى سبيل المثال فأنا دائمًا ــــ.»

«نعم،» قال شيڤا، مشيرًا إِلَى ساقَي صمد. «لاحظنا ذلك أيضًا. لماذا لا تؤدِّي العادة السِّرِّيَّة قبل أَنْ تذهب للعمل؟»

«أنا أفعل... فعلًا... ولكنَّها لا تُحدث أيَّ فرقٍ. وإلى جانب ذلك، فإِنَّ الله يحرِّمها.»

«أوه، لا ينبغي أَنْ تكون متديِّنًا، يا صمد. ذلك لا يناسبك.» مسح شيڤا دموع البصل. «كُلُّ هذا الشُّعور بالذَّنب ليس صحيًّا.»

«ليس الشُّعور بالذَّنب. إنَّه الخوف. أنا في السَّابعة والخمسين، يا شيڤا. عندما تصل إِلَى عمري، فإنَّك تصبح... قلقًا إزاء إيمانك، أنتَ لا تريد أَنْ تترك الأشياء بعد فوات الوقت. لقَدْ أفسدَتني إنجلترا، أرى ذلك الآن ـ ابناي وزوجتي، لقَدْ فسدوا أيضًا. أظنُّ أَنَّني رُبَّما صنعتُ الأصدقاء الخطأ. رُبَّما كنتُ تافهًا. رُبَّما ظننتُ أَنَّ العقل أهمُّ كثيرًا مِنَ الإيمان. والآن يبدو أَنَّ هذا هو الإغواء الأخير الموضوع أمامي. لأجل معاقبتي، أنتَ تفهم. يا شيڤا، أنتَ تعرف عَنِ النِّساء. ساعدني. كيف يمكن لهذا الشعور أَنْ يكون موجودًا؟ لقَدْ علمتُ بوجود تلك المرأة منذ ما لا يزيد عَلَى شهورٍ قليلةٍ، وتحدَّثتُ إليها لمرَّةٍ واحدةٍ فقط.»

«كما قلتَ: أنتَ في السَّابعة والخمسين. أزمة منتصف العمر.»

1 ـ دجاج بالكاري. (المترجم).

«منتصف العمر؟ ماذا يعني هذا؟» قاطعه صمد بانفعالٍ. «اللَّعنة، يا شيفا، أنا لا أخطِّط لأَنْ أعيش لمئةٍ وأربعة عشر عامًا.»

«إِنَّها طريقة تعبيرٍ. تقرأ عنها في المجلَّات هذه الأيَّام. إِنَّها عندما يصل الرَّجل إِلَى نقطةٍ معيَّنةٍ في الحياة، ويبدأ في الشُّعور بأَنَّه بلغ الذروة... وأَنَّكَ شابٌّ تمامًا مثل تلك الفتاة، إذا كنت تفهم ما أعنيه.»

«أنا في مفترق طرقٍ أخلاقيٍّ في حياتي وأنتَ تحدِّثني بهذا الهراء.»

«ينبغي لك أَنْ تتعلَّم هذه الأشياء، يا زميلي،» قال شيفا، متحدِّثًا ببطءٍ، وصبرٍ. «نشوة المرأة، والـجي سبوت، وسرطان الخصية، والعزوف عَنِ الرِّجال - أزمة منتصف العمر واحدةٌ منها. معارف يحتاجها الرَّجل العصريُّ في متناول يده.»

«ولكنَّني لا أرغب في هذه المعارف!» صرخ صمد، وهو يقف ويخطو في المطبخ. «هذا - بالتَّحديد - هو القصد! أنا لا أرغب في أَنْ أكون رجلًا عصريًّا! أرغب في أَنْ أعيش كما كان مُحدَّدًا لي دائمًا! أريد العودة إِلَى الشَّرق!»

«آه، حسنًا... جميعنا نفعل، أليس كذلك؟»، غمغم شيفا، وهو يضع الفلفل والبصل في المقلاة. «لقَدْ غادرتُ عندما كنتُ في الثَّالثة. وتعلم اللَّعنةُ أَنَّنِي لَمْ أفعل شيئًا في هذا البلد. ولكنْ مَنْ يملك المال لتذكرة الطَّائرة؟ ومَنْ يريد أَنْ يعيش في كوخٍ مع أربعة عشر موظَّفًا عَلَى قائمة الرَّواتب؟ مَنْ يعرف ما الَّذِي سيصبح عليه شيفا باجواتي هناك في كُلكَتَّا؟ الأمير أَمِ الفقير؟ ومَنْ ــــ.» قال شيفا، وقد استعاد وجهُه بعضًا مِنْ جماله القديم، «يمكنه أَنْ ينزع الغرب منه عندما يكون في أعماقه؟»

استمرَّ صمد في التَّحرك. «كان ينبغي أَلَّا أجيء إِلَى هنا، عَلَى الإطلاق - حيث وقعت كُلُّ مشكلةٍ. كان ينبغي أَلَّا يكون لي أطفالٌ هنا، كُلُّه مِنْ عند الله. ويلْزِدِن جرين! كروت المعايدة في نوافذ دكَّان الحلويَّات، وجودي بلوم[1] في المدرسة، والواقيات الذَّكريَّة عَلَى الرَّصيف، ومهرجان الحصاد، وفتنة المُعَلِّمات!» هدر صمد وهو يختار العناصر عشوائيًّا. «شيفا - إِنَّنِي أخبرك، في ثقةٍ: يا صديقي الأعزَّ، أَنَّ آرشيبالد جونز ليس مؤمنًا! والآن: أَيُّ نموذجٍ أنا لأطفالي؟»

1 - جودي بلوم (12 فبراير 1938 -)، روائية أمريكية وزعت رواياتها للأطفال والمراهقين 80 مليون نسخة في 31 لغةً عالميةً. (المترجم).

«إقبال: اجلس. واهدأ. اسمعْ: أنت ـ فقط ـ تريد شخصًا ما. النَّاس يريدون النَّاس. يحدث هذا مِنْ دلهي إِلَى ديبتفورد. وهذه ليست نهاية العالم.»

«بهذا الشَّأن، أتمنَّى أَنْ أكون عَلَى يقينٍ.»

«متى ستراها للمرَّة القادمة؟»

«إِنَّنا نلتقي لأجل الشُّؤون المتعلِّقة بالمدرسة... في الأربعاء الأوَّل مِنْ سبتمبر.»

«أها. وهَلْ هي هندوسيَّةٌ؟ مُسلمةٌ؟ هي ليست مِنَ السِّيخ، أليس كذلك؟»

«هذا هو أسوأ ما في الأمر،» قال صمد، بصوتٍ مُنكسرٍ. «إنجليزيَّةٌ. بيضاءُ. إنجليزيَّةٌ.»

هزَّ شيڤا رأسه. «لقَدْ خرجتُ مع الكثير مِنَ العصفورات البيضاوات، يا صمد. الكثيرات. الأمر ينجح أحيانًا، وأحيانًا لا. فتاتَين أمريكيَّتَين رائعتَين. وسقطتُ رأسًا عَلَى عقبٍ لأجل باريسيَّةٍ مُبهرة. بَلْ وقضيتُ عامًا مع رومانيَّةٍ. ولكنْ لَمْ أخرج مع إنجليزيَّةٍ أبدًا. الأمر لا ينجح أبدًا. أبدًا.»

«لماذا؟» يقضم ظفر إبهامه بأسنانه وينتظر إجابةً مخيفةً، أَوْ فَرَمانًا عُلويًّا. «لماذا لا، يا شيڤا باجواتي؟»

«الكثير جدًّا مِنَ التَّاريخ،» كان جواب شيڤا الملغز، بينما يعدُّ صحن دجاج بهونا. «الكثير جدًّا مِنَ التَّاريخ اللَّعين.»

***

في الثَّامنة والنصف مِنْ صباح الأربعاء الأوَّل مِنْ سبتمبر 1984، غرق صمد في أفكاره عَلَى نحوٍ ما، عندما سمع الباب الأماميَّ لسيَّارته الأوستن ميني مترو يُفتح ثُمَّ يُغلق ـ بعيدًا جدًّا في العالم الواقعيِّ ـ وعندما التفت إِلَى يساره وجد مِلَّة يركب إِلَى جواره. أَوْ هو عَلَى الأقل شيءٌ في هيئة مِلَّة مِنَ العنق وما تحته: وغاب الرَّأس وراء لعبة توميترونيك ـ وهي لعبة كومبيوتر بالأساس تشبه زوجًا مِنَ المناظير الضخمة. ومِنْ خلالها، ميَّز صمد ـ بحكم الخبرة ـ سيَّارةً حمراءَ تمثِّل ابنه تتسابق مع سيَّارةٍ خضراءَ وسيَّارةٍ صفراءَ عَلَى طريق ثلاثيَّة الأبعاد مِنْ أضواء الصِّمامات الثُّنائيَّة.

أراح مِلَّة ظهره الصَّغير عَلَى المقعد البلاستيكيِّ البُنِّيِّ. «أووه! مقعدٌ باردٌ! مقعدٌ باردٌ! مؤخرةٌ متجمِّدةٌ!»

«مِلَّة، أين ماجد وأَيري؟»

«قادمان.»

«قادمان بسرعة قطارٍ أَمْ قادمان بسرعة سلحفاةٍ؟»

«يي!» تذمَّر مِلَّة، متأثِّرًا بالحصار الَّذِي هدَّد بإرسال سيارته الحمراءِ إِلَى غياهب النِّسيان.

«يا مِلَّة، رجاءً. اخلع هذه.»

«لا أستطيع. أحتاج إِلَى نقطةٍ، أوه، اثنتين، سبع، ثلاث نقاط.»

«مِلَّة: أنت بحاجةٍ لأن تبدأ في فهم الأرقام. كرِّرْ: عشرة آلاف، ومئتان وثلاثة وسبعون.»

«عشَّة باف، مانان، ونانا وون.»

«انزع هذه، يا مِلَّة.»

«لا أستطيع. سأموت. هَلْ تريدني أنْ أموت، يا أَبًا؟»

لَمْ يكنْ صمد منصتًا. مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يكون في المدرسة قبل التَّاسعة إذا كان لهذه الرِّحلة هدفٌ أَيًّا كان. في التَّاسعة، ستكون في الفصل. في التَّاسعة ودقيقتين، ستفتح السِّجلَّ بتلك الأصابع الطَّويلة، في التَّاسعة وثلاث دقائق ستطرق بأظافرها الهلاليَّة عَلَى مكتبٍ خشبيٍّ في مكانٍ ما خارج المشهد.

«أين هما؟ هَلْ يريدان أَنْ يتأخَّرا عَلَىَ المدرسة؟»

«يوووه.»

«هَلْ يتأخَّران دائمًا هكذا؟» سأل صمد. لَمْ يكن ذلك روتينه المعتاد ـ فالقيادة إِلَى المدرسة مهمَّة ألسانا أَوْ كلارا في العادة. تولَّى لأجل أَنْ يلمح بيرت جونز (على الرَّغم مِنْ أنَّ اجتماعهما بعد سبع ساعاتٍ وسبعٍ وخمسين دقيقةً، بعد سبع ساعاتٍ وست

وخمسين دقيقةً، سبع ساعاتٍ....) أبغض مسؤوليات الآباء في الكتاب. وقضى وقتًا صعبًا في إقناع ألسانا أَنَّه ليس هناك شيءٌ غريبٌ في رغبته المفاجئة في المشاركة بالكامل في عملية النَّقل التَّعليميَّة لسلالته وسلالة آرشي:

«ولكنْ، يا صمد، أنت لا تعود إِلَى المنزل حتَّى الثَّالثة صباحًا. هَلْ تمازحني؟»

«أريد أَنْ أرى ابنيَّ! أريد أَنْ أرى أَيرِي! إِنَّهم يكبرون كُلّ صباحٍ - ولَمْ أر ذلك أبدًا! لقَدْ زاد مِلَّة بمقدار بوصتين.»

«لكنْ ليس في الثَّامنة والنِّصف في الصَّباح. مِنَ المضحك جدًّا بما يكفي أَنَّه ينمو طوال الوقت - بحمد الله! لا بُدَّ أَنَّها معجزةٌ نوعًا ما. ما الأمر، همم؟» غرزت ظفرها في بروز بطنه. «أنت تلعب بذيلك. أستطيع أَنْ أشمَّ رائحةً - مثل لسان ماعزٍ منزوعٍ[1].»

آه، لا نظير لأنف ألسانا المطبخيّ أمام الذَّنب والخداع والخوف في حي برنت بأكمله. صمد بلا حيلةٍ في مواجهته. هَلْ كانت تعلم؟ هَلْ خمَّنت؟ نام صمد عَلَى تلك المخاوف طوال اللَّيل (عندما لَمْ يكن يصفع السَّلامي) ثُمَّ حملها معه أوَّل شيءٍ في سيَّارته، لعلَّه يبدِّدها مع طفليه.

«أين هما، بحقِّ اللَّعنة؟»

«أجراس اللعنة!»

« مِلَّة!»

«*أنتَ تلعن*»، قال مِلَّة، وهو يأخذ اللَّفَّة الرَّابعة عشرةَ ويحصل عَلَى خمس نقاطٍ - أوه أوه - متسبِّبًا في احتراق سيَّارةٍ صفراءَ. «أنت دائمًا تفعل. وكذلك السَّيِّد جونز.»

«حسنًا، نحن نملك تصاريح خاصَّة باللَّعن.»

لَمْ يَحتَجْ مِلَّة خفيُّ الرَّأس إِلَى وجهٍ لكَيْ يعبر عَنِ انفعاله. «**لا يوجد شيءٌ اسمه ــــ.**»

«حسنًا، حسنًا، حسنًا.» تراجع صمد وهو يعلم أَنَّه لا توجد أَيُّ متعةٍ في مجادلة طفلٍ في التَّاسعة في القيم العامَّة: «لقَدْ أوقعتَ بي. لا يوجد مثل هذا التَّصريح باللَّعن. مِلَّة، أين ساكسفونك؟ لديك أوركسترا اليوم.»

1 ـ الفكرة أنه عند طهو رأس الماعز تنجم عن اللسان رائحة ثقيلة ومميزة. (المترجم).

«*في صندوق السَّيَّارة*»، قال مِلَّة، وصوته مرتابٌ ومشمئزٌّ في الوقت نفسه: فرجلٌ لَمْ يعرف أَنَّ السَّاكسفون ذهب إِلَى حقيبةِ السيَّارة ليلة الأحد معاقٌ اجتماعيًّا، نوعًا ما. «لماذا تُقلُّنا أنت؟ السَّيِّد جونز يقلُّنا أيام الإثنين. أنت لا تعرف *أَيَّ شيءٍ* عَنْ أخذنا إِلَى المدرسة. أَوْ إعادتنا.»

«أنا واثقٌ أَنَّنِي سأتدبَّر أمري في ذلك، شكرًا لك، يا مِلَّة. إنَّه لا يكاد يساوي علم الصَّواريخ، عَلَى أَيَّة حالٍ. *أين هذان الاثنان!*»، زعَق، وهو يضغط بوق السَّيَّارة، مشوَّشًا مِنْ قدرة ابنه ذي التِّسع سنواتٍ عَلَى ملاحظة التَّوتُّر في تصرِّفاته. «وهَلْ يمكنكَ، رجاءً، أَنْ تنزع هذا الشَّيْء اللَّعين!»، مَدَّ صمد يده إِلَى التُّوميترونيك، وانتزعه مِنْ عنق مِلَّة.

«لقَدْ قتلتَني!»، نظر مِلَّة مرَّةً أخرى في التُّوميترونيك، مرعوبًا، في الوقت المناسب بالكاد لكَيْ يشاهد أناه الحمراءَ الصَّغيرةَ تجنح إِلَى الحواجز وتختفي في ضوء العرض الكاثوديّ وهي تصدر شررًا أصفرَ. «**لقَدْ قتلتَني عندما كنتُ أفوز!**»

أغلق صمد عينيه ودفع مقلتيه نحو أعلى رأسه لأقصى حدٍّ، عَلَى أملٍ أَنْ يؤثِّر مُخُّه عليهما، كَيْ يُعمي نفسه، إذا استطاع بلوغ ذلك، ويصبح عَلَى قدم المساواة مع أوديب[1]، الضَّحيَّة الأخرى للفساد الغربيّ. فكَّر: أريد امرأةً أخرى. وفكَّر: لقَدْ قتلتُ ابني. إِنَّنِي ألعن. إِنَّنِي آكل لحم الخنزير. إِنَّنِي أصفع السَّلامي بشكلٍ منتظمٍ. إِنَّنِي أشرب جينيس. وأعزُّ أصدقائي كافرٌ غيرُ مؤمنٍ. إِنَّنِي أخبر نفسي أَنَّنِي عندما أفركه صعودًا وهبوطًا بدون استخدام اليدين فذلك لا يُحتسب. ولكنْ أوه إنَّه يُحتسب. كُلُّ ذلك يُسجَّل في لوحة الحساب العظيم لمن يقوم بالحساب. ما الَّذِي سيحدث عندما يأتي المحشر؟ كيف سأبرِّئ نفسي عندما يأتي يوم القيامة؟

.... انفتح بابٌ وأُغلق. وانفتح بابٌ وأُغلق. أحدهما لماجد، والآخر لـ أَيرِي. فتح صمد عينيه ونظر في نافذة الرُّؤية الخلفيَّة. في المقعد الخلفيّ جلس الطِّفلان اللَّذان ينتظرهما: الاثنان بنظارتيهما الصَّغيرتين، أَيرِي بجنوحها الأفريقيّ (لَمْ تكن طفلةً جميلةً: لدَيها جيناتٌ مختلطةٌ، أنف آرشي مع أسنان كلارا النَّاتئة الفظيعة)، وماجد بشعره الأسودِ الكثيفِ الممشَّطِ نحو مركزٍ جانبيٍّ غير جذَّابٍ. ماجد يحمل مُسجِّلةً،

1 ـ هو ملك طيبة في الميثولوجيا الإغريقية، حقق النبوءة الَّتِي قالت إنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه، وبالتالي يجلب الكارثة لمدينته وعائلته. ثم يفقأ عينيه ويهيم على وجهه : كي لا يرى المأساة الَّتِي جناها على نفسه وأبنائه. (المترجم).

وأيرِي مع كمانٍ. ولكنْ وراء هذه التَّفاصيل الأساسيَّة، لَمْ يكن كُلُّ شيءٍ كما ينبغي له. ما لَمْ يكنْ مخططًا جدًّا، هناك شيءٌ غريبٌ في هذه الميني مترو - شيءٌ ما في طريقه للحدوث. ارتدى كلا الطِّفلين الأسودَ، مِنَ الرَّأس إِلَى القدمين. وضع كُلٌّ منهما شارةً بيضاءَ عَلَى ذراعه اليسرى عليها رسمٌ بسيطٌ لعمليَّات تسليم سِلال الخضراوات. ومع كُلٍّ منهما دفترٌ لأوراق الكتابة وقلمٌ يتدلَّى مِنْ عنقه بسلسلةٍ.

«مَنْ فعل لكما ذلك؟»

صَمْتٌ.

«هَلْ كانت تلك أَمَّا؟ أَمِ السَّيِّدة جونز؟»

صَمْتٌ.

«ماجد! أيرِي! هَلْ أكلت القطَّة لسانيكما؟»

المزيد مِنَ الصَّمت؛ صمت الأطفال، المرغوب بشدَّةٍ مِنْ قبل البالغين، ولكنَّه غريبٌ عندما يحدث في النِّهاية.

«مِلَّة، هَلْ تعرف ما يتعلَّق بذلك؟»

«أمرٌ مملٌّ،» انتحب مِلَّة. «إنَّه - فقط - كونهما حاذقَين، بارعَين، مقرفَين، مغفَّلين، السَّيِّد ماجو[1] والسَّيِّدة بو[2] القبيحة.»

استدار صمد في مقعد السيَّارة ليواجه المنشقَّيْن الصَّغيرَين. «إنَّني أسألكما بوضوحٍ عما يدور حوله ذلك؟»

التقط ماجد قلمه، وكتب بيده الأنيقة الطِّبِّيَّة: إذا أردتَ ذلك، ثُمَّ فصل قطعة الورق وسلَّمها إِلَى صمد.

«صيامٌ عَنِ الكلام. فهمتُ. أنتِ أيضًا، يا أَيرِي؟ كنتُ أظنُّكما أكثر معقوليَّةً تجاه مثل هذا الهُراء.»

خربشَت أَيرِي في دفترها للحظةٍ، ثُمَّ مرَّرت الرِّسالة للأمام. إنَّنا نحتاج.

1 - كانت شخصية المفتش ماجو - المصاب بقصر النظر الذي يتسبب ضعف بصره في العديد من المشكلات - إحدى الشخصيات الكارتونية الشهيرة للأطفال في فيلم لوالت ديزني. (المترجم).

2 - السَّيِّدة بو هو أحد تعبيرات الأطفال للإشارة إلى شخصية كريهة الرائحة كنوع من السخرية. (المترجم).

«تحتاجون؟ ما هذا الَّذِي تحتاجونه؟ هَلْ علّمتك أُمُّك هذه الكلمة؟»

بدت أَيرِي عَلَى وشك الانفجار مع قوّة رغبتها في التَّفسير، ولكنَّ ماجد أومأ لها بعلامة إغلاق السُّوستة عَلَى فمها، واختطف قطعة الورق، وشطب حَرْفَ الألف مِنَ الكلمة.

«أوه، فهمتُ. *تحتجُّون*.»

أومأ ماجد وأَيرِي بهوسٍ.

«حسنًا، هذا رائعٌ بالتَّأكيد. وأَفترض أَنَّ أُمَّيكما صمَّمتا هذا السِّيناريو بالكامل؟ الأزياء؟ ودفاتر الملاحظات؟»

صَمْتٌ.

«أنتما كالسُّجناء السِّياسيِّين بالضَّبط... لا تبوحان بشيءٍ أبدًا. حسنًا: هَلْ يمكن للمرء أنْ يسأل *ما الَّذِي* تحتجَّان عليه؟»

أشار كلا الطِّفلين بسرعةٍ إِلَى الشَّارتين عَلَى ذراعيهما.

«الخضراوات؟ أنتما تحتجَّان لأجل حقوق الخضراوات؟»

وضعت أَيرِي يدها عَلَى فمها لتمنع نفسها مِنَ الصُّراخ بالإجابة، بينما عرض ماجد دفتره في انفعالٍ. إِنَّنا نحتجُّ بخصوص مهرجانِ الحصاد.

هدر صمد: «لَقَدْ قلتُ لك بالفعل. لا أريد أَيَّ مشاركةٍ في هذا الهراء. ليسَت له أَيَّة علاقةٍ بنا يا ماجد. لماذا تحاول دائمًا أَنْ تكون شخصًا ليس أنت؟»

كان هناك غضبٌ صامتٌ متبادلٌ، عندما تذكَّر كُلٌّ منهما الحادثة المؤلمة المشار إليها. قبل عدَّة أشهر، في عيد ميلاد ماجد التَّاسع، عندما ظهرت مجموعةٌ مِنَ الأولاد البيض شديدي التَّأنُّق مع اهتمامٍ مفرطٍ بالتَّفاصيل عَلَى عتبة الباب وهم يسألون عَنْ مارك سميث.

«مارك؟ لا يوجد مارك هنا،» قالت ألسانا، وهي تنحني إِلَى مستوى أطوالهم مع ابتسامةٍ لطيفةٍ. «فقط عائلة إقبال هنا. أنتم في المنزل الخطأ.»

ولكنْ قبل أَنْ تُنهي جملتها، انطلق ماجد إِلَى الباب، وهو يُخرج والدته مِنَ المشهد.

«مرحبًا، يا شباب.»

«مرحبًا، يا مارك.»

«سنذهب إِلَى نادي الشَّطرنج، يا أُمِّي.»

«نعم، يا مـ ـ مـ ـ مارك،» قالت ألسانا وهي عَلَى وشك البكاء تجاه هذا الازدراء الأخير وإحلال أُمِّي مكان أَمَّا. «لا تتأخَّر، الآن.»

«أمنحك اسمًا ماجدًا مثل ماجدٍ، أَوْ محفوظٍ، أَوْ مرشدٍ، أَوْ مبتسمٍ إقبال!» صرخ صمد عَلَى ماجد عندما عاد إِلَى البيت في تلك اللَّيلة، وقطع السُّلَّم مثل الطَّلقة لكَيْ يختبئ في غرفته. **«وأنت تريد أَنْ تُسمَّى مارك سميث!»**

ولكنَّ ذلك مجرَّد عَرَضٍ لمرضٍ أكثر عمقًا. فماجد يرغب فعلًا في أَنْ ينتمي *إِلَى عائلةٍ أخرى*. أراد أَنْ يمتلك قططًا بدلًا مِنَ الصَّراصير، أراد أَنْ تصدر أُمُّه أصوات الموسيقى مِنَ التشيللو وليس أصوات ماكينة الخياطة، أراد أَنْ تكون لديهم تعريشة مِنَ الزُّهور تنمو عَلَى أحد جوانب المنزل، بدلًا مِنَ الكومة المتزايدة مِنْ قمامة الآخرين، أراد بيانو في المدخل بدلًا مِنَ الباب المكسور لسيَّارة ابن العم خورشيد، أراد أَنْ يذهب إِلَى عطلات ركوب الدَّرَّاجات في فرنسا، لا إِلَى رحلة يومٍ واحدٍ إِلَى بلاكبول لزيارة العمَّات؛ أراد أَنْ تكون أرضيَّة غرفته مِنَ الخشب اللَّامع، لا مِنَ السِّجَّاد البرتقاليِّ والأخضرِ المعاد تجديده مِنْ مخلفات المطعم؛ أراد أَنْ يكون أبوه طبيبًا، لا نادلًا بيدٍ واحدةٍ؛ وفي ذلك الشَّهر حوَّل ماجد كُلَّ رغباته تلك إِلَى أمنيةٍ أَنْ ينضم إِلَى مهرجان الحصاد كما سيفعل مارك سميث. كما سيفعل أَيُّ شخصٍ آخر.

ولكنَّنا نريد أَنْ نفعل ذلك. وإلا سنكون كُلَّنا رَهْنَ الاحتجاز. قالت السَّيِّدة أوينز: إِنَّ ذلك تقليدٌ.

انفجر صمد عَلَى أقصاه. «تقاليد مَنْ؟» هَدَرَ، بينما بدأ ماجد دامع العينين يشخبط بشكلٍ محمومٍ مرَّةً ثانيةً. «اللَّعنة، أنت مسلمٌ، ولستَ شبح الأشجار! لقَدْ *أخبرتُك* يا ماجد، أخبرتُك عَنِ القرار الَّذِي سوف يسمح لك به. أَنْ تأتي معي إِلَى الحجِّ. إذا كان لي أَنْ ألمس الحجر الأسودَ قبل وفاتي فسأفعل ذلك وابني الأكبر بجانبي.»

حطَّم ماجد قلمه الرُّصاص في منتصف الطَّريق إِلَى إجابته، وخربش بالنِّصف الآخر مِنَ الرُّصاص غير المبريِّ. **هذا ليس عدلًا! أنا لا أستطيع الذِّهاب إِلَى الحجِّ. ينبغي أَنْ أذهب إِلَى المدرسة. ليس لديَّ الوقت للذِّهاب إِلَى مكَّة. هذا ليس عدلًا!**

«أهلًا بك في القرن العشرين. إنَّه ليس عادلًا. إنَّه ليس عادلًا عَلَى الإطلاق.»

قطع ماجد القطعة التَّالية مِنَ الورق مِنْ دفتره، وحملها أمام وجه والده. لقَدْ أخبرتَ أباها ألَّا يتركها تذهب.

لَمْ يستطع صمد أَنْ ينكر ذلك. لقَدْ طلب مِنْ آرشي، يوم الثُّلاثاء الماضي، أَنْ يُظهر التَّضامن بإبقاء أَيري في المنزل في أسبوع المهرجان. تحوَّط آرشي وساوم، خوفًا مِنْ غضب كلارا، ولكنَّ صمد طمأنه: اتبع طريقتي، يا آرشيبالد. *مَنِ الَّذِي يرتدي البنطلون في منزلي*[1]؟ فكَّر آرشي في ألسانا، كثيرًا ما ارتدَت تلك السَّراويل الحريريَّة الجميلة الَّتِي تنتهي بكاحلٍ ضيِّقٍ، وفي صمد الَّذِي يرتدي قطعةً طويلةً مطرَّزةً مِنَ القطن الرَّماديِّ، لونجي[2]، هي تنُّورةٌ بكلِّ المعاني. ولكنَّه احتفظ بالفكرة لنفسه.

لَنْ نتكلَّم إذا لَمْ تتركنا نذهب. لَنْ نتكلَّم أبدًا، أبدًا، أبدًا، أبدًا مرَّةً ثانيةً. وعندما نموت فكُلُّ شخصٍ سوف يقول إِنَّه أنت. أنت أنت أنت.

عظيمٌ، فكَّر صمد، *المزيد مِنَ الدَّم والشُّعور اللَّزج بالذَّنب عَلَى يدي الوحيدة الجيِّدة.*

***

لَمْ يعرف صمد شيئًا عَنِ الإجراء، ولكنَّه عرف ما أحبَّه فيه. وفي الحقيقة، لَمْ يكن الأمر معقَّدًا جدًّا، بالطَّريقة الَّتِي تَمَّ بها تنفيذ ذلك، فقط ثلاثة/أربعة بسيطةٌ، مجرد بندولٍ أحاديِّ البعد مرسومٍ في الهواء بسَبَّابتها ـ ولكنْ *آآآه*، يا للبهجة الَّتِي في مشاهدتها تفعل ذلك! وظهرها له، وقدماها العاريتان ترتفعان ـ مع كُلّ دقَّةٍ ثالثةٍ ـ خارج حذائها الصَّيفيّ؛ وتبرز مؤخرتها أكثر قليلًا، تضغط عَلَى الجينز في كُلِّ مرَّةٍ تندفع هي فيها إِلَى الأمام، إِلَى واحدٍ مِنَ الأوركسترا يفتقد البراعة في أداء الكريشندو ـ يا للبهجة الَّتِي كانت! يا لها مِنْ رؤيةٍ! كُلُّ ما استطاع أَنْ يفعله أَنْ يمنع نفسه مِنَ الاندفاع نحوها وحملها؛ أخافه المدى *الَّذِي لَمْ يستطع معه أَنْ يرفع عينيه عنها*. لكنَّه اضطرَّ للتَّرشُّد: فالأوركسترا تحتاجها ـ يعلم الله أَنَّهم لَمْ يكونوا ليتمكَّنوا مِنْ أداء هذا الاقتباس مِنْ بحيرة البجع (الَّذِي ذكَّره ببطَّاتٍ تتهادى عَلَى بقعةٍ مِنَ الزَّيت) بدونها. ومع ذلك، يا لها

---

1 ـ يقصد مَنِ الرَّجل في المنزل. (المترجم).

2 ـ يعرف أيضًا باسم سارونج، وهو رداء تقليدي يلبس حول الوسط (إزار) في إندونيسيا وبنجلاديش والهند وسريلانكا وفي جنوب الجزيرة العربية. (المترجم).

مِنْ فداحةٍ رائعةٍ، كما بدا ـ مثل مشاهدة طفلٍ في حافلةٍ ينتزع في غفلةٍ ثدي الغريبة الَّتِي تجلس بجواره ـ يا له مِنْ هدرٍ، أَنْ يكون شيءٌ بهذا الجمال تحت تصرُّف هؤلاء الصِّغار جدًّا عَلَى أَنْ يعرفوا ما يمكن أَنْ يفعلوه به. في الثَّانية الَّتِي تذوَّق فيها تلك الفكرة استعاد نفسه: *صمد مياه... بالتَّأكيد إنَّ رجلًا يغار مِنْ طفلٍ عَلَى ثدي امرأةٍ قَدْ بلغ حدَّه الأدنى، عندما يغار مِنَ الصِّغار، مِنَ المستقبل*... ثُمَّ عندها، ليس للمرَّة الأولى في تلك الظَّهيرة، وبينما ارتفعت بوبي بيرت جونز خارج حذاها مرَّةً أخرى، واستسلمت البطَّات في النِّهاية إِلَى كارثةٍ بيئيَّةٍ، سأل نفسه: *لماذا، بحقِّ الله، أنا هنا*؟ وعادَت الإجابة إليه مِنْ جديدٍ مع رغبةٍ مستمرَّةٍ في التقيُّؤ: *لأنَّنِي ـ ببساطة ـ لا أستطيع أَنْ أكون في أَيِّ مكانٍ آخر*.

تِكْ، تِكْ، تِكْ. كان صمد ممتنًّا لصوت العصا عَلَى الحامل الموسيقيِّ، الَّذِي قاطع تلك الأفكار، تلك الأفكار الَّتِي اقتربت مِنَ الهذيان، أحيانًا.

«الآن، يا أطفال، يا أطفال. توقَّفوا. *ششش*، اهدأوا. ابعدوا أفواهكم عَنِ الآلات، وانحنوا إِلَى الأسفل. إِلَى *الأسفل*، يا أنيتا. هكذا، نعم، عَلَى الفلوت تمامًا. *شكرًا لكم*. الآن: لرُبَّما لاحظتم أَنَّ لدينا زائرًا اليوم.» التفتت إليه، وحاول جاهدًا أَنْ يجد جزءًا منها لِكَيْ يركِّز عليه، بوصةً واحدةً لا تشعل دمه المضطرب. «هذا هو السَّيِّد إقبال، والد ماجد ومِلَّة.»

وقف صمد وقفة استدعاءٍ عسكريٍّ، لفَّ معطفه الواسع بعنايةٍ عَلَى التَّوتُّر بين ساقيه، ولوَّح في حرجٍ، ثُمَّ جلس مِنْ جديدٍ.

«قولوا مرحبًا، يا سيِّد إقبال.»

«**مرحبًا يا سيِّد إكـ ـبول**،» جاء دويُّ الجوقة مِنْ جميع الموسيقيِّين ما عدا اثنين.

«الآن: ألا نريد أَنْ نعزف ثلاثيَّةً أيضًا؛ لأنَّ لدينا جمهورًا؟»

«نعم، يا آنسة بيرت جونز.»

«وليس السَّيِّد إقبال مجرَّد جمهورنا اليوم، بل هو جمهورٌ *خاصٌّ* جدًّا. لأنَّه بسبب السَّيِّد إقبال فإنَّنا في الأسبوع القادم لَنْ نلعب بحيرة *البجع* مرَّةً أخرى.»

استُقبل هذا الإعلان بهديرٍ كبيرٍ، رافقته جوقةٌ طائشةٌ مِنْ عازفي البوق وقارعي الطُّبول والصِّنَج.

«حسنًا، حسنًا، هذا يكفي. لَمْ أكنْ أتوقَّع موافقةً سعيدةً *بهذا القدر*.»

ابتسم صمد. لديها روح الدُّعابة. هُنَاك طرافةٌ في الأمر، وبعضٌ مِنَ الحزم - ولكنْ لماذا التَّفكير في الأسباب *الكثيرة* الموجودة للخطيئة، ما دامت الخطيئة *أصغر*؟ كان يفكِّر كمسيحيٍّ مرَّةً أخرى، ويقول لا يمكن *أنْ نقول* للخالق *ما* هو *أكثر عدلًا مِنْ ذلك*.

«الأدوات للأسفل. نعم، أنت، يا مارفين. شكرًا جزيلًا لك.»

«ما الَّذِي سنفعله عوضًا عن ذلك، يا آنسة؟»

«حسنًا...» بدأت بوبي بيرت جونز، بنفس نصف الخجل، ونصف الابتسامة الجريئة الَّتِي لاحظها مِنْ قبل. «شيئًا مثيرًا جدًّا. الأسبوع القادم أريد أَنْ نحاول أَنْ نُجرِّبَ بعضًا مِنَ الموسيقى *الهنديَّة*.»

حمل عازف الصنج عَلَى عاتقه، في قلقٍ مِنَ المكان الَّذِي سوف يحتلُّه في تغييرٌ جذريٌّ في النَّوع، أَنْ يكون أوَّل مَنْ يسخر مِنْ هذا المخطَّط. «ماذا، هَلْ تعنين موسيقى الـ إيييي إيياا آآآآ إيي ييييي آآ أووووو تلك؟» قال، وهو يقدِّم عرضًا انطباعيًّا للمقطوعات الَّتِي يمكن العثور عليها في بدء اللَّيالي الموسيقيَّة الهنديَّة، أَوْ في الغرفة الخلفيَّة لمطعمٍ هنديٍّ مصحوبةً بما يرافقها مِنْ حركات الرَّأس. انفجر الفصل في الضَّحِكات العالية مثل النُّحاسيَّات، وردَّدوا المزحة بشكلٍ جماعيٍّ: *إيي إآآآأوو أووااااه إيي أوويييييي*... هذا، مع المحاكاة التهكُميَّة الَّتِي أدَّتها الكمنجات زادا مِنْ إثارة صمد العميقة نصف النَّائمة، وأرسلا خياله إِلَى حديقةٍ، حديقةٍ مغطَّاةٍ بالرُّخام حيث وجد نفسه في زيٍّ أبيضَ يختبئ خلف شجرةٍ كبيرةٍ، يتلصَّص عَلَى بوبي بيرت جونز ملفوفةً بالسَّاري وتضع البِنْدي[1] عَلَى جبهتها، وهي تدور في إغواءٍ داخل وخارج إحدى النوافير، لتظهر أحيانًا، وتختفي أخرى.

«لا أظنُّ ـــ » بدأت بوبي بيرت جونز، وهي تحاول أَنْ ترفع صوتها فوق الـ هوو هاه، ثُمَّ رفعَته عدَّة ديسيبلاتٍ، «لا أظنُّ أَنَّ هذا لطيفٌ جدًّا أَنْ ـــ »، وهنا تراجع صوتها مجدَّدًا إِلَى مستواه الطَّبيعيِّ عندما لاحظ الفصل النَّغمة الغاضبة وهدأوا. «لا أظنُّ أَنَّه مِنَ اللَّطيف جدًّا أنْ نسخر مِنْ *ثقافة شخصٍ آخر*.»

1 ـ زينة هندية توضع في المناسبات على جبهة العروس وتكون بين الحاجبين على شكل نقطة حمراء أو قطعة من الحلي. (المترجم).

غير مدركين أَنَّ ذلك هو ما فعلوه، ولكنْ أدركوا أَنَّ هذا ـ بالتَّحديد ـ أبشع جريمةٍ في كتاب القواعد لمدرسة مانور، طأطأ أفراد الأوركسترا ونظروا بشكلٍ جماعيٍّ إِلَى أقدامهم.

«هَلْ أنتم؟ هَلْ أنتم؟ كيف تشعرين، يا صوفي، إذا سخر أحدهم مِنَ الملكة؟»

حدَّقت صوفي، راسبةٌ غامضةٌ في الثانية عشرةَ مِنْ عمرها، مغطاةً مِنْ رأسها إِلَى قدميها في تلك الأشياء المتنوِّعة لفرق موسيقى الرُّوك، عبر زوجٍ مِنْ نظارات الكوكاكولا.

«لَنْ أحبَّ ذلك، يا آنسة.»

«لا، لَنْ تفعلي، أليس كذلك؟»

«لا، يا آنسة.»

«لأَنَّ فريدي ميركوري[1] مِنْ *ثقافتك*.»

سمع صمد الشَّائعات الَّتي انتشرت بين عموم السُّقاة في القصر والَّتي تفيد أَنَّ ميركوري هو في الواقع الفعليّ شخصيَّةٌ فارسيَّةٌ فاتح البشرة يدعى فاروق، يتذكَّره كبير الطُّهاة مِنْ أيام المدرسة في بانتشجاني بالقرب مِنْ بومباي. ولكن مَنْ يرغب في تمحيص التَّفاصيل؟ ومع عدم رغبته في إيقاف الرائعة بيرت جونز وهي في نوعٍ مِنَ التَّدفُّق، احتفظ صمد بالمعلومة لنفسه.

«أحيانًا نجد موسيقى النَّاس الآخرين غريبةً بسبب أَنَّ ثقافتهم تختلف عَنْ *ثقافتنا*.» قالت الآنسة بيرت جونز بشكلٍ جدِّيٍّ. «ولكنَّ ذلك لا يعني أَنَّها ليست عَلَى نفس القدر مِنَ الجودة، الآن أليس كذلك؟»

«لا، يا آنسة.»

«ونحن نستطيع أَنْ نعرف عَنْ بعضنا بعضًا مِنْ خلال معرفة ثقافة كُلّ منَّا، أليس كذلك؟»

«نعم، يا آنسة.»

«على سبيل المثال، ما الموسيقى الَّتي تحبُّها، يا مِلَّة؟»

فكَّر مِلَّة للحظةٍ، وأرجح السَّاكسفون إِلَى جانبه وبدأ يحرِّك إصبعه عليه مثل

1 ـ ولد في زنجبار باسم فاروق بولسارا، مطرب وموسيقار ومؤلف أغانٍ بريطاني عاش في الفترة بين 5 سبتمبر 1946 حتَّى 24 نوفمبر 1991. واشتهر بأدائه الغنائي مع فرقة كوين. (المترجم).

جيتارٍ. «وو ـ لِد ـ تُ لأر ـ رررركض! دا دا دا دا!!! بروس سبرنجستين[1]، يا آنسة! دا دا دا دا دا!!! يا صغيرتي، لقد ولد ـ نا ـــ.»

«امم، ألا شيء ـ لا شيء آخر؟ شيءٌ تسمعه في *المنزل*، رُبَّما؟»

انخفض وجه مِلَّة، وقَدِ اضطرب لأن إجابته لَمْ تبدُ صحيحةً. نظر نحو والده، الَّذِي يومئ بعشوائيةٍ مِنْ خلف المدرِّسة، محاولًا توصيل الرَّأس المتشنِّج وحركات اليدين لبهاراتا ناتيام[2]، طريقة الرَّقص الَّتِي استمتعت بها ألسانا مرَّةً قبل أَنْ يثقل الحزن قلبها، ويقيِّد الأطفال يديها وقدميها.

«مثثثثيييييرة!»، غنَّى مِلَّة، بملء حنجرته، ظانًّا أَنَّه التقط إيماءة والده. «ليلةٌ مثيرةٌ! لمايكل جاكسون، يا آنسة! مايكل جاكسون!»

وضع صمد رأسه بين يديه. ونظرت الآنسة بيرت جونز بغرابةٍ إِلَى الطِّفل الصَّغير الواقف عَلَى المقعد يدمدم ويحرِّك وسطه أمامها. «حسنًا، شكرًا لك يا مِلَّة. شكرًا لك عَلَى مشاركتنا... ذلك.»

ابتسم مِلَّة ابتسامةً عريضةً. «العفو، يا آنسة.»

بينما اصطفَّ الأطفال لمبادلة عشرين بنسًا بقطعتين من بسكويت دايجيست[3] الجافِّ وكوبٍ مِنْ عصير الفاكهة بلا طعمٍ، تبع صمد مثل نشَّالٍ أثر قدم بوبي بيرت جونز ـ إلى حجرة الموسيقى، غرفةٌ صغيرةٌ بلا نوافذ، بلا أيَّة وسيلةٍ للهرب، ومليئةٌ بالآلات، وخزائن لحفظ الملفَّات مكدَّسةً بالمدوَّنات الموسيقيَّة، ورائحةٍ ظنَّها صمد رائحتها، ولكنَّه تعرف فيها الآن عَلَى مُلمِّع الجلد لعلب الكمان، ممزوجًا برائحة مُليِّنات الأوتار.

«هذا،» قال صمد، وهو يكتشف مكتبًا تحت جبلٍ مِنَ الورق، «مكان عملك؟»

احمرَّت بوبي خجلًا. «صغيرٌ، أليس كذلك؟ يُقتطع مِنْ ميزانيَّة الموسيقى كُلَّ عامٍ حتَّى لَمْ يبق شيءٌ هذا العام ليُقتطع منه. وصل الأمر إِلَى النُّقطة الَّتِي يضعون فيها

1 ـ مغنٍ، وملحن وكاتب أغانٍ أمريكي شهير ولد سنة 1949. من أشهر أغنياته «ولدت لأهرب». طرح كتابًا عن حياته مُؤَخَّرًا. (المترجم).

2 ـ رقصة كلاسيكية هندية من أصول شعبية تعود إلى القرن التاسع عشر في ولاية التاميل. (المترجم).

3 ـ يعرف أيضًا بوجبة البسكويت الحلوة أو الكوكيز، وهو بسكويت نصف محلى من أصل بريطاني، ويعرف في جميع أنحاء العالم. (المترجم).

طاولاتٍ في خزاناتٍ ويدْعُونها مكاتب. إذا لَمْ يكن الأمر لمجلس لندن الكبرى، كان يمكن أَلَّا تكون هناك طاولةٌ حتَّى.»

«إنَّه صغيرٌ بالتَّأكيد،» قال صمد، وهو يمسح الغرفة في يأسٍ بحثًا عَنْ مساحةٍ يمكن أَنْ يقف فيها ويضعها بعيدًا عَنْ متناول ذراعه. «يمكن للمرء عَلَى الأرجح أَنْ يقول: خانقٌ.»

«أعرف، إِنَّه أمرٌ مقرفٌ ـ لكنْ أَلَنْ تجلس؟»

بحث صمد عَنْ مقعدٍ رُبَّما كانت تشير إليه.

«أوه يا إلهي! أنا آسفةٌ! إِنَّه *هنا*»، جرفت أوراقًا، وكتبًا، وقمامةً إِلَى الأرض بيدٍ واحدةٍ، كاشفةً عن كرسيٍّ بدا خطرًا. «لقَدْ صنعته بنفسي ـ ولكنَّه آمنٌ جدًّا.»

«أنت متميِّزةٌ في النِّجارة؟» استفسر صمد، باحثًا مرَّةً أخرى عَنْ أسبابٍ جيِّدَةٍ لارتكاب خطيئة مهلكةٍ. «حِرَفيَّةٌ بالإضافة إِلَى كونك موسِيقيَّةً؟»

«لا، لا، لا ـ لقَدْ ذهبتُ إِلَى عددٍ قليلٍ مِنَ الدِّروس المسائيَّة ـ لا شيءَ خاصًّا. لقَدْ صنعت هذا ومقعدًا للقدمين، ومقعد القدمين انكسر. أنا لستُ ـ أتعرف، *لا أستطيع* التَّمثيل بنجارٍ واحدٍ!»

«هناك المسيح دائمًا.»

«لكنْ لا أستطيع تحديدًا أَنْ أقول ‹أنا لستُ المسيح›... أقصد، مِنَ الواضح أَنَّني لستُ، ولكنْ لأسبابٍ أخرى.»

قعد صمد عَلَى مقعده المتذبذب، بينما ذهبت بوبي بيرت جونز لتجلس على مكتبها. «تعنين أَنَّك لستِ شخصًا صالحًا؟»

رأى صمد أَنَّه أربكها بجدِّيَّته في طرح السُّؤال؛ فقد مررت أصابعها في شعر ناصيتها، وعبثت بِزِرٍّ من صدف السُّلحفاة في بلوزتها، وضحكت برعشةٍ. «أُحبُّ أَنْ أفكِّر أَنَّني لستُ سيِّئةً بالكامل.»

«وهل هذا يكفي؟»

«حسنًا... أنا.....»

«أوه يا عزيزتي، أعتذر...» بدأ صمد. «لَمْ أكن أتحدَّث بجدِّيَّةٍ، يا آنسة بيرت جونز.»

«حسنًا... دعنا نقول: إنَّني لستُ *السَّيِّدَ الإنجليزيَّ التَّقليديَّ* - هذا سيؤدِّي الغرض.»

«نعم،» قال صمد بلطفٍ، وهو يفكِّر مع نفسه في أنَّها تملك ساقين أفضل بكثير مِنْ كرسي الملكة آن، «هذا سيؤدِّي الغرض.»

«الآن: أين كُنَّا؟»

(استخدم عينيه؛ تذكَّر أنَّ النَّاس تعوَّدوا أنْ يقولوا إنَّها عيناه - هذا الفتى الجديد في دلهي، صمد مياه، قالوا، لديه *عينان جديرتان بالموت مِنْ أجلهما*).

«لَقَدْ كنتُ أبحث - أبحث - لَقَدْ كنتُ أبحث عَنْ ملاحظاتي - أين ملاحظاتي؟»

بدأت تقلِّب في كارتها المكتبيَّة، ومال صمد إِلَى الوراء مِنْ جديدٍ عَلَى مقعده، مستمتعًا ما استطاع بحقيقة أنَّ أصابعها، إذا لَمْ يكنْ مخطئًا، بدت كأنَّما ترتجف. هَلْ كانت ثمة *لحظةٌ*، عندها بالتَّحديد؟ هو في السَّابعة والخمسين - هناك عشر سنواتٍ وافرةٌ منذ كانت له لحظةٌ - لَمْ يكن واثقًا عَلَى الإطلاق مِنْ أنَّه كان لينتبه لأيِّ لحظةٍ لو عبرته واحدةٌ. *أنت أيُّها المُسِنُّ*، قال لنفسه وهو يمسُّ وجهه بمنديلٍ، *أنت أيُّها المُسِنُّ الأحمق*. غادِرِ الآن - غادِرْ قبل أَنْ تغرق في ذنوبك الشَّخصيَّة الفائضة (لأنَّه كان يعرق مثل خنزيرٍ)، *غادِرْ قبل أَنْ تزيد الأمر سوءًا*. ولكنْ هَلْ ذلك ممكنٌ؟ هَلْ يمكن أنَّه في الشَّهر الماضي - الشَّهر الَّذِي قضاه يضغط ويريق، يصلِّي ويتسوَّل، يعقد صفقاتٍ ويفكِّر، يفكِّر دائمًا فيها - هَلْ يُمكن أنْ تكون قَدْ ظلَّت تفكر فيه؟

«أوه! بينما أقوم بالبحث... أتذكَّر أنَّ هناك شيئًا ما أردتُ أَنْ أسألك إيَّاه عَنْ هذا اليوم؟»

نعم! قال الصَّوت المجسَّم الَّذِي اتَّخذ موقعه في خصية صمد اليُمنى. أيًّا كان السُّؤال، فالإجابة هي *نعم نعم نعم*. *نعم*، سنمارس الحُبَّ عَلَى هذه الطَّاولة هنا، *نعم*، سنحترق بسبب ذلك، *ونعم*، يا آنسة بيرت جونز، *نعم*، الإجابة لا محالة، بلا مفرٍ، *نعم*. غير أنَّ محادثتهما تواصلت، بشكلٍ ما، في العالم العقلانيِّ عَلَى مسافة أربعة أقدامٍ فوق كيس الخصية، وجاءت الإجابة: «الأربعاء.»

ضحكت بوبي. «لا، لَمْ أقصد في أيِّ يومٍ نحن - لا أبدو شاردةً بهذا القدر، أليس كذلك؟ لا، قصدت أيَّ يومٍ هذا؛ أعني، للمسلمين. فقط، لقَدْ رأيت ماجد في نوعٍ مِنَ

الأزياء، وعندما سألته ما كان لأجله لَمْ يتكلم. لقَدْ خشيتُ بشكلٍ رهيبٍ أَنْ أكون قَدْ أسأتُ إليه بشكلٍ أَوْ بآخر.»

عبس صمد. مِنَ الشائن أَنْ يتمَّ تذكير المرء بأبنائه، عندما يجري هذا المرء حسابات الظِّلّ والصَّلابة لحلمةٍ تؤكِّد ذاتها مِنْ خلال حمَّالة الصَّدر والقميص.

«ماجد؟ أرجوكِ لا تشغلي نفسك بماجد. أنا واثقٌ أَنَّه لَمْ يشعر بإهانةٍ.»

إذن فقَدْ كنتُ عَلَى حقٍّ، قالت بوبي في ابتهاجٍ. «إِنَّه نوعٌ مِنْ، لا أعرف، صيامٌ عن الكلام؟»

«ماذا... نعم نعم،» تلعثم صمد، غير راغبٍ في الكشف عَنْ أزمته الأسريَّة: «إِنَّه رمزٌ مِنَ القرآن... التَّأكيد عَلَى أَنَّ يوم الحساب سيسقطنا جميعًا في البدء فاقدي الوعي. صامتين، هَلْ ترين. وعليه، عليه، عليه فالابن الأكبر في العائلة يرتدي الأسودَ، و، امم، يترفَّع عَنِ الكلام لـ.. فترةٍ مِنْ... مِنَ *الوقت*، كعمليَّةٍ لـ*ـلتَّطهير*.»

يا إلهي الحبيب.

«أها. ذلك رائعٌ فعلًا. وماجد هو الأكبر؟»

«بدقيقتين.»

ابتسمت بوبي. «ذلك فقط، إذن.»

«دقيقتان،» قال صمد في صبرٍ، كونه يتحدَّث إِلَى واحدةٍ لا تملك أَيَّ معرفةٍ عَنِ المدى الَّذِي تؤثِّر فيه فتراتٌ صغيرةٌ كهذه مِنَ الزَّمن عَلَى مدار تاريخ عائلة إقبال، «صنعتا كُلَّ الفرق.»

«وهَلْ لهذه العملية اسمٌ؟»

«*عمار دوربول لاجشي*.»

«وماذا يعني؟»

التَّرجمة الحرفيَّة: *أنا أشعر بالضَّعف*. إِنَّها تعني: يا آنسة بيرت جونز، أَنَّ كُلّ جزءٍ منّي يشعر *بالضَّعف مِنَ الرَّغبة في تقبيلك*.

«إِنَّه يعني،» قال صمد بصوتٍ عالٍ، وبكُلِّ ثقةٍ: «عبادة الفم المغلق للخالق.»

«*عمار دوربول لاجشي*، واو،» قالت بوبي بيرت جونز.

«بالتَّأكيد»، قال صمد مياه.

انحنت بوبي بيرت جونز إِلَى الأَمَامِ، فِي مقعدها. «لا أعرف... بالنِّسبة إليَّ، فالأمر يشبه ذلك الأداء المستحيل مِنَ التَّحكُّم في النَّفس. نحن ـ فقط ـ ليس لدينا هذا في الغرب ـ هذا الشُّعور بالتَّضحية ـ لَدَيَّ بالفعل الكثير مِنَ الإعجاب بهذا الشُّعور الَّذِي يملكه النَّاس لديكم للعفَّة، لضبط النَّفس.»

عند تلك النُّقطة ركل صمد الكرسيَّ تحته كرجل يشنق نفسه، والتقى شفتي بوبي بيرت جونز الثرثارتين بشفتيه المحمومتين.

الفصل السابع
ضروس

وخطايا الأب الشَّرقيّ سوف تتكرَّر في الأبناء الغربيِّين. غالبًا ما تستغرق وقتًا، مخزونةً في جيناتهم مثل الصَّلع أوْ سرطان الخصية، ولكنَّها تكون أحيانًا في نفس اليوم. أحيانًا في اللَّحظة ذاتها. عَلَى الأقلّ، فذلك سوف يفسِّر كيف أنَّه بعد أسبوعين، ضمن مهرجان الحصاد الكهنوتيّ السَّلتيّ لشعوب الغال، أمكن العثور عَلَى صمد يغلِّف قميصه الوحيد الَّذي لَمْ يرتدِه للمسجد (*كُلُّ شيءٍ طاهرٌ للطَّاهرين*) في حقيبةٍ بلاستيكيَّةٍ، فلرُبَّما بدَّل ملابسه فيما بعد كَيْ يلتقي الآنسة بيرت جونز (4:30، عند ساعة هارلزدن) بدون أَنْ يثير الشبهات... بينما دسَّ ماجد ومِلَّة الَّذي ـ بالكاد ـ تغيَّر رأيه، أربع علب حُمُّصٍ لَمْ تنته صلاحيتها، وكيسًا مِنْ أصابع البطاطس المقليَّة المتنوِّعة، وبعض التُّفاحات في حقيبتي ظَهرٍ (*لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك*)، استعدادًا للقاء أيرِي (4:30، عند شاحنة الآيس كريم)، وزيارة الرَّجل المسنّ الَّذي تقرَّر أَنْ يزوروه، الرَّجل الَّذي سيقدِّمون إِلَيه الإحسان الوثنيّ، السَّيِّد ج. ب. هاميلتون، في كانسال رايز.

بدون أَنْ يعلم جميع ذوي العلاقة، كان هناك خطٌّ وهميٌّ يجري تحت هاتين الرِّحلتين ـ أَوْ، لنضع الأمر في تعبيرٍ حديثٍ، فالأمر بمثابة إعادة عرضٍ. لقَدْ كُنَّا هنا مِنْ قبل. يشبه مشاهدة التِّليفزيون في بومباي أَوْ كينجستون أَوْ دكا، مشاهدة نفس المسلسلات الكوميديَّة البريطانيَّة القديمة الَّتي تبثُّ للمستعمرات القديمة في حلقةٍ واحدةٍ مملَّةٍ لا تنتهي. لأَنَّ المهاجرين معرَّضون بشكلٍ ما للتَّكرار دائمًا ـ هناك علاقةٌ للأمر مع خبرة الانتقال مِنَ الشَّرق إِلَى الغرب أَوْ مِنَ الغرب إِلَى الشَّرق أَوْ مِنْ جزيرةٍ إِلَى جزيرةٍ. وحتَّى عندما تصل، فأنت لا تزال في طريق العودة أَوْ نحو الأمام؛ ويظلُّ أبناؤك يذهبون في جولةٍ إثر جولةٍ. ليس هناك مصطلحٌ مناسبٌ لذلك ـ يبدو *الخطيئة الأولى*

قاسيًا جدًّا؛ ربَّما الصَّدمة الأولى سيكون أفضل. فالصَّدمة شيءٌ يكرِّره المرء ويكرِّره، رغم كُلِّ شيءٍ، وهذه هي مأساة عائلة إقبال- أَنَّهم لا يملكون شيئًا سوى إعادة الاندفاعة الَّتِي قاموا بها ذات مرَّةٍ مِنْ أرضٍ إِلَى أخرى، ومِنْ إيمانٍ إِلَى آخر، ومِنْ البلد البُنِّيَّة الأُمّ إِلَى الذِّراعين الشَّاحبتين المنمَّشتين للعاهل الإمبراطوريّ. سوف يستغرق الأمر عدَّة إعاداتٍ قبل أَنْ ينتقلوا إِلَى اللَّحن التَّالي. وهذا ما ظَلَّ يحدث بينما تخيط ألسانا في صخبٍ عَلَى ماكينتها السِّينجر الوحشيَّة، غرزاتٍ مزدوجةٍ حول الفراغ في إزارها المفتوح، غافلةً عَنِ الأب والابنين الَّذِين يتسللون في المنزل، يعبئون الملابس، ويكدِّسون المؤن. إنَّه تجلِّي التِّكرار. إِنَّها اندفاعةٌ بين القارَّات. إِنَّها إعادة تشغيلٍ. ولكن واحدًا واحدًا - الآن - واحدًا واحدًا...

***

الآن، كيف يستعدُّ الصَّغير للقاء الكبير؟ بنفس الطَّريقة الَّتِي يستعدُّ الكبير بها للقاء الصَّغير: ببعض التَّسامح؛ مع توقُّعاتٍ متواضعةٍ عَن عقلانيَّة الآخر، ومع معرفة أَنَّ الآخر سوف يجد ما يقال عصيًّا عَلَى الفهم؛ أَنَّه يتجاوزهم (ليس فيما وراء الرَّأس أكثر منه بين السَّاقين)؛ ومع الشُّعور بأَنَّهم ينبغي أَنْ يصلوا ومعهم شيءٌ يحبَّه الآخر، شيءٌ مناسبٌ. مثل بسكويت جاريبالدي[1].

«إِنَّهم يحبُّونه،» أوضحَت أَيرِي عندما استعلم التوأم عَنْ خيارها، بينما مضى ثلاثتهم نحو وجهتهم في الطَّابق العلويِّ مِنَ الباص رقم 52: «إِنَّهم يحبُّون الزَّبيب فيه. كبار السِّنِّ يحبُّون الزَّبيب.»

امتعض مِلَّة، مِنْ تحت شرنقة توميترونه: «لا أحد يحبُّ الزَّبيب. عنبٌ ميِّتٌ - (يععع). مَنْ يرغب في أكله؟»

«*كبار السِّنِّ يفعلون،*» أصرَّت أَيرِي، وهي تحشر البسكويت في حقيبتها مرَّةً أخرى. «وهو ليس ميِّتًا، في *الحقيقة*، إنَّه مُجفَّفٌ.»

«نعم، بعد أَنْ مات.»

«اخرس يا مِلَّة. ماجد، اخبره أَنْ يخرس!»

1 - نوع من البسكويت البريطاني المحشو بالزبيب. (المترجم).

دفع ماجد نظّارته حتّى أعلَى عظمة أنفه، وغيّر الموضوع بدبلوماسيّةٍ: «ماذا لديكِ أيضًا؟»

تحسّست أيرِي حقيبتها. «جوزة هندٍ.»

«جوزة هندٍ!»

«لمعلوماتك،» قاطعته أيرِي، وهي تبعد الجوزة عَنْ متناول مِلّة. «كبار السّنّ يحبّون جوز الهند. يمكنهم استخدام الحليب لشايهم.»

دفعت أَيرِي وجه مِلّة الّذي يدّعي التّقيُّؤ. «ولدَيَّ بعض الخبز الفرنسيّ اليابس وبعض مقرمشات الجبن وبعض التُّفّاح ـــ.»

«*الدينا* تفّاح، يا *رئيس*،» قاطعها مِلّة: كانت «رئيس» لسببٍ غير مفهومٍ تختبئ في عاميّة أهل شمال لندن، بمعنى *أحمق*، *أَوْ حمارٍ*، *أَوْ ممارسٍ للعادة السّرّيّة*، أَوْ فاشلٍ في معظم استخداماتها.

«حسنًا، لديّ بعض التُّفّاحات *الإضافيّة الأفضل*، *في الواقع*، وبعض كعك كندال بالنعناع وبعض الأكي والسّمك المملّح.»

«*أكره* الأكي والسّمك المملّح.»

«مَنْ قال إنّكَ *كنتَ* ستأكله؟»

«لا *أريد* أَنْ أفعل.»

«حسنًا، أنت *لَنْ* تفعل.»

«حسنًا، جيّد، لأنّني لا *أريد* أَنْ أفعل.»

«حسنًا، جيّد، لأنّني لَمْ أكن لأسمح لك حتّى لَوْ كنت *تريد* أَنْ تفعل.»

«حسنًا، هذا حظٌّ سعيدٌ، لأنّني *لا أفعل. يا للعار*،» قال مِلّة: وبدون أَنْ ينزع *التّوميترونيك* الخاصّ به. وصمها، كما كانت الطّريقة تقليديًّا، بسحب كفّه عَلَى جبين أيرِي. «*عارٌ في الدّماغ*.»

«حسنًا، في *الواقع*، لا تقلق نفسك، لأنّك لَنْ تحصل عليها ـــ.»

«أوووه، *أنت في مأزقٍ*! أنت في مأزقٍ!» ولول ماجد، وهو يفرك كفّيه. «أنت موصومٌ، يا رجل!»

«*في الواقع*، لَمْ أوصم، *أنتما* الموصومان، لأَنَّ ذلك للسيِّد ج. ب. هاميلتون ـــ.»

«**محطتنا!**» صرخ ماجد، في تهوُّرٍ وسحب سلك الجرس مرَّاتٍ كثيرةٍ جدًّا.

«*لَوْ سألتَني*،» قال متقاعدٌ مسنٌّ ساخطٌ إِلَى آخر: «*ينبغي أَنْ يذهب كُلُّ واحدٍ منهم إِلَى بلده....*»

ولكنَّ هذه، الجملة الأقدم في العالم، وجدَت نفسها تختنق في رنين الجرس ودبدبة الأقدام، حتَّى تراجعت تحت المقاعد مع العلكة.

«عارٌ عليك، عارٌ عليك، نعرف اسمك،» ردَّد ماجد. واندفع ثلاثتهم إِلَى الأسفل وإِلَى خارج الباص.

***

والباص رقم 52 يذهب في اتِّجاهين. مِنْ مرصد ويلْزدِن ، يمكن للمرء أَنْ يستقلَّه نحو الجنوب، كما فعل الأطفال، عبر كانسال رايز، إِلَى بورتوبيللو، إِلَى نايتس بريدج، ويشاهد الظِّلال العديدة الملوَّنة الَّتِي تنبعث مِنَ الأضواء البيضاءِ المشرقة للمدينة، أَوْ يمكنكَ التَّوجه شمالًا، كما فعل صمد، مِنْ ويلْزدِن، إِلَى دوليز هيل، إِلَى هارلزدن، وتشاهد برهبةٍ (إذا كنتَ هيَّابًا مثل صمد، إذا كان كُلُّ ما تعلمته مِنَ المدينة هو أَنْ تعبر الشَّارع عند رؤية رجالٍ ذوي بشرةٍ داكنةٍ) البياض يتلاشى إِلَى الصُّفرة إِلَى اللون البُنِّيِّ، ثُمَّ تأتي ساعة هارلزدن إِلَى المشهد، واقفةً مثل تمثال الملكة فيكتوريا في كينجستون، جامايكا - حجرًا أبيضَ طويلًا، محاطًا بالسَّواد.

أصيب صمد بالمفاجأة، *نعم المفاجأة*، كونها هارلزدن ما همست له به عندما ضغط عَلَى يدها بعد القبلة - تلك القبلة الَّتِي لا يزال يشعر بمذاقها - وتساءل أين يمكن أنْ يجدها، بعيدًا عَنْ هنا، بعيدًا عَنْ هنا («*أولادي، وزوجتي*،» تمتم بشكلٍ غير مترابطٍ)؛ متوقِّعًا «إزلينجتون» أَوْ ربما «غرب هامبستيد» أَوْ عَلَى الأقل «الكوخ السويسريّ» ليحصل بدلًا مِنْ ذلك عَلَى: «هارلزدن. أنا أعيش في هارلزدن.»

«عقارات ستونبريدج؟»، سأل صمد - قَلِقًا - بعينَين واسعتَين تجاه الطُّرق المبتكرة الَّتِي أوجدها الله لمعاقبته، متصوِّرًا نفسه يعتلي حبيبته الجديدة مع سكِّين عصاباتٍ بطول أربع بوصاتٍ في ظهره.

«لا ـ ولكنْ ليس بعيدًا عنها. هَلْ تريد أَنْ نلتقي هناك؟»

كان فم صمد هو المسلَّح الوحيد عَلَى ربوة معشبةٍ في ذلك اليوم، يدمِّر مخَّه ويسلِّم نفسه للسُّلطة، في الوقت نفسه.

«نعم. أوه، اللَّعنة! نعم.»

ثُمَّ قبَّلها عند ذلك مرَّةً أخرى، محوِّلًا شيئًا ما عنيفًا نسبيًّا إِلَى شيءٍ آخر، وهو يعصر صدرها في يده اليسرى، مستمتعًا بشهقاتها الحادَّة وهو يفعل ذلك.

ثُمَّ كان بينهما ذلك الالتزام المتبادل القصير الَّذِي ينبغي لهؤلاء الَّذِين يغشُّون أَنْ يقوموا به لكَيْ يشعروا بأَنَّهم أقلُّ غشًّا مِنْ هؤلاء الَّذِين يغشُّون.

«لَمْ يكن عليَّ، فعلًا ـــ»

«لستُ متأكِّدًا، عَلَى الإطلاق، كيف ـــ»

«حسنًا، نحن نحتاج إِلَى أَنْ نلتقي، لنناقش عَلَى الأقل ما ـــ»

«بالتَّأكيد، هذا الَّذِي حدث نحتاج إِلَى أَنْ نناقش ـــ»

«لأَنَّ شيئًا ما حدث هنا، لكنْ ـــ»

«زوجتي... أبنائي....»

«دعنا نمنح الأمر بعض الوقت... أسبوعين، الأربعاء؟ الرَّابعة والنِّصف؟ ساعة هارلزدن؟»

يمكنه، عَلَى الأقلِّ، في تلك الفوضى البائسة، أَنْ يهنِّئ نفسه عَلَى توقيته: 4:15 الوقت الَّذِي نزل فيه مِنَ الباص، ما منحه خمس دقائق لكَيْ يدلف إِلَى دورة مياه ماكدونالد (الَّتِي لها حرَّاسٌ سودٌ عَلَى الباب، حرَّاسٌ سودٌ لكَيْ يبعدوا السُّود)، واندفع مِنْ أضواء المطعم في بذلةٍ زرقاءَ داكنةٍ، مع قميصٍ صوفٍ رماديٍّ برقبةٍ مثلَّثةٍ، والجيب الَّذِي احتوى عَلَى مشطٍ لمعالجة شعرْه الكثيف إِلَى هيئةٍ مهذَّبةٍ. في ذلك الوقت كانت 4:20، خمس دقائق لزيارة ابن العم حكيم وزوجته زينات اللَّذين يديران محلًّا لكُلِّ شيءٍ بجنيهٍ + 50 بنسًا (نوعٌ مِنَ المحلَّات الَّتِي تتاجر بافتراضٍ زائفٍ أَنَّها لا تبيع أَيَّ سلعةٍ أعَلَى مِنْ هذا السِّعر، ولكنَّ الفحص الدَّقيق يثبت أَنَّ هذا السِّعر هو الحد الأدنى للشِّراء) واللَّذَين قصد أَنْ يزورهما لكَيْ يوفِّر لنفسه حجَّة غيابٍ.

«صمد مياه، أوه! تبدو أنيقًا جدًّا اليوم - لا يمكن أَنْ يكون ذلك بدون سببٍ.»

زينات محل: فمٌ في اتِّساع قناة بلاكوول وكان صمد يعوّل عليه.

«شكرًا لك يا زينات،» قال صمد، وهو يبدو مراوغًا عَنْ قصدٍ. «أَمَّا بالنِّسبة إِلَى السَّبب... فأنا لستُ واثقًا أَنَّني ينبغي أَنْ أقول.»

«صمد! إنَّ فمي مثل قبرٍ! أَيًّا كان ما تقوله فإنَّه سيموت معي.»

أَيًّا كان ما يقال لزينات فهو يشَغِّل دائمًا شبكة التِّليفونات، متردِّدًا عبر كُلِّ الهوائيَّات، وموجات الرَّاديو، والأقمار الصِّناعية عَلَى طول الطَّريق، مُلتقَطًا مِنْ قِبَلِ الحضارات الغريبة فيما ينعكس عبر الغلاف الجويِّ للكواكب البعيدة عَنْ كوكبنا.

«حسنًا، الحقيقة هي....»

«بحقِّ الله، ادخل في الموضوع!»، ناحت زينات، الَّتِي كانت الآن عَلَى النَّاحية الثَّانية مِنْ طاولة المتجر تقريبًا، وبالفرحتها بالقيل والقال. «إلى أين أنت ذاهبٌ؟»

«حسنًا... أنا في طريقي للقاء رجلٍ في بارك رويال بخصوص التَّأمين عَلَى الحياة. أريد لألساناي أَنْ يتوفَّر لها ما يكفي بعد وفاتي - ولكنْ!» قال، وهو يهزُّ إصبعًا نحو المحقِّقة المغطَّاة بالجواهر أمامه، الَّتِي وضعت الكثير مِنْ ظلال العينين، «أنا لا أريدها أنْ تعرف! الأفكار عَنِ الموت بغيضةٌ بالنِّسبة إليها، يا زينات.»

«هَلْ تسمع ذلك يا حكيم؟ بعض الرِّجال ينشغلون عَلَى مستقبل زوجاتهم! اذهب - اخرج مِنْ هنا، لا تدعني أعطِّلك، يا ابن عمي. ولا تقلق،» صاحت عليه، وهي تصل إِلَى التِّليفون في الوقت نفسه بأظافرها الطَّويلة المعقوفة، «لَنْ أقول كلمة واحدة لألسي.»

تمَّت الحُجَّة، وبقيت ثلاث دقائق لصمد ليفكِّر فيما يُحضره رجل مسنٌّ لفتاةٍ شابَّةٍ؛ شيءٌ يحضره رجلٌ بنِّيٌّ مُسنٌّ لفتاةٍ بيضاءَ شابَّةٍ في تقاطع الطَّريق بين أربعة شوارع سوداء؛ شيءٌ مناسبٌ...

«جوزة هندٍ؟»

تناولت بوبي بيرت جونز الشَّيء المُشعر في يديها ونظرت إِلَى صمد بابتسامةٍ حائرةٍ.

«إِنَّها شيءٌ محيِّرٌ،» بدأ صمد متوتِّرًا. «بعصيرٍ يشبه الفاكهة، ولكنَّه صُلبٌ كالجوز. بُنِّيٌّ وقديمٌ في الخارج، وأبيضُ وطازجٌ في الدَّاخل. ولكنَّ المزيج ليس - في اعتقادي - سيِّئًا. نحن نستخدمه أحيانًا،» أضاف، وهو لا يعرف ماذا يمكن أَنْ يقول أيضًا، «في الكاري.»

ابتسمت بوبي؛ ابتسامةً رائعةً أبرزَت كُلَّ الجمال الطَّبيعيِّ في هذا الوجه وفيها، وفكَّر صمد، هَلْ هناك شيءٌ أفضل مِنْ هذا، شيءٌ بلا خجلٍ فيه، شيءٌ أفضل وأنقى ممَّا يفعلان.

«إنَّها رائعةٌ،» قالت.

***

خارجًا في الشَّارع، وعَلَى مسافة خمس دقائق مِنَ العنوان في دفاترهم المدرسيَّة، ظَلَّت أَيرِي تشعر بلسعةٍ ساخنةٍ مِنْ تعكّر المزاج بسبب الوصم، وأرادَت إعادة الجولة.

«أصادر تلك،» قالت، وهي تشير إلَى درَّاجةٍ بخاريَّةٍ محطَّمَةٍ تقريبًا، تميل بجوار نفق كانسال رايز. «أصادر تلك، وتلك،» مشيرةً إلَى اثنتين مِنْ درَّاجات السِّباق بجوارها.

قفز مِلَّة وماجد إلَى العمل. كانت ممارسة «مصادرة» شيءٍ ما، حيث تطالب، كما المستعمرين الَّذِين وصلوا حديثًا، بالأشياء الموجودة في الشَّارع، الَّتِي لا تنتمي إليك، معروفةً ومحبوبةً جدًّا مِنْ قبلهم جميعًا.

«شكرًا، يا رجل! هَلْ تصدِّق، لا أريد أَنْ *أصادر* هذه الفضلات،» قال مِلَّة باللَّهجة الجامايكية الَّتِي يستخدمها الأطفال، أيًّا كانت جنسيَّاتهم، للتعبير عَنْ الاحتقار. «أنا أصادر تلك،» قال، مشيرا إلَى إم جي حمراءَ صغيرةٍ لامعةٍ مُثيرةٍ للإعجاب توشك أَنْ تنعطف في الزَّاوية. «*وتلك!*» صاح، وهو يصل إلَى هناك قبل ماجد، حيث هدرت بي إم دبليو أمامهما. «يا رجل، أنت تعرف أَنَّنِي أصادر تلك،» قال لماجد، الَّذِي لَمْ يجادل. «بوضوحٍ.»

حوَّلت أَيرِي، المكتئبة بعض الشَّيء مِنْ هذا التغيُّر في الأحداث، عينيها عَنِ الطَّريق إلَى الأرض، حيث أصابتها فجأةً ومضةٌ مِنَ الإلهام.

«أصادر هذين.»

توقَّف ماجد ومِلَّة ونظرا في رهبةٍ إلَى فردتي النَّايكي البيضاوين الرَّائعتين اللَّتَين كانتا ـ الآن ـ في حيازة أَيرِي (مع علامتين واحدةٍ حمراءَ، وواحدةٍ زرقاءَ، جميلتين جدًّا، كمَّا علَّق مِلَّة فيما بعد، تجعلانك تريد أَنْ تقتل نفسك) عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّهما بدتا للعين المجرَّدة ماشيتين في اتِّجاه كوينز بارك ملتصقتين بطفلٍ أسودَ أنيقٍ وطويلٍ يبعث عَلَى الرَّهبة.

هزَّ مِلَّة رأسه عَلَى مضضٍ. «احترامي *لذلك*. أتمنَّى لَوِ امتلكتُهما.»

«أصادرا»، قال ماجد فجأة، دافعًا إصبعه القذرة نحو زجاج نافذة أحد المحلّات في اتجاه مجموعة كيمياء بطول أربعة أقدام مع وجه شخصيَّة تليفزيونيَّةٍ مسنَّةٍ في المقدِّمة.

ضغط النَّافذة بإبهامه. «واو! أنا أصادر تلك!»

تبع ذلك صمتٌ وجيزٌ.

«أنت *تصادر تلك*؟»، سأل مِلَّة، في ارتيابٍ. «*تلك*؟ مجموعة كيمياءٍ؟»

وقبل أَنْ يعرف المسكين ماجد أين هو، وجهت كفَّان صفعةً شرسةً إِلَى جبهته، وفركتاها بشدَّةٍ لتأكيد الأمر. منح ماجد أَيرِي نظرة مِنْ نوع حتَّى *أنت يا* بروتس المتوسِّلة، وهو يعرف أنها عديمة الجدوى. ليست هناك نزاهةٌ بين مَنْ تُراوح أعمارهم العشر سنواتٍ.

«*عارٌ! عارٌ! أعرف اسمك!*»

«ولكنَّ السَّيِّد ج. ب. هاميلتون،» ناح ماجد مِنْ حرارة الوصم. «نحن هنا الآن. منزله هناك بالكاد. إنَّه شارعٌ هادئٌ، لا يمكنك أَنْ تُحدث كُلَّ هذا الضَّجيج. إنَّه مُسنٌّ.»

«ولكن إذا كان مُسنًّا، فسيكون أصمَّ،» برَّر مِلَّة. «وإذا كنتَ أصمَّ فأنت لا تسمع.»

«الأمر لا يعمل عَلَى هذه الصُّورة. إنَّه أمرٌ صعبٌ عَلَى المسنِّين. أنت لا تفهم.»

«هو عَلَى الأرجح مسنٌّ جدًّا إِلَى الحدِّ الَّذِي يصعب معه عليه إخراج الأشياء مِنَ الحقائب،» قالت أَيرِي. «ينبغي لنا أَنْ نخرجها ونضعها في أيدينا.»

اتَّفقوا عَلَى ذلك، واستغرق الأمر بعض الوقت لترتيب الموادِّ الغذائيَّة في الأيدي وانحناءات الجسم، وهكذا فقد «يفاجِئون» السَّيِّد ج. ب. هاميلتون بمدى خيريتهم عندما يجيب الباب. وفي مواجهة ثلاثة مِنَ الأطفال سمر البشرة ممسكين بعددٍ لا يُحصى مِنَ القذائف عَلَى عتبة بابه، فوجئ السَّيِّد ج. ب. هاميلتون كما ينبغي. كان مسنًّا بالقدر الَّذِي توقَّعوه، ولكن أطول بكثيرٍ وأكثر نظافةً. فتح الباب قليلًا فقط، محتفظًا بيده، بالكمِّ الضَّخم مِنَ الأوردة الزَّرقاءِ فيها، عَلَى مقبض الباب، فيما أطلَّت رأسه مِنَ الإطار. بالنِّسبة إلى أَيرِي فقدْ ذكَّرها ببعض النُّسور المسنَّة الشَّامخة: خصلاتٌ مِنَ الشَّعر تشبه الرِّيش برزت مِنَ الأذنين، وأزرارٌ للأكمام والياقة، مع رذاذٍ أبيضَ عَلَى

جبينه، وأصابعه في وضعيَّةٍ متشنِّجةٍ مثل المخالب، وكان متأنِّقًا كما يمكن للمرء أَنْ يتوقَّع طائرًا إنجليزيًّا مسنًّا في بلاد العجائب - صدريَّةٌ مِنْ جلد الغزال وجاكيت مِنَ التُّويد، وساعةٌ في سلسلةٍ ذهبيَّةٍ.

تألَّق مثل طائر العقعق، باللَّمعة الزَّرقاءِ في عينيه محاطةً بالإطار الأبيضِ والأحمرِ، وبوميض خاتمٍ منقوشٍ، وأربع ميداليَّاتٍ فضيَّةٍ تتدلَّى بجوار قلبه، وحافَّةٍ فضيَّةٍ لعلبة سجائر سينيور سيرفس تطلُّ مِنْ جيب الصَّدر.

«رجاءً،» جاء الصَّوت مِنَ الرَّجل الطَّائر، صوتٌ يمكن حتَّى للأطفال أَنْ يشعروا أَنَّه مِنْ مستوًى مختلفٍ، مِنْ حقبةٍ مختلفةٍ. «ينبغي أَنْ أطلب منكم أَنْ تزيلوا أنفسكم مِنْ عَلَى عتبة بابي. ليست لديَّ أموالٌ عَلَى الإطلاق؛ لذا إِنْ كانت نيَّتكم السِّرقة أَوِ البيع فأنا أخشى أَنَّكم ستصابون بخيبة أملٍ.»

تقدَّم ماجد إلى الأمام، محاولًا أَنْ يُموضع نفسه في خطِّ رؤية الرَّجل المسنِّ، لأَنَّ العين اليسرى الزَرقاءَ مثل تبعثر رايلي، نَظَرَتْ متجاوزةً إِيَّاه، بينما كانت اليمنى مجعَّدةً جدًّا بحيث بَدَتْ مفتوحةً بصعوبةٍ. «يا سيِّد هاميلتون، ألا تتذكَّر، المدرسة أرسلتنا، تلك هي —»

قال: «مع السَّلامة الآن،» كما لو كان يودِّع عمَّته الكبرى للشُّروع في رحلة قطارٍ، ثُمَّ مرَّةً أخرى «مع السَّلامة.» ومِنْ خلال لوحَين مِنَ الزُّجاج الملوَّن الرَّخيص في الباب المغلق رأى الأطفال هيئة السَّيِّد هاميلتون الممتدَّة، غير واضحةٍ كما لَوْ بفعل السُّخونة، يمشي ببطءٍ مبتعدًا عنهم عَلَى طول الممرِّ حتَّى اندمجَت الظِّلال البُنِّيَّة منه مع الظِّلال البُنِّيَّة للأثاث المنزليِّ واختفَت الأولى تمامًا.

أنزل مِلَّة *التُّوميترونيك* الخاصَّ به إِلَى حول عنقه، وعبس، ثُمَّ سحق جرس الباب بقبضته الصَّغيرة في عمدٍ، وظلَّ يضغط عليه.

«رُبَّما،» اقترحَتْ أيري، «هو لا يريد الأشياء.»

حرَّر مِلَّة جرس الباب لفترةٍ وجيزةٍ. «ينبغي أَنْ يريدها. لقَدْ طلبها،» هدر وهو يضغط الجرس ثانيةً بكلِّ قوَّته. «إنَّه حصاد الرَّبِّ، أليس كذلك؟ يا سيِّد هاميلتون! يا سيِّد ج. ب. هاميلتون!»

وعندئذٍ بدأت عمليَّة الاختفاء تلك في التَّراجع فيما أعاد السَّيِّد ج. ب. هاميلتون نفسه عبر ذرَّات السُّلَّم والخزانة حتَّى عاد كبيرًا مثل كائنٍ حيٍّ مَرَّةً أُخرى، وأطلَّ مِنَ الباب.

دفع مِلَّة - بنفاد صبرٍ - ورقة معلومات مدرستهَ إِلَى يد السَّيِّد هاميلتون. «إنَّه حصاد الرَّبِّ.»

ولكنَّ الرَّجُل المسنَّ هزَّ رأسه مثل طائرٍ في حمَّام الطُّيور. «لا. لا. لَنْ يتمَّ حقًّا ترهيبي للشِّراء عَلَى عتبة بابي. لا أعرف ما الَّذِي تبيعونه - أرجو الله ألَّا تكون موسوعاتٍ - في عمري لا يطلب المرء المزيد مِنَ المعلومات، بل الأقل.»

«ولكنَّها مجَّانيَّةٌ!»

«أوه... نعم، أرى... لماذا؟»

«إنَّه حصاد الرَّبِّ،» كرَّر ماجد.

«مساعدة المجتمع المحلِّيِّ. يا سيِّد هاميلتون، لا بُدَّ أنَّك تحدَّثتَ إِلَى مدرستنا، لأنَّها أرسلتنا إِلَى هنا. ربَّما نسيتَ الأمر»، أضافت أيرِي بصوتها النَّاضج.

مسَّ السَّيِّد هاميلتون صدغه في حزنٍ، كما لَوْ لكَيْ يستعيد ذاكرته، ثُمَّ بعدها وببطءٍ أكثر ممَّا مضى فتح بابه الأماميَّ عَلَى اتساعه، وأخذ خطوةً منفرجةً إِلَى الأمام نحو ضوء الشَّمس الخريفيَّة. «حسنًا... مِنَ الأفضل أَنْ تدخلوا.»

تبعوا السَّيِّد هاميلتون إِلَى ظلمة ردهة بيت بلديَّةٍ. مملوءةٍ حتَّى آخرها بمخلَّفات وحطام العصر الفيكتوريِّ، تتخلَّلها علاماتٌ عَلَى حياةٍ أكثر حداثةً - درَّاجات أطفالٍ محطَّمةٌ، وألعابٌ مهملةٌ لتعلُّم *النُّطق والهجاء*، وأربعة أزواجٍ مِنَ الأحذية الموحلة طويلة الرَّقبة في أحجامٍ عائليَّةٍ مختلفةٍ.

«الآن،» قال بابتهاجٍ، بينما وصلوا إِلَى غرفة المعيشة بنوافذها الخارجيَّة الجميلة الَّتِي يمكن مِنْ خلالها رؤية حديقةٍ واسعةٍ، «ماذا لدينا هنا؟»

أفرج الأطفال عَنْ حمولتهم إِلَى كرسيِّ استرخاءٍ أكلته العثَّة، وعدَّد ماجد المحتويات مثل عناصر في لائحة مشترياتٍ، بينما أشعل السَّيِّد هاميلتون سيجارةً وتفقَّد عناصر النُّزهة الحضريَّة بأصابع خَرِفةٍ.

«تفّاحاتٌ... أوه، يا عزيزي، لا... حمُّصٌ... لا، لا، لا، أصابع البطاطس....»

مضى الأمر عَلَى هذا النَّحو، كُلُّ مادَّةٍ تُنتقى في دورها تتعرَّض للانتقاد، حتَّى نظر الرَّجُل المسنُّ إليهم بدموعٍ باهتةٍ في عينيه. «لا أستطيع أَنْ آكل أيًّا مِنْ هذا، هَلْ ترون... صعبٌ جدًّا، صعبٌ للأسف جدًّا. كُلُّ ما يمكنني التَّعامل معه ربَّما هو هذا الحليب في جوزة الهند تلك. ومع ذلك... سنتناول الشَّاي، أليس كذلك؟ ستبقون لتناول الشَّاي؟»

نظر الأطفالُ إليه في ذهولٍ.

«هيَّا يا أعزَّائي، اجلسوا.»

تحرَّكت أَيرِي وماجد ومِلَّة في توتُّرٍ عَلَى طول الأريكة. ثُمَّ كان هناك صوت قرقعةٍ وعندما تطلَّعوا كانت أسنان السَّيِّد هاميلتون عَلَى لسانه، كما لَوْ أَنَّ فمًّا ثانيًا خرج مِنَ الأوَّل. ثُمَّ في ومضةٍ عادت إِلَى مكانها.

«إنَّنِي ـ ببساطةٍ ـ لا أستطيع أكل أَيَّ شيءٍ ما لَمْ يكنْ مهروسًا مُسبقًا، هل ترون. إِنَّه خطئي. سنواتٌ وسنواتٌ مِنَ الإهمال. تنظيف الأسنان ـ لَمْ يكن أولويَّةً أبدًا في الجيش.» أشار إِلَى نفسه بطريقةٍ خرقاء، بطعنةٍ خرقاء في صدره وهو يهزُّ رأسه. «لقَدْ كنتُ رجل جيشٍ، أنتم ترون. والآن: كَمْ مرَّةً تفرِّشون أسنانكم أيُّها الشَّباب؟»

«ثلاث مرَّاتٍ في اليوم،» قالت أَيرِي، كاذبةً.

«الكذَّاب!» ردَّد مِلَّة وماجد. «سراويله في النَّار!»

«مرَّتين ونصفًا.»

«حسنًا، يا عزيزتي، ما هي؟» قال السَّيِّد هاميلتون، وهو يعدل بنطلونه بيدٍ ويرفع شايه بالأخرى.

«مرَّةً في اليوم،» قالت أَيرِي، والاهتمام في صوته يقنعها بقول الحقيقة. «معظم الأيَّام.»

«أخشى أَنْ تندمي عَلَى ذلك. وأنتما الاثنان؟»

كان ماجد في منتصف طريقه لصياغة بعض الخيال التَّفصيليِّ لماكينة تفريش أسنانٍ تقوم بذلك بينما أنت نائمٌ، ولكنَّ مِلَّة كان صادقًا. «نفس الشَّيء. مرَّةً في اليوم. أكثر أَوْ أقلّ.»

انحنى السَّيِّد هاميلتون إِلَى الوراء في كرسيِّه متأمِّلًا. «ينسى المرء أحيانًا أهميَّة سنٍّ واحدةٍ. نحن لسنا مثل الحيوانات الأدنى ـ تستبدل الأسنان بانتظامٍ وكلُّ ما إِلَى ذلك ـ نحن مِنَ الثَّديِّيات، كما ترون. والثديِّيات تنال فرصتين فقط، فيما يتعلَّق بالأسنان. المزيد مِنَ السُّكَّر؟»

طأطأ الأطفال، مع إدراكهم لفرصتهم.

«ولكن كما كُلُّ شيءٍ، فالأمر له وجهان. الأسنانُ البيضاءُ النَّظيفةُ ليست مِنَ الحكمة دائمًا، الآن هَلْ هي كذلك؟ عَلَى سبيل المثال: عندما كنتُ في الكونجو، كانت الطَّريقة الوحيدة الَّتِي استطعتُ بها تمييز الزِّنجيِّ هي بياض أسنانه، إذا كنتم تدركون ما أقصده. عملٌ بشعٌ. مظلمٌ مثل اللُّواط. كان كذلك. وماتوا بسبب ذلك، هَلْ ترون؟ أبناء الحرام المساكين. أَوْ أنا نجوتُ بالأحرى، لكَيْ أنظر إِلَى الأمر بطريقةٍ أخرى، هَلْ ترون؟»

جلس الأطفال صامتين. وبدأت أَيرِي في البكاء، بهدوءٍ شديدٍ.

واصل السَّيِّد هاميلتون: «تلك هي القرارات الخاطفة الَّتِي تتَّخذُها في الحرب. ترى ومضةً مِنَ البياض ثُمَّ بووم! في المكان الَّذي رأيتَها... مظلمٌ مثل اللُّواط. أوقاتٌ رهيبةٌ. كُلُّ هؤلاء الأولاد الجميلين يتمدَّدون موتى هناك، في مواجهتي تمامًا، أمام قدميّ تمامًا. بطونٌ مفتوحةٌ، هَلْ تعلم، بأحشائها في الخارج عَلَى حذائي. مثل نهاية العالم اللَّعين. رجالٌ جميلون، مجنَّدون مِنْ قِبل الألمان، سودٌ كما آس البستوني؛ الحمقى المساكين لَمْ يعرفوا لماذا هم هناك حتَّى، ولأَيِّ قومٍ يقاتلون، وعَلَى مَنْ يُطلقونَ النَّار. القرار للبندقيَّة. سريعةٌ جدًّا، أيُّها الأطفال. وحشيَّةٌ جدًّا. بسكويت؟»

«أريد أَنْ أذهب إِلَى البيت»، همسَت أَيرِي.

«أبي كان في الحرب. لعب لصالح إنجلترا،» قاطع مِلَّة معلِّقًا، بوجهٍ أحمرَ وغاضبٍ.

«حسنًا، يا فتى، هَلْ تعني فريق كرة القدم أَمِ الجيش؟»

«الجيش البريطانيّ. لقَدْ قاد دبَّابةً. مِنْ نوع السَّيِّد تشرشل. مع والدها،» شرح ماجد.

«أخشى أَنَّك مخطئٌ ولا بُدَّ،» قال السَّيِّد هاميلتون، بأناقةٍ مثلما دائمًا. «لَمْ يكنْ هناك متحيِّرين ـ بالتَّأكيد ـ كما أتذكَّر ـ عَلَى الرغم مِنْ أَنَّكم ربَّما لا يكون مسموحًا لكُمْ بقول ذلك هذه الأيَّام، أليس كذلك؟ ولكن لا... لا باكستانيِّين... ماذا كُنَّا لنطعمهم؟

لا، لا،» هدر، وهو يقيّم السُّؤال كما لَوْ أوتي الفرصة لإعادة كتابة التَّاريخ هنا والآن. «لنخرج مِنْ هذا الموضوع تمامًا. لَمْ أكنْ لأستسيغ طعام الأرز ذلك. لا باكستانيّين. الباكستانيُّون سيكونون في الجيش الباكستانيِّ، كما ترى، أيًّا كان ذلك. أمَّا بالنِّسبة إلَى البريطانيِّين المساكين، فقَدْ كان لديهم القليل في أيديهم مع ملكتنا العجوز.»

ضحك السَّيِّد هاميلتون بنعومةٍ لنفسه، وأدار رأسه، وأعجب في صمتٍ بالفروع المتمايلة لشجرة الكرز الَّتِي احتلَّت زاوية كاملةً مِنْ حديقته. وبعد وقفةٍ طويلةٍ التفت مرَّةً أخرى والدُّموع في عينيه ثانيةً ـ دموعٌ سريعةٌ، وواضحةٌ كما لَوْ قد تلقَّى صفعةً عَلَى وجهه. «والآن، أيُّها الشَّباب لا ينبغي أَنْ تقولوا أكاذيب، أليس كذلك؟ الأكاذيب ستفسد أسنانكم.»

«إنَّها ليست كذبةً، يا سيِّد ج. ب. هاميلتون، لقَدْ كان كذلك فعلًا،» قال ماجد، صانع السَّلام دائمًا، والمفاوض دائمًا. «لقَدْ أُصيب بطلقٍ في يده. ولَدَيه ميداليَّاتٌ. لقَدْ كان بطلًا.»

«وعندما تفسد أسنانكم ــ»

«إنَّها الحقيقة!» صرخ مِلَّة، وهو يركل صينيَّة الشَّاي الَّتِي استقرَّت عَلَى الأرض بينهم. «أيُّها المسنُّ الحقير الغبيُّ.»

«وعندما تفسد أسنانك،» واصل السَّيِّد هاميلتون، مبتسمًا للسَّقف، «آآآه، ليست هناك عودةٌ. لن ينظروا لك كما اعتادوا أَنْ يفعلوا. والجميلات لَنْ يمنحنك التفاتة ثانية، لا لأجل الحبِّ ولا لأجل المال. ولكنْ بينما لا تزال شابًّا، المسألة المهمَّة هي الضُّروس الثَّالثة. إنَّها شائعةٌ أكثر باسم أضراس العقل، كما أعتقد. ينبغي ـ ببساطةٍ ـ أَنْ تتعامل مع الأضراس الثَّالثة قبل أيِّ شيءٍ آخر. هذا هو خطئي. أنتم لَنْ تحصلوا عليها بعد، ولكنَّ أبناء أحفادي يشعرون بها بالكاد الآن. المشكلة مع أضراس العقل أَنَّ الإنسان لا يكون متأكِّدًا عَلَى الإطلاقْ أَنَّ فم المرء سيتَّسع بما يكفي لاستيعابها. إنَّها الجزء الوحيد مِنَ الجسم الَّذِي ينبغي للرَّجل أَنْ ينمو مِنْ أجله. ينبغي أَنْ يكون رجلًا كبيرًا بما يكفي لأجل تلك الأسنان، هَلْ ترون؟ لأنَّه إذا لَمْ يكن كذلك ـ أوهٍ يا أعزَّائي، فهي تنمو بشكلٍ ملتوٍ أَوْ بأَيِّ طريقةٍ، أَوْ ترفض النُّموَّ عَلَى الإطلاق. تبقى مغلقةً هناك مع العظم، انطمارٌ ـ في اعتقادي، هو الاصطلاح ـ رهيبٌ، تستتبعه التهاباتٌ رهيبةٌ. ينبغي أَنْ

تخلعها مبكرًا، هذا ما قلته لحفيدتي جوسلين فيما يتعلّق بأبنائها. أنت - ببساطةٍ - يجب أَنْ تفعل. لا يمكنك محاربة ذلك. أتمنّى لَوْ كانت لديَّ. أتمنى لَوْ كنت تخلّصتُ منها مبكِّرًا واحتطتُ لرهاناتي، كما كانت. لأنَّها أسنان أبيكم - كما ترون - ضروس العقل انتقلت عبر الأب، أنا واثقٌ مِنْ ذلك. ولذا ينبغي أَنْ تكونوا كبارًا كفايةً لأجلها. يعلم الله، أنا لَمْ أكنْ كبيرًا بما يكفي لأجل الخاصَّة بي... اخلعوها واستخدموا الفرشاة ثلاث مرَّاتٍ في اليوم، إذا كانت نصيحتي تعني أيَّ شيءٍ.»

في هذا الوقت نظر السَّيِّد ج. ب. هاميلتون نحوهم ليرى ما إذا كانت نصيحته تعني أيَّ شيءٍ، كان زائروه الثَّلاثة داكنو اللَّون قَدِ اختفوا بالفعل، آخذين معهم حقيبة التُّفَّاح (التُّفَّاح الَّذِي فكَّر في أَنْ يطلب مِنْ جوسلين أَنْ تضعه في الخلَّاط)، متعثِّرين بأنفسهم، وهم يركضون لكَيْ يصلوا إِلَى المساحة الخضراءِ، لكَيْ يصلوا إِلَى واحدةٍ مِنْ رئات المدينة، إِلَى مكانٍ يكون التَّنفُّس الحُرُّ ممكنًا فيه.

***

الآن، يعرف الأطفال المدينة. ويعرفون أَنَّ المدينة تغذِّي الجنون. هم يعرفون السَّيِّد وجهٌ - أبيضُ، هنديٌّ يجوب شوارع ويلْزدِن بوجهه مطليًّا بالأبيضِ، وشفاهه مطليَّةٌ بالأزرقِ، يرتدي زوجًا مِنَ الجوارب وحذاءً برقبةٍ للمشي الطَّويل؛ يعرفون السَّيِّد جريدة، رجلٌ طويلٌ نحيفٌ بمعطف مطرٍ طويلٍ حتَّى الكاحل، يجلس في مكتبات برنت، يخرج جرائد اليوم مِنْ حقيبته، ويمزِّقها بشكلٍ ممنهجٍ إِلَى شرائح؛ ويعرفون ماري المجنونة، مشعوذة الفودو[1] ذات الوجه الأحمرِ، تمتدُّ منطقتها مِنْ كيلبورن حتى شارع أوكسفورد، ولكنَّها تعدُّ تعاويذها مِنْ صفيحة قمامةٍ في ويست هامبستيد؛ وعرفوا السَّيِّد باروكة، الَّذِي لَمْ تكنْ له حواجب ويرتدي باروكةً ليس عَلَى رأسه ولكنْ في سلسلةٍ حول رقبته. ولكنَّ هؤلاء النَّاس *أعلنوا* جنونهم - لقَدْ كانوا أفضل، ومخيفين بشكلٍ أقلَّ مِنَ السَّيِّد ج. ب. هاميلتون - لقَدْ تباهوا بجنونهم، لَمْ يكونوا نصفًا مجنونًا

1 - يعتبر الفودو من أشهر الديانات المتعلقة بالسحر الأسود، ويعتقد المُؤرخون أن مذهب الفودو وجد في أفريقيا منذ بداية التاريخ الإنساني ويقول بعض المُؤرخون إنه يعود إلى أكثر من عشرة آلاف سنة. وفقًا لمعتقد سائد فإن أتباع الفودو يمكن أن يغرسوا دبابيس في دمى تمثل أعداءهم، ويحرقوهم على أمل أن تصيبهم اللعنة، ويقال إنهم يستطيعون تحويل الناس إلى زومبي. و«هودو» هو نوعٌ من أنواع السحر الأسود الذي يقوم أهله باستخدام الأشباح والجن لخدمتهم. (المترجم).

ونصفًا لا، ينحنيان حول إطار الباب. مجانين رُبَّما بالمعنى الشِّكسبيري، يتحدَّثون بعقلٍ عندما لا تتوقَّع ذلك. في شمال لندن، حيث صوَّت أعضاء المجلس مرَّةً عَلَى تغيير اسم المنطقة إِلَى نيرفانا، لَمْ يكن غير مألوفٍ أَنْ تمشي في الشوارع لتواجَه فجأةً بكلماتٍ حكيمةٍ مِنَ الوجه الطَّباشيري أزرقِ الشِّفاه، أَوْ مِنَ الرَّجل بلا حواجب. في الجانب الآخر مِنَ الشارع، أَوْ في نهاية محطَّة أنفاق، سوف يستخدمون موهبتهم الفصاميَّة لكَيْ يروا النِّظام في العشوائيَّة (لإدراك العالم كلِّه في حبَّة رمل، ولاستنباط الرِّواية مِنْ لا شيءٍ) لكَيْ يثيروا حيرتك، لكَيْ يمنحوك قافيةً، لكَيْ يجرِّدوك مِنْ ثيابك، لكَيْ يخبروك مَنْ أنت وإِلى أين تذهب (في العادة شارع بيكر - حيث تسافر الغالبيَّة العظمى مِنْ عرافي هذه الأيام عَلَى خطِّ المتروبوليتان) ولماذا. ولكنْ كمدينةٍ نحن لا نقدِّر هؤلاء النَّاس. مشاعرنا الغريزيَّة هي الَّتِي تتعمَّد إحراجنا، الَّتِي تخرج لكَيْ تصيبنا بالخجل بصورةٍ ما بينما يترنَّحون في ممرِّ القطار، بأعينٍ منتفخةٍ وأنوفٍ متورِّمةٍ، يستَّعدون لسؤالنا، حتمًا، *ما الَّذِي ننظر إليه.* ما الشَّيء *الملعون* الَّذِي ننظر إليه؟ كنوعٍ مِنْ ميكانيكيَّة الدِّفاع الاستباقيَّة، تعلَّم اللّندنيُّون أَلَّا ينظروا، أَلَّا ينظروا أبدًا، أَنْ يتجنبوا الأعين طوال الوقت بحيث يمكن تجنُّب السُّؤال اللَّعين «ما الَّذِي تنظر إليه» وإجابته البائسة الجبانة، عديمة الفائدة - «لا شيء.» ولكنْ بينما تتطوَّر الفريسة (نحن فريسةٌ للمجانين الَّذِين يسعون إلينا في يأسٍ لكَيْ ينقلوا نموذجهم للحقيقة إِلَى الرُّكاب التُّعساء) مثلما يفعل الصَّيَّاد والمحترفون الحقيقيُّون، يبدؤون في الملل مِنَ الشِّعار القديم «ما الَّذِي تنظر إليه؟» وينتقلون إِلَى منطقة أكثر غرابةً. خُذْ ماري المجنونة مثلًا. أوه، والمبدأ لا يزال هو نفسه، الأمر لا يزال يخصُّ التقاء الأعين، وخطر حدوثه، لكنَّها الآن تُحدث اتصال العينين مِنْ عَلَى مبعدة مئة، أَوْ مئتين، أَوْ حتَّى ثلاثمئة قدمٍ، وإذا اصطادتك تنظر إليها فإِنَّها تهدر في الشَّارع، يطفو الفزع والريش وغطاء الرأس، وعصا الهُودو في يدها، حتَّى تصل إِلَى حيث أنت، وتبدأ. يعرف صمد كُلَّ ذلك - كان بينهما موقفٌ مِنْ قبل، هو وماري المجنونة حمراءُ الوجه بَلْ إِنَّه عانى سوء حظ أَنْ يحظى بها جالسةً أمامه في أحد الباصات. في أَيِّ يومٍ آخر كان ليردَّ لها الصَّاع صاعين. ولكنَّه اليوم يشعر بالذَّنب وبالهشاشة، اليوم يحتضن يدي بوبي بينما تسلَّلت الشَّمس بعيدًا، ولا يمكنه أَنْ يواجه ماري المجنونة، وقولها الشَّرس للحقيقة، وجنونها القبيح - الَّذِي كان - بالتَّحديد - سبب مطاردتها له، مطاردتها المقصودة فعلًا له عَلَى طريق الكنيسة.

«مِنْ أجل أمانك الشَّخصيّ، لا تنظري،» قال صمد. «استمرِّي ـ فقط ـ في المشي في خطٍّ مستقيمٍ. لَمْ تكن لديَّ فكرةٌ أَنَّها سافرت كُلَّ هذه المسافة إِلَى هارلزدن.»

اختطفَت بوبي أسرع لمحةٍ للوميض المتدفِّق متعدِّد الألوان الَّذِي يركض في الشَّارع الرَّئيس عَلَى حصانٍ وهميٍّ.

ضحكت. «مَنْ هي *تلك*؟»

سرَّع صمد من وتيرته. «إِنَّها ماري المجنونة. وهي ليست مضحكةً إِلَى حدٍّ بعيدٍ. إِنَّها خطرةٌ.»

«أوه، لا تكن سخيفًا. كونها مشرَّدةً فقط ولديها *صعوباتٌ* في... الصِّحَّة العقليَّة، لا يعني أَنَّها تريد أَنْ تؤذي أَيًّا كان. المرأة المسكينة، هَلْ يمكنك أَنْ تتصوَّر ما الَّذِي حدث في حياتها ليجعلها هكذا؟»

تنهَّد صمد. «أَوَّلًا وقبل كُلِّ شيءٍ، هي ليست مشرَّدةً. لقد سرقت كُلّ صندوق قمامة في ويست هامبستيد وبنت هيكلًا هائلًا جدًّا منها في فورتشن جرين. وثانيًا هي ليست امرأةً مسكينةً. كُلُّ شخصٍ يخشاها، مِنَ المجلس ونزولًا، إِنَّها تتسلَّم طعامًا مجَّانيًّا مِنْ كُلِّ محلٍّ زاويةٍ في شمال لندن منذ أَنْ ألقت لعنةً عَلَى مكان رامتشاهندرا وانهارت أعماله في غُضُون شهرٍ واحدٍ.» بدأت هيئة صمد البدينة في التعرُّق عَلَى أقصاها الآن، بينما يغيِّر مساره فجأةً في ردِّ فعلٍ لقيام ماري المجنونة بالأمر نفسه في الجانب الآخر مِنَ الشَّارع.

همس، بأنفاسٍ متقطِّعةٍ: «ثُمَّ هي لا تحبُّ النَّاس البيض.»

اتَّسعت عينا بوبي. «حقًّا؟» قالت، كما لَوْ أَنَّ فكرةً كهذه لَمْ تخطر أبدًا لها، والتفتت خلفها لترتكب خطأ النَّظر القاتل. وفي ثانيةٍ، كانت ماري المجنونة قبالتهما.

ضرَبَتْ كتلةٌ سميكةٌ مِنَ البُصاق صمد مباشرةً بين عينيه، عَلَى جسر أنفه. مسحها، وجرَّ بوبي إليه، وحاول أَنْ يتجاوز ماري المجنونة بالتَّملُّص إِلَى باحة كنيسة القدِّيس أندرو، غير أَنَّ عصا الهودو سقطت أمامهما معًا، وهي تحدِّد خطًّا مِنَ الحصى والغبار لا يمكن عبوره.

تحدَّثت ببطءٍ، وبهذا العبوس المتوعِّد، الَّذِي بدا معه الجانب الأيسر مِنْ وجهها مشلولًا. «هَلْ... تنظرين... إِلَى... شيءٍ... ما؟»

نجحَت بوبي في العثور عَلَى صوتها. «لا!»

ضربَت ماري المجنونة ربلة ساق بوبي بعصا الهودو، والتفتَت إِلَى صمد. «أنت، يا سيِّد! هل... تنظر... إِلَى... شيءٍ... ما؟»

هزَّ صمد رأسه.

فجأةً كانت تصرخ. «**أيُّها الرَّجلُ الأسودُ! فلتُغلق بوجهك في كُلِّ منعطفٍ!**»

«أرجوكِ» تمتمت بوبي، في رعبٍ واضحٍ. «نحن لا نريد أَيَّ مشكلةٍ.»

«**أيُّها الرجلُ الأسودُ!**» (تحبُّ أَنْ تتحدَّث بالمقاطع المقفَّاة). «**العاهرة إِنَّها تتمنَّى أَنْ تراك تحترق!**»

«نحن نتدبَّر شأننا ـــ،» بدأ صمدَ، لَكِنْ أوقفته قذيفةٌ ثانيةٌ مِنَ البلغم، أصابته هذه المرَّة عَلَى الخدِّ.

«**جحيمٌ حقيقيٌّ، وهاويةٌ، إِنَّهما يتبعانك إِنَّهما يتبعانك. جحيمٌ حقيقيٌّ وهاويةٌ. الشَّيطان سيبتلعك، سيبتلعك.**» تَمَّ إرسال ذلك في مرحلة الغناء الهامس نوعًا ما، مصحوبًا بالرَّقص مِنْ جانبٍ إِلَى جانبٍ، والذراعان ممدودتان وعصا الهودو تستريح بحزمٍ تحت ذقن بوبي بيرت جونز.

«**ما الَّذِي فعلوه بأجسامنا سوى القتل والاستعباد؟ ما الَّذِي فعلوه لعقولنا سوى إيلامنا وإغضابنا؟ ما هو التَّلوث؟**»

رفعت ماري المجنونة ذقن بوبي بعصاها، وسألتها ثانيةً: «**ما هو التَّلوث؟**»

انتحبت بوبي. «أرجوك... أنا لا أعرف ما تريدين منِّي أَنْ ـــ»

مصَّت ماري المجنونة أسنانها وأدارت انتباهها مرَّةً أخرى إِلَى صمد. «**ما هو التَّلوث؟**»

«لا أعرف.»

صفعته ماري المجنونة بعصاها عَلَى الكاحل. «**ما هو التَّلوث، أيُّها الرَّجلُ الأسودُ؟**»

كانت ماري المجنونة جميلةً، امرأةً تلفت النَّظر: جبهةٌ نبيلةٌ، وأنفٌ بارزٌ، وبشرةٌ سمراء لا تشيخ، وعنقٌ طويلٌ يمكن للملكات ـ فقط ـ أَنْ يحلمن به. ولكنَّ عينيها اللَّتين تنذران بالخطر، اللَّتين تطلقان غضبًا عَلَى وشك الانفجار، هما ما يشغل صمد؛ لأَنَّه

رآهما تتحدَّثان إليه، وإليه وحده. لَمْ يكن لبوبي أيُّ شأنٍ بهذا. تنظر ماري المجنونة إليه بتميّزٍ. لقَدْ رصدت ماري المجنونة *زميلًا مسافرًا*. لقَدْ رصدت الرَّجل المجنون فيه (بمعنًى آخر، *المتنبئ*)، يشعر بيقينٍ أنَّها رصدت الرَّجل الغاضب، الرَّجل المُستمْني، الرَّجل الَّذِي وقف في الصَّحراء بعيدًا عَنْ أبنائه، الرَّجل الأجنبيّ في أرضٍ أجنبيَّةٍ الَّذِي علق بين الحدود... الرَّجل الَّذِي سيؤتَى البصيرة، فجأةً. لأيّ سببٍ آخر اختارته هو في شارعٍ مزدحمٍ بالنَّاس؟ لأنَّها ـ ببساطةٍ ـ لاحظَته. لأنَّهما ـ ببساطة ـ مِنْ نفس المكان، هو وماري المجنونة، بمعنًى آخر: *بعيدان جدًّا*.

«*ساتياجراها*[1]»، قال صمد، مفاجئًا نفسه بهدوئه.

نظَرَت ماري المجنونة، غير المعتادة عَلَى الحصول عَلَى إجاباتٍ عَلَى أسئلتها، إلَيه في دهشةٍ. «**ما هو الحلُّ؟**»

«*ساتياجراها*. إنَّها المعنى السَّنسكريتيّ للحقيقة والحزم. كلمة غاندي. هَلْ ترين، لَمْ يكن يحبُّ المقاومة السَّلبيَّة أَوْ العصيان المدنيَّ.»

بدأت ماري المجنونة ترتعش وتلعن بشكلٍ قهريٍّ في سرِّها، ولكنَّ صمد شعر بطريقةٍ ما أنَّ ماري المجنونة تنصت، هذا عقل ماري المجنونة يحاول معالجة كلماتٍ تختلف عَنْ كلماتها.

«لَمْ تكن تلك الكلمات كبيرةً بما يكفيه. أراد أنْ يظهر ما نعدُّه ضعفًا كَقوَّةٍ. لقَدْ أدرك أنَّ عدم القيام بفعلٍ في بعض الأحيان هو انتصار الإنسان الأعظم. لقَدْ كان هندوسيًّا. أنا مسلمٌ. وصديقتي هنا ـــ»

«رومان كاثوليك،» قالت بوبي في رعشةٍ. «سابقًا.»

«وأنتِ؟» بدأ صمد.

قالت ماري المجنونة «فَرْجٌ»، و«قحْبَةٌ»، و«شرموطةٌ»، عدَّة مرَّاتٍ، وبصقت عَلَى الأرض، ما أخذه صمد كعلامةٍ عَلَى تخفيف العداء.

«ما أحاول أنْ أقوله...»

1 ـ يمكن ترجمة التعبير بـ «قوة الروح» أَوْ «إرادة الحقيقة»، وهو تعبير صاغه وطوره المهاتما غاندي ضمن فلسفته للمقاومة السلمية. (المترجم).

نظر صمد إِلَى المجموعة الصَّغيرة مِنَ الميثوديِّين[1] الَّذِين بدأوا، مع سماع الضَّوضاء، فِي التَّجمع فِي توتُّرٍ عَلَى باب كنيسة سانت أندرو. ازداد ثقةً. هناك دائمًا واعظٌ فاشلٌ فِي صمد. متعالِمٌ، ومشَّاءٌ وحكَّاءٌ. فِي وجود جمهورٍ صغيرٍ والكثير مِنَ الهواء النَّقيّ كان قادرًا عَلَى إقناع نفسه دائمًا أَنَّ كُلَّ المعارف فِي الكون، وكُلَّ العلوم فوق الجدران، ملكه.

«أنا أحاول أَنْ أقول إِنَّ الحياة عبارةٌ عَنْ كنيسةٍ كبيرةٍ، أليس كذلك؟» أشار إِلَى المبنى القبيح مِنَ الطُّوب الأحمرِ الممتلئ بمؤمنيه المرتعدين. «بممرَّاتٍ واسعةٍ.» أشار إِلَى الزِّحام برائحته الكريهة مِنَ الأسودِ والأبيضِ والبُنِّيِّ والأصفرِ الَّذِي يختلط صعودًا وهبوطًا فِي الشَّارع الرَّئيس. إِلَى المرأة المهقاء الَّتِي وقفت فِي الشَّارع الرَّئيس. إِلَى المرأة المهقاء الَّتِي وقفت خارج محلِّ البيع بالجملة، تشتري البابونج المقطوف مِنْ باحة الكنيسة. «نرغب، صديقتي وأنا أَنْ نواصل المشي خلالها، إذا لَمْ يكن لديك ما يمنع. صدِّقيني، أنا أتفهَّم مخاوفك،» قال صمد، مستلهمًا الآن واعظ الشَّوارع العظيم الآخر في شمال لندن، كين ليفينجستون: «أنا نفسي لديَّ متاعبٌ ـ جميعنا لدينا صعوباتٌ في هذا البلد، هذا البلد الجديد بالنِّسبة إلينا والقديم بالنِّسبة إلينا في الوقت ذاته. نحن بشرٌ منقسمون، أليس كذلك؟»

وهنا فعل صمد ما لَمْ يفعله أحدٌ لماري المجنونة خلال أكثر مِنْ خمسة عشر عامًا كاملةً: لقَدْ لمسها. خفيفًا جدًّا، عَلَى الكتف.

«نحن بشرٌ منقسمون. بالنِّسبة إِلَيَّ أنا نفسي، فنصفٌ مِنِّي يتمنَّى أَنْ أجلس بهدوءٍ ساقًا عَلَى ساقٍ، وأترك الأشياء الَّتِي تتجاوز قدراتي تغمرني. ولكنَّ النِّصف الآخر يريد أَنْ يخوض الحرب المقدَّسة. الجهاد! وبالتَّأكيد يمكننا مناقشة هذا في الشَّارع، ولكنَّني أظنُّ ـ في النِّهاية ـ أَنَّ ماضيك ليس هو ماضيَّ، وحقيقتك ليست حقيقتي، وحَلُّك ـ إنَّه ليس حَلِّي. ولذا فأنا لا أعرف ما الَّذِي تريدينني أَنْ أقوله. الحقيقة والحزم هي مقترحٌ،

1 ـ الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستنتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة عَلَى يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقا من خلال النشاطات التبشيرية في المستعمرات البريطانية حتَّى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد، واعتمدت فيما يتعلق بمسألة الخلاص عَلَى اللاهوت الأرميني (نسبة إلى جاكوب أرمينيوس) القائل بإمكانية خلاص كُلّ إنسان، مناقضة بذلك عقيدة الاختيار المسبق للكالفينية. تنسب الحركة الميثودية نفسها إلى الصحوة الإنجيلية في بريطانيا في القرن الـ 18. (المترجم).

عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ هناك أناسًا كثيرين يمكنك أَنْ تسألهم إذا لَمْ تكنْ تلك الإجابة مُرضيةً لهم. شخصيًّا، فأملي يكمُنُ فِي الأيام الأخيرة. فالنَّبي محمد ـ صلَّى الله عليه وسلَّم! ـ يخبرنا أَنَّه في يوم القيامة سيقفُ الجميعُ صُمًّا بُكمًا. بلا لغوٍ. بلا أَلسنةٍ. ويا لها مِنْ سكينةٍ *هائلةٍ* تلك الَّتِي ستكون. الآن، إذا سمحت لي.»

أخذ صمد بوبي بحزم مِنْ يدها ومضى في طريقه، بينما وقفت ماري المجنونة في ذهولٍ لفترةٍ قصيرةٍ فقط قبل أَنْ تندفع إِلَى باب الكنيسة وتوزِّع بُصاقها عَلَى المجتمعين.

مسحت بوبي دمعة خوفٍ بعيدًا وتنهَّدت.

قالت: «هادئٌ في الأزمات. مؤثِّرٌ.»

شاهد صمد، باستغراقٍ متزايدٍ في الرُّؤى، جدَّه الأكبر ذلك، مانجال باندي، وهو يتعثَّر في بندقيةٍ قديمةٍ، ويقاتل ضدَّ التَّمسَّك بالتَّقاليد الجديدة.

«الأمر يجري في العائلة،» قال.

لاحقًا، تمشّى صمد وبوبي عبر هارلزدن، حول دولليز هيل، ومِنْ ثَمَّ، عندما بدا أَنَّهما يحوِّمان أكثر ممَّا ينبغي بالقرب مِنْ ويلْزدِن، انتظر صمد حتَّى غابت الشَّمس، واشترى علبةً مِنَ الحلويَّات الهنديَّة اللَّزجة، ومال إِلَى حديقة راوند وود؛ وأبدى إعجابه بالزُّهور المتبقيَّة. تحدَّث وتحدَّث، هذا النَّوع مِنَ الحديث الَّذِي تقوم به لتدرأ الرَّغبة الحسِّيَّة الَّتِي لا مفرَّ منها، هذا النَّوع مِنَ الحديث الَّذِي لا يفعل سوى زيادتها. أخبرها عَنْ دلهي حوالي عام 1942، وأخبرته عَنْ سانت ألبانز في حوالي عام 1972. اشتكت مِنْ قائمةٍ طويلةٍ مِنَ الأصدقاء غير المناسبين، وتحدَّث صمد، غير قادرٍ عَلَى انتقاد ألسانا أَوْ مجرَّد ذكر اسمها، عَنْ أولاده: الخوف مِنْ ولع مِلَّة بالبذاءة وعروض التِّليفزيون الصَّاخبة حول فريق A[1]؛ ومخاوفه إِنْ كان ماجد يحصل عَلَى ما يكفي مِنْ أشعَّة الشَّمس المباشرة. ما الَّذِي يفعله البلد بإبنيه، أراد أَنْ يعرف، ما الَّذِي تفعله؟

«أنا أحبُّك،» قالت أخيرًا. «كثيرًا. أنت مُضحكٌ جدًّا. هَلْ تعرف أنكَ مضحك؟»

ابتسم صمد وهزَّ رأسه. «لم أفكِّر أبدًا في نفسي ككوميديان عظيمٍ.»

1 ـ مسلسل مغامرات أمريكي تم عرضه ما بين 1983 و1987، حول فريق من مقاتلي القوات الخاصة الأمريكيين السابقين يعملون كجنود المستقبل. (المترجم).

«لا ـ أنت مضحكٌ. هذا الشَّيء الَّذِي قلته عَنِ الجِمال....» بدأت تضحك، وكانت ضحكتها مثيرةً للعدوى.

«أيّ شيءٍ؟»

«عَنِ الجِمال ـ عندما كُنَّا نمشي.»

«أوه، تقصدين: إنَّما النَّاس كالإبل المئة، لا تكاد تجد فيها راحلةً.»

«نعم!»

«هذا ليس كوميديًّا، هذا في البخاري، الجزء الثَّامن، الصفحة مئة وثلاثين،» قال صمد. «وهي نصيحةٌ جيّدةٌ. لقَدْ وجدت قطعًا أنَّها صحيحة.»[1]

«حسنًا، لا يزال مضحكًا.»

جلسَتْ أقرب إليه عَلَى المقعد الخشبيّ وقبَّلت أذنه. «جديًّا، أنا أحبُّك.»

«أنا مسنٌّ بما يكفي لأكون والدك. أنا متزوِّجٌ. أنا مسلمٌ.»

«حسنًا، خطُّ التَّوقيت الخاصُّ بك لا يتماشى مع نماذجنا. أَمْ ماذا إذنْ؟»

«أَيُّ نوعٍ مِنَ العبارات هذا: وإذن ماذا؟ هَلْ هذه إنجليزيَّةٌ؟ إنَّها ليست إنجليزيَّةً. المهاجرون ـ فقط ـ يمكنهم الحديث بإنجليزية الملكة هذه الأيَّام.»

ضحكت بوبي. «ما زلت أقول: إذن ــــ»

ولكنَّ صمد غطَّى فمها بيده، ونظر للحظةٍ كما لَوْ كان ينوي أَنْ يضربها. «إذن كُلُّ شيءٍ. إذن كُلُّ شيءٍ. ليس هناك شيءٌ مضحكٌ في هذا الموقف. ليس هناك شيءٌ جيّدٌ بخصوصه. لا أتمنَّى مناقشة الصَّواب والخطأ في هذا معك. دعينا نتمسَّك بما نحن هنا بوضوح لأجله،» بصق. «الحسيِّ وليس الميتافيزيقيَّ.»

تحرَّكت بوبي إِلَى الطَّرف الأُخر مِنَ المقعد الخشبي وانحنت للأمام، وأراحت مرفقيها عَلَى ركبتيها. «أنا أعرف،» بدأت ببطءٍ، «أنَّه ليس هناك أكثر مِنْ هذا. لكنَّني لَنْ يتحدَّث أحدٌ إِلَيَّ بهذه الطَّريقة.»

1 ـ 6133 صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق. (المترجم).

«أنا آسفٌ. لقَدْ كان خطأ مِنِّي ــ»

«لمجرَّد كونك تشعر بالذَّنب. أنا ليس لَدَيَّ شيءٌ لأشعر ــ»

«نعم، أنا آسفٌ. ليس لدَيَّ ــ»

«لأنَّه يمكن أَنْ تذهب إذا كنتَ ــ»

كانت نصف فكرةٍ. ضَرَبَتْهُما معًا وقَدْ بلغت أقلَّ ممَّا بدأت به.

«أنا لا أريد أَنْ أذهب. أنا أريدكِ أنتِ.»

أشرَقَت بوبي قليلًا. ابتسمت ابتسامتها نصف الحزينة، ونصف الحمقاء.

«أريد أَنْ أقضي اللَّيلة... معك.»

«جيِّدٌ.» أجابت. «لأنَّني اشتريتُ هذه مِنْ أجلك بينما كنت في الجوار تشتري هذه الحلويَّات المسكَّرة.»

«ما هي؟»

غاصت بوبي في حقيبة يدها، وفي الدَّقيقة الخفيفة الَّتي فتَّشت فيها عَنْ أحمرِ الشِّفاه ومفاتيح السَّيَّارة وبعض الفكَّة، حدث شيئان.

1 ـ أغلق صمد عينيه وسمع الكلمات *كُلُّ شَيءٍ طَاهِرٌ للطَّاهرين*، ومِنْ ثَمَّ ـ عَلَى الفور تقريبًا لا يمكن *قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك*.

2 ـ فتح صمد عينيه ورأى ـ بوضوحٍ تامٍّ قُرب منصَّة الحديقة ـ ابنيه، وأسنانهما البيضاءَ تعض تفاحتين مُشمَّعتين، وهما يشيران مبتسمَين.

ثُمَّ عاودت بوبي الظُّهور، في انتصارٍ، مع قطعةٍ مِنَ البلاستيك الأحمرِ في يدها.

«فرشاة أسنانٍ،» قالت.

الفصل الثامن
انقسام خيطي[1]

الغريب الَّذِي يُعرِّج عشوائيًّا عَلَى قاعة أوكونيل للبلياردو، عَلَى أملٍ في صعودٍ وهبوطٍ ناعمين لحذاء جدّه الأيرلنديّ، ربَّما، أَوْ يبحث عَنْ ارتداد كرةٍ حمراءَ عَنِ البطانة الجانبيَّة للطَّاولة إِلَى جيب الزَّاوية، سيُصاب عاجلًا بخيبة الأمل، عندما يكتشف أَنَّ المكان لا هو أيرلنديٌّ، ولا هو قاعة بلياردو. سيمسح الجدران المغطاة بالسِّجَّاد، ونسخ لوحات جورج ستابس[2] لخيول السِّباق، والقطع المؤطَّرة مِنْ بعض النُّصوص الأجنبيَّة الشَّرقيَّة، بدون أيِّ ارتباكٍ. سيبحث عَنْ طاولات السُّنوكر، وسوف يجد عوضًا عنها رجلًا بُنِّيًّا طويلًا مع الكثير مِنْ حبِّ الشَّباب خلف المنصَّة، يقلي البيض والمشروم. ستحطُّ عينيه في ارتيابٍ عَلَى علمٍ أيرلنديٍّ وخريطةٍ لدولة الإمارات العربية معقودَين معًا، ويتدلَّيان مِنْ جِدارٍ إِلَى جِدارٍ، وهما تفصلانه عَنْ بقية العملاء. ثُمَّ سينتبه إِلَى العديد مِنْ أزواج الأعين موجَّهة نحوه، بعضها في استعلاءٍ، وبعضها في ريبةٍ؛ سوف يتعثَّر الغريب التَّعس بها، في حذرٍ، متراجعًا، وهو يُسقط لوحة مفرَّغة بالحجم الطَّبيعي لـ ڤيف ريتشاردز[3] بينما يذهب. وسيضحك الزَّبائن. فقاعة أوكونيل ليست مكانًا للغرباء.

أوكونيل هي نوعٌ مِنَ الأماكن الَّتِي يرتادها رجال العائلة مِنْ مختلف نوعيَّات العائلة. وعَلَى عكس علاقات الدَّم، فمِنْ المهمِّ هنا أَنْ يكتسب المرء مكانته في المجتمع؛ يستغرق الأمر سنواتٍ مِنَ التَّكريس اللَّعين للذَّات، وإضاعة الوقت، والتسكُّع، والثرثرة، والملل

1 ـ الانقسام الخيطي (الفتيلي) هو العملية الْحيوية الَّتِي يتم بها تضاعف المعلومات الوراثية الجينية ضمن الخلية الحية لتشكيل خليتين حيتين متطابقتين ندعوهما الخليتين الابنتين، تملك كُلّ منهما نسخة جيلية مطابقة لنسخة الخلية الأم. (المترجم).

2 ـ جورج ستابس (25 أغسطس 1724 ـ 10 يوليو 1806) فنان تشكيلي بريطاني اشتهر بلوحاته للخيول. (المترجم).

3 ـ السير ڤيڤيان ألكسندر ريتشاردز (وُلد 7 مارس 1952) هو لاعب كريكيت سابق في فريق الهند الغربية، تم اختياره عام 2000 ضمن أفضل خمسة لاعبي كريكيت في القرن العشرين. (المترجم).

- وتفانيًا أكثر بكثيرٍ مِنَ استثمار الرِّجال في لحظة إنجابٍ متهوِّرةٍ. أنت تحتاج لأن تعرف المكان. وعَلَى سبيل المثال، فهناك أسبابٌ لأَنْ تكون أوكونيل صالة بلياردو أيرلنديَّةً يديرها العرب بدون طاولات بلياردو. وهناك أسبابٌ لأن يطهو لك ميكي المغطَّى بالبثور أصابع البطاطس المقليَّة والبيض والفاصوليا، أَوِ البيض وأصابع البطاطس المقليَّة والفاصوليا، أَوِ الفاصوليا وأصابع البطاطس المقليَّة والبيض، والمشروم، ولكنْ ليس البطاطس والفاصوليا ولحم الخنزير المقدَّد، تحت أَيِّ ظرفٍ. ولكنَّك تحتاج لأَنْ تتسكَّع لأجل هذا النَّوع مِنَ المعلومات. سوف نصل إِلَى ذلك لاحقًا. في الوقت الحالي، يكفي أَنْ نقول إنَّ هذا منزل آرشي وصمد خارج المنزل؛ طوال عشر سنوات يأتيان إِلَى هنا بين السَّادسة (موعد انتهاء آرشي مِنْ عمله) والثامنة (الوقت الَّذِي يبدأ صمد فيه) ليناقشا كُلَّ شيء مِنْ معنى سفر الرُّؤيا إِلَى أسعار السَّبَّاكين. والنِّساء. النِّساء الافتراضيات. إذا ما مشَت امرأةٌ بجوار نافذة أوكونيل الملطَّخة بصفارِ البيض (امرأةٌ لَمْ تُعرف بمغامرة الدُّخول إِلَى هناك من قبل) سيبتسمان ويتكهَّنان - بحسب حساسية صمد الدينيَّة في تلك اللَّيلة - بالمدى الَّذِي يمكن أَنْ تصل إليه الأمور، ما إذا كان المرء سيركلها خارج الفراش في استعجالٍ، لكَيْ يلحق بالتَّخفيضات عَلَى الكلسونات والجوارب، وهكذا، حتمًا، وصولًا إِلَى النقاش المهمِّ: النُّهود الصَّغيرة (الَّتِي تقف في اعتدادٍ) في مقابل النُّهود الضَّخمة (الَّتِي تتخبَّط عَلَى الجانبين). ولكنْ لَمْ تكن هناك أَيَّة أسئلةٍ عَلَى الإطلاق عَنِ النِّساء الحقيقيَّات، النِّساء مِنْ لحمٍ ودمٍ، الرَّطبات اللَّزجات الحقيقيَّات. ليس حتَّى الآن. ولذا فالأحداث غير المسبوقة في الشُّهور القليلة الماضية استدعَت قمَّةً أوكونيليَّةً أبكر مِنَ المعتاد. فقد هاتف صمد آرشي أخيرًا، واعترف بكُلِّ الفوضى الرَّهيبة: أَنَّه خان، وأَنَّه يخون، وأَنَّه شوهد مِنْ قِبَلِ الأطفال وأَنَّه الآن يرى الأطفال مثل الرُّؤى، نهارًا وليلًا. التزم آرشي الصَّمت لبعض الوقت، ثُمَّ قال: «اللَّعنة، في السَّاعة الرَّابعة، إذنْ. اللَّعنة.» هكذا آرشي. هادئٌ في الأزمات.

ولكنْ جاءت 4:15 ولا إشارة منه، مضغ صمد اليائس كُلَّ ظفرٍ لديه حتَّى الجلد، وانهار عَلَى الكاونتر، وانسحق أنفه عَلَى الزُّجاج السَّاخن، حيث تم الاحتفاظ بالهامبورجر وجهًا لوجهٍ مع بطاقةٍ بريديَّةٍ تعرض ثمانية مواقع محلِّيَّةٍ ساحرةٍ مِنْ مقاطعة أنتريم.

رفع ميكي، الطَّاهي والنَّادل والمالك، الَّذِي يتفاخر بنفسه لمعرفة اسم كُلِّ زبونٍ، ومعرفة متى يكون أيُّ زبون عَلَى غير ما يرام، وجه صمد عَنِ الزُّجاج السَّاخن بملعقةٍ مُسطَّحةٍ.

«مرحبًا.»

«مرحبًا، يا ميكي، كيف حالك؟»

«كالمعتاد، كالمعتاد. ولكنْ دعك منّي. ما الأمر اللّعين بخصوصك يا رفيقي؟ هه؟ هه؟ لقدْ كنتُ أراقبك، يا سامي، منذ اللّحظة الّتي دخلت فيها إِلَى هنا. وجهك في حالةٍ مُزريةٍ. اخبر عمّك ميكي.»

تأوّه صمد.

«هيه. لا. لا شيء مِنْ ذلك. أنت تعرفني. أنا الجانب المتعاطف في قطاع الخدمات. أنا الخدمة بابتسامةٍ لعينةٍ، كنتُ لأرتدي ربطة عنقٍ حمراءَ صغيرةً، وقبّعةً حمراءَ صغيرةً مثلهم الأذكياء الملاعين في السَّيِّد برجر إذا لَمْ يكن رأسي الحقير كبيرًا جدًّا.»

لَمْ يكن ذلك مجازًا. فميكي له رأسٌ ضخمٌ جدًّا، كما لَوْ أَنَّ حبَّ الشَّباب لديه يطالب بالمزيد مِنَ الغرف وحصل عَلَى مساحاتٍ إضافيَّةٍ.

«ما المشكلة؟»

تطلّع صمد إِلَى رأس ميكي الأحمرِ الكبير.

«إِنِّني أنتظر آرشيبالد ـ فقط ـ يا ميكي. أرجوك، لا تشغل نفسك. سأكون بخيرٍ.»

«أليس الأمر مبكِّرًا، عَلَى هذا؟»

«عُذرًا؟»

راجع ميكي الساعة خلفه، تلك الّتي تحتوي عَلَى قطعةٍ مِنَ العصر الحجريِّ مِنْ بيضةٍ مرصّعة عَلَى المينا. «أقول: أليس الوقت مبكِّرًا، لهذا؟ لك وللفتى آرشي. إِنَّها السّادسة عندما أتوقّعكما. واحدٌ أصابع بطاطس مقليَّةٌ وفاصوليا وبيض ومشروم. وواحدٌ أومليت بالمشروم. مع اختلافاتٍ موسميَّةٍ، بطبيعة الحال.»

تنهّد صمد. «لدينا الكثير لمناقشته.»

أدار ميكي عينيه. «أنتما لن تشرعا في ذلك الماندي باندي أيًّا كانت لعنته مجدَّدًا، أليس كذلك؟ مَنْ أطلق النار عَلَى مَنْ، ومَنْ شنق مَنْ، جدودي حكموا باكستان أَوْ أيُّ لعنةٍ تلك، كما لَوْ أَنَّ أيَّ أبلهٍ حقيرٍ يمنح الأمر أيَّ اهتمامٍ. أنتما تطردان الزبائن. أنتما تخلقان

ــــ» قلَّب ميكي كتابه المقدَّس الجديد، *غذاءٌ للفكر: توجيهاتٌ إِلَى أصحاب العملْ والموظفين الَّذِين يعملون في صناعة الخدمات الغذائيَّة - إستراتيجيَّة الزَّبائن وعلاقات المستهلكين.* «أنتما تخلقان *متلازمةً تكراريَّةً* تُلهي كُلَّ هؤلاء التَّافهين عَنْ *خبراتهم المطبخية.*»

لا، لا. ليس جدِّي - *الأكبر* موضوعًا للمناقشة اليوم. لدينا شأنٌ آخر.»

«حسنًا، شكرًا للَّعنة. المتلازمة التَّكراريَّة هي ما هي عليه.» ربَّت ميكي عَلَى كتابه، بمودَّةٍ. «كُلُّ شيءٍ هنا، يا رفيقي. أفضل أربعةٍ وخمسةٍ وتسعين أنفقتُها عَلَى الإطلاق. بالحديث عَنْ الملالي، هَلْ لديك مغازلةٌ اليوم؟»، سأل ميكي، مشيرًا إِلَى الطَّابق السُّفلي.

«أنا مسلمٌ، يا ميكي. لَمْ أعدْ أنغمس مرَّةً أخرى.»

«حسنًا، مِنَ الواضح، نعم، نحن جميعًا إخوةٌ - لكن عَلَى الرَّجل أَنْ يعيش، الآن. أليس كذلك؟ أعني، أليس كذلك؟»

«لا أعرف، يا ميكي، هَلْ يفعل؟»

صفع ميكي صمد بقوَّةٍ عَلَى ظهره. «بالتَّأكيد يفعل! لقَدْ قلتُ لأخي عبدول ــــ»

«أيِّ عبدول؟»

كان ذلك تقليدًا في عائلة ميكي الكبيرة وأسرته المباشرة، أَنْ يسموا أبناءهم عبدول؛ لكَيْ يعلِّموهم لا جدوى أَنْ يفترضوا مكانةً أعلَى مَنْ أَيِّ رجُلٍ آخر، الأمر الَّذِي كان جيِّدًا جدًّا وحسنًا، غير أَنَّه نزع إِلَى التَّسبُّب في الارتباك في سنوات التَّكوين. ومع ذلك، فالأطفال مبدعون، وكُلُّ العبدول الكثيرين أضافوا أسماء إنجليزية كنوعٍ مِنَ الصَّقل للأولى.

«عبدول - كولن.»

«حسنًا.»

«وهكذا، أنتَ تعرف، انغمس عبدول كولن في الأساسيَّات بعض الشَّيء - البيض، والفاصوليا، وأصابع البطاطس المقليَّة، والخبز المحمَّص - اللِّحية السَّخيفة الكبيرة، لا لحم خنزيرٍ، ولا مشروب، ولا فتاة، والأعمال اللَّعينة، يا رفيقي - وها أنت ذا، يا مدير.»

دفع عبدول - ميكي صحنًا مِنَ المقرمشات إِلَى رجلٍ مُسِنٍّ غارقٍ في الاكتئاب، ارتفع بنطلونه عَلَى جسمه كثيرًا حتَّى كاد أَنْ يبتلعه تدريجيًّا بالكامل.

«حسنًا، أين تظنُّني وقَعَت عيناي عَلَى عبدول ـ كولن الأسبوع الماضي؟ فقط في حفل ميكي فين[1]، في اتِّجاه طريق هارو، وقلتُ: مرحبًا، يا عبدول ـ كولن، يا له مَنْ تغيير مدهش، وقال، بكلِّ سخافةٍ، تعرف، الجميع هنا ملتحون، قال ـــ»

«ميكي، ميكي ـ هَلْ تمانع كثيرًا في أَنْ ندع القصَّة إِلَى وقتٍ آخر... الأمر ـ فقط ـ أَنَّه...»

«لا، حسنًا، حسنًا. أتمنَّى لَوْ عرفتُ لماذا أهتمُّ، بحقِّ اللَّعنة.»

«إذا أمكن أَنْ تخبر آرشيبالد أَنَّني جالسٌ في المقصورة خلف لعبة الكرة والدَّبابيس عندما يأتي. آه، والمعتاد لي.»

«لا مشكلة، يا رفيقي.»

بعد حوالي عشر دقائق انفتح الباب، وتطلَّع ميكي مِنَ الفصل 6، «هناك ذبابةٌ في حسائي. التَّعامل مع مواقف عدائيَّة تتعلَّق بقضايا الصِّحَّة»، ليرى آرشيبالد جونز، بحقيبةٍ رخيصةٍ في اليد، يقترب مِنَ الكاونتر.

«حسنًا يا آرش. كيف هي أعمال الطَّيِّ؟»

«أوه، أنت تعرف. هكذا وكذلك. هَلْ صمد في الجوار؟»

«هَلْ هو في *الجوار*؟ هَلْ هو في *الجوار*؟ لقَدْ قضى بعضَ الوقت كما لَوْ كان سيتغوَّط عَلَى نفسه لنصفِ ساعةٍ لعينةٍ. وجهه في حالةٍ مزريةٍ. أحدهم ينبغي له أَنْ يحضر مغرفةً ـ للفضلات ويقوم بتنظيفه.»

وضع آرشي حقيبته عَلَى الكاونتر، وقطب جبينه. «الحالة سيِّئة، أليس كذلك؟ بيني وبينك، يا ميكي، أنا قلقٌ حقًّا عليه.»

«اِذْهَبْ وقُلْ ذلك للجبل بكُلِّ لعنةٍ،» قال ميكي، منزعجًا مِنْ تأكيد الفصل 6 عَلَى أَنَّك يجب أَنْ تغسل الصحون بماء الأنابيب السَّاخن. «أو، بدلًا مِنْ ذلك، إذهب إِلَى المقصورة وراء الكرة والدَّبابيس.»

«شكرًا، يا ميكي. آه، أومليت و ـــ»

«أعرف. مشروم.»

1 ـ عازف كمان تقليدي أيرلندي كان مُتخصِّصًا في موسيقى جالواي التقليدية. (المترجم).

مضى آرشي عَلَى ممرَّات أوكونيل ذات الأرضيَّة المشمَّعة.

«مرحبًا، يا دينزل، مساء الخيْر، يا كلارنس.»

دينزل وكلارنس اثنان وقحان بشكلٍ فريدٍ، جامايكيَّان ثمانينيَّان بذيئا اللِّسان. دينزل بدينٌ بشكلٍ مستحيلٍ، وكلارنس نحيفٌ بصورةٍ فظيعةٍ، والاثنان ماتت عائلتهما، وارتدى كلاهما قبعات تريلبي، وجلسا في الزَّاوية يلعبان الدُّومينو طوال السَّاعات الَّتِي بقيت لهما.

«ماذا يقول ماسح المؤخِّرات ذلك؟»

«أقول *مساء الخير*.»

«ألا يستطيع أَنْ يرى أَنَّنِي ألعب الدُّومينو؟»

«لا يا رجل! لديه عضو أنثى في وجهه. كيف تتوقعه أَنْ يرى أَيَّ شيءٍ صغيرٍ؟»

تلقَّى آرشي الصَّدمة - ببساطة - كما يُفترض، وانسلَّ إِلَى المقصورة، في مواجهة صمد. «أنا لا أفهم،» قال آرشي، وهو يلتقط الحديث سريعًا مِنْ حيث انتهت محادثتهما الهاتفيَّة. «هَلْ تقول لي إِنَّكَ تراهما هناك في مخيِّلتك، أَمْ إِنَّك تراهما هناك في الحياة الواقعيَّة؟»

«الأمرُ بسيطٌ جدًّا، بالفعل. في المرَّة الأولى، في المرَّة الأولى عَلَى الإطلاق، كانا هناك. ولكنْ منذ ذلك الوقت، يا آرشي، خلال الأسابيع القليلة الماضية، أرى التَّوأم كُلَّما كنتُ معها - مثل هيئاتٍ شبحيَّةٍ! حتَّى عندما نكون... أراهما هناك. يبتسمان لي.»

«هَلْ أنت واثقٌ مِنْ أَنَّك لا تعاني - فقط - إجهادًا في العمل؟»

«انصت إِلَيَّ، يا آرشي: أنا أراهما. هذه إشارةٌ.»

«سام، دعنا نحاولُ أَنْ نتعامل مع الحقائق. عندما رأياك فعلًا - ما الَّذِي فعلاه؟»

«ما الَّذِي كان بوسعي فعله؟ قلتُ: مرحبًا، يا ابنيَّ. قولًا مرحبًا للآنسة بيرت جونز.»

«وماذا قالا؟»

«قالا مرحبًا.»

«وماذا قلتَ؟»

«آرشيبالد، هَلْ تظُنُّ - ببساطة - أَنَّنِي يمكنني أَنْ أخبرك بما حدث بدون صيغ الاستفهام التَّافهة المستمرَّة تلك؟»

«أصابع بطاطس، وفاصوليا، وبيض، وطماطم، ومشروم!»

«سام، ذلك لك.»

«يزعجني هذا الاتّهام. هذا ليس لِي. أنا لَمْ أطلب طماطم عَلَى الإطلاق. أنا لا أريد بعض الطَّماطم المسكينة المقشَّرة الَّتِي تُسلق حتَّى الموت، ثُمَّ تُقلى حتَّى الموت.»

«حسنًا، وهي ليسَت لي. لقَدْ طلبت أومليت.»

«حسنًا، وهي ليسَت لي. والآن: هل يمكنني أَنْ أواصل؟»

«بكُلِّ سرورٍ.»

«لقَدْ نظرتُ إِلَى ابنَيَّ، يا آرشي... نظرتُ إِلَى وَلَدَيَّ الجميلين... وتصدَّع قلبي - بَلْ، أكثر مِنْ ذلك - لقَدْ تحطَّم إِلَى قطعٍ كثيرةٍ جدًّا، وكُلُّ قطعةٍ طعنتني كجرحٍ قاتلٍ. ظللتُ أفكِّر: كيف يمكنني أَنْ أُعلِّم ولدَيَّ أَيَّ شيءٍ، كيف يمكنني أنْ أُريهما الصِّراط المستقيم عندما أفقد أنا اتِّجاهاتي.»

«لقَدْ ظننتُ،» بدأ آرشي بتردُّدٍ: «أَنَّ المشكلة هي المرأة. إذا كنتَ فعلًا لا تعرف ما ينبغي فعله بخصوصها، حسنًا... يمكننا أَنْ نطوِّح هذه العملة، الرُّؤوس تظَلُّ معها، والذُّيول تذهب - عَلَى الأقلِّ فقَدْ صنعتَ —»

ضرب صمد الطَّاولة بقبضته السَّليمة بقوَّةٍ. «أنا لا أريد أَنْ أنقف عُملةً لعينةً! إِلَى جانب ذلك، فالأمر متأخِّرٌ جدًّا عَلَى ذلك. ألا تستطيع أَنْ ترى؟ ما حدث قَدْ حدث. مصيري إِلَى الجحيم، أنا أرى ذلك الآن. لذا لا بُدَّ لي مِنَ التَّركيز عَلَى إنقاذ وَلَدَيَّ. لديَّ اختيارٌ لأقوم به، اختيارٌ *أخلاقيٌّ*.» خفض صمد صوته، وقبْل حتَّى أَنْ يتحدَّث عرف آرشي إلام هو عَلَى وشك أَنْ يشير. «لقَدْ قمتَ بخياراتٍ صعبةٍ أنت نفسك، يا آرشي، منذ أعوامٍ طويلةٍ. أنت تخبِّئها جيِّدًا، ولكنَّني أعرف أَنَّك لَمْ تنس كيف بدا ذلك. لديك بعضٌ مِنْ رصاصةٍ فِي ساقك لكَيْ تثبت ذلك. لقَدْ قاتلْته. وفزت. أنا لَمْ أنسَ. لقَدْ ظللتُ دائمًا معجبًا بك لهذا السَّبب، يا آرشيبالد.»

نظر آرشي إِلَى الأرضيَّة. «أنا أُفضِّل عدم —»

«صَدِّقْني، ليست لَدَيَّ أيُّ متعةٍ فِي استدعاء ما هو مقيتٌ بالنِّسبة إليك، يا صديقي. ولكنَّني أحاول فقط أَنْ أجعلك تفهم وضعي. ثُمَّ، كما هو الحال الآن، يظلُّ السُّؤال دائمًا: *أَيُّ نوعٍ مِنَ العالم أريد لطفلَيَّ أَنْ يكبرا فيه؟* أنتَ قمتَ بإجراءٍ بشأن هذا الأمر ذات مرَّةٍ. والآن جاء دوري.»

بدون أَنْ يُظهر أَيَّ استجابةٍ لخطابات صمد أكثر مما فعله قبل أربعين عامًا، عبث آرشي بعود أسنانٍ للحظةٍ.

«حسنًا... لماذا لا تتوقَّف، حسنًا، عَنْ رؤيتها؟»

«أنا أحاول... أنا أحاول.»

«ذلك جيِّدٌ، أليس كذلك؟»

«لا، حسنًا، ذلك ليس امتناعًا قاطعًا... ما أقصد أَنْ أقوله، إِنَّه لطيفٌ، نعم... لكنه ليس فجورًا... نحن نقبِّل، نحن نتعانق.»

«ولكنْ لا ـــ»

«ليس بالمعنى القاطع للكلمة، لا.»

«ولكنْ بعض ـــ»

«آرشيبالد، هَلْ أنت قلقٌ بخصوص ابنيَّ أَمْ بخصوص حيواناتي المنويَّة؟»

«الأبناء»، قال آرشي. «الأبناء قطعًا.»

«لأَنَّ هناك تمرُّدًا بداخلهما، يا آرشي. يمكنني رؤيته ـ إِنَّه صغيرٌ الآن ولكنَّه يكبر. أنا أخبرك. لا أعرف ما الَّذِي يحدث لأبنائنا في هذا البلد. في كُلِّ مكانٍ تنظر، هو نفس الشَّيء. الأسبوع الماضي عُثر عَلَى ابن زينات يدخِّن الماريجوانا. مثل الجامايكيِّين!»

رفع آرشي حاجبيه.

«أوه، لَمْ أقصد الإهانة، يا آرشيبالد.»

«لَمْ آخذها عَلَى هذا المحمل، يا رفيقي. لَكِنْ لا ينبغي لك أَنْ تحكم قبل أَنْ تجرِّب الأمر. كوني متزوِّجًا مِنْ جامايكيَّةٍ صنع معجزاتٍ لالتهاب مفاصلي. ولكنَّ هذا بمناسبة السِّياق. استَمِرّ.»

«حسنًا، خُذْ شقيقات ألسانا ـ جميع أطفالهنَّ ليسوا سوى متاعب. لا يريدون الذَّهاب إلى المسجد، ولا يصلُّون، ويتحدَّثون بغرابةٍ، ويلبسون ثيابًا غريبةً، ويأكلون جميع أنواع النِّفايات، ولديهم علاقة مع مَنِ الله أعلم بهم. لا احترام للتَّقاليد. يطلق النَّاس عَلَى ذلك الاندماج، بينما هو ليس سوى فسادٍ. فسادٍ!»

حاول آرشي أَنْ يبدو مصدومًا، ثُمَّ جرب الاشمئزاز، وهو لا يعرف ماذا يقول. لقَدْ أحبَّ أَنْ يندمج النَّاس مع الأشياء، آرشي. هو يشعر نوعًا ما بأَنَّ النَّاس ينبغي أَنْ يعيشو معًا، أنت تعرف، في سلامٍ أَوْ انسجامٍ أَوْ شيءٍ ما.

«أصابع بطاطس، وفاصوليا، وبيض، ومشروم! أومليت ومشروم!»

رفع صمد يده والتفت نحو الكاونتر. «عبدول - ميكي!»، صاح، وصوته يتظاهر بمزاحٍ خفيفٍ، بلكنة كوكني[1]. «هنا يا مديري، مِنْ فضلك.»

نظر ميكي إِلَى صمد، ومال عَلَى الكاونتر، ومسح أنفه بمريلته.

«الآن أنت تعرف أفضل مِنْ ذلك. إِنَّها خدمةٌ ذاتيَّةٌ في الأنحاء هنا، يا سادة. هذا ليس هيلتون والدورف اللَّعين.»

«أنا سأحضرها.» قال آرشي، وهو ينزلق مِنْ مقعده.

«كيف هو؟»، سأل ميكي هامسًا، وهو يدفع الصَّحن نحو آرشي.

عبس آرشي. «لا أعرف. إِنَّه يتحدَّث عَنْ التَّقاليد مجدَّدًا. هو قلقٌ بخصوص ابنيه، أنتَ ترى. مِنَ السهل عَلَى الأطفال أَنْ يخرجوا عَنِ المسار في هذا اليوم والعمر، أنت تعرف. لا أعرف فعلًا ماذا أقول له.»

«لا ينبغي أَنْ تخبرني، يا رفيقي،» قال ميكي، وهو يهز رأسه. «لقَدْ عشتُ هذه القصَّة اللعينة، أليس كذلك؟ أنظر إِلَى الأصغر عندي، عبدول - جيمي. سيصل إِلَى محكمة الأحداث الأسبوع القادم بسبب سرقة ميداليات ڤولكس واجن حقيرةٍ. أقول له أنت غبيٌّ سافلٌ أَمْ شيءٌ ما؟ ما المغزى الحقير في ذلك؟ عَلَى الأقل اسرق السَّيَّارة اللَّعينة، إذا كانت هذه هي الطَّريقة الَّتي تشعر بها تجاهها. أعني، لماذا؟ يقول إِنَّه شيءٌ ما يتعلق ببعض البِيتي بويز[2] أولاد الحرام أَوْ بعض هذا الهراء. حسنًا، أقول له، هؤلاء سيموتون مثل الخراء لَوْ وضعتُ يدي عليهم، وأستطيع أَنْ أخبرك أَنَّ ذلك بدون أَيِّ فائدةٍ حقيرةٍ. لا معنى للتَّقاليد، انعدام الأخلاق هو المشكلة.»

---

1 - تعبير كوكني له مدلول جغرافي واجتماعي ولغوي ويشير إلى هؤلاء المولودين في منطقة بعينها في لندن، ويستخدم في العادة للإشارة إلى مستوى ما من عمال أهل لندن في الطرف الشرقي للمدينة. (المترجم).

2 - يقصد البيتسي بويز، وهي فرقة هيب هوب أمريكية تكونت في عام 1981 اشتهر أحد أعضائها مايك دي بارتداء ميدالية ڤولكس واجن... الأمر الذي تسبب في سلسلة تخريب للسيَّارة في أنحاء العالم مع رغبة الأطفال في سرقة الحلية الَّتي تزخرف غطاء المحرك. (المترجم).

هزَّ آرشي رأسه والتقط رزمةً مِنَ المناديل ليعالج بها الأطباق السَّاخنة.

«إذا أردتَ نصيحتي - وأنت تريدها، لأنَّ ذلك جزء مِنَ العلاقة الخاصة بين مالك المقهى وزبون المقهى - اخبر صمد أنَّ لديه خيارين. يمكنه إمَّا أَنْ يعيدهما إِلَى بلدهما القديم، يعيدهما إِلَى الهند —»

«بنجلاديش،» صحَّح آرشي، وهو يأخذ إصبع بطاطس مِنْ وجبة صمد.

«حيثما كانت تلك اللَّعنة. يمكنه أَنْ يعيدهما إِلَى هناك، ويملك تربيتهما بشكلٍ أفضل، مِنْ خلال جدِّهما وجدَّتهما، وتعليمهما ما يتعلَّق بثقافتهما اللَّعينة، ويكبران مع بعض المسئوليَّات اللَّعينة. أو - دقيقةً واحدةً - أصابع بطاطس وفاصوليا وسمبوسة ومشروم لشخصين!»

مشى دينزل وكلارنس ببطءٍ شديدٍ تجاه الصُّحون السَّاخنة.

«تلك السمبوسة تبدو غريبةً،» قال كلارنس.

«إنَّه يحاول أَنْ يسمِّمنا،» قال دينزل.

«هذا المشروم يبدو *غريبًا*،» قال كلارنس.

«إنَّه يحاول أَنْ ينسلَّ إِلَى رجلٍ صالحٍ بطعامِ الشَّيطان،» قال دينزل.

هوى ميكي بملعقته عَلَى أصابع دينزل: «مرحبًا. أيُّها المتلاصقان في هيئة حرف D اللعين. اوجِدا روتينًا حقيرًا جديدًا، حسنًا؟»

«أو ماذا؟»، استمرَّ آرشي.

«إنَّه يحاول أَنْ يقتل رجلًا مُسِنًّا. رجلًا ضعيفًا مُسِنًّا،» تمتم دينزل، بينما استدار الاثنان عائدَين إِلَى مقعديهما.

«اللَّعنة عَلَى الجحيم، هذان الاثنان. إنَّهما حيَّان - فقط - لأنَّهما أكثر بخلًا مِنْ أَنْ يدفعا مصاريف إحراقهما اللَّعينة.»

«أَوْ ماذا؟»

«ماذا!؟»

«ما الخيار الثَّاني؟»

«أوه، نعم. حسنًا، الخيار الثَّاني واضحٌ، أليس كذلك؟»

«أهو كذلك؟»

«أَنْ *يتقبَّل* الأمر. سيكون عليه أَنْ *يتقبَّل* الأمر، أليس كذلك؟ جميعنا إنجليزيُّون الآن، يا رفيقي. أحببنا ذلك أَمْ كُنَّا ننوء به، كما قالت عشبة الرَّاوند للكاسترد[1]. وذلك سيكون اثنين ونصفًا، يا آرشيبالد، يا رجلي الصَّالح. العصر الذَّهبيُّ لقسائم الغداء المجانيَّة انتهى.»

انتهى العصر الذَّهبيُّ لقسائم الغداء المجانيَّة منذ عشر سنواتٍ. لعشر سنواتٍ يقول ميكي: «العصر الذَّهبيُّ لقسائم الغداء المجَّانية انتهى.» وذلك ما يحبُّه آرشي في أوكونيل. كُلُّ شيءٍ يمكن تذكُّره، ولَمْ يضِعْ شيءٌ. لَمْ تتمّ مراجعة التَّاريخ أبدًا أَوْ إعادة تفسيره، تبنِّيه أَوْ تبييض صفحته. كان في صلابة وبساطة بيضةٍ مُرصَّعة عَلَى مينا السَّاعة.

عندما وصل آرشي إِلَى الطَّاولة رقم ثمانية، كان صمد مثل جيفز[2]: إِنْ لَمْ يكن مُستاءً، فهو عَلَى مسافةٍ مِنْ أنْ يكون سعيدًا.

«آرشيبالد، هَلْ أخذت منعطفًا خاطئًا في نهر الجانج؟ أَلَمْ تكن تنصت إِلَى مأزقي؟ أنا فاسد، وابنيَّ يصبحان فاسدَين، نحن جميعًا سنحترق قريبًا في الجحيم. إِنَّها مشكلاتٌ عَلَى قدْرٍ مِنَ الاستعجال، يا آرشيبالد.»

ابتسم آرشي في هدوءٍ وسرق إصبع بطاطس آخر. «المشكلة محلولةٌ، يا صمد، يا رفيقي.»

«المشكلة محلولةٌ؟»

«المشكلة محلولةٌ ـ الآن ـ بالطَّريقة الَّتي أرى الأمر بها، لديك خياران....»

***

1 ـ تستخدم عشبة الراوند والكاسترد في صنع كعكة إنجليزية معروفة، والعبارة صياغة عَلَى قياس عبارة «هذا ما قالته المثلة للأسقف» الَّتي تستخدم كتعبير بنفس المعنى في بريطانيا وشمال أمريكا، وهي مقتبسة من رواية «لقاء النمر» للكاتب البريطاني ليزلي تشارتريز والَّتي صدرت عام 1928. (المترجم).

2 ـ شخصية خادم بيرتي ووستر في مجموعة من الروايات والقصص الكوميدية لـ ب. ج. وودهاوس (1881 ـ 1975). جيفز هو أفضل مثال للخادم الذكي الكفء الذي يظل هادئًا ويمكنه أن يحل أية مشكلة. (المترجم).

في بدء هذا القرن، طفت ملكة تايلند عَلَى متن قاربٍ، إلَى جوار العديدْ مِنْ رجال حاشيتها، ومن وصيفها، وخادماتها، والسبَّاحين، ومتذوِّقي الطَّعام، عندما ضربت موجةٌ قويَّةٌ القارب فجأةً، وأُلقيت الملكة مِنْ عَلَى سطح القارب إلَى المياه الفيروزية لنهر نيبون كاي، حيث غرقت عَلَى الرَّغم مِنْ توسلاتها طلبًا للمساعدة؛ لأَنَّ أحدًا في القارب لَمْ يذهب لمساعدتها. وبينما ظلّ الأمر عصيًّا عَلَى فهم العالم الخارجيّ، كان التَّفسير بالنِّسبة إلَى التَّايلنديين واضحًا بسرعةٍ: فالتَّقاليد تقتضي، كما تفعل حتَّى أيَّامنا هذه، أَلَّا يلمس الملكة رجلٌ ولا امرأةٌ.

إذا كان الدِّين هو أفيون الشُّعوب، فإنَّ التَّقاليد مسكِّناتٌ أكثر شرًّا، وذلك ـ ببساطة ـ لأَنّها نادرًا ما تبدو شرًّا. إذا كان الدِّين رباطًا ضيِّقًا، ووريدًا يخفق، وإبرةً، فإنَّ التَّقليد اختراعٌ أكثر ألفةً: بذور خشخاشٍ تستقرُّ في الشَّاي؛ أَوْ مشروب كوكاكولا حلوٌ ممزوجٌ بالكوكايين؛ ذلك النَّوع مِنَ الأشياء الَّذِي قَدْ تكون جدَّتك مَنْ قامت بإعداده. بالنِّسبة إلَى صمد، كما هو الأمر بالنِّسبة إلَى شعب تايلند، فالتَّقاليد ثقافةٌ، والثقافة تقود إلَى الجذور، وهذه جيِّدةٌ، هذه مبادئ لَمْ تلوَّث. هذا لَمْ يعن أَنَّه يمكن أَنْ يعيش بها، أَوْ يلتزم بها، أَوْ يكبر بالطريقة الَّتِي تطالب بها، ولكنَّ الجذور هي الجذور، والجذور جيِّدة. سوف لنْ تصل إلَى أيِّ مكانٍ وأنت تخبره أَنَّ الأعشاب لها أيضًا درناتٌ، أَوْ أَنَّ أوَّل علامةٍ عَلَى تخلخل الأسنان هي فساد شيءٍ، شيءٍ متدهورٍ عميقًا في اللَّثة. الجذور هي المحفوظة، الحبال الَّتِي يلقيها المرء لإنقاذ الغرقى، لإنقاذ أرواحهم. وكُلَّما أوغل صمد نفسه بعيدًا في البحر، وانجرف إلَى الأعماق بواسطة حوريَّة بحرٍ اسمها بوبي بيرت جونز، كُلَّما كان أكثر تصميمًا عَلَى أَنْ يؤسِّس جذورًا عَلَى الشَّاطئ لابنيه، جذورًا عميقةً لا تستطيع عاصفةٌ أَوْ نوَّةٌ أَنْ تقتلعها.

القول أسهل مِنَ الفعل. راجع حساباته المنزليَّة، في شقَّة بوبي الصَّغيرة الضَّيِّقة، عندما اتَّضح له أَنَّ لديه أبناءً أكثر ممَّا لديه مِنَ المال. إذا كان ليعيدهما فسيحتاج لأَنْ يدفع صَداقين للجدَّين، ومبلغَين للدِّراسة، ومبلغَين للملابس. كما أَنَّه يستطيع ـ بالكاد ـ تغطية مصاريف الرِّحلات الجوِّيَّة. قالت بوبي: «ماذا عَنْ زوجتك؟ إنَّها مِنْ عائلةٍ غنيَّةٍ، أليس كذلك؟» ولكنَّ صمد لَمْ يكن قَدْ كشف عَنْ خططه لألسانا بعد. لقَدِ اختبر الماء فقط، أشار إلَى الأمر لكلارا بطريقةٍ افتراضيَّةٍ عابرةٍ بينما تقوم بأعمال البستنة الخاصَّة بها. كيف لتكون ردَّة فعلها إذا ما أخذ شخصٌ، يعمل لمصلحة أيري،

طفلتها بعيدًا لأجل حياةٍ أفضل؟ ارتفعت كلارا عَنْ زهرة الأنجستروم الخاصَّة بها، وحدَّقَت فيه في اهتمامٍ صامتٍ، ثُمَّ ضحكت طويلًا وبصوتٍ عالٍ. «الرجل الَّذِي يفعل ذلك،» قالت في النِّهاية، وهي تلُّوح بمقصٍ حديقةٍ ضخمٍ عَلَى مسافة بوصاتٍ مِنْ مقدِّمة بنطلونه، «*تشوب تشوب*. تشوب، تشوب،» فكَّر صمد؛ وأصبح واضحًا لديه ما هو عَلَى وشك أَنْ يفعل.

«واحدًا منهما؟»

أوكونيل مرَّةً أخرى. 6:25. واحد أصابع بطاطس، وفاصوليا، وبيض، ومشروم. وواحد أومليت ومشروم مع *البازلَّاء* (الاختلاف الموسميُّ).

«واحدًا - فقط - منهما؟»

«آرشيبالد، أرجوك احتفظ بصوتك منخفضًا.»

«ولكنْ - واحدًا - فقط - منهما؟»

«هذا ما قلته. تشوب، تشوب.» قسَمَ البيضة المقليَّة في صحنه مِنَ المنتصف. «ليسَت هناك طريقةٌ أخرى.»

«ولكنْ ـــــ»

فكَّر آرشي ثانيةً، بأفضل ما يستطيع. الأشياء القديمة نفسها. أنتَ تعرف، لماذا لا يمكن للنَّاس - فقط - التَّعامل مع الأشياء، أَنْ يعيشوا - فقط - معًا، أنت تعرف، في سلامٍ أَوْ تناغمٍ أَوْ شيءٍ ما. ولكنَّه لَمْ يستطع أَنْ يقول أَيًّا مِنْ ذلك. «ولكنْ ـــ» وبعد ذلك: «ولكنْ ـــ»

ثُمَّ في النِّهاية: «ولكنْ أَيّ *واحدٍ*؟»

وهذا (إذا ما حسبتَ السَّفر جوًّا، والصَّداق، ورسوم التَّعليم الأولى) سؤال الثَّلاثة آلاف ومئتين وخمسةٍ وأربعين جنيهًا. ما إن يتم تدبير المال - نعم، أعاد رهن البيت، وخاطر بأرضه، أكبر خطأٍ يمكن أَنْ يرتكبه مهاجرٌ،فالأمر - ببساطة - مسألة اختيار الطِّفل. للأسبوع الأوَّل كان ماجد، ماجد قطعًا. ماجد لديه الدِّماغ، ماجد يمكن أَنْ يستقرَّ أسرع، ويتعلَّم اللُّغة أسرع، وكانت لآرشي مصلحةٌ كبيرةٌ في الاحتفاظ بـ مِلَّة في البلد؛ لأنَّه أفضل مُهاجمٍ عرفه نادي ويلْزدِن الرِّياضيُّ لكرة القدم (تحت خمسة

عشر عامًا) خلال عقودٍ. وعَلَى ذلك فقد بدأ صمد في استلال ملابس ماجد جلنبًا لرزمها خلسةً، وإعداد جواز سفرٍ منفصلٍ(سيسافر مع العمَّة زينات في 4 نوفمبر)، وهمس بكلمةٍ في أذن المدرسة (عطلةٌ طويلةٌ، يمكن إعطاؤه واجباتٌ لكَيْ يأخذها معه، إلَى آخره).

ولكنْ بعدها في الأسبوع التَّالي حدث تغيُّرٌ في الرَّأي، وكان مِلَّة، لأَنَّ ماجد المفضَّل لدى صمد بالفعل، وأراد أَنْ يراه وهو يكبر، ومِلَّة هو الأكثر احتياجًا إِلَى التَّوجيه الأخلاقيِّ عَلَى أيَّة حال. ولذا فقد كانت ملابسه تُختلس، وباسبوره يجهَّز، وهُمس باسمه في الأذن الصَّحيحة.

في الأسبوع الَّذِي بعدها كان ماجد حتَّى الأربعاء ومِنْ ثَمَّ مِلَّة؛ لأَنَّ صديق آرشي بالمراسلة هورست أيبلجوفتس كتب الرِّسالة التَّالية، الَّتِي لفَتَ آرشي، المعتاد ـ الآن ـ عَلَى الطَّبيعة التَّنبُّؤية الغريبة لمراسلات هورست، انتباه صمد إليها:

15 سبتمبر 1984

آرشيبالد الأعز:

لقَدْ مرَّ وقتٌ منذ رسالَتِي الأخيرة، ولكنَّني شعرت بضرورة أَنْ أكتب لك بخصوص التَّطوُّر الرَّائع في حديقتي والَّذي جلب لي سعادةً لَمْ تكنْ هيِّنة خلال الشُّهور القليلة الماضية. ولأختصر القصَّة وأجعلها أكثر متعة، فقَدْ ذهبتُ إِلَى الفأس وأزلتُ شجرة البلُّوط تلك مِنَ الرُّكن البعيد، ولا يمكنني أَنْ أشرع في وصف الفرق الَّذِي صنعه ذلك! الآن تحصل البذور الأضعف عَلَى الكثير مِنَ الشَّمس وتتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدةٍ، وأنا قادرٌ عَلَى صنع عقلاتٍ منها ـ للسَّنة الأولى في ذاكرتي فإِنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْ أطفالي لديه مزهريَّةٌ مِنَ الفاوانيا عَلَى حواف نافذته. لقَدْ عانيت مِنْ فهمٍ خاطئٍ طوال هذه السَّنوات أَنَّنِي ـ ببساطة ـ بستانيٌّ بارعٌ ـ بينما كانت تلك الشَّجرة العجوز تأخذ، طوال الوقت، نصف الحديقة بجذورها ولا تسمح لأَيِّ شيءٍ آخر بالنمو.

استمرَّت الرِّسالة، غير أَنَّ صمد توقَّف هناك. وقال بانفعالٍ: «وماذا يفترض أَنْ أستلهم مِنْ هذا.... بالتَّحديد؟»

ربَّت آرشي عَلَى جانب أنفه موحيًا بالمعرفة. «تشوب. تشوب. لا بُدَّ أَنْ هذا مِلَّة. إِنَّه نذيرٌ، يا رفيقي. يمكنك أَنْ تثق بأيبلجوفتس.»

وصمد، الَّذِي لَمْ يكن لديه وقتُ في العادة للنُّذُر ولا للتَّربيت عَلَى الأنف، كان عصبيًّا بما يكفي حِيال قبول النَّصيحة. ولكنْ عندها بدأت بوبي (الَّتِي أدرَكَت في الواقع أَنَّها تتلاشى مِنْ عقل صمد مقارنةً بمسألة الولَدين) في الاهتمام، زاعمة أَنَّها شعرت في منامٍ أَنَّه ينبغي أَنْ يكون ماجد، وعليه فهو ماجد مرَّةً أخرى. بَلْ إِنَّ صمد، في يأسه، سمح لآرشي أَنْ ينقف عملةً، غير أَنَّ القرار مِنَ الصَّعب التَّمسُّك بِهِ - الأفضل مِنْ بين ثلاثةٍ، والأفضل مِنْ بين خمسةٍ - لَمْ يستطع صمد أَنْ يثق بذلك أيضًا. ولكنَّ هذه، إذا استطعت أَنْ تصدِّق، كانت هي الحالة الَّتِي ذهب بها آرشي وصمد للعب اليانصيب بالولدين، مُبعدَين الموضوع عن جدران أوكونيل، ومطوِّحَين الأرواح لكَيْ يريا أَيَّ جانبٍ سوف يظهر.

في دفاعهما، هناك شيءٌ واحد ينبغي أَنْ يكون واضحًا. لَمْ تُذكَر كلمة *اختطافٍ* عند أَيِّ نقطة. وفي الواقع فإِنَّه لَوْ تَمَّ عرض هذا، عَلَى سبيل الاصطلاح، للتَّعبير عمَّا هو بصدده، كان صمد لَيصاب بالفزع والذُّهول، كان لَيُسقط الأمر كُلَّه، مثلَ مَنْ يسير نائمًا ويستيقظ لكَيْ يجد نفسه في غرفة النَّوم الرَّئيسة مع سكِّين خبزٍ في يده. هو يفهم أَنَّه *لَمْ يخبر ألسانا بعد*. ويفهم أَنَّه حجز *رحلة طيران* 3:00 صباحًا. لكنَّ ذلك لَمْ يكنْ بأي حال مِنَ الأحوال دليلًا شخصيًّا لنفسه عَلَى أَنَّ هاتين الحقيقتين مرتبطتان، أَوْ أَنَّهما تجتمعان معًا للتَّصريح بمفهوم *الاختطاف*. لذا فقَدِ استقبل صمد رؤية ألسانا تبكي بكاءً مُرًّا عند الساعة 2:00 صباحًا في 31 أكتوبر، وهي منحنية عَلَى طاولة المطبخ، باستغرابٍ شديدٍ. لَمْ يفكر أَنَّه: آه، لقَدِ اكتشفَت ما أنا بصدد أَنْ أفعل بماجد (هو ماجد في النِّهاية وإِلَى الأبد)، فهو ليس الشِّرير ذا الشَّوارب في روايات الجريمة في العصر الفيكتوريِّ. وإِلَى جانب ذلك فهو لَمْ يدرك أَنَّه يخطِّط لأَيِّ جريمةٍ. عوضًا عَنْ أَنَّ فكرته الأولى كانت، *إذن فهي تعرف بخصوص بوبي*، وفي استجابةٍ لهذا الوضع فقد فعل ما يفعله كُلُّ رجلٍ فاسقٍ بالفطرة: المبادرة بالهجوم.

«وإذن ينبغي لي أَنْ أعود إِلَى البيت لأجل هذا، أليس كذلك؟» - ألقى الحقيبة بقوَّةٍ للتَّأثير - «أقضي طوال اللَّيلة في ذلك المطعم اللعين ثُمَّ أضطرُّ إِلَى العودة إِلَى ميلودراماياتك؟»

نشجت ألسانا بالدُّموع. ولاحظ صمد أيضًا صوت قرقرةٍ يصدر عن الشَّحم اللَّطيف الَّذِي يرتجف في فجوة السَّاري الَّذِي ترتديه؛ لوَّحت بيديها نحوه ثُمَّ وضعتهما عَلَى أذنيها.

«هَلْ هذا ضروريٌّ فعلًا؟»، سأل صمد، في محاولةٍ لإخفاء مخاوفه (لقَدْ توقَّع غضبًا، ولَمْ يكن يعرف كيف يتعامل مع الدُّموع). «أرجوك يا ألسانا: هذا ـ بالتَّأكيد ـ ردُّ فعلٍ مبالغٌ فيه.»

لوَّحَت بذراعيها في وجهه مرَّةً ثانيةً كما لَوْ لينصرف ثُمَّ رفعت جسمها قليلًا ورأى صمد أَنَّ القرقرة لَمْ تكن عضويَّةً، فقد كانت منحنيةً عَلَى شيءٍ ما. عَلَى راديو.

«أيّ شيءٍ في الوجود ـــ»

دفعت ألسانا الرَّاديو عَنْ جسمها إِلَى وسط الطَّاولة وأشارت إِلَى صمد لكَيْ يشغِّله. أربع صفَّاراتٍ معهودةٌ، الصُّفَّارات الَّتي تتبع الإنجليز إِلَى أَيِّ كانت الأرض الَّتي يحتلُّون، دوَّى في المطبخ، ثُمَّ في نطقٍ قياسيٍّ سمع صمد ما يلي:

> هُنا خدمة الـ بي بي سي العالميّة في السَّاعة 0300. اغتيلت السَّيِّدة أنديرا غاندي، رئيس وزراء الهند اليوم، تَمَّ إطلاق النَّار عليها مِنْ قِبَل حرَّاسها السِّيخ في تصرُّفٍ من أعمال التَّمرُّد المفتوح وهي تسير في حديقة منزلها في نيودلهي. ليس هناك شكٌّ في أَنَّ اغتيالها عمل انتقاميٌّ بسبب «عمليّة النَّجم الأزرقِ»[1]، واقتحام أقدس مزارٍ للسِّيخ في امريتسر في يونيو الماضي. وطائفة السِّيخ، الَّذِين يشعرون بأَنَّ ثقافتهم تعرَّضَت للهجوم مِنْ قِبَل ـــــــــــ

«يكفي،» قال صمد وهو يطفئه. «هي لَمْ تكن طيِّبةً لعينةً عَلَى أَيَّة حالٍ. لا أحد منهم لعينٌ طيِّبٌ بالمرة. ومَنْ يهتمُّ بما يحدث في تلك البالوعة، الهند. يا عزيزتي....» وحتَّى قبل أَنْ يقول ذلك، تساءل لماذا ينبغي له أَنْ يفعل، لماذا يشعر بكثيرٍ مِنَ *السوداويَّة* هذا المساء. «أنتِ حقًّا مثيرةٌ للشَّفقة بصدقٍ. أتساءل: أين ستكون تلك الدُّموع إذا مِتُّ *أنا*؟ لا مكان ـ أنتِ أكثر اهتمامًا ببعض السِّياسيّين الفاسدين الَّذِين لَمْ تلتقي بهم مطلقًا. هَلْ تعلمين أَنَّكِ المثال الأفضل عَلَى جهل الجماهير، يا ألسي؟ هَلْ تعلمين ذلك؟» قال، متحدِّثًا كما لَوْ لطفلٍ وهو يرفع ذقنها. «تبكين لأجل الأغنياء وذوي النُّفوذ الَّذِين سوف يستنكفون عن التَّبوُّل عليكِ. سوف تصيحين الأسبوع القادم، بدون شكٍّ، لأَنَّ الأميرة ديانا كسرت ظفرًا.»

---

1 ـ هي عملية عسكرية هندية وقعت في الفترة بين 1 يونيو و8 يونيو 1984، بأمر من رئيس الوزراء أنديرا غاندي من أجل بسط سيطرة القوات الهندية على مجمع هارمندير صاحب في امريتسار، البنجاب. وإزالة الزعيم السيخي المتشدد جارنيل سينج وأتباعه المسلحين الذين احتلوا المجمع في أبريل عام 1983. (المترجم).

جمعت ألسانا كُلَّ البصاق الَّذِي أمكن لفمها استيعابه وأطلقته عليه.

«يا *بينشوت*! أنا لا أبكي عليها، أَيُّها *الأحمق*، أنا أبكي لأجل أصدقائي. سوف تكون دماءٌ في الشَّوارع هناك في الوطن بسبب هذا، الهند وبنجلاديش. سوف تكون هناك أعمال شغبٍ ـ سكاكينُ ومسدَّساتٌ. موتٌ عامٌّ، لقَدْ رأيت هذا. سيكون مثل المحشر، يوم الحساب ـ النَّاس سيموتون في الشَّوارع، يا صمد. أنت تعرف وأنا أعرف. ودلهي ستكون أسوأ ما في ذلك، هي دائمًا أسوأ ما في ذلك. لدَيَّ بعض العائلات في دلهي، ولدَيَّ أصدقاءٌ، *وعشَّاقٌ قدامى* ـــ»

وهنا صفعها صمد، جزئيًّا بسبب العشَّاق القدامى وجزئيًّا لأنَّه مرَّت سنواتٌ عديدةٌ منذ أشير إليه كـ بينشوت (وترجمتها: الشَّخص الَّذِي، لتبسيط المعنى، ينكح أخته).

ضمَّت ألسانا وجهها، وتحدَّثت بهدوءٍ. «أنا أبكي ببؤسٍ لأجل تلك الأسر المسكينة، *وأتخفَّف* مِنَ العبء لأجل أطفالي! والدهما يتجاهلهما ويتنمَّر عليهما، نعم، ولكنْ عَلَى الأقل فلَنْ يموتا في الشَّوارع كالفئران.»

وعَلَى ذلك كان الأمر في طريقه لأَنْ يكون واحدًا مِنْ تلك الجولات: نفس المواقف، ونفس الخطوط، ونفس الاتِّهامات، ونفس اللَّكمات الخطَّافيَّة اليُمنى. القبضات العارية. ويُقرع الجرس. ويخرج صمد مِنْ زاويته.

«لا، هما سيعانيان مِنْ شيءٍ أسوأ، أسوأ بكثيرٍ: يجلسان في بلد مفلسٍ أخلاقيًّا مع أُمٍّ في طريقها للجنون. كوكو[1] بالكامل. كثيرٌ مِنَ الزَّبيب ينقص كعكة الفواكه[2]. انظري إِلَى نفسك. انظري إِلَى حالتك! انظري كَمْ أنت بدينةٌ!» أمسك بجزءٍ منها ثُمَّ أطلقه كما لَوْ كانت ستصيبه بالعدوى. «انظري إِلَى طريقة لباسك. أحذية ركضٍ وساري؟ وما هو ذلك؟»

كانَ هذا واحدًا مِنْ أغطية رأس كلارا الأفريقية، قطعةٌ طويلةٌ وجميلةٌ مِنْ قماش الكينتي[3] البرتقاليّ الَّتِي أخذتها ألسانا لتغطية عنقها الكبير. انتزعها صمد وألقاها عبر الغرفة، تاركا شعر ألسانا ينهال عَلَى ظهرها.

1 ـ تستخدم كلمة كوكو للدلالة عَلَى انهيار الحالة العقلية في بعض التعبيرات. (المترجم).

2 ـ تعبير يستخدم للدلالة عَلَى الجنون أوْ فقدان الإدراك للواقع. (المترجم).

3 ـ ويعرف أيضًا باسم نويتوما في اللغة الأكانية (لغة السكان الأصليين في غانا) وهو نوع من قماش الحرير والقطن الذي يصنع في شرائط متشابكة وترتديه الجماعة الإثنية المحلية في جنوب غانا. (المترجم).

«أنتِ حتَّى لا تعرفين ما أنتِ، ومِنْ أين أتيتِ. نحن لَمْ نعد نرى العائلة بالمرَّة - أنا أخجل مِنْ أَنْ أقدِّمك لهم. *لماذا قطعتُ كُلَّ هذه الطريق إِلَى البنجال لأجل زوجةٍ*، هذا ما يسألونه. *لماذا لَمْ تذهب - فقط - إِلَى بونتي*[1]؟»

ابتسمت ألسانا في أسًى، وهزَّت رأسها، بينما تظاهر صمد بالهدوء، وهو يملأ غلَّايتهم المعدنيَّة بالماء ويضعها في عنفٍ عَلَى الموقد.

«وذلك لونجي جميلٌ الَّذِي ترتديه، يا صمد مياه،» قالت بمرارةٍ، وهي تشير في اتجاه بذلة التَّريُّض مِنْ قماش المناشف الأزرقِ الَّذِي تعلوه قبَّعة بوبي لفريق أوكلاند للبيسبول.

قال صمد: «الاختلاف هو ما يوجد هنا،» بدون أَنْ ينظر إليها، وهو يرطم إبهامه بأسفل صدره مِنَ الجهة اليسرى. «أنت تقولين إِنَّك شاكرةٌ لأَنَّنا في إنجلترا، ذلك لأَنَّك ابتلعت الأمر بالكامل. يمكنني أَنْ أخبرك أَنَّ الولدين سيحظيان بحياةٍ أفضل هناك في الوطن أكثر تمامًا ممَّا —»

«صمد مياه! لا تبدأ حتَّى! سيكون عَلَى جثَّتي أَنْ تنتقل هذه الأسرة إِلَى مكانٍ تكون حياتنا في خطر فيه! كلارا تخبرني عنك، إِنَّها تخبرني. كيف أَنَّك سألتها عَنْ أشياء غريبةٍ. ما الَّذِي تخطِّط له، يا صمد؟ لقَدْ سمعتُ مِنْ زينات كُلَّ ما يتعلَّق بالتَّأمين عَلَى الحياة... مَنِ الَّذِي يموت؟ ماذا يمكن أَنْ أَشمَّ؟ أنا أخبرك، سيكون ذلك عَلَى جثَّتي —»

«ولكنْ إذا كنتِ ميِّتةً بالفعل، يا ألسي —»

«اخرس! اخرس! أنا لستُ مجنونةً. أنت تحاول أَنْ تقودني إِلَى الجنون! لقَدِ اتَّصلتُ بأردشير، يا صمد. لقَدْ أخبرني أَنَّك غادرت العمل في الحادية عشرةَ والنِّصف. إِنَّها الثَّانية في الصَّباح. أنا لستُ مجنونةً!»

«لا، إِنَّه أسوأ. لقَدْ أُصيب عقلك بالعطب. أنتِ تدْعين نفسك مسلمةً —»

انعطفت ألسانا برشاقةٍ لكَيْ تواجه صمد، الَّذِي حاول أَنْ يركِّز انتباهه عَلَى البُخار يصفر خارجًا مِنَ الغلَّاية.

«لا، يا صمد. أوه لا. أوه لا. أنا لا أدعو نفسي أَيَّ شيءٍ. أنا لا أقوم بادِّعاءات. أنت تَعدُّ نفسك مسلمًا. أنت تُجري صفقاتٍ مع الله. أنت الَّذِي ستتمُّ مخاطبته، عندما يأتي المحشر. *أنتَ* يا صمد مياه. أنت، أنت، *أنت*.»

---

1 - حي في شمال غرب لندن. (المترجم).

الجولة الثَّانية. صفع صمد ألسانا. ضربته ألسانا بخطَّافيَّةٍ يُمنى في المعدة، وتبعتها بضربةٍ عَلَى عظم الوجنة اليسرى. ثُمَّ اندفعت نحو الباب الخلفيِّ، غير أَنَّ صمد أمسكها مِنَ الوسط، وعالجها بأسلوب الرُّجبي، وجرَّها إِلَى أسفل، وضربها بكوعه في العصص. ارتفعت ألسانا، كونها أثقل مِنْ صمد، عَلَى ركبتيها، حاملةً إيَّاه، ثُمَّ انقلبت عليه وجرَّته خارجًا إِلَى الحديقة، حيث ركلته مرَّتين بينما تمدَّد عَلَى الأرضية ـ بضربتين شرستَين قصيرتَين عَلَى جبينه ـ غير أَنَّ الحشوة المطاطيَّة في حذائها خفَّفَت الضَّرر، وخلال لحظةٍ كان عَلَى ركبتيه مرَّةً ثانيةً. قبض كُلٌّ منهما عَلَى شَعر الآخر، وصمد مصمِّمٌ عَلَى جذبه حتَّى رأى الدَّم. غير أَنَّ هذا ترك ركبة ألسانا حرَّة فارتطمت بنعومةٍ بما بين فخذي صمد، مجبرةً إياه عَلَى إطلاق شَعرها والتَّأرجح في قفزةٍ عمياء أراد بها فمها غير أَنَّه أمسك بأذنها. في هذا الوقت، برز التوأم نصف مستيقظَين مِنْ فراشهما ووقفا بجوار الزُّجاج الطَّويل لنافذة المطبخ يشاهدان المعركة، بينما جاءت أضواء الجيران، لتضيء حديقة آل إقبال مثل الاستاد.

«أَبًا،» قال ماجد، بعد أَنْ مسح بعينيه وضعية المباراة للحظةٍ. «بالتَّأكيد أَبًا.»

«*شكرًا*، يا رجل. *مستحيل*»، قال مِلَّة، وهو يطرف في الضَّوء. «أراهنك بقطعتي مصَّاصة برتقال أَنَّ أمَّا ستخرج منه القرف.»

«أوووووووا» صرخ التَّوأم في تناغمٍ، كما لَوْ أَنَّ هناك عرضًا للألعاب النَّاريَّة، ثُمَّ بعدها: «آآآآآآاه.»

أنهت ألسانا المعركة ـ بالكاد ـ بقليلٍ مِنَ المساعدة مِنْ شوكة الحديقة.

«الآن رُبَّما يمكن *لبعضٍ* مِنَّا، هؤلاء الَّذِين ينبغي أَنْ *يعملوا* في الصَّباح، أَنْ *يحصلوا عَلَى ليلة نومٍ لائقةٍ! أَيُّها الباكستانيُّون الملاعين*،» صرخ أحد الجيران.

بعد بضع دقائق (ولأَنَّهم كانوا دائمًا *يعانقون* بعضهم بعضًا بعد هذه المعارك، عِناقًا في منطقةٍ ما بين المودَّة والانهيار) جاء صمد مِنَ الحديقة، مصابًا بارتجاج لا يزال، كأقلِّ ما يمكن قوله، وقال: «اذهبا إِلى الفراش،» قبل أَنْ يمسح بيده عَلَى الشَّعر الأسودِ الكثيف لكُلِّ ابنٍ.

ومع وصوله إِلَى الباب، توقَّف. «سوف تشكرني،» قال، ملتفتًا إِلَى ماجد، الَّذِي ابتسم في ضعفٍ، وهو يفكِّر أَنَّ أَبًا رُبَّما سيحضر له مجموعة الكيمياء تلك في نهاية المطاف. «سوف تشكرني في النِّهاية. هذا البلد ليس جيِّدًا. نحن نُسيل دموع بعضنا بعضًا كثيرًا في هذا البلد.»

ثُمَّ صعد السَّلالم واتَّصل ببوبي بيرت جونز، موقظًا إيَّاها ليخبرها أنَّه لَنْ يكون هناك المزيد مِنَ القبلات فيما بعد الظِّهيرة، ولا مزيد مِنَ التَّمشيات المذنبة، ولا مزيد مِنْ سيارات الأجرة الماكرة. إنَّها نهاية العلاقة.

رُبَّما كُلُّ آل إقبال متنبِّئون، لأَنَّ أنف ألسانا بالنِّسبة إلى المشكلات كان محقًّا أكثر بكثيرٍ ممَّا هو عليه في أَيِّ وقتٍ. قطع رؤوسٍ عَلَى الملأ، وعائلاتٌ أُحرقت خلال نومها، وأجسادٌ مشنوقةٌ خارج بوابة كشمير، وأناسٌ يتعثَّرون في أجزائهم الذَّاهلة المفقودة؛ وأطراف أجساد تؤخذ مِنَ المسلمين بواسطة السِّيخ، ومِنْ السِّيخ بواسطة الهندوس؛ سيقانٌ وأصابع، وأنوفٌ وأصابع أقدام، وأسنانٌ، أسنانٌ في كُلِّ مكانٍ، تنتشر في أنحاء الأرض، وتختلط بالتُّراب. ألف شخصٍ ماتوا بحلول 4 نوفمبر، عندما برزت ألسانا مِنْ تحت ماء الحمَّام لتسمع الصَّوت المخشخش لرجلنا في دلهي مخبرًا إيَّاها عن ذلك مِنْ أمام المجلس الاستشاريِّ الطبِّيِّ.

أمرٌ فظيعٌ. ولكنْ، كما رأى صمد الأمر، فبعضنا لديه رفاهية الجلوس في الحمَّام والاستماع إِلَى الأخبار الأجنبيَّة بينما لدى الآخرين لقمة عيشٍ ليصنعوها، وشأنًا لينسوه، وطفلًا ليختطفوه. انحشر في الجينز الأبيضِ، وفحص تذكرة الطَّيران، وهاتف آرشي لكَيْ يراجع الخطَّة، ثُمَّ غادر إِلَى العمل.

في مترو الأنفاق كانت هناك فتاةٌ صغيرةٌ بعض الشَّيء وجميلةٌ نوعًا ما، سمراء، بمظهرٍ إسبانيٍّ، ملتصقة الحاجبين، تبكي. تجلس أمامه تمامًا، في زوجٍ مِنْ جوارب الصُّوف الكبيرة الورديَّة، وتبكي في علانيةٍ تامَّةٍ. لَمْ يقل أحدٌ أَيَّ شيءٍ. ولَمْ يفعل أحدٌ أَيَّ شيءٍ. كُلُّ شخصٍ تمنَّى أَنْ تغادر في كيلبورن. ولكنَّها استمرَّت هكذا، جالسةً فقط، وتبكي؛ ويست هامبستيد، طريق فينشلي، والكوخ السويسري، وغابة سانت جون. ثُمَّ عند شارع بوند أخرجَت صورةً لشابٍّ غير واعدٍ مِنْ حقيبة ظهرها، وعرضَتها عَلَى صمد وبعض الرُّكَّاب الآخرين.

«لماذا يرحل؟ إنَّه يحطِّم قلبي... نيل، إِنَّه يقول إِنَّ اسمه نيل. نيل، *نيل*.»

في تشارينج كروس، نهاية الخطِّ، شاهدها صمد تعبر الرَّصيف وتأخذ القطار العائد مباشرةً إِلَى ويلْزدِن جرين. كانت رومانسيَّةً، نوعًا ما. الطَّريقة الَّتي قالت بها «نيل» كما لو كانت كلمةً تتفجَّر وتكبر مع العاطفة الذَّاوية، مع الخسارة. ذلك النَّوع مِنَ التَّدفُّق، البؤس النِّسوي. لقَدْ توقَّع شيئًا مشابهًا مِنْ بوبي، بطريقةٍ ما؛ لقَدِ التقط سمَّاعة الهاتف متوقِّعًا

دموعًا لطيفةً، إيقاعيَّةً، وبعدها رسائل، ربَّما، معطَّرةً وملوَّنةً. وفي حزنها سينمو، كما يفعل رُبَّما في هذه اللَّحظة؛ حزنها تعميدٌ يقرِّبه خُطوةً مِنْ فدائه الخاص. ولكنَّه بدلًا مِنْ ذلك لَمْ يحصل سوى عَلَى «اللَّعنة عليك، أيُّها الحقير *اللَّعين*.»

«أخبرتُك،» قال شيڤا، وهو يهزُّ رأسه ويمرِّر سلَّةً مِنَ المناديلِ الصَّفراءِ إلَى صمد ليُشكِّلها في هيئة قلاعٍ. «لقَدْ أخبرتُك أَلَّا تتورَّط في ذلك الأمر، أَلَمْ أفعل؟ الكثير مِنَ التَّاريخ هناك، يا رجل. أنت ترى: إنَّه ليس أنتَ - فقط - ما يغضبها، أليس كذلك؟»

هزَّ صمد كتفيه وبدأ بتشكيل الأبراج.

«لا، يا رجل، التَّاريخ، التَّاريخ. الأمر كُلُّه أَنَّ رجلًا بُنِّيًّا يترك امرأةً إنجليزيةً، الأمر كُلُّ أَن يقول نِهرو[1] لمدام بريطانيا: وداعًا.» التحق شيڤا في محاولةٍ لتطوير نفسه بالجامعة المفتوحة. «الأمر معقَّدٌ بالكامل، قرفٌ معقَّدٌ، الأمر كُلُّه يتعلَّق بالكبرياء. عشرة جنيهاتٍ وتقول إنَّها تريدك كصبيٍّ خادمٍ، كمقشِّر للعنب والله.»

«لا،» احتجَّ صمد. «ليس الأمر عَلَى هذه الصُّورة. هذه ليست العصور المظلمة، يا شيڤا، إنَّها 1984.»

«هذا يظهرُ قَدْرَ معرفتك. مِمَّا أخبرتني فالمرأة حالةٌ كلاسيكيَّةٌ، يا رفيقي، كلاسيكيَّةٌ.»

«حسنًا، لدَيَّ اهتماماتٌ أخرى الآن،» تمتم صمد (وهو يحسب بشكلٍ خفيٍّ أَنَّ طفليه سيكونان مدسوسَين بأمانٍ في أغطية النَّوم لدى الجيران، أَنَّ هناك ساعتين أُخريَين قبل أَنْ يحتاج آرشي لأَنْ يوقظ ماجد، تاركًا مِلَّة لكَيْ يكمل نومه). «اهتماماتٌ عائليَّةٌ.»

«لا وقت!» صرخ أردشير، الَّذِي تسلَّل مِنَ الخلف، بشكلٍ غير محسوسٍ مثلما دائمًا، لكَيْ يدرس أسوار قلاع صمد. «لا وقت للشُّؤون العائليَّة، يا ابن العمِّ. الجميع مشغولون، والجميع يحاولون إخراج عائلاتهم مِنْ تلك الفوضى في الوطن - أنا شخصيًّا سأتكبَّد ألفًا مِنَ الجنيهات لأجل تذكرةٍ لشقيقتي الثَّرثارة - ولكنَّني ما زلتُ مضطرًّا للقدوم إلى العمل، لا يزال ينبغي لي التَّعامل مع الأشياء. ليلةٌ مزدحمةٌ اللَّيلة، يا ابن عمِّي،» صاح أردشير، وهو يخرج مِنَ المطبخ ليقطع أرضيَّة المطعم في توكسيدو سوداء. «لا تخذلني.»

تلك أكثر ليالي الأسبوع ازدحامًا، السَّبت، اللَّيلة الَّتِي تأتي الحشود فيها في موجاتٍ:

1 - جواهرلال نهرو (ولد في 14 نوفمبر 1889 وتوفي في 27 مايو 1964): يعد نهرو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال، وشغل المنصب من 15 أغسطس 1947 حتى وفاته، شغل أيضا منصب وزير الخارجية والمالية، وهو أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز العالمية عام 1961. (المترجم).

ما قبل المسرح، وما بعد المسرح، وما بعد الحانة، وما بعد النَّادي؛ الأولى مهذَّبةٌ وحواريَّةٌ، والثَّانية مُهمهمةٌ مع نبراتٍ اعتراضيَّةٍ، والثالثة غوغائيَّةٌ، والرَّابعة بأعينٍ واسعةٍ وبذيئةٍ. حشود المسرح بالطَّبع هي المفضَّلة لدى النُّدُل؛ فهم دائمًا في مزاجٍ طيِّبٍ، ويقدِّمون بقشيشًا سخيًّا ويستفسرون عَنْ جغرافيَّة الطَّعام ـ أصوله الشَّرقيَّة، وتاريخه ـ وكُلِّ ما مِنْ شأنه أَنْ يُلفَّق بسعادةٍ مِنْ قبل النُّدُل الأصغر سنًّا (الَّذِين كانت أقصى رحلاتهم شرقًا هي تلك الَّتي يقومون بها يوميًّا، في طريق العودة إِلَى المنزل إِلَى وايت تشابل وسميث فيلد وآيل أوف دوجز)، أَوْ يُقدَّم بإخلاصٍ وفخرٍ مِنْ قبل الأكبر سنًّا بقلم البيرو الأسودِ عَلَى ظهر منديلٍ ورديٍّ.

أُراهن أَنَّها كذلك! هو عرض المسرح الوطنيّ خلال الشُّهور القليلة الماضية، وهو عرضٌ موسيقيٌّ أُعيد اكتشافه في منتصف الخمسينيات. تَمَّ إعداده في الثَّلاثينيات، حول فتاةٍ غنيَّةٍ تهرب مِنْ عائلتها وتلتقي بفتًى فقيرٍ في الطَّريق، هو نفسه كان خارجًا للقتال في الحرب الأهلية في إسبانيا. ووقعا في الحبِّ. وحتَّى صمد، الَّذِي لَمْ يملك أُذنًا موسيقيَّة، التقط ما يكفي مِنْ برامج الأداء المنسيَّة وسمع ما يكفي مِنَ الطَّاولات الصَّاخبة بالغناء ليعرف معظم الأغنيات؛ وأحبَّها، في الواقع فقَدْ شغلَت ذهنه عَنْ مشقَّة العمل (بَلْ وما هو أفضل ـ فاللَّيلة كانت الأغنيات تخفيفًا حلوًا للمخاوف تجاه ما إذا كان آرشي سينجح في إحضار ماجد إِلَى خارج القصر في السَّاعة 1:00 صباحًا بالضَّبط)؛ غمغم بها إِلَى جانب العاملين بالمطبخ في نوعٍ ما مِنْ إيقاع العمل بينما يفرمون ويتبِّلون، ويقطِّعون في شرائح ويسحقون.

لقَدْ رأيتُ أوبرا باريس وعجائب الشَّرق

«صمد مياه، إِنَّني أبحث عَنْ حبوب خردل راجا.»

قضيتُ فصول الصَّيف عَلَى ضفاف النِّيل، وشتاءاتي في التزلُّج

«حبوب الخردل... أظنُّ أَنَّني رأيتها مع محمد.»

لقَدِ امتلكتُ الألماس، والياقوت، والفرو، وقبَّعات المخمل

«ادِّعاءاتٌ، ادِّعاءاتٌ... أنا لَمْ أر أيَّ حبوب خردل.»

لقَدْ كان هيوارد هيوز[1] عندي يقشِّر لي العنب

1 ـ صناعي وطيار ومنتج أفلام سينمائية أمريكية، ولد سنة 1905 بمدينة هيوستن بولاية تكساس الأمريكية.

«أعتذر، يا شيڤا، إذا لَمْ تكن لدى هذا المُسنُّ، فأنا لَمْ أرها.»

ولكنْ ماذا يعني ذلك بدون الحبِّ؟

«ما هذه إذن؟» مضى شيڤا مِنْ مكانه بجوار الطَّاهي والتقط علبةً مِنْ حبوب الخردل مِنْ جانب كوع صمد الأيمن. «هيَّا يا سامِّ-استجمع نفسك. رأسك بين السِّحاب هذا المساء.»

«أعتذر... لدي الكثير في ذهني...»

«تلك السَّيِّدة صديقتك، هه؟»

«اخْفِضْ صوتك، يا شيڤا.»

«*هُمْ يخبرونني أنَّنِي أفسدني التَّدليل، ثريَّةٌ متحرِّرةٌ بما يعني المتاعب*»، غَنَّى شيڤا بأغرب لَكْنةٍ هنديَّةٍ عَلَى ضفاف الأطلسيِّ. «أُوي - أُوي، يا جوقتي. *ولكنْ أيًّا كان الحبُّ الَّذِي أناله فأنا أردُّه ضِعفَين.*»

أمسك شيڤا بمزهريَّةٍ صغيرةٍ مِنَ الزَّبرجد وغَنَّى خاتمته عبر نهايتها المقلوبة. «*ولكنْ لا قَدْرَ مِنَ المال، سوف يجعل عسلي لي*... ينبغي أنْ تأخذ تلك النَّصيحة، يا صمد مياه»، قال شيڤا، مقتنعًا أنَّ إعادة صمد للرَّهن العقاريِّ لها علاقةٌ بتمويل علاقته غير المشروعة، «إنَّها نصيحةٌ جيِّدةٌ.»

بعد بضع ساعاتٍ ظهر أردشير مَرَّةً أُخرى عبر أبواب المروحة، مقاطعًا الغناء ليقدِّم مرحلته الثَّانية مِنَ الحديث الحماسيِّ. «أيُّها السَّادة، أيُّها السَّادة! ذلك أكثر مما يكفي للأمر. الآن، انصتوا: إنَّها العاشرة والنِّصف. لقَدْ شاهدوا العرض. إنَّهم جائعون. لقَدْ حصلوا - فقط - عَلَى كوبٍ مثيرٍ للشَّفقة مِنَ الآيس كريم في الاستراحة والكثير مِنْ جِنّ بومباي[1]، الَّذي، كما نعرف جميعًا، يولِّد الحاجة إلى الكاري. وذلك، يا سادةٌ، هو حيث يأتي دورُنا. طاولتان لخمسة عشر حضروا بالفعل وجلسوا في الخلف. الآن: عندما يطلبون الماء ماذا ستفعلون؟ ماذا تفعل، يا راڤيند؟»

وفي سن التاسعة عشرةَ من عمره ورث أموالًا طائلة من شركة متخصصة في إنتاج معدات خاصة بالصناعة البترولية. كان هوارد هيوز في وقت من الأوقات أحد أصحاب المشروعات الأكثر استقطابًا للاهتمام في العالم، وذلك لما عرف عنه مهارة وجرأة في أساليب الأعمال الَّتِي انتهجها وفي إنجازاته في مجال الطيران وكذلك لحياته الشخصية غريبة الأطوار. (المترجم).

2 ـ نوع من أنواع الجن (مشروب كحولي قوي، يصنع من تقطير كحول البذور البيضاءِ وعنب الجونيبر) مملوك لشركة باكاردي، وتم إطلاقه لأول مرة في عام 1987. (المترجم).

راڤيند جديدٌ تمامًا، ابن أخي رئيس الطَّباخين ـ بالكاد ـ في السَّادسة عشرةَ. «أُخبرهم ــ»

«لا، يا راڤيند، حتَّى قبل أنْ تتكلَّم، ماذا تفعل؟»

عضَّ راڤيند شفته. «لا أعرف، يا أردشير.»

«*تهزُّ رأسك*،» قال أردشير، وهو يهزُّ رأسه. «بالتَّزامن مع نظرة اهتمامٍ وخوفٍ عَلَى سلامتهم.» أَظْهَرَ أردشير النَّظرة. «ثُمَّ تقول عندها؟»

«لا يفيد الماء مع الحرارة، يا سيِّدي.»

«ولكنْ ما الَّذِي يفيد مع الحرارة، يا راڤيند؟ ما الَّذِي سيساعد السَّيِّد النَّبيل تجاه إحساس الحُرقة الَّذِي يشعر به الآن؟»

«المزيد مِنَ الأرز، يا أردشير.»

«و؟ و؟»

بدا راڤيند متحيِّرًا وبدأ في التَّعرُّق. ومال صمد، الَّذِي قُلِّلَ مِنْ شأنه في مرَّاتٍ كثيرةٍ جدًّا مِنْ قِبَل أردشير لكَيْ يستمتع بمشاهدة شخصٍ آخر يلعب دور الضَّحيَّة، ويهمس بالجواب في أذن راڤيند الرَّطبة.

أضاء وجه راڤيند في عرفانٍ. «المزيد مِنْ خبز النَّان[1]، يا أردشيرا»

«نعم؛ لأنَّه يمتصُّ الفلفل الحارَّ، والأكثر أهميَّةً أنَّ الماء مجَّانيٌّ أَمَّا خبز النَّان فبجنيهٍ وعشرين. الآن، يا ابن العمِّ،» قال أردشير، ملتفتًا نحو صمد وهو يهز إصبعًا عَظميَّةً، «كيف يتعلَّم الفتى؟ دع الفتى يجيب بنفسه في المرَّة القادمة. لديكَ شأنكَ الخاص: زوجٌ مِنَ السَّيِّدات في الطَّاولة رقم اثني عَشرَ طلبتا كبير النُّدُل تحديدًا، ليقوم عَلَى خدمتهما، وعليه ــ»

«طالبتا بي؟ ولكنِّي ظننتُ أَنِّي ربَّما أبقى في المطبخ هذا المساء. بجانب ذلك، أنا لا يمكنني أَنْ أكون مطلوبًا مثل بعض الخدم الشَّخصيِّين، هناك الكثير جدًّا الَّذِي ينبغي عمله ـ ليسَت هذه سياسةٌ، يا ابن العمِّ.»

1 ـ نان هو مصطلح عام لمختلف أنواع الخبز المسطح من مختلف أنحاء العالم، وخبز النان هو نوع من الخبز المنتشر في جنوب ووسط آسيا، وفي إيران، وفي المطاعم الجنوب آسيوية. (المترجم).

وفي هذه اللَّحظة يشعر صمد بالذُّعر. ذهبَت أفكاره بعيدًا مع اختطاف الواحدة صباحًا، مع احتمال فصل توأمه، وأنَّه لا يثق بنفسه مع الأطباق السَّاخنة وأوعية الدَّال الَّتي يفوح منها البخار، ومع الدُّهون المتطايرة لدجاج فرن الطِّين، ومع كُلِّ المخاطر الَّتي يواجهها نادلٌ بيدٍ واحدةٍ. رأسه مشغولٌ بابنيه تمامًا. وهو نصف حالمٍ هذه الليلة. وقضم، مرَّةً أخرى، كُلَّ ظفرٍ فيما بعد منبته، وما أسرع ما وصل إِلَى أصولها الهلاليَّة الشَّفافة ومراكز النَّزف.

يقول، يسمع نفسه يقول: «يا أردشير، لدَيَّ مليون شيءٍ لأفعله هنا في المطبخ. ولماذا يجب ـــ»

وتأتي الإجابة: «لأَنَّ كبير النُّدُل هو النَّادل الأفضل، وطبيعيٌّ أَنَّهما مَنَحَتَاني ـ مَنَحَتَانا ـ بقشيشًا لأجل هذا الامتياز. لا مجادلات، رجاءً، يا ابن العمِّ. الطاولة رقم اثني عشر، يا صمد مياه.»

ويبدأ صمد، متعرقًا بعض الشيء، وملقيًا بالفوطة البيضاءِ عَلَى ذراعه اليسرى، يغمغم بدون صوتٍ بلحنٍ راقصٍ وهو يندفع عبر الأبواب.

ما الَّذِي لَنْ يفعله فتًى لأجل فتاة؟ ما أجمل العطر، ما أكبر اللُّؤلؤة؟

كان مسارًا طويلًا إِلَى الطَّاولة رقم اثنيْ عَشرَ. ليس بحساب المسافة، هي ـ فقط ـ عشرون مترًا بالمسافة، ولكنَّه مشيٌ عبر الرَّوائح الثَّقيلة والأصوات الصَّاخبة والطَّلبات: عبر صرخات الرِّجال الإنجليز؛ عبر الطَّاولة رقم اثنين، حيث منفضة السَّجائر ملأى، وينبغي تفريغها في منفضةٍ أخرى، تَمَّ رفعها في صمتٍ واستبدالها بمنفضةٍ جديدةٍ في لامبالاةٍ تامَّةٍ، متوقِّفًا عند الطَّاولة رقم أربعةٍ، حيث هناك طبقٌ غير محدَّدٍ لَمْ يُطلَب: مناقشًا الطَّاولة رقم خمسةٍ، الَّتِي ترغب في الانضمام إِلَى الطَّاولة رقم ستَّةٍ: أَيًّا كان الإزعاج؛ والطَّاولة رقم سبعةٍ تطلب البيض والأرز المقليَّ سواء أكان أَمْ لَمْ يكن طبقًا صينيًّا، والطَّاولة رقم ثمانيةٍ تتمايل ومزيدًا مِنَ النبيذ! مزيدًا مِنَ البيرة! إِنَّه مشيٌ طويلٌ إذا ما كان عليك التَّفاوض مع الغابة؛ والتَّورُّط في حاجاتٍ لا تنتهي ونهاياتٍ لا حاجة لها، والرَّغبات، ومطالب الوُجُوه الورديَّة الَّتِي تبادر صمد ـ الآن ـ مثل سادةٍ يرتدون قبَّعات الشَّمس، بأقدامٍ عَلَى الطَّاولة ومسدَّساتٍ حول خصورهم، مثل سيِّداتٍ

يتناولن الشَّاي في الفراندات وهنَّ يرطِّبن أنفسهنَّ تحت النَّسائم الَّتِي يحرِّكها الفتيان ذَوو البشرة البُنِّيَّة برياش النعَّام ـــ ... ـــ ...

لأَيِّ مدَّةٍ لَنْ يسافر، كَمْ ضربة بالمطرقة

يا الله، كَمْ هو شاكرٌ (نعم *يا مدام، لحظةً واحدةً، يا مدام*)، كَمْ هو سعيدٌ بفكرة أَنَّ ماجد، ماجد عَلَى الأقلِّ، سيكون، في غُضُون أربع ساعاتٍ، طائرًا نحو الشَّرق بعيدًا عَنْ هذا المكان ومطالبه، وشهواته المستمرَّة، هذا المكان حيث لا يوجد صبرٌ ولا رحمة، حيث يريد النَّاس ما يريدونه *الآن*، الآن تحديدًا (*لَقَدْ ظللنا ننتظر لعشرين دقيقةً مِنْ أجل الخضراوات*)، متوقِّعين مِنْ عشَّاقهم، وأطفالهم، وأصدقائهم، وحتَّى آلهتهم أَنْ يحضروا بتكلفةٍ قليلةٍ وفي وقت قليلٍ، تمامًا كما تتوقَّع الطَّاولة رقم عشرة الجمبري بالتَّندوري الَّذِي طلَبَته...

في مزادٍ مِنَ اختيارها، كَمْ رامبرانت[1]*، أَوْ كليمت*[2]*، أَوْ دي كونينج*[3]؟

هؤلاء النَّاس الَّذِين قَدْ يستبدلون الجنس بإيمانهم كاملًا، والنُّفوذ بالجنس بالكامل، والذين قد يستبدلون الفخر بالنَّفس بخشية الله، والسُّخرية بالمعرفة، و... رأسٌ مُعتبرٌ مغطًّى لفترةٍ طويلةٍ، والصَّدمة الحادَّة لشعرٍ برتقاليٍّ - إنَّها بوبي في الطَّاولة رقم اثنيْ عَشرَ.

---

1 ـ رامبرانت هرمنسزون فان راين: رسام هولندي ولد في أمستردام عام 1606 وتوفي عام 1669م، استقر في مدينة أمستردام منذ سنة 1631 م. نظرًا للقوة التعبيرية الكبيرة الَّتِي تتميز بها أعماله ولوحاته الشخصية، بالإضافة إلى معرفته العلمية بنظريات الضوء والظلال، وكذلك القيم الإنسانية لأفكاره وتأملاته الشخصية حول مصير الجنس الإنساني، كان له شأن كبير أثناء حياته، واشتهر ـ أيضًا ـ بأعماله عن طريق الرسم بماء الذهب (الأشجار الثلاثة، قطع المئة فلوران النقدية؛ يسوع يُبشر الناس). وقد تأثر بالفنان كارفاجيو وروبنز لكنه استخدم تأثيرات الضوء ووضع الألوان بحرية ليبرز الحالة العاطفية والنفسية. (المترجم).

2 ـ جوستاف كليمت: فنان ورسام نمساوي مشهور وأحد أبرز فناني حركة الانفصال الفنية في فيينا عَلَى الإطلاق. ومن الأعمال الرئيسية له اللوحات والرسومات الجدارية وغيرها من التحف الفنية، وكثير منها موجود في معرض في فيينا وتحديدًا قاعة الانفصال الفني. اهتم كليمت بشكل رئيس بموضوع جسد الأنثى، وأعماله تتميز بعرض إثارة جنسية بشكل صريح وهذا أكثر ما يتجلى في العديد من الإسكتشات. هذه المواضيع الأنثوية، سواء كانت حادة الوضوح أم المبهمة منها تحوي عَلَى صور عراة دائمًا وتُظهر وعيا عاليًا حتَّى في نهاية هذا القرن. وهذه الأخيرة تنسجم مع مبادئ حركة الانفصال الفنية الَّتِي تتمحور حول فكرة إعلان الحقيقة وكسر حواجز الخجل السلبي. (المترجم).

3 ـ ويليام دي كونينج: فنان هولندي أمريكي ولد في روتردام. في حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية كان دي كونينج يرسم بالأسلوب الذي عرف بعدها بالتعبيرية التجريدية وكان عضوًا في مجموعة فنية عرفت باسم «مدرسة نيويورك». (المترجم).

إنَّها بوبي بيرت جونز. والاسم وحده سيكون كافيًا الآن (لأنَّه في أقصى حالات اضطرابه، صمد، فهو عَلَى وشك أَنْ يفصل ابنيه إِلَى قسمين مثل جرَّاح الأعصاب الأول ذاك وهو يشهر سكِّينه الخرقاء شديدة الحدَّة عَلَى الجلد البائس لتوأمٍ سياميٍّ[1])، الاسم - فقط - سيكفي ليفجِّر عقله. الاسم وحده طوربيدٌ يتوجَّه نحو قارب صيدٍ صغيرٍ، مفجِّرًا أفكاره إِلَى خارج الماء. ولكنَّه كان أكثر مِنَ الاسم، مِنْ صدى الاسم عندما ينطقه أحمق ما بدون تفكيرٍ، أَوْ عندما يوجد في قاع رسالةٍ قديمةٍ، إنَّها بوبي بيرت جونز بنفسها في الجسد المنمَّش. تجلس باردةً وعازمةً مع أختها، مثل كُلِّ أشقَّاء هؤلاء الَّذِين رغبناهم، نسخةً أكثر قبحًا، بملامح رديئةٍ.

«قُلْ شيئًا، إذن،» تقول بوبي فجأةً، وهي تعبث بعلبة مارلبورو. «ألا يوجد تعقيبٌ بارعٌ؟ لا هراء بخصوص الجِمال وجوزاتِ الهند؟ لا شيء لتقوله؟»

ليس لدى صمد أيَّ شيء ليقوله. فهو يوقف غمغمته بلحنه بالكاد، ويميل برأسه نحو زاوية التفضيل الصَّحيحة تمامًا، ويضع سنَّ قلمه باستعدادٍ عَلَى الورق. الأمر مثل حلمٍ.

«حسنًا إذن،» تقول بوبي بامتعاضٍ، وهي تنظر إِلَى صمد مِنْ أعَلَى إِلَى أسفل، وتشعل سيجارةً. «خُذِ الأمرَ بطريقتك. حسنًا. للمقبِّلات سنتناول سمبوسة لحم الضَّأن، والزَّبادي أيًّا كان ما تدعوه.»

«وللطَّبق الرَّئيس،» تقول الشَّقيقة الأقصر، الخنفاء، والأكثر سطحيَّةً، والأكثر برتقاليَّةً: «اثنين لحم ضأن دانساك وأرز، مع أصابع البطاطس، لَوْ سمحت، أيُّها النَّادل.»

***

عَلَى الأقلِّ فقَدْ كان آرشي في الموعد، في العام الصَّحيح، في تاريخ اليوم الصَّحيح، في السَّاعة الصَّحيحة: 1984، 5 نوفمبر، 1:00 صباحًا. خارج المطعم، يرتدي معطفًا طويلًا، ويقف أمام سيَّارته الفوكسهول، بيدٍ تختبر بعض إطارات بيريللي الجديدة

1 - تشانج وإنج بنكر توأم ملتصقين أمريكيين من أصل تايلندي (11 مايو 1811 - 17 يناير 1874) أصبحت حالتهما وأصلهما «السيامي» الأساس لمصطلح «التوائم السيامية». في 17 يناير 1874 توفي تشانج بينما الأخير نائمان، استيقظ إنج ليجد أخيه ميتًا، وصرخ: «إذن أنا ذاهب.» تم استدعاء الطبيب الذي حاول إجراء فصل طارئ للتوأم، ولكن بعد فوات الأوان. وتوفي إنج بعد ثلاث ساعات تقريبًا. (المترجم).

المنتفخة، والأخرى تقبض بشدَّةٍ عَلَى سيجارة مثل بوجهارت[1] أَوْ مثل سائقٍ أَوْ مثل سائق بوجهارت.

يصل صمد، ويشبك يد آرشي اليمنى في يده ويشعر ببرودة أصابع صديقه، ويشعر بالدُّيون الكثيرة الَّتِي يدين له بها. لا إراديًّا، يفجِّر سحابةً مِنَ الأنفاس المتجمِّدة في وجهه. «لَنْ أنسى هذا، يا آرشي،» يقول، «لَنْ أنسى ما تفعله لأجلي هذه اللَّيلة، يا صديقي.»

يراوغ آرشي برعونةٍ. «سام، قَبْل أَنْ - هناك شيئًا ما ينبغي أَنْ ـــ»

لكنَّ صمد يصل بالفعل إِلَى الباب، وينبغي أَنْ يتبع تفسير آرشي مرأى ثلاثة أطفالٍ يرتجفون في المقعد الخلفيِّ مثل نكتةٍ عرجاء.

«*القَدِ استيقظوا*، يا سام. كانوا نائمين في الغرفة نفسها - مثل مأوًى للنَّوم. لَمْ يكنْ شيءٌ أستطيع فعله. فقط وضعتُ معاطف عَلَى بيجاماتهم - لَمْ أكن لأخاطر بأَنْ تسمع كلارا - وجبَ عَلَيَّ أنْ أحضرهم.»

كانت أَيرِي نائمةً، ملتفَّةً عَلَى نفسها، رأسها عَلَى منفضة السَّجائر وقدماها تستريحان عَلَى علبة الغيارات، ولكنَّ مِلَّة وماجد يبلغان والدهما في ابتهاجٍ، ويجذبان أطراف ثيابه، ويربتان عَلَى ذقنه.

«مرحبًا، يا أَبًا! إِلَى أين نحن ذاهبون، يا أَبًا؟ إِلَى حفلة ديسكو سرِّيَّةٍ؟ هَلْ هكذا بالفعل؟»

ينظر صمد إِلَى آرشي بحدَّةٍ، ويهزُّ آرشي كتفيه.

«نحن ذاهبون في رحلةٍ إِلَى مطارٍ. إِلَى هيثرو.»

«واو!»

«وعندها عندما نصل إِلَى هناك، فإِنَّ ماجد - ماجد ـــ»

كما في حلم. يشعر صمد بالدُّموع قبل أَنْ يتمكَّن مِنْ إيقافها؛ ويصل إِلَى ابنه - الأكبر بدقيقتين - ويضمُّه بشِدَّةٍ إِلَى صدره حتَّى أَنَّه سحق ذراع نظارته. «وعندها فإِنَّ

1 - همفري بوجهارت أحد أكبر نجوم السينما الأمريكية ولد عام 1899م وتُوفِّي في عام 1957م وكان ينتمي إلى عائلة مثقفة وميسورة الحال، ولم يستمر في دراسته ليتفرغ للتمثيل، مثَّل عَلَى مدى ربع قرن في ثمانية وستين فيلمًا، وقد شخَّص العديد من الأدوار أثبت فيما بعد تفوقه فيها. حصل عَلَى جائزة الأوسكار في عام 1951، عن دوره في فيلم «الملكة الأفريقية» من إخراج جون هيوستن، وشاركته في بطولة هذا الفيلم كاثرين هيبورن. (المترجم).

ماجد سيذهب في رحلةٍ مع العمَّة زينات.»

«وهَلْ يعود؟» هذا مِلَّة. «سيكون جيِّدًا إذا لَمْ يعُدْ!»

يُخلِّص ماجد نفسه مِنْ عِناق والده الخانق لرأسه. «هَلْ هي بعيدةٌ؟ هَلْ أعود في الوقت المناسب ليوم الاثنين - يجب - فقط - أَنْ أرى كيف تكون تجربتي للتَّمثيل الضَّوئيِّ لدرس العلوم - لقَدْ أخذتُ نبتتَين: وضعتُ واحدةً في الخزانة وواحدةً في ضوء الشَّمس - وينبغي أَنْ أرى، يا أَبًا، *ينبغي أَنْ أرى أَيَّ واحدةٍ منهما* ـــ»

بعد سنواتٍ مِنَ الآن، بَلْ ساعاتٍ بعد أَنْ تغادر الطَّائرة، سيكون هذا تاريخًا يحاول صمد أَلَّا يتذكره. لا تبذل ذاكرته أيَّ جهدٍ للاحتفاظ به. حجرًا مفاجئًا ينغمر. أسنانًا زائفة تغوص في صمتٍ إِلَى قاع الكوب.

«هَلْ أعودُ إِلَى المدرسة، يا أَبًا؟»

«هيَّا،» يقول آرشي، بجدِّيَّةٍ مِنَ المقعد الأماميِّ. «ينبغي لنا أَنْ نبادر إذا كُنَّا سنفعلها.»

«ستكون في المدرسة يوم الإثنين، يا ماجد. أَعِدُك. الآن اجلس في مقعدك، وامضِ. لأجل أَبًا، أرجوك.»

يغلق صمد باب السيَّارة وينحني لكَيْ يشاهد ابنيه التَّوأم ينفخان أنفاسهما الدَّافئة نحو الزُّجاج. يرفع يده الواحدة، مؤدِّيًا لمسةً زائفة إِلَى شفاههما، الورديَّة الغضَّة في مواجهة الزُّجاج، ولعابهما يختلطُ بالتكاثف القذر عليه.

الفصل التاسع

تمرُّد!

في وعي ألسانا، فالاختلاف الحقيقيُّ بين النَّاس ليس هو اللَّون. ولَمْ يكمن الاختلاف في الجنس، أَوْ في الإيمان، أَوْ في قدرة أقاربهم عَلَى الرَّقص عَلَى إيقاعٍ ناعمٍ، أَوْ عَلَى فتح قبضاتهم ليكشفوا عَنْ حفنةٍ مِنَ العملات الذَّهبية. الاختلاف الحقيقيُّ أكثر جوهريَّةً بكثيرٍ. لقَدْ كان في الأرض. ولقَدْ كان في السَّماء. يمكنك تقسيم البشريَّة إِلَى معسكرَين متمايزَين، بقدر ما كانت معنيَّةً، مِنْ خلال سؤالهم، بشكلٍ بسيطٍ، أَنْ يكملوا استبيانًا شديد البساطة، مِنَ النوع الَّذي تجدونه في «*ما يخصُّ المرأة*»[1] في أيِّ يوم ثلاثاءٍ:

(أ) هَلْ مِنَ المرجَّح أَنْ تنقشعَ السَّماء الَّتِي تنام تحتها منذ أسابيع في النِّهاية؟

(ب) هَلْ مِنَ المحتمل أَنْ ترتعشَ الأرضُ الَّتِي تمشي عليها أَوْ أَنْ تنقسم؟

(ج) هَلْ هناك أَيَّة فرصةٍ (ورجاءً ضع علامةً عَلَى المربَّع مهما بدت تلك الفرصة ضئيلةً) لأَنْ يتداعى ذلك الجبل المشؤوم الَّذِي يلقي بظلال منتصف اليوم عَلَى منزلك، يومًا ما، بدون منطقٍ أَوْ سببٍ؟

لأَنَّه إذا كانت الإجابة بنعم عَلَى هذه الأسئلة أَوْ عَلَى واحدٍ منها، إذنْ فالحياة الَّتِي تعيشها تنتمي إِلَى منتصف اللَّيل، عَلَى بُعد شعرةٍ مِنْ ساعة الهُودو؛ إنَّها مضطربةٌ، إنَّها مُهلهلةٌ، إنَّها خاليةٌ مِنَ الهمِّ بالمعنى الحقيقيِّ لذلك التَّعبير؛ إنَّها خفيفةٌ، وفارغةٌ مثل حلقة مفتاحٍ أَوْ دبُّوس شعرٍ. وهي خاملةٌ: لماذا لا تجلس طوال الصَّباح، طوال اليوم، وطوال العام، تحت شجرة السِّرو نفسها، ترسم الرَّقم ثمانية في التُّراب؟ وأكثر مِنْ ذلك، هي كارثةٌ، هي فوضى: لماذا لا تُسقط حكومةً في نزوةٍ، لماذا لا تُعمي الرَّجل الَّذِي تكرهه، ولماذا

1 ـ Woman's own مجلة بريطانية تعنى بنمط الحياة وموجهة للمرأة. صدر أول أعدادها في عام 1932. (المترجم).

لا تبلغ الجنون، تثرثر عبر البلدة مثل أحمق، تلوّح بيديك، وتمزّق شعرك؟ لا يوجد شيءٌ ليوقفك -بَلْ بالأحرى أيُّ شيءٍ يمكن أنْ يوقفكَ- في أيِّ ساعةٍ، وفي أيِّ دقيقةٍ. *ذلك* الشُّعور. *إنَّه* الفرق الحقيقيُّ في الحياة. النَّاس الَّذِين يعيشون عَلَى أرضيَّةٍ صلبةٍ، تحت سماوات آمنةٍ، لا يعرفون شيئًا عَنْ هذا؛ إنَّهم مثل **أسرى الحرب البريطانيِّين** في دريسدن الَّذِين استمروا في صب الشَّاي وارتداء الأزياء للعشاء، حتَّى عندما انطلقت أجراس الإنذار، حتَّى عندما أصبحتِ المدينةُ كُرَةً شاهقةً مِنَ النَّار. أبناء أرضٍ خضراءَ سعيدةٍ، أرضٍ معتدلةٍ، لدى الإنجليز قدرةٌ أساسيَّةٌ عَلَى عبور الكوارث، حتَّى عندما تكون مِنْ صنع الإنسان.

الأمر مختلفٌ بالنِّسبة إِلَى شعب بنجلاديش، شرق باكستان سابقًا، الهند سابقًا، البنجال سابقًا. إنَّهم يعيشون تحت إصبعٍ غير مرئيَّةٍ للكوارث العشوائيَّة، مِنَ الفيضانات والأعاصير، والانهيارات الطِّينيَّة. يقبع نصف بلدهم تحت الماء لنصف الوقت، أجيالٌ تمَّ محوها بشكلٍ مُنتظمٍ تمامًا عَلَى مدار السَّاعة؛ العمر المتوقَّع للفرد مع التفاؤل لا يتجاوز الثَّانية والخمسين، وهُمْ يدركون ببرودٍ أنَّك عندما تتحدَّث عَنْ نهاية العالم، عندما تتحدَّث عَنِ الموت العشوائيِّ بشكلٍ جماعيٍّ، حسنًا، هم يقودون الطَّريق في هذا المجال المحدَّد، سيكونون أوَّل مَنْ يذهب، وأوَّل مَنْ ينزلق عما يشبه أتلانتس إِلَى قاع البحر، عندما تبدأ القمم القطبيَّة المزعجة في التَّحول والذَّوبان. إنَّه البلد الأكثر سخافةً في العالم، بنجلاديش. إنَّه فكرة الرَّب عَن *الابتذال الحقيقيِّ الجيِّد*، بصْمته عَلَى الكوميديا السَّوداء. لا تحتاج لأَنْ تطرح استبيانًا عَلَى البنجاليِّين. حقائق الكارثة هي حقائق حياتهم. بين عيد ميلاد ألسانا السَّادس عشر (1971)، عَلَى سبيل المثال، والعام الَّذِي توقَّفَت فيه عَنِ الحديث إِلَى زوجها بشكلٍ مباشرٍ (1985)، مات المزيد مِنَ النَّاس في بنجلاديش، وهلك المزيد مِنَ النَّاس في الرياح والأمطار، أكثر منهم في هيروشيما، وناجازاكي ودريسدن *معًا*. مليون إنسانٍ فقدوا أعمارهم حتَّى أنَّهم تعلَّموا أن يمضوا في الحياة خفافًا مِنَ الأساس.

وهذا هو ما حمَلَته ألسانا فعلًا ضد صَمد، إذا أردتَ الحقيقة، أكثر مِنَ الخديعة، وأكثر مِنَ الأكاذيب، وأكثر مِنَ الوقائع الأساسيَّة لعمليَّة اختطاف: أنَّ ماجد عليه أَنْ يتعلَّم كيف *لا يتشبث بحياته*. عَلَى الرغم مِنْ أنَّه آمنٌ نسبيًّا هناك في مرتفعات شتاجونج، في أعلَى نقطة في هذا البلد المنخفض المتمدِّد ذي الأرض المسطَّحة، إلَّا أنَّها كرهَت فكرة أَنَّ ماجد ينبغي أنْ يكون كما كانَت هي ذات مرة: ممسكًا حياته بما لا يتجاوز الإمساك بعملة بيزة، ويخوض بلا تفكيرٍ عبر الفيضانات، يرتجف تحت وطأة سماواتٍ سوداء...

بطبيعة الحال، فقَدْ أصبَحَت هستيريَّةً. وبطبيعة الحال، فقَدْ حاولت استعادته. تحدَّثَتْ مع السُّلطاتِ المحلِّيَّةِ. وقالَت السُّلطاتُ المحليَّةُ أشياء مِنْ نوع: «كَيْ نكون صادقين، يا حبيبتي، فنحن أكثر قلقًا تجاه عودتهم،» أَوْ «فلنخبرك بالحقيقة، إذا كان زوجكِ هو مَنْ رتَّب الرِّحلة، فإنَّه ليس هناك الكثير الَّذِي يمكننا ــ،» ولذا فقَدْ وضعت سمَّاعة التِّليفون. بعد بضعة شهورٍ توقَّفَت عَنِ الاتِّصال. ذهبت إِلَى ويمبلي ووايت تشابل في حالةٍ مِنَ اليأس وجلسَتْ في بيوت الأقارب في ملاحم نهايات الأسبوع مِنَ البكاء والأكل والمواساة، ولكنَّ غريزتها أخبرتها أَنَّه عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّ الكاري مؤثِّرٌ، إِلَّا أَنَّ المواسين ليسوا جميعًا كما بدوا. لأَنَّه هناك هؤلاء الَّذِين كانوا مسرورين فعلًا أَنَّ ألسانا إقبال، ببيتها الكبير، وأصدقائها ببشراتهم بين الأبيضِ والأسودِ وزوجها الَّذِي بدا مثل عمر الشريف وابنها الَّذِي يتحدَّث مثل أمير ويلز، تعيش - الآن - في شكٍّ وعدم يقين مثل بقيَّتهم، وتتعلَّم أَنْ ترتدي بؤسها مثل حريرٍ قديمٍ مألوفٍ. هناك نوعٌ مِنَ الرِّضا في ذلك، حتَّى عندما بلغت زينات (الَّتِي لَمْ يُكشَف عَنْ دورها في الحدث) ذراع المقعد لكَيْ تتناول يد ألسانا في براثنها المتعاطفة. «أوه، يا ألسي، إِنَّني أفكِّر - فقط - يا له مِنْ عارٍ إذ كان عليه أَنْ يأخذ الجيِّدَ منهما! لقَدْ كان بارعًا جدًّا ومهذَّبًا *بشكلٍ جميلٍ* جدًّا! لَمْ يكن عليك أَنْ تقلقي بخصوص المخدِّرات والفتيات القذرات معه. فقط ثمن النَّظَّارات مع كُلِّ تلك القراءة.»

أوه، هناك متعةٌ ما. ولا تستهن أبدًا بالنَّاس، لا تستهن بالمتعة الَّتِي ينالونها مِنَ استعراض الألم عندما لا يمسُّهم، مِنْ توصيل الأخبار السَّيِّئة، ومشاهدة القنابل تسقط في التِّليفزيون، ومِنَ الاستماع إِلَى التَّنهُّدات المختنقة عَلَى الطَّرف الآخر لخطِّ التِّليفون. الألم في ذاته هو مجرَّد أَلَمٍ. لكن الألم + مسافةٍ يمكن أَنْ = ترفيهًا، أَوِ استراقًا للنَّظر، أَوِ اهتمامًا إنسانيًّا، أَوْ سينما الواقع: ضحكةً قويَّةً منفلتةً، وابتسامةً متعاطفةً، وحاجبًا مرفوعًا، وازدراءً مُقنَّعًا. شعَرت ألسانا بكُلِّ ذلك وأكثر في الطَّرف الآخر لخطِّ تليفونها بينما تدفَّقت الاتصالات - في 28 مايو، 1985 - لإبلاغها، وعرض *المواساة والتَّعازي*، عَلَى الإعصار الأحدث.

«ألسي، وجب عليَّ - ببساطة - أَنْ أتَّصِلَ. يقولون إِنَّ هناك الكثير جدًّا مِنَ الجثث الطَّافية في خليج البنجال....»

«لقَدْ سمعتُ الإحصاء الأخير في الراديو - للتَّوِّ - عشرة آلاف!»

«النَّاجون يطفون عَلَى أسطح المنازل، بينما تندفع أسماك القرش والتَّماسيح في أعقابهم.»

«لا بُدَّ أنَّه أمرٌ فظيعٌ، يا ألسي، لا أعرف، ولستُ عَلَى ثقةٍ....»

لستَّة أيَّامٍ وستِّ ليالٍ، لَمْ تكن ألسانا تعرف، لَمْ تكن واثقةً. في تلك الفترة قرأت بشكلٍ مكثَّفٍ للشَّاعر البنجالي رابندرانات طاغور[1]، وحاولت جاهدةً أَنْ تصدِّق تأكيداته (*عتمة اللَّيل غشاءٌ يتمزَّق مع ذهب الفجر*)، ولكنَّها، في قلبها، امرأةٌ عمليَّةٌ، ولَمْ تجد أيَّ راحةٍ في الشِّعر. كانت حياتها طوال تلك الأيام السِتَّة شيئًا ينتمي إِلَى منتصف اللَّيل، عَلَى مبعدة شعرةٍ مِنْ ساعة الهُودو. ولكنْ في اليوم السَّابع جاء ضوءٌ: وصلَت الأخبار أَنَّ ماجد بخيرٍ، يعاني - فقط - كسرًا في الأنف تسبَّبت فيه مزهريَّةٌ سقطَت مِنْ موضعها الخطر عَلَى رفٍّ عالٍ في أحد المساجد، في مهبِّ النَّفَس الأوَّل للرِّياح الأولى (ضع عينًا عَلَى تلك المزهرية، رجاءً، فهي ذات المزهرية الَّتي ستقود ماجد مِنْ أنفه إِلَى مهنته). الخدم فقط، الَّذين تسلَّموا إمدادًا سريًّا مِنْ شراب الجن قبل يومين، وكدَّسوه في عربة العائلة في المحطَّة المتهالكة في رحلةٍ ممتعةٍ إِلَى دكَّا، هم الَّذين يطفون - الآن - بلا حولٍ ولا قوة في نهر جامونا بينما تحدِّقُ الأسماكُ ذات الزعانف الفضِيَّة فيهم، بأعينٍ جاحظةٍ ومرتبكةٍ.

ابتهج صمد بانتصاره. «هَلْ ترين؟ سوف يصل بلا أذًى إِلَى شيتاجونج! بَلْ والأخبار الأحسن، لقَدْ كان في مسجدٍ. أَنْ يكسر أنفه في مسجدٍ أفضل منه في قتالٍ في كيلبورن! كما تمنَّيتُ بالضَّبط. إِنَّه يتعلَّم الطُّرق القديمة. ألا يتعلَّم الطُّرق القديمة؟»

فكَّرَت ألسانا للحظةٍ. ثُمَّ قالَت: «رُبَّما، يا صمد مياه.»

«ماذا تعنين، برُبَّما؟»

1 - رابندرانات طاغور: شاعر ومسرحي وروائي بنجالي. ولد عام 1861 في القسم البنجالي من مدينة كلكتا وتلقى تعليمه في منزل الأسرة على يد أبيه ديبندرانات وأشقائه ومدرس يدعى دفيجندرانات الذي كان عالما وكاتبا مسرحيا وشاعرا كما درس رياضة الجودو. درس طاغور اللغة السنسكريتية لغته الأم وآدابها واللغة الإنجليزية؛ ونال جائزة نوبل في الآداب عام 1913 وأنشأ مدرسة فلسفية معروفة باسم فيسفا بهاراتي أو الجامعة الهندية للتعليم العالي في عام 1918 في إقليم شانتي نيكتان غرب البنجال. قدم طاغور للتراث الإنساني أكثر من ألف قصيدة شعرية، وحوالي 25 مسرحية بين طويلة وقصيرة وثماني مجلدات قصصية وثماني روايات، إضافة إلى عشرات الكتب والمقالات والمحاضرات في الفلسفة والدين والتربية والسياسة والقضايا الاجتماعية، وإلى جانب الأدب اتجهت عبقرية طاغور إلى الرسم، الذي احترفه في سن متأخر نسبيا، حيث أنتج آلاف اللوحات، بالإضافة إلى أكثر من ألفي أغنية، اثنتان منها أضحتا النشيد الوطني للهند وبنجلاديش. (المترجم).

«رُبَّما، يا صمد مياه، ورُبَّما لا.»

قرَّرَت ألسانا أَنْ تتوقَّف عَنِ الحديث إِلَى زوجها بشكلٍ مباشرٍ. خلال السَّنوات الثَّماني القادمة سوف تقرِّر أَلَّا تقول له نعم عَلَى الإطلاق، ولا أَنْ تقول له لا ، ولكنْ تجبره أَنْ يعيش كما فَعَلَت - لا يعرف أبدًا، وغير *واثقٍ* أبدًا، تحتجز سلامة صمد العقليَّة في مقابل فديةٍ، حتَّى يتمَّ سدادها بالكامل مع عودة ابنها - الأوَّل - الأكبر - بدقيقتَين، حتَّى تتمكَّن مرَّة أخرى مِنْ تمرير يدها الرَّيانة عَلَى شعره الكثيف. هذا هو وعدها، وهذه لعنتها عَلَى صمد، وهذا هو انتقامها الرَّائع. ومع الوقت كاد ذلك أَنْ يقوده إِلَى حافَّة الهاوية، إِلَى مرحلة سكِّين المطبخ، وإلى كابينة الأدوية. ولكنَّ صمد مِنَ النَّوع العنيد جدًّا تجاه قتل نفسه إذا كان ذلك يعني أَنَّه سيمنح أحدًا آخر حالة الرِّضا. ظلَّ متماسكًا هناك. تتقلَّب ألسانا في نومها، وتغمغم: «اعِدْه إِلَيَّ - فقط - أيُّها السَّيِّد أحمق... إذا كان ذلك يقودك إِلَى الجنون، اعِدْ طفلي - فقط - إِلَيَّ.»

لكنْ لَمْ يكن هناك مالٌ لإحضار ماجد حتَّى إِنْ مال صمد لأَنْ يلوِّح بإزاره الأبيضِ. تعلَّمَ أَنْ يتعايشَ مع الأمر. وصَلَ الأمرُ إِلَى أَنَّه إذا قال أحدهم لصمد «نعم» أَوْ «لا»، في الشَّارع أَوْ في المطعم، يكاد لا يعرف كيف يردُّ، وصل إِلَى الحدِّ الَّذِي نسي معه ما يعنيه هذان الدَّالَّان الأنيقان الصَّغيران. لَمْ يعد يسمعهما مِنْ شفتَي ألسانا عَلَى الإطلاق. أيًّا كان السُّؤال في منزل آل إقبال، فلَنْ تكون هناك - أبدًا - إجابةٌ مباشرةٌ:

«ألسانا، هَلْ رأيتِ نعلَيَّ؟»

«رُبَّما، يا صمد مياه.»

«كَمِ السَّاعةُ الآن؟»

«يمكن أَنْ تكون الثَّالثة، يا صمد مياه، ولكنْ يعلمُ اللهُ، قَدْ تكون الرَّابعة أيضًا.»

«ألسانا، أين وضعتِ جهاز الريموت كنترول؟» «مِنْ المرجَّح أَنْ يكون في الدُّرج، يا صمد مياه، أَوْ حيث هو وراء الأريكة.»

وهكذا استمرَّ الأمر.

بعد وقتٍ مِنْ إعصار مايو، تلقَّى آل إقبال رسالةً مِنَ ابنهم - الأكبر - بدقيقتين، مكتوبةً بخطٍّ دقيقٍ عَلَى ورقة تدريباتٍ، ومطويَّةً حول صورةٍ حديثةٍ. لَمْ تكنِ المرَّة الأولى الَّتِي يكتب فيها، ولكنَّ صمد رأى شيئًا مختلفًا في هذه الرسالة، شيئًا أثار حماسته

وصادق عَلَى القرار الَّذِي لَمْ يحظ بشعبيَّةٍ الَّذِي اتخذه؛ بعضَ التَّغير في النَّبْرة، ورأى تلويحًا ما بالنُّضج، وبتزايد الحكمة الشَّرقية، ومع قراءتها بعنايةٍ في الحديقة أوَّلًا، نال متعةً كبيرةً في إحضارها مِنْ جديدٍ إِلَى المطبخ وقراءتها بصوتٍ مسموعٍ لكلارا وألسانا اللَّتَينِ كانتا تشربانِ شايًا بالنّعناع.

«اسمعا، هنا يقول: بالأمس، قام جدِّي بضرب تميم (هو الخادم المنزليُّ) بالحزام حتَّى احمرَّت مؤخِّرته أكثر مِنْ حبَّة طماطمٍ. قال إنَّ تميم سرق بعض الشُّموع (هذا حقيقيٌّ. لقدْ رأيتُه يفعل ذلك!)، وكان هذا ما ناله في المقابل. إنَّه يقول إنَّ الله يعاقب أحيانًا، وأحيانًا عَلَى الرِّجال أَنْ يفعلوا ذلك، وإنَّ الرَّجُل الحكيمَ هو الَّذِي يعرفُ إذا ما كان هذا دور الله أَمْ دوره هو. أتمنَّى يومًا أَنْ أكون رجلًا حكيمًا. هَلْ تسمعان ذلك؟ يريد أَنْ يكون رجلًا حكيمًا. كَمْ طفلًا تعرفانهما في تلك المدرسة يرغبون أَنْ يكونوا رجالًا حكماء؟»

«رُبَّما لا أحد، يا صمد مياه. ورُبَّما جميعهم.»

عبس صمد تجاه زوجته وواصل: «وهُنا، هُنا حيث يتحدَّث عَنْ أنفه: يبدو لي أَنَّ المزهرية لَمْ يَنْبَغِ أَنْ تكون في مكانٍ سخيفٍ حيث يمكنها أَنْ تسقط وتكسر أنف فتًى. لا بُدَّ أَنَّه خطأ شخصٍ ما، وأَنَّ شخصًا ما ينبغي أَنْ يُعاقَب (ولكنْ ليس بالصَّفع عَلَى المؤخِّرة، *ما لَمْ يكونوا صغارًا ولَمْ يكبروا* بعد. إذا كانوا أصغر مِنَ اثنتي عشرةَ سنةً) عندما أكبُر أعتقد أَنَّني سأحبُّ أَنْ أتأكَّد مِنْ أَنَّ المزهريات ليسَت موضوعةً في أماكن سخيفةٍ حيث يمكن أَنْ تكون خطرةً، وسوف أشكو مِنْ أشياء أخرى خطيرةٍ أيضًا (بالمناسبة، *أنفي بخيرٍ الآن!*). هَلْ تريان؟»

قطَّبَت كلارا. «نرى ماذا؟»

«مِنْ الواضح أَنَّه لا يوافق عَلَى الأيقونات في المسجد، إِنَّه لا يحبُّ كُلَّ الدِّيكورات الوثنيَّة، غير الضَّروريَّة، والخطرة! إِنَّه فتًى منذورٌ للعظمة، أليس كذلك؟»

«رُبَّما، يا صمد مياه، وربَّما لا.»

«رُبَّما سيذهب إِلَى الحكومة، ورُبَّما القانون،» اقترحَت كلارا.

«هراء! ابني مُكرَّسٌ لله، وليس للبشر. إِنَّه لا يخشى واجباته. إِنَّه لا يخشى أَنْ يكون بنجاليًّا حقيقيًّا، ومسلمًا صالحًا. هُنا هو يخبرني أَنَّ العنز الَّتِي في الصُّورة قَدْ ماتَت.

تمنَّيت لَوْ قتلتُ العنز، يا أَبًا، يقول. 'لقَدْ ظلَّت تتحرَّك لبعض الوقت بعد أَنْ قسمناها إِلَى قسمين.' هَلْ هذا فتًى جبانٌ؟»

مِنْ الواضح أَنَّه يتعيَّن عَلَى أحدهم أَنْ يقول لا، فقالتها كلارا مع قليلٍ مِنَ الحماس، ووصلت إِلَى الصُّورة الَّتِي ناولها صمد لها. كان ماجد هناك، مرتديًا زِيَّه الرَّماديَّ، واقفًا بجوار العنز الَّتِي تقرَّر مصيرها مع المنزل القديم خلفه.

«أوه! انظروا إِلَى أنفه! انظروا إِلَى الكسر. لديه أنفٌ رومانيٌّ، الآن. إِنَّه يبدو كأرستقراطيٍّ صغيرٍ، كرجلٍ إنجليزيٍّ صغيرٍ. انظرْ، يا مِلَّة.» وضعت كلارا الصُّورة تحت أنف مِلَّة الأصغر حجمًا، والأكثر انبساطًا. «أنتما ـ الاثنين ـ لا تبدوان كثيرًا كتوأمين بعد الآن.»

«إِنَّه يبدو،» قال مِلَّة بعد نظرةٍ عابرةٍ، «مثل رئيسٍ.»

أومأ صمد، الَّذِي لَمْ يكن عارفًا بلغة شوارع ويلْزدِن عَلَى الإطلاق، في وقارٍ، وربَّت عَلَى شعر ابنه. «مِنَ الجيِّد أَنْ ترى الاختلاف بينكما كصغيرَين يا مِلَّة، الآن وليس في وقت لاحقٍ.» حدَّق صمد في ألسانا، وهي تدير سبَّابةً في دوائر حول صدغها، وتربِّت عَلَى جانب رأسها: مجنونٌ، أحمق. «ربَّما يسخر الآخرون، ولكنْ أنتَ وأنا نعرف أَنَّ أخيك سيقود الآخرين إِلَى خارج البرِّيَّة. سوف يكون قائدًا للقبائل. إِنَّه رئيسٌ طبيعيٌّ.»

ضَحِكَ مِلَّة عَلَى ذلك بصخبٍ شديدٍ، وبحدَّةٍ شديدةٍ، وبدون تحكُّمٍ، حتَّى أَنَّه فقد توازنه، وانزلق عَلَى منشفة التَّنظيف، وكسر أنفه عَلَى حوض الغسيل.

***

ابنان. أحدهما غير مرئيٍّ ومكتملٌ، مثبَّتٌ عند العمر السَّعيد لتسع سنواتٍ، ساكنٌ في إطار صورةٍ في حين ينبعث مِنَ التِّليفزيون تحتها كُلُّ قرف الثَّمانينيات ـ قنابل أيرلنديَّةٌ، وأعمال شغبٍ إنجليزيَّةٌ، والفوضى المتواصلة عبر الأطلنطي ـ فوق كُلِّ هذه الفوضى نشأ الطِّفلُ لَمْ يُمسّ ولَمْ يلوَّث، وارتقى إِلَى حالة بوذا المبتسم دائمًا، متشرِّبًا بحالة التَّأمل الشَّرقية الهادئة؛ مُؤهَلًا لأَيِّ شيءٍ، قُائدًا بالفطرة، مُسلمًا بالفطرة، ورئيسًا بالفطرة ـ باختصارٍ، لا شيء سوى طيفٍ. صورةٍ شبحيَّةٍ عَلَى ألواح الفضَّة[1] تشكَّلتْ مِنْ زئبق

1 ـ نوع مبكر من التصوير، اخترعه الكيميائي الفرنسي لويس داجير عام 1839 بعد سنوات من البحث والتجارب. تُستعمل، في هذا النوع من التصوير، ألواح معدنية مفضضة وتعرض لبخار اليود ثُمَّ توضع هذه الألواح في الكاميرا للحصول عَلَى صور من الأشياء. (المترجم).

مخيّلة الأب، وحُفظت في محلولٍ ملحيٍّ مِنْ مكوّنات الدُّموع. هذا الابن وقف صامتًا، وبعيدًا، و«مِنْ المفترض أنَّه بخيرٍ» مثل واحدٍ مِنَ المواقع الاستعماريَّة في جزيرة صاحبة الجلالة، عالقًا في حالةٍ أبديَّة مِنَ البراءة الأصليَّة، وفي مقتبل البلوغ دائمًا. هذا الابن لا يستطيع صمد أَنْ يراه. وقَدْ تعلَّم صمد طويلًا أَنْ يقدِّس ما لا يراه.

أَمَّا بالنِّسبة إِلَى الابن الَّذِي *يستطيع* رؤيته، ذلك الَّذِي تحت قدميه ويتسبَّب في إزعاجه، حسنًا، مِنَ الأفضل أَلَّا نجعل صمد يشرع في هذا الموضوع، موضوع المشكلات مع مِلَّة، ولكنْ ليبدأ الآن: إِنَّه الابن الثَّاني، متأخِّرًا مثل حافلةٍ، ومتأخِّرًا مثل بريدٍ رخيصٍ، السَّائق البطيء، طفل اللَّحظة الأخيرة، ظَلَّ خاسرًا ذلك السِّباق الأَوَّل في قناة الولادة، والآن ـ ببساطة ـ صار تابعًا بالاستعداد الوراثيِّ، عبر تصميمٍ معقَّدٍ مِنْ قِبَل الله، الخاسر لدقيقتين حيويَّتين لَنْ يتمكن مِنْ تعويضهما، ليس في كُلِّ تلك المرايا المتكافئة الَّتِي تراقب، ليس في تلك الكريات البرَّاقة للألوهة، وليس *في عيني والده*.

والآن، فإِنَّ طفلًا أكثر سوداويَّةً مِنْ مِلَّة، طفلًا أكثر عمقًا في التَّفكير، ربَّما قضى بقيَّة عمره في اقتناص هاتين الدَّقيقتين، ليجعل مِنْ نفسه بائسًا، يسعى وراء الطَّريدة البعيدة، ويلقي الأمر في النِّهاية عند قدمي والده. ولكن ما قاله والده بخصوصه لَمْ يكنْ يعني مِلَّة بهذا القدر: هو يعرف عَنْ نفسه أَنَّه ليس تابعًا، وليس «رئيسًا»، وليس مقيتًا، ولا يبيع أصحابه، وليس أحمق، ولا معتوهًا ـ أيًّا كان ما قاله والده. بلغة الشَّارع كان مِلَّة فتًى خشنًا، متمرِّدًا، في الطَّليعة، يغيِّر هيئته بنفس الاعتياد الَّذِي يغيِّر به أحذيته، كان لطيفًا، وآمنًا، وشريرًا، ويقود الأطفال إِلَى الأعالي التِّلال لكَيْ يلعبوا كرة القدم، وإِلَى أسفلها لكَيْ ينهبوا ماكينات الحلوى، ويتسرَّب مِنَ المدرسة إِلَى محلَّات الفيديو. في فيديو روكي، مقصد مِلَّة المفضَّل، الَّذِي يديره تاجر كوكايين عديم الضَّمير، تحصل عَلَى أفلامٍ إباحيَّةٍ عندما تبلغ الخامسة عشرةَ، وأفلام الرَّاشدين في الحادية عشرةَ، وأفلام الرُّعب تحت طاولة الخمسة جنيهاتٍ. هنا حيث تعلَّم مِلَّة فعلًا ما يتعلق بالآباء. الآباء الرُّوحيين[1]، وإخوة الدم، باتشينو ودي نيرو، الرِّجال الَّذِين يرتدون الأسودَ، ويبدون رائعين، الَّذِين يتحدَّثون بسرعةٍ، والذين لَمْ ينتظروا (طاولةً لعينةً) مُطلَقًا، الَّذِين لدى كُلٍّ منهم مسدَّسان مذخَّران بكامل حمولتهما في اليدين. تعلَّم أَنَّكَ لا تحتاج لأَنْ تعيش

1 ـ الإشارة هنا إلى عالم المافيا كما جسدته ثلاثية «الأب الروحي» (العرّاب) عن قصة ماريو بوزو ومن بطولة مارلون براندو، وأل باتشينو، وروبرت دي نيرو وإخراج فرنسيس فورد كوبولا، والذي يعد واحدا من علامات السينما الأمريكية خلال القرن الماضي. (المترجم)

تحت الفيضان، ولا تحت الإعصار، لكَيْ تحصل عَلَى القليل مِنَ المخاطرة، أَنَّه لكَيْ تصبح رجلًا حكيمًا. فأنتَ تخرج للبحث عنها. في عمر الثَّانية عشرةَ، خرج مِلَّة للبحث عنها، وفكَّر أَنَّ ويلْزدِن جرين ليست برونكس، ولا ساوث سنترال، ووجد بعضًا منها، وجد ما يكفي. كان خشنًا ولاذع اللِّسان، واحتفظ بنظراته الشَّرسة القويَّة مضغوطةً في داخله بقوَّةٍ مثل «عفريت ـ العلبة» مستقرَّةً حتَّى تندفق مع بلوغه الثَّالثة عشرةَ. عند تلك النُّقطة الَّتِي تخرَّج فيها مِنْ زعامة الفِتيان الَّذِين يعانون مِنْ حَبِّ الشَّباب وأصبح قائدًا للنِّساء. زعيم ويلْزدِن جرين، تتبعه الفتيات المغرمات، بألسنةٍ تتدلَّى، وصدورٍ جريئةٍ، ويسقطن في بِرَكٍ مِنَ الحسرة... وكُلُّ ذلك لأَنَّه الأكبر والأسوأ، يعيش حياته الشَّابة في العواصم: دَخَّن أوَّلًا، وتعاطى الشَّراب أوَّلًا، حتَّى أَنَّه فقَدْ تلك ـ تلك! ـ في عمر الثَّالثة عشرةَ والنصف. حسنًا، وإذن لَمْ يشعر بالكثير أَوْ يلمس الكثير، كان الأمر رطبًا ومربكًا، فقدها دون أَنْ يعرف أين ذهبَت، ولكنَّه فقدها لأَنَّه لَمْ يكن هناك أَيُّ شكٍّ، إطلاقًا، في أَنَّه أفضل الباقين، عَلَى أَيِّ مقياسٍ لجنوح الأحداث هو الضَّوء السَّاطع لمجتمع المراهقين، **الدُّون**[1]، **رجل الأعمال، الأفضل**، فتى الشَّارع، وزعيم القبائل. في الحقيقة، فالمشكلة الوحيدة في مِلَّة أَنَّه عشق المتاعب. وأَنَّه كان *جيِّدًا* فيها. امسح ذلك. كان *رائعًا*.

ومع ذلك، كان هناك الكثير مِنَ النِّقاش ـ في المنزل، وفي المدرسة، وفي المطابخ المختلفة لعشيرة إقبال/بيجوم الممتدَّة ـ *حول المتاعب مع مِلَّة*، المتمرِّد مِلَّة في عمر ثلاث عشرة سَنَةٍ، الَّذِي ضرط في المسجد، وطارد الشُّقراوات، وفاح برائحة التَّبغ، وليس مِلَّة ـ فقط ـ وإنَّما كُلُّ الأطفال: مجيب (في الرابعة عشرةَ، سِجِلٌّ جنائيٌّ في اقتحام السَّيَّارات للاستمتاع بقيادتها)، وخانداكار (في السَّادسة عشرةَ، لديها صديقةٌ بيضاءُ، تضع الماسكارا في الأمسيات)، وديبيش (في الخامسة عشرةَ، ماريجوانا) وخورشيد (في الثَّامنة عشرةَ، ماريجوانا، وسراويل فضفاضةٍ جدًّا)، وخالدة (في السَّابعة عشرةَ، جنس ما قبل الزَّواج مع فتًى صينيٍّ)، وبيمال (في التَّاسعة عشرةَ، تعدُّ لدبلوما في الدِّراما)؛ *ما الخطأ في كُلِّ هؤلاء الأطفال*، ما الخطأ الَّذِي وقع مع هؤلاء الأحفاد الأوائل للتَّجربة العظيمة في عبور المحيط؟ أليس لديهم كُلُّ شيءٍ يمكنهم أَنْ يريدوه؟ أليسَت هناك مناطق حدائق كبيرةٌ، ووجباتٌ منتظمةٌ، وملابس نظيفةٌ مِنْ «مارك آند سباركس»، وأفضل مستوى للتعليم؟ أَلَمْ يبذل الكبار أفضل ما لديهم؟ أَلَمْ يأتوا جميعهم إِلَى هذه الجزيرة لسببٍ ما؟ أَنْ يكونوا آمنين. أليسوا *آمنين*؟

1 ـ الدون كلمة تعني القائد أو السيد بالإيطالية والإسبانية، وهو لقب شرفي يُمنح للشخص كعلامة على الاحترام. ويطلق على زعماء عائلات المافيا. (المترجم).

«*آمنون أكثر مِنَ اللازم*،» أوضح صمد، وهو يواسي في صبرٍ واحدًا. أَوْ آخر ينتحب، مَا[1] غاضبةً أَوْ بَا[2]، أَوْ دادو[3] حائرًا أكبر سنًّا أَوْ ديدا[4]، «إنَّهم أكثر أمنًا ممَّا يلزم في هذا البلد، أتشا[5]؟ يعيشون في فقّاعاتٍ بلاستيكيَّةٍ ضخمةٍ مِنْ صنعنا، حياتهم مخطَّطةٌ لهم. شخصيًّا، أنتم تعرفون، قَدْ أبصق عَلَى سانت بول[6]، ولكنَّ الحكمة صحيحة، الحكمة بالفعل هي حكمة الله: *أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ*[7]. كيف يمكن لأبنائنا أَنْ يصبحوا رجالًا، ما داموا لَمْ يواجهوا أَبدًا تحديَّات الرِّجال؟ هممم، لا شكَّ بخصوص الأمر، مع شيءٍ مِنَ التَّأمل، كان إرسال ماجد إِلَى الوطن هو الأفضل. أودُّ أَنْ أُزكِّي ذلك.»

عند هذه النقطة، ينظر جمْع الباكين والنَّائحين كُلُّه في أسىً إِلَى الصُّورة الغالية لماجد والعنز. يجلسون مفتونين، مثل الهندوس ينتظرون البقرة الحجريَّة لكَيْ يبكوا، حتَّى بدا أَنَّ هالةً مرئيَّةً تنبع مِنَ الصُّورة: الخير والشَّجاعة في المحن، في الجحيم والفيضان؛ الولد المسلم الحقيقيُّ؛ الطِّفل الَّذِي لَمْ يحصلوا أبدًا عليه. مع كون الأمر مثيرًا للشَّفقة، وجدَته ألسانا مسلِّيًا عَلَى نحوٍ خافتٍ، تغيَّرَت المواقع، ولَمْ يعد أحدٌ يبكي لأجلها، فالجميع يبكون لأجل أنفسهم، وأبنائهم، لأجل ما تفعله الثَّمانينيات الرَّهيبة بهم جميعًا. هذه التجمُّعات تشبه القمم السِّياسيَّة الأخيرة، مثل اجتماعات الحكومة اليائسة مع الكنيسة خلف الأبواب المغلقة في حين جابَت جموع المتمرِّدين الشَّوارع في عنفٍ، وحطَّموا النَّوافذ. كانت هناك مسافةٌ تُرسِّخ نفسها، ليس فقط بين *الآباء والأبناء، الكبار والصِّغار، أَوِ المولودين هنا والمولودين هناك*، ولكنْ بين هؤلاء الَّذِين ظلُّوا في الدَّاخل، وأولئك الَّذِين انطلقوا للشَّغب في الخارج.

---

1 ـ أم في النطق الهندي. (المترجم).

2 ـ أب. (المترجم).

3 ـ جد. (المترجم).

4 ـ جدة. (المترجم).

5 ـ لفظة هندية لها عدة معانٍ، من بينها نعم وبلى وأليس كذلك. (المترجم).

6 ـ بولس الطرسوسي ويعرف أيضًا ببولس الرسول أو القديس بولس، هو أحد قادة الجيل المسيحي الأول وينظر إليه البعض على أنه ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه. يعرف برسول الأمم؛ حيث يعتبرونه من أبرز من بشر بالمسيحية في آسيا الصغرى وأوروبا. (المترجم)

7 ـ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 13: 11: لَمَّا كُنْتُ طِفْلاً كَطِفْل كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْل كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفْل كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلاً أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ. (المترجم).

«آمنون أكثر مما يلزم، وليّنون أكثر ممًّا يلزم،» كرَّر صمد، بينما مسحَت العمَّة بيبي ماجد بمحبَّةٍ ببعض مستر شين[1]. «شهرٌ واحدٌ في الوطن سوف يضع حلاً لكُلِّ واحدٍ منهم، ولهم جميعًا.»

ولكنَّ الحقيقة أَنَّ مِلَّة لَمْ يحتج إِلَى العودة إِلَى الوطن: فهو يقف في حالة فصامٍ، إحدى قدميه في البنجال والأخرى في ويلْزدِن. في وعيه، هو هناك بنفس القدر الَّذِي هو فيه هنا. لَمْ يحتج إِلَى جواز سفر ليعيش في مكانين في الوقت نفسه، ولا احتاجَ إِلَى فيزا ليعيش حياة أخيه وحياته هو (لقَدْ كانا توأما، عَلَى أَيَّة حال). كانت ألسانا أوَّل مَنِ اكتشفَت ذلك. أسَرَّت إِلَى كلارا: *إِنَّهما مرتبطان معًا مثل لعبة الخيطان، متَّصلان مثل الأرجوحة، اضغط أحد طرفيها، ليرتفع الآخر، أيًّا كان ما يراه مِلَّة، فقد رآه ماجد، والعكس بالعكس!* وألسانا وحدها عرفَت التَّكلفة: عرفَت أمراضًا متشابهةً، وحوادثَ متزامِنةً، وحيواناتٍ أليفةً تموت في قارَّاتٍ مُتباعدةٍ. لَمْ تعرف أَنَّه بينما يشاهد ماجد إعصار 1985 يرجُّ الأشياء في الأماكن العالية، كان مِلَّة يدفع حظَّه عَلَى طول الجِدار الشَّاهق للمقبرة في فورتشن جرين... أَنَّه في 10 فبراير 1988، بينما يشق ماجد طريقه بين الحشود العنيفة لدكَّا، يتفادى الضَّربات العشوائيَّة لهؤلاء المشغولين في تسوية الانتخابات بالسَّكاكين والقبضات، كان مِلَّة يعقد قبضته في مواجهة ثلاثة أيرلنديِّين سكارى غاضبين بأقدامٍ سريعةٍ خارج بيت بيدي موليجان الشَّعبيِّ سيِّئ السُّمعة في كيلبورن. آه، ولكنَّكِ لا تقتنعين بالمصادفة؟ أنت تريدين حقيقةً حقيقةً حقيقةً؟ أنت تريدين أغصانًا مع الرَّجل الكبير ذي القلنسوة السَّوداء والمنجل؟ حسنًا: في 28 أبريل، 1989 كنَس إعصارٌ مطبخ شيتاجونج نحو السَّماء، وأخذ كُلَّ شيءٍ معه باستثناء ماجد، تُرك بمعجزة مُلتفًّا عَلَى نفسه عَلَى الأرضيَّة. والآن ننتقل إِلَى مِلَّة، عَلَى بُعد خمسة آلاف ميلٍ، يميل عَلَى طالبة الثَّانويِّ الأسطوريَّة ناتالي كافينديش (الَّتِي يخفي جسدها أسرارًا داكنةً عنها)؛ والواقيات الذَّكرية مفتوحةٌ في علبةٍ داخل حقيبة ظهره، ولكنْ لَنْ يلمسها بطريقةٍ ما، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّه يتحرَّك بشكلٍ إيقاعيٍّ ـ الآن، خارجًا وداخلًا، عميقًا وجانبيًّا ـ في مواجهة الخطر.

***

1 ـ ماركة شهيرة لمواد التلميع البخاخة للجلود والأسطح المختلفة ابتكرت في أستراليا في 1950. (المترجم).

ثلاثة أيام:

15 أكتوبر 1987

حتَّى عندما انطفأتِ الأنوار والرِّيح تضرب النَّوافذ المضادَّة للعاصفة، جلسَت ألسانا، المؤمنة العظيمة بنبوءات الـ «بي بي سي»، في ثياب النَّوم عَلَى الأريكة، رافضةً أَنْ تتزحزح.

«عندما يقول السَّيِّد فِش[1] إنَّ الأمور عَلَى ما يرام، فهي بكُلِّ تأكيدٍ عَلَى ما يرام. إنَّه الـ بي بي سي، بحقِّ الله!»

أُصيب صمد باليأس (مما يقارب المستحيل تغيير رأي ألسانا بخصوص الثِّقة المتأصِّلة في مؤسَّساتها الإنجليزيَّة المفضَّلة، ومن ضمنها الأميرة آن، وعروض الأطفال الملكيَّة المتنوِّعة[2]، وإريك موركامب، *وساعة المرأة*[3]). تناول المصباح اليدويَّ مِنْ درج المطبخ وذهب إِلَى الطَّابق العلويِّ، باحثًا عن مِلَّة.

«مِلَّة؟ اجبني، يا مِلَّة! هَلْ أنتَ هناك؟»

«رُبَّما، يا أبَّا، ورُبَّما لا.»

تتبَّع صمد الصَّوت إِلَى الحمَّام ووجد ذقن مِلَّة مرتفعةً للأعَلَى في رغوة صابون ورديَّةٍ قذرةٍ، وهو يقرأ فيز[4].

«آه، يا أبَّا، رائعٌ. مصباحٌ يدويٌّ. اجعله يسطع هنا لكَيْ أستطيعَ القراءة.»

«لا تشغل بالك بالأمر.» مزَّق صمد المجلَّة الهزلية مِنْ يدي ابنه. «هناك إعصارٌ عنيفٌ يهبُّ وأُمُّكَ المجنونة تعتزم البقاء هنا حتَّى يسقط السَّقف. اخرج مِنَ الحمَّام. أنا أحتاجكَ لكَيْ تذهب إِلَى السَّقيفة وتجد بعض الخشب والمسامير لكَيْ يمكننا أَنْ ـــ»

«ولكنْ، يا أبَّا، أنا بمؤخِّرةٍ عاريةٍ!»

---

1 ـ مايكل فِش (27 أبريل 1944 ـ): مذيع أرصاد جوية بريطاني معروف، اشتهر خلال سنوات عمله كمذيع لنشرة الطقس في تليفزيون الـ بي بي سي. (المترجم).

2 ـ برنامج تليفزيوني شهير عَلَى الـ بي بي سي الأولى. (المترجم).

3 ـ برنامج «مجلة تليفزيونية شهيرة» عَلَى شبكة الإذاعة البريطانية الـ بي بي سي. (المترجم).

4 ـ مجلة كوميدية شعبية بريطانية أصدرها كريس دونالد عام 1979. (المترجم).

«لا تتجادل معي - هذه حالةٌ طارئةٌ. أريدك أَنْ ـــ»

جاءت ضوضاء لتصدُّعٍ هائلٍ، كأنَّما شيءٌ يُقتلع مِنَ الجذور ويتهاوى عَلَى الحائط، مِنَ الخارج.

دقيقتان بعدها واصطفَّت كُلُّ عائلة إقبال في حالاتٍ متنوّعةٍ مِنَ العري، ينظرون إِلَى الخارج عبر نافذة المطبخ الممتدَّة إِلَى رقعةٍ في المرج حيث كانت السَّقيفة موجودةً. دقَّ مِلَّة كعبيه ثلاث مرَّات، وغمغم في لكْنَة متاجر الزَّاوية: «ياللهول، يا إلهي. لا يوجد مكانٌ مثل المنزل. لا يوجد مكانٌ مثل المنزل.»

«*حسنًا*، يا امرأةُ. هَلْ تأتين *الآن*؟»

«رُبَّما، يا صمد مياه، رُبَّما.»

«*اللَّعنة*! أنا لستُ في مزاجٍ للاستفتاء. سنذهب إِلَى منزل آرشيبالد. رُبَّما لا يزال لديهم ضوءٌ. وهناك احتياطات أمانٍ أكثر. فليرتد كُلٌّ منكما ملابسه، وليختطف الضَّروريَّات، *أشياء الحياة أَوِ الموت*، واصعدا إِلَى السَّيَّارة!»

ممسكًا بصندوق السَّيَّارة مفتوحًا في مواجهة الرِّيح العازمة عَلَى إسقاطه، شعر صمد ابتداءً بالإثارة ثُمَّ بعدها بالاكتئاب تجاه المواد الَّتِي حدَّدتها زوجته وابنه كأشياء أساسيَّةٍ للحياة أَوْ للموت:

مِلَّة	ألسانا
ولدتُ لأركض (ألبوم موسيقي) - سبرنجستين.	ماكينة خياطة.
ملصقٌ لدي نيرو في مشهد «هَلْ تتحدَّث إِلَيّ» من «*سائق التَّاكسي*».	ثلاث عبوَّاتٍ مِنْ دهان النِّمر.
نسخة بيتاماكس مِنْ مطرٌ أرجوانيٌّ (فيلم روك).	فخذ ضأنٍ (مجمَّدةٌ).
ليفاي، ينكمش؛ ليصبح مناسبًا، موديل 501 (بعلامةٍ حمراءَ).	حمَّامٌ للقدم.
زوج مِنْ أحذية البيسبول، ماركة كونفيرس.	*علامات الأبراج* *لليندا* جودمان (كتاب).
البرتقالة الآلية (كتاب).	صندوقٌ ضخمٌ مِنْ سجائر بيدي.
	ديفارجيت سينج *في ضوء القمر عَلَى كيرالا* (فيديو موسيقي).

أغلق صمد صندوقَ السَّيَّارةِ.

«لا مدية، ولا شيء يصلح للأكل، ولا مصادر للضَّوء. عظيمٌ جدًّا. لا جوائز لتخمين أَيِّ شخصٍ في عائلة إقبال هو المخضرَم في الحرب. لا أحد يفكر حتَّى في التقاط القرآن. البند الرَّئيس في حالة الطَّوارئ: الدَّعم الرُّوحي. سأعود إِلَى هناك. ابقيا في السيَّارة ولا تُحرِّكا ساكنًا.»

ما إنْ بلغ المطبخ حتَّى أضاء صمد مصباحه اليدويَّ حول: الغلَّاية، وشعلة الغاز، وفنجان الشَّاي، والسَّتائر، ومِنْ ثُمَّ أخذ لمحةً سرياليَّةً للسَّقيفة الَّتِي استقرَّت في سعادةٍ مثل بيت الشَّجرة في مقابل شجرة الكستناء. التقط سكِّين الجيش السِّويسرية الَّتِي تذكَّر أَنَّه تركها تحت الحوض، وتناول القرآن المطليَّ بالذَّهب المحفوف بالمخمل مِنْ غرفة المعيشة، وكان عَلَى وشْكِ المغادرة عندما داهمته غواية أَنْ يشعر بالعاصفة، أَنْ يرى قليلًا مِنَ الدَّمار الهائل. انتظر هدوءًا في الريح وفتح باب المطبخ، منتقلًا بشكلٍ مؤقَّتٍ إِلَى الحديقة، حيث أضاء غطاءٌ مِنَ البرق مشهد قيامة الضَّاحية: السِّنديان، والأَرز، والجمِّيز، وأشجار الدَّردار سقطَت في حديقةٍ إثر حديقةٍ، والأسوار تهاوَت، وتحطَّم أثاث الحديقة. كانت حديقته فقط، وسخر عَلَى الأغلب مِنَ الحديد المضلَّع الَّذِي أحاط بداخلها الخالي مِنَ الأشجار، وبطبقةٍ إثر طبقةٍ مِنَ الأعشاب الغثَّة، الَّتِي تبقَّتْ سليمةً نسبيًّا. كان في عمليَّة صياغةٍ سعيدةٍ لبعض الرُّموز المتعلِّقة بانحناء القصب الشَّرقيِّ في مقابل أشجار البلُّوط الغربيَّة العنيدة - بالتَّحديد - عندما استعادَت الرِّيحُ قوَّتها، وهي تضربه بشكلٍ جانبيٍّ، وتكمل طريقها عَلَى طول النَّوافذ المضادَّة للرِّيح، الَّتِي تصدَّعَت وانفجرَت بقوَّةٍ، ناثرةً الزُّجاج في الدَّاخل، ودافعةً بكُلِّ شيءٍ في المطبخ إِلَى الخارج في الهواء الطَّلْق. ضمَّ صمد، الَّذِي استقرَّت مصفاةٌ عَلَى أذنيه منذ قليلٍ، كتابه إِلَى صدره وأسرع نحو السَّيَّارة.

«ما الَّذِي *تفعلينه* عَلَى مقعد القيادة؟»

تمسَّكت ألسانا بعجلة القيادة في حزمٍ، وتحدَّثت إِلَى مِلَّة عبر مرآة الرُّؤية الخلفيَّة. «هَلْ يمكن لأحدٍ ما، رجاءً، أَنْ يخبر زوجي أَنَّنِي سوف أقود. لقَدْ نشأتُ بقرب خليج البنجال. شاهدتُ أمي تقود خلال عواصف مثل هذه، بينما كان زوجي يعبث في دلهي مع حفنةٍ مِنْ فتيان الجامعة الأنيقين. أقترح أَنْ يصعد زوجي إِلَى مقعد الرَّاكب وأَلَّا يطلق غازات إِلَّا إذا أخبرتُه.»

قادَت ألسانا بسرعة ثلاثة أميالٍ في السَّاعة عبر الطريق السَّريعة المهجورة المعتمة بينما بلغت سرعة الرِّياح 110 أميال في السَّاعة، وهي تضرب قمم المباني العالية بلا هوادةٍ.

«إنجلترا، هذا ما كان مقصودًا! انتقلتُ إِلَى إنجلترا لكَيْ لا أضْطَرَّ لفعل هذا. لَنْ أثق مِنْ جديدٍ أبدًا في السَّيِّد هراء.»

«أَمَّا، إِنَّه السَّيِّد فِش.»

«مِنْ الآن فصاعدًا، هو السَّيِّد هراء بالنِّسبة إِلَيَّ،» قاطعَت ألسانا بنظرةٍ مُعتمةٍ. «بي بي سي أَوْ ليس بي بي سي.»

غابتِ الأضواءُ في منزل آرشي، ولكنَّ منزل جونز كان مُجهَّزًا لكلِّ الاحتمالات الكارثيَّة، مِنْ موجات المدِّ إِلَى التَّداعيات النَّوويَّة؛ ومع الوقت الَّذِي دخل فيه آل إقبال إِلَى هناك أُضيء المكان بدستةٍ مِنْ مصابيح الغاز، وشموع الحديقة، والأضواء اللَّيليَّة، وتَمَّ تدعيم الباب الرَّئيس والنَّوافذ سريعًا برقائق الخشب، وأشجار الحديقة الَّتِي رُبطت أغصانها معًا.

«الأمر كُلُّه يتعلَّق بالاستعدادات،» بادر آرشي، وهو يفتح الباب لعائلة إقبال اليائسة، وأذرعتهم المملوءة بالمتعلَّقات، مثل ملكٍ للأعمال اليدويَّة وهو يرحِّب بالمحرومين. «أقصد، ينبغي أَنْ تحمي عائلتك، أليس كذلك؟ ليس أَنَّك فشلتَ في ذلك ـ أنتَ تعرف ما أعنيه ـ إِنَّها ـ فقط ـ الطَّريقة الَّتِي أرى الأمر بها: إِنَّه أنا في مواجهة الرِّيح. لقَدْ أخبرتكَ ذات مرَّةٍ، يا إِكـ ـ بول، لقَدْ أخبرتك مليون مرَّةٍ: *تفحَّص الجدران الدَّاعمة*. إذا لَمْ تكن في حالةٍ مثاليَّةٍ، فقَدْ ضعتَ، يا رفيق. بالفعل. وينبغي لكَ أَنْ تحتفظ بمفتاح الضَّغط الهوائيِّ للبراغي في المنزل. في الأساس.»

«ذلك رائعٌ، يا آرشيبالد. هَلْ يمكننا الدُّخول؟»

تنحَّى آرشي جانبًا. «بالتَّأكيد. أخبرك بالحقيقة، لقَدْ كنتُ أتوقَّعكم. أنت لا تعرف مطلقًا جهاز الحفر مِنْ مقبض المسمار، يا إِكـ ـ بول. بارعٌ في التَّنظير، ولكنَّك لَمْ تتعلَّم التَّطبيقات العمليَّة مطلقًا. اذهبوا، إِلَى الطَّابق الأعلَى، أنتم لا تمانعون في الأضواء اللَّيليَّة ـ إِنَّها فكرةٌ جيِّدةٌ، هه؟ مرحبًا، يا ألسي، تبدين رائعةً دائمًا، مرحبًا يا مِلبويد، أيُّها الشَّقيُّ. حسنًا، يا سام، بعيدًا عَنِ الموضوع: ما الَّذِي فقدتَه؟»

روى صمد في خجلٍ الأضرار حتَّى لحظتها.

«آه، الآن أنت ترى، ليس الأمر متعلِّقًا بنوافذكَ - إنَّها بخيرٍ، أنا ركَّبتُها - إنَّها *الإطارات*. انفجرَت - بالكاد - خارج ذلك الجِدار المتداعي، سأراهن عَلَى ذلك.»

أقرَّ صمد عَلَى مضضٍ بأنَّ هذه هي المسألة.

«سوف يكون هناك ما هو أسوأ في الطَّريق، سجّل ملاحظتي. حسنًا، ما حدث حدث. كلارا وأيرِي في المطبخ. لدينا موقد بُنْسِن[1] يعمل، والطَّعام سيكون جاهزًا خلال لحظات. ولكنْ يا لها مِنْ عاصفةٍ رهيبةٍ، هه؟ التِّليفونات مقطوعةٌ. الكهرباء مقطوعةٌ. لَمْ أر مثيلًا لذلك مِنْ قبل.»

في المطبخ، ساد نوعٌ مِنَ الهدوء المصطنع. كلارا تُحرِّك بعض الفاصوليا، تغمغم في هدوءٍ بلحن «جنديُّ الجاموس[2].» وأيرِي منحنيةٌ عَلَى دفترٍ، تكتب مذكراتها بقلقٍ شديدٍ عَلَى طريقة أبناء الثَّالثة عشرةَ:

8:30 مساءً. دخل مِلَّة بالكاد. إنَّه رائعٌ جدًّا، ولكنَّه في النِّهاية مزعجٌ! جينزٌ ضيّقٌ كالعادة. لا ينظر نحوي (كالعادة، إلَّا بطريقةٍ ودّيَّةٍ). أنا عاشقةٌ لأحمق (يا لغبائي)! لَوْ كان له مُخُّ أخيه فقط... أوه حسنًا، بْلَا بْلَا. لدَيَّ حبٌّ طفوليٌّ ودهونٌ طفوليَّةٌ - إخخ! العاصفة لا تزال مجنونةً. ينبغي أنْ أذهب. سأكتب لاحقًا.

«حسنًا،» قال مِلَّة.

«حسنًا،» قالت أيرِي.

«أمرٌ مجنونٌ، هه؟»

«نعم، مختلٌّ عقليًّا.»

«أبي غاضبٌ جدًّا. تداعى المنزل إِلَى حطامٍ.»

«مثلما سبق. كانت حالةٌ مِنَ الجنون حولنا هنا أيضًا.»

1 - موقد بنسن أو موقد بوتاجاز وهو من المعدات المخبرية الضروري وجودها في أي مختبر كيميائي، وهو موقد يعمل على الغاز (غالباً البوتان) ويصدر لهب ناري منفرد. يستخدم للتسخين أو للتعقيم. (المترجم).

2 - اصطلاح يطلق عَلَى شُعبة من جنود سلاح الفرسان الأمريكي، تأسست عام 1866، والمقصود هو أغنية بهذا الاسم لنجم الموسيقى الجامايكي بوب مارلي. (المترجم).

«أودُّ أَنْ أعرف أين ستكونين بدوني، أَيَّتها السَّيِّدة الصَّغيرة،» قال آرشي، وهو يطرق مسمارًا آخر في بعض ألواح الخشب. «أفضل منزلٍ محميٍّ في ويلْزدِن، هذا هو. لا يكاد يمكن القول إنَّ هناك عاصفةً تحدث هنا.»

«نعم»، قال مِلَّة، مسترقًا نظرةً إثارةٍ أخيرةٍ عبر النافذة عَلَى الأشجار البائسة قبل أَنْ يحجب آرشي السَّماء تمامًا بالخشب والمسامير. «هذه هي المشكلة.»

قرص صمد أذن مِلَّة. «لا تبدأ في التَّواقح. نحن نعرف ما نفعله. أنت تنسى، آرشي وأنا تعاملنا مع ظروف قصوى. ما إِنْ تنتهي مِنْ إصلاح دبَّابة لخمسة رجالٍ في قلب معركةٍ، وتكون حياتك في خطرٍ عند كُلِّ منعطفٍ، وأزيز الرُّصاص عَلَى بعد بوصاتٍ مِنْ مؤخِّرتك، بينما تحصد العدوَّ في الوقت نفسه في أقسى الظُّروف الممكنة، دعني أخبرك، الإعصار أمرٌ هيِّنٌ أيُّها الطِّفل. يمكنك أَنْ تفعل ما هو أفضل مِنْ ـ نعم، نعم، مسلٍّ جدًّا، أنا واثقٌ.» تمتم صمد، بينما تظاهر الطِّفلان والزَّوجتان بالنُّعاس. «مَنْ يريد بعضًا مِنْ هذه الفاصولياء؟ أنا أغرف.»

«أحدٌ ما يحكي قصَّةً،» قالت ألسانا. «سوف تكون مملَّةً جدًّا لَوْ أَنَّ علينا الاستماع إِلَى نفس المحارب المُسنِّ الثرثار طوال اللَّيل.»

«استمرَّ، يا سام،» قال آرشي مع غمزةٍ. «امنحنا تلك الخاصة بمانجال باندي. إِنَّها دائمًا جيِّدة للضِّحك.»

شقَّ ضجيجٌ مِنَ *اللاءات* التَّمثيليَّة الحناجر ومرَّت شهقات عبر الرِّفاق المجتمعين.

«قصَّة مانجال باندي،» احتجَّ صمد: «ليست موضوعًا للضِّحك. إِنَّه الدَّغدغة في العطسة، إِنَّه السَّبب في الطَّريقة الَّتِي نحن عليها، مؤسِّس الهند الحديثة، والرَّجل التَّاريخيِّ الَّذِي أحدث فرقًا.»

نخرَت ألسانا. «هذا هراءٌ كبيرٌ جدًّا. كُلُّ أحمق يعرف أَنَّ السَّيِّد غاندي هو الرَّجل الَّذِي أحدث الفرق. أَوْ نهرو. أَوْ رُبَّما أكبر[1]، لكنَّه كان أحدب، بأنفٍ ضخمٍ، لَمْ أحبُّه قطُّ.»

1 ـ جلال الدين محمد أكبر: أحد السلاطين المغول الكبار الذين حكموا الهند عاش بين عامي 1556 و1605، وسَّع رقعة بلاده فسيطر على شمال الهند وباكستان ووصل إلى البنجال، عرف بسياسته المميزة في الحكم، حيث عامل الهنود كمواطني دولة بدل أن يعاملهم كسكان أراضٍ مفتوحة. ودخل هو وعائلته في علاقة مصاهرة مع المجموعات الدينية والإثنية المختلفة في الهند مما وطَّد حكمه. كما منع إجبار أحد على الإسلام. (المترجم).

«اللّعنة! لا تتحدّثي بهذه التّفاهات، يا امرأةٌ. ماذا تعرفين أنتِ عَنِ الأمر؟ الحقيقة هي: أنَّ الأمر ـ ببساطة ـ موضوعٌ مِنَ اقتصادياتِ السُّوق، والدِّعاية، وحقوق الأفلام. السُّؤال هو: هَلْ يريد الرِّجال الجميلون ذوو الأسنانِ البيضاءِ أَنْ يؤدوا دورك، وما إِلَى ذلك.

غاندي كان لديه السَّيِّد كينجسلي[1] ـ مناسبًا له ـ ولكنْ مَنْ سيلعب دور باندي، هه؟ باندي ليس جميلًا بما يكفي، هه؟ هنديُّ المظهر جدًّا، بأنفٍ كبيرٍ، وحواجب ثقيلةٍ. هذا هو سببُ اضطراري دائمًا لأَنْ أُخبركم أيُّها الجاحدون بشيءٍ أَوِ اثنَين عَنْ مانجال باندي. وخلاصة القول: إذا لَمْ أفعل أنا، فلا أحد سوف يفعل.»

«انظر،» قال مِلَّة. «سأقدِّم النُّسخة القصيرة. جدِّي الأكبر العظيم ـــ»

«جدُّك *الكبير الأعظم*، أيُّها الغبيُّ»، صحَّحت ألسانا.

«أيًّا *كان*. يقرِّر أَنْ ينكح الإنجليز ـــ»

«مِلَّة!»

«أَنْ يتمرَّد عَلَى الإنجليز، ممثَّلين في جاك وجونز[2] الخاصَّين به، غاضبًا يظهر الشَّرر مِنْ عينيه، يحاول قتل قائده، يخطئ التَّصويب، يحاول قتل نفسه، ويخطئ ويعلَّق ـــ»

«شُنق،» قالت كلارا في ذهولٍ.

«شُنق أَمْ صُلِب؟ سأحضر القاموس،» قال آرشي، خافضًا مطرقته وهو يتسلَّق نحو طاولة المطبخ.

«أيًّا *كان*. انتهَت القصَّة. *مُمِلَّةٌ*.»

والآن شجرةٌ عملاقةٌ ـ مِنَ النَّوع المتوطِّنِ في شمال لندن، تلك الَّتِي تتبرعم في ثلاث أشجارٍ أصغر حول الجذع قبل أَنْ تتفجَّر أخيرًا إِلَى مساحاتٍ خضراءَ رائعةٍ، كمدينةٍ حيَّةٍ لكُلِّ طيور العقعق المشرَّدة ـ شجرةٌ مِنْ هذا النَّوع اقتلعت نفسها مِنْ فضلات الكلاب

1 ـ بن كينجسلي: ممثل بريطاني من مواليد 31 ديسمبر 1943، حاصل عَلَى جائزة الأوسكار 1982 كأفضل ممثل عن دوره في فيلم غاندي كما حصل بنفس الدور عَلَى جائزة الجولدن جلوب 1983 وجائزة الأكاديمية البريطانية لفنون الفيلم والتِّليفزيون 1982. (المترجم).

2 ـ ماركة ملابس بريطانية شهيرة. (المترجم).

والخرسانة، وأخذَتْ خطوةً مترنّحةً للأمام، وانهارت وسقَطَت، عبر المزاريب، وعبر النَّوافذ المضادة للعواصف، وعبر ألواح الخشب، حطَّمَت مصباحًا غازيًا، ثُمَّ هبطت في مساحةٍ خلتْ ممَّا شكَّل هيئة آرشي، كونه غاردها بالكاد للتَّوِّ.

كان آرشي أوَّل مَنْ وثب للتَّصرُّف، ملقيًا منشفةً عَلَى النَّار الصَّغيرة الَّتِي تتقدَّم عَلَى طول أرضيَّة المطبخ المصنوعة مِنَ الفلِّين، بينما ارتعد كُلُّ مَنْ سواه وبكوا وتفحَّصوا الآخرين بحثًا عَنْ إصاباتٍ. وبعدها استعاد آرشي، الَّذِي ظهر بوضوحٍ مِنْ خلال هذه الضَّربة اهتزاز تفوُّقه كصانع للأشياء بنفسه، السَّيطرة عَلَى العناصر، وهو يربط بعض الأغصان بخِرِق المطبخ ويأمر مِلَّة وأَيرِي أَنْ يذهبا حول المنزل ليطفئا مصابيحَ الغاز.

«لا نريد أَنْ نحرق أنفسنا حتَّى الموت، الآن أليس كذلك؟ مِنَ الأفضل أَنْ أعثر عَلَى بعض الأكياس البلاستيكيَّة السَّوداء ولاصقٍ لأسلاك الكهرباء. افعلا شيئًا بهذا الخصوص.»

تشكَّك صمد. «*افعلا شيئًا بهذا الخصوص*، يا آرشيبالد؟ لقَدْ فشلتُ في رؤية كيف يمكن لشريطٍ لاصقٍ أَنْ يغيِّر حقيقة أَنَّ نصف شجرةٍ هُنا في المطبخ.»

«يا رجل، أنا مرعوبةٌ.» تمتمَت كلارا، بعد بضع دقائق مِنَ الصَّمت، بينما هدأَت العاصفة. «الهدوء دائمًا علامةٌ سيِّئةٌ. كانت جدَّتي ـ رحمة الله علىها ـ تقول ذلك دائمًا. الهدوء ليس سوى وقفة الرَّب لكَيْ يأخذ نَفَسًا قبل أَنْ يصرخ عَلَى كُلِّ شيءٍ مرَّةً ثانيةً. أعتقد أَنَّنا ينبغي أَنْ نذهب إِلَى الغرفة الأخرى.»

«تلك هي الشَّجرةُ الوحيدةُ في هذا الجانب. الأفضل أَنْ نبقى هنا. فالأسوأ هنا قَدْ حدث. إِلَى جانب ذلك»، قال آرشي، وهو يلمسُ ذراع زوجته في مودَّةٍ، «فأنتم آل بودين رأيتم ما هو أسوأ مِنْ هذا! لَقَدْ وُلدَت أُمُّك في زلزالٍ هائل، بحقِّ المسيح. في 1907، كانت كينجستون تهاوي وهورتنس تبرز إِلَى العالم. لَنْ تَجِدِي عاصفةً صغيرةً كهذه تسبِّب القلق لها. صُلبةٌ جدًّا، هي الأخرى.»

«ليسَت الصَّلابة.» قالَت كلارا في هدوءٍ، وهي تقف لتنظر عبر النَّافذة المكسورة إِلَى الفوضى في الخارج. «الحظُّ. الحظُّ واليقين.»

«أقترح أَنْ نُصلِّي،» قال صمد، وهو يلتقطُ مصحفه المزخرف. «أقترح أَنْ نعترف بجبروت الخالق بينما يقضي بما هو أسوأ هذه اللَّيلة.»

بدأ صمد في التَّقليب، والعثور عَلَى ما أراده، وجلبه في أداءٍ أرستقراطيٍّ تحت أنف زوجته، ولكنَّها أغلقته بعنفٍ وحدَّقت فيه كانت ألسانا، غير المتديِّنة، الأنيقة حتَّى الآن مع كلام الله (ذاتُ تعليمٍ جيِّدٍ، ووالدَين مناسبَين، أوه نعم)، ولا ينقصها شيءٌ سوى الإيمان، مهيَّأةً لتفعل ما فعلت ـ فقط ـ في الحالات الطَّارئة ـ تتلو: «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.» سورة الكافرون ـ 109، بترجمة ن ج داود[1]. «والآن هل يمكن لأحدهم،» قالت ألسانا، وهي تنظر إِلَى كلارا، «رجاءً، أَنْ يذكِّر زوجي بأَنَّه ليس السَّيِّد مانيلو[2] وأَنَّه ليسَت لديه الأغنية الَّتِي تجعل العالم كُلَّه يغنِّي. سوف يعزف هُو لحنه، وأنا سوف أعزف لحني.»

أشاح صمد عَنْ زوجته في ازدراءٍ، ووضع يديه بحزمٍ عَلَى كتابه. «مَنْ سيصلِّي معي؟»

«المعذرة، يا سام،» جاء صوتٌ مكتومٌ (كان رأس آرشي في الخزانة وهو يبحث عَنْ أكياس القمامة). «ليس اختياري فعلًا، أيضًا. لَمْ أكن أبدًا رجل كنيسةٍ. بدون إهانةٍ.»

مرَّت خمس دقائق أخرى بدون رياحٍ. ثُمَّ تفجر الهدوء وزعق الرَّب تمامًا كما أخبرت أمبروزيا بودين حفيدتها أَنَّه سيفعل. دوَّى الرَّعد فوق المنزل مثل صفراءِ رجلٍ يُحتضر، برقٌ متبوع بما يشبه لعنته الأخيرة، وأغلق صمد عينيه.

«يا أَيرِي! يا مِلَّة!» نادت كلارا، ثُمَّ ألسانا. ولا ردّ. وبينما اعتدل في الخزانة صادمًا رأسه في رفِّ التَّوابل، قال آرشي: «لقَدْ كانت عشر دقائق. ياللهول. *أين الأطفال؟*»

***

أحد الأطفال في شيتاجونج، حرَّضه صديقٌ عَلَى خلع لونجيه وأَنْ يسير عَبْرَ مستنقعٍ شهيرٍ للتَّماسيح؛ والآخران تسلَّلا خارج المنزل ليشعرا بقلب العاصفة، سارا عكس اتِّجاه الريح كما لو كانا غارقين حتَّى الفخذ في الماء. خاضا نحو أرضيَّة متنزَّه ويلْزدِن، حيث جرَت المحادثة التَّالية:

1 ـ نسيم جوزيف داوود (27 أغسطس 1927 ـ 20 نوفمبر 2014): مترجم عراقي اشتهر بترجمته للقرآن الكريم. ولد في بغداد لأسرة عراقية يهودية وهاجر واستقر في إنجلترا سنة 1945. درس في جامعة لندن. نشرت ترجمته للقرآن سنة 1956، كما ترجم أجزاء من كتاب «ألف ليلة وليلة»، و«مقدمة ابن خلدون». (المترجم).

2 ـ مطرب أمريكي، ولد في 17 يونيو 1943 في بروكلين، تعلم العزف عَلَى آلة البيانو وأصبح عازفًا ومنظمًا للمغنية والممثلة الأمريكية بيتي مدلر، وكان أول نجاح لهما من خلال العمل مع بعضهما في النوادي الليلية في نيويورك. أنتج أيضًا عام 1972 أول ألبوم للمغنية بيتي مدلر. كان لنجاحه معها الفضل في أنه استطاع أن ينتج أول ألبوم فردي له عام 1973. (المترجم).

«هذا لا يصدَّق!»

«نعم، يا معتوه!»

«أنتِ معتوهةٌ.»

«ماذا تعني؟ أنا بخيرٍ!»

«لا، لستِ كذلك. أنتِ دائمًا تنظرين إلَيَّ. ثُمَّ ما الَّذِي كنتِ تكتبينه؟ يا لكِ مِنَ انعزاليَّةٍ. أنتِ دائمًا تكتبين.»

«لا شيء. أشياء. أنتَ تعلم، أشياء تتعلَّق باليوميَّات.»

«لديكِ أشياء ساخنةٌ وقحةٌ لأجلي»

«لا أستطيع أَنْ أسمعكَ! ارفع صوْتكَ!»

«الأشياء السَّاخنة! الصَّارخة! يمكنكِ أَنْ تسمعيني.»

«إطلاقًا! أنت المهووس بذاتك.»

«أنتِ تريدين مؤخِّرتي.»

«لا تكن سافلًا!»

«حسنًا، الأمر ليس جيِّدًا، عمومًا. أنتِ تكبرين بعض الشَّيء. أنا لا أحبُّ الكبار. لَنْ يمكنكِ الحصول عَلَيَّ.»

«لَمْ أكن لأريد، يا سيِّدَ مهووسٌ بذاتكَ.»

«بالإضافة إلَى ذلك: تخيَّلي أطفالنا ماذا سيشبهون.»

«أظنُّ أَنَّهم سيكونون لطيفين.»

«سودًا بُنِّيِّين، أَمْ بُنِّيِّين مُسوَدِّين. أفريقيِّي الملامح، بأنوفٍ مسطَّحةٍ، وأسنانٍ أرنبيَّةٍ، ونمشٍ. سيكونون مسوخًا!»

«بإمكانك أَنْ تتحدَّث، لقَدْ رأيت صورة جدَّك الأكبر ــ»

«جدِّي الكبير الأعظم.»

«أنفٌ هائلٌ، وحواجب بشعةٌ ــ»

«هذا انطباع فنَّانٍ، يا رئيس.»

«وسيكونون مجانين - هو كان مجنونًا - كُلُّ عائلتك مجنونةٌ. إنَّه أُمرٌ وراثيّ.»

«نعم، نعم. *أيًّا كان*.»

«ولمعلوماتك، أنا لا أتصوَّرك، عَلَى أَيَّة حالٍ. لديك أنفٌ مقوَّسٌ. وأنت مشكلةٌ. مَنْ يرغب في مُشكلةٍ؟»

«حسنًا، احترسي،» قال مِلَّة، وهو يميل إِلَى الأمام، مصطدمًا ببعض أسنانها الأماميَّة، وهو يمرِّر لسانه في لحظةٍ، ثُمَّ يسحبه. «لأَنَّ كُلَّ ما ستنالينه هو المتاعب.»

14 يناير 1989:

باعد مِلَّة بين ساقيه عَلَى طريقة إلفيس، وطوَّح محفظته عَلَى الطَّاولة. «واحدةً لبرادفورد[1]، نعم؟»

قرَّب رجل التَّذاكر وجهه المتعب مِنَ الزُّجاج. «هَلْ تسألني، أَيُّها الشاب، أَمْ تخبرني؟»

«أنا أقول - فقط - هه؟ واحدةً لبرادفورد، هاه؟ لديك مشكلةٌ ما، هاه؟ هَلْ تتحدَّث الإنجليزيَّة؟ هذه كينجز كروس، هاه؟ واحدةً لبرادفورد، أليس كذلك؟»

كتم فريق مِلَّة (راجيك، ورانيل، وديبيش، وهِيفان) ضحكاتهم واصطفُّوا خلفه، مشاركين في واحدة مِنَ الـ هاه مثل نوعٍ مِنَ الجوقة.

«*مِنْ فضلِك؟*»

«مِنْ فضلك *ماذا*، هاه؟ واحدةً لبرادفورد، هاه؟ هَلْ تفهمني؟ واحدةً لبرادفورد. يا *رئيس*.»

«وهَلْ تكون ذهابًا وعودةً؟ لطفلٍ؟»

«نعم، يا رجل. أنا في الخامسة عشرةَ، هاه؟ بالتَّأكيد أريد عودةً، لدَيَّ حفلةٌ لأعود إِلَيها مثل الآخرين.»

«سيكون ذلك خمسةً وسبعين جنيهًا، إذنْ، رجاءً.»

1 - مدينة بريطانية. (المترجم).

قوبل هذا باستياءٍ مِنْ مِلَّة وفريق مِلَّة.

«أنتَ ماذا؟ تسرقني علانيةً! سبعين ـ اخرس، يا رجل. هذه سرقةٌ. أنا لَنْ أدفع أيَّ خمسةٍ وسبعين جنيهًا!»

«حسنًا، أخشى أَنَّ هذا هو السِّعر. رُبَّما في المرَّة القادمة تسرق سيِّدةً عجوزًا ما،» قال رجل التَّذاكر، وهو ينظر إِلَى الكتل الذَّهبيَّة الَّتِي تتدلَّى مِنْ أذني مِلَّة، ومعصمه، وأصابعه، ومِنْ حول عنقه، «رُبَّما أمكنك التَّوقف هنا أوَّلًا قبل أَنْ تدخل إِلَى محلِّ الجواهر.»

«ليبراليُّون!» ولول هيفان.

«إِنَّه يلعنك، هاه؟» أكَّد رانيل.

«مِنَ الأفضل أَنْ تخبره،» حذَّر راجيك.

انتظر مِلَّة لدقيقةٍ. التَّوقيت هو كُلُّ شيءٍ. ثُمَّ استدار، ورفع مؤخِّرته في الهواء، وضرط مطوَّلًا بصوتٍ مرتفعٍ في اتِّجاه رجل التَّذاكر.

الفريق، في إشارةٍ واحدةٍ: «شُمَّنِي!»

«بماذا دعوتَني؟ أنتَ ـ ماذا قلتَ؟ أنتَ يا ابن الحرام الصَّغير. ألا يمكنكَ أَنْ تخبرني بالإنجليزيَّة؟ أينبغي أَنْ تتحدَّث لغتكَ الباكستانيَّة؟»

ضرب مِلَّة قبضته بعنفٍ عَلَى الزُّجاج حتَّى أَنَّ دوي ذلك ارتدَّ في الكشك إِلَى رجل التَّذاكر في الجانب الآخر الَّذِي يبيع تذاكر إِلَى ميلتون كينز.

«أوَّلًا: أنا لستُ باكستانيًّا، أيُّها العاهر الجاهل. وثانيًا: أنتَ لا تحتاج إِلَى مترجمٍ، هاه؟ سأعطيك إِيَّاه مباشرةً. أنت لوطيٌّ عاهرٌ، هاه؟ عاشق ذكورٍ، مخنَّثٌ، شاذٌّ جنسيًّا، بأعضاء مُلوَّثة.»

لَمْ يكن هناك شيءٌ يفخر فريق مِلَّة بأنفسهم فيه أكثر مِنَ العبارات الكنائيَّة الَّتِي يمكنهم تقديمها للتعبير عَنِ الشُّذوذ الجنسيِّ.

«لاعق الأعضاء، الشاذُّ، فتى المراحيض.»

«عليك أَنْ تشكر الله عَلَى الزُّجاج بيننا، يا فتى.»

«نعم، نعم، نعم. أنا أشكر الله، هاه؟ أتمنى أَنْ يسخطك أَيُّها الشِّرير، هاه؟ نحن ذاهبون إِلَى برادفورد لنفرز أمثالك، *يا رئيس!*»

في منتصف الطَّريق إِلَى الرَّصيف رقم 12، وهم عَلَى وشك ركوب قطارٍ لَمْ تكن لديهم تذاكر له، أوقف رجل أمنٍ في كينجز كروس فريق مِلَّة لكَيْ يسألهم سؤالًا. «أنتم لا تبحثون عَنْ متاعب، يا فِتيان، أليس كذلك؟»

سؤالٌ عادلٌ. فقَدْ بدا فريق مِلَّة مثيرًا للمشكلات. وفي ذلك الوقت، فإِنَّ فريقًا يبدو مثل مشكلةٍ عَلَى هذه الطَّريقة تحديدًا لديه اسمٌ: *راجاستانيٌّ*[1].

هذه سلالةٌ جديدةٌ، تنضمُّ حديثًا إِلَى صفوف حشود الشَّارع: الخانعين، والـ بي بويز[2]، والأطفال المستقلِّين، وأبناء الحياة، والمهتاجين، والمتواقحين، ومتعاطِيّ حبوب الهلوسة، والرَّائعين، والمنفَتحين والحثالة، وإخوة الأُمَّة، والرَّاجا والباكي؛ سلالةٌ تُجلِّي نفسها كنوعٍ مِنَ التهجين الثَّقافِيّ للتَّصنيفات الثَّلاثة الأخيرة. يتحدَّث الراجاستانيُّون مزيجًا غريبًا مِنَ العامِّيَّة الجامايكيَّة، والبنجاليَّة، والجوجاراتيَّة، والإنجليزيَّة. مرجعيَّاتهم، وطرحهم، إنْ أمكن تسميتهما كذلك، كانتا في المحصِّلة شيئًا هجينًا: *تجلَّى الله*، ولكنْ كأخٍ جماعيٍّ أكبر منه ككيان أسمى، كشخصٍ غريبٍ *وقاسٍ* سيقاتل في *صفِّهم* إذا كان القتال ضروريًّا؛ الكونج فو وأعمال بروس لي كانت - أيضًا - مركزًا لفلسفتهم؛ اضِف إِلَى ذلك القليل مِنَ القوَّة السَّوداء (كما يجسِّدها ألبوم *الخوف مِنْ كوكبٍ أسودَ* - عدو الشَّعب[3])، ولكنَّ مهمَّتهم بالأساس كانت أَنْ يستعيدوا غير الخانع في الهندِيِّ، واللَّطيف في البنجالِيِّ، والمرِح في الباكستانِيّ. لقَدْ عبث النَّاس مع راجيك، قديمًا في تلك الأيَّام عندما ذهب إِلَى نادي الشَّطرنج وارتدى تي شيرتاتٍ برقبةٍ مثلَّثةٍ. وعبث النَّاس مع رانلي، عندما جلس في نهاية الفصل ونقل باهتمامٍ كُلَّ ملاحظات المدرِّسين إِلَى كتابه. وعبث النَّاس مع دابيش وهيفان عندما ارتديا ملابس تقليديَّةً في الملعب. حتَّى أَنَّ النَّاس عبثوا مع مِلَّة، بالجينز الضَّيِّق وملابس الرُّوك البيضاءِ. ولكنْ لَمْ يعد أحدٌ يعبث معهم

1 ـ لفظ يطلق عَلَى ذوي الأصول الآسيوية الذين يتحدثون بلهجات جامايكية وأفريقية مع تخلهم عن هويتهم الأصلية واعتماد ثقافة السود والأفارقة باعتبارها ملكهم. الكلمة هي مزاوجة بين كلمتي راجا وباكستان. (المترجم).

2 ـ كناية جنسية عن الشذوذ، وهو ـ أيضًا ـ اسم فرقة موسيقية بريطانية شهيرة. (المترجم).

3 ـ مجموعة لموسيقى الهيب هوب الأمريكية. تشكلت في لونج آيلاند، نيويورك، في عام 1982، وهي معروفة لموسيقاها المشحونة بالسياسة ونقد وسائل الإعلام الأمريكية، مع اهتمام نشط بالإحباط ومخاوف المجتمع الأفرو أمريكي. (المترجم).

مِنْ جديدٍ لأنَّهم بدوا مثيرين للمتاعب. بدوا مثيري مشكلاتٍ نموذجيّين. بالطَّبع، هناك زيٌّ خاصٌّ. كُلٌّ منهم مرصَّعٌ بالذَّهب ويرتدي العصابات، إمَّا ملفوفةٌ حول جباههم وإمَّا مربوطةٌ حول مفصل ذراعٍ أَوْ ساقٍ. البنطلونات فضفاضةٌ، تغمر الأشياء، والسَّاق اليُسرى دائمًا لسببٍ غير مفهومٍ ملتويةٌ نحو الرُّكبة؛ الأحذية الرِّياضيَّة رائعةٌ عَلَى حدٍّ سواءٍ، بألسنةٍ طويلةٍ تحجب الكاحل كاملًا؛ وقبَّعات البيسبول إلزاميَّةٌ، منخفضةٌ ومتدلِّيةٌ ومثبَّتةٌ؛ وكُلُّ شيءٍ، كُلُّ شيءٍ، كُلُّ شيءٍ *نايكي%*؛ أينما ذهب خمستهم فالانطباع الَّذِي خلَّفوه وراءهم نوعٌ مِنْ علامة نايكي تجاريَّةٍ عملاقةٍ، علامة «صحّ» ضخمةٍ للشّركة. ويسيرون بطريقةٍ محدَّدةٍ جدًّا، يتقمَّص الجانب الأيسر مِنْ أجسادهم نوعًا مِنَ الشَّلل الخفيف الَّذِي يحتاج معه لأَنْ يكون محمولًا عَلَى الجانب الأيمن؛ كنوعٍ مِنَ العرج غير التَّقليديِّ، الفخم، مثل الحركة الحثيثة الَّتِي تَصَوَّرَها ييتس لوحشه الألفيِّ الهائج[1]. قبل عشر سنواتٍ، بينما الرُّؤوس السَّعيدة المنتشية بعقار الهلوسة ترقص في صيف الحبِّ[2]، كان طاقم مِلَّة يزحف نحو برادفورد.

«لا مشكلة، هاه؟» قال مِلَّة لرجل الأمن.

«ذاهبون فقط،» بدأ هيفان.

«إلى برادفورد،» قال راجيك.

«لبعض الأعمال، هاه؟» أوضح ديبيش.

«إلى اللقاء! ربما!» نادى هيفان، بينما تسلَّلوا إِلَى القطار، ومنحوه حركة بذيئة بالإصبع، ودفعوا مؤخراتهم لأعَلَى تجاه الأبواب المنغلقة.

«احْجِز مقعد النافذة، نعم؟ لطيفٌ. أحتاج *بشدَّةٍ* إِلَى تدخين سيجارةٍ هنا، نعم؟ أنا غريبٌ جدًّا، نعم؟ الأمر كله يتعلَّق بالأعمال، يا رجل. هذا شخصٌ سافلٌ غريبٌ، يا رجل. إِنَّه مُلوَّنٌ حقيرٌ - ترغب كثيرًا في العبث معه، نعم؟»

«هَلْ يكون هناك فعلًا؟»

1 - إشارة إلى قصيدة «الميلاد الثاني» أو «العودة الثانية» للشاعر البريطاني ويليام بتلر ييتس. (المترجم).

2 - صيف الحب الثاني، اصطلاح يشير إلى صيفي كل من عام 1988 و1989 مع انفجار موسيقى الرقص الإلكترونية في بريطانيا، وانتشار عقار الهلوسة في ثقافة الشباب أما صيف الحب الأول فكان في عام 1967 عندما تدفق ما يقارب 100 ألف شخص على حي هايت - أشبوري في سان فرانسيسكو؛ إيذانًا ببدء تغير ثقافي وسياسي كبير في المنطقة. (المترجم)

كُلُّ الأسئلة الجادَّة توجَّه دائمًا إِلَى مِلَّة، وكان مِلَّة يجيب المجموعة دائمًا ككُلٍّ. «مستحيلٌ. لَنْ يكون هناك. الإخوة ـ فقط ـ سيكونون هناك. إِنَّه احتجاجٌ لعينٌ، يا رئيس، لماذا سيذهب إِلَى احتجاجٍ ضدَّه هو نفسه؟»

«أقول فقط،» قال رانيل، وهو يشعر بالحرج، «كنتُ لأعبث معه، نعم؟ إذا كان هناك، أنت تعرف. كتابٌ لعينٌ قذرٌ.»

«إِنَّه إهانةٌ سخيفةٌ!» قال مِلَّة، وهو يبصق بعض اللُّبان نحو النَّافذة. «لقَدْ تحمَّلنا الأمر كثيرًا، في هذا البلد. والآن سنقوم بالأمر بأنفسنا، يا رجل. هذا الفوطة الصِّحيَّة! إِنَّه جاهلٌ حقيرٌ، دمية الرَّجل الأبيضِ.»

«عَمِّي يقول إِنَّه لا يستطيع التهجِّي حتَّى،» قال هيفان الغاضب، والأكثر صدقًا دينيًّا في المجموعة. «ويجرؤ عَلَى الحديث عَنِ الله!»

«فليعبث به الله، نعم؟» صرخ راجيك، الأقل ذكاءً، الَّذِي تصوَّر الرَّب نوعًا ما مِنَ المزاوجة بين القرد العجيب[1] وبروس ويليس[2]. «سيركله في خصيتيه. كتابٌ قذرٌ.»

«هَلْ قرأته؟» سأل رانيل، بينما ينسلُّون قُبالة متنزَّه فينسبوري.

كانت هناك وقفةٌ عامَّةٌ مؤقَّتةٌ.

قال مِلَّة: «ليس بالضَّبط، لَمْ أقرأه ـ تحديدًا ـ لكنَّني أعرف كُلُّ ما يخصُّ هذا الهراء، نعم؟»

حتَّى نكون أكثر دقَّةً، فـ «مِلَّة» لَمْ يقرأه. ولَمْ يعرف مِلَّة أَيَّ شيءٍ عَنِ الكاتب، ولا أَيَّ شيءٍ عَنِ الكتاب؛ لَمْ يكن بإمكانه معرفة الكتاب ضمن كومةٍ مِنَ الكتب الأخرى؛ ولَمْ يكن بإمكانه أنْ يتعرف عَلَى الكاتب ضمن صفٍّ مِنَ الكُتَّابِ الآخرين (لا تقاوم، تلك التَّشكيلة مِنَ الكُتَّاب المتسبِّبين في مشكلاتٍ: سقراط، وبروتاجوراس، وأوفيد وجوفينال، ورادكليف هول، وبوريس باسترناك، ودي. إتش. لورانس، وسولجنستين، ونابوكوف، كُلُّهم يحملون أرقامهم لأجل التَّصوير الجنائيِّ، محدِّقين في مصباحٍ

1 ـ مسلسل تليفزيوني ياباني شهير عرض في 1978 عن شخصية قرد مولود من بيضة حجرية عَلَى قمة الجبل، الأمر الذي يجعله قردًا حجريًّا لا يقهر. (المترجم).

2 ـ ممثل ومغنٍ أمريكي، حصل عَلَى جائزة الإيمي مرتين، أفضل ممثل رئيس في مسلسل درامي عام 1987 عن دوره في مسلسل إضاءة قمر، وعام 2000 جائزة ضيف الشرف البارز عن دوره في مسلسل الأصدقاء، كما حصل عَلَى جائزة الجولدن جلوب 1987 كأفضل ممثل تليفزيوني في مسلسل كوميدي أوْ موسيقي عن دوره في مسلسل إضاءة قمر. اشتهر بأدواره السينمائية العنيفة ومنها أدواره في سلسلة أفلام الموت العنيف. (المترجم).

كهربائيٍّ). ولكنَّه يعرف شيئًا آخر. يعرف أَنَّه مِلَّة، باكي بغضِّ النَّظر عَنِ المكان الَّذِي جاء منه؛ يفوح برائحة الكاري؛ وليست لديه هويَّةٌ جنسيَّةٌ؛ أخذ وظائف الآخرين، أَوْ كان بدون وظيفةٍ ويعيش عَلَى إحسان الدَّولة، أَوْ أعطى كُلَّ الوظائف لأقاربه، وأَنَّه يمكن أَنْ يكون طبيب أسنانٍ أَوْ مالك متجرٍ أَوْ ناقلًا للكاري، ولكن ليس لاعب كرةٍ أَوْ مخرج أفلامٍ؛ أَنَّه ينبغي أَنْ يعود إِلَى بلده الأصلي؛ أَوْ أَنْ يبقى هنا ليحفظ بقاءه اللعين؛ أَنَّه عَبَد الفيلة وارتدى العمامة؛ أَنَّه لا أحد في الأخبار يبدو مثل مِلَّة، أَوْ يتحدَّث مثل مِلَّة، أَوْ يشعر مثل مِلَّة، على الإطلاق، ما لَمْ يكونوا قَدْ تعرَّضوا مُؤَخَّرًا للقتل. وباختصارٍ، يعلم أَنَّه بلا وجهٍ في هذا البلد، حتَّى الأسبوع قبل الأخير عندما كان الناس مِنْ أمثال مِلَّة في كُلِّ قناةٍ تليفزيونيَّةٍ وكُلِّ راديو وكُلِّ صحيفةٍ وكانوا غاضبين، ولاحظ مِلَّة الغضب، فكَّر فيه وتعرَّف إليه، وأمسك به بكلتا اليدين.

«وإذن... أنت لَمْ تقرأه؟» سأل رانيل بعصبيَّةٍ.

«انظر: مِنَ الأفضل أَنْ تصدِّق أَنَّنِي لا أشتري هذا القرف، يا رجل. لا سبيل إِلَى ذلك، يا نجم.»

«ولا أنا،» قال هيفان.

«نجمٌ حقيقيٌّ،» قال راجيك.

«قبحٌ سخيفٌ،» قال رانيل.

«اثنا عَشرَ وخمسةٌ وتسعون[1]، أنت تعرف!»

«إِلَى جانب ذلك،» قال مِلَّة، مع نبرةٍ نهائيَّةٍ عَلَى الرَّغم مِنْ لهجته المتعالية، «لا ينبغي لك أَنْ تقرأ الهراء لكَيْ تعرف أَنَّه تجديفٌ، هَلْ تفهمني؟»

***

وبالعودة إِلَى ويلزدِن، كان صمد إقبال يعبِّر عَنْ نفس المشاعر بصوتٍ عالٍ غطَّى عَلَى نشرات الأخبار المسائيَّة.

1 ـ إشارة مصحفة للرسائل الخمس والتسعين، وهي مجموعة النقاط الَّتِي اعترض عليها مارتن لوثر، وشكلت انطلاق البروتستانتية، بعد أن علقها عَلَى باب الكاتدرائيّة الرئيسية في فيتنبرج، وتتلخص الاعتراضات حول قضايا التكفير عن الخطايا وأهمية أعمال البر التكفيرية وسلطة البابا في الكنيسة الكاثوليكية. أثارت القضايا جدلًا واسعًا في الغرب المسيحي وفتحت باب العديد من المناظرات الدينية، والتشاحن. (المترجم).

«لا أحتاج لقراءته. تَمَّ تصوير المقاطع ذات الصِّلة مِنْ أجلي.»

«هَلْ يمكن لأحدٍ ما أَنْ يُذكِّر زوجي،» قالت ألسانا، متحدِّثةً إِلَى الصَّحيفة، «أَنَّه لا يعرف حتَّى ما يدور حوله الكتاب اللَّعين لأَنَّ آخر شيءٍ قرأه كان حروف *الهجاء* اللَّعينة.»

«سأطلب منكِ لمرَّةٍ ثانيةٍ أَنْ تصمتي لكَيْ يمكنني مشاهدة الأخبار.»

«يمكنني أَنْ أسمع صراخًا ولكنْ لا يبدو أَنَّه صوتي.»

«ألا يمكنك أَنْ تفهمي، يا امرأة؟ هذا أكثر ما يمكن أَنْ يحدث لنا أهميَّةً في هذا البلد، عَلَى الإطلاق. إنَّها نقطة أزمةٍ. إِنَّها الدَّغدغة في العطسة. إنَّه وقتٌ عظيمٌ.» ضغط صمد زرَّ رفع الصَّوت عدَّة مرَّاتٍ بإبهامه. «هذه المرأة - مويرا[1] أيًّا كان اسمها - إنَّها تغمغم. لماذا تقرأ الأخبار إذا لَمْ يكن بمقدورها الحديث بشكلٍ جيِّدٍ؟»

قالت مويرا، وهي تلتفت فجأةً في منتصف جملةٍ: «... ينفي الكاتب التَّجديف، ويجادل بأَنَّ الكتاب يهتمُّ بالصِّراع بين وجهات النَّظر العِلمانيَّة والدِّينيَّة تجاه الحياة.»

نخر صمد. «أيُّ صراعٍ! أنا لا أرى أيَّ صراع. إنَّني أحصل عَلَى ما هو جيِّدٌ تمامًا. كُلُّ الخلايا الرَّماديَّة بحالةٍ جيِّدةٍ. لا صعوبات عاطفيَّة.»

ضحكت ألسانا في مرارةٍ. «زوجي يشعل الحرب العالميَّة الثَّالثة في رأسه في كُلِّ يومٍ لعينٍ، وكذلك يفعل الجميع —»

«لا، لا، لا. لا يوجد صراعٌ. ما الَّذي يتحدَّث عنه، هه؟ لا يمكنه أَنْ يتحايل للخروج مِنَ الموقف بكونه عقلانيًّا. العقلانيَّة! الفضيلة الغربيَّة الأكثر مبالغةً! أوه لا. الحقيقة هي، أَنَّه - ببساطة - مُسيءٌ - لقَدْ أساء —»

«انظر،» قاطعت ألسانا. «عندما نلتقي أنا ومجموعتي الصَّغيرة، إذا كُنَّا نعترض عَلَى شيءٍ، يمكننا حلُّه. ومثالًا: تكره موهانا حسين ديفارجيت سينج. تكره كُلَّ أفلامه. تكرهه بشغفٍ. إنَّها تحبُّ ذلك الأحمق الآخر، برموشه الصِّناعيَّة مثل امرأةٍ! ولكنَّنا نقدِّم تنازلاتٍ. لَمْ يحدث مرَّةً أَنْ أحرقتُ فيديو واحدًا مِنْ فيديوهاتها.»

«الأمر مختلفٌ تمامًا، يا سيِّدة إقبال، إِنَّه ليس نفس الأمر عَلَى الإطلاق.»

«أوه، المشاعر تتأجَّج عاليًا في مجتمع برامج المرأة أيًّا كان ما يعرفه صمد إقبال. ولكنَّني لستُ مثل صمد إقبال. أنا أكبح جماح نفسي. أنا أعيش. وأنا أترك الآخرين يعيشون.»

---

1 - مويرا ستيوارت مذيعة أخبار شهيرة في الـ بي بي سي. ولدت عام 1949. (المترجم).

«ليست مسألة ترك الآخرين يعيشون. إنَّها مسألة حماية ثقافة المرء، حماية دين المرء مِنَ الإساءة. ليس أنَّك تعرفين أيَّ شيءٍ عَنْ ذلك، بالطَّبيعة. أنتِ دائمًا مشغولةٌ جدًّا مع هذا العقل الهنديِّ الفارغ عَنْ منح أيِّ اهتمامٍ لثقافتك الشَّخصيَّة!»

«ثقافتي الشَّخصيَّة؟ وما هي تلك، رجاءً؟»

«أنتِ بنجاليَّةٌ. تصرَّفي عَلَى هذا الأساس.»

«وما هي البنجاليَّة، يا زوجي، رجاءً؟»

«ابتعدي عَنْ طريق التِّليفزيون وابحثي عنها.»

أخرجت ألسانا العقل البلطيقيِّ رقم ثلاثةٍ مِنَ العدد رقم أربعةٍ وعشرين مِنْ موسوعة ريدرز دايجست، وقرأت مِنَ القسم ذي الصِّلة:

الغالبية العظمى مِنْ سكَّان بنجلاديش هي البنجاليون، الَّذين ينحدرون بشكلٍ كبيرٍ مِنَ الهنود ـــ الآريِّين، والذين بدأوا في الهجرة إِلَى البلاد مِنَ الغرب منذ آلاف السَّنوات، واختلطوا في البنجال مع جماعات السُّكان الأصليِّين مِنْ مختلف الأعراق. وتضم الأقليَّات العرقيَّة شعوب الشَّاكما والمو والمنغوليِّين الَّذين يعيشون في منطقة مرتفعات شيتاجونج؛ وينحدر السَّنتال[1] بشكلٍ رئيس مِنْ هجراتٍ هنديَّةٍ بعد التَّقسيم.

«هيه، يا سيِّد! هنود ـ *آريِّين*... يبدون مثل الغربيِّين في النِّهاية! رُبَّما ينبغي لي أَنْ أستمع إِلَى تينا تيرنر، وأرتدي تنُّوراتٍ جلديَّةٍ قصيرةٍ. إخ. يضاف هذا إِلَى العرض،» قالت ألسانا وهي تكشف عَنْ لسانها الإنجليزيِّ، «عُدْ مرَّةً، ومرَّةً أخرى، وثالثةً، ولا يزال مِنَ الأسهل أَنْ تجد الكيس الصحيح للمكنسة الكهربائيَّة، مِنَ العثور عَلَى شخصٍ واحدٍ نقيٍّ، عَلَى إيمانٍ واحدٍ خالصٍ، في الأرض. هَلْ تعتقد أَنَّ أَيَّ شخصٍ إنجليزيٍّ؟ إنجليزيٌّ فعلًا؟ إنَّها قصَّةٌ خياليَّةٌ!»

«أنتِ لا تعرفين ما الَّذي تتحدَّثين عنه. أنتِ سطحيَّةٌ جدًّا.»

أمسكت ألسانا بالموسوعة. «أوه، *يا صمد مياه*. هَلْ تريد أَنْ تحرق هذه أيضًا؟»

«انظري: ليس لَدَيَّ وقتٌ للَّعب الآن. أنا أحاول الاستماع إِلَى قصَّةٍ إخباريَّةٍ مهمَّةٍ جدًّا. هناك أحداثٌ مهمَّةٌ تجري في برادفورد. وعليه، إذا لَمْ تمانعي ـــ»

1 ـ هي أكبر تجمع قبلي في الهند والذين يقطنون بشكل رئيس في جهارخاند، بنجال الغربية، أوريسا، وأسام، بالإضافة إلى وجود أقلية من السنتال في بنجلاديش ونيبال. (المترجم).

«أوه يا إلهي الغالي!» صرخَت ألسانا، والابتسامة تغادر وجهها، وهي تسقط عَلَى ركبتها أمام التِّليفزيون، وتتجاوز بإصْبعها الكتاب الَّذِي يحترق عَلَى الشاشة إِلَى الوجه الَّذِي ميَّزته، مبتسمًا في مواجهتها عبر الأنابيب المضيئة للتِّليفزيون، كان ابنها المخبول الثَّاني ضمن قائمة الصُّورة المؤطَّرة الَّتِي تشاهدها. «ما الَّذِي يفعله؟ هَلْ هو مجنونٌ؟ مَنْ يظنُّ نفسه؟ ما الَّذِي يفعله بحقِّ الله هناك؟ ينبغي أَنْ يكون في المدرسة! هَلْ جاء اليوم الَّذِي يحرق فيه الأطفال الكتب، *هَلْ جاء* فعلًا؟ لا أصدِّق هذا!»

«لا علاقة لي بذلك. دغدغةٌ في العطسة، يا سيِّدة إقبال،» قال صمد في هدوءٍ، عائدًا للجلوس عَلَى مقعده ذي الذِّراعين. «دغدغةٌ في العطسة.»...

عندما عاد مِلَّة إِلَى المنزل تلك اللَّيلة، كانت نارٌ عظيمةٌ تستعر في الحديقة الخلفيَّة. كُلُّ أغراضه الدِّراسيَّة ـ الَّتِي تساوي أربع سنواتٍ مِنَ التَّميُّز، وما قبل وما بعد الرَّاجستانيَّة، كُلُّ ألبومٍ، وكُلُّ ملصقٍ، وتي شيرت ذي إصدارٍ خاصٍّ، ونشرات النَّادي المجمَّعة والمحفوظة لأكثر مِنْ سنتين، وأحذية إير ماكس الرِّياضيَّة الجميلة، والأعداد مِنْ 20ـ75 مِنْ مجلة *2000أ.د*[1]. وصورةٌ موقَّعةٌ مِنْ تشوك دي[2]، ونسخةٌ فائقة النُّدرة مِنْ أغنية سليك ريك «أيُّها العالم الصَّغير»[3]، *والحارس في حقل الشُّوفان*[4]، وجيتاره، *والعرَّاب*[5] *الجزء الأوَّل والثَّاني*، *وشوارعُ قذرةٌ*[6]، *والسَّمك الرَّعَّاش*[7]، وبعد ظهيرة

1 ـ مجلة كوميدية بريطانية أسبوعية تقوم عَلَى الخيال العلمي، صدر العدد الأول منها عام 1977. (المترجم).

2 ـ مطرب راب ومؤلف ومنتج أمريكي ولد عام 1960، أسهم في انتشار موسيقى الراب في الثمانينيات. (المترجم).

3 ـ مطرب راب بريطاني أمريكي رشح لجوائز جرامي، عرف ـ أيضًا ـ باسم ريك الحاكم، وريكي دي، له عدة ألبومات منها «حب مراهق» و«قصص أطفال». (المترجم).

4 ـ رواية للكاتب الأمريكي جيروم ديفيد سالينجر، كتبها عام 1951. أصبحت جزءًا أساسيًّا من مناهج المدارس الثانوية والجامعية في البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية. كما تمت ترجمتها إلى أغلب لغات العالم. بطل الرواية هولدن كولفيلد أصبح نموذجًا للمراهق المتمرد عَلَى مجتمعه. اختيرت الرواية بواسطة مجلة التايم ضمن 100 أفضل رواية مكتوبة بالإنجليزية من العام 1923 إلى 2005. وبواسطة مجلة المكتبة الحديثة وقرَّائها ضمن 100 أفضل رواية إنجليزية في القرن العشرين. وأثارت جدلًا ورفضًا في الولايات المتحدة بسبب استخدامها السافر للألفاظ النابية والإباحية. (المترجم).

5 ـ العراب أو الأب الروحي رواية لماريو بوزو سنة 1969 عن شخصية لرئيس مافيا إيطالية في أمريكا اسمه دون فيتو كورليوني. تعتبر من الروائع الأدبية الَّتِي شهدتها البشرية، وقيل إنَّه عكف عَلَى كتابتها في مدة تتراوح بين ست وسبع سنوات، تم تحويل الرواية إلى فيلم العراب الذي يتكون من ثلاثة أجزاء أخرجه فرانسيس فورد كوبولا وحاز عَلَى عدد كبير من الجوائز السينمائية المهمَّة. (المترجم).

6 ـ فيلم جريمة من إخراج مارتن سكورسيزي وبطولة هارفي كيتل وروبرت دي نيرو أنتج عام 1973. (المترجم).

7 ـ رواية صدرت عام 1975 للكاتب اس. إي. هينتون تم تحويلها إلى فيلم من إخراج فرانسيس فورد كوبولا. (المترجم).

يوم *الكلب*[1]، و*شافت في أفريقيا*[2] ـ كُلُّ ذلك تَمَّ وضعه في المحرقة الجنائزيَّة، وهو ـ الآن ـ كومةٌ مِنَ الرَّماد، يتصاعد منها دخان البلاستيك والورق، ويغشى عيني الفتى اللَّتين كانتا مليئتين فعلًا بالدُّموع.

«كُلُّ واحدٍ ينبغي أَنْ يتعلَّم درسًا»، قالت ألسانا، وهي تشعل الثِّقاب بقلبٍ مُثقَلٍ قبل عدَّة ساعاتٍ. «إما كُلُّ شيءٍ مقدَّسٌ وإما لا شيء. وإذا بدأ في إحراق أشياء الآخرين، فليخسر شيئًا مقدَّسًا أيضًا. كُلُّ إنسانٍ ينال ما هو آتٍ، عاجلًا أَوْ آجلًا.»

10 نوفمبر 1989

هوى جِدارٌ. كان ذلك شيئًا له علاقةٌ بالتَّاريخ. *مناسبةٌ تاريخيَّةٌ*. لَمْ يعرف أحدٌ حقيقةً مَنْ أقامه عَلَى التَّحديد، ولا مَنْ يهدمه ولا إنْ كان ذلك جيِّدًا، أَمْ سيِّئًا، أَمْ شيئًا آخر، ولا أحد يعرف كَمْ بلغ ارتفاعه، ولا طوله، ولا لماذا مات النَّاس في محاولة عبوره، ولا إِنْ كانوا سيتوقَّفون عَنِ الموت في المستقبل، ولكنَّه عَلَى مستوًى ثقافيٍّ الأمر نفسه، ذريعةٌ جيدةٌ لمناسبةٍ اجتماعيَّةٍ مثل سواها. كانت أمسية يوم ثلاثاءٍ، قامت ألسانا وكلارا بالطَّهي، والجميع يشاهدون التَّاريخ في التِّليفزيون.

«مَنْ يريد المزيد مِنَ الأرز؟»

رفع مِلَّة وأَيرِي صحنيهما، متصارعَين عَلَى موقع الصدارة.

«ما الَّذي يحدث الآن؟» سألت كلارا، وهي تُهرع إِلَى مقعدها من جديدٍ بإناءٍ مِنَ الفطائر الجامايكيَّة، الَّذي اختطفت منه أَيرِي ثلاث قطعٍ.

«نفس الشَّيء، يا رجل،» تذمَّر مِلَّة. «نفس الشَّيء. نفس الشَّيء. نفس الشَّيء. يرقصون عَلَى الجِدار، ويحطِّمونه بالمطارق. أَيًّا كان. أريد أَنْ أرى ما الَّذِي يُعرض أيضًا، نعم؟»

اختطفت ألسانا الرِّيموت كونترول وانحشرت بين كلارا وآرشي. «إِيَّاك أَن تجرؤ، يا سيِّد.»

1 ـ فيلم جريمة أمريكي أنتج عام 1975 من إخراج سيدني لوميت وبطولة أل باتشينو وجون كازال وكريس ساراندون. (المترجم).

2 ـ الجزء الثالث من ثلاثية أفلام للسود (1973) لعب بطولتها الممثل ريتشارد راوندتري في شخصية شافت من إخراج جون جيلرمن. السلسلة بدأت عام 1971. (المترجم)

«إنَّه أمرٌ تربويٌّ»، قالت كلارا عامدةً، ودفترها وأوراقها عَلَى ذراع المقعد، تنتظر أَنْ تقفز للتَّصرُّف مع أَيِّ اقتراحٍ لأَيِّ شيءٍ تثقيفيٍّ. «إنَّه ذلك النَّوع مِنَ الأشياء الَّتِي ينبغي لنا جميعًا أَنْ نشاهده.»

أومأت ألسانا وانتظرت عَلَى قطعتي باجي غريبتي الشَّكل حتَّى تنزلقا في حلقها. «ذلك ما أحاول أَنْ أُخبر هذا الولد به. أمورٌ مهمَّةٌ. مناسبةٌ تاريخيَّةٌ مهمَّةٌ جدًّا. عندما يتعلَّق إقبالك الصَّغير في بنطلونك ويسألك أين كنتَ عندما ــ»

«سأقول كنتُ في منتهى الملل أكتم الضُّراط وأشاهد التِّليفزيون.»

تلقَّى مِلَّة صفعة على رأسه بسبب «أكتم الضُّراط» وأخرى بسبب الصَّلافة في المشاعر. هزَّت أَيرِي، الَّتِي بَدَتْ بشكلٍ غريبٍ مثل الحشود عَلَى أعَلَى الجِدار في زيّها اليوميّ بشعارات حملة نزع السِّلاح النَّووي، والبنطلون المغطَّى بألوان الجرافيتي، والشَّعر المضفور، رأسها في عدم تصديقٍ حزينٍ. كانت في ذلك العمر، حيثُ أيًّا كان ما قالته فقدِ انفجر مثل عبقريَّةٍ في قرونٍ مِنَ الصَّمت. أيًّا كان ما لمسَته فهو أوَّل عملٍ مِنْ نوعه. أيًّا كان ما صدقته فَلَمْ يتشكَّل مِنَ الإيمان بَلْ تَمَّ نحتُه مِنَ اليقين. أيًّا كان ما فكَّرت فيه فهي أوَّل مرَّةٍ يتمُّ فيها التَّفكير بتلك الطَّريقة.

«تلك *تمامًا* مشكلتك، يا مِلّ. لا اهتمام بالعالم الخارجيّ. أعتقد أَنَّ هذا *رائعٌ*. إنَّهم جميعًا أحرارٌ! بعد كُلِّ هذا الوقت، ألا تظنُّ أَنَّ ذلك رائعٌ؟ أنَّه بعد سنواتٍ تحت السَّحابة السَّوداء للشِّيوعيَّة الشَّرقيَّة هم آتون إِلَى ضوء الدِّيمقراطيَّة الغربيَّة، متَّحدين،» قالت، وهي تنقل عن *الـبي بي سي* بأمانةٍ. «أفكِّر ـ بالكاد ـ أَنَّ الدِّيمقراطيَّة هي أعظم اختراعٍ بشريٍّ.»

رفعت ألسانا، الَّتِي شعرت ـ شخصيًّا ـ بأَنَّ طفلة كلارا تتحوَّل إِلَى مُطنطنةٍ بشكلٍ مستحيلٍ تلك الأيَّام، رأس سمكةٍ جامايكيَّةٍ مقليَّةٍ في احتجاجٍ. «لا، يا عزيزتي. لا تقعي في ذلك الخطأ. مقشرة البطاطس هي أعظَم اختراعٍ بشريٍّ. ذلك أَوْ مغرفة فضلات الحيوانات الأليفة.»

«ما يحتاجونه،» قال مِلَّة: «أَنْ يوقفوا التَّصرُّف بسخافةٍ بهذه المطرقة ويحضروا شيئًا ما ـ فقط ـ لكَيْ يفجِّروا الجِدار اللَّعين تمامًا، إذا لَمْ يكونوا يحبونه، هَلْ تفهمينني؟ كونوا أكثر سرعةً في الأمر؟»

«لماذا تتحدَّث هكذا؟» قاطعت أيري، وهي تقضم فطيرةً. «ذلك ليس صوتك. تبدو سخيفًا!»

«وتريدين مشاهدتهم مع الفطائر،» قال مِلَّة، وهو يربِّت عَلَى بطنه. «الضَّخمة ليست جميلةً.»

«أوه، اغرب عَنْ وجهي.»

«تعرفين،» غمغم آرشي، وهو يمضغ جناح دجاجةٍ: «لستُ متأكدًا كثيرًا مِنْ أَنَّ هذا شيءٌ جيِّدٌ فعلًا. أعني، ينبغي أَنْ تتذكَّروا، أنا وصمد، لقَدْ كُنَّا هناك. وصدِّقيني، هناك سببٌ جيِّدٌ ليتم تقسيمها إِلَى اثنتَين. فرِّق تَسُد، أَيَّتها السَّيِّدة الصَّغيرة.»

يا إلهي، يا أبي. ما الَّذِي أنت بصدده؟

«ليس بصدد أَيِّ شيءٍ،» قال صمد بحزمٍ. «أنتم أَيُّها الشَّباب تنسون لماذا تَمَّ فعل أشياء بعينها، أنتم تنسون أهمِّيَّتها. لقَدْ كُنَّا هناك. لا يفكِّر جميعنا باعتزازٍ تجاه ألمانيا الموحَّدة. لقَدْ كانت أوقاتٍ مختلفةً، أَيَّتها السَّيِّدة الصَّغيرة.»

«ما الخطأ في حشدٍ مِنَ الناس يصنعون بعض الضَّجيج بخصوص حرِّيَّتهم؟ انظر إليهم. انظر إِلَى كم *سعداء* هم.»

نظر صمد إِلَى النَّاس السُّعداء يرقصون عَلَى الجِدار وشعر بالإهانة وأزعجه شيءٌ بشكلٍ أكبر وراء الأمر، بما قَدْ يكون الغيرة.

«ليس أَنَّنِي أختلف مع أعمال التَّمرُّد في ذاتها. الأمر - ببساطة - أَنَّه إذا كنت في سبيلك إِلَى قلب نظامٍ قديمٍ، فعليك أَنْ تكون واثقًا أَنَّه يمكنك أَنْ توفِّر شيئًا جوهريًّا ليحلَّ محلَّه؛ هذا ما تحتاج ألمانيا إِلَى فهمه. وعَلَى سبيل المثال، خذي جدِّي العظيم، مانجال باندي ــ»

تنهَّدت أيري التَّنهيدة الأكثر بلاغةً الَّتِي تنهَّد بها أحدهم عَلَى الإطلاق. «أُفضِّل ألَّا أفعل، إذا كان الأمر كُلُّه هو ذات الأمر.»

« أيري!» قالت كلارا، لأَنَّها شعرت أَنَّها يجب أَنْ تفعل.

نفخَتْ أيري في سخَطٍ.

«حسنًا! إنَّه يواصل كما لَوْ كان يعرف كُلَّ شيءٍ. كُلُّ شيءٍ يدور دائمًا حولَه - *وأنا* أحاول الحديث عن ألمانيا الآن، اليومَ، أَرَأَهَنك،» قالت وهي تلتفت إلَى صمد: «أنَّني أعرف عنها أكثر مما تفعل. هيَّا. جرِّبني. لقَدْ ظللت أدرس طوال التِّرم. أوه، وبالمناسبة: لَمْ تكونا هناك. أنت وأبي غادرتما في 1945. هُمْ لَمْ يقيموا الجِدار حتَّى 1961.»

«الحرب الباردة،» قال صمد بحدَّةٍ، متجاهلًا إيَّاها. «إنَّهم لا يتحدَّثون عَنِ الحرب السَّاخنة مرَّةً ثانيةً. النَّوع الَّذِي كان الرِّجال يُقتلون فيه. ذلك حيثُ تعلَّمتُ بخصوص أوروبا. لا يمكن العثور عَلَى ذلك في الكتب.»

«هيه-هيه،» قال آرشي، محاولًا فضَّ الاشتباك. «أتعرف أَنَّ *نبيذ الصَّيف الماضي*[1] سيعرض خلال عشر دقائق؟ بي بي سي الثَّانية.»

«هيَّا،» استمرَّت أَيرِي، معتدلةً مِنْ ركوعها ومستديرةً لكَيْ تواجه صمد. «جرِّبني.»

«إنَّ الخليج ما بين الكتب والخبرة،» رَتَّل صمد بشكلٍ رسميٍّ، «هو محيط منعزل.»

«حسنًا. أنتما - الاثنين - تتحدَّثان بمثل هذه الحمولة مِنَ الهر—»

ولكنَّ كلارا كانت سريعةً جدًّا بصفعةٍ حول الأذن. «أيرِي!»

جلست أَيرِي من جديدٍ، ليست مهزومةً بقدر ما هي غاضبةٌ، ورفعت صوت التِّليفزيون.

> إنَّ النَّدبة الَّتِي يبلغ طولها ثمانيةً وعشرين ميلًا — أبشع رمزٍ لعالمٍ مُنقسمٍ، الشَّرق والغرب لَمْ يعد لهما معنًى منذ الآن. قليلٌ مِنَ النَّاس، مِنْ بينهم هذا المراسل التِّليفزيوني، مَنْ ظنوا أَنَّهم سيرون ذلك يحدث في حياتهم، ولكنِ الليلة الماضية، مع دقَّة منتصف اللَّيل، أصدر آلاف العالقين عَلَى جانبي الجِدار هديرًا عظيمًا، وبدأوا في التَّسرُّب عبر نقاط التَّفتيش وتسلُّق الجِدار والصعود عليه.

«غباءٌ. مشكلة هجرةٍ جماعيَّةٍ ستكون التَّالية،» قال صمد للتِّليفزيون، وهو يغمس بعض الفطائر في الكاتشَب. «لا يمكنك مجرَّد أَنْ تسمح لمليون شخصٍ بالدُّخول إِلَى بلدٍ غنيٍّ. هذه وصفةٌ لكارثةٍ.»

1 - مسلسل بريطاني ينتمي إلى كوميديا البلاتوه الواحد (سيت كوم)، بدأ عرضه في 1973. (المترجم).

«ومن يظنُّ نفسه؟ السَّيِّد تشرشل؟» ضحكت ألسانا بازدراءٍ. «منحدرات وايت كليف[1] الأصليَّة، أَمِ الفطائر والعصيدة[2]، أَمْ هلام الأنقليس[3]، أَمْ مهرجان المنوَّعات الملكيَّة[4]، أَمْ فريق المصارعة البريطانيِّ بولدوج[5]، هاه؟»

«ندبةٌ،» قالت كلارا مدوِّنةً ذلك. «هذه هي الكلمة الصَّحيحة، أليس كذلك؟»

«*يا إلهي*. ألا يمكن لأيٍّ منكم أَنْ يدرك مدى ضخامة ما يحدث هنا؟ هذه هي الأيَّام الأخيرة لنظامٍ. نهاية العالم السِّياسيَّة، والانهيار. إنَّه حدثٌ تاريخيٌّ.»

«هذا ما يواصل الجميع قوله،» قال آرشي، وهو يقلِّب في *ملحق التِّليفزيون مِنْ مجلَّة تايمز*. «ولكنْ ماذا بخصوص الكريبتون *فاكتور*[6]، في آي تي في؟ إنَّه جيِّدٌ دائمًا، هه؟ إنَّه يعرض الآن.»

«وتوقَّف عَنْ قولِ تاريخيٍّ مستخدمًا أداة التنكير an»، قال مِلَّة، مُتحفِّظًا تجاه كُلِّ الكلام السِّياسيِّ الطَّنان. «لماذا لا يمكنك مجرَّد أَنْ تستخدم a كما يفعل جميع الآخرين، يا رجل؟ لماذا ينبغي دائمًا أَنْ تكون مُتكلِّفًا؟»

«أوه، بحقِّ اللَّعنة!» (تحبُّه، ولكنَّه كان *مستحيلًا*). «ماذا قدْ يمكن أَنْ يكون الفارق القذر الَّذي يحدثه هذا؟»

نهض صمد مِن مقعده. «أَيري! هذا منزلي وأنتِ مازلت ضيفةً. أنا لَنْ أسمح بهذه اللُّغة فيه!»

«حسنًا سآخذها إِلَى الشَّوارع مع البقيَّة مِنَ البروليتاريا.»

---

1 ـ منحدرات بريطانية شهيرة تشكل جزءًا من الساحل البريطاني في منطقة دوفر وهي معلم سياحي بريطاني شهير. (المترجم).

2 ـ طعام الطبقة العاملة التقليدي في لندن، عرف في شرق لندن بالأساس، وتعد محلات الفطائر والعصيدة من معالم لندن منذ القرن 19. (المترجم).

3 ـ وجبة بريطانية معروفة منذ القرن الـ18، تتكون من قطع ثعبان البحر المغلية والمتبلة، والَّتي تترك لتبرد وتأخذ شكل الهلام. (المترجم).

4 ـ مهرجان بريطاني سنوي يشارك فيه الأعضاء الرئيسيين في الأسرة المالكة البريطانية، ويعد أحد أهم الأحداث السياحية في بريطانيا. (المترجم).

5 ـ فريق مصارعة محترفين بريطاني اشتهر في الثمانينيات، ويصنف ضمن أهم فرق المصارعة في التاريخ. (المترجم).

6 ـ برنامج مسابقات تليفزيوني بريطاني شهير. (المترجم).

«تلك الفتاة،» تعجبت ألسانا بينما كان بابها الأمامي يُغلق بشدَّةٍ. «ابتلعت موسوعةً وبالوعةً في الوقت نفسه.»

طقطق مِلَّة بلسانه في وجه أُمِّه. «لا تبدأ ذلك، *يا رجل*. ما الخطأ في استخدام a قبل موسوعة؟ لماذا يمارس كُلُّ مَنْ في هذا البيت نوعًا مِنَ الادِّعاء اللَّعين؟»

أشار صمد نحو الباب. «حسنًا، أيُّها السَّيِّد. لا تتحدَّث إِلَى أمك هكذا. أنت أيضًا إِلَى الخارج.»

«لا أظنُّ،» قالت كلارا بهدوءٍ، بعد أنْ هرع مِلَّة إِلَى غرفته، «أنَّنا ينبغي أَنْ نثبِّط الأطفال عَنْ أَنْ يكون لديهم رأيٌ. مِنَ الجيِّد أَنْ يكونوا مفكِّرين ـ أحرارًا.»

تهكَّم صمد: «وما الَّذِي تعرفينه؟ أنتِ تمارسين قدرًا كبيرًا مِنَ التَّفكير الحرِّ؟ في المنزل طوال اليوم، تشاهدين التِّليفزيون؟»

«*عفوًا*؟»

«مع احترامي: العالم معقَّدٌ، يا كلارا. إذا كان هناك شيءٌ وحيدٌ يحتاج هؤلاء الأطفال لفهمه فهو أَنَّ المرءَ يحتاجُ إِلَى قواعد للبقاء، لا إِلَى *توهُّمات*.»

«إنَّه محقٌّ، أنتِ تعرفين،» قال آرشي بجدِّيَّةٍ، وهو ينفض سيجارةً في وعاء كاري فارغٍ. «مسائل عاطفيَّة ـ ثُمَّ نعم، هذا هو القسم الخاصُّ بكِ ـــ»

«أوه ـ أعمالٌ نسائيَّةٌ!» ناحت ألسانا، بفمٍ ممتلئٍ بالكاري. «شكرًا كثيرًا لك، يا آرشيبالد.»

بذل آرشي جهدًا لكَيْ يواصل. «ولكنْ لا يمكنك هزيمة الخبرة، هَلْ يمكنك؟ أعني ـ أنتما الاثنتين ـ أنتما امرأتان شابَّتان ما زلتما، بطريقةٍ ما. في حين *أنَّنا*، أقصد، نحن، مثل آبارٍ مِنَ الخبرة يمكن للأطفال أَنْ يستغلوها، تعرفون، عندما يشعرون بالحاجة. نحن نشبه الموسوعات. أنتما لا يمكنكما فعلًا أَنْ تقدِّما لهم ما نستطيع. بكُلِّ إنصافٍ.»

وضعت ألسانا راحتها عَلَى جبين آرشي ومسَّدته بخفَّةٍ. «أنت *يا أحمق*. ألا تعرف أَنَّك مُهمَلٌ مثل العربة والأحصنة، مثل الشَّمع؟ ألا تعلم أَنَّك بالنِّسبة إليهم مسنٌّ وكريه الرَّائحة مثل ورقة سمك وبطاطس الأمس؟ إنِّني لأتَّفق مع ابنتك في مسألةٍ واحدةٍ مهمَّةٍ.» وقفت ألسانا، تتبع كلارا، الَّتِي غادرت مع تلك الإهانة الأخيرة، ومضت بين دموعها إِلَى المطبخ. «لَأنَّكما أَيُّها السَّيِّدان تمنحان أهميةً كبيرةً لما تعرفانه فقط.»

متروكَين وحدهما، أقرَّ آرشي وصمد بهجران العائلتين بنظرتين متبادلتين، وابتسامات ساخرةٍ. جلسا في هدوءٍ لوهلةٍ، بينما كان إبهام آرشي يتنقّل عَلَى الرِّيموت كنترول بمهارةٍ عبر *مناسبةٍ تاريخيَّةٍ*، و*دراما تاريخيَّةٍ تمَّ تنفيذها في جيرسي*، و*رجلين يحاولان بناء طوفٍ في ثلاثين ثانيةً*، و*ستوديو يناقش الإجهاض*، و*مرَّة أخرى لمناسبةٍ تاريخيَّة مِنْ جديدٍ*.

نقرة.

نقرة.

نقرة.

نقرة.

نقرة.

«المنزل؟ الحانة؟ أوكونيل؟»

أوشك آرشي عَلَى بلوغ جيبه لأجل عشرة بنساتٍ لامعةٍ عندما لاحظ أنَّه ليسَت هناك حاجةٌ لذلك.

«أوكونيل.» قال آرشي.

«أوكونيل.» قال صمد.

الفصل العاشر

القنوات الجذريَّة لمانجالباندي

أخيرًا، أوكونيل. حتمًا، أوكونيل - ببساطة - لأنَّه يمكنك أنْ تكون بدون عائلةٍ في أوكونيل، بدون ممتلكاتٍ أوْ مركزٍ، بدون مجدٍ سابقٍ أوْ أملٍ مستقبليٍّ - يمكنك أنْ تدلف عبر ذلك الباب بدون أيِّ شيءٍ وأنْ تكون مثل أيِّ شخصٍ آخر موجودٍ هناك تمامًا. يمكنها أنْ تكون 1989 في الخارج، أوْ 1990، أوْ 2009، ويمكنك مازلت أنْ تكون جالسًا عَلَى الطَّاولة في صدريتك مثلَّثة الرَّقبة الَّتي ارتديتها في زفافك في 1975، أوْ 1945، أوْ 1935. لا شيء يختلف هنا، الأشياء يعاد قولها فقط، ويعاد تذكُّرها. لهذا يحبها كبار السِّنِّ.

الأمر يتعلَّق دائمًا *بالوقت*. ليس بديموته فقط ولكنْ بنقائه أيضًا، بكمِّيَّته الصَّافية. الكم الأكثر جودة منه. إنَّه أمر يصعب شرحه. لَوْ كانت هناك معادلةٌ ما، فقط... شيءٌ ما مثل:

$$\frac{\text{الوقت الذي تمَّ قضاؤه هنا}}{\text{الوقت الذي كان يمكن أن تقضيه في شيء مفيد في مكانٍ آخر}} \text{ الاستمتاع} \times \text{المازوشية} = \text{السبب في أنَّني من المنتظمين}$$

شيءٌ ما للاسترشاد به، للشَّرح، لماذا يستمرُّ المرء في العودة، كحفيد فرويد مع لعبته «*ضاع هناك*»[1]، إلَى نفس السيناريو البائس. ولكنَّ *الوقت* هو كُلُّ ما تبلغه. بعد أنْ تكون قَدْ أنفقتَ قدرًا معيَّنًا، واستثمرتَ الكثير جدًّا منه في مكانٍ واحدٍ، يزدهر

1 - يناقش فرويد حالة طفل، كانت أمه تتغيب عنه بشكل دائم، وكانت لعبته الأساسية هى أن يلقي بالأشياء التى ينالها بعيدًا، حتَّى يعيدها له الآخرون، فرويد قال إن هذه اللعبة «ذهب/ ضاع هناك» كانت تمثيلًا لغياب الأم، هذا الأمر الذي كان يؤلمه - عَلَى غير ما يبدى - فكأنه بإلقائه الأشياء بعيدًا كان ينتقم لغياب أمه، وكأنه يقول لها: اذهبى، فإن غيابك لا يهمنى، وكان يكرر الإلقاء والاستعادة بتلذذ، كما كان يتكرر غياب الأم وعودتها. وتعد هذه القصة المحفز الرئيسي نحو اكتشاف «مبدأ اللذة» في التحليل النفسي. (المترجم).

تصنيفك الائتمانيُّ وتشعر بأنَّك تحطِّم بنك الزَّمن. تشعر بالرَّغبة في البقاء في المكان حتَّى يسدِّد لك كُلَّ الوقت الَّذِي منحتَهِ إِيَّاهِ ـ حتَّى وإِنْ لَمْ يكنْ ليفعل أبدًا.

ومع الوقت الَّذِي يُقضى، تأتي المعرفة، ويأتي التَّاريخ. لقَدْ كان ذلك في أوكونيل عندما اقترح صمد عَلَى آرشي أَنْ يتزوَّج مِنْ جديدٍ، في 1974. وتحت الطَّاولة رقم ستَّةٍ في بركةٍ مِنْ قيئه، احتفل آرشي بولادة أَيرِي، 1975. هناك لطخةٌ في زاوية جهاز الكرة والدَّبابيس حيث أسال صمد دمًا مدنيًّا، بخطافيَّةٍ يمنى ثقيلةٍ إِلَى عُنصريٍّ سكران، 1980. وكان آرشي في الطَّابق السُّفليِّ في الليلة الَّتِي شهد فيها عيد ميلاده الخمسين يطفو عبر طوفانٍ مِنَ الويسكي ليلاقيه مثل حطام سفينةٍ قديمةٍ، 1977. وهذا هو المكان حيث جاء كلاهما، في ليلة رأس السَّنة، 1989 (لَمْ تُظهر أسرتا إقبال وجونز رغبةً في دخول التِّسعينيات في معيَّتهما)، سعيدَين بالاستفادة من صحن ميكي المقلي خصيصًا للعام الجديد: 2.85 جنيه لثلاث بيضات، والفاصوليا، ومجموعتين مِنَ الخبز المحمَّص، والفطر، وشريحةٍ سخيَّةٍ مِنْ لحم الدِّيك الرُّوميِّ الموسميِّ.

لحم الدِّيك الرُّوميُّ الموسميُّ كان علاوةً، بالنِّسبة إِلَى آرشي وصمد، وتعلَّق الأمر كُلُّه بكونهما الشَّاهدَين، بكونها الخبيرَين. جاءا إِلَى هُنا لأَنَّهما يعرفان هذا المكان. يعرفانه مِنَ الدَّاخل ومِنْ الخارج. وإذا لَمْ تستطع أَنْ تشرح لابنك لماذا سوف يتحطَّم الزُّجاج تحت مؤثِّراتٍ معيَّنة لَكِنْ ليس غيرها، إذا لَمْ تستطع أَنْ تفهم كيف يمكن إيجاد التَّوازن بين الدِّيمقراطيَّة العلمانيَّة والمعتقدات الدِّينيَّة في داخل نفس الدَّولة، أَوْ إذا لَمْ تستطع تذكُّر الظُّروف الَّتِي تَمَّ تقسيم ألمانيا خلالها، فعندها سيكون شعورًا جيدًا ـ لا، سيكون شعورًا رائعًا ـ أَنْ تعرف عَلَى الأقلِّ مكانًا واحدًا محدَّدًا، فترةً واحدةً بعينها، مِنَ التَّجربة المباشرة، وتقارير شهود العيان؛ لأَنْ تكون السُّلطة، لأَنْ يكون الوقت في صفِّك، لمرَّةٍ واحدةٍ، لمرَّةٍ واحدةٍ. لا يوجد مؤرِّخون أفضل، ولا خبراء أفضل في العالم مِنْ آرشي وصمد عندما يتعلَّق الأمر *بإعمار ما بعد الحرب ونموِّ قاعة أوكونيل للبلياردو*.

1952: يصل عليٌّ (والد ميكي) وإخوته الثَّلاثة إِلَى دوفر بثلاثين جنيهًا قديمةً وساعة جيب والدهم الذَّهبيَّة. يعانون جميعهم حالاتِ تشوُّهٍ في البشرة.

1954 ـ 1963: زيجاتٌ؛ وظائف غريبةٌ مِنْ جميع الأنواع، ولادات عبدول ـ ميكي، والخمسة عبدول، وأبناء عمومتهم.

1968: بعد العمل لمدَّة ثلاث سنواتٍ كعمَّال توصيلٍ في مغسلةٍ يوغوسلافيَّةٍ لتنظيف الملابس الجاف، يمتلك عليٌّ وإخوته مبلغًا مقطوعًا صغيرًا أسَّسوا به خدمة سيَّارات أُجرةٍ أطلقوا عليها سيَّارات أجرة عليٍّ.

1972: في طريق فنشلي تقوم المؤسَّسات الأيرلنديَّة - فقط - بالأعمال الحقيقيَّة. وعَلَى ذلك وعَلَى الرَّغم مِنْ خلفيَّته الشرق أوسطيَّة وحقيقة أنَّه يفتتح مقهًى وليس صالة بلياردو، فإنَّ عليًّا يقرّر أَنْ يحتفظ بالاسم الأيرلنديِّ الأصليِّ. يلوِّن كُلَّ التَّجهيزات بالبرتقاليِّ والأخضرِ، ويعلِّق صور أحصنة السِّباق، ويسجِّل أعماله باسم «أندرو أوكونيل يوسف». وكنوعٍ مِنَ الاحترام، شجَّعه إخوته عَلَى تعليق آياتٍ مِنَ القرآن عَلَى الجِدار، ولذا فإنَّ أعماله المختلطة ستكون «مُبارَكةً ومحفوفةً بالرِّعاية.»

13 مايو 1973: افتتاح العمل في أوكونيل.

2 نوفمبر 1974: صمد وآرشي يتعثَّران في أوكونيل في طريقهما إِلَى المنزل ويدلفان إليه لأجل صحنٍ مِنَ المقليات.

1975: عليٌّ يقرِّر أَنْ يغطي الجدرانِ بالموكيت ليحدَّ مِنْ بقع الطَّعام.

مايو 1977: صمد يكسب 15 شلنًا عَلَى آلة الفاكهة.

1979: علي يصاب بنوبةٍ قلبيَّةٍ قاتلةٍ بسبب تراكم الكوليسترول حول قلبه. المتبقُّون مِنْ عائلة علي يقرِّرون أَنَّ وفاته هي نتيجةٌ للاستهلاك الآثم لمنتجات لحم الخنزير. يمنع الخنزير مِنْ قائمة الطَّعام.

1980: سنةٌ مهمَّةٌ. عبدول - ميكي يستحوذ عَلَى أوكونيل. أسَّس غرفة مقامرةٍ تحت الأرض ليعوض المقفود عَلَى النَّقانق. وتَمَّ استخدام طاولتي بلياردو كبيرتين: طاولة «الموت» وطاولة «الحياة». كُلُّ هؤلاء الَّذِين يرغبون في اللَّعب مقابل المال يلعبون عَلَى طاولة «الموت». وكُلُّ هؤلاء الَّذِين يعارضون لأسبابٍ دينيَّةٍ أَوْ بسبب خلو جيوبهم يلعبون عَلَى طاولة «الحياة» الودِّيَّة. مخطَّطٌ لنجاحٍ كبيرٍ. صمد وآرشي يلعبان عَلَى طاولة «الموت».

ديسمبر 1980: آرشي يحقِّق أعَلَى رقمٍ تَمَّ تسجيله في نقاط لعبة الكرة والدَّبابيس: 51,998 نقطة.

1981: آرشي يعثر بلوحةٍ مفرَّغة بهيئة وصورة ڤيف ريتشاردز في أرضيَّة محل سيلفيدجز ويحضرها إِلَى أوكونيل. صمد يطلب أَنْ يضع صورة جدِّه الأكبر مانجال باندي عَلَى الجِدار. ميكي يرفض، مدَّعيًا أَنَّ «عينيه متقاربتان جدًّا معًا.»

1982: صمد يتوقَّف عَنِ اللَّعب عَلَى طاولة «الموت» لأسبابٍ دينيَّة. صمد يواصل تقديم التماسٍ لتثبيت الصُّورة.

31 أكتوبر 1984: آرشي يفوز بـ288.72 جنيه عَلَى طاولة «الموت». يشتري مجموعةً جميلةً مِنْ إطارات بيريللي لسيَّارَةٍ مستهلكةٍ.

ليلة رأس السَّنة، 1989، 10:30 مساءً: صمد يقنع ميكي أخيرًا بتعليق البورتريه. ميكي لا يزال يظنُّ أَنَّ الصُّورة «تشغل النَّاس عَنْ طعامهم.»

«مازلتُ أعتقد أَنَّها تشغل النَّاس عَنْ طعامهم. وفي ليلة رأس السَّنة الجديدة. أعتذر، يا رفيقي. بدون إهانةٍ. بالتَّأكيد فرأيي ليس كلمة الرَّبِّ القاطعة، كما كانت، ولكنَّه لا يزال رأيي.»

شبك ميكي سلكًا حول خلفيَّة الإطار الرَّخيص، ومنح الزجاج المغبَّر مسحةً سريعةً بمئزره، ووضع البورتريه عَلَى مضضٍ في مشبكه أعَلَى الفرن.

«أعني، إِنَّه يبدو بشكلٍ فظيعٍ جدًّا. ذلك الشَّارب. يبدو شخصًا صعب المراس جدًّا. وماذا عن هذا القرط؟ إِنَّه ليس شاذًّا، أليس كذلك؟»

«لا، لا، لا. لَمْ يكن غير مألوفٍ، وقتها، أَنْ يضع الرِّجال الجواهر.»

تشكَّك ميكي، ومنح صمد النَّظرة الَّتي يمنحها للنَّاس الَّذين يزعمون أَنَّهم لَمْ يحصلوا عَلَى لعبة الكرة والدَّبابيس في مقابل الـ50 بنسًا الَّتي وضعوها ويأتون بحثًا عَنْ تعويضٍ. خرج مِنْ خلف الطَّاولة ومنح الصورة نظرةً مِنْ هذه الزَّاوية الجديدة. «ماذا تظنُّ يا آرش؟»

«جيِّدٌ،» قال آرشي بثباتٍ. «أعتقد: جيِّدٌ.»

«رجاءً. سأعتبر الأمر خدمةً شخصيَّةً كبيرةً إذا سمحتَ لي أَنْ أقول ذلك.»

مال ميكي برأسه قليلًا إِلَى جانبٍ ثُمَّ إِلَى الجانب الآخر. «كما قلتُ، لا أقصد أَيَّ إهانةٍ أَوْ أَيَّ شيءٍ، أنا أقصد أَنَّه يبدو مثيرًا *للشُّبهة* نوعًا ما. أليست لديك صورةٌ أخرى له أَوْ شيءٌ ما؟»

«هذه هي الوحيدة الَّتِي نجَت. سأعتبر الأمر خدمةً شخصيَّةً عظيمةً، عظيمةً جدًّا.»

«حسنًا....» غمغم ميكي، وهو يقلب بيضةً في الهواء، «لقَدْ كنتَ منتظمًا، كما كان، وظللتَ تُلحُّ عَلَى الأمر كثيرًا جدًّا، أعتقد أَنَّنا يجب أَنْ نحتفظ بها. ماذا عَنِ استقصاءٍ عامٍّ؟ ماذا ترى، يا دينزل؟ يا كلارنس؟»

يجلس دينزل وكلارنس في زاويةٍ مثلما دائمًا، الامتياز الوحيد للَيلة رأس السَّنة هو بضع قطعٍ مِنَ البهرجة الرَّثَّة تتدلَّى مِنْ قبعة دينزل ومزمارٌ مغطًى بالرِّيش يتقاسم حيِّز فم كلارنس مع السِّيجار.

«ما هو ذاك؟»

«قلتُ: ما رأيكم بخصوص هذا الرَّجُل الَّذِي يريد صمد تعليق صورته؟ إِنَّه جدُّه.»

«جدِّي *الأكبر*»، صحَّحَ صمد.

«يمكنك أَنْ ترى أَنَّنِي ألعب الدُّومينو؟ هل تحاول أَنْ تحرم رجلًا مسنًّا مِنَ استمتاعه؟ أيَّة صورةٍ؟» استدار دينزل عَلَى مضضٍ لينظر إليها. «تلك؟ همف! لا أحبُّها. يبدو مثل أحد أفراد طاقم الشَّيطان!»

«هو مِنْ أقربائك؟» ناح كلارنس تجاه صمد بصوته النِّسوي. «هذا يفسِّر الكثير، يا صديقي!، الكثير! إنَّ لديه وجها يشبه فَرْج الأتان.»

انفجر دينزل وكلارنس في ضحكاتهما البذيئة. «يجب أَنْ أمنع بطني عَنْ هضمها، بكلِّ تأكيد!»

«ها أنتما ذا!» هتف ميكي - بانتصارٍ - واستدار إِلَى صمد. «تمنع الزبائن عَنْ طعامهم - هذا ما قلتُه بالضَّبط.»

«أكِّد لي أَنَّك لَنْ تنصت لهذين الاثنين.»

«لا أعرف....» التوى ميكي واستدار في مواجهة ما يطبخه؛ تجلب الأفكار الجادَّة دائمًا مساعدةً لا إراديَّةً مِنْ جسمه. «أنا أحترمك وما إِلَى ذلك، وأنتَ كنتَ رفيقًا لوالدي، ولكنْ - ليست قلَّة احترامٍ أَوْ أَيَّ شيءٍ - أنتَ قديمٌ جدًّا، يا رفيقي صمد، بعض الزَّبائن الأصغر سنًّا رُبَّما لا ــ»

«أَيُّ زبائن أصغر سنًّا؟» تساءل صمد، وهو يشير إِلَى كلارينس ودينزل.

«نعم، مع أخذ النُّقطة في الاعتبار... ولكنَّ الزُّبون دائمًا عَلَى حقٍّ، إذا تفهَّمت وجهة نظري.»

شعر صمد بالأسى بشكلٍ عميقٍ. «*أنا زبونٌ. أنا زبونٌ*. لقَدْ ظللتُ أجيء إِلَى مؤسَّستكم لخمسة عشر عامًا، يا ميكي. وقتٌ طويلٌ جدًّا في تقدير أيِّ رجلٍ.»

«نعم، ولكنَّها الأغلبيَّة ما يعوِّل عليه، أليس كذلك؟ عَنْ أغلب الأشياء الأخرى، سأترك الأمر ـ كما هو ـ لرأيك الشَّخصيِّ. الفتيان ينادونك بيا بروفيسور، والاستحقاقات العادلة، ليست بلا مقابلٍ. أنا أعاملك باحترامٍ، ستَّة أيامٍ كُلَّ سبعة. ولكنْ خلاصة القول هي: إذا كنتَ زُبّانًا وأراد بقيَّة طاقمك تمردًا لعينًا، حسنًا... أنت في مأزقٍ، أليس كذلك؟»

أبدى ميكي متعاطفًا حكمته تلك في مقلاته، مُظهرًا كيف أَنَّ اثنتي عشرةَ قطعةَ فطرٍ يمكن أَنْ تدفع قطعة فطرٍ واحدةً عبر الحافَّة وإلى الأرض.

مع ثرثرة دينزل وكلاريلس تتردد في أذنيه لا تزال، شقَّ تيَّارٌ مِنَ الغضب طريقه خلال صمد وارتفع إِلَى حنجرته قبل أَنْ يكون قادرًا عَلَى إيقافه.

«اعطني إيَّاها!» عَبَر الطَّاولة إِلَى حيث يتدلَّى مانجال باندي في زاويةٍ كئيبةٍ فوق الموقد. «لَمْ يكنْ ينبغي أَنْ أطلب مِنَ الأصل... سيكون ذلك عارًا، سيطرح ذِكرى مانجال باندي في *العار* أَنْ يوضع هنا في هذا ـ هذا البيت الإلحاديِّ للعار!»

«أنت ماذا؟»

«اعطني إيَّاها!»

«الآن انظر... انتظر دقيقةً ــــ»

وصل ميكي وآرشي لإيقافه، ولكنَّ صمد مع شعوره بالأسى والاكتفاء مِنَ الإهانات عَلَى مدى عقودٍ، ظَلَّ يكافح لكَيْ يتجاوز بِنْية ميكي الضَّخمة. تصارعا قليلًا، ولكنْ بعدها تراخى جسم صمد، واستسلم، وهو مغطًّى بطبقةٍ خفيفةٍ مِنَ العرق.

«انظر، يا صمد،» وهنا لمس ميكي كتف صمد في قدْرٍ مِنَ المودَّة حتَّى أَنَّ صمد شعر أَنَّه قَدْ يبكي. «لَمْ ألاحظ أَنَّه كان موضوعًا مهمًّا بالنِّسبة إليك إِلَى هذا الحدِّ. دعنا نبدأ مرَّةً أخرى. سنترك الصُّورة لمدَّة أسبوعٍ ونرى كيف يجري الأمر، هَلْ هذا جيِّد؟»

«شكرًا لك، يا صديقي.» سحب صمد منديلًا ورقيًّا ومسح به جبهته. «أنا أُقدِّر ذلك. أنا أُقدِّر ذلك.»

منحه ميكي تربيتةً تصالحيَّة بين لوحي الكتف. «مَنْ يدري، لقَدْ سمعتُ ما يكفي عنه عَلَى مدار سنواتٍ. رُبَّما ينبغي لنا أيضًا أَنْ نضعه عَلَى الجِدار اللَّعين. الأمر بالكامل هو نفس الشَّيء بالنِّسبة إليَّ، كما أفترض. هذا مثل ذاك، كما يقول الفرنسيُّون. أعني، اللَّعنة. اللَّعنة. وهذه القطعة الإضافيَّة مِنْ لحم الدِّيك الرُّوميِّ تتطلَّب عملةً صعبةً، يا آرشيبالد، أيُّها الرَّجُل الطَّيب. الأَيَّام الذَّهبيَّة لقسائم الشِّراء انتهت. عزيزي يا عزيزي، يا له مِنْ هراءٍ بخصوص لا شيءٍ.»

نظر صمد بعمقٍ في عيني جدِّه الأكبر. لقَدْ خاضا هذه المعركة مرَّاتٍ عديدةً، صمد وباندي، معركةٌ مِنْ أجل سمعة الأخير. كلاهما يعرف جيِّدًا أَنَّ الآراء الحديثة في مانجال باندي اعتمدَت عَلَى كُلٍّ من جانبي المعسكر:

بطلٌ غير معترف به	هراءٌ بخصوص لا شيء
صمد إقبال	ميكي
أ. س. ميزرا	ماجد ومِلَّة
	ألسانا
	أيري
	المنح البريطانية منذ 1857 إلى الوقت الحاضر

مرَّةً بعد أخرى ناقش اختياره مع آرشي بخصوص هذا الموضوع. عبر السَّنوات جلسا في أوكونيل، وعادا إِلَى نفس المناقشة، مع معلوماتٍ جديدةٍ أحيانًا مستقاةٍ مِنْ بحث صمد المستمر حول الموضوع - ولكنْ منذ اكتشف آرشي «الحقيقة» بخصوص باندي، حوالي عام 1953، لَمْ يكن هناك أَيُّ تغيير في رأيه. السَّبب الوحيد لشهرة باندي، كما بذل آرشي جهده في تحديده، هو هديَّته الاشتقاقيَّة للُّغة الإنجليزيَّة عَنْ طريق كلمة «باندي»، الَّتي سيكتشف القارئ تحت عنوانها في قاموس أوكسفورد للُّغة الإنجليزيَّة التَّعريف التَّالي:

> باندي/ باندي/اسم. 2 اختصار. (الآن اصمت). أيضًا ـــ دي. ال قرن19 (رُبَّما. لقب أَوَّل متمرِّدٍ ضمن الطَّبقة العُليا مِنَ الجنود الهنود في الجيش البنجالي). 1 أَيُّ جنديٍّ

هنديٌّ ثار في التَّمرد الهنديِّ في 1857 ـ 9. 2 أَيُّ متمرِّدٍ أَوْ خائنٍ 3 أَيُّ أحمق أَوْ جبانٍ في موقفٍ عسكريٍّ.

«واضحٌ مثل الشَّمس أمام وجهك، يا صديقي.» وهنا سيغلق آرشي الكتاب بعنفٍ متهلِّلٍ. «وأنا لا أحتاج إِلَى قاموسٍ لكَيْ يخبرني بذلك ـ لكنْ عندها لا تحتاجه أنتَ أيضًا. إِنَّها لغةٌ مشتَركةٌ. عندما كنتَ أنتَ وأنا في الجيش: نفس الشَّيء. لقَدْ حاولتَ أَنْ تقنعني بالأمر مرَّةً، ولكنَّ الحقيقة دائمًا سوف تُعرف، يا رفيق. باندي تعني ـ دائمًا ـ شيئًا واحدًا. إذا كنتُ في مكانك، سأبدأ في الاهتمام بالرَّوابط العائلية، بدلًا مِنَ الانحناء عَلَى أذن كُلِّ شخصٍ أربعًا وعشرين ساعةً في كُلِّ يومٍ لعينٍ.»

«يا آرشيبالد، مجرَّد أَنَّ الكلمة موجودةٌ، فذلك لا يترتَّب عليه أَنَّها تمثيلٌ صحيحٌ لشخصيَّة مانجال باندي. التَّعريف الأوَّل الَّذِي نتَّفق عليه: أَنَّ جدِّي الأكبر كان متمرِّدًا وأنا فخورٌ بأَنْ أقول هذا. أنا أُسلِّم بأَنَّ الأمور لَمْ تذهب تمامًا وفق الخطَّة. ولكنْ خائنٌ؟ جبانٌ؟ القاموس الَّذِي تعرضه لي قديمٌ ـ تلك التَّعريفات خارج التَّداول الآن. باندي ليس خائنًا ولا جبانًا.»

«آه، الآن، أنتَ ترى، لقَدْ خضنا في هذا الأمر، واعتقادي هو التَّالي: *لا دخان بلا نارٍ*،» كان آرشي ليقول ذلك، وهو يبدو متأثِّرًا بحكمة استنتاجه الخاص. «تعرف ما أعنيه؟» هذه واحدةٌ مِنْ أدوات آرشي التَّحليليَّة المفضَّلة عندما يواجه القصص الإخبارية، والحوادث التَّاريخيَّة، والعمليَّة الصَّعبة لفصل الحقيقة عَنِ الخيال يومًا ـ إثر ـ يومٍ. *لا يوجد دخانٌ بلا نارٍ*. هناك شيءٌ قابلٌ للطَّعن في الطَّريقة الَّتِي اعتمد فيها عَلَى تلك القناعة، حتَّى أَنَّ صمد لَمْ يملك قلبًا لكَيْ يحرِّره منها. لماذا ينبغي أَنْ تخبر رجلًا مسنًّا أَنَّه يمكن أَنْ يكون هناك دخانٌ بلا نارٍ تمامًا كما أَنَّ هناك ـ بالتَّأكيد ـ جروحًا عميقةً لا ينجم عنها أَيُّ دمٍ؟

«بالتَّأكيد. أرى وجهة نظرك، يا آرشي، فعلًا. لكنَّ وجهة نظري، وهي دائمًا هكذا، منذُ المرَّة الأولى الَّتِي ناقشنا فيها الموضوع؛ وجهة نظري هي أَنَّ هذه ليسَت القِصَّة الكاملة. ونعم، أنا ألاحظ أَنَّنا حقَّقنا في الأمر بدقَّةٍ عدَّة مرَّاتٍ، ولكنَّ الحقيقة تظلُّ هي: القصص الكاملة نادرةٌ تمامًا مثلما الصِّدق، وثمينةٌ مثل الألماس. إذا كنتَ محظوظًا بما فيه الكفاية لاكتشاف واحدةٍ، فإِنَّ قصَّةً كاملةً ستبقى في دماغك مثل رصاصةٍ. إِنَّها

صعبةٌ. إنَّها ممتدَّةٌ. إنَّها ملحمةٌ. تشبه القصص الَّتي يرويها الله: مليئةٌ بالمعلومات المحدَّدة المستحيلة. لا يمكنك أَنْ تجدها في القاموس.»

«حسنًا، حسنًا، يا بروفيسور. دعنا نسمع *نسختكَ* مِنَ القصَّة.»

كثيرًا ما ترى رجالًا كبارَ السنِّ في زاوية الحانات المظلمة، يناقشون ويتساءلون، مستخدمين أكواب البيرة والملَّاحات لكَيْ تمثِّل بشرًا ماتوا منذ زمنٍ طويلٍ، وفي أماكن بعيدةٍ. في تلك اللَّحظة هم يكشفون عَنْ كثيرٍ مِنَ الحيويَّة المفقودة في كُلِّ منطقةٍ أخرى مِنْ حياتهم. إنَّهم يضيئون. هُم يُفرغون قِصَّة كاملةً عَلَى الطَّاولة - هُنا تشرشل - شوكةٌ، هناك تشيكوسلوفاكيا - منديلٌ، وهنا نجد جحافل القوَّات الألمانيَّة ممثَّلةً بمجموعةٍ مِنَ البازلاء الباردة - إنَّهم يولدون مِنْ جديدٍ. لَكِنْ عندما كانت لدى آرشي وصمد مناقشاتٌ فوق تلك الطَّاولة خلال الثَّمانينيات، لَمْ تكن السَّكاكين والشُّوَك كافيةً. فالصَّيف الهنديُّ المشبع بالرُّطوبة بالكامل مِنْ عام 1857، وكُلُّ ما يتعلَّق بالتَّمرد والمجزرة في ذلك العام سوف تُسحب إِلَى أوكونيل ويتمُّ إحضارها إِلَى الوعي الغائم من خلال هذين المؤرِّخَين المؤقَّتَين. تحوَّلت المنطقة الَّتي تمتدُّ مِنْ جهاز الموسيقى إِلَى آلة الفاكهة إِلَى دلهي؛ وامتثل ڤيڤ ريتشاردز صامتًا إِلَى دور هيرساي قائد باندي المتفوِّق؛ وواصل كلارينس وديزل لعب الدُّومينو وهما يمثِّلان في الوقت نفسه مثل البَقيَّة حشود الجنود الهنود المتململين في الجيش البريطانيِّ. أحضر كُلُّ رجل جزءًا مِنْ أُحجيته وصَفَّها، وجمعها أمام الآخر لكَيْ يراها. أُعدَّت المشاهد. وتَمَّ تتبع مسارات الرُّصاص. وساد الخلاف.

بحسب الأسطورة، فخلال ربيع 1857 في مصنع دوم - دوم، دخل نوعٌ جديدٌ مِنَ الرُّصاص البريطانيِّ إِلَى الإنتاج. تَمَّ تصميمه لكَيْ يُستخدم في البنادق البريطانيَّة مِنْ قِبَلِ الجنود الهنود، ومثل معظم الرَّصاصات في ذلك الوقت كان يجب عضّها لكَيْ تناسب فوَّهة البندقيَّة. لَمْ يبدُ شيءٌ استثنائيٌّ بخصوصها، حتَّى اكتشف عامل مصنعٍ متشكِّكٌ أَنَّها مغطاةٌ بالشَّحم - شحمٍ مصنوعٍ مِنْ دهن الخنازير المُستبشَع بالنِّسبة إلى المسلمين، ودهن البقر، المقدَّس عند الهندوس. كان ذلك خطأً بريئًا - بقدر ما أيُّ شيءٍ بريءٌ في الأراضي المُستلَبة - حماقةٌ بريطانيَّةٌ مُخزيةٌ. لَكِنْ يا له مِنَ اضطرابٍ محمومٍ لا بُدَّ أَنَّه اجتاح النَّاس بمجرَّد سماع الأخبار! تحت الذَّريعة الخادعة بتسليحٍ جديدٍ، يسعى الإنجليز إِلَى تدمير طائفتهم، وشرفهم، ومكانتهم في أعين الآلهة والبشر، وكُلِّ شيءٍ - باختصارٍ - يجعل الحياة تستحقُّ أَنْ تعاش. لَمْ يمكن لشائعةٍ كهذه أَنْ تظلَّ

سِرًّا: انتشرت كالنَّار في الهشيم عبر الأراضي الجافَّة للهند في ذلك الصيف، مِنْ خط الإنتاج، خارجةً إِلَى الشَّوارع، عبر بيوت البلدة وأكواخ الرِّيف، مِنْ ثكنةٍ إِلَى ثكنةٍ، حتَّى اشتعل البلد كاملًا بالرَّغبة في التَّمرُّد. وصلَت الشَّائعة إِلَى الأذنين الكبيرتَين القبيحتَين لمانجال باندي، مجنَّدٌ هنديٌّ غير معروفٍ في البلدة الصَّغيرة مِنْ باراكبور، خَطَرَ في ساحة استعراضه - 29 مارس، 1857 - متقدِّمًا أمام الحشد لكَيْ يصنع نوعًا محدَّدًا مِنَ التَّاريخ. «يُظهر نفسه في مظهر الأحمق، بالأحرى،» سيقول آرشي (لأنَّه في هذه الأيَّام لا يتقبل «البانديولوجيا[1]» بنفس الحماقة الَّتي فعل بها ذلك ذات مرَّةٍ).

«أنت تسيء فهم تضحيته تمامًا،» سيردُّ صمد.

«أيَّة تضحيةٍ؟ لَمْ يستطع حتَّى قتل نفسه بطريقةٍ صحيحةٍ! المشكلة معكَ، يا سام، أنَّك لَنْ تُنصت للقرائن. لقَدْ قرأتُ عَنِ الموضوع بالكامل. الحقيقة هي الحقيقة، مهما كان مذاقها مُرًّا.»

«حقًّا. حسنًا، رجاء، يا صديقي، ما دمت خبيرًا، عَلَى ما يبدو، في أفعال عائلتي، رجاءً، أَنِرْني. دعنا نسمع نسختك مِنَ القصَّة.»

الآن، يدرك الطَّالب المتوسِّط هذه الأيَّام القوى، والحركات، والتَّيَّارات العميقة المعقَّدة الَّتي تحفِّز الحروب وتطلق شرارات الثَّورات. ولكنْ عندما كان آرشي في المدرسة بدا العالم أكثر انفتاحًا عَلَى مخيِّلته بشكلٍ بعيدٍ. كان التَّاريخ شأنًا مختلفًا وقتها: تعلَّم بعينٍ عَلَى الحكاية، والأخرى عَلَى الدِّراما، بغضِّ النَّظر عَنْ كَمِ الأمر غير مرجح أَوْ غير دقيق زمنيًّا. ووفقًا لهذا المخطط، فقد بدأت الثَّورة الرُّوسيَّة؛ لأَنَّ الجميع كانوا يكرهون راسبوتين. والإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة انحسَرت وسقطت؛ لأَنَّ أنتوني كان يمارس الجنس مع كليوباترا. وانتصر هنري الثامن في أجينكور؛ لأَنَّ الفرنسيِّين كانوا مشغولين جدًّا بالإعجاب بأزيائهم. والتَّمرُّد الهنديُّ العظيم في 1857 بدأ عندما أطلق معتوهٌ مخمورٌ يدعى مانجال باندي رصاصةً. وعَلَى الرَّغم مِنْ معارضة صمد، في كُلِّ مرَّةٍ يقرأ آرشي التَّالي وهو يجد نفسه أكثر اقتناعًا:

> المشهد هو باراكبور، والتَّاريخ 29 مارس 1857. إنَّه ما بعد ظهيرة الأحد؛ ولكن عَلَى الأرضيَّة المتربة لساحة العرض تتمُّ تهيئة دراما توحي بأَيِّ شيءٍ باستثناء

1 - اشتقاق من اسم باندي كنمط مميز للشخصية وسماتها العامة أو نسق منهجي عام. (المترجم).

السُّبوت[1]. ثرثراتٌ وأرجحاتٌ ودوَّاماتٌ لخليطٍ مِنَ المجنَّدين الهنود المشوَّشين، في كُلِّ مراحل ارتداء وخلع الملابس؛ بعضهم يحملون السِّلاح، وبعضهم غير مسلَّحين؛ ولكنَّ الجميع مخمورون بالاستمتاع. عَلَى بُعد ثلاثين ياردةً في مقدِّمة خطِّ الاستعراض الـ 34 جيئةً وذهابًا هناك مجنَّدٌ هنديٌّ يدعى مانجال باندي. نصف مخمورٍ بالبانج[2]، ومخمورٌ بالكامل بالتَّعصُّب الدِّينيِّ. بذقنٍ مرتفعةٍ في الهواء، وبندقيَّةٍ مذخَّرة قديمةٍ في اليد، يتبختر للأمام وللخلف، في نصفٍ رقصة نوعًا ما، يصرخ في أداء أنفيٍّ حادٍّ ورتيبٍ: «اخرجوا، أيُّها الحقراء! اخرجوا، جميعكم! الإنجليز يعتلوننا. بسبب عضِّ تلك الخراطيش سوف نصبح جميعنا كُفَّارًا!»

الرَّجُل، في الحقيقة، في تلك الحالة مِنَ اختلاط البانج مع «الأعصاب» الَّتِي تجعل المالاوي مسعورًا[3]؛ تنطلق كُلُّ صرخةٍ مِنْ بين شفاهه مثل لهبٍ مفاجئ عبر العقول وعبر أعصاب الحشد المنصت مِنْ زملائه المجنَّدين، وبينما يتعاظم الحشد، تصبح الإثارة أكثر كثافةً. وبكلمةٍ واحدةٍ، يوشك مخزنٌ بشريٌّ للذَّخيرة، عَلَى الانفجار.

والانفجار حدث. أطلق باندي النَّار عَلَى مُلازمه وأخطأه. ثُمَّ شهر سيفًا كبيرًا، تولوار[4]، واندفع في جبنٍ وظهر ملازمه له، وأمسك به مِنَ الكتف. حاول مجنَّدٌ هنديٌّ كبح جماحه، ولكنَّ باندي واصل القتال. ثُمَّ جاءت تعزيزاتٌ: هرع القائد هيرساي إِلَى الأمام، وابنه بجانبه، الاثنان مسلَّحان وشريفان وعَلَى استعدادٍ للموت في سبيل بلدهما. («هيرساي[5] هو ـ تحديدًا ـ ما عليه الأمر! بلا فائدةٍ. تلفيقٌ!») عند تلك النُّقطة رأى باندي أَنَّ اللُّعبة انتهت، صوَّب بندقيَّته الضَّخمة نحو رأسه، وسحب الزِّناد في دراماتيكيَّةٍ بقدمه اليُسرى. وأخطأ. بعد أيَّامٍ قليلةٍ، حوكم باندي ووُجد مُذنبًا. مِنَ الجانب الآخر مِنَ البلاد، عَلَى أريكةٍ طويلةٍ في دلهي، صدر الأمر بإعدامه مِنْ قِبَل الجنرال هنري هافلوك[6] (رجلٌ تَمَّ تكريمه، الأمر الَّذِي يثير الكثير مِنْ غضب صمد، بتمثالٍ خارج مطعم القصر

1 ـ يوم الراحة أو العبادة الأسبوعي في الديانات الإبراهيمية، وهو يختلف من ديانة إلى أخرى. (المترجم).

2 ـ شراب كحولي هندي يتم إعداده من أوراق وزهور نبات القنب. (المترجم).

3 ـ التعبير من اللغة الماليزية، ويقصد بها الوصول إلى حافة الجنون. (المترجم).

4 ـ نوع من السيوف المقوسة معروف في جنوب آسيا: الهند وباكستان وأفغانستان ونيبال. (المترجم).

5 ـ يعني اسم هيرساي «الشائعة» وفي الجملة تستخدم الكاتبة اسم القائد البريطاني ودلالة معناه بنوع من الاستعارة المجازية. (المترجم).

6 ـ السير هنري هافلوك (5 أبريل 1795 ـ 24 نوفمبر 1857) كان عسكريًا بريطانيًا ارتبط بالهند بشكل خاص وبالقبض عليه في كانبور من قِبل المتمردين خلال التمرد الهندي في 1857. تم تكريمه بنصب تمثال له في ساحة الطرف الأغر في لندن. (المترجم).

بالكاد، بالقرب مِنْ ميدان ترافالجار، إِلَى اليمين مِنْ نيلسون[1])، والَّذِي أضاف ـ في تذييل تعليماته المكتوبة ـ أنَّه يتمنَّى أَنْ يضع ذلك حدًّا لكل الحديث المتلاحق عَنِ التَّمرُّد الَّذِي استمرَّ المرء في سماعه مُؤَخَّرًا. ولكنَّ ذلك كان متأخِّرًا جدًّا. ففي الوقت الَّذِي تأرجح فيه باندي في الهواء القائظ، متدلِّيًا مِنْ حبل المشنقة البدائيَّة، توجَّه رفاقه المسرَّحون مِنَ الفرقة 34 نحو دلهي، عازمين عَلَى الانضمام إِلَى قوَّات المتمرِّدين فيما سيصبح واحدًا من أعنف حركات التَّمرُّد الفاشلة في هذا القرن وأيِّ قرنٍ.

هذه الرِّواية للأحداث ـ مِنْ قِبَل مؤرِّخٍ معاصرٍ يدعى فيتشيت[2] ـ تكفي لكَيْ ترسل صمد إِلَى تشنُّجات مِنَ الغضب. عندما لا يكون لدى المرء شيءٌ سوى دمه لكَيْ يمجِّده، فكُلُّ قطرةٍ منه تهمُّ، تهمُّ بشكلٍ رهيبٍ؛ وينبغي الدِّفاع عنها بغيرةٍ. ينبغي حمايتها ضدَّ المهاجمين والمنتقِدين. ينبغي القتال مِنْ أجلها. ولكنْ مثل همسةٍ صينيَّةٍ[3]، فإِنَّ باندي المخمور، غير الكفء برواية فيتشيت مرَّ عبر خطٍّ مِنَ المؤرِّخين المتلاحقين، وكانت الحقيقة تتحوَّر وتنحني وتنحسر ما دام الهمس مستمرًّا. لَمْ يكن مُهمًّا أَنَّ البانج، شراب القُنَّب الَّذِي يؤخذ في جرعاتٍ صغيرةٍ لأغراض طبِّيَّةٍ، مِنْ غير المرجَّح إطلاقًا أَنْ يسبِّب تسممًا مِنْ هذا النَّوع أَوْ أَنَّ باندي، كهندوسيٍّ صارمٍ، مِنْ غير المرجح عَلَى الإطلاق أَنْ يشربه. لَمْ يكن مهمًّا أَنَّ صمد لَمْ يستطع أَنْ يعثر عَلَى جزءٍ واحدٍ مِنْ دليلٍ يؤيِّد أَنَّ باندي تناول البانج في ذلك الصَّباح. فالقصة لا تزال معلَّقة، مثل خطأٍ هائلٍ في الاقتباس، بسمعة إقبال، بنفس قوة وثبات الاعتقاد الخاطئ بأَنَّ هاملت قال على الإطلاق إِنَّه كان يعرف يوريك[4] «جيدًا.»

1 ـ هوراشيو نيلسون (29 سبتمبر 1758 ـ 21 أكتوبر 1805): نائب أدميرال إنجليزي. اشتهر بمشاركته في معركة النيل (معركة أبي قير البحرية، بين القوات البحرية الإنجليزية بقيادة نلسون والأسطول الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت على شواطئ خليج أبو قير المصري، وانتهت بهزيمة الفرنسيين ونتائجها اعتُبرت ثورة في التكتيك البحري، الفرنسيون أضاعوا الوقت فضاعت فرصة النصر)، ومعركة الطرف الأغر، يعد أحد أبرز القادة العسكريين في تاريخ المعارك، وفقد إحدى عينيه في معركة النيل. (المترجم).

2 ـ وليام هنري فيتشيت (1841 ـ 1928) رجل دين وكاتب وتربوي بريطاني. من مؤلفاته «معارك من أجل العَلَم» و«عالم الجنوب الجديد ـ أستراليا خلال النشأة» و«قصة التمرد العظيم». (المترجم).

3 ـ لعبة مشهورة تعتمد عَلَى رواية قصة همسًا من شخص إلى آخر، يقوم الثاني بروايتها همسًا إلى ثالث مع تغيير في أحداثها، وهكذا. الأمر الذي يصل في النهاية إلى قصة مختلفة بالكلية عن أول رواية لها. وهي لعبة ذائعة الصيت تمارس تحت مسميات مختلفة أشهرها اسم «التليفون» في الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

4 ـ شخصية خيالية في مسرحية وليام شكسبير هاملت. وهو مهرج البلاط القتيل الذي تم نبش قبره من قبل حفار القبور. يقول هاملت في افتتاحية المشهد الخاص بنبش قبره: يا للأسى، المسكين يوريك! إِنَّني أعرفه. والمقصود أن معظم الاقتباسات للافتتاحية تقول: يا للأسى، المسكين يوريك! إِنَّني أعرفه «جيدًا». (المترجم).

«يكفي! لَنْ يصنع أيَّ فرقٍ كَمْ مرَّةٍ تقرأ هذه الأشياء لي، يا آرشيبالد.» (يأتي آرشي في العادة مدجَّجًا بحقيبةٍ بلاستيكيَّةٍ مليئةٍ بكتبٍ مِنَ المكتبة، مناهضةٍ للدِّعاية لباندي، واقتباساتٍ خاطئةٍ وفيرةٍ). «الأمر يشبه عصابةً مِنَ الأطفال تَمَّ الإمساك بهم وأيديهم في جرَّةٍ هائلةٍ مِنَ العسل: جميعهم سيقصُّون عَلَيَّ نفس الكذبة. أنا لست مهتمًّا بهذا النَّوع مِنَ الافتراء. أنا لستُ مهتمًّا بمسرح العرائس أَوِ المهزلة المأساوية. تهمُّني الأفعال، يا صديقي.» وهنا سيؤدي صمد تمثيلًا صامتًا للإغلاق الأخير لشفتيه، وإلقاء المفتاح بعيدًا. «الأفعال الحقيقيَّة. وليس الكلمات. أنا أخبرك، يا آرشيبالد، مانجال باندي ضحَّى بحياته في سبيل العدالة للهند، وليس لأنَّه كان مخمورًا أَوْ مجنونًا. مَرِّر لي الكاتشب.»

كان ذلك 1989 في ليلة رأس السَّنة الجديدة في أوكونيل، وكان النِّقاش عَلَى قدم وساق.

«صحيح، ليس بطلًا بالطَّريقة الَّتِي تحبُّون بها أبطالكم في الغرب ـ لَمْ ينجح إلَّا في طريقة وفاته الجديرة بالاحترام. ولكنْ تخيَّل الأمر: يجلس هناك.» أشار صمد إِلَى دينزل، الَّذِي يوشك أَنْ يلعب قطعة فوزه في الدُّومينو. «في المحاكمة، وهو يعلم أَنَّ الموت مصيره، رافضًا الكشف عَنْ أسماء رفاقه المتآمرين ــ»

«الآن، *ذلك*،» قال آرشي، مرتِّبًا عَلَى كومته مِنَ المشكِّكين، مايكل إدواردز[1]، وب. ج. و. تايلور[2]، وسيِّد معين الحقّ[3]، والبقيَّة: «يعتمد الأمر عَلَى ما تقرأ.»

«لا، يا آرشي. ذلك خطأٌ شائعٌ. الحقيقة لا تعتمد عَلَى ما تقرأ. رجاءً دعنا لا ندخل في طبيعة الحقيقة. ثُمَّ أنت لا تحتاج لأنْ ترسم بقطعة الجبن الخاصَّة بي، ويمكنني أَنْ أَتجنَّب أكل طباشيرك.»

«حسنًا جدًّا، إذن: باندي. ما الَّذِي حقَّقه؟ لا شيء! كُلُّ ما فعله أَنَّه بدأ تمرُّدًا ـ مبكِّرًا جدًّا، التَّصرُّف، قبل الموعد المتَّفق عليه ـ واعذر فرنسيَّتي، لَكِنْ إِنَّها لكارثةٌ مطبقةٌ مِنَ النَّاحية العسكريَّة. أنت *تخطِّط*، ولا تتصرَّف اعتمادًا عَلَى الغريزة. لقَدْ تسبَّب في خسائر غيرِ ضروريَّةٍ للإنجليز وللهنود.»

1 ـ مؤرخ بريطاني من مؤلفاته «ظهيرة الإمبراطورية: الهند تحت حكم آل كورزون» و«نهرو: سيرة بالصور» و«معابد الهند وقصورها» و«معركة التمرد الهندي». (المترجم).

2 ـ المحرر العام ب. ج. و. تايلور عرف في الهند بسبب مقالاته الأسبوعية في صحيفة «رجل الدولة». خدم في الهند وإيطاليا واليابان كضابط في الجيش الهندي، قبل أن يصبح مسؤولًا استعماريًّا ومستشارًا للتعليم. كان كتابه «التمرد الهندي» عمل حياته. (المترجم).

3 ـ السيد معين الحق، مؤرخ باكستاني عضو الجمعية التاريخية الباكستانية، من مؤلفاته «الأساس الأيديولوجي لباكستان من منظور تاريخي»، و«الثورة العظيمة 1857» و«تاريخ موجز لسلطنة دلهي». (المترجم).

«مع احترامي، لا أصدِّق أَنْ يكون ذلك هو الأمر.»

«حسنًا، أنت مخطئٌ.»

«مع احترامي، أعتقد أَنِّي محقٌّ.»

«الأمر عَلَى هذا النحو، يا سام: تخيَّل هنا،» - جَمَع كومةً مِنَ الصُّحون القذرة الَّتِي كان ميكي بصدد وضعها في غسَّالة الصُّحون - «كُلُّ النَّاس الَّذِين كتبوا عَنْ باندي الخاصِّ بك خلال المئة عامٍ - وأيًّا كان - الماضية. الآن: هُنا هؤلاء الَّذِين يتَّفقون معي.» وضع عشرة صحونٍ في جانبه مِنَ الطَّاولة، ثُمَّ دفع واحدًا باتِّجاه صمد. «وذلك هو الرَّجل المجنون في جانبك.»

«أ. س. ميزرا[1]. موظَّفٌ مدنيٌّ هنديٌّ محترمٌ. ليس رجلاً مجنونًا.»

«صحيحٌ. حسنًا، سيتطلَّب الأمر منك مئةً وأيًّا كان سنةً أخرى لكَيْ تحصل عَلَى نفس عدد الصُّحون الَّتِي لديَّ، حتَّى لَوْ كنتَ ستصنعها جميعها بنفسك، والاحتمال هو، بمجرَّد أَنْ تحصل عليها، لَنْ يكون هناك أَيُّ لوطيٌّ يرغبُ في الأكل منها عَلَى أَيَّة حالٍ. أتحدَّث بشكلٍ مجازيّ. هَلْ تعرف ما أعنيه؟»

الأمر الَّذِي لَمْ يبق معه سوى أ. س. ميزرا. كتب أحد أبناء أخي صمد، راجنو، في ربيع 81 له من كُلِّيَّته في كامبريدج، مشيرًا بشكلٍ عرضيٍّ إِلَى أَنَّه وجد كتابًا رُبَّما يكون عَلَى قدرٍ مِنَ الأهمِّية لعمِّه. وفيه، قال، يمكن العثور عَلَى دفاعٍ بليغ عَنْ سَلَفِهما المشترك، مانجال باندي. النُّسخة النَّاجية الوحيدة في مكتبة كُلِّيَّته، لرجلٍ يدعى ميزرا. هَلْ سمع عنه بالفعل؟ إذا لَمْ يكنْ قدْ فعل، فقَدْ لا يخدم الأمر (أضاف راجنو في ملاحظةٍ متحفظة) كذريعةٍ لطيفةٍ لرؤية عمِّه مِنْ جديدٍ؟

وصل صمد بالقطار في اليوم التَّالي مباشرةً ووقف عَلَى الرَّصيف، محيِّيًا ابن أخيه معسول اللِّسان بحرارةٍ تحت المطر المنهمر، وهو يهزُّ يده عدَّة مرَّاتٍ ويتحدَّث كما لَوْ كانا خارجَين مِنْ عرض أزياءٍ.

«يومٌ رائعٌ،» كرَّر مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، حتَّى كان كلا الرَّجلين يقطر مِنَ البلل. «يومٌ رائعٌ لعائلتنا، يا راجنو، يومٌ رائعٌ *للحقيقة*.»

1 - أناند سواروب ميزرا، موظف مدني هندي ومؤلف لعدد من الكتب من أبرزها: «نانا صاحب بشوا» و«معركة الحرية»، و«قانون التحيز والواجبات القضائية والإدارية» و«الضابط المسؤول في الإدارة والقانون». (المترجم).

لَمْ يُسمح بدخول الرِّجال المبلَّلين إلَى مكتبة الكُلِّيَّة، فقضيا الصَّباح في تجفيف نفسيهما في مقهًى خانقٍ في طابقٍ علويٍّ، ممتلئٍ بالنَّوعيَّة اللَّائقة مِنَ السَّيِّدات يتناولن النَّوعيَّة اللائقة مِنَ الشاي. جلس راجنو، الَّذِي كان - دائمًا - مستمعًا جيدًا - في صبرٍ - بينما عمُّه يُبربر بشكلٍ همجيٍّ: أوه، *أهميَّة* الاكتشاف، أوه، كَمْ مِنَ الوقت انتظر هذه اللَّحظة - وهو يومئ في جميع الأماكن المناسبة ويبتسم بعذوبةٍ عندما يمسح صمد الدُّموع عن زوايا عينيه.

«إنَّه كتابٌ عظيمٌ، أليس كذلك، يا راجنو؟» سأل صمد متوسِّلًا، بينما يترك ابن أخيه بقشيشًا سخيًّا للنَّادلة ذات الوجه المتعض الَّتِي لَمْ تكنْ تقدِّر الهنود شديدي الانفعال الَّذِين يقضون ثلاث ساعاتٍ عَلَى شايٍ واحدٍ مع الكعك والكريما ويتركون آثارًا رطبةً عَلَى كُلِّ الأثاث. «معتَرفٌ به، أليس كذلك؟»

يعرف راجنو في أعماقه أَنَّ الكتاب أقلُّ شأنًا، وتافهٌ، أَنَّه قطعةٌ منسيَّةٌ مِنْ منحةٍ دراسيَّةٍ، لكنَّه يحبُّ عمَّه؛ لذا فَقَدِ ابتسم، وهزَّ رأسه، وابتسم بحزمٍ مرَّةً أُخرى.

مع وصولهما إلَى المكتبة، طُلب مِنْ صمد أَنْ يملأ كتيِّب الزُّوَّار:

الاسم: صمد مياه إقبال

الكُلِّيَّة: تلقَّى التَّعليم في مكانٍ آخر (دلهي)

المشروع البحثيّ: الحقيقة

مستمتعًا بهذا الإدخال الأخير، التقط راجنو القلم، مضيفًا: «والمأساة.»

«الحقيقة والمأساة.» قال أمين مكتبةٍ بوجهٍ جامدٍ، وهو يدير الكتيب إلَى جهته. «أَيُّ نوعٍ محدَّدٍ؟»

«لا تقلق.» قال صمد بدفءٍ. «سوف نجده.»

تطلَّب الأمر سُلَّما متنقِّلًا للوصول إليه لكنَّه استحقَّ بذل الجهد - بالتَّأكيد - عندما ناول راجنو الكتاب إلَى عمِّه، شعر صمد بأصابعه ترتعش وهو ينظر إلَى غلافه، وشكله، واللَّون، ورأى أَنَّه كُلُّ ما حلم به. ثقيلًا، كثير الصَّفحات، مجلَّدًا بجلدٍ أسمر ومغطًّى بالغبار الخفيف الَّذِي يدلُّ عَلَى شيءٍ ثمينٍ للغاية، شيءٍ لَمْ يُلمس إلَّا نادرًا.

«لقَدْ حَدَّدتُ اقتباساتٍ فيه. هناك الكثير لقراءته ولكنْ هناك شيءٌ ما ظننتُ أنَّه سيعجبك أَنْ تراه أوَّلًا،» قال راجنو وهو يضع الكتاب عَلَى الطَّاولة. دوَّى الصَّوت الثَّقيل لارتطام أحد جانبيه بالمكتب، ونظر صمد إِلَى الصَّفحة المشار إليها. كانت أكثر ممَّا يمكن أَنْ يتمنَّى.

«إِنَّه انطباع فنَّانٍ فقط، لكنَّ التَّشابه بين —»

«لا تتحدَّث،» قال صمد، متتبِّعًا أصابعه عَلَى الصُّورة. «هذا دَمُنا، يا راجنو. لَمْ أظنَّ أبدًا أَنَّني سأرى.... يا لها مِنْ حواجب! يا له مِنْ أنفٍ! أنا لدَيَّ أنفه!»

«لدَيكَ وجهه، يا عمِّي، أكثر أناقةً، بالطَّبع.»

«وماذا - ماذا تقول تحتها. اللَّعنة! أين نظارتي للقراءة... اقرأ لي، يا راجنو، إِنَّها صغيرةٌ جدًّا.»

«التَّعريف بالصُّورة؟ *مانجال باندي أطلق أوَّل رصاصةٍ في حركة 1857. أطلقت تضحيته صافرة الإنذار الأولى للأُمَّة لحمل السِّلاح ضدَّ الحاكم الأجنبيِّ، وبلَغَتْ ذروتها في انتفاضةٍ جماهيريَّةٍ لا يوجد لها مثيلٌ في تاريخ العالم. عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ الجهود فشلت في نتائجها الفوريَّة، فقَدْ نجحت في إرساء أسس الاستقلال ليتمَّ الفوز به في عام 1947. دفع حياته ثمنًا بسبب وطنيَّته. ولكن رفض حتَّى أنفاسه الأخيرة الكشف عَنْ أسماء أولئك الَّذين كانوا يحرِّضون عَلَى، الانتفاضة الكبيرة، ويستعدون لها.*»

جلس صمد عَلَى الدَّرجة السُّفلى للسُّلَّم وبكى.

«إذن. دعني أفهم هذا بشكلٍ مباشرٍ. الآن أنت تقول لي إِنَّه بدون باندي لَمْ يكن ليكون هناك غاندي. إِنَّه بدون جدِّك المجنون لَمْ يكنْ ليكون هناك استقلالٌ لعينٌ —»

«جدي الأكبر.»

«لا، اسمح لي أَنْ أكمل، يا سام. هَلْ هذا هو ما *تطالبنا* به جدِّيًا،» - ربَّت آرشي عَلَى ظهري كلارنس وديزل غير المهتمَّين - «أَنْ نصدِّق؟ هَلْ تصدِّق ذلك؟» سأل كلارنس.

«أنا لا يمكنني تصديق ذلك!» قال كلارنس، بلا أدنى فكرةٍ عَنِ الموضوع.

تمخط ديزل في منديله. «لكَيْ أكون صادقًا، فأنا لا أُحِبُّ أنْ أصدِّق أَيَّ شيءٍ. لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم. هذا شعاري.»

حلَّ هدوءٌ لدقيقةٍ. شاهد آرشيبالد ثلاثة مكعَّبات سكَّرٍ تذوب في فنجانه. ثُمَّ، بشكلٍ متردِّدٍ، قال: «لديَّ نظريَّتي الخاصَّة، تعرف. بعيدًا عَنِ الكتب، أعني.»

انحنى صمد. «نَوِّرنا أرجوك.»

«لا تغضب، الآن... ولكنْ فكِّرْ - فقط - لدقيقةٍ. لماذا يشرب رجلٌ متديِّنٌ بشكلٍ صارمٍ مثل باندي البانج؟ بجدِّيَّةٍ، أعرفُ أنَّني أضايقك بهذا. ولكن لماذا يفعل؟»

«أنت تعرف رأيي في ذلك. إنَّه لا يفعل. هو لَمْ يفعل. لأنَّها دعايةٌ إنجليزيَّةٌ.»

«وكان راميًا جيِّدًا....»

«لا شكَّ في ذلك. أ. س. ميزرا يعرض نسخةً مِنْ سجل التَّدريب تفيد بأنَّ باندي تلقَّى تدريبًا في حرسٍ خاصٍّ لمدَّة عامٍ، وتدرَّب بشكلٍ خاصٍّ عَلَى استعمال البنادق.»

«حسنًا. إذن: لماذا لَمْ يُصِب الهدف؟ لماذا؟»

«قناعتي هي أَنَّ التَّفسيرَ الوحيدَ هو أنَّ البندقيَّة كانت فاسدة.»

«نعم... هُناك ذلك. ولكنْ، رُبَّما شيءٌ آخر، رُبَّما. رُبَّما تعرَّض لمضايقاتٍ للخروج هناك والاصطفاف في الصَّف، أنت تعرف، تَمَّت إثارته، مِنْ قبل الرِّجال الآخرين. ولَمْ يكنْ يريد أَنْ يقتل أَيَّ أحدٍ بالأساس، تعرف. لذا تظاهر بأَنَّه سكران، حتَّى يصدِّق الفتيان في غرفة الثُّكنة أَنَّه أخطأ التَّصويب.»

«تلك - بالتَّأكيد - أغبى نظريَّةٍ سمعتُها عَلَى الإطلاق،» تنهَّد صمد، بينما بدأت يد ميكي الثَّانية الملطَّخة بالبيض ثواني العد التَّنازلي الثلاثين لمنتصف اللَّيل. «النَّوع الَّذِي يمكن لكَ أنتَ - فقط - التَّوصُّل إليه. إنَّها سخيفةٌ.»

«لماذا؟»

«لماذا؟ يا آرشيبالد، هؤلاء الرِّجال الإنجليز، هؤلاء... القائد هيرساي، وهافلوك، والبقيَّة، أعداء كُلِّ بشريٍّ في الهند. لماذا سيوفِّر أرواحا يحتقرها؟»

«ربَّما مجرَّد أنَّه لَمْ يستطع أَنْ يفعلها. ربَّما لَمْ يكنْ مِنْ هذا النَّوع.»

«هَلْ تصدِّق فعلًا أَنَّ هناك نوعًا للرَّجل الَّذِي يقتل، ونوعًا للرَّجل الَّذِي لا يفعل؟»

«رُبَّما، يا سام، ورُبَّما لا.»

«أنت تبدو مثل زوجتي،» تذمَّر صمد، وهو يمسح الجزء الأخير مِنَ البيض في صحنه. «دعني أخبرك شيئًا، يا آرشيبالد. أيُّ رجلٍ هو رجلٌ هو رجلٌ. عندما تُهدَّد عائلته، وتُهاجَم معتقداته، وتُدمَّر طريقته في الحياة، ويقترب كُلُّ عالمه مِنْ نهايةٍ - فسوف يقتل. لا تتصوَّر أنَّني مخطئٌ. لَنْ يترك النِّظام الجديد يحكمه بدون مقاومةٍ. فهناك أشخاصٌ سيقوم بقتلهم.»

«وهناك أشخاص سوفَ ينقذهم،» قال آرشي جونز، مع نظرةٍ خفيَّةٍ كان صديقه يظنها إنجازًا مستحيلًا لأولئك المترهِّلين، ذوي الملامح البدينة. «صدِّقني.»

«سنةٌ جديدةٌ لعينةٌ سعيدةٌ!» هدر ميكي، مِنْ وراء الكاونتر.

أَيرِي

1990، 1907

في هذا العالم المصنوع مِنْ حديدٍ مرنٍ الَّذِي يتشابك فيه السَّبب والنَّتيجة، أَيُمكن أَلَّا يُحدث النَّبض الخفيُّ الَّذِي سرقتُه منهم أَثرًا في مستقبلهم؟

- ڤلاديمير نابوكوف، *لوليتا*

الفصل الحادي عشر
متاعب أَيرِي جونز التعليمية

هناك عمود إنارةٍ، عَلَى مسافةٍ واحدةٍ مِنْ منزل آل جونز ومدرسة جلينارد أوك[1] العامَّة، بدأ يظهر في أحلام أَيرِي. ليس عمود الإنارة بالضَّبط، بَلْ إعلانٌ يدويٌّ صغيرٌ ملتصقٌ حول محيطه في مستوى النَّظر. يقول:

اخسر وزنًا تربح مالًا
081 555 6752

الآن، في سنِّ الخامسة عشرة، كانت أَيرِي جونز ضخمةً. النِّسبُ الأوروبِّيَّة لهيئة كلارا أسقطَت جيلًا، فحطَّت أَيرِي عوضًا عنها في جسد هورتنس الجامايكيِّ الضَّخم، مُحمَّلةً بالأناناس والمانجو والجوافة؛ فتاةٌ ذات وزنٍ فائضٍ، وثديّين كبيرين، وعجيزةٍ كبيرةٍ، ووركين كبيرين، وفخذين كبيرتين، وأسنانٍ كبيرةٍ. تزن 182 رطلًا ولديها ثلاثة عشر جنيهًا في حسابها الادِّخاريِّ. عرفَت أنَّها الجمهور المستهدَف (إذا كان هناك جمهورٌ بالأساس)، عرفَت جيِّدًا، وهي تتسكَّع في ساحة المدرسة بفمٍ مملوءٍ بكعك الدُّونات، وتلملم ترهُّلاتها الزَّائدة، أنَّ الإعلان يتحدَّث إلَيها. هو يتحدَّث إلَيها. افقدي وزنك (يقول) لتربحي مالًا. أنتِ، أنتِ، *أنتِ*، يا آنسة جونز، بأسلحتك الاستراتيجيَّة المتموضعة، وسترتك المربوطة حول مؤخِّرتكِ (اللُّغز اللَّا نهائيُّ: كيف يمكن تقليص تلك الضَّخامة المتورِّمة، وتلك الخلفيَّة الجامايكيَّة؟) بملابس التَّخسيس الدَّاخلية للبطن والأرداف، أَمْ بحمَّالات تصغير الصَّدر، والكورسيه المرن ـ الاستجابة المجيدة لعظام الحوت[2] في التِّسعينيات ـ أَمْ بالبلوزات المطَّاطة؟ عرفَت أنَّ الإعلان يتحدَّث إليها. ولكنَّها لَمْ تعرف

1 ـ تعني Oak شجرة البلوط. ولكن باعتبارها اسم مدرسة بدا من الأفضل معاملتها على العلمية كاسم علم يكتب بحسب نطقه الصوتي، لا بحسب معناه. (المترجم).

2 ـ كانت شرائح عظام الحوت المرنة تستخدم كدعامات للكورسيهات والفساتين في السابق. (المترجم).

ما يقوله عَلَى التَّحديد. ماذا كان حديثنا هنا؟ نحافةٌ مكفولةٌ؟ قدرة النُّحفاء عَلَى الرِّيح؟ أَمْ شيئًا ما أكثر ارتباطًا باليعقوبيَّة، مِنْ بنات أفكار مرابٍ دنيءٍ مِنْ ويلزدِن، رطلٌ مِنَ اللَّحم في مقابل رطلٍ مِنَ الذَّهب: *اللَّحم في مقابل المال*[1]؟

«**نوم حركة العين السَّريعة**»[2]. سوف تتجوَّل في المدرسة أحيانًا وهي ترتدي البكِّيني مع لغز عمود الإنارة مكتوبًا بالطَّباشير عَلَى انتفاخاتها البُنِّيَّة، وعَلَى بروزاتها المتنوِّعة (حيِّزٌ لرَفِّ الكتب، وفناجين الشَّاي، والسِّلال، أَوْ، وهذا أكثر علاقةً بالأمر، الأطفال، وحقائب الفاكهة، ودلاء الماء)، بروزاتٌ صُمِّمت جينيًّا مع بلدٍ آخر ومناخٍ آخر في ذهنها. في مرَّاتٍ أخرى، مع حلم النَّحافة المكفولة: كانت تطرق عَلَى بابٍ تلو بابٍ، بمؤخِّرةٍ عاريةٍ وحافظة أوراقٍ، غارقةً في ضوء الشَّمس، وهي تحاول تشجيع كبار السِّنِّ عَلَى اقتطاع بوصةٍ والتَّعهُّد بسداد جنيهٍ. في أسوأ الأوقات؟ تمزِّق ترهُّلات اللَّحم الأبيض المبقَّع، وهي تعبِّئه في زجاجات الكوكاكولا الرَّشيقة القديمة تلك، وتحملها إِلَى زاوية المحلِّ، وتمرِّرها عَلَى طاولة الدَّفع؛ بينما مِلَّة هو صاحب المتجر الَّذِي يرتدي صدرية مثلَّثة العنق، وبِنْدي، وهو يحسب الثَّمن، ويفتح آلة تسجيل النُّقود عَلَى مضضٍ بكفَّين ملطَّختين بالدِّماء، ويسلِّمها النَّقدية. *قليلًا مِنَ اللَّحم الكاريبيِّ في مقابل القليل مِنَ الفكَّة البريطانيَّة.*

كانت أَيرِي جونز مهووسةً. تحشرها أُمُّها القلقة في زاوية الرُّدهة أحيانًا قبل أَنْ تنسلَّ للخروج مِنَ الباب، وتمسك مشدَّاتها المتقنة، وتسأل: «ما الأمر معك؟ ما الَّذِي ترتدينه باسم الرَّب؟ كيف يمكنكِ أَنْ تتنفَّسي؟ يا أَيرِي، يا حبيبتي، أنتِ بخيرٍ - أنتِ فقط ذاتُ هيئةٍ تشبه امرأةً مخلِصةً للرَّبِّ مِنْ آل بودين - ألا تعلمين أَنَّكِ بخيرٍ؟»

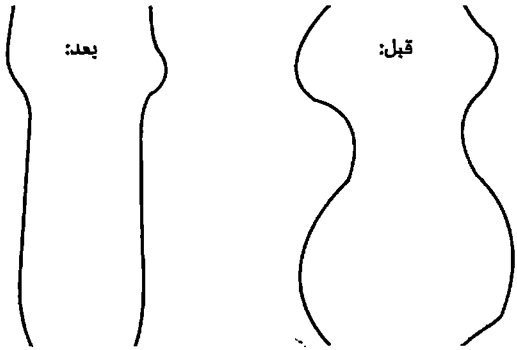
ولكنَّ أَيرِي لَمْ تعلم أَنَّها بخيرٍ. هناك إنجلترا، مرآةٌ عملاقةٌ، وهناك أَيرِي، بلا انعكاسٍ. غريبةٌ في أرضٍ غريبةٍ.

كوابيس وأحلام يقظةٍ، في الحافلة، وفي الحمَّام، وفي الفصل. قبل. بعد. قبل. بعد. قبل. بعد. تعويذة تحوُّل المدمن، تمتصُّها، وتطلقها؛ غير راغبةٍ في الاستسلام للمصير

1 - المعنى مقتبس من مسرحية وليام شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية». (المترجم).

2 - نوم حركة العين السريعة هو مرحلة من مراحل النوم تتميز بحركة العين السريعة فيها. ويصنف إلى صنفين: التوتري والطوري. يحتل نوم حركة العين السريعة 20 - 25% من فترة النوم الكلية، أي حوالي 90 - 120 دقيقة من النوم في ليلة واحدة. وعادةً ما يحدث قبيل الصباح. تُرى معظم الأحلام ذات التفاصيل الحية الواضحة خلال نوم حركة العين السريعة. (المترجم).

الجينيّ؛ تنتظر عوضًا عن ذلك تحوُّلها مِنْ ساعةٍ رمليَّةٍ جامايكيَّةٍ مثقلةٍ بالرِّمال الَّتِي تتجمَّع حول شلالات نهر دون[1]، إِلَى وردةٍ إنجليزيَّةٍ - أوه، أنتَ تعرفها - إِنَّها شيءٌ نحيلٌ بالغ الرِّقَّة لَمْ يُصنع للشَّمس الحارَّة، أَوْ لوح ركوب أمواجٍ يتهادى عَلَى موجةٍ:



قطعَت السَّيِّدة أوليفر رودي، مُدرِّسة الإنجليزية الخبيرة في مراقبة الخربشات الاستغراقيَّة الذَّاهلة مسافة عشرين ياردةٍ، إِلَى طاولة أَيرِي، وبلغَت دفترها ومزَّقَت قطعة الورق في تساؤلٍ. ناظرةً إليها في ارتيابٍ. ثُمَّ سألَت في لكنةٍ ذات إيقاعٍ اسْكتلنديّ: «قبل *ماذا* وبعده؟»

«هه... ماذا؟»

«قبل ماذا وبعده؟»

«أوه، لا شيء يا آنسة.»

«لا شيء؟ أوه، بالله عليكِ يا آنسة جونز. لا داعي للتَّواضع. مِنَ الواضح أَنَّه شيءٌ أكثر إثارةً للاهتمام مِنَ السُّوناتة 127.»

«لا شيء. هو لا شيء.»

«أنتِ واثقةٌ تمامًا؟ لا تريدين تأخير الفصل أكثرَ مِنْ ذلك؟ لأَنَّ... بعضٌ ممَّنْ في الفصل يحتاجون لأَنْ ينصتوا إِلَى ـــ هم بشكلٍ ما مهتمُّون بـ ـــ ماذا ينبغي أَنْ أقول. حسنًا، لَوْ أمكنك أَنْ توفِّري بعض الوقت مِنْ عبثك ـــ»

1 - شلالات شهيرة بالقرب من أوتشوريوس (أو الأنهار الثمانية - مدينة صغيرة عَلَى الساحل الشمالي لجامايكا) وهي أكبر مقاصد السياح الَّتِي تستقبل آلاف الزوار كلّ عام. (المترجم).

لا أحد، بَلْ لا أحد عَلَى الإطلاق يقول «عبث» مثل أوليفر رودي.

« وانضمِّي إِلَى بقيَّتنا، سوف نكمل اتِّفقنا؟»

«اتَّفقنا عَلَى ماذا؟»

«هَلْ يمكنكِ؟ توفير الوقت؟»

«نعم، يا سيِّدة رودي.»

«أوه، *حسنًا*. هذا يبهجني. السُّوناتة 127، مِنْ فضلك.»

«*في العصور القديمة، لَمْ يُعتبر الأسود جميلًا*»، واصل فرانسيس ستون في الأداء الرَّتيب الجامد الَّذِي يقرأ الطُّلاب به شعر العصر الإليزابيثِي[1]. «*أَوْ إذا كان كذلك، فلَمْ يكن يحمل اسم الجمال*».

وضعَت أَيرِي يدها عَلَى بطنها، مُستغرقةً، وحاولت أَنْ تجذب انتباه مِلَّة. غير أَنَّ مِلَّة كان مشغولًا يُظهر لنيكي تايلر[2] كيف يمكنه أَنْ يلفَّ لسانه في لفَّةٍ ضيِّقة، بشكل الفلوت. ونيكي تايلر تريه كيف كانت شحمتا أذنيها ملتصقتَين بجانب رأسها بدلًا مِنْ كونهما حُرَّتين. بقايا غزلية مِنْ درس علوم هذا الصَّباح: الخصائص الوراثيَّة. *الجزء الأول (أ)*. حُرَّةٌ ملتصقةٌ. ملفوفٌ. مُسطَّحٌ. عينٌ زرقاء. عينٌ بُنِّيَّةٌ. قبل. بعد.

«*لهذا فإنَّ حاجبي معشوقتي فاحما السَّواد، وكذلك عينيها شديدتا السَّواد، كأنَّهما في رداءِ الحزن... عينا معشوقتي لا تشبهان الشَّمس: المرجان أشدُّ حمرةً مِنْ شفتيها؛ إذا كان الثَّلج أبيضَ؛ فلماذا إِذنْ نهداها داكنان...*»

فَصَلَ سنُّ البلوغ، البلوغ الكامل الحقيقيِّ (وليس ربوة الثَّدي الخفيفة، ولا الظُّهور الغامض للزَّغب) هذين الصَّديقَين القديمَين، أَيرِي جونز ومِلَّة إقبال. في جانبَين مختلفين مِنْ سور المدرسة. اعتقدَت أَيرِي أَنَّها حصلَت عَلَى الكروت السَّيِّئة:

1 ـ العصر الإليزابيثي هو تلك الفترة المرتبطة بحكم الملكة إليزابيث الأولى(1558 ـ 1603)، وغالبًا ما ينظر إلى هذه الفترة كأحد العصور الذهبية في تاريخ إنجلترا. فهذا العصر هو ذروة مرحلة النهضة الإنجليزية وشهد ازدهارًا كبيرًا في الشعر والموسيقى والأدب. وهو أيضًا العصر الذي ازدهر فيه المسرح الإليزابيثى، وقد قام وليم شكسبير وغيره بتأليف العديد من المسرحيات التي خرجت عن النطاق التقليدى المألوف والذي عرف به المسرح الإنجليزى القديم. (المترجم).

2 ـ ممثلة أفلام إباحية اشتهرت في التسعينيات. (المترجم).

منحنياتٍ جبليَّةٍ، وأسنانٍ بارزةٍ ومقوّمٍ معدنيٍّ سميكٍ، وشعرٍ أفرو مستحيلٍ، والأسوأ مظهر حيوان الخُلد الَّذِي تطلَّب في المقابل نظَّاراتٍ سميكةً جدًّا في الظِّلال الخفيفة للَّون الورديِّ. (حتَّى هاتين العينين الزُّرقاوين ـ العينين اللَّتين كان آرشي سعيدًا بهما للغاية ـ دامتا أسبوعَين فقط. لقَدْ وُلِدَت بهما، نعم، ولكنْ نَظَرَت كلارا مرَّةً أخرى ويومًا ما كانت هناك عينان بُنِّيَّتان تُحدِّقان فيها، كعمليَّة تحوُّلٍ مِنْ برعمٍ مغلقٍ إِلَى زهرةٍ مفتوحةٍ، تلك اللَّحظة بالتَّحديد الَّتِي لا يمكن للعين المجرَّدة الَّتِي تنتظر أَنْ تكتشفها). وهذا الاعتقاد بقبحها، بكونها خطأً، أصابها بالكبت؛ احتفظَت بتعليقاتها السَّاخرة لنفسها هذه الأيام، واحتفظَت بيدها اليمنى عَلَى بطنها. كانت خطأً كُلَّها.

في حين كان مِلَّة مثل الشَّباب الَّذِين تستدعيهم رؤى الحنين إِلَى العصور القديمة، الجمال يقدِّم نفسه: بأنفٍ رومانيٍّ مكسورٍ، طويلٌ، ونحيفٌ، معروقٌ بشكلٍ خفيفٍ، بعضلاتٍ منسابةٍ؛ وعينين في لون الشيكولاتة مع لمعانٍ أخضرَ ينعكس عنهما مثل ضوء القمر عندما ينعكس عن ظلام البحر، وابتسامةٍ لا تقاوَم، وأسنانٍ بيضاء كبيرةٍ. في مدرسة جلينارد أوك العامَّة، السُّود، والباكستانيُّون، واليونانيُّون، والأيرلنديُّون هم الأعراق. ولكنَّ هؤلاء ذوي الجاذبيَّة الجنسيَّة يتفوَّقون عَلَى المتنافسين الآخرين. كانوا أنواعًا متفرِّدةً مِنْ نوعها.

« وإن كان الشعر سلكًا، فعلَى رأسها تنمو أسلاكٌ سوداء...»

هي تحبُّه، بالطَّبع. ولكنَّه يقول لها في العادة: «الأمر هو، أَنَّ النَّاس يعوِّلون عَلَيَّ. هُمْ يحتاجونني أَنْ أكون مِلَّة. مِلَّة الجيِّد القديم. مِلَّة الشِّرِّير. آمنًا، وحلوًا، مثل مِلَّة. إِنَّهم يحتاجون أَنْ أكون لطيفًا. إِنَّها ـ عمليًّا ـ مسؤوليَّة.»

والأمر كذلك عمليًّا. قال رينجو ستار[1] ذات مرَّةٍ عن البيتلز[2] إِنَّهم لَمْ يكونوا أبدًا أكبر مما هم عليه في ليفربول، في أواخر 1962. هم وصلوا إِلَى المزيد مِنَ البلدان فقط. وهذا ما كان عليه الأمر بالنسبةٍ إِلَى مِلَّة. هو كبيرٌ جدًّا في كريكل وود، في ويلْزدِن، في غرب هامبستيد، في صيف 1990، حتَّى أَنَّه لَمْ يمكن لشيءٍ قام به في حياته بعدها أَنْ يتجاوز ذلك. ومِنْ طاقمه الرَّاجساتني الأوَّل زاد مِنَ اتِّساع القبائل وطوَّرها عبر

1 ـ مطرب بريطاني كان عازف الإيقاع في فرقة البيتلز الشهيرة. (المترجم).

2 ـ فرقة روك غنائية بريطانية تشكلت في ليفربول في عام 1960، وأصبحت أكبر الفرق الموسيقية نجاحًا وأشهرها في تاريخ الموسيقى المعاصرة. (المترجم).

المدرسة، وعبر شمال لندن. كان - ببساطةٍ - أكبر بكثيرٍ مِنْ أَنْ يظلَّ مجرَّد موضوعٍ لحبِّ أَيرِي، أَوْ مجرَّد قائدٍ للراجستانيين، أَوْ ابن صمد وألسانا إقبال. كان مطالبًا بأَنْ يسعد كُلَّ النَّاس كُلَّ الوقت. بالنِّسبة إِلَى فتيان كوكني واسعي الحيلة في الجينز الأبيض والقمصان الملوَّنة هو الجوكر، والمُخاطر، والدُّونجوان المحترم. وبالنِّسبة إلى الفِتيان السُّود زميلٌ في تدخين الماريجوانا والزُّبون السَّخي. وبالنِّسبة إلى الفتيان الآسيويين البطل والمتحدِّث الرسمي. كان متلوِّنًا اجتماعيًّا. وتحت ذلك كله، يأتي دائمًا قدرٌ مِنَ الغضب والألم، الشُّعور بالانتماء إِلَى لا مكانٍ الَّذِي يصيب النَّاس الَّذِين ينتمون إِلَى كُلِّ مكانٍ. هذه نقطة الضَّعف الَّتِي جعلته المحبوب الأكبر، والمعشوق الأهمَّ لـ أَيرِي والفتيات اللَّطيفات مِنَ الطَّبقة الوسطى عازفات الأوبوا، ذوات التَّنانير الطَّويلة، والأكثر تقديرًا مِنْ قبل مغنِّيات الفوجا[1] ذوات الشَّعر الغجري؛ أمير ظلامهنَّ، والعاشق العرضيُّ أَوِ الفاتن المستحيل، وموضوعُ الخيال الممتع والأحلام المتوهِّجة...

وهو أيضًا مشروعهنَّ: ما الَّذِي ينبغي فعله بخصوص مِلَّة؟ ينبغي - ببساطةٍ - أَنْ يتوقَّف عن تدخين الماريجوانا. يجب أَنْ نحاول منعه مِنَ الخروج مِنَ الفصل. كُنَّ قلقاتٍ مِنْ «سلوكه» في ليالي المبيت الجماعيَّة، ناقشن تعليمه نظريًّا مع والديه (*قولوا فقط كان هناك هذا الفتى الهنديُّ، نعم، الَّذِي يتورَّط دائما في...*). بَلْ وكتبن قصائد حول الموضوع. كانت الفتيات إِمَّا يُرِدْنَه وإِمَّا يُرِدْنَ تحسينه، ولكنْ في معظم الأحيان يُرِدْنَ مزيجًا مِنَ الأمرين. يُرِدْنَ تحسينه إِلَى أَنْ يكون مبرِّرًا للقدر الَّذِي يُرِدْنَه به. قطعةُ خامٍ للجميع، هو مِلَّة إقبال.

«ولكنَّكِ مختلفةٌ،» سوف يقول مِلَّة إقبال للشَّهيدة أَيرِي جونز، «أنت *مختلفةٌ*. نحن نعرف بعضنا منذ وقتٍ طويلٍ. لدينا تاريخ. نحن أصدقاء *حقيقيُّون*. هُنَّ حقًّا لا يعنين أيَّ شيءٍ لي.»

أحبَّت أَيرِي أَنْ تصدِّق ذلك. أَنَّ لديهما تاريخٌ، وأَنَّها مختلفةٌ بطريقةٍ حسنة.

« علَى أَنَّ سوادك هو الأجمل، في تقديري....»

أسكتَت السَّيِّدة رودي فرانسيس بإصبعٍ مرتفعٍ. «الآن، ما الَّذِي يقوله هناك؟ يا أناليس؟»

1 - صنف من التآليف الموسيقية الغربية. يعطي الانطباع للمستمع بمشهد هروب ومطاردة عن طريق الدخول المتتالي والمتعاقب للأصوات وتكرار نفس المقطع. (المترجم).

نظرت أناليس هيرش، الَّتِي أمضَت الدَّرس حتَّى الآن في تجديل شرائط حمراءَ وصفراءَ في شعرها، إِلَى أعَلَى بارتباكٍ وبدون أي تعبير.

«أيَّ شيء، يا أناليس، يا عزيزتي. أيَّة فكرةٍ صغيرةٍ. مهما كان قَدْر ضآلتها. مهما كانت تفاهتها.»

عضَّت أناليس شفتها. نَظَرَت إِلَى الكتاب. نَظَرَت إِلَى السَّيِّدة رودي. ونَظَرَت إِلَى الكتاب.

«الأسود؟ ... جيِّدٌ؟»

«نعم... حسنًا، أعتقد أنَّنا يمكن أنْ نضيف ذلك إِلَى مساهمة الأسبوع الماضي: هاملت؟ ... مجنونٌ؟ أيُّ أحدٍ آخر؟ ماذا بخصوص هذا؟ *فمنذ اعتادت كُلُّ يدٍ أنْ تكتسي بقوى الطَّبيعة، وتُجَمِّل القُبْحَ بالمواد الَّتِي تجعل الوجه زائفًا مستعارًا*. ماذا يمكن أنْ يعني ذلك، إنَّني أتساءل؟»

رفع جوشوا تشالفين، الفتى الوحيد الَّذِي يتطوَّع بآراءٍ، يده.

«نعم، يا جوشوا؟»

«المكياج.»

«نعم،» قالت السَّيِّدة رودي، وهي تبدو قريبةً مِنَ النَّشوة. «نعم، يا جوشوا، هذا هو. ماذا عنه؟»

«لقَدِ امتلكَت بشرةً داكنةً، ولذا حاولَت تفتيحها عَنْ طريق المكياج، ببراعةٍ. كان الإليزابيثِيُّون حريصين جدًّا عَلَى البشرة الشَّاحبة.»

«كانوا سيحبُّونك، إذنْ،» تهكَّم مِلَّة، لأَنَّ جوشوا شاحبٌ في لون العجين، يعاني ـ عمليًّا ـ مِنْ فقر الدَّم، بشعرٍ مجعَّدٍ، وبدينٌ، «كنتَ لتصبح توم اللَّعين كروز لديهم.»

ضَحِكٌ. ليس لأَنَّ ذلك مُضحكٌ، ولكنْ لأَنَّ مِلَّة يضع قزم مكتبةٍ حيثُ ينبغي لمثله أَنْ يكون. في مكانه.

«كلمةٌ أخرى منك، يا سيِّد إكـ-بول، وأنت مطرودٌ!»

«شيكسبير. متعرِّقٌ. هراءٌ. تلك ثلاثٌ. لا تقلقي، سأطرد نفسي.»

هذا هو النَّوع مِنَ الأشياء الَّتي يفعلها مِلَّة بخبرةٍ. صفق الباب بشدَّةٍ. ونَظَرَت الفتيات اللَّطيفات إلَى بعضهن بتلك الطَّريقة. (إنَّه خارج السَّيطرة *تمامًا*، مجنونٌ جدًّا... إنَّه يحتاج - *فعلًا* - لبعض المساعدة، بعض المساعدة - *الشَّخصيَّة* - المباشرة مِنْ *صديقٍ مُقرَّب*....). قهقه الأولاد. وتساءلَت المعلِّمة إنْ كانت هذه بداية تمرُّد. وغطت أَيري بطنها بيدها اليمنى.

«رائعٌ. ناضجٌ جدًّا. أتصوَّر أنَّ مِلَّة إقبال بطلٌ نوعًا ما.» اكتشفَت السَّيِّدة رودي، وهي تتفحَّص الوجوه البليدة لطلَّاب خامسة سادسٍ، للمرَّة الأولى بوضوحٍ كئيبٍ أنَّ هذا بالضَّبط ما كانه.

«هَلْ هناك أَيُّ شخصٍ آخر لديه ما يقوله عن تلك السُّوناتات؟ الآنسة جونز! هَلَّا توقَّفتِ عنِ النَّظر في حزنٍ تجاه الباب! لَقَدْ رحل، حسنًا؟ إلَّا إذا كنتِ ترغبين في الانضمام إليه؟»

«لا، يا سيِّدة رودي.»

«حسنًا، إذن. هَلْ لديك أَيُّ شيءٍ لتقوليه عن السُّوناتات؟»

«نعم.»

«ماذا؟»

«هَلْ هي سوداء.»

«هَلْ مَنْ سوداء؟»

«السَّيِّدة السَّمراء.»

«لا، يا عزيزتي، إنَّها داكنةٌ. إنَّها ليسَت سوداء بالمعنى الحديث. لَمْ يَكن هناك أَيُّ... حسنًا، أَيَّ أَفْرُو - كاريبيِّين في بريطانيا في ذلك الوقت، يا عزيزتي. تلك ظاهرةٌ أكثر حداثةً. أنا عَلَى ثقةٍ مِنْ أنَّك تعرفين. ولكنَّ هذا في القرن السَّابع عشر. أعني أنَّني لا أستطيع التَّأكُّد، لكنَّ ذلك يبدو غير مرجَّحٍ بشكلٍ هائلٍ، إلَّا إذا كانت عبدةً مِنْ أَيِّ نوعٍ، ومِنْ غير المرجَّح أنْ يكون قَدْ كتب سلسلةً مِنَ السُّوناتات لسيِّدةٍ، ومِنْ بعدِها لعبدةٍ، أليس كذلك؟»

احمرَّ وجه أَيرِي. فكَّرَت - عندها تحديدًا - أَنَّها رأت شيئًا مثل فكرةٍ، لكنَّها تراجعت؛ لذا قالت: «لا أعرف، يا آنسة.»

«إلى جانب ذلك، فهو يقول بشكلٍ واضحٍ، *أنتِ لستِ سوداء في شيءٍ سوى ما تفعلين*... لا، يا عزيزتي، إنَّها فقط ذات بشرةٍ داكنةٍ، كما ترين، داكنةٍ مثل بشرتي، رُبَّما.»

نَظَرَت أَيرِي إِلَى السَّيِّدة رودي. كانَت في لون قشدة الفراولة المخفوقة.

«كما ترون، جوشوا محقٌّ تمامًا: كان التَّفضيل بالنِّسبة إِلَى النِّساء أَنْ يكنَّ مفرطاتٍ في الشُّحوب تلك الأيَّام. السُّوناتا تدور حول الجدل بين لونها الطَّبيعيِّ والمكياج الَّذِي كان موضة العصر.»

«أنا ظننتُ فقط... مثلما عندما يقول هنا: *أُقسم - وقتئذٍ - أَنَّ اللَّون الأسود هو الجمال بعينه*... وموضوع الشَّعر المجعَّد ذلك، والأسلاك السَّوداء ـــ»

«لا، يا عزيزتي، أنتِ تقرئينها بأذنٍ حديثةٍ. لا تقرئي أبدًا ما هو قديمٌ بأذنٍ حديثةٍ. في الحقيقة، فإنَّ هذا سيكون بمثابة واجب اليوم - هَلْ يمكنكم جميعًا أَنْ تدوِّنوا ذلك، رجاءً.»

دوَّن طلَّاب خامسة سادس ذلك. وانسلَّت الفكرة الَّتِي لمحَتها أَيرِي إِلَى الظَّلام المعتاد. في طريقها إِلَى خارج الفصل، مُرِّرَت مذكِّرةٌ إِلَى أَيرِي بواسطة أناليس هيرش، الَّتِي هزَّت كتفيها في إشارةٍ لأنَّها ليست الكاتبة ولكنْ مجرَّد مرسالٍ. تقول: «لويليام شيكسبير: أغنيةٌ إِلَى ليتيتا وكُلِّ عاهراتي ذوات المؤخِّرات الضَّخمة المشعرة.»

***

باسمه الغامض «ب. ك. للشَّعر الأفريقي: تصميمٌ وإدارةٌ» وقع محل تصفيف الشَّعر بين دار فيرويذر للجنازات وراكشان لعلاج الأسنان، القرب المريح الَّذِي يعني أنَّه لَمْ يكن أمرًا غير معتادٍ لجثَّةٍ مِنْ أصولٍ أفريقيَّةٍ أَنْ تمرَّ عبر المؤسَّسات الثَّلاث في رحلته أَوْ رحلتها الأخيرة إِلَى تابوتٍ مفتوحٍ. لذا عندما تتَّصل هاتفيًا لموعدٍ خاصٍّ بالشَّعر، وتقول أندريًا أَوْ جاكي *الثَّالثة والنِّصف بالتَّوقيت الجامايكي*، فإنَّ الطَّبيعيَّ أَنَّ ذلك يعني تعال متأخِّرًا، ولكنَّ هناك فرصةً أيضًا لأَنْ يعني الأمر أَنَّ سيِّدةً مِنْ روَّاد الكنيسة في برودة حجرٍ تصرُّ عَلَى الذِّهاب إِلَى قبرها بأظافر مستعارَةٍ طويلةٍ وشعرٍ مكويٍّ. الأمر غريبٌ كما يبدو، ولكنَّ هناك الكثيرَ مِنَ النَّاس الَّذِين يرفضون لقاء الرَّبِّ بتسريحةٍ أفرو.

متجاهلةً كُلَّ هذا، وصلَت أيرِي في موعدها في الثَّالثة والنِّصف بالضَّبط، عازمةً عَلَى التَّحوُّل، عازمةً عَلَى محاربة جيناتها، وهي تخفي عُشَّ الطَّائر في شعرها بطرحةٍ، ويدها اليُمنى متموضعةً بعنايةٍ عَلَى بطنها.

«هَلْ تريدين شيئًا، يا فتاةٌ؟»

شعرًا مفرودًا. شعرًا طويلًا مفرودًا مفرودًا أسودَ أنيقًا متماوجًا منسدلًا ليِّنًا ملموسًا يمكن للأصابع المرور خلاله مُهفهِفًا في الرِّيح. مع قُصَّة.

«الثَّالثة والنِّصف،» كُلُّ ما نجحَت أَيرِي في الوصول إليه مِنْ هذا، «مع أندريًا.»

«أندريًا في الجوار،» أجابت المرأة، وهي تتناول قطعة علكةٍ مستطيلةً وتشير في اتِّجاه دار فيروذر للجنازات، «تستمتع مع العزيزة الرَّاحلة. مِنَ الأفضل أَنْ تأتي وتجلسي وتنتظري ولا تزعجيني. لا أعرف كَمْ مِنَ الوقت سوف تستغرق.»

بَدَتْ أَيرِي ضائعةً، وهي تقف في منتصف المحلِّ، تلملم ترهُّلاتها. أشفقَت المرأة عليها، وابتلعت علكتها، ثُمَّ تفحَّصت أَيرِي، صعودًا وهبوطًا، وشعرت بالمزيد مِنَ الشَّفقة وهي تلاحظ بشرة أَيرِي الكاكاويَّة، والعينَين الفاتحتَين.

«جاكي.»

« أَيرِي.»

«شاحبةٌ، يا سيِّدي! النَّمش وكُلُّ شيءٍ. مكسيكيَّةٌ؟»

«لا.»

«عربيَّةٌ؟»

«نصف جامايكيَّةٍ، ونصف إنجليزيَّةٍ.»

«خُلاسيَّةٌ،» شَرَحَت جاكي في صبرٍ. «أُمُّك بيضاء؟»

«أبي.»

غضَّنَت جاكي أنفها. «في العادة يكون الأمر بالطَّريقة الثَّانية. ما درجة تجعُّده؟ دعيني أرى ما يوجد تحت هناك ـــ» مدَّتْ يدها نحو طرحة شعر أَيرِي، المرعوبة مِنْ كشفه عاريًا في غرفةٍ مليئةٍ بالنَّاس. بلغت جاكي الطَّرحة قبلها وأمسَكَت بها بشدَّةٍ.

طقطقت بلسانها. «ما الَّذِي تتوقَّعين مِنَّا أَنْ نفعله به إذا لَمْ نتمكَّن مِنْ رؤيته؟»

هزَّت أَيرِي كتفيها. وهزَّت جاكي رأسها، في استمتاعٍ.

«لَمْ تجرِّبِي الأمر مِنْ قبل؟»

«لا، عَلَى الإطلاق.»

«كيف ترغبينه؟»

«مفرودًا» قالت أَيرِي بحزمٍ، وهي تفكر في نيكي تايلر. «مفرودًا وأحمرَ غامقًا.»

«هَلْ هذه حقيقةٌ! هَلْ غسلتِ شعرك مؤخَّرًا؟»

«أمس،» قالت أَيرِي وهي تشعر بالإهانة. فقد صفعت جاكي أعَلَى رأسها.

«لا تغسليه! إذا كنتِ تريدينه مفرودًا، لا تغسليه! هَلْ وضعتِ أمونيا قطُّ عَلَى رأسك؟ إنَّها مثل شيطانٍ يقيم حفلةً عَلَى فروة رأسك. أنتِ مجنونةٌ؟ لا تغسليه لمدَّة أسبوعَين، ثُمَّ عودي بعدها.»

ولكنَّ أَيرِي ليس لديها أسبوعان. كُلُّ شيءٍ مخططٌ له بالنِّسبة إليها: سَتَمُرُّ عَلَى مِلَّة في هذا المساء على التَّحديد بلبْدتها الجديدة، مربوطةً بالكامل في كعكةٍ، وستخلع نظاراتها وتهزُّ شعرها وسوف يقول *لماذا يا آنسة* جونز، *لَمْ أكن لأفترض أبدًا... لماذا يا آنسة* جونز، *أنتِ* ـــ

«ينبغي لي أَنْ أفعل هذا *اليوم*. شقيقتي ستتزوَّج.»

«حسنًا، عندما تعود أندريًا ستُشعل سبع طبقاتٍ مِنَ القرف في شعركِ وسوف تكونين محظوظةً إذا لَمْ تخرجي مِنْ هنا بصلعةٍ. ولكنْ عموما هي *جنازتك*. هه»، قالت وهي تدفع كومةً مِنَ المجلَّات إِلَى يدي أَيرِي. «عزيزتي،» قالت، وهي تشير إِلَى مقعدٍ.

انقسم محل ب. ك. إِلَى نصفَين، رجاليٍّ وحريميٍّ. في القسم الرِّجالي، حيث يعرِّج الرَّاجستانيُّون بشكلٍ متباعدٍ عَلَى ستيريو متهالكٍ، يحصل الأولاد عَلَى علاماتٍ تجاريَّةٍ عَلَى أقفيتهم عَلَى أيدي الأولاد الأكبر بقليل، البارعين الَّذِين يستخدمون ماكينة قصِّ الشَّعر الكهربائيَّة بمهارةٍ. أديداس. وبادماذا. ومارتن.

القسم الرِّجاليُّ صاخبٌ دائمًا بالضّحك، والكلام، واللَّعب؛ هناك أريحيَّةٌ تنبع ليس مِنْ قَصَّة شعر رَجُلٍ تكلِّف أكثر مِنْ ستَّة جنيهاتٍ أَوْ تستغرق أكثر مِنْ خمس عشرة دقيقةً. وإنَّما هي عمليَّة تواصل بسيطةٍ بما يكفي. هناك متعةٌ في الأمر: أزيز النَّصل الدَّوَّار بالقرب مِنْ أذنك، وتنظيفٌ خشنٌ بيدٍ دافئةٍ، والمرايا الأماميَّة والخلفيَّة للاستمتاع بالتحوُّل. جئتَ إلَى هنا برأسٍ أشعث، غير متكافئٍ وخشنٍ، متخفيًّا تحت قُبَّعة بيسبول، وغادرتَ بعدها سريعًا رجلًا جديدًا، تفوح بلطفٍ برائحة زيت جوز الهند مع قَصَّة شعرٍ في حدَّةٍ ووضوح القَسَم.

في المقابل، فالقسم النِّسائي في ب. ك. شيءٌ أقرب إلَى الموت. هنا، الرَّغبة المستحيلة في استقامة الشَّعر و«حركته» تقاتل الانحناء العنيد للبصيلات الأفريقيَّة الملتفَّة، يوميًّا، هنا تَمَّ تجنيد الأمونيا، والأمشاط السَّاخنة، ومشابك ودبابيس الشَّعر، والنار البسيطة، جميعًا في الحرب، الَّتِي تبذل أقصى ما لديها لكَيْ تُخضع كُلَّ شعرةٍ مجعَّدةٍ.

«هَلْ هو مفرودٌ؟» هو السُّؤال الوحيد الَّذِي تسمعينه عندما يتمُّ نزع المناشف عن الرُّؤوس عندما تبرز مِنْ مجفِّف الشَّعر نابضةً بالألم. «هَلْ هو مفرودٌ، يا دينيس؟ اِخبريني هَلْ هو مفرودٌ، يا جاكي؟»

مع تحرُّر جاكي أَوْ دينيس، مِنْ أَيٍّ مِنَ التزامات مصفِّفي الشَّعر البيض، لا حاجة لصنع الشَّاي أَوِ التَّملُّق، أَوِ الاستحواذ، أَوْ إجراءِ محادثةٍ (لأنَّهن لَسْنَ عميلاتٍ هؤلاء اللَّائي تعاملتا معهنَّ ولكنْ مريضاتٍ بائساتٍ يائساتٍ)، فهما تُجيبان بشخرةٍ متشكِّكةٍ وتنزعان المريلة الخضراء الكالحة. «إنَّه مفرودٌ كما لا يمكن له أَنْ يكون عَلَى الإطلاق!»

جلسَت أربع نساءٍ في مواجهة أَيرِي الآن، يعضُضن عَلَى شفاههنَّ، ويحدِّقن في اهتمامٍ في مرآةٍ طويلةٍ قذرةٍ، منتظراتٍ أَنْ يتجسَّد شعرهنَّ المفرود. بينما تصفَّحت أَيرِي مجلَّة شعر السُّود الأمريكيِّين، جلسَت النساء الأربع مقطِّباتٍ في ألمٍ. قالت إحداهنَّ للأخرى بشكلٍ عرضيٍّ: «ما المُدَّة؟» وجاءتها الإجابة المتباهية: «خمس عشرة دقيقةً. وما المدَّة بالنِّسبة إليك؟» «اثنتان وعشرون. ظلَّ هذا القرف عَلَى رأسي لاثنتين وعشرين دقيقةً. مِنَ *الأفضل* أَنْ يكون مفرودًا.»

منافسةٌ في العذاب. مثل النِّساء الغنيَّات في المطاعم الفاخرة عندما يطلبن أطباق السَّلَطة الأقلّ حجمًا دائمًا.

وفي النِّهاية سوف تكون هناك صرخةٌ، أَوْ «هذا يكفي! اللَّعنة، لا يمكنني تحمُّل ذلك!» وتنتقل الرَّأس موضع الاهتمام بسرعةٍ إِلَى حوض الغسيل، حيث لا يمكن أَنْ يكون غسل الشَّعر سريعًا بما يكفي، عَلَى الإطلاق (لا يمكنك أَنْ تتخلَّصي مِنَ الأمونيا في شعرك بسرعةٍ كافيةٍ) ويبدأ البكاء الهادئ. عند هذه النُّقطة ينشأ العداء؛ فشَعْرُ بعض النَّاس «أكثر غرابةً» مِنَ الآخرين؛ وبعض الأفرو يقاتلن بقوَّةٍ أكثر، والبعض ينجين. والعداء ينتشر مِنْ زبونةٍ زميلةٍ إِلَى مصفِّفة شعرٍ، لردِّ هذا الألم، لأَنَّه مِنَ الطَّبيعيِّ الاشتباه في شيءٍ ما مِنَ السَّاديَّة لدى جاكي ودينيس: بَدَت أصابعهما بطيئةً جدًّا أثناء قيامهما بالمهام، والمياه، بدا أَنَّها تتقطَّر بدلًا مِنْ أَنْ تتدفَّق، وخلال ذلك يملك الشَّيطان وقتًا ممتعًا ليُشعل الحماقات مِنْ منابت شعرك.

«هَلْ هو مفرودٌ؟ يا جاكي، هَلْ هو مفرودٌ؟»

أطلَّ الأولاد برؤوسهم مِنْ فوق الجِدار الفاصل، ورفعت أَيرِي عينيها عن المجلَّة. لَمْ يكن هناك الكثير لكَيْ يُقال. خرجن جميعهنَّ بشعرٍ مفرودٍ، أَوْ مفرودٍ بما يكفي. ولكنهنَّ خرجن أيضًا ميِّتاتٍ. جافَّاتٍ. متشقِّقاتٍ. متيبِّساتٍ. وذهبت المرونة كُلُّها. مثل شعر الجُثَّة عندما تتسرَّب منها الرِّطوبة.

وعَلَى الرَّغم مِنَ الفشل الواضح للمشروع، فإِنَّ كُلَّ امرأةٍ في الصَّفِّ تشعر أَنَّ الأمر سيكون مختلفًا بالنِّسبة إليها، أَنَّه عندما يأتي كشف غطاء شعرها ستكون خصلاتها مفرودةً، مفرودةً متماوجةً مُهفهفةً مع الرِّيح. عادت أَيرِي، الَّتِي امتلأَت بالثِّقة مثل البقيَّة، إِلَى مجلَّتها.

تشرح مليكة، النَّجمة الشَّابة النَّابضة بالحياة في مسلسل كوميديا الموقف ذائع الصِّيت *حياة مليكة* كيف تبلغ مظهرها الطَّلق المتدفِّق: «أنا ألفُّه ساخنًا كُلَّ مساءٍ، مع ضمان تشميع أطرافه بدهان *ملكة الأفرو الأفريقية* 100%. ثُمَّ، في الصَّباح، أضع مشطًا في الفرن لحوالي ـــ»

مع عودة أندريًا. اختُطفت المجلَّة مِنْ يديها، وأُزيلت طرحة شعرها في استهانةٍ قبل أَنْ تستطيع منع ذلك، وبدأت خمسة أظفار طويلة مُعبرِّة عملها عَلَى فروة رأسها.

«أووووه،» غمغمت أندريًا.

علامة الاستحسان تلك نادرة الحدوث بما يكفي لكَيْ يأتي بقيَّة مَنْ فِي المحلّ عَلَى جانبي الفاصل لإلقاء نظرةٍ.

«أووووووه،» قالت دينيس، وهي تضيف أصابعها إِلَى أصابع أندريًا. «مُنسابٌ جدًّا.»

أومأت سيِّدةٌ أكبر سنًّا، تجفل مِنَ الألم تحت مجفِّف شعرٍ، بإعجابٍ.

«يالها مِنْ عقصاتٍ ليِّنةٍ،» هدلَت جاكي، متجاهلةً مريضتها المُبسترة لكَيْ تصل إِلَى صوف أَيري.

«ذلك شعر الخُلاسيَّات ما لديكِ. أتمنَّى لَوْ كان شعري مثل ذلك. إنَّ ذلك سوف يسترخي في جمالٍ.»

غضَّنت أَيري وجهها. «أنا أكرهه.»

«إنَّها تكرهه!» قالت دينيس للحشد. «إنَّه بُنِّيٌّ خفيفٌ في أماكن!»

«لقَدْ كنت أتعامل مع جثثٍ طوال الصَّباح. كوني لطيفةً لكَيْ تصل يديَّ إِلَى شيءٍ ليِّنٍ،» قالت أندريًا، وهي تخرج مِنْ أحلام يقظتها. «هَلْ تريدينه حُرًّا، يا عزيزتي؟»

«نعم، مفرودًا. مفرودًا وأحمر.»

لفَّت أندريًا مريلةً خضراءَ حول عنق أَيري وخفضتها في الكرسيِّ الدَّوار. «لا أعرف بخصوص الأحمر، يا صغيرتي. لا يمكن الصَّبغ والفرد في نفس اليوم. يقتل ذلك الشَّعر تمامًا. لكِنْ يمكنني أَنْ أفرده لك، ليسَت مشكلة. ينبَغي أَنْ تكون النَّتيجة جميلةً، يا عزيزتي.»

ومع كون التَّواصل بين مصفِّفي الشَّعر في ب. ك. ضعيفًا، فإِنَّ أحدًا لَمْ يخبر أندريًا أَنَّ أَيري غسلَت شعرها. بعد دقيقتَين مِنَ انتشار الأمونيا الغرويَّة عَلَى رأسها، شعرَت بإحساس البرودة الأوَّلي يتحوَّل إِلَى احتراقٍ شديدٍ. لَمْ يكنْ هناك وسخٌ ليحمي فروة الرَّأس، وبدأت أَيري في الصُّراخ.

«لقَدْ وضعتُه بالكاد! أنتِ تريدينه مفرودًا، أليس كذلك؟ توقَّفي عَنْ صنع هذه الضَّجَّة!»

«ولكنَّه يؤلم.»

«الحياة تؤلم،» قالت أندريًا باستخفافٍ، «والجمال يؤلم.»

عضَّت أَيرِي لسانها لثلاثين ثانيةٍ أخرى حتَّى ظهر الدَّم فوق أذنها اليُمنى. ثُمَّ فقَدَت الفتاة المسكينة الوعي.

عادت إلَى وعيها ورأسها فوق الحوض، تشاهد شعرها يخرج في كُتَلٍ، تتراقص إلَى الأسفل نحو فتحة البالوعة.

«كان عليكِ أَنْ تخبريني،» هَدَرَتْ أندريًا. «كان عليكِ أَنْ تخبريني أَنَّكِ غسلتِه. ينبغي أَنْ يكون قذرًا في البداية. الآن انظري.»

الآن انظري. الشَّعر الَّذِي وصل مرَّةً إلَى منتصف ظهرها كان عَلَى مسافة بوصاتٍ قليلةٍ فقط مِنْ رأسها.

«انظري إلَى ما فعلتِه،» واصلَت أندريًا، بينما أَيرِي تبكي بشكلٍ صريحٍ. «أَوَدُّ أَنْ أعرف ما الَّذِي سيقوله السَّيِّد بول كينج بخصوص هذا. مِنَ الأفضل أَنْ أهاتفه وأرى إنْ أمكننا علاج الأمر لأجلك مجَّانًا.»

يملك السَّيِّد بول كينج، المقصود بالـ ب. ك، المكان. هو رجلٌ أبيضُ ضخمٌ، في منتصف الخمسينات، كان مقاولًا في قطاع البناء حتَّى الأربعاء الأسود[1] عندما ذهبت تجاوزات بطاقة الائتمان الخاصَّة بزوجته بكُلِّ شيءٍ باستثناء بعض الطُّوب والملاط. وبينما يبحث عن فكرةٍ جديدةٍ، قرأ في قسم أسلوب الحياة في جريدة إفطاره أَنَّ النِّساء السَّوداوات ينفقن خمسة أضعاف ما تنفقه البيضاوات عَلَى منتجات التَّجميل وتسعة أضعاف ما ينفقنه عَلَى شعرهنَّ. متَّخِذًا مِنْ زوجته، شيلا، نموذجًا للمرأة البيضاء، بدأ لعاب بول كينج يسيل. وكَشَفَ بحثٌ إضافيٌّ بسيطٌ في مكتبته المحلِّيَّة عن صناعةٍ بملايين الجنيهات. عند ذلك اشترى بول كينج محلَّ جزارةٍ مهجورٍ عَلَى طريق ويلْزدِن السَّريعة، واكتشف أندريًا مِنْ صالون في هارلزدن، ومنح تصفيف شعر السُّود فرصةً. وكان نجاحًا فوريًّا. اندهش مِنَ اكتشاف أَنَّ النِّساء مِنْ ذوات الدَّخل المنخفض كُنَّ في الواقع مستعِدَّاتٍ لإنفاق مئات الجنيهات شهريًّا عَلَى شعرهنَّ، بَلْ والأكثر عَلَى الأظافر

1 ـ في السياسة وفي الاقتصاد يشير «الأربعاء الأسود» إلى 16 سبتمبر 1992، عندما اضطرت حكومة المحافظين البريطانية لسحب الجنيه الإسترليني من آلية سعر الصرف الأوروبية ERM بعد أن عجزت الحكومة في إبقاء الجنيه فوق الحد الأدنى المتفق عليه في ERM. قررت بريطانيا الانسحاب من اتفاقية ERM لتثبيت سعر الصرف: ليتخذ الجنيه الإسترليني قيمته الحقيقية في سوق العملات الأجنبية والتي انخفضت إلى حدود 2.2 مارك للجنيه الإسترليني الواحد بعدما كان يعادل 2.95 في ظل الاتفاقية. (المترجم).

والإكسسوارات. شَعَرَ باستمتاعٍ غامضٍ عندما أوضحت له أندريًا في البداية أَنَّ الألم الجسديَّ جزءٌ مِنَ العمليَّة أيضًا. والجزء الأفضل في الأمر هنا أَنَّه لا يُوجد احتمالٌ لرفع دعاوى قضائيَّةٍ - فهُنَّ يتوقَّعن الحروق. عملٌ مثاليٌّ.

«هيًّا، يا أندريًّا، يا حُبِّي، امنحيها عرضًا مجَّانيًّا،» قال بول كينج، وهو يصرخ في موبايلٍ عَلَى هيئة قالب طوب فوق ضجيج أعمال البناء في صالونه الجديد، الَّذِي سيُفتتح في ويمبلي. «ولكن لا تجعلي مِنْ ذلك عادةً.»

عادت أندريًّا إِلَى أَيرِي بالأخبار السعيدة. «كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام، يا عزيزتي. سيكون هذا عَلَى حسابنا.»

«ولكنْ ما ــــ» حدَّقت أَيرِي في انعكاس هيروشيما فيها. «ما الَّذِي يمكن ــــ»

«ارتدي منديل شعرك مرَّةً أخرى، واتَّجهي يسارًا في خروجك مِنْ هنا، وسيري في الطَّريق السَّريعة حتَّى تَصِلِي إِلَى محلٍّ اسمه روشي للعناية بالشَّعر. خذي هذه البطاقة وإخبريهم أَنَّ ب. ك. أرسلوك. خُذي ثمانية علبٍ مِنَ الشَّعر الأسود رقم 5 مع صمغٍ أحمرَ وتعالي إِلَى هنا لحلٍّ سريع.»

«شعرٌ؟» كرَّرت أَيرِي مِنْ خلال المخاط والدُّموع. «*شعرٌ مُستعارٌ؟*»

«فتاةٌ غبيَّةٌ. ليس مُستعارًا. إِنَّه حقيقيٌّ. وعندما يكون عَلَى رأسك سيكون شعرًا حقيقيًّا. اذهبي!»

جرَّت أَيرِي نفسها إِلَى خارج ب. ك. وهي تنشج مثل الأطفال ومضت عَلَى الطَّريق السَّريعة، وهي تحاول أَنْ تتجنَّب انعكاس صورتها عَلَى نوافذ المحلَّات. ومع وصولها إِلَى محلِّ روشي بذلَت أفضل ما تستطيع لكَيْ تلملم نفسها، ووضعت يدها اليُمنى عَلَى بطنها واندفَعَت عبر الباب.

كان محلُّ روشي مُظلمًا ومُفعمًا للغاية بنفس الرَّائحة في ب. ك: الأمونيا وزيت جوز الهند، الألم ممزوجًا بالبهجة. عَلَى الوهج الخافت المنبعث مِنْ شريط إضاءةٍ وامضٍ استطاعت أَيرِي أَنْ ترى أَنَّه ليست هناك أرففٌ للحديث عنها، ولكنْ عوضًا عن ذلك تكوَّمت منتجات العناية بالشَّعر مثل جبالٍ مِنْ عَلَى الأرضيَّة وصعودًا، بينما الإكسسوارات (أمشاطٌ، وشرائط، وطلاء الأظفار) مشبوكةٌ عَلَى الجدران مع السِّعر

مكتوبًا بالفلوماستر بجوارها. والعرض الوحيد لأيِّ نوعٍ مميَّز هو وضعه تحت السقف تمامًا في حلقةٍ بمساحة الغرفة؛ لتأخذ صدارة الموقع كمجموعةٍ مِنْ فروات الرُّؤوس القُربانيَّة أَوْ تذكارات الصَّيد. شعرٌ. خصلاتٌ طويلةٌ مُثبَّتةٌ عَلَى مسافة عدَّة بوصاتٍ عن بعضها. وتحت كُلِّ واحدةٍ لافتةٌ كبيرةٌ مِنَ الورق المقوَّى تشرح أصولها:

2 متر. تايلنديٌّ طبيعيٌّ. مفرودٌ. كستنائيٌّ.

1 متر. باكستانيٌّ طبيعيٌّ. مفرودٌ مع تموُّج. أسود.

5 أمتار. صينيٌّ طبيعيٌّ. مفرودٌ. أسود.

3 أمتار. شعرٌ صناعيٌّ. تجعيدٌ حلزونيٌّ. ورديٌّ.

بَلَغَت أَيرِي طاولة الدَّفع. تهادت امرأةٌ ممتلئةٌ بضخامةٍ ترتدي السَّاري نحو ماكينة النَّقد وعادت ثانيةً لتُسلِّم خمسة وعشرين جنيهًا لفتاةٍ هنديَّةٍ شعرها مقصوصٌ عشوائيًّا بالقرب مِنْ فروة الرَّأس.

«ورجاءً لا تنظري لي بتلك الطَّريقة. خمسةٌ وعشرون سعرٌ مناسبٌ جدًّا. أنا أخبرك، لا أستطيع أَنْ أفعل أَيَّ شيءٍ آخر تجاه كُلِّ تلك الأطراف المتشقِّقة.»

عبَّرَت الفتاة عَنِ اعتراضها بلغةٍ أخرى، والتقطَت حقيبة الشَّعر موضع الاهتمام مِنْ عَلَى الطَّاولة، وأَظهَرَت كما لَوْ أَنَّها ستغادر بها، ولكنَّ المرأة الأكبر اختَطَفَتها.

«رجاءً، لا تُحرجي نفسك أكثر مِنْ ذلك. ونحن - الاثنتين - رأينا النِّهايات. خمسةٌ وعشرون هو كُلُّ ما يمكنني إعطاؤك إيَّاه في المقابل. ولَنْ تجدي ما هو أفضل في بعض الأماكن الأخرى. رجاء الآن،» قالت، وهي تنظر عبر كتف الفتاة إِلَى أَيرِي، «لديَّ زبائن آخرون.»

رأت أَيرِي دموعًا ساخنةً، لا تختلف عن دموعها، تنبع مِنْ عيني الفتاة. بدَتْ متجمِّدةً للحظةٍ، وهيَ ترتجف بشكلٍ خافتٍ جدًّا مِنَ الغضب؛ ثُمَّ هبطت بيدها عَلَى الطَّاولة، وجرفت الخمسة والعشرين جنيهًا الَّتي لها واتَّجهت نحو الباب.

هزَّت السَّيِّدة البدينة ذقنها في ازدراءٍ بعد اختفاء الفتاة. «ناكرةٌ للجميل.»

نَزَعَت علامةً لاصقةً عَنْ ورقتها البُنِّيَّة وألصقتها عَلَى حقيبة الشَّعر. كُتبَ عليها: **«6 أمتار. هنديٌّ. مفرودٌ. أسود/أحمر.»**

«نعم، يا عزيزتي. ما الَّذِي يمكنني فعله؟»

كرَّرَت أَيرِي تعليمات أندريًا وسلَّمَت البطاقة.

«ثماني حِزَم؟ ذلك في حدود ستَّة أمتارٍ، أليس كذلك؟».

«لا أعرف.»

«نعم، نعم، إِنَّه كذلك. هل تريدينه مفرودًا أَمْ مموَّجًا؟»

«مفرودًا. مفرودًا تمامًا.»

أجرت السَّيِّدة البدينة عمليَّةً حسابيَّةً صامتةً، ثُمَّ التقطت حقيبة الشَّعر الَّتِي تركَتها الفتاة الَّتِي غادرت للتَّوِّ. «هذا هو ما تبحثين عنه. لَمْ أكن قادرة عَلَى حَزمِه، أنت تفهمين. لكنَّه نظيفٌ حتمًا. هَلْ تريدينه؟»

بَدَتْ أَيرِي مرتابةً.

«لا تقلقي بخصوص ما قلته. لا أطراف متشقِّقة. إِنَّها فتاةٌ سخيفةٌ فقط تحاول الحصول عَلَى أكثر ممَّا تستحقُّ. بعض النَّاس ليس لديهم فهمٌ للاقتصاديَّات البسيطة. يؤلمها قصُّ شعرها، هَلْ تتوقَّع مليون جنيهٍ أَمْ شيئًا مجنونًا. شعرٌ جميلٌ، ما لديها. عندما كنتُ صغيرةً، أوه، كان شعري جميلًا أيضًا، هه؟» وانفَجَرَت السَّيِّدة البدينة في ضحكةٍ ذات نغمةٍ صاخبةٍ، وجعلت شفتها العليا شاربها يرتجف. ثُمَّ هدأت الضِّحكة.

«اخبري أندريًا أنَّ هذا سيكون سبعةً وثلاثين ونصفًا. نحن النِّساء الهنديَّات لدينا الشَّعر الجميل، هاه؟ الجميع يريدونه!»

وقفَت امرأة سوداء مع أطفالٍ في عربةِ توائم تنتظر خلف أَيرِي مع علبةٍ مِنْ دبابيس الشَّعر. مصَّت أسنانها. «أنتم أَيُّها النَّاس تظنُّون أَنَّكم السَّيِّد شخصيَّةٌ مهمَّةٌ.» تمتمَت، لنفسها بشكلٍ جزئيٍّ. «بعضنا سعداء بشعرنا الأفريقي، شكرًا كثيرًا لك. أنا لا أريد شراء بعض شعر فتاةٍ هنديَّةٍ مسكينةٍ. وأتمنَّى عَلَى الله أَنْ أستطيع شراء منتجات شعر السُّود مِنْ أُناسٍ سودٍ ولَوْ لمرَّةٍ واحدةٍ. كيف سيمكننا أَنْ ننجح في هذا البلد إذا لَمْ نقم بشؤوننا الخاصَّة؟»

أصبح الجلد حول فم السَّيِّدة البدينة مشدودًا جدًّا. بدأت في الحديث بالجُملة، وهي تضع شعر أَيرِي في حقيبةٍ وتكتب لها الرَّصيد، وتوجِّه كُلَّ تعليقاتها إِلَى المرأة مِنْ

خلال أَيرِي، بينما تبذل كُلَّ جهدها لتجاهل مُداخلات النِّساء الأخريات. «لا تُحبِّين التَّسوُّق هنا، إذنْ رجاءً لا تتسوَّقي هنا - هَلْ يجبرك أحدٌ؟ لا، هَلْ أيُّ أحدٍ؟ إنَّه لأمرٌ مدهشٌ: النَّاس، والفظاظة. أنا لستُ عنصريَّةً، ولكنَّني لا أستطيع أَنْ أفهم الأمر، أنا فقط أوفِّر خدمةً، خدمةً. لا أحتاج إِلَى إساءة معاملةٍ، اتركي مالك فوق الطَّاولة فقط، إذا كنتُ سأواجه إساءةً، فأنا لَنْ أقوم بالخدمة.»

«لا أحد يوجِّه لك إساءةً، يا للمسيح!»

«هَلْ هو ذنبي إذا كُنَّ يردن ذلك الشَّعر المفرود - وبشرةً أَفتح أحيانًا، مثل مايكل جاكسون، أهو خَطَئي أيضًا؟ إنَّهم يخبرونني أَلَّا أبيع مبيِّضات د. بيكوك[1] - الصُّحف المحلِّيَّة، يا إلهي، يالها مِنْ فوضى! - ثُمَّ بعدها هُمْ يشترونها - خُذِي هذا الإيصال لـ أندريًا، هَلْ تفعلين يا عزيزتي، رجاءً؟ أنا - فقط - أحاول كسب لقمة عيشٍ في هذا البلد مثل البقيَّة. ها أنت - يا عزيزتي - ها هو شعرك.»

التفتت المرأة نحو أَيرِي بشكلٍ مدروسٍ ووضعت المبلغ المتبقِّي عَلَى الطَّاولة في عنف غاضب. «بحقِّ اللَّعنة!»

«لا أملك حيلةً إذا كان ذلك ما يريدونه - العرض، والطَّلب. واللُّغة السَّيِّئة، لَنْ أتسامح معها! اقتصادياتٌ بسيطةٌ - أرجو أَلَّا تمانعي في الخطو إِلَى الخارج، يا عزيزتي - وأنتِ، لا؛ لا تأتي ثانيةً، رجاءً، سأتَّصل بالشُّرطة، لَنْ أكون تحت التَّهديد، الشُّرطة، سأهاتفهم.»

«نعم، نعم، نعم.»

أمسكَت أَيرِي بالباب لأجل عربة الأطفال المزدوجة، ثُمَّ أخذت جانبًا لتساعد في حملها فوق العتبة الأماميَّة. في الخارج وضعت المرأة دبابيس شعرها في جيبها. بدت مُنهَكةً.

«أكره ذلك المكان،» قالت. «ولكنَّني أحتاج إِلَى دبابيس شعرٍ.»

«أنا أحتاج إِلَى شعرٍ،» قالت أَيرِي.

هزَّت المرأة رأسها. «*لديكِ شَعرٌ*،» قالت.

---

1 - ماركة لمواد تبييض الأسنان. (المترجم).

بعد خمس ساعاتٍ ونصف السَّاعة، وبفضل عمليَّةٍ شاقَّةٍ معنيَّةٍ بوصل شعرِ شخصٍ ما آخر بقطاعاتٍ صغيرةٍ مِنْ شَعر أَيرِي ذي البوصتين طولًا وتثبيته بالصَّمغ، كانت أَيرِي جونز تملك رأسًا كاملًا مِنَ الشَّعر، المفرود، الأسود المحمرّ.

«هَلْ هو مفرودٌ؟» سألت، مُكذِّبةً شهادة عينيها بنفسها.

«مفرودٌ لأقصى حدٍّ،» قالت أندريًا، معبِّرةً عن إعجابها بصنع يديها. «لكنْ - يا عزيزتي - سينبغي عليك أَنْ تجدليه بطريقةٍ صحيحةٍ إذا أردتِه أَنْ يبقى. لماذا لا تدعيني أفعل ذلك؟ لَنْ يدوم إذا تركتِه منسدلًا هكذا.»

«سيبقى،» قالت أَيرِي، مسحورةً بصورتها في المرآة. «ينبغي أَنْ يفعل.»

إنَّه - مِلَّة - ينبغي أَنْ يراه لمرَّةٍ واحدةٍ، عَلَى أيَّة حالٍ، مرَّةً واحدةً فقط. ولضمان وصولها إليه في حالةٍ بكرٍ، قَطَعَت كُلَّ الطريق إِلَى منزل آل إقبال بيديها عَلَى شعرها، وهي تشعر بالرُّعب مِنْ أَنَّ الرِّيح قَدْ تقتلعه.

أجابت ألسانا نداء الباب. «أوه، مرحبًا. لا، إِنَّه ليس هنا. في الخارج. لا تسأليني أين، هو لا يخبرني بشيءٍ. أنا أعرف أين هو ماجد في معظم الوقت.»

سارت أَيرِي إِلَى الرُّدهة واقتنصت لمحةً خفيَّةً لنفسها في المرآة. لا يزال هناك وكُلُّ شيءٍ في مكانه الصَّحيح.

«هَلْ يمكنني الانتظار هنا؟»

«بالتَّأكيد. تبدين مختلفةً، يا عزيزتي. هَلْ فقدتِ وزنًا؟»

توهَّجت أَيرِي. «قَصَّة شعرٍ جديدةٌ.»

«أوه نعم... تبدين مثل قارئة نشرةٍ. جميلٌ جدًّا. الآن إِلَى غرفة المعيشة، رجاءً. عار أخي وصديقتها المُقرفة هنا، ولكنْ حاولي أَلَّا تجعلي الأمر يزعجكِ. أنا أعمل في المطبخ وصمد يزيل الأعشاب الضَّارَّة، لذا خفِّضن الضَّجيج.»

سارت أَيرِي إِلَى غرفة المعيشة. «يا للهول!» صرخَت نينا لمرآها تقترب. «أَيَّ لعنةٍ تشبهين!»

لقَدْ بَدَتْ جميلةً. لقَدْ بَدَت مُستقيمةً. طبيعيَّةً. وجميلةً.

«تبدين مثل شخصٍ غريب الأطوار! اللَّعنة عَلَيَّ! ماكسين، يا رجل، تحقَّقي مِنَ الأمر. يا للمسيح، يا أَيرِي. ما الَّذِي كنتِ تسعين إليه بالضبط؟»

أليس ذلك واضحًا؟ فردِ الشَّعر. انسداله مُنسابًا. ومرونته.

«أعني، ماذا كانت الخطَّة الكُبرى؟ ميريل ستريب[1] الزِّنجيَّة؟» ضمَّت نينا نفسها مثل لحافٍ وضحكت وحدها بسخافة.

«يا عار أخي!» جاء صوت ألسانا مِنَ المطبخ. «تتطلَّب الخياطة تركيزًا. اخرسي، يا آنسة ثرثارة، رجاءً!»

جذبَت «صديقة» نينا «المقرفة»، المعروفة أيضًا كرفيقةٍ جنسيَّةٍ لنينا، وهي فتاةٌ نحيلةٌ ومثيرةٌ تُدعى ماكسين بوجهٍ خَزَفِيٍّ جميلٍ، وعينَين داكنتَين، والكثير مِنَ الشَّعر البُنِّيِّ المجعَّد، قَصَّة شعر أَيرِي الغريبة. «*ما الَّذِي فعلتِه؟ لقَدْ كان لديكِ شعرٌ جميلٌ*، يا رجل. مجعَّدٌ بالكامل وجامحٌ. لقَدْ كان رائعًا.»

لَمْ تستطع أَيرِي أَنْ تقول شيئًا للحظةٍ. لَمْ تضع في اعتبارها أيَّ احتمالٍ لأَنْ تبدو أَيَّ شيءٍ أقلَّ مِن رائعةٍ.

«حَصَلتُ عَلَى قَصَّة شعرٍ فقط. ما الخطير في الأمر؟»

«ولكن ليس ذلك *شعركِ*، بحقِّ اللَّعنة. هذا لامرأةٍ باكستانيَّةٍ فقيرةٍ مظلومةٍ تحتاج إِلَى النُّقود مِنْ أجل أطفالها،» قالت نينا، وهي تجذب بعضًا منه وتحصل عَلَى حفنةٍ منه كمكافأةٍ. «أوه ياللقرف!»

أصيبَت نينا وماكسين بصدمةٍ هيستيريًا.

---

1 ـ ماري لويس ستريب (اسم الشهرة ميريل ستريب): ولدت في 22 يونيو 1949. ممثلة أمريكية ولدت في نيو جيرسي، الولايات المتحدة الأمريكية، تعتبر واحدة من أفضل الممثلات على قيد الحياة حاليا، تعرف بقدرتها العجيبة على اتقان جميع اللهجات. تميزها في العديد من الأدوار جعلها تستحق لقب الأسطورة الحية. تعد الممثلة الأكثر ترشيحا في تاريخ جوائز الأوسكار بـ 19 ترشيحاً، منها 15 ترشيحا لجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة، وأربع ترشيحات لجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة. وفازت ستريب بثلاث جوائز من تلك الترشيحات. الأولى جائزة أفضل ممثلة ثانوية عام 1980 عن دورها في فيلم كرامر ضد كرامر. والثانية جائزة أفضل ممثلة رئيسة عام 1983 عن دورها في فيلم اختيار صوفي. والثالثة جائزة أفضل ممثلة رئيسة عام 2012 عن دورها في فيلم المرأة الحديدية. (المترجم).

«تَوَقَّفا عن *ذلك* فقط. حسنًا؟» تراجعَت أَيرِي إِلَى مقعدٍ بذراعينِ وسَحَبت ركبتَيها إِلَى تحت ذقنها. وهي تحاول أَنْ تبدو عفويَّةً، سألَت: «إذنْ... امم... أين مِلَّة؟»

«هَلْ يعني ذلك أَنَّ كُلَّ ما حدث بمساعدته؟» سألَت نينا، في دهشةٍ. «يالغباء ابن - عمَّتي - الوغد؟»

«لا. اغربي عنِّي.»

«حسنًا، هو ليس هنا. لديه عصفورةٌ جديدةٌ. لاعبة جمباز مِنَ الكتلة الشَّرقيَّة، ببطنٍ مثل لوح الغسيل. ليست جذَّابةً، بثديٍ مُذهلٍ، ولكنْ بمؤخِّرَةٍ صغيرةٍ جدًّا. اسمها... اسمها؟»

«ستازيا،» قالت ماكسين، وهي تستجمع نفسها بطريقة زعيمات *المدرسة*. «أَوْ بعض هذا الهراء.»

غرقَت أَيرِي أكثر في اليَايات الجديدة لمقعد صمد المفضَّل.

«أَيرِي، هَلْ تقبلينَ بنصيحةٍ؟ منذ عرفتُكِ، وأنتِ تتبعين هذا الفتى في كُلِّ مكانٍ مثلَ كلبٍ ضائعٍ. وفي ذلك الوقت ظَلَّ يُقبِّل ويعانق الجميع، *الجميع* باستثنائك. حتَّى أَنَّه *تحرَّش بي* أنا، وأنا ابنة خاله مِنَ الدَّرجة الأولى، بحقِّ اللَّعنة.»

«وبي،» قالت ماكسين، «وأنا لست ميَّالةً إِلَى تلك الطَّريقة.»

«أَلَمْ تتساءلي قطُّ لماذا لَمْ يقبِّلك؟»

«لأَنَّني قبيحةٌ. وبدينةٌ. بشعرٍ أفريقيٍّ.»

«لا، أَيَّتها المعتوهة، لأَنَّك كُلُّ ما لديه. هو يحتاجكِ. أنتما - الاثنين - لديكما تاريخٌ. أنتِ تعرفينه بشكلٍ حقيقيٍّ. انظري كيف هو مشتَّتٌ. في يومٍ ما يكون حالةُ اللّهُ هذا، اللّهُ ذاك. وفي الدَّقيقة التَّالية يكون الأمر شقراواتٌ مُفلساتٌ كبيراتٌ، لاعبات جمبازٍ روسيَّاتٌ، وتدخين السِّنسميلَّا[1]. هو لا يعرف مؤخِّرته مِنْ كوعه. مثل والده تمامًا. لا يعرف مَنْ يكون. ولكنَّك تعرفينه، عَلَى الأقلِّ بقدرٍ ما، لقَدْ عرفتِ كُلَّ جوانبه. وهو يحتاج إِلَى ذلك. أنتِ مختلفةٌ.»

1 - نوع أكثر قوة من الماريجوانا يؤخذ من أوراق النباتات الأنثى فقط. (المترجم).

قلبت أَيرِي عينَيها. أحيانًا تريدين أَنْ تكوني مختلفةً. وأحيانا ستتنازلين عَنِ الشَّعر الَّذِي فوق رأسك لتكوني تمامًا مثل كُلِّ شخصٍ آخر.

«انظري: أنتِ فتاةٌ بارعةٌ، يا أَيرِي. لكنَّك تعلَّمتِ كُلَّ أنواع القرف. ينبغي عليك أَنْ تعيدي تعليم نفسك. ادركي قيمتكِ، وتوقَّفي عَنِ التَّصرُّف بدونيَّةٍ، واحصلي عَلَى بعض الحياة، يا أَيرِي. احصلي عَلَى فتاةٍ، أَوْ احصلي عَلَى فتًى، ولكنِ احصلي عَلَى حياةٍ.»

«أنتِ فتاةٌ مثيرةٌ جدًّا، يا أَيرِي.» قالت ماكسين بعذوبةٍ.

«نعم. صحيحٌ.»

«ثِقِي فيها، إنَّها سحاقيَّةٌ جامحةٌ،» قالت نينا، وهي تعابِث شعر ماكسين بمودَّةٍ وتعطيها قبلةً. «ولكنَّ الحقيقة أَنَّ قَصَّة شَعر باربرا سترايسند[1] الَّتِي حصلتِ عليها هناك لا تقدِّم أَيَّ شيءٍ لكِ. كان الشَّعر الأفرو جميلًا، يا رجل. لقَدْ كان شرسًا. لقَدْ كان شعركِ.»

ظَهَرَت ألسانا فجأةً في المدخل مع صحنٍ ضخمٍ مِنَ البسكويت ونظرة ارتيابٍ شديدٍ. ألقَت ماكسين قبلةً لها.

«بسكويت، يا أَيرِي؟ تعالي تناولي بعض البسكويت. معي. في المطبخ.»

تذمَّرَت نينا. «لا تفزعي، يا عمَّتي. نحن لا نجنِّدها في عبادة صافو[2].»

«أنا لا *أهتمُّ* بما تفعلنه. أنا لا *أعرف* ما تفعلنه. أنا لا *أريد* أن أعرف شيئًا هكذا.»

«إنَّنا نشاهد *التِّليفزيون*.»

كانت مادونا[3] عَلَى شاشة التِّليفزيون، تحرِّك يديها حول ثديَين مخروطيَّي الشَّكل.

1 ـ باربرا سترايسند (24 أبريل 1942): مطربة وممثلة ومخرجة ومنتجة أمريكية فازت باثنين من جوائز الأوسكار، وثماني جوائز جرامي، وأربع جوائز إيمي، وجائزة توني الخاصة، وجائزة معهد الفيلم الأمريكي. (المترجم).

2 ـ شاعرة إغريقية ولدت في جزيرة لسبوس في بحر إيجة باليونان بين عامي 630 و612 قبل الميلاد وتوفيت عام 570 قبل الميلاد تزوجت برجل وولدت له طفلةً، ولكنها فشلت في الحياة الزوجية مع زوجها حيث أصيب بالعجز الجنسي، فلم يستطع أن يشبع غريزتها، ولم تستطع هي الأخرى كبت الغريزة فنفرت من الرجال واتجهت لحوبنات جنسها من العذارى فمارست معهن السحاق حتَّى عشقته وألفته معهن واستغنت به عن الرجال. (المترجم).

3 ـ مادونا، أو مادونا لويز كيكون: ولدت في 16 أغسطس 1958 في باي سيتي، في ولاية ميتشجان. فنانة استعراضية ومغنية وراقصة وكاتبة أغانٍ ومنتجة ومخرجة وممثلة وعارضة أزياء وكاتبة وسيدة أعمال وناشطة إنسانية أمريكية من أصول إيطالية. وصلت إلى مستوى غير مسبوق من الشهرة، وحققت أغانيها نجاحًا شعبيًّا كبيرًا. (المترجم).

«لطيفٌ جدًّا، أنا متأكِّدةٌ،» قالت ألسانا في انتقادٍ، صارخةً عَلَى ماكسين. «بسكويت، يا أَيرِي؟»

«سأحبُّ بعض البسكويت،» غمغمَت ماكسين مع رفرفةٍ مِنْ رموشها الصِّناعيَّة المبالغ فيها.

«أنا واثقةٌ،» قالت ألسانا ببطءٍ ووضوحٍ، وهي تترجم الدِّلالة. «أنا لا أملك النَّوع الَّذِي تحبِّينه.»

انفجرَت نينا وماكسين في الضِّحك مِنْ جديدٍ.

« أَيرِي؟» قالت ألسانا، وهي تشير نحو المطبخ مع تكشيرةٍ. تبعتها أَيرِي إِلَى الخارج.

«إنَّنِي ليبراليَّةٌ بنفس القدر الَّذِي عليه أَيُّ شخصٍ آخر،» شَكَتْ ألسانا، ما إِنْ أصبحتا وحدهما. «لكنْ لماذا عليهما دائمًا أَنْ تضحكا وتصنعا أغنيةً ورقصةً بخصوص كُلِّ شيءٍ؟ لا أستطيع أَنْ أُصدِّق أَنَّ الشُّذوذ الجنسيَّ بهذا القدر مِنَ المتعة. فالجنس مع الآخر بالتَّأكيد ليس كذلك.»

«لا أظنُّ أَنَّنِي سأرغب في سماع تلك الكلمة في هذا المنزل مرَّةً أخرى،» قال صمد بوجهٍ جامدٍ، وهو يخطو مِنَ الحديقة إِلَى الدَّاخل، واضعًا قفَّازات جزِّ الأعشاب عَلَى الطَّاولة.

«أَيَّة واحدةٍ؟»

«الاثنتين. أنا أحاول جهدي لإدارة منزلٍ عَلَى التقوى.»

رصد صمد هيئةً عَلَى طاولة مطبخه، وقطَّب، وقرَّر أَنَّها بالتَّأكيد أَيرِي جونز وبدأ روتينه البسيط الَّذِي اعتاده الاثنان. «مرحبًا، يا آنسة جونز. كيف حال والدك؟»

هزَّت أَيرِي كتفيها مباشرةً. «أنت تراه أكثر ممَّا نفعل. كيف حال الرَّبِّ؟»

«بأفضل حالٍ، شكرًا لكِ. هَلْ رأيتِ ابني الَّذِي لا يصلح لشيءٍ مؤخَّرا؟»

«ليس مؤخَّرا.»

«ماذا عن ابني الجيِّد؟»

«ليس منذُ سنواتٍ.»

«هَلْ تخبرين الَّذِي لايصلح لشيءٍ أَنَّه لا يصلح لشيءٍ عندما تجدينه؟»

«سأبذل جهدي، يا سيِّد إقبال.»

«بارك الله فيكِ.»

«وأنتَ بالصِّحَّة والسَّلامة.»

«الآن، لَوْ تسمحين لي.» تناول صمد حصيرة صلاته مِنْ أعَلَى الثَّلَّاجة وغادر الغرفة.

«ما الأمر *معه*؟» سألت أيرِي، وهي تلاحظ أَنَّ صمد ألقى حواره بحماسٍ أقلَّ. «يبدو، لا أعرف، *حزينًا*.»

تنهَّدَت ألسانا. «هو حزينٌ. يشعر كما لَوْ أنَّه أفسد كُلَّ شيءٍ. بالطَّبع، هو *أفسد* كُلَّ شيءٍ، لَكِنْ مع ذلك مرَّةً أخرى، مَنِ الَّذِي سيُلقي أوَّل حجرٍ، وإلى آخره: إنَّه يُصلِّي ويُصلِّي. ولكنَّه لَنْ ينظر مباشرةً إِلَى الحقيقة: مِلَّة يتسكَّع مع يعلم الله أيَّ نوعٍ مِنَ النَّاس، دائمًا مع الفتيات البيضاوات، وماجد....»

تذكَّرَت أيرِي حُبَّها الأوَّل محاطًا بهالةٍ غامضةٍ مِنَ الكمال، كوهمٍ تولَّد مِنْ خيبات الأمل الَّتِي منحها مِلَّة إيَّاها عَلَى مرِّ السَّنوات.

«لماذا، ما خطب ماجد؟»

عَبست ألسانا ووصلت إِلَى أعَلَى رفٍّ في المطبخ، حيث التقطَت مظروف بريدٍ هزيلٍ وناوَلَته إِلَى أيرِي. أخرجَت أيرِي الرِّسالة والصُّورة بداخله.

الصُّورة لماجد، شابًّا طويلًا الآن، مميَّز المظهر. شعرُه بنفس السَّواد الفاحم لشعر أخيه، ولكنَّه ليس ممشَّطًا للأمام عَلَى وجهه. وإنَّما مفروقٌ عَلَى الجانب الأيسر، ومُمَلَّسٌ، ومسحوبٌ خلف الأذن اليُمنى. يرتدي بذلةً مِنَ التُّويد وما بدا - على الرَّغم مِنْ أَنَّ المرء ما زال لا يستطيع التَّأكُّد، فالصُّورة ليست جيِّدةً - مثل ربطة عنقٍ. يمسكُ بقبَّعة شمسٍ كبيرةٍ في يدٍ. وبالأخرى يصافح يد الكاتب الهنديّ البارز السِّير ر. ڤ. ساراسواتي. كان ساراسواتي يتزيَّا بالأبيض، مع قبَّعته؛واسعة الحوافِّ عَلَى رأسه وعود قصبٍ متباهٍ في يده الحُرَّة. تموضع الاثنان للصُّورة في نوعٍ ما مِنْ حالة الرِّضا النَّفسي، وهما يبتسمان بفخر ويبدوان أمام العالم كُلِّه كما لَوْ سيريِّتان بالتَّبادل عَلَى ظهر أحدهما الآخر أَوْ أَنَّهما فعلًا ذلك للتَّوِّ. كانت شمس منتصف النَّهار ساطعةً وتنعكس عَنِ العتبات الأماميَّة لجامعة دكَّا، حيث تَمَّ التقاط المشهد كُلِّه.

مسحت ألسانا بقعةً عَنِ الصُّورة بسبَّابتها. «أنتِ تعرفين ساراسواتي؟»

أومأت أَيرِي. إنَّه نصٌّ إلزاميٌّ في الثَّانويَّة العامَّة: *رتقٌ في الزَّمن*، لـ ر. ف. ساراسواتي. قِصَّةٌ حلوةٌ مِنَ الأيَّام الأخيرة للإمبراطوريَّة.

«صمد يكره ساراسواتي، تفهمين. يدعوه المرتدَّ الاستعماريَّ، لاعق مؤخِّرات الإنجليز.»

التقطَت أَيرِي فقرةً عشوائيَّةً مِنَ الخطاب وقرَأت بصوتٍ مسموعٍ.

كما يمكنكم أَنْ تروا، لقَدْ كنتُ محظوظاً بما يكفي لكَيْ ألتقي كاتب الهند الرَّاقي جدًّا في يومٍ مُشرقٍ مِنْ مارس. بعد الفوز في مسابقةٍ للمقال (كان عنواني: بنجلاديش - إلامَ يمكن أَنْ تتحوَّل؟)، وسافرتُ إِلَى دكَّا لأستلم جائزتي (شهادةً ومكافأةً نقديَّةً صغيرةً) مِنَ الرَّجل العظيم بنفسه في احتفالٍ بالجامعة. أشعر بالفخر لقول إنَّه أبدى إعجابًا بي وقضينا فترة بعد ظهيرةٍ ممتعةٍ جدًّا معًا: جلسة شايٍ طويلةٌ وودِّيَّةٌ، تلتها نزهةٌ عبر أكثر مشاهد دكَّا الطَّبيعيَّة جاذبيَّةً. خلال محادثاتنا المطوَّلة أثنى السِّير ساراسواتي علَى رؤيتي، بَلْ وذهب بعيدًا إِلَى حدِّ القول (وأقتبسُ) إنَّني «شابٌّ مِنَ الطِّراز الأوَّل» - تعليقٌ أعتزُّ به! واقترح أَنَّ مستقبلي قَدْ يكمن في القانون، أَوِ الجامعة، أَوْ حتَّى تخصُّصه في الكتابة الإبداعيَّة! قلتُ له إِنَّ المهنة الأولى المشار لها هي الأقرب إِلَى قلبي وإِنَّه قَدْ ظلَّت غايتي لفترةٍ طويلةٍ أَنْ أجعل الدُّول الآسيويَّة أماكن معتبرةً، حيثُ يسود النِّظام، ويكون هناك استعدادٌ للكوارث، ولا يكون الفتى الصَّغير عُرضةً للخطر مِنْ أصِيصٍ يسقط(!). القوانين الجديدة، النُّصوص الجديدة، مطلوبةٌ (أخبرته) للتَّعامل مع مصيرنا مِنْ سوء الحظِّ، مع الكوارث الطَّبيعيَّة. ولكنَّه صحَّح لي: «ليس مصيرًا،» قال. «نحن الهنود، ونحن - البنجاليِّين - ونحن - الباكستانيِّين - نفلت أيدينا في أغلب الأحيان، ونصرخ في وجه التَّاريخ: المصير! ولكنَّ الكثيرين مِنَّا غير متعلِّمين، وكثيرين منَّا لا يفهمون العالم. ينبغي أَنْ نكون مثلَ الإنجليز أكثر. الإنجليز يكافحون المصير حتَّى الموت. هُمْ لا ينصتون إِلَى التَّاريخ ما لَمْ يخبرهم بما يرغبون في سماعه. نحن نقول: استوجَبَ الحدوث، ليس مستوجِبًا للحدوث. لا شيء يفعل. خلال بعد ظهيرةٍ واحدٍ تعلَّمتُ مِنْ هذا الرَّجل العظيم أكثر مِنْ —

«إنَّه لا يتعلَّم شيئًا!»

خطا صمد مِنْ جديدٍ إِلَى داخل المطبخ في غضبٍ وألقى الغلَّاية عَلَى الموقد. «لا يتعلَّم شيئًا مِنْ رجلٍ لا يعرف شيئًا! أين لحيته؟ أين قميصه؟ أين تواضعه؟ عندما يقول الله إنَّه ستكون هناك عاصفةٌ، ستكون عاصفةٌ. وعندما يقول زلزالٌ، فسوف يكون زلزالٌ. بالطَّبع ينبغي أَنْ يكون! هذا هو - بالتَّحديد - السَّبب في أَنَّني أرسلتُ الطِّفل إِلَى هناك - لكَيْ يفهم بالأساس أَنَّنا ضعفاء، أَنَّنا لسنا في موقع التَّحكُّم. ماذا يعني الإسلام؟ ماذا تعني الكلمة، الكلمة بالتَّحديد؟ أَنَّني أُسلِّم. أَنَّني أسلِّم لله. أَنَّني *أُسلِّم* له. هذه ليسَت حياتي، هذه حياته هو. هذه الحياة الَّتِي أدعوها لي هي له يفعل بها ما يشاء. بالتَّأكيد، سأُقذف وأتقلَّب عَلَى الموج، ولنْ يكون هناك شيءٌ لأفعله. لا شيء! الطَّبيعة ذاتها مسلمةٌ، لأَنَّها تخضع للقوانين الَّتِي أصَّلها الخالق فيها.»

«لا تمارس الوعظ في هذا المنزل، يا صمد مياه! هناك أماكن لهذا النَّوع مِنَ الأشياء. اذهب إِلَى المسجد، ولكن لا تفعل ذلك في المطبخ. ينبغي للنَّاس أَنْ يتناولوا الطَّعام هنا ـــ»

«ولكنَّنا لا نخضع تلقائيًّا. نحن مخادعون، نحن أوغادٌ مخادعون، نحن بشرٌ. لدينا الشَّرُّ في داخلنا، الإرادة الحرَّة. ينبغي أَنْ نتعلَّم أَنْ نخضع. هذا ما أرسلت الطِّفل ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال لكَيْ يكتشفه. اخبريني، هَلْ أرسلته لكَيْ يفسد عقله مِنْ قبل ملكةٍ - بريطانيَّةٍ - قديمةٍ - تحكم - وتستعبد - الهنود؟»

«رُبَّما، يا صمد مياه، ورُبَّما لا.»

«لا تفعلي، يا ألسي، أنا أحذِّرك ـــ»

«أوه، هيَّا، أَيُّها المؤلف الرَّديء المسنُّ!» جمعت ألسانا ترهُّلاتها حولها مثل مصارع سومو. «تقول إِنَّنا لا نملك أَيَّة سيطرةٍ، وعلى الرَّغم مِنْ ذلك تحاول دائمًا أَنْ تسيطر عَلَى كُلِّ شيءٍ! خفِّف قبضتك، يا صمد مياه. دع الولد وشأنه. إِنَّه الجيل الثَّاني - لقَدْ وُلد هُنا - ومِنَ الطَّبيعيِّ أَنَّه سيقوم بالأشياء بشكلٍ مختلفٍ. لا يمكنك أَنْ تخطِّط كُلَّ شيءٍ. وفي النِّهاية، ما المقرف جدًّا في الأمر؟ - إذن هو لا يتدرَّب لكَيْ يكون عالمًا[1]، لكنَّه متعلِّمٌ، إِنَّه نظيفٌ!»

«وهَلْ ذلك كُلُّ ما تطلبينه لابنك؟ أَنْ يكون نظيفًا؟»

«رُبَّما، يا صمد مياه، رُبَّما ـــ»

1 - يستخدم الهنود والبنجاليون والباكستانيون لفظ «عالم» بمعنى عالم دين. (المترجم).

«ولا تحدّثيني عن جيلٍ ثانٍ! هو جيلٌ واحدٌ! لا يتجزّأ! أبديٌّ!»

في مكانٍ ما في وسط هذا الجدل، تسلَّلَت أيري مِنَ المطبخ وتوجَّهت نحو الباب الأماميّ. التَقَطَت لمحةً مؤسفةً لنفسها في خدوش وبقع مرآة الصَّالة. بدَت مثل طفل الحبِّ لديانا روس[1] وإنجلبرت همبردينك[2].

«*ينبغي لكَ أَنْ تتركهما يرتكبان أخطاءهما...*» جاء صوت ألسانا مِنْ قلب المعركة، مسافرًا عبر الخشب الرَّخيص لباب المطبخ وإلى الرُّدهة، حيث وقَفَت أيري، في مواجهة صورتها في المرآة، مشغولةً بتمزيق شعر واحدةٍ أُخرى بيديها العاريتين.

***

مِثل أي مدرسة، لجلينارد أوك جغرافيا معقَّدة. ليس أنَّها متاهيَّةٌ في تصميمها بشكلٍ خاصٍّ. لقَدْ بُنيت في مستويَين بسيطَين، الأوَّل في عام 1886 بوصفها إصلاحيَّة (النَّتيجة: مسخٌ أحمرُ كبيرٌ، في ملجأٍ فيكتوريٍّ) ثُمَّ بعدها أُضيف إليها الثَّاني في 1963 عندما تحوَّلَت إِلَى مدرسةِ (النَّتيجة: أحجارٌ رماديَّةٌ ضخمةٌ، ومجلسٌ عقاريٌّ شجاعٌ جديدٌ[3]). تَمَّ ربط المسخَين في 1974 بواسطة جسر مشاةٍ أُنبوبيٍّ هائلٌ مِنَ البولي. غير أَنَّ جسرًا لَمْ يكفِ لجعل المكانين مكانًا واحدًا، أَوْ للحدِّ مِنَ اندفاع أجساد الطُّلاب للانقسام والتَّشظِّي. تعلَّمَت المدرسة عَلَى حسابها أَنَّه لا يمكنك أَنْ توحِّد ألف طفلٍ تحت علامةٍ لاتينيَّةٍ واحدةٍ (تحوَّل رمز المدرسة: *العمل صلاةٌ* - باللَّاتينيَّة - إلى العمل هو أَنْ تُصلِّي - بالإنجليزيَّة)؛ الأطفال مثل قططٍ تقضي حاجتها أَوْ حيوانات خُلد مختبئةٍ، تضع حدودًا لأرضٍ ضمن أرضٍ، وكلُّ قسمٍ بنظامه الخاصِّ، ومعتقداته، وقوانين اشتباكه. وعَلَى الرَّغم مِنْ كُلِّ محاولةٍ لكبح ذلك، فقَدْ ضمَّت المدرسة باستمرارٍ مساحاتٍ مغلقةً، واستراحاتٍ، ومناطق نزاعٍ، وولاياتٍ تابعةً، وأخرى للطوارئ، وجيتوهات، وجيوبًا وجُزرًا. ليسَت هناك خرائط، ولكنَّ المنطق السَّليم يخبرك - عَلَى سبيل المثال - أَلَّا تعبث مع المنطقة بين صناديق القمامة وقسم الحِرَف. هناك ضحايا (لا

1 - مغنية آر إن بي وبوب وممثلة أمريكية. تعد واحدة من أنجح المغنيات في عهدها بسبب نجاحها كمغنية منفردة وكقائدة فرقة سبريمز خلال الستينيات. في عام 1976، أعطت مجلة بيلبورد ديانا روس لقب أفضل مغنية في القرن. في عام 1993، دخلت ديانا روس موسوعة جينيس للأرقام القياسية كأنجح مغنية من حيث المبيعات. (المترجم).

2 - مطرب بريطاني مشهور عالميًا، ولد بالهند، ثُمَّ انتقل إلى إنجلترا يمتاز بصوت جميل وإحساس عميق. (المترجم).

3 - إشارة إلى رواية الكاتب البريطاني ألدوس هكسلي الأشهر «عالم شجاع جديد»، نشرت في عام 1932. (المترجم).

سيّما أبلهٌ فقيرٌ يدعى كيث، وُضع رأسه في ملزمة الحِدادة)، ولَمْ يكنْ يمكن العبث مع الأطفال النُّحفاء مفتولي العضلات الَّذِين يحرسون المنطقة - هؤلاء هم الأبناء النُّحفاء لرجالٍ بدناء بصحف تابلويد ملفوفةٍ ومحشورةٍ في جيوبهم الخلفيَّة مثل المسدَّسات، رجالٌ بدناءٌ يؤمنون بالعدالة الخشنة - *حياةٌ بحياةٍ، والشَّنق حسنٌ جدًّا بالنِّسبة إليهم.*

في الجهة المقابلة هناك: توجد مقاعد الحديقة، ثلاثةٌ منها في صفٍّ. تلك للتَّداول السِّرِّيِّ لكمِّيَّاتٍ صغيرةٍ مِنَ المخدِّرات. أشياء مِنْ نوع راتينج الماريجوانا بـ 2.50 جنيه، صغيرةٌ جدًّا حتَّى أنَّه مِنَ المرجَّح أنْ تضيع في حقيبة أقلامك أوْ تختلط مع قطعةٍ مُمزَّقةٍ مِنَ الممحاة. أَوْ ربعُ حبَّةٍ مِنْ حبوب النَّشوة، الَّتِي كان أعظم استخدامٍ لها في تخفيف الآلام الَّتِي تستمرُّ طويلًا بشكلٍ خاصٍّ. يمكن أَنْ يشتري السُّذَّج أيضًا مجموعةً متنوِّعةً مِنَ السِّلع المنزليَّة - شاي الياسمين، وأعشاب الحديقة، والأسبرين، وعرق السُّوس، والدَّقيق - متنكِّرةً جميعها كمخدِّراتٍ مِنَ الدَّرجة الأولى لتدخينها أَوْ ابتلاعها في الجهة الخلفيَّة، في الغور الواقع خلف قسم الدِّراما. هذا القسم المقعَّر مِنَ الجِدار، يعتمد الأمر عَلَى مكان وقوفك، يوفِّر مكانًا أقلَّ مِنْ مستوى نظرِ المدرِّسين للمدَّخنين الأصغر جدًّا مِنْ أَنْ يدخِّنوا في حديقة المدخِّنين (حديقةٌ خرسانيَّةٌ لهؤلاء الَّذِين بلغوا السَّادسة عشرة وكان مسموحًا لهم بالتَّدخين في سخافةٍ - هَلْ هناك مدارس *مثل* هذه، للآن؟). لَمْ يكنْ تجنُّب غور الدِّراما ممكنًا. هؤلاء سلسلةٌ مِنَ المدخِّنين الأوغاد الخشنين، في الثَّانية عشرة - أَوِ الثَّالثة عشرة - مِنَ العمر، لا يكترثون. لا يعبأون *فعلًا* - بصحَّتك، أَوْ صحَّتهم، أَوْ المدرِّسين، أَوْ الوالدَين، أَوْ البوليس - أيًّا كان. التَّدخين ردُّهم عَلَى الكون، هو الـ 42[1] الخاصُّ بهم، سببُ وجودهم. هم شغوفون بالسَّجائر. ليسوا ذوَّاقين، ولا مغرمين بالنَّوع، السَّجائر فقط، أيِّ نوعٍ مِنَ السجائر. عليك أَنْ تصبح خبيرًا في التَّسكُّع، والتَّسوُّل، والشِّحاذة، وسرقة السَّجائر. كانت تسليةً شعبيَّةً أَنْ تدخِّن سيجارةً بالتَّسوُّل أَوْ بالسِّرقة. وكانت تسليةً شعبيَّةً أَنْ تنفق مصروف الجيب لمدَّة أسبوع عَلَى عشرين سيجارةٍ، وتوزِّعها عَلَى الجميع بدون استثناء، وتقضي الشَّهر التَّالي في تذكير هؤلاء الَّذِين لديهم سجائر بذلك الوقت عندما أعطيتَهم سيجارَةً. ولكنَّ

1 - إشارة إلى مسلسل الخيال العلمي البريطاني الشهير «دليل المسافر إلى المجرة» الذي ألفه دوجلاس آدمز. وتم تقديمه في البداية كرواية كوميدية عَلَى راديو 4 التابع لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC 4) سنة 1978. أصبحت في السنوات اللاحقة ظاهرة عالمية لاقت صيتًا واسعًا من قبل هواة الخيال العلمي، و42 بحسب المسلسل هي الإجابة عَلَى السؤال النهائي للحياة، والكون وكل شيء، والَّتِي تم حسابها بواسطة كمبيوتر عملاق خلال 7,5 مليون عام. (المترجم).

هذه سياسةٌ عالية المخاطرة. فمِنَ الأفضل أَنْ تملك وجهًا يمكن نسيانه بسرعةٍ، مِنَ الأفضل أَنْ تكون قادرًا عَلَى تسوُّل سيجارةٍ ثُمَّ تعود بعد خمس دقائِقَ أخرى دون أَنْ يتذكَّروك. مِنَ الأفضل أَنْ تنمِّي شخصيَّةً تشبه الصِّفر، أَنْ تكون شخصيَّةً بلا ملامح نوعًا ما تُدعى مارت، أَوْ جولز، أَوْ إيان. وإلا فعليك أَنْ تعتمد عَلَى الإحسان وتَشَارُك السَّجائر. السِّيجارة الواحدة يمكن تقسيمها بأعدادٍ لا تنتهي. سار الأمر هكذا: شخصٌ ما (أَيًّا كان مَنِ اشترى علبة السَّجائر فعلًا) يشعلها. ويصرخ شخصٌ ما «مناصفةً». وعند نقطة المنتصف تُمرَّر السِّيجارة. وبمجرَّد أَنْ تصل إِلَى الشَّخص الثَّاني حتَّى نسمع «مُثالَثَةً»، ثُمَّ «المتوفِّر» (والَّذِي يعني نصف الثُّلث)، ثُمَّ «العُقب!» ثُمَّ، إذا كان اليوم باردًا والحاجة إِلَى سيجارةٍ مُلحَّةً، «آخر نَفَس!» ولكنَّ النَّفَس الأخير هو للبائسين فقط؛ فهو وراء التَّثقيب، وراء اسم العلامة التِّجاريَّة للسِّيجارة، وراء ما يمكن وصفه بمعقوليَّةٍ بالعُقب. النَّفَس الأخير هو النَّسيج المصفرُّ للعُقْب، الَّذِي يحتوي الموادَّ الأدنى مِنَ التَّبغ، الموادُّ الَّتِي تتجمَّع في الرِّئتَين مثلَ قنبلةٍ موقوتةٍ، تدمِّر الجهاز المناعيَّ، وتجلب الشَّهقات والرَّشح الأنفي الدَّائمين. المواد الَّتِي تحوِّل الأسنان البيضاء إِلَى صفراء.

الجميع في جلينارد أوك عاملون: بابليُّون[1] مِنْ كُلِّ فئةٍ ولونٍ يمكن تصوُّره، يتحدَّثون بالألسنة، كُلٌّ في ركنهم الكادح، بأفواههم المبخَّرة المشغولة بإرسال تَقدِمَاتهم النُّذوريَّة مِنْ دخان التَّبغ إِلَى الآلهة المتعدِّدة فوقهم (رصد تقرير مدارس برنت 1990: 67 ديانةً مختلفةً، و123 لغةً مختلفةً).

أَنْ تعمل هو أَنْ تُصلِّي:

المهووسون بالبركة، وتفحُّص جنس الضِّفدع:

الفتيات الأنيقات في قسم الموسيقى يؤدِّين أغنياتٍ فرنسيَّةٍ قصيرةٍ، ويتحدَّثن لاتينيَّة الخنازير[2]، ويواصلن حِميَة العنب، ويقمعن الغرائز المثليَّة،

الفِتيان البدناء في ممرِّ التَّربية البدنيَّة، يمارسون العادة السِّرِّيَّة،

الفتيات المتوتِّرات خارج مبنى اللُّغة، يقرأن كتب جرائم القتل،

1 ـ تستدعي الكاتبة فكرة برج بابل التوراتية حيث تبلبلت الألسن وتعددت اللغات. (المترجم).

2 ـ لعبة لغوية في الإنجليزية تقوم عَلَى إزاحة الحرف الساكن الأول من الكلمة ووضعه في نهايتها مع إضافة لازمة صوتية في الحروف والأفعال المساعدة. (المترجم).

أطفالٌ هنودٌ يلعبون الكريكيت بمضارب التِّنس في ملعب كرة القدم،

أَيرِي جونز تبحث عن مِلَّة إقبال،

سكوت بيريز وليزا رينبو في الحمَّامات، يمارسان الجنس،

جوشوا تشالفين، وقزمٌ وعفريتٌ وحكيمٌ، خلف مبنى العلوم يلعبون العفاريت والمسوخ،

والجميع، الجميع يدخِّنون السَّجائر، سجائرٌ، سجائرٌ، يعملون بجهدٍ في تسوُّلها، وإشعالها واستنشاقها، وجمع الأعقاب، وإعادة تشكيلها، والاحتفال بكُلِّ طاقتهم في جمع النَّاس معًا عبر الثَّقافات والمعتقدات، ولكن في الأغلب في مجرَّد تدخينها ـ اعطنا سيجارةً، وَفِّر لنا سيجارةً ـ ونفثها مثل مداخن صغيرةٍ حتَّى ينمو الدُّخان كثيفًا إِلَى الحدِّ الَّذِي لا يشعر معه مَنْ أجَّجوا شعلات المداخن هنا في 1886، قديمًا في أيَّام الإصلاحيَّة، بأنَّهم خارج المكان.

وخلال الضباب، بحثت أَيرِي عن مِلَّة. جرَّبَت ملعب كرة السَّلَّة، وحديقة التَّدخين، وقسم الموسيقى، والكافتيريا، والحمَّامات للجنسين، وباحة المقبرة الَّتِي تقع خلف المدرسة. ينبغي لها أَنْ تحذِّره. هناك غارةٌ في الطَّريق، للقبض عَلَى كُلِّ مدخِّني الممنوعات مِنَ الماريجوانا والتَّبغ، في جهدٍ مشتركٍ بين الموظَّفين والشُّرطة المحلِّيَّة. جاءت الدَّمدمات الزِّلزالية مِنْ آرشي، ملاك الوحي؛ استَمَعَت إِلَى محادثته الهاتفية وإلى الأسرار المقدَّسة لاتحاد الآباء والمدرسين؛ والآن تخبُّ عَلَى الأرض بعبءٍ أثقل بكثيرٍ مِنَ الزَّلزلة. تنوء، عوضًا عن ذلك، بعبء النُّبوَّة، لأَنَّها تعرف يوم وقوع الزِّلزال وموعده (اليوم، الثَّانية والنِّصف)، وتعرف قوَّته (الطَّرد المحتمل)، وتعرف مَنْ كان مِنَ المحتمل أَنْ يسقطوا ضحايا عَلَى خطِّ تصدُّعه. وجب عليها أَنْ تنقذه. للمَت ترهُّلاتها المترجرجة وهي تتصبَّب عرقًا مِنْ شعرها الأفرو الَّذِي يبلغ ثلاث بوصاتٍ، وذرَعَت الملاعب، وهي تنادي اسمه، تستفسر مِنَ الآخرين، وتبحث في كُلِّ الأماكن المعتادة، ولكنَّه لَمْ يكنْ مع باعة كوكني المتجوِّلين، ولا الفتيات الأنيقات، ولا المجموعة الهنديَّة، أَوْ الأطفال السُّود. مضت منهكةً إِلَى مبنى العلوم في النِّهاية، وهو جزءٌ مِنَ الإصلاحيَّة القديمة، وبقعةٌ عمياء مفضَّلةٌ جدًّا في المدرسة، بجدرانها البعيدة والأركان الشَّرقيَّة الَّتِي تتيح ثلاثين قدمًا ثمينةً مِنَ الأعشاب، حيث يمكن للتِّلميذ المنغمس في الأعمال

الممنوعة أَنْ يختفي عن المشهد العامّ تمامًا. كان يومًا خريفيًّا جميلًا ومنعشًا، والمكان ممتلئٌ؛ وجب عَلَى أَيري أَنْ تعبر التَّجمُّعاتالشَّعبية لبطولات التَّقبيل المثير، وأَنْ تخطو عَلَى لعبة عفاريت جوشوا تشالفين ومسوخه («هيه، لاحظي قدميك! انتبهي إِلَى كهف الموتى!»)، وتحشر نفسها عبر كتيبةٍ ضيّقةٍ مِنْ مدخِّني السَّجائر قبل أَنْ تصل إِلَى مِلَّة في بؤرة ذلك كله، يسحب أنفاسًا صغيرةً مِنْ سيجارةٍ ملفوفةٍ بشكلٍ مخروطيٍّ، ويستمع إِلَى رجلٍ طويلٍ بلحيةٍ ضخمةٍ.

«مِل!»

«ليس الآن، يا جونز.»

«لكن يا مِل!»

«أرجوك، يا جونز. هذا هيفان. صديقٌ قديمٌ. أنا أحاول الإنصات إليه.»

لَمْ يوقف الرَّجل الطَّويل، هيفان، خطابه. لديه صوتٌ عميقٌ، وناعمٌ مثل ماءٍ يجري، مستمرٌّ ولا يمكن اجتنابه، ويتطلَّب قوَّةً أكبر مِنَ الظُّهور المفاجئ لـ أَيري، أكبر، رُبَّما، مِنَ الجاذبيَّة الأرضيَّة، لإيقافه. يرتدي بذلةً سوداءَ أنيقةً، وقميصًا أبيضَ، وبَنْيون أخضرَ. وجيبُ صدره مطرَّزٌ بشعارٍ صغيرٍ، يدان تحيطان بلهبٍ، وشيءٌ ما تحته، أصغر مِنْ رؤيته. وعَلَى الرغم مِنْ أَنَّه لَمْ يكبر مِلَّة، فإِنَّ إمكانيات النُّموُّ في شعره لافتةٌ، وزادت لحيته مِنْ عمره بشكلٍ ملحوظٍ.

«... وهكذا تُضعف الماريجوانا قدرات المرء، وقوَّة المرء، وتأخذ منَّا أفضل رجالنا في هذا البلد: رجالٌ مثلك، يا مِلَّة، مَن لديهم مهارات القيادة الطَّبيعيَّة، الَّذِين لديهم في دواخلهم القدرة عَلَى الأخذ بيد النَّاس والنُّهوض بهم. هناك حديثٌ مِنَ البخاريِّ، الجزء الخامس، صفحة اثنين: *خير النَّاس في جماعتي صحابتي وأنصاري*[1]. أنتَ مِنْ صحابتي، يا مِلَّة، أنا أصلي لكَيْ تكون نصيري أيضًا، هناك حربٌ تجري، يا مِلَّة، حربٌ.»

واصَل عَلَى هذا النَّحو، كلمةً تلو أخرى، بدون وقفاتٍ أَوْ حتَّى التقاطٍ للأنفاس، بنفس الإيقاع الباذخ ـ يمكن للمرء أحيانًا أَنْ يهتمَّ بعباراته، ويمكن للمرء أحيانًا أَنْ يسقط نائمًا عَلَى وقعها.

1 ـ لَمْ يُعثر في الجزء الخامس من البخاري عَلَى حديث بهذا المعنى، وربما كان المقصود: خير الناس قرني ثُمَّ الذين يلونهم ثُمَّ الذين يلونهم. (المترجم).

«مِل. *مِل*. الأمر مهمٌّ.»

بدا مِلَّة نعسان، سواءً بسبب الحشيشة أَوْ أَنَّ هيفان لَمْ يكنْ واضحًا. ولكَيْ ينفض أَيرِي عن كاهله، حاول أَنْ يُجري تعارفًا. «أَيرِي، هذا هيفان. هو وأنا اعتدنا أَنْ نتواصل معًا. هيفان ـــ»

تقدَّم هيفان خطوةً إِلَى الأمام، وبدا لـ أَيرِي مثل جرس البرج. «جيِّدٌ أَنْ ألتقيكِ، يا أخت. أنا هيفان.»

«عظيمٌ. *يا مِلَّة*.»

«أَيرِي، يا رجل، *يا للقرف*. هَلْ يمكنك أَنْ تهدأي فقط لدقيقةٍ؟» ناولها السِّيجارة. «أنا أحاول الاستماع إِلَى الرَّجل، نعم؟ هيفان هو الدُّون. انظري إِلَى بذلته... عَلَى طراز رجال العصابات!» مرَّر مِلَّة إصبعه عَلَى طيَّة صدر هيفان، وعَلَى غير طبيعته المفضَّلة، ابتسم هيفان في سعادةٍ. «بجديَّةٍ، يا هيفان، يا رجل، إِنَّك تبدو مذهلًا. تبدو جديدًا.»

«نعم.»

«أفضل مِنْ تلك الأشياء الَّتِي اعتدنا أَنْ نحوِّم حولها قديمًا عندما اعتدنا أَنْ نتسكَّع، هه؟ قديمًا في أَيَّام كيلبورن. هَلْ تتذكر عندما ذهبنا إِلَى برادفورد و ـــ»

ذكَّر هيفان نفسه. واستعاد وجهه السَّابق مِنَ الحزم الوَرِع. «أخشى أَنَّنِي لا أذكر أيام كيلبورن، يا أخي. فعلتُ أشياء بجَهَالةٍ وقتها. كان ذلك شخصًا آخر.»

«نعم،» قال مِلَّة بخجلٍ. «بالتَّأكيد.»

منح مِلَّة هيفان لكمةً مَرِحةً عَلَى الكتف، وقف هيفان ثابتًا في استجابةٍ لها مثل عمود بوَّابة.

«إذن: هناك حربٌ روحانيَّةٌ لعينةٌ تدور رحاها ـ ذلك جنونٌ بشعٌ! لقَدْ حان الوقت ـ نحتاجُ لأن نضع علامتنا في هذا البلد اللَّعين. ما كان الاسم، ثانيةً، لجماعتك؟»

«أنا مِنْ فرع كيلبورن لحُرَّاس أمَّة الإسلام الخالدة المنتصرة،» قال هيفان بفخر.

شهقت أَيرِي.

«*حُراس أمة الإسلام الخالدة المنتصرة*،» كرَّر مِلَّة، بإعجابٍ. «إِنَّه اسمٌ رائعٌ. لديه روعة الكونج فو وركل المؤخِّرات كما يبدو.»

عبست أَيرِي. «كيڤن[1]؟»

«نحن ندرك،» قال هيفان بشكلٍ رَسْمِيّ، وهو يشير إِلَى البقعة تحت اللَّهب حيث الحروف الأولى مطرَّزةٌ بدقَّةٍ، «أَنَّ لدينا مشكلةً فِي الاسم المختصر.»

«بعض الشَّيء فقط.»

«ولكنَّ الاسم لله ولا يمكن تغيِّيره... لَكِنْ لأكمل ما كنتُ أقوله: يا مِلَّة، يا صديقي، يمكنك أَنْ تكون رئيس فرع كيلبورن ـــ»

«مِل.»

«يمكنك أَنْ تنال ما لديَّ، بدلًا مِنْ هذه الفوضى الفظيعة الَّتِي أنت فيها، بدلًا مِنْ هذا الاعتماد عَلَى مخدِّرٍ تم استيراده خصِّيصًا مِنْ قبل الحكومات لإخضاع مجتمعات السُّود والآسيويِّين، لإضعاف قوانا.»

«نعم،» قال مِلَّة بحزنٍ، وهو فِي منتصف لفِّ سيجارة حشيشٍ جديدةٍ. «لا أنظر إِلَى الأمر عَلَى هذا النَّحو فعلًا. أعتقد أَنَّنِي يجب أَنْ أفكِّر فيه عَلَى هذا النَّحو.»

«مِل.»

«جونز، *امنحيني فرصةً*. أنا مشغولٌ بهذا النِّقاش السَّخيف. هيفان، فِي أيِّ مدرسةٍ أنت الآن، يا زميل؟»

هزَّ هيفان رأسه مع ابتسامةٍ. «لقَدْ تركتُ نظام التَّعليم الإنجليزيِّ منذ فترةٍ. ولكنَّ دراستِي ما تزال مستمرَّةً. إذا كان لِي أَنْ أقتبس لك مِنَ التِّرمذيِّ، الحديث رقم 220: مَنْ خرج *فِي طلب العلم فهو فِي سبيل الله حتَّى يرجع*[2] *والـــ*»

«مِل،» همست أَيرِي، مِنْ خلال تدفُّق صوت هيفان المعسول. «*مِل*.»

«بحقِّ *اللَّعنة، ماذا*؟ معذرةً، يا هيفان، يا زميلي، دقيقةٌ واحدةٌ.»

سَحَبَت أَيرِي نفسًا عميقًا مِنْ سيجارتها الملفوفة ثُمَّ نقلت أخبارها. تنهَّد مِلَّة. «أَيرِي، إِنَّهم يأتون مِنْ جانبٍ ونحن نخرج مِنَ الجانب الآخر. ليس أمرًا يدعو إِلَى القلق. إِنَّه أمرٌ معتادٌ. حسنًا؟ الآن، لماذا لا تذهبين لكَيْ تلعبي مع الصِّغار؟ لدينا عملٌ جادٌّ، هُنا.»

1 ـ الاسم بالإنجليزية هو Keepers of the Eternal and Victorious Islamic Nation. واختصاره KEVIN وتبدو مشكلة الاسم المختصر في كونه اسم علم بمرجعية أيرلندية. (المترجم).

2 ـ أوردت المؤلفة اسم Tabrōzō، والصواب أنه الترمذي الذي أورد نص الحديث مرويًا عن ابن عباس. (المترجم).

«كان جيِّدًا أَنْ ألتقيك، يا أَيرِي،» قال هيفان، ملوِّحًا بيده وهو يتفحَّصها صعودًا وهبوطًا. «إذا أمكنني أَنْ أقول ذلك، فمن المبهج أن ترى امرأةً ترتدي ملابس محتشمةٍ، بشعرها القصير. كيفَن تؤمن بأَنَّ المرأة لا ينبغي لها أَنْ تشعر بالحاجة إِلَى إرضاء التَّصوُّرات المثيرة للحياة الجنسيَّة الغربيَّة.»

«هه، نعـ ـم. شكرًا.»

وهي تشعر بالأسى تجاه نفسها، وبالخدر أكثر، شقَّت أَيرِي طريق عودتها عبر جِدار الدُّخان، وخطت خلال لعبة عفاريت جوشوا ومسوخه مرَّةً ثانيةً.

«مهلًا، نحن نحاول أَنْ نلعب هنا!»

التفتَت أَيرِي، وهي تغصُّ بغضبٍ مكتومٍ. «وإذنْ؟»

تراجع أصدقاء جوشوا ـ طفلٌ بدينٌ، وطفلٌ لديه بثورٌ، وطفلٌ برأسٍ كبيرٍ بشكلٍ غير طبيعيٍّ ـ في خوفٍ. ولكنَّ جوشوا تمسَّك بموقفه. كان يعزف الأوبوا خلف كمان أَيرِي في المجموعة الثَّانية خلال الإذن الدراسيِّ للأوركسترا المدرسيَّة، ولاحظ غالبًا شعرها الغريب وأكتافها العريضة وفكَّر في أَنَّه قَدْ يملك فرصةً ما هناك. كانت ذكيَّةً، وليست غير جميلةٍ تمامًا، ولديها شيءٌ ما فيه نكهةٌ قويَّةٌ للمهووسين بالدِّراسة، عَلَى الرَّغم مِنْ ذلك الفتى الَّذِي تقضي وقتها معه. الهنديِّ. تتسكَّع حوله، ولكنَّها ليست *مثله*. ظنَّ جوشوا تشالفين بقوَّةٍ أَنَّها ستكون *إحدى فتياته*. هناك شيءٌ فطريٌّ فيها يشعر أَنَّ بوسعه الكشف عنه. طالبةٌ مهاجرةٌ مجتهدةٌ فرَّت مِنْ أرض البدناء، فاقدي الجمال، الأذكياء بلا جدوى. تسلَّقَت جبال كالدور[1]، وسبحت في نهر ليفياثراكس، وتحدَّت هُوَّة دويلوين[2]، في اندفاعةٍ مجنونةٍ عن أبناء وطنها الحقيقيِّ إِلَى أرضٍ أخرى.

«أقول فقط، إِنَّك تبدين حريصةً جدًّا عَلَى دخول أرض جولثون. هَلْ تريدين اللِّعب معنا؟»

«لا، أنا لا أريد أَنْ ألعب معكم، أَيُّها السَّخيف. أنا لا *أعرفك* حتَّى.»

«جوشوا تشالفين. كنتُ في مانور الأبتدائيَّة. ونحن في قسم اللُّغة الإنجليزيَّة معًا. ونحن في الأوركسترا معًا.»

1 ـ سلسلة مجمعات تجارية بالجملة استمرت ما بين 1951 وحتى 1999 في بريطانيا وأمريكا الشمالية. (المترجم).

2 ـ ليفياثراكس ودويلوين وجولثون: تبدو أسماء مرتبطة بلعبة العفاريت والمسوخ التي يمارسها جوشوا. (المترجم).

«لا، لسنا كذلك. أنا في الأوركسترا. أنتَ في الأوركسترا. ولسنا هناك *معًا* عَلَى الإطلاق.»

ضحك العفريت، والحكيم، والقزم، الَّذِين يقدِّرون اللِّعب الجيِّد بالكلمات، حتَّى الدموع عَلَى تلك الجملة. ولكنَّ الإهانة لَمْ تعنِ شيئًا لجوشوا. جوشوا هو سيرانو دي برجراك[1] في تلقِّي الإهانات. تلقَّى الإهانات (مِنَ الجانب الودود، *تشالفين المترهل*، *جوش الأنيق*، *جوش صاحب الشَّعر الأفرو يهوديّ*؛ ومِنَ الجانب الآخر، *ذلك الهيبيُّ اللَّعين*، *لاعق الذَّكر مجعَّد الشَّعر*، *آكل الخراء*)، تلقَّى إهاناتٍ لا تنتهي طوال الحياة اللَّعينة، ونجا، خارجًا مِنَ الجهة الأخرى لكَيْ يعتد بنفسه. ليست أيَّة إهانةٍ سوى حصاةٍ في طريقه، تثبت الدُّونيَّة الفكريَّة لتلك الَّتِي ألقتها فقط. وواصل بغضِّ النَّظر عنها.

«أُحِبُّ ما فعلتِه بشَعرِك.»

«هَلْ تحاول الاستظراف؟»

«لا، أنا أُحِبُّ الشَّعر القصير للفتيات. أُحِبُّ ذلك الشَّيء الغُلاميَّ في المظهر. بجدِّيَّة.»

«ما مشكلتك اللَّعينة؟»

هزَّ جوشوا كتفيه. «لا شيء. إنَّ غموض التَّعارف بالرِّجوع لأساسيَّات نظريَّة فرويد يشير إِلَى أَنَّكِ أنتِ مَن لديك مشكلةٌ. مِنْ أين جاءت كُلُّ تلك الحدَّة؟ لقَدْ ظننتُ أَنَّ غاية التَّدخين هي أَنْ تسترخي. هَلْ يمكنني الحصول عَلَى البعض؟»

كانت أَيرِي قَدْ نسيَت السِّيجارة الملفوفة المشتعلة في يدها. «أوه، نعم، حسنًا. الرَّأس الغائم المعتاد، ألسنا كذلك؟»

«أبذل جهدي.»

أصدر القزم، والمسنُّ، والعفريت بعض النَّخرات والضَّوضاء الهادئة.

«أوه، بالتَّأكيد،» تنهَّدت أَيرِي، وهي تمدُّ يدها لكَيْ تناوله إيَّاها. «أيًّا كان.»

«أَيرِي!»

---

1 ـ شخصية شاعر وفارس فرنسي قدمها الفرنسي الشهير إدموند روستان في مسرحية شهيرة (هناك آراء تؤكد أنه شخصية حقيقية)، ترجمها للعربية الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي. (المترجم).

ذلك مِلَّة. نسي أَنْ يأخذ السّيجارة الملفوفة مِنْ أَيرِي، وهو الآن يركض وراءها لِكَيْ يستردَّها بينما أَيرِي عَلَى وشك تسليمها إِلَى جوشوا، وعندما استدارت أثناء ذلك، مرَّةً واحدةً وفي الوقت نفسه، رصدت مِلَّة قادمًا نحوها وشعرت بدمدمةٍ في الأرض، رجَّةٍ هزَّت جيش جوشوا مِنْ عفاريت الحديد الزّهر حتَّى الرُّكَب وأزالتها، مِنْ ثَمَّ، خارج المشهد.

«ما الـــ» قال مِلَّة.

تلك لجنة الإغارة. تبنَّت اقتراحًا لعضو مجلس الآباء، آرشيبالد جونز، أحد رجال الجيش السَّابقين، والَّذِي يزعم الخبرة في مجال الأكمنة، واتَّخذت قرارها بالمجيء مِنَ *الجهتين* (وهو ما لَمْ يُجرَّب مِنْ قبل)، واستغلَّت مجموعتهم مِنَ المئة رجلٍ قويٍّ عنصر المفاجأة، فلَمْ يطلقوا أيَّ إنذارٍ سوى صوت أقدامهم وهم يقتربون، لِكَيْ يحاصروا الأوغاد الصِّغار في بساطةٍ، قاطعين بالتَّالي أيِّ طريق للهروب عَلَى الأعداء، ويقبضوا عَلَى أمثال مِلَّة إقبال، وأَيرِي جونز، وجوشوا تشالفين متلبِّسين بتعاطي الماريجوانا.

***

كان مدير مدرسة جليناردأوك في حالة انهيارٍ دائمةٍ. انحسَرَت خطوط شعره واستمرَّت في الانحسار مثل حالة مَدٍّ مُحتَّمٍ، عيناه غائرتان، وشفتاه مزمومتان، وليس لديه جسدٌ يمكن الحديث عنه، أَوْ بالأحرى فقَدْ طوى ما لديه في حزمةٍ صغيرةٍ مُلتفَّةٍ، وأغلقها في إحكامٍ بزوجين مِنَ الأذرع المطويَّة والسِّيقان المتقاطعة. وكأنَّما لِكَيْ يواجه انهياره الدَّاخليَّ الشخصيَّ، تَمَّ ترتيب مجلس المدير في دائرةٍ كبيرةٍ، في لفتةٍ أريحيَّةٍ تمنَّى أَنْ تساعد الجميع في الحديث ورؤية بعضهم البعض، بما يسمح للجميع *بالتَّعبير عن وجهات نظرهم وتوصيل أصواتهم*، حتَّى يتمكَّنوا مِنَ العمل معًا عَلَى *علاج المشكلة* وليس مجرَّد تهذيب السُّلوك. يقلق بعض الآباء مِنْ أَنَّ مدير المدرسة عاطفيٌّ متسامحٌ. لَوْ سألتَ تينا، سكرتيرته (ليس أَنَّ أحدًا لَمْ يسأل تينا بخصوص شيءٍ لعينٍ ما، مِنْ قَبْلُ، أوه لا، لا سمح الله، وإنَّما أسئلةً مثل هذا تحديدًا، *ما الَّذِي سيواجهه هؤلاء الأوغاد الثَّلاثة، إذن؟*)، سيكون الأمر أشبه بأن تنكأ جرحًا.

«والآن،» قال مدير المدرسة لتينا، بابتسامةٍ حزينةٍ، «ما الَّذِي يواجهه هؤلاء الأوغاد الثَّلاثة، إذن؟»

تَلَتْ تينا الاتهامات الثّلاثة بحيازة الماريجوانا، في ضجرٍ. رفعَت أَيرِي ْ يدها لكَيْ تعترض، غير أَنَّ المدير أسكتها بابتسامةٍ لطيفةٍ.

«فهمتُ. سيكون ذلك كُلَّ شيءٍ، يا تينا. إذا أمكنكِ فقط أَنْ تترُكي الباب مواربًا في طريقكِ إِلَى الخارج، نعم، هذا هو، أكثر قليلًا... جيِّدٌ - لا أريد لأَيِّ شخصٍ أَنْ يشعر بأَنَّه مُحاصَرٌ، كما حدث. حسنًا. الآن. أشعر أَنَّ أكثر طريقةٍ متحضِّرةٍ لهذا»، قال المدير، وهو يفرد راحتَي كفَّيه مفتوحَتين نحو الأعلَى عَلَى ركبتيه ليُظهر أَنَّه لا يحمل أَيَّة أسلحةٍ، «بما أَنَّه ليس لدينا أحدٌ لكَيْ يتحدَّث نيابةً عن أيِّ شخصٍ آخر، فإِنَّني إذا قلت رأيي، فكُلٌّ منكم وقتها يقول رأيه، لنبدأ معك، يا مِلَّة، وننتهي بجوشوا، وعندها، ما إِنْ نستوعب كُلَّ ما قيل، حتَّى أقول رأيي النّهائيَّ وهذا كُلُّ شيءٍ. أمرٌ غير مؤلمٍ نسبيًّا. حسنًا؟ حسنًا.»

«أحتاجُ إِلَى سيجارةٍ،» قال مِلَّة.

أعاد مدير المدرسة تهيئة نفسه. أنزل ساقه اليُمنى جانبًا ووضع ساقه اليُسرى النَّحيلة فوقها بدلًا عن ذلك، ورفع سبَّابته حتَّى شفتيه في هيئة برج الكنيسة المستدقّ، وتراجع برأسه مثل سُلحفاةٍ.

« مِلَّة، رجاءً.»

«هَلْ لديك علبة سجائر؟»

«لا، الآن، يا مِلَّة، هيَّا....»

«سأذهب فقط وأحصل عَلَى واحدةٍ عند البوَّابة، إذن.»

عَلَى هذه الحالة، فالمدرسة بأكملها وضعَت مصير مدير المدرسة عَلَى المحكّ. لا يمكن أَنْ يكون لديه ألف طفلٍ يصطفُّون في شوارع كريكل وود، وهم يدخِّنون السَّجائر، ويستحضرون نغمة المدرسة. هذا عهد جماعات الضَّغط. عصر الآباء عسيري الإرضاء الَّذين يجدون طريقهم عبر *ملحق التَّايمز التَّعليميّ*، ويلخِّصون المدارس في حروفٍ وأرقامٍ وتقارير مفتِّشين. كان مدير المدرسة مُجبرًا عَلَى إطفاء إنذارات الحريق في أوقاتٍ مختلفةٍ، وإخفاء مدخنيه الألف داخل حدود المدرسة.

«أوه... انظر، حرِّك مقعدك فقط لتكون أقرب إِلَى النافذة. هيًّا، هيًّا، لا تجعل مِنَ الأمر أغنيةً وترقص عليها. هذا هو. حسنًا؟»

تدلَّت سيجارةٌ لامبرت وبتلر[1] مِنْ شفتي مِلَّة. «وَلاَّعة؟»

فتَّش المدير في جيب قميصه، حيث علبةٌ مِنْ تبغ اللَّفِّ الألمانيِّ وولّاعة مدفونتين وسط الكثير مِنَ المناديل الورقيَّة وأقلام البيرو.

«ها أنت ذا.» أشعَل مِلَّة سيجارته، نافخًا الدُّخان في اتِّجاه المدير. سعل المدير مثل امرأةٍ عجوزٍ. «حسنًا، يا مِلَّة، أنتَ أوَّلًا. لأنَّني أتوقَّع هذا منكَ، عَلَى الأقل. اخرج ما في جعبتكَ.»

قال مِلَّة: «لقَدْ كنتُ هناك، خلف مبنى العلوم، في مسألةٍ تتعلَّق بالنُّموِّ الرُّوحيِّ.»

انحنى المدير إِلَى الأمام، وربَّت عَلَى شفتيه بعلامة برج الكنيسة عدَّة مرَّاتٍ. «سينبغي عليك أَنْ تمنحني المزيد لكَيْ نعمل عليه، يا مِلَّة. إذا كانت هناك صلةٌ دينيَّةٌ هنا، فَقَدْ تكون فقط في صالحك، لكنَّني أحتاج لأَنْ أعرف عنها.»

فَصَّل مِلَّة: «كنتُ أتحدَّث مع زميلي، هيفان.»

هزَّ المدير رأسه. «لستُ أفهمكَ، يا مِلَّة.»

«إِنَّه زعيمٌ روحيٌّ. كنتُ آخذ نصيحةً ما.»

«زعيمٌ روحيٌّ؟ هيفان؟ هَلْ هو في المدرسة؟ هَلْ نتحدَّث عَنْ طائفةٍ هنا، يا مِلَّة؟ أحتاج لأَنْ أعرف إِنْ كُنَّا نتحدَّث عن طائفةٍ؟»

«لا، إِنَّها ليست طائفةً ملعونةً،» زمجَرَت أَيري، غاضبةً. «هَلْ يمكن أَنْ نُكمل؟ لدَيَّ عزف كمانٍ خلال عشر دقائِقَ.»

«مِلَّة يتحدَّث، يا أَيري. نحنُ نستمع إِلَى مِلَّة. وهناك أملٌ عندما نصل إليك، أَنْ يمنحك مِلَّة قدرًا مِنَ الاحترام أكبر ممَّا أظهرتِه توًّا له. حسنًا؟ ينبغي أَنْ يكون هناك تواصل بيننا. حسنًا، يا مِلَّة. اكمل. أَيّ نوعٍ مِنَ الزَّعامة الرُّوحيَّة؟»

«مسلمٌ. لقَدْ كان يقدِّم لي مساعدةً بخصوص معتقدي، نعم؟ إِنَّه رئيس فرع كيلبورن مِنْ حُرَّاس الأُمَّة الإسلاميَّة الخالدة المنتصرة.»

1 ـ ماركة سجائر بريطانية شهيرة. (المترجم).

عبس المدير: « كيفْن؟»

«هم يدركون أَنَّ لديهم مشكلةً في الاسم المختصر،» أوضحت أيرِي.

«إذن،» واصل المدير بنفاد صبرٍ، «هذا الرَّجل مِنْ كيفْن. هَلْ هو الشَّخص الَّذِي يزوّدِك بالمؤونة؟»

«لا،» قال مِلَّة، وهو يطفئ سيجارته عَلَى حافَّة النَّافذة. «إِنَّها مؤونتي. كان يتحدَّث معي، وكنتُ أُدخِّنها.»

«انظر،» قالت أَيرِي، بعد دقائِقَ قليلةٍ مِنْ محادثةٍ دائريَّةٍ. «الأمر بسيطٌ جدًّا. مؤونة مِلَّة. أنا دخَّنتُها بدون تفكيرٍ فعلًا، ثُمَّ أعطيتُها لجوشوا لكَيْ يُمسكها لثانيةٍ بينما أربط حذائي، ولكنَّه ليست له أَيَّة علاقةٍ بها. حسنًا؟ هَلْ يمكننا الذِّهاب الآن؟»

«بَلْ، لي علاقةٌ!»

التفتَت أَيرِي إِلَى جوشوا. «*ماذا؟*»

«إِنَّها تحاول تغطيتي. بعضها ماريجوانا تخصُّني. لقَدْ كنتُ أوزِّع الماريجوانا. ثُمَّ داهمني الخنازير.»

«أوه، يا يسوع المسيح. تشالفين، أنتَ معتوهٌ.»

رُبَّما. ولكنْ خلال اليومين الأخيرين، نال جَوشوا المزيد مِنَ الاحترام، تَمَّ التربيت عَلَى ظهره مِنْ قِبَل المزيد مِنَ النَّاس، وبشكلٍ عامٍّ فقَدْ تباهى بالأمر أكثر ممَّا فعل في حياته قطّ. وبدا أَنَّ بعض بريق مِلَّة انعكس عليه بالمزاملة. أَمَّا بالنِّسبة إِلَى أَيرِي - حسنًا، لقَدْ سمح لـ «اهتمامٍ غامضٍ» بالتَّطوُّر، خلال اليومين الأخيرين، إِلَى إعجابٍ كاملٍ. امسح ذلك. لديه إعجابٌ كاملٌ بكليهما. هناك شيءٌ ما مُقنعٌ بخصوصهما. أكثر مِنَ العفريت القزم، أَوْ مولوك السَّاحر. أحبَّ البقاء عَلَى صلةٍ بهما، أَيًّا كانت هذه الصِّلة ضئيلةً للغاية. لقَدِ انتُشل مِنْ قِبَل الاثنين إِلَى خارج مجتمع المهووسين، انتقل بالصُّدفة مِنَ الغموض إِلَى دائرة الضَّوء في المدرسة. لَمْ يكنْ ليعود بدون نضالٍ.

«هَلْ هذا صحيحٌ، يا جوشوا؟»

«نعمْ... أمم، لقَدْ بدأ الأمر صغيرًا، ولكنْ أعتقد الآن أَنَّ لديَّ مشكلةً حقيقيَّةً. لا أريد تداول المخدَّرات، مِنَ الواضح أَنَّني لا أريد، ولكنَّ الأمر يبدو *قسريًّا* ــــــ»

«أوه، بحقِّ *الله*....»

«الآن، يا أيري، يجب أَنْ تتركي جوشوا يُدلي بأقواله. أقواله لها نفس حيثيَّة أقوالك.»

بلغ مِلَّة جيب مدير المدرسة وأخرج منه علبة تبغه. وسكب محتوياتها عَلَى طاولة القهوة الصَّغيرة.

«هيه. يا تشالفين. يا فتى الجيتُّو[1]. زِن لنا ثُمْنَ أوقيَّةٍ.»

نظر جوشوا إِلَى الكومة البُنِّيَّة كريهة الرَّائحة. «ثُمْنًا أوروبِّيًّا أَمْ ثُمْنًا إنجليزيًّا؟»

«هَلْ يمكنك فقط أَنْ تفعل كما يقترح مِلَّة،» قال المدير بانفعالٍ، وهو يميل إِلَى الأمام في مقعده لكَيْ يتفقَّد التَّبغ. «حتَّى نتمكَّن مِنْ تسوية الأمر.»

سحب جوشوا، بأصابع مُرتعشةٍ، قسمًا مِنَ التَّبغ في راحة كفِّه ورفعه. وجذب المدير يد جوشوا إِلَى تحت أنف مِلَّة للفحص.

«تعادل خمسة جنيهاتٍ بالكاد،» قال مِلَّة بازدراءٍ. «لَنْ أشتريَ القرف منك.»

«حسنًا، يا جوشوا،» قال المدير، وهو يضع التَّبغ في علبته مِنْ جديدٍ. «أعتقد أَنَّه يمكننا أَنْ نقول بأمانٍ إِنَّ اللُّعبة انتهَت. حتَّى أنا عرفت أَنَّها لَمْ تقارب الثُمْن بأيِّ حالٍ. ولكنْ يشغلني أَنَّك شعرتَ بالحاجة إِلَى الكذب وسوف نُجَدوِل وقتًا للحديث بهذا الخصوص.»

«نعم، يا سيِّدي.»

«في أثناء ذلك، لقَدْ تحدَّثتُ إِلَى آبائكم، وتماشيًا مع سياسة المدرسة للابتعاد عن العقاب السُّلوكي نحو إدارة السُّلوك البنَّاء، فقد اقترحوا بكرمٍ شديدٍ برنامجًا لشهرين.»

«برنامجًا؟»

«كُلَّ ثلاثاءٍ وخميسٍ، ستذهبان أنِتَ، يا مِلَّة، وأنتِ يا أيري، إِلَى منزل جوشوا وتنضمَّان إليه في مجموعةٍ دراسيَّةٍ بعد المدرسة لساعتَين مُقسَّمتَين بين الرِّياضيَّات وعلم الأحياء، المادَّتين الأضعف لديكما، والأقوى بالنِّسبة إليه.»

1 ـ الجيتو، أو المعزل، يشير إلى منطقة تعيش فيها ـ طوعًا أو كرهًا ـ مجموعة من السكان يمثلون عرقية معينة أو ثقافة معينة أو دينًا. أصل الكلمة يعود إلى الإشارة إلى حي اليهود في المدينة، مثل الجيتو في مركز مدينة روما. يشار إلى الجيتو في الدول العربية بـ «حارة اليهود». (المترجم).

نخَرت أيرِي. «لستَ جادًّا؟»

«تعرفين، أَنَّني جادٌّ. أعتقد أَنَّها فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمام فعلًا. بهذه الْطريقة يمكن أَنْ تتقاسموا قوّة جوشوا بالتّساوي بينكم، ويمكن لكليكما الذِهاب إِلَى بيئةٍ مستقرَّةٍ، مع ميزةٍ إضافيةٍ هي إبقاؤكم جميعًا بعيدًا عَنِ الشَّوارع. لَقَدْ تحدَّثتُ مع آبائكم وهم سعداء بـ - تعرفون - التّرتيبات. وما هو مثيرٌ فعلًا أَنَّ والد جوشوا هو عالِمٌ ما مِنَ البارزين ووالدته متخصِّصة بستنةٍ، كما أعتقد، ولذا، تعرفون، ستحصلون عَلَى الكثير مِنْ ذلك. أنتما - الاثنين - لديكما الكثير مِنَ الإمكانيات، ولكنَّني أشعر أَنَّكما عالقان مع أشياء تضرُّ - فعلًا - بتلك الإمكانيات - سواء أكان ذلك في محيط الأسرة أَمِ المتاعب الشَّخصيَّة، لا أعرف - ولكنَّها فرصةٌ جيِّدةٌ حقًّا للهروب مِنْ ذلك. أتمنَّى أَنْ تُدرِكوا أَنَّ الأمر أكثر مِنْ كونه عقابًا. إِنَّه أمرٌ بَنَّاءٌ. إِنَّه مساعدة النَّاس للنَّاس. وأتمنَّى حقيقةً أَنْ تفعلوا هذا بكلِّ إخلاصٍ، أنتم تعرفون؟ هذا النُّوع مِنَ الأشياء كثيرٌ جدًّا في تاريخ جلينارد أوك، وروحها، وأخلاقيَّاتها، منذ السِّير جلينارد نفسه.»

***

تاريخ جلينارد أوك، وروحها، وأخلاقيَّاتها، كما يعرف أَيُّ جلينارديٍّ محترمٌ، يمكن تتبُّعها في الماضي وصولًا إِلَى السِّير إدموند فليكر جلينارد (1842 - 1907)، الَّذِي قرَّرَت المدرسة تخليد ذكراه باعتباره المتبرِّع الفيكتوريِّ الكريم بها. ذكرَت الدِّعاية الحزبيَّة الرَّسميَّة أَنَّ جلينارد تبرَّع بالمال اللَّازم للمبنى الأصليِّ انطلاقًا مِنَ اهتمامٍ مكرَّسٍ لتحسين الأوضاع الاجتماعيَّة للفئات المحرومة. وبدلًا مِنَ الإصلاحيَّة، وصفها كتيِّب رابطة الآباء والمعلمين كـ «مأوًى، ومكانٍ للعمل، ومعهدٍ تعليميٍّ» تَمَّ استخدامه وقتها مِنْ خلال مزيج مِنَ الإنجليز والشُّعوب الكاريبيَّة. وبحسب كتيِّب رابطة الآباء والمعلِّمين، فإِنَّ مؤسِّس جلينارد أوك كان مُحسنًا تعليميًّا. ولكنْ بعد ذلك، وفقًا لكتيِّب رابطة الآباء والمعلِّمين، «في فترةٍ ما بعد انحراف المنظور المدرسيِّ» كان مِنَ المناسب استبدالها بكلمة *إصلاحيَّة*.

ومِنْ شأن تحقيقٍ أكثر إحاطةً في محفوظات مكتبة جرانج المحلِّيَّة أَنْ يكشف عن السِّير إدموند فليكر جلينارد كاستعماريٍّ ناجحٍ حقَّق ثروةً في جامايكا، مِنْ زراعة التَّبغ، أَوْ بالأحرى مِنَ الإشراف عَلَى مساحاتٍ شاسعةٍ مِنَ الأرض حيث تتمُّ زراعة التَّبغ. وفي نهاية عشرين عامًا مِنْ هذا، وقَدْ جنى مِنَ المال أكثر بكثيرٍ مما هو ضروريٌّ، جلس السِّير

إدموند في مقعده الجلديِّ الرَّائع ذي المساند وسأل نفسه إذا لَمْ يكنْ هناك شيءٌ يمكن له أَنْ يفعله. شيءٌ يرسله إِلَى شيخوخته متخفِّفًا بالشُّعور بالخيريَّة والجدارة. شيءٌ للنَّاس. أولئك الَّذِين يمكنه أَنْ يراهم مِنْ نافذته: هناك في الحقل.

ولعدَّة شهورٍ ظلَّ السِّير إدموند حائرًا. ثُمَّ، في أحد أَيَّام الآحاد، وهو يأخذ نزهةً متمهّلةً في وقتٍ متأخِّرٍ بعد الظَّهيرة عبر كنجستون، سمع صوتًا مألوفًا داهمه بشكلٍ مختلفٍ. سمع الغناء الدِّينيَّ. والتَّصفيق باليدَين. والبكاء والعويل. الضَّجيج والسُّخونة والحركة النشوانة الَّتِي تأتي مِنْ كنيسةٍ إثر كنيسةٍ وتمضي في هواء جامايكا الثَّقيل مثل جوقةٍ خفيَّةٍ. الآن، ثَمَّةَ شيءٌ، فكَّر السِّير إدموند؛ لأَنَّه، عَلَى العكس مِنْ كثير مِنْ زملائه المغتربين، الَّذِين صنَّفوا الغناء كمواء القطط، واتَّهموا الأمر بالوثنيَّة، فإِنَّ السِّير إدموند دائمًا ما مسَّ تفاني المسيحيين الجامايكيين قلبه. أَحَبَّ الفكرة عن كنيسةٍ مُبهجةٍ، حيث يمكن للمرء أَنْ ينشُج أَوْ يسعل أَوْ يقوم بحركةٍ مفاجئةٍ بدون أَنْ ينظر القسُّ إِلَى المرء بغرابةٍ. شعر السِّير إدموند باليقين في أَنَّ الرَّبَّ، بكُلِّ حكمته، لَمْ يُرد - إطلاقًا - أَنْ تكون الكنيسة علَّاقة ياقاتٍ مُنشَّاة بائسةٍ كما هي في تونبريدج ويلز، وإِنَّما شيئًا مبهجًا، شيئًا للغناء والرَّقص، شيئًا لنقر القدمَين وتصفيق اليدين. استوعب الجامايكيّون هذا. بدا أحيانًا أَنَّ هذا هو الشَّيء الوحيد الَّذِي يفهمونه. واقفًا للحظةٍ خارج كنيسةٍ نابضةٍ بالحياة بشكلٍ خاصٍّ، نال السِّير إدموند الفرصة لكَيْ يتأمَّل هذا اللُّغز: الاختلاف الملحوظ بين إخلاص الجامايكيِّ لربِّه مقارنةً بإخلاصه لربِّ عمله. ذلك أمرٌ لديه أسبابٌ لوضعه في الاعتبار، في مرَّاتٍ كثيرةٍ في الماضي. وهذا الشَّهر بالكاد، بينما عكف عَلَى دراسته في محاولةٍ للتَّركيز عَلَى المشكلة الَّتِي اكتشفها بنفسه، جاء حارسه بالأخبار عن ثلاثة إضراباتٍ، مجموعةٌ متنوِّعةٌ مِنَ الرِّجال عُثر عليهم نائمين أَوْ مخدَّرين خلال وجودهم في العمل، ومجموعةٌ كاملةٌ مِنَ الأُمَّهات (نساء بودين ضمنهم) يشتكين مِنَ الرَّواتب المنخفضة، ويرفضن العمل. الآن أنتَ ترى، تلك هي المعضلة، هنا تحديدًا. يمكنك أَنْ تدعو الجامايكي إِلَى الصَّلاة في أَيِّ ساعةٍ مِنَ النَّهار أَوْ اللَّيل، وسيحتشدون في الكنيسة في أَيِّ تاريخ للموعظة الدِّينيَّة، بَلْ والأكثر غموضًا فيها - أَنَّك إذا رفعتَ عينك عنهم لدقيقةٍ في مزارع التَّبغ، فإِنَّ العمل سيأخذ طريقه للتوقُّف. عندما يتعبَّدون يضجُّون بالطَّاقة، يتحرَّكون كما الفاصوليا النَّطَّاطة، ويصيحون في الممرَّات... بينما عندما يعملون فهم متجهّمون وغير متعاونين. أربكه السُّؤال إِلَى الحدِّ الَّذِي كتب فيه رسالةً إِلَى صحيفة جلينر[1] في وقت سابقٍ داعيًا للمراسلة، ولكنَّه لَمْ

1 ـ صحيفة جامايكية معروفة، تأسست عام 1834 عَلَى يد كُلّ من جوشوا وجاكوب دي كوردوفا. (المترجم).

يتلق ردودًا مرضيةً. وكلَّما فكَّر السِّير إدموند في الأمر، اتَّضح له أَنَّ الوضع عَلَى العكس تمامًا منه فِي إنجلترا. كان المرء متأثِّرًا بإخلاص الجامايكي، ولكنْ يائسًا مِنْ أخلاقيَّات العمل والتَّعليم لديه. وعَلَى العكس مِنْ ذلك، معجبًا بأخلاقيَّات العمل والتَّعليم لدى الرَّجل الإنجليزيِّ، ولكنْ يائسًا مِنْ إخلاصه المحدود. والآن، بينما استدار السِّير إدموند للعودة إِلَى إقطاعيَّته، لاحظ أَنَّه فِي موقع التَّأثير عَلَى الوضع - بَلْ، وأكثر مِنْ ذلك - إعادة تشكيله! وكاد السِّير إدموند، الَّذِي كان رجلًا بدينًا إِلَى حدٍّ ما، رجلًا يبدو كما لَوْ يخبِّئ رجلًا آخر بداخله، أَنْ يختفي عَلَى طول الطَّريق إِلَى البيت.

فِي اليوم التَّالي مباشرةً، كتب خطابًا رائعًا إِلَى التَّايمز وتبرَّع بأربعين ألف جنيهٍ لمجموعةٍ تبشيريَّةٍ بشرط أَنْ تذهب إِلَى ملكيَّةٍ واسعةٍ فِي لندن. هنا يمكن للجامايكيِّين أَنْ يعملوا جنبًا إِلَى جنبٍ مع الإنجليز، فِي تعبئة سجائر السِّير إدموند، ويحصلوا عَلَى توجيهاتٍ عامَّةٍ مِنَ الرِّجال الإنجليز فِي المساء. سيتمُّ بناء كنيسةٍ صغيرةٍ كملحقٍ بالمصنع الرَّئيس. وفِي أَيَّام الآحاد، واصل السِّير إدموند، سيأخذ الجامايكيُّون الإنجليز للكنيسة ويبينون لهم ما ينبغي أَنْ تكون عليه العبادة.

تَمَّ بناء الشَّيء، وفي استعجالٍ واعدًا إيَّاهم بشوارع مِنْ ذهبٍ، شحَنَ السِّير إدموند ثلاثمائة جامايكيٍّ إِلَى شماليٍّ لندن. بعد أسبوعَين، أرسل الجامايكيُّون تلغرافًا، مِنَ الجانب الآخر مِنَ العالم، إِلَى جليناردِ، يؤكِّدون وصولهم بأمانٍ وأرسل جلينارد لهم مِنْ جهته اقتراحًا بوضع شعارٍ لاتينيٍّ تحت اللَّوحة الَّتِي تحمل اسمه بالفعل. العمل عبادةٌ. سارت الأمور بشكلٍ معقولٍ لفترةٍ مِنَ الوقت. كان الجامايكيُّون متفائلين بإنجلترا. ووضعوا المناخ المتجمِّد فِي آخر اهتماماتهم مُستدفِئين باطنيًّا بحماس السِّير إدموند المفاجئ واهتمامه برعايتهم. غير أَنَّ السِّير إدموند لديه دائمًا صعوباتٍ فِي الاحتفاظ بالحماس والاهتمام. كان عقله شيئًا صغيرًا ذا ثقوبٍ كبيرةٍ تتسرَّب العواطف منها بشكلٍ منتظمٍ، واستبدل الإيمان بالجامايكيِّين سريعًا فِي الغربال المقلوب لوعيه باهتماماتٍ أخرى: اهتياج الجيش الهنديِّ؛ أَوْ لا عمليَّة الجزر الإنجليزيَّة العذراء؛ وتأثير الحرارة الشَّديدة فِي الميول الجنسيَّة للتِّرينيداديِّين. عَلَى مدى الخمسة عشر عامًا التَّالية، وباستثناء الشِّيكات المنتظمة، إِلَى حدٍّ ما، الَّتِي أرسلها كاتب السِّير إدموند، فإِنَّ مصنع جلينارد أوك لَمْ يسمع شيئًا منه. ثُمَّ، فِي زلزال كينجستون عام 1907، سُحق جلينارد حتَّى الموت برخام مادونا المخلوع بينما كانت جدَّة أَيرِي شاهدةً. (هذه أسرارٌ

قديمةٌ. ستخرج مثل ضرس العقل عندما يكون الوقت مناسبًا). وكان التَّاريخ مؤسفًا. فقَدْ خطَّط للعودة إِلَى الشَّواطئ البريطانيَّة في ذلك الشَّهر عَلَى التَّحديد ليرى ما كانت عليه تجربته المهملة لوقتٍ طويلٍ. كُتبَت رسالةٌ، تعرض التفاصيل المخطَّطة لرحلته، ووصلت إِلَى جلينارد أوك تقريبًا في الوقت نفسه الَّذِي خرجَت دودةٌ، قطعَت رحلة يومَين عَبْرَ دماغه، مِنْ أذن الرَّجل المسكين اليسرى. ولكنْ عَلَى الرغم مِنْ أَنَّ وجبة الديدان قامت عليه، فقَدْ تَمَّ إنقاذ جلينارد مِنْ محنةٍ فظيعةٍ؛ لأَنَّ تجربته مضَتْ بشكلٍ سيِّئٍ. فالنَّفقات المتعلِّقة بشحن التَّبغ الثَّقيل والرَّطب إِلَى إنجلترا لَمْ تكن عمليَّةً منذ البدء؛ عندما نضبت إعانات السِّير إدموند منذ ستَّة شهورٍ سابقةٍ، انهارت الأعمال، واختفَت المجموعة التَّبشيريَّة سرًّا، وغادر الرِّجال الإنجليز للذِّهاب إِلَى العمل في أماكن أخرى. أَمَّا الجامايكيِّون، في ظلِّ عدم قدرتهم عَلَى العمل في مكانٍ آخر، فقد بقوا، يعدُّون الأَيَّام تنازليًّا حتَّى نفدَت إمدادات الغذاء. وكانوا، حتَّى الآن، مدركين تمامًا للصِّيغ الشَّرطيَّة، وجدول ضرب التِّسعة، وحياة وعصر وليام الفاتح، وطبيعة المثلَّث متساوي الأضلاع، ولكنَّهم كانوا جائعين. البعض ماتوا بسبب ذلك الجوع، والبعض سُجنوا بسبب الجرائم الصَّغيرة بدافع الجوع، والكثيرون تسلَّلوا برعونةٍ نحو الطَّرف الشَّرقي والطَّبقة الإنجليزيَّة العاملة. ووجد قليلون أنفسهم بعد سبعة عشر عامًا في معرض الإمبراطوريَّة البريطانيَّة في[1] 1924، يرتدون ثيابًا كما الجامايكيِّين في المعرض الجامايكيِّ، وهم يتقمَّصون تقليدًا فظيعًا لوجودهم السَّابق - طبول الصَّفيح، وعقود المرجان - لأنهم كانوا إنجليزيِّين الآن، أكثر إنجليزيَّةً مِنَ الإنجليز، بحكم خيبات الأمل. وبالمحصِّلة - إذن - فالمدير مخطئٌ: ليس ممكنًا أَنْ يقال إِنَّ جلينارد تلقَّت أَيَّة منارةٍ عظيمةٍ لهداية أجيال المستقبل. التِّركة ليست شيئًا يمكنك أَنْ تمنحه أَوْ أَنْ تتلقَّاه باختيارك، وليست هناك أَيَّة يقينيَّات في أعمال المواريث اللَّزجة. بالقدر الَّذِي قَدْ يسيء ذلك إليه، فإِنَّ تأثير جلينارد انتهى لأَنْ يكون شخصيًّا لا مهنيًّا ولا تعليميًّا: لقَدْ سرى في دماء النَّاس ودماء عائلاتهم؛ سرى عبر ثلاثة أجيالٍ مِنَ المهاجرين الَّذِين أمكنهم أَنْ يشعروا بكُلٍّ مِنَ الإهمال والجوع حتَّى في حضن عائلاتهم أمام مأدبة الأقوياء؛ بَلْ إِنَّه

1 - معرض الإمبراطورية البريطانية كان معرضًا للمستعمرات البريطانية أقيم في ويمبلي، ميدلسكس في 1924 و1925. افتتحه الملك جورج الخامس في 23 أبريل 1924 (يوم القديس سانت جورج). كانت الإمبراطورية البريطانية تضم 58 دولة في ذلك الوقت، شاركت جميعها في المعرض باستثناء جامبيا وجبل طارق. بلغت تكلفة المعرض 12 مليون جنيه إسترليني وكان أضخم معرض تمت إقامته في أي مكان في العالم، واجتذب 27 مليون زائر. (المترجم).

سرى حتَّى عبر أَيرِي جونز مِنْ عشيرة بودين الجامايكيّة. عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها لَمْ تعرف ذلك (ولكنْ عندها كان عَلَى أحدهم أَنْ يخبرها أن تضع عينا عَلَى جليناراد؛ فجامايكا مكانٌ صغيرٌ، يمكنك أَنْ تقطعه في يومٍ، وارتبط كُلُّ شخصٍ عاش هناك بكُلِّ شخصٍ آخر في وقتٍ ما أَوْ سواه).

***

«هَلْ لدينا *خيارٌ* فعلًا؟»، سألَتْ أَيرِي.

«لقَدْ كنتِ صادقةً معي،» قال المدير، وهو يعضُّ شفته عديمة اللَّون: «وأريد أَنْ أكون صادقًا معك.»

«ليس لدينا اختيارٌ.»

«بصراحةٍ، لا. الأمر حقًّا إمَّا ذلك أَوْ شهرين مِنْ فترات الملاحظة بعد المدرسة. أخشى أَنَّنا ينبغي أَنْ نرضي النَّاس، يا أَيرِي. وإذا لَمْ يكنْ بإمكاننا أَنْ نرضي كُلَّ النَّاس طوال الوقت، فإِنَّ بإمكاننا عَلَى الأقل أَنْ نرضي بعضًا مِنْ ــــ»

«نعم، رائعٌ.»

«والدا جوشوا رائعان فعلًا، يا أَيرِي. أعتقد أَنَّ هذه التجربة كاملة ستكون تربويَّةً حقًّا بالنِّسبة إليك. ألا تظنُّ ذلك، يا جوشوا؟»

ابتسم جوشوا. «أوه نعم، يا سيِّدي. أعتقد ذلك فعلًا.»

«وتعرفون، الأمر المثير هو أَنَّ هذا يمكن أَنْ يكون مشروعًا لِعيِّنةٍ تجريبيَّةٍ نوعًا ما لمجموعةٍ كاملةٍ مِنَ البرامج،» قال المدير، وهو يفكِّر بصوتٍ مسموعٍ. «أَنْ نجعل الأطفال ذوي الخلفيَّات المتدنِّية أَوِ الأقليَّات عَلَى اتِّصالٍ مع الأطفال الَّذِين ربما لديهم ما يقدِّمونه لهم. ويمكن أَنْ يكون هناك تبادل، في المقابل. أَنْ يعلِّم الأطفالُ الأطفالَ كرة السَّلة، وكرة القدم، وإلى آخره. يمكن لنا أَنْ نحصل عَلَى تمويلٍ.» عند الكلمة السِّحرية تمويلٍ بدأت عينا المدير الغارقتان في الاختفاء تحت الجفون المجهدة.

«اللَّعنة، يا رجل،» قال مِلَّة، وهو يهزُّ رأسه في عدم تصديق. «أنا أحتاج إِلَى سيجارةٍ.»

«*مُناصفةً*،» قالت أَيرِي، وهي تتبعه إِلَى الخارج.

«أراكمْ يوم الثُّلاثاء يا رفاق!» قال جوشوا.

الفصل الثاني عشر
الأنياب: أسنان التمزيق

إذا لَمْ تكنِ المقارنة بعيدةً إِلَى حدٍّ كبيرٍ، فإِنَّ الثَّورة الثَّقافية والجنسيَّة الَّتِي عايشناها في العقدين الماضيَين ليست عَلَى بعد مليون ميلٍ مِنَ الثَّورة الزِّراعيَّة[1] الَّتِي وقعت في حدودنا العُشبيَّة[2] وأحواضنا المغمورة. إِذْ بينما كُنَّا نشعر بالرِّضا، ذات يومٍ، مع عشبيَّاتنا ثنائيَّة الحَول، وزهورنا فقيرة الألوان الَّتِي تنبت مِنَ الأرض في ضعفٍ وتزهر عدَّة مرَّاتٍ في العام (لَوْ كُنَّا محظوظين)، فإِنَّنا نطلب ـ الآن ـ كُلًّا مِنَ التَّنوُّع والاستمراريَّة في زهورنا، والألوان الجامحة للزُّهور الغريبة 365 يومًا في العام. وبينما أقسم البستانيُّون، ذات يومٍ، عَلَى موثوقيَّة تلقيح النَّباتات ذاتيًّا، عندما يتمُّ نقل حبوب اللِّقاح مِنَ السَّداة إِلَى ميسم نفس الزَّهرة (إخصابٌ ذاتيٌّ)، فإِنَّنا ـ الآن ـ أكثر ميلًا إِلَى المغامرة، نمتدح التَّلاقح بشكلٍ إيجابيٍّ، حيث تُنقل حبوب اللِّقاح مِنْ زهرةٍ إِلَى أُخرى في نفس النَّبات (تلقيحٌ خَلطِيٌّ)، أَوْ إِلَى زهرةٍ مِنْ نباتٍ آخر مِنْ نفس النَّوع (تلقيحٌ تهجينيٌّ). الطُّيور والنَّحل، والغبار الكثيف مِنْ حبوب اللِّقاح ـ ينبغي تشجيع كُلِّ ذلك! نعم، التَّلقيح الذَّاتيُّ هو الأكثر بساطةً ويقينيَّةً في عمليَّتي الإخصاب، خاصَّةً بالنِّسبة إِلَى الكثير مِنَ الأنواع الَّتِي تنشئ مستعمراتٍ عبر التِّكرار الوفير لنفس السُّلالة الأبويَّة. ولكنَّ استنساخ الأنواع في نسلٍ موحَّدٍ مثل هذا ينطوي عَلَى خطر إبادة تعدادها كاملًا مِنْ خلال حدَثٍ تطوُّريٍّ واحدٍ. في الحديقة، مثلما في السَّاحة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، ينبغي أَنْ يكون التَّغيير هو الثَّابت الوحيد. تعلَّم آباؤنا وزهور بتونيا آبائنا هذا الدَّرس بالطَّريقة الصَّعبة. مسيرة التَّاريخ ليست عاطفيَّةً، تقطع جيلًا ونباتاته الحَوليَّة في عزمٍ لا يرحم.

---

1 ـ تصف الثورة الزراعية البريطانية فترة من الوقت زاد فيها التطور الزراعي في بريطانيا وكانت بين القرن الخامس عشر ونهايات القرن التاسع عشر، وقد شهدت هذه الفترة زيادة في الإنتاجية وناتج إجمالي كسر الدورات التاريخية لندرة الموارد الغذائية. (المترجم).

2 ـ هي عبارة عن تجمع من النباتات العشبية ثنائية الحول مرتبة معًا بشكل متقارب، لخلق تأثير درامي في العادة، من خلال الألوان، والأشكال أو اتساع النطاق. (المترجم).

والحقيقة أَنَّ التَّلقيح التَّهجينيَّ يُنتج ذرِّيَّةً أكثر تنوُّعًا، أكثر قدرةً عَلَى التَّكيُّف مع الظُّروف البيئيَّة المتغيِّرة. وقيل إنَّ التَّلقيح التَّهجينيَّ يقود إِلَى إنتاج بذورٍ أكثر جودةً. إذا أمكن القياس عَلَى ابني ذي السَّنة الواحدة (تلقيحٌ تهجينيٌّ بين نِسْويَّةٍ بستانيَّةٍ كاثوليكيَّة الثَّقافة وميَّالٍ للفكر اليهوديّ!)، فإنَّني أستطيع أَنْ أشهد بالتَّأكيد عَلَى صحَّة هذا. أيَّتُها الأخوات، خلاصة القول هي: إذا أردنا الاستمرار في وضع زهورٍ في شعرنا حتَّى العقد القادم، لها القدرة عَلَى التَّحمُّل وتكون في متناول اليد دائمًا، شيْء يمكن للبستانيَّة الأموميَّة فقط حقًّا أَنْ تضمنه. إذا أردنا توفير ملاعب سعيدةٍ لأطفالنا، وزوايا تأمُّلٍ لأزواجنا، فنحن بحاجةٍ إِلَى إنشاء حدائق مِنَ التَّنوُّع والاهتمام. أُمُّنا الأرض عظيمةٌ ووافرةٌ، ولكنْ حتَّى هي تحتاج إِلَى يد المساعدة أحيانًا!

- جويس تشالفين، *قوَّة الزَّهرة الجديدة*، نُشرت عام 1976، كاتربيللر برس

كتبَت جويس تشالفين *قوَّة الزَّهرة الجديدة* في غرفة سندرةٍ غير أنيقةٍ تطلُّ عَلَى حديقتها المعرَّشة خلال الصَّيف القائظ لـ76. بدايةٌ ساذجةٌ لكتابٍ صغيرٍ غريبٍ - أقرب لأَنْ يكون عن العلاقات منه عَنِ الزُّهور - حدَثَ أَنْ حقَّق مبيعاتٍ جيِّدةٍ ومطَّرِدةٍ خلال نهايات السَّبعينيات (لَمْ يكن عنصرًا أساسيًّا عَلَى طاولة القهوة بأيِّ احتمالٍ، ولكنَّ نظرةً فاحصةً عَلَى أرفف أيِّ مولودٍ في فترة ما بعد الحرب العالميَّة الثَّانية ستكشف عنه مُمدَّدًا متربًا ومهمَلًا بالقُرب مِنْ تلك الأخرى المقاربة له، دكتور سبوك[1]، وشيرلي كونران[2]، ونسخةٍ باليةٍ مِنْ إصدار مؤسَّسة صحافة المرأة مِنَ *الحياة الثَّالثة لجرانج كوبلاند*[3] لأليس ووكر). ولَمْ تُدهش شعبيَّة *قوَّة الزَّهرة الجديدة* أحدًا أكثر مِنْ جويس نفسها. لقَدْ كتبَت نفسها، عمليًّا، واستغرقَت ثلاثة شهورٍ فقط، قضَت معظمها ترتدي تي شيرت وملابس داخليَّةً في محاولةٍ للتغلُّب عَلَى حرارة الجوِّ، وإرضاع جوشوا عَلَى فتراتٍ متقطِّعةٍ، وهي ذاهلةٌ غالبًا، تفكِّر مع نفسها، بين المقاطع المتدفِّقة بسهولةٍ، في أَنَّ هذه بالضَّبط هي الحياة الَّتِي تمنَّتها لنفسها. هذا هو المستقبل الَّذِي تجرَّأت عَلَى

1 - بنجامين سبوك: طبيب أطفال أمريكي اشتهر بكتابه (العناية بالطفل)، وكتب أخرى عن التربية، حتَّى أطلق الأمريكان عليه لقب مربي هذا الجيل. (المترجم).

2 - شيرلي كونران: مؤلفة كتب أكثر مبيعًا، تضمنت كتبها «دانتيل» الَّتِي تحولت إِلَى مسلسل في الولايات المتحدة الأمريكية في 1980، و«امرأة خارقة». كانت كاتبة مقال لمجلة فانيتي فير، ومحررة المرأة للدايلي ميل وكاتبة مقالات خاصة للأوبزيرفر. (المترجم).

3 - رواية لأليس ووكر، نشرت عام 1970. (المترجم).

تصوُّره عندما رأَت عيني ماركوس الذَّكيتَين لأوَّل مرَّةٍ وهو يمنح ساقَيها البيضاوَين نظرةً فاحصةً عندما عبرَت ساحة كُلِّيَّته، أوكسبريدج[1]، في تنُّورةٍ قصيرةٍ، قبل سبع سنواتٍ. كانت واحدةً مِنْ هؤلاء الناس الَّذِين يعرفون عَلَى *الفور*، مِنَ النَّظرة الأولى، قبل حتَّى أَنْ يفتح زوج مستقبلها فمه ليقول أوَّل مرحبًا متوتِّرة.

زواجٌ سعيدٌ جدًّا. في ذلك الصَّيف مِنْ 76، مع ما كان مِنَ الحرارة والذُّباب والنِّداءات الَّتِي لا تنتهي لشاحنات الآيس كريم، حدثَت الأشياء في الضَّباب - كان عَلَى جويس أحيانًا أَنْ تقرص نفسها لكَيْ تتأكَّد مِنْ أَنَّ هذا حقيقيٌّ. يقع مكتب ماركوس في أدنى الصَّالة إِلَى اليمين، وكانت تقطع الممرَّ مرَّتَين في اليوم، وجوشوا عَلَى أحد وركَيها الباذخَين، وهي تدفع الباب بالثَّاني لكَيْ تفتحه، كَيْ تتحقَّق فقط مِنْ أَنَّه لا يزال هناك، أَنَّه *مستمتعٌ فعلًا*، ويميل في اشتهاءٍ إِلَى المكتب، سوف تنتزع قبلةً مِنْ عبقريِّها المفضَّل، الَّذِي يعمل بجهدٍ عَلَى لَوَالِبِه الغريبة، ورسائله وأرقامه. تحبُّ أَنْ تنتزعه مِنْ كُلِّ ذلك وتجعله يرى أحدث الأشياء الرَّائعة الَّتِي فعلها جوشوا أَوْ تعلَّمها؛ الأصوات، والتَّعرُّف عَلَى الحروف، والحركة المتناسقة، والتَّقليد: *مثلك بالضَّبط*، ستقول لماركوس، *جيناتٌ جيِّدةٌ*، سوف يقول لها، وهو يربِّت عليها وراء فخذيها المترفتَين، ويزن كُلَّ ثديٍ في يده، مربِّتا عَلَى بطنها الصَّغير، معجبًا بكمِّثراه الإنجليزيَّة بشكلٍ عامٍّ، وإلهته الأرضيَّة... وعندها سوف تشعر بالرِّضا، وتسير عائدةً إِلَى مكتبها كقطَّةٍ كبيرةٍ وصغيرها بين فكَّيها، مغطًّى بطبقةٍ خفيفةٍ مِنَ العرق المبتهج. في سعادةٍ عفويَّةٍ، يمكنها أَنْ تسمع نفسها تغمغم، بنسخةٍ صوتيَّةٍ مِنْ شعارات المراهقين عَلَى أبواب الحمَّامات: جويس وماركوس، ماركوس وجويس.

ماركوس أيضًا كان يعدُّ كتابًا في ذلك الصَّيف مِنْ 76. ليس كتابًا تمامًا (في رأي جويس) بقدر ما هو دراسةٌ. عنوانها *فئرانٌ خياليَّةٌ: تقييمٌ وفحصٌ عمليٌّ لعمل برينستر*[2] *(1974) حول الاندماج الجنينيِّ لسلالات الفئران في مرحلة الخلايا الثَّماني مِنَ التَّطوُّر*. درسَت جويس علم الأحياء في الكُلِّيَّة، لكِنَّها لَمْ تحاول أَنْ تلمس المخطوطات متعدِّدة الصَّفحات الَّتِي نَمَت مثل ربوةٍ عند قدمي زوجها. عرفَت جويس حدودها. ولَمْ تكن

1 ـ مصطلح يشير إِلَى أكثر جامعتين إنجليزيتين عراقة (جامعة أوكسفورد، وجامعة كامبريدج). ويستخدم للإشارة لأي من الجامعتين أَوْ لكلتيهما. (المترجم).

2 ـ رالف برينستر: عالم أمريكي في مجال علم الوراثة ولد في 10 مارس 1932، حائز على جائزة قلادة العلوم الوطنية الأمريكية. (المترجم).

لديها رغبةٌ كبيرةٌ في قراءة كتب ماركوس. يكفي فقط أَنْ تعرف أَنَّها كُتبت، بطريقةٍ ما. يكفي أَنْ تعرف أَنَّ الرَّجل الَّذِي تزوَّجته هو مَنْ كتبها. لَمْ يجنِ زوجها المال فقط، ولَمْ يصنع الأشياء فقط، أَوْ يبيع الأشياء الَّتِي يصنعها الآخرون، بَلْ يُخلِّق كائناتٍ. لقَدْ وصل إِلَى حوافِّ الخيال عند ربّه وصنع مِنَ الفئران ما لَمْ يتصوَّره يَهْوَه: فئرانٌ بجينات الأرنب، وفئرانٌ بوَتَرَاتٍ جلديَّةٍ في أقدامها (أَوْ هكذا تخيَّلت جويس، ولَمْ تسأل)، والفئران الَّتِي أظهرَت عامًا بعد عامٍ المزيد والمزيد مِنْ بلاغة تصميمات ماركوس: مِنْ عمليَّة الانتخاب الوراثيِّ العشوائيِّ، إِلَى اندماج الأجنَّة المُخلَّق، ومِنْ بعدها التَّطوُّر المتسارع الَّذِي يقع وراء معارف جويس وفي مستقبل ماركوس ـ حَقْن الـ دي إِنْ إيه[1] مجهريًّا، ونقل الجينات عبر الارتجاع (الأمر الَّذِي كان عَلَى مسافة بوصةٍ مِنْ جائزة نوبل لأجله، في 1987)، والخليَّة الجذعيَّة الجنينيَّة ـ الانتقال الجينيِّ المتوسط ـ وكُلُّ العمليات الَّتِي عالج ماركوس البويضات بها، ونظَّم الإفراط أَوْ القصور في التَّعبير عن الجين، وتعليمات الاستنبات وضروراته في الخطِّ الجرثوميِّ (الإنتاشي)[2] لكَيْ تتحقَّق في الخصائص الفيزيائيَّة. وتنتج فئرانًا فعلَت أجسادها ما أخبرها ماركوس به بالضَّبط. وفي ذهنه كانت الإنسانيَّة دائمًا ـ علاج السَّرطان، والشَّلل الدماغيِّ، ومرض باركنسون ـ والاعتقاد الرَّاسخ دائمًا في الكمال لكُلِّ الحياة، في إمكانيَّة جعلها أكثر كفاءةً، وأكثر منطقيَّةً (لأَنَّ المرض، بالنِّسبة إِلَى ماركوس، ليس أكثر مِنْ خلل منطقيٍّ في القسم الخاصِّ بالجينوم، كما لَمْ تكن الرَّأسماليَّة شيئًا أكثر مِنْ خللٍ منطقيٍّ في قسم الحيوانات الاجتماعيَّة)، وأكثر فعاليَّةً، أكثر *تشالفينيَّةً*[3] في طريقة إنجازها. أعرب عن ازدراءٍ مساوٍ تجاه مهووسي حقوق الحيوانات ـ الفظيعين الَّذِين عَلَى جويس أَنْ تَهُشَّهم عَنِ الباب بعصًا ما بعدما علم بعض المهووسين بتصرُّفات ماركوس مع الفئران ـ أَوِ الهيبيِّين أَوْ أنصار الأشجار أَوْ أَيِّ شخصٍ فشل في فهم الحقيقة البسيطة: لأَنَّ التَّطوُّر الاجتماعيَّ والعلميَّ جنودٌ في نفس المعركة. تلك طريقة تشالفين، المتوارثة عبر أجيالٍ مِنَ العائلة: لديهم قصورٌ فِطْريٌّ يجعلهم يحتملون الأغبياء بسرورٍ وما إِلَى ذلك.

1 ـ DNA. الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين أو الحمض النووي الصبغي. وهو الذي يحتوي على التعليمات الجينية التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية ومعظم الفيروسات؛ كما أنه يحوي التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء الجنين سواء في الرحم أم البيضة أم النبات؛ أي لكل الكائنات الحية. (المترجم).

2 ـ الخط الجنسي أو الخط الإنتاشي في علم الأحياء وعلم الوراثة، هو خط (تسلسل) الخلايا المنتشة التي لديها مواد وراثية يمكن توريثها للنسل. (المترجم).

3 ـ تعبير مأخوذ من اسم عائلة ماركوس تشالفين. (المترجم).

عندما تجادل واحدًا مِنْ آل تشالفين، في محاولةٍ لعرض وجهة نظر هؤلاء الفرنسيّين الغرباء الَّذِين يظنّون أَنَّ الحقيقة وظيفةٌ لغويَّةٌ، وأَنَّ التَّاريخ مجازيٌّ وعلميُّ التَّفسير، فإِنَّ الـ تشالفين موضع الاهتمام سوف يستمع إِلَيكَ بهدوءٍ، ثُمَّ يلوّح بيده، رافضًا، وهو لا يشعر بحاجةٍ لتقدير تلك الطِّنطنة بأَيِّ ردٍّ. الحقيقة هي الحقيقة بالنِّسبة إِلَى أي تشالفين. والعبقريَّة عبقريَّة. *يُخلِّق ماركوس الكائنات*. وتجتهد جويس، زوجته، في تخليق نُسخٍ أصغر مِنْ ماركوس.

***

خمسة عشر عامًا، بعدها، وسوف تظلُّ جويس تتحدَّى أَيَّ شخصٍ أَنْ يريها زواجًا أكثر سعادةٍ مِنْ زواجها. جاء ثلاثة أبناءٍ آخرون بعد جوشوا: بنجامين (في الرَّابعة عشرةَ)، وجاك (في الثَّانية عشرةَ)، وأوسكار (في السَّادسة)، أولادٌ مَرِحون، مجعَّدو الشَّعر، بليغون جميعهم ومسلُّون. عبَرت *الحياة الدَّاخليَّة للنباتات المنزليَّة* (1984) وكرسيٌّ جامعيٌّ لماركوس معهم فترة الازهار والكساد في الثَّمانينيات؛ ليموِّلوا حمَّامًا إضافيًّا، وبيتَ نباتاتٍ زجاجيًّا، ومباهج الحياة: جبنًا قديمًا، ونبيذًا جيِّدًا، والشِّتاء في فلورنسا. والآن، هناك عملان جديدان قَيْد التَّنفيذ: *العاطفة السِّرِّيَّة للزَّهرة المتسلِّقة والفئران المعدَّلة وراثيًّا: دراسة للقيود المتأصِّلة في الحقن المجهريِّ للحمض النَّوويِّ (جوردون ورودل*[1]*، 1981) في مقارنةٍ مع الخلايا الجذعيَّة الجنينيَّة - بواسطة الانتقال الجينيِّ (جوسلر وآل*[2]*، 1986)*. يعمل ماركوس أيضًا عَلَى كتابٍ في «العلم الجماهيريّ» عَلَى الرَّغم مِنْ تحفُّظاته، بالتَّعاون مع أحد الرِّوائيِّين. تمنَّى أَنْ يموِّل مصاريف طفليه الأوَّلَين في سنوات الجامعة، عَلَى الأقلِّ. جوشوا التِّلميذ نجم الرِّياضيَّات، وأراد بنجامين أَنْ يكون عالم وراثةٍ مثل أبيه، وشغفَ جاك بالطِّبِّ النَّفسيِّ، وأوسكار يصرع ملك والده في الشَّطرنج في خمس عشرةَ نقلةً. كُلُّ هذا عَلَى الرَّغم مِنْ حقيقة أَنَّ آل تشالفين أرسلوا أطفالهم إِلَى جليناردِ أوك، مجترِئَين عَلَى اتِّخاذ المقامرة الأيديولوجيَّة الَّتِي تفاداها أقرانهما بمنطق الشُّعور بالذَّنب، أولئك اللِّيبراليُّون المتوتِّرون، الَّذِين

1 ـ جون و. جوردون وفرانك رودل: عالما أحياء أمريكيان عملا على تجارب مختبرية في الهندسة الوراثية على الفئران، ولهما العديد من البحوث المشتركة من بينها: تكامل واستقرار انتقال الخط الإنتاشي للجينات المحقونة في نواة الفأر، وانتقال الخط الإنتاشي في الفئران المعدلة وراثيًا، وتقرير الغدد التناسلية للثدييات وعملية تكوين الأمشاج، وغيرها. (المترجم)

2 ـ جون ر. جوسلر وآل وآخرون: علماء أحياء أمريكيون عملوا على دراسة الانتقال الجيني عن طريق خطوط الخلايا الجذعية الجنينية المستمدة من الكيسة الأريمية. (المترجم).

يهزُّون أكتافهم ويضطرُّون إِلَى سداد رسومٍ باهظةٍ لأجل التَّعليم الخاصّ. لَمْ يكونوا أبناءً رائعين فقط، بَلْ سعداء، وليسوا معزولين اجتماعيًّا بأَيِّ شكلٍ. نشاطهم الوحيد فيما بعد المدرسة (هم يزدرون الرِّياضات) هو العلاج الفرديُّ خمسَ مرَّاتٍ في الأسبوع عَلَى يَدَي فرويديٍّ مِنَ الطِّراز القديم يدعى مارجوري عالج جويس وماركوس (بشكلٍ مُنفصلٍ) في نهايات الأسبوع. قَدْ يبدو الأمر مبالغًا فيه بالنِّسبة إِلَى غير آل تشالفين، ولكنَّ ماركوس تربَّى مع تقديرٍ كبيرٍ للمعالجة النَّفسيَّة (حلَّت المعالَجة في عائلته محلَّ اليهوديَّة لفتراتٍ طويلةٍ) وليس هناك جدالٌ بخصوص النَّتائج. أعلن جميع آل تشالفين أنفسهم أصحَّاء عقليًّا ومستقرِّين عاطفيًّا. حدثت لدى الأطفال عقدهم الأُوديبيَّة[1] بشكلٍ مبكِّرٍ وبالطَّريقة الصَّحيحة، وهم ـ جميعًا ـ غَيْرِيّو الجنس[2] بشدَّةٍ، عشقوا أُمَّهم وأعجبوا بوالدهم، وتزايد هذا الشُّعور بشكلٍ غير معتادٍ فقط عندما بلغوا مرحلة المراهقة. النِّزاعات نادرةٌ، وعابثةٌ، وهي فقط ودائمًا بخصوص موضوعاتٍ سياسيَّةٍ أَوْ فكريَّةٍ (أهميَّة الفوضى، أَوْ الحاجة إِلَى ضرائب أعلى، أَوْ مشكلة جنوب أفريقيا، أَوْ ثنائيَّة الرُّوح/الجسد)، والَّتِي يتوافقون عليها جميعهم عَلَى أَيَّة حال.

ليس لدى آل تشالفين أيُّ أصدقاءٍ. هم يتفاعلون بشكلٍ أساسيٍّ مع امتداد عائلة آل تشالفين (*الجينات الجيِّدة* الَّتِي يشار إليها كثيرًا جدًّا: عالِمَين، ومتخصِّصٍ في الرِّياضيَّات، وثلاثة أطباءٍ نفسيِّين، وابن عمٍّ شابٍّ يعمل لحزب العُمَّال). وفي الإجازات الرَّسميَّة، مع كثيرٍ مِنَ الصَّبر، يزورون أقارب جويس الَّذِين نبذوها منذ وقتٍ طويلٍ، عشيرة كونور، كُتَّاب الرَّسائل *للدايلي ميل* الَّذِين لَمْ يستطيعوا ـ حتَّى الآن ـ إخفاء كراهتهم لزواج الحبِّ بين جويس وأحد بني إسرائيل. والخلاصة: أَنَّ آل تشالفين لَمْ يكونوا بحاجةٍ إِلَى الأشخاص الآخرين. هم يشيرون إِلَى أنفسهم كأسماءٍ، وأفعالٍ، وصفاتٍ أحيانًا: *هذه طريقة تشالفين، وعندها كشف عن تشالفينيَّةٍ حقيقيَّةٍ، وإنه يتشالفَن مرَّةً أخرى، ونحتاج لأَنْ نكون أكثر تشالفينيَّةً بعض الشَّيء بخصوص هذا.* وتَحدَّت جويس أيَّ شخصٍ أَنْ يريها أسرةً أكثر سعادةً، أسرةً أكثر تشالفينيَّةً مِنْ أسرتهم.

1 ـ عقدة أوديب هي مفهوم أنشأه سيجموند فرويد واستوحاه من أسطورة أوديب الإغريقية، وهي عقدة نفسية تطلق على الذكر الذي يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من أبيه فيكرهه، وهي المقابلة لعقدة اليكترا عند الأنثى. في نظرية التحليل النفسي، مصطلح «عقدة أوديب» يدل على المشاعر والأفكار والأحاسيس الجنسية الَّتِي تبقى مكبوتة في العقل الباطن للطفل تجاه أمه. (المترجم).

2 ـ غيرية الجنس أو المغايرة هي نوع من التوجه الجنسي، يرتبط بالشهوة الجنسية لأشخاص أَوْ حتَّى السلوك أَوْ ممارسة الجنس مع الجنس المغاير، أي بين رجل وامرأة، ويكون هذا التوجه عكس المثلية. (المترجم).

ومع ذلك، ومع ذلك... تحنُّ جويس إِلَى العصر الذَّهبيّ؛ عندما كانت هي مركز عائلة تشالفين. عندما لَمْ يستطع النَّاس أَنْ يأكلوا بدونها. وعندما لَمْ يستطع النَّاس أَنْ يلبسوا بدون مساعدتها. الآن، حتَّى أوسكار يستطيع أَنْ يُعدَّ لنفسه وجبةً خفيفةً. وفي بعض الأحيان بدا أَنَّه لا يوجد شيءٌ لأجل تحسينه، لا شيء لزراعته، ووجدت نفسها مؤخَّرًا تشذِّب الأقسام الميِّتة مِنْ زهرتها المتعرِّشة، وتتمنَّى لَوْ أمكنها أَنْ تجد بعض العيوب الَّتِي تستحقُّ الاهتمام في جوشوا، أَوْ بعض الصَّدمات السِّرِّيَّة في جاك أَوْ بنجامين، أَوْ انحرافًا في أوسكار. ولكنَّهم - جميعًا - مثاليُّون. في بعض الأحيان، عندما يجلس آل تشالفين حول عشائهم يوم الأحد، يمزِّقون دجاجةً حتَّى لا يتبقَّى منها سوى قفصٍ صدريٍّ متهرِّئٍ، يزدردون في صمتٍ، ولا يتحدَّثون إِلَّا لاستعادة الملح أَوْ الفلفل - يبدو الملل واضحًا. القرن يقترب مِنْ نهايته وآل تشالفين يشعرون بالملل. مثل مستنسخاتٍ مِنْ بعضها البعض، كانت مائدة عشائهم ممارسةً للكمال المُتَمَرئي، تعكس التشالفينيَّة نفسها وكُلَّ مبادئها إِلَى ما لا نهايةٍ، تنبعث مِنْ أوسكار إِلَى جويس، ومِنْ جويس إِلَى جوشوا، ومِنْ جوشوا إِلَى ماركوس، ومِنْ ماركوس إِلَى بنجامين، ومِنْ بنجامين إِلَى جاك بشكلٍ مفرطٍ عبر اللَّحم والخضار. لا يزالون نفس العائلة الرَّائعة الَّتِي كانت دائمًا. ولكنْ مع قطع الرَّوابط بأقرانهم في أوكسبريدج - القضاة، ومدراء التِّليفزيون، والمعلنين، والمحامين، والممثِّلين، والمهن التَّافهة الأخرى الَّتِي سخرَت التشالفينيَّة منها - لَمْ يتبقَّ أحدٌ ليبدي إعجابه بالتشالفينيَّة ذاتها. منطقها الرَّائع، وتعاطفها، وذكائها. مثل رُكَّاب *ماي فلور*[1] الغاضبين، بلا أَيِّ صخرةٍ في الأفق. حجَّاجٌ وأنبياءٌ بدون أرضٍ غريبةٍ. يشعرون بالملل، ولا أحد منهم أكثر مللًا مِنْ جويس.

لكَيْ تملأ الأيَّام الطَّويلة وحيدةً في المنزل (بعد أَنْ يخفَّ ماركوس إِلَى كُلِّيَّته)، يدفع الضَّجر جويس إِلَى التَّقليب في إمدادات آل تشالفين الهائلة مِنَ المجلَّات المرسلة بالبريد (*الماركسيَّة الجديدة، والماركسيَّة الحيَّة، والعالِم الجديد، وتقرير أوكسفام*[2]، *وحركة العالَم الثَّالث، وجورنال الفوضويّ*) وتشعر بالحنين إِلَى الرُّومانيِّين الصُّلع أَوْ الإثيوبيِّين

1 - اسم السفينة الَّتِي أقلت الرواد الأوائل إِلَى أمريكا عام 1620، والَّتِي تم بناؤها حوالي عام 1610، ومن المحتمل أنها كانت ذات ثلاثة أشرعة، وطابقين، أما طولها فكان 25 م، ووزنها 150 طنًا. وكان قبطانها هو كريستوفر جونز. (المترجم).

2 - منذ بداياتها كمؤسسة خيرية صغيرة سنة 1942، تحت اسم «لجنة أوكسفورد للإغاثة من المجاعة»، نمت أوكسفام نموًّا كبيرًا؛ لتصبح اليوم إحدى أكبر المنظمات الخيرية الدولية المستقلة في مجالي الإغاثة، والتنمية. (المترجم).

الجميلين ذوي الكروش ـ نعم، تعرف أَنَّ ذلك مُقرفٌ، ولكن هكذا كان ـ يصرخ الأطفال مِنَ الورق المصقول، في حاجةٍ إليها. هي تحتاج لِمَنْ يحتاج إليها. ستكون أوَّل مَنْ يعترف بذلك. وتكره ذلك. ومثالًا، عندما كان أطفالها، واسعو العيون مِنَ الإدمان عَلَى حليب الثَّدي، يُفطمون واحدًا بعد الآخر في النِّهاية. مدَّدت فترة الرَّضاعة في العادة إِلَى سنتين أَوْ ثلاث سنواتٍ، وفي حالة جوشوا إِلَى أربع سنواتٍ، ولكنْ عَلَى الرغم مِنْ أَنَّ العَرَض لَمْ ينته أبدًا، فإِنَّ الطَّلب فعَل. وعاشَت رعب اللَّحظات الحتميَّة عندما انتقلوا مِنَ المخدِّر الخفيف إِلَى الحادِّ، ذلك التَّحوُّل مِنَ الكالسيوم إِلَى متع ريبينا[1] المسَكَّرة. وحدث عندما انتهَت مِنْ فترة إرضاع أوسكار طبيعيًّا أَنْ ألقَت نفسها إِلَى البَسْتَنة مِنْ جديدٍ، عائدةً إِلَى السِّماد الطَّبيعيِّ الدَّافئ حيث تعتمد الأشياء الصَّغيرة عليها.

ثُمَّ في يومٍ لطيفٍ دلف مِلَّة إقبال وأَيرِي جونز عَلَى مضضٍ إِلَى حياتها. كانت في الحديقة الخلفيَّة في ذلك الوقت، تفحص بعينين دامعتين زهرة دلفينيوم[2] «وسام الفارس» الخاصَّة بها (بلونها الأرجوانيِّ الورديِّ وأزرق الكوبالت مع قلبٍ في سواد الفحم، كثقب رصاصةٍ في قلب السماء) بسبب آثارٍ لحشرة التِّربْس[3] ـ وهي آفةٌ بشعةٌ ذبحَت نباتات البوكونيا[4] بالفعل. رنَّ جرس الباب. انتظرَت جويس وهي تميل برأسها إِلَى الوراء قليلًا، حتَّى سمعَت وقع أقدام ماركوس في شِبْشِب وهو يهرول عَلَى السُّلم مِنْ غرفة دراسته، وعندها، مطمئنَّةً إِلَى أَنَّه سوف يجيب الباب، عادت إِلَى الاهتمام بما يشغلها. تتفقَّد بحاجبٍ مرفوعٍ الزَّهرة المزدَوَجة مفتوحة الفم الَّتي وقفَت مستعدَّة عَلَى طول ساق الدِّلفينيوم ذات الثَّمانية أقدام. تربس، قالت لنفسها بصوتٍ مرتفعٍ، وهي تتعرَّف عَلَى تحوُّر أذن الكلب في كُلِّ زهرةٍ أخرى، تربس، كرَّرت، بشكلٍ لا يخلو مِنَ المتعة؛ لأنها ستحتاج إِلَى رعايةٍ الآن، بَلْ ورُبَّما تؤدِّي إِلَى كتابٍ أَوْ فصلٍ عَلَى الأقل، تربس. تعرف جويس شيئًا أَوْ اثنَين بخصوص التِّربس:

1 ـ ماركة بريطانية الأصل لمشروبات الفواكه الغازية والعصائر. (المترجم).

2 ـ Delphinium أو نبات العائق: جلس نباتي ينتمي إِلَى الفصيلة الحوذانية. يضم حوالي 300 نوع. يوجد في المشرق العربي عدد من الأنواع أهمها العائق الغريب أَوْ العائق رجل البطة، والعائق الطابوري. (المترجم).

3 ـ قمل الذرة، ومن بين الأسماء الأخرى الشائعة لحشرات التربس الذباب الرعدي، بق الرعد، وذباب العواصف، والآفات الرعدية. (المترجم).

4 ـ Bocconia نبات مزهر من عائلة الخشخاش، يضم حوالي 10 أنواع. واختار كارل لينيوس اسمه؛ لتكريم عالم النبات الإيطالي باولو بوكوني (1633 ـ 1704). (المترجم).

التِّرْبس، الاسم الشَّائع لحشراتٍ دقيقةٍ تتغذَّى عَلَى أنواعٍ كثيرةٍ مِنَ النَّباتات، وتستمتع بصفةٍ خاصَّةٍ بالمناخ الدَّافئ المطلوب للنَّباتات المنزليَّة، والنَّباتات خارج بيئتها. معظم أنواعها لا تزيد عَلَى 1.5 ملليمتر (0.06 بوصة) طولًا عند البلوغ؛ بعضها بغير أجنحةٍ، ولكنَّ البعضِ الآخر لديه زوجان مِنَ الأجنحة القصيرة المحفوفة بالشَّعر. لدى كُلٍّ مِنَ البالغات والعذراوات ممصَّاتٌ، وأجزاءٌ فمويَّةٌ مثقوبةٌ. وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ التربس تُلقِّح بعض النَّباتات، وتأكل أيضًا بعض الآفات الحشريَّة، فإِنَّها نعمةٌ ونقمةٌ معًا للبستانيِّ الحديث وتعتبر من الآفات بشكلٍ عامٍّ، ينبغي أَنْ تخضع لرقابة المبيدات الحشريَّة مثل ليندكس. **التَّصنيف العلميّ:** التربس مِنْ رتبة هدبيَّات الأجنحة، الاسم العلميّ: Thysanoptera.

ـ جويس تشالفين، *الحياة الدَّاخليَّة للنَّباتات المنزليَّة*،

مِنْ فهرس الآفات والطُّفيليَّات

نعم. لدى التربس *غرائز* جيِّدةٌ: هي خيريَّةٌ بالأساس، كائناتٌ منتجةٌ تساعد النَّبات في تطوُّره. تريد التربس *خيرًا*، ولكنْ توغل التربس بعيدًا جدًّا، تتجاوز التربس التَّلقيح وأكل الآفات؛ وتبدأ التربس في أكل النَّبات ذاته، في أكله مِنَ الدَّاخل. سوف تصيب التربس جيلًا بعد جيلٍ مِنَ الدِّلفينيوم إذا تركتَها. ماذا يمكن للمرء أَنْ يفعل حيال التربس إذا لَمْ يؤدِّ اللِّيندكس إِلَى نتيجةٍ، كما في هذه الحالة؟ ماذا يمكنك أَنْ تفعل سوى التَّقليم العنيف، التَّقليم بلا رحمةٍ، والبدء مِنَ البدء؟ أخذت جويس نفسًا عميقًا. هذا ما تفعله للدِّلفينيوم. تفعل هذا لأَنَّه بدون ذلك ليست للدِّلفينيوم أيَّة فرصةٍ. سحبَت جويس مقصِّ الحديقة الضَّخم مِنْ جيب مريلتها، وأمسكَت بالمقبضين الصَّارخين في حزمٍ، ووضعت حلق زهرة دلفينيوم زرقاء في مواجهتها بين شريحتين مِنَ المعدن. حبٌّ قاسٍ.

جويس! *يا جو.ويس!* جوشوا وأصدقاؤه مدخِّنو الماريجوانا هُنا!

جمالٌ[1]. مِنَ الأصل اللأتينيِّ *pulcher* بمعنى جميلٍ. هي الكلمة الأولى الَّتِي داهمَت جويس عندما خطا مِلَّة إقبال عَلَى درجات مُستَنبَتِها، وهو يسخر مِنْ نكتة ماركوس السَّيِّئة، ويشيح بعينيه البنفسجيَّتَين عن شمس الشِّتاء الذَّاوية. جمالٌ: ليس المفهوم وحده، ولكنَّ الكلمة كاملةً تجسَّدَت أمامها بمعناها الحسيِّ، كما لَوْ أَنَّ أحدهم طبعها

1 ـ استخدمت المؤلفة لفظ Pulchritude اللاتيني المأخوذ من الجذر pulcher بمعنى جميل. (المترجم).

عَلَى شبكيَّة عينيها - جمالٌ - تشتبه عَلَى الأقلِّ في وجوده، مختبئًا في كلمةٍ بدَت كأنَّما ينبغي أَنْ تدلَّ عَلَى التجشؤ أَوْ التهاب الجلد.* الجعال في شابٍ بُنِّيٍّ طويلٍ لَمْ تكن جويس لتميِّزه عَنْ أولئك الَّذِين تشتري منهم الحليب والخبز، أَوْ تعطيهم رقم حسابها للفحص، أَوْ تمرِّر دفتر شيكاتها إليهم مِنْ وراء الزُّجاج السَّميك لخزينة أحد البنوك.

«مِنْ - لَة إكْكُ - بال،» قال ماركوس، وهو يؤدِّي المقاطع الأجنبيَّة. «وأَيرِي جونز، عَلَى ما يبدو. صديقان لجوش. كنتُ - توًّا - أقول لجوش، إنَّهما أفضل أصدقائه الَّذِين رأيناهم مظهرًا عَلَى الإطلاق! فهم - في العادة - صغارٌ وناحلون، وهم شديدو طول النَّظر وقصر النَّظر، وبأقدامٍ مشوَّهةٍ. وليسوا إناثًا أبدًا. حسنًا!» واصل ماركوس بشكلٍ مشوَّشٍ، وهو يلتفت عَنْ نظرة رعب جوشوا. «إنَّه شيءٌ لعينٌ جيِّدٌ أَنَّكِ وصلتِ. لقَدْ كُنَّا نبحث عن امرأةٍ كَيْ تتزوَّج جوشوا المسنَّ ....»

وقف ماركوس عَلَى درج الحديقة، في إعجابٍ صريحٍ جدًّا بثديَي أَيرِي (عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها، وحتَّى نكون منصفين، أطول بشكل معقول منه رأسًا وكتفين). «إنَّه مِنْ نوعيَةٍ جيِّدةٍ، وذكيٌّ، ضعيفٌ نوعًا ما في الهندسة الكسيريَّة[1] ولكنَّنا نحبُّه عَلَى أَيَّة حالٍ. حسنًا....»

توقَّف ماركوس مؤقَّتًا حتَّى تخرج جويس مِنَ الحديقة، وتخلع قفَّازَيها، وتصافح مِلَّة، وتتبعهم جميعًا إِلَى المطبخ. «أنتِ فتاةٌ كبيرةٌ.»

«إمم... شكرًا.»

«نحن نحبُّ ذلك هُنا - تتناولين الطِّعام الصِّحِّيَّ. يتناول جميع آل تشالفين الطَّعام الصِّحِّيَّ. أنا لا أزيد رطلًا، ولكنَّ جويس تفعل. في كُلِّ الأماكن الصَّحيحة، طبعًا. هَلْ ستبقيان للعَشاء؟»

وقفَت أَيرِي بكماء في قلب المطبخ، أكثر توتُّرًا مِنْ أَنْ تتحدَّث. لَمْ يكنْ هذان مِنْ أَيِّ نوعٍ لاحظَته مِنَ الوالدَين.

1 - تدرس الهندسة الكسيرية البنى الهندسية المؤلفة من كسيريات (جمع كسيرية) الَّتِي يمكن تعريفها بأنها جزء هندسي صغير جدًّا غير منتظم ذو أبعاد لامتناهية في الصغر، يمكن أن يتألف من أجزاء متشابهة مؤلفة بدورها من أجزاء متشابهة مشابهة للجزء الأم. ويمكن تمثيلها بعملية كسر شيء ما إِلَى أجزاء أصغر لكن هذه الأجزاء تشابه الجسم الأصلي. تحمل الكسيرية في طياتها ملامح مفهوم اللانهاية وتتميز بخاصية التشابه الذاتي أي أن مكوناتها مشابهة للكسيرية الأم مهما كانت درجة التكبير. غالبًا ما يتم تشكيل الأجسام الكسيرية عن طريق عمليات أَوْ خوارزميات متكررة: مثل العمليات ذاتية الاستدعاء أو التكرارية. (المترجم).

«أوه، لا تقلقا بخصوص ماركوس،» قال جوشوا مع غمزةٍ مشجّعةٍ. «إنّه فاسقٌ قديمٌ. إنّها مزحةٌ تشالفينيّةٌ. هم يحبُّون أَنْ يبدأوا بالقصف في الدَّقيقة الَّتِي تدخلين فيها مِنَ الباب. لكَيْ يكتشفوا كَمْ واضحةٌ أنتِ. لا يظنُّ آل تشالفين أَنَّ هناك أَيَّ مغزًى في المجاملات. يا جويس، هذان أَيري مِلَّة. إنَّهما الاثنان مِنْ خلف مبنى العلوم.»

تعافت جويس جزئيًّا مِنْ مرأى مِلَّة إقبال، واستجمعَت نفسها بما يكفي لدورها باعتبارها الأُمّ تشالفين.

«*أنتما إذن ـ الاثنان* ـ اللَّذان أفسدا ابني الأكبر. أنا جويس. هَلْ تريدان بعض الشَّاي؟ *أنتما ـ إذن ـ حشد جوش السَّيّ*. كنتُ فقط أشذِّب الدِّلفينيوم. هذا بنجامين، وجاك ـ وذلك أوسكار في الرُّواق. بالفراولة والمانجو، أم عاديًّا؟»

«عاديٌّ بالنِّسبة إِلَيَّ، شكرًا، يا جويس،» قال جوشوا.

«نفس الأمر، شكرًا،» قالت أَيري.

«نعم،» قال مِلَّة.

«ثلاثةً عاديّين وواحدًا بالمانجو، رجاءً، يا ماركوس، يا عزيزي، *مِنْ فضلك*.»

تراجع ماركوس، الَّذِي كان متوجهًا بالكاد إِلَى الخارج مع غليونٍ معبَّأٍ حديثًا بالتَّبغ، عائدًا بابتسامةٍ ضجرةٍ. «أنا عبدٌ لهذه المرأة،» قال، وهو يحتضنها مِنْ وسطها، مثل مقامرٍ يجمع فيشاته بذراعين عَلَى شكل دائرةٍ. «ولكنْ إذا لَمْ أكنْ كذلك، لرُبَّما هربت مع أَيِّ شابٍّ جميلٍ مِنَ الَّذِين مرُّوا بالمنزل. أنا لا أتصوَّر الوقوع فريسةً للدَّاروينيَّة هذا الأسبوع.»

هذا العناق ـ واضحًا كما ينبغي أَنْ يكون العناق ـ كان موجَّهًا بطريقةٍ مباشِرةٍ ـ عَلَى ما يبدو ـ تقديرًا لِمِلَّة. كانت عينا جويس الزرقاوان ـ الحليبيَّتان عليه طوال الوقت.

«ذلك ما تريدينه، يا أَيري،» قالت جويس في مستوى الهمس العائليّ، كما لَوْ تعرفان إحداهما الأخرى منذ خمسة أعوامٍ لا خمس عشرة دقيقةً: «رجلٌ مثل ماركوس للمدى الطَّويل. ليالي ـ الطَّيران ـ العابر تلك جيِّدةٌ للمتعة، ولكنْ أَيَّ نوعٍ مِنَ الآباء تصنع؟»

تغيَّر لون جوشوا. «جويس، لقَدْ خطَت ـ تَوًّا ـ إِلَى المنزل! دعيها تتناول بعض الشَّاي!»

تصنَّعت جويس الدَّهشة. «لَمْ أُسبِّب لكم الإحراج، هَلْ فعلتُ؟ ينبغي أَنْ تغفروا للأُمِّ تشالفين، ففمي يتبع قدمي[1]».

ولكنَّ أيرِي لَمْ تكنْ مُحرَجةً؛ كانت، بعد خمس دقائِقَ، مفتونةً، ومغرمةً. لَمْ يلقِ أَيُّ واحدٍ في منزل آل جونز نكاتٍ حول داروين، ولا قال: «فمي يتبع قدمي،» ولا عرض خياراتٍ للشَّاي، أَوْ سمح للخطاب بالتَّدفُّق حرًّا مِنَ البالغين إِلَى الأطفال، ومِنَ الأطفال إِلَى البالغين، كما لَوْ أَنَّ قناة الاتِّصال تتدفَّق بين هاتين القبيلتين، حُرَّةً، لا يحظرها التَّاريخ.

«حسنًا،» قالت جويس، بعد أَنْ أفلَتها ماركوس وهي تموضع نفسها عَلَى الطَّاولة الدَّائرية، وتدعوهم لكَيْ يفعلوا الشَّيء نفسه: «تبدوان غريبَين جدًّا. مِنْ أين أنتما، إذا لَمْ تمانعا في سؤالي؟»

«ويلْزدن،» قالت أيرِي ومِلَّة في وقتٍ واحدٍ.

«نعم، نعم، بالطَّبع، ولكنْ أين *بالأصل*؟»

«أوه،» قال مِلَّة، مستعيرًا ما أسماه لهجة *بَدْ بَدْ* دِنجْ دِنجْ[2]. «أنتِ تعنين مِنْ أين أنا *بالأصل*.»

بدَت جويس مرتبكةً. «نعم، *بالأصل*.»

«وايتشابل،» قال مِلَّة، وهو يسحب سيجارةً. «عَلَى طريق مستشفى لندن الملكيّ وأتوبيس 207.»

انفجر جميع آل تشالفين، الَّذِين تجمَّعوا في المطبخ، ماركوس وجوش وبنجامين وجاك في الضَّحك. وتبعَتهم جويس طواعيةً.

«هدئ أعصابك، يا رجل،» قال مِلَّة، مرتابًا. «ليس الأمر مضحكًا بذلك القدر مِنَ اللَّعنة.»

ولكنَّ آل تشالفين واصلوا الضَّحك. نادرًا ما يلقي آل تشالفين نكاتٍ، إِلَّا إذا كانت عرجاء بشكلٍ استثنائيٍّ، أَوْ عِدديَّةً بطبيعتها أَو الاثنتين معًا: ماذا قال الصِّفر للثَّمانية[3]؟ *حزامٌ لطيفٌ*.

1 ـ يستخدم تعبير «قدمي في فمي» للإشارة إلى التهور في الحديث وعدم التفكير قبل الكلام. (المترجم).

2 ـ تعبير ازدرائي يطلق على المهاجرين الجُدُد من الهنود الشرقيين، يقال بسرعة وبلكنة واضحة مع حركة خفيفة للرأس يمينًا ويسارًا. (المترجم).

3 ـ واضح أن المقصود هو علاقة الشكل بين الصفر والثمانية في كتابتهما بالإنجليزية. (المترجم).

«هَلْ ستدخِّن هذه؟» سألَت جويس فجأةً عندما توقَّف الضَّحك، مع نبرة ذُعرٍ في صوتها. «هُنا؟ لكنْ، نحن نكره الرَّائحة. نحن نحبُّ رائحة التَّبغ الألمانيِّ فقط. وإذا دخَّناه فإنَّنا ندخِّنه في غرفة ماركوس، وإلَّا فإنَّه يزعج أوسكار، أليس كذلك يا أوسكار؟»

«لا،» قال أوسكار، الأصغر والأكثر ملائكيَّةً بين الأولاد، مشغولًا في بناء إمبراطوريَّة ليجو[1]. «أنا لا أعبأ بالأمر.»

«إنَّه يزعج أوسكار،» كرَّرَت جويس، بذلك المستوى مِنَ الهمس مرَّةً ثانيةً. «إنَّه يكرهه.»

«سوف... آخذها... إلَى... ال... حديقة،» قال مِلَّة ببطءٍ، بهذا النَّوع مِنَ الصَّوت الَّذِي تستخدمه مع مجنونٍ أَوْ أجنبيٍّ. «سأعود... خلال... دقيقةٍ.»

ما إنْ أصبح مِلَّة بعيدًا عَنْ مرمى السَّمع، وبينما جلب ماركوس الشَّاي، بدَت السَّنوات كما لَوْ تتساقط مثل جلدٍ ميتٍ عَنْ جويس، وانحنَت عَلَى الطَّاولة مثل تلميذةٍ. «يا إلهي، إنَّه *رائعٌ*، أليس كذلك؟ مثل عمر الشريف منذُ ثلاثين عامًا. أنفٌ رومانيٌّ طريفٌ. هَلْ أنتِ وهو ...؟»

«دعي الفتاة وشأنها، يا جويس،» حذَّر ماركوس. «ستخبركِ عَنِ الأمر بصعوبةٍ، أليس كذلك؟»

«لا،» قالت أَيرِي، وهي تشعر بأنَّها ترغب في أَنْ تخبر هؤلاء النَّاس بكُلِّ شيءٍ. «لسنا كذلك.»

«حسنٌ جدًّا. رُبَّما لدَى والديه ما تَمَّ ترتيبه مِنْ أجله، أليس كذلك؟ لقَدْ أخبرَني مدير المدرسة أنَّه فتًى مسلمٌ. أتصوَّر أنَّه ينبغي له أَنْ يكون ممتنًّا لأنَّه ليس فتاةً، على الرَّغم مِنْ ذلك، هممم؟ ما يفعلونه بالفتيات لا يكاد يُصدَّق. هَلْ تتذكَّر ذلك الموضوع في *التايم*، يا ماركوس؟»

ماركوس باحثًا في الثَّلَّاجة عن صحنٍ باردٍ مِنْ بطاطس الأمس. «اممم لا يُصدَّق.»

«ولكنْ كما تعرفين، فقط مِنَ القليل الَّذِي رأيتُه، لا يبدو مثل معظم الأطفال المسلمين، عَلَى الإطلاق. أعني، أنا أتحدَّث مِنْ خلال تجربةٍ شخصيَّةٍ، أذهب إلَى الكثير مِنَ المدارس في أعمال بَستَنتي، وأعمل مع أطفالٍ مِنْ جميع الأعمار. إنَّهم - في العادة -

1 - اسم لعبة تركيب تصنعها شركة ليجو جروب الدنماركية. اللعبة عبارة عن لبنات على شكل متوازي مستطيلات أو مكعبات وبعضها يأخذ أشكالًا أخرى مثل أشخاص، ملونة ومصنوعة من البلاستيك ويتم تركيبها لبناء أجسام كسيارات أو بنايات. (المترجم).

صامتون جدًّا، أنتِ تعرفين، وُدَعاءُ بشكلٍ فظيعٍ - ولكنَّه مليءٌ جدًّا بـ... الشَّجاعة! إلَّا أنَّ فِتْيةً بهذا الشَّكل يريدون الشَّقراوات طويلات القامة، أليس كذلك؟ أعني، هذه هي الخُلاصة، عندما يكونون بهذه الوسامة. أنا أعرف كيف تشعرين... لقَدِ اعتدتُ أَنْ أُحبَّ مثيري المتاعب عندما كنتُ في عمرِك، ولكنَّكِ تتعلَّمين بعدها، تفعلين حقًّا. الخطر ليس شيئًا مثيرًا فعلًا، خذي كلمتي في هذا الخصوص. سوف تفعلين ما هو أفضل كثيرًا مع شخصٍ ما مثل جوشوا.»

«أُمِّي!»

«ظَلَّ يتحدَّث عنكِ بدون توقُّفٍ طوال الأسبوع.»

«أُمِّي!»

واجهَت جويس توبيخها بابتسامةٍ صغيرةٍ. «حسنًا، رُبَّما كنتُ صريحةً أكثر مِنَ اللَّازم بالنِّسبة إليكم أيُّها الشَّباب. لا أعرف... في أيَّامي، كان عليكِ أَنْ تكوني أكثر مباشرةً تمامًا، ينبغي عليكِ ذلك إذا ما أردتِ اقتناص الرَّجل المناسب. مائتا فتاةٍ في الجامعة، وألفا رجلٍ! يتقاتلون عَلَى الفتيات - ولكن إذا ما كنتِ ذكيَّةً فعليكِ أَنْ تكوني *انتقائيَّةً*.»

«لقَدْ كنتِ انتقائيَّةً، يا عزيزتي،» قال ماركوس، وهو يمشي خلفها ببطءٍ ويقبِّل أذنها. «*وبذائقةٍ مميَّزةٍ*.»

تلقَّت جويس القبلات مثل فتاةٍ تستمتع مع الشَّقيق الأصغر لأفضل صديقاتها.

«ولكنَّ أُمَّكَ لَمْ تكن واثقةً، أليس كذلك؟ لقَدْ ظنَّت أَنَّني متأمِّلةٌ أكثر مِنَ اللَّازم، إِلَى حدِّ أَلَّا أرغب في أطفالٍ.»

«ولكنَّك أقنعتِها. هذان الوركان سيقنعان أَيَّ شخصٍ!»

«نعم، في النِّهاية... ولكنَّها استهانَت بي، أليس كذلك؟ لَمْ تظنَّ أَنَّني خامةٌ تشالفينيَّةٌ.»

«هي فقط لَمْ تكنْ تعرفك وقتها.»

«حسنًا، لقَدْ *فاجأناها*، ألَمْ نفعل!»

«الكثير مِنَ المضاجعة الجادة وصلَت إِلَى إقناع تلك المرأة!»

«أربعة أحفادٍ لاحقًا!»

خلال هذه الحواريَّة، حاولت أَيرِي التركيز عَلَى أوسكار، وهو يبتكر ـ الآن ـ أوروبوروز[1] مِنْ فيلٍ ورديٍّ كبيرٍ عن طريق دفع الشَّاحنة إِلَى مؤخِّرته. لَمْ تكنْ قريبةً مِنْ قبلُ إِلَى هذا الحدِّ مِنْ هذا الشَّيء الغريب والجميل، الطَّبقة الوسطى، ولا اختبَرَت هذا النَّوع مِنَ الحرج الَّذِي هو في حقيقته كَيْدِيٌّ أخَّاذٌ. أمرٌ عجيبٌ ومدهشٌ في الوقت ذاته. لقَدْ شعرَت مثل محتشمةٍ تمشي عَلَى شاطئٍ للعراة، وهي تختبر الرِّمال. شعرَت مثل كولومبوس وهو يلتقي الأراواك[2] الَّذِين لا يسترهم شيءٌ، وهو لا يعرف أين يمكن أَنْ ينظر.

«اعذري والديَّ،» قال جوشوا. «إنَّهما لا يستطيعان أَنْ يُبقيا أيديهما بعيدًا عن بعضهما بعضًا.»

ولكنْ حتَّى هذا قيل بفخرٍ، لأَنَّ أطفال آل تشالفين يعرفون أَنَّ والدَيهم مخلوقان نادران، زوجان في زواجٍ سعيدٍ، وهم يعدِّدون ما لا يزيد عَلَى اثنتي عشرة زيجةً سعيدةً في جلينارد أوك بالكامل. فكَّرَت أَيرِي في والديها هي اللَّذَين كانت ملامساتهما افتراضيَّةً الآن، تحدث في الغياب فقط، حيث كانت مجموعتي أصابع كُلٍّ منهما في السَّابق، عَلَى الريموت كنترول، أَوْ عَلَى الغطاء القصديريِّ للبسكويت، أَوْ على مفتاح النُّور.

قالت: «لا بدَّ أَنَّه شيءٌ عظيمٌ أَنْ يشعرا بهذه الطَّريقة بعد عشرين عامًا أَوْ أَيًّا كان.»

استدارت جويس كما لَوْ أَنَّ أحدهم أطلق صيدًا. «إنَّه رائعٌ! إنَّه لا يُصدَّق! أَنتِ فقط تستيقظين ذات صباحٍ وتلاحظين أَنَّ الزَّواج الأحاديَّ[3] ليس مأزقًا ـ إنَّه يحرِّركِ! والأطفال بحاجةٍ لأَنْ يكبروا في هذا الإطار. لا أعرف إذا ما جرَّبتِ الأمر مطلقًا ـ أنتِ تقرئين الكثير بخصوص أن الأفرو ـ كاريبيِّين قَدْ يجدون صعوبةً في إقامة علاقات طويلة الأمد. هذا محزنٌ بشكلٍ فظيعٍ، أليس كذلك؟ لقَدْ كتبتُ عن امرأةٍ مِنَ الدُّومينيكان في *الحياة الدَّاخلية للنَّباتات المنزليَّة*، والَّتِي نقلت زهرة الأزاليا في أصِيصها معها عبر منازل ستَّة رجالٍ مختلفين: مرَّةً عَلَى حافَّة النَّافذة، ثُمَّ في زاويةٍ مظلِمةٍ، ثُمَّ إِلَى الجنوب في مواجهة غرفة النَّوم، وإِلَى آخره. أنتِ فقط لا يمكنك أَنْ تفعلي هذا بنباتٍ.»

كان هذا نمطًا كلاسيكيًّا لجويس، وأدار ماركوس وجوشوا أعينهما، في مودَّةٍ.

1 ـ نموذج التنين الذي يبتلع ذيله. (المترجم).

2 ـ من السكان الأصليين لجزيرة جامايكا. (المترجم).

3 ـ الارتباط بشريك زوجي واحد في أي فترة من فترات الحياة في مقابل التعدد في الزوجات أو الأزواج. (المترجم).

دلف مِلّة، وقَدِ انتهى مِنْ سيجارته، إِلَى الدَّاخل مِنْ جديدٍ.

«هَلْ سنحصل عَلَى بعض ٱلدُّرُوسَ لإنجازها، نعم؟ كُلُّ ذلك جميلٌ جدًّا، ولكنَّني أريد الخروج هذه اللَّيلة. في لحظةٍ ما.»

بينما أيرِي ضائعةً في استغراقها تُقيّم آل تشالفين كباحثة أنثروبولوجيا حالمةٍ، كان مِلّة خارجًا في الحديقة، ينظر عبر النَّوافذ ويتفحَّص المكان. بينما نظرت أيرِي إِلَى الثَّقافة، والكياسة، والمستوى، والفِكْر، نظر مِلّة إِلَى المال، المال الكسول، المال الَّذِي يتسكَّع فقط حول تلك العائلة ولا يفعل أيَّ شيءٍ عَلَى التَّحديد، مالٍ يحتاج إلى سببٍ وجيهٍ، وقَدْ يكون هو عَلَى أيَّة حالٍ.

«حسنًا،» قالت جويس، وهي تصفِّق بيدَيها، في محاولةٍ لأَنْ تبقيهم جميعًا في الغرفة لوقتٍ أطول، في محاولةٍ لأَنْ تؤجِّل صمتَ آل تشالفين المؤكَّد، لأطول وقتٍ ممكنٍ: «ستدرسون جميعكم معًا حسنًا، مرحبًا كثيرًا بكما أنتَ وأيرِي. أخبرتُ مدير مدرستكم، ألَمْ أفعل، يا ماركوس، أنَّ هذا لا ينبغي أَنْ يبدو كعقابٍ. إِنَّها ليست جريمةً بشعةً، تمامًا. بين بعضنا بعضًا، لقَدْ كنتُ مزارعة ماريجوانا جيِّدةً أنا نفسي في أحد الأوقات ....»

«مدهشٌ *للغاية*،» قال مِلّة.

الرِّعاية، فكَّرت جويس. التَّحلِّي بالصَّبر، والرَّيُّ بانتظامٍ، ولا تفقد أعصابك وأنتَ تشذِّب.

«... وأوضح المدير لنا كيف أَنَّ المحيط في منزليكما ليس تمامًا...حسنًا...أنا واثقةٌ أَنَّكما ستجدان الأمر أكثر سهولةً للعمل هنا. يا له مِنْ عامٍ دراسيٍّ مهمٍّ، شهادة الثَّانويَّة العامَّة. ومِنَ الواضح أَنَّكما كليكما ذكيَّان ـ أيُّ شخصٍ يمكن أَنْ يقول ذلك بمجرَّد النَّظر إِلَى عيونكما. أليس كذلك، يا ماركوس؟»

«جوش، أُمُّك تسألني ما إذا كان معدَّل الذَّكاء يُعبِّر عن نفسه في الخصائص الفيزيائيَّة الثَّانويَّة للون العين، وشكل العين، وما إِلَى ذلك. هَلْ هناك إجابةٌ منطقيَّةٌ عَلَى هذا السُّؤال؟»

استمرَّت جويس: *الفئران* والرِّجال، الجينات والجرائيم، تلك منطقة ماركوس. الشَّتلات، ومصادر الضَّوء، والنُّمو والرِّعاية، اللُّبُّ العميق للأشياء ـ تلك *منطقتها*.

المهامُ مفوَّضةٌ، كما في أيِّ سفينةٍ تبشيريَّةٍ. ماركوس في مقدِّمة المركب، يبحث عن العاصفة. وجويس في الطَّابق الأدنى، تفحص الكتَّان بحثًا عن بقِّ الفراش.

«يعرف مديركم كَمْ أكره أَنْ أرى إمكانياتٍ مهدورةً ـ لهذا السَّبب أرسلكما *إلينا*.»

«ولأنَّه يعرف أَنَّ معظم آل تشالفين هم أكثر ذكاءً بأربعمائة مرَّةٍ منه!» قال جاك، وهو يؤدِّي قفزة النَّجمة[1] بأسلوب رجال البحريَّة. كان صغيرًا لا يزال ولَمْ يتعلَّم بعدُ إظهار اعتزازه بأسرته بطريقةٍ مقبولةٍ اجتماعيًّا أكثر. «حتَّى أوسكار كذلك.»

«لا، أنا لستُ كذلك،» قال أوسكار، وهو يركل جراج اللِّيجو الَّذي صنعه مؤخَّرًا. «أنا الأكثر غباءً في العالم.»

«حصل أوسكار عَلَى معدَّل ذكاءٍ بلغ 178،» همسَت جويس. «الأمر شاقٌّ بعض الشَّيء، حتَّى عندما تكونين أُمَّه.»

«واو،» قالت أَيرِي، وهي تلتفت، مع بقيَّة مَنْ في الغرفة، لتقدير أوسكار وهو يحاول أَنْ يقضم رأس زرافةٍ بلاستيكيَّةٍ. «ذلك رائعٌ.»

«نعم، ولكنْ لديه كُلُّ شيءٍ، والكثير جدًّا منه طبيعيٌّ، أليس كذلك؟ أنا حقًّا أعتقد ذلك. لقَدْ كُنَّا محظوظين بما يكفي لكَيْ نمنحه الكثير جدًّا، ومع والد مثل ماركوس ـ يشبه الأمر وجود شعاع شمسٍ قويٍّ يسطع عليه لأربعٍ وعشرين ساعةً في اليوم، أليس كذلك، يا عزيزي؟ إنَّه محظوظٌ جدًّا بالحصول عَلَى ذلك. حسنًا، إنَّهم جميعًا كذلك. الآن، رُبَّما تظنِّين أَنَّ هذا يبدو غريبًا، ولكن ظلَّ هدفي دائمًا أَنْ أتزوَّج برجلٍ أكثر ذكاءً منِّي.» وضعَت جويس يديها عَلَى فخذَيها وانتظرَت أَيرِي لكَيْ تظنَّ أَنَّ ذلك يبدو غريبًا. «لا، لقَدْ فعلتُ حقًّا. وأنا نِسْويَّةٌ مُخلِصةٌ، سوف يخبرك ماركوس.»

«إنَّها نِسْويَّةٌ مُخلِصةٌ،» قال ماركوس مِنَ الحيِّز الدَّاخليِّ للثَّلَّاجة.

«أنا لا أفترض أَنَّه يمكنك أَنْ تفهمي ذلك ـ لدى جيلك أفكارٌ مختلفةٌ ـ ولكنَّني عرفتُ أَنَّ ذلك سيكون تحرُّريًّا. وعرفتُ أَيَّ نوعٍ مِنَ الآباء أريد لأبنائي. الآن، فاجأك ذلك، أَلَمْ يفعل؟ أنا آسفةٌ، ولكنَّنا حقًّا لا نجري محادثاتٍ صغيرةٍ في الجوار هنا. إذا كنتُ في طريقك لأَنْ تكوني هُنَا كُلَّ أسبوعٍ، فقَدْ ظننتُ أَنَّه مِنَ الأفضل لك أَنْ تحصلي عَلَى جرعةٍ مناسبةٍ مِنْ آل تشالفين الآن.»

1 ـ قفزة في الهواء بأذرع وسيقان مفتوحة إِلَى أقصاها. (المترجم).

ابتسم جميع آل تشالفين الَّذِين في مدى السَّمع مِنْ هذا التَّعليق الأخير، وغمزوا.

توقَّفَت جويس لبرهةٍ، ونظرَت إِلَى أَيرِي ومِلَّة، بالطَّريقة الَّتِي نظرَت بها إِلَى زهرتها دلفينيوم «وسام الفارس». كانت كاشفًا سريعًا وخبيرًا للعِلَّة، وهنا توجد خسائر. هناك ألمٌ حقيقيٌّ في الأولى (*أَيرِيينثوس نجروسيوم ماركوسيليا*[1])، نقص حضور شخصيَّة الأَب، رُبَّما، وذكاءٌ غير مستَغَلٍّ، ونقصٌ في تقدير الذَّات، وفي الثاني (*مِلَّاتوريا براندوليديا جويس ـ الاتوس*)[2]، هناك حزنٌ أكثر عمقًا، وخسارةٌ فادحةٌ، وجرحٌ غائرٌ. فجوة تحتاج لما هو أكثر مِنَ التَّربية أَوِ المال. تحتاج إِلَى الحبِّ. تاقَت جويس لأَنْ تلمس الموقع بطرف إصبعها التشالفينيَّة الخضراء، أَنْ تغلق الفجوة، أَنْ ترتِّق الجلد.

«هَلْ لِي أَنْ أسأل؟ والداكما؟ ماذا ـــ؟»

(تساءلَت جويس ماذا يفعل الآباء، وماذا فعلوا. عندما عثرَت عَلَى أَوَّل إزهارٍ متحوِّرٍ، أرادَت أَنْ تعرف مِنْ أين جاء القطع. سؤالٌ خاطئٌ. ليسَت المسألة هي الوالدان، ليسَت المسألة مجرَّد جيلٍ واحدٍ، بَلِ القرن بأكمله. ليس البرعم بَلِ الشُّجيرة).

«ناقلًا للكاري،» قال مِلَّة. «جرسونًا. نادلًا.»

«في الورق،» بدأت أَيرِي. «نوعٌ مِنْ طيِّه ... والعمل عَلَى أشياء مثل الثُّقوب ... نوعٌ مِنْ إعلانات البريد المباشر ولكنَّه ليس إعلانًا بالمعنى الصَّحيح، عَلَى الأقلِّ ليست نهاية الفكرة ... نوعٌ مِنَ الطَّيِّ ـــ» أصابها اليأس. «مِنَ الصَّعب شرح الأمر.»

«أوه نعم. نعم، نعم، نعم. عندما يكون هناك نقصٌ في القدوة مِنَ الذُّكور، كما تريان... فعند ذلك تنحرف الأشياء فعلًا، في خبرتي. لقَدْ كتبتُ مقالًا لـ«*وومِنز إيرث*» مؤخَّرًا. وصفتُ مدرسةً عملتُ بها حيث أعطيتُ نبتة عنكبوتٍ في أصِّيصٍ لكُلِّ طفلٍ، وأخبرتُهم أَنْ يرعوها لمدَّة أسبوعٍ مثلما يرعى بابا أَوْ ماما طفلًا. واختار كُلُّ طفلٍ واحدًا مِنَ الأبوين لكَيْ يقلِّده. اختار هذا الصَّبيُّ الجامايكيُّ الجميل، وينستون، والده. في الأسبوع التَّالي اتَّصلت أُمُّه وسألَتني لماذا طلبتُ مِنْ وينستون أَنْ يسقي زرعته بالبيبسي ويضعها أمام التِّليفزيون. أعني، إِنَّه أمرٌ فظيعٌ فعلًا، أليس كذلك. ولكنَّني أعتقد أَنَّ الكثير مِنْ هؤلاء الآباء لا يقدِّرون

1 ـ Irieanthus negressium marcusilia واضح أن الكاتبة تبتكر اسمًا علميًّا في بنائه اللغوي مشتقًّا من أسماء أيري وملامحها الأفريقية وماركوس. (المترجم).

2 ـ Millaturea brandolidia joyculatus الاسم مشتق من ملة، والتفرد وجويس. (المترجم).

أبناءهم كما يجب. عَلَى ما يبدو، هي الثَّقافة، أتعلَمان؟ الأمر يجعلني غاضبةً جدًّا بالفعل. الشَّيء الوحيد الَّذِي أسمح لأوسكار بمشاهدته هو جولة الأخبار لمدَّة نصف ساعةٍ في اليوم. ذلك أكثر ممَّا يكفي.»

«يا له مِنْ محظوظٍ، أوسكار،» قال مِلَّة.

«عَلَى أيَّة حالٍ، أنا متحمِّسةٌ بالفعل حقًّا لكونكما هنا لأَنَّ، لأَنَّ، آل تشالفين، أقصد ـ رُبَّما يبدو ذلك غريبًا، ولكنَّني أردتُ فعلًا أَنْ أقنع مدير مدرستكم أَنَّ هذه الفكرة هي الأفضل، والآن وقَدِ التقيتُ بكما أنتما ـ الاثنين ـ فأنا عَلَى يقينٍ أكثر ـ لأَنَّ آل *تشالفين* ـــ»

«يعرفون كيف يستخرجون الأشياء الصَّحيحة مِنَ النَّاس،» أكمل جوشوا، «لقَدْ فعلوا معي.»

«نعم،» قالت جويس، مرتاحةً لانتهاء بحثها عن الكلمات، وهي تُشعُّ بالفخر. «نعم.»

دفع جوشوا مقعده عن الطَّاولة، ووقف. «حسنًا، مِنَ الأفضل أَنْ نهبط لبعض الدِّراسة. ماركوس، هَلْ يمكنك أَنْ تأتي وتساعدنا قليلًا، في وقتٍ لاحقٍ، في البيولوجيا؟ أنا سيئٌ فعلًا في تقليص الموضوعات الإنجابيَّة إِلَى قطعٍ صغيرةٍ يمكن هضمها.»

«بالتَّأكيد. وإِنْ كنتُ أعمل عَلَى فأر المستقبل الخاصِّ بي.» هذا هو الاسم العائليِّ المازح لمشروع ماركوس، وغنَّى الأصغر في آل تشالفين مِنْ ورائه *فأر المستقبل*! وهو يتخيل قارضًا في هيئة إنسانٍ يرتدي سراويل قصيرةٍ حمراء. «وينبغي أَنْ أعزف قليلًا على البيانو مع جاك قبلها. سكوت جوبلن[1]. جاك باليد اليمنى، وأنا باليسرى. ليس آرت تاتوم[2] تمامًا،» قال، وهو يعبث بشعر جاك. «لكنَّنا نتعايش.»

بذلَت أيري أقصى جهدها في تخيُّل السَّيِّد إقبال يلعب اليد اليمنى لسكوت جوبلن بأنامله الرَّماديَّة الميِّتة. أَوِ السَّيِّد جونز وهو يحوِّل أيَّ شيءٍ إِلَى قطعٍ صغيرةٍ

1 ـ سكوت جوبلن ملحن وعازف بيانو إفريقي ـ أمريكي. وصل إِلَى الشهرة لما قدمه من مؤلفات موسيقى الجاز وعرف فيما بعد باسم «ملك موسيقى الجاز». خلال مشوار حياته الموسيقي، قام بكتابة 44 مقطوعة جاز كلاسيكية مبتكرة، ومقطوعة من باليه الجاز، وعملين للأوبرا. كانت مقطوعة ورقة القيقب واحدة من مقطوعاته الأولى، الَّتِي أصبحت أول أعماله الناجحة وأكثرها تأثيرًا، وتعرف بالمقطوعة الأصلية. (المترجم).

2 ـ آرثر «آرت» تاتوم جونيور كان عازفَ بيانو أمريكيًا مشهورًا على نطاق كبير كمبدع وواحد من أعظم عازفي البيانو في موسيقى الجاز على مر الزمان، وكان المؤثر الأكبر في جيل كامل من عازفي بيانو الجاز فيما بعد. (المترجم).

يمكن هضمها. شعرَت بوجنتَيها تتوهَّجان بحرارة الثَّورة التشالفينيَّة. وإذن يوجد آباء يتعاملون مع الحاضر، لَمْ يجرُّوا التَّاريخ القديم معهم ككرةٍ وسلسلةٍ. وإذن هناك رجالٌ لَمْ يذهبوا عميقًا حتَّى أعناقهم ويغرقوا في مستنقع الماضي.

«سوف تبقون للعشاء، أليس كذلك؟» توسَّلَت جويس: «أوسكار يريدكم فعلًا أن تبقوا. يحبُّ أوسكار وجود غرباء في المنزل، يجد ذلك مُحفِّزًا. خصوصًا الغرباء البُنِّيِّين! أليس كذلك، يا أوسكار؟»

«لا، لا أفعل،» صرَّح أوسكار، وهو يُتَفْتِف في أذن أَيرِي. «أنا أكره الغرباء البُنِّيِّين.»

«إنَّه يجد الغرباء البُنِّيِّين مثيرين فعلًا،» همسَت جويس.

***

لقَدْ كان هذا قرن الغرباء؛ البنِّيِّين، والصُّفر، والبيض، قرن تجربة المهاجرين العظيمة. تأخَّر الأمر فقط حتَّى نهاية اليوم لكَيْ تستطيع أَنْ تمشي إِلَى الملعب وتجد إيزاك ليونج بالقُرب مِنْ بركة السَّمك، وداني رحمان في قفص كرة القدم، وكوانج أو. رورك ينطِّط كرة سلةٍ، وأيري جونز تغمغم بأحد الألحان.

أطفالٌ بأسماءٍ أولى وأسماءٍ عائليَّةٍ في تصادُمٍ مباشرٍ. الأسماء الَّتِي تُخفي بداخلها الهجرات الجماعيَّة، والقوارب والطَّائرات الضَّيِّقة، وقاعات الوصول الباردة، والفُحُوص الطِّبيَّة. يمكنك فقط في ذلك الوقت المتأخِّر مِنَ اليوم، وربما فقط في ويلْزدِن، أَنْ تجد أفضل صديقتين هما سيتا وشارون، يقع الخطأ في كُلِّ منهما باستمرارٍ بسبب أَنَّ سيتا بيضاء (أحبَّت أُمُّها الاسم) وشارون باكستانيَّةٌ (ظنَّت أُمُّها ذلك أفضل - مشكلاتٍ أقلَّ). نعم، عَلَى الرَّغم مِنْ كُلِّ الخلط، عَلَى الرَّغم مِنْ حقيقة أَنَّنا في النِّهاية انزلقنا إِلَى حياة أحدنا الآخر بارتياحٍ معقولٍ (مثل رجلٍ في عودته إِلَى سرير حبيبته بعد تمشية منتصف ليلةٍ)، عَلَى الرَّغم مِنْ كُلِّ ذلك، فمِنَ الصَّعب الاعتراف بأَنَّه لا يوجد أكثر إنجليزيَّةً مِنَ الهنديّ، ولا أحدَ أكثر هنديَّةً مِنَ الإنجليزيّ. لا يزال هناك شبابٌ بيضٌ يشعرون *بالغضب* تجاه ذلك؛ أولئك الَّذِين سيندفعون في مواعيد الإغلاق إِلَى الشَّوارع خفيضة الإضاءة بسكِّين مطبخٍ ملفوفةٍ في قبضةٍ مشدودةٍ.

ولكن ما يجعل المهاجر يضحك، هو أنْ يسمع مخاوف القوميّين، الخائفين مِنَ العدوى، مِنَ الاختراق، مِنْ تمازج الأعراق، في الوقت الَّذِي ليست هذه مسألةً تُذكر فيه، إنَّها حبَّة بندق، بالمقارنة مع مخاوف المهاجرين - التَّحلُّل، *والتَّلاشي*. حتَّى ألسانا إقبال بهدوء أعصابها سوف تستيقظ بانتظامٍ غارقةً في عرقها بعد ليلةٍ زارتها فيها رؤيا لِملَّة (ب ب؛ وراثيًّا، حيث ب تمثِّل البنجاليَّة) يتزوَّج بواحدةٍ تُدعى سارة (*أ أ*، حيث *أ* تمثل الآريَّة)، وينجبان طفلًا يدعى مايكل (ب *أ*)، الَّذِي يتزوَّج بدوره واحدةً تُدعى لوسي (*أ أ*)، تاركًا ألسانا مع إرثٍ مِنْ أحفادٍ لا يمكن تمييزهم (*أ أ أ أ أ أ أ*)، تتخفَّف بنجاليتهم تمامًا، في نمطٍ جينيٍّ يختفي وراء نمطٍ ظاهريٍّ. إنَّه الشُّعور الأكثر عدم عقلانيَّةٍ، والأكثر طبيعيَّةً في العالم في الوقت نفسه. في جامايكا الأمر موجودٌ أيضًا في قواعد اللُّغة: ليس هناك اختيارٌ بين الضَّمائر الشَّخصيَّة، لا انقسامات بين أَنَا أَوْ أنتِ أَوْ هُمْ، هناك فقط الـ أنا النَّقيَّة المتجانسة. ما إنْ بدأت هورتنس بودين، نصف البيضاء هي نفسها، تسمع عَنْ زواج كلارا، حتَّى جاءت إِلَى جوار المنزل، ووقفَت عَلَى عتبة الباب، وقالَت: «افهمي: أنا وأنا لا نتحدَّث منذ هذه اللَّحظة وما بعدها.» ثُمَّ أدارت كعبها، وكانت وفيَّةً حقًّا لكلمتها. ولَمْ تكن هورتنس لتبذل كُلَّ هذا الجهد تجاه الزَّواج بأسود، تجاه جَرِّ جيناتها بعيدًا عَنِ الحافَّة، فهكذا فقط يمكن لابنتها أَنْ تُحضر أطفالًا ملوَّنين أكثر إِلَى العالم.

وبالمثل، في منزل إقبال كانت خطوط المعركة مرسومةً بوضوحٍ. عندما أحضر مِلَّة واحدةً تدعى إيميلي أَوْ لوسي إِلَى البيت. بكَت ألسانا بهدوءٍ في المطبخ، وذهب صمد إِلَى الحديقة لكَيْ ينقضَّ عَلَى الكزبرة. كان الصَّباح التَّالي لعلة انتظارٍ، عضَّاتٍ غاضبةً للألسن حتَّى غادرت الـ إيميلي أَوْ الـ لوسي المنزل وأمكن لحرب الكلمات أَنْ تبدأ. ولكنْ بين أَيرِي وكلارا، فالموضوع غير معلَن في معظم الوقت، لأن كلارا تعلم أَنَّها لَمْ تكنْ في موضع الوعظ. ومع ذلك، فلَمْ تبذل أَيَّة محاولةٍ لإخفاء خيبة أملها ولا الحزن الدَّامي. مِنْ مقدَّسات غرفة نوم أَيرِي مِنْ معبودات هوليوود خضراوات العيون، إِلَى زمرة الأصدقاء البيض الَّذِين يحتشدون بانتظامٍ في وخارج غرفتها، رأت كلارا محيطًا مِنَ الجلود الورديَّة يحيط بابنتها وخشيَت المدَّ الَّذِي سوف يجرفها بعيدًا.

لهذا السبب جزئيًّا فإن أَيرِي لَمْ تشر إِلَى آل تشالفين مع والدَيها. ليس أَنَّها اعتزمت *الاقتران* بآل تشالفين... ولكنَّ الغريزة هي نفسها. كان لديها شغف الخمسة عشر عامًا الغامض نحوهم، غامرٌ، وما زال بلا وجهةٍ حقيقيَّةٍ ولا غايةٍ. أرادَت فقط أَنْ، حسنًا،

نوعًا مِنَ *الاندماج* معهم. أرادت إنجليزيتهم. تشالفينيتهم. *نقاءهم*. لَمْ يخطر لها أَنْ آل تشالفين هم، مع بعض اللّمسات، مهاجرين أيضًا (الجيل الثّالث، عن طريق ألمانيا وبولندا، ولدوا تشالفينوفيسكيّين)، أَوْ أَنّهم كانوا بحاجةٍ إِلَيها بالقدر الَّذِي احتاجتهم. بالنِّسبة إِلَى أيرِي، فآل تشالفين إنجليزٌ أكثر مِنَ الإنجليز. عندما تخطّت أَيرِي عتبة بيت آل تشالفين، شعرَت بإثارةٍ محرَّمةٍ، مثل يهوديٍّ يمضغ السَّجقّ أَوْ هندوسي يقضم شطيرة برجر. كانت تعبر الحدود، تتسلّل إِلَى إنجلترا؛ بدا الأمر مثل فعلٍ متمرِّدٍ رهيبٍ، أَوْ ارتداء زِيِّ أحدٍ آخر، أَوْ جلد أحدٍ آخر.

قالَت فقط إِنَّ لديها كرة شبكةٍ[1] في أمسيات الثُّلاثاء، وتركَت الأمر عند ذلك.

***

تدفَّق الحوار في منزل آل تشالفين. بدا لأَيرِي أَلَّا أحد هنا يُصلِّي أَوْ يخبّئ مشاعره في صندوق أدواتٍ أَوْ يُمسِّد صورًا باهتةً في صمتٍ وهو يتساءل عمَّا كانت. الحوار هو مادَّة الحياة الخام.

«مرحبًا، يا أَيرِي! ادخلي، ادخلي، جوشوا في المطبخ مع جويس، تبدين بخيرٍ. مِلَّة ليس معك؟»

«سيأتي لاحقًا. لديه موعد.»

«آه، نعم. حسنًا، إذا كانت هناك أَيّة أسئلةٍ في امتحاناتكم عن الاتِّصال الفمويّ، سيتألّق مِلَّة فيها. يا جويس! أَيرِي هنا! وإذنْ كيف تمضي الدِّراسة؟ لقَدْ مرَّ - ماذا؟ أربعة شهورٍ الآن؟ هَلْ بدأت العبقريَّة التشالفينيَّة تتجلَّى؟»

«نعم، ليس سيِّئًا، ليس سيِّئًا. لَمْ أعتقد أبدًا أَنَّ لدَيَّ أيَّ عَظْمةٍ علميَّةٍ في جسمي لَكِنْ... يبدو أَنَّ الأمر يعمل. لا أعرف، على الرّغم مِنْ ذلك. أحيانًا يؤلمني رأسي.»

---

1 ـ كرة الشبكة أَوْ النت بول هي لعبة رياضية جماعية مشتقة من كرة السلة، وقد كانت تعرف سابقًا باسم «كرة السلة النسائية». هذه الرياضة بارزة كرياضة نسائية في موطن نشأتها أستراليا، ونيوزيلندا، وهي أيضاً ذات شعبية في جامايكا، وجنوب أفريقيا، وسريلانكا، والمملكة المتحدة، ودول الكومنولث الأخرى. تتألف اللعبة من فريقين مكونين من سبع لاعبات. وتختلف كرة الشبكة عن كرة السلة في أنه في كرة الشبكة لا يسمح للاعبات بتنطيط الكرة، كما لا يسمح لهن بالمشي بها. أي أن اللاعبة الّتي تحصل على الكرة يجب عليها تمريرها أَوْ التصويب. (المترجم).

«ذلك الجانب الأيمنْ مِنْ دماغك يصحو فقط بعد نومٍ طويلٍ، ويعود مجدَّدًا لأرجحة الأشياء. إنَّني معجبٌ حقًّا؛ أخبرتك أنَّه يمكن تحويل طالب الفنون الضَّعيف إلَى طالب علومٍ في وقتٍ لا يكاد يُذكر - أوه، ولقَدْ حصلتُ عَلَى صور فأر المستقبل. ذكِّريني لاحقًا، أردتِ رؤيتها؟ يا جويس، الإلهة البُنِّيَّة الكبيرة وصلت!»

«ماركوس، هدِّئ أعصابك، يا رجل... مرحبًا، يا جويس. مرحبًا، يا جوش. هاي، يا جاك. أووه، أهلًا أهلًا، يا أوسكار، أنتَ أيُّها اللَّطيف.»

«مرحبًا، يا أَيرِي! تعالي هنا واعطيني قبلةً. أوسكار، انظر، إنَّها أَيرِي تأتي لترانا مرَّةً ثانيةً! أوه، انظري إلَى وجهه... إنَّه يتساءل أين يكون مِلَّة، أليس كذلك، يا أوسكار؟»

«لا، لا أفعل.»

«أوه يا عزيزي، نعم، إنَّه يفعل... انظري إلَى وجهه الصَّغير... إنَّه يصاب بإحباطٍ عندما لا يعرِّج مِلَّة. اخبر أَيرِي باسم القرد الجديد، يا أوسكار، ذلك الَّذِي أعطاه دادي لك.»

«جورج.»

«لا، ليس جورج - لقَدْ سمَّيته مِلَّة القرد، هَلْ تذكر؟ لأَنَّ القرود خبيثةٌ ومِلَّة بالكاد *بنفس القدْر مِنَ السُّوء*، أليس كذلك، يا أوسكار؟»

«لا أعرف. لا أهتمُّ.»

« ينزعج أوسكار كثيرًا عندما لا يأتي مِلَّة.»

«سوف ينضمُّ إلينا بعد بُرهةٍ. إنه في موعدٍ.»

«متى لَمْ يكنْ في موعدٍ! كُلُّ أولئك الفتيات عاليات الصَّدر! قَدْ نصاب بالغيرة، أليس كذلك، يا أوسكار؟ إنَّه يقضي معهنَّ وقتًا أكثر منَّا. ولكنْ لا ينبغي أَنْ نمزح. أفترض أَنَّه أمرٌ صعبٌ بعض الشَّيء بالنِّسبة إليك.»

«لا، أنا لا أهتمُّ، يا جويس، فعلًا. لقَدِ اعتدتُ عَلَى الأمر.»

«ولكنَّ الجميع يحبُّون مِلَّة، أليس كذلك، يا أوسكار! مِنَ الصَّعب أَلَّا يفعلوا، أليس كذلك، يا أوسكار؟ نحن نحبُّه، ألسنا نفعل، يا أوسكار؟»

«أنا أكرهه.»

«أوه، يا أوسكار، لا تقل أشياء سخيفةً.»

«هَلْ يمكننا جميعًا أَنْ نتوقَّف عَنِ الحديث عَنْ مِلَّة، رجاءً.»

«نعم، يا جوشوا، حسنًا جدًّا. هَلْ تسمعين كيف تنتابه الغيرة؟ أنا أحاول أَنْ أشرح له أَنَّ مِلَّة يحتاج إِلَى المزيد مِنَ الرِّعاية، كما تعرفين. إِنَّه مِنْ أصولٍ صعبةٍ جدًّا. يشبه الأمر أَنْ أمنح المزيد مِنَ الوقت لأزهار الفاوانيا أكثر مِنْ زهور بابونج عيد سانت مايكل، فالبابونج سينمو عَلَى أَيَّة حالٍ... أنتَ تعرف أَنَّه يمكنك أَنْ تكون أنانيًّا جدًّا في بعض الأحيان، يا جوشي.»

«حسنًا، يا أُمِّي، حسنًا. ماذا بخصوص العشاء - قبل الدِّراسة أم بعدها؟»

«*قبلها*، أظنُّ، يا جويس، أليس كذلك؟ يجدر بي أَنْ أعمل عَلَى فأر المستقبل طوال اللَّيلة.»

«فأر المستقبل!»

«ششش، يا أوسكار، أنا أحاول الاستماع إِلَى أبيك.»

«لأنَّني سأقدِّم ورقةً غدًا لذا فمِنَ الأفضل أَنْ نتناول العشاء مبكِّرين. إذا كان ذلك مناسبًا لكِ، يا أيري، أنا أعرف كيف تحبِّين طعامكِ.»

«حسنًا جدًّا.»

«لا تقل أشياء مثل ذلك، يا ماركوس، يا عزيزي، إِنَّها حسَّاسةٌ جدًّا تجاه وزنها.»

«لا، أنا حقًّا لستُ ـــ»

«حسَّاسةٌ؟ تجاه وزنها؟ لكنَّ الجميع يحبُّون الفتاة الكبيرة، أليس كذلك؟ أنا أعرف *أنَّني أفعل*.»

«مساء الخير عليكم جميعًا. كان الباب مواربًا. سمحتُ لنفسي بالدُّخول. يوما ما سيتجوَّل شخصٌ ما هنا ويقتل عددًا سخيفًا كبيرًا منكم.»

«مِلَّة! أوسكار، انظر إِنَّه مِلَّة! أوسكار، أنت سعيدٌ جدًّا برؤية مِلَّة، ألستَ كذلك، يا حبيبي؟»

رفع أوسكار أنفه للأعلى، وتظاهر بالتَّقيُّؤ، ثُمَّ رمى مطرقةً خشبيَّةً عَلَى ساقَي مِلَّة.

«يتحمّس أوسكار *كثيرًا* عندما يراك. *حسنًا*. أنت في وقتكَ تمامًا للعشاء. دجاجٌ مع الجبن والقرنبيط. اجلس. جوش، ضع معطف مِلّة في مكانٍ ما. وإذنْ. كيف الأمور؟»

جلس مِلّة إِلَى الطّاولة بعنفٍ وعينَين تبدوان كما لَوْ شهدتا دموعًا مؤخّرًا. أخرج كيس تبغه وحقيبةً صغيرةً مِنَ الماريجوانا.

«حقيرةٌ مقرفةٌ.»

«مقرفةٌ كيف؟» تساءل ماركوس بقليلٍ مِنَ الاهتمام، منشغلًا عن ذلك في قَطع جزءٍ مِنْ كتلةٍ هائلةٍ مِنْ جبن ستيلتون[1] لنفسه. «تعذّر وصولك إِلَى ملابس الفتاة الدّاخليّة؟ أَمْ رفضَت الفتاة الوصول إِلَى ملابسك الدّاخليّة؟ أَمْ لَمْ تكن الفتاة ترتدي ملابس داخليّةً؟ وبعيدًا عن ذلك، ما نوع الملابس الدّاخليّة الّتِي كانت ـــ»

«*أبي! توقّف عن ذلك*،» ناح جوشوا.

«حسنًا، لَوْ وصلتَ فعلًا إِلَى ملابس أيّ أحدٍ الدّاخليّة، يا جوش،» قال ماركوس، وهو ينظر ـ بالتّحديد ـ إِلَى أَيرِي: «فسيمكنني توجيه ضرباتي *إليك*، ولكنْ حتّى الآن ـــ»

«شششش، أنتما ـ الاثنين ـ» قاطعت جويس. «أنا أحاول الاستماع إِلَى مِلّة.»

منذ أربعة شهورٍ، بدا وجود زميلٍ رائعٍ مثل مِلّة بالنّسبة إِلَى جوش ضربة حظٍّ مجنونةً. وتجاوز وجوده في محيط بيته كُلّ ثلاثاء كُلّ رهانات جوشوا في جليناردأوك بمراحل. والآن ها هو مِلّة، بتشجيعٍ مِنْ أَيرِي، بدأ في القدوم مِنْ تلقاء نفسه، في القدوم بشكلٍ *اجتماعيٍّ*، ينبغي لجوشوا تشالفين المولود كتشالفين البدين أَنْ يشعر بصعود نجمه. ولكنّه لَمْ يفعل. بَلْ شعر بالانزعاج؛ لأَنّ جوشوا لَمْ يكن يساوم عَلَى قوّة جاذبية مِلّة. ومواصفاته الّتِي تشبه المغناطيس. لقَدْ رأى أَنّ أَيرِي ما زالت، في أعماقها، معلّقة به مثل مشبك ورقٍ، بَلْ وحتّى أُمّه هو بدَت أحيانًا كأَنّما تضع مِلّة في بؤرة تفكيرها؛ كُلُّ طاقتها لأجل البستنة، ولأجل أطفالها، ولأجل زوجها، ترشّدَت وانجذبَت إِلَى هذا الموضوع الوحيد مثل الكثير مِنْ برادة الحديد. وأزعجه ذلك.

«ألا يمكنني الحديث الآن؟ ألا يمكنني الحديث في بيتي؟»

«جوشي، لا تكنْ سخيفًا. مِنَ الواضح أَنّ مِلّة محبطٌ... أنا فقط أحاول التّعامل مع *ذلك* في هذه اللّحظة.»

1 ـ جبن إنجليزي ينتج في نوعين: الأزرق، وهو معروف برائحته ومذاقه الحادين، والأبيض وهو أقل شهرة. (المترجم).

«مسكينٌ جوشي الصَّغير،» قال مِلَّة في نبراتٍ بطيئةٍ مُهمهمةٍ ماكرةٍ: «لا يحصل عَلَى ما يكفي مِنْ اهتمام مامي؟ يريدمِنْ مامي أَنْ تمسح له مؤخِّرته؟»

«اللَّعنة عليك، يا مِلَّة،» قال جوشوا.

«أووووووو...»

«جويس، ماركوس،» ناشد جوشوا، باحثًا عن حَكَمٍ مِنَ الخارج. «اخبراه.»

دفع ماركوس قطعةً كبيرةً مِنَ الجبن في فمه، وهزَّ كتفيه. «أخشى أَنَّ مِلَّة في نطاق السُّلطان القضائيِّ لأُمِّنا.»

«دعني فقط اتعامل مع *هذا* أوَّلًا، يا جوشي،» بدأت جويس. «ثُمَّ عندها في وقتٍ لاحقٍ...» سمحت جويس لبقيَّة جملتها أَنْ ترتطم بباب المطبخ ـ بالكاد ـ عندما أغلقه ابنها الأكبر بعنفٍ.

«هَلْ ينبغي أَنْ أذهب وراء...؟» سأل بنجامين.

هزَّت جويس رأسها وقبَّلت بنجامين عَلَى خده. «لا، يا بنجي. مِنَ الأفضل أَنْ نتركه مع الأمر.»

التفتَت إِلَى مِلَّة مِنْ جديدٍ، وهي تلمس وجهه، متتبِّعةً مسار الملح مِنْ دمعٍ قديمٍ بإصبعها.

«*الآن*. ماذا حدث؟»

بدأ مِلَّة في لفِّ سيجارته ببطءٍ. يُحبُّ أَنْ يجعلهم ينتظرون. يمكنكَ أَنْ تستخرج الكثير مِنْ أَيٍّ مِنْ أفراد تشالفين إذا جعلتَهم ينتظرون.

«أوه، يا مِلَّة، لا تدخن تلك الأشياء. كُلَّ مرَّةٍ نراك فيها هذه الأيام وأنتَ تدخِّن. الأمر يزعج أوسكار كثيرًا. إنَّه ليس بهذا القدر مِنَ الصِّغر ويمكنه أَنْ يفهم أكثر ممَّا تظنُّ. إنَّه يفهم بخصوص الماريجوانا.»

«ما الماري ـــ وانا؟» سأل أوسكار.

«أنتَ تعرف ما هي، يا أوسكار. إنَّها ما يجعل مِلَّة فظيعًا تمامًا، كما كُنَّا نتحدث عنه اليوم، وهي ما يقتل خلايا المخِّ الصَّغيرة لديه.»

«انزلي عن ظهري، بحقِّ اللَّعنة، يا جويس.»

«أنا أحاول فقط أَنْ....» تنهَّدت جويس في ميلودراميَّةٍ، ومررَّت أصابعها في شعرها. «ما الأمر، يا مِلَّة؟ هَلْ تحتاج إِلَى بعض النُّقود؟»

«نعم، أحتاج، في الواقع.»

«لماذا؟ ماذا حدث؟ *يا مِلَّة*. حدِّثني. هَلْ هي الأسرة مرَّةً أخرى؟»

دسَّ مِلَّة العُقب الكرتونيَّ البرتقاليَّ للسِّيجارة الملفوفة بين شفتيه وسَحَبَ نفسًا. «طرَدَني أبي من المنزل، أَلَمْ يفعل؟»

«أوه يا إلهي،» قالت جويس، ودموعها تندفع سريعًا، وهي تسحب كرسيَّها وتقترب أكثر وتمسك بيده، «*لَوْ كنتُ* والدتك، كنتُ سَـ ـ حسنًا، عَلَى أَيَّة حالٍ أنا لستُ كذلك، أليس كذلك... ولكنَّها بالفعل عاجزةٌ جدًّا... الأمر يجعلني في غاية... أقصد، تخيَّلي زوجك يأخذ أحد ابنيك بعيدًا ويفعل ما يعلمه الله مع الآخر، أنا فقط ـــ»

«لا تتحدَّثي عن أُمِّي. أنتِ لَمْ تلتقي بها قطُّ. ولَمْ أكنْ *أتحدَّث* عنها.»

«حسنًا، إِنَّها ترفض مقابلتي، أليس كذلك؟ كما لَوْ أَنَّ في الأمر نوعًا مِنَ المنافسة.»

«اخرسي بحقِّ اللَّعنة، يا جويس.»

«حسنًا، لا يوجد مغزًى، أليس كذلك؟ الخوض في... يزعجكَ أَنْ... يمكنني رؤية ذلك، بوضوحٍ، الأمر كُلُّه قريبٌ جدًّا مِنَ الـ.. ماركوس، احضر بعض الشَّاي، إِنَّه بحاجةٍ إِلَى الشَّاي.»

«بحقِّ اللَّعنة! أنا لا أريد أيَّ شايٍ *لعينٍ*. كُلُّ ما تفعلونه أَنْ تشربوا الشَّاي! ينبغي أَنْ يكون بولكم جميعكم شايًا صافيًا.»

«مِلَّة، أنا أحاول فقط ـــ»

«حسنًا، لا تفعلي.»

سقطَت بذرة خشخاشٍ صغيرةٍ مِنْ سيجارة مِلَّة الملفوفة وعلَقت عَلَى شفتيه. التقطها ودسَّها في فمه. «يمكن لبعض البراندي أَنْ يفيد، مع ذلك، إذا توفَّر.»

أومأت جويس لأيري بنظرة *ماذا يمكنكِ أنْ تفعلي* وأشارت بـ قياسٍ صغيرٍ بين سبَّابتها وإبهامها مِنْ براند بها نابوليون ذيّ الثَّلاثين عامًا. وقفت أيري عَلَى دلوٍ مقلوبٍ لكَيْ تحضره مِنْ عَلَى الرَّفِّ العلويِّ.

«حسنًا، دعونا نهدأ جميعنا. حسنًا؟ حسنًا. *إذنْ*. ماذا حدث هذه المرَّة؟»

«لقَدْ دعوتُه بالفَرْجِ. *إنَّه فَرْجُ امرأةٍ*.» لطم مِلَّة أصابع أوسكار الزَّاحفة الَّتي تبحث عن شيءٍ للَّعب والَّتي بلغَت علبة ثقابه بشكلٍ لافتٍ. «سوف أحتاج إلَى مكانٍ ما للإقامة بعضَ الوقت.»

«حسنًا، ليس ذلك سؤالًا حتَّى، يمكنكَ أنْ تبقى معنا، بالطَّبع.»

انحشرت أيري بينهما، جويس ومِلَّة، لتضع كأس البراندي ذي القاع العميق عَلَى الطَّاولة.

«حسنًا، يا أيري، امنحيه مساحةً صغيرةً الآن، أتصوَّر.»

«كنتُ فقط ــ»

«نعم، حسنًا، يا أيري ـ هو فقط لا يحتاج إلَى الزِّحام في هذه اللَّحظة بالتَّحديد ــ»

«إنَّه رجلٌ منافقٌ لعينٌ،» قاطع مِلَّة مع دمدمةٍ، وهو ينظر تجاه المسافة بينهما ويتحدَّث إلَى الصَّوبة الزُّجاجيَّة بنفس القدر الَّذي يتحدَّث فيه إلَى أيِّ أحدٍ: «إنَّه يصلِّي خمس مرَّاتٍ في اليوم ولكنَّه ما زال يشرب وليس لديه أيُّ أصدقاءٍ مسلمين، ثُمَّ يصيح في وجهي بسبب ممارسة الجنس مع فتاةٍ بيضاء. ثُمَّ بعدها هو حانقٌ بسبب ماجد. إنَّه يضع كُلَّ قرفه عَلَيَّ. وهو يريدني أَنْ أتوقَّف عَنِ التَّسكُّع مع كيفن إنَّني مسلمٌ لعينٌ أكثر منه. اللَّعنة عليه!»

«هَلْ تريد الحديث عن الأمر مع كُلِّ هذا الجمع،» قالت جويس، وهي تنظر بجدِّيَّةٍ في أنحاء الغرفة. «أَمْ فقط نحن؟»

«جويس،» قال مِلَّة، وهو يجرع كأسه مِنَ البراندي في مرَّةٍ واحدةٍ، «أنا لا أعبأ بالمرَّة.»

أخذَت جويس ذلك عَلَى معنى *وحدنا فقط* وقادت بقيَّتهم بعينَيها إلَى خارج الغرفة.

سُرَّت أَيرِي بالمغادرة. فخلال الشُّهور الأربعة الَّتِي ظلَّت هي ومِلَّة يحضران فيها إلَى منزل آل تشالفين، ويعملان عَلَى منحة العلوم المزدوجة[1]، النِّطاق الأوَّل، ويأكلان مختاراتهم مِنَ الطَّعام المسلوق، تطوَّر نمطٌ غريبٌ. كُلَّما حقَّقَت أَيرِي تقدُّمًا ـ سواءً في دراساتها، أم في محاولاتها لإقامة محادثة مهذَّبةٍ، أم في تقليدها المدروس للتشالفينيَّة ـ كُلَّما قَلَّ الاهتمام الَّذِي تُظهره جويس بها. ومع ذلك، كُلَّما انحرف مِلَّة عن المسار ـ معرِّجًا بدون دعوةٍ في إحدى أمسيات الأحد، ثملًا، أَوْ مُحضرًا فتياتٍ معه، أَوْ مدخِّنًا الحشيشة في جميع أنحاء المنزل، أَوْ محتسيًا نبيذهم الدُّوم برينيون[2] 1964 في الخفاء، أَوْ متبوِّلًا عَلَى حديقة الزُّهور، أَوْ عاقدًا اجتماعًا لـ كيڤن في الغرفة الأماميَّة، أَوْ مضيفًا 300 جنيهٍ زيادةً عَلَى فاتورة التِّليفون بمكالماتٍ لبنجلاديش، أَوْ قائلًا لماركوس إنَّه شاذٌّ جنسيًّا، أَوْ مهدِّدًا بإخصاء جوشوا، أَوْ مناديًا أوسكار بالقرف المدلَّل الصَّغير، أَوْ مُتَّهِمًا جويس نفسَها بأنَّها مهووسةٌ ـ كُلَّما عشقَته جويس أكثر. في أربعة شهورٍ كان مدينًا لها بثلاثمئة جنيهٍ بالفعل، ولحافٍ، وعَجَلَة درَّاجةٍ.

«هَلْ ستأتين إلَى الطَّابق العلويّ؟» سأل ماركوس، عندما أغلق باب المطبخ عليهما هما ـ الاثنين ـ ومال إلَى هذه الجهة وتلك مثل عود قصبٍ بينما اندفع أطفاله وراءه. «لدَيَّ تلك الصُّور الَّتِي أردتِ رؤيتها.»

منحَت أَيرِي ماركوس ابتسامةً شاكرةً. لقَدْ كان ماركوس مَنْ بدا مُهتمًّا بها. لقَدْ كان ماركوس مَنْ ساعدها في تلك الشُّهور الأربعة بينما يتحوَّل مُخُّها مِنْ شيءٍ طريٍّ إلَى شيءٍ صلبٍ ومحدَّدٍ، وبينما تكتسب ألفةً مع طريقة آل تشالفين في التَّفكير، عَلَى مهلٍ. لقَدْ فكَّرَت في هذا كتضحيةٍ كبيرةٍ مِنْ جانب رجلٍ مشغولٍ، ولكنَّها تساءلَت في الآونة الأخيرة إذا لَمْ يكنْ في الأمر بعضٌ مِنَ المتعة. مثل مشاهدة رجلٍ أعمًى يستشعر ملامح موضوعٍ جديدٍ، رُبَّما. أَوْ فأر مختبرٍ يفهم متاهةً. في كلتا الحالتين، وفي مقابل اهتمامه، بدأَت أَيرِي في الاهتمام، إستراتيجيًّا في البداية، وبشكلٍ حقيقيٍّ الآن، بفأر مستقبله. وبناء عليه أصبحَت الدَّعوات إلَى مكتب ماركوس في الجزء الأعلَى مِنَ المنزل، غرفتها المفضلة إلَى حدٍّ كبيرٍ، أكثر تواتُرًا.

«حسنًا، لا تقفي هناك بابتسامةٍ واسعةٍ مثل عبيط القرية. تعالي إلَى الأعلى.»

---

1 ـ في بريطانيا، المنحة المضاعفة أوْ المزدوجة للعلوم هي دراسة مشتركة لعلوم الأحياء والكيمياء والفيزياء في الثانوية العمة والَّتِي تنتج اثنتين من شهادات الثانوية العامة. وهؤلاء الذين يجتازون شهادتهم الثانوية بمنحة العلوم المضاعفة يمكنهم أن يتقدموا إلَى المستويات في جميع مواد العلوم الطبيعية الثلاث. (المترجم).

2 ـ نوع نبيذ فرنسي شهير. (المترجم).

لا تشبه غرفة ماركوس أيَّ مكانٍ سبق لأيري رؤيته قطُّ. ليست بها أيَّة مرافق مجتمعيَّة، ولا غرض آخر لها في المنزل سوى كونها غرفة ماركوس؛ لَمْ تضمَّ أيَّة ألعاب أطفالٍ، أَوْ خردواتٍ، أَوْ أشياء مكسورةٍ، أَوْ طاولة كَيٍّ إضافيَّةٍ؛ لا أحد يأكل فيها، أَوْ ينام فيها، أَوْ يمارس الحبَّ فيها. ليست مثل فضاء كلارا في السَّندرة، قبلاي خان[1] مِنَ البواقي، مخزَّنةً جميعها في صناديق ومصفوفةً بعنايةٍ في حال ما احتاجت في المطلق لأَنْ تهرب مِنْ هذه الأرض إِلَى أرضٍ أخرى. (ليسَت مثل الغرف الإضافيَّة للمهاجرين - معبَّأةً حتَّى العوارض الخشبيَّة بكُلِّ ما امتلكوه، مهما كان معيبًا أَوْ تالفًا، بجبالٍ مِنَ الغرائب والأطراف - تقف شاهدةً عَلَى حقيقة أَنَّ لديهم أشياء الآن، بينما لَمْ يكن لديهم شيءٌ مِنْ قبل). تَمَّ تكريس غرفة ماركوس بشكلٍ مجرَّدٍ لماركوس ولعمل ماركوس. غرفة درسٍ. كما في أوستن[2] أَوِ *الطَّابق العلو والطَّابق السفلي*[3] أَوْ شيرلوك هولمز[4]. باستثناء أَنَّها أوَّل غرفة درسٍ رأتها أيري في الحياة الواقعيَّة.

الغرفة نفسها صغيرةٌ وغير منتظمةٍ مع أرضيَّةٍ منحدرةٍ، وإفريزٍ خشبيٍّ يعني أَنَّه مِنَ الممكن الوقوف في أماكن معيَّنةٍ ولكنْ ليس في أماكن أخرى، ومَنْوَرٍ أكثر منه نافذةٍ تسمح للضَّوء بالمرور عبر شرائح، وتُسلِّط الضَّوء عَلَى الغبار الرَّاقص. هناك أربع خزائن للملفَّات، ووحوشٌ مفتوحة الأفواه تبصق الورق؛ ورقٌ في أكوامٍ عَلَى الأرضيَّة، وعَلَى الأرفف، وفي دوائر حول المقاعد. وحطَّت رائحة التَّبغ الألمانيِّ الحلو الغنيِّ في سحابةٍ فوق مستوى الرَّأس تمامًا، تُلطِّخ صفرة أوراق الكتب الأعلى. هناك طقم تدخين

1 - الإشارة إِلَى قصيدة قبلاي خان لصمويل تايلور كولريدج الَّتِي كتبت في 1797 ولكنها لَمْ تنشر حتَّى 1816. كتبت بعد أن رأى الشاعر حلمًا حول مكان بناه حاكم المغول قبلاي خان. ولم يستطع كولريدج إنهاء القصيدة، مع ذلك؛ لأن شخصًا من بورلوك (قرية في سومرست) قاطعه أثناء كتابتها، ثم نسي الحلم. (المترجم).

2 - ستيف أوستن: شخصية خيالية ابتكرها مايكل كايدن في روايته سايبورج (كائن بالتحكم الآلي)، أصبح بعدها في 1970 رمزًا تليفزيونيًا قدمه لي ماجورز في مسلسل 1974 - 1978 بعنوان «رجل بستة ملايين دولار». (المترجم).

3 - عرض في مصر في نهاية السبعينيات باسم «الناس اللي فوق والناس اللي تحت»: هو سلسلة درامية في التليفزيون البريطاني أعيد إحياءها من قِبَل هيئة الإذاعة البريطانية وعرضت في 68 حلقة في خمسة أجزاء من 1971 حتَّى 1975. ويرصد المسلسل حياة الخدم في الطابق السفليّ وسادتهم - العائلة في الطابق العلوي. (المترجم).

4 - مسلسل بريطاني يقوم على تجسيد الشخصية الخيالية لمحقق من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابتكرها الكاتب والطبيب الأسكتلندي سير آرثر كونان دويل. يعرِّف هولمز نفسه على أنه «محقق استشاري» يتخذ من مدينة لندن مقرًا له، ويساعد رجال الشرطة والمحققين عندما لا يجدون حلولًا للجرائم الَّتِي تواجههم. اشتهر هولمز بمهارته في استخدام التفكير المنطقي، وقدرته على التنكر والتمويه، تعد شخصية شيرلوك هولمز أشهر شخصية لمحقق خيالي على الإطلاق. أطلقت نسخة من المسلسل في عام 1984. وأعيد إنتاجه في 2009. (المترجم).

تفصيليٍّ عَلَى طاولةٍ جانبيَّةٍ ـ مباسم إضافيَّةٌ، وغلايين تتفاوت بين القياسيَّة عَلَى شكل حرف U إِلَى أكثر الأشكال طرافةً، وصناديق السُّعوط، ومجموعةٌ مِنَ الشَّاش ـ وُضعَت جميعها في حقيبة جلدٍ مخمليَّةٍ مثل أدوات الطَّبيب. توزَّعَت صور عشيرة تشالفين حول الجدران وفي بطانة الموقد، من ضمنها صورةٌ جميلة لجويس بصدرٍ هيبيٍّ شابٍّ ومفعمٍ بالحيوية، وأنفٍ مرتفع يتسلَّل بين بقعتين كبيرتين من التهاب جريبات الشَّعر. ومِنْ ثَمَّ عددٌ قليلٌ مِنَ القطع المركزيَّة المؤطَّرة. وخريطةٌ لشجرة عائلة تشالفين. ولقطة رأسٍ لمندل[1] وهو يبدو مستمتعًا مع نفسه. وملصقٌ كبيرٌ لأينشتاين[2] في مرحلته كأيقونةٍ أمريكيَّةٍ ـ شعر البروفيسور المجنون، والنَّظرة المندهشة، والغليون الضَّخم ـ معنونةً فرعيًّا بالاقتباس *الله لا يلعب النَّرد مع الكون*. وأخيرًا، كرسيُّ ماركوس البلُّوطيُّ الكبير في خلفيَّته بورتريه لكريك وواطسون[3] يبدوان مُرهَقَين ولكنْ مبتهجَين أمام نموذجهما للحمض النَّوويّ، دَرَجٍ حلزونيٍّ مِنَ المشابك المعدنيَّة، يصل مِنْ أرضيَّة مختبرهما في كامبريدج حتَّى ما بعد نطاق عدسة المصوِّر.

«ولكنْ أين ويلكنز؟» استفسر ماركوس، وهو ينحني حيث أخذ السَّقف في الانخفاض وينقِّر عَلَى الصُّورة بقلمٍ رصاصٍ. «في 1962، فاز ويلكنز بجازة نوبل في الطِّبِّ مع كريك وواطسون. لَكِنْ لا يوجد أَيُّ أثرٍ لويلكنز في الصُّور. فقط كريك وواطسون. واطسون وكريك. التَّاريخ يحبُّ العباقرة المنفردين أَوِ الأفعال المزدوجة. ولكنَّه لا يملك وقتًا للمجموعات الثُّلاثيَّة.» فكَّر ماركوس مِنْ جديدٍ. «ما لَمْ يكونوا كوميديِّين أَوْ موسيقيِّي جازٍ.»

«أفترض أَنَّك ينبغي أَنْ تكون عبقريًّا منفردًا، إذنْ.» قالت أَيري بمرحٍ، وهي تلتفت عَنِ الصُّورة وتجلس عَلَى الكرسيِّ السُّويديِّ بدون ظهرٍ.

---

1 ـ جريجور يوهان مندل (20 يوليو 1822 ـ 6 يناير 1884): هو أبو علم الوراثة. عالم نبات وراهب نمساوي أدت تجاربه في تكاثر نبات البازلاء إلى اكتشاف القوانين الأساسية لعلم الوراثة. (المترجم).

2 ـ ألبرت أينشتاين (14 مارس 1879 – 18 أبريل 1955): عالم فيزياء ألماني المولد، سويسري وأمريكي الجنسية، وضع النظرية النسبية الخاصة، والنظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتين كانتا اللبنة الأولى للفيزياء النظرية الحديثة، نال جائزة نوبل في الفيزياء في عام 1921 عن دراسة حول التأثير الكهروضوئي وأدت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد من الظواهر التي فشلت الفيزياء الكلاسيكية في إثباتها. (المترجم).

3 ـ فرنسيس كريك فيزيائي وعالم كيمياء حيوية بريطاني، وجيمس واتسون عالم أحياء جزيئية ووراثة أمريكي، وضعا تصورًا لتركيب الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين في عام 1953، وحصلا على جائزة نوبل في الطب لعام 1962 مشاركة مع موريس ويلكنز لأبحاثهم المتعلقة بالتركيب البيولوجي للحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين في الكائنات الحية. (المترجم).

«آه، لَكِنْ لدَيَّ مُرشدٌ، أنتِ ترين.» أشار إِلَى صورةٍ بالأبيضِ والأسودِ في قياس البوستر عَلَى الجِدار الآخر. «المرشدون موضوعٌ مختلفٌ تمامًا.»

كانت لقطةً مقرَّبة إِلَى أقصى حدٍّ لرجلٍ مسنٍّ للغاية، حُدِّدت ملامح وجهه بوضوح مِنْ خلال الخط والظل، وخطوط التَّهشير[1] عَلَى خريطةٍ طبوغرافيَّة.

«رجلٌ فرنسيٌّ مسنٌّ جليلٌ، نبيلٌ وعالِمٌ. علَّمني كُلَّ شيءٍ أعرفه تقريبًا. نيفٌ وسبعون عامًا وحاضر البديهة ثاقب الذَّكاء. لَكِنْ كما ترَين، مع المرشدين أنت لا تحتاجين إِلَى تقديرهم بشكلٍ مباشرٍ. ذلك أمرٌ رائعٌ بخصوصهم. الآن أين هذه الصُّورة اللَّعينة...»

بينما يفتِّش ماركوس عنها في خزانةٍ للملفَّات، تفحَّصت أَيرِي شريحةً صغيرةً مِنْ شجرة عائلة آل تشالفين، مخطَّطًا تفصيليًّا من شجرة بلُّوطٍ تمتدُّ في الماضي حتَّى عام 1600 وللأمام إِلَى يومنا. اتَّضحَت الاختلافات بين آل تشالفين وآل جونز/بودين بشكلٍ سريعٍ. كبدايةٍ، ففي عائلة تشالفين بدا أَنَّ كُلَّ شخصٍ لديه عددٌ طبيعيٌّ مِنَ الأطفال. وأكثر أهميَّة مِنْ ذلك، كُلُّ شخصٍ يعرف مَنْ أطفال مَنْ. الرِّجال يعيشون أطول مِنَ النِّساء. والزَّواج أحاديٌّ ويستمرُّ طويلًا. وتواريخ الميلاد والوفاة محدَّدةٌ. ويعرف آل تشالفين مَنْ كانوا فعليًّا في 1675. لَمْ يكن آرشي جونز ليستطيع تقديم سجلٍّ أبعد لعائلته مِنَ الظُّهور العشوائيِّ لوالده عَلَى هذا الكوكب في الغرفة الخلفيَّة لحانة بروملي حوالي عام 1895 أَوْ 1896 أَوْ رُبَّما تمامًا في 1897، يعتمد الأمر عَلَى أيِّ نادلٍ سابق في التِّسعين تتحدَّث إليه. وتعرف كلارا بودين القليل عن جدَّتها، وتشكُّ في قصة أَنَّ عمها ب. الشَّهير بخصوبته كان لديه أربعةٌ وثلاثون طفلًا، ولكن يمكنها أَنْ تذكر بشكلٍ قاطعٍ أَنَّ أُمَّها وُلدت في 2:45 عصرًا، في 14 يناير 1907، في كنيسةٍ كاثوليكيَّةٍ في قلب زلزال كنجستون. البقيَّة شائعاتٌ، وحكاياتٌ خرافيَّة، وأساطيرُ:

«أنتم تذهبون بعيدًا جدًّا يا رفاق،» قالت أَيرِي، عندما جاء ماركوس مِنْ ورائها لكَيْ يرى ما في بؤرة اهتمامها. «إِنَّه أمرٌ لا يُصدَّق. لا يمكنني أَنْ أتصوَّر ما الَّذِي يجب أَنْ يكون عليه ذلك الشُّعور.»

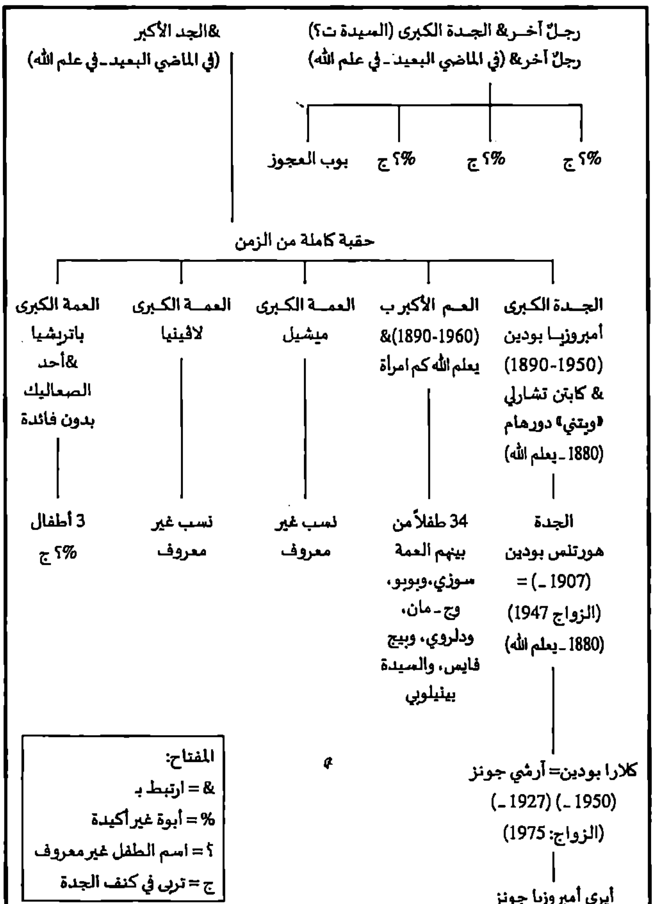
«إفادةٌ بلا معنًى. نحن جميعنا نذهب إِلَى الماضي بنفس القدر الَّذِي يفعله الآخرون. الأمر فقط أَنَّ آل تشالفين يدوِّنون الأشياء دائمًا،» قال ماركوس متأمِّلًا، وهو يحشو غليونه بتبغٍ طازجٍ. «هذا يساعد إذا ما أردتِ أَنْ تكون لكِ ذكرى.»

1 ـ التهشير تقنية أو أسلوب في فن التظليل تظهر به تأثيرات الظل خصوصًا في اللوحات التي تكون إمَّا بالرصاص إمَّا بقلم الحبر. (المترجم).

«أتصوَّر أنَّ عائلتي تنتمي أكثر إلَى تقاليد شفاهيَّةٍ،» قالت أيري بلا اهتمامٍ. «لكنْ، يا رجل، ينبغي أنْ تسأل مِلَّة عَنْ أسرته. إنَّه مِنْ نسل ـــ»

«ثوريٍّ عظيمٍ. هكذا سمعتُ. لَمْ أكنْ لآخذ أيًّا مِنْ ذلك عَلَى محمل الجدِّ، لَوْ كنتُ مكانكِ. جزءٌ واحدٌ مِنَ الحقيقة إلَى ثلاثة أجزاءٍ مِنَ الخيال في تلك العائلة، كما أتصوَّر. هَلْ هناك أيَّة شخصيَّةٍ تاريخيَّةٍ جديرةٍ بالانتباه في مجموعتك؟» سأل ماركوس، ومِنْ بعدها، فقَدَ اهتمامه بسؤاله الشَّخصيّ عَلَى الفور، وعاد إلَى بحثه في ملفَّات الكابينة رقم اثنين.

«لا...لا أحد... مهمٌّ. لكنَّ جدَّتي وُلدَت في يناير 1907، أثناء زلزال كينجستون ـــ»



«ها نحن ذا.»

أطلَّ ماركوس ظافرًا مِنْ درجٍ معدنيٍّ، وهو يلوِّح بمجلَّدٍ رقيقٍ مِنَ البلاستيك مع بضع ورقاتٍ بداخله.

«صورٌ. خصِّيصًا لأجلك. إذا رأتها جماعة حقوق الحيوان، سيكون في ذلك نهاية حياتي. واحدةً فأخرى الآن. لا تنتزعيها.»

مرَّر ماركوس الصُّورة الأولى لأَيري. صورةً لفأرٍ عَلَى ظهره. معدته متناثرةٌ مع زوائد قليلةٍ تشبه الفطر، بُنِّيَّةٍ ومنتفخةٍ. فمه ممطوطٌ بشكلٍ غير طبيعيٍّ، في وضعيَّة الصَّلب، في صرخة عذابٍ. ولكنَّه عذابٌ غير حقيقيٍّ، فكَّرَت أَيري، وإنَّما عذابٌ مسرحيٌّ بشكلٍ أكبر. أشبه بالفأر الَّذِي قدَّم عرضًا كبيرًا في شيءٍ ما. فأر استعراضٍ. فأرٌ ظريفٌ. هناك أمرٌ ساخرٌ بخصوصه.

«كما ترَين، فالخلايا الجنينيَّة جميعها بخيرٍ، إنَّها تساعدنا في فهم العناصر الوراثيَّة الَّتِي قَدْ تؤدِّي إِلَى السَّرطان، ولكن ما تريدين معرفته حقًّا هو كيف يتطوَّر الورم في *الأنسجة الحيَّة*. أعني، لا يمكنك مقاربة ذلك في مُستنبَتٍ، فعلًا. وعليه فإنَّك تذهبين عندها إِلَى استحداث مواد مسرطِنةٍ كيميائيَّةٍ في عضوٍ مستهدَفٍ لَكِنْ....»

كانت أَيري نصف مستمعةٍ، ونصف منهمكةٍ في الصُّور الَّتِي تُمرَّر إليها. الثَّانية لنفس الفأر، بقدر ما تستطيع أَنْ تقول، هذه المرَّة عَلَى جانبه الأماميِّ، حيث الأورام أكبر. هناك واحدٌ عَلَى عنقه بَدَا، عمليًّا، بنفس حجم أذنه. ولكنَّ الفأر بَدَا سعيدًا جدًّا بخصوصه. كما لَوْ أَنَّه أنبت جهاز استماعٍ جديدٍ بشكلٍ مقصودٍ تقريبًا لكَيْ يسمع ما يقوله ماركوس عنه. أدركت أَيري أَنَّ هذا أمرٌ غبيٌّ للتَّفكير فيه بخصوص فأر مختبرٍ. ولكنْ، مرَّةً أخرى، فإنَّ وجه الفأر به مكرُ فأرٍ في هذا الخصوص. هناك سخرية فأرٍ في عيني الفأر لديه. ابتسامة فأرٍ متكلِّفةٌ تعبث حول شفتي الفأر فيه. مرضٌ *قاتلٌ*؟ (قال الفأر لأَيري). *أَيُّ مرضٍ قاتلٍ*؟

«... بطيءٌ وغير دقيقٍ. ولكنْ إذا أَعدتِ *هندسة* الجينوم الفعليِّ، بحيث يتمُّ التَّعبير عن السَّرطانات *المحدَّدة* في أنسجة محدَّدةٍ في أوقاتٍ محدَّدةٍ *سلفًا* خلال تطوِّر الفأر، فإنَّكِ لَنْ تعودي تتعاملين مع المتغيِّر العشوائيِّ. أنتِ *تُحيِّدين* الأداء العشوائيَّ في مُحدِث الطَّفرة. أنتِ تتحدَّثين ـ الآن ـ عن البرنامج الوراثيِّ للفأر، تنشيط قهريٌّ للجينات المسرطنة مع الخلايا. كما ترين ـ الآن ـ هذا الفأر تحديدًا ذكرٌ شابٌّ....»

كان فأرالمستقبل© ممسوكًا مِنْ طرفيه الأماميَّين - الآن - بإصبعينورديَّين عملاقَين دفعاه إِلَى الوقوف بشكلٍ رأسيٍّ مثل فأرٍ كارتونيّ؛ ليدفع رأسه بالتَّالي إِلَى الأعلى. بدأ أَنَّه يخرج لسانه الفأريَّ الورديَّ، إِلَى المصوِّر مبدئيًّا، والآن إِلَى أيرِي. وعَلَى ذقنه تعلَّقَت الأورام مثل قطراتٍ كبيرةٍ مِنَ المطر القذر.

«.... وهو يعبِّر عن جين الـ H - ras[1] السرطانيِّ في خلايا محدَّدةٍ مِنْ جلده، ولذا فإِنَّه يطوِّر أورامًا جلديَّةً حلميَّةً حميدةً متعدِّدةً. والمثير للاهتمام - الآن، بالطَّبع - أَنَّ الإناث الشَّابَّة لا تطوِّر ذلك، الأمر الَّذِي....»

عينٌ واحدةٌ مُغلقةٌ، والأخرى مفتوحةٌ. مثل غمزةٍ. غمزة فأرٍ ماكرةٍ.

«... ولماذا؟ بسبب التَّنافس بين الذُّكور - المعارك تقود إِلَى الاحتكاك. ليس واجبًا بيولوجيًّا ولكنَّه اجتماعيٌّ. النَّتيجة الوراثيَّة: هي نفسها. هَلْ ترين؟ وهذا فقط مع الفئران المعدَّلة، عبر إضافةٍ تجريبيَّةٍ إِلَى الجينوم، بحيث يمكنك أَنْ تفهمي تلك الأنواع مِنَ الاختلافات. هذا الفأر، ذلك الَّذِي تنظرين إليه، فأرٌ فريدٌ مِنْ نوعه، يا أيرِي. إِنَّني أقوم بزرع سرطانٍ، سرطانٍ يظهر بالضَّبط عندما أتوقَّع ذلك. خمسة عشر أسبوعًا مِنَ التَّطوُّر. شفرته الوراثيَّة جديدةٌ. سلالةٌ جديدةٌ. لا حجة أفضل للحصول عَلَى براءةٍ، لَوْ تسأليني. أَوْ عَلَى الأقلِّ عَلَى نوعٍ ما مِنْ حقوق الملكيَّة: 80% للربِّ، و20% لي. أَوْ عَلَى العكس مِنْ ذلك، يعتمد الأمر عَلَى براعة محاميَّ. لا يزال أولاد الحرام المساكين أولئك في هارفارد يحاربون بخصوص هذه النُّقطة. أنا لستُ مهتمًّا ببراءة الاختراع، شخصيًّا. أنا مهتمٌّ بالعلم.»

«واو،» قالت أيرِي، وهي تعيد إليه الصُّور عَلَى مضضٍ. «إِنَّه أمرٌ صعبٌ جدًّا عَلَى الفهم. أنا نصف فهمت ونصف لَمْ أفهم الأمر بالمرَّة. إِنَّه مذهلٌ فعلًا.»

«حسنًا،» قال ماركوس، بتواضعٍ زائفٍ. «أمرٌ لشغل الوقت.»

«أَنْ تكون قادرًا عَلَى تحييد العشوائيَّة...»

«إذا قضيتِ عَلَى العشوائيَّة، فأنتِ تقودين العالم،» قال ماركوس ببساطةٍ. «لماذا نظلُّ عالقين بالخلايا السَّرطانيَّة؟ يمكن للمرء أَنْ يبرمج كُلَّ خطوةٍ في تطوُّر الكائن الحيِّ:

1 - يعرف باسم بروتين التحويل ب 21، وهو إنزيم في البشر تم تشفيره بهذا الرمز. جين الـ H - ras يقع على الذراع القصيرة للكروموسوم رقم 11. (المترجم).

التَّناسل، والعادات الغذائيَّة، ومتوسِّط العمر المتوقَّع» ـ بصوت الرَّجل الآليّ، والذِّراعان للخارج مثل زومبي، والعينان تدوران في محجريهما ـ «السَّيطرة ـ عَلَى ـ العالم.»

«أستطيع أَنْ أرى عناوين صحف التَّابلويد،» قالت أَيرِي.

«جدِّيًّا، وعَلَى الرغم مِنْ ذلك،» قال ماركوس، وهو يعيد ترتيب صوره في المجلَّد ويتحرَّك في اتِّجاه الخزانة لإعادتها، «دراسة السُّلالات المعزولة مِنَ الحيوانات المعدَّلة وراثيًّا تلقي ضوءًا حاسمًا عَلَى العشوائيَّة. هَلْ تتابعينني؟ ضحَّينا بفأرٍ واحد لأجل 5.3 مليار إنسانٍ. ليس أكثر مِنْ نهاية العالم لفأرٍ. لسنا نطلب الكثير.»

«لا، بالطَّبع لا.»

«اللَّعنة! هذا الشَّيء فوضى هائلةٌ!»

حاول ماركوس ثلاث مرَّاتٍ أَنْ يغلق الدُّرج السُّفليَّ مِنْ خزانته، ثُمَّ عندها، وجَّه ركلةً، بفقدان صبرٍ، إِلَى جانبيها المعدنيَّين. «شيءٌ لعينٌ!»

أطلَّت أَيرِي عَلَى الدُّرج المفتوح. «أنتَ بحاجةٍ إِلَى مزيدٍ مِنَ الفواصل،» قالت بشكلٍ قاطعٍ. «وكثيرٌ مِنَ الورق الَّذِي تستخدمه هو A3 وA4 أَوْ غير مُنتظم. أنتَ بحاجةٍ إِلَى نوعٍ مِنَ السِّياسة للطَّيِّ؛ أنت تحشرهم الآن حشرًا فقط.»

ألقى ماركوس رأسه للوراء وضحك. «سياسةٍ للطَّيِّ! حسنًا، أَفترض أَنَّكِ ينبغي أَنْ تعرفي، مَنْ شابهَت أباها ما ظلمت.»

جلس القرفصاء أمام الدُّرج ومنحه عدَّة دفعاتٍ جديدةٍ.

«إِنَّنِي جادَّةٌ. أنا لا أعرف كيف تعمل هكذا. إِنَّ هُرائي المدرسيَّ أفضل تنظيمًا، وأنا لستُ في أعمالٍ تتعلَّق بالسَّيطرة عَلَى العالم.»

نظر ماركوس نحوها مِنْ حيث ركع. كانت مثل سلسلةٍ جبليَّةٍ مِنْ تلك الزَّاوية، نسخةٌ ناعمةٌ وليِّنةٌ مِنْ جبال الأنديز.

«انظري، ما رأيكِ بهذا: سأدفع لك خمسة عشر جنيهًا في الأسبوع إذا جئتِ في حدود المرَّتين أسبوعيًّا وسيطرتِ عَلَى كارثة ترتيب الملفَّات. سوف تتعلَّمين المزيد، وسأربح إنجاز شيءٍ أحتاج لإنجازه. هاه؟ ما رأيكِ بهذا؟!»

ما رأيكِ بالأمر. دفعَت جويس إلَى مِلَّة فعلًا ما مجموعه خمسة وثلاثين جنيًها في الأسبوع لأنشطِة متنوِّعةٍ كهذه مثل رعاية أوسكار، وغسيل السَّيَّارة، وإزالة الأعشاب، وإعادة تدوير كُلِّ الأوراق الملوَّنة. ما دفعَت مِنْ أجله، بالطبع، كان حضور مِلَّة. تلك الطَّاقة حولها. وتلك *الاعتماديَّة*.

علمَت أيرِي بالاتفاق الَّذِي أوشكت عَلَى إبرامه؛ لَمْ تركض نحوه مترنِّحةً أَوْ ثملةً أَوْ يائسةً أَوْ مشوَّشةً، كما فعل مِلَّة. بَلْ وأكثر مِنْ ذلك، *أرادته*؛ أرادَت أَنْ تندمج مع آل تشالفين، أَنْ تكون مِنْ لحمهم[1]؛ أَنْ تنفصل عن اللَّحم العشوائيِّ الفوضويِّ لعائلتها هي، وتنصهر في أخرى عبر التحول الجينيِّ حيوانًا فريدًا مِنْ نوعه. سلالةً جديدةً.

عبس ماركوس. «لماذا كُلُّ هذه المداولة؟ سأرغب في ردٍّ في هذه الألفيَّة، إذا لَمْ تمانعي. هَلْ هي فكرةٌ جيِّدةٌ أَمْ لا؟»

أومأَت أيرِي برأسها وابتسمَت. «بالتَّأكيد هي كذلك. متى أبدأ؟»

***

لَمْ تكنْ أَيٌّ مِنْ كلارا أَوْ ألسانا مسرورةً جدًّا. ولكنَّ الأمر استغرق بعض الوقت لمقارنة الملاحظات وتعزيز استيائهما. كلارا في مدرسةٍ ليليَّةٍ ثلاثة أيَّامٍ في الأسبوع (دورات دراسة: الأمبرياليَّة البريطانيَّة 1765 حتَّى الوقت الحاضر؛ الأدب الويلزيُّ في العصور الوسطى؛ والنِّسْويَّة السَّوداء)، وألسانا عَلَى ماكينة الخياطة كُلَّ ساعات النَّهار الَّتِي وهبها الله عندما اندلعَت حربٌ عائليَّةٌ حولها. لَمْ تتحدَّثا عَلَى الهاتف إلَّا في المناسبات. بَلْ ولَمْ تر إحداهما الأخرى سوى أقلَّ مِنْ ذلك. ولكنَّ الاثنتَين شعرتا بعدم ارتياحٍ بشكلٍ منفصلٍ تجاه آل تشالفين، الَّذِين سمعتا عنهم، أكثر فأكثر، وبالتَّدريج. بعد عدَّة شهورٍ مِنَ المراقبة السِّرِّيَّة، تأكَّدت ألسانا أَنَّهم آل تشالفين مَنْ يذهب مِلَّة إليهم أثناء غيابه المعتاد مِنْ منزل العائلة.

أَمَّا بالنِّسبة إلى كلارا، فقَدْ كانت محظوظةً لكَيْ تقبض عَلَى أيرِي في مساء أحد الأسابيع، بعد أَنْ بالغت في أعذار كرة الشَّبكة. ظلَّ الأمر لشهورٍ هو آل تشالفن هذا وآل تشالفن ذاك؛ جويس قالت هذا الأمر الرَّائع، وماركوس بارعٌ بشكلٍ مُذهلٍ. ولكنْ ليست كلارا بتلك الَّتِي تثير ضجَّةً؛ أرادت يائسةً ما هو أفضل لأيرِي؛ واقتنعَت دائمًا

1 ـ يتناص التعبير مع سفر التكوين (2:23 و24): فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. (المترجم).

بأنَّ التَّضحية هي تسعة أعشار الأمومة. بَلْ لقَدِ اقترحَت اجتماعًا، بينها هي نفسُها وآل تشالفن، ولكنْ إمَّا أَنَّ كلارا مصابةٌ بعقدةِ اضطهادٍ وإمَّا أَنَّ أَيرِي بذلت ما في وسعها لكَيْ تتجنَّب ذلك. ولَمْ يكنْ هناك معنًى في التَّطلُّع إِلَى آرشيبالد لأجل الدَّعم. هو يرى أَيرِي فقط في ومضاتٍ - عندما تعود إِلَى البيت للاستحمام، واللِّبس، أَوْ للأكل - ولَمْ يبد أنَّه يزعجه ما إذا كانت متحمِّسةً بلا حدٍّ تجاه أطفال آل تشالفن (*يبدون رائعين، يا حبيبتي*)، أَوْ تجاه شيءٍ فعلته جويس (*هَلْ فعلَت؟ ذلك ذكيٌّ جدًّا، أليس كذلك، يا حبيبتي؟*) أَوْ شيءٍ قاله ماركوس (*يبدو مثل أينشتاين صحيحٍ قديمٍ، هه، يا حبيبتي؟ حسنًا، جيِّدٌ بالنِّسبة إليك. يجب أَنْ أنطلق. لقاء سامي في أوكونيل في الثَّامنة*). لآرشي جلدٌ في سماكة جلد تمساحٍ. بالنِّسبة إليه أَنْ يكون أَبًا هو وضعٌ جينيٌّ صريحٌ (الحقيقة الأكثر صراحةً في حياة آرشي)، ولَمْ يخطر له أَنَّه قد يكون هناك أَيُّ منافسٍ عَلَى لقبه. ترك لكلارا أَنْ تعضَّ عَلَى شفتها وحدها، وتأمل أَنَّها لَمْ تكنْ تخسر ابنتها الوحيدة، وتبتلع الدَّم.

ولكنَّ ألسانا خلصَت في النِّهاية إِلَى أَنَّها حربٌ شاملةٌ وأَنَّها بحاجةٍ إِلَى حليفٍ. في نهايات يناير 91، وقَدْ مضى الكريسماس ورمضان بأمانٍ، التقطت التِّليفون.

«إذنْ: أنتِ تعرفين بخصوص طيور الشَّرشور[1] هؤلاء؟»

«آل تشالفين. أظنُّ أَنَّ الاسم هو تشالفين. نعم، إِنَّهما والدا صديقٍ لأَيرِي، كما أظنُّ،» قالت كلارا مراوِغةً، وهي تريد أَنْ تعرف أوَّلًا ما تعرفه ألسانا. «جوشوا تشالفين. تبدو عائلةً لطيفةً.»

زفرَت ألسانا الهواء مِنْ أنفها. «سأدعوهم الشَّرشور - الطُّيور الإنجليزيَّة الصَّغيرة جامعة الفضلات وهي تنقر أفضل البذور! تلك الطُّيور تفعل بأوراق الغار الخاصَّة بي نفس ما يفعله هؤلاء النَّاس بابني. ولكنَّهم *أسوأ*: إِنَّهم مثل طيورٍ بأسنانٍ، بأنيابٍ صغيرةٍ حادَّةٍ - إِنَّهم لا يسرقون فقط، بَلْ يمزِّقون إربًا! ما الَّذِي تعرفينه عنهم؟»

«حسنًا... لا شيء، في الحقيقة. لقَدْ ساعدوا أَيرِي ومِلَّة بعلومهم، هذا ما قالته لي أَيرِي. أنا عَلَى ثقةٍ مِنْ أَنَّه لا يوجد ضررٌ، يا ألسي. وأَيرِي تؤدِّي بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا في المدرسة الآن. *إِنَّها* خارج المنزل طوال الوقت، ولكنَّني لا أستطيع فعلًا أن أكون حازمةً معها.»

1 - استخدمت المؤلفة لفظ Chaffinches وتعني طائر الشرشور، وهي في الوقت نفسه تصحيف صوتي من اسم آل تشالفين. (المترجم).

سمعَت كلارا ألسانا تصفع درابزين سلَّم آل إقبال في غضبٍ. «*هَلِ التقيتِ* بهم؟ لأنَّنِي لَمْ ألتق بهم، ومع ذلك فإنَّهم يشعرون بالحرِّيَّة في منح ابني المال والمأوى كما لَوْ أنَّه لا يملك أيًّا منهما ـ ويتحدَّثون عنِّي بسوءٍ، دون شكٍّ. يعلم *الله وحده* ما الَّذِي يخبرهم عنِّي! مَنْ هم؟ أنا لا أعرفهم إطلاقًا، لا مِنْ آدم ولا مِنْ حوَّاء! يقضي مِلَّة كُلَّ دقيقةٍ مِنْ وقت فراغه معهم ولا أرى أيَّ تحسُّنٍ محدَّدٍ في درجاته، وما زال يدخِّن الماريجوانا وينام مع الفتيات. أنا أحاول وأخبر صمد، ولكنَّه في عالمه الخاصّ؛ هو لَنْ ينصت. يصرخ عَلَى مِلَّة فقط، ولكنَّه لَنْ يتحدَّث معي. نحن نحاول جمع المال لكَيْ نستعيد ماجد، وفي مدرسةٍ جيِّدةٍ. أنا أحاول أَنْ أحتفظ بهذه العائلة معًا، وطيور الشَّرشور هذه تحاول أَنْ تمزقها!»

عضَّت كلارا شفتها وأومأت صامتةً عَلَى الخطِّ.

«هَلْ أنتِ هناك، أيَّتها السَّيِّدة؟»

«نعم،» قالت كلارا. «نعم. كما ترين، إنَّ أيري، حسنًا... إنَّها تبدو كما لَوْ أنَّها تعبدهم. لقَدِ انزعجتُ جدًّا في البداية، ولكنْ بعد ذلك ظننتُ أنَّنِي سخيفةٌ لا أكثر. آرشي يقول إنَّنِي سخيفةٌ.»

«إذا أخبرتِ رأس البطاطس ذلك أنَّه ليست هناك جاذبيَّةٌ عَلَى القمر فسيظنُّ أنَّكِ سخيفةٌ. نحن ندبِّر أمورنا بدون رأيه منذ خمسة عشر عامًا، وسندبِّر أمرنا بدونه الآن. يا كلارا،» قالت ألسانا، وأنفاسها الثَّقيلة تهزُّ السَّمَّاعة، وقَدْ بدا صوتُها مجهدًا: «نحن نقف دائمًا *بجوار بعضنا بعضًا*... أنا *أحتاجكِ* الآن.»

«نعم... أنا أفكِّر فقط...»

«أرجوكِ. لا تفكِّري. لقَدْ حجزتُ فيلمًا، قديمًا وفرنسيًّا، كما تحبِّين ـ الثَّانية والنِّصف اليوم. قابليني أمام مسرح التريسيكل[1]. عار أخي سوف تأتي أيضًا. نتناول الشَّاي. ونتحدَّث.»

كان الفيلم «*عَلَى آخر نَفَس*»[2]. 16 ملليمترًا، بالأسودِ والأبيضِ. سيَّارات فورد قديمةٌ وشوارع واسعةٌ تكتنفها الأشجار. أكمامٌ مُشمَّرةٌ ومناديل. قبلاتٌ وسجائر.

1 ـ مسرح بريطاني تم افتتاحه في طريق كيلبورن السريعة، في لندن في 1980 كمقر دائم لشركة ويكفيلد الثلاثية المتخصصة في إنتاج العروض المسرحية البريطانية الأولى، والكتابات الجديدة، وعروض الأطفال. (المترجم).

2 ـ À bout de souffle الفيلم الطويل الأول لجان لوك جودار (1960) من بطولة جان بول بلموندو وجين سيبرج، والذي عبرعن أسلوب الموجة الجديدة في السينما الفرنسية. (المترجم).

أحبَّته كلارا (بلموندو الجميل[1]! سيبرج[2] الجميلة! باريس الجميلة!)، ووجدته نينا فرنسيًّا أكثر مِنَ اللَّازم، ولَمْ تفهم ألسانا ما يدور حوله الشَّيء اللَّعين. «شابٌّ وفتاةٌ يركضان حول فرنسا يتحدَّثان بالتَّفاهات، ويقتلان رجال الشُّرطة، ويسرقان السَّيَّارات، ولا حمَّالات صدر عَلَى الإطلاق. لَوْ كانت هذه سينما أوروبِّيَّةً، فامنحيني أفلام بوليوود طوال أيَّام الأسبوع. والآن، أيَّتها السَّيِّدتان، هَلْ ننتقل إِلَى العمل؟»

ذهبَت نينا وأحضَرت أكواب الشَّاي ووضعتها بقوَّةٍ عَلَى الطَّاولة الصَّغيرة.

«إذنْ ما كُلُّ هذا بخصوص مؤامرة طيور الشَّرشور؟ للأمر وقعٌ يشبه هيتشكوك[3].»

شرحَت ألسانا الموقف باختصارٍ.

فتَّشَت نينا في حقيبة لأجل سجائرها. أشعلَت واحدةً ونفثَت دخانًا برائحة النِّعناع. «يا عمَّتي، إنَّهم يبدون فقط كعائلةٍ لطيفةٍ تمامًا مِنَ الطَّبقة المتوسِّطة يساعدون مِلَّة في دراساته. هَلْ هذا ما جررتِني مِنَ العمل مِنْ أجله؟ أعني، الأمر لا يكاد يكون جونز تاون[4]، الآن، أليس كذلك؟»

«لا،» قالت كلارا بحذرٍ: «لا، بالتَّأكيد لا - ولكنْ كُلُّ ما تقوله عمَّتك هو أَنَّ مِلَّة وأيرِي يقضيان الكثير مِنَ الوقت هناك، ولذا فإنَّنا نرغب فقط في أَنْ نعرف أكثر قليلًا بخصوص ما هم عليه، أنتِ تعرفين. هذا طبيعيٌّ بما يكفي، أليس كذلك؟»

---

1 - جان بول بلموندو: أحد أشهر نجوم الموجة الجديدة في السينما الفرنسية، بدأ حياته كملاكم ولاعب كرة قدم، ثم اكتشفه جان لوك جودار؛ ليشاركه في أول أفلامه في عام 1960 ويصبح بعدها أحد أهم نجوم السينما في العالم. اشتهر بإصراره على أداء الأدوار الصعبة دون اللجوء للدوبلير. (المترجم).

2 - جين دوروثي سيبرج: ممثلة أمريكية لعبت بطولة 34 فيلمًا في هوليوود وفي أوروبا، من أشهرها: سان خوان، ليليث، لحظة بلحظة. توفيت في 30 أغسطس عام 1979. (المترجم).

3 - السير ألفريد جوزيف هتشكوك مخرج ومنتج سينمائي إنجليزي ذائع الصيت، معروف بالريادة في العديد من تقنيات التشويق والإثارة في الأفلام، أخرج هيتشكوك أكثر من خمسين فيلمًا في حياته المهنية الَّتي امتدت ستة عقود. وينظر إليه في كثير من الأحيان على أنه أعظم مخرج بريطاني. والإشارة هنا إِلَى فيلمه الشهير «الطيور». (المترجم).

4 - جونز تاون أوْ جماعة الاب جيم جونز هي طائفة بروتستانتية متطرفة تأسست في كاليفورنيا عام 1963 وبلغ عدد أعضائها ثلاثين ألفًا. وقد تلقى الأب جونز تزكيات من عدد من رجال الكونجرس ومن عمدة سان فرنسيسكو ومن زوجة الرئيس كارتر وهي تزكيات شجعت حاكم جويانا على أن يمنحه قطعة أرض من 37 ألف فدان يقيم عليها مستعمرته ويحقق عليها حلمه المزعوم بمجتمع تسوده المحبة والتعاون والإخاء وتزول فيه الطبقات. وهي المستعمرة التي انتهت بحادث قتل وانتحار رهيب لـ 913 شخصًا في المستعمرة من بينهم أكثر من 200 طفل من جرّاء التسمم بمادة السيانيد، وعلى رأسهم رئيس الطائفة الاب جونز نفسه الذي قاد عملية الانتحار الجماعي وكأنها صلاة أوْ طقس ديني. (المترجم).

اعترضَت ألسانا. «*ليس* هذا كُلُّ ما أقوله. أقول إِنَّ هؤلاء النَّاس يأخذون ابني بعيدًا عنِّي! طيور لها أسنانٌ! إِنَّهم يؤنْجلزونه[1] بالكامل! إِنَّهم يقودونه عامدين بعيدًا عن ثقافته وعائلته ودينه ــ»

«منذ متى تمنحين اهتمامًا زائدًا بخصوص دينه!»

«*أنتِ*، يا عار أخي، *أنت* لا تعرفين كَمْ نزفتُ دمًا لأجل ذلك الفتى، أنتِ لا *تعرفين عَنْ* ــ»

«حسنًا، ما دمتُ لا أعرف شيئًا عَنْ أَيِّ شيء، فلماذا أحضرتِني إِلَى هنا بحقِّ اللَّعنة؟ لديَّ أشياء أخرى لعينةٌ لكَيْ أقوم بها، كما تعرفين.» انتزعَت نينا حقيبتها وتصنَّعَت الوقوف. «أنا آسفةٌ بخصوص هذا، يا كلارا. لا أعرف لماذا يجب أَنْ يحدث هذا دائمًا. سأراك قريبًا...»

«اجلسي،» هسهسَت ألسانا، وهي تجذبها مِنْ ذراعها. «اجلسي، حسنًا جدًّا، لقَدْ أوضحتِ وجهة نظرك، أَيَّتها السَّيِّدة سُحاقيَّةٌ الذَّكية. انظري، نحن نحتاجك، حسنًا؟ اجلسي، أعتذر، أعتذر. حسنًا؟ استرحتِ؟»

«حسنًا جدًّا،» قالت نينا، وهي تطفئ سيجارتها في منديلٍ. «ولكنَّني سأقول ما يدور في ذهني بصراحةٍ ولمرَّةٍ واحدةٍ اغلقي فقط فجوة الفم تلك بينما أفعل ذلك. حسنًا؟ حسنًا. جيِّدٌ. والآن، لقَدْ قلتِ ـ توًّا ـ أَنَّ أَيري تؤدِّي بشكلٍ هائلٍ في المدرسة، وإذا كان مِلَّة لا يؤدِّي بشكلٍ جيِّد جدًّا، فليس ذلك بلغزٍ عظيمٍ ـ هو لا يقوم بأيِّ عملٍ. عَلَى الأقلِّ هناك أحدٌ ما يحاول مساعدته. وإذا كان يرى هؤلاء النَّاس بشكلٍ زائدٍ عَنِ الحدِّ، فأنا واثقةٌ أَنَّ هذا هو اختياره، لا اختيارهم. إِنَّها ليست أرضًا سعيدةً تمامًا في منزلكم الآن، أليس كذلك؟ إِنَّه يهرب مِنْ نفسه ويبحث عَنْ شيءٍ بعيدٍ بقدر المستطاع عن آل إقبال.»

«أها! ولكنَّهم يعيشون عَلَى مبعدة شارعَين!» صرخت ألسانا في انتصارٍ.

«لا، يا عمَّتِي. *المفهوم* بعيدٌ جدًّا عنك. كونه مِنْ آل إقبال هو أمرٌ خانقٌ بعض الشَّيء أحيانًا، هَلْ تعلمين؟ إِنَّه يستخدم تلك العائلة الأخرى كملجأ. لهم تأثيرٌ جيِّدٌ رُبَّما، أَوْ شيءٌ ما.»

«أو شيءٌ ما،» قالت ألسانا عَلَى نحو ينذر بالشَّرِّ.

1 ـ استخدمت الكاتبة تعبير Englishifying بما يعني تحويله إِلَى إنجليزي بالكامل. (المترجم).

«ما الَّذِي تخشينه، يا ألسي؟ هو جيلٌ ثانٍ - أنت تقولين ذلك دائمًا لنفسك - يلزمكِ أَنْ تتركهم يذهبون في طريقهم الخاصَّة، نعم. وانظري لما حدث لي، هراءٌ هراءٌ هراءٌ - رُبَّما أكون عار أخيك بالنِّسبة إليك، يا ألسي، ولكنَّني أكسب عيشي جيِّدًا مِنْ جهدي.» نظرت ألسانا في ريبةٍ إِلَى الحذاء طويل الرَّقبة حتَّى الرُّكبة الَّذِي صمَّمته نينا، وصنعته، وترتديه. «وأنا أعيش حياةً جيِّدةً جدًّا - كما تعلمين، أعيش وفق مبادئ. أقول فقط. إِنَّ لديه معركةٌ بالفعلِ مع العمِّ صمد. ولا يحتاج إِلَى أخرى معك أيضًا.»

دمدمت ألسانا في كوبها مِنْ شاي التُّوت.

«إذا كنتِ تريدين أَنْ تقلقي مِنْ شيءٍ، يا عمَّتي، فاقلقي مِنْ هؤلاء النَّاس في كيفن الَّذِين يتسكَّع معهم. إِنَّهم مجانين. وهناك أعدادٌ كبيرةٌ لعينةٌ منهم. كُلُّ الأشخاص الَّذِين لَنْ تتوقَّعيهم. مُو، أنتِ تعرفينه، الجزَّار - نعم، أنتِ تعرفين - مِنْ آل حسين إسماعيل - عائلة أصهار أردشير. صحيحٌ، حسنًا، إِنَّه واحدٌ. والملعون شيفا، مِنَ المطعم - لقَدْ غيَّر ديانته!»

«خيرًا فعل،» قالت ألسانا بحزمٍ.

«ولكنْ ليس لهذا أَيَّة علاقةٍ بصحيح الإسلام، يا ألسي. إِنَّهم جماعةٌ سياسيَّةٌ. وبعض الآراء السِّياسيَّة. قال وغدٌ صغيرٌ لي ولماكسين إِنَّنا سوف نُشوى في حفر الجحيم. عَلَى ما يبدو فإِنَّنا الأشكال الأدنى للحياة، أسفل مِنَ الرَّخويَّات. لقَدْ لويت خصيته 360 درجةً. *أولئك* هم النَّاس الَّذِين ينبغي أَنْ تقلقي حِيالهم.»

هزَّت ألسانا رأسها وهشَّت عَلَى نينا بإحدى يديها. «ألا تستطيعين أَنْ تفهمي؟ أنا قلقةٌ مِنْ أَنْ يؤخذ ابني بعيدًا عنِّي. لقَدْ فقدتُ واحدًا بالفعل. منذ سِتِّ سنواتٍ لَمْ أر ماجد. ستِّ سنواتٍ. ثُمَّ أجد هؤلاء النَّاس، طيور الشَّرشور تلك - يقضون وقتًا مع مِلَّة أكثر ممَّا أفعل. هَلْ يمكنكِ أَنْ تفهمي ذلك، عَلَى الأقلِّ؟»

تنهَّدت نينا، وهي تعبث بزرٍّ في أقصى انفعالها، ثُمَّ سلَّمَت عندها، بإشارةٍ صامتةٍ، وهي ترى الدُّموع تتجمَّع في عيني عمَّتها.

«غالبًا ما يذهب مِلَّة وأَيرِي إِلَى هناك للعشاء،» قالت كلارا بهدوءٍ. «وألسانا، حسنًا، عمَّتكِ وأنا نتساءل... إذا أمكن لكِ الذِّهاب معهما لمرَّةٍ - إِنَّ ملامحكِ شابَّةٌ، وأنتِ تبدين صغيرةً، وسيمكنك الذِّهاب و ــــ»

«أقدِّم تقريرًا،» أكملت نينا، وهي تدير عينيها. «أخترق العدوّ. يا للعائلة المسكينة ـ ليست لديهم أيَّة فكرةٍ عمَّنْ يعبثون معهم، أليس كذلك؟ إنَّهم تحت المراقبة وهم لا يعرفون ذلك حتَّى. الأمر يشبه *التِّسع والثَّلاثين* خطوةً[1] اللَّعينة.»

«يا عار أخي: نعم أَمْ لا؟»

تأوَّهت نينا. «نعم، يا عمَّتِي. نعم، إذا كان لا بُدَّ لِي.»

«مع كثيرٍ مِنَ الامتنان،» قالت ألسانا، وهي تُنهي شايها.

***

الآن، ليس الأمر أنَّ جويس مصابةٌ بفوبيا الجنس المثليّ. لقدْ أحبَّت الرِّجال مثليِّي الجنس. وهم أحبُّوها. حتَّى أنَّها جمعت عرضًا القليل مِنْ مشجِّعي نادي المثليِّين في الجامعة، مجموعةً مِنَ الرِّجال الَّذِين رأوها باربرا سترايسند/وبيت ديفيس[2]/ وجوان بايز[3] مهجَّناتٍ معًا نوعًا ما، والتقوا مرَّةً في الشَّهر لكَيْ يعدُّوا لها العشاء ويبدوا إعجابهم بأناقتها. وعليه فجويس لا يمكن أنْ تكون مصابةً برهاب المثليِّين. ولكنِ

1 ـ رواية مغامرات للكاتب الأسكتلندي جون باكان. ظهرت في البداية كمسلسل في مجلة بلاكوود في أغسطس وسبتمبر 1915. وتدور أحداثها في أوروبا في 1914 عندما كانت أوروبا قريبة جدًّا من الحرب والجواسيس في كُلّ مكان. (المترجم).

2 ـ ممثلة أمريكية، حصلت على جائزة أوسكار مرتين كأفضل ممثلة عام 1935 عن دورها فيلم خطير وعام 1938 عن دورها في فيلم جزيبل. بعد ظهورها في مسرحيات برودواي، انتقلت بيت ديفيس إِلَى هوليوود في 1930، ولم تلق أفلامها الأولى مع ستوديوهات يونيفرسال نجاحًا. انضمت بعد ذلك إِلَى وارنر براذرز في عام 1932 وأرست بدايات مشوارها الفني بعدة أدوار حازت على إعجاب النقاد. وفي عام 1937 حاولت ديفيس فسخ عقدها مع وارنر براذرز ورغم خسارتها للقضية الَّتِي نالت شهرة واسعة في ذلك الوقت، فإنها كانت بداية انطلاق أكثر الفترات تألقًا في مشوارها الفني. عرفت بيت حتَّى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين بكونها إحدى أشهر نجمات السينما الأمريكية والَّتِي اشتهرت بقوة أدائها التمثيلي، خصوصًا بعد تجسيدها لشخصية مارغو شانينغ في فيلم كُلّ شيء عن إيف. حصلت بيت ديفيس عام 1999 على الترتيب الثاني لأفضل ممثلات السينما الأمريكية على الإطلاق عبر 100 عام بعد كاثرين هيبورن وذلك ضمن تقديرات معهد الفيلم الأمريكي. (المترجم).

3 ـ مغنية فُلكلورية أمريكية وكاتبة غنائية وموسيقية، وناشطة بارزة في مجالات حقوق الإنسان والسلام والعدالة البيئية. وتتمتَّع بايز بأسلوب صوتي مُميَّز، وقامت بتسجيل عدد كبير من الأغاني المحلية والأغاني الَّتِي تتناول المواضيع الاجتماعية. بدأت بايز مهنتها في العزف في المقاهي في مدينتي بوسطن وكامبريدج، واشتهرت كعازفة غير مُعلن عنها في مهرجان نيوبورت للموسيقى الفُلكلورية في دورته عام 1959م. وأخذت بايز في تسجيل أسطواناتها عام 1960، ممَّا أدَّى إِلَى نجاحها الباهر والسريع. عزفت بايز أمام الجماهير لأكثر من 53 عامًا، وأصدرت أكثر من 30 ألبومًا. وتتحدث بايز اللغتين الإسبانية والإنجليزية بطلاقة، ولذلك فقد سجَّلت أغاني بست لغات أخرى على الأقل. (المترجم).

النِّساء مثليّات الجنس... هناك شيءٌ يزعج جويس بخصوص النِّساء مثليّات الجنس. ليس الأمر أنَّها لا تحبُّهنَّ. هي فقط لَمْ تستطع *استيعابهنَّ*. فهمَت جويس لماذا قَدْ يحبُّ الرِّجال الرِّجال، كرَّست حياتها للرِّجال المحبِّين، ولذا عرفَت كيف هو الشُّعور. ولكنَّ فكرة أَنْ تحبَّ امرأةٌ امرأةً كانت بعيدةً عن فهم جويس المعرفيِّ للعالم إِلَى الدرجة الَّتِي لَمْ تستطع *معالجتها*. الفكرة عنهنَّ. هي فقط لا *تفهمها*. يعلم الله، لقَدْ بذلَت جهدها. خلال السبعينيات قرأَت *بئر العزلة*[1] و*أجسادنا، أنفسنا*[2] (الَّذِي كان فصلًا صغيرًا): وفِي وقتٍ أقرب قرأَت وشاهدَت *البرتقال ليس هو الفاكهة الوحيدة*[3]، لَكِنَّ أَيًّا منها لَمْ ينفع معها. لَمْ تتأثَّر بالأمر. لَمْ تستطع فقط أَنْ ترى *المغزى*. لذا عندما عرَّجت نينا عَلَى

1 ـ رواية تتناول موضوع المثلية الجنسية للكاتبة الإنجليزية مارجيت رادكليف هول. وقد حظرتها المملكة المتحدة سنة 1928 بسبب موضوعها الذي يتناول السحاق، لكنها نشرت فيما بعد سنة 1949، أي بعد ستة أعوام من وفاة المؤلفة. وتدور وقائع الرواية حول حياة ستيفن ماري أوليفيا جيرترود جوردون، وهي امرأة إنجليزية من طبقة اجتماعية راقية، وقد ظهر شذوذها الجنسي «الانعكاس الجنسي في الرواية» جلياً في سن مبكرة. وقد وجدت بطلة الرواية ماري ستفين الحب مُمثلاً في الشخصية النسائية ماري لوبلين، والَّتِي التقت بها أثناء عملها كسائقة لسيارة إسعاف خلال الحرب العالمية الأولى. ولكن لَمْ تدم سعادة الزوجين طويلاً حيث تأثرت بالعزلة والرفض الاجتماعي، والذي عقبت عليه هول واصفةً إياه بنقطة الضعف في حبهما. وقد صوّرت الرواية الشذوذ الجنسي وكأنه أمرٌ طبيعي وهبة من الله وهبها إياهما؛ وظهر النداء المُطالب بذلك في رسالة واضحة في مطالبتهما بإعطاهما الحق في الحياة والوجود. وقد واجهت رادكليف هول حملة انتقادات واسعة على خلفية نشر روايتها الَّتِي تناولت موضوع السحاق من قبل رئيس تحرير صحيفة صنداي إكسبريس اليومية، والذي كتب فيها: «أُفضّل أن أُعطي لأيّ صبي أَوْ أيّة فتاة زجاجة من حمض الهيدروسيانيك؛ ليتناولها وتنتهي حياته قبل نشر هذه الرواية». وعلى الرغم من أنها من الناحية النظرية، لَمْ تحمل إلا مشهدًا وحيدًا جنسيًّا ـ يتألف من بضع كلمات فقط: «وهكذا في هذه الليلة لَمْ نكن منفصلتين» ـ إلا أن محكمة بريطانية، حكمت بكونه مشهدًا فاحشًا لكونه يدافع عن «الممارسات غير الطبيعية بين النساء»، أَوْ بعبارة أخرى عن السحاق. (المترجم).

2 ـ كتاب عن صحة المرأة والنشاط الجنسي أصدرته منظمة غير ربحية بنفس الاسم (ويعرف في الأصل بالكتاب الجماعي لصحة نساء بوستون). صدرت طبعته الأولى في 1971، ويتضمن معلومات حول الكثير من الجوانب المتعلقة بصحة المرأة ونشاطها الجنسي، بما في ذلك انقطاع الطمث، وتنظيم النسل، وولادة طفل، والصحة الجنسية، والميل الجلسي، والهوية الجنسية، والصحة العقلية، والرفاه العام. كان الكتب مقررًا بالأصل كدورة في صحة المرأة، الأول الذي تكتبه المرأة للمرأة. كان أول إنتاج للكتاب من قبل الحركة النسوية، وما زال يمكن القول إنه يعكس قيمها. (المترجم).

3 ـ رواية لجانيت ونترسون صدرت في 1985، وتم تحويلها لاحقًا إِلَى دراما تليفزيونية في هيئة الإذاعة البريطانية بنفس الاسم. وهي رواية عن النمو النفسي والقيمي للشخصية الرئيسية حول فتاة مثلية تكبر في مجتمع إنجليزي خمسيني (الحركة الخمسينية هي حركة دينية بروتستانتية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر منشقة عن حركة القداسة، ولكنها حافظت على بعض مبادئ الحركة الَّتِي خرجت منها وفي مقدمتها التشديد على حرفية الكتاب المقدس، والتأكيد على الصرامة الأخلاقية. ويؤمن الخمسينيون بأن جميع المسيحيين بحاجة لأن يعيشوا اختبارًا فريدًا لكي يكونوا مسيحيين فعلًا، ويسمى هذا الاختبار بمعمودية الروح القدس). وتستند الرواية إِلَى حياة ونترسون في أكرينجتون، لانكشاير، حيث عاشت بعد انتقالها من بلد مولدها، مانشستر. (المترجم).

العشاء، ذراعًا في ذراعٍ مع ماكسين، جلسَت جويس تحدِّق فيهما فقط أثناء الوجبة الافتتاحيَّة (العدس عَلَى خبز الشَّيلم[1])، باهتمامٍ مركَّزٍ جدًّا. ظلَّت ذاهلةً طوال الدَّقائق العشرين الأولى، تاركةً بقيَّة العائلة يمضون في روتين آل تشالفين ناقصًا منه الجزء الحيويُّ الصَّغير الَّذِي يخصُّها. بَدَا الأمر كما لَوْ أَنَّها منوَّمةٌ مغناطيسيًّا بعض الشَّيءِ أَوْ جالسةٌ في سحابةٍ كثيفةٍ، تسمع مِنْ خلال الضَّباب مقتطفاتٍ مِنْ محادثة عشاءٍ استمرَّت مِنْ دونِها.

«إذن، دائمًا سؤال آل تشالفين الأوَّل: ماذا تعملين؟»

«الأحذية. أنا أصنع الأحذية.»

«آه. ممم. ليس موضوعًا لمحادثةٍ رائعةٍ، كما أخشى. ماذا عَنِ السَّيِّدة الجميلة؟»

«أنا سيِّدةٌ جميلةٌ للتَّرفيه. أَرتدي الأحذية الَّتِي تصنعها.»

«آه. لستِ في كُلِّيَّةٍ، إذن؟»

«لا، لَمْ أتكبَّد العناء في كُلِّيَّةٍ. هَلْ تجدها مشكلةً؟»

كانت نينا دفاعيَّةً بالقدر نفسه. «وقبل أَنْ تسألَني، فأنا لَمْ أفعل بدوري.»

«حسنًا، لَمْ أقصد أَنْ أسبِّب لكما إحراجًا ـــ»

«لَمْ تفعل.»

«لأنَّه ليس أمرًا مفاجئًا في الحقيقة... ولكنَّني أعرف أَنَّكم لستم أكثر العائلات أكاديميَّةً في العالم.»

عرفَت جويس أَنَّ الأمور تسير بشكلٍ سيِّءٍ، ولكنَّها لَمْ تعثر عَلَى لسانها لكَيْ تلطِّف الأمر. يجلس مليون تلميحٍ خطيرٍ في نهاية حَلْقِها، وإذا ما فتحَت فمها ولو قليلًا(ا)، فهي تخشى أَنْ يخرج أحدها. هَذَر ماركوس، الَّذِي يغفل دائمًا عمَّا يسبِّبه مِنْ إهانةٍ، في أريحيَّةٍ. «أنتما ـ الاثنتين ـ إغراءٌ رهيبٌ لأيِّ رجلٍ.»

«هَلْ نحن كذلك؟»

1 ـ الشيلم أو الجاودار: نبات يشبه القمح له أسماء عدة منها الشولم وجاودار وجويدار. تستخدم حبوبه لإنتاج الطحين (خبز الشيلم) وبعض أنواع المشروبات الكحولية. (المترجم).

«أوه، السُّحاقيَّات دائمًا كذلك. وأنا واثقٌ أنَّ بعض السَّادة بالتَّحديد لديهم نصف فرصةٍ - رغم أنَّكما ستفضِّلان الجمالَ عَلَى الذكاء عَلَى الأرجح، كما أتوقَّع، ولذا تضيع فُرصي هناك.»

«تبدو واثقًا مِنْ ذكائكَ بشكلٍ فظيعٍ، يا سيِّد تشالفين.»

«ألا ينبغي لي؟ أنا ذكيٌّ بشكلٍ رهيبٍ، كما تعرفان.»

ظلَّت جويس تنظر فقط إليهما، وهي تفكِّر: *مَنْ تعتمد عَلَى مَنْ؟ مَنْ تُعلِّم مَنْ؟ مَنْ تُحسِّن مَنْ؟ مَنْ تُلقِّح ومَنْ تغذِّي؟*

«حسنًا، مِنَ الرَّائع أنْ يكون لدينا أحدٌ آخر مِنْ آل إقبال عَلَى المائدة، أليس كذلك، يا جوش؟»

«أنا مِنْ آل بيجوم، لستُ مِنْ آل إقبال،» قالت نينا.

«لا أستطيع أنْ أمنع نفسي مِنَ التَّفكير،» قال ماركوس، ذاهلًا: «في أنَّ رجلًا مِنْ آل تشالفين وامرأةً مِنْ آل إقبال سوف يكونان مزيجًا فظيعًا. مثل فريد وجينجر[1]. أنتِ ستمنحيننا الجنس ونحن سنمنحك الإحساس أوْ شيئًا ما: مهلًا؟ ستجعلين الواحد مِنْ آل تشالفين عَلَى أطراف أصابعه - أنتِ متوهِّجةٌ مثل واحدةٍ مِنْ آل إقبال تمامًا. الشَّغف الهنديُّ. الأشياء المضحكة حول العائلة: الجيل الأوَّل كُلُّه نغماتٌ معتوهةٌ، ولكنْ لدى الجيل الثَّاني رؤوسٌ مستقيمةٌ تمامًا فوق أكتافهم.»

«ممم، انظر: لا أحد يدعون[2] عائلتي بالمعتوهين، حسنًا؟ حتَّى ولَوْ كانوا كذلك. أنا سأدعوهم معتوهين.»

1 - فريد أستير وجينجر روجرز: كانا أيقونتي ثنائيات الرقص اللذين صنعا أفلامًا معًا منذ 1933 وحتَّى 1947. وقدما ما مجموعه 10 أفلام. بدأ فريد أستير الرقص في بدايات القرن العشرين كطفل في فودفيل، مشاركًا أخته الأكبر أديل. قدم أول أفلامه في 1933 في دور صغير في فيلم السَّيِّدة الراقصة من بطولة كلارك جيبل وجوان كراوفورد. أما جينجر روجرز فكان أول ظهور لها في 1929 في فيلم قصير. ثم ظهرت في عدة أفلام مع وارنرز براذرز من بينها الشارع الثاني والأربعين وحفارو الذهب في 1933. وكان أول ظهور لفريد وجينجر معًا في فيلم الطيران إِلَى ريو في 1933، في أدوار مساعدة. وبنهاية عام 1935 كان فريد وجنجر من أكبر الأسماء مبيعات في شباك التذاكر. (المترجم).

2 - استخدمت الكاتبة التعبير مع خطأ في قواعد المضارع البسيط في الجملة. وحاولت توضيح هذا الخطأ عبر اختلاف بناء الفعل عن الضمير المقصود في «لا أحد». (المترجم).

«الآن، أنتِ ترين، حاولي استخدام اللُّغة بشكلٍ صحيح. يمكنك أَنْ تقولي: لا أحد يدعو عائلتي بالمعتوهين، ولكنَّ هذا ليس تعبيرًا صحيحًا. لأَنَّ النَّاس يفعلون، وسوف يفعلون. بكلِّ تأكيدٍ. قولي: لا أريد مِنَ النَّاس أَنْ، إِلَى آخره. إِنَّه شيءٌ صغيّر، ولكنْ يمكننا أَنْ نفهم بعضنا بعضًا بشكلٍ أفضل عندما لا نُسيء استخدام المصطلحات والعبارات.»

عند ذلك، وبالكاد عندما وضع ماركوس يده في الفرن لكَيْ يسحب الطَّبق الرَّئيس (قِدْر الدَّجاج السَّاخن) انفتح فم جويس، ولسببٍ ما لا يمكن تفسيره خرج التَّالي: «هَلْ تستخدمان ثديَي بعضكما بعضًا كوسائد؟»

توقَّفت شوكة نينا، في طريقها نحو فمها، بالكاد عندما وصلت إِلَى طرف أنفها. واختنق مِلَّة بقطعةٍ مِنَ الخيار. وكافحَت أَيرِي لكَيْ تعيد فكَّها الأسفل إِلَى تحالفه مع الأعلى. وبدأت ماكسين في القهقهة.

ولكنَّ جويس لَمْ تكن لتشعر بالخجل. فجويس تنحدر مِنْ نوع النِّساء العنيدات اللَّائي مضين عبر المستنقعات الأفريقيَّة، بعد حتَّى أَنْ وضع حاملو الحقائب المحلِّيِّين أحمالهم وعادوا، وحتَّى عندما مال الرِّجال البيض عَلَى بنادقهم وهزُّوا رؤوسهم. إِنَّها تشبه - بالضَّبط - سيِّدات الجبهة اللَّائي، تسلَّحن بالكتاب المقدَّس فقط وببندقيَّةٍ وستارةٍ شفَّافةٍ، وطاردن بدماءٍ باردةٍ الرِّجال البُنِّيِّين الَّذين يمضون مِنَ الأفق قدمًا نحو السُّهول. لَمْ تعرف جويس معنى التَّراجع. بَلْ صمدت لتدافع عن أرضها.

«إِنَّه فقط، في الكثير مِنَ الشِّعر الهنديِّ، يتحدَّثون عن استخدام الأثداء كوسائد، أثداءٍ ناعمةٍ، أثداءٍ وسائد. أنا فقط - فقط - فقط أتساءل، إذا كانت البيضاءُ تنام عَلَى البُنِّيَّة، أَمْ، كما قَدْ يتوقَّع المرء، تنام البُنِّيَّة عَلَى البيضاءِ؟ مع توسيع نطاق الـ - الـ - الـ - استعارة الوسادة، كما ترين، فقط أتساءل أَيُّ... طريقةٍ...»

كان الصَّمت طويلًا، وواسعًا، ومتململًا. هَّزت نينا رأسها في اشمئزازٍ وألقَت أدوات مائدتها في صحنها بقعقعةٍ. ونقَّرت ماكسين بأصابعها عَلَى مفرش المائدة، بإيقاع «ويليام تِلّ» العصبيّ[1]. وبدا جوش كأنَّما يوشك عَلَى البكاء.

في النِّهاية، ألقى ماركوس رأسه إِلَى الوراء، وصفَّق بيديه، وأطلق قهقهةً تشالفينيَّةً هائلةً. «لقَدْ أردتُ أَنْ أسأل عَنْ ذلك طوال اللَّيلة. حسنًا فعلتِ، أَيَّتها الأُمُّ تشالفين!»

***

1 ـ مقدمة موسيقية معروفة لجياتشينو أنتونيو روسيني. (المترجم).

وهكذا للمرَّة الأولى في حياتها اضطرَّت نينا لأَنْ تقرَّ بأَنَّ عمَّتها محقَّةٌ تمامًا. «لقَدْ أردتِ تقريرًا، وإذنْ ها هنا تقريرٌ كاملٌ: مجانين، غريبو الأطوار، كعكة فواكه ينقصها الزَّبيب، جدرانٌ مِنَ المطَّاط، حالاتٌ عقليَّةٌ صارخةٌ ميؤوسٌ منها. كُلُّ حالةٍ لعينة مِنْ تلك.»

أومأت ألسانا، بفمٍ مفتوحٍ، وطلبَت مِنْ نينا أن تعيد للمرَّة الثَّالثة الجزء الَّذي وقع أثناء التَّحلية عندما تساءلت جويس، وهي تقدم حلوى التريفل، ما إذا كان صعبًا بالنِّسبة إِلَى المرأة المسلمة أَنْ تخبز وهي ترتدي تلك الملاءات السَّوداء الطَّويلة - أَلَمْ تكن أجزاء مِنَ الذِّراع تتغطَّى بمزيج الكعك؟ أَلَمْ يكن في الأمر خطرٌ أَنْ تشعلي النَّار في نفسك في موقد الغاز؟

«مجنونةٌ تمامًا،» خلصَت نينا.

ولكنْ، وكما هو الأمر مع هذه الأشياء، ما إِنْ وصل التَّأكيد فإِنَّ أحدًا لَمْ يعرف ما يجب فعله بهذه المعلومات عَلَى التَّحديد. أَيرِي ومِلَّة في السَّادسة عشرة، ولَمْ يتعبا أبدًا مِنْ إخبار أُمَّيهما الموقرَتين أَنَّهما - الآن - في السِّنِّ القانونيَّة لممارسة مختلف الأنشطة ويمكنهما أَنْ يفعلا أَيَّ شيءٍ، في أَيِّ وقتٍ. ومع عدم امتلاكهما القدرة على وضع الأقفال عَلَى الأبواب ولا تثبيت القضبان عَلَى النَّوافذ، ظلَّت كلارا وألسانا عاجزتَين. ولَوْ حدث أَيُّ شيءٍ، فالأمور تمضي بشكلٍ أسوأ. تقضي أَيرِي وقتًا أكثر ممَّا سبق وهي تغمر نفسها في التشالفينيَّة. لاحظتها كلارا وهي تجفل مِنْ محادثات والدها، وتقطِّب تجاه صحيفة التَّابلويد لمتوسِّطي الثَّقافة الَّتي تعانقها كلارا في السَّرير. ويختفي مِلَّة مِنَ المنزل لأسابيع في كُلِّ مرَّةٍ، عائدًا مع أموالٍ ليست له، ولكْنةٍ تجمع بشكلٍ عشوائيٍّ بين النغمات المدوَّرة[1] لآل تشالفين وحديث الشَّارع لعشيرة كيفن. لقَدْ أثار غضب صمد متجاوزًا كُلَّ الحدود. لا، هذا خطأٌ. هناك سببٌ. لَمْ يكنْ مِلَّة هذا الشَّيء أَوْ ضدَّه، هذا أَوْ ذاك، مسلمًا أَوْ مسيحيًّا، رجلًا إنجليزيًّا أو بنجاليًّا: يعيش بين بين، يعيش مخلصًا لاسمه الأوسط *ذي الفقار*، أَوْ مكان التَّصادم بين سيفَين:

«كَمْ مرَّةً،» زمجر صمد، بعد أَنْ شاهد ابنه يشتري *السِّيرة الذَّاتيَّة لمالكولم إكس*[2]: «مِنَ الضَّروريِّ أَنْ تقول *شكرًا* في معاملةٍ واحدةٍ؟ *شكرًا* عندما تسلِّم الكتاب،

1 ـ المقصود لكنة بريطانية مميزة، تعتمد على تحريك الشفاه وضمها في نطق الحروف. (المترجم).

2 ـ مالكوم إكس (19 مايو 1925 ـ 21 فبراير 1965)، واسمه عند مولده: مالكوم ليتل، ويُعرف أيضًا باسم الحاج مالك الشباز، هو داعية إسلامي ومدافع أمريكي من أصل أفريقي عن حقوق الإنسان. في السجن، انضم مالكوم إكس إِلَى حركة أمة الإسلام، وعندما أُطلق سراحه عام 1952 ذاع صيته واشتهر بسرعة، حتَّى صار واحدًا من قادة الحركة. وبعد عقد من الزمان تقريبًا، صار مالكوم إكس المتحدث الإعلامي لهذه الحركة. ولكن بسبب وقوع خلاف بينه وبين رئيس الحركة إلايجا محمد، ترك مالكوم إكس الحركة في مارس 1964م. سافر مالكوم إكس بعد ذلك في رحلة إِلَى أفريقيا والشرق الأوسط، أدى خلالها مناسك الحج. وفي شهر فبراير سنة 1965م، أي بعد أقل من سنة من تركه لحركة أمة الإسلام، قام ثلاثةٌ من أعضاء الحركة باغتياله. (المترجم).

وشكرًا عندما تتسلَّمه، وشكرًا عندما تُخبرك بالسِّعر، وشكرًا عندما توقِّع الشِّيك، وشكرًا عندما تأخذه! إنَّهم يسمُّونه التَّهذُّب الإنجليزيَّ، ببساطةٍ، عندما يكون غطرسةً. إنَّ الوحيد الَّذِي يستحقُّ هذا النَّوع مِنَ الشُّكر هو الله ذاته!»

وعلقَت ألسانا بينهما مرَّةً أخرى، تحاول في يأسٍ أَنْ تعثر عَلَى أرضيَّةٍ مُشتركةٍ. «لَوْ كان ماجد هنا، كان ليجد حلًّا لكما. بعقل محامٍ، سيضع الأمور في نِصابها.» ولكنَّ ماجد ليس هنا، إنَّه هناك، وليس هناك ما يكفي مِنَ المال لتغيير الوضع بعد.

ثُمَّ جاء الصَّيف ومعه الامتحانات. جاءت أَيرِي بعد تشالفين البدين مباشرةً، وأَدَّى مِلَّة أفضل بكثيرٍ ممَّا توقَّع أَيُّ أحدٍ، بما في ذلك هو نفسه. وجب لذلك أَنْ يكون تأثير آل تشالفين وحدهم، وشعرَت كلارا، لمرَّةٍ، بالخجل مِنْ نفسها. واكتفَت ألسانا بالقول: «عقول آل إقبال. إنَّها تنتصر في النِّهاية.» وقرَّرَت أَنْ تحتفل بهذه المناسبة بشواءٍ احتفاليٍّ مُشترَكٍ لآلَيْ إقبال/جونز يقام في حديقة صمد.

جاءت نينا، وماكسين، وأردشير، وشيڤا، وجوشوا، والعمَّات، وأبناء العمِّ، وأصدقاء أَيرِي، وأصدقاء مِلَّة، وأصدقاء **كيڤن** ومدير المدرسة، جميعهم واحتفلوا في صخبٍ (باستثناء **كيڤن** الَّذِين شكَّلوا دائرةً في أحد الأركان) مع أكوابٍ ورقيَّةٍ مملوءةٍ بالشَّمبانيا الإسبانيَّة الرَّخيصة.

مضى كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام بما يكفي، حتَّى رصد صمد حلقة الأذرع المكتوفة والبَنْيُونات الخضراء.

«ما الَّذِي يفعلونه هنا؟ مَنْ سمح للكفَّار بالدُّخول؟»

«حسنًا، *أنتَ هنا*، أليس كذلك؟» انتقدَته ألسانا، وهي تنظر إِلَى علب بيرة جينس الفارغة الَّتِي تناولها صمد بالفعل، وعصارة النَّقانق الَّتِي تسيل عَلَى ذقنه. «مَنْ سيُلقي الحجر الأوَّل عَلَى حفل الشِّواء؟»

حدَّق صمد في غضبٍ وترنَّح مبتعدًا مع آرشي للاحتفاء بإنجازهما المشترك في السَّقيفة الَّتِي أعادا بناءها. وانتهزت كلارا الفرصة لكَيْ تسحب ألسانا جانبًا وتسألها سؤالًا.

طبعت ألسانا قدما في حوض كزبرتها. «لا! مستحيلٌ بالمرَّة. ما الَّذِي يجب أَنْ أشكرها عليه؟ لَوْ أَدَّى بشكلٍ جيِّدٍ، فهذا بسبب عقله هو. عقل آل *إقبال*. لم تفكِّر تلك الشَّرشورة طويلة الأسنان مرَّةً، ولا مرَّةٍ، أَنْ تهاتفني. سوف تلزمك خيولٌ برِّيَّةٌ لكَيْ تجُرِّي جثَّتِي، أيَّتُها السَّيِّدة.»

«لكنْ... أنا أفكِّر فقط في أنَّها ستكون فكرةً جيِّدةً أنْ نذهب ونشكرها عَلَى كُلِّ الوقت الَّذِي قضته مع الطِّفلَين... أظنُّ أنَّنا رُبَّما أسأنا الحكم عليها ـــ»

«بكُلِّ تأكيدٍ، اذهبي، يا سيِّدة جونز، اذهبي إذا أحببتِ،» قالت ألسانا بازدراءٍ. «ولكنْ بالنِّسبة إلَيَّ، فالخيول البريَّة، الخيول البريَّة لا يمكنها أنْ تزحزحني.»

***

«وذلك هو د. سولومون تشالفين، جدُّ ماركوس. واحدٌ مِنَ رجالٍ معدودين أنصَتوا إلَى فرويد عندما ظَنَّ كُلُّ شخصٍ في فيينا أنَّهم يمارسون انحرافًا جنسيًّا. لديه وجهٌ مذهلٌ، ألا تظنِّين ذلك؟ هناك الكثير مِنَ الحكمة فيه. في المرَّة الأولى الَّتِي أراني فيها ماركوس تلك الصُّورة، عرفتُ أنَّنِي أردتُ الزَّواج به. فكَّرتُ: إذا بدا ماركوسي هكذا في الثَّمانين فسأكون فتاةً محظوظةً!»

ابتسمَت كلارا وأبدَت إعجابها بصورة ألواح الفضَّة. لقَدْ أبدَت إعجابها بثمانٍ عَلَى طول رفِّ الموقد، بينما تتبعها أيرِي متجهِّمة، ولا يزال هناك عددٌ مثلها عَلَى الأقلِّ لكَيْ تراه.

«إنَّها عائلةٌ عظيمةٌ قديمةٌ، وإذا لَمْ تجدي الأمر وقحًا جدًّا، يا كلارا ـ هَلْ كلارا لائقٌ (بدون ألقابٍ)؟»

«كلارا جيِّد، يا سيِّدة تشالفين.»

توقَّعَت أيرِي مِنْ جويس أنْ تطلب مِنْ كلارا مناداتها بجويس.

«حسنًا، كما قلتُ، إنَّها عائلةٌ عظيمةٌ قديمةٌ، وإذا لَمْ تجدي الأمر وقحًا جدًّا فإنَّنِي أُحبُّ أنْ أفكِّر في أيرِي كنوعٍ مِنَ الإضافة إليها، بطريقةٍ ما. إنَّها فتاةٌ رائعةٌ فعلًا. لقَدِ استمتعنا كثيرًا بوجودها معنا.»

«لقَدِ استمتعَت هي الأخرى بوجودها معكم، كما أظنُّ. وهي تدين بالكثير حقًّا لَكُمْ. نحن ـ جميعًا ـ نفعل.»

«أوه لا، لا، لا. إنَّنِي أؤمِنْ بمسئولية المثقَّفين... إلَى جانب ذلك فالأمر ممتعٌ. فعلًا. أتمنَّى أنْ نستمرَّ في رؤيتها، حتَّى ولَوِ انتهَت الامتحانات. لا تزال هناك المستويات المتقدِّمة، إذا لَمْ يكنْ شيءٌ آخر!»

«أوه، أنا واثقةٌ أنَّها سوف تأتي عَلَى أيَّة حالٍ. هي تتحدَّث عنكم طوال الوقت. آل تشالفين هذا، وآل تشالفين ذاك....»

أمسكَت جويس يدَي كلارا في يدَيها. «أوه، يا كلارا، *إنَّني* مسرورةٌ. وأنا سعيدةٌ أنَّنا التقينا أخيرًا أيضًا. أوه الآن، لَمْ أنتهِ. أين كُنَّا ـ أوه نعم، حسنًا هنا تشارلز وأنَّا ـ عمٌّ وعمَّة عظيمَين ـ رحلا منذ وقتٍ طويلٍ، للأسف. كان طبيبًا نفسيًّا ـ نعم، *واحدًا* آخرَ ـ وكانت بيولوجيَّةَ نباتاتٍ ـ امرأةٌ لها نفس ذائقتي واهتماماتي.»

تراجعَت جويس لدقيقةٍ، مثل ناقدٍ فنِّيٍّ في معرضٍ، ووضعت يديها عَلَى وركَيها. «أقصد، بعد فترةٍ، ينبغي لكِ أَنْ تشكِّي في أَنَّ الأمر في الجينات، أليس كذلك؟ كُلُّ هذه العقول. أقصد، إِنَّ الطَّبيعة لَنْ تفسِّر ذلك. أقصد، هَلْ تفعل؟»

«هه، لا.» وافقَت كلارا. «أعتقد أَنَّها لا تفعل.»

«الآن، خارج الموضوع ـ أعني، إِنَّني فضوليَّةٌ فعلًا ـ أَيّ جانبٍ تظُنّين أَنَّ أَيرِي حصَلَت عليه، الجامايكيِّ أَمِ الإنجليزيِّ؟»

نظرَت كلارا أعَلَى وأسفل خطِّ الرِّجال البيض الموتى في الياقات المنشَّاة، بعضهم يضعون المونوكل[1]، وبعضهم بأزياء رسمية، وبعضهم يجلسون في حضن عائلاتهم، وكُلُّ عضوٍ مثبَّتٌ في وضعيَّةٍ حتَّى تتمكَّن الكاميرا مِنْ أداء عملها البطيء. وذكَّروها جميعهم بشخصٍ ما بعض الشَّيء. ذكَّروها بجدِّها المفعم بالحياة: كابتن تشارلي دورهام، في صورته الوحيدة الباقية: متوتِّرًا وشاحبًا، وهو ينظر في تحدٍّ نحو الكاميرا، لَمْ يكن يلتقط صورةً بالقدر الَّذِي يدفع صورته فيه نحو لوح التَّصوير، فيما تعوَّدوا أَنْ يطلقوا عليه المسيحيَّة العضليَّة[2]. كانت عائلة بودين تدعوه هيتي. الفتى المشوَّش الأحمق الَّذِي يمتلك كُلَّ شيءٍ يلمسه.

«جانِبِي،» قالت كلارا مبدئيًّا. «أعتقد أَنَّ الجانب الإنجليزيَّ مِنْ جهتي. كان جدِّي رجلًا إنجليزيًّا، متكلِّفًا جدًّا، كما قيلَ لي. وُلدَت طفلته، أُمِّي، في زلزال كينجستون،

1 ـ النظارة المفردة أو المونوكل هي عدسة مفردة تستخدم لتحسين النظر، حيث يتكون من عدسة بإطار أو بدون إطار متصلة بسلسلة. (المترجم).

2 ـ المسيحية العضلية هي التزام مسيحي بالورع والصحة البدنية، يستند إلى العهد الجديد، الذي حدد مفهوم الشخصية، من رسالة فيلبي (3:14): «أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع»، ورسالة كورنثوس الأولى (6:19 و20): «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وإنكم لستم لأنفسكم. لأنكم قد اشتريتم بثمن فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم الَّتِي هي لله.» راجت هذه الحركة في العصر الفيكتوري، وشددت على أهمية التبشير المسيحي مع حيوية في توفيقه مع المثال الأعلى للرجولة القوية. (المترجم).

1907. تعوَّدتُ أَنْ أُفكِّر في أَنَّ الهدير رُبَّما أصاب خلايا دماغ آل بودين بالفهم لأَنَّنا مِنْ يومها عَلَى ما يرام!»

رأت جويس أَنَّ كلارا تتوقَّع ضحكةً، وأجابت بواحدةٍ بسرعةٍ.

«ولكنْ جدِّيًّا، رُبَّما كان الكابتن تشارلي دورهام. لقَدْ علَّمَ جدَّتي كُلَّ ما عرفَته. تعليمًا إنجليزيًّا جيِّدًا. والله أعلم، لا أستطيع أَنْ أفكِّر مَنْ أيضًا يمكن أَنْ يكون.»

«حسنًا، يا له مِنْ أمرٍ رائعٍ! هذا ما أقوله لماركوس -*إنَّها* الجينات، أَيًّا كان ما يقوله. هو يقول إِنَّني تبسيطيَّةٌ، ولكنَّه فقط تنظيريٌّ أكثر مِنَ اللَّازم. ويَثبُت أَنَّني عَلَى حقٍّ *طوال الوقت!*»

ما كاد الباب الأماميُّ يغلق وراءها، حتَّى عضَّت كلارا شفتها مرَّةً أخرى، في إحباطٍ وغضبٍ هذه المرَّة. لماذا قالت كابتن تشارلي دورهام؟ هذه كذبةٌ محضةٌ. زائفةٌ كما أسنانها البيضاء. كلارا أكثر ذكاءً مِنْ كابتن تشارلي دورهام. هورتنس أكثر ذكاءً مِنْ كابتن تشارلي دورهام. ورُبَّما حتَّى الجدَّة أمبروزيا أكثر ذكاءً مِنْ كابتن تشارلي دورهام. لَمْ يكن الكابتن تشارلي دورهام ذكيًّا. لقَدْ ظنَّ نفسه كذلك، ولكنَّه لَمْ يكنْ. لقَدْ ضحَّى بألف شخصٍ؛ لأَنَّه أراد أَنْ ينقذ إمرأةً لَمْ يعرفها عَلَى الإطلاق. كان الكابتن تشارلي دورهام فتًى مشوَّشًا أحمقَ بدون فائدةٍ.

الفصل الثالث عشر
القنوات الجذرية لهورتنس بودين

يمكن لبعض التَّعليم الإنجليزيِّ أنْ يكون خطيرًا. مثال ألسانا المفضَّل عَلَى ذلك هو القصَّة القديمة عَنِ اللُّورد أللينبروه[1]، الَّذِي أرسل برقيَّةً، بمجرد الاستيلاء عَلَى إقليم السِّند مِنَ الهند، بكلمةٍ واحدة إِلَى دلهي: *peccavi*، وهي تصريف لفعل لاتيني، يعني: *لقَدِ ارتكبتُ خطيئةً.* «الإنجليز هم الشَّعب الوحيد،» ستقول في نفورٍ: «الَّذِي يريد أنْ يعلِّمك وأنْ يسرق منك في الوقت نفسه.» ولَمْ يكن عدم ثقة ألسانا في آل تشالفين أكثر أَوْ أقلّ مِنْ ذلك.

وافقتها كلارا، ولكنْ لأسبابٍ أقرب إِلَى مسقط رأسها: ذاكرة أسرةٍ؛ ومسارٍ لا يُنسى لدمٍ فاسدٍ في آل بودين. عندما كانت أُمُّها بداخل *أُمِّها* (لأنَّنا حتَّى نروي تلك القصَّة، سينبغي لنا أنْ نضع كُلًّا منهُن في داخل الأخرى، مثل الدُّمى الرُّوسيَّة، أيري في داخل كلارا مرَّةً أخرى، وكلارا في داخل هورتنس، وهورتنس في أمبروزيا)، شاهدةً صامتةً عَلَى ما يحدث عندما يقرِّر رجلٌ إنجليزيٌّ أنَّكِ تحتاجين إِلَى التَّعليم. لأنَّه لَمْ يكن كافيًا بالنِّسبة إِلَى الكابتن تشارلي دورهام - الَّذِي أُرسِل إِلَى جامايكا مؤخَّرًا - أنْ يجعل ابنة صاحبة النُّزل المراهقة حاملًا في ليلة سكرٍ في مكان حفظ لحوم آل بودين، في مايو 1906. لَمْ يرضَ بمجرَّد أخذ عذريتها. وإنَّما وجد أنَّ عليه أنْ *يعلِّمها* شيئًا ما أيضًا.

«أنا؟ يريد أنْ يعلِّمَني *أنا*؟» وضعت أمبروزيا بودين يدها عَلَى النُّتوء الصَّغير الَّذِي كان هورتنس وحاولت أنْ تبدو بريئةً قدر الإمكان. «لماذا يريد أنْ يعلِّمَني؟»

---

1 - إدوارد لو، الإيرل الأول لأسرة أللينبروه (1790 - 1871): كان سياسيًّا بريطانيًّا من المحافظين. تولى رئاسة مجلس الرقابة أربع مرات، كما خدم كحاكم عام للهند بين 1842 و1844. أثارت إدارته للهند الَّتي استمرت عامين ونصف العام، أوْ نصف الفترة المعتادة للخدمة، انتقادات معادية واسعة. من بدايتها للنهاية. ذهب أللينبروه إِلَى الهند من أجل «استعادة السلام في آسيا» غير أن مدته بالكامل احتلتها الحرب. (المترجم).

«ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع،» ردَّت أَمُّها. «ولا تسأليني لماذا. لكنْ يعلم الله، رُبَّما أمكنكِ أَنْ تحقِّقي بعض التَّحسُّن. كوني شاكِرةً عَلَى هذا الكرم. ليست هناك لماذا ـ ت، أَوْ لهذه الأسباب، عندما يريد رجلٌ إنجليزيٌّ مستقيمٌ وشهمٌ وأنيقٌ أَنْ يكون سخيًّا.»

ولكنْ حتَّى أمبروزيا بودين، طفلة قرية ماجا، غريبة الأطوار، طويلة السَّاقين الَّتِي لَمْ تَرَ فصلًا مدرسيًّا طوال سنواتها الأربع عشرة، تعرف أَنَّ هذه النَّصيحة خاطئةٌ. عندما يريد رجلٌ إنجليزيٌّ أَنْ يكون سخيًّا، فإِنَّ *أوَّل* شيءٍ تسأله هو لماذا، لأنَّه يوجد دائمًا سببٌ.

«ما زلتِ هنا، يا بنت؟ إِنَّه يريد رؤيتك. لا تدعيني أبصق عَلَى الأرضية وأجعلك تصلين إِلَى هناك قبل أَنْ تجفَّ البصقة!»

وهكذا انطلقت أمبروزيا بودين، مع هورتنس في داخلها، إِلَى غرفة الكابتن، وعادت إِلَى هناك ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع بعد ذلك للدِّراسة. الحروف، والأرقام، والكتاب المقدَّس، والتَّاريخ الإنجليزيّ، وعلم المثلَّثات ـ ثُمَّ، بعد الانتهاء مِنْ ذلك، عندما تكون والدة أمبروزيا خارج المنزل في طمأنينةٍ، علم التَّشريح، الَّذِي كان درسًا أكثر طولًا، ويقدَّم فوق الطَّالبة الَّتِي تتمدَّد عَلَى ظهرها، وتكركِر. أخبرها الكابتن دورهام أَلَّا تقلق بخصوص الطِّفل، فلَنْ يحدث له أَيُّ ضررٍ. وأخبرها الكابتن دورهام أَنَّ طفلهما السِّرِّيَّ سيكون أذكى ولدٍ زنجيٍّ في جامايكا.

بينما انقضَت الشُّهور، تعلَّمَت أمبروزيا الكثير مِنَ الأشياء الرَّائعة مِنَ الكابتن الوسيم. علَّمها كيف تقرأ توصيفات الوظيفة، وتدرس التَّحذيرات في سفر الرُّؤيا، وتؤرجح مضرب الكريكيت، وتغنِّي «جورشاليم»[1]. وكيف تصل عمودًا مِنَ الأرقام. وكيف تُصرِّف الأسماء اللَّاتينيَّة. وكيف تقبِّل أذن رجلٍ حتَّى يئنَّ مثل طفلٍ. ولكنْ في المقام الأوَّل علَّمَها أَنَّها لَمْ تعد خادمةً، أَنَّ تعليمها رفع مِنْ قدرها، أنها في قلبها سيِّدةٌ، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ أعمالها الرُّوتينيَّة اليومية ظلَّت بدون تغيير. *هنا في الدَّاخل، هنا في الدَّاخل*، يحبُّ أَنْ يقول، وهو يشير إِلَى مكانٍ ما تحت عظمة الصَّدر، في نفس المكان الَّذي تُريح يَدَ مقشَّتها عليه بشكلٍ روتينيٍّ، في الحقيقة: «لَمْ تعودي خادمةً، يا أمبروزيا، لَمْ تعودي عذراء،» يحبُّ أَنْ يقول، مستمتعًا باللِّعب بالكلمات[2].

1 ـ ترنيمة مسيحية تتحدث عن مدينة «القدس». (المترجم).

2 ـ استخدمت الجملتان «لم تعودي خادمة، لَمْ تعودي عذراء» لفظ maid الذي يحمل المعنيين: خادمة أَوْ بِكْرًا. (المترجم).

ثُمَّ بعدها في ظهيرة أحد أَيَّام الآحاد، وهورتنس لا تزال جنينًا بعمر خمسة شهورٍ، انطلقَت أمبروزيا مسرعةً إِلَى أعَلَى السلم في ثوبٍ مِنْ قماشٍ قطنيٍّ مُتقنٍ وفضفاضٍ جدًّا، وطرقت الباب بإحدى يديها، وخبَّأَت باقةً مِنْ زهور المخمل الإنجليزيَّة وراء ظهرها باليد الأخرى. أرادت أَنْ تفاجئ حبيبها بزهورٍ علمَت أَنَّها سوف تذكِّره بالوطن. طرقَت وطرقَت ونادَت ونادَت. ولكنَّه كان ذهب.

«لا تسأليني لماذا،» قالت والدة أمبروزيا، وهي تتطلَّع إِلَى بطن ابنتها في شكٍّ. «القَدِ استيقظ فقط وذهب، بشكلٍ مفاجئ. ولكنَّه ترك رسالةً بأَنَّه لا يزال يريد أَنْ تتلقِّي الرِّعاية. يريدك أَنْ تذهبي إِلَى البلدة بشكلٍ عاجلٍ وتقدِّمي نفسك إِلَى السَّيِّد جليناَرد، رجلٌ مسيحيٌّ مهذَّبٌ. يعلم الله، قَدْ يمكنك أَنْ تحرزي بعض التحسُّن. أما زلتِ هنا، يا بنت؟ لا تدعيني أبصق عَلَى الأرضيَّة و.....»

ولكنَّ أمبروزيا خرجت مِنَ الباب قبل أَنْ تصل الكلمات إِلَى الأرض.

ظهَرَ أَنَّ دورهام ذهب لكَيْ يسيطر عَلَى الوضع في شركةٍ للطِّباعة في كينجستون، حيث نظَّم شابٌّ يُدعى جارفي إضرابًا لعمَّال الطِّباعة مطالبين بأجور أعلى. وقرَّر بعدها أَنْ يبقى بعيدًا لثلاثة شهورٍ أخرى كَيْ يدرِّب جنود جلالة الملك التِّرينيداديِّين، ويبيِّن لهم ماذا لماذا. الإنجليز خبراء في التَّخلِّي عن مسئوليَّةٍ وتولِّي أخرى. ولكنَّهم يحبُّون أيضًا أَنْ يفكِّروا في أنفسهم كرجالٍ ذوي ضمائر حيَّةٍ، ولذا ففي تلك المرحلة المؤقَّتة عهد دورهام بالاستمرار في تعليم أمبروزيا بودين إِلَى صديقه الحميم السِّير إدموند فليكر جليناَرد، الَّذي، مثل دورهام، يرى أَنَّ المواطنين بحاجةٍ إِلَى التَّعليم، والإيمان المسيحيِّ، والتَّوجيه الأخلاقِيِّ. افتُتن جليناَرد - ومَنْ لا يفعل؟ - بأَنْ تكون لديه فتاةٌ جميلةٌ ومطيعةٌ، راغبةٌ وقادرةٌ في المنزل. ولكن بعد أسبوعَين مِنْ إقامتها، أصبح حملها واضحًا. وبدأ النَّاس في الحديث. وبدا أَنَّ الأمر - ببساطةٍ - لَنْ يسير كما ينبغي.

«لا تسأليني لماذا،» قالت والدة أمبروزيا، وهي تنزع خطاب أسف جليناَرد مِنْ ابنتها الباكية: «رُبَّما لا يمكنكِ التَّحسُّن! رُبَّما لا يريد خطيئةً في المنزل. أنتِ هنا مرَّةً أخرى الآن! لا يوجد شيء نفعله الآن!» ولكنْ في الرِّسالة، كما اتَّضح، هناك اقتراحٌ للمواساة. «يقول هنا إِنَّه يريدك أَنْ تذهبي لكَيْ ترَي سيِّدةً مسيحيَّةً تدعى السَّيِّدة برنتون. يقول إِنَّه يمكن لكِ أَنْ تبقَي معها.»

والآن، لقَدْ ترك دورهام تعليماتٍ بأَنْ تقدَّم أمبروزيا إِلَى الكنيسة الأنجليكانيَّة البريطانيَّة، واقترح جلينارد الكنيسة الميثوديَّة الجامايكيَّة، غير أَنَّ السَّيِّدة برنتون، العانس الأسكتلنديَّة المتحمِّسة، الَّتِي تخصَّصت في الأرواح الضَّائعة، ولَدَيها أفكارها الخاصَّة. «سوف نذهب إِلَى الحقيقة،» قالت بحزمٍ عندما جاء الأحد، لأَنَّها لَمْ تعبأ بالكلمة «كنيسةٍ.» «أنتِ وأنا، نحن الأبرياءَ،» قالت وهي تربّت عَلَى بطن أمبروزيا عَلَى بعد بوصاتٍ مِنْ رأس هورتنس، «سوف نسمع الكلمات مِنْ يَهْوَه.»

(لأَنَّها، السَّيِّدة برنتون مَنْ قدَّمت آل بودين إِلَى الشُّهود، إِلَى أتباع تشارلز راسل[1]، وإِلَى برج *المراقبة*، وجمعيَّة الكتاب المقدَّس ـ كانت لهم أسماءٌ كثيرةٌ في تلك الأيَّام. التقت السَّيِّدة برنتون بتشارلز تاز راسل نفسه في بيتسبرج في نهاية القرن الماضي، وانبهرت بمعرفة الرَّجل، وتفانيه، ولحيته الضَّخمة. كان تأثيره ما جعلها ترتدُّ عن البروتستانتيَّة، ومثلما يحدث في أَيِّ تحوّلٍ دينيٍّ، وجدَت السَّيِّدة برنتون متعةً عظيمةً في تحويل آخرين. ووجدت في أمبروزيا والطِّفل في بطنها موضوعَين سهلَين، وراغبَين، لأَنَّه لَمْ يكنْ لديهما شيءٌ لكَيْ ترتدَّا عنه).

دخلت الحقيقة إِلَى آل بودين في ذلك الشِّتاء مِنْ عام 1906 وتدفَّقت عبر مجرى الدَّم مباشرةً مِنْ أمبروزيا إِلَى هورتنس. لقَدْ ظلَّت هورتنس تعتقد أَنَّها أدركت يَهْوَه في اللَّحظة الَّتِي تعرَّفت فيها أُمُّها عليه، عَلَى الرَّغم مِنْ كونها ما زالت، وقتَها، في داخل الرَّحم. في سنواتٍ لاحقةٍ كانت لتقسم عَلَى أَيِّ كتابٍ مقدَّسٍ تضعه أمامها أَنَّها، حتَّى وهي في بطن أُمِّها، عبرَت كُلُّ كلمةٍ *تمَّت تلاوتها عَلَى* أمبروزيا مِنْ فجر الألفيَّة[2] للسَّيِّد راسل،

1 ـ تشارلز تاز راسل (16 فبراير 1852 ـ 31 أكتوبر 1916)، أو القس راسل، قس أمريكي في أوائل القرن العشرين وزير استعادة المسيحية في بيتسبرج، بنسلفانيا، وهو مؤسس ما يعرف ـ الآن ـ باسم حركة طلاب الكتاب المقدس. بعد وفاته طور شهود يهوه وأعداد هائلة من طلاب الكتاب المقدس جماعات عديدة قامت على أساس من تعاليمه. وهو أحد السبتيين، تنبأ بنهاية العالم. فقال إنه بعد أربعين عامًا، من ميعاد حدده بأنه عام 1874م، سوف يأتي السيد المسيح ويحل ملكوت الله وسوف يملك المسيح على الأرض ألف سنة، أي «المُلك الألفي». وهي عقيدة معروفة عند بعض الطوائف البروتستانتية وخصوصًا شهود يهوه التي أسسها تشارلز راسل. في سنة 1877 نشر راسل مع أحد زملائه يدعى نيلسون باربور كتابًا بعنوان «العوالم الثلاثة أو خطة الفداء». وعلّقت جمعية «برج المراقبة والكرارس»، وهي جمعية تشارلز تاز راسل التي أصبحت فيما بعد جماعة شهود يهوه، على هذا الكتاب بقولها: «في هذا الكتاب أعلن الشريكان راسل وباربور إيمانهما بأن مجيء المسيح الثاني قد بدأ فعلًا سنة 1874م حيث استهلت بأربعين سنة دعيت فترة الحصاد ثم حددا على وجه الدقة عام 1914 كوقت نهاية أزمنة الأمم». (المترجم).

2 ـ ستة مجلدات من سلسلة دراسات حول الكتاب المقدس أطلق عليها «فجر الألفية»، وعرفت لاحقًا باسم «دراسات التاب المقدس». ألفها تشارلز تاز راسل، ووزعت حوالي 20 مليون نسخة بعدة لغات حول العالم خلال حياته. (المترجم).

ليلةً بعد أخرى، كما لَوْ بفعل الارتشاح إِلَى روح هورتنس. وهذا فقط ما سيفسّر لماذا شعرَت بالأمر كما لَوْ أَنَّه «تذكُّرٌ» وهي تقرأ الأعداد السِّتَّة بعد سنواتٍ في حياة النُّضج، لماذا أمكن لها أَنْ تغطِّي صفحاتٍ بيدها وتقتبس منها مِنَ الذَّاكرة، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها لَمْ تكن قرأتها مِنْ قبل. ولهذا السَّبب فإِنَّ أَيَّة قناة جذريَّةٍ لهورتنس ينبغي أَنْ تذهب مباشرةً إِلَى البداية الأولى، لأَنَّها كانت هناك؛ إِنَّها تتذكَّر؛ أحداث 14 يناير، 1907، يوم الزِّلزال الجامايكيِّ الرَّهيب، إِنَّها ليست خافيةً عليها، بَلْ ساطعةً وواضحةً مثل جرسٍ.

«إِلَيْكَ أُبَكِّرُ. عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي فِي أَرْضٍ نَاشِفَةٍ وَيَابِسَةٍ بِلاَ مَاءٍ» (مزامير 63: 1)

هكذا غنَّت أمبروزيا عندما بلغَت اكتمال حَمْلِها، ووثبَت مع بروزها الضَّخم في شارع الملك، وهي تصلِّي لأجل عودة المسيح أَوْ عودة تشارلي دورهام ـ الرَّجلين اللَّذين يمكنهما تخليصها ـ مثلما يخلط عقلها بينهما بالطريقة نفسها. كانت في نصف الطَّريق إِلَى الآية الثَّالثة، أَوْ هكذا قالت هورتنس، عندما توهَّج هذا السِّكِّير الهائج سير إدموند فليكر جلينارد، مِنْ جرعات الكحول السِّريعة والكثيرة جدًّا في النَّادي الجامايكي، وخطا في طريقهما. *خادمة الكابتن دورهام!* ردَّت هورتنس عَلَى قوله، بإشارة التَّحيَّة، ولَمْ يتلقَّ شيئًا مِنْ أمبروزيا سوى نظرةٍ ساخطةٍ، يومٌ *مناسبٌ لهذا، هه؟* حاولَت أمبروزيا أَنْ تتجاوزه، ولكنَّه حرَّك جسمه في مواجهتها مرَّةً ثانيةً.

إذنْ هَلْ أنتِ فتاةٌ جيِّدةٌ هذه الأيَّام، يا عزيزتي؟ الثَّرثرات تخبرني أَنَّ السَّيِّدة برنتون أدخلَتك إِلَى كنيستها. مثيرون للاهتمام جدًّا، شهود يَهْوَه أولئك. ولكنْ هَلْ هم مستعدّون، أتساءل، لهذا العضو الخلاسيِّ الجديد في رعاياهم؟

تذكَّرَت هورتنس جيِّدًا شعورها بتلك اليد السَّمينة وهي تحطُّ ساخنةً عَلَى أُمِّها، تتذكَّر أَنَّها ظلَّت تركلها بكُلِّ قوَّتها.

أوه، كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام، أَيَّتها الطِّفلة. أخبرني الكابتن بسرِّكما الصَّغير. ولكنْ مِنَ الطَّبيعي أَنَّ الأسرار لها ثمنٌ، يا أمبروزيا. مثل البطاطا تمامًا، والفلفل الحلو، كما أَنَّ تبغي يكلِّف شيئًا ما. الآن، هَلْ رأيتِ الكنيسة الإسبانيَّة القديمة مِنْ قَبلُ، سانتا أنطونيا؟ هَلْ سبق أَنْ دخلتِها؟ إِنَّها بالكاد هنا. هي أُعجوبةٌ بالفعل مِنَ الدَّاخل، جماليًّا أكثر منها دينيًّا. الأمر لَنْ يستغرق لحظةً، يا عزيزتي. عَلَى المرء أَلَّا يفوِّت الفرصة في بعضٍ مِنَ التَّعليم، عَلَى أَيِّ حالٍ.

حدثَت كُلُّ لحظةٍ مرَّتَين: في الدَّاخل وفي الخارج، وهما تاريخان مختلفان. خارج أمبروزيا هناك الكثير مِنَ الأحجار البيضاء، ولا بشر، ومذبحٌ ذهبيٌّ مقشَّرٌ، وضوءٌ قليلٌ، وشموعٌ مدخِّنةٌ، وأسماءٌ إسبانيَّةٌ محفورةٌ في الأرضيَّة، وتمثالٌ رخاميٌّ هائلٌ لمادونا[1]، وقَدِ انحنى رأسها، تقف عاليةً عَلَى قاعدة التِّمثال. وبدا كُلُّ شيءٍ هادئًا بفعل قوَّةٍ خارقةٍ عندما بدأ جليناردِ في لمسها. ولكنْ في الدَّاخل، كانت هناك ضربات قلبٍ مُتسارعةٌ، وانضغاط مليون عضلةٍ أرادت يائسةً أَنْ تصدَّ مساعي جليناردِ إِلَى تعليمٍ ما، مع الأصابع الرَّطبة الَّتِي تتسلل في هذه اللحظة عَلَى صدرها، بين القطن الخفيف، وتعصر الحلمات المثقلة فعلًا بالحليب، الحليب الَّذِي لَمْ يكنْ مقرَّرا قطُّ لهذا الفم الهائج. في الدَّاخل ركضت بالفعل عَلَى طريق الملك. ولكنْ في الخارج تجمَّدت أمبروزيا. مغروسةً في مكانها تمامًا، مثل أَيِّ حجرٍ مؤنَّثٍ لأَيَّة مادونا.

ثُمَّ بدأ العالم عندها في الارتجاف. في داخل أمبروزيا انفجر كيس الماء. وخارج أمبروزيا، تصدَّعت الأرضيَّة. وانهار الجدار البعيد، وانفجر الزُّجاج الملوَّن، وهوى تمثال مادونا مِنْ ارتفاعٍ شاهقٍ مثل ملاكٍ نشوان. خرجت أمبروزيا تترنَّح مِنَ المشهد، لكَيْ تبلغ المسافة حتَّى كرسيِّ الاعتراف فقط، قبل أَنْ تنشقَّ الأرض مرَّةً أخرى - في صدْعٍ عظيمٍ! - ثُمَّ سقطت، عَلَى مرأىً مِنْ جليناردِ نفسه، الَّذِي تمدَّد منسحقًا تحت ملاكه، وقَدْ تناثرت أسنانه عَلَى الأرضيَّة، وسرواله عند كاحليه. واستمرَّت الأرض في الارتجاف. جاء صدْعٌ ثانٍ. وثالثٌ. سقطت الأعمدة، واختفى نصف السَّقف.

في أَيِّ ظهيرة أخرى في جامايكا، كانت صرخات أمبروزيا، الصَّرخات الَّتِي أعقبَت كُلّ انقباضٍ لرحمها بينما هورتنس تندفع إِلَى الخارج، لتجلب انتباه شخصٍ ما، أَوْ تحضر شخصًا ما لمساعدتها. ولكنَّ العالم كان ينتهي في تلك الظَّهيرة في كينجستون. والجميع يصرخون.

لَوْ أَنَّ هذه حكايةٌ خرافيَّةٌ، فسوف يكون هذا وقت الكابتن دورهام لكَيْ يلعب دور البطل. لا يبدو أَنَّه يفتقد إِلَى أوراق الاعتماد اللَّازمة. ليس أَنَّه ليس وسيمًا، أَوْ طويلًا، أَوْ قويًّا، أَوْ أَنَّه لا يريد مساعدتها، أَوْ أَنَّه لا يحبُّها (أوه، إِنَّه *يحبُّها*؛ تمامًا كما يحب الإنجليز الهند وأفريقيا وأيرلندا؛ الحبُّ هو المشكلة، فالنَّاس يعاملون أحبَّاءهم بشكلٍ سيئ) - كُلُّ تلك الأشياء صحيحةٌ. ولكنْ رُبَّما المشهد فقط هو الخطأ. رُبَّما لا يمكن لأمرٍ يحدث عَلَى أرضٍ مسروقةٍ أَنْ ينتظر نهايةً سعيدةً.

1 ـ مادونا والطفل: منحوتة من الرخام من إبداع مايكل أنجلو تصور العذراء مريم مع الطفل يسوع. (المترجم).

لأنَّه عندما يعود دورهام، في اليوم التَّالي للهزَّات الأولى، سوف يجد جزيرةً مُدمَّرةً، وألفَين ماتوا بالفعل، وحريقًا عَلَى التِّلال، وأجزاءً مِنْ كينجستون سقطَت في البحر، والجوع، والإرهاب، وشوارع كاملةً ابتلعتها الأرض ـ ولَمْ يُثِر شيءٌ مِنْ هذا رعبه بقدر إدراكه أنَّه قَدْ لا يراها مرَّةً ثانيةً. يفهم ـ الآن ـ ما الَّذِي يعنيه الحبُّ. يقف في ساحة العرض، وحيدًا وذاهلًا، محاطًا بآلاف الوجوه السَّوداء الَّتِي لا يميِّزها؛ والشَّخصيَّة البيضاء الوحيدة الأخرى هي تمثالٌ لفيكتوريا[1]، وقد أدارته خمس هزَّاتٍ ارتداديَّةٍ عدَّة درجاتٍ حتَّى ليبدو وكأنَّه يعطي ظهره للناس. وليس هذا بعيدًا عن الحقيقة. إنَّهم الأمريكان، وليس البريطانيين، مَنْ يملكون الموارد لكَيْ يتعهَّدوا بالمساعدات الجادَّة، تتوغَّل ثلاث سفنٍ حربيَّةٍ مليئةٌ بالمخصصَّات حاليًّا حول السَّاحل مِنْ كوبا. إنَّها ضربةٌ دِعائيَّةٌ أمريكيَّةٌ تلك الَّتِي لَمْ تبهج الحكومة البريطانيَّة، ومثل زملائه مِنَ الرِّجال الإنجليز لَمْ يملك دورهام شيئًا حِيال الشُّعور بكبرياءٍ جريحٍ بعينه. ظَلَّ يفكِّر في الأرض كما لَوْ كانت ملكه، ملكه لكَيْ يساعدها أَوْ ملكه لكَيْ يؤذيها، حتَّى في هذه اللَّحظة عندما أثبتَت تلك الأرض بنفسها أنَّ لها عقلًا يخصُّها بالكامل. ظَلَّ يحتفظ بما يكفي مِنْ تعليمه الإنجليزيِّ لكَيْ يشعر بالمهانة عندما يرصد جنديَّين أمريكيَّين وقَدْ رَسَوَا بدون تصريحٍ (كُلُّ عمليَّات الرُّسوِّ يجب أَنْ تتمَّ مِنْ خلال دورهام أَوْ رؤسائِه) ووقفا خارج مبنى قنصليَّتهما، يمضغان تبغهما في وقاحةٍ. إنَّه شعورٌ غريبٌ، هذا العجز؛ أَنْ تكتشف أَنَّ هناك دولةً أخرى أكثر تجهيزًا لكَيْ تنقذ هذه الجزيرة الصَّغيرة مِنَ الإنجليز. إنَّه شعورٌ غريبٌ، أَنْ يبحث في محيطٍ مِنَ الجلود الأبنوسيَّة، غير قادرٍ عَلَى العثور عَلَى الواحدة الَّتِي يحبُّها، الواحدة الَّتِي يظنُّ أَنَّه يملكها. لأَنَّ دورهام لديه أوامر بالوقوف هنا ومناداة أسماء حفنةٍ مِنَ العبيد والخدم والخادمات القليلين المختارين الَّذِين سيأخذهم الإنجليز معهم إِلَى كوبا حتَّى تهدأ الحرائق. لَوْ كان يعرف اسمها الأخير، يعلم الله أَنَّه سيناديه. ولكن خلال كُلِّ ذلك التَّعليم، لَمْ يتعلَّمه قطُّ. ولَمْ يسأل قطُّ.

ومع ذلك فلَمْ يكنْ بسبب هذا الإشراف أَنَّ الكابتن دورهام، المعلِّم العظيم، جرى ذكره كفتىً أحمق في حوليَّات عشيرة بودين. فقَدِ اكتشف بسرعةٍ كافيةٍ أين كانت؛ وجد ابنة العمِّ الصَّغيرة مارلين ضمن الحشد، وأرسلها بمذكِّرةٍ إِلَى قاعة الكنيسة حيث رأت أمبروزيا آخر مرَّةٍ، تغنِّي مع الشُّهود، وتقدِّم الشُّكر ليوم الحساب. وبينما مارلين

1 ـ الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا وأيرلندا (24 مايو 1819 ـ 22 يناير 1901). (المترجم).

تركض بأقصى سرعةٍ في ساقيها الرّماديّتَين، مشى دورهام في هدوءٍ، وهو يتصوَّر أَنَّ الخطوة قَدْ تمَّت، إلَى منزل الملك، مقرِّ إقامة السِّير جيمس سويتنهام[1]، حاكم جامايكا. وهناك طلب منه أَنْ يُجري استثناءً لأجل أمبروزيا- «زنجيَّةٌ متعلِّمةٌ» يتمنَّى الزَّواج بها. ليست كالآخرين. ينبغي أَنْ تحصل عَلَى مكانٍ معه في السَّفينة المغادرة التَّالية.

لكنْ عندما تحكم أرضًا ليسَت لك، فإنَّك تعتاد عَلَى تجاهل الاستثناءات؛ أخبره سويتنهام بصراحةٍ أَنَّه ليسَت هناك أيَّة مساحاتٍ في زوارقه للعاهرات السَّوداوات أَوْ للماشية. استنتج دورهام، الَّذِي شعر بالألم والرَّغبة في الانتقام، أَنَّ سويتنهام لَمْ يعد يملك أيَّة سلطةٍ تخصُّه، أَنَّ وصول سفنٍ أمريكيَّةٍ دليلٌ عَلَى ذلك، وعندها، وكرصاصة وداعٍ، أشار إلَى الجنديَّين الأمريكيَّين اللَّذَين رآهما عَلَى الأراضي البريطانيَّة بدون تصريحٍ، وبصلف مُحدَثي النِّعمة عَلَى أرضٍ لَمْ يملكوها. *هَلْ يُلقى الطِّفل إلَى الخارج مع ماء الغسل*[2]، تساءل دورهام، بوجهٍ أحمر مثل صندوق بريدٍ بريطانيٍّ، وهو يحتكم إلَى عقيدة التملُّك الَّتِي كانت حقَّه بالولادة، *أليست هذه بلدنا لا تزال؟ هَلْ يُطاح بسلطتنا بكلِّ سهولةٍ بسبب عددٍ قليلٍ مِنَ الدَّمدمات عَلَى الأرض؟*

الباقي هو ذلك الشَّيء الرَّهيب: التاريخ. بينما أمر سويتنهام الزَّوارق الأمريكيَّة بالعودة إلَى كوبا، ركضَت مارلين عائدةً برَدٍّ مِنْ أمبروزيا. جملةٍ واحدةٍ ممزَّقةٍ مِنْ سفر أيُّوب: *أَحْمِلُ مَعْرِفَتِي مِنْ بَعِيدٍ*. (احتفظَت هورتنس بالكتاب المقدَّس الَّذِي اقتُطعَت منه وظلَّت تحبُّ أَنْ تقول إنَّه منذ ذلك اليوم وما بعده لَمْ تَنَل أَيُّ امرأةٍ مِنْ آل بودين درسًا مِنْ أَيِّ أحدٍ غير الرَّبِّ). سلَّمت مارلين الجملة إلَى دورهام، ثُمَّ فرَّت إلَى أرض العرض وهي في غاية السَّعادة، بحثًا عن والدتها ووالدها اللَّذَين أصيبا وكانا منهكَين، في الرَّمق الأخير في انتظار الزَّوارق مثل آلافٍ مِنَ الآخرين. أرادت أَنْ تخبرهما بالأخبار السَّعيدة، بما قالته أمبروزيا لها: *إنَّه آتٍ سريعًا، إنَّه آتٍ سريعًا*. الزَّوارق؟ سألت مارلين، وأومأت أمبروزيا، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها كانت مشغولةً جدًّا بالصَّلاة، وفي غاية النَّشوة عَنْ سماع

1 ـ السير جيمس ألكسندر سويتنهام (1846 ـ 1933): حاكم جامايكا بين عامي 1904 و1907. دخل سويتنهام الخدمة المدنية في سيلان حيث كانت له خبرة استعمارية كبيرة، ثم أصبح مندوبًا ساميًّا للمستعمرة في سنغافورة عام 1895. وبعدها بست سنوات أصبح حاكمًا لجويانا. ومن ثم حاكمًا لجامايكا في عام 1904. (المترجم).

2 ـ يرتبط المعنى بالتعبير المعروف: لا تلق الطفل مع ماء الغسل، ويقصد به عدم التخلص بالخطأ من الأشياء الأهم. (المترجم).

السُّؤال. *إنّه آتٍ سريعًا، إنّه آتٍ سريعًا*، قالت، وهي تردِّد ما تعلَّمَته مِنْ سِفر الرُّؤيا[1]، ما علَّمها دورهام، ثُمَّ جلينارد، ومِنْ ثَمَّ السَّيِّدة برنتون إيَّاه بطرائقهم المختلفة؛ ما شهدَت عليه النَّار والصُّدوع الأرضيَّة والرَّعد. *إنّه آتٍ سريعًا*، أخبرَت مارلين، الَّتي أخذَت كلمتها كقولٍ مقدَّس. يمكنُ لبعض التَّعليم الإنجليزيِّ أَنْ يكون أمرًا خطيرًا.

1 ـ سفر الرؤيا (22:7 و12): «هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا. طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ» و«وَهَا أَنَا آتِي سَرِيعًا وَأُجْرَتِي مَعِي لأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ.». (المترجم).

الفصل الرابع عشر
أكثر إنجليزية مِنَ الإنجليز

في التَّقاليد العظيمة للتَّعليم الإنجليزيِّ، أصبح ماركوس وماجد زملاء مراسلةٍ. كيفَ أصبحا زملاء مراسلةٍ كان موضوعًا لجدلٍ حادٍّ (لامت ألسانا مِلَّة، وادَّعى مِلَّة أنَّ أَيرِي مرَّرت العنوان إلَى ماركوس، وقالت أَيرِي إنَّ جويس اختلسَت نظرة إلَى دفتر عناوينها ـ وكانت جويس مُحقَّةً وفق تفسيرها)، غير أنَّهما في كُلِّ الأحوال أصبحا صديقا مراسلةٍ، ومنذ مارس 91 فصاعدًا عبرت الرَّسائل بينهما في تواترٍ غير منتظمٍ فقط بسبب القصور المزمِنْ في النِّظام البريديِّ البنجاليِّ. كان إنتاجهما مجتمعَين مذهلًا. فخلال شهرَين ملَآ ما بلغ حجمه سُمك رسائل كيتس[1] عَلَى الأقلِّ، وبعد أربعة شهورٍ بلغا سريعًا طول وكمَّ مراسلات الحبِّ الحقيقيَّة، وسانت بول، وكلاريسا[2]، والرَّسائل السَّاخطة مِنْ تونبريدج ويلز[3]. ولأنَّ ماركوس صنع نسخًا مِنْ كُلِّ رسائله، وجب عَلَى أَيرِي أَنْ تعيد ترتيب نظامها لحفظ الملفَّات لكَيْ توفِّر درجًا منفصلًا كرَّسَته لمراسلاتهما. وقسَّمَت نظام حفظ الملفَّات إلَى قسمَين، اختيار الملفِّ بحسب المؤلِّف مبدئيًّا، ومِنْ ثَمَّ

---

1 ـ جون كيتس (31 أكتوبر 1795 ـ 23 فبراير 1821) شاعر إنجليزي أصبح واحدًا من شعراء الحركة الرومانتيكية المهمين في مطلع القرن التاسع عشر. كان تأثيره هائلًا بعد وفاته في شعراء مثل ألفرد تينيسون. وتعتبر سلسلة الأغنيات القصيرة الَّتي كتبها كيتس تحفًا فنية، ولا تزال من أكثر قصائد الشعر الإنكليزي انتشارًا. تُعتبر رسائل كيتس عن نظريته الجمالية في القدرة السلبية أكثر الرسائل المُحتفى بها لأي كاتب. (المترجم).

2 ـ كلاريسا، أوْ تاريخ سيدة شابة هي رواية مكتوبة على شكل رسائل، من تأليف صامويل ريتشاردسون، صدرت عام 1748. وتدور حول القصة المأساوية لبطلة يَحبط مساعيها للفضيلة باستمرار من قِبَل عائلتها. وتعد واحدة من أطول الروايات في اللغة الإنجليزية. (المترجم).

3 ـ عبارة الرسائل الساخطة لتونبريدج ويلز هي تعبير شائع في إنجلترا للإشارة إلَى شخص، يملك وجهة نظر سياسية متحفظة في العادة، ويرسل رسائل إلَى الصحف بلهجة الغضب الأخلاقي. ووفقًا للمؤرخ المحلي ورئيس التحرير السابق فرانك تشابمان فقد نشأ التعبير في 1950 عندما لاحظ رئيس تحرير جريدة تونبريدج ويلز الإعلانية السابقة وجود نقص حاد في رسائل القراء، وأصر على أن يكتب المحررون رسائل قليلة لملء المساحة. ووقع أحدهم رسالته ببساطة بـ «المشمئز، تونبريدج ويلز». (المترجم).

زمنيًّا، بدلًا مِنْ ترك التَّواريخ البسيطة تهيمِنْ عَلَى كُلِّ شيء. لأَنَّ هذا يتعلَّق كاملًا بالَّناس. أناسٍ يقيمون علاقاتٍ عبر القارَّات، وعبر البحار. صنعَت ملصقين لفصل محتويات المواد. قال الأوَّل: **مِنْ ماركوس إِلَى ماجد**. وقال الثَّاني: **مِنْ ماجد إِلَى ماركوس**.

قاد مزيجٌ كريهٌ مِنَ الغيرة والعدائيَّة أَيرِي إِلَى الإساءة لدورها كسكرتيرةٍ. نشلَت مجموعاتٍ صغيرةٍ مِنَ الرسائل الَّتِي لَنْ تُفتقَد، وأخذَتها إِلَى المنزل، وأخرجَتها مِنْ أغلفتها، ومِنْ ثَمَّ، وبعد قراءاتٍ متأنِّيةٍ مِنْ شأنها أَنْ تُشعر ف. ر. ليفيس[1] بالخجل، أعادتها بعنايةٍ إِلَى ملفِّها. ولَمْ يجلب لها ما وجدته في تلك الأظرف الزَّاهية المختومة بختم البريد الجويِّ أَيَّ بهجةٍ. كان لمرشدها ربيبٌ جديدٌ. ماركوس وماجد. ماجد وماركوس. بَلْ لقَدْ بدا للأمر وقعٌ أفضل. فالطَّريقة الَّتِي بدا بها واطسون وكريك كانت أفضل وقعًا مِنْ واطسون، وكريك، وويلكنز.

قال جون دون[2] إِنَّه *بما يفوق القبلات، فإِنَّ الرَّسائل تمزج الأرواح*، وهي تفعل؛ أزعج أَيرِي العثور عَلَى مثل هذا القدر مِنَ التَّمازج، عَلَى اندماجٍ ناجحٍ كهذا بين اثنين مِنَ النَّاس عبر الحبر والورق، عَلَى الرَّغم مِنَ المسافة بينهما. لا رسائل حبٍّ يمكن أَنْ تكون أكثر حماسةً. لا شغف عاد بأقلَّ منه، منذ البداية. الرَّسائل القليلة الأولى امتلأت بفرحٍ لا حدود له بالتَّعارف المتبادل: مملَّةٌ لفتيان غرفة البريد المتلصِّصين في دكّا، ومحيِّرةٌ لأَيرِي، ورائعةٌ بالنسبة إِلَى الكاتبَين نفسَيهما:

يبدو الأمر كما لَوْ أَنَّنِي عرفتك دائمًا؛ لَوْ كنتُ هندوسيًّا لشككتُ في أَنَّنا التقينا في حياةٍ سابقةٍ ــــ ماجد.

إِنَّك تفكِّر بطريقتي. أَنتَ دقيقٌ. أحبُّ ذلك ــــ ماركوس.

أنتَ تضع الأمر بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا وتتحدَّث بأفكاري أفضل بكثيرٍ ممَّا كنتُ لأستطيع قطٌّ. بخصوص رغبتي لدراسة القانون، وحنيني لتحسين الكثير في بلدي الفقير ـ الَّذِي

1 ـ فرانك ريموند ليفيس: ناقد أدبي ومحاضر، تخصص بدراسة الأدب الإنجليزي. وتشمل مؤلفاته: اتجاهات جديدة في الشعر الإنجليزي (1932)؛ إعادة تقييم التراث والتطور في الشعر الإنجليزي (1936)؛ التراث العظيم: جورج إليوت، جيمس وكونراد (1948)؛ الحرفة الشائعة (1952)؛ دي. إتش. لورنس الروائي (1955). (المترجم).

2 ـ كان جون دون واحدًا من أبرز الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر، وكاتبًا لامعًا لا تزال قصائده الغزلية وتأملاته الظريفة الساخرة والمربرة عادةً، تثير الاهتمام إِلَى اليوم. وكان إِلَى ذلك كاهنًا وُصفت مواعظه بأنها كانت أفضل مواعظ القرن. (المترجم).

هو ضحيَّةٌ لكلِّ نزوةٍ عابرةٍ للرَّبِّ، لكُلِّ إعصارٍ وفيضانٍ - في هذه الأهداف، ما الغريزة الأساسيَّة؟ ما الجذر، الحلم الَّذِي يربط هذه الطُّموحات معًا؟ كَيْ تفهم العالم. كَيْ تزيل العشوائيَّة ـــ ماجد.

ثُمَّ بعدها هناك الإعجاب المتبادل، الَّذِي استمرَّ لبضع شهورٍ جيِّدةٍ:

ما تعمل عليه، يا ماركوس - تلك الفئران الاستثنائيَّة - إنَّه ليس أقلَّ مِنْ عملٍ ثوريٍّ. عندما تتعمَّق في خبايا الخصائص المورَّثة، فإنَّك تذهب مباشرةً بالتَّأكيد إِلَى روح الحالة الإنسانيَّة بشكلٍ كبيرٍ وجوهريٍّ مثل أَيِّ شاعرٍ، باستثناء أنَّك تكون مسلَّحًا بشيء أساسيٍّ لا يملكه الشَّاعر: الحقيقة. أنا في حالة رهبَةٍ إزاء الأفكار المتبصِّرة وأصحاب الرُّؤى. إِنَّنِي في حالة خشوع تجاه رجلٍ هكذا مثل ماركوس تشالفين. إنَّنِي أَعتبره شرفًا أَنْ أكون قادرًا عَلَى مخاطبته كصديقٍ، وأنا أشكرك مِنْ أعماق قلبي عَلَى تبنِّي اهتمامٍ مجيدٍ لا يمكن تفسيره مثل هذا بمصالح عائلتي ـــ ماجد.

إِنَّه أمرٌ لا يصدَّق بالنِّسبة إِلَيَّ، هذا الضَّجيج الدَّامي الَّذِي يصنعه النَّاس حول فكرةٍ مثل الاستنساخ. الاستنساخ، عندما يحدث (ويمكنني أَنْ أخبرك أنَّه سوف يحدث عاجلًا وليس آجلًا) هو ببساطةٍ توأمةٌ متأخِّرةٌ، ولَمْ يحدث في حياتي قَطُّ أَنِ اقتربتُ مِنْ زوجٍ مِنَ التَّوائم يثبتان الحجَّة بشكلٍ أكثر قطعيَّة في مواجهة الحتميَّة الوراثيَّة أكثر مِنْ مِلَّة وأنتَ نفسك. في كُلِّ منطقة يعاني مِنْ نقصٍ فيها، تتفوَّقُ أنتَ - أتمنَّى لَوِ استطعتُ أَنْ أقول هذه الجملة بالمعنى العكسيِّ، غير أَنَّ الحقيقة المرَّة هي أَنَّه لا يبرع في شيءٍ باستثناء مراودة آستك ملابس زوجتي التَّحتيَّة ـــ ماركوس.

وأخيرًا، هناك خطط المستقبل، خططٌ وُضعَت بشكلٍ أعمىً وفي سرعةٍ عاطفيَّةٍ، مثل الطَّالب الإنجليزيِّ المنغلق عَلَى دراسته الَّذِي تزوَّج بمورمونيَّة[1] مِنْ منيسوتا تزن 266 رطلًا لأنَّها بدَتْ مثيرةً عَلَى خطِّ الدَّردشة.

1 ـ المورمون: مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي مذهب ديني بدأه جوزيف سميث خلال أواسط القرن التاسع عشر. الغالبية العظمى من المورمونٌ أعضاء في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة. بينما أقلية منهم أعضاء الكنائس المستقلة الأخرى. يعتبر المورمون أنفسهم جزءًا من الديانة المسيحية. تشمل الممارسات الشائعة للمورمون دفع العشور، والامتناع عن العلاقات الجنسية قبل الزواج، والمشاركة في قيادة الكنيسة، والامتناع عن العمل يوم الأحد عندما يكون ذلك ممكنًا، وأمسيات الأسرة في المنزل والتبشير. تُحرّمُ كنيسة قديسي الأيام الأخيرة شرب الخمر، وغالبية أتباعها لا يشربون الشاي والقهوة وكل ما يحتوي على الكافيين، كما أنهم لا يدخنون السجائر. وبعض المتشددين من المورمن يمنعون النساء من لبس التنانير القصيرة والسراويل. (المترجم).

لا بُدَّ أَنْ تأتي إِلَى إنجلترا في أقرب وقتٍ ممكنٍ، في بدايات 93 عَلَى أقصى حدٍّ. سأوفِّر بعض التّكاليف بنفسي إذا كان لا بدَّ لِي. وعندها يمكننا تسجيلك في المدرسة المحليَّة، وتجتاز الامتحانات وتنتهي منها ثُمَّ نرسلك بأقصى سرعةٍ إِلَى أيٍّ مِنْ قمم الحلم الَّتِي تداعب خيالك (عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه مِنَ الواضح أَنَّ هناك خيارًا حقيقيًّا واحدًا) وبينما تفعل ذلك يمكنكَ أَنْ تسرع وتكبر، وتذهب إِلَى منصَّة الدِّفاع وتوفِّر لي نوع المحامي الَّذِي أحتاجه لكَيْ يقاتل إِلَى جانبي. فأر المستقبل© يحتاج إِلَى مدافعٍ قويٍّ. اسرع يا صديقي القديم. ليست لَدَيَّ الألفيَّة بأكملها ــ ماركوس.

الرِّسالة الأخيرة، ليس الرِّسالة الأخيرة الَّتِي كتبَاها، بل الأخيرة الَّتِي أمكن لأَيرِي اختلاسها، تضمَّنَت هذه الفقرة النِّهائيَّة مِنْ ماركوس:

حسنًا، الأمور كما هي في الجوار باستثناء أَنَّ ملفَّاتي في ترتيبٍ ممتازٍ، بفضل أَيرِي. سوف تحبُّها: إِنَّها فتاةٌ مشرقةٌ وهي تملك الثَّديَين الأكثر روعةً... للأسف، لا أحمل آمالًا كثيرةً تجاه طموحاتها في مجال «العلم الصَّعب»، وبشكلٍ أكثر تحديدًا في مجالِي للتِكنولوجيا الحيويَّة، الَّذِي يبدو أَنَّها ترغبه بشدَّةٍ... إِنَّها دقيقةٌ بطريقةٍ ما، ولكنَّه العمل المتدنِّي، العمل الصَّعب، ما تجيده ـ رُبَّما تنجح كمساعدة مختبرٍ، ولكنها لا تملك الكفاءة العقليَّة تجاه المفاهيم، لا كفاءة عَلَى الإطلاق. يمكنها أَنْ تحاول الطِّبَّ، كما أفترض، ولكِنْ حتَّى هناك أنتَ تحتاج إِلَى المزيد مِنَ الجرأة أكثر ممَّا لديها... لذا رُبَّما ينبغي أَنْ يكون ذلك طبُّ الأسنان لأَيرِي ــ نا (قَدْ يمكنها أَنْ تصلح أسنانها هي عَلَى الأقلِّ)، وهي مهنةٌ شريفةٌ بلا شكٍّ، ولكنَّها مهنةٌ أتمنَّى لك أَنْ تتجنَّبها...

في النِّهاية، لَمْ تكن أَيرِي مستاءةً. غلبَها النَّشيج لبعض الوقت، غير أَنَّ ذلك سَرَعَان ما مرَّ. كانت مثل أُمِّها، ومثل أبيها ـ عظيمةً في إعادة خلق نفسها، عظيمةً في التَّصرُّف مع الإمكانيات المتاحة. لا يمكنكَ أَنْ تكون مراسلًا حربيًّا؟ كُنْ دَرَّاجًا. لا يمكنكَ أَنْ تكون درَّاجًا؟ اطوِ الأوراق. لا يمكنكِ أَنْ تجلسي بجانب المسيح مع الـ144000؟ انضمِّي إِلَى الحشد العظيم. لا يمكنكِ الوقوف مع الحشد العظيم؟ تزوَّجي بآرشي. لَمْ تُحبط أَيرِي بشكلٍ كبيرٍ. فكَّرَت فقط، حسنًا: طِبُّ الأسنان. سأكون طبيبة أسنان. طبُّ الأسنان. حسنًا.

***

وفي الوقت نفسه حاولت جويس تحت السَّطح أَنْ تحلَّ مشكلات مِلَّة مع النِّساء البيضاوات. والَّتِي كانت عديدةً. كُلُّ النِّساء، بكُلِّ درجات اللُّون، مِنْ سواد منتصف اللَّيل إِلَى المهقاوات، هُنَّ نساء مِلَّة. يمرِّرن له أرقام التِّليفونات، ويمنحنه الجنس

الفمويَّ في أماكن عامَّةٍ، ويعبرن الحانات المزدحمة لكَيْ يشترين له مشروبًا، ويجذبنه إِلَى التَّاكسيات، ويتبعنه إِلَى المنزل. أَيًّا كان الأمر - الأنف الرومانيُّ، أَمِ العينان اللَّتَان مثل بحرٍ مظلمٍ، أَمِ الجلد الَّذِي مثل الشِّيكولاتة، أَمِ الشَّعر الَّذِي مثل ستائر مِنَ الحرير الأسود، أَمْ رُبَّما فقط رائحته الحادَّة، البسيطة والنَّقية - فإِنَّ له أثره العظيم بالتَّأكيد. والآن، لا ينبغي أَنْ تشعر بالغيرة. لا فائدة مِنْ ذلك. هناك دائمًا، وسوف يظلُّ هؤلاء النَّاس الَّذِين ينضحون بالجنس ببساطةٍ (الَّذِين يتنفَّسونه، ويتصبَّبون به). وهناك بعض الأمثلة الَّتِي جاءت مِنْ لا مكانٍ: مارلون براندو[1] الشابُّ، ومادونا، وكليوباترا، وبام جرير[2]، وفالنتينو[3]، وفتاة تدعى تامارا تعيش قبالة ميدان سباق الخيل في لندن، كصفعةٍ حقيقيةٍ في قلب المدينة، وعمران خان[4]، وداوود مايكل أنجلو[5].

1 - مارلون براندو الابن (3 أبريل، 1924 - 1 يوليو 2004): ممثل ومخرج وناشط أمريكي. كثيرا ما يشار اليه باعتباره الممثل الأعظم والأكثر إلهامًا على الإطلاق. يعد أيقونة ثقافية، مشهور بدوريه الحائزين على جائزتي أوسكار: تيري مالوي في على الواجهة البحرية (1954)، وفيتو كورليوني في العرّاب (1972)، إضافة إلى أدوار ملهمة أخرى في عربة اسمها الرغبة (1951) وفيفا زباطة (1952) والتانجو الأخير في باريس (1972) والقيامة الآن (1979). براندو كان أيضًا ناشطًا، ودعم قضايا عديدة، ولا سيما حركة الحقوق المدنية الأمريكية الأفريقية ومختلف الحركات الهندية الأمريكية. (المترجم).

2 - باميلا سوزيت جرير (26 مايو 1949 - ...) ممثلة أمريكية اشتهرت في مطلع السبعينيات، بعد بطولة السلسلة الناجحة «نساء في السجن» وأفلام السود مثل «قفص الطيور الكبير» - 1972، و«كوفي» - 1973، و«فوكسي براون» - 1974. تجددت نجوميتها في عام 1997 بعد ظهورها الرائع في فيلم كونين تارانتينو «جاكي براون» والذي نالت عنه جائزة الجولدن جلوب. (المترجم).

3 - فالنتينو كليمنتي لودوفيكو جارافاني (11 مايو 1932 في فوجيرا، إيطاليا)، المعروف باسم فالنتينو: مصمم الأزياء الإيطالي ومؤسس بيت فالنتينو الإيطالي للأزياء، وماركة الأزياء العالمية الفاخرة الَّتِي أسهمت في صياغة تاريخ الموضة لنحو 50 عامًا. (المترجم).

4 - عمران خان نيازي (25 نوفمبر 1952 - ...) لاعب كريكيت باكستاني عالمي المستوى، وتحول إِلَى السياسة في منتصف التسعينيات؛ ليعمل في الأنشطة الخيرية، والتعليق على لعبة الكريكيت، جنبًا إِلَى جنب مع أنشطته السياسية. يرأس حركة الإنصاف الباكستانية الَّتِي ازدادت شعبيتها سنة 2011. لعب خان لصالح فريق الكريكيت الباكستاني من عام 1971 وحتَّى عام 1992، وشغل منصب قائد بشكل متقطع طيلة الفترة ما بين عامي 1982 وحتَّى عام 1992. بعد تقاعده من لعبة الكريكيت في نهاية بطولة كأس العالم عام 1987 استدعي مرة أخرى للانضمام إِلَى الفريق عام 1988. وبينما كان في التاسعة والثلاثين قاد زملاءه في الفريق لتحقيق الفوز الأول والوحيد لباكستان ببطولة كأس العالم عام 1992؛ فلديه سجل من 3807 نقطة، و362 ويكيت في الـ «تيست كريكيت»، ما جعله واحدًا من ستة لاعبي كريكيت في العالم حقق التفوق في الثلاثي متعدد المهارات في مباريات الـ«تيست». (المترجم).

5 - تمثال داوود للفنان مايكل آنجلو، منحوت من 1501م إِلَى 1504م. وقد أنجزه في 8 سبتمبر 1504، وهو تمثال هائل يصل طوله إِلَى 6 أمتار تقريبًا، كان منحوتة غير منتهية من قِبَل نحَّات آخر واستحوذ عليها مايكل آنجلو ليخلق منها داوود، وهو عبارة عن تمثال لذكر عار يقف متكئًا بكامل جسده على ساق واحدة بينما ساقه الأخرى تراها ممتدة، فتوحي هذه الوضعية بتحرك وشيك. (المترجم).

لا يمكنكَ مجابهة ذلك النَّوع مِنَ القوَّة العشوائيَّة الرَّائعة، لأَنَّه ليس التَّناسب أَوِ الجمال في حدِّ ذاته ما يفعل ذلك دائمًا (أنف تامارا هو الأكثر تقوُّسًا بعض الشيءٍ عَلَى الإطلاق)، وليست هناك وسيلة يمكن لكَ أَنْ تكتسبها بها. وبالتَّأكيد فالعبارة الأمريكية الأقدَم، فيما يتعلَّق بالمسائل الاقتصاديَّة أَوِ السِّياسيَّة أَوِ العاطفيَّة: *إمَّا أَنْ تؤتاها وإمَّا أنَّك لا تفعل*، وثيقة الصِّلة هنا. ومِلَّة أُوتيها. إلَى الحدِّ الأقصى. لديه الاختيار، في العالم المعروف، مِنْ كُلِّ أنثى فاتنة مِنْ قياس 8 إلَى 28، تايلنديَّةٍ أَوْ مِنْ تونجا، مِنْ زنجبار وحتَّى زيورخ، يمتدُّ أفقه مِنْ أعضاء الأنوثة المتاحة والرَّاغبة في كُلِّ الاتِّجاهات بقدر ما يمتدُّ البصر. ويمكن للمرء منطقيًّا أَنْ يتوقَّع لرجلٍ لديه تلك المنحة الطَّبيعيَّة أَنْ ينغمس في مصاهر مجموعةٍ كبيرةٍ ومتنوِّعةٍ مِنَ النِّساء، ويجرِّب القاصية والدَّانية. ولكنَّ غرام مِلَّة الرَّئيس انحصر في الأغلب في قياس 10 مِنَ النِّساء البروتستانتيَّات البيضاوات مِنْ عمر خمس عشرةً وحتَّى ثمانية وعشرين، اللائي يعشن في محيط المنطقة المجاورة مباشرة لغرب هامبستيد.

في البداية لَمْ يزعج هذا مِلَّة ولا شعر بأَنَّه غريبٌ بالنِّسبة إليه. امتلأت مدرسته بالفتيات اللَّائي ناسبن المواصفات العامَّة. بقانون الاحتمالات - وحيث أَنَّه الشَّخص الوحيد الجدير بالمضاجعة في جلينارد أوك - فقَدْ كان في طريقه لأَنْ يصل إلَى مضاجعة نسبةٍ كبيرةٍ منهنَّ. ومع كارينا كاين، غرامه الحاليّ، كانت الأشياء ممتعةً حقًّا. يخونها مع ثلاث نساءٍ أخرياتٍ فقط (ألكساندرا أندروسير، وبولي هوتون، وروزي ديو)، وهذا رقمٌ قياسيٌّ شخصيٌّ. إلَى جانب أَنَّ كارينا كاين مختلفةٌ. ليس الأمر مجرد الجنس مع كارينا. هو يحبُّها، وتحبُّه، ولديها حسٌّ كبيرٌ بالفكاهة، ما بدا كمعجزةٍ، وهي تعتني به عندما تهبط معنويَّاته، وهو يرعاها أيضًا، بطريقته الخاصَّة، يحضر الزُّهور لها والمخدِّرات. كان كُلٌّ مِنْ قانون الاحتمالات، وذلك الشَّيء العشوائيّ المحظوظ ما جعلاه أكثر سعادةً ممَّا هو في المعتاد. وهكذا كان.

غير أَنَّ كيفِن لَمْ تر الأمر عَلَى هذا النَّحو. في إحدى الأمسيات، بعد أَنْ أقلَّته كارينا إلَى اجتماعٍ لـ كيفِن في سيَّارة والدتها الرِّينو، عَبَر الأخ هيفان والأخ تايرون قاعة كيلبورن تاون كائنين مِنْ رجال الجبال، عازمَين عَلَى تخليص نفسَيهما عند قدمي محمد[1]. وبدَوَا غايةً في الجدِّيَّة.

1 - النبي محمد صلى الله عليه وسلم. (المترجم).

«مهلًا، يا هيفان، يا مرشدي، يا تايرون، يا رفيقي، لماذا الوُجُوه الحزينة؟»

لكنَّ الأخوَين هيفان وتايرون لَمْ يكونا ليخبراه لماذا الوُجُوه الحزينة. عوضًا عن ذلك أعطياه نشرةً. عنوانها: **مَنْ هي الحرَّة حقًّا؟ أخوات كيڤن أَمْ أخوات سوهو[1]؟** شكرهما مِلَّة عَلَى ذلك بحرارةٍ. ثُمَّ حشرها في قاع حقيبته.

كيف كان الأمر؟ سألاه في الأسبوع التَّالي. هَلْ كانت قراءةً جيِّدةً، يا أخُ مِلَّة؟ في الحقيقة فالأخُ مِلَّة لَمْ يجد الوقت لقراءته (ولكَيْ نكون صادقين، فقَدْ فضَّل منشوراتٍ تُسمَّى بأشياء مثل *الشَّيطان الأمريكيّ الكبير: كيف تقود المافيا الأمريكيَّة العالم أَوِ العلم في مقابل الخالق: لا تعارض*)، ولكنْ أمكن له أَنْ يرى أَنَّ الأمر لَمْ يبد ذا أهمِّيَّةٍ للأخ تايرون والأخ هيفان، لذا قال إِنَّه فَعَل. بدَتْ عليهما السَّعادة ومنحاه واحدًا آخر. اسمه: *حرية اللِّيكرا[2]؟ الاغتصاب والعالم الغربي.*

«هَلْ يخترق الضَّوء ظلمتك، يا أخ مِلَّة؟» سأل الأخ تايرون بلهفةٍ، في اجتماع الأربعاء التَّالي. «هَلِ الأمور أوضح؟»

«أوضح،» لَمْ تبد الصِّفة الصَّحيحة تمامًا لمِلَّة. رتَّبَ بعض الوقت في وقتٍ سابقٍ مِنَ الأسبوع، وقرأ النَّشرتين، وشعر بغرابة لَمْ يعهدها مِنْ قبل. في ثلاثة أيَّامٍ قصيرةٍ جعلته كارينا كاين، الفتاة المحبوبة، مِنْ نوعيَّةٍ رائعةٍ فعلًا، الَّتِي لَمْ تغضبه قطُّ (بل عَلَى العكس مِنْ ذلك، الَّتِي جعلته يشعر بالسَّعادة! بالبهجة!) جعلته يغضب أكثر ممَّا استطاعت خلال العام الَّذِي تضاجعا فيه بالكامل. وليس غضبًا عاديًّا. غضبًا عميقًا غير مستقرٍ وغير قابلٍ للحلِّ، مثل حكَّةٍ عَلَى طرفٍ مبتورٍ[3]. ولَمْ يكن واضحًا له لماذا.

«نعم، يا رجل، يا تايرون،» قال مِلَّة مع إيماءةٍ وابتسامةٍ واسعةٍ. «بلُّور، يا رفيقي، بلُّور.»

---

1 ـ أحد أحياء لندن، وهي جزء من منطقة تلقب بالطرف الغربي. تمتلك سوهو أكثف مركز من المطاعم والمقاهي والأندية والحانات في وسط لندن، وتمثل القلب الحيوي النشط للمدينة. تعد المنطقة أيضًا مركز لندن الإعلامي لوجود عدد كبير من وكالات الإعلانات بها، بالإضافة إِلَى الكثير من استوديوهات الإذاعة والتليفزيون. ويعد الحي الصيني اللندني أحيانًا جزءًا من سوهو. (المترجم).

2 ـ ليكرا: علامة تجارية مرتبطة بإسباندكس، وهي ألياف اصطناعية تعرف بمرونتها الاستثنائية. وهي أقوى وأكثر تحملًا من المطاط. اخترعها الكيميائي جوزيف شيفرز من شركة دوبونت في عام 1959. وعندما وضع في الاستخدام اعتبر كثورة في صناعة الملابس. (المترجم).

3 ـ ألم الأطراف المبتورة: هو إحساس الذين بترت أَوْ فقدت أطرافهم أن أطرافهم المبتورة أَوْ المفقودة لا تزال تلتصق بالجسم وأنهم يشعرون بحكة أَوْ ألم فيها. (المترجم).

أومأ الأخ تايرون في المقابل. سُرَّ مِلَّة لرؤية أَنَّه بدا سعيدًا. يشبه الأمر أَنْ تكون في حياة مافيا حقيقيَّةٍ، أَوْ فيلمٍ لبوند[1] أَوْ شيءٍ ما. هما الاثنان في بذلتَيهما بالأسودِ والأبيضِ، يومئان لبعضهما. *أُدرك أَنَّنا نفهم بعضنا بعضًا.*

«هذه هي الأخت عايشة،» قال الأخ تايرون، وهو يسوّي بَبْيُون مِلَّة الأخضر، ويدفعه نحو فتاةٍ سوداء جميلةٍ صغيرة الحجم، بعينين لوزيَّتَين وعظمتَي خدٍّ عاليتَين. «إنَّها رَبَّةٌ أفريقيَّة.»

«حقًّا؟»، قال مِلَّة في إعجابٍ. «مِنْ أَيِّ مكانٍ؟»

«شمال كلافام[2].» قالت الأخت عايشة، بابتسامةٍ خجولةٍ.

صفَّق مِلَّة بيديه معًا ودقَّ بقدمه. «أوه، يا رجل، لا بُدَّ *أَنَّكِ تعرفين* مقهى ريدباك؟»

تورَّدت الأخت عايشة، الرَّبَّة الأفريقيَّة. «نعم، يا رجل، كان ذلك مكاني في الزَّمن البعيد! هَلْ تذهب إِلَى هناك؟»

«في كُلِّ وقتٍ! مكانٌ رائعٌ. حسنًا، رُبَّما سأراك بالقرب مِنْ بوَّاباته في وقتٍ ما. مِنَ اللطيف أَنْ ألتقيكِ، أَيَّتُها الأخت. يا أخ تايرون، ينبغي أَنْ أنطلق، يا رجل، فتاتي تنتظرني.»

بدا الأخ تايرون خائب الأمل. ومرَّر - بالكاد - قبل أَنْ يغادر مِلَّة منشورًا آخر إِلَى يده، وواصل الإمساك بيده حتَّى ترطَّبت الورقة بين كفَّيهما.

«يمكنك أَنْ تكون قائدًا عظيمًا للرِّجال، يا مِلَّة،» قال الأخ تايرون (لماذا يواصل الجميع قول ذلك له؟) وهو ينظر إليه أوَّلًا، ثم إِلَى كارينا كاين، وقد برزت انحناءات نهديها مِنْ خلال باب السَّيَّارة، وهي تطلق بوق سيَّارتها في الشَّارع. «ولكنَّك في هذه اللَّحظة نصف الرَّجل. نحن بحاجةٍ إِلَى الرَّجل كاملًا.»

1 ـ جيمس بوند (يعرف أيضا ب 007) شخصية خيالية لجاسوس بريطاني أبدعها المؤلف إيان فلمنج في عام 1953 عبر أول رواية كازينو رويال. كتب فلمنج روايات عدة وقصصًا قصيرة من بطولة بوند خلال حياته حتَّى مماته في 1964. إلا أن شهرة بوند الحقيقية تحققت بشكل أساسي عن طريق السينما من خلال ثلاثة وعشرين فيلما من إنتاج إي أوْ إن برودكشنز بالإضافة لإنتاجين سينمائيين مستقلين ومسلسل أمريكي مستمد من روايات فلمنج. (المترجم).

2 ـ منطقة جنوب غرب لندن. (المترجم).

«نعم، رائعٌ، شكرًا، وأنتَ أيضًا أيُّها الأخ،» قال مِلَّة، وهو ينظر بشكلٍ سريعٍ إِلَى النَّشرة، ويدفع مقبض الباب. «أراك لاحقًا.»

«ما هذا؟» سألَت كارينا كاين، وهي تبلغ باب الرَّاكب لكَيْ تفتحه وتنظر إِلَى الورقة الرَّطبة بعض الشَّيء في يده.

وضع مِلَّة النَّشرة في جيبه مباشرةً بشكلٍ غريزيٍّ. الأمر الَّذِي بَدَا غريبًا. فهو يعرض كُلَّ شيءٍ عَلَى كارينا في العادة. الآن أزعجه مجرَّد كونها تسأله بشكلٍ ما. وما الَّذِي كانت ترتديه؟ نفس السِّترة الَّتِي ترتديها دائمًا. ولكنْ أَلَمْ تكن أقصر؟ أَلَمْ تكن حلماتها أكثر وضوحًا، وبشكلٍ مقصودٍ؟

قال: «لا شيء.» عابسًا. ولكنَّه لَمْ يكن لا شيء. بَلِ النَّشرة الأخيرة في سلسلة كيقن عَنِ النِّساء الغربيَّات. **الحقُّ في التَّعرِّي: الحقيقة العارية حول السُّلوك الجنسيِّ في الغرب.**

الآن، وبما أَنَّنا بصدد موضوع التَّعرِّي، فكارينا كاين لها جسمٌ لطيفٌ صغير الحجم. بانحناءات ناعمة وأطراف رشيقة. وعندما تأتي عطلة نهاية الأسبوع تحبُّ أَنْ ترتدي شيئًا ما لكَيْ تعرضه. لاحظها مِلَّة للمرَّة الأولى في إحدى الحفلات المحلِّيَّة عندما رأى وميضًا مِنْ بنطلونٍ فضِّيٍّ، وصدريَّة فضِّيَّةٍ، ومساحةً عاريةً مِنَ البطن النَّاتئ قليلًا بينهما مع قطعة فضَّةٍ أخرى عَلَى السُّرَّة. هناك شيءٌ ما مبهجٌ بخصوص بطن كارينا الصَّغير. تكرهه كارينا، ولكنَّ مِلَّة أحبَّه. يحبُّه عندما ترتدي أشياء تكشف عنه. ولكنَّ النشرات جعلت الأشياء الآن *أوضح*. بدأ في ملاحظة ما ترتديه والطَّريقة الَّتِي ينظر الرِّجال الآخرون إِلَيها بها. وعندما أشار إِلَى ذلك قالت: «أوه، إِنَّنِي *أكره* ذلك. كُلُّ هؤلاء الرِّجال المسنِّين المتفحِّصين.» غير أَنَّ الأمر بدا لِمِلَّة كما لَوْ أَنَّها شجَّعَت عَلَى هذا؛ كما لو أَنَّها *أرادَت* مِنَ الرِّجال قطعًا أَنْ ينظروا إليها، أَنَّها - كما افترض *الحقُّ في التَّعرِّي* - «تتعهر عَلَى مرأًى مِنَ الذُّكور. الذُّكور البيض عَلَى التَّحديد. لأَنَّ الأمر هكذا بين الرِّجال الغربيِّين والنِّساء الغربيأَت، أليْسَ كذلك؟» يحبُّون أَنْ يفعلوا ذلك بالكامل في العَلَن. كُلَّمَا فكَّر في الأمر أكثر، كُلَّمَا أغضبه ذلك. لماذا لا يمكنها أَنْ تحتشم؟ مَنِ الَّذِي حاولت أَنْ تستهويَه؟ الرَّبَّات الأفريقيِّات مِنْ شمال كلافام يحترمِنْ أنفسهنَّ، لماذا لا يمكن لكارينا كاين ذلك؟ «لا أستطيع أَنْ أحترمكِ،» أوضح مِلَّة بحرصٍ، وهو يتأكَّد مِنْ تكرار الكلمات كما قرأها بالضَّبط: «حتَّى تحترمي نفسك.» قالت كارينا كاين إِنَّها تحترم

نفسها، غير أنَّ مِلَّة لَمْ يستطع أَنْ يصدِّقها. الأمر الَّذِي كان غريبًا، لأَنَّه لَمْ يعرف الكذب عَنْ كارينا كاين قطٌّ، فهي ليست مِنْ هذا النَّوع.

عندما استعدَّا للخروج إِلَى مكانٍ ما، قال: «أنتِ لا ترتدين ثيابكِ مِنْ أجلي، أنتِ ترتدين ثيابًا مِنْ أجل الجميع!» قالت كارينا إِنَّها لا ترتدي الثِّياب مِنْ أجله أَوْ مِنْ أجل أيِّ شخصٍ، هي ترتديها لأجل نفسها. عندما غنَّت «الشِّفاء الجنسيّ[1]» في حانة كاريوكي، قال: «الجنس شيءٌ خاصٌّ، بيني وبينك، ليس لكُلِّ شخصٍ!» قالت كارينا إِنَّها كانت تغنِّي، ولا تمارس الجنس أمام مرتادي حانة الفأر والجزر. وهما يمارسان الحبَّ، قال: «لا تفعلي ذلك... لا تعرضي ذلك عليَّ مثل عاهرةٍ. أَلَمْ تسمعي عَنِ الأفعال المنافية للطَّبيعة؟ إِلَى جانب ذلك، سأناله إذا أردتُه - ولماذا لا يمكنكِ أَنْ تكوني سيِّدةً، ولا تصنعي كُلَّ تلك الضوضاء!» صفعَته كارينا كاين وبكَت كثيرًا. قالت إِنَّهَا لا تعرف ما الَّذِي يحدث له. والمشكلة، فكَّر مِلَّة وهو يدفع الباب عن مفصَّلاته بعنفٍ، *أَنَّنِي لا أعرفُ أيضًا*. وبعد ذلك الشِّجار لَمْ يتحدَّثا لبعض الوقت.

بعد حوالي أسبوعَين، قام بنوبة عملٍ في القصر لأجل بعض المال الإضافيِّ، وناقش موضوعه مع شيفا، الَّذِي غيَّر ديانته حديثا مع كيفن وأصبح النَّجم الصَّاعد في المنظَّمة. «لا تتحدَّث معي عَنِ النِّساء البيضاوات،» تذمَّر شيفا، وهو يتساءل كَمْ جيلًا مِنْ آل إقبال سيكون عليه أَنْ يقدِّم لهم نفس النَّصيحة. «لقَدْ بلغ الأمر نقطة أَنَّ النِّساء هُنَّ رجالٌ في الغرب! أعني أَنَّ لديهنَّ نفس الرَّغبات، ويجادلن مثل الرِّجال - *إِنَّهنَّ* يردن *كُلَّ شيءٍ طوال الوقت اللَّعين*. وهنَّ يرتدين ثيابًا كما لَوْ يردن مِنْ كُلِّ شخصٍ أَنْ يعرف أَنَّهنَ يردنه. الآن هَلْ هذا صحيحٌ؟ هَلْ هو كذلك؟»

ولكن قبل أَنْ تتطوَّر المناقشة، جاء صمد عبر الأبواب المزدوجة وهو يبحث عَنْ بعض صلصة المانجو وعاد مِلَّة إِلَى ما كان يقوم بتقطيعه.

في ذلك المساء بعد العمل، رأى مِلَّة امرأةً هنديَّةً مستديرة الوجه، رزينة المظهر، بدَت في لمحةٍ جانبيَّةٍ عبر نافذة مقهى البيكاديللي، لا تختلف عن الصُّورة الشَّابة لوالدته. ارتدَت ثوبًا أسودَ بياقةٍ عاليةٍ وبنطلونًا أسودَ طويلًا واختفَت عيناها نوعًا ما وراء شعرٍ طويلٍ أسودَ، وزينتها الوحيدة هي النَّماذج الحمراء مِنَ المِندي[2] عَلَى راحتي يديها. كانت تجلس وحدها.

1 - أغنية من عام 1982 سجلها المطرب الأمريكي مارفين جاي لتسجيلات كولومبيا. (المترجم).

2 - الحنة الهندية. (المترجم).

بنفس ضربات الكرات الطائشة الَّتِي يستخدمها عندما يدردش مع الفتيات الجميلات وعقليَّة الدِّيسكو، وبجرأة رجلٍ لا يتورَّع عن الحديث مع الغرباء؛ ذهب مِلَّة وبدأ في تلاوة الصفحة الخلفيَّة مِنَ *الحق في التعري* عليها، حرفيًّا إِلَى حدٍّ كبيرٍ، عَلَى أملٍ أَنَّها سوف تفهم. كُلَّ شيءٍ عَنْ رفقاء الرُّوح، عَنِ احترام النَّفس، عَنِ النِّساء اللَّائي يبحثن عن تحقيق «المتعة البصريَّة» فقط للرِّجال الَّذِين يحبونهنَّ. وأوضح: «إِنَّها حرِّيَّة الحجاب، أليس كذلك؟ انظري، كما هنا: *حرَّةٌ مِنْ قيود الرِّقابة الذُّكوريَّة ومعايير الجاذبيَّة، المرأة حرَّةٌ في أَنْ تكون مَنْ هي في الدَّاخل، آمنةٌ مِنْ تصويرها كرمزٍ جنسيٍّ ومشتهاةٍ كما لَوْ كانت لحمًا عَلَى الرَّفِّ ليتمَّ تناولها وتفحُّصها*. هذا هو ما نظنُّه،» قال، غير واثقٍ إِنْ كان ذلك ما يظنُّه. «ذلك رأينا،» قال، وهو غير متأكِّدٍ إِنْ كان هذا رأيه. «هَلْ ترَين، أنا مِنْ هذه المجموعة ــــ»

عبسَت السَّيِّدة بوجهها ووضعت سبَّابتها في نعومةٍ عَلَى شفته. «أوه، يا عزيزي،» غمغمَت في حزنٍ، معجبةً بجماله. «إذا أعطيتُك مالًا، هل تبتعد عنِّي؟»

وعند ذلك دخل صديقها، رجلٌ صينيٌّ طويل القامة بشكلٍ مدهشٍ في جاكيت مِنَ الجلد.

مشوَّشًا بشكلٍ عميقٍ، حسم مِلَّة أمره بأَنْ يمشي الأميال الثَّمانية حتَّى المنزل، بادئًا مِنْ سوهو، وهو يصرخ عَلَى العاهرات طويلات السِّيقان بالسَّراويل المثقوبة وأوشحة الرِّيش. ومع الوقت الَّذِي بلغ فيه شارع ماربل آرش بلغ حدًّا مِنَ الغضب جعله يتَّصل بكارينا كاين مِنْ كشك تليفونٍ مليءٍ بملصقات الأثداء والمؤخِّرات (عاهراتٌ، عاهراتٌ، عاهراتٌ) ثُمَّ أسقطها في استهانةٍ. لَمْ يعبأ بخصوص الفتيات الأخريات اللائي يضاجعهنَّ (ألكساندرا أندروسير، وبولي هوتون، وروزي ديو) لأَنَّهنَّ عَلَى التَّوالي فتياتٌ للمتعة العابرة. ولكنَّه اهتمَّ بكارينا كاين، لأَنَّها حبيبته، وحبيبته ينبغي أَنْ تكون حبيبته لا حبيبة أَيِّ أحدٍ آخر. محميَّةٌ مثل زوجة ليوتا في «*الأصدقاء الطَّيِّبون*»[1] أَوْ أخت باتشينو في *سكارفيس*[2]. تُعامل كأميرةٍ. وتتصرَّف كأميرةٍ. في برجٍ. مُستترةٌ.

1 ـ فيلم جريمة أمريكي من إنتاج عام 1990 ومن إخراج مارتن سكورسيزي ومن بطولة روبرت دي نيرو وراي ليوتا وجو بيشي. الفيلم هو اقتباس لرواية «رجل حكيم» للكاتب نيكولاس بيلاجي الذي كتب سيناريو الفيلم مع سكورسيزي. مبني على أحداث حقيقية يتبع الفيلم حياة أحد مساعدي عائلة لوكيزي الإجرامية هنري هيل وأصدقائه من الفترة ما بين 1955 إِلَى 1980. (المترجم).

2 ـ الوجه ذو الندبة (Scarface) فيلم أمريكي أُنتج في 1983، أخرجه براين دي بالما، وكتبه أوليفر ستون، وقام ببطولته آل باتشينو في دور توني مونتانا اللاجئ الكوبي ومهرب الكوكايين الأسطوري. الفيلم مبني بتصرف كبير على سيرة آل كابوني المتخيلة في الفيلم بنفس الاسم الذي صدر في 1932 من بطولة بول ميوني. ويعرض الفيلم كيف بدأ توني مونتانا آل باتشينو مسيرته من كوبي مهرب إِلَى الولايات المتحدة إِلَى أحد أكبر بائعي المخدرات في الولايات المتحدة. (المترجم).

يمشي الآن بشكلٍ أبطأ، ويجرُّ قدميه، ليس هناك أحدٌ لكَيْ يذهب إِلَىٰ منزله، وجد مَنْ يرصده في طريق إدجوار[1]، رجالاً مسنِّين بدناء يصرخون عليه («انظروا، إنَّه مِلَّة، مِلَّة الصَّغير رجل النِّساء! مِلَّة أمير القضبان الَّتِي تُذكي الفروج! أهو أكبر مِنْ أَنْ يحصل على سيجارةٍ، الآن؟») ومنحوه سيجارةً مع ابتسامةٍ حزينةٍ. يستهلكون الشِّيشة، والدَّجاج الحلال المقليّ، والأفسنتين[2] المستورد بطريقةٍ غير شرعيَّةٍ حول طاولاتٍ تهتزُّ في الهواء الطَّلق؛ وهم يشاهدون النِّساء المسرعات في بُرَدٍ[3] منسدلةٍ، مثل أشباحٍ سوداء مشغولةٍ تجوب الشَّوارع، في تسوُّقٍ متأخِّرٍ في اللَّيل، ويبحثن عن أزواجهنَّ الضَّالين. أحبَّ مِلَّة مشاهدتهنَّ يذهبن: الحديث المفعم بالحيويَّة، والألوان الرَّائعة للعيون الَّتِي تتواصل، والرَّشقات النَّاريَّة مِنْ ضحكاتٍ مِنْ شفاهٍ خفيَّة. تذكَّر شيئًا ما أخبره والده به قديمًا ذات مرَّةٍ عندما كانا يتحدَّثان إِلَى بعضهما بعضًا. أنتَ لَنْ تعرف معنى الاشتهاء، يا مِلَّة، أنتَ لَنْ تعرف معنى *الرَّغبة*، يا ابني الثَّاني، حتَّى تجلس في طريق إدجوار مع شيشةٍ، وتستخدم كُلَّ قوَّة التَّخيُّل الَّتِي لديك لكَيْ تتصوَّر ما يتكشَّف وراء البوصات الأربع مِنَ البشرة الَّتِي يُسفر عنها الحجاب، ما الَّذِي تحت تلك الأغطية السوداء الهائلة.

بعد حوالي ستِّ ساعاتٍ عرَّج مِلَّة عَلَى طاولة مطبخ آل تشالفين، في حالة سكرٍ شديدةٍ جدًّا، باكيًا وعنيفًا. دمَّر محطَّة الحريق في ليجو أوسكار وألقى ماكينة القهوة عبر الغرفة. ثُمَّ فعل ما انتظرته جويس طوال هذه الاثني عشر شهرًا. طلبَ نصيحتها.

بدا الأمر كما لَوْ أَنَّ الشُّهور انقضت عبر طاولة المطبخ تلك مِنْ وقتها، تهشُّ جويس النَّاس إِلَى خارج الغرفة، وتعمل عَلَى موادِّ قراءتها، وهي تفرك يديها؛ وتمتزج

1 ـ شارع سكني وتجاري رئيسي في لندن ويجتاز الجزء الغربي منها في منطقة بلدية ويستمنستر ومعروف قسمه الجنوبي بصبغته العربية والشرق أوسطية لكثرة تواجد المحلات العربية المتنوعة فيه، وأهمها أكثر من 15 مطعم لبناني، إضافة لمطاعم عراقية وإيرانية وتركية، وأخرى عربية للخدمة السريعة. وتعتبر الأحياء الَّتِي يمر إدجوارروود في وسطها من أكثر المناطق بكثافة تواجد العرب أوْ المتحدثين بالعربية، وهي ـ إجمالًا ـ أحياء راقية وأسعار العقارات فيها مرتفعة جدًّا، خصوصًا في حي ساكس جاردنز وهو الأقرب الشارع، كما يشتهر الشارع بوجود عدد كبير من مقاهي الشيشة أوْ النرجيلة فيه، لذلك يتمركز السواح الخليجيين وغيرهم من العرب في شققه الَّتِي يستاجرونها في الصيف بشكل خاص، أوْ في فناق المنطقة وما حولها، لذلك يلقبون ادجواررود باسم بيروت الصغيرة فهو شارع لا ينام تقريبًا. (المترجم).

2 ـ مشروب كحولي بنكهة الينسون مستمد من الأعشاب الطبية، بما فيها زهور وأوراق عشبة الأفسنتين. (المترجم).

3 ـ جمع «بردة». (المترجم).

رائحة المخلِّر مع البخار المتصاعد مِنْ أكواب شاي الفراولة الَّتِي لا تنتهي. لأَنَّ جويس أحبَّته فعلًا وأرادت مساعدته، غير أَنَّ نصيحتها جاءت طويلةً ومعقَّدَةً. لقَدْ قرأت عَنِ الموضوع. وبدا أَنَّ مِلَّة امتلأ باحتقار الذَّات وكراهية نوعه؛ أَنَّه رُبَّمَا له عقليَّة عبدٍ، أَوْ رُبَّمَا عقدة لونٍ تتمحور حول والدته (هو أكثر دكنةً منها بكثيرٍ)، أَوْ رغبةٍ فِي إفناء نفسه عن طريق التَّخفُّف فِي بحيرةٍ مِنَ الجينات البيضاء، أَوْ عدم القدرة عَلَى التَّوفيق بين ثقافتَين متعارضتَين... واتَّضح أَنَّ 60 بالمئة مِنَ الرِّجال الآسيويِّين فعلوا *هذا*... و90 بالمئة مِنَ المسلمين شعروا *بذلك*... وهي حقيقةٌ معروفةٌ أَنَّ العائلات الآسيويَّة فِي العادة... وبشكلٍ هورمونيٍّ فالأولاد أكثر عرضةً لـ... وأَنَّ المعالج الَّذِي وجدَته لطيفٌ جدًّا بالفعل، ثلاثة أَيَّامٍ فِي الأسبوع ولا تقلق بخصوص المال... ولا تقلق بخصوص جوشوا، إِنَّه مستاءٌ فقط... و، و، و.

فِي طريق العودة، عندما تذكر مِلَّة، مشوَّشًا مِنَ المخِّدر والحديث، فتاةً تدعى كارينا شيئًا ما أَوْ سواه، الَّتِي أحبَّها. ولديها حسٌّ كبيرٌ بالفكاهة، ما بدا كمعجزةٍ، وكانت تعتني به عندما تنخفض معنويَّاته، ويرعاها أيضًا، بطريقته الخاصَّة، ويحضر الزُّهور لها والمخدِّرات. بدَت ـ الآن ـ بعيدَة، مثل معارك كونكر[1] والطُّفولة. وذلك ما كان.

كانت هناك مشكلةٌ لدى آل جونز. فأَيري عَلَى وشك أَنْ تصبح أول بودين أَوْ جونز (مِنَ الممكن، رُبَّما، وكُلُّ الأشياء جاهزةٌ، بنعمةٍ مِنَ الرَّبِّ، والأصابع مشبوكةٌ) تلتحق بالجامعة. مستوياتها المتقدِّمة هي الكيمياء، والبيولوجيا، والدِّراسات الدِّينيَّة. أرادَت أَنْ تدرس طبَّ الأسنان (ذوي الياقات البيضاء! 20 جنيها +!)، الأمر الَّذِي ابتهج الجميع به، ولكنَّها أرادَت أيضًا أَنْ تأخذ «عامًا إجازةً» فِي شبه القارَّة[2]، وأفريقيا (الملاريا! الفقر! الدودة الشريطية!)، ممَّا قاد إِلَى ثلاثة شهورٍ مِنَ الحرب المفتوحة بينها وبين كلارا. أحد الجانبين يريد التَّمويل والإذن، والجانب الآخر يصرُّ عَلَى رفض أَيٍّ منهما. وكان الصِّراع طويلًا ومريرًا، وعاد جميع الوسطاء إِلَى بيوتهم بأيدٍ فارغةٍ (*لقَدِ اتَّخذَت قرارها، لا توجد حججٌ للجدال بخصوصها مع المرأة ـــ صمد*) وإِلَّا تورَّطوا فِي حرب الكلمات (*لماذا لا يمكن لها أَنْ تذهب إِلَى بنجلاديش ما دامت تريد ذلك؟ هَلْ تقولين إِنَّ بلدي ليس جيِّدًا بما يكفي لابنتك؟* ـــ ألسانا).

1 ـ لعبة أطفال تقليدية في بريطانيا وأيرلندا يتم لعبها باستخدام بذور شجر كستناء الحصان. وتكتمل اللعبة بلاعبين، كُلّ منهم معه ثمرة كونكر مربوطة بقطعة من خيط: ويأخذ كُلّ منهما دورًا ليضرب كونكر الآخر حتَّى تتكسر إحداها. (المترجم).

2 ـ الهند. (المترجم).

تجسَّدت حالة الجمود إِلَى حدِّ تقسيم الأرض وتخصيصها؛ طالبَت أَيِري بغرفة نومها والسَّندرة، وآرشي، كمُستنكفٍ ضميريٍّ[1]، طالب بغرفةٍ إضافيَّةٍ، وتليفزيون، ولاقط بثٍّ (فِي حدود الدَّولة) فقط، وأخذت كلارا كُلَّ ما تبقَّى، مع الحمَّام كأرضٍ مشتركةٍ. صُفقَت الأبواب بقوَّةٍ. وانتهى وقت الحديث.

فِي 25 أكتوبر 1991، الساعة 01:00، شرعت أَيِري فِي هجومٍ ليليٍّ متأخِّرٍ. تعرف مِنَ التَّجربة أَنَّ أُمَّهَا تكون أكثر ضعفًا وهي فِي الفراش؛ عندما يتأخَّر الوقت مِنَ اللِّيل تتحدَّث فِي نعومةٍ مثل طفلٍ، ويمنحها تعبها لثغةً واضحةً؛ تلك النُّقطة الَّتِي كنتِ لتأخذي عندها كُلَّ ما تلهَّفتِ عليه، عَلَى الأغلب: مصروف جيبٍ، درَّاجةً جديدةً، أَوْ تأخير موعد العودة. هذا تكنيكٌ مطروقٌ بشكلٍ كبيرٍ حتَّى أَنَّ أَيِري لَمْ تعتبره مناسبًا للموقف حتَّى الآن، فِي نزاعها الطَّويل الضَّاري مع أُمِّهَا. ولكنَّهَا لَمْ تملك أَيَّة أفكارٍ أفضل.

«أَيِري؟ ماذ ـــ ؟ فِي منتصف اللَّيل... عودي إِلَى فراشك....»

فتحَت أَيِري الباب أكثر، وهي تسمح للمزيد مِنْ ضوء الصَّالة بأَنْ يغمر غرفة النَّوم.

دفن آرشي رأسَه فِي وسادةٍ. «اللَّعنة، يا حبيبتي، إِنَّهَا الواحدة فِي الصَّباح! ينبغي لبعضٍ منَّا أَنْ يذهبوا إِلَى العمل غدًا.»

«أريد أَنْ أتحدَّث مع أُمِّي،» قالت أَيِري بحزمٍ، وهي تمشي حتَّى نهاية السَّرير. «إِنَّهَا لَنْ تتحدَّث معي خلال النهار، لذا فقَدِ انتهيتُ إِلَى هذا.»

«أَيِري، أرجوكِ... أنا مُنهكةٌ... أنا أحاول أَنْ أنال بعض النَّوم.»

«أنا لستُ فقط أريد عامًا إجازةً، أنا *أحتاج* إِلَى ذلك. إِنَّه ضروريٌّ ـ أنا صغيرةٌ، وأريد بعض الخبرات. لقَدْ عشتُ فِي هذه الضَّاحية اللَّعينة طوال حياتي. كُلُّ واحدٍ هو كما هو هنا. أريد أَنْ أذهب وأرى شعوب العالم... هذا ما يقوم به جوشوا، ووالداه يدعمانه!»

«حسنًا، نحن لا نستطيع أَنْ نتحمَّل ذٰلِك بحقِّ اللَّعنة،» تذمر آرشي، وهو يبتعد عن وسادة ريش الإوَزِّ. «لَمْ نحصل جميعنا عَلَى وظائف راقيةٍ فِي العلوم، الآن أليس كذلك؟»

1 ـ يعرّف المستنكف الضميري بأنه الشخص الذي يدعي الحق في رفض أداء الخدمة العسكرية تحت زعم حرية الفكر أو حرية الضمير أو الدين. وفي بعض البلدان يتم تعيين المستنكفين ضميريًا في خدمات مدنية بديلة عن التجنيد أو الخدمة العسكرية. (المترجم).

«أنا لا *أعبأ* بالمال - سوف أحصل عَلَى وظيفةٍ، بطريقةٍ ما أَوْ شيءٍ ما، ولكنَّنِي أريد موافقتكما حقًّا! *أنتما* - الاثنين - لا أريد أَنْ أقضي ستَّة شهورٍ بعيدًا وأنا أفكِّر في كُلِّ يومٍ أَنَّكما غاضبان.»

«حسنًا، ليس الأمر لي، يا حبيبتي، أليس كذلك؟ هو لأُمِّك، حقًّا، أنا....»

«نعم، يا أبي. شكرًا عَلَى توضيح ما هو لعينٌ واضحٌ.»

«أوه، حسنًا،» قال آرشي متأثِّرًا، وهو يستدير نحو الحائط. «سأحتفظ بتعليقاتي لنفسي، إذنْ....»

«أوه، يا *أبي*، أنا لَمْ أقصد... يا أُمِّي؟ هَلْ يمكنك لَوْ سمحتِ أَنْ تجلسي وتتحدَّثي بشكلٍ صحيحٍ؟ أنا أحاول الحديث إليك؟ يبدو الأمر كما لَوْ أَنَّنِي أتحدَّث إِلَى نفسي هنا؟» قالت أَيرِي بنبرةٍ سخيفةٍ، فهذا هو العام هو الَّذِي علَّمَت فيه مسلسلات أوبرا الصَّابون الأستراليَّة والنيوزيلنديَّة الأطفال الإنجليز أَنْ يعبِّروا عَنْ كُلِّ شيءٍ في شكل سؤالٍ. «انظري، أنا أريد موافقتكِ، نعم؟»

وحتَّى في الظَّلام، تمكَّنَت أَيرِي مِنْ رؤية كلارا تتجهَّم. «موافَقةً عَلَى *ماذا*؟ عَلَى أَنْ تذهبي وتُشاركي وتهمِزي وتلمِزي الفقراء السُّود؟ يا د. ليفينجستون[1]، كما أفترض؟ هَلْ هذا ما تعلمتِه مِنْ آل تشالفين؟ لأَنَّه إذا كان ذلك ما تريدين، فيمكنك أَنْ تفعلي ذلك هُنا. اجلسي فقط وانظري إِلَيَّ لستَّة شهورٍ!»

«لا علاقة للأمر بذلك! أنا أريد أَنْ أعرف كيف يعيش النَّاس الآخرون فقط!»

«وتقتلين نفسك خلال ذلك! لماذا لا تذهبي إِلَى البيت المقابل، هناك ناسٌ آخرون فيه. اذهبي واعرفي كيف يعيشون!»

1 - ديفيد ليفينجستون (19 مارس 1813 - 1 مايو 1873) كان مستكشفًا إسكتلنديًّا لوسط أفريقيا. كان أول أوروبي يرى شلالات فيكتوريا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم. ولد ديفيد ليفينجستون في 19 مارس 1813، في مدينة بلانتاير بإسكتلندا. يعرف ليڤينغستون بلقائه المشهور مع هنري مورتن ستانلي. كان من أشهر المبشرين المسيحيين في أفريقيا. قرر أولًا أن يكون مبشرًا طبيًا في الصين، ولكن حروب الأفيون جعلت الصين مكانًا سيئًا بالنسبة إلى الغربيين ذوي النيات الحسنة. ذهب ليفينجستون إِلَى أفريقيا بدلًا من ذلك، وبعد أربعة أشهر من السفر، وصل إِلَى كيب تاون، الَّتِي تقع - الآن - في جنوب أفريقيا، وذلك عام 1841. عامل ليفينجستون الأفريقيين باحترام. وتعلم لغاتهم وعاداتهم ثم استكشف جزءًا كبيرًا من القارة. اعتقد ليفينجستون بأن أفضل طريقة لمشاركة الأفريقيين إيمانه هي أن يعلمهم عن العالم الخارجي. دعم ليفينجستون عمله التبشيري عن طريق تأليف الكتب حول سفراته. (المترجم).

أمسكت أَيرِي بمقبض السَّرير في غضبٍ، وسارت إِلَى جانب كلارا مِنَ السَّرير. «لماذا لا يمكنكِ أَنْ تجلسي معتدلةً فقطـوتتحدثي إِلَيَّ بشكلٍ صحيحٍ وتتخلَّصي مِنْ صوتِ الفتاة السَّخيف هذ ـــ »

ركلَت أَيرِي كوبًا زجاجيًّا في الظَّلام، وشهقَت عندما تسرَّب الماء البارد بين أصابع قدمِها إِلَى السَّجَّادة. ثُمَّ، بينما تذهب آخر نقطة ماءٍ، تملَّك أَيرِي شعورٌ غريبٌ ومرعبٌ بأَنَّها تعرَّضَت للعضّ.

«آه!»

«أوه، بحقِّ الله،» قال آرشي، وهو يبلغ المصباح الجانبيَّ ويضيئه. «الآن ماذا؟»

نظرَت أَيرِي إِلَى الأسفل حيث الألم. هذه ضربةٌ مُنخفضةٌ جدًّا، في أَيِّ نزالٍ. كانت المجموعة الأماميَّة مِنْ طقم أسنانٍ، بدون فمٍ معها، تضغط بشدَّةٍ عَلَى قدمها اليمنى.

«اللَّعنة! ما هذا بحقِّ الجحيم؟»

ولكنَّ السُّؤال لَمْ يكنْ ضروريًّا؛ حتَّى عندما تشكَّلت الكلمات في فمها، اكتشفت أَيرِي الأمر. صوت منتصف اللَّيل. ووضوح النَّهار وبياضه المثاليَّين.

مدَّت كلارا جسمها نحو الأرض ونزعت أسنانها عن قدم أَيرِي، ومع تأخُّر الأمر جدًّا عَلَى التَّمويه الآن، وضعَتها مباشرةً عَلَى الطَّاولة الجانبيَّة.

«راضيةٌ؟» سألَت كلارا في ضجرٍ. (ليس الأمر أَنَّها تعمَّدَت أَلَّا تخبرها. لَمْ يكُن هناك ما بدا أَنَّه وقتٌ مناسبٌ فقط).

غير أَنَّ أَيرِي كانت في السَّادسة عشرة، وكُلُّ شيءٍ يبدو مقصودًا في تلك السِّنّ. بالنِّسبة إليها، هذا بندٌ جديدٌ، حتَّى الآن، في قائمةٍ طويلة للنِّفاق والأكاذيب الأبويَّة، هذا مثالٌ آخر عَلَى موهبة آل جونز في التَّواريخ السِّرِّيَّة، حكاياتٌ لَمْ تسمعها قطُّ، وتاريخٌ لَمْ تكتشفه كاملًا بالمرَّة، وشائعاتٌ لَمْ تُحلُّ خيوطها أبدًا، الأمر الَّذِي ليكون جيِّدًا لَوْ لَمْ يكن كُلُّ يومٍ مكدَّسًا بالقرائن، والاقتراحات، الشَّظايا في ساق آرشي... صورةٌ للجدِّ الأبيض الغريب دورهام... اسم «أوفيليا» وكلمة «مستشفى المجانين»... خوذة ركوب الدَّرَّاجات وقطعةٌ مِنْ نسيج قديم... رائحة الطَّعام المقلي مِنْ أوكونيل... الذَّاكرة الباهتة لرحلة سيَّارةٍ ليليَّةٍ متأخِّرةٍ، والتَّلويح لصبيٍّ في طائرةٍ... رسائل بطوابع بريدٍ سويديَّةٍ، هورست أيبلجوفتس، في حال عدم استلامها تُعاد للمُرسل...

أوه، يا لها مِنْ شبكةٍ معقَّدةٍ تلك الَّتِي ننسجها. مِلَّة عَلَى حقٍّ: هؤلاء الآباء هم أناسٌ معطوبون، فاقدو أيادٍ، وفاقدو أسنانٍ. هؤلاء الآباء يمتلئون بالمعلومات الَّتِي أردتِ معرفتها ولكنَّكِ خفتِ جدًّا مِنْ سماعها. إلَّا أنَّها لَمْ تعد تريد ذلك بعد الآن، لقَدْ سئمَت ذلك كُلَّه. تعبَت مِنْ عدم الحصول عَلَى الحقيقة كاملةً. وعادَت إلَى المرسل.

«حسنًا، لا تشعري كثيرا بالصَّدمة، يا حبيبتي،» قال آرشي في ودٍّ. «إنَّها فقط بضع أسنانٍ داميةٍ. وأنتِ تعلمين الآن إذنْ. ليست نهاية العالم.»

ولكنَّها كذلك، بطريقةٍ ما. لقَدْ بلَغَت كفايتها. مشَت عائدةً إلَى غرفتها، وكدَّست أعمالها المدرسيَّة وملابسها الأساسيَّة في حقيبة ظهرٍ كبيرةٍ، ووضعت معطفًا ثقيلًا عَلَى ثياب نومها. فكَّرَت في آل تشالفين لنصف ثانيةٍ، ولكنَّها علمت بالفعل أنَّه لا توجد إجاباتٌ هناك، المزيد فقط مِنْ أماكن الهروب.

إلَى جانب ذلك، فهناك غرفةٌ إضافيَّةٌ واحدةٌ وأخذها مِلَّة. عرفَت أيري إلَى أين ينبغي أَنْ تذهب، إلَى أعماق الأمر، حيث رقم 17 وحده يمكن له أَنْ يأخذها في هذا الوقت مِنَ اللَّيل، جالسةً في الطَّابق العلويِّ، والمقاعد ملطخةٌ بآثار القَيء، وهو يهدر عبر سبع.وأربعين محطَّة أتوبيس قبل أَنْ تصل إلَى وجهتها. ولكنَّها وصلت إلَى هناك في النِّهاية.

«يا إله المسيح،» غمغت هورتنس، وبَكَرَات الحديد مُثبَّتةٌ في شعرها بقوَّةٍ، بعينَين غائمتَين عَلَى عتبة الباب. «أَيري أمبروزيا جونز، هَلْ هذه أنتِ؟»

الفصل الخامس عشر
التشالفينية في مقابل البودينية

هي أَيرِي جونز فعلًا. أكبر مِنْ آخر لقاءٍ لهما بستِّ سنواتٍ. أطول، وأعرض، بثديَين وبدون شَعرٍ، والخفَّان يظهران - بالكاد - مِنْ تحت معطفٍ طويلٍ واقٍ مِنَ المطر. وتلك هورتنس بودين. أكبر بستِّ سنواتٍ، وأقصر، وأعرض، بثديَين عَلَى بطنها، وبدون شَعرٍ (عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّها أخذَت خطوةً غريبةً بوضع الشَّعر المستعار في بكراتٍ) والخفَّان يظهران - بالكاد - مِنْ تحت روبٍ منزليٍّ طويلٍ مزخرفٍ بألوان الأطفال الورديَّة. ولكنَّ الاختلاف الحقيقيَّ هو أنَّ هورتنس في الرَّابعة والثَّمانين. لَمْ تكن امرأةً عجوزًا ضئيلةً بأي معنًى؛ بَلِ امرأةً قويَّةً ممتلئةً، ودهونها تضغط عَلَى جلدها، وبشرتها تعاني مِنَ التَّجاعيد. ومع ذلك، فإنَّ أربعةً وثمانين ليست سبعةً وسبعين أَوْ ثلاثةً وستِّين: في الرَّابعة والثَّمانين لا شيء سوى الموت أمامك، مُملًّا في إصراره. كان هناك عَلَى وجهها كما لَمْ تر أَيرِي أبدًا. الانتظار والخوف والارتياح المبارك.

وعَلَى الرَّغم مِنْ وجود اختلافاتٍ، شعرَت أَيرِي بالصدمة مِنَ التَّطابق، وهي تنزل عَلَى السَّلالم إِلَى شقة هورتنس في القبو. مرَّت سنواتٌ بعيدةٌ، منذ كانت زائرةً منتظمةً إِلَى شقَّة جدَّتها: في زياراتٍ خفيَّةٍ مع آرشي عندما كانت أُمُّها في الكُلِّيَّة، وغادرت دائمًا بشيءٍ غير معتادٍ، رأس سمكةٍ مملَّحةٍ، أَوْ فطائر الفلفل الحارِّ، أَوْ كلماتٍ مِنْ مَزمُورٍ عشوائيٍّ ولكنْ متكرِّرٍ.

ثُمَّ في جنازة داركوس في 1985، باحت أَيرِي عفوًا بخصوص تلك الدَّعوات الاجتماعيَّة، ووضعت كلارا حدًّا لها بالكامل. لا تزال الاثنتان تحادثان بعضهما بعضًا عبر الهاتف، في المناسبات. وإِلَى يومنا هذا ظلَّت أَيرِي تستلم رسائل قصيرةً عَلَى ورق دفتر ملاحظاتٍ مع نسخةٍ مِنْ برج *المراقبة* منزلقة بداخلها. تنظر أَيرِي أحيانًا إِلَى وجه أمها وترى جدَّتها: عظمتَي الوجنتَين الشَّامختَين هاتَين، وهاتَين العينَين الماكرتَين. ولكنَّهما لَمْ تلتقيا وجهًا لوجهٍ طوال ستَّة أعوامٍ.

وفيما يتعلّق بالمنزل، بدا أنّه مرّت ستُّ ثوانٍ. ما زال معتمًا، وما زال رطبًا، وما زال تحت الأرض. ما زال مزخرفًا بمئاتِ التّماثيل العلمانيّة («سندريللا في طريقها إلَى الحفل الرّاقص»، «والسّيّدة تيدلي توم ترشد السّناجب الصّغيرة إلَى طريق النُّزهة»)، وكُلُّها متوازنةٌ عَلَى مفارشها الخاصّة المنفصلة، وتضحك بمرحٍ فيما بينها، مستمتعةً بأنَّ شخصًا ما سوف يدفع مئةً وخمسين جنيهًا في خمسة عشر قِسطًا مِنْ أجل قطعٍ رديئةٍ كهذه مِنَ الصِّينِي والزُّجاج. تعلّق نسيجٌ مِنْ ثلاث قطعٍ، تتذكّر أَيرِي رتقها، عَلَى الحائط فوق المدفأة، يصوِّر، في القطاع الأوّل منه، الممسوحين في الحكم مع المسيح في السّماء. الممسوحون شقرٌ جميعهم بعيونٍ زرقاء وبدَوا في أقصى درجات السَّكينة الَّتِي سمح صوف هورتنس الرَّخيص بها، ينظرون نحو الأسفل إلَى الحشد العظيم - الَّذِين بَدَوا سعداء، ولكنْ ليس في سعادة الممسوحين - يرقصون فرحًا في الجنَّة الأبديَّة عَلَى الأرض. وينظر الحشد العظيم بدوره في شفقةٍ إلَى الوثنيّين (المجموعة الأكبر حتَّى الآن)، موتى في قبورهم ومكدَّسين فوق بعضهم بعضًا مثل السَّردين.

الشَّيء الوحيد المفتقد هو داركوس (الَّذِي تذكرته أَيرِي بشكلٍ خافتٍ كخليطٍ مِنَ الرَّائحة والملمس، النَّفتالين والصُّوف الخام)؛ ما زال كرسيُّه الضَّخم الفارغ نتنًا، وما زال تليفزيونه دائرًا، هناك.

«أَيرِي، انظري إلَى نفسك! أنتِ لا ترتدين سترة مِنَ الصُّوف حتَّى، يا بنت — أَيَّتُها الطِّفلة لا بدَّ أنَّكِ تتجمَّدين! أنتِ ترتجفين مثل فولٍ مكسيكيّ. دعيني أجسُّ حرارتك. حُمَّى! تحضرين الحُمَّى إلَى بيتي؟»

مِنَ المهمّ، في حضور هورتنس، ألَّا تعترف أبدًا بالمرض. فالعلاج دائمًا، كما في معظم الأُسر الجامايكيَّة، أكثر ألمًا مِنَ الأعراض.

«إنَّني بخيرٍ. لا يوجد شيءٌ خطأٌ في —»

«أوه، حقًّا؟» وضعَت هورتنس يد أَيرِي عَلَى جبهتها. «إنَّهَا حُمَّى كما يمكن تأكيد أنَّ الحُمَّى حُمَّى. هَلْ تشعرين بها؟»

شعرَت أَيرِي بها. ساخنةٌ مثل الجحيم.

«تعالي هنا.» انتزعت هورتنس بساطًا مِنْ عَلَى مقعد داركوس ولفَّته حول كتفَي أَيرِي. «الآن تعالي إلَى المطبخ وتوقَّفي واهدئي. تتجوَّلين في اللَّيل هكذا، وترتدين تفاهاتٍ

مُهلهلةٍ! سوف تتناولين مشروبًا ساخنًا مِنَ السّيراسي[1] ثُمَّ تذهبين إِلَى الفراش بأسرع ممَّا فعلتِ في حياتك.»

تقبَّلت أيرِي الدِّثار النَّتن وتبعت هورتنس إِلَى المطبخ الصَّغير، حيث جلستا معًا.

«دعيني أتفحَّصك.»

انحنَت هورتنس تجاه الفرن بيدين عَلَى الوركين. «تبدين مثل السَّيِّد موتٍ، حبيبك الجديد. كيف وصلتِ إِلَى هنا؟»

مرَّةً أخرى، عَلَى المرء أَنْ يكون حذرًا جدًّا في الإجابة. فاحتقار هورتنس لمواصلات لندن كان مستراحًا عظيمًا لها في شيخوختها. يمكنها أَنْ تأخذ كلمةً واحدةً مثل قطارٍ وتصنع منها لحنًا (*الخطّ الشَّماليّ*)، الَّذِي يتوسَّع إِلَى أغنيةٍ (*مترو الأنفاق*) ويُزهر في موضوعٍ رئيسٍ (*المترو العلويّ*) ثُمَّ ينمو باضطرادٍ إِلَى أوبريتٍ (*الشُّرور وانعدام المساواة في السِّكك الحديديَّة البريطانيَّة*).

«هه... الحافلة. رقم سبعة عشرٍ. كان الجو باردًا في الطَّابق العلويّ. رُبَّما أُصبتُ ببردٍ.»

«لا أظنُّ أَنَّ هناك أَيَّ رُبَّمَا ـــ تٍ بهذا الخصوص، أَيَّتُها السَّيِّدة الشَّابَّة. وأنا واثقةٌ أَنَّنِي لا أعرف لماذا تأتين بالحافلة، عندما تأخذ ثلاث ساعاتٍ لكَيْ تصل وتتركك تنتظرين في البرد ثُمَّ إِنَّك عندما تصعدين إِلَيها تكون النَّوافذ مفتوحةً عَلَى أَيِّ حالٍ وتتجمَّدين حتَّى مشارف الموت.»

سكبَت هورتنس سائلًا عديم اللَّون مِنْ إناءٍ بلاستيكيٍّ صغيرٍ إِلَى يدها. «تعالي هنا.»

«لماذا؟» تساءلت أيرِي مُستريبةً على الفور. «ما ذلك؟»

«لا شيء، تعالي هنا. اخلعي نظَّارتك.»

اقتربَت هورتنس بيدٍ عَلَى هيئة كوبٍ.

«ليس في عيني! لا توجد مشكلةٌ في عيني!»

«توقفي عن الشِّكاية. لَنْ أضع شيئًا في عينك.»

1 ـ السِّيرامي: نبات عشبي حولي زاحف يعرف ـ علميًا ـ باسم momordica charantia ويعرف ـ شعبيًا ـ بعدة أسماء مثل: الكمثرى البلسمية، والخيار الكوري، أوْ القرع المر. ويعد من النباتات المشهورة الَّتِي ثماره تشبه الكوسا أوْ الخيار، ولكنه يبرز على سطحها الخارجي نتوءات كثيرة وتتميز بمذاقها المر. ويستخدم في جامايكا وجزر البهاما في صنع نوع من الشاي العشبي المعروف بفوائده الصحية الهائلة. (المترجم).

«اخبريني فقط ما هو،» ناشدتها أيري، وهي تحاول أنْ تفهم أيَّ فتحةٍ هي المقصودة وتصرخ عندما بلغت اليد المقعَّرة وجهها، ووزَّعت السَّائل مِنَ الجبهة وحتَّى الذِّقن.

«آآآخ! إنَّه يحرق!»

«خليج الرَّمّ[1]،» قالت هورتنس كأمرٍ واقعٍ. «يقضي عَلَى الحُمَّى. لا، لا تغسليه. اتركيه يفعل فعله فقط.»

صرَّت أَيرِي عَلَى أسنانها بينما كان عذاب انغراس ألف دبُّوسٍ في لحمها يذوي إِلَى خمسمائة، ثم إِلَى خمسٍ وعشرين، حتَّى أصبح في النِّهاية مجرَّد دفقٍ دافئٍ مِنْ ذلك النَّوع الَّذِي تحدثه صفعةٌ.

«حسنًا!» قالت هورتنس، وقَدِ استيقظَت ـ الآن ـ تمامًا، وهي تشعر بالظَّفر نوعًا ما. «ابتعدتِ أخيرًا عَنْ تلك المرأة الكافرة، كما أرى. وأُصبتِ بالأنفلونزا وأنتِ تفعلين ذلك! حسنًا... هناك هؤلاء الَّذِين لَنْ يلوموكِ، أبدًا، عَلَى الإطلاق ... لا أحد يعرف كيف هي تلك المرأة أكثر مِنِّي. ليست في المنزل أبدًا، تدرس مذاهبها واختلافاتها في الجامعة، وتترك زوجها وطفلتها في البيت، جائعَين وناحلَين. يا إلهي، أنتِ هاربةٌ بالطَّبع! حسنًا....» تنهَّدَت ووضعَت غلَّاية نحاسٍ عَلَى الموقد. «*إنَّه مكتوبٌ، وَتَهْرُبُونَ فِي جِوَاءِ جِبَالِي، لأَنَّ جِوَاءَ الْجِبَالِ يَصِلُ إِلَى آصَلَ. وَتَهْرُبُونَ كَمَا هَرَبْتُمْ مِنَ الزَّلْزَلَةِ فِي أَيَّامِ عُزِّيَّا مَلِكِ يَهُوذَا. وَيَأْتِي الرَّبُّ إِلهِي وَجَمِيعُ الْقِدِّيسِينَ مَعَكَ*. زكريا 14:5. في النِّهاية فكُلُّ الصَّالحين سيهربون مِنَ الشَّيطان. أوه، يا أَيرِي أمبروزيا... عرفتُ أَنَّكِ تأتين في النِّهاية. كُلُّ أطفال الرَّبِّ يعودون في النِّهاية.»

«يا جدَّتي، أنا لَمْ آتِ لكَيْ أبحث عَنِ الرَّبِّ. أنا أريد العمل فقط عَلَى دراسةٍ هادئةٍ هنا وأستجمع أفكاري. أحتاج لأنْ أبقى لشهورٍ قليلةٍ ـ عَلَى الأقلِّ حتَّى العام الجديد. أوه... أوغ... أشعر ببعض التَّشوُّش. هَلْ يمكنني الحصول عَلَى برتقالةٍ؟»

«نعم، سوف يعودون إِلَى الرَّبِّ يسوع في النِّهاية،» واصلَت هورتنس مع نفسها، وهي تضع الجذور المُرَّة للسِّيراسي في الغلَّاية. «ليست برتقالَة حقيقيَّةً، يا حبيبتي. كُلُّ الفواكه بلاستيكيَّةٌ. والزُّهور بلاستيكيَّةٌ أيضًا. لا أعتقد أَنَّ الرَّبَّ يريدني أَنْ أنفق أموال التَّدبير المنزليِّ القليلة الَّتِي أملكها عَلَى السِّلع القابلة للتَّلف. تناولي بعض التَّمر.»

1 ـ العلامة التجارية لنوع من الكولونيا ومستحضرات ما بعد الحلاقة. يصنع من شراب الرَّم وزهور وأوراق شجرة القرنفل في خليج الهند الغربية. (المترجم).

عبسَت أيرِي أمام الثِّمار المجلَّدة الَّتِي استقرَّت أمامها.

«تركتِ آرشيبالد إذنْ مع تلك المرأة... المسكين. *أُحبُّ* آرشيبالد دائمًا،» قالت هورتنس في حزنٍ، وهي تفرك الوسخ البُنِّيَّ مِنْ فنجان شايٍ بإصبعَين مغموسَين في الصَّابون. «لَمْ يكنِ اعتراضي عليه في ذاته *بالمرَّة*. لقَدْ كان دائمًا رفيقًا مِنْ نوعٍ هادئٍ وحسَّاسٍ. طوبى لرعاة السَّلام. لقَدْ بدا لي راعيًا للسَّلام دائمًا. ولكنَّ الأمر يتعلَّق بالمبدأ أكثر، أتَعلَمِين؟ السُّود والبيض لا يَصلِون إلَى خيرٍ قطُّ. الرَّبُّ يسوع لَمْ يشأ لنا أَنْ نخلط الأمور. لهذا السَّبب صنع الكثير مِنَ الضَّجَّة بخصوص أبناء الرِّجال الَّذِين يبنون برج بابل. يريد مِنْ كُلِّ شخص أَنْ يحفظ الأشياء منفصلةً. *الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ*. سِفر التَّكوين 11:9. عندما تخلطين الأمور فلا يمكن أَنْ يأتي شيءٌ جيِّدٌ. لَمْ يكن ذلك *مقرَّرًا*. باستثنائك،» أضافت كما لَوْ أنَّها أعادَت التَّفكير في الأمر. «أنِت تقريبًا الشَّيء الوحيد الجيِّد الَّذِي نجم عن ذلك... يا ولد، في بعض الأحيان يبدو الأمر كما لَوْ أنَّكِ تنظرين في مرآةٍ مِنْ زجاجٍ،» قالت، وهي ترفع ذقن أَيرِي بأصابعها المجعَّدة. «تُشبهينني في الهيئة، ضخمةٌ، أنتِ تعرفين! الورك والفخذ والمؤخِّرة والثَّديَين. كانت أُمِّي كذلك. حتَّى أنَّ اسمك جاء عَلَى اسم أُمِّي.»

«أَيرِي؟» سألَت أَيرِي وهي تحاول جاهدةً أَنْ تنصت، ولكنَّها تشعر بضباب الحُمَّى الدُّخانيِّ الرَّطب يسحبها بعيدًا.

«لا، يا عزيزتي، *أمبروزيا*. الجوهر الَّذِي يجعلك تعيشين إلَى الأبد. والآن،» قالت، وهي تصفِّق بيديها معًا، وتلتقط سؤال أَيرِي الثَّاني فيما بينهما، «ستنامين في غرفة المعيشة. سأحضر بطانيَّةً ووسائد وبعدها نتحدَّث في الصَّباح. سوف أستيقظ في السَّادسة؛ لأنَّ لديَّ أعمالًا مع الشُّهود، والمعنى ألَّا تظنِّي أنَّكِ ستظلِّين نائمةً إلَى ما بعد الثَّامنة. يا بنت، هَلْ تسمعينَني؟»

«ممم. ولكنْ ماذا عن غرفة أُمِّي القديمة؟ ألَا يمكنني فقط أَنْ أنام هناك؟»

حملَت هورتنس نصف وزن أَيرِي عَلَى كتفها وقادتها إلَى غرفة المعيشة. «لا، لا يمكنك. هناك ظرفٌ ما،» قالت هورتنس بغموضٍ. «يمكن لذلك أَنْ ينتظر حتَّى طلوع الشَّمس كَيْ نوضِّحه. *فَلاَ تَخَافُوهُمْ. لأَنْ لَيْسَ مَكْتُومٌ لَنْ يُسْتَعْلَنَ*،» رتَّلَت في صمتٍ، وهي تستدير للذِّهاب. «*وَلاَ خَفِيٌّ لَنْ يُعْرَفَ*. ذلك مَتَّى، 10:26.»

***

الصَّباح هو الوقت الوحيد في الشِّتاء الَّذِي يستحقُّ أَنْ يُقضى في شقَّة البدرون تلك. فيما بين 5:00 و6:00 صباحًا، والشَّمس ما زالت منخفضةً، انطلق الضَّوء عبر النَّافذة الأماميَّة، وغمر غرفة المعيشة باللَّون الأصفر، ولوّن مُخصَّص الحديقة[1] النَّحيل الطَّويل (7 أقدام×30 قدمًا)، ومنح الطَّماطم قشرةً صحيَّةً. يمكنك فعلًا، في 6:00 صباحًا، أَنْ تقنع نفسك بأَنَّك في الطَّابق السُّفليِّ لأحد أكواخ المستعمرات، أَوْ عَلَى الأقلِّ في مستوى الشَّارع في توركواي[2]، أكثر منكَ تحت الأرض في لامبيث. وهجٌ مِنْ ذلك النَّوع الَّذِي لا تلاحظ معه تحويلات السِّكك الحديديَّة حيث ينتهي شريط الخضرة، ولا الأقدام اليوميَّة المتزاحمة الَّتِي تعبر قبالة النَّافذة، وهي تركلُ الغبار عبر القضبان عَلَى الزُّجاج. كُلُّ شيءٍ عبارةٌ عَنْ ضوءٍ أبيضَ وظلالٍ رشيقةٍ في السَّادسة صباحًا. مستمتعةً بفنجان شايٍ عَلَى طاولة المطبخ، وهي تحدِّق في العشب، رأَت أيري كروم العنب هناك في الخارج، رأَت مشاهد مِنْ فلورنسا بدلًا مِنْ أسطح لامبيث العشوائيَّة المتباينة، رأَت إيطاليًّا ذا بَنيةٍ رياضيَّةٍ في الظِّلال ينقف ثمار التُّوت الكاملة ويسحقها تحت قدميه. ثُمَّ اختفى السَّراب، النَّاجم عَنِ الشَّمس كما ظهر، وابتلعت المشهد بالكامل سحابةٌ مُفترسةٌ. تَركَت بعض المساكن المتهالكة مِنَ الطِّراز الإدواردي[3] فقط. وتحويلات سككٍ حديديَّةٍ أطلق عليها اسم طفلٍ مُهمِلٍ. وشريطًا طويلًا مِنَ المخصَّص الزِّراعيِّ يصعب زراعة أَيِّ شيءٍ فيه. ورجلًا مقوَّس السَّاقين شاحبهما، أحمر الشَّعر بشكلٍ فظيعٍ، يرتدي بوت ويلنجتون، ويجرُّ قدميه بعيدًا بين الأوراق الجافَّة الباردة، وهو يحاول أَنْ يزيل بقايا الطَّماطم المدهوسة عن كعبيه.

«إِنَّه السَّيِّد توبس،» قالت هورتنس، وهي تسرع عبر المطبخ في ثوبٍ كستنائيِّ داكنٍ، لَمْ تشبك عرواته بعد، وقبعةٌ في يدها مع زهورٍ بلاستيكيَّةٍ معوجَّةٍ. «لقَدْ كان عونًا كبيرًا لي منذ وفاة داركوس. إِنَّه يخفِّف انفعالي ويهدِّئ عقلي.»

---

1 ـ قطعة أرض يتم تخصيصها للأفراد لأغراض التشجير والبستنة غير التجارية، ويقومون فيها بزراعة النباتات العطرية والخضراوات. (المترجم).

2 ـ بلدة تجاور البحر في ديفون، إنجلترا. يعتمد أهلها على الصيد والزراعة، والمنتجعات الاستجمامية بجوار البحر. (المترجم).

3 ـ هو طراز معماري يشير إلى عمارة الباروك الجديدة في كثير من المباني العامة في الإمبراطورية البريطانية خلال الفترة الإدواردية (1901 ـ 1910)، استلهمت السمات المميزة لأسلوب الباروك الإدواردي من مصدرين رئيسيين: العمارة الفرنسية خلال القرن الثامن عشر، والمباني التي قام بتصميمها السير كريستوفر رن في إنجلترا خلال القرن السابع عشر. (المترجم).

لوَّحت له واعتدل ولوَّح في المقابل. شاهدَته أَيرِي يلتقط حقيبتَين مِنَ البلاستيك مملوءتَين بالطَّماطم ويمشي مشية الحمامة الغريبة عبر الحديقة في اتِّجاه باب المطبخ الخلفيّ.

«وهو الرَّجل الوحيد الَّذِي جعل شيئًا واحدًا ينمو هناك. يا له مِنْ محصول طماطم كما لَمْ تري مِنْ قبل قطُّ! يا أَيرِي أمبروزيا، توقَّفي عَنِ التَّحديق وتعالي وساعديني في زرِّ هذا الثَّوب. بسرعةٍ، قبل أَنْ تسقط عيناك المحملقتان.»

«هَلْ يعيش هنا؟» همست أَيرِي في ذهولٍ، وهي تكافح لكَيْ تضمَّ جانبي ثوب هورتنس حول خصرها الضَّخم. «أقصد، معك؟»

«ليس بالمعنى الَّذِي *تقصدينه*،» نَشقَت هورتنس. «إنَّه عونٌ كبيرٌ لي في شيخوختي فقط. لقَدْ كان معي هذه السَّنوات السِّتَّ، ليباركه الرَّبُّ ويحفظ روحه. الآن ناوليني هذا الدَّبُّوس.»

ناولَتها أَيرِي دبُّوس القُبَّعة الطَّويل الَّذِي استقرَّ عَلَى حافَّة طبق الزُّبد. ضبطَت هورتنس القرنفل البلاستيكيَّ عَلَى قُبَّعتها وغرسَت الدَّبُّوس فيه بقوَّةٍ، ثُمَّ مرَّرت الدَّبُّوس في اللِّبَّاد مِنْ جديدٍ، تاركةً بوصتَين مِنَ الفضَّة الظَّاهرة تتدلَّيان مِنَ القُبَّعة مثل الخَوذة الألمانيَّة.

«حسنًا، لا تَظهري كمصدومةٍ جدًّا. إنَّه ترتيبٌ مُرضٍ جدًّا. تحتاج المرأة إِلَى رجلٍ بالقرب مِنَ المنزل، وإلَّا فإنَّ الأشياء والأشياء تبدأ في الفوضى. السَّيِّد توبس وأنا، نحن مقاتلان قديمان، نخوض معركة الرَّبِّ. غيَّر عقيدته منذ زمنٍ بعيدٍ إِلَى كنسية الشُّهود، وكان صعوده سريعًا ومؤكَّدًا. لقَدِ انتظرتُ خمسين عامًا لكَيْ أقوم بشيءٍ آخر في قاعة المملكة غير التَّنظيف،» قالت هورتنس في حزنٍ، «ولكنَّهم لا يريدون أَنْ تتدخَّل النِّساء في أعمال الكنيسة الحقيقيَّة. ولكنَّ السَّيِّد توبس يقوم بالكثير، ويتركني أساعد في المناسبات. إنَّه رجلٌ جيِّدٌ جدًّا. ولكنَّ عائلته سيِّئةٌ سيِّئةٌ،» غمغمَت في سرِّها. «الأب رجلٌ فظيعٌ، مقامرٌ وداعرٌ... ولذا بعد فترةٍ طلبتُ منه أَنْ يأتيَ ويعيش معي، ترين كيف أَنَّ الغرفة خاليةٌ وداركوس راح. إنَّه فتًى متحضِّرٌ جدًّا. لَمْ يتزوَّج إطلاقًا، مع ذلك. لقَدْ تزوَّج الكنيسة، نعم، يا سيِّدي! وهو يدعوني السَّيِّدة بودين طوال تلك السَّنوات السِّتِّ، لا شيء آخر أبدًا.» تنهَّدت هورتنس برفقٍ شديدٍ. «لا تعرفين معنى أَنْ تكوني غير لائقةٍ. الشَّيء الوحيد الَّذِي يريده في الحياة هو أَنْ يكون أحد المسوحين. لَدَيَّ قدرٌ

هائلٌ مِنَ الإعجاب به. لقَدْ تطوَّر كثيرًا. وهو يتحدَّث بفخامةٍ واضحةٍ الآن. تعرفين! وهو بارعٌ جدًّا في الأنابيب والسِّباكة أيْضًا. كيف حال الحُمَّى معك؟»

«ليست جيِّدةً. في المرحلة الأخيرة... هناك، وينتهي الأمر.»

قفزت هورتنس نوعًا ما بعيدًا عنها ومضت نحو القاعة لكَيْ تفتح الباب الخلفيّ لريان.

«ولكنْ يا جدَّتي، لماذا يعيش ــ »

«حسنًا، سنبغي عليكِ أَنْ تأكلي هذا الصَّباح - اطعمي الحُمَّى وجوِّعي البرد. هذه الطَّماطم المقليَّة مع موز الجنَّة[1] وبعضٌ مِنْ سمك الأمس. سأقليها لكِ وضعيها بعدها في الماكرويف.»

«ظننتُ أَنَّها جوِّع الحُمّــ »

«*صباح* الخير، يا سيِّد توبس.»

«صباح الخير، يا سيِّدة بودين،» قال السَّيِّد توبس، وهو يغلق الباب وراءه ويخلع المعطف الواقي كاشفًا عن بذلةٍ رخيصةٍ زرقاء، مع قلادة صليبٍ مِنَ الذهب حول الياقة. «أنا واثقٌ أَنَّكِ تكادين تكونين جاهزةً؟ ينبغي أَنْ نكون في القاعة في السَّابعة تمامًا.»

لَمْ يكنْ ريان قَدْ لمح أَيرِي، بعد، حتَّى الآن. انحنى وهو يهزُّ الطِّين عن حذائه. وفعل ذلك في بطءٍ مذهلٍ، مثلما يتكلَّم تمامًا، ومع أهدابه الشَّفَّافة الَّتِي ترفُّ مثل رجلٍ في غيبوبةٍ. أمكن لأَيرِي أَنْ ترى نصفًا منه فقط مِنْ حيث تجلس: ناصيةً حمراء، ورُكبةً محنيَّةً، وكُمَّ ذراعٍ واحدةٍ.

ولكنَّ الصَّوت كان مرئيًّا في ذاته: بلهجة الطَّبقة العاملة وإِنْ كان مهذَّبًا، صوتًا هناك الكثير مِنَ العمل عليه - يفتقد إِلَى حروفٍ ساكنةٍ رئيسةٍ ويضيف أخرى حيث لا يفترض أبدًا أَنْ تكون، وتخرج جميعها مِنَ الأنف مع أقلِّ مساعدةٍ ممكنةٍ مِنَ الفم.

«صباحٌ طيِّبٌ، يا سيِّدة ب، صباحٌ طيِّبٌ. ثَمَّة ما نشكر الله عليه.»

بدَت هورتنس متوتِّرةً بشكلٍ فظيعٍ مِنَ احتمالٍ موشكٍ أَنْ يرفع رأسه ويلمح الفتاة واقفةً بجوار الموقد. واصلت الإيماء لأَيرِي لكَيْ تتقدَّم نحو الأمام، ثُمَّ كانت تهشُّها نحو الخلف، غير متأكدةٍ ما إِنْ وجب أَنْ يلتقيا بالأساس.

1 ـ هو الاسم الشائع لنباتات عشبية من جنس الموز. وتُستخدم ثمارها في أغراض الطهو، على العكس من الموز اللين الحلو. (المترجم).

«أوه، نعم، يا سيِّد توبس، هو كذلك، وأنا جاهزةٌ بالقدْر الَّذِي يمكن للجاهزيَّة أَنْ تكونه. قُبَّعتي تُسبِّب لي مشكلةً صغيرةً، كما تعرف، ولكنَّني أحضرتُ دبُّوسًا للتَّوِّ و ـــ »

«ولكنَّ الله غير مهتمٍّ بهباء الجسد. الآن، أليس كذلك، يا سيِّدة ب؟» قال ريان، ببطءٍ وأَلَمٍ وهو يلفظ كُلَّ كلمةٍ بينما يجثم برعونةٍ ويخلع فردة حذائه اليسرى. «يَهْوَه في حاجةٍ إِلَى روحك.»

«أوه نعم، بالتَّأكيد تلك هي الحقيقة المقدَّسة.» قالت هورتنس في توتُّرٍ، وهي تضع إصبعها عَلَى قرنفلتها البلاستيكيَّة. «ولكنْ في الوقت نفسه، بالتَّأكيد فإِنَّ سيِّدةً مِنَ الشُّهود لا تريد أَنْ تبدو مثل، حسنًا، متشرِّدٍ في بيت الرَّبِّ.»

عبس ريان. «ما أقصده هو، أَنَّه ينبغي لك أَنْ تتجنَّبي تفسير الكتاب بنفسك، يا سيِّدة بودين. في المستقبل، ناقشي ذلك معي ومع زملائي. اسألينا: هَلِ الملابس المبهجة أمرٌ يشغل الرَّبَّ؟ وأنا ـ شخصيًّا ـ وزملائي ضمن الممسوحين، سوف نبحث في الفصل والآية الضَّروريَّين....»

خفتت جملة ريان إِلَى همممم عامَّةٍ، بصوتٍ يميل إِلَى استخدامه. بدأَت مِنْ منخره المقوَّس وتردَّدت عبر أطرافه الهزيلة المشوَّهة مثل رعشةٍ أخيرةٍ لرجلٍ مشنوق.

«لا أعرف لماذا أفعل ذلك، يا سيِّد توبس،» قالت هورتنس وهي تهز رأسها. «في بعض الأحيان أفكِّر في أَنَّه يمكنني أَنْ أكون واحدةً منهم، الَّذِين يُعلِّمون، هَلْ تعلم؟ حتَّى مع كوني امرأةً... أنا أشعر كما لَوْ أَنَّ الرَّبَّ يتحدَّث إِلَيَّ بطريقةٍ خاصَّةٍ... إِنَّها فقط عادةٌ سيِّئةٌ... ولكنَّ الكثير في الكنيسة يتغيَّر في الفترة الأخيرة، وفي بعض الأحيان لا يمكنني مواكبة كُلِّ القواعد واللَّوائح.»

نظر ريان إِلَى الخارج مِنْ خلال نوافذ العاصفة. بدا وجهه متألِّمًا. «لا شيء يتغيَّر بخصوص كلمة الرَّبِّ، يا سيِّدة ب. النَّاس فقط يخطئون. وأفضل شيءٍ يمكنكِ أَنْ تفعليه لأجل الحقيقة، هو أَنْ تُصلِّي فقطـكَيْ تلقي قاعة بروكلين بالموعد النِّهائي إلينا قريبًا. همممم.»

«أوه نعم. يا سيِّد توبس. إِنَّني أفعل نهارًا وليلًا.»

صفَّق ريان بيديه معًا في تقليدٍ شاحبٍ للحماسة. «الآن، هَلْ سمعتك تقولين موز الجنَّة للإفطار، يا سيِّدة ب؟»

«أوه نعم، يا سيِّد توبس، وهذه الطَّماطم إذا تلطَّفتَ بما يكفي وحملتهْا معك إلَى الطَّاهي.»

وكما تمنَّت هورتنس، فقَدْ تزامن تمرير الطَّماطم مع رصد أيرِي.

«الآن، هذه حفيدتي، أيرِي أمبروزيا جونز. وهذا هو السَّيِّد ريان توبس. قولي مرحبًا، يا أيرِي، يا عزيزتي.»

فعلت أيرِي ذلك، وهي تخطو إلَى الأمام في عصبيَّةٍ وتمدُّ يدها لكَيْ تصافح يده. ولكنْ لَمْ تكنْ هناك أيُّ استجابةٍ مِنْ ريان توبس، فقط تزايد النُّفور عندما بدَا فجأةً أنَّه لاحظها؛ كان هناك شعورٌ بالألفة عندما مرَّت عيناه عليها، في حين لَمْ تَرَ أيرِي شيئًا، لا نمطًا، ولا نوعًا، حتَّى، يميِّز وجهه؛ كان المسخ فيه فريدًا مِنْ نوعه تمامًا، أكثر حمرةً مِنْ أيِّ أصهب، وأكثر نمشًا مِنَ المنمَّشين، بعروقٍ أكثر زرقةً مِنْ سرطان البحر.

«إنَّها ـ إنَّها ـ ابنة كلارا،» قالت هورتنس مبدئيًّا. «السَّيِّد توبس يعرف أُمَّك، منذ وقتٍ طويلٍ. ولكنْ كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام، يا سيِّد توبس، لقَدْ أتَت لكَيْ تعيش *معنا* الآن.»

«الفترةٍ قصيرةٍ فقط.» صحَّحَت أيرِي بسرعةٍ، وقَدْ لمحَت نظرة الرُّعب الغامضة عَلَى وجه السَّيِّد توبس. «فقط لعدَّة شهورٍ، رُبَّما، خلال الشِّتاء مع الدِّراسة. فلدَيَّ امتحاناتٌ في يونيو.»

لَمْ يتحرَّك السَّيِّد توبس. كما لَمْ يتحرَّك أيُّ شيءٍ فيه. مثل أحد أفراد جيش التِّيراكوتا[1] الصِّينِيِّ، بدَا مستعدًّا لمعركةٍ غير أنَّه لا يستطيع الحركة.

«ابنة كلارا،» كرَّرَت هورتنس في همسةٍ دامعةٍ. «*كان يمكن أنْ تكون ابنتك*.»

لَمْ يفاجئ أيرِي شيءٌ بخصوص الهمسة الجانبيَّة الأخيرة؛ وإنَّما أضافتها فقط إلَى القائمة: أنجبَت أمبروزيا بودين في زلزالٍ... الكابتن تشارلي دورهام فتًى مشوَّشٌ أحمقُ... أسنانٌ صناعيَّةٌ في كوبٍ... *كان يمكن أنْ تكون ابنتك*...

سألَت أيرِي، بفتورٍ، وهي لا تتوقَّع إجابةً: «ماذا؟»

1 ـ جيش الطين أو جيش التيراكوتا، ويطلق عليه جيش الأرض المطبوخة: هو قبر الإمبراطور كين شي هوانج في مدينة زيان شمال غرب الصين. في عام 246 قبل الميلاد أمر إمبراطور الصين الأول كين شي هوانج ببناء هذا الجيش ليتم دفنه معه عندما يموت، وأمر حينها كين بأن لا يكون هناك جنديان مُتشابهان في هذا الجيش بأكمله، وهذا ما تم بالفعل ببراعة مثيرة للدهشة. (المترجم).

«أوه، لا شيء، يا أَيرِي، يا عزيزتي. لا شيء. دعوني أبدأ القَلْي. يمكنني أَنْ أسمع البطون تقرقر. أنتَ تتذكَّر كلارا، أليس كذلك يا سيِّد توبس؟ أنتَ وهي كنتما... صديقَين جيِّدَين... تمامًا. يا سيِّد توبس؟»

ظَلَّ ريان يحدِّق لدقيقتَين - الآن - في أَيرِي بنظرةٍ ثابتةٍ وجسده مشدودٌ بشكلٍ مطلَقٍ، وفمه مفتوحٌ جزئيًّا. ومع السُّؤال، بدا أَنَّه يستجمع نفسه، أغلق فمه، وأخذ مقعده عَلَى الطَّاولة غير المجهَّزة.

«ابنة كلارا، أَهِيَ كذلك؟ همممم....» أخرج ما بدَا مثل دفتر شُرطيٍّ صغيرٍ مِنْ جيب الصَّدر ووازن قلمًا عليه كما لَوْ مِنْ شأن هذا أَنْ ينعش ذاكرته.

«كما ترَين، العديد مِنْ دوائر حياتي السَّابقة، وبَشَرها، وأحداثها انقطعَت عَنِّي، كما كان، بسيف القدير الَّذِي قَطَعَني عَنِ الماضي عندما رأى الرَّبُّ يَهْوَه أَنَّه مِنَ المناسب تنويري بالحقيقة، وكما اختارني لدورٍ جديدٍ ينبغي لي، كما طلب بولس الرَّسول بحكمةٍ في رسالته إِلَى أهل كورنثوس، أَنْ أُبطل ما للطِّفل، بما يسمح لتجسُّدي السَّابق أَنْ يُغطَّى بالضَّباب الدُّخانيِّ العظيم، والَّذِي يبدو،» قال ريان توبس، وهو يلتقط أصغر نفسٍ ممكنٍ، ويلتقط سكِّينًا مِنْ هورتنس، «أَنَّ أُمَّكِ، وأَيَّة ذاكرةٍ رُبَّما حملتها لها، قَدِ اختفَت فيه. همممم.»

«هي أيضًا لَمْ تذكركَ عَلَى الإطلاق،» قالت أَيرِي.

«حسنًا، الأمر كُلُّه منذ وقتٍ طويلٍ الآن،» قالت هورتنس في مرحٍ مُصطنعٍ. «ولكنَّكَ حاولتَ بكُلِّ جهدكَ معها فعلًا، يا سيِّد توبس. لقَدْ كانت طفلتي المعجزة، كلارا. كنتُ في الثَّامنة والأربعين! وظننتُ أَنَّها طفلة الرَّبِّ. ولكنَّ كلارا كُرِّسَت للشَّرِّ... لَمْ تكنْ فتاة تقوَى بالمرَّة، وفي النِّهاية لَمْ يكن هناك شيءٌ يمكن القيام به.»

«سوف يُنزل نقمته، يا سيِّدة ب،» قال ريان، في حيويَّةٍ مرحةٍ أكثر ممَّا رأته أَيرِي يُظهرها قطُّ. «سوف يرسل عذابًا رهيبًا عَلَى أولئك الَّذِين استحقُّوا ذلك. ثلاث موزاتٍ لي، لَوْ سمحتِ.»

وضعَت هورتنس الأطباق الثَّلاثة عَلَى المائدة وكوَّمَت أَيرِي، الَّتِي لاحظَت أَنَّها لَمْ تأكل منذ الصَّباح السَّابق، كمًّا كبيرًا مِنْ موز الجنَّة في صحنها.

«آه! إنه ساخن!»

«أفضل ساخنًا منه فاترًا،» قالَتْ هورتنس في تجهُّمٍ، مع ارتجافةٍ ذات مغزًى.

«هكذا أبدًا، آمين.»

«آمين،» ردَّد ريان، في مواجهة موز الجنَّة الأحمر السَّاخن. «آمين. حسنًا. ماذا تدرسين بالضَّبط؟» سأل، وهو ينظر باهتمامٍ شديدٍ إِلَى ما وراء أَيرِي حتَّى أَنَّ الأمر استغرق لحظةً قبل أَنْ تدرك أَنَّه يوجِّه الحديث إليها.

«الكيمياء، وعلم الأحياء، والدِّراسات الدِّينيَّة.» نفخَت أَيرِي عَلَى قطعةٍ ساخنةٍ مِنْ موز الجنَّة. «أريد أَنْ أكون طبيبة أسنانٍ.»

انتعش ريان. «دراساتٍ دينيَّةً؟ وهَلْ يطلعونكم عَلَى الكنيسة الحقيقيَّة الوحيدة؟»

تحرَّكَت أَيرِي في مقعدها. «إمم... أظنُّ أَنَّها بالأحرى الثَّلاث الكبرى. اليهوديَّة، والمسيحيَّة، والإسلام. درسنا شهرًا حول الكاثوليكيَّة.»

عبس ريان. «وهَلْ لديك اهتماماتٌ أخرى؟»

فكَّرَت أَيرِي. «الموسيقى، أُحبُّ الموسيقى. الحفلات الموسيقيَّة، والنَّوادي، وذلك النَّوع مِنَ الأشياء.»

«نعم، همممم. لقَدْ تعوَّدتُ أَنْ أهتمَّ بكُلِّ ذلك أنا نفسي في بعض الأوقات. حتَّى وصلتني الأخبار السَّارَّة. تجمُّعات الشَّباب الكبيرة، مِنَ النَّوع الَّذِي يرتاد الحفلات الشَّعبيَّة، هي ـ في العادة ـ أرضيَّاتٌ خصبةٌ لعبادة الشَّيطان. وفتاةٌ بإمكانياتك... الجسديَّة رُبَّما تجد نفسها مُستدرَجةً إِلَى أحضان ناشطٍ جنسيٍّ داعرٍ،» قال ريان، وهو ينهض عَنِ الطَّاولة وينظر في ساعته. «الآن ما أفكِّر فيه، عَلَى ضوءٍ ما فأنتِ تبدين كثيرًا مثل أُمِّك. نفس... عظام الوجه.»

مسح ريان خطًّا لؤلؤيًّا مِنَ العرق عن جبهته. كان هناك صمتٌ وقفت هورتنس فيه بلا حِرَاكٍ، متشبِّثةً في عصبيَّةٍ بقماشةٍ لتنظيف الصُّحون، وكان عَلَى أَيرِي أَنْ تعبر الغرفة بجسدها لأجل كوبٍ مِنَ الماء كَيْ تبعد نفسها عَنْ تحديق السَّيِّد توبس.

«حسنًا. إِنَّها عشرون دقيقةً والعدُّ مستمرٌّ، يا سيِّدة ب. سأحضر الأغراض، حسنًا؟»

«أوه نعم، يا سيِّد توبس،» قالت هورتنس في بهجةٍ. ولكنْ في اللَّحظة الَّتِي غادر ريان فيها الغرفة تحوَّلَت البهجة إِلَى تجهُّم!

«لماذا يجب أَنْ تذهبي وتقولي أشياء مثل هذه، هه؟ هَلْ تريدينه أَنْ يظنَّ أَنَّكِ فتاةٌ وثنيَّةٌ شيطانيَّةٌ؟ لماذا لا يمكنك أَنْ تقولي جمع الطَّوابع أَوْ شيئًا ما؟ تعالي هنا، يجب أَنْ أنظِّف هذه الصُّحون ـ اكملي طعامك.»

نظرَت أَيرِي إِلَى كومة الطَّعام المتبقيَّة في صحنها وربَّتت عَلَى معدتها في شعورٍ بالذَّنب.

«حمقاء! تمامًا كما أظنُّ. تريد عيناكِ أكثر ممَّا يمكن لبطنكِ أَنْ يحتمل! هاتيه هنا.»

انحنت هورتنس عَلَى الحوض وبدأَت تدفع قطعًا مِنْ موز الجنَّة في فمها. «الآن، لا تردِّي بوقاحةٍ عَلَى السَّيِّد توبس أثناء وجودك هُنا. لديك دراسة لتؤدِّيها ولديه دراسته أيضًا،» قالت هورتنس، وهي تخفض صوتها. «إِنَّه في *مشاورات* مع سادة بروكلين في هذه اللَّحظة... لتحديد الموعد النِّهائيِّ؛ بلا أخطاء هذه المرَّة. يجب أَنْ تنظري فقط إِلَى المشكلات الَّتِي تحدث في العالم لتعرفي أَنَّنا لسنا بعيدين عَنِ الموعد المحدَّد.»

«لَنْ أتسبَّب في أَيِّ مشكلةٍ،» قالت أَيرِي، وهي تقارب غسل الصُّحون كبادرةٍ لحسن النِّيَّة. «إِنَّه يبدو غريبًا بعض الشَّيء... فقط.»

«هؤلاء المختارون مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ يبدون غريبين دائمًا بالنِّسبة إلى الوثنيِّين. السَّيِّد توبس يساء فقط فهمه. هو يعني الكثير بالنِّسبة إِلَيَّ. لَمْ يكنْ لدَيَّ أحدٌ مطلقًا مِنْ قبل. لا تحبُّ أُمُّكِ أَنْ تحكي لكِ منذ غيَّرَت حياتها بالكامل، ولكنَّ عائلة بودين كُرِّسَت لذلك بقوَّةٍ منذ وقتٍ طويلٍ. لقَدْ وُلدتُ أثناء زلزالٍ. كدتُ أَنْ أُقتل قبل ولادتي. ثُمَّ عندما أصبحتُ امرأةً ناضجةً تمامًا، هربَت ابنتي منِّي. ولَمْ أَرَ حفيدتي قطُّ. لدَيَّ الرَّبُّ فقط، كُلَّ تلك السَّنوات. والسَّيِّد توبس أوَّل إنسانٍ يرعاني ويهتمُّ بي فعلًا. كانت أُمُّك حمقاء بتركه يذهب. سيِّدٌ حقيقيٌّ!»

منحت أَيرِي الأمر محاولةً أخيرةً. «ماذا؟ ماذا يعني ذلك؟»

«أوه، لا شيء، لا شيء، يا إلهي الحبيب... أنا أتحدَّث إِلَى نفسي في كُلِّ أنحاء المكان هذا الصَّباح... أوه السَّيِّد توبس، *ها* أنت ذا. لَنْ نتأخَّر، أليس كذلك؟»

ازدان السَّيِّد توبس، الَّذِي عاد ـ توًّا ـ إِلَى الغرفة، كاملًا بالجِلد، مِنَ الرَّأس حتَّى أخمص القدمَين، مع خوذة درَّاجةٍ بخاريَّةٍ هائلةٍ عَلَى رأسه، وضوءٍ أحمرَ صغيرٍ التصق بكاحله الأيسر وضوءٍ أبيضَ صغيرٍ مربوطٍ في الأيمن. وهو يرفع حافَّة الخوذة.

«لا، نحن عَلَى ما يرام، بفضل الله. أين خوذتك، يا سيّدة ب؟»

«أوه، لقَدْ بدأتُ بحفظها في الفَرن. يجعلها ذلك دافئةً بشكلٍ ممتعٍ في الصَّباح البارد. يا أَيرِي أمبروزيا، احضريها لي مِنْ فضلك.»

كما هو متوقَّعٌ، كانت خوذة هورتنس في الرَّفِّ الأوسط مِنَ الفرن، الَّتِي تَمَّ إشعالها عَلَى أقلِّ درجةٍ. جرفَتها أَيرِي وألصقَتها بقرنفل جدَّتها البلاستيكيِّ في عناية.

«أنتَ تقود درَّاجةً بخاريَّةً»، قالت أَيرِي كنوعٍ مِنَ المحادثة.

غير أَنَّ السَّيِّد توبس بدا دفاعيًّا. «إنَّها فيسبا جي إس. ليست شيئًا مبالغًا فيه. لقَدْ فكَّرتُ في التَّخلُّص منها في لحظةٍ ما. فهي تمثِّل حياةً مِنَ الأفضل أَنْ أنساها، إذا كنتِ تفهمين قصدي. الدَّرَّاجة البخاريَّة هي مغناطيس جنسيٌّ، وليغفر لي الرَّبُّ، ولكنَّني أسأتُ استخدامها بتلك الطَّريقة. تهيَّأتُ للتَّخلُّص منها تمامًا. ولكنْ عندها أقنعَتني السَّيِّدة بودين أنَّه مع كُلِّ خطاباتي العامَّة، فإنَّني بحاجةٍ إِلَى شيءٍ ما سريعٍ لأتجوَّل به. ولا تريد السَّيِّدة ب. أَنْ تضيع وقتها في الباصات والقطارات في سنِّها هذه، أليس كذلك يا سيّدة ب؟»

«لا، بالتَّأكيد. لقَدْ أحضر لي هذه العربة الملحقة الصَّغيرة ــــ»

«عربةٌ *جانبيَّةٌ*،» صحَّح ريان بشكلٍ تعليميٍّ. «إنَّها تُسمَّى عربةً جانبيَّةً. مجموعة منيتُّو للدَّرَّاجات البخاريَّة، طراز 1973.»

«نعم بالتَّأكيد، عربةٌ *جانبيَّةٌ*، وهي مريحةٌ مثل سريرٍ. نذهب إِلَى كُلِّ مكانٍ بها، السَّيِّد توبس وأنا.»

أنزلَت هورتنس معطفها عَنْ معلاقٍ عَلَى الباب، وبحثَت في الجيوب عن شريطَين عاكسَين مِنَ الفيلكرو، لصقَتهما حول كُلِّ ذراعٍ.

«الآن، يا أَيرِي، لدَيَّ الكثير جدًّا مِنَ الأعمال الَّتِي يجب العمل عليها اليوم، لذا فأنتِ سوف تطهين لنفسك، لأنَّني لا أستطيع أَنْ أقول متى أعود إِلَى المنزل. ولكن لا تقلقي. سأعود سريعًا.»

«لا مشكلة.»

مصَّت هورتنس أسنانها. «لا *مشكلة*. هذا ما يعنيه اسمها بالعاميَّة: أَيرِي، لا مشكلة. الآن، أَيُّ نوعٍ مِنَ الأسماء هو ذلك لِـ...؟»

لَمْ يردّ السَّيِّد توبس. كان ـ فعليًّا ـ عَلَى الرَّصيف يسخِّن الڤيسبا.

***

«في البداية أُضطرُّ إِلَى إبعادها عَنْ آل تشالفين هؤلاء،» هدَرَت كلارا عبر الهاتف، وصوتها يرتجف مدوِّيًا مِنَ الغضب والخوف. «والآن *أنتم* أيُّها النَّاس مرَّةً أخرى.»

عَلَى الطَّرف الآخر، كانت أُمُّها تُخرج الغسيل مِنَ الغسَّالة وتنصت في صمتٍ مِنْ خلال اللَّاسلكِي المحشور بين الأذن والكتف المنهكة، وتنتظر في نفاد صبرٍ.

«يا هورتنس، لا أريدك أَنْ تملئِي رأسها بكُلِّ حمولة الهراء. هَلْ تسمعينني؟ ضَلَّل ذلك أُمَّكِ، وضلَّلكِ بعدها، ولكنَّ المسؤوليَّة تعود إِلَيَّ ولَنْ يذهب الأمر أبعد مِنْ ذلك. إذا عادت أَيرِي إِلَى المنزل تتحدَّث برطانة أَيٍّ مِنْ هذا الهراء، فيمكنكِ أَنْ تنسي ما يتعلَّق بالمجيء الثَّاني، لأَنَّك ستكونين ميِّتةً وقت وصوله.»

كلماتٌ كبيرةٌ. ولكنْ يا لَهشاشة إلحاد كلارا! مثل واحدةٍ مِنْ تلك الحمامات الزُّجاجيَّة الَّتِي تحتفظ هورتنس بها في خزانة غرفة المعيشة ـــ سوف تسقط مِنْ نفخةٍ. وبالحديث عَنْ ذلك، فما زالت كلارا تستجمع نفسها عندما تعبر الكنائس، بنفس الطَّريقة الَّتِي يفرُّ بها النَّباتيُّون المراهقون مِنْ أمام الجزَّارين؛ تتجنَّب كيلبورن في أيَّام السَّبت خوفًا مِنَ الدُّعاة عَلَى جانب الطَّريق فوق صناديق التُّفَّاح المقلوبة الَّتِي يضعونها. استشعرَت هورتنس رعب كلارا. الَّتِي اندمجَت في هدوءٍ في جماعةٍ أخرى مِنَ البيض وتتفحَّص ما هو صافٍ بعيني امرأةٍ متشكِّكةٍ، قالَت في حزمٍ: «لا تقلقي بخصوص أَيرِي أمبروزيا. إِنَّها في مكانٍ حسنٍ الآن. سوف تخبركِ بنفسها.» وكأَنَّها صعدت مع الجنود السَّماويِّين أكثر منها مدفونةً تحت الأرض في حيٍّ لامبيث مع ريان توبس.

وتسمع كلارا ابنتها تدخل عَلَى خطِّ التِّليفون؛ خَرْخشةً أَوَّليَّةً ثُمَّ صوتًا في وضوح الأجراس. «انظري، أنا لَنْ أعود إِلَى المنزل، حسنًا، لذا لا تُتعبي نفسكِ. سأعود عندما أعود، فقط لا تقلقي بخصوصي.» ثُمَّ توجَّب أَلَّا يكون هناك شيءٌ لتقلق بخصوصه، وليس هناك شيءٌ لتقلق بخصوصه، رُبَّما ما عدا أَنَّه في الخارج في الشَّوارع هناك بردٌ

يمتلئ بالبرد، حتَّى أَنَّ فضلات الكلاب تجمَّدَت، هناك اللَّمحة الأولى مِنَ الجليد عَلَى الزُّجاج الأماميِّ. وكلارا كانت في ذلك البيت عبر الشِّتاءات. إِنَّها تعرف ما يعنيه الأمر. أوه، ساطعٌ بشكلٍ رائعٍ في 6:00 صباحًا، نعم صافٍ بشكلٍ رائعٍ لمدَّة ساعةٍ. ولكنْ كُلَّما قصرَت الأَيَّام، تطول اللَّيالي، ويزداد البيت عتمةً، ويكون مِنَ الأسهل جدًّا، يكون مِنَ الأسهل جدًّا، يكون مِنَ الأسهل جدًّا، أَنْ تفسِّر ظِلَّ الكتابة عَلَى الحائط، وصوت الخطوات البرِّيَّة لهدير الرَّعد البعيد، وأنغام منتصف اللَّيل في ساعة رأس السَّنة خطأً بالجرس الَّذِي يقرع نهاية العالم.

***

لكنَّ كلارا لَمْ تكن بحاجةٍ إِلَى الخوف. فأَيرِي إلحادها قويٌّ. تشالفينيٌّ في قناعاته، وتعاملَت مع إقامتها لدى هورتنس باهتمامٍ مُنفصلٍ. كانت مفتونةً بمنزل آل بودين. وجدَته مكانًا لإنهاء الألعاب، للوقت القادم، لعلامة النُّقطة، والنِّهايات؛ حيث الاعتماد عَلَى أَنَّ الغد سوف يأتي نزوةٌ، وكُلُّ خدمةٍ في المنزل، مِنْ بائع الحليب إِلَى الكهرباء يتمُّ سدادها عَلَى أساسٍ يوميٍّ حتَّى لا تُنفق الأموال عَلَى المرافق أَوِ السِّلع الَّتِي مِنْ شأنها أَنْ تضيع عندما يشعل الرَّبُّ كُلَّ نيرانه المقدَّسة في اليوم التَّالي مباشرةً. قدَّمَت البودينيَّة معنًى جديدًا بالكامل لتعبير «حدِّ الكفاف». حياةٌ في اللَّحظة الأبديَّة، تتأرجح بلا توقُّفٍ عَلَى حافَّة الإبادة الشَّاملة؛ يتعاطى البعض كمِّيَّاتٍ هائلةٍ مِنَ المخدِّرات ببساطةٍ لكَيْ يجرِّبوا شيئًا مماثلًا لأسلوب حياة هورتنس بودين ذات الأربعة والثَّمانين عامًا، مِنْ يومٍ إِلَى يومٍ. وإذنْ فقَدْ رأيتَ الأقزام تمزِّق بطونها وتعرض ما بداخلها، وكنتَ جهاز تليفزيون تَمَّ إطفاؤه دون سابق إنذارٍ، واختبرتَ العالم كاملًا باعتباره واحدًا كما في وعي كريشنا[1]، خاليًا مِنَ الأنا الفرديَّة عبر الكون اللانهائيِّ للرُّوح؟ يا له مِنْ أمرٍ. كُلُّ هذا هراءٌ إِلَى جوار رحلة القدِّيس يوحنا[2] عندما طرح المسيح الفصول الاثنين والعشرين لسفر الرُّؤيا عليه. لا بُدَّ أَنَّها كانت صدمةً هائلةً للرَّسول (بعد أعمال

1 ـ كريشنا يعني الأسود أو المظلم، وهو أحد آلهة الحضارة الهندية الكبار، تعبده طائفة من الهندوس، يرسم ـ عادة ـ على شكل ولد راعي بقر يعزف الناي أو كأمير يقدم توجهات فلسفية. كريشنا يعبد في الهندوسية على أنه تجسد ڤيشنو الذي يعتبر الإله الأعلى في الڤيشنوية، وفي طوائف أخرى هو مصدر كل التجسدات بما فيها ڤيشنو. (المترجم).

2 ـ القديس يوحنا الإنجيلي: ويعرف أيضًا بيوحنا الرائي وبيوحنا الحبيب، هو ابن زبدي وسالومة وشقيق يعقوب الكبير، وكان الشقيقان من تلاميذ المسيح الاثني عشر، وبحسب التقليد المسيحي فإنه كاتب إنجيل يوحنا ـ لذلك يلقب بالإنجيلي ـ وكاتب الرسائل الثلاث التي تنسب إليه وأخيرًا كاتب سفر الرؤيا. (المترجم).

الدِّعاية المستفيضة تلك، العهد الجديد، بكُلِّ تلك الكلمات الحلوة والمشاعر السَّمحة) أَنْ يكتشف أَنَّ كُلَّ نقمة العهد القديم تكمن عند المنعطف في النِّهاية. *إِنِّي كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ*. ذلك ما مِنْ شأنه أَنْ يجعل بعض العيون تتَّسع.

سفر الرُّؤيا هو المكان الَّذي ينتهي إليه كُلُّ المجانين مِنَ البشر. هو المحطَّة الأخيرة في قطار المجانين. والبودينيَّة، الَّتي هي الشُّهود مضافًا إليها سفر الرُّؤيا وأشياء أخرى، كانت حقلًا مُهملًا بالقدر الَّذي حدث. عَلَى *سبيل المثال*: فإنَّ هورتنس بودين تفسر آية سفر الرؤيا 3:15 . 16 ـ «*أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا! هكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي.*» ـ كنصٍّ حَرفِيٍّ. فهمت «فاتر» عَلَى أَنَّها خاصِيَّة شرٍّ في حدِّ ذاتها. احتفظت بمايكرويف في متناول يدها طوال الوقت (تنازلها الرُّوحي الوحيد أمام التِّكنولوجيا الحديثة ـ لأَنَّ الاختيار ظَلَّ لوقتٍ طويلٍ بين إرضاء الرَّبِّ، ووضع المرء نفسه أمام برنامج الولايات المتَّحدة للتَّحكُّم في العقل عن طريق الأشعَّة كما يُدار عبر التَّردُّدات العالية لموجات الرَّاديو) لأجل أَنْ تسخِّن كُلَّ وجبةٍ إِلَى درجة حرارةٍ مستحيلةٍ؛ واحتفظَت بدلاءٍ كاملةٍ مِنَ الثَّلج لتبريد كُلِّ كوب ماءٍ «أكثر بردًا مِنَ البرد.» ارتدَت زوجَين مِنَ الملابس الدَّاخليَّة طوال الوقت مثل ضحيَّةٍ محتملةٍ حذرةٍ لحوادث المرور؛ عندما سألَت أَيرِي لماذا، باحَت في خجلٍ بأَنَّه عند سماع أَوَّل علامات الرَّبِّ (الرَّعد القريب، وصوت الخوار، وحلقة فاجنر الدَّائريَّة[1])، ففي نيَّتها أَنْ تستلَّ ثيابها الأقرب وتستبدلها بالزَّوج الخارجيِّ، ولذا سيجدها المسيح طازجةً وبلا رائحةٍ وجاهزةً للفردوس. احتفظَت بحوضٍ مِنَ الطِّلاءِ الأسودِ في الرُّدهة وهكذا عندما سيأتي الوقت فلرُبَّما استطاعَت أَنْ تلطِّخ أبواب الجيران بعلامة الوحش، وتوفِّر عَلَى الرَّبِّ عناء التَّخلُّص مِنَ الأشرار، لتفصل الخراف عن الجداء. ولَمْ يكن بإمكانك أَنْ تكوِّن أَيَّ جملةٍ في هذا البيت تحتوي عَلَى كلمات «النِّهاية» أَوِ «انتهى»، أَوْ «تَمَّ»، وما إِلَى آخره، لأَنَّها بمثابة عددٍ كبيرٍ مِنْ مفاتيح التَّشغيل لكُلِّ مِنْ هورتنس وريان بحمرته الغِيلانيَّة المعتادة:

أَيرِي: لقَدِ انتهيتُ مِنَ الغسيل.

1 ـ حلقة نيوبلونج أو الرباعية الأوبرالية: هي سلسلة من أربع أوبرات للملحن الألماني ريتشارد ڤاجنر. مستوحاة من الميثولوجيا الجرمانية والميثولوجيا الإسكندنافية تحديدًا أنشودة النيوبلونجيين وهي قصيدة من القرون الوسطى. (المترجم).

ريان توبس (يهزُّ رأسه بشكلٍ رسميٍّ إزاء حقيقة الأمر): كما سوف ننتهي - جميعًا - في يومٍ ما، يا أيرِي، يا عزيزتي، كوني مبتهجةً لذلك، وتوبي.

أَوْ

أيرِي: لقَدْ كان فيلمًا جميلًا. النّهاية عظيمةٌ!

هورتنس بودين (بعينَين مغرورقتَين): وهؤلاء الَّذِين يتوقَّعون نهايةً هكذا لهذا العالم سيخيب ظنُّهم بالتَّأكيد، لأنَّه سوف يأتي وهو يجرُّ الرُّعب. وكُلُّ الجيل الَّذِي شهد المناسبة في 1914 سوف يشهدون - الآن - الجزء الثَّالث مِنَ اشتعال الأشجار، والجزء الثَّالث مِنْ تحوُّل البحر إِلَى دماء، والجزء الثَّالث مِنْ...

وبعد ذلك هناك رعب هورتنس مِنْ تقارير الطَّقس. أيًّا كانت، ومهما كانوا لطيفين، ذوي أصواتٍ معسولةٍ وملابس لائقةٍ، كانت تلعنهم بمرارةٍ طوال الدَّقائق الخمس الَّتِي يقفونها هناك، ثُمَّ بعدها، كنتيجةٍ لما يبدو عنادًا مُطلَقًا، تشرع في اتّخاذ عكس أيّ نصيحةٍ تَمَّ عرضها (جاكيت خفيف بدون مظلَّةٍ للمطر، ومعطف مطرٍ طويلٍ وقبَّعة مطرٍ لأجل الشَّمس). استغرق الأمر أسابيع كثيرةٍ قبل أَنْ تفهم أيرِي أَنَّ رجال الأرصاد الجويَّة هم النَّقيض العلمانيُّ لعمل حياة هورتنس، الَّذِي كان - بالأساس - نوعًا مِنَ المحاولة الكونيَّة لفهم الرَّبّ عبر تفسيرٍ توراتيٍّ هائلٍ لتقرير الطَّقس. إِلَى جانب ذلك فرجال الأرصاد ليسوا شيئًا سوى مُحدثي نعمةٍ.. *وغداء قادمًا مِنَ الشَّرق، يمكننا أَنْ نتوقَّع أتونًا عظيمًا سيرتفع ويغطِّي المنطقة باللَّهب الَّذِي لا يمنح أَيَّ ضوءٍ، بَلِ الظَّلام واضحًا... بينما أخشى أَنَّ المناطق الشَّمالية يُنصحون بأَنْ يستجمعوا الدِّفءَ في مواجهة الجليد الكثيف الخشن، وهناك احتمالٌ معقولٌ لأَنْ تضرب السَّواحل عواصف دائمةٌ مِنَ الزَّوابع والبرد الوخيم، والَّذِي يَثبت عَلَى الأرض ولا يذوب*... مايكل فِش وأمثاله هم طعناتٌ في الظَّلام، يثقون حتَّى الحماقة في مكتب الأرصاد الجوّيَّة، ويسخرون مِنْ ذلك العلم الدَّقيق، الإيمان بالآخرة، الَّذِي قضَت هورتنس أكثر مِنْ خمسين عامًا في دراسته.

«أيَّة أخبارٍ، يا سيّد توبس؟» (يُطرح هذا السُّؤال عَلَى الإفطار في العادة، بلهفةٍ وطفولةٍ، مثل طفلٍ يطلب بابا نويل).

«لا، يا سيِّدة ب. ما زلنا نكمل دراساتنا. يجب أَنْ تسمحي لي ولزملائي بمناقشةٍ وافيةٍ. في هذه الحياة هناك هؤلاء مَنْ هم معلِّمون ومِنْ ثَمَّ هناك هؤلاء مَنْ هم طلَّاب.

هناك ثمانية ملايين شاهد ليَهْوَه ينتظرون قرارنا، ينتظرون يوم الدَّينونة. ولكنْ يجب أَنْ تتعلّمي أَنْ تتركي مثل هذه الأشياء لهؤلاء الَّذِين لديهم الخطُّ المباشر. يا سيِّدة ب، الخطُّ المباشر.»

***

بعد انقطاعٍ عَنِ الدِّراسة لعدَّة أسابيع، عادت أَيري إِلَى المدرسة في نهايات يناير. ولكنَّها بَدَت بعيدةً جدًّا؛ وحتَّى الرِّحلة مِنَ الجنوب إِلَى الشَّمال في كُلِّ صباحٍ، الَّتِي بدَت مثل رحلةٍ هائلةٍ لاكتشاف القطب، بَلْ وأسوأ، تلك الَّتِي ضلَّت هدفها وانتهى الأمر بها في المناطق الدَّافئة، لَمْ تكن شيئًا يُذكر مقارنةً بالدَّوَّامة الَّتِي تغلي في منزل آل بودين. *هكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي*. هناك تصبحُ مُستهلكًا إِلَى أقصى درجةٍ، ثُمَّ فجأةً لَنْ يُجدي أَيُّ شيءٍ آخر.

رأَت مِلَّة بانتظامٍ، ولكنْ في محادثاتٍ قصيرةٍ. ببَبيون أخضر الآن، وإلَّا فهو مشغولٌ. ما زالت تقوم بأعمال تنظيم الملفَّات لماركوس مرَّتين في الأسبوع، ولكنَّها تجنَّبَت بقيَّة العائلة. رأَت جوش بشكلٍ متقطِّع. وبدا أَنَّه يتجنَّب آل تشالفين بنفس الدَّأب الَّذِي فعلَت به. ووالداها رأَتهما في نهايات الأسابيع، في مناسباتٍ باردةٍ ينادي كُلُّ شخصٍ كُلَّ شخصٍ فيها بأسمائهم الأولى (*أَيري، هَلْ يمكنكِ أَنْ تُناولي الملح لآرشي؟ كلارا، يريد آرشي أَنْ يعرف أين المقصُّ*)، ويشعر الجميع بالعُزلة. بدأَت تشعر بأَنَّ الهمس يدور حولها في شمال غرب لندن، بالطَّريقة الَّتِي سيفعل اللَّندنيُّون الشَّماليُّون بها ذلك عندما يشتبهون في أَنَّ شخصًا قادِمٌ عليهم بالدِّين، ذلك المرض البشع. لذا أسرعَت عائدةً إِلَى رقم 28 طريق ليندكر، لامبيث، مرتاحةً للعودة إِلَى الظَّلام، لأَنَّ الأمر يشبه البيات الشتويَّ أَوْ أَنْ تكون في شرنقةٍ، وكانت فضوليَّةً شأنها شأن أَيِّ أحدٍ آخر لأَنْ ترى أَيَّ نوعٍ مِنْ أَيري سوف يخرج. ليس الأمر نوعًا مِنَ السِّجن بأيَّةِ حالٍ. فذلك البيت *مغامرةٌ*. عَلَقَتِ الأسرار، الَّتِي اكتُنِزَت لوقتٍ طويلٍ جدًّا، بالدَّواليب والأدراج المهملة، وفي الأُطر المتَّسخة، كما لَوْ أَنَّ الأسرار أُصبحَت خارج الموضة. وجدَت صورًا لجدَّتها الكبرى أمبروزيا، كانت شيئًا نحيلًا جميلًا، مع عيونٍ لوزيَّةٍ كبيرةٍ، وواحدةً لتشارلي «هيتي» دورهام واقفًا في كومةٍ مِنَ الرُّكام مع البحر بُنِيًّا داكن الطِّباعة وراءَه. وجدَت كتابًا مقدَّسًا بسطرٍ واحدٍ ممزَّقٍ منه. وجدَت لقطاتٍ مِنْ كُشك صورٍ لكلارا في زيِّ المدرسة، تبتسم بشكلٍ مجنونٍ، وانكَشَف الرُّعب الحقيقيُّ للأسنان. قرأَت بالتَّبادل

بين *تشريح الأسنان* لجيرالد م. جاثي[1] و*توراة الأخبار الحسنة*[2]، وانطلقَت بنهمٍ في مكتبة هورتنس الانتقائيَّة الصَّغيرة، وهي تنفخ الغبار الأحمر لمدرسةٍ جامايكيَّةٍ عن الأغلفة، وتكافح باستخدام مطواةٍ لقطع الصَّفحات الَّتي لَمْ تُقرأ مِنْ قبلُ قطُّ. وجاءت قائمة القراءة لشهر فبراير عَلَى النَّحو التَّالي:

حساب مصحَّةٍ غرب هنديَّةٍ، لجيو. ج. هـ. سوتون موكسلي. لندن: سامبسون، منخفض، مارستون وشركاه، 1886. (هناك علاقةٌ عكسيَّةٌ بين طول اسم المؤلِّف وبين انخفاض قيمة كتابه).

سجل توم كرينجل، لمايكل سكوت[3]. إدنبره: 1875.

في أرض قصب السكر، لإيدن فيليبوتس. لندن: مكلور وشركاه، 1893.

دومينيكا: *تلميحات وملاحظات للمستوطنين المقرَّرين*، للموقر هـ. هسكيث بيل، سي إم جي. لندن. أ. سي. بلاك. 1906.

كُلَّما قرأَت أكثر أثارَت تلك الصُّورة للكابتن الأنيق دورهام فضولها الطَّبيعيَّ: وسيمًا وحزينًا، يمسح طوبات نصف كنيسةٍ، ويبدو خبيرًا بالحياة عَلَى الرَّغم مِنْ شبابه، يبدو تمامًا كرجلٍ إنجليزيٍّ، يبدو قادرًا عَلَى أَنْ يخبر البعض بمعلوماتٍ عَنْ شيءٍ ما. رُبَّما عن أَيري نفسها. في حال أَنَّها احتفظَت به فقط تحت وسادتها. وفي الصَّباح لَمْ تعد كروم عنبٍ إيطاليَّةٍ في الخارج بعد الآن، بَلِ القصب، والقصب، والقصب وفي الجوار لَمْ يكن شيءٌ سوى التَّبغ وهي تتصور في فخرٍ أَنَّ رائحة موز الجنَّة تعيدها إِلَى مكانٍ ما، مكانٍ خياليٍّ تمامًا، فهي لَمْ تكنْ هناك قطُّ. مكانٍ أطلق عليه كولومبوس اسم سانت ياجو لكنَّ الأرواك أعادوا تسميتها بعنادٍ إِلَى زايماكا[4]، الاسم الَّذي استمرَّ أطول

1 ـ أحد أشهر المراجع الطبية المتخصصة في تشريح الأسنان، أصدرته جامعة نورث كارولينا عام 1972. (المترجم).

2 ـ وتسمى ـ أيضًا ـ ترجمة الأخبار الطيبة في الولايات المتحدة، هي ترجمة إنجليزية للتوراة بواسطة جمعية الكتاب المقدس الأمريكية. تم نشرها لأول مرة كترجمة جديدة تحت مسمى الأخبار الطيبة من الرَّجل الحديث في 1966. وتم تحويلها إِلَى الإنجليزية البريطانية من قِبَل جمعيتي الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية باستخدام القياسات المعيارية لأسواق الكومنولث. وكانت تعرف ـ سابقًا ـ باسم نسخة اليوم الإنجليزية، ولكن أعيدت تسميتها في 2001 إِلَى ترجمة الأخبار الطيبة في الولايات المتحدة. (المترجم).

3 ـ مؤلف بريطاني وكاتب سيرة كتب تحت اسم مستعار هو توم كرينجل. في عام 1806 ذهب إِلَى جامايكا؛ ليدير بعض الأراضي في البداية، ثم انضم إِلَى شركة أعمال في كينجستون. استلزم منصبه الأخير أن يقوم بعدة رحلات متكررة، اعتمد على حوادثها كتابه الأشهر سجل توم كرينجل. (المترجم).

4 ـ الاسم القديم لجامايكا. (المترجم).

مما فعلوا *وارفًا وخصبًا*. ليس أنَّ أَيري سمعَت مِنْ أولئك الخانعين ضحايا الكروش النَّاجمة عَنْ خنوعهم. هؤلاء جامايكيُّون آخرون سقطوا سريعًا عَنِ انتباه التَّاريخ. لقَدْ أرادَت الماضي - نسختها مِنَ الماضي - بشدَّةٍ، كما لَوْ أنَّها تستعيد الرَّسائل الَّتِي أخطأَت وجهتها. هذا إذنْ هو المكان الَّذِي جاءَت منه. كُلُّ هذا يخصُّها، حقُّها بالولادة، مثل زوجٍ مِنْ أقراط اللُّؤلؤ أَوْ سندات مكتب البريد. العلامة تميِّز البقعة، وأَيري وضعَت علامةً عَلَى كُلِّ شيءٍ وجدَته، وهي تجمع قطعًا وأجزاء (شهادات ميلادٍ، وخرائط، وتقارير عسكريَّةً، ومقالات صحفٍ) وتخزِّنها تحت الأريكة، كما لَوْ أَنْ ثراءها سوف يتسرَّب عبر النَّسيج بفعل التَّناضح وهي نائمةٌ وينزُّ عليها.

***

كما تأتي البراعم في يناير، ومثل أيِّ ناسكةٍ جاءَتها زياراتٌ. في البداية بالأصوات. جاءتها جويس تشالفين، تخرخش عبر راديو هورتنس المنتمي للعصر الحجريِّ، في فقرة *أسئلةَ البستانيِّين*:

فورمان: سؤالٌ آخر مِنَ الجمهور، أظنُّ السَّيِّدة سالي ويتاكر مِنْ بونيموث لديها سؤال للفريق، كما أظنُّ. يا سيِّدة ويتاكر؟

السَّيِّدة ويتاكر: شكرًا لك، يا بريان. حسنًا، أنا بستانيَّةٌ جديدة وهذا هو الصَّقيع الأوَّل الَّذِي يمرُّ بي وخلال شهرَين قصيرَين تحوَّلَت حديقتي مِنْ مهرجانٍ حقيقيٍّ للألوان إِلَى شيءٍ أجرد جدًّا بالطَّبع... نصحني الأصدقاء بالزُّهور ذات الطَّبيعة التَّوافقيَّة، ولكنَّ ذلك يتركني مع الكثير مِنْ زهرات الأُذينيَّة الصَّغيرة والبابونج المزدوج، الأمر الَّذِي يبدو سخيفًا لأَنَّ الحديقة كبيرةٌ جدًّا بالفعل. الآن، سأودُّ بشكلٍ حقيقيٍّ أَنْ أزرع شيئًا لافتًا أكثر، حول مرتفع الدِّيلفينيوم، ولكنَّ الريح تحصدها بعد ذلك وينظر النَّاس عبر أسيجتهم وهم يفكِّرون: عزيزتي *أوه يا عزيزتي (ضحكاتٌ متعاطفةٌ مِنَ الجمهور في الاستوديو)*. وسؤالي إِلَى الفريق إذنْ هو، كيف تحتفظون بجمال المنظر في قلب الشِّتاء الكئيب؟

فورمان: شكرًا لكِ، يا سيِّدة ويتاكر. حسنًا، إِنَّها مشكلةٌ شائعةٌ...لا يعني ذلك - بالضَّرورة - أَنَّ الأمر أسهل بأَيِّ حالٍ مع البستانيِّ المحنَّك. شخصيًّا، أنا لا أحصل عَلَى نتائج جيِّدةٍ تمامًا. حسنًا، دعونا نسلِّم السُّؤال إِلَى الفريق، أليس كذلك؟ يا جويس تشالفين، هَلْ هناك أَيَّة إجابةٍ أَوْ اقتراحٍ لقلب الشِّتاء الكئيب؟

جويس *تشالفين*: حسنًا، ينبغي في البداية أَنْ أقول إِنَّ جيرانك فضوليّون جدًّا. كنتُ لأخبرهم أَنْ ينتبهوا إِلَى شؤونهم الخَاصَّة لَوْ كنتُ مكانك *(ضحكاتٌ مِنَ المستمعين)*. ولكنْ حتَّى نكون جادِّين، أعتقد أَنَّ هذا الاتِّجاه كاملًا لإزهار طوال الوقت أمرٌ غير صحِّيٍ في الحقيقة للحديقة والبستانيّ وللتُّربة بشكلٍ أساسيٍّ، أعتقد ذلك فعلًا... أعتقد أَنَّ الشِّتاء ينبغي أَنْ يكون فترةً للرَّاحة، والألوان الهادئة، كما تعلمون - ومِنْ بعدها عندما يأتي الرَّبيع المتأخِّر في النِّهاية فإنَّ الجيران سوف يصابون بصدمةٍ هائلةٍ! طفرةٌ! ها هو ذا، هذا المهرجان الرَّائع مِنَ النُّمو. أعتقد أَنَّ الشِّتاء العميق هو - حقًّا - وقتٌ مناسبٌ لتخصيب التُّربة، وتقليبها، والسَّماح لها بالرَّاحة والتَّخطيط لمستقبلها بأفضل طريقةٍ لمفاجأة النَّاس الفضوليّين في الجوار. دائمًا ما أفكِّر في تربة الحديقة كجسم امرأةٍ - يسير في دوائر، كما تعرفون، خصبٌ في بعض الأوقات وليس كذلك في أخرى، وذلك - حقًّا - طبيعيٌّ تمامًا. ولكنْ إذا كنتِ - حقًّا - عازمةً عَلَى الأمر، فالزُّهور الحوذانيَّة - الخربق[1] - يقوم بأداءٍ مؤثِّرٍ في البرد، وفي التُّربة الجيريَّة، حتَّى إذا كانت بالتَّحديد في الـــ

أطفأَت أَيري جويس. ذلك علاجيٌّ تمامًا، إطفاء جويس. ليست مسألةً شخصيَّةً بالمرَّة. لقَدْ بدا الأمر مُتعبًا فقط وغير ضروريٍّ، أَنْ تناضل مِنْ أجل أَنْ تخرج شيئًا مِنَ التُّربة الإنجليزيَّة العنيدة. لماذا تهتمُّ ما دام هذا المكان الجديد هناك الآن؟ (لأَنَّ جامايكا بدَت لأَيرِي كما لَوْ كانت مصنوعةً حديثًا. مثل كولومبوس نفسه، بمجرَّد أَنِ اكتشفَتها حتَّى أحضرَتها إلى الوجود). هذا المكان حسن التَّشجير والرَّيِّ. حيث تخرج الأشياء مِنَ التُّربة في شغبٍ وبدون إشرافٍ، وحيث يمكن للنَّقيب الشَّاب الأبيض أَنْ يلتقي بفتاةٍ سوداءَ بدون تعقيداتٍ، ويكون كلاهما مفعمَين بالنَّشاط وغير ملوَّثَين وبدون ماضٍ أَوْ مستقبلٍ يتمُّ إملاؤه عليهما - مكانٌ حيث الأشياء ببساطةٍ موجودةٌ. لا أوهام، لا أساطير، ولا أكاذيب، ولا أوضاع معقَّدةٌ - هكذا تصوَّرَت أَيري موطنها. لأَنَّ *الوطن* واحدةٌ مِنَ الكلمات السِّحريَّة الحالمة مثل *اليونيكورن*[2] *والرُّوح واللانهائيَّة* الَّتي عَبَرَت الآن إِلَى اللُّغة. ولأَنَّ السِّحر الاستثنائيَّ في أرض الوطن تعويذةٌ استثنائيَّةٌ بالنِّسبة إِلَى أيرِي، بدَا وكأَنَّه البدء. بدء البدء. مثل الصَّباح الأوَّل في جنَّة عدنٍ ومثل اليوم التَّالي للقيامة. بدَا صفحةً بيضاء.

1 - وردة عيد الميلاد. (المترجم).

2 - كائن خرافي على هيئة حصان أبيض ذي قرن وحيد، ذكر في الأساطير الإغريقية واتخذ كشعار لنبلاء العصور الوسطى في أوروبا. (المترجم)

ولكنْ في كُلِّ مرَّةٍ تشعر أَيرِي بنفسها أقرَب إليه، إلَى البياض المثاليِّ للماضي، يحدث شيءٌ ما في الحاضر؛ سيَرنُّ جرس بَاب بودين ويقاطعها. جَلَبَ يوم أحد السَّامرية[1] زيارةً مفاجئةً مِنْ جوشوا، غاضبًا عَلَى عتبة الباب، وأقلَّ وزنًا بواحدٍ وعشرين رطلًا عَلَى الأقلِّ، وأكثر بؤسًا بكثير مِنَ المعتاد. وقبل أَنْ تملك أَيرِي فرصةً للتَّعبير عَنِ الاهتمام أَوْ عَنِ الصَّدمة، هُرعَ إلَى الغرفة وصفق الباب. «لقَدْ نفَدَ صبري تجاه الأمر! نفَدَ صبري تجاهه لأقصى حدٍّ!»

أسقطَت اهتزازات الباب النَّقيب دورهام عَنْ موقعه عَلَى نافذة أَيرِي، فأقامَته بحرصٍ مِنْ جديدٍ.

«نعم، جميلٌ أَنْ أراكَ أيضًا، يا رجل. لماذا لا تجلس وتهدأ. مِمَّ نفَدَ صبرك؟»

«منهم. إنَّهم يثيرون غثياني. يمضون قدمًا فيما يخصُّ الحقوق والحرِّيَّات، ومع ذلك يأكلون خمس عشرة دجاجةً كُلَّ أسبوعٍ لعينٍ! المنافقون!»

لَمْ تستطع أَيرِي أَنْ تدرك العلاقة عَلَى الفور. أخرجَت سيجارةً في استعدادٍ للقِصَّة الطَّويلة. ولدهشتها أخذ جوشوا واحدةً أيضًا، وذهبا لكَيْ يركعا عَلَى مقعد النَّافذة، ينفخان الدُّخان مِنْ خلال القضبان إلَى الشَّارع.

«هَلْ *تعلمين* كيف يعيش دجاج البطَّاريَّات[2]؟»

لَمْ تعلم أَيرِي. وشرَح جوشوا. «محبوسًا معظم حياة الدَّجاج الفقيرة في ظلام الدَّجاج الدَّامس، مكدَّسًا مثل سردين الدَّجاج، في قرف الدَّجاج، ويغذَّى بأسوأ أنواع حبوب الدَّجاج.»

وهذا، وفقًا لجوشوا، ليس شيئًا عَلَى ما يبدو مقارنةً بكيف تقضي الخنازير والأبقار والأغنام أوقاتها. «إنَّها جريمةٌ سافلةٌ. ولكنْ حاوِلي أَنْ تُخبري ماركوس بذلك.

1 ـ إجازة مسيحية يتم الاحتفال بها من قبل الكاثوليك والبروتستانت في بعض أجزاء من أوروبا. وتقع في يوم الأحد الرابع من الصوم الكبير. وأصبح مناسبة لتكريم أمهات الأطفال وتقديم الهدايا لهن. (المترجم).

2 ـ أقفاص البطاريات هو نظام إسكان لعدد من الحيوانات المختلفة وبشكل أساسي لإنتاج البيض من الدجاج. نشأ الاسم من شكل ترتيب الصفوف والأعمدة للأقفاص الموصولة ببعضها بعضا، والمشتركة بنفس حاجز الجدران بشكل يشبه خلايا البطارية. عادة ما يستخدم هذا المصطلح في تربية الدواجن، لكن توجد أنظمة مشابهة للحيوانات الأخرى. هناك خلاف بين المؤيدين لحقوق الحيوان وبين المنتجين الصناعيين حول هذه الأقفاص. (المترجم).

حاولِي أَنْ تجعليه يتخلَّى عَنْ خنزير مهرجان يوم الأحد. إنَّ لديه نقصًا هائلًا في المعلومات. هَلْ لاحظتِ ذلك مِنْ قبل؟ يعرف هذا الكمَّ الهائل حول شيءٍ واحدٍ، ولكنْ هناك كُلُّ هذا العالم الآخر الَّذِي... أوه، قبل أَنْ أنسى - يجب أَنْ تأخذي نشرةً.»

لَمْ تكن أَيرِي لتظنَّ أبدًا أَنَّها سوف ترى اليوم الَّذِي يسلِّمها جوشوا تشالفين فيه منشورًا. ولكنَّه كان هنا في راحة يدها. يُدعى: اللَّحم جريمة قتلٍ. الحقائق والخيال، منشور مِنْ منظَّمة فيت.

«إِنَّها تعني مكافحة تعذيب الحيوان واستغلاله[1]. كأَنَّها اللُّبُّ الصُّلب الأخير للسَّلام الأخضر أَوْ أَيًّا كان. اقرئيها - هم ليسوا مجرد هيبيِّين غريبي الهيئة، فهم يأتون مِنْ خلفيَّاتٍ علميَّةٍ وأكاديميَّةٍ قويَّةٍ ويعملون وفق وجهة نظرٍ فوضويَّةٍ. أشعر أَنَّني وجدتُ شعلتي فعلًا. هل تعلمين؟ إِنَّه فريقٌ لا يصدَّق بالفعل. مكرَّسون للعمل المباشر. نائب الرَّئيس هو زميلٌ سابقٌ في أوكسفورد.»

«ممم. كيف هو مِلَّة؟»

تملَّص جوشوا مِنَ السُّؤال. «أوه، لا أعرف. مجنونٌ. في طريقه إِلَى الجنون. وما زالت جويس تُرضي كُلَّ نزوةٍ له. فقط لا تسأليني. هم يقرفونني جميعهم. كُلُّ شيءٍ تغيَّر.» مرَّر جوشوا أصابعه في قلقٍ عَلَى شعره، الَّذِي وصل إِلَى كتفيه الآن فعلًا، فيما يسمِّيه أهل ويلْزدن تسريحة اليهوديّ الأفريقيّ. «لا يمكنني - فعلًا - أَنْ أخبرك كيف تغيَّر كُلُّ شيءٍ. إِنَّني أواجه تلك *اللَّحظات مِنَ... الوضوح الحقيقيّ*.»

أومأت أَيرِي. كانت متعاطفةً مع لحظات الوضوح. أكَّدَت أعوامها السَّبعة عشر كمًّا هائلًا منها. ولم تكن متفاجئةً مِنْ تحوُّلات جوشوا. أربعة شهورٍ مِنَ الحياة في عمر سبعة عشر عامًا هي المادَّة الخام مِنَ الأرجحات والدَّورانات؛ مشجِّعو رولينج ستونز يتحوَّلون إِلَى مشجِّعين للبيتلز، المحافظون إِلَى الدِّيمقراطية اللِّيبراليَّة وبالعكس، ومدمنو أسطوانات الشَّمع إِلَى هيبيِّي الأسطوانات المدمجة. لا يمكن مرَّةً أخرى في حياتك أَنْ تملك القدرة عَلَى تجديدٍ شاملٍ هكذا في الشَّخصيَّة.

«عرفتُ أَنَّكِ سوف تفهمين. تمنَّيتُ لَوْ تحدَّثتُ إليك مِنْ قبل، ولكنَّني فقط لا أتحمَّل البقاء في البيت هذه الأيَّام وعندما أراك يبدو مِلَّة دائمًا في الطَّريق. مِنَ الجيِّد - حقًّا - أَنْ أراك.»

---

1 - يأتي مختصر الاسم في الإنجليزية كـ FATE وتعني مصير أيضًا. (المترجم).

«أنتَ ـ أيضًا ـ تبدو مختلفًا.»

أشار جوشوا باستهانةٍ إِلَى ملابسه، الَّتِي كانت مميَّزةً وأقلَّ غرابةً مِنَ السَّابق.

«أتصوَّر أنَّه لا يمكنك أنْ تعيشي في ثياب والدك القطنيَّة القديمة إِلَى الأبد.»

«أتصوَّر أنَّنِي لَنْ أفعل.»

صفَّق جوشوا بيديه معًا. «حسنًا، لقَدْ حجزتُ تذكرتي إِلَى جلاستونبري[1] وربَّما لا أعود. لقَدِ التقيتُ بهؤلاء النَّاس مِنْ فيت وسأذهب معهم.»

«إنَّه مارس. ليس حتَّى الصَّيف، فعلًا.»

«جولي وكريسبن ـ هما مَنِ التقيتُهما ـ يقولان إنَّنَا يمكن أنْ نذهب إِلَى هناك مبكِّرين. أنتِ تعرفين، للتخييم في الخارج لبعض الوقت.»

«والمدرسة؟»

«إذا أمكنكِ المبيت في سرير تخييمٍ، فأنا يمكنني ذلك...ليس الأمر كما لَوْ كنتُ أرسب وأتخلَّف. لا يزال لدَيَّ رأسٌ تشالفيتيٍ فوق أكتافي، سأعود للامتحانات فقط ثُمَّ بعدها أذهب مرَّةً أخرى. يا أيري، ينبغي لكِ حقًّا أنْ تلتقي بهؤلاء النَّاس. إنَّهم فعلًا... لا يصدَّقون. هو مِنَ الدَّاديِّين[2]. وهي فوضويَّةٌ[3]. واحدةٌ حقيقيَّةٌ. ليست كماركوس. أخبرتُها عن ماركوس وفأر مستقبله اللَّعين. وهي تظنُّ أنَّه شخصٌ خطيرٌ. رُبَّما يكون سيكوباتيًّا[4] بالفعل.»

1 ـ بلدة صغيرة في سومرست، بريطانيا تشتهر بمهرجان موسيقي سنوي في موسيقى البوب والبلوز والموسيقى الشعبية. (المترجم).

2 ـ هي حركة ثقافية انطلقت من زيوريخ (سويسرا)، أثناء الحرب العالمية الأولى، كنوع من معاداة الحرب، بعيدًا عن المجال السياسي، وإنما من خلال محاربة الفن السائد. يطلق عليها أيضاً (الدادائية)، وقد برزت في الفترة ما بين عامي: 1916 و1921. أثرت الحركة على كُلّ ما له علاقة بالفنون البصرية، الأدب، الشعر، الفن الفوتوغرافي، نظريات الفن، المسرح، والتصميم. (المترجم).

3 ـ تعرف اللاسلطوية (الفوضوية) عمومًا بأنها فلسفة سياسية تتهم الدولة باللاأخلاقية، أوْ بدلًا من ذلك تعارض السلطة في تسيير العلاقات الإنسانية. يدعو أنصار اللاسلطوية (اللاسلطويون) إِلَى مجتمعات من دون دولة مبنية على أساس جمعيات تطوعية غير هرمية. (المترجم).

4 ـ شخصية معتلة نفسيًا، هي ـ باختصار ـ أكثر الشخصيات تعقيدًا وصعوبة في التعرف على صاحبها، حيث أن السيكوباتي يجيد تمثيل دور الإنسان العاقل وله قدرة على التأثير في الآخرين والتلاعب بأفكارهم، يتلذذ بإلحاق الأذى بمن حوله وخصوصًا إذا كان زوجًا أوْ زوجةً. (المترجم).

فكَّرَت أَيرِي في هذا. «ممم. سيشعرني ذلك بالدَّهشة.»

بدون أنْ يطفئ سيجارته، ألقى بها عَلَى الرَّصيف. «وسأتخلَّى عَنْ كُلِّ أنواع اللُّحوم. أنا نباتيٌّ سمكيٌّ[1] في هذه اللَّحظة، ولكنَّ هذا مجرَّد تدبيرٍ نصفيّ. سوف أصبح نباتيًّا كُلِّيًّا.»

رفعَت أَيرِي كتفَيها، وهي ليست متأكِّدةً ممَّا يجب أَنْ يكون عليه ردُّها.

«هناك الكثير ممَّا يمكن قوله بخصوص الشِّعار القديم، هَلْ تعلمين؟»

«شعارٌ قديمٌ؟»

«*حارِب النَّار بالنَّار*. ليس سوى سلوكٍ لعينٍ متطرِّفٍ ما يمكِّنك مِنَ الوصول إِلَى شخصٍ مثل ماركوس. إنَّه لا يعرف حتَّى كيف يبدو *هناك*. ليست هناك نقطةٌ يمكن التَّفاهم معه بشأنها بشكلٍ معقولٍ لأنَّه يظنُّ في نفسه أنَّه يملك المعقوليَّة. كيف تتعاملين مع أناسٍ هكذا؟ أوه، وسأتخلَّى عن الجلود ـ ارتدائها ـ وكُلِّ ما هو مِنْ منتجات الحيوانات. الجيلاتين وتلك الأشياء.»

بعد برهةٍ مِنْ متابعة الأقدام الَّتِي تمشي بالجلود، والأحذية الرِّياضيَّة والكعوب، قالت أَيرِي: «هذا سوف يوضِّح له الأمر.»

في يوم كذبة أبريل مَرَّ صمد. يرتدي الأبيضَ بالكاملِ، في طريقه إِلَى المطعم، مُتغضِّنًا وعابسًا مثل قدِّيس خائب الرَّجاء. بدا موشكًا عَلَى البكاء. دعَته أَيرِي للدُّخول.

«مرحبًا، يا آنسة جونز،» قال صمد، منحنيًا بشكلٍ خفيفٍ. «وكيف هو والدك؟»

ابتسمَت أَيرِي في تقديرٍ. «أنتَ تراه أكثر ممَّا نفعل. كيف هو الرَّبُّ؟»

«بخيرٍ تمامًا، شكرًا لك. هَلْ رأيتِ ابني الَّذِي لا يصلح لشيءٍ مؤخَّرًا؟»

قبل أَنْ تملك أَيرِي فرصةً لتقدِّم جملتها التَّالية، انهار صمد أمامها ووجبت قيادته إِلَى غرفة المعيشة، وجلس في مقعد داركوس، وأحضرَت له كوبًا مِنَ الشَّاي قبل أَنْ يكون قادرًا عَلَى الحديث.

«يا سيِّد إقبال، ما المشكلة؟»

---

1 ـ هم أشخاص يتبعون النباتية ولكن يأكلون الأسماك. وجبتهم الغذائية تكون خالية من اللحوم والدجاج فقط. يتناول نباتيو الأسماك اللبن ويأكلون مشتقاته، وكذلك يأكلون البيض. (المترجم).

«ما الَّذِي هو ليس مشكلةً؟»

«هَلْ حدث شيءٌ لأبي؟»

«أوه لا، لا... آرشيبالد بخيرٍ. إِنَّه مثل إعلان غسَّالة الملابس. يستمرُّ ويستمرُّ كما دائمًا.»

«إذنْ ما الأمر؟»

«مِلَّة. لقَدْ تغيَّب طوال هذه الأسابيع الثَّلاثة.»

«يا إلهي. حسنًا، هَل حاولتَ مع آل تشالفين؟»

«ليس معهم. أنا أعرف أين هو. مِنَ الرَّمضاء للنار. إِنَّه في اعتكافٍ مع هؤلاء النَّاس المجانين ذوي أربطة العنقِ الخضراءِ. في مركزٍ رياضيٍّ في تشيستر.»

«اللَّعنة.»

جلسَت أيرِي القرفصاء وأخرجَت سيجارةً. «أنا لَمْ أره في المدرسة، ولكنَّني لَمْ أدرك لِكَمْ مِنَ الوقت كان ذلك. لَكِنْ ما دمت تعرف أين هو....»

«لَمْ آتِ إِلَى هُنا لكَيْ أعثر عليه، جئتُ لكَيْ أطلب نصيحتك، يا أيرِي. ماذا يمكنني أَنْ أفعل؟ أنتِ تعرفينه ـ كيف يمكن للمرء أَنْ يتدخَّل؟»

عضَّت أَيرِي شفتها، عادة أُمِّها القديمة. «أعني، أنا لا أعرف... لسنا قريبَين كما كُنَّا... ولكنَّنِي أفكِّر دائمًا أنَّه رُبَّما تعلَّق الأمر بماجد... افتقاده... أعني أَنَّه لَنْ يعترف بذلك قطُّ... ولكنَّ ماجد هو توأمه وربَّما إذا رآه ـــ »

«لا. لا. لا، لا. أتمنَّى لَوْ أَنَّ هذا هو الحلُّ. يعلم الله كيف علَّقتُ كُلَّ آمالي عَلَى ماجد. يقول الآن إِنَّه سوف يعود لكَيْ يدرس القانون الإنجليزيَّ ـ عَلَى نفقة آل تشالفين هؤلاء. يريد أَنْ يفرض قوانين الإنسان عوضًا عَنْ قوانين الله. لَمْ يتعلَّم أيًّا مِنْ دروس محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام! أُمُّه مبتهجةٌ بالطَّبع. ولكنَّه ليس سوى خيبة أملٍ لي. أكثر إنجليزيَّةً مِنَ الإنجليز. صدِّقيني، ماجد لَنْ يقدِّم أيَّ شيءٍ جيِّدٍ لمِلَّة، ومِلَّة لَنْ يقدِّم أيَّ شيءٍ جيِّدٍ لماجد. لقَدْ ضلَّ كُلٌّ منهما طريقه. ضلَّا حتَّى الآن عَنِ الحياة الَّتِي أردتُها لهما. لا شكَّ أَنَّ كُلًّا منهما سوف يتزوَّج بامرأةٍ بيضاءَ تُدعى شيلا ويرسلاني إِلَى قبري سريعًا. كُلُّ ما أردتُه ولدَين مسلمَين جيِّدَين. أوه، يا أَيرِي....» أخذ صمد يدها الحرَّة وربَّت عليها في

مودَّةٍ حزينةٍ. «أنا لا أفهم فقط أين أخطأتُ. تُعلِّمينهما ولكنَّهما لا ينصتان لأنَّهما يسمعان موسيقى عدوِّ الشَّعب بأعلَى صوتٍ. تُرينهما الطَّريق ولكنهما يختاران المسارات اللَّعينة نحو الهيئات القانونيَّة الأربع في لندن. تُرشدينهما وهما يهربان مِنْ قبضتِكِ إلَى مركز تشيستر الرِّياضيِّ. تحاولين أنْ تخطِّطي كُلَّ شيءٍ ولا يحدث شيءٌ بالطَّريقة الَّتي توقَّعتِها....»

لكنْ لَوِ استطعتَ أنْ تبدأ مِنْ جديدٍ، فكَّرَت أيري، إذا أمكنكَ أنْ تعيدَهما إلَى منبع النَّهر، إلَى أوَّل القصَّة، إلَى أرض الوطن... ولكنَّها لَمْ تقل ذلك؛ لأنَّه يشعر بالأمر مثلما تشعر به وكلاهما يعرفان أنَّه ليس مُجديًا، مثل مطاردة أشباحك. سحبَت يدها بدلًا مِنْ ذلك مِنْ تحت يده ووضعتها فوقها، وأعادَت التَّربيت. «أوه، يا سيِّد إقبال. لا أعرف ماذا أقول....»

«لا توجد كلماتٌ. الواحد الَّذي أرسلتُه إلَى الوطن يعود رجلًا إنجليزيًّا أصيلًا، ببذلةٍ بيضاءَ، محاميًا بشعرٍ سخيفٍ مستعارٍ. والآخر الَّذي احتفظتُ به هُنا عضوٌ عاملٌ في إرهابٍ أُصوليٍّ يرتدي بَبيونًا أخضرَ. أتساءل - أحيانًا - لماذا أزعج نفسي،» قال صمد في مرارةٍ، وهو يفضح الانعطافات الإنجليزية لعشرين عامًا في البلاد. «أنا أفعل حقًّا. هذه الأيام، ينتابني شعورٌ أنَّك تعقد اتفاقًا مع الشَّيطان عندما تخطو إلَى هذا البلد. تسلِّم جواز سفرك عند الدُّخول، وتحصل عَلَى الختم، وتريد أنْ تصنع بعض المال، وتبدأ... ولكنَّك تنوي العودة! مَنْ يريد البقاء؟ باردًا، ومبلَّلًا، وبائسًا؛ الطَّعام البشع، والصُّحف المروِّعة - مَنْ يريد أنْ يبقى؟ في مكانٍ لَنْ يُرحِّب بك فيه أبدًا، أنتَ فقط مقبولٌ. مقبولٌ، لا أكثر. كما لَوْ كنتَ حيوانًا أليفًا في النِّهاية. مَنْ يريد أنْ يبقى؟ ولكنَّك عقدتَ اتفاقًا مع الشَّيطان... يجرُّك ثُمَّ تجد نفسك فجأةً غير قادرٍ عَلَى العودة، أطفالك لا يلاحظهم أحدٌ، وأنتَ تنتمي إلَى لا مكانٍ.»

«أوه، ذلك ليس صحيحًا، بالتَّأكيد.»

«وتبدأ بعدها في التَّخلِّي عَنِ الفكرة *الأصيلة* للانتماء. يبدو هذا الشَّيء فجأةً، هذا الانتماء، مثل كذبةٍ طويلةٍ، وقذرةٍ... وتبدأ في تصديق أنَّ أماكن الولادة مصادفاتٌ، أنَّ كُلَّ شيءٍ مصادفةٌ. ولكن إذا صدَّقتَ ذلك، فأين تذهب؟ وماذا تفعل؟ وما أهمِّية أيِّ شيءٍ؟»

بينما يصف صمد هذا الواقع المرير مع نظرة رعبٍ، شعرت أيري بالخجل وهي تجد أنَّ أرض المصادفات تلك بدَت كأنَّها الجنَّة بالنِّسبة إليها. بدَت كأنَّها الحرِّيَّة.

«هَلْ تفهمين، أَيَّتُها الطِّفلة؟ أعرف أَنَّكِ تفهمين.»

وما يقصده فعلًا هو: هَلْ نتحدَّث نفس اللُّغة؟ هَلْ نحن مِنْ نفس المكان؟ هَلْ نحن سواءٌ؟

ضغطَت أَيرِي عَلَى يده وأومأَت بقوَّةٍ، وهي تحاول أَنْ تمنع دموعه. أَيَّ شيءٍ آخر يمكنها أَنْ تقول سوى ما يريد سماعه؟

«نعم،» قالَت. «نعم، نعم، نعم.»

عندما عادَت هورتنس وريان إِلَى المنزل في تلك اللَّيلة بعد اجتماع صلاةٍ ليليَّةٍ متأخِّرٍ، كان كلاهما في حالةٍ مِنَ الإثارة العالية. اللَّيلة هي اللَّيلة. بعد أَنْ أعطى هورتنس سلسلةً مِنَ التَّعليمات تتعلَّق بالطِّباعة عَلَى الآلة الكاتبة والإخراج الفنِّيِّ لأحدث مقالاته لـبرج *المراقبة*، ذهب ريان إِلَى الرُّدهة لكَيْ يجري مكالمته إِلَى بروكلين كَيْ يتلقَّى الأخبار.

«ولكنَّني ظننتُ أَنَّه يتشاور معهم.»

«نعم، نعم، هو كذلك... ولكنَّ التَّأكيد النِّهائيَّ، أنت تعرفين، يجب أَنْ يأتي مِنَ السَّيِّد تشارلز وينتري نفسه في بروكلين،» قالت هورتنس بأنفاسٍ مبهورةٍ. «يا له مِنْ يومٍ هذا اليوم! يا له مِنْ يومٍ! ساعديني في رفع هذه الآلة الكاتبة الآن... أحتاجها أَنْ تكون عَلَى الطَّاولة.»

فعلَت أَيرِي ما قيل لها، وحملَت ريمنجتون[1] قديمةً هائلةً إِلَى المطبخ ووضعَتها أمام هورتنس. ناولَت هورتنس أَيرِي حزمةً مِنَ الأوراقِ البيضاءِ مغطاةً بنصِّ ريان الصَّغير.

«الآن اقرئي ذلك لي، يا أَيرِي أمبروزيا، ببطءٍ الآن... وسأكتبه عَلَى الآلة.»

قرأت أَيرِي لمدَّة نصف ساعةٍ أَوْ نحو ذلك، وهي تجفل مِنْ نثر ريان المتداخل البشع، وتمرِّر سائل التَّبييض عندما يتطلَّب الأمر، وتعضُّ عَلَى أسنانها مِنْ مقاطعات المؤلِّف، الَّذِي يطلُّ عَلَى الغرفة مرَّةً كُلَّ عشر دقائق لكَيْ يضبط جملةً أَوْ يعيد صياغة فقرةٍ.

«يا سيِّد توبس، هَلْ وصلتَ إِلَى شيءٍ حتَّى الآن؟»

«ليس بعد، يا سيِّدة ب، ليس بعد. مشغولٌ جدًّا، السَّيِّد تشارلز وينتري. سأحاول مرَّةً أخرى الآن.»

---

1 ـ شركة إي ريمنجتون وأبنائه كانت شركة متخصصة في الأسلحة النارية والآلات الكاتبة، أسسها إيليفالت ريمنجتون في نيويورك في عام 1816، وفي 1873 عرفت كأول شركة تنتج آلة كاتبة تجارية. (المترجم).

عبرَت جملةٌ، جملة صمد، دماغ أَيرِي المرهق. *أتساءل أحيانًا لماذا أزعج نفسي.* والآن بينما ريان خارج الطَّريق، وجدَت أَيرِي المفرصة لطرح سؤالها، الَّذِي صاغَته بعنايةٍ.

انحنَت هورتنس في مقعدها مرَّةً أخرى، ووضعَت يديها في حجرها. «لقَدْ ظللتُ أفعل هذا لوقتٍ طويلٍ جدًّا، يا أَيرِي أمبروزيا. لقَدِ انتظرتُ طوال الوقت منذُ أَنْ كنتُ طفلةً صغيرةً بجوارب طويلةٍ.»

«ولكنَّ هذا ليس سببًا ـــ»

«ماذا تعرفين عَنِ الأسباب؟ لا شيء بالمرَّة. كنيسة الشُّهود هي حيث توجَد جذوري. كانت طيِّبةً معي عندما لَمْ يكن أحدٌ آخر كذلك. وهي الشَّيء الحسن الَّذِي منحَتني أُمِّي إيَّاه، ولَنْ أتخلَّى عنه الآن ونحن قريبون جدًّا مِنَ النِّهاية.»

«لكنْ يا جدَّتي، إنَّه ليس... أنتِ لَنْ....»

«دعيني أخبرك بشيءٍ. أنا لستُ مثلهم الشُّهود، خائفين مِنَ الموت فقط. فقط خائفين. هم يريدون أَنْ يموت كُلُّ شخصٍ آخر ما عداهم. ذلك ليس سببًا لكَيْ تكرِّس حياتك للمسيح. أهدافي مختلفةٌ جدًّا. ما زلتُ آمل أَنْ أكون واحدةً مِنَ الممسوحين، حتَّى ولَوْ كنتُ امرأةً. أريد ذلك طوال حياتي. أريد أَنْ أكون هناك مع الرَّبِّ نعدُّ القوانين والقرارات.» تمطَّقت هورتنس طويلًا وبصوتٍ مرتفعٍ. «لقَدْ تعبتُ جدًّا مِنْ أَنَّ الكنيسة تخبرني دائمًا أَنَّني امرأةٌ أَوْ أَنَّني غير متعلِّمةٍ بما يكفي. كُلُّ شخصٍ يحاول تعليمكِ، يعلِّمكِ بخصوص هذا، ويعلِّمكِ بخصوص ذلك... تلك هي المشكلة مع النِّساء في هذه العائلة دائمًا. شخصٌ ما يحاول دائمًا أَنْ يعلِّمهن بخصوص شيءٍ ما، ويدَّعي أَنَّ كُلَّ ذلك يتعلَّق بالتَّعلُّم عندما يتعلَّق الأمر بالكامل بصراع الإرادات. ولكنْ إذا كنتُ واحدةً مِنَ المئة وأربعة وأربعين، فلَنْ يحاول أحدٌ *تعليمي*. سوف تكون تلك وظيفتي! سوف أضع قوانيني الخاصَّة ولَنْ أكون راغبةً في آراء أيِّ أحدٍ آخر. كانت أُمِّي قويَّة الإرادة في أعماقها، وأنا بالمثل. يعلم الله، أُمُّك كذلك. وأنتِ أيضًا.»

«اخبريني عَنْ أمبروزيا،» قالت أَيرِي وهي تكتشف ثغرةً في درع هورتنس يمكن للمرء أَنْ يتسلَّل مِنْ خلالها. «أرجوك.»

ولكنَّ هورتنس بقيَت صلبةً. «تعرفين ما يكفي بالفعل. الماضي انتهينا منه. لا أحد يتعلَّم منه شيئًا. أوَّل صفحة خمسةٍ لَوْ سمحتِ ـ أظنُّ أَنَّ ذلك ما كُنا عنده.»

عاد ريان في تلك اللَّحظة إِلَى الغرفة، بوجهٍ أكثر حمرةً مِنْ أيِّ وقتٍ مضى.

«ماذا، يا سيِّد توبس؟ هَلْ هو؟ هَلْ تعرف؟»

«ليكن الله في عون الوثنيِّين، يا سيِّدة ب، لأَنَّ اليوم في متناول اليد بالتَّأكيد! إِنَّه كما نصَّ عليه الرَّبُّ بشكلٍ واضحٍ في سفر الرُّؤيا. هو لَمْ يقرِّر ألفيَّةً ثالثةً عَلَى الإطلاق الآن، سأحتاج إِلَى تلك المادَّة المكتوبة مطبوعةً، ومِنْ بعدها أخرى سأُمليكِ إيَّاها بشكلٍ مُرتجَلٍ - سوف تحتاجين إِلَى مهاتفة كُلِّ أعضاء لامبيث، وتنشري الـــ»

«أوه، نعم، يا سيِّد توبس - لكنْ دعني فقط أفهم الأمر خلال دقيقةٍ... لا يمكن أَنْ يكون أيَّ موعدٍ آخر، أليس كذلك، يا سيِّد توبس؟ لقَدْ أخبرتُك أَنَّني أشعر به في عظامي.»

«لستُ واثقًا بخصوص المدى الَّذِي لعظامك شأنٌ فيه مع الأمر، يا سيِّدة ب. بالتَّأكيد هناك موثوقيَّةٌ أكبر للدِّراسة الشَّاملة الَّتِي قمتُ بها بنفسي وزملائي ـــ.»

«والرَّبُّ، كما يُفترَض،» قالت أَيرِي، وهي تقاطعه بنظرةٍ حادَّةٍ، وتذهب لكَيْ تحتضن هورتنس، الَّتِي كانت تهتزُّ بالنَّشيج. قبَّلَت هورتنس أَيرِي عَلَى خدَّيها، وابتسمَت أَيرِي للبلل الدَّافئ.

«أوه، يا أَيرِي أمبروزيا. أنا سعيدةٌ جدًّا أَنَّك هنا لتشاركيني هذا. أنا أعيش هذا القرن - الَّذِي جئتُ إِلَى العالم في زلزالٍ في بداياته الأولى، وسوف أرى الشَّرَّ وآثام الخاطئين مقبورةً في زلزالٍ ذي هديرٍ عظيمٍ مرَّةً أخرى. الثَّناء عَلَى الرَّبِّ! الأمر كما وعَدَ بعد كُلِّ شيءٍ. أنا أعرف أَنَّني سأفعلها. لدَيَّ سبع سنواتٍ فقط مِنَ الانتظار. اثنان وتسعون!»، مصَّت هورتنس أسنانها بازدراءٍ. «اللَّعنة! لقَدْ عاشت جدَّتي حتَّى رأت مئةً وثلاث سنواتٍ، وكانت المرأة تستطيع القفز عَلَى الحبل حتَّى اليوم الَّذِي سقطَت فيه وأُصيبَت بالبرد. أنا في طريقي لأَنْ أفعل ذلك. أفعله بهذا القدْر. عانت أمي لكَيْ تحضرني إِلَى هُنا - ولكنَّها عرفَت الكنيسة الحقيقيَّة بذلَت جهدًا؛ لكَيْ تدفعني خارج أقسى الظُّروف حتَّى يمكنني أَنْ أعيش لأرى ذلك اليوم المجيد.»

«آمين.»

«أوه، آمين، يا سيِّد توبس. ارتدِ البذلة الكاملة لدرع الرَّبِّ! الآن، يا أَيرِي أمبروزيا، اشهدي عَلَيَّ وأنا أقولها: سوف أكون هناك. وسوف أكون في جامايكا لكَيْ أرى ذلك. أنا

ذاهبةٌ إِلَى الوطن في عام إلهنا ذلك. ويمكن لكِ أَنْ تأتي إِلَى هناك - أيضًا - إذا تعلَّمتِ مِنّي وأنصتِّ. هَلْ تريدين المجيء إِلَى جامايكا في العام ألفين؟»

أطلقَت أَيرِي صرخةً صغيرةً وهُرعت لكَيْ تمنح جدَّتها عناقًا ثانيًا.

مسحت هورتنس دموعها بمئزرها. «يا للرَّبِّ يسوع، لقَدْ عشتُ هذا القرن! حسنًا وبشكلٍ حقيقيٍّ لقَدْ عشتُ هذا القرن الرَّهيب بكلِّ مشكلاته ومضايقاته. وشكرًا لك، يا إلهي، أَنَّني سأشعر بالدَّمدمات عند طرفيه معًا.»

ماجد ومِلَّة وماركوس

1992، 1999

fundamental ـــ أساسيٌّ، أَوْ أصليٌّ/ صفةٌ واسمٌ. إنجليزيَّةٌ وُسطى متأخرةٌ. صفةٌ. 1 مِنْ أَوْ يتعلَّق بالأسس أَوْ الأصل، وصولًا إِلَى جذر المسألة. 2 يتحقَّق كقاعدةٍ أَوْ أساسٍ؛ ضروريٌّ أَوْ لا غنًى عنه. 3 أيضًا، أوّليٌّ، وأصليٌّ؛ الَّذِي يستمدُّ الآخِرون منه. 4 مِنْ أَوْ يتعلَّق بأساس(ات) مبنى. 5 مِنْ طبقةٍ: أدنى، تستقرُّ في القاع.

Fundamentalism ـــ أصوليَّة/ اسمٌ. إنجليزيَّة القرن العشرين (مؤنَّثٌ. بادئةٌ + ism ـ): محافظةٌ صارمةٌ عَلَى المعتقدات الدِّينيَّة التَّقليديَّة أَوِ المذاهب؛ خصوصًا. الاعتقاد في عصمة النُّصوص الدِّينيَّة.

ـــ قاموس أوكسفورد المختصر الجديد للإنجليزية.

يجب أَنْ تتذكَّر هذا، ما تزال القُبلة قُبلةً
والتَّنهيدة ليست سوى تنهيدةٍ؛
الأشياء الأساسيَّة تسري،
مع مرور الوقت.

ـــ هرمان هوبفيلد، «مع مرور الوقت» (أغنية 1931)

الفصل السادس عشر
عودة ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال

«عفوًا، أنتَ لَنْ تدخِّن ذلك، أليس كذلك؟»

أغلق ماركوس عينَيه. هو يكره هذا البناء اللُّغويّ. يريد - دائمًا - أَنْ يجيب بانحرافٍ نَحْويٍّ مساوٍ: نعم: أنا لَنْ أدخِّن ذلك. لا، سوف أدخِّن ذلك.

«عفوًا، لقَدْ قلتُ إنَّك ـــ »

«نعم، لقَدْ سمعتُكِ في المرَّة الأولى،» قال ماركوس في هدوءٍ، وهو يلتفت إِلَى يمينه لكَيْ يرى المتحدِّثة الَّتِي تشاركه مسندًا واحدًا للذِّراع، خُصِّص كُلُّ كرسيَّين بواحدٍ فقط بينهما في الصَّفِّ الطَّويل مِنَ البلاستيك المصبوب. «هَلْ هناك ما يمنعني مِنْ ذلك؟»

تلاشى الانزعاج مع مرأى محاوِرته: فتاةٍ آسيويَّةٍ جميلةٍ ونحيلةٍ، مع فجوةٍ جذَّابةٍ بين أسنانها الأماميَّة، وبنطلونٍ عسكريٍّ، وربطة ذيل حصانٍ عاليةٍ، تضمُّ في حضنها (مِنْ بين كُلِّ الأشياء!) نسخةً مِنْ كتابه المشترك للعلوم المبسَّطة مِنَ الرَّبيع الماضي (مع الرِّوائيِّ سوري ت. بانكس): *القنابل الموقوتة وساعات الجسم: مغامراتٌ في مستقبلنا الوراثيِّ.*

«نعم، هناك سببٌ، أيُّها *السَّافل*. لا يمكنك التَّدخين في مطار هيثرو[1]. ليس في هذا الجزء منه. وبالتَّأكيد لا يمكنك أَنْ تدخِّن غليونًا حقيرًا. وهذه المقاعد ملتصقةٌ ببعضها وأنا أعاني مِنَ الرَّبو. هَلْ هي أسبابٌ كافيةٌ؟»

هزَّ ماركوس كتفيه في ودٍّ. «نعم، وأكثر. كتابٌ جيِّدٌ؟»

هذه تجربةٌ جديدةٌ بالنِّسبة إِلَى ماركوس. أَنْ يلتقي واحدةً مِنْ قُرَّائه. أَنْ يلتقي واحدةً مِنْ قُرائه في صالة الانتظار في مطارٍ. ظلَّ كاتب نصوصٍ أكاديميَّةٍ طوال حياته،

1 ـ مطار دولي يقع غرب العاصمة البريطانية لندن، يعد مطار هيثرو أكبر المطارات البريطانية، وثالث أكثر مطارات العالم ازدحامًا من ناحية حركة المسافرين. (المترجم).

نصوصٍ جمهورها صغيرٌ ومُنتقًى، وهو يعرفهم شخصيًا في العادة. لَمْ يطلق عمله إِلَى العالم مِنْ قبل مثل علب المفاجآت، غير واثقٍ أين ستهبط الشَّرائط المختلفة.

«عذرًا؟»

«لا تقلقي، لَنْ أدخِّن إذا لَمْ تريديني أَنْ أفعل. أتساءل فقط، هَلْ هذا كتابٌ جيّدٌ؟»

قلبت الفتاة وجهها، الَّذِي لَمْ يكن بالجمال الَّذِي ظنَّه ماركوس فِي البداية، الفكُّ صبيانيٌّ حادٌّ. أغلقَت الكتاب (الَّذِي كانت فِي منتصفه) ونظرَت إِلَى غلافه كما لَوْ نسيَت أيَّ كتابٍ كان.

«أوه، إنَّه جيِّدٌ، عَلَى ما أظنُّ. غريبٌ بعض الشَّيء. بعضٌ مِنَ العبث بالدِّماغ.»

عبس ماركوس. كان الكتاب اقتراح وكيله: كتابًا تثقيفيًّا فِي مستوًى متوسِّطٍ بين المتخصِّص والعام، حيث يكتب ماركوس فصلًا مِنَ «العلم الصَّعب» حول تطوُّرٍ معيَّنٍ فِي علم الوراثة، ثُمَّ يكتب الرُّوائيُّ فصلًا توأمًا له يستكشف تلك الأفكار مِنْ زاوية رؤيةٍ مستقبليَّةٍ، خياليَّةٍ، وما إذا قاد هذا إِلَى ذاك، وهكذا لثمانية فصولٍ لكُلٍّ منهما. لدى ماركوس أبناءٌ ينضمُّون إِلَى الجامعة، بالإضافة إِلَى دراسة ماجد القانونيَّة لكَيْ يفكِّر بشأنها، ووافق عَلَى المشروع لأسبابٍ ماليَّةٍ. وحتَّى هذه اللَّحظة، لَمْ يحظ الكتاب بالنَّجاح الَّذِي كان مأمولًا أَوْ مطلوبًا، وعندما فكَّر ماركوس فِي الأمر بأكمله رآه فشلًا. لَكِنْ غريبٌ؟ وعبثٌ بالدِّماغ؟

«ممم، غريبٌ عَلَى أَيِّ نَحْوٍ؟»

بدَت الفتاة مرتابةً بشكلٍ مفاجئٍ. «ما هذا؟ استجوابٌ؟»

انكمش ماركوس إِلَى الوراء قليلًا. كانت ثقته التشالفينيَّة دائمًا أقلَّ ظهورًا عندما يضلُّ طريقه إِلَى الخارج، بعيدًا عن حضن عائلته. هو رجلٌ مباشِرٌ لا يرى جدوى فِي السُّؤال عَنْ أَيِّ شيءٍ سوى بأسئلةٍ مُباشِرةٍ، ولكنَّه انتبه فِي السَّنوات الأخيرة إِلَى أَنَّ هذه المباشَرة لَمْ تكن تنال إجاباتٍ مباشِرةً دائمًا مِنَ الغرباء، مثلما تفعل فِي دائرته الصَّغيرة. فِي العالم الخارجيِّ، خارج زملائه وبيته، ينبغي للمرء أَنْ يضيف أشياء إِلَى الكلام. خصوصًا لو كان المرء غريب المظهر إِلَى حدٍّ ما، كما ظنَّ ماركوس أَنَّه كذلك: إذا كان المرء قديمًا نوعًا ما، بشعرٍ مجعَّدٍ غريب الأطوار ونظَّارات تنقصها الحوافُّ السُّفلى. يجب أَنْ تضيف أشياء إِلَى كلامكَ لكَيْ تجعله أكثر قبولًا. المجاملات والعبارات عديمة الفائدة، الرَّجاءات والتَّشكُّرات.

«لا، ليس استجوابًا. فكّرتُ في قراءته فقط أنا نفسي، كما ترين. سمعتُ أَنّه جيّدٌ جدًّا، كما تعلمين.وأتساءل لماذا تظنّين أَنّه غريبٌ.»

أرخَت الفتاة، الّتِي قرَّرَت أَنَّ ماركوس ليس سفاحًا ولا مُغتصبًا، عضلاتِها واستراحَت في مقعدها. «أوه، لا أعرف. ليس غريبًا جدًّا، كما أظنُّ، بَلْ هو مخيفٌ بالأحرى.»

«مخيفٌ كيف؟»

«حسنًا، إنّها مخيفةٌ، أليس كذلك، كُلُّ هذه الهندسة الوراثيّة؟»

«أهي كذلك؟»

«نعم، كما تعلم، العبث بالجسد. هم يعتقدون أَنَّ هناك جينًا للذّكاء، للنّشاط الجنسيِّ ـ ولكُلِّ شيءٍ عمليًّا، هَلْ تعلم؟ تكنولوجيًّا تأليف الحمض النّوويِّ،» قالت الفتاة، وهي تستخدم المصطلح بحذرٍ، كما لَوْ أَنّها تختبر الماء؛ لكَيْ تعرف مقدار ما يعرفه ماركوس. ومع عدم ملاحظة أَيِّ تعبيرٍ عَلَى وجهه، واصلت بمزيدٍ مِنَ الثّقة. «ما إِنْ تعرف الأنزيم المحدَّد لشيءٍ مثل قطعةٍ مِنَ الحمض النّوويِّ، فإِنَّك تستطيع أَنْ تشغّل أَيَّ شيءٍ أَوْ تطفئه، مثل جهاز ستريو لعينٍ. ذلك ما يفعلونه بتلك الفئران المسكينة. إِنّه أمرٌ مخيفٌ سافلٌ. ناهيك عن ذكر أشياء مثل مُسبّبات المرض، وعَلَى سبيل المثال، إنتاج الأمراض، والكائنات الحيَّة الّتِي يضعونها في أطباق بِتْري[1] في جميع أنحاء المكان. أعني، أنا دارسة علومٍ سياسيَّةٍ، نعم، وأنا مثل: ما الّذِي يخلقونه؟ ومَنِ الّذِي يريدون محوَه؟ لا بدَّ أَنْ تكون ساذجًا بشكلٍ حقيقيٍّ إذا لَمْ تعتقد أَنَّ الغرب ينوي استخدام هذا الهراء في الشّرق، عَلَى العرب. كطريقةٍ سريعةٍ للتّعامل مع المسلمين الأصوليّين ـ لا، بجدِّيةٍ، يا رجل،» قالت الفتاة ردًّا عَلَى الحاجب المرفوع مِنْ قبل ماركوس، «الأشياء تزداد رعبًا. أعني، بقراءة هذا الهراء فإِنّك تلاحظ ـ بالكاد ـ كَمْ أَنَّ العلم قريبٌ مِنَ الخيال العلميِّ.»

بقدر ما أمكن لماركوس أَنْ يرى، فالعلم والخيال العلميُّ مثل سفينتَين في اللّيل، تعبران إحداهما الأخرى في الضّباب. الإنسان الآليُّ في الخيال العلميِّ، عَلَى سبيل المثال ـ وحتَّى في توقُّعات ابنه أوسكار للإنسان الآليِّ ـ عَلَى مسافة ألف سنةٍ مِنْ أَيِّ شيءٍ يمكن لصناعة الآليّين أَوْ الذّكاء الاصطناعيِّ أَنْ يصلا إليه حتَّى الآن. فبينما يغنّي الآليُّون في ذهن أوسكار، ويرقصون، ويتعاطفون مع كُلِّ فرحٍ أَوْ خوفٍ لديه، هناك بعض الأنذال المساكين في معهد ماساتشوستس للتِّكنولوجيا يحاولون في بطءٍ وبجهدٍ كبيرٍ

1 ـ وعاء مسطح دائري الشكل وشفاف مع غطاء، يصنع من الزجاج أو من اللدائن، ويستعمل من قِبَل علماء الأحياء لزراعة الخلايا، ويستعمله علماء الكيمياء لحفظ بعض المركبات ووزنها. (المترجم).

أَنْ يحصلوا عَلَى آلةٍ تعيد إنتاج حركات إبهامٍ بشريٍّ واحدٍ. وعَلَى الجانب الآخر مِنَ العُملة، فأبسط الحقائق البيولوجيَّة-بنية خلايا الحيوانات عَلَى سبيل المثال، ظلَّت لغزًا محيِّرًا للجميع سوى أطفال الأربعة عشر عامًا والعلماء مثله هو شخصيًّا: الَّذِين قضى الأوَّلون وقتهم يرسمونها في الفصل، والآخرون يحقنونها بالأحماض الوراثيَّة الغريبة. وفي المنتصف، أَوْ هكذا بدَا الأمر لماركوس ـ تدفَّق محيطٌ هائلٌ مِنَ الحمقى ـ وأصحاب نظريَّة المؤامرة، والمهووسين الدِّينيِّين، والرِّوائيِّين المتغطرسين، وناشطي حقوق الحيوان، وطلَّاب العلوم السِّياسيَّة، وجميع السُّلالات الأخرى مِنَ الأصوليِّين الَّذِين أعلنوا اعتراضاتٍ غريبةً عَلَى عمل حياته. منذ نال فأر مستقبله بعض الاهتمام العام، في الشُّهور القليلة الماضية، اضطرَّ إِلَى الإيمان بهؤلاء الناس، إِلَى الإيمان بأنَّهم موجودون بالفعل وبشكلٍ جماعيٍّ، وكان هذا مِنَ الصُّعوبة بالنِّسبة إليه بالقدر الَّذِي قَدْ يتمُّ أخذه فيه إِلَى طرف الحديقة وإخباره أَنْ هنا تعيش الجنِّيَّات.

«أعني، إنَّهم يتحدَّثون عَنِ التَّقدُّم،» قالت بقوَّةٍ، وقَدْ أصبحَت متحمِّسةً بعض الشَّيء. «إنَّهم يتحدَّثون عَنْ قفزاتٍ سريعةٍ في مجال الطِّبِّ إلخ إلخ إلخ، ولكنْ خلاصة القول، إذا عرف شخصٌ ما كيف يقضي عَلَى الصِّفات ‹غير المرغوب بها› في البشر، فهَلْ تظنُّ أَنَّ بعض الحكومات لَنْ تقوم بذلك؟ أعني، ما هو غير المرغوب؟ هناك شيءٌ ما فاشيٌّ[1] بعض الشَّيء فقط في الموضوع بأكمله... أظنُّ أَنَّه كتابٌ جيِّدٌ، لَكِنْ في عدَّة نقاطٍ أنتَ تفكِّر: إِلَى أين نحن ذاهبون هنا؟ ملايين الشَّقراوات بعيونٍ زرقاء؟ شراء الأطفال بالبريد؟ أعني، إذا كنتَ هنديًّا مثلي، فإنَّ لديكَ شيئًا لكَيْ تقلق بخصوصه، نعم؟ وبعد ذلك هم يزرعون السَّرطانات في المخلوقات المسكينة، مثل، مَنْ أنتَ لتعبث بتكوين فأرٍ؟ في الواقع تخليق حيوانٍ فقط بحيث يمكن أَنْ يموت ـ إنَّه مثل أَنْ تكون إلهًا! أقصد بشكلٍ شخصيٍّ أنا هندوسيَّةٌ، نعم؟ لستُ متديِّنةً أَوْ شيئًا مِنْ هذا القبيل، لَكِنْ أنتَ تعلم، أنا أؤمِنُ بقدسيَّة الحياة، نعم؟ وهؤلاء النَّاس، مثل ـ يبرمجون الفأر ـ يخطِّطون كُلّ خطوةٍ له، نعم، مَتَى ينجب، ومَتَى يموت. إنَّه فقط أمرٌ غير طبيعيٍّ.»

أومأ ماركوس وحاول أَنْ يخفي إرهاقه. مِنَ المرهق فقط أَنْ يستمع إليها. ليس هناك أَيُّ مكانٍ في الكتاب تطرَّق ماركوس فيه إِلَى تحسين النَّسل ـ ليس هذا مجاله، وليس لديه أَيُّ اهتمامٍ خاصٍ به. ومع ذلك فقَدْ تمكَّنَت هذه الفتاة مِنْ قراءة كتابٍ يهتمُّ بالكامل تقريبًا بالتَّطوُّرات الأكثر حرجًا في إعادة تأليف الحمض الوراثيِّ ـ العلاج

1 ـ الفاشية: مذهب سياسي واقتصادي، نشأ بإيطاليا في هذا القرن، يقوم على نظام النقابات، وعلى تدخُّل الدولة في كل مظاهر النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني. (المترجم).

الجينيّ، والبروتينات لتذويب جلطات الدّم، واستنساخ الأنسولين - وخرجَت منه مملوءةً بأوهام صحف التّابلويد المعتادة عَنِ الفاشية الجديدة، والاستنساخ الطّائش للبشر، والتّوريث المتعمّد للخصائص الجنسيّة والعرقيّة، والأمراض المتحوّرة، إِلَى آخره. الفصل المتعلّق بفأره هو الوحيد الَّذِي يمكن أَنْ يثير ردَّ فعلٍ هستيريٍّ هكذا. كُلُّ هذا تجاه فأره الَّذِي أشار إليه عنوانّ الكتاب (فكرة الوكيل، مرّةً أخرى)، وكان فأره ما حطَّ عليه اهتمام وسائل الإعلام. يرى ماركوس الآن بوضوحٍ ما شكَّ فقط فيه سابقًا، أَنّه إذا لَمْ يتعلّق الأمر بالفأر فلرُبّما كان هناك اهتمامٌ أقلُّ بالكتاب كاملًا. لَمْ يبدُ أَنَّ أيَّ عملٍ آخر شارَك فيه ليعلَق فِي خيال الجمهور مثلما فعل فأره. أثار النّاس تقرير مستقبل فأرٍ؛ لأَنَّ النّاس رأوه، بالضّبط، بتلك الطّريقة: لَمْ يكن الأمر تحديد مستقبل السّرطان، أَوِ الدّورة التّناسليّة، أَوْ إمكانيّة أَنْ تعمّر. بَلْ تقرير مستقبل الفأر. ركّز النّاس عَلَى الفأر بطريقةٍ لَمْ تفشل قطُّ فِي إصابته بالدّهشة. بدَوا غير قادرين عَلَى التّفكير فِي الحيوان كموقعٍ، موقعٍ بيولوجيٍّ للتّجريب فِي الوراثة، فِي المرض، وفِي الوفاة. وبدَت فئرانيّة الفأر أمرًا لا مفرَّ منه. ظهرَت صورةٌ مِنْ مختبر ماركوس لواحد مِنْ فئرانه المعدَّلة وراثيًّا جنبًا إِلَى جنبٍ مع مقالةٍ حول الصِّراع عَلَى براءة الاختراع فِي *التّايمز*. وتلقّى كُلٌّ مِنْهُ ومِنَ الجريدة طنًّا مِنْ رسائل الكراهية مِنْ فئاتٍ فِي تنوُّع جمعيّة السّيّدات المحافظات، واللّوبي المضادُّ للتّشريح، وأُمّة الإسلام، وراعي كنيسة سانت أجنيس، فِي بيركشاير، وهيئة تحرير مجلّة الطّلبة اليساريّة المتطرّفة. اتّصلَت البيجوم نينا به لكَيْ تخبره أَنّه سوف يعود فِي حياةٍ أخرى فِي جسد صرصورٍ. راجعَت جليناردأوك، الحاسمة دائمًا تجاه تحوُّلات مدّ وسائل الإعلام، دعوتها لماركوس لكَيْ يأتي إِلَى المدرسة خلال أسبوع العلوم القوميّ. ابنه نفسه، جوشواه، ما زال يرفض الحديث إليه. هزّه جنون ذلك كُلُّه بشكلٍ حقيقيٍّ. *الخوف* الَّذِي أثاره عَنْ غير قصدٍ. وكُلُّ ذلك بسبب أَنَّ العامّة يسبقونه بثلاث خطواتٍ مثل إنسان أوسكار الآليّ، قاموا بخطوتهم الأخيرة بالفعل، واستنتجوا فعلًا ما ستكون عليه نتائج بحثه - شيئًا لَمْ يدَّعِ تخيُّله! - مليئًا بحيواناتهم المستنسَخة، والزّومبيّين، والأطفال المُصمَّمين، مِثليّي الجينات. يفهم بالطّبع أَنَّ العمل الَّذِي قام به يتعلّق بنسبةٍ ما بالحظّ الأخلاقيّ[1]؛ وهو كذلك

1 - تعبير يصف الظروف الّتِي يتعرض عندها وكيل للوم الأخلاقي أَوْ للثناء على عمل أَوْ عواقبه حتّى إذا كان من الواضح أن هذا الوكيل لَمْ يكن لديه كامل السيطرة على العمل أَوْ نتائجه. هذا المصطلح الذي طرحه برنارد ويليامز، تم تطويره إِلَى نظرية أخلاقية متماسكة من قبل ويليام وتوماس ناجل فِي مقالاتهما حول هذا الموضوع. ويعرف ناجل الحظ الأخلاقي بأنه حيث يعتمد جانب كبير مما يقوم به شخص ما على عوامل خارجة عن إرادته، ومع ذلك فإننا نظل نعامله فِي هذا الخصوص كموضوع للتقييم الأخلاقي. (المترجم).

لجميع رجال العلم. أنتَ تعمل ـ جزئيًّا ـ في الظَّلام، غير واثقٍ مِنْ تداعيات المستقبل، غير متأكِّدٍ أيَّ سوادٍ قَدْ يحمله اسمك، أيَّة أجسادٍ سوف تتمدَّد عَلَى بابك. لا أحد يعمل في حقلٍ جديدٍ، يقوم بأعمالٍ ملهمةٍ فعلًا، يمكنه أَنْ يثق في عبور هذا القرن أَوِ القرن القادم بدون دمٍ عَلَى كفَّيه. ولكنْ هَلْ نُوقِف العمل؟ هَلْ نُسكِت أينشتاين؟ نربط يدي هايزينبرج[1]؟ ما الَّذي نأمل في الوصول إليه؟

«لكنْ بالتَّأكيد،» بدَأَ ماركوس، مصدومًا أكثر ممَّا توقَّع مِنْ نفسه أَنْ يكون، «بالتَّأكيد ليست هذه هي المسألة. كُلُّ الحيوانات مُبرمجةٌ منطقيًّا لكَيْ تموت. إنَّها الطَّبيعة بامتيازٍ. إذا بدَا ذلك عشوائيًّا، فذلك فقط؛ لأنَّنا لا نفهمه بوضوحٍ، كما ترَين. نحن لا نفهم كما ينبغي لماذا يبدو بعض النَّاس ميَّالين للسَّرطان. نحن لا نفهم كما ينبغي لماذا يموت بعض النَّاس لأسبابٍ طبيعيَّةٍ في الثَّالثة والسِّتِّين والبعض في التَّاسعة والسَّبعين. بالتَّأكيد يجدر باهتمامنا أَنْ نعرف أكثر بعض الشَّيء عَنْ هذه الأشياء. وبالتَّأكيد فإنَّ أهمية شيءٍ ما مثل فأر الأونكو[2] هي في أنَّنا نحصل عَلَى الفرصة لأنْ نرى الحياة والموت خطوةً خطوةً تحتَ المِجهـــ»

«نعم، حسنًا،» قالت الفتاة، وهي تضع الكتاب في حقيبتها. «أيًّا كان. لا بدَّ لي مِنَ الذِّهاب إِلَى البوَّابة 52. كان مِنَ اللَّطيف الحديث إليك. لَكِنْ نعم، ينبغي بالتَّأكيد أَنْ تقرأه. أنا معجبةٌ كبيرةٌ بسوري ت. بانكس... إِنَّه يكتب بعض الهراء الفظيع.»

شاهد ماركوس الفتاة وذيل حصانها الوثَّاب تتقدَّم عَلَى الممرِّ الواسع حتَّى اندمجَت مع غيرها مِنَ الفتيات ذوات الشَّعر الدَّاكن ثُمَّ اختفَت. وعَلَى الفور، شعر بالارتياح وتذكَّر ببهجةٍ موعده هو مع البوابة رقم 32 وماجد إقبال، الَّذي كان مِنْ نوعية مختلفةٍ تمامًا، أَوْ غلايَّةً أكثر سوادًا[3]، أَوْ أَيًّا كان التَّعبير. مع خمس عشرة

1 ـ فيرنر كارل هايزينبرج (5 ديسمبر 1901–1 فبراير 1976): فيزيائي ألماني وحائز على جائزة نوبل عام 1932. اكتشف أحد أهم مبادئ الفيزياء الحديثة وهو مبدأ عدم التأكد. من مؤلفاته الجزء والكل والفلسفة والفيزياء والطبيعة في الفيزياء. (المترجم).

2 ـ ويطلق عليه فأر هارفارد، هو نوع من فئران التجارب تم تعديله ـ جينيًّا ـ باستخدام تعديلات أجراها فيليب ليدر وتيموثي أ. ستيوارت من جامعة هارفارد؛ ليحمل جينًا محددًا يسمى جين الأنكو النشط الذي يزيد من احتمالات إصابة الفأر بالسرطان، وهكذا يصبح الفأر مناسبًا لأبحاث السرطان. (المترجم).

3 ـ هناك ربط جناسي بين تعبيرين: a different kettle of fish بمعنى: مختلف تمامًا أو على النقيض من، و the pot calling the kettle black وهو تعبير عن الإسقاط بالمعنى السيكولوجي. (المترجم).

دقيقةٌ باقيةٌ، تخلَّى عن قهوته، الَّتِي تحوَّلَت سريعًا مِنْ ساخنةٍ جدًّا إِلَى فاترةٍ، وبدأ في السَّير في اتِّجاه المنحدر رقم 50.

دار تعبير «لقاء العقول» في رأسه. يعرف أَنَّ هذا شيءٌ سخيفٌ يفكِّر فيه بخصوص فتًى في السَّابعة عشرةَ، ولكنْ يظلُّ أَنَّه فكَّر في الأمر، *وأحسَّ* به: بغبطةٍ بعينها، رُبَّما بشكلٍ يساوي الشُّعور الَّذِي عايشه مرشده الخاصُّ عندما دخل ماركوس تشالفين ذو السَّبعة عشر عامًا إِلَى مكتبه الخانق في الكليَّة لأوَّل مرَّةٍ. بارتياحٍ ما. يعلم ماركوس المنفعة المتبادَلة الَّتِي تجري في تكلُّفٍ مِنَ المرشد إِلَى الرَّبيب إِلَى المرشد مِنْ جديد (آه، لكنَّكَ عبقريٌّ وتتنازل بقضاء وقتك معي! آه، ولكنَّنِي عبقريٌّ واستقطبتُ اهتمامكَ متجاوزًا الآخرين جميعهم!). ومع ذلك، فقدْ لاطَف نفسه. سعيدًا بأَنْ يلتقي بماجد في المرَّة الأولى وحده، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه تمنَّى أَلَّا يكون مذنبًا بتخطيط الأمر عَلَى هذا النَّحو. كان الأمر كُلُّه سلسلةً مِنَ الحوادث السَّعيدة. تعطَّلَت سيَّارة آل إقبالٍ، ولَمْ تكن سيَّارة ماركوس بقسمها الخلفيِّ للبضائع (هاتشباك) تتَّسع. وأقنع صمد وألسانا أَنَّه لَمْ تكن لتبقى مساحةٌ كافيةٌ لحقائب ماجد إذا جاءا معه. وكان مِلَّة في تشستر مع كيفن ونُقِلَ عنه قوله (في لغةٍ تُذكِّر بأيَّامه مع أفلام المافيا): «ليس لدَيَّ أخٌ.» وأَيري لدَيها امتحانٌ. ورفض جوشوا أَنْ يركب أَيَّ سيَّارةٍ ما دام ماركوس فيها، في الواقع، لقَدْ تخلَّى عَنِ السَّيَّارات بشكلٍ عامٍّ في الوقت الحاضر، وتبنَّى خيار الإطارين الأخلاقيَّ تجاه البيئة. بقدر ما بلغَت قرارات جوشوا، بقدر ما شعر ماركوس بنفس شعوره تجاه جميع القرارات الإنسانيَّة مِنْ هذا النَّوع. لا يمكن للمرء لا أَنْ يقبلها ولا أَنْ يختلف معها *كأفكارٍ*. ليس هناك نمطٌ إيقاعيٌّ ولا سببٌ للكثير ممَّا يفعله النَّاس. وخلال انفصاله الحاليِّ عَنْ جوشوا شعر بالعجز أكثر مِنْ أَيِّ وقتٍ مضى. آلمه أَنَّه حتَّى ابنه نفسه ليس بالتشالفينيَّة الَّتِي تمنَّاها. وبنى آمالًا كبرى عَلَى ماجد خلال الشُّهور القليلة الماضية (وهذا سوف يشرح لماذا تسارعت الوتيرة، البوَّابة 28، البوَّابة 29، البوَّابة 30)؛ رُبَّما بدَأ في الأمل، بدَأ في *الإيمان*، بأَنَّ ماجد سيكون منارةً لمنهج التَّفكير التشالفينيِّ السَّليم، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه مات موتًا هنا في البرِّيَّة. سوف *ينقذان* أحدهما الآخر. *لا يمكن أَنْ يكون هذا إيمانًا، أليس كذلك، يا ماركوس؟* سأل نفسه بشكلٍ مباشرٍ بخصوص هذه النُّقطة وهو يركض عَلَى الطَّريق. أثار السؤال أعصابه لمسافة بوَّابةٍ ونصفٍ. ثُمَّ مضى وكانت الإجابة مُطمْئِنَةً. ليس إيمانًا، لا، يا ماركوس، ليس ذلك النَّوع الَّذِي لا يملك عينَين. بَلْ شيئًا ما أكثر قوَّةً، شيئًا أكثر ثباتًا. *إيمانًا فكريًّا*.

إذنْ. البوَّابة رقم 32. هما الاثنان فقط - إذنْ - يلتقيان في النِّهاية، بعد أنْ قاما بغزو الفجوة بين القارَّات، المعلِّم والطَّالب الواعد، وعندها تلك المصافحة التَّاريخيَّة الأولى. لَمْ يتصوَّر ماركوس لثانيةٍ أنَّ الأمر قَدْ يسوء. لَمْ يكن دارسًا للتَّاريخ (وقَدْ علَّمه العلم أنَّ الماضي هو حيث كُنَّا نفعل الأشياء في مرآةٍ، في لغزٍ[1]، بينما المستقبل برَّاقٌ دائمًا، مكانٌ حيث كُنا نفعل الأشياء بشكلٍ صحيحٍ أَوْ عَلَى الأقلِّ بشكلٍ أكثر صحَّة)، وليست لديه قصَّةٌ تخيفه تتعلَّق برجلٍ أسمر يلتقي رجلًا أبيضَ. يحمل كلاهما آمالًا كُبرى، ولكنَّ واحدًا منهما فقط يملك القوَّة. وهو لَمْ يُحضر قطعةً مِنَ الورق المقوَّى أيضًا، ولا لافتةً كبيرةً باسمٍ فوقها، مثل بقيَّة زملائه مِنَ المنتظِرين، وبينما يتلفَّت عند البوَّابة 32، شغل الأمر اهتمامه. كيف سيعرفان بعضهما بعضًا؟ ثُمَّ تذكَّر أنَّه سيلتقي بتوأمٍ، وجعله تذكُّر ذلك ينفجر في الضِّحك. كان ذلك رائعًا وساميًا، حتَّى بالنِّسبة إليه، أَنَّ فتًى ينبغي أَنْ يخرج مِنْ هذا النفق بشفرةٍ وراثيَّةٍ مطابقةٍ تمامًا لفتًى يعرفه بالفعل، وعَلَى الرَّغم مِنْ ذلك فهما، بكُلِّ الطُّرق الممكنة، مختلفان. كيف سيراه ومع ذلك لا يراه. سوف يميِّزه ومع ذلك سيكون هذا التَّمييز زائفًا. قبل أَنْ يملك فرصةً لكَيْ يفكِّر فيما يعنيه هذا، إذا عَنَى أيَّ شيءٍ، تقدموا نحوه، مسافرو رحلة الطَّيران البريطانيِّ رقم 261؛ وهُرع حشدٌ بُنِّيٌّ مِنَ الثَّرثارين وإِنْ كانوا مُنهكين في اتِّجاهه مثل نهرٍ، مُغيِّرين مسارهم في اللَّحظة الأخيرة كما لَوْ أنَّه حافَّة شلَّالٍ. نوموسكار[2]... سا - لامُ اليكوم... كامون اتشو[3]؟ هذا ما قالوه أحدهم للآخر ولأصدقائهم في النَّاحية الأخرى مِنَ الجِدار، بعض النساء في بُردةٍ كاملةٍ، وبعضهنَّ بالسَّاري، والرِّجال في خليطٍ غريبٍ مِنَ الأقمشة والجلد والتُّويد والصُّوف والنَّايلون، مع القليل مِنْ قبَّعات القارب الَّتِي ذكَّرَت ماركوس بنهرو؛ واندفع أطفالٌ في ستراتٍ صُنعَت في تايوان وحقائب ظهرٍ بالأحمرِ والأصفرِ البرَّاقَين عبر الأبواب إِلَى الطَّابق السُفليِّ في البوابة 32: يلتقون عمَّاتهم، ويلتقون السَّائقين، ويلتقون أطفالًا، ويلتقون موظَّفين، ويلتقون ممثِّلي شركة الطَّيران ذوي الأسنان البيضاء الَّذِين لوَّحتهم الشَّمس...

«أنتَ السَّيِّد تشالفين.»

لقاء العقول. رفع ماركوس رأسه لكَيْ ينظر إِلَى الشَّابِّ الطَّويل الواقف أمامه. له وجه مِلَّة، بالتَّأكيد، ولكنَّه منحوتٌ بشكلٍ أوضح، وأصغر في مظهره بصورةٍ ما.

1 - يوجد اقتباس من رسالة بولس الأولى إِلَى أهل كورنثوس: 13:12: «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ، لكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ». (المترجم).

2 - نوموسكار: تحية بنجالية. (المترجم).

3 - كيف حالك بالبنجالية. (المترجم).

لَمْ تكن العينان بنفسجيَّتان جدًّا، أَوْ عَلَى الأقلِّ ليست بنفسجيَّتهما صارخةً. والشَّعر مرسلٌ بأسلوب المدارس الإنجليزيَّة العامَّة، ممشَّطٌ للأمام. والبنية قويَّةٌ وصحيَّةٌ. لَمْ يكن ماركوس بارعًا في الملابس، لَكِنْ يمكنه أَنْ يقول عَلَى الأقلِّ إِنَّها بيضاء بالكامل وإِنَّ الانطباع العامّ أَنَّها مِنْ خاماتٍ جيِّدةٍ، ناعمةٌ ومصنوعةٌ بعنايةٍ. وكان وسيمًا، حتَّى ماركوس يمكنه أَنْ يرى ذلك. ما يفتقر إليه هو الكاريزما البايرونيَّة[1] لأخيه، فقَدْ بدَا أَنَّه حصَدَ النَّبالة مع الذِّقن الأكثر ثباتًا والفكِّ المميَّز. هذه جميعها إبرٌ في كومات قشٍّ، عَلَى أَيَّة حالٍ، تلك هي الفروقات الَّتِي تلاحظها فقط بسبب أَنَّ التَّطابق مُلفتٌ جدًّا للنَّظر. كانا توأمَين مِنْ أنفَيهما الرُّومانيَّين إِلَى أقدامهما الضَّخمة الرَّاسخة. انتبه ماركوس إِلَى شعورٍ خافتٍ جدًّا بخيبة الأمل أَنَّهما كذلك. ضعِ المظاهر السَّطحيَّة جانبًا، ليس هناك شكٌّ، فكَّر ماركوس، فيمَا يمثِّله هذا الفتى ماجد. أليس ماجد هو مَنْ رصد ماركوس مِنْ بين حشدٍ مِنَ الكثيرين؟ أَلَمْ يميِّز أحدهما الآخر ـ الآن للتَّوِّ ـ في مستوًى أساسيٍّ أكثر عمقًا؟ ليسا توأمَين مثل المدن أَوْ نصفي بويضة تنقسم عشوائيًّا، ولكنْ توأمَين مثل جانبيِّ معادلةٍ، منطقيَّةٍ، وأساسيَّةٍ، بلا شكٍّ. وكما تعوَّد العقلانيُّون، تخلَّى ماركوس عَنِ العقلانيَّة للحظةٍ في مواجهة العجائبيَّة المطلقة للأمر. هذا اللِّقاء الغريزيّ عند البوَّابة 32 (خطَا ماجد خطواتٍ كبيرةٍ عبر الأرضيَّة ومشى مباشرةً إليه)، أَنْ يعثرا عَلَى بعضهما هكذا في حشدٍ هائلٍ مِنَ النَّاس، خمسمئةٍ عَلَى الأقلِّ، ما الاحتمالات؟ بدَا الأمر مُستبعدًا بقدر إنجاز الحيوان المنويّ الَّذِي قهر الممرَّ الأعمى في اتِّجاه البويضة. وسحريًّا بالقدر الَّذِي انقسمت به البويضة إِلَى اثنتين. ماجد وماركوس. ماركوس وماجد.

«نعم! يا ماجد! أخيرًا التقينا! أشعر كما لَوْ أَنَّنِي أعرفك بالفعل ـ حسنًا، أنا أفعل، ولكنْ بعدها مرَّةً أُخرى أنا لا أفعل ـ ولكنْ، اللَّعنة، كيف عرفتَ أَنَّنِي أنا؟»

أضاء وجه ماجد وكشف عن ابتسامةٍ غير متوازنةٍ بها الكثير مِنَ السِّحر الملائكيّ. «حسنًا، يا ماركوس، أيُّها الرَّجل العزيز، أنتَ الرَّجل الأبيض الوحيد عند البوَّابة 32.»

***

1 ـ نسبة إِلَى الشاعر البريطاني الشهير لورد بايرون، الذي كانت حياته وكتاباته تجسيدًا للبطل الرومانسي بطرق مختلفة. وظهر اصطلاح البطل البايروني أَوْ الكاريزما البايرونية في قصيدة السيرة الذاتية الملحمية حج تشايلد هارولد (1812 ـ 1818). وعرف الناقد لورد ماكولاي البطل البايروني بأنه رجل فخور، متقلب المزاج، ساخر، بتحد على جبينه، وبؤس في قلبه، مزدر لنوعه، عنيد في الانتقام، ولكنه مؤهل للمشاعر العميقة والعواطف القوية. (المترجم).

هزَّت عودة ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال منازل آل إقبال، وجونز، وتشالفين بشكلٍ كبيرٍ. «أنا لا أميِّزه،» قالت ألسانا لكلارا في سرِّيَّةٍ، بعد أَنْ قضى عدَّة أيَّامٍ في البيت. «هناك شيءٌ غريبٌ بخصوصه. عندما أخبرتُه أنَّ مِلَّة في تشستر، لَمْ يقُلْ كلمةً. ملامح ثابتةٌ فقط. لَمْ يرَ أخاه خلال ثمانية أعوامٍ. لَكِنْ ولا حتَّى صرخةٍ صغيرةٍ، ولا همسةٍ. يقول صمد إِنَّه استنساخٌ ما، إِنَّه ليس مِنْ آل إقبال. لا يكاد المرء يحبُّ أَنْ يلمسه. أسنانه، إِنَّه يفرِّشها ستَّ مرَّاتٍ في اليوم. ملابسه الدَّاخليَّة، يكويها. الأمر يشبه الجلوس عَلَى الإفطار مع ديفيد نيڤين[1].»

تابعَت جويس وأيري الوصول الجديد بشكوكٍ متساويةٍ. كلتاهما أحبَّتا الأخ الوحيد بشكلٍ جيِّدٍ وشاملٍ لعدَّة سنواتٍ طويلةٍ، والآن فجأةً هذا الجديد، لا يزال وجهًا مألوفًا، مثل تشغيل مسلسلك التليفزيونيِّ المفضَّل فقط لتجد أَنَّ شخصيَّتك المحبوبة استُبدِلَت بشكلٍ ماكرٍ بممثِّلٍ آخر له نفس قَصَّة الشَّعر. ولَمْ تعرفا للأسابيع القليلة الأولى ما تفعلان ببساطةٍ معه. أَمَّا بالنِّسبة إِلَى صمد، فلَوِ امتلك الوسيلة لأخفى هذا الفتى إِلَى الأبد، لَحبسه تحت السُّلَّم أَوْ أرسله إِلَى جرينلاند. ملأته الرَّهبة مِنَ الزِّيارة الحتميَّة لجميع أقاربه (هؤلاء الَّذِين تباهى أمامهم به، كُلِّ العشائر الَّتِي تعبَّدت عَلَى مذبح الصُّورة المؤطَّرة) عندما ملؤوا أعينهم بإقبال الأصغر هذا، ببَبيونه وآدم سميث(ه)[2] وإِي إم فورستر(ه)[3] اللَّعين وبإلحاده! كان الشَّيء الوحيد الإيجابيَّ هو التَّغيُّر في ألسانا. *الطاقة الجديدة*؟ نعم، يا صمد مياه، إِنَّه في الدُّرج الأعلَى إِلَى اليمين، نعم، هذه هي، نعم. في المرَّة الأولى الَّتِي قالتها، كاد يَقفز مِنْ جلده. لقَدْ زالت اللَّعنة. لا مزيد مِنْ *رُبَّما*، يا صمد مياه، لا مزيد مِنْ *قَدْ* يكون، يا صمد مياه. نعم، نعم، نعم. لا، لا، لا. الأساسيَّات. تلك إغاثةٌ مُبارَكةٌ، ولكنَّها ليست تامَّةً. فابنه خيَّب أمله. وكان

1 ـ ممثل وروائي بريطاني اشتهر في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. عرف بشكل جيد في دور قائد السرب بيتر كارتر في فيلم «مسألة حياة أَوْ موت»، وفيلياس فوج في «حول العالم في 80 يومًا»، والسَّيِّد تشالرز ليتون، معروف أيضًا باسم الشبح في فيلم «النمر الوردي». فاز بأوسكار أحسن ممثل عن دوره في فيلم «طاولات منفصلة» (1958). (المترجم).

2 ـ فيلسوف أخلاقي أسكتلندي ومن رواد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابيه الكلاسيكيين: نظرية الشعور الأخلاقي (1759)، والتحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم (1776)، والذي عرف فيما بعد بثروة الأمم، وهو عمل آدم سميث الأهم، وأول عمل يتناول الاقتصاد الحديث. (المترجم).

3 ـ روائي وقاص وكاتب مقالات بريطاني ولد في لندن 1 يناير 1879 وتوفي في 7 يوليو 1970. تُظهر رواياته اهتمامه بالعلاقات الشخصية والعقبات الاجتماعية والنفسية والعرقية الَّتِي تقف في طريق مثل هذه العلاقات. تركز رواياته على أهمية اتباع الدوافع الكريمة أَوْ الفطرة السليمة. أكثر رواياته الَّتِي نالت التقدير هي نهاية آل هوارد 1910؛ ورحلة إِلَى الهند 1924. (المترجم).

الألم شديدًا. يجرُّ قدميه عبر المطعم وعيناه نحو الأرض. إذا اتَّصلَت العمَّات والأعمام، يتهرَّب مِنَ الأسئلة أَوْ، ببساطةٍ، يكذب. مِلَّة؟ إنَّه في برمنجهام، يعمل في المسجد، نعم، يجدِّد إيمانه. ماجد؟ نعم، سوف يتزوَّج قريبًا، نعم، شابٌّ رائعٌ جدًّا، يريد فتاةً بنجاليَّةً جميلةً، نعم، حامل التَّقاليد، نعم.

وهكذا. جاءت ترتيبات الكراسيِّ الموسيقيَّة للمعيشة في البداية، عندما انتقل كُلُّ واحدٍ إِلَى مكانٍ آخر إِلَى اليمين أَوْ اليسار. عاد مِلَّة في بداية أكتوبر. أنحف، ومُلتحيًا بالكامل، وعازمًا عَلَى عدم رؤية توأمه لأسبابٍ سياسيَّةٍ ودينيَّةٍ وشخصيَّةٍ. «إذا بقي ماجد،» قال مِلَّة (دي نيرو، هذه المرَّة)، «سأذهب.» ولأَنَّ مِلَّة بدَا نحيفًا ومُرهَقًا وغاضبًا جدًّا، قال صمد إنَّ مِلَّة يمكنه أَنْ يبقى، ما لَمْ يدع أَيَّ خيارٍ آخر سوى أَنْ يقيم ماجد مع آل تشالفين (ما أثار استياء ألسانا بدرجةٍ كبيرةٍ) حتَّى يمكن حلُّ الموقف. ذهب جوشوا، الغاضب مِنْ إزاحته عَنْ عواطف والدَيه بإقبالٍ آخر، إِلَى منزل آل جونز. بينما قضَت أَيرِي، عَلَى الرَّغم مِنْ عودتها الظَّاهريَّة إِلَى منزل أسرتها (في تنازلٍ عَنْ «إجازة نهاية العام»)، كُلَّ وقتها في منزل آل تشالفين، تنظِّم شئون ماركوس لكَيْ تكسب بعض المال لأجل حسابَيها البنكيَّين (صيف غابة الأمازون 93 وجامايكا 2000)، وغالبًا ما كانت تعمل حتَّى ساعةٍ متأخِّرةٍ مِنَ اللَّيل وتنام عَلَى الأريكة.

«لقَدْ غادَرَنا الأطفال، إنَّهم في الخارج،» قال صمد عَلَى الهاتف لآرشي، في نمطٍ حزينٍ حتَّى أَنَّ آرشي اشتبه في أَنَّه يقتبس مِنَ الشِّعر. «إِنَّهم غرباء في أرضٍ غريبةٍ.»

«لقَدْ هربوا إِلَى التِّلال اللَّعينة، بالأحرى،» أجاب آرشي بتجهُّمٍ. «أنا أخبرك، لَوْ حصلتُ عَلَى بنسٍ عَنْ كُلِّ مرَّةٍ رأيتُ فيها أَيرِي خلال الشُّهور القليلة الماضية....»

لحصل عَلَى عشرة بنساتٍ. فهي ليست في البيت بالمرَّة. علقَت أَيرِي بين المطرقة والسِّندان، مثل أيرلندا، ومثل الهند. في وضعٍ لا يمكن الفوز فيه. إذا ظلَّت في البيت، يوبِّخها جوشوا هناك عَلَى تورُّطها في فئران ماركوس. مناقشاتٌ ليست لديها إجابةٌ عليها، ولا جرأةٌ: *هَلْ يجب منح براءات اختراعٍ للكائنات الحيَّة؟ هَلْ مِنَ الصَّواب زرع مُسبِّبات الأمراض في الحيوانات؟* لَمْ تعرف أَيرِي. وهكذا، بغرائز والدها، أغلقَت فمها واحتفظَت بمسافتها. ولكنْ بما أَنَّها في منزل آل تشالفين، تعمل بجهدٍ عَلَى ما أصبح وظيفةً صيفيَّةً بدوامٍ كاملٍ، فعليها أَنْ تتعامل مع ماجد. هُنا، أصبح الوضع مستحيلًا. فعملها لصالح ماركوس، والَّذي بدأ منذُ تسعة شهورٍ كتنظيمٍ خفيفٍ للملفَّات، تضاعف سبع مرَّاتٍ؛ والاهتمام ـ مؤخَّرًا ـ بعمل ماركوس يعني أَنَّه مطلوبٌ منها أَنْ

تتعامل مع اتِّصالات وسائل الإعلام، وأكياسٍ مليئةٍ بالرَّسائل، وأَنْ ترتِّب المواعيد؛ وزاد راتبها إِلَى ما تتقاضاه سكرتيرةٌ. ولكنْ تِلْكَ هي المشكلة، أَنَّها سكرتيرةٌ، في حين كان ماجد مُقرَّبًا، ومُتدرِّبًا، ومُريدًا، يرافق ماركوس في الرَّحلات، ويراقبه في المختبر. الطِّفل الذَّهبيّ، المختار. ليس أَنَّه بارعٌ فقط، ولكنَّه ساحرٌ. ليس أَنَّه ساحرٌ فقط، ولكنَّه مِعطاءٌ. بالنِّسبة إِلَى ماركوس، هو استجابةٌ للصَّلوات. هُنا فتًى يمكنه أَنْ ينسج أجمل الدِّفاعات الأخلاقيَّة مع احترافيَّةٍ ناقضَت سنوات عمره، ساعد ماركوس في صياغة حُججٍ لَمْ يكن ليصبر عَلَى إعدادها وحده. ماجد هو مَنْ شجَّعه عَلَى الخروج مِنَ المختبر، أخذه مِنْ يده لكَيْ ينظر إِلَى العالم المشمس حيثُ يناديه النَّاس. أراد النَّاس ماركوس وفأره، وعرف ماجد كيف يقدِّم ذلك لهم. إذا احتاج *المسؤول* الجديد إِلَى ألفَي كلمةٍ بخصوص النِّقاش حول براءة الاختراع، فسيكتب ماجد بينما يتكلَّم ماركوس، وسيُترجم أقواله إِلَى إنجليزيَّةٍ أنيقةٍ، ويحوِّل البيانات الجافَّة مِنْ عِلْميَّةٍ غير معنيَّةٍ بالجدل الأخلاقيِّ إِلَى حججٍ مصقولةٍ مِنْ قبل فيلسوفٍ. إذا أرادَت *أخبار القناة الرَّابعة* لقاءً، يشرح ماجد كيف يجلس، وكيف يحرِّك المرء يدَه، وكيف يُميل رأسه. كُلُّ هذا مِنْ فتًى قضى القسم الأكبر مِنْ حياته في مُرتفعات شيتاجونج، بدون تليفزيونٍ أَوْ صحفٍ. وعَلَى الرَّغم مِنْ كراهيَّته طوال حياته للكلمة، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه لَمْ يتعوَّد أَنْ يستخدمها منذ أَنْ صفعه والده عَلَى أذنه بسببها وهو في الثَّالثة، فإِنَّ ماركوس واجه غواية أَنْ يدعو الأمر معجزةً. أَوْ - عَلَى أقلِّ تقديرٍ - ضربة حظٍّ فائقةً. غَيَّر الفتى حياته وتلك ضربة حظٍّ فائقةٌ. لأَوَّل مرَّةٍ في حياته بدَا ماركوس عَلَى استعدادٍ للاعتراف بعيوبٍ في نفسه - عيوبٍ صغيرةٍ، مزاجيَّةٍ - ولكنَّها تظلُّ... عيوبًا. لقَدْ كان انعزاليًّا جدًّا، رُبَّما، رُبَّما. ورأى غرفةً للتَّغيير. والعبقريَّة في الأمر، الأستاذيَّة فيه، أَنَّ ماجد لَمْ يدع ماركوس يشعر للحظةٍ بأَنَّ التشالفينيَّة عرضةٌ للمساس بها بأَيِّ شكلٍ مِنَ الأشكال. كان يعبِّر عَنْ مودَّته الَّتِي لا تموت وعَنْ إعجابه بها في كُلِّ يومٍ. كُلُّ ما أراد ماجد أَنْ يفعله، كما أوضح لماركوس، هو تقديم التشالفينيَّة للنَّاس. وعليك أَنْ تمنح النَّاس ما أرادوا في شكلٍ يمكنهم *أن يفهموه*. هناك شيءٌ راقٍ في الطَّريقة الَّتِي قال بها ذلك، وصحيحٌ جدًّا، أَنَّ ماركوس، الَّذِي كان ليبصق عَلَى مثل هذا الطَّرح قبل ستَّة شهورٍ، سلَّمَ بدون احتجاجٍ.

«هناك غرفةٌ لرجلٍ إضافيٍّ في هذا القرن،» أخبره ماجد (هذا الفتى أستاذٌ في الإطراء): «فرويد، وأينشتاين، وكريك وواطسون... هناك مقعدٌ فارغٌ، يا ماركوس. الباص ليس بكامل سعته. دينج! دينج! غرفةٌ *لواحدٍ آخر*...»

ولا يمكنك أنْ تهدم ذلك بأيِّ مقابلٍ. لا يمكنك محاربة الأمر. ماركوس وماجد. ماجد وماركوس. لا شيء آخر مهمًّا. لَمْ ينتبه أيٌّ منهما للإحباط الَّذِي تسبَّبا فيه لأَيرِي، أَوْ للتَّغيير الكبير في المواقع، للتَّموُّجات الزِّلزاليَّة الغريبة، الَّتِي أثارتها صداقتهما في كُلِّ شخصٍ آخر. انسحب ماركوس، مثلما فعل مونتباتن مِنَ الهند، أَوْ مثل فتًى مراهقٍ مُتخمٍ بزميله الأحدث. تخلَّى عَنْ مسئوليَّاته، تجّاه كُلِّ شيءٍ وكُلِّ شخصٍ - آل تشالفين، وآل إقبال، وآل جونز - كُلِّ شيءٍ وكُلِّ شخصٍ باستثناء ماجد وفأره. كان الآخرون - جميعهم - متعصِّبين. وأَيرِي تعضُّ لسانها؛ لأَنَّ ماجد جيِّدٌ، وماجد طيِّبٌ، وماجد يسير في أنحاءِ المنزلِ بالأبيضِ. ولكنْ مثل كُلِّ مظاهر المجيء الثَّاني، وجميع القدِّيسين، والمخلِّصين، والمعلِّمين، كان ماجد إقبال أيضًا، بعبارة نينا البليغة، كُلِّيًّا ومطلقًا، ومِنَ الطِّراز الأَوَّل، شوكةً في الخصر، بنسبة 100 في المئة. محادثةٌ قياسيَّةٌ:

«أَيرِي، أنا مُتحيِّرٌ.»

«ليس الآن، يا ماجد، معي مكالمةٌ.»

«لا أريد أَنْ آخذ مِنْ وقتك الثَّمين، ولكنَّها مسألةٌ عاجلةٌ. أنا حائرٌ.»

«ماجد، هَلْ يمكنكَ فقط أَنْ ــــ»

«كما ترين. لقَدْ أحضرَت جويس لي بكُلِّ كرمٍ ملابس الجينز هذه. يطلق عليها ليڤاي.»

«انظر، هَلْ يمكنني أَنْ أعاود الاتِّصال بكَ؟ حسنًا... جيِّدٌ... مع السَّلامة. *ماذا*، يا ماجد؟ كانت تلك مكالمةً مُهمَّةً. ما الأمر؟»

«حسنًا كما ترين فإِنَّ لدَيَّ هذه الثِّياب الأمريكيَّة الجميلة مِنْ جينز ليڤاي، جينز أبيض، أحضرَته شقيقة جويس معها مِنْ إجازةٍ في شيكاغو، المدينة العاصفة كما يدعونها، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّنِي لا أصدِّق أَنَّ هناك أَيَّ شيءٍ محدَّدٍ غير مُعتادٍ بخصوص مناخها، بالنَّظر إِلَى قربها مِنْ كندا. ملابسي الجينز الشِّيكاغويَّة. يا لَها مِنْ هديَّةٍ مدروسةٍ! لقَدْ غمرني فضلهما. ولكنْ بعدها كنتُ في حيرةٍ بسبب هذا الوسم في البطانة والَّذِي ينصُّ عَلَى أَنَّ ذلك الجينز عَلَى ما يبدو (ينكمش إِلَى القياس المناسب). كنتُ أسأل نفسي: ما قَدْ يعنيه هذا (ينكمش إِلَى القياس المناسب)؟»

«أنَّه ينكمش حتَّى يصبح مناسبًا، يا ماجد. أتوقَّع ذلك.»

«لكنَّ جويس كانت تعرف بما يكفي لكَيْ تشتريها في القياس المناسب بالضَّبط، هَلْ ترين؟ 34، A32.»

«حسنًا جدًّا، يا ماجد، أنا لا أريد أَنْ أراها. أنا أُصدِّقكَ. إذنْ لا تجعلها تنكمش.»

«ذلك استنتاجي الأصليُّ، أيضًا. لَكِنْ يَبْدو أَنَّه لا يوجد إجراءٌ منفصلٌ لا يجعلها تنكمش. إذا غسل المرء الجينز، فإنَّه سوف ينكمش ببساطةٍ.»

«رائعٌ.»

«وأنتِ تقدِّرين أَنَّه في مرحلة ما فإنَّ الجينز سوف يتطلَّب غسيلًا؟»

«ما وجهة نظرك، يا ماجد؟»

«حسنًا، هَلْ ينكمش بنسبةٍ مُعيَّنةٍ، وإذا كان كذلك، ما المقدار؟ إذا لَمْ يكن القدْر صحيحًا، فإنَّه سوف يفتح نفسه عَلَى مساحةٍ كبيرةٍ مِنَ التَّقاضي، أليس كذلك؟ إنَّه ليس أمرًا جيِّدًا إذا كان ينكمش إِلَى القياس المناسب. بشكلٍ عامٍّ، إذا لَمْ ينكمش ليناسبني أنا. هناك احتمالٌ آخرُ، كما اقترح جاك، أَنَّه سوف ينكمش إِلَى معالم الجسم. ولكنْ كيف يمكن لمثلِ هذا الأمر أَنْ يكون ممكنًا؟»

«حسنًا، لماذا لا تدخل إِلَى الحمَّام اللَّعين مرتديًا الجينز اللَّعين وترى ما يحدث؟»

غير أَنَّه ليس بإمكانك أَنْ تُحبط ماجد بالكلمات. فهو يدير لك الوجه الآخر. مئات المرَّات في اليوم أحيانًا، مثل سيِّدة مُنتشيةٍ تنظِّم عبور الأطفال أمام المدرسة. لديه تلك الطَّريقة في الابتسام لك، هي ليست تعبيرًا عَنِ الحرج أَوْ عَنِ الغضب، وبعدها يحني رأسه (إِلَى نفس الزَّاوية الَّتِي يحني والده رأسه بها عندما يتلقَّى طلب الجمبري بالكاري، بالضَّبط) في إيماءةٍ بالغفران التَّام. لديه تعاطفٌ مطلقٌ تجاه الجميع، ماجد. شوكةٌ دائمةٌ في الخصر.

«إمم، لَمْ أقصد أَنْ... أوه، يا للقرف. أنا آسفةٌ. انظر... أنا لا أعرف... أنت فقط... كثيرًا... هل سمعتَ مِنْ مِلَّة؟»

«أخي يتجنَّبني،» قال ماجد، ولَمْ يتغيَّر ذلك التَّعبير بالهدوء الشَّامل والغفران. «يراني مثل قابيل؛ لأَنَّني غير مؤمنٍ. عَلَى الأقلِّ ليس بإلهِهِ أَوْ أَيِّ إلهٍ آخر له اسمٌ. ولهذا، يرفض أَنْ يلتقي بي، أَوْ حتَّى أَنْ نتحدَّث عَلَى الهاتف.»

«أوه، أنتَ تعرف، سوف يعود مرَّةً أخرى، رُبَّما. لقَدْ كان دائمًا نذلًا عنيدًا.»

«بالطَّبع، نعم، أنتِ تحبِّينه،» واصل ماجد، دون أَنْ يعطي أيري فرصةً للاحتجاج. «إذن أنت تعرفين عاداته، وسلوكيَّاته. سوف تفهمين - إذنْ - كيف يستقبل رِدَّتي

بشراسةٍ. لقَدِ ارتددتُ إِلَى الحياة. إِنِّي أرى إلهه في مليون موقفٍ احتماليّ، في محاورات فيدروس[1]، وفي المفارقات المثاليَّة[2]. لكنَّ ذلك لا يكفي بالنِّسبة إِلَى مِلَّة.»

نظرَت أَيرِي إليه في وجهه مباشَرةً. ثمَّة شيءٌ ما هناك لَمْ تكن قادرةً أَن تضع إصبعها عليه خلال هذه الشُّهور الأربعة؛ لأَنَّه كان محجوبًا بشبابه، ونظراته، وملابسه النَّظيفة، ونظافته الشَّخصية. الآن رأَت الأمر بوضوحٍ. كان ممسوسًا به ـ بالطَّريقة نفسها الَّتِي كانت عليها ماري المجنونة، الهنديَّة ذات الوجه الأبيض والشِّفاه الزَّرقاء، والرَّجل الَّذِي يحمل شعره المستعار معه عَلَى قطعةٍ مِنْ حبلٍ. تمامًا مثل هؤلاء النَّاس الَّذِين يجوبون شوارع ويلْزدن دون أَنْ يكون في نيَّتهم شراء بيرة بلاك ليبل أَوْ سرقة جهاز ستيريو، يجمعون الإعانات ويتبوَّلون في زقاقٍ. هؤلاء الَّذِين لديهم أعمالٌ مختلفةٌ تمامًا. *النُّبوءة*. لدى ماجد في وجهه. هو يريد أَنْ يخبركَ ويخبركَ ويخبركَ.

«مِلَّة يطالب بالتَّسليم الكامل.»

«يبدو ذلك.»

«إِنَّه يريدني أَنْ أنضمَّ إِلَى حُرَّاس الأُمَّة الـــ »

«نعم، كيفِن. أنا أعرفهم. إذنْ فقَدْ تحدَّثتَ إليه.»

«لا أحتاج لأَنْ أتحدَّث معه لكَيْ أعرف ما يفكِّر فيه. إِنَّه توأمي. أنا لا أرغب في رؤيته. لا أحتاج إِلَى ذلك. هَلْ تفهمين طبيعة التَّوائم؟ هَلْ تفهمين معنى كلمة ينقسم[3]؟ أَوْ بالأحرى، المعنى المزدوج الَّذِي ـــ »

«ماجد. بدون إساءةٍ، لكنْ لدَيَّ عملٌ لأُنجزه.»

قدَّم ماجد انحناءةً صغيرةً. «بطبيعة الحال. اسمحي لي، يجب أَنْ أذهب وأُخضع جينز شيكاغو الخاصَّ بي للتَّجربة الَّتِي اقترحتِها.»

صرَّت أَيرِي عَلَى أسنانها، والتقطَت سمَّاعة التِّليفون، أعادَت الاتِّصال بالرَّقم الَّذِي قطعَته. كان صحفيًّا (كانوا صحفيِّين دائمًا هذه الأَيَّام)، ولديها شيءٌ لكَيْ تقرأه

1 ـ محاورات فيدروس كتبها أفلاطون بعد حوار الجمهورية: لأنه أشار إليها في هذا العمل، وهي مصنفة من ضمن حوارات المرحلة الأخيرة. تعتبر من أهم المحاورات الَّتِي أظهرت نظرية إيجابية في الفن وفلسفة الجمال لأفلاطون، والَّتِي كانت غامضة في المحاورات الأخرى. (المترجم).

2 ـ مفارقات زينون الإيلي، مؤسس علم الجدل بحسب أرسطو. (المترجم).

3 ـ استخدمت الكاتبة فعل cleave: وله معنى مزدوج فهو يعني انقسم أَو انفسخ، وهو يعني التصق أَو تعلق. (المترجم).

عليه. حصلَت عَلَى دورةٍ مكثَّفةٍ في العلاقات الإعلاميَّة منذ امتحاناتها، وعلَّمها التَّعامل معهم/مع الأمر أنَّه لا يوجد منطقٌ في محاولة التَّعامل مع كُلِّ واحدٍ بشكلٍ مُنفصلٍ. أَنْ تقدِّم بعض وجهات النَّظر الفريدة إِلَى *الفاينشيال تايمز* ومِنْ بعدها *للميرور* ومِنْ بعدها *للدَّايلي ميل* أمرٌ مستحيلٌ. تلك وظيفتهم، ليست وظيفتك، أَنْ يكتشفوا الزَّاوية، وأَنْ يكتبوا كتبهم المنفصلة في كتاب وسائل الإعلام الهائل المقدس. كُلٌّ بطريقته. الصحفيون فصائل، متعصِّبون، ومهووسون بالدِّفاع عن مناطقهم، يناقشون الشَّيء نفسه يومًا بعد يومٍ. وهكذا دائمًا. مَنْ كان ليتوقَّع أَنَّ لوقا[1] ويوحنَّا[2] سيأخذان زاويتَين مختلفتَين بهذا الشَّكل في انفرادات القرن، وموت الرب؟ هذا دليلٌ عَلَى أَنَّك لا تستطيع أَنْ تثق في هؤلاء الرِّجال. وظيفة أيري - إذنْ - أَنْ تقدِّم المعلومات كما هي، في كُلِّ مرَّةٍ، حرفيًّا مِنْ ورقةٍ مكتوبةٍ مِنْ قبل ماركوس وماجد، ملصقةٍ عَلَى الحائط.

«حسنًا،» قال الصَّحفيُّ. «الشَّريط يدور.»

وهنا تعثَّرَت أيري في العقبة الأولى في العلاقات العامَّة: الإيمان بما تبيعه. ليس أَنَّها افتقرَت إِلَى الإيمان الأخلاقيِّ. بَلْ أكثر جوهريَّةً مِنْ ذلك. لَمْ تؤمِنْ به *كحقيقةٍ مادِّيَّةٍ*. لَمْ تؤمِنْ أَنَّه موجودٌ. كان فأر المستقبل© الآن رسومًا متحرِّكةً هائلةً ومذهلةً لفكرةٍ (يُقدَّم في كُلِّ عمودٍ في جريدةٍ، مِنْ قبل الصَّحفيين - *هَلْ يجب أَنْ يحصل عَلَى براءة اختراعٍ؟* ويمتدح مِنْ قبل محرِّرٍ بالأجر - *أعظم إنجازٍ خلال القرن؟*)، يكاد المرء يتوقَّع أَنْ يقف الفأر اللَّعين ويتحدَّث بنفسه. أخذت أيري نفَسًا عميقًا. وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّها ردَّدَت الكلمات أكثر مِنْ مرَّةٍ، فإنها ظلَّت تبدو خياليَّةً، سخيفةً - خيالًا عَلَى أجنحة الخيال - مع أكثر مِنْ تعديلٍ مِنْ سوري ت. بانكس عليها:

بيان صحفي: 15 أكتوبر 1992

الموضوع: تدشين فأرالمستقبل©

يعتزم البروفيسور ماركوس تشالفين، كاتبٌ، وعالمٌ شهيرٌ، وقائدٌ بارزٌ لمجموعةٍ مِنْ أبحاث علماء الوراثة مِنْ كُلِّيَّة سانت جود، أن يدشِّن «تصميمه» الأخير في الفضاء العام؛ لكَيْ يزيد مِنْ فهم التَّعديلات الجينيَّة ويثير الاهتمام ومزيدًا مِنَ الاستثمار

1 - لوقا الإنجيلي، بحسب التقليد الكنسي يُعتقد بأن لوقا هو كاتب سفرين من أسفار العهد الجديد «إنجيل لوقا» وسفر «أعمال الرسل»، وفي التقليد الكاثوليكي يُعتبر شفيعًا رئيسيًّا للأطباء والرسامين، فقد كان يمتهن الطب. ويُظن بأنه كان رسامًا وبأنه أول من رسم أيقونة للسيدة العذراء مع الطفل يسوع. (المترجم).

2 - يوحنا الإنجيلي ويعرف أيضًا بيوحنا الرائي وبيوحنا الحبيب، هو ابن زبدي وسالومة وشقيق يعقوب الكبير وكان الشقيقان من تلاميذ المسيح الإثني عشر، وبحسب التقليد المسيحي فإنه كاتب إنجيل يوحنا - لذلك يلقب بالإنجيلي - وكاتب الرسائل الثلاث الَّتِي تنسب إليه وأخيرًا كاتب سفر الرؤيا. (المترجم).

إلَى عمله. سوف يُظهر التَّصميم تطوُّر العمل الَّذِي تَمَّ عَلَى المعالجة الجينيَّة ويزيل الغموض عن هذا الفرع المفترى كثيرًا عليه مِنَ الأبحاث البيولوجيَّة. سيرافق ذلك معرضٌ كاملٌ، وقاعة محاضراتٍ، ومساحةٌ للوسائط المتعدِّدة، وألعاب تفاعليَّة للأطفال. سوف يتمُّ تمويل ذلك جزئيًّا مِنْ قبل اللَّجنة الحكوميَّة للعلوم الألفيَّة، مع أموالٍ إضافيَّة مِنْ قطاعي الأعمال والصِّناعة.

سوف يُوضع فأر مستقبل© بعمر أسبوعَين للعرض في معهد بيريه في لندن في 31 ديسمبر 1992. وسيبقى هناك في عرضٍ عامٍّ حتَّى 31 ديسمبر 1999. هذا الفأر طبيعيٌّ وراثيًّا باستثناء مجموعةٍ مُختارةٍ مِنَ الجينات الجديدة الَّتِي تمَّت إضافتها إلَى خريطته الجينيَّة. تَمَّ حقن نسخةٍ مِنَ الحامض النَّوويِّ لتلك الجينات في بويضة فأرٍ مُخصَّبةٍ، ومِنْ ثَمَّ ربطها بالحامض النَّوويِّ الكروموسوميِّ في البويضة المُلقَّحة، الَّتِي وُرِّثَت فيما بعد في خلايا مِنَ الجنينِ النَّاتج. قبل حقنها إلَى الخطِّ الإنتاشيِّ[1]، هذه الجينات صُمِّمَت بشكلٍ خاصٍّ بحيث يمكن «تشغيلها» وإظهار أثرها فقط في أنسجةٍ محدَّدةٍ مِنَ الفأر عَلَى طول جدولٍ زمنيٍّ يمكن التَّنبُّؤ به. سوف يكون الفأر موضوعًا لاختبارٍ في شيخوخة الخلايا، وتطوُّر السَّرطان في الخلايا، وعددٍ قليلٍ آخر مِنَ المسائل الأخرى الَّتِي ستكون بمثابة مفاجآتٍ عَلَى الطَّريق!

ضحك الصَّحفيُّ. «يا إلهي. ماذا يعني ذلك بحقِّ اللَّعنة؟»

«لا أعرف،» قالت أَيرِي. «مفاجأةٌ، أظنُّ.»

وتابعَت:

سوف يعيش الفأر سنواته السَّبع تحت العرض، وهو ــــ تقريبًا ــــ ضعف متوسِّط العمر الطَّبيعيِّ المتوقَّع لفأرٍ. ولذا فقَدْ تَمَّ تأخير تطوير الفأر، بمعدَّل عامَين لكُلِّ اختبارٍ. في نهاية العام الأوَّل سيعبِّر الفيروس القِرَدِيُّ 40 ـ الورميُّ[2]، الَّذِي يحمله الفأر في خلايا البنكرياس مُنتجة الأنسولين، عَنْ نفسه في سرطانات

1 ـ في علم الأحياء وعلم الوراثة، هو خط (تسلسل) الخلايا الجنسية (المنتشة) الَّتِي لديها مواد وراثية يمكن توريثها للنسل. على سبيل المثال، الأمشاج مثل البويضات والحيوانات المنوية هي جزء من الخط الإنتاشي. والخلايا الَّتِي تنقسم من أجل إنتاج الأمشاج، الَّتِيْ تسمى عرسيات، تُعد جزءًا من الخط الإنتاشي أيضًا، وتسمى مولدات عرسية. كما أن الزيجوت، وهو الخلية الَّتِي ينمو منها الفرد، هو جزء من الخط الإنتاشي أيضًا. وتسمى الخلايا الَّتِي ليست في الخط الإنتاشي خلايا جسدية. وهي كُلّ الخلايا الَّتِي تشكل الجسد، فيما عدا الأمشاج. إن حدثت طفرات في الخط الإنتاشي، فإنه من المحتمل أن تورث إلَى النسل، بينما التغيرات الَّتِي تحدث بالخلايا الجسدية لا تُورث. (المترجم).

2 ـ هو بروتين سداسي الشكل شبيه بالفيروسات ويستمد من الفيروسات الورمية 40 الَّتِي تصيب الإنسان والقردة، وهو قادر على تغيير طبيعة مجموعة متنوعة من الخلايا. (المترجم).

البنكرياس الّتي سوف تستمرُّ في التّطوُّر بوتيرةٍ بطيئةٍ خلال حياته. في نهاية . السّنة الثّانية سيبدأ جين H ـــ ras الورميُّ في خلاياه الجلديّة في التّعبير عن نفسه في أورامٍ حليميّةٍ متعدِّدةٍ يمكن لمراقبٍ أن يراها بالعين المجرَّدة بوضوحٍ بعد ثلاثة شهورٍ. بعد أربع سنواتٍ مِنَ التّجربة سيبدأ الفأر في فقد قدرته عَلَى إنتاج الميلانين[1] عن طريق القضاء المبرمَج البطيء عَلَىَ أنزيم التّيروزين. عند هذه النُّقطة سيفقد الفأر كُلّ صبغيّاته ويصبح ألبينو: فأرًا أبيضَ. إذا لَمْ يحدث أَيُّ تدخُّلٍ خارجيٍّ أَوْ غير متوقَّع، فإنّ الفأر سوف يعيش حتّى 31 ديسمبر 1999، ويموت خلال شهرٍ مِنْ هذا التّاريخ.

تقدِّم تجربة فأر المستقبل© للجمهور فرصةً فريدةً لرؤية الحياة والموت «عَنْ قُربٍ». الفرصة لكَيْ يشهدوا بأنفسهم تكنولوجيا يمكن لها أَنْ تُبطئ مِنْ تطوُّر المرض، والسّيطرة عَلَى عمليّة التقدُّم في العمر، والقضاء عَلَى الخلل الجينيّ. يحمل فأر المستقبل© وعدًا مشوِّقًا بمرحلةٍ جديدةٍ في تاريخ البشريّة، حيث لا نكون ضحايا للعشوائيّة بَلْ موجِّهين لمصائرنا ومتحكِّمين فيها.

«اللّعنة،» قال الصّحفيُّ. «هراءٌ مُخيفٌ.»

«نعم، أظنُّ ذلك،» قالت أَيرِي عَلَى نحوٍ فارغٍ (لديها عشرة مكالماتٍ لكَيْ تجريها هذا الصّباح). «هَلْ تريدني أَنْ أرسل لكَ بعض الموادِّ المُصوَّرة؟»

«نعم، افعلي ذلك. وفِّري عَلَيَّ البحث في الأرشيف. إِلَى اللِّقاء.»

ما إنْ وضعت أَيرِي السّمّاعة حتّى طافت جويس في الغرفة، مثل مُذنّبٍ هيبيٍّ، في قفطانٍ مِنْ تيّارٍ هائلٍ مِنَ المخملِ المهذّبِ الأسودِ، والأوشحةِ الحريريّةِ المتعدِّدة.

«لا تستخدمي الهاتف! أخبرتُك مِنْ قبل. ينبغي أَنْ نترك الهاتف حُرًّا. قَدْ يحاول مِلّة الاتّصال.»

فوّت مِلّة موعدًا مع طبيبٍ نفسيٍّ رتّبته جويس له قبل أربعة أَيّامٍ. ولَمْ يُرَ مِنْ وقتها. عرف الجميع أَنّه مع كيفن. وعرف الجميع أَنّه ليست لديه النِّيَّة للاتّصال بجويس. الجميع باستثناء جويس.

1 ـ المادة المتحكمة في لون البشرة، فعند زيادة إفراز الميلانين يحدث اسمرار للبشرة، وعند قلته يحدث بهاض في البشرة، وعند انعدامه يُسمى الشخص (ألبينو)ويكون أبيضَ تمامًا. تعتبر هذه المادة من أكبر المواد الواقية من حرارة الشمس أيضًا. وهذا يفسر اسمرار بشرة أي شخص يتعرض كثيرًا للشمس. فكلما كان لون الجلد أفتح كانت قدرته على الحماية والمقاومة أقل وأكثر عرضة للإصابة بمرض السرطان، وأشد تأثرًا بالحروق. (المترجم).

«الأمر ـ *ببساطةٍ* ـ أنَّه مِنَ الضَّروريِّ أَنْ أتحدَّث معه إذا اتَّصل. اقتربنا جدًّا مِنْ تحقيق انفراجةٍ. مارجوري متأكِّدةٌ تقريبًا مِنْ أنَّه قصور الانتباه وفرط الحركة[1].»

«وكيف يمكن أَنْ تعرفي كُلَّ هذا؟ لقَدْ ظننتُ أَنَّ مارجوري طبيبةٌ. ماذا حدث بحقِّ اللَّعنة لامتياز الطَّبيب والمريض[2]؟»

«أوه، يا أيري، لا تكوني سخيفةً. إِنَّها صديقةٌ أيضًا. هي تحاول فقط أَنْ تبقيني عَلَى اطِّلاعٍ.»

«كما في مافيا الطبقة الوُسطى.»

«*أوه حقًّا*! لا تصبحي هيستيريَّةً جدًّا. أنتِ تزدادين *هيستيريَّةً* بشكلٍ يوميٍّ. انظري، أحتاج منك لأَنْ تحتفظي بالهاتف حُرًّا.»

«أعلم. لقَدْ قلتِ ذلك.»

«لأنَّه إذا كانت مارجوري عَلَى حقٍّ، والأمر هو قصور الانتباه وفرط الحركة، فهو بحاجةٍ لأَنْ يذهب إِلَى الطَّبيب وإِلَى بعض الميثيل فينيدات[3]. إِنَّها حالةٌ تسبِّب الضَّعف الشَّديد.»

«يا جويس، إنَّه لا يعاني من اضطراب، هو فقط مسلمٌ. هناك مليارٌ منهم. ولا يمكن أَنْ يكونوا جميعًا مصابين بقصور الانتباه وفرط الحركة.»

سحبَت جويس نفسًا قليلًا مِنَ الهواء. «أعتقد أَنَّك تصبحين قاسيةً جدًّا. ذلك بالضَّبط هو نوع التَّعليقات الَّتِي لا تفيد.»

مشَت في غطرسةٍ نحو لوح تقطيع الخبز، وبعينين غائمتَين قطعَت كتلةً ضخمةً مِنَ الجبن، وقالت: «انظري. الشَّيء الأكثر أهميَّةً هو أَنْ أضع الاثنين في مواجهة بعضهما بعضًا. لقَدْ حان الوقت.»

---

1 ـ حالة نفسية تبدأ في مرحلة الطفولة عند الإنسان، وهي تسبب نموذجًا من التصرفات الَّتِي تجعل الطفل غير قادر على اتباع الأوامر أو السيطرة على تصرفاته ويجد صعوبة بالغة في الانتباه للقوانين. وبذلك هو في حالة إلهاء دائم بالأشياء الصغيرة. يواجه المصابون بهذه الحالة صعوبة في الاندماج في صفوف المدارس والتعلم من مدرسيهم، ولا يتقيدون بقوانين الفصل، مما يؤدي إِلَى تدهور الأداء المدرسي لديهم ليس لأنهم غير أذكياء ولكن بسبب عدم قدرتهم على التركيز، لذلك يعتقد أغلبية الناس أنهم مشاغبون بطبيعتهم. (المترجم).

2 ـ حق الطبيب في رفض الإدلاء بشهادته في محاكمة أو غيرها من الإجراءات القانونية عن أية بيانات أعطيت له من قبل المريض، على أساس أن أي اتصال بين الطبيب والمريض يجب أن يكون سريًّا. ويحق للمريض أن يقاضي الطبيب إذا خالف تلك السرية. (المترجم).

3 ـ أحد أنواع الأمفيتامينات، من المواد المنبهة للجهاز العصبي المركزي القوية التأثير وهي من المركبات المحضرة بطرق كيميائية. (المترجم).

بدَت أَيرِي مُتشكِّكة. «لماذا حان الوقت؟»

دفعَت جويس كتلة الجبن في فمها. «حان الوقت لأنَّهما يحتاجان إلَى بعضهما بعضًا.»

«ولكنْ إذا كانا لا يريدان، فهما لا يريدان.»

«أحيانًا لا يعرف النَّاس ما الَّذِي يريدونه. هم لا يعرفون ماذا يحتاجون. هذان الولدان يحتاجان إلَى بعضهما بعضًا مثل....» فكَّرَت جويس للحظةٍ. كانت سيِّئةً في المجاز. في الحديقة أنتَ لا تزرع شيئًا قطُّ حيث تقصد شيئًا آخرَ. «إنَّهما يحتاجان إلَى بعضهما بعضًا مثل لوريل وهاردي، ومثلما احتاج كريك إلَى واطسون ـــ »

«مثلما احتاجت باكستان الشَّرقيَّة إلَى باكستان الغربيَّة[1].»

«حسنًا، لا أعتقد أنَّ ذلك مضحكٌ، يا أَيرِي.»

«لستُ أضحك، يا جويس.»

قطعَت جويس المزيد مِنَ الجبن مِنَ الكتلة الكبيرة، وانتزعَت قطعتَين كبيرتَين مِنَ الخبز مِنْ رغيفٍ، وصنعَت ساندويتشًا مِنَ الثَّلاثة معًا.

«الحقيقة هي أنَّ هذين الولدَين لديهما مشكلاتٌ عاطفيَّةٌ خطيرةٌ ولا يساعد في الأمر رفض مِلَّة أنْ يرى ماجد. الأمر يحبطه كثيرًا جدًّا. لقَدِ انفصلا بسبب ديانتَيهما، بسبب ثقافتَيهما. هَلْ يمكنك أنْ تتخيَّلي *الصَّدمة*؟»

1 ـ كانت حرب تحرير بنجلاديش صراعًا مسلحًا استمر قرابة التسعة شهور، تصدَّت فيه باكستان الشرقية مع الهند إلى باكستان. واندلعت الحرب في 26 من مارس 1971م بين دولة باكستان وباكستان الشرقية، وتدخلت الهند في 3 من ديسمبر 1971م. ولقد انتهى الصراع المسلح في 16 من ديسمبر 1971م وأسفر عن انفصال باكستان الشرقية الَّتِي أصبحت دولة مستقلة هي بنجلاديش. اندلعت الحرب عندما قامت وحدات الجيش التابعة لدولة باكستان الغربية بشن عملية عسكرية تسمى عملية الضوء الكاشف في باكستان الشرقية ضد مدنيي البنجال وطلابها ومثقفيها والأفراد المسلحين عندما طالبوا نظام الحكم العسكري القائم في باكستان الشرقية باحترام نتائج أول انتخابات ديمقراطية سنة 1970م في باكستان والَّتِي فازفيها حزب باكستان الشرقية أو السماح بفصل شرق باكستان عن غربها. وتكون من العسكريين وشبه العسكريين والمدنيين البنجاليين موكتي باهيني (جيش التحرير) في 26 من مارس 1971م، ردًا على عملية الضوء الكاشف واستخدموا أسلوب حرب العصابات لمحاربة جيش باكستان الغربية. قدمت الهند الدعم الاقتصادي والعسكري والدبلوماسي لمتمردي موكتي باهيني، مما دفع باكستان الغربية لإطلاق عملية خان الأصل المشترك، وهو هجوم وقائي شنته على الحدود الغربية للهند في الحرب الهندية الباكستانية سنة 1971م. استطاعت القوات الحليفة للجيش الهندي وموكتي باهيني هزيمة القوات الباكستانية الغربية المنتشرة في الشرق في 16 من ديسمبر 1971م. وكان الاستسلام يتضمن أعدادًا من أسرى الحرب هو الأكبر منذ الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

تمنَّت أَيرِي في تلك اللَّحظة لَوْ سمحت لماجد بأن يخبرها ويخبرها ويخبرها. كانت لتملك معلوماتٍ عَلَى الأقلِّ. تملك شيئًا ما تستخدمه ضدَّ جويس. لأَنَّك إذا استمعت إِلَى المتنبِّئين، فإِنَّهم يعطونك ذخيرةً. طبيعة التَّوائم. المواقف الاحتماليَّة المليون (هَلْ تملك الأرقام اللَّانهائيَّة بداياتٍ؟). والأهمُّ مِنْ ذلك كُلِّه، المعنى المزدوج لكلمة *ينقسم*. هَلْ يعرف ما هو أسوأ، ما هو صادمٌ أكثر: أَنْ يلتصقا معًا، أَمْ أَنْ ينفصلا إِلَى جزأين؟

«جويس، لماذا لا تقلقي بشأن أسرتكِ أنتِ لمرَّةٍ واحدةٍ؟ كنوعٍ مِنَ التَّغيير فقط. ماذا بخصوص جوش؟ متى كانت المرَّة الأخيرة الَّتي رأيتِ فيها جوش؟»

ترفَّعَت جويس عن إظهار مشاعرها. «جوش في جلاستونبري.»

«صحيحٌ. كانت جلاستونبري منذ أكثر مِنْ شهرَين، يا جويس.»

«إِنَّه يقوم ببعض التِّرحال. قال إِنَّه رُبَّما يفعل.»

«ومع مَنْ هو؟ أنتِ لا تعرفين أَيَّ شيءٍ عَنْ أولئك النَّاس. لماذا لا تنشغلين بخصوص ذلك لبعض الوقت، وتبتعدي بحقِّ *اللَّعنة* عَنْ شؤون جميع الآخرين.»

لَمْ تجفل جويس أمام هذا، حتَّى. مِنَ الصَّعب فعلًا أَنْ تشرح كيف كانت إساءة سنِّ المراهقة مألوفةً بالنِّسبة إِلَى جويس؛ لقَدْ تعلَّمَت بشكلٍ منتظمٍ هذه الأيَّام مِنْ خلال أطفالها هي نفسها وأطفال ناسٍ آخرين أَنَّ شتيمةً ما أَوْ تعليقًا قاسيًا لا يمكن لها أَنْ تؤثِّر فيها. فهي ببساطةٍ تمحوها.

«السَّبب في أَنَّني لا أقلق بخصوص جوش، كما تعرفين جيِّدًا،» قالت جويس بابتسامةٍ واسعةٍ، وهي تتحدَّث بطريقتها التشالفينيَّة الَّتي قادَت إِلَى صوت الأمومة، «هو أَنَّه يحاول فقط أَنْ يحصل عَلَى بعض الاهتمام. بالأحرى مثلكِ أنتِ في هذه اللَّحظة. إِنَّه أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا بالنِّسبة إِلَى أطفال الطَّبقة الوسطى الَّذين تلقُّوا تعليمًا جيِّدًا أَنْ يتصرَّفوا هكذا في عمره.» (عَلَى العكس مِنْ كثيرين في الجوار في هذا الوقت، لَمْ تشعر جويس بأَيِّ خجلٍ مِنْ استخدام مصطلح «الطَّبقة الوسطى» فالطِّبقات الوسطى في معجم آل تشالفين هم ورثة التَّنوير، ومبدعو حالة الرَّفاه، والنُّخبة المثقَّفة، ومصدر كُلِّ ثقافةٍ. مِنْ أين حصلوا عَلَى هذه الفكرة، يصعب أَنْ تقول) «لكنَّهم سوف يعودون سريعًا إِلَى الحظيرة. أنا واثقةٌ فعلًا بخصوص جوشوا. هو يعاند والده فقط وهذا سوف يمُر. لكنَّ ماجد لديه بعض المشكلات الحقيقيَّة. لقَدْ قمتُ ببحثي، يا أَيرِي. وهناك الكثير فعلًا مِنَ العلامات. ويمكنني قراءتها.»

«حسنًا، لا بدَّ أنَّكِ قرأتِها بشكلٍ خاطئٍ،» ردَّت أَيري الهجوم؛ لأَنَّ المعركة عَلَى وشك أَنْ تبدأ، يمكنها أَنْ تشعر بها. «مَاجد بخيرٍ. لقَدْ تحدَّثتُ إليه. إِنَّه أستاذٌ في الزِّن. إِنَّه أكثر شخصٍ سخيفٍ هادئٍ التقيتُ به في حياتي. يعمل مع ماركوس، وهذا ما يريد أَنْ يفعله، وهو سعيدٌ. ماذا لَوْ جرَّبنا جميعنا سياسة عدم التَّدخُّل لمرَّةٍ واحدةٍ؟ بعضًا مِنْ سياسة دَعْه يعمل؟ ماجد بخيرٍ.»

«يا أَيري، يا عزيزتي،» قالت جويس، وهي تحرِّك أَيري مسافة كرسيٍّ واحدٍ وتموضع نفسها أمام الهاتف. «ما لا تفهمينه أبدًا هو أَنَّ النَّاس متطرِّفون. كان الأمر ليكون رائعًا إذا كان الجميع مثل والدك، يمضون بشكلٍ طبيعيٍّ حتَّى ولَوْ هبط السَّقف حتَّى أذنيه. لكنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس لا يستطيعون أَنْ يفعلوا ذلك. يُظهر ماجد ومِلَّة سلوكًا *مُتطرِّفًا*... مِنَ السَّهل جدًّا أَنْ تقولي دعه يعمل وأَنْ تكوني ذكيَّةً جدًّا بهذا الخصوص، لكنْ خلاصة القول هي أَنَّ مِلَّة في طريقه لأَنْ يضع نفسه في مشكلاتٍ فظيعةٍ مع هؤلاء النَّاس الأصوليِّين. مشكلاتٍ فظيعةٍ. أنا أنام ـ بالكاد ـ مِنْ قلقي عليه. أنتِ تقرئين عَنْ هذه الجماعات في الأخبار... وهذا يضع ضغطًا نفسيًّا هائلًا عَلَى ماجد. الآن، هَلْ مِنَ المقدَّر لي أَنْ أجلس فقط وأشاهدهما يمزِّقان بعضهما إربًا، فقط لأَنَّ والدَيهما ـــ لا، سوف أقولها؛ لأَنَّها حقيقةٌ ـ فقط لأَنَّ والديهما لا يبدوان مهتمَّين؟ لقَدْ كنتُ دائمًا معنيَّة برعاية هذَين الولدَين في أعماقي، وأنتِ مِنْ بين كُلِّ النَّاس يجب أَنْ تعرفي ذلك. إِنَّهما يحتاجان إِلَى مساعدةٍ. لقَدْ مررتُ بجوار الحمَّام للتَّوِّ، وكان ماجد يجلس في البانيو وهو يرتدي جينزه. نعم. حسنًا جدًّا؟ الآن،» قالت جويس، هادئةً مثل بقرةٍ، «ينبغي أَنْ أثق في أَنَّني أعرف الطِّفل المصاب بصدمةٍ عندما أرى واحدًا.»

الفصل السابع عشر
محادثات الأزمة وتكتيكات الساعة الحادية عشرة

«يا سيِّدة إقبال؟ هذه جويس تشالفين. يا سيِّدة إقبال؟ أستطيع رؤيتكِ بوضوحٍ. أنا جويس. أعتقد فعلًا أنّنا يجب أنْ نتحدَّث. هَلْ يمكنكِ... إممم... أنْ تفتحي الباب؟»

نعم، يمكنها. تستطيع، *نظريًا*. لَكِنْ في هذا الجوِّ مِنَ التَّطرُّف، مع الابنَين المتحاربَين والفصائل المتناحرة، احتاجت ألسانا إِلَى تكتيكٍ يخصُّها. جرَّبَت الصَّمت، الضَّرب بالكلمات، واستهلاك الغذاء (نقيض الإضراب عَنِ الطَّعام: يصبح المرء أضخم لكَيْ يخوِّف العدوَّ)، والآن تجرِّب الاحتجاج بالجلوس.

«يا سيِّدة إقبال... خمس دقائق مِنْ وقتكِ فقط. ماجد مستاءٌ جدًّا مِنْ كُلِّ هذا، فعلًا. إنَّه قلقٌ جدًّا بخصوص مِلَّة وكذلك أنا. فقط خمس دقائِقَ، يا سيِّدة إقبال، أرجوكِ.»

لَمْ ترتفع ألسانا عَنْ مقعدها. واستمرَّت ـ ببساطةٍ ـ في الغمغمة، وهي تحتفظ بعينيها عَلَى الخيط الأسود وهو يتنقَّل مِنْ ترسٍ إِلَى الآخر ثُمَّ إِلَى أسفل في الدَّوَّاس، وهي تضغط دوَّاسة الماكينة السِّينجر بشراسةٍ، كما لَوْ تركل خاصرة حصانٍ تمنَّت أَنْ تمتطيه إِلَى غروب الشَّمس.

«حسنًا، رُبَّما يمكنك أَنْ تسمحي لها بالدُّخول أيضًا،» قال صمد بضجرٍ، وهو يبرز مِنْ غرفة المعيشة، حيث أفسد إصرارُ جويس استمتاعه ببرنامج *طريق التُّحف*[1] (بصرف النَّظر عَنْ نجم فيلم «*معادل الصَّوت*»[2] ذلك المُثمِّن الافتراضيِّ العظيم

---

1 ـ برنامج تليفزيوني بريطاني (منذ 1970) يسافر فيه مثمنو التحف إِلَى مناطق مختلفة من بريطانيا (وأحيانًا في دول أخرى) لتقييم التحف الَّتِي يجلبها أهل تلك المناطق. (المترجم).

2 ـ مسلسل جريمة أمريكي، تم عرضه في البداية على قناة CBS منذ 1985 حتَّى 1989. من بطولة إدوارد وودورد. (المترجم).

إدوارد وودورد[1]، فهذا برنامج صمد المفضَّل. لقَدْ قضى خمسة عشر عامًا تليفزيونيًّا طويلًا في انتظار أَنْ تُخرج ربَّة منزلٍ مِنْ مواطني لندن حليةً لمانجال باندي مِنْ حقيبة يدها. *أوه، يا سيِّدة وينتربوتوم، الآن هذا مثيرٌ للغاية. ما لدينا هنا هو ماسورة بندقيَّةٍ «مسكيت[2]» تعود إلَى*... يجلس والهاتف تحت يده اليمنى حتَّى إذا ما حدث سيناريو مثل هذا فبإمكانه أَنْ يتَّصل بالـ بي بي سي ويطلب عنوان مَنْ قيل إنَّها وينتربوتوم ويسأل عَنِ السِّعر. حتَّى الآن فميداليَّات المتمرِّدين وساعات جيوبهم ظلَّت مملوكةً لهافلوك فقط، وإنْ كان قَدْ شاهدها).

أطلَّ نحو المدخل عَلَى الهيئة الظِّلِّيَّة لجويس مِنْ خلال الزُّجاج وحكَّ خصيتَيه، بحزنٍ. كان صمد في زِيِّه التِّليفزيونيِّ: سترةٍ مُبهرجةٍ مفتوحة الرَّقبة، ومعدةٍ منتفخةٍ كما لَوْ أَنَّ هناك حقيبة ماءٍ ساخنٍ صغيرةٍ بداخلها، وثوبٍ طويلٍ أكلَته العثَّة، وسروال ملاكمةٍ قصيرٍ مِنْ طراز بيزلي خرجَت منه ساقان نحيلتان، إرث شبابه البارز. في مزاجه التِّليفزيونيِّ كان فاقدًا أيَّ قدرةٍ عَلَى الحركة. شَفَطَه الصُّندوق في زاوية الغرفة (والَّذِي أحبَّ أَنْ يفكِّر فيه كتحفةٍ مِنْ نوعه، مكسوًّا بالخشب عَلَى أربع سيقان مثل روبوتٍ مِنَ العصر الفيكتوريِّ) وامتصَّ كُلَّ الطَّاقة.

«حسنًا، لماذا لا تفعل أنتَ شيئًا، يا سيِّد إقبال؟ اجعلها تذهب. بدلًا مِنَ الوقوف هناك تعرض بطنكَ المترهِّل وعضوكَ الصَّغير.»

نخر صمد ودسَّ سبب كُلَّ مشكلاته، كُرتَين كبيرتَين مُشعرتين وقضيبًا رخوًا، في البطانة الدَّاخليَّة لسرواله القصير مِنْ جديدٍ.

«لَنْ تذهب،» غمغم. «وإذا فعلَت فهو فقط؛ لأَنَّها سوف تعود مع تعزيزاتٍ.»

«لكنْ لماذا؟ أَلَمْ تسبِّب ما يكفي مِنَ المشكلات؟» قالت ألسانا بصوتٍ عالٍ، عالٍ بما يكفي لجويس. «لديها عائلتها، أليس كذلك؟ لماذا لا تذهب وتعبث بهم كنوعٍ مِنَ التَّغيير؟ لديها أولادٌ، أربعة أولادٍ؟ كَمْ ولدًا تريد؟ كَمْ واحدًا بحقِّ اللَّعنة؟»

1 ـ ممثل مسرح وتليفزيون ومغنٍ بريطاني شهير. بدأ حياته المهنية على المسرح. حظي باهتمام واسع منذ عام 1967 في البطولة التليفزيونية لدراما الجاسوسية البريطانية كالان، وهو الدور الذي فازعنه بجائزة الأكاديمية البريطانية للتليفزيون كأفضل ممثل. حصل على جائزة الجولدن جلوب في عام 1986 عن دوره في مسلسل «معادل الصوت». (المترجم).

2 ـ المسكيت هي سلاح ناري ذات تجويف أملس يلقم عبر الفوهة وتطلق من الكتف. صممت المسكيت للاستخدام من قبل المشاة. سمي حامل المسكيت بالمسكتير أو المسكتمان. (المترجم).

هزَّ صمد كتفَيه، وذهب إلَى درج المطبخ، والتقط سمَّاعات الأذن الَّتي يمكن توصيلها بالتِّليفزيون وقطع هكذا الاتِّصال بالعالم الخارجيِّ. انسحب، مثل ماركوس. *اتركهما*، كان شعوره. اتركهما لمعاركهما الخاصَّة.

«أوه *شكرًا* لكَ،» قالت ألسانا بشكلٍ لاذعٍ، بينما تراجع زوجها إلَى قدوره وبنادقه. «شكرًا لكَ، يا صمد مياه، عَلَى مساهمتك أوه القيِّمة جدًّا. هذا ما يفعله الرِّجال. يصنعون الفوضى، وينتهي القرن، ثُمَّ يتركون النِّساء لكَيْ ينظِّفن القرف. شكرًا لكَ، يا زوجي.»

زادَت مِنْ سرعة خياطتها، خارجةً عن خطِّ الغرزة، وهي تتقدَّم في بطن ساق الثَّوب، بينما استمر أبو الهول[1] صندوق البريد في طرح الأحاجيِّ الَّتي بلا إجابات.

«يا سيِّدة إقبال... أرجوكِ، هَلْ يمكننا أَنْ نتحدَّث؟ هَلْ هناك أيُّ سببٍ يمنعنا مِنَ الحديث؟ هَلْ يجب علينا أَنْ *نتصرَّف* كالأطفال؟»

بدأَت ألسانا في الغناء.

«يا سيِّدة إقبال؟ مِنْ *فضلكِ*. ماذا قَدْ يحقِّق هذا؟»

غنَّت ألسانا بصوتٍ أعلى.

«يجب أَنْ أخبرك،» قالت جويس، بحدَّةٍ أكثر ممَّا سبق، عبر ثلاثة حواجز مِنَ الخشب والزُّجاج، «أنا لستُ هَنا لأجل المرح. سواءً أردت لي أم لا، فأنا متورطةٌ[2] في الأمر، أنا أفعل، هَلْ ترَين؟ أنا أفعل.»

متورطةٌ. عَلَى الأقلِّ هذه هي الكلمة الصَّحيحة، تأمَّلَت ألسانا، بينما رفعَت قدمها عَنِ الدَّوَّاسة، وتركَت العجلة تدور عدَّة دوراتٍ وحدها قبل أَنْ تقف مرَّةً واحدةً. تسمع النَّاس في بعض الأحيان، هنا في إنجلترا، في محطَّات الباص خصوصًا وفي مسلسلات

1 ـ في مسرحية الملك أوديب لسفوكليس (من الميثولوجيا اليونانية) كان الوحش على بوابات المدينة يطلق عليه أبو الهول، وكان يلقي أحجية على كُلّ من أراد العبور، وإذا لَمْ يجب يأكله. (المترجم).

2 ـ استخدمت الكاتبة فعل involved ويعني متورط، أو عالق، أو مشارك، أو مرتبط أو معنيّ، وهي المعاني التي يتنقل الفعل بينها في استخداماته في الجمل التالية، غير أنني آثرت الاحتفاظ بتكرارية الاستخدام لنفس الفعل وتصريفاته كما جاءت في الأصل فكان فعل «متورط» وتصريفاته الأقرب للتعبير عن ذلك، والحفاظ على التكرارية المطلوبة. مع فروقات طفيفة في الاستخدام السياقي. والمعنى أن الفعل المستخدم هنا هو involved بكل تجليات معناه، بحسب السياق، وما «متورط» إلا اقتراح ترجمي يحافظ على التكرارية التي استدعتها الفقرة، دون أن يكون مطابقا تماما للمعنى في بعض الأحيان. (المترجم).

أوبرا الصَّابون النَّهارية، يقولون «نحن متورِّطون ببعضنا بعضًا،» كما لَوْ أَنَّ هذه أروع حالةٍ يمكن أَنْ يكونوا عليها، كما لَوْ أَنَّ المرء اختار ذلك واستمتع به. ولكنَّ ألسانا لَمْ تفكر في الأمر عَلَى هذا النَّحو قطُّ. *التَّورُّط* يحدث عَلَى مدى فترةٍ طويلةٍ مِنَ الزَّمن، يسحبكَ مثل الرِّمال المتحرِّكة. *التَّورُّط* هو ما حدث لألسانا بيجوم ذات الوجه القمريّ والوسيم صمد مياه بعد أسبوعٍ مِنْ دفعهما إِلَى غرفة إفطارٍ في دلهي معًا وإخبارهما أَنَّهما في طريقهما للزَّواج. *التَّورُّط* هو النَّتيجة بعدما التقت كلارا بودين بآرشي جونز في قاع أحد السَّلالم. *التَّورُّط* ابتلع فتاةً تُدعى أمبروزيا وفتًى يدعى تشارلي (نعم، أخبرَتها كلارا عن *تلك* الحكاية الحزينة) في اللَّحظة الَّتي تبادلا فيها القبلات في غرفة المؤونة ببيت الضُّيوف. الارتباط ليس حسنًا ولا سيِّئًا. إِنَّه فقط نتيجةٌ للحياة، نتيجةٌ للاحتلال والهجرة، للإمبراطوريّات والتَّوسُّع، للحياة معًا لفترةٍ طويلةٍ... يصبح المرء متورِّطًا ويا لها مِنْ رحلة عودةٍ طويلةٍ حتَّى لا تعود متورِّطًا. والمرأة عَلَى حقٍّ، لا يفعل المرء ذلك لأجل *استمتاعه*. لا شيء تَمَّ في هذه النِّهايات مِنَ القرن مع وضع *الاستمتاع* في الاعتبار. ليسَت ألسانا غبيَّةً عندما يتعلَّق الأمر بالحالة الحديثة. لقَدْ شاهدَت البرامج الحواريَّة، شاهدَت البرامج الحواريَّة طوال النَّهار - زوجتي *نامت مع أخي. أُمِّي لَنْ ترفع يدها عَنْ حياة صديقي* - ويسأل حامل الميكروفون، سواءً أكان رجلًا لوَّحَته الشَّمس بأسنانٍ بيضاء أم كانا زوجَين مخيفَين، دائمًا نفس السُّؤال السَّخيف اللَّعين: *لَكِنْ لماذا تشعر بالحاجة إِلَى...*؟ خطأً أرادَت ألسانا أَنْ توضِح لهم عبر الشَّاشة. أنتَ أَيُّها الأبله؛ هُم لا يريدون هذا، هُم لا *ينتوونه* - إِنَّهم - فقط - متورِّطون، هَلْ ترى؟ هم يدخلون ويحاصَرون بين زاويتي الأبواب الدَّوَّارة. *متورِّطون*. تمرُّ السَّنوات، وتتراكم الفوضى وها نحن ذا. أخوكَ ينام مع ابنة العمِّ الثَّاني لابنة أخت زوجتي السَّابقة. *متورِّطون*. مجرَّد حقيقةٍ مُتعبةٍ لا مفرَّ منها. شيءٌ ما في الطَّريقة الَّتي قالت جويس بها الكلمة، *متورِّطةٌ* - شيٌ متعبٌ، ولاذعٌ بعض الشَّيء - اقترح عَلَى ألسانا أَنَّ الكلمة تعني الأمر نفسه بالنِّسبة إليها. شبكةٌ هائلةٌ تغزلها لكَيْ تلتقط نفسك.

«حسنًا، حسنًا، أيتها السَّيِّدة، خمس دقائِقَ، فقط. لَدَيَّ ثلاثة بذْلاتٍ مِنْ قطعةٍ واحدةٍ لأنهيها هذا الصَّباح أَيًّا كانت الظروف.»

فتحَت ألسانا الباب، ومشَت جويس إِلَى الرُّدهة، ولوهلةٍ استطلعتا أرقامهما المتقابلة، وهما تخمِّنان وزن كُلٍّ منهما مثل ملاكمَين محترفَين مُتوتِّرَين قبل الصُّعود إِلَى الميزان. كانتا مكافئتَين إحداهما للأخرى بالتَّأكيد. ما افتقرَت جويس إليه في الصَّدر،

عوَّضته في المؤخِّرة. وحيث كشفَت ألسانا عَنْ ضعفٍ في الملامح الدَّقيقة - أنفٍ رقيقٍ وجميلٍ، وحاجبَين خفيفَين - عوَّضَت ذلك بالسِّمنة المفرطة لذراعيها، والغمَّازات النَّاجمة عَنْ سلطة الأمومة. لأنَّه، عَلَى أيَّة حالٍ، فهي الأُمُّ هنا. أُمَّ الولدَين في المسألة. هي تمسك بالورقة الرَّابحة، فهَلْ يجب أَنْ تلعب بها.

«حسنًا، إذن»، قالت ألسانا وهي تمرُّ بصعوبةٍ مِنْ باب المطبخ الضَّيِّق، وتشير إِلَى جويس أَنْ تتبعها. «شايًا أَمْ قهوةً؟»

«شايًا،» قالت جويس بحزمٍ. «شاي الفواكه إِنْ أَمكَن.»

«شاي الفواكه غير ممكنٍ. ولا حتَّى إيرل جراي. لقَدْ أتيتُ مِنْ أرض الشَّاي إِلَى هذا البلد اللَّعين، ثُمَّ لا أستطيع تحمُّل نفقات فنجانٍ مناسبٍ منه. بي جي تبس ممكنٌ ولا شيء آخر.»

جفلَت جويس. «بي جي تبس، مِنْ فضلكِ، إذنْ.»

«كما ترغبين.»

كان قدح الشَّاي الَّذِي وُضع أمام جويس بعدَ عدَّة دقائِقَ رماديًّا مع حافَّة مُزبدَّةٍ وآلاف الشَّوائب الدَّقيقة تسبح فيه، أقلُّ دقَّةً ممَّا قَدْ يتمنَّى المرء. منحَت ألسانا جويس لحظةً لكَيْ تتأمَّله.

«اتركيه لبعض الوقت فقط،» شرحَت بمرحٍ. «نقر زوجي أنبوب المياه وهو يحفر خندقًا لزراعة بعض البصل. وأصبح ماؤنا غريبًا بعض الشَّيء مِنْ يومها. رُبَّما يعطيكِ شوائب مقرفةً، ورُبَّما لا يفعل. لكِنِ امنحيه دقيقةً وسوف يصفو. هَلْ ترين؟» حرَّكته ألسانا بشكلٍ غير مُقنعٍ، مرسلةً قطعًا أكبر مِنْ موادٍّ غير معروفةٍ نحو السَّطح. «هَلْ ترين؟ يناسب شاه جهان[1] نفسه!»

أخذَت جويس رشفةً أوَّليَّةً ومِنْ ثَمَّ أزاحته جانبًا.

«يا سيِّدة إقبال، أعرف أنَّنا لَمْ نكن عَلَى وفاقٍ في الماضي، لكن ـــ »

1 ـ غياث الدين خُرّم بن جهانكير، واشتهر بشهاب الدين محمد شاه جهان أي: ملك الدنيا (5 يناير 1592 ـ 22 يناير 1666) أحد حكام الهند في القرن الحادى عشر الهجري. أشهر آثاره تاج محل، ضريح زوجته ممتاز محل. (المترجم).

«يا سيِّدة تشالفين،» قالَت ألسانا، وهي ترفع سبَّابتها الطَّويلة لكَيْ توقف حديث جويس. «هناك قاعدتان يعرفهما الجميعُ، مِنْ رئيس الوزراء إِلَى سائق الرِّكشا[1]. الأولى هي، لا تجعل بلدك يتحوَّل إِلَى مركزٍ تجاريٍّ عَلَى الإطلاق. مهمٌّ جدًّا. لَوِ اتَّبع أجدادي هذه النَّصيحة، لكان وضعي الحالي مختلفًا جدًّا، لكنْ هذه هي الحياة. الثَّاني هو: لا تتدخَّلي في شؤون عائلات النَّاس الآخرين. حليبًا؟»

«لا، لا، شكرًا لكِ. القليل مِنَ السُّكَّر....»

ألقَت ألسانا ملعقة مائدةٍ ضخمةً مملوءةً في فنجان جويس.

«تعتقدين أَنَّني أتدخَّل؟»

«أعتقد أَنَّكِ تدخَّلتِ بالفعل.»

«لكنَّني أريد فقط أَنْ يرى التَّوأمان أحدهما الآخر.»

«أنتِ السَّبب في انفصالهما.»

«لكنَّ ماجد يعيش معنا فقط؛ لأَنَّ مِلَّة لَمْ يكن ليعيش معه هنا. ويخبرني ماجد أَنَّ زوجك لا يكاد يطيق رؤيته.»

انفجرَت ألسانا، الَّتي كانت مثل آنية الضَّغط. «ولماذا لا يطيق رؤيته؟ بسببكما، *أنتِ* وزوجكِ، لقَدْ ورَّطتما ماجد في شيءٍ ما مخالفٍ جدًّا لثقافتنا، لمعتقداتنا، حتَّى أَنَّنا لا نكاد نميِّزه! لقَدْ فعلتما ذلك! إِنَّه في خلافاتٍ مع شقيقه الآن. صراعٍ مستحيلٍ! هؤلاء الأنذال ذوي البَبيونات الخضراء: إِنَّ مِلَّة في منصبٍ مهمٍّ معهم الآن. مرتبطٌ جدًّا. لا يخبرني، ولكنَّني أسمع. يدعون أنفسهم أتباع الإسلام، لكنَّهم ليسوا سوى مجموعةٍ مِنَ البلطجيَّة يجوبون شوارع كيلبورن مثل جميع المجانين الآخرين. وهم - الآن - يوزِّعون الـ - ماذا تُدعى - متاعب الأوراق المطويَّة.»

«منشوراتٍ؟»

«*منشوراتٍ*. منشوراتٍ عَنْ زوجك وفأره الفاجر. المتاعب تختمر، نعم يا سيِّدي. لقَدْ وجدتُها، المئات منها، تحت سريره.» وقفت ألسانا، وأخرجَت مفتاحًا مِنْ جيب

2 - مركبة «الريكاشة اليابانية القديمة»، على عجلتين، يجرها الإنسان، وهي شهيرة في الهند وشرق آسيا. (المترجم).

مريلتها، وفتحَت خزانة مطبخٍ مكدَّسةٍ بالكامل بمنشوراتٍ خضراءَ، انهالت عَلَى الأرضيَّة. «لقَدِ اختفى مرَّةً أخرى، لثلاثة أيَّامٍ. يجب أَنْ أضعها مِنْ جديدٍ قبل أَنْ يكتشف أَنَّها اختفَت. خذي البعض، هيَّا، أَيَّتها السَّيِّدة، خذيها، واذهبي واقرئيها عَلَى ماجد. اوضحي له ما فعله. هما ولدان مدفوعان إِلَى نهايتَين مختلفتَين للعالم. *لقَدْ* أشعلتُما حربًا بين ابنيَّ. *أنتما* تمزِّقانهما إربًا!»

قبل ذلك بدقيقةٍ أدار مِلَّة المفتاح في هدوءٍ تامٍّ في الباب الأماميّ. وظلَّ واقفًا مِنْ لحظتها في الرُّدهة، ينصت إِلَى المحادثة ويدخِّن سيجارةً. ذلك رائعٌ! أشبه بالاستماع إِلَى اثنتَين مِنَ الأمَّهات الإيطاليَّات مِنْ عشيرتَين متعارضتَين تتعاركان بخصوصهما. أحبُّ مِلَّة العشائر. لقَدِ انضمَّ إِلَى **كيفن**؛ لأَنَّه يحبُّ العشائر (والزِّيَّ والببيون)، وهو يحبُّ العشائر في الحرب. اقترحَت مارجوري المحلِّلة أَنَّ هذه الرَّغبة في أَنْ يكون جزءًا مِنْ عشيرةٍ هي نتيجةٌ لكونه، بشكلٍ مؤثِّرٍ، نصف توأمٍ. واقترحَت مارجوري المحلِّلة أَنَّ تَحوُّل مِلَّة الدِّينيَّ مِنَ المرجَّح أَنَّه وليد حاجةٍ للتَّماثل ضمن مجموعةٍ، أكثر منه نتيجةً لأيِّ اعتقادٍ فكريٍّ مُتبلورٍ في وجود خالقٍ مطلق القوَّة. ربُمَّا. *أيًّا* كان. فبالقدر الَّذِي اهتمَّ به، باستطاعته تحليل الأمر إِلَى ما لا نهايةٍ، لَكِنْ لا شيء يفوق ارتداء الأسود بالكامل، وتدخين سيجارةٍ، والإنصات إِلَى أُمَّين تتعاركان بأسلوبٍ أوبراليٍّ:

«تزعمين الرَّغبة في مساعدة ولدَيَّ، ولكنَّكِ لَمْ تفعلي أَيَّ شيءٍ سوى دقِّ إِسْفينٍ بينهما. لقَدْ فات الأوان الآن. لقَدْ فقدتُ عائلتي. لماذا لا تعودين إِلَى عائلتك وتتركينا لشأننا؟»

«هَلْ تظنِّين أَنَّها الجنَّة هناك في منزلي؟ لقَدِ انقسمَت عائلتي بسبب هذين. جوشوا لا يتحدَّث إِلَى ماركوس. هَلْ عرفتِ ذلك؟ وكان هذان الاثنان قريبَين جدًّا...» بدَت جويس باكيةً بعض الشَّيء، وعَلَى مضضٍ مرَّرت لها ألسانا فوطة المطبخ. «إِنَّني أحاول مساعدتنا جميعًا. وأفضل طريقةٍ لكَيْ نبدأ هي أَنْ نجعل ماجد ومِلَّة يتحدَّثان قبل أَنْ يتفاقم الأمر أكثر ممَّا فعل. أعتقد أَنَّنا يمكن أَنْ نتَّفق عَلَى ذلك. إذا استطعنا أَنْ نعثر عَلَى مكانٍ محايدٍ، عَلَى أرضيَّةٍ ما، حيث لا يشعر أَيٌّ منهما بأَيِّ ضغوطٍ أَوْ مؤثِّراتٍ خارجيَّةٍ...»

«ولكنْ لَمْ يعد هناك أَيُّ مكانٍ محايدٍ بعد الآن! أنا موافقةٌ أَنَّهما لا بُدَّ أَنْ يلتقيا،

ولكنْ أين وكيف؟ أنتِ وزوجك جعلتُما كُلَّ شيءٍ مستحيلًا.»

«يا سيِّدة إقبال، مع كُلِّ الاحترام الواجب، فالمشكلات في عائلتك بدأت منذ وقتٍ طويلٍ قبل حتَّى أَنْ يكون لزوجي أَوْ يكون لي أَيُّ ارتباطٍ بالأمر.»

«رُبَّما، رُبَّما، يا سيِّدة تشالفين، غير أَنَّكما الملح عَلَى الجرح، نعم؟ أنتما حبَّة الفلفل الحارَّة الإضافيّة في الصَّلصة الحارَّة.»

سمع مِلَّة جويس وهي تأخذ نفَسَها بشكلٍ حادٍّ.

«مرَّةً أخرى، مع احترامي، لا أستطيع أَنْ أصدِّق أَنَّ تلك هي القضيَّة. أعتقد أَنَّ هذا كان مستمرًّا لفترةٍ طويلةٍ جدًّا. لقَدْ أخبرني مِلَّة أَنَّكِ أحرقتِ كُلَّ أشيائه منذ عدَّة سنواتٍ. أعني، هذا مجرَّد مثالٍ، لكنِّي لا أظنُّ أَنَّك تدركين *الصَّدمة* الَّتِي أحدثها هذا النَّوع مِنَ الأشياء في مِلَّة. لقَدْ تضرَّر بشكلٍ كبيرٍ.»

«أوه، هَلْ سنلعب واحدةً بواحدةٍ. كما أرى. وأنا السَّيِّئة هنا. ليس أَنَّ هذا له أَيُّ علاقةٍ بتدخُّلك في شؤوننا، لكنِّي أحرقتُ تلك الأشياء لكَيْ أعلِّمه درسًا - أَنْ يحترم حياة الآخرين!»

«طريقةٌ عجيبةٌ لإظهار ذلك، إذا لَمْ تمانعي في قولي.»

«أنا أمانع! أمانع فعلًا! ماذا تعرفين عَنْ ذلكَ؟»

«ما أراه فقط. وأنا أرى أَنَّ مِلَّة لديه العديد مِنَ النُّدوب النَّفسيَّة. رُبَّما لا تعلمين بذلك، ولكنِّي موَّلتُ جلساتٍ لِمِلَّة مع محلِّلتي. ويمكنني أَنْ أخبرك، فحياة مِلَّة الدَّاخليَّة - وكَارماه، كما أتصور أنك يمكن أَنْ تسمِّيها بالبنجاليَّة - و*عالم* لا وعيه بالكامل يُظهر اعتلالًا خطيرًا.»

في الواقع، فمشكلة لا وعي مِلَّة (وَلَمْ يحتج إِلَى مارجوري لكَيْ تخبره بهذا) أَنَّه في منطقةٍ وُسطى بالأساس. فمِنْ جهةٍ هو يحاول بجهدٍ أَنْ يعيش كما اقترح هيفان والبقيَّة. وارتبط هذا باستيعاب أربعة عوامل أساسيَّةٍ:

1 - أَنْ يكون المرء زاهدًا في عاداته (يقلع عَنِ الخمر، والماريجوانا، والنِّساء).

2 - أَنْ يتذكَّر دائمًا مجد محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم!) وعظمة الخالق.

3 ـ أنْ يستوعب الأفكار الكاملة لـ **كيفن** والقرآن.

4 ـ أنْ يطهّر المرء نفسه مِنْ رجس الغرب.

عرف أنّه تجربة **كيفن** الكبيرة، وأراد أنْ يمنحها أفضل ما لديه. أدّى بشكلٍ حسنٍ في المجالات الثّلاثة الأولى. يدخّن السّجائر الغريبة ويتجنّب بيرة جينيس في المناسبات (لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك)، ولكنّه كان ناجحًا جدًّا مع أعشاب الشّرّ وإغواء الجسد. لَمْ يعد يرى أليكساندرا أندروسير ولا بولي هوتون ولا روزي ديو (عَلَى الرّغم مِنْ أنّه يقوم بزياراتٍ عرَضيّة لتانيا تشابمان ـ جونز، صهباء صغيرة الحجم جدًّا تفهّمت الطّبيعة الحسّاسة لمعضلته، تمنحه جنسًا فمويًّا بالكامل دون أنْ تطلب مِنْ مِلّة أنْ يلمسها بالمرّة. وكان هذا ترتيبًا لتبادل المنفعة: هي ابنة قاضٍ ويبهجها أنْ تسبّب الرّعب للرّجل المسنّ، ومِلّة في حاجة لأنْ يقذف بدون مشاركةٍ نشطةٍ فعليًّا مِنْ جانبه. عَلَى الجانب الدّينيّ للأشياء، يرى أنّ محمدًا (صلّى الله عليه وسلّم!) رجلٌ قويمٌ، رجلٌ عظيمٌ، وكان في رهبةٍ مِنَ الخالق، بالمعنى الأصليّ لتلك الكلمة: الرّهبة، والخوف، والفزع الحقيقيّ حتّى الموت ـ وقال هيفان إنّ ذلك صوابٌ، ذلك ما ينبغي أنْ يكون. لقَدِ استوعب هذه الفكرة، أنّ دينه ليس مُرتكِزًا عَلَى الإيمان فقط ـ ليس مثل المسيحيّين أَوِ اليهود أَوْ غيرهم ـ ولكنّه ذلك الّذي يمكن إثباته فكريًّا مِنْ قبل أفضل العقول. لقَدْ فهم *الفكرة*. ولكنْ، للأسف، فمِلّة بعيدٌ جدًّا عَنِ امتلاك واحدٍ مِنْ أفضل العقول، أَوْ حتّى عقلٍ مُناسبٍ؛ الإثبات أَوِ النّفي الفكريّين عَلَى الجانب البعيد بالنِّسبة إليه. ومع ذلك، فقَدْ فهم أنّ الاعتماد عَلَى الإيمان، مثلما فعل والده، أمرٌ بائسٌ. ولا يستطيع أحدٌ القول إنّه لَمْ يكرّس نفسه تمامًا للقضيّة. بدَا ذلك كافيًا لـ **كيفن** كانوا أكثر مِنْ سعداء بقوّته الحقيقية، الّتي كانت واجهةً للمسألة. العرض التّقديميّ. عَلَى سبيل المثال، إذا جاءَت امرأةٌ عصبيّة المظهر إلَى كشك **كيفن** في مكتبة ويلْزدن وسألَت عن الإيمان، فإن مِلّة يتّكئ عَلَى المكتب، ويتناول يدها ويضغط عليها ويقول: *ليس الإيمان، أَيّتها الأخت. نحن لا نتعامل في الإيمان هنا. اقضي خمس دقائق مع الأخ راكيش وسوف يثبت لكِ بشكلٍ فكريّ وجود الخالق. القرآن وثيقةٌ علميّةٌ، وثيقةٌ للتّفكير العقلانيّ. اقضي خمس دقائقَ، يا أخت، إذا كنتِ مهتمّةً* بمستقبلك فيما بعد هذه الأرض. وفوق ذلك كله، يمكنه في العادة أنْ يبيع لها بعض التّسجيلات (*الحرب الأيديولوجيّة أَوِ اننذر العلماء*)، بجنيهَين للواحد. أَوْ حتّى بعض منشوراتهم، إذا كان في قمّة مستواه. أَعجب كُلُّ شخصٍ

في كيفن بصورةٍ هائلةٍ. وكان كُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام حتَّى الآن. إذْ أَنَّه بالنِّسبة إِلَى.برامج كيفن غير التَّقليديَّة مِنَ العمل المباشر مفمِلَّةٍ هناك تمامًا، وهو أعظم أصولهم، وفي الطَّليعة، الأوَّل في معركة الجهاد القادمة، باردٌ مثل اللَّعنة في الأزمة، رجل أفعالٍ، مثل براندو، ومثل باتشينو، ومثل ليوتا. ولكنْ حتَّى عندما فكَّر مِلَّة في ذلك بفخرٍ في تلك اللَّحظة في ردهة والدته، شعر في أعماقه بالقلق. لأَنَّ المشكلة ظلَّت هناك. رقم أربعةٍ. تطهير النَّفس مِنَ الغرب.

الآن، هو يعرف، يعرف أَنَّه إذا أردتَ مثالًا عَلَى *الحالة المحتضرة، المنحطَّة، المتدهورة، والمهووسة بالجنس، والعنيفة للثَّقافة الرَّأسماليَّة الغربيَّة والنِّهاية المنطقيَّة لهوسها بالحرِّيَّات* (نشرة، لماذا سُحقًا للغرب)، لا يمكنك أَنْ تفعل أفضل مِنْ سينما هوليوود. ويعرف (كَمْ مرَّةً ناقش فيها ذلك مع هيفان؟) أَنَّ أفلام «العصابات»، مِنْ نوعيَّة المافيا، أسوأ مثالٌ عَلَى ذلك. ومع ذلك... فذلك أصعب شيءٍ يمكن تركه. كان ليعطي كُلَّ سيجارةٍ ملفوفةٍ دخَّنَها عَلَى الإطلاق وكُلَّ امرأةٍ مارس الجنس معها لِكَيْ يستردَّ الأفلام الَّتِي أحرقتها أُمُّه، أَوْ حتَّى القليل الَّذِي اشتراه مؤخَّرًا وصادره هيفان. لقَدْ مزَّق عضويته في محلِّ روكي *للفيديو* وألقى جهاز فيديو آل إقبال بعيدًا؛ لِكَيْ يبعد نفسه عَنِ الإغواء المباشر، ولكنْ هَلْ هو خطؤه أَنَّ القناة 4 تعرض موسم دي نيرو؟ هَلْ كان بوسعه شيءٌ إذا فاضت أغنية توني بينيت[1] «مِنَ الأسمال إِلَى الثَّروة» مِنْ محلاَّت الملابس ودخلَت إِلَى روحه؟ كان سرُّه الأكثر خزيًا أَنَّه كلَّما فتح بابًا ـ باب سيَّارة، أَوْ صندوق سيَّارة، أَوْ باب قاعة اجتماعات كيفن، أَوْ باب منزله الآن للتَّوِّ ـ ركضت افتتاحيَّة «*الأصدقاء الطَّيِّبون*» في رأسه ووجد هذه الجملة تدور في داخل ما افترض أَنَّه عقله الباطن:

بقدر ما أستطيع أَنْ أتذكَّر في الماضي، أردتُ دائمًا أَنْ أكون رجل عصاباتٍ.

بَلْ إِنَّه رآها هكذا، بهذا النَّوع مِنَ الخَطِّ، مثلما عَلَى ملصق الفيلم. وعندما وجد نفسه يفعل ذلك، حاول يائسًا أَلَّا يفعل، وحاول أَنْ يصلحه، ولكنَّ عقل مِلَّة في حالةٍ مِنَ الفوضى وانتهى كالعادة وهو يدفع الباب، ورأسه إِلَى الوراء، وأكتافه إِلَى الأمام، عَلَى غرار ليوتا، وهو يفكِّر:

---

1 ـ أنتوني دومينيك بينديتو، يعرف باسم توني بينيت، مطرب بوب وجاز أمريكي ورسام بارع وهو مؤسس مدرسة فرانك سيناترا للفنون في أستوريا، كوينز، نيويورك. كانت أول أغنية جماهيرية له بعنوان «بسببك أنت» في عام 1951، بالإضافة إِلَى عدد من الأغنيات الَّتِي حققت أرقام مبيعات قياسية، وطور من موسيقاه لتشمل موسيقى الجاز، حتَّى وصل إِلَى ذروته الفنية في أواخر 1950 مع ألبومات «ضربات قلبي» و«أرجوحات باسي». في 1962 سجل أغنيته الأشهر «تركت قلبي في سان فرانسيسكو». (المترجم).

بقدر ما أستطيع أنْ أتذكَّر في الماضي، أردتُ دائمًا أنْ أكون مسلمًا.

عرف، بطريقةٍ ما، أنَّ هذا أسوأ، ولكنَّه - فقط - لَمْ يكن يملك حيلةً. احتفظ بمنديلٍ أبيضَ في جيبه العلويّ، وكان يحمل نردًا دائمًا، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّه لَمْ يملك أيَّ فكرةٍ عَنْ أيِّ لعبةٍ تافهةٍ في الواقع، وأحبَّ معاطف جلد الجمل الطَّويلة ويمكنه أنْ يطهو لينجويني المأكولات البحريَّة لقاتلٍ، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّ كاري الضَّأن بعيدٌ تمامًا عنه. هذا حرامٌ بالكامل، يعرف ذلك.

والأسوأ مِنْ كُلِّ ذلك هو الغضب بداخله. ليس الغضب الصَّالح لرجلٍ مُكرَّس لله، بَلِ الغضب العارم، الغضب العنيف لرجل عصاباتٍ، لحدثٍ جانحٍ، مصمِّمٍ عَلَى إثبات نفسه، مصمِّمٍ عَلَى قيادة العشيرة، مُصمِّمٍ عَلَى هزيمة الآخرين. وإذا كانت اللُّعبة هي الرَّبُّ، إذا كانت اللُّعبة هي معركةٌ ضدَّ الغرب، ضدَّ افتراضات العلوم الغربيَّة، ضد أخيه أَوْ ماركوس تشالفين، فقَدْ صمَّم عَلَى الفوز بها. سحق مِلَّة سيجارته في الدَّرابزين. وأحبطه أنَّ تلك الأفكار ليست مخلصةً. ولكنَّها أقرب إِلَى الصَّواب، أليس كذلك؟ لديه الأساسيَّات؛ أليس كذلك؟ حياةٌ نظيفةٌ، ويصلِّي (خمس مرَّاتٍ في اليوم بدون استثناء)، ويصوم، ويعمل مِنْ أجل القضيَّة، ونشر الرِّسالة؟ وذلك يكفي، أليس كذلك؟ رُبَّما. أيًّا *كان*. عَلَى أيَّة حالٍ، لَمْ تعد هناك طريقٌ للعودة الآن. نعم، سوف يلتقي بماجد، سوف يلتقي به... وسوف تكون لهما مواجهةٌ جيِّدةٌ، سوف يخرج منها أكثر قوَّةً، سوف يدعو أخاه *بالصَّرصور*[1] *الصَّغير*، ثُمَّ يخرج مِنْ هذه المحادثة النِّدِّيَّة أكثر تصميمًا حتَّى عَلَى تحقيق مصيره. عدَّل مِلَّة ببيونه الأخضر وانسلَّ إِلَى الأمام مثل ليوتا (خطيرًا جدًّا وساحرًا) ودفع باب المطبخ فاتحًا إيَّاه (*بقدر ما أستطيع أنْ أتذكَّر...*)، وهو ينتظر أنْ يأخذ زوجين مِنَ العيون، مثل اثنتَين مِنْ كاميرات سكورسيزي، لقطةً بانوراميَّةً لوجهه ثُمَّ تضعانه في البؤرة.

«مِلَّة!»

«أمَّا.»

«مِلَّة!»

«جويس.»

1 - استخدم أداء أل باتشينو وهو ينطق الكلمة في فيلم «الوجه ذو الندبة». (المترجم).

(عظيمٌ، رائعٌ، إذنْ نعرف جميعًا بعضنا بعضًا، مضى مونولوج مِلَّة الدَّاخليُّ بصوت بول سورفينو[1]، دعونا ـ الآن ـ ننخرط في العمل).

***

«حسنًا، أيُّها السَّادة. لا يوجد ما يدعو إلى القلق. هذا هو ابني ـ ببساطةٍ ـ ماجد، هذا ميكي. ميكي، هذا ماجد.»

أوكونيل مرَّةً أخرى. لأَنَّ ألسانا اعترفَت أخيرًا بوجهة نظر جويس، لكنَّها لَمْ تهتمَّ بأَنْ تتدخَّل. طلبَت مِنْ صمد، بدلًا مِنْ ذلك، أَنْ يأخذ ماجد «إِلَى الخارج في مكانٍ ما» ويقضي ليلةً في إقناعه بلقاء مِلَّة. غير أَنَّ الـ «خارج» الوحيد الَّذِي يفهمه صمد هو قاعة أوكونيل وكان احتمال أَنْ يأخذ ابنه إِلَى هناك مُنفِّرًا. نشب صراعٌ شاملٌ بينه وبين وزوجته في الحديقة لتسوية هذه النُّقطة، وكان واثقًا في النَّجاح حتَّى خدعَته ألسانا بعثرةٍ وهميَّةٍ، ثُمَّ بمجموعةٍ مِنَ المسكات القتاليَّة للذِّراع والرُّكبة وأعَلَى الفخذ. وعَلَى ذلك ها هو هنا: في قاعة أوكونيل، وكان خيارًا سيِّئًا كما توقَّع. عندما دخل، هو وآرشي، وماجد، وهم يحاولون أَنْ يكون دخولهم هادئًا كانت هناك همساتٌ مذعورةٌ بين الموظَّفين والزَّبائن. آخر شخصٍ غريبٍ يتذكَّر أَيُّ شخصٍ وصوله مع آرش وسام هو محاسب صمد، رجلٌ ضئيل الحجم بوجه فأرٍ، حاول أَنْ يتحدَّث مع النَّاس بخصوص مدَّخراتهم (كما لَوْ أَنَّ النَّاس في قاعة أوكونيل لديهم مدَّخراتٌ) وسأل ليس مرَّةً بَلْ مرَّتَين عن بودينج الدم[2]، عَلَى الرَّغم مِنَ التَّوضيح مرَّتَين أَنَّ لحم الخنزير ليس متوفِّرًا. حدث ذلك خلال 1987 ولَمْ يستمتع أَيُّ أحدٍ به. والآن، ما هذا؟ أكثر مِنْ خمس سنوات وها هو شخصٌ آخر يأتي، في زيٍّ أبيضَ هذه المرَّة ـ نظيفًا بشكلٍ مُحرجٍ بالنِّسبة إِلَى أمسية يوم جمعةٍ في قاعة أوكونيل ـ وتحت الشَّرط غير المعلن لأدنى سنٍّ (ستةٍ وثلاثين) بمسافةٍ هائلةٍ. ما الَّذِي يحاول صمد أَنْ يفعله؟

«ما الَّذِي تحاول أَنْ تفعله بنا، يا سامي؟» سأل جوني، مع نظرةٍ حزينةٍ قاسيةٍ مِنْ بائع البرتقال السَّابق، الَّذِي انحنى فوق الصَّحن السَّاخن لكَيْ يتناول بعض بقايا الخضراوات[3]. «هَلْ تتجاوزنا، أَمْ ماذا؟»

---

1 ـ ممثل أمريكي. يجسد ـ عادة ـ جانب السلطة من الجهتين من القانون، اشتهر في دور بولي سيسيرو مجسدًا شخصية بول فاربو في رائعة سكورسيزي «الأصدقاء الطيبون». (المترجم).

2 ـ ويسمى البودينج الأسود، أو سجق الدم، ويصنع من دم الخنزير ودهنه مع الشوفان. (المترجم).

3 ـ طبق تقليدي بريطاني يتكون من بقايا الخضراوات المقلية من عشاء المشاوي، وتشمل مكوناته الرئيسية البطاطس والملفوف، إن كان يمكن إضافة خضراوات أخرى كالبازلاء، والجزر وغيرها. (المترجم).

«مَنْ، هو؟» سأل دينزل، الَّذِي لَمْ يمت بعدُ.

«فتاكَ المخنَّث؟» استفسر كلارنس، الَّذِي كان أيضًا، بنعمة الله، يتسكَّع هناك.

«حسنًا، أيُّها السَّادة. لا يوجد ما يدعو إِلَى القلق. هذا هو ابني ببساطةٍ. ماجد، هذا ميكي. ميكي، هذا ماجد.»

بدا ميكي مصعوقًا بعض الشَّيء بهذا التَّعارف، ووقف فقط في مكانه لدقيقةٍ، تتدلَّى فطيرة البيض المقلي مِنْ ملعقته.

«ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال،» قال ماجد بهدوءٍ. «إِنَّه لشرفٌ عظيمٌ أَنْ ألتقيك، يا مايكل. لقَدْ سمعتُ الكثير عنك.»

الأمر الَّذِي كان غريبًا؛ لأَنَّ صمد لَمْ يخبره شيئًا عَلَى الإطلاق.

تابع ميكي النَّظر إِلَى ما وراء كتف ماجد، إِلَى صمد للتَّأكيد. «أنتَ ماذا؟ أنتَ تقصد ذلك الَّذِي أعدتَه إِلَى الوطن؟ هذا ماجد؟»

«نعم، نعم، هذا هو ماجد،» أجاب صمد مستعجِلًا، ومستاءً مِنْ كُلِّ الانتباه الَّذِي ناله الفتى. «الآن، آرشيبالد وأنا سنتناول المعتاد و ــــ»

«ماجد إقبال،» كرَّر ميكي في بطءٍ. «حسنًا، لَمْ أكن عَلَى الإطلاق لأ ــــ تَعْرف، أنتَ لا تبدو إطلاقًا مِنْ آل إقبال. لديكَ وجهٌ به الكثير مِنَ الثِّقة، حسنًا، والتَّعاطف، إذا كنتَ تفهمني.»

«ومع ذلك ما *زلتُ* مِنْ آل إقبال، يا مايكل،» قال ماجد، وهو يلقي نظرة تعاطفٍ كاملٍ عَلَى ميكي وبقيَّة الحثالة البشريَّة في مقابل الطَّاولة السَّاخنة، «عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّني ذهبتُ لفترةٍ طويلةٍ.»

«*قُل ذلك* مرَّةً أخرى. حسنًا، هذه مفاجأةٌ هائلةٌ، إنَّ لدَيَّ تلـ.. انتظر لحظةً، دعني أفهم هذا بطريقةٍ صحيحةٍ... صورة جدِّ *جدِّك* هناك، هَلْ تراها؟»

«لقَدْ لاحظتُها في اللَّحظة الَّتِي وصلتُ فيها، ويمكنني أَنْ أؤكِّد لكَ، يا مايكل، أَنَّ روحي ممتنَّةٌ كثيرًا لذلك»، قال ماجد، مبتهجًا مثل ملاكٍ. «إِنَّها تجعلني أشعر كما في منزلِي، وحيث أَنَّ هذا المكان عزيزٌ عَلَى أبي وصديقي آرشيبالد جونز فأنا أشعر بالتَّأكيد أَنَّه سيكون عزيزًا عليَّ أنا أيضًا. لقَدْ أحضراني إِلَى هنا، كما أظنُّ، لنناقش مسائل ضروريَّةً، ولأمورٍ مثل هذه فأنا ـ شخصيًّا ـ لا أستطيع التَّفكير في مكانٍ أفضل لهما، عَلَى الرَّغم مِنْ حالة جلدكَ المنهكة الواضحة.»

فوجئ ميكي ـ ببساطةٍ ـ بذلك، ولَمْ يمكنه أَنْ يكتم بهجته، وهو يوجِّه إجابته إِلَى كُلِّ مِنْ ماجد وبقيَّة الموجودين في صالةِ أوكونيل.

«إنَّه يتحدَّث بشكلٍ لعينٍ لطيفٍ، أليس كذلك؟ يبدو مثل أوليفييه[1] الحقيقيِّ اللَّعين. إنجليزيَّة الملكة اللَّعينة وبلا أخطاءٍ. يا له مِنْ رفيقٍ لطيفٍ. أنتَ هذا النَّوع مِنَ الزَّبائن الَّذين يمكنني العمل معهم هنا، يا ماجد، دعني أخبرك. متحضِّرٌ وما إِلَى ذلك. ولا تقلق بخصوص بشرتي، ليس لها أيُّ علاقةٍ بالطَّعام ولا تسبِّب لي الكثير مِنَ المتاعب. بالتَّأكيد، يا لكَ مِنْ رجلٍ مهذَّبٍ. تشعر أنَّكَ يجب أَنْ تراقب فمك بجواره، أليس كذلك؟»

«طلبي وطلب آرشيبالد المعتادَين، ثُمَّ، رجاءً، يا ميكي،» قال صمد. «سأترك ابني يختار بنفسه. سنكون بقرب الكرة والدَّبابيس.»

«نعم، نعم،» قال ميكي، دون أَنْ يكلِّف نفسه أَوْ يستطيع تحويل بصره عن عيني ماجد الدَّاكنتين.

«حُلَّةٌ جميلةٌ لدَيك هناك،» غمغم دينزيل، وهو يمسِّد الكتَّان الأبيض بحزنٍ. «هذا ما يستخدمه الرَّجل الإنجليزيُّ؛ لكَيْ يرتديه في الوطن هناك في جامايكا، هَلْ تتذكَّر ذلك، يا كلارنس؟»

أومأ كلارنس ببطءٍ، وهو يتمايل قليلًا، مِنْ فرط البهجة.

«اذهبا، اخرجا مِنَ الأمر، أنتما –الاثنين،» زمجر ميكي، وهو يهشُّهما بعيدًا. «سوف أحضرهما، حسنًا؟ أريد أَنْ أتحدَّث إِلَى ماجد هنا. الفتى في مرحلة النُّموِّ، عليه أَنْ يأكل. إذنْ: ماذا يمكنني أَنْ أعدَّ لك، يا ماجد؟» انحنى ميكي عَلَى الطَّاولة، بكُلِّ اهتمامٍ، مثل فتاة متجرٍ تعرض مفاتنها. «بيضًا؟ مشرومًا؟ فاصوليا؟ بطاطس مقليَّةً؟»

«أظنُّ،» أجاب ماجد، وهو يمسح قوائم السَّبُّورة المتَّسخة عَلَى الحائط ببطءٍ، ويلتفت مِنْ جديدٍ إِلَى ميكي، بوجهٍ مضيءٍ: «سأحبُّ ساندويتشًا مِنْ لحم الخنزير المقدَّد. نعم، هذا هو. سأحبُّ ساندويتش لحم خنزيرٍ كثير العصارة، ومطهوًّا جيِّدًا في الوقت نفسه، مع كاتشاب الطَّماطم. في خبزٍ أسمر.»

---

1 ـ لورانس أوليفييه: ممثل، ومخرج، ومنتج إنجليزي. هو واحد من أكثر الممثلين شهرةً وإجلالًا في القرن العشرين، وهو أصغر ممثل يمنح وسام الفروسية كما كان أول من يرفع إِلَى رتبة النبيل. لعب أوليفييه العديد من الأدوار المختلفة على المسرح والشاشة من التراجيديا اليونانية، وشيكسبير، وكوميديا عصر الإحياء ووصولًا إِلَى الدراما الأمريكية والبريطانية. كان أول مخرج فني للمسرح الوطني لبريطانيا العظمى وقد سمي المسرح الرئيس فيه على اسم أوليفييه تكريمًا له. يراه البعض أعظم ممثل في القرن العشرين. (المترجم).

أوه، يا للصراع الَّذِي تجسَّد عَلَى وجه ميكي في تلك اللَّحظة! أوه، يا لَتشوُّهات الملامح البشعة! كانت معركةً بين ما يفضِّله أكثر زبون استقبله رقيًّا عَلَى الإطلاق وبين قاعدة قاعة أوكونور الأكثر قدسيَّةً. لا لحم خنزير.

رفَّت عين ميكي اليُسرى.

«ألا تريد صحنًا مِنَ البيض المخفوق؟ أنا أصنع بيضًا مخفوقًا جميلًا، أليس كذلك يا جوني؟»

«سأكون كاذبًا إذا قلتُ إنَّك لا تفعل،» قال جوني في إخلاصٍ مِنْ عَلَى طاولته، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّ بيض ميكي اشتهر بكونه رماديًّا وقاسيًا، «سأكون كاذبًا فظيعًا، أقسم بأُمّي، سأكون كذلك.»

جعَّد ماجد أنفه وهزَّ رأسه.

«حسنًا - ماذا عَنِ المشروم والفاصوليا؟ الأومليت وأصابع البطاطس؟ ليست هناك أصابع بطاطس أفضل عَلَى طريق فينشلي. هيَّا، يا بنيَّ،» ناشَدَه في يأسٍ. «أنتَ مسلمٌ، أليس كذلك؟ أنتَ لا تريد أنْ تحطِّم قلب والدك بساندويتش لحم الخنزير المقدَّد.»

«لَنْ يتحطَّم قلب أبي بساندويتش لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ. مِنَ المرَّجح أكثر بكثيرٍ أَنَّ قلب أبي سينهار كنتيجةٍ لتراكم الدُّهون المشبَّعة الَّتِي هي بدورها نتيجةٌ للأكل في مؤسَّستكَ لمدَّة خمسة عشر عامًا. يتساءل المرء،» قال ماجد بهدوءٍ، «إذا تَمَّ رفع قضيَّةٍ، قضيَّةٍ قانونيَّةٍ، أنتَ تفهمني، ضدَّ الأفراد في صناعة الخدمات الغذائيَّة الَّذِين يخفقون في لصق بطاقةٍ بالمحتوى الدَّقيق مِنَ الدُّهون أوِ التَّحذيرات الصِحِّيَّة العامَّة. المرء يتساءل.»

قيل كُلُّ هذا بأحلى، وأكثر الأصوات وخامةً، وبدون أيِّ تلميحٍ بتهديدٍ. ولَمْ يعرف ميكي المسكين ماذا يفعل حياله.

«حسنًا، بالطَّبع،» قال ميكي بعصبيَّةٍ، «نظريًّا ذلك سؤالٌ مثيرٌ للاهتمام. مثيرٌ جدًّا للاهتمام.»

«نعم، أعتقد ذلك.»

«نعم، بكُلِّ تأكيد.»

سقط ميكي في الصَّمت وقضى دقيقةً يلمّع الوجه العلويَّ لصحنٍ ساخِن، في نشاطٍ ينغمس فيه مرَّةً كُلَّ حوالي عشرة أعوامٍ.

«هذا هو. انظر لوجهك في ذلك. الآن. أين كُنَّا؟»

«ساندويتش لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ.»

مع صوت كلمة «لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ» انتبهَت بعض الآذان عَلَى الطَّاولات الأماميَّة.

«إذا أمكنكَ أَنْ تخفض صوتكَ قليلًا....»

«ساندويتش لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ،» همس ماجد.

«لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ. صحيحٌ. حسنًا. سينبغي لي أَنْ أمرَّ عَلَى الباب المجاور؛ لأنَّه ليس لَدَيَّ أيٌّ منه في الحاضر... لَكِنِ اجلس فقط مع والدكَ وسأحضره لكَ. سيكلِّف ذلك أكثر قليلًا، رُبَّما. ما يلزم مِنَ الجهد الإضافيِّ، كما تعلم. لكنْ لا تقلق، سوف أحضره لك. واخبر آرشيبالد ألَّا يقلق إذا لَمْ تكن معه النُّقود. ستفي قسائم الغَدَاء بالغرض.»

«أنتَ لطيفٌ جدًّا، يا مايكل. خُذْ واحدةً مِنْ هذه.» بحث ماجد في جيبه وأخرج قطعةً مِنَ الورق المطويِّ.

«أوه، اللَّعنة عَلَيَّ، منشورٌ آخرُ؟ لا يمكنكَ أَنْ تتحرَّك بحقِّ اللَّعنة - اعذر فرنسيَّتي - لكنْ لا يمكنك التَّحرُّك لأجل المنشورات في شمال لندن هذه الأيَّام. يُحمِّلني أخي عبدول كولين دائمًا بها وكُلُّ ذلك. لَكِنْ كونه أنتَ... اذهب وسلِّمها.»

«ليس منشورًا،» قال ماجد، وهو يلتقط سكِّينًا وشوكةً مِنَ الدُّرج. «إنَّها دعوةٌ لحفل تدشينٍ.»

«أنتَ ماذا؟» قال ميكي بحماسٍ (في قواعد صُحُفه اليوميَّة مِنَ التَّابلويد، تعني تدشينٌ الكثير مِنَ الكاميرات، وفتياتٍ ذوات مظهرٍ مُترفٍ بنهودٍ ضخمةٍ، وسجَّادًا أحمرَ). «حقًّا؟»

ناوله ماجد الدَّعوة. «ثمَّة أشياء لا تصدَّق سيتمُّ سماعها ورؤيتها هناك.»

«أوه»، قال ميكي، محبَطًا، وهو يتطلَّع إِلَى البطاقة الفاخرة. «لقَدْ سمعتُ عَنْ هذا الشَّخص وعَنْ فأره.» لقَدْ سمع عَنْ هذا الشَّخص وعَنْ فأره في نفس صحيفته التَّابلويد، محشورًا نوعًا ما بين النُّهود والمزيد مِنَ النُّهود تحت عنوان: شخصٌ وفأره.

«يبدو مراوغًا بعض الشَّيء بالنِّسبة إِلَيَّ، يعبث مع الرَّبِّ وما إِلَى ذلك. إِلَى جانب أَنَّنِي لستُ ذا عقليَّةٍ علميَّةٍ، كما ترى. ابتعد عَنْ رأسي.»

«أوه، لا أظنُّ ذلك. عَلَى المرء فقط أَنْ ينظر إلى الأشياء مِنْ منظورٍ يهمُّكَ أنتَ بشكلٍ شخصيٍّ. خُذْ بشرتكَ، مثالًا.»

«أتمنَّى لَوْ أخذَها أحدهم بحقِّ اللَّعنة،» مَزَحَ ميكي بمودَّةٍ. «لقَدْ نلتُ ما فيه الكفاية منها.»

لَمْ يبتسم ماجد.

«أنتَ تعاني مِنْ اضطرابٍ خطيرٍ في الغدد الصَّمَّاء. ما أعني به، أَنَّه ليس مجرَّد حبِّ شبابٍ سببه الدُّهون المفرطة في سنِّ المراهَقة، ولكنْ حالةٌ تأتي بسبب خللٍ هرمونيٍّ. أفترض أَنَّ عائلتك تتشارك فيه؟»

«إممم... نعم، فعلًا. جميع إخوتي. وابني، عبدول جيمي. جميعهم أنذالٌ مُنقَّطون.»

«ولكنَّك لَنْ تحبَّ الأمر إذا مرَّر ابنك هذه الحالة إِلَى أبنائه.»

«بالتَّأكيد، لا. لقَدْ عانيتُ متاعب فظيعةٍ في المدرسة. إِنَّنِي أحمل سكِّينًا إِلَى هذا اليوم، يا ماجد. لكنَّنِي لا أستطيع أَنْ أرى كيف يمكن تجنُّب ذلك، كَيْ أكون أمينًا معكَ. كونه مستمرًّا خلال عقودٍ.»

«ولكنَّك ترى،» قال ماجد (ويا له مِنْ خبيرٍ هو في زاوية الاهتمام الشَّخصيِّ!)، «يمكن ـ بالتَّأكيد ـ تجنُّب ذلك. سوف يكون ذلك بسيطًا تمامًا وسيمكن تجنُّب الكثير مِنَ البؤس. ذلك هو نوع الأشياء الَّتِي سوف نناقشها خلال التَّدشين.»

«أوه، حسنًا، لَوْ هذا هو الموضوع، أنتَ تعرف، اعتبرني معكم. لقَدْ ظننتُ أَنَّه فأرٌ متحوِّلٌ أَوْ شيءٌ ما، كما ترى. لَكِنْ ما دام الموضوع كذلك....»

«الحادي والثَّلاثين مِنْ ديسمبر،» قال ماجد، قبل أَنْ يمضي عبر الممرِّ نحو والده. «سيكون رائعًا أَنْ أراكَ هناكَ.»

«استغرقتَ وقتًا،» قال آرشي، بينما اقترب ماجد مِنْ طاولتهم.

«هلْ أتيتَ عَنْ طريق نهر الجانج؟»، تساءل صمد بانفعالٍ، وهو يتحرَّك قليلًا لكَيْ يفسح مجالًا له.

«اعذراني، مِنْ فضلكما. كنتُ فقط أتحدَّث مع صديقكما، مايكل. شخصٌ لطيفٌ جدًّا. أوه، قبل أَنْ أنسى، يا آرشيبالد، قال إِنَّه سيكون مقبولًا تمامًا أَنْ تدفع بقسائم الغداء هذه اللَّيلة.»

كاد آرشي يختنق بخِلَّة أسنانٍ يمضغها. «قال ماذا؟ هَلْ أنت متأكِّدٌ؟»

«متأكِّدٌ تمامًا. والآن، يا أَبًا، هَلْ نبدأ؟»

«لا يوجد شيءٌ لكَيْ نبدأه،» هدَرَ صمد، وهو يرفض أَنْ ينظر إليه مباشرةً. «أخشى أَنَّنا نغرق فعلًا في مؤامرة مصيرٍ شيطانيٍّ ينتظرني. وأريدكَ أَنْ تعرف، أنا لستُ هنا بمحض إرادتي ولكنْ لأَنَّ أُمَّكَ توسَّلَت إليّ لكَيْ أفعل هذا ولأَنَّني أحمل احترامًا لتلك المرأة المسكينة أكثر ممَّا فعلتَ أنتَ أَوْ شقيقكَ بكثيرٍ.»

أرسَلَ ماجد ابتسامةً ساخرةً مُهذَّبةً. «لقَدْ ظننتُ أَنَّكَ هنا لأَنَّ أَمَّا هزمَتكَ في المصارعة.»

عبس صمد. «أوه نعم، اسخر مِنِّي. يا بُنَيَّ. أَلَمْ تقرأ القرآن قطُّ؟ ألا تعرف الواجبات الَّتي يدين بها الابن تجاه أبيه؟ أنتَ تثير غثياني، يا ماجد مُبتسم.»

«وِيْ، يا سامي، يا رجلٌ يا مسنٌّ،» قال آرشي، وهو يعبث بالكاتشاب، ويحاول أَنْ يحتفظ بالأمور مرحةً. «هوِّن عليكَ.»

«لا، لَنْ أهوِّن عَلَيَّ! هذا الفتى شوكةٌ في قدمي.»

«بالتَّأكيد ’هَلْ لي بكلمةٍ جانبيَّةٍ‘؟»

«آرشيبالد، ابقَ خارج الموضوع.»

أعاد آرشي انتباهه إِلَى آنية الفلفل والملح، وهو يحاول صبَّ الأولى في الثَّانية.

«أنتَ عَلَى حقٍّ، يا سام.»

«لَدَيَّ رسالةٌ لكَيْ أنقلها وسوف أنقلها ولا أكثر. يا ماجد، تريدكَ أُمُّك أَنْ تلتقي بمِلَّة. المرأة تشالفين سترتِّب الأمر. هذا رأيهما أَنَّكما يجب أَنْ تتحدَّثا.»

«وما رأيكَ، يا أَبًا؟»

«أنتَ لا تريد أَنْ تعرف رأيي.»

«عَلَى العكس، يا أَبًا، أنا أرغب كثيرًا في سماعه.»

«أظنُّ - ببساطةٍ - أَنَّه خطأٌ. أظنُّ أَنَّكما - الاثنَين - لا يمكن أَنْ تفعلا أَيَّ خيرٍ لأحدكما الآخر. أظنُّ أَنَّكما يجب أَنْ تذهبا إِلَى الجهتَين المتعاكستَين مِنَ الأرض. أظنُّ أَنَّنِي أُصبتُ بلعنة ابنَين أكثر اختلالًا مِنَ السَّيِّد قابيل والسَّيِّد هابيل.»

«أنا مستعدٌّ تمامًا لِلِّقاء به، يا أَبًا. إذا كان سيلتقي بي.»

«هو مستعدٌّ عَلَى ما يبدو، هذا ما قيل لي. أنا لا أعرف. أنا لا أتحدَّث معه أكثر ممَّا أتحدَّث معك. أنا مشغولٌ جدًّا في هذه اللَّحظة أحاول صنع سلامي مع الله.»

«هيه...» قال آرشي، وهو يمضغ خلَّة أسنانه مِنَ الجوع والتَّوتُّر، ولأَنَّ ماجد جعله متوجِّسًا، «سأذهب وأرى ما إذا كان الطَّعام جاهزًا، هَلْ تسمحان؟ نعم. سأفعل ذلك. ماذا أحضر لكَ، يا مادِج؟»

«ساندويتش لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ، مِنْ فضلكَ، يا آرشيبالد.»

«لحم خنـــ ؟ هه... حسنًا. كما تشاء.»

انفجر وجه صمد مثل واحدةٍ مِنْ طماطم ميكي المقليَّة. «أنتَ تقصد *السُّخرية* مِنِّي إذنْ، أهذا هو الأمر؟ ترغب في أَنْ تُظهر الكافر الَّذِي أنتَ عليه، في وجهي. استمرَّ، إذنْ! امضغ خنزيركَ أمامي! أنتَ بارعٌ لعينٌ، أليس كذلك؟ يا سيِّد ذكيٌّ جدًّا. أَيُّها السَّيِّد الإنجليزيُّ ذو البنطلون الأبيضِ بشفته العلويَّة الشَّامخة وأسنانه الكبيرة البيضاء. أنتَ تعرف كُلَّ شيءٍ، يكفي حتَّى للهروب مِنْ يوم حسابك.»

«أنا لستُ ذكيًّا جدًّا، يا أَبًا.»

«لا، لا، أنتَ *لستَ* كذلك. أنتَ لستَ بنصف الذَّكاء الَّذِي تظنُّه. أنا لا أعرف لماذا أهتمُّ بتحذيرك، ولكنَّنِي أفعل: أنتَ في مسارٍ تصادميٍّ مباشرٍ مع أخيك، يا ماجد. إِنَّنِي أهتمُّ بسماع كُلِّ شيءٍ، أسمع شيئًا يتحدَّث في المطعم. وهناك آخرون: مو حسين إسماعيل، وشقيق ميكي، عبدول كولين، وابنه، عبدول جيمي - وهم بعضٌ فقط، هناك الكثيرون غيرهم، وهم مُنظَّمون ضدَّكَ. مِلَّة معهم. لقَدْ أثار ماركوس تشالفين(ك) قدْرًا هائلًا مِنَ الغضب، وهناك بعضهم، هؤلاء ذوو أربطة العنق الخضراء، الَّذِين ينوون التَّصرُّف. وهم مجانين بما يكفي لكَيْ يفعلوا ما يعتقدونه صحيحًا. مجانين بما يكفي

لكَيْ يشعلوا حربًا. ليس هناك الكثير مِنَ الناس هكذا. معظمنا يتبعون طريقًا واحدةً ما إنْ تُعلَن الحرب. لكنَّ بعض النَّاس يرغبُوْنَ فِي أَنْ يجعلوا الأشياء تحدث. بعض الناس يتقدَّمون إِلَى أرض الاستعراض ويسدِّدون أوَّل طلقةٍ. أخوكَ واحدٌ منهم.»

أثناء كُلِّ هذا، وبينما تحوَّل وجه صمد مِنَ الغضب إِلَى اليأس، إِلَى ما يقارب العبوس الهيستيريّ، ظلَّ ماجد بلا أيِّ تعبيرٍ، وظلَّ وجهه مثل صفحةٍ فارغةٍ.

«ليس لديكَ شيءٌ لكَيْ تقوله؟ هذه الأخبار لا تفاجئك؟»

«لماذا لا تتفاهم معهم، يا أَبَّا،» قال ماجد بعد وقفةٍ. «يحترمكَ الكثير منهم. ولديكَ احترامٌ في المجتمع. تفاهم معهم.»

«لأنَّنِي لا أوافق بنفس القوَّة الَّتِي يفعلون بها، عَلَى كُلِّ جنونهم. ليس لماركوس تشالفين أَيُّ حقٍّ. أَيُّ حقٍّ لكَيْ يفعل ما يفعل. هذا ليس شأنه. إنَّه شأن الله. عندما تتدخَّل مع مخلوقٍ، مع *الطَّبيعة* الخالصة لمخلوقٍ، حتَّى ولَوْ كان فأرًا، فأنتَ تمشي في السَّاحة الَّتِي تخصُّ الله: الخلق. أنتَ تفترض أَنَّ معجزة خلق الله يمكن تحسينها. وذلك لا يمكن. إنَّ ماركوس تشالفين *يتجرَّأ*. إنَّه يتوقَّع أَنْ يُعبَد بينما الوحيد في الكون الَّذِي يستحقُّ العبادة هو الله. وأنتَ مخطئٌ بمساعدتك إيَّاه. حتَّى ابنه تبرَّأ منه. وهكذا،» قال صمد، غير قادر عَلَى كبح ملكة الدِّراما في أعماق روحه: «يجب أَنْ أتبرَّأ منكَ.»

«آه، الآن، واحدٌ أصابع البطاطس المقليَّة، والفاصوليا، والبيض، والمشروم لكَ، يا سامي، يا صديقي الطَّيِّب،» قال آرشيبالد، وهو يقترب مِنَ الطَّاولة ويمرِّر الطَّبق. «وواحدٌ أومليت مع المشروم لي...»

«وواحدٌ ساندويتش لحم خنزيرٍ مقدَّدٍ،» قال ميكي، الَّذِي أصرَّ عَلَى كسر تقاليد خمسة عشر عامًا بإحضار هذا الطَّبق بنفسه، «للأستاذ الشَّابِّ.»

«لَنْ يأكل ذلك عَلَى مائدتي.»

«أوه، هيَّا، يا سام،» بدَأ آرشي بحذرٍ. «امنح الفتى فرصةً.»

«أقول إنَّه *لَنْ* يأكل ذلك عَلَى مائدتي!»

حكَّ ميكي جبهته. «يا للهول، نحن نصبح أصوليِّين بعض الشَّيء في أعمارنا المتأخِّرة، أليس كذلك؟»

«لقَدْ قلتُ ــ»

«كما ترغب، يا أَبًا،» قال ماجد، بنفس ابتسامة الغفران التَّامِّ المثيرة للغضب تلك. أخذ صحنه مِنْ ميكي، وجلس عَلَى المائدة المجاورة مع كلارنس ودينزل.

رحَّب دينزل به بابتسامةٍ: «كلارنس، انظر هل ترى! إِنَّه الأمير الصَّغير بالأبيض. لقَدْ جاء لكَيْ يلعب الدُّومينو. إنَّنِي أنظر في عينيه فقط وأعرف أَنَّه يلعب الدُّومينو. وهو خبيرٌ.»

«هَلْ يمكنني أَنْ أسألكما سؤالًا؟» قال ماجد.

«بالتَّ ـ أ ـ كيد. هيًا.»

«هَلْ تظنَّان أَنَّنِي يجب أَنْ ألتقي بشقيقي؟»

«همم. لا أظنُّني أستطيع القول،» أجاب دينزل، بعد فترةٍ مِنَ التَّفكير، وضع خلالها خمس قطعٍ مِنَ الدومينو.

«سأقول إِنَّك تبدو مثل شابٍّ يمكنه أَنْ يتَّخذ قراره بنفسه،» قال كلارنس بحذرٍ.

«هَلْ أفعل؟»

التفت ماجد مِنْ جديدٍ إِلَى طاولته السَّابقة، حيث تجاهله والده بشكلٍ مدروسٍ، وكان آرشي يعبث بـ(أومليت)ه.

«يا آرشيبالد! هَلْ يجب أَنْ ألتقي بأخي أَمْ لا؟»

نظر آرشي مع إحساسٍ بالذَّنب إِلَى صمد ثُمَّ عاد بعدها لصحنه.

«يا آرشيبالد! إِنَّه سؤالٌ مهمٌّ جدًّا بالنِّسبة إِلَيَّ. هَلْ يجب عَلَيَّ أَمْ لا؟»

«هيَّا،» قال صمد بحدَّةٍ. «اجبه. إذا كان حريًّا به أَنْ يأخذ النُّصح مِنْ اثنَين مِنَ الحمقى كبار السِّنّ ورجلٍ يعرفه ـ بالكاد ـ عوضًا عَنْ والده هو نفسه، إذنْ امنحه إياه. حسنًا؟ هَلْ يجب عليه؟»

تشنَّج آرشي. «حسنًا... لا يمكنني... أقصد، ليس الأمر لي لكَيْ أقول... كما أفترض، إِنْ كان يريد... لَكِنْ مع ذلك، إذا كنتَ لا تظنُّ....»

دَقَّ صمد قبضته عَلَى مشروم آرشي بعنفٍ حتَّى أَنَّ الأومليت انزلق عَنِ الطَّبق بالكامل إِلَى الأرضيَّة.

«خُذْ قرارًا، يا آرشيبالد. لمرَّةٍ واحدةٍ في حياتك المثيرة للشَّفقة، خُذْ قرارًا.»

«امم... الرُّؤوس نعم،» لهث آرشيّ، وهو يبحث في محفظته عَنْ قطعة عشرين بنسًا. «والذُّيول، لا. مستعدِّين؟»

ارتفعَت العُملة وتقلَّبَت كما كانت العملة لترتفع وتتقلَّب في كُلِّ مرَّةٍ في العالم المثاليّ، وهي تعكس ضوءَها ثُمَّ تكشف عَنْ جانبها المظلم عددًا كافيًا مِنَ المرَّات حتَّى تخطف لُبَّ المرء. ثُمَّ عند نقطة ما في صعودها الظَّافر، بدَأَت في التَّقوُّس، وذهب القوس في اتِّجاهٍ خاطئٍ ولاحظ آرشي أَنَّها لَمْ تكنْ عائدةً إليه بالمرَّة وإِنَّما ذهبَت خلفه، عَلَى مسافةٍ معقولةٍ وراءه، والتفت مع الجميع لكَيْ يشاهدها تكمل الضَّربة الأنيقة تجاه ماكينة الكرة والدَّبابيس، وتتشقلب وتنزلق مباشرةً في فتحتها. وعَلَى الفور أضاء الوحش القديم العملاق، وانطلقَت الكرة وبدأَت مسارها الفوضويَّ الصَّاخب حول متاهةٍ مِنَ الأبواب المتأرجحة، والخفافيش الأوتوماتيكيَّة، والأنابيب، والأجراس الرَّنَّانة، إِلَى أَنْ أسلمت الرُّوح، بدون أيِّ مساعدةٍ، ولا إدارةٍ مِنْ أيِّ شخصٍ، وانخفضَت في حفرة ابتلاعها مِنْ جديدٍ.

«يا للجحيم الدَّامي،» قال آرشيبالد بابتهاجٍ واضحٍ. «ما فرص حدوث ذلك، هه؟»

***

مكانٌ مُحايدٌ. إنَّ فرص العثور عَلَى واحدٍ ضئيلةٌ هذه الأيَّام، أكثر ضآلةً مِنْ حيلة دبابيس آرشي. ذلك *الكمُّ* الهائل مِنَ القرف الَّذِي يجب مسحه مِنَ القائمة إذا ما أردنا أَنْ نبدأ مِنْ جديدٍ. العِرق. الأرض. الملكيَّة. الإيمان. السِّرقة. الدَّم. والمزيد مِنَ الدَّم. والمزيد. وليس فقط أَنَّ *المكان* يجب أَنْ يكون محايدًا، لكنِ الرَّسول الَّذِي يأخذك إِلَى المكان أيضًا، والرَّسول الَّذِي يرسل الرَّسول. لَمْ يعد هناك بشرٌ أَوْ أماكن هكذا في شمال لندن. لكنَّ جويس بذلَت جهدها بما توفَّر لها. في البداية ذهبت إِلَى مركز كلارا التَّعليميِّ الحاليِّ، جامعةٍ مِنَ الطُّوبِ الأحمرِ، جنوب غرب التَّايمز، فهناك غرفةٌ استخدمَتها للدِّراسة بعد ظهيرة يوم الجمعة. أعارَتها معلِّمةٌ مُراعيةٌ المفتاح. وهي خاليةٌ دائمًا بين الثَّالثة والسَّادسة. محتوياتها: سبُّورةٌ سوداءُ، وعدَّة طاولات، وبعض المقاعد، ومصباحا مكتبٍ، وجهاز عرضٍ ضوئيٍّ، وخزانة ملفَّات، وكمبيوترٌ. لا شيء أقدم مِنَ اثني عشر عامًا، يمكن لكلارا أَنْ تضمن ذلك. فعمر الجامعة نفسها اثنا عشر عامًا فقط. بُنِيَت عَلَى أرضٍ قَفْرٍ ـ لا أراضي دفنٍ هنديَّةً، ولا جسور رومانيَّةً، ولا مركبة

فضاءٍ مدفونةٍ، ولا أساسات كنيسةٍ غابَت منذُ زمنٍ بعيدٍ. أرضٌ فقط. مكانٌ محايدٌ بقدر أيِّ مكانٍ آخر. أعطَت كلارا جويس المفتاح، وأعطَته جويس لأَيرِي.

«ولكنْ لماذا أنا؟ أنا لستُ متورِّطةً في الأمر.»

«بالضَّبط، يا عزيزتي. وأنا متورِّطةٌ جدًّا. لكنْ أنتِ مثاليَّةٌ. لأنَّكِ تعرفينه ولكنَّك لا تعرفينه،» قالت جويس بغموضٍ. ناولَت أيرِي معطفها الشِّتويَّ، وبعض القفَّازات، وقبَّعةً لماركوس بزركشاتٍ سخيفةٍ أعلاها. «ولأنَّك تحبِّينه، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّه لا يحبُّكِ.»

«نعم، شكرًا، يا جويس. شكرًا عَلَى تذكيري.»

«الحبُّ هو السَّبب، يا أَيرِي.»

«لا، يا جويس، ليس الحبُّ هو السَّبب اللَّعين.» وقفَت أَيرِي عَلَى عتبة منزل آل تشالفين، تشاهد أنفاسها المتكاثفة في هواء اللَّيل المتجمِّد. «بَلْ كلمةٌ مِنْ خمسة حروفٍ تشتري التَّأمين عَلَى الحياة ومُنعِّم الشعر. إنَّه *البرد* اللَّعين هنا في الخارج. أنتِ تدينين لي بخدمةٍ.»

«كُلُّ شخصٍ مدينٌ لكُلِّ شخصٍ،» أقرَّت جويس وأغلقَت الباب.

خَطَتْ أَيرِي خارجةً إِلَى الشَّوارع الَّتِي عرفَتها طوال عمرها، عَلَى طريق قطعَتها مليون مرَّةٍ مِنْ قبل. إذا سألها أحدهم وقتها ما الذَّاكرة، ما التَّعريف الأكثر نقاءً للذَّاكرة، لقالَت هذا: الشَّارع الَّذِي كنتُ فيه عندما قفزتُ لأوَّل مرَّةٍ عَلَى كومةٍ مِنَ الأوراق الميِّتة. كانت تقطعه الآن. مع كُلِّ خشخشةٍ جديدةٍ جاءَت ذكرى الخشخشات السَّابقة. غمرَتها بالرَّوائح المألوفة: رقائق الخشب الرَّطبة والحصى حول جذع الشَّجرة، وروثٍ وُضع حديثًا تحت غطاء الأوراق الهشَّة. حرَّكَتها تلك الأحاسيس. فعَلَى الرَّغم مِنْ اختيارها لحياة طبِّ الأسنان، فإنها لَمْ تفقد الشِّعر بعد في روحها، وما زالت تنتابها لحظات مارسيل بروست[1] الغريبة، مدوَّنةً طبقةً فوق طبقةٍ، عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّها غالبا ما اختبرَتها باصطلاح علم أنسجة اللَّثة. شعرَت بوخز ـ كما يحدث مع سنٍّ

1 ـ روائي فرنسي عاش في أواخر القرن 19 وأوائل القرن 20، في باريس، من أبرز أعماله سلسلة روايات البحث عن الزمن المفقود والَّتي تتألف من سبعة أجزاء نشرت بين عامي 1913 و1927، وهي اليوم تعتبر من أشهر الأعمال الأدبية الفرنسية. كان بروست ناقدًا ومترجمًا واجتماعيًّا أيضًا. ولد بالقُرب من باريس في عام 1871 لعائلة غنية، ودرس القانون والأدب. وجعلته ارتباطاته الاجتماعية يرتاد غرف الضيوف الفخمة لدى النبلاء. قام بروست بكتابة عدد من المقالات للصحف الباريسية. نشر أيضًا القصص مثل «المتع والأيام» (1896). عانى من مرض الربو منذ طفولته، وأصبح مبتعدًا عن المجتمع مع حلول العام 1897 بعدما ازدادت حالته الصحية سوءًا. كما أثرت وفاة والدته في العام 1905 على جعله أكثر انعزالًا. (المترجم).

حسَّاس، أَوْ مع «سنٍّ وهميٍّ»، عندما ينكشف العصب ـ شعرت بوخزة وهي تعبر الجراج حيث كانت مع مِلَّة، في عمر الثَّالثة عَشْرَة، ومرَّرا مئةً وخمسين بنسًا، مسروقةً مِنْ برطمان إقبال للمربَّى، عبر الكاونتر، في محاولةٍ يائسةٍ لشراء علبة سجائر. شعرت بحرقة (مثل عيب حادٍّ في إطباقِ الأسنان[1]، ضغط سنٍّ عَلَى آخر) عندما عبرَت المنتزه حيث ركبا الدَّرَّاجات كأطفالٍ، ودخَّنا سيجارتهما الملفوفة الأولى، وحيثُ قبَّلها مرَّةً في منتصف عاصفةٍ. تمنَّت أَيرِي لَوْ أمكنها أَنْ تمنح نفسها لهذه القصص الخياليَّة مِنَ الماضي والحاضر: أَنْ تنغمس فيها، أَنْ تجعلها أحلى، وأطول، وخصوصًا القبلة. ولكنْ كان في يدها مفتاحٌ باردٌ، وكانت محاطةً بحياتها الأغرب مِنَ الخيال، الأكثر تسليةً مِنَ الخيال، والأكثر قسوةً مِنَ الخيال، ومع عواقب لا يمكن للخيال أَنْ يملكها. لَمْ تُرِد التَّورُّط في القِصَّة الطَّويلة لهاتَين الحياتين، ولكنَّها كذلك، ووجدَت نفسها مجرورةً مِنْ شعرها إِلَى ذروة الحكايتَين، عبر الطَّريق السَّريعة ـ *كباب مالي، والسَّيِّد تشي يونج، وراج، ومخابز مالكوفيتش* ـ يمكنها تعدادها كاملةً بعينَين معصوبتَين؛ ثُمَّ نزولًا بعدها تحت جسر فضلات الحمام، وهي تقطع تلك الطَّريق الواسعة إِلَى متنزَّه جلادستون كما لَوْ كانَت تهوي إِلَى محيطٍ أخضرَ. يمكنكَ أَنْ تغرق في ذكرياتٍ كهذه، ولكنَّها حاولَت أَنْ تطفو متحرِّرةً منها. قفزَت فوق الجدار الصَّغير الَّذِي حفَّ منزل آل إقبال، كما فعلَت مليون مرَّةٍ مِنْ قبل، ورنَّت جرس الباب. الماضي البسيط، والمستقبل غير التَّامِّ.

في غرفة نومه، بالأعلى، قضى مِلَّة الخمس عشرة دقيقةً الماضية في محاولةٍ لأَنْ يفهم تعليمات الأخ هيفان المكتوبة الَّتِي تتعلَّق بفعل السُّجود (منشور: *العبادة الصَّحيحة*):

> سجدةٌ: السُّجود. في السَّجدة ينبغي أَنْ تكون الأصابع مضمومةً، موجَّهةً نحو القِبلة في خطٍّ مع الأذنَين، ويجب أَنْ تكون الرَّأس بين اليدَين. إنَّه فرضٌ أَنْ تضع جبينكَ عَلَى شيءٍ نظيفٍ، مثل حجرٍ، أَوْ بعض التُّراب، أَوِ الخشب، أَوِ القماش، وقال (بعض العلماء) إِنَّه واجبٌ أَنْ تضع أنفك إِلَى أسفل، أيضًا. ولا يجوز أَنْ تضع الأنف وحده عَلَى الأرض بدون عذرٍ مقبولٍ. ومِنَ المكروه أَنْ تضع الجبهة فقط عَلَى الأرض. في السَّجدة يجب أَنْ تقول سبحان ربِّيَ الأعَلَى ثلاث مرَّاتٍ عَلَى الأقَّل. يقول الشِّيعة إِنَّه مِنَ الأفضل أَنْ تؤدَّى السَّجدة عَلَى طوبةٍ مصنوعةٍ مِنْ طين

1ـ يطلق مصطلح (عيوب إطباق الأسنان) أو (سوء إطباق الأسنان) على كُلّ حالة إطباق في غير موضعه الطبيعي والصحيح. (المترجم).

كربلاء. وهو إمَّا فرضٌ وإمَّا واجبٌ أَنْ تضع القدمَين أو عَلَى الأقلّ إصبعًا واحدًا مِنْ كُلِّ قدمٍ عَلَى الأرض. هناك أيضًا بعض العلماء الَّذِين يقولون إنَّها سُنَّةٌ. وإنَّه، إذا لَمْ تُوضع القدمان عَلَى الأرض، فإنَّ الصَّلاة إمَّا لَنْ تكون مقبولةً وإمَّا ستكون مكروهةً. إذا ارتفعَت الجبهة أَوِ الأنفِ أَوِ القدَم خلال السَّجدة لبُرهةٍ قصيرةٍ، فإنَّ ذلك لا ضرر منه. في السَّجدة، مِنَ السُّنَّة أَنْ تثني أصابع القدمَين وتوجُّهها في اتِّجاه القِبلة. ومكتوبٌ في ردِّ المختار[1] أَنَّ هؤلاء الَّذِين يقولون...

ذلك هو القدْر الَّذِي بلغَه، وما زالَت هناك ثلاث صفحاتٍ أخرى. كان في حالة فزعٍ مِنْ محاولة تذكُّر كُلِّ ما كان حلالًا أَوْ حرامًا، فرضًا أَوْ سُنَّةً، مكروهًا تحريمًا (ممنوعًا بكثيرٍ مِنَ التَّشديد) أَوْ مكروهًا تنزيهًا (ممنوعًا، ولكنْ بدرجةٍ أقلَّ). خلع الـتِي شيرت، في حيرةٍ، وربط عددًا مِنَ الأحزمة في تقاطعاتٍ عَلَى نصفه العلويّ الرَّائع، ووقف أمام المرآة، يمارس روتينًا مختلفًا وأكثر سهولةً، واحدًا يعرفه بالتَّفاصيل الدَّقيقة:

هَلْ تنظر إِلَيَّ؟ هَلْ تنظر إِلَيَّ؟

حسنًا، مَنِ اللَّعين الآخر الَّذِي تنظر إليه، هه؟

لا أستطيع أَنْ أرى أَيَّ أحدٍ آخر هنا.

هَلْ تنظر إِلَيَّ؟[2]

انغمس في الأمر، كاشفًا عَنْ مسدَّساته المنزلقة وسكاكينه غير المرئيَّة لباب خزانة الملابس، عندما دخلَت أَيرِي.

«نعم،» قالت أَيرِي، بينما وقفَت خجلانةً هناك. «أنا أنظر إليك.»

بسرعةٍ وبهدوءٍ شرحَت له ما يتعلَّق بالمكان المحايد، وما يتعلَّق بالغرفة، وما يتعلَّق بالتَّاريخ، وما يتعلَّق بالوقت. قدَّمَت التماسها الشَّخصيَّ للتَّسوية، والسَّلام، والحذَر (كُلُّ شخصٍ يفعل ذلك) ومِنْ ثَمَّ اقتربَت ووضعَت المفتاح البارد في يده الدَّافئة. وبدون قصدٍ عَلَى الأغلب، لمسَت صدره. بالكاد عَلَى النُّقطة بين حزامين حيث كان قلبه، مقيَّدًا بالجلد، ينبض بعنفٍ شديدٍ شعرَت به في أذنَيها. مع افتقارها للخبرة في هذا المجال، فقَدْ

1 ـ رد المحتار على الدر المختار، لمؤلفه ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي موسوعة فقهية شاملة في فقه الإمام أبي حنيفة. (المترجم).

2 ـ مشهد لروبرت دي نيرو في فيلم «سائق التاكسي». (المترجم).

كان مِنَ الطَّبيعيِّ أَنَّ أَيرِي سوف تفسِّر الخفقان الَّذِي ينجم عَنِ احتباس الدَّم خطأً بالعاطفة المشتعلة. بينما كان قَدْ مضَى وَقتٌ طويلٌ، بالنِّسبة إِلَى ملَّة، منذ أَنْ لمسَه أَيُّ شخصٍ أَوْ لمس هو أَيَّ شخصٍ. اضف إِلَى ذلك لمسة الذِّكريات[1]، لمسة عشر سنواتٍ مِنَ الحبِّ مِنْ طرفٍ واحدٍ، لمسة التَّاريخ الطَّويل، الطَّويل ـ كانت النَّتيجة حتميَّةً.

قبل أَنْ يمرَّ وقتٌ طويلٌ كانت أيديهما متورِطةً، وسيقانهما متورِّطةً، وشفاههما متورِّطةً، وهما يهبطان إِلَى الأرضيَّة، متورِّطَين عند الفخذ (مِنَ الصَّعب أَنْ يتورَّطا أكثر مِنْ ذلك)، ويمارسان الحبَّ عَلَى حصيرة صلاةٍ. ولكنْ بعدها، بنفس قدر المفاجأة والحماس اللَّذَين بدأ بهما الأمر انتهى؛ يُفلت أحدهما الآخر في رعبٍ لأسبابٍ مختلفةٍ، تتحوَّل أَيرِي إِلَى كومةٍ عاريةٍ بقرب الباب، مُحرَجةً وتشعر بالخجل؛ لأَنَّها استطاعَت أَنْ ترى كَمْ كان نادمًا عَلَى ذلك؛ وينتزع مِلَّة حصيرة صلاته ويوجِّهها نحو الكعبة، ويتأكَّد مِنْ أَنَّ الحصيرة ليست أعلَى مِنْ مستوى الأرض، ويستقرُّ بدون دفاتر أَوْ أحذيةٍ، بأصابع مضمومةٍ وتشير إِلَى القبلة في خطٍّ مع أذنيه، وهو يستوثِق مِنْ أَنَّ جبهته وأنفه يلمسان الأرض، بقدمَين ثابتتَين عَلَى الأرض، ويحرص عَلَى أَلَّا تكون أصابع قدميه محنيَّةً، ويُسجد نفسه في اتِّجاه الكعبة، ولكنْ ليس للكعبة، وإِنَّما لله تعالى وحده. كان يستوثق مِنْ أَنَّه فعل كُلَّ هذه الأشياء بشكلٍ مُتقَنٍ، بينما بكَت أَيرِي وارتدَت ثيابها ومضَت. كان يستوثق مِنْ أَنَّه فعل كُلَّ هذه الأشياء بشكلٍ مُتقَنٍ؛ لأَنَّه يؤمن بأَنَّه مُراقَبٌ مِنْ قِبَل الكاميرا العظيمة في السَّماء. كان يستوثق مِنْ أَنَّه فعل كُلَّ هذه الأشياء بشكلٍ مُتقَنٍ؛ لأَنَّها فرضٌ «وذلك الَّذِي يريد أَنْ يغيِّر في العبادات يصبح كافرًا» (منشور: *الصِّراط المستقيم*).

***

ليس في الجحيم غضبٌ ...[2]، *وإلَخ، إلَخ*. مشت أَيرِي باكيةً مِنْ منزل آل إقبال وتوجَّهَت مباشرةً إِلَى آل تشالفين وفي ذهنها الثَّأر. ولكنْ ليس ضدَّ مِلَّة. ولا *دفاعًا* عن مِلَّة؛ لأَنَّها كانت المدافعة عنه دائمًا، فارسته الَّتِي بين السَّواد والبياض. وكما رأَت، لَمْ يكنْ مِلَّة يحبُّها. رأَت أَنَّ مِلَّة لَمْ يحبَّها لأَنَّه لَمْ يستطع. رأَت أَنَّه *تضرَّر* بشكلٍ هائلٍ، لَنْ يستطيع أَنْ يحبَّ أَيَّ أحدٍ بعد الآن. أرادَت أَنْ تجد أَيًّا كان مَنْ تسبَّب له في ضررٍ كهذا، دمَّره بشكلٍ فظيعٍ؛ أرادَت أَنْ تعرف أَيًّا كان ذلك الَّذِي جعله *غير قادرٍ عَلَى أَنْ يحبَّها*.

---

1 ـ اقتباس من أغنية «كم أحبك» لإنجلبرت همبردنك. (المترجم).

2 ـ المعنى كاملًا: ليس في السماء غضب مثل حب تحول إِلَى كراهية، ولا في الجحيم غضب مثل امرأة مهانة: ويليام كونجريف. (المترجم).

إنَّه لأمرٌ مضحكٌ بخصوص العالم الحديث. تسمعينَ الفتيات في دورات مياه الأندية يقلن: «نعم، لقَدْ ذهب وتركَني. لَمْ يكنْ يحبُّني. لَمْ يكنْ فقط يستطيع التَّعامل مع الحبِّ. أكثر بؤسًا مِنْ أَنْ يعرف كيف يحبَّني.» الآن، كيف حدث ذلك؟ ماذا يتعلَّق بقرن غير المحبوبات هذا الَّذِي أقنعَنا بأنَّنا كُنَّا، رغم كُلِّ شيءٍ، محبوبِين كبشرٍ بشكلٍ محدَّدٍ، كأنواعٍ؟ ما الَّذِي جعَلَنَا نظنُّ أَنَّ أَيَّ شخصٍ يفشل في أَنْ يحبَّنا مصابٌ بضررٍ، بنقصانٍ، بخللٍ بطريقةٍ ما؟ وخصُوصًا إذا ما استبدلونا بالرَّبِّ، أَوْ مادونا الباكية، أَوْ وجه المسيح عَلَى قرص مِنْ خبز السياباتا[1] ـ ثُمَّ نعتبرهم مجانين. ضالِّين. رجعيِّين. ونحن مقتنعين جدًّا بخيريَّة أنفسنا، وخيريَّة أحبَّائنا، نحن لا نستطيع أَنْ نحتمل أَنَّه رُبَّما يكون هناك شيءٌ ما أجدر بالحبِّ مِنَّا، وأجدر بالعبادة. تخبرنا بطاقات التَّهنئة بشكلٍ روتينيٍّ أَنَّ كُلَّ شخصٍ يستحقُّ الحبَّ. إطلاقًا. كُلُّ شخصٍ يستحقُّ الماء النَّقيَّ. ولكنْ لا يستحقُّ الجميع الحبَّ طوال الوقت.

لَمْ يحبَّ مِلَّة أَيرِي، وتيقَّنت أَيرِي مِنْ أَنَّ أحدًا ما هناك يمكنها أَنْ تلومه بسبب ذلك. بدأ دماغها في التَّكتكة. ما السَّبب الجوهريُّ؟ شعور مِلَّة بالنَّقص. ما السَّبب الجوهريُّ في شعور مِلَّة بالنَّقص؟ ماجد. لقَدْ كان المولود الثَّاني بسبب ماجد. لقَدْ كان الابن الأقلَّ بسبب ماجد.

فتحَت جويس الباب لها وسارت أَيرِي مباشرةً إِلَى الطَّابق العلويِّ، وهي مُصمِّمةٌ بشكلٍ عدائيٍّ أَنْ تجعل ماجد الابن الثَّاني لمرَّةٍ واحدةٍ، هذه المرَّة بفارق خمسٍ وعشرين دقيقةً. أمسكَت به، وقبَّلَته، ومارسَت الحبَّ به في غضبٍ وشراسةٍ، بدون محادثةٍ أَوْ مودَّةٍ. دحرجَته، وجرَّته مِنْ شعره، وحفرت ما كان لديها مِنْ أظافر في ظهره، وعندما بلغ النشوة كانت سعيدةً بأن تلاحظها، وأعربَت عن ذلك بتنهيدةٍ حازمةٍ كما لَوْ أَنَّها شيءٌ تَمَّ انتزاعه منه. ولكنَّها أخطأَت باعتبار هذا نصرًا. ذلك ـ ببساطةٍ ـ لأنه عرف سريعًا أين كانت، ولماذا هي هُنا، وأحزَنَه الأمر. تمدَّدا لوقتٍ طويلٍ صامتَين معًا، وعاريَين، بينما ضوء الخريف يختفي مع كُلِّ دقيقة تمر.

«يبدو لي،» قال ماجد أخيرًا، عندما أُمسى القمر أكثر وضوحًا مِنَ الشَّمس: «أَنَّكِ حاولتِ أَنْ تحبِّي رجلًا كما لَوْ كان جزيرةً وأنتِ الغريقة، كان يمكنكِ أَنْ تحدِّدي الأرض بعلامة ×. ويبدو لي أَنَّه قَدْ فات أوان كُلِّ ذلك.»

---

1 ـ خبز إيطالي مصنوع من دقيق القمح والماء والملح وزيت الزيتون والخميرة. ابتكره خباز إيطالي من أدريا، فينيتو عام 1982. (المترجم).

ثُمَّ منحها قُبلةً عَلَى جبينها بدَت مثل التَّعميد، وبكَت هي مثل طفلٍ.

***

3:00 بعد ظهيرة 5 نوفمبر 1992. يجتمع الشَّقيقان (في النِّهاية) في غرفةٍ خاليةٍ بعد انقطاعٍ دام ثماني سنواتٍ ويكتشفان أَنَّ جيناتهما، رُسُلَ المستقبل تلك، قَدِ انتهَت إِلَى نتائج مختلفةٍ. يصاب مِلَّة بالذُّهول مِنَ الاختلافات. الأنف، وخطِّ الفكِّ، والعينين والشَّعر. أخوه شخصٌ غريبٌ بالنِّسبة إليه، ويخبره بذلك.

«لأنَّك فقط تريدني هكذا،» يقول ماجد مع نظرةٍ ماكرةٍ.

غير أَنَّ مِلَّة حادٌّ، وغير مهتمٍّ بالألغاز، يسأل ويجيب، في نفَسٍ واحدٍ، عَلَى أسئلته. «إذنْ أنتَ ماضٍ في الأمر، نعم؟»

يهزُّ ماجد كتفَيه. «ليس الأمر لي لأوقفه أَوْ أبدأه، يا أخي، ولكنْ نعم. في نيَّتي أَنْ أساعد حيث أستطيع. إنَّه مشروعٌ عظيمٌ.»

«إِنَّه رجسٌ.» (منشورٌ: *قدسيَّة الخلْق*).

يسحب مِلَّة كرسيًّا مِنْ أحد المكاتب ويميل به إِلَى الوراء، مثل سرطان بحرٍ في فخٍّ، وساقاه وذراعاه متباعدةٌ عَلَى الجهتَين.

«أنا أراه بالأحرى كتصحيحٍ لأخطاء الخالق.»

«الخالق لا يخطئ.»

«إذن ففي نيَّتك أَنْ تمضي قدمًا؟»

«أنتَ محقٌّ بكلِّ لعنةٍ.»

«وكذلك أنا.»

«حسنًا، هذا كُلُّ شيءٍ، أليس كذلك؟ لقدْ تقرَّر الأمر. كيفَ سيفعلون ما هو لازمٌ لوقفكَ ووقفِ مَنْ هم مِنْ نوعكَ. وتلك هي النِّهاية اللَّعينة للمسألة.»

ولكنْ عَلَى خلاف ما يتصوَّر مِلَّة، ليس هذا فيلما وليسَت هناك نهايةٌ له، تمامًا كما أنَّه لا بداية لعينةً له. يبدأ الشَّقيقان في الجدل. ويتصاعد في لحظاتٍ، ويسخران مِنْ تلك الفكرة، *المكان المحايد*؛ ويغطِّيان الغرفة بدلًا مِنْ ذلك بالتَّاريخ ـ الماضي والحاضر والمستقبل (لأَنَّ مثل هذا الشَّيء موجودٌ) ـ يأخذان ما كان فارغًا ويشوِّهان صورته

بقرف الماضي القذر مثل طفلَين متغوّطَين في حالة هياج. يغطّيان الغرفة المحايدة بنفسيهما. بكُلِّ وجعٍ، وكُلِّ ذكرى مبكّرةٍ، وكُلِّ مبدأٍ خلاقيٍّ، وكُلِّ اعتقادٍ مُتنازَعٍ عليه.

يرتّب مِلّة المقاعد لكَيْ يجسِّد تصوُّر النِّظام الشَّمسي كما وُصفَ بشكلٍ واضحٍ ومحدَّدٍ في القرآن، قبل قرونٍ مِنَ العلم الغربيِّ (منشورٌ: *القرآن والكون*)؛ ويرسم ماجد ساحة استعراض باندي عَلَى السَّبُّورة مع إعادة بناء تفصيليَّة للمسار المحتمَل للرُّصاصات، وعَلَى السَّبُّورة الأخرى رسمًا تخطيطيًّا لأنزيم اقتطاع[1] خلال قطعه الدَّقيق لتسلسل النيوكليوتيدات[2]؛ ويستخدم مِلّة الكمبيوتر كجهاز تليفزيون، وممحاة طباشيرٍ كصورةٍ لماجد والعنز، ثُمَّ يجسِّد منفردًا كُلَّ لَفْتةٍ لبابًا، وللعمَّة الكُبرى، ولمحاسب ابن العمِّ الَّذِي جاء في ذلك العام لأجل أعمال الكفر في عبادة هذا الرَّمز؛ ويستخدم ماجد جهاز عرضٍ ضوئيٍّ ليسلِّط الضَّوء عَلَى مقالٍ كتَبَه، ويأخذ أخاه نقطةً إثر نقطةٍ خلال جداله في الدِّفاع عن براءات اختراع الكائنات المعدَّلة وراثيًّا؛ ويستخدم مِلّة خزانة الملفَّات كبديلٍ لواحدةٍ أخرى يحتقرها، ويملؤها برسائل مُتخيَّلة بين عالمٍ يهوديٍّ وكافرٍ مسلمٍ؛ ويضع ماجد ثلاثة مقاعد معًا ويضيء مصباحَي مكتبٍ، والآن هناك شقيقان في سيَّارةٍ، يرتعشان وينكمشان معًا حتَّى ينفصلا بعد بضع دقائِقَ إِلَى الأبد، وتحلِّق طائرةٌ ورقيَّةٌ.

ويستمرُّ الأمر ويستمرُّ ويستمرُّ.

ويمضي الأمر لإثبات ما قيل بالفعل عَنِ المهاجرين مرَّاتٍ كثيرةٍ قبل الآن: إنَّهم *واسعو الحيلة*. يستخدمون ما يستطيعون عندما يستطيعون.

***

لأنَّنا كثيرًا ما نتصوَّر أَنَّ المهاجرين رُحَّلٌ دائمًا، حفاة الأقدام، قادرين عَلَى تغيير المسار في أيِّ لحظةٍ، وقادرين عَلَى توظيف حِيَلِهم الأسطوريَّة عند كُلِّ مُنعطَفٍ. لقَدْ قيل لنا عن حِيَل السَّيِّد شماترز، أَوْ حرِّيَّة ترحُّل السَّيِّد باناجي، اللَّذين أبحرا إِلَى جزيرة إِليس أَوْ دوفر أَوْ كاليه وخرجا إِلَى أراضيهما الأجنبيَّة كبَشرٍ خام، متحرِّرَين مِنْ أَيِّ نوعٍ مِنَ

1 ـ أنزيمات الاقتطاع أَوْ الأنزيمات القاطعة أَوْ أنزيمات التقييد هي الأنزيمات الَّتي تقطع تتاليات الحمض الوراثي عند مواضع محددة تعرف بمقرات الاقتطاع، وتوجد أنزيمات الاقتطاع لدى الجراثيم وتستخدم كأدوات في الدراسات الوراثية والتشخيص الوراثي. (المترجم)

2 ـ مركب يتكون من مجموعة فوسفات مرتبطة النواة بشكل جانبي. وتشكل النيوكليوتيدات الوحدة البنيوية للحمض النووي مثل الـ دي إن إيه. ويمكن تمييز أنزيمات القطع على تتابع محدد من النيوكليوتيدات وتنتج قطعًا مزدوجًا في الـ دي إن إيه. حيث يكون طول التتابع في العادة ما بين 4 إِلَى 8 نيوكليوتيدات. (المترجم).

الأحمال، سعيدَين ومستعدَّين لأَنْ يتركا اختلافاتهما عَلَى الرَّصيف ويأخذا فرصًا لهما في هذا المكان الجديد، ويندمجا مع أفراد هَذِهِ الأراضي المجانِّيَّة الحرَّة السَّعيدة الخضراء.

أَيًّا كانت الطَّريق الَّتِي تطرح نفسها، فسيأخذانها، وإذا ما حدث أَنْ قادتهما إِلَى نهايةٍ مسدودةٍ، حسنًا عندها، سيحدِّد السَّيِّد شماترز والسَّيِّد باناجي في بهجةٍ طريقًا أخرى، وهما يغزلان في مسارَيهما عبر الأراضي السَّعيدة متعدِّدة الثَّقافات. حسنًا، هذا حسَنٌ لهما. لكنَّ ماجد ومِلَّة لَمْ يكونا قادرَين عَلَى التَّصرُّف في الأمر. لقَدْ تركا تلك الغرفة المحايدة كما دخلاها: مُثقلَين، مُرهَقَين، غير قادرَين عَلَى التَّزحزح عن طريقَيهما أَوْ تغيير مسارَيهما الخطيرَين المنفصلَين بأَيِّ حالٍ مِنَ الأحوال. بدَا أَنَّهما لَنْ يحرزا أَيَّ تقدُّمٍ. وقَدْ يقول المتشائم إِنَّهما لا يتحرَّكان بالمرَّة - أَنَّ ماجد ومِلَّة اثنان مِنْ سهام زينون[1] المُربكة، يحتلَّان فضاءً مساويًا لنفسَيهما، وما يخيف أكثر، مساويًا لفضاء مانجال باندي، ومساويًا لفضاء صمد إقبال. شقيقان مُحاصَران في لحظةٍ زمنيَّةٍ ما. شقيقان يعرقِلان كُلَّ محاولات لوضع تواريخ للقصَّة، لتتبُّع هؤلاء الرِّجال، لتوفير الوقت والأَيَّام، لأَنَّه ليس هناك، ولَمْ يكنْ، ولَنْ يكون هناك أبدًا أَيَّة تواريخ. وفي الحقيقة، لا شيء يتحرَّك. لا شيء يتغيَّر. لا يزالان يركضان في المكان. مفارقات زينون[2].

ولكنْ ما موضوع زينون هنا (كُلُّ شخصٍ لديه موضوعٌ)، ما زاويته؟ هناك كَمٌّ هائل مِنَ الآراء الَّتِي تجادل بأن مفارقاته هي جزءٌ مِنْ برنامج روحيٍّ أشمل. لأجل

(أ) أوَّلًا إثبات أَنَّ التَّعدُّديَّة، *الكثرة*، وهمٌ، و

(ب) بالتَّالي إثبات تناغم الواقع، التَّدفُّق الكلِّيِّ. كواحدٍ، فردٍ، لا يتجزَّأ.

1 ـ يقول زينون إن السهم الطائر، في أية لحظة من طيرانه، يجب أن يكون في مكان واحد؛ لأنه لا يمكن أن يكون في مكانين مختلفين في الوقت نفسه، أي أنه يكون ساكنًا، وحركته منطقيًّا وميتافيزيقيًّا غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها تحدث فعلًا ـ زينون الإيلي ـ المفارقة الثالثة. (المترجم).

2 ـ زينون الإيلي (من إيليا): أحد فلاسفة ما قبل سقراط عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، من إيليا وهي مدينة يونانية على الساحلِ الجنوبي لإيطاليا. وهو من أنصار بارمنيدس في أن عالم الحس وهم باطل. يمكن اعتبار زينون هو مخترع الجدل الفلسفي الذي برع فيه أفلاطون، وكانط، وهيجل. فزينون وجد في بداية عصر السفسطائيين، وكانت للفلسفة في زمانه منزلة عظيمة، فقد كان حكام أثينا وأصحاب الرأي فيها يستقدمون الفلاسفة ويستضيفونهم في بيوتهم ويغدقون عليهم الأموال ويستمعون إليهم ويتعلمون على أيديهم وقد قال أرسطو عن زينون إنه مؤسس علم الجدل، من حيث أنه كان يسلم بإحدى قضايا خصومه ويستنتج منها نتيجتين متناقضتين ويثبت بذلك بطلانها. (المترجم).

لأنَّه إذا استطعتَ تقسيم الواقع الَّذِي لا ينضب إِلَى أجزاءٍ، كما فعل الشَّقيقان فِي ذلك اليوم فِي تلك الغرفة، فالنَّتيجة هي مفارقةٌ غير مُحتمَلةٍ. أنتَ ثابتٌ دائمًا، أنتَ تتحرك فِي اللامكان، وليس هناك أيُّ تقدُّمٍ.

لكنَّ التَّعدُّديَّة ليسَت وهمًا. ولا السُّرعة الَّتِي تندفع بها تلك المصهورات نحوها فِي وعاء صهرٍ مضطرمٍ. ضَعِ المفارَقة جانبًا، إنَّها تندفع، مثلما كان أخيل[1] يجري تمامًا. وسوف تسبق هؤلاء الَّذِين يعيشون حالة إنكارٍ كما كان أخيل ليهزم تلك السُّلحفاة بالتَّأكيد. نعم، لدى زينون وجهة نظرٍ. هو يريد الواحد، ولكنَّ العالم كثيرٌ. ومع ذلك فلا تزال تلك المفارقة مُغريةً. كُلَّما حاول أخيل أَنْ يلحق بالسلحفاة أكثر، كُلَّما عبَّرَت السُّلحفاة عن مصالحها ببلاغةٍ أكثر. وبالمثل، سوف يتسابق الشَّقيقان نحو المستقبل فقط؛ لكَيْ يكتشفا أنَّهما يعبّران بشكلٍ أكثر بلاغةٍ عن ماضيهما، عَنِ المكان الَّذِي كانا ـ بالكاد ـ فيه. لأَنَّ هذا هو الشَّيء الثَّاني بخصوص المهاجرين (النَّازحين، المهجَّرين، الرُّحَّل): أنَّهم لا يستطيعون الفرار مِنْ تاريخهم أكثر ممَّا تستطيع أنتَ أَنْ تفقد ظِلَّكَ.

1 ـ إشارة إِلَى مفارقة أخيل والسلحفاة لزينون، وفيها يكون أخيل في سباق على الأقدام مع السلحفاة. يسمح أخيل للسلحفاة أن تبدأ أمامه بمئة قدم. إذا افترضنا أن كُلّ متسابق يبدأ الركض بسرعة ثابتة (واحدة سريعة جدا وواحدة بطيئة جدا)، فإذن بعد وقت محدود، سيكون أخيل قد ركض مئة قدم، واصلا بذلك إِلَى نقطة بدء السلحفاة. خلال هذا الوقت، تكون السلحفاة قد ركضت مسافة أقصر بكثير، عشر أقدام على سبيل المثال. عندها سوف تستغرق أخيل بعض الوقت الإضافي ليركض تلك المسافة. خلال ذلك الوقت، ستكون السلحفاة قد تقدمت مسافة أبعد، وهكذا سيحتاج أخيل وقت أكثر ليصل تلك النقطة الثالثة، بينما تتقدم السلحفاة. وهكذا، كلما وصل أخيل إِلَى مكان كانت فيه السلحفاة، كان عليه أن يمضي أبعد منه. وهكذا، ولأنه يوجد عدد لا متناهي من النقاط الَّتِي على أخيل أن يصل إليها حيث كانت السلحفاة مسبقا، فإنه لن يتمكن أبدا من تجاوز السلحفاة.
أما نص المفارقة فهو: «في سباق، لا يمكن للعداء الأسرع أن يتجاوز الأبطأ، طالما أن على المطارد أن يصل إِلَى النقطة الَّتِي بدأ فيها المطارَد، أولا. لذلك فإن الأبطا دائما سيكون في المقدمة». (المترجم).

الفصل الثامن عشر

نهاية التَّاريخ في مقابل الرَّجل الأخير

«انظروا حولكم! ماذا ترون؟ ما نتيجة هذا الَّذِي يُدعى ديمقراطيَّة، هذا الَّذِي يُدعى حُرِّيَّة، هذا الَّذِي يُدعى ليبراليَّة؟ القمع والاضطهاد والذَّبح. أيُّها الإخوة، يمكنكم أنْ تروا ذلك عَلَى التِّليفزيون الوطنيِّ كُلَّ يومٍ، كُلَّ أمسيةٍ، وكُلَّ ليلةٍ! الفوضى، والاضطراب، والبلبلة. إنَّهم لا يخجلون ولا يتحرَّجون ولا يستحون! هُم لا يحاولون التَّستُّر، ولا المداراة، ولا التَّمويه! وهم يعلمون كما نعلمُ أنَّ العالم كُلَّه في حالة اضطرابٍ! في كُلِّ مكانٍ ينغمس الرِّجال في الشَّهوانيَّة والمجون والإباحيَّة والرَّذيلة والفساد والتَّهاون. العالم كُلُّه مصابٌ بالمرض الَّذِي يُعرف بالكفر - بحالةٍ مِنْ رفض وحدانيَّة الخالق - رفض الاعتراف بنعم البديع الَّتِي لا تُحصى. وفي هذا اليوم، 1 ديسمبر 1992، أَشهد أنَّه لا يوجد شيءٌ يستحقُّ العبادة بجانب الخالق الوحيد، لا شريك له. في هذا اليوم علينا أنْ نعرف أنَّ مَنْ يهْدِه الله فلا مُضلَّ له ومَنْ يُضلِل عَنِ الطَّريق المستقيم فلا هادي له إليه، حتَّى يضع الخالق الهداية في قلبه ويقوده إِلَى النُّور. سأبدأ - الآن - محاضرتي الثَّالثة، الَّتِي أدعوها «الحرب الأيديولوجيَّة» ويعني ذلك - سوف أشرح لأولئك الَّذِين لا يفهمون - حرب هذه الأشياء... هذه الأيديولوجيَّات، ضدَّ الأشقَّاء في كيفن... الأيديولوجيا تعني نوعًا مِنْ غسيل المخِّ... لقَدْ تَمَّ تلقيننا وخداعنا وغسل أدمغتنا، يا إخوتي! ولذا سأحاول التَّوضيح والتَّفسير والشَّرح....»

لَمْ يكن أحدٌ في الغرفة ليعترف بذلك، ولكنَّ الأخ إبراهيم الدين شكر الله ليس متحدِّثًا رائعًا، عندما تأتي إِلَى الأمر. حتَّى لَوْ تغاضَيتَ عَنْ عادته في استخدام ثلاث كلماتٍ حيث تكفي واحدةٌ، وعَنِ التَّأكيد عَلَى الكلمة الأخيرة بثلاثيَّاتٍ مثل هذه مع تصريفاته الكاريبيَّة المتأرجحة، حتَّى إذا تجاهلتَ هذا كما حاول الجميع، فقَدْ خيَّبَت

هيئته البدنيَّة الآمال. لديه لحيةٌ صغيرة هزيلةٌ، وسحنةٌ ملتويةٌ، وذخيرةٌ مِنَ التَّوتُّر، والإيماءات غير الملائمة، ونظرة سيدني بواتييه[1] الغامضة الَّتِي تتعلَّق بذلك الَّذِي لَمْ يتأهَّل أبدًا لأيِّ احترامٍ حقيقيٍّ. كما أنَّه قصيرٌ. عند هذه النُّقطة شعر مِلَّة بالخذلان. كان هناك استياءٌ ملموسٌ في القاعة عندما أنهى الأخ هيفان كلمته الافتتاحيَّة الفخمة وعبَر الأخ الشَّهير وإنْ كان ضئيلًا إبراهيم الدِّين شكر الله الغرفة نحو المنصَّة. ليس أَنَّ أيَّ أحدٍ ليشترط أَنْ يكون عالم الإسلام ذا طولٍ شاهقٍ، أَوْ يجرؤ قطُّ عَلَى أَنْ يتصوَّر للحظةٍ أَنَّ الخالق لَمْ يصنع الأخ إبراهيم الدِّين شكر الله بالارتفاع الَّذِي اختاره بكامل قدرته الكُلِّيَّة المقدَّسة. مع ذلك، فلَمْ تكنْ للمرء حيلةٌ في أَنْ يفكِّر، بينما يخفض هيفان الميكروفون في رعونةٍ، والأخ إبراهيم يتمطَّى في غرابةٍ لكَيْ يصل إليه، لَمْ تكن لتملك حيلةً أمام التَّفكير، بأسلوب الأخ شكر الله نفسه في التَّركيز عَلَى الكلمة الثَّالثة: خمسة أقدامٍ *خمسةٌ*.

المشكلة الأخرى مع الأخ إبراهيم الدِّين شكر الله، المشكلة الأكبر رُبَّما، هي غرامه الشَّديد بحشو الكلام. عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه وعد بالتَّوضيح والتَّفسير والشَّرح، فإنَّه ذكَّر المرء لغويًّا بكلبٍ يطارد ذيله: «الآن هناك أكثر مِنْ نوعٍ مِنَ الحروب... سأسمِّي بعضًا منها. الحرب الكيماويَّة هي الحرب الَّتِي يقتل الرجال فيها بعضهم البعض *كيميائيًّا* بالحرب. هذه يمكن أَنْ تكون حربًا فظيعةً. الحرب المادِّيَّة! تلك هي الحرب بوسائل مادِّيَّة، يقتل بها النَّاس بعضهم بعضًا *مادِّيًّا*. ثم هناك الحرب الجرثومية الَّتِي يذهب خلالها رجلٌ، يعرف أَنَّه يحمل فيروس الإيدز (HIV) إِلَى البلد وينشر جرثومته بين النِّساء السَّاقطات في ذلك البلد ويخلق حربًا *جرثوميَّة*. الحرب *النَّفسيَّة*، تلك واحدةٌ مِنْ أكثر الشُّرور، الحرب الَّتِي يحاولون فيها هزيمتك نفسيًّا. إنَّها تُدعى الحرب النَّفسيَّة. غير أَنَّ الحرب الأيديولوجيَّة! تلك هي الحرب السَّادسة الَّتِي هي أسوأ حربٍ....»

1 ـ السير سيدني بواتييه (20 فبراير 1927 ـ): ممثل أمريكي من أصول من الباهاما، يعتبر من أوائل الأمريكيين الأفارقة الذين اخترقوا أجواء السينما الأمريكية وهوليوود ضد أجواء التعصب العرقي. كان من بين أول الأمريكيين الأفارقة الذين حازوا على جائزة الأوسكار الأمريكية. من أهم أدواره في حياته الفنية المبكرة فيلم «خمن من سيأتي للعشاء» ومثل في عقد التسعينيات فيلمًا عن حياة المناضل الأفريقي نيلسون مانديلا. وقد حصل أيضًا عام 1999 على الترتيب 22 لأفضل ممثلي السينما الأمريكية على الإطلاق عبر 100 عام وذلك ضمن فعاليات يقوم بها معهد الفيلم الأمريكي. (المترجم).

ومع ذلك فالأخ إبراهيم الدين شكر الله لَمْ يكن أقلَّ مِنَ المؤسِّس لـ كيفْن. وُلِدَ في جماعة كلايد بنيامين في باربادوس[1] في 1960، لاثنين مِنْ مدمني الكحول مِنَ الطَّائفة المشيخيَّة[2] حافيَي الأقدام مِنَ الفقر المدقع، وتحوَّل إِلَى الإسلام بعد «رؤيا» في سنِّ الرَّابعة عشرة. وفي عمر الثَّامنة عشرة فَرَّ مِنَ الخضرة المورقة لموطنه إِلَى الصَّحراء المحيطة بالرِّياض والكتب الَّتِي تبطِّن جدران جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية[3]. هناك درَسَ اللُّغة العربيَّة لمدَّة خمس سنواتٍ، وأصيب بخيبة أملٍ تجاه الكثير مِنَ المؤسَّسات الدِّينيَّة الإسلاميَّة، وعبَّر منذ البدء عَنِ احتقاره لِمَنْ دعاهم «العلمانيِّين الدِّينيِّين»، أولئك العلماء الحمقى الَّذِين يحاولون فصل السِّياسة عَنِ الدِّين. اعتقَدَ أَنَّ كثيرًا مِنَ الحركات السِّياسيَّة المتطرِّفة الحديثة ذات علاقة بالإسلام، بَلْ وأكثر مِنْ ذلك يمكن العثور عليها في القرآن إذا نظرنا عَنْ قُربٍ بما يكفي. كتب العديد مِنَ الكتيِّبات حول هذا الموضوع، لكَيْ يكتشف فقط أَنَّ آراءه المتطرِّفة ليسَت مرحَّبًا بها في الرِّياض. وتَمَّ اعتباره مشاغبًا وتهدَّدَت حياته «مرَّاتٍ عديدةٍ، لا تُعدُّ ولا تُحصى.» وهكذا في عام 1984، وهو يأمل في إتمام دراسته، جاء الأخ إبراهيم إِلَى إنجلترا، وحبس نفسه في جراج عمَّته في برمنجهام وقضى خمس سنواتٍ أخرى هناك، مع القرآن فقط وكرَّاسات «السَّعادة الأبديَّة[4]» في صحبته. يتناول طعامه عبر باب القطَّة، ويضع فضلاته وبوله في علبةٍ قصديرٍ للبسكويت مِنْ ماركة كورونيشن ويمرِّرها مرَّةً أخرى إِلَى الخارج بنفس الطَّريقة. وقام ببرنامجٍ روتينيٍّ شاملٍ مِنْ تمارين الضَّغط والبطن

1 ـ جزيرة في جزر الأنتيل الصغرى كانت مستعمرة إسبانية وبرتغالية تعرف باسم لوس باربادوس أَوْ أوس باربادوس، لكنها أصبحت مستعمرة إنجليزية عام 1625. في عام 1966، أصبحت بربادوس دولة مستقلة ضمن عالم الكومنولث، وظلت الملكة إليزابيث الثانية قائدة للدولة. تعد بربادوس إحدى الوجهات السياحية الرائدة في منطقة البحر الكاريبي وأكثر جزر المنطقة تطورًا. (المترجم).

2 ـ المشيخية (أو النظام المشيخي) تشير إِلَى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم العالم اللاهوتي البروتستانتي جون كالفين وتنظم تحت حكم مجالس شيوخ بشكل ديمقراطي. فيوجد في كُلّ مجمع دورة مكونة من شيوخ حاكمين وشيوخ معلمين. الشيوخ الحاكمون مسؤولون عن حكم وانضباط الكنيسة، والشيوخ المعلمون مسؤولون عن الوعظ الكتابي وتدبير الأسرار المقدسة (الَّتِي يوجد منها اثنان فقط في الكنائس البروتستانتية، وهي المعمودية والعشاء الرباني). وبالإضافة إِلَى الشيوخ، يوجد في كُلّ مجمع شمامسة مسؤولون عن الأمور المادية مثل: التبرعات والحاجات الخيرية. (المترجم).

3 ـ تقع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وتأسست سنة 1373هـ ـ 1953م ممثلة في كلية العلوم الشرعية (وتعرف الآن بكلية الشريعة) وتطورت منذ ذلك الحين بصورة جذرية حتَّى أصبحت جامعة في عام 1394هـ ـ 1974م. (المترجم).

4 ـ كتاب « المفاتيح الذهبية للسعادة الأبدية» لابن قيم الجوزية. (المترجم).

لتجنُّب ضمور العضلات. كتب محرّر *السيلي أوك* مقالاتٍ منتظمةً عنه في هذه الفترة، وأطلق عليه اسمًا مُستعارًا «الجورو[1] المُلَّذِي في الجراج» (في ضوء تعداد برمنجهام الكبير مِنَ المسلمين، فقَدْ ظنَّ أَنَّ هذا أفضل مِنْ اقتراح المكتب الصَّحفيِّ الَّذِي حبَّذ «المجنون في الحجز»)، وكانوا يحصلون عَلَى تسليتهم مِنْ خلال إجراء مقابلاتٍ مع عمَّته المرتبكة، مِنْ جماعة كارلين بنيامين، العضوة المكرَّسة لكنيسة يسوع المسيح لقدِّيسي الأَيَّام الأخيرة.

هذه المقالات، القاسية والسَّاخرة والمهينة، الَّتِي كتبها نورمان هنشال وأصبحَت - الآن - كلاسيكيَّاتٍ مِنْ نوعها، تَمَّ توزيعها بين أعضاء **كيڤن** في جميع أنحاء إنجلترا كمثالٍ (لَوْ كانت هناك حاجةٌ لمثالٍ) عَلَى الضَّراوة الَّتِي تنامَت في الصَّحافة ضدَّ عناصر **كيڤن** حتَّى في تلك المرحلة الجنينيَّة مِنْ حركتهم. لاحظوا - يُنصح أعضاء **كيڤن** - كيف انتهَت مقالات هنشال في منتصف الطَّريق خلال مايو 87، نفس الشهر الَّذِي نجح فيه الأخ إبراهيم الدِّين شكر الله في تغيير معتقد عمَّته كارلين عبر باب القطَّة، وبدون استخدام أيِّ شيءٍ سوى الحقيقة الصَّافية كما وصلَت مِنْ قِبَل النَّبي الخاتم محمَّد (صلَّى الله عليه وسلَّم!). لاحظوا كيف فشل هنشال في توثيق طوابير النَّاس الَّذِين جاؤوا للحديث مع الأخ إبراهيم الدِّين شكر الله، الكثيرة جدًّا حتَّى أَنَّها امتدَّت عَلَى مسافة ثلاث مبانٍ في محيط مركز سيلي أوك، مِنْ باب القطَّة حتَّى قاعة لعب البنجو[2]! لاحظوا فشل نفس السَّيِّد هنشال في نشر 637 قاعدةً وقانونًا منفصلةً قضى الأخ خمس سنواتٍ في استخلاصها مِنَ القرآن (مُرتِّبا إياها مِنْ حيث الأهميَّة، ومِنْ ثَمَّ في مجموعاتٍ فرعيَّة وفقًا لطبيعتها، ومثالًا: *فيما يتعلَّق بالنَّظافة والأعضاء الجنسيَّة الخاصَّة ونظافة الفم*). لاحظوا كُلَّ هذا، أيُّها الإخوة والأخوات، ثُمَّ تعجَّبوا مِنْ قوَّة كلمة الفم. تعجَّبوا مِنَ التَّفاني والالتزام لشباب برمنجهام! إنَّ حرصهم وحماسهم ملحوظان جدًّا (غير عاديَّين، رائعان، *وليس لهما مثيلٌ*) حتَّى أَنَّه قبل أَنْ يظهر الأخ - بالكاد - مِنْ محبسه ويعلن عَنْ ذلك بنفسه، وُلدَت فكرة **كيڤن** بين مجتمع السُّود والآسيويِّين. حركةٌ أصوليَّةٌ جديدةٌ حيث السِّياسة والدِّين وجهان لنفس العملة. جماعةٌ أخذَت بنيتها بشكلٍ حرٍ

1 ـ هو لفظ يطلق على من لديه معرفة عميقة وحكمة ومرجعية في مجال ما يستخدمها في إرشاد الآخرين (معلم). وفي اللغة السلسكريتية يعني المقطع جو «الظلام» والمقطع رو «النور». يستخدم لفظ «جورو دينيًا في كُلّ من الهندوسية والسيخية، وبعض الديانات الهندية الأخرى، وكذلك في بعض الحركات الدينية المستحدثة. (المترجم).

2 ـ لعبة أرقام احتمالية بريطانية معروفة. (المترجم).

مِنَ الجارفيَّة[1]، وحركة الحقوق المدنيَّة الأمريكيَّة[2]، وأفكار إيليجا محمد[3]، وظلَّت مع ذلك تحت راية القرآن. حُرَّاس أُمَّة الإسلام الخالدة المنتصرة. بحلول عام 1992 كانوا كتلةً صغيرةً ولكن واسعة النِّطاق، بأطرافٍ تمتدُّ حتَّى أدنبرة، ونهاية الأرض[4]، وقلبٍ في سيلي أوك، وروحٍ في طريق كيلبورن السَّريعة. **كيفْن**: جماعةٌ متطرِّفةٌ مكرَّسةٌ لإدارة العمل العنيف غالبًا، مجموعةٌ مُنشقَّةٌ غير مقبولةٍ مِنْ باقي المجتمع الإسلاميّ؛ شعبيَّةٌ بين الجماعات العمريَّة مِنْ ستَّة عشر للخامسة والعشرين؛ مثيرةٌ للخوف والسُّخرية في الصَّحافة؛ واجتمعوا اللَّيلة في قاعة كيلبورن، وقوفًا عَلَى المقاعد ومُكدَّسين، ينصتون إِلَى خطاب مؤسِّسهم.

«هناك ثلاثة أشياء،» تابع الأخ إبراهيم، وهو ينظر بشكلٍ سريعٍ في ملاحظاته: «ترغب القوى الاستعمارية في أَنْ تفعلها بكم، يا إخوة **كيفْن**. أوَّلًا، يرغبون في قتلكم روحيًّا... أوه نعم، إنَّهم لا يقدِّرون شيئًا بقدر العبوديَّة العقليَّة. هناك الكثير منكم للقتال يدًا بيدٍ! لَكِنْ إذا امتلكوا عقولكم، فعندها ـــ»

«هيه،» سرَت محاولة رجلٍ بدين في الهمس. «يا أخ مِلَّة.»

هذا محمد حسين إسماعيل، الجزَّار. يتصبَّب عرقًا بغزارةٍ كما دائمًا، ويشقُّ طريقه خلال الطَّابور الطَّويل مِنَ النَّاس؛ لكَيْ يجلس بالقُرب مِنْ مِلَّة عَلَى ما يبدو. هما

1 ـ نسبة إِلَى ماركوس جارفي (1879 ـ 1940) أحد القوميين السود الرئيسيين خلال أوائل القرن العشرين، ولد في جامايكا لكنه أمضى أنجح سنوات عمره في الولايات المتحدة. كان رأسماليًّا متحمسًا، ومن المؤمنين بأن على الأمريكيين الأفارقة، وغيرهم من السود حول العالم، أن يقوموا بجهد موحد لتشكيل مؤسسات تستطيع أن تجمع الثروة والسلطة في أيديها. ولهذا الغرض أنشأ ـ ضمن منظمات أخرى ـ الجمعية العالمية لتطوير الزنوج(unia) وحاول أن يبرهن على أن الأمريكيين الأفارقة يستطيعون نيل الاحترام من خلال بناء قوتهم الاقتصادية. ولهذا الهدف سعى لإنشاء شبكة من مؤسسات الأعمال الَّتِي يملكها السود: متاجر البقالة، ومحلات لتنظيف الملابس، وغيرها من الأعمال القادرة على الازدهار بصورة مستقلة عن اقتصاد البيض. (المترجم).

2 ـ حركة الحقوق المدنية هي حركة اجتماعية في الولايات المتحدة كان هدفها تجريم التمييز العنصري ضد الأمريكيين الأفارقة وإعادة حق التصويت لهم. كان أبرز نشاط لهذه الحركة بين عامي 1955 و1968 وعلى وجه الخصوص في جنوبي الولايات المتحدة، من رموزها مارتن لوثر كينج، وجيمس فارمر وجون لويس. (المترجم).

3 ـ إليجاه محمد ويعرف بالشريف إليجاه محمد (ولد إليجاه بوول في 7 أكتوبر 1897 ـ وتوفي في 25 فبراير 1975)، زعيم منظَّمة أمة الإسلام منذ 1934 حتَّى وفاته في سنة 1975. دفن في مقبرة جبل جلينوود في ثورنتن، إلينوي. بدأ حياته ناشطًا في الجمعية العالمية لتطوير الزنوج(unia). ثم استمع إِلَى خطاب ألقاه والاس فارد محمد (مؤسّس منظمة أمة الإسلام (NOI). وعاهده باعتباره المهدي المنتظر، وأسس المعبد الثاني للمنظمة في شيكاغو، قبل أن يختفي والاس ويتولى أليجاه محمد زعامة المنظمة حتَّى وفاته. (المترجم).

4 ـ رأس بحري ومجمع عطلات غرب كورنويل، في إنجلترا، وهي أقصى نقطة في غرب إنجلترا. (المترجم).

قريبان مِنْ بعيدٍ، وخلال الشُّهور القليلة الماضية اقترب مو بسرعةٍ كبيرةٍ مِنَ الدَّائرة الدَّاخليَّة في كيفْن (هيفان، ومِلَّة، وتيرون، وشيفا، وعبدول كولين وآخرين) بحكم المال الَّذِي طرحه ومصلحته المعلنة مِنَ الجوانب الأكثر «نشاطًا» في الجماعة. بشكلٍ شخصيٍّ ظلَّ مِلَّة مرتابًا فيه بعض الشَّيء ولَمْ يكن معجبًا بوجهه المبلَّل، ولا خصلته الهائلة الَّتِي تبرز مِنْ قبَّعة السَّفاري الخاصَّة به، ولا أنفاسه الَّتِي تفوح برائحة الدَّجاج.

«تأخَّرتُ. كان يجب أَنْ أغلق المحلَّ. ولكنَّنِي وقفتُ في الخلف لبعض الوقت. إنصت. الأخ إبراهيم رجلٌ مؤثِّرٌ جدًّا، هه؟»

«هه.»

«مؤثِّرٌ جدًّا،» كرَّر مو، وهو يربِّت عَلَى ركبة مِلَّة بشكلٍ تآمريٍّ، «أخٌ مؤثِّرٌ جدًّا.» موَّل الأخ مو حسين جولة الأخ إبراهيم في أنحاء إنجلترا بشكلٍ جزئيٍّ، لذا فقد كان في اهتمامه (أَوْ يجعله يشعر بنحوٍ أفضل عَلَى الأقلِّ بخصوص التَّبرُّع بألفي جنيه) أَنْ يجد الأخ مؤثِّرًا. اعتنق مو أفكار كيفْن مؤخَّرًا (لقَدْ كان مسلمًا جيِّدًا بشكلٍ معقولٍ لمدَّة عشرين عامًا)، وكان حماسه للجماعة مِنْ جهتَين. أوَّلًا، تَمَّ تملُّقه تمامًا، تملُّقًا صريحًا، بأنَّه ينبغي اعتباره رجل أعمالٍ مسلمٍ ناجحٍ بما يكفي لكَيْ يتبرَّع بالمال. في الظُّروف العاديَّة كان ليقودهم إِلَى الباب إِلَى حيث يمكنهم أَنْ يزدردوا دجاجًا مذبوحًا حديثًا، ولكنَّ الحقيقة كانت، أَنَّ مو شعر بالهشاشة بعض الشَّيء وقتها، تركَته زوجته الأيرلنديَّة مشدودة السَّاقين، شيللا، للتَّوِّ لأجل صاحب بارٍ؛ وكان يشعر ببعض العجز، ولذا عندما طلبَت كيفْن خمسة آلاف مِنْ أردشير وحصلَت عليها، ووضع نادير مِنْ مكانٍ منافسٍ لتجارة اللُّحوم الحلال ثلاثة آلافٍ، جاء مو في استعراضٍ تامٍّ وطرح حصَّته.

أَمَّا السَّبب الثَّاني لانضمام مو إِلَى الجماعة فهو شخصيٌّ أكثر. العنف. العنف والسِّرقة. لأَنَّه عَلَى مدى ثمانية عشر عامًا امتلك مو أكثر محلَّات جزارة الحلال شهرَةً في شماليّ لندن، كان شهيرًا جدًّا لدرجة أَنَّه استطاع شراء العقار المجاور والتَّوسُّع إِلَى محلِّ جزارةٍ وحلوياتٍ. وفي تلك الفترة الَّتِي أدار فيها المؤسَّستين كان ضحيَّةً لاعتداءات جسديَّةٍ خطيرةٍ وللسَّلب، بدون فشلٍ، ثلاث مرَّاتٍ في السَّنة. الآن، لا يشمل ذلك الرَّقم اللَّكمات العديدة في الرَّأس، والضَّربات العنيفة السَّريعة بعتَلَةٍ، والرَّكلات المراوغة عَلَى الفخذ، أَوْ أَيَّ شيءٍ آخر يفشل في إحداث نزيفٍ. لَمْ يتَّصل مو بزوجته حتَّى، ناهيك عَنِ الشُّرطة، لكَيْ يبلغ عَنْ هؤلاء. لا: عنفٌ خطيرٌ. تعرَّض مو للطَّعن ما مجموعه خمس

مرّاتٍ (آه)، وفقد أطراف ثلاثةٍ مِنْ أصابعه (إيييش)، وانكسر كُلٌّ مِنْ ساقيه وذراعيه (أواووو)، ووُضعَت قدمه عَلَى النَّار (تشيييي)، وتعرَّضَت أسنانه للّكم (كاتووووف)، وتستقرُّ رصاصةٌ مِنْ بندقيَّةٍ بضغط الهواء (بينج) في مؤخرته اللّاحمة بحمد الله. بووووف. كان مو رجلًا ضخْمًا. رجلًا ضخْمًا صاحب موقفٍ. لَمْ يستطع الضَّرب بأيَّة طريقةٍ أَنْ يسقطه، أَوْ يجعله يحفظ لسانه، أَوْ ينحني للعاصفة. يردُّ الصاع صاعَين. ولكنَّه رجلٌ واحدٌ في مواجهة جيشٍ. لَمْ يكن هناك أحدٌ يمكنه المساعدة. في المرَّة الأولى تمامًا، عندما تلقَّى ضربة مطرقةٍ عَلَى ضلوعه في يناير 1970، بلَّغ عن الأمر بسذاجةٍ إِلَى الشُّرطة المحليَّة وكانت مكافأته زيارةٌ مسائيَّةٌ مُتأخِّرةٌ مِنْ خمسة رجال شرطةٍ أوسعوه ضربًا. مِنْ يومها، أصبح العنف والسَّلب أمرَين عاديَّين في حياته، مشاهد رياضيَّةٌ حزينةٌ شاهدها الرِّجال المسلمون المسنّون والأمهات المسلمات الصَّغيرات الَّذِين جاؤوا لشراء دجاجهم، وتسارعوا للخروج بعد فترةٍ قصيرةٍ، مذعورين مِنْ أَنْ يحلَّ عليهم الدَّور. العنف والسَّلب. تراوح الجناة بين أطفال المدرسة الثَّانوية القادمين بجوار متجر الزَّاوية لشراء الحلويات (وهم السَّبب في أَنَّ مو سمح بدخول طفلٍ واحدٍ مِنْ جلينارد أوك في كُلِّ مرَّةٍ. ولَمْ يصنع ذلك أيَّ فرقٍ بالطَّبع، سوى أَنَّهم تناوبوا عَلَى أَنْ يوسعوه ضربًا فُرادى)، والسَّكارى المترنِّحين، والبلطجيَّة المراهقين، وآباء البلطجيَّة المراهقين، والفاشيِّين عمومًا، النَّازيِّين الجُدُد عَلَى التَّحديد، وفريق السُّنوكر المحلِّيّ، وفريق السَّهم، وفريق كرة القدم، وحشودٍ ضخمةٍ مِنَ السِّكرتيرات الثَّرثارات، بتنوراتهنَّ البيضاء والكعوب القاتلة. لدى هؤلاء النَّاس في تنوّعهم اعتراضاتٌ متنوِّعةٌ عليه: فهو باكستانيُّ الأصول (حاوِل أَنْ تخبر فتى الأمن السَّكران مِنْ مكتب عالم الخارقين[1] عَلَى المدخل أَنَّكَ بنجلاديشيٌّ)؛ وخصَّص نصف محلِّه في الزَّاوية لبيع اللَّحم الباكستانيِّ الغريب؛ ولديه خصلةٌ؛ ويحبُّ إلفيس («تحب إلفيس، إذنْ؟ هَلْ تفعل؟ هه، يا باكي؟ هَلْ تفعل؟»)؛ وأسعار سجائره؛ ومسافته عَنِ الوطن («لماذا لا تعود إِلَى بلدك؟» «ولكنْ عندها كيف سأقدِّم لك خدمة *السَّجائر*؟» بووووف)؛ أَوْ تلك النظرة عَلَى وجهه فقط. ولكنْ لديهم - جميعًا - شيءٌ مشتَركٌ، هؤلاء النَّاس. فجميعهم مِنَ البيض. وهذه الحقيقة البسيطة أدَّت إِلَى تسييس مو خلال السَّنوات أكثر ممَّا فعلَت البرامج الحزبيَّة في الإذاعة، والمسيرات، والعرائض الَّتِي أمكن للعالم أَنْ يعرضها. جلب له ذلك إحساسًا أكبر بالأمان في حظيرة إيمانه أكثر حتَّى ممَّا قَدْ تفعل زيارة مِنَ

1 ـ المقصود أحد مكاتب خدمات الأمن والحراسات الَّتِي توفر حُرَّاسًا ذوي بنية عضلية واضحة لحراسة بوابات المقاهي والحانات. (المترجم).

الملاك جبريل. جاءَت القشَّة الأخيرة، إذا أمكن تسميتها كذلك، قبل شهرٍ مِنْ انضمامه لـ **كيڤن**، عندما قام ثلاثة «شبابٍ» بيضٍ بتوثيقه، وركله عَلَى سلالم القبو، وسرقوا كُلَّ ماله، وأشعلوا النَّار في المحل. أنقذَته المرونة المضاعفة ليَدَيْه (نتيجةً للعديد مِنْ كسور المعصم) مِنْ ذلك المأزق. ولكنَّه تعب مِنْ مواجهة الموت. عندما أعطَت **كيڤن** مو منشورًا كان يتحدَّث بلغته. كان مو في الخطِّ الأماميِّ لتلك الحرب طوال ثمانية عشر عامًا. وبدَا أَنَّ **كيڤن** يرون أَنَّ ذلك ليس كافيًا ـ أطفاله عَلَى ما يرام، يذهبون إِلَى مدرسةٍ لطيفةٍ، ويحصلون عَلَى دروس في التنس، وشاحبو البشرة إِلَى الحد الَّذِي لا تمتدُّ يد عليهم معه طوال حياتهم. جيِّدٌ. لَكِنْ ليس جيِّدًا بما يكفي. أراد بعضًا مِنَ الثَّأر. لنفسه. أراد أَنْ يقف الأخ إبراهيم عَلَى تلك المنصَّة ويشرِّح الثَّقافة المسيحية والأخلاق الغربيَّة حتَّى تصبح هباءً بين يديه. أراد أَنْ تفسَّر له الأخلاق المنحطَّة لهؤلاء النَّاس. أراد أَنْ يعرف تاريخ الأمر وسياساته والأسباب الجذريَّة. أراد أَنْ يرى فنونهم مكشوفةً وعلومهم مكشوفةً، وذائقاتهم مكشوفةً وما يكرهون. ولكنَّ الكلمات لَنْ تكفي قطُّ؛ لقَدْ سمع الكثير جدًّا مِنَ الكلمات (إذا أمكنكَ فقط أَنْ تقدِّم تقريرًا... إذا لَمْ تمانع في إخبارنا بالضَّبط كيف بدَا ذلك المهاجم)، ولكنَّها لَمْ تكن أبدًا بجودة الأفعال. أراد أَنْ يعرف لماذا استمرَّ هؤلاء النَّاس يُوسعونه ضربًا. ومِنْ ثَمَّ أراد أَنْ يذهب ويُوسع بعض هؤلاء النَّاس ضربًا.

«مؤثِّرٌ جدًّا، يا مِلَّة، هه؟ كُلُّ ما نرجوه.»

«نعم،» قال مِلَّة في قنوطٍ. «أقترحُ، عَلَى الرَّغم مِنْ ذلك، كلامًا أقلَّ وفعلًا أكثر، إذا ما سألتَني. فالكفَّار في كُلِّ مكانٍ.»

أومأ مو برأسه بقوَّةٍ. «أوه بالتَّأكيد، أيُّها الأخ. إنَّنا طائران مِنْ نفس الشَّجرة في هذه المسألة. سمعتُ أَنَّ هناك آخرين،» قال مو، خافضًا صوته، وواضعًا شفتيه الممتلئتَين المبلَّلتَين قُرب أذن مِلَّة، «حريصين جدًّا عَلَى الفعل. الفعل الفوريِّ. تحدَّث الأخ هيفان معي. بخصوص الحادي والثَّلاثين مِنْ ديسمبر. والأخ شيڤا والأخ تيرون....»

«نعم، نعم. أنا أعرف مَنْ هم. إنَّهم القلب النَّابض لـ **كيڤن**.»

«وهم يقولون *إنَّكَ* تعرف الرَّجل شخصيًّا ـ هذا العالِم. أنتَ في وضعيَّة جيِّدةٍ. سمعتُ أَنَّك صديقه.»

«كنتُ. كنتُ.»

«يقول الأخ هيفان إنَّ لديكَ تذاكر للدُّخول، إنَّكَ تنظِّم ــ »

«ششش،» قال مِلَّة بانفعالٍ. «لا يمكن لكُلِّ شخصٍ أَنْ يعلم. إذا أردتَ أَنْ تقترب مِنَ المركز، عليك أَنْ تحافظ عَلَى الصمت.»

تطلَّع مِلَّة إِلَى مو مِنْ أعَلَى لأسفل. بيجاما الكُرْتا[1] الَّتِي نجح بطريقةٍ ما في جعلها تبدو مثل بذلة إلفيس اللَّامعة في أواخر السَّبعينيات. والكرش العظيم الَّذِي أراحه عَلَى ركبتيه مثل صديقٍ.

وسأل بشكلٍ صريحٍ: «أنتَ كبيرٌ في السِّنِّ بعض الشَّيء، أليس كذلك؟»

«أنتَ ابن حرامٍ صغيرٌ وقحٌ. أنا في قوَّة ثورٍ هائلٍ.»

«نعم، حسنًا، لسنا بحاجةٍ إِلَى القوَّة،» قال مِلَّة وهو يربت عَلَى صدغه: «نحتاج إِلَى بعض المواِّد الَّتِي في الطَّابق العلويِّ. يجب أَنْ ندخل المكان بشكلٍ سرِّيٍّ أوَّلًا، أليس كذلك؟ اللَّيلة الأولى. سيكون ذلك زحفًا.»

تمخَّط مو في يديه. «يمكنني أَنْ أكون حذرًا.»

«نعم، ولكنَّ ذلك يعني الالتزام بالصَّمت.»

«والشَّيء الثَّالث،» قال الأخ إبراهيم الدِّين شكر الله، مقاطعًا إيَّاهما، فجأةً بصوتٍ أعَلَى وأزيزٍ في النِّظام الصَّوتي: «الشَّيء الثَّالث الَّذِي سوف يحاولون فعله، هو إقناعكم بأَنَّ العقل البشريَّ وليس الله هو القاهر، غير المحدود، *مُطلَق القُدرة*. سوف يحاولون إقناعكم بأَنَّ عقولكم ليست لاستخدامها في التَّعبير عَنْ عظمة الخالق ولكنْ في رفع أنفسكم لكَيْ تساووا الخالق أَوْ تتجاوزوه! والآن نبلغ المسألة الأكثر خطورة في هذه الأمسية. فالشَّر الأعظم للكفَّار هنا، في بلدة برنت هذه نفسها. سوف أخبركم، ولَنْ تصدِّقوا ذلك، أيُّها الإخوة، ولكنْ هناك رجلٌ في هذا المجتمع بالتَّحديد يعتقد أنَّه يستطيع أَنْ يُجري تحسيناتٍ عَلَى ما خلق الله. هناك رجلٌ يتجرَّأ عَلَى تغيير، وضبط، و*تعديل* ما هو مقدورٌ. سوف يأخذ حيوانًا ـ حيوانًا خلقه الله ـ ويتجرَّأ عَلَى تبديل هذا الخلق. لكَيْ يخلق حيوانًا جديدًا لا اسم له سوى مجرَّد رجسٍ. وعندما ينتهي مِنْ ذلك الحيوان الصَّغير،

1 ـ الكرتا، وتم تعريبها بالقُرطق، وهو قباء ثوب يلبس فوق الملابس كان أهل جنوب آسيا يلبسونه في الأصل قبل أن ينتشر في بقية البلاد، وفي الحديث: جاءَ الغُلامُ وعليه قُرطَقٌ أبيضُ. (المترجم).

فأرٍ، يا إخوتي، عندما ينتهي سوف ينتقل إِلَى الأغنام، والقطط، *والكلاب*. ومَنْ في هذا المجتمع منعدم القانون سوف يمنعهمِنْ أَنْ يخلق رجلًا يومًا ما؟ رجلًا لا يُولد مِنْ قِبَل امرأةٍ بَلْ مِنْ فكر الرَّجل وحده! وسوف يخبركم أَنَّ ذلك طبٌّ... ولكنَّ **كيڤن** لا تشتكي مِنَ الطِّبِّ. نحن مجتمعٌ متطوِّرٌ نضمُّ الكثير مِنَ الأطِّباء بيننا، يا إخوتي. لا تتعرَّضوا للتَّضليل، والخداع، *والتَّدليس*. ليس هذا طِبًّا. وسؤالي لكم، يا إخوة **كيڤن**، هو مَنِ الَّذِي سيقدِّم التَّضحية ويوقف هذا الرَّجل؟ مَنْ سيقف وحده باسم الخالق، ويُظهر للحداثيِّين أَنَّ قوانين الخالق لا تزال موجودةً وأبديَّةً؟ لأَنَّهم سوف يحاولون ويخبرونكم، أَنَّ تاريخنا، وثقافتنا، وعالمنا قَدْ مضوا. هكذا يفكِّر هذا العالِم. ولهذا فهو يتجرَّأ في ثقةٍ. ولكنَّه سوف يفهم قريبًا ما كان مقصودًا فعلًا بالأيَّام الأخيرة. وإذنْ مَنْ سوف يُريه ـــ»

«نعم، الصَّمت، نعم، فهمتُ،» قال مو، وهو يتحدَّث إِلَى مِلَّة، ولكنَّه ينظر إِلَى الأمام مباشرةً كما في فيلمٍ عَنِ الجاسوسيَّة.

نظر مِلَّة في أنحاء الغرفة ورأى هيفان يعطيه إشارةً بالعين، فأعطاها لشيڤا، الَّذِي أعطاها لعبدول كولين، إِلَى تيرون وبقيَّة فريق كيلبورن، الَّذِين تمركزوا بقُرب الجِدار كمضيفين في نقاطٍ محدَّدةٍ في الغرفة. أعطى هيفان مِلَّة إشارةً بالعين مرَّةً أخرى، ثُمَّ نظر إِلَى الغرفة الخلفيَّة. وبدأ تحرُّكٌ سرِّيٌّ.

«شيءٌ ما يحدث؟» همس مو، وهو يرصد الرِّجال ذوي أوشحة المضيفين الخضراء، يشقُّون طريقهم بين الحشود.

«هيَّا إِلَى المكتب،» قال مِلَّة.

***

«حسنًا ـ إذنْ ـ أظنُّ أَنَّ المسألة الرَّئيسة في القضيَّة هُنا مِنْ شقَّين: *لأَنَّها* مسألة تعذيبٍ مُختبريٍّ مباشرٍ ويمكننا بالتَّأكيد أَنْ نلعب على ذلك في المعرض، ولكنَّ الفكرة الأساسيَّة يجب أَنْ تنصبَّ عَلَى حُجَّة مُناهَضة براءات الاختراع. فتلك زاويةٌ يمكننا بالفعل أَنْ نعمل عليها. وإذا وضعنا تركيزنا عَلَى ذلك فإِنَّ هناك عددًا مِنَ الجماعات الأخرى يمكننا دعوتها ـ الـ إن سي جي إيه، والـ أَوْ إتش إن أو، وإِلَى آخره، كريسبن عَلَى اتِّصالٍ بهم. لأَنَّه، كما تعرفون، فنحن لَمْ نتعامل فعلًا في هذا المجال عَلَى نطاقٍ واسعٍ مِنْ قبل، ولكنْ مِنَ الواضح أَنَّها مسألةٌ رئيسة ـ أعتقد أَنَّ كريسبن سيحدِّثنا عَنْ ذلك

بعمقٍ أكثر خلال دقيقةٍ ـ ولكنْ للآن، أنا أرغب في الحديث فقط عَنْ تأييد الرَّأي العام الَّذِي لدينا هنا. أعني، الصحافة بشكلٍ محدَّدٍ مؤخَّرًا، وحتَّى عناصر التَّابلويد انتقلَت للمزايدة عَلَى هذا... هناك الكثير مِنَ المشاعر السلبيَّة تجاه براءة اختراع الكائنات الحيَّة... أعتقد أنَّ الناس يشعرون بالكثير مِنْ عدم الرَّاحة، بشكلٍ حقيقيٍّ، تجاه هذا المفهوم، وأنَّ الأمر يرجع فعلًا إِلَى فيت *لتلعب* عليه، ويمكن حقًّا أَنْ نشنَّ حملةً شاملةً معًا، حتَّى إذا....»

آه، جولي. جولي، جولي، جولي. يعرف جوشوا أنَّه يجب أَنْ يُنصت، لكنَّ النَّظر جيِّدٌ جدًّا. النَّظر إِلَى جولي رائعٌ. الطريقة الَّتِي جلسَت بها (عَلَى الطَّاولة، وركبتاها مسحوبتان إِلَى صدرها)، والطَّريقة الَّتِي تنظر بها إِلَى دفتر ملاحظاتها (مثل قطَّةٍ!)، والطَّريقة الَّتِي يصفر الهواء بها عبر الفجوات بين أسنانها الأماميَّة، والطَّريقة الَّتِي تواصل بها دسَّ شعرها الأشقر المبعثر خلف أذنها بإحدى يدَيها وتنقر بإيقاعٍ عَلَى حذائها الضَّخم مِنْ ماركة دكتور مارتنز[1] بالثَّانية. ضَعِ الشَّعر الأشقر جانبًا، إنَّها تشبه أُمَّه كثيرًا عندما كانت شابَّة: تلك الشِّفاه الإنجليزيَّة المغوية، والأنف المرتفع، والعينان العسليَّتان الكبيرتان. ولكنَّ الوجه، المذهل كما بدَا، خلا مِنَ *الزَّخارف* الَّتِي تليق بكونه فوق أكثر الأجساد ثراءً في العالم. جسدٌ طويلٌ في كُلِّ خطوطه، مشدودٌ عند الفخذ وناعمٌ عند البطن، مع نهدَين لَمْ يعرفا حمَّالة صدرٍ قطُّ ولكنَّهما بهجةٌ تامَّة، ومؤخِّرة جسَّدَت المثاليَّة الأفلاطونيَّة لكُلِّ المؤخِّرات الإنجليزيَّة، مُسطَّحةٌ وإنْ كانت عَلَى هيئة الخوخة، كبيرةٌ ولكنْ واعدةٌ. إِلَى جانب أَنَّها ذكيَّة. إِلَى جانب أَنَّها مكرَّسة لقضيَّتها. إِلَى جانب أَنَّها تحتقر أباه. إِلَى جانب أَنَّها أكبر منه بعشر سنواتٍ (الأمر الَّذِي أوحى لجوشوا بكُلِّ أنواع الخبرات الجنسيَّة الَّتِي لَمْ يستطع حتَّى أَنْ يتخيَّلها بدون أَنْ يحدث له انتصابٌ هائلٌ الآن تحديدًا، وهنا تحديدًا في منتصف الاجتماع). إِلَى جانب أَنَّها أكثر امرأةٍ التقاها جوشوا روعةً عَلَى الإطلاق. أوه، يا جولي!

«كما أرى الأمر، فإنَّ ما لدينا لإقناع النَّاس هو هذه الفكرة في وضع سابقةٍ. كما تعلمون، فإنَّ الـ ماذا بعد؟ هو نوعٌ مِنَ الجدَل ـ وأتفهَّم وجهة نظر كيني، أَنَّ تلك الطريق أسهل مِنْ أَنْ نعتمد عليها ـ لكنْ ينبغي لي أَنْ أجادل، فأَنَا أعتقد أَنَّها ضروريَّةٌ، وسوف نضع الأمر للتَّصويت خلال دقيقةٍ. هَلْ ذلك مُناسِبٌ، يا كيني؟ إذا أمكنَني فقط الحصول

1 ـ د. مارتنز هي علامة تجارية بريطانية للأحذية والملابس والإكسسوارات ومنتجات العناية بالأحذية، والملابس والحقائب. (المترجم).

عَلَى... حسنًا؟ حسنًا. أين كنتُ... سابقًا. لأنَّه، إذا أمكن الجدل بأَنَّ الحيوانات تحت التَّجربة هي مملوكةٌ لأَيِّ جماعةٍ مِنَ النَّاس، مثلًا، إنَّه ليس قطًّا ولكنَّه *نتاجٌ* بخصائص تشبه القطط عَلَى نحوٍ مؤثِّرٍ، فإِنَّ ذلك ذكيٌّ جدًّا واختصارٌ خطيرٌ لدائرة العمل في جماعات حقوق الحيوانات وهذا يقود إِلَى رؤيةٍ *مُخيفةٍ* وسخيفةٍ جدًّا للمستقبل. إمم... إِنَّني أرغب في دعوة كريسبن إِلَى هنا، لكَيْ يتحدَّث بشكلٍ أكثر بعض الشَّيء حول ذلك.»

بالطَّبع فإِنَّ السَّافل في المسألة أَنَّ جولي متزوِّجةٌ بكريسبن. والسَّوأة المضاعفة في الأمر أَنَّ زواجهما عَنْ حبٍّ حقيقيٍّ، ترابطٍ روحيٍّ تامٍّ، ووحدةٍ سياسيَّةٍ مُكرَّسةٍ. رائعٌ بكُلِّ لعنةٍ. بَلْ وأسوأ مِنْ ذلك، فزواج جولي وكريسبن كان بين أعضاء فيت (مكافحة تعذيب الحيوان واستغلاله)، بمثابة نوعٍ مِنْ نشأة الكون، أسطورةً ناشئةً توضِّح في إيجازٍ ما يمكن للنَّاس وما يجب عليهم أَنْ يكونوا، كيف بدأت الجماعة وكيف يجب أَنْ تمضي قدمًا في المستقبل. وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ جولي وكريسبن لَمْ يشجِّعا فكرة القيادة أَوْ أَيَّ نوعٍ مِنْ عبادة الرَّمز، فقَدْ حدث هذا عَلَى أَيَّة حالٍ، كانا معبودَين. وغير قابلَين للانقسام. عندما انضمَّ جوشوا إِلَى المجموعة في البداية، حاوَل أَنْ يشمشم عَلَى قليلٍ مِنَ المعلومات عَنِ الزَّوجَين، أَنْ يحصل عَلَى القصَّة الكاملة بخصوص ما لديه مِنْ فرصٍ. هَلْ هما متذبذبان؟ هَلْ قادتهما الطَّبيعة القاسية لأعمالهما إِلَى التَّباعد؟ فرصةٍ كبيرةٍ. قيلَت له الحكاية الكئيبة بالكامل مِنْ قبل اثنَين مِنْ ناشطي فيت المخضرمين حول بعض أكواب البيرة في حانة الكلب المرقَّش: عامل بريدٍ سابقٍ مصابٍ بالذِّهان يُدعى كيني شهد والده يقتل جروه في الطُّفولة، وبادي، جامع إعاناتٍ رقيقٍ ومربِّي حمامٍ.

«يبدأ الجميع بالرَّغبة في مضاجعة جولي،» شرح كيني، متعاطفًا: «غير أَنَّك تتجاوز الأمر. تدرك أَنَّ أفضل ما يمكن أَنْ تفعله لأجلها أَنْ تكرِّس نفسكَ للنِّضال. وعندها فالشَّيء الثَّاني الَّذي تلاحظه، هو أَنَّ كريسبن ليس سوى هذا الشَّخص *الرَّائع* ــــ»

«نعم، نعم، تابع حديثكَ.»

وتابع كيني حديثه.

اتَّضح أَنَّ جولي وكريسبن التقيا ووقعا في الحبِّ في جامعة ليدز في شتاء 1982، اثنَين مِنَ الطُّلَّاب المتطرِّفين الشَّباب، مع تشي جيفارا عَلَى جدرانهما، والمثاليَّة في أعماقهما، والشَّغف المتبادل بكُلِّ الكائنات الَّتي تطير، وتهرول وتزحف ويسيل لعابها عَلَى الأرض. ومع الوقت، أصبح كلاهما عضوَين ناشطَين في مجموعاتٍ كثيرةٍ ومتنوِّعةٍ

مِنْ جماعات أقصى اليسار، غير أنَّ الصِّراع السِّياسيَّ، والطَّعنات في الظَّهر، والانشقاق المستمرَّ خيَّبَت آمالهما بنفس القدر الَّذِي تعلَّق الأمر فيه بمصير الإنسان القائم[1]. عند نقطةٍ بعينها بلغ منهما التَّعب مِنَ الحديث إِلَى أنواعنا، الَّذِين سوف ينظِّمون انقلابًا معكَ في كثيرٍ مِنَ الأحيان، ويتعهَّرون خلف ظهركَ، ويختارون ممثِّلًا آخر لهم، ويلقون بالأمر كُلِّه في وجهك. أدارا وجههما بدلًا مِنْ ذلك إِلَى أصدقائنا مِنَ الحيوانات البكماء. وقامَت جولي وكريسبن بترقية نباتيَّتهما[2] إِلَى الخضريَّة[3]، وتسرَّبا مِنَ الكُلِّيَّة، وتزوَّجا، وشكَّلا مكافحة تعذيب الحيوان واستغلاله في 1985. جذبت شخصيَّة كريسبن المغناطيسيَّة وسحر جولي الطَّبيعيُّ تائهين سياسيِّين آخرين، وسرعان ما أصبحوا لجنةً مِنْ خمسةٍ وعشرين (بالإضافة إِلَى عشر قططٍ، وأربعة عشر كلبًا، وحديقةٍ مليئةٍ بالأرانب البرِّيَّة، والأغنام، وخنزيرَين، وعائلةٍ مِنَ الثَّعالب) يعيشون ويعملون في غرفة معيشةٍ ونومٍ[4] في بريكستون تكدَّست بمساحة كبيرةٍ مِنَ المخصَّصات غير المستخدمة. إنَّهما رائدان بمستوياتٍ عديدةٍ. أعادا التَّدوير قبل أَنْ تصبح إعادة التَّدوير موضةً، وصنعا محيطًا حيويًّا استوائيًّا مِنْ حمَّام بخارهما، وكرَّسا نفسيهما لمنتجات الأغذية العضويَّة. سياسيًّا كانا حذرَين تمامًا. فمنذ البداية كان تصنيفهما كمتطرفين أمرًا لا شكَّ فيه، فَقَدْ كانت فيت بالنِّسبة للجمعيَّة الملكيَّة لمنع القسوة ضدَّ الحيوانات (ج م ق ح)[5]

---

1 ـ يعتقد العلماء أن الإنسان المنتصب أوْ الإنسان القائم، أوْ المستوي (هوموإريكتوس) قد تطور من الإنسان العامل قبل قرابة 1.6 مليون سنة حيث انتشر هذا الإنسان في آسيا. كان يعتقد أن هذا الإنسان قد بدأ بالانقراض عندما بدأت الأجناس الأخرى بالظهور والانتشار، أي قبل ما يقارب من 400 ألف سنة. لكن بعض الدراسات والأحافير وخصوصًا تلك الَّتِي تمت على جزيرة جاوة الأندونيسية أثبتت أن هذا الإنسان عاش إِلَى ما يقارب خمسين ألف سنة مضت، مما يعني أنه عاصر الإنسان الحالي أوْ ما يعرف باسم الإنسان العاقل. (المترجم).

2 ـ النباتية: نظام غذائي يعتمد على النباتات ويستثني أكل اللحوم (بما في ذلك الأسماك، الدجاج، الرخويات وغيرها). ولكنه يسمح بأكل بعض منتجات المملكة الحيوانية مثل: الحليب، الزبدة، البيض والعسل. (المترجم).

3 ـ الخُضْريّة: أي النباتية الصرفة: هي نمط غذائي يعتمدُ على النبات. كما في النباتية؛ حيث يتغذون على المأكولات الَّتِي لا يدخل في تركيبها لحم الحيوان (سواء أكان من الحيوانات البرية أم البحرية أم الهوائية) فالخضريّون كذلك لا يأكلون منتوجات كالبيض والحليب والألبان والعسل الَّتِي تأتي مباشرة من الحيوانات. (المترجم).

4 ـ نمط مساكن للإيجار شائع في بريطانيا وأيرلندا، يتكون من غرفة واحدة لكل ساكن، يتقاسمون الحمام في العادة. (المترجم).

5 ـ جمعية خيرية تأسست عام 1824 تعمل في إنجلترا وويلز، وتروج لرعاية الحيوانات ومناهضة القسوة تجاهها. (المترجم).

مثل الـ ستالينيّة[1] بالنِّسبة إلى الدِّيموقراطيِّين الأحرار[2]. بسبب أنَّ فيتْ أجرَت حملاتٍ مرعبةً عَلَى مدى ثلاث سنواتٍ ضدّ مُختبِري الحيوانات، ومُعذِّبيها، ومُستغلِّيها، مُرسِلِين تهديداتٍ بالقتل إِلَى موظَّفِين في شركات المكياج، ومُقتحِمين المختبَرات، ومُختطفِين الفنّيين، ومسلسلين أنفسهم إِلَى بوابات المستشفى. وخرَّبوا مطاردات صيد الثَّعالب أيضًا، ووثَّقوا بطَّاريَّات الدَّجاج فيلميًّا، وأحرقوا مزارع، وألقوا قنابل حارقةً عَلَى منافذ الطَّعام، وحطَّموا خيام السِّيرك. كان وجودهم الوجيز موسَّعًا ومتعصِّبًا جدًّا (لأيِّ حيوانٍ في أيِّ مستوىً مِنْ عدم الرَّاحة)، وظلُّوا مشغولين عَلَى نحوٍ جادٍّ، وكانَت حياة أعضاء فيت صعبةً، وخطيرةً، يتخلَّلها السِّجن المتكرِّر. وعَلَى الرَّغم مِنْ كُلِّ هذا، فقَدْ نمَت علاقة جولي وكريسبن بشكلٍ أقوى وكانت بمثابة مثالٍ لهم جميعًا، منارةً في العاصفة، والنُّموذج المثاليَّ للحبِّ بين النَّاشطين («إِلَى آخرِه إِلَى آخرِه إِلَى آخرِه. استمرَّ في ذلك»). ثُمَّ في 1987 ذهب كريسبن إِلَى السِّجن لمدَّة ثلاث سنواتٍ بسبب دوره في تدمير مختبَرٍ في ويلز بالقنابل الحارقة وإطلاق سراح 40 قطَّةً، و350 أرنبًا، و1000 فأرٍ مِنْ محبسها. قبل أَنْ يتمَّ اقتياده إِلَى سجن وورم وود سكرابس، أبلغ كريسبن جولي في أريحيَّةٍ أَنَّ لديها تصريحه بأَنْ تذهب لأعضاءٍ آخرين في فيت إذا احتاجت إِلَى إشباعٍ جنسيٍّ خلال غيابه. («وهَلْ فعلَت؟» سأل جوشوا. «*هَلْ أخفقَت*،» ردَّ كيني في حزنٍ).

. كرَّسَت جولي نفسها، خلال احتجاز كريسبن، لتحويل فيت مِنْ عصابةٍ صغيرةٍ مِنَ الأصدقاء شديدي التَّوتُّر إِلَى قوَّةٍ سياسيَّةٍ قابلةٍ للنُّموِّ تحت الأرض. بدأَت في وضع تركيزٍ أقلَّ عَلَى تكتيكات الإرهاب، وبعد قراءة جي ديبورد[3]، تزايد اهتمامها بالموقفيَّة[4] كتكتيكٍ سياسيٍّ، الأمر الَّذِي فهمَت أَنَّه يعني زيادة استخدام اللَّافتات

1 - نسبة إِلَى جوزيف ستالين، الحاكم الثاني للاتحاد السوفييتي والمؤسس الحقيقي له، ويمكن أن نطلق على الستالينية لقب الفولاذية: لأن فتره قيادته تميزت بالقوة والصلابة ونبذ وتصفية المخالفين. (المترجم).

2 - حزب الديمقراطيين الأحرار: حزب سيامي في المملكة المتحدة يندرج تحت إطار أحزاب وسط إِلَى يسار وسط الليبرالية الاجتماعية. تأسس الحزب عام 1988 بَعد اندماج الحزب الليبرالي والحزب الديمقراطي الاجتماعي. والحزب يعتبر ثالث أكبر الأحزاب في مجلس العموم البريطاني بعد حزب العمال وحزب المحافظين - (المترجم).

3 - شاعر وكاتب وسينمائي فرنسي شهير، ولد في 28 ديسمبر 1928، وتوفي في 30 نوفمبر 1994 في باريس. كان من أشهر كُتَّاب فرنسا الماركسيين ومن المتأثرين بالخصوص بفكر فيورباخ، وترجمت أعماله إِلَى عشرات اللغات. كما أنه كان من أبرز المعارضين للحرب الفرنسية في الجزائر. (المترجم).

4 - نظرية في علم النفس بدأت في عام 1968 عندما أثير الجدل بخصوص وضع الشخص وموقفه، إثر دراسة لوالتر ميسشل. وتشير إِلَى منهج سلوكي يرى أن الخصائص العامة ليست موجودة. ويتم النظر إلى السلوك، بناء عليه، كنتاج عوامل ظرفية خارجية، عوامل موقفية أكثر منها سمات أَوْ دوافع داخلية. (المترجم).

الكبيرة، والأزياء، وأشرطة الفيديو، وإعادة التَّمثيل المروِّعة. مع الوقت الَّذِي خرج فيه كريسبن مِنَ السِّجن، كانت فيت قَدْ نمَت أربع مرَّاتٍ، ونمَت أسطورة كريسبن (عاشقًا، ومقاتِلًا، ومتمرِّدًا، وبطلًا) معها، وغذَّتها ترجمة جولي الشَّغوفة لحياته وأعماله وصورةٌ منتقاةٌ بعنايةٍ له مِنْ عام 1980 والَّتِي يشبه فيها نيك دريك[1] بعضَ الشَّيء. ولكنْ عَلَى الرَّغم مِنْ تحسين صورته، فقَدْ بدَا أَنَّ كريسبن لَمْ يفقد شيئًا مِنْ نزعته الرَّاديكاليَّة. كان أوَّل أعماله كمواطنٍ حُرٍّ تدبير تحرير بضع مئاتٍ مِنْ فئران الحقل، وهو الحدث الَّذِي حظي بتغطيةٍ صحفيَّةٍ واسعةٍ، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ كريسبن ألقى مسؤوليَّة العمل الفعليِّ عَلَى كيني، الَّذِي أُرسِل لأربعة شهورٍ في سجنٍ مشدَّد الحراسة («أعظم لحظةٍ في حياتي»). بعد ذلك، في صيف 91، أقنعَت جولي كريسبن بالذِّهاب إِلَى كاليفورنيا معها للانضمام إِلَى مجموعاتٍ أخرى تكافح براءات الحيوانات المعدَّلة وراثيًا. وعَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ قاعات المحاكم لَمْ تكنْ مسرح كريسبن («كريسبن رجل الخطوط الأماميَّة»)، فقَدْ نجح بما يكفي في تعطيل الإجراءات الَّتِي تبرِّر رسميًّا بطلان الدَّعوى. طار الزَّوجان عائدَين إِلَى إنجلترا، مبتهجَين ولكنْ مع نقصٍ خطيرٍ في التَّمويل؛ لكَيْ يجدا أَنَّه تَمَّ طردهما مِنْ غرفة بريكستون و ــــ

حسنًا، يمكن لجوشوا أَنْ يتناول السَّرد مِنْ هنا. لقَدِ التقاهما بعد ذلك بأسبوعٍ، يجوبان طريق ويلْزدن السَّريعة هنا وهناك، يبحثان عَنْ مقرٍّ مناسب. يبدوان تائهَين، وذهب جوشوا، الجريء مِنْ أجواء الصَّيف وجمال جولي؛ لكَيْ يتحدَّث إليهما. وانتهى بهم الأمر بالذِّهاب لاحتساء البيرة. شربا، كما يشرب كُلُّ شخصٍ في ويلْزدن، في حانة الكلب المرقَّش المذكورة، معلمٌ شهيرٌ في ويلْزدن، تَمَّ وصفه في 1792 كـ «حانةٍ مألوفةٍ جدًّا» (*ماضي ويلْزدن*، للين سنو)، والَّتِي أصبحَت المنتجع المفضَّل لأهالي لندن في أواسط العصر الفيكتوريِّ الرَّاغبين في قضاء يومٍ في الخارج «في الرِّيف»، ثُمَّ نقطة التقاء العربات الَّتِي تجرُّها الخيول، وفي وقتٍ لاحقٍ، حانةً لعمَّال البناء الأيرلنديِّين المحليين. بحلول 1992 تحوَّلَت مرَّةً أخرى، هذه المرَّة كمركز تنسيقٍ للعدد الضَّخم مِنَ المهاجرين الأستراليِّين في ويلْزدن، الَّذِين كانت لديهم، عَلَى مدى السَّنوات الخمس الأخيرة، شواطئهم الحريريَّة وبحارهم الزُّمرُّديَّة ولسببٍ غير مفهومٍ وصلوا إِلَى المنطقة

1 ـ هو مغني موسيقى فُلكلورية وعازف جيتار إنجليزي، ولد في بورما، على الرغم من أنه لَمْ يحقق النجاح التجاري خلال حياته، فإن عمله هو محط تقدير كبير في الوقت الحاضر من قِبَل النقاد والموسيقيين وغيرهم. كان مصابًا بكآبة مزمنة. مات بالخطأ إثر جرعة زائدة من دواء مضاد للكآبة. ترك ثلاثة ألبومات أسطورية، ولكنها تحوي أغاني حزينة جدًّا. (المترجم).

الثَّانية مِنْ شمال غرب لندن[1]. في الظَّهيرة الَّتِي تمشَّى جوشوا فيها مع جولي وكريسبن، كان هذا المجتمع في حالة إثارةٍ عاليةٍ. بعد شكوى مِنْ رائحةٍ فظيعةٍ فوق محلِّ الأخت ماري لقراءة الكفِّ في الطَّريق السَّريعة، تمَّت مداهمة الشَّقَّة الأعلَى مِنْ قِبَل مُفتِّشي الصِّحَّة ووجدوا أنَّها مأوًى لستَّة عشر أستراليًّا يجلسون القرفصاء وقدْ حفروا حفرةً هائلةً في الأرضيَّة وقاموا بشيِّ خنزيرٍ فيها، في محاولةٍ عَلَى ما يبدو لإعادة خلق تأثير أفران البحار الجنوبيَّة تحت الأرض. مع إلقائهم في الشارع، يتحسَّرون عَلَى مصيرهم - الآن - لصاحب الحانة، رجلٍ أسكتلنديٍّ مُلتحٍ ضخمٍ لديه القليل مِنَ التَّعاطف تجاه زبائنه الأستراليِّين والنِّيوزيلنديِّين («هَلْ هناك لافتةٌ لعينةٌ في سيدني اللَّعينة تقول تعالوا إلَى ويلْزدن اللَّعينة؟»). مع سماع القصَّة بالمصادفة، افترض جوشوا أنَّ الشَّقَّة ينبغي أَنْ تكون خاليةً الآن وأخذ جولي وكريسبن لكَيْ يطَّلعا عليها، وعقله يدور بالفعل... *لَوْ أمكنني أَنْ أحضرها لكَيْ تعيش في الجوار...*

كان مبنًى جميلًا متقادمًا مِنَ العصر الفيكتوريِّ، مع شرفةٍ صغيرةٍ، وحديقةٍ عَلَى السَّطح، وحفرةٍ كبيرةٍ في الأرضيَّة. نصحهما بالتَّواري عن الأنظار لمدَّة شهر ومِنْ ثَمَّ ينتقلان. وفعلًا، ورأى جوشوا المزيد والمزيد منهم. بعد شهرٍ مِنْ ذلك اختبر «تحوُّلًا» بعد ساعاتٍ مِنَ الحديث مع جولي (ساعاتٍ مِنْ تفحُّص نهديها تحت تلك الـتي شيرتـات الرَّثَّة)، الأمر الَّذِي بدَا، في ذلك الوقت، كما لَوْ أنَّ أحدهم أخذ رأسه التشالفينيَّ المغلق، وألصق علبتين مِنْ أصابع الدِّيناميت داخل كُلِّ أذنٍ فيه، وفجَّر ثقبًا هائلًا لعينًا بالفعل في وعيه. أصبح واضحًا له في خاطرٍ مفاجئٍ أنَّه أحبَّ جولي، أنَّ والديه حقيران، أنَّه هو نفسه حقيرٌ، وأنَّ أكبر مجتمع في الأرض، مملكة الحيوان، يُظلَم، ويُسجَن، ويُقتَل بشكلٍ يوميٍّ مع العلم والدَّعم الكاملَين مِنْ قِبَل كُلِّ حكومةٍ في العالم. كَمْ كان الإدراك الأخير والَّذِي استند واعتمد عَلَى الأوَّل يصعب قوله، ولكنَّه تخلَّى عَنِ التشالفينيَّة ولَمْ يعد لديه أيُّ اهتمامٍ بتفكيك الأشياء ومعرفة كيف تتَّسق معًا. تخلَّى عوضًا عَنْ ذلك عَنْ كُلِّ أنواع اللُّحوم، وفرَّ إلَى جلاستونبري، وحصل عَلَى وشمٍ، وأصبح ذلك الشَّخص الَّذِي يمكنه تقدير الثُّمْنِ بعينَين مُغمَضتَين (لذا اللَّعنة *عليكَ*، يا مِلَّة)، واستمتع بوقته بشكلٍ عامٍّ... حتَّى وخزه ضميره في النِّهاية. كشف عَنْ كونه ابنًا لماركوس تشالفين. وأصاب هذا جولي بالرُّعب (وأحبَّ جوشوا أَنْ يفكِّر في أنَّ ذلك أثارها بعض الشَّيء -

1 ـ منطقة بريدية في شمال غرب لندن تغطي أحياءَ كريكل وود، ومرتفعات دوللي، ومرتفعات تشايلدز، وجزءًا من جولدرجرين، وجزءًا من تقاطع برنت، وويلزدن، ونيزدن. (المترجم).

النَّوم مع العدوِ وكُلِّ ذلك). وتَمَّ إبعاد جوشوا بينما كان لدى فيت اجتماع قمَّةٍ لمدَّة يومَين حول هذا الموضوع: *ولكنَّه الشَّيء نفسه الَّذِي... آه، لَكِنْ يمكننا أَنْ نستخدم...*

كانت عمليَّةً مُطوَّلَةً، مع تصويتاتٍ وفقراتٍ فرعيَّةٍ واعتراضاتٍ وفقراتٍ شَرطيَّةٍ، ولكنَّها لَمْ تستطع في النِّهاية الوصول إِلَى أيِّ شيء أكثر رقيًّا مِنْ: في أَيِّ جانبٍ أنتَ؟ قال جوشوا جانبكم، واستقبلته جولي بذراعَين مفتوحتَين، وهي تضمُّ رأسه إِلَى حضنها الرَّائع. تَمَّ الاحتفاء به في الاجتماعات، ومَنْحه دور السِّكرتير، وكان جوهرة تاجهم بشكلٍ عامٍ: *المرتدّ عَنِ الجانب الآخر*.

مِنْ وقتها، وعَلَى مدار ستَّة شهورٍ، انغمس جوشوا في احتقاره المتزايد لأبيه، ورأى الكثير مِنْ حبِّه العظيم، وبدأ في إعداد خطَّة طويلة الأمد لدسِّ نفسه بين الثُّنائيِّ الشَّهير (كان بحاجةٍ إِلَى مكانٍ ما للبقاء عَلَى أَيَّة حالٍ؛ فضيافة آل جونز تضيق به). تواصل ببراعةٍ مع كريسبن، متجاهلًا بشكلٍ مقصودٍ شكوك كريسبن فيه. تصرَّف جوشوا كما لَوْ أَنَّه أفضل رفاقه، قام بكُلِّ الأعمال السَّخيفة مِنْ أجله (النَّسخ، وعمل البوسترات، وتوزيع المنشورات)، ونام عَلَى أرضيَّته، واحتفل بعيد زواجه السَّابع، وأهداه ريشة جيتار مصنوعةٍ يدويًّا في عيد ميلاده؛ بينما كان يكرهه طوال الوقت بشكلٍ مكثَّفٍ، ويطمع في زوجته كما لَمْ يطمع أحدٌ قطُّ في زوجة رجلٍ مِنْ قبلُ، ويحيك المؤامرات لأجل سقوطه بغيرةٍ حاسدةٍ مِنْ شأنها أَنْ تجعل ياجو[1] يشعر بالخجل.

شتَّت كُلُّ هذا جوشوا عَنْ حقيقة أَنَّ فيت انشغلوا بالتآمر عَلَى إسقاط والده. لقَدْ وافق عَلَى ذلك بشكلٍ مبدئيٍّ عندما عاد ماجد، عندما اشتعل غضبه وبدَت الفكرة في ذاتها ضبابيَّةً ـ مجرَّد كلامٍ كبيرٍ للتَّأثير في الأعضاء الجُدُد. أَمَّا الآن، فالحادي والثَّلاثون بعد ثلاثة أسابيع، وجوشوا فشل في مساءلة نفسه بأيِّ شكلٍ متماسكٍ، بأيِّ طريقةٍ تشالفينيَّة، بخصوص عواقب ما هو في طريقه لأَنْ يحدث. لَمْ يكن متأكِّدًا حتَّى ممَّا سيحدث بالضَّبط ـ ليس هناك قرارٌ نهائيٌّ؛ والآن بينما الأعضاء الأساسيون لـ فيت يناقشون الأمر، جالسين القرفصاء ومتحلِّقين عَلَى مسافاتٍ متباعدةٍ حول الحفرة العظيمة في الأرضيَّة، الآن، بينما ينبغي أَنْ ينصت لتلك القرارات الجوهريَّة،

1 ـ ياجو المتآمر، هو شخصية مسرحية في رائعة شكسبير «عطيل». والخصم الأساسي في المسرحية. ياجو هو حامل اللواء القديم لعطيل، وزوج إيميليا، الَّتِي كانت بدورها مصاحبة لديزديمونا زوجة عطيل. يكره ياجو عطيل ويدبر خطة لتدميره، فيجعله يتصور أن زوجته تقيم علاقة غرامية مع مايكل كاسيو ملازمه وحارسه الشخصي. (المترجم).

فقَدَ الخيط مع اهتمامه بـ تي شيرت جولي، المنسدل عَلَى الانحدار الرّياضيّ لجذعها وانحنائه، نزولًا إِلَى سروالها المصبوغ بطريقة القماش المربوط[1]، نزولاً ـــ

«جوش، يا رفيقي، هَلْ يمكن أَنْ تقرأ لي الملاحظات مِنْ دقيقتَين سابقتَين، إنْ كنتَ تفهم ما أقصده؟»

«هه؟»

تنهّد كريسبن وأعرب عَنِ انزعاجه. ومالت جولي للأسفل عَنْ سطح طاولتها وقبّلت كريسبن عَلَى أذنه. حقيرٌ.

«الملاحظات، يا جوش. بعد الأشياء الَّتِي قالتها جولي عَنِ استراتيجيَّة الاحتجاج. لقَدِ انتقلنا إِلَى الجزء الصَّعب. أريد أَنْ أسمع ما قاله بوبي منذ دقائق بخصوص العقوبة في مواجهة إطلاق السَّراح.»

نظر جوشوا إِلَى حافظة الأوراق الفارغة ووضعها فوق انتصابه المتراجع.

«امم... أظنُّ أَنَّه فاتني ذلك.»

«إمم، حسنًا كان ذلك *مهما* جدًّا بحقِّ اللَّعنة فعلًا، يا جوش. ينبغي أَنْ تتابع معنا. أعني، ما *الجدوى* مِنَ القيام بكُلِّ هذا الكلام ـــ.»

حقيرٌ، حقيرٌ، حقيرٌ.

«إنَّه يبذل أقصى ما لديه،» تدخَّلت جولي، وهي تميل عَنْ طاولتها مرَّةً أخرى، هذه المرة لكَيْ تنكش شعر جوشوا المموَّج عَلَى الطَّريقة الهوديَّة. «رُبَّما يكون هذا صعبًا عَلَى جوشي فعلًا، هَلْ تعلم؟ أعني أَنَّ هذا شخصيٌّ جدًّا بالنِّسبة إليه.» دائمًا ما تناديه هكذا، جوشي. جوشي وجولي. جولي وجوشي.

عبس كريسبن. «حسنًا، أنتِ تعرفين، لقَدْ قلتُ عدَّة *مرَّاتٍ* إذا لَمْ يُرِد جوشوا أَنْ يتورَّط ـ شخصيًّا ـ في هذا العمل، بسبب *التَّعاطف* الشخصيِّ، إذا أراد *الخروج*، إذنْ ـــ»

«أنا معكم،» قاطعه جوش، وهو يكبح العداوة بالكاد. «ليست لدَيَّ أيُّ نيَّةٍ *للتَّراجع*.»

1 ـ صباغة القماش المربوط: هي إحدى طرق الصباغة الفنية. تستخدم ـ عادة ـ الألوان البراقة لصباغة الأقمشة القطنية عادة. أصبحت صباغة القماش المربوط مرتبطة بزي العصر في سنة 1960 كجزء من نمط ملابس الهيبيين. وقد أصبحت ملابس شعبية في الولايات المتحدة بفضل بعض الفنانين الموسيقيين. تجهز المواد المعدة للصباغة بطيها لتشكيل الرسمة المطلوبة، ثم تربط وتوثق بخيوط أو أحزمة مطاطية. ثم تصبغ المواد بطريقة تصل الأصباغ فيها فقط للمناطق المرغوبة. وتقاوم المناطق المربوطة اختراق الحمام الصباغي لها. ويتشكل التصميم باستخدام العديد من الأصبغة مختلفة الألوان وعلى مناطق مختلفة من القماش. (المترجم).

«لهذا فإنَّ جوشي هو *بطلنا*،» قالت جولي، مع ابتسامةٍ داعمةٍ رائعةٍ. «تذكَّروا كلماتي، هو آخر مَنْ سيصمد للنّهاية.»

آه، يا جولي!

«حسنًا، حسنًا، دعونا نستعيد الأمر. حاوِل أَنْ تحتفظ بملاحظاتٍ مِنَ الآن فصاعدًا، هَلْ هذا ممكنٌ؟ حسنًا. يا بادي، هَلْ يمكنك فقط أَنْ تكرّر ما قلته، حتَّى يمكن للجميع أَنْ يستوعبوه؛ لأَنَّني أعتقد أَنَّ ما قلته يلخّص القرار الرَّئيس الَّذِي ينبغي أَنْ نتَّخذه الآن عَلَى أكمل وجهٍ.»

ارتفع رأس بادي وبحث في ملاحظاته. «إمم، حسنًا بالأساس... بالأساس، إنَّه سؤالٌ عَنْ... عمَّا هي أهدافنا الحقيقيَّة. إذا كانت أَنْ نعاقب الجناة ونثقِّف الجمهور... إذنْ ـ حسنًا ـ ذلك ينطوي عَلَى نوعٍ واحد مِنْ أساليب التَّعامل... هجومٍ مباشرٍ على، ممم، الشَّخص موضع السُّؤال،» قال بادي، وهو يُلقي نظرةً متوتِّرةً عَلَى جوشوا. «لكنْ لَوْ كان اهتمامنا هو الحيوان نفسه، كما أعتقد أَنَّه يجب أَنْ يكون، فهي مسألة حملةٍ مضادَّةٍ، وإذا لَمْ تنجح، فإذنْ إطلاق سراح الحيوان بالقوَّة.»

«صحيحٌ،» قال كريسبن بتردُّدٍ، وهو غير متأكِّدٍ ما إذا كان الدَّور المجيد لكريسبن قَدْ ينسجم مع تحرير فأرٍ واحدٍ. «ولكنْ مِنَ المؤكَّد أَنَّ الفأر في هذه الحالة هو رمزٌ، ما يعني، أَنَّ هذا الرَّجل لديه الكثير منها في مختبره ـ وعليه فينبغي أَنْ نتعامل مع الصُّورة الأكبر. نحتاج إِلَى مَنْ يقتحم المكان هناك ــ »

«حسنًا، في الأساس... في *الأساس*، أعتقد أَنَّ ذلك هو الخطأ الَّذِي تفعله أَوْ إتش إن أَوْ عَلَى سبيل المثال. لأَنَّهم يأخذون الحيوان نفسه عَلَى أَنَّه مجرَّد رمزٍ... وبالنِّسبة إليَّ فهذا بالتَّأكيد عكس ما تهتم به فيت. إذا كان هذا رجلًا عالقًا في صندوقٍ زجاجيٍّ لمدَّة ستِّ سنواتٍ، فهو لَنْ يكون رمزًا، هَلْ تعلمون؟ وأنا لا أعرف عنكم، ولكنْ لا يُوجد فرق بين الفئران والرِّجال، كما تعلمون، في رأيي.»

غمغم أعضاء فيت المجتمعون بموافقتهم؛ لأَنَّ هذا هو النَّوع مِنْ وجهات النظر الَّتِي يغمغمون بالموافقة عليها بشكلٍ روتينيٍّ.

انزعج كريسبن. «صحيحٌ ـ حسنًا ـ مِنَ الواضح أَنَّني لَمْ أقصد ذلك، يا بادي. لقَدْ قصدتُ فقط أَنَّ هناك صورةً أكبر هنا، تمامًا مثل الاختيار بين حياة رجلٍ واحدٍ وحياة الكثير مِنَ الرِّجال، أليس كذلك؟»

«نقطة نظامٍ!» قال جوش، رافعًا يده في الهواء مِنْ أجل فرصةٍ لجعل كريسبن يبدو أحمقَ. حدَّق كريسبن بغضبٍ.

«نعم، يا جوشي،» قالَت جولي بعذوبةٍ. «هيَّا.»

«الأمر فقط أنَّه لَمْ يعد هناك أيٌّ مزيدٍ مِنَ الفئران. أعني، نعم، هناك الكثير مِنَ الفئران، ولكنَّه لا يملك أيَّ واحدٍ مماثِلٍ لهذا. إنَّها عمليَّةٌ مكلِّفةٌ بشكلٍ لا يُصدَّق. ولَمْ يكن يستطيع تحمُّل العبء. بالإضافة إِلَى ذلك، فالصَّحافة تهمز بأنَّه إذا مات فأرالمستقبل خلال العرض فسيمكنه فقط أنْ يستبدله بآخر في سرِّيَّةٍ ـ ولذا فقد أصابه الغرور. إنَّه يريد أنْ يثبت أنَّ حساباته صحيحةٌ أمام العالم. سوف يعمل عَلَى واحدٍ فقط ويمنحه شفرةً «باركود[1]». ليسَت هناك فئرانٌ أخرى.»

ابتسمَت جولي ومالَت إِلَى الأسفل لكَيْ تمسِّد كتفي جوش.

«صحيحٌ، نعم ـ حسنًا ـ أظنُّ أَنَّ ذلك منطقيٌّ. إذن يا بادي، أنا أرى ما تقوله ـ إِنَّه سؤالٌ عما إذا كنا سنركِّز اهتمامنا عَلَى ماركوس تشالفين أَوْ عَلَى تحرير الفأر الفعليِّ مِنْ أسره أمام صحافة العالم.»

«نقطة نظامٍ!»

«نعم، يا جوش، ماذا؟»

«حسنًا، يا كريسبن، هذا ليس مثل الحيوانات الأخرى الَّتِي تقوم بتحريرها. لَنْ يُحدِث ذلك أَيَّ فرقٍ. فالضَّرر وقع. والفأر يحمل أسباب عذابه في جيناته. مثل قنبلةٍ موقوتةٍ. إذا أطلقتَ سراحه، فسوف يموت في ألمٍ بشعٍ في مكانٍ آخر فقط.»

«نقطة نظامٍ!»

«نعم، يا بادي، هيَّا.»

«حسنًا، بالأساس... هَلْ ستمتنع عَنْ مساعدة سجينٍ سياسيٍّ عَلَى الهروب مِنَ السِّجن لمجرَّد أنَّه مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ؟»

أومأت الرُّؤوس المتعدِّدة مِنْ فيت بقوَّةٍ.

1 ـ تمثيل ضوئي لبيانات قابلة للقراءة من قبل الحاسبات. قارئ الباركود هو عبارة عن ماسحة ضوئية أو قارئ ضوئي يسلط شعاعًا من الليزر على الباركود، ثم يرتد مرة أخرى من الأعمدةِ البيضاء فقط حيث أن الأعمدة السوداء تمتص الضوء ولا تعكس الشعاع مرة أخرى. يقوم كاشف الضوء الموجود في القارئ بتحليل الأشعة المنعكسة، ثم يقوم بإرسال هذه البيانات إِلَى حاسوب يعمل على مطابقة هذه الشفرة مع الشفرات المخزنة لديه فيستخلص المعلومات المرتبطة بهذه الشفرة كافة مثل: السعر والكمية والمنتج. (المترجم).

«نعم، يا بادي، نعم، هذا صحيحٌ. أعتقد أَنَّ جوشوا مخطئٌ في هذا وأعتقد أَنَّ بادي قدَّم لنا الخيار الَّذِي يجب أَنْ نتَّخذه. إنَّه أمرٌ تعاملنا معه عدَّة مرَّاتٍ مِنْ قبل واتَّخذنا خياراتٍ مختلفةً في ظروفٍ مختلفةٍ. لقَدْ ذهبنا، في الماضي، كما تعرفون، إِلَى الجُناة. أُعدَّت القوائم، ونُفِّذت العقوبات ـ الآن ـ أنا أعرف أَنَّنا ابتعدنا في السَّنوات الأخيرة عَنْ بعض تكتيكاتنا السَّابقة، ولكنَّنِي أظنُّ أَنَّه حتَّى جولي ستوافق عَلَى أَنَّ هذا هو أكبر اختبار لذلك، وأكثرها جوهريَّةً. نحن نتعامل مع أفرادٍ مُختلِّين بشكلٍ خطيرٍ ـ الآن ـ عَلَى الجانب الآخر مِنَ الأشياء، لقَدْ نظَّمنا أيضًا احتجاجاتٍ سلميَّةً واسعة النِّطاق، وأشرفنا عَلَى إطلاق سراح آلاف الحيوانات الَّتِي احتُجِزَت في الأسر مِنْ قبل هذه الدَّولة. في حالتنا هذه، نحن فقط لَنْ نملك الوقت أَوِ الفرصة لتوظيف الاستراتيجيَّتَين معًا. إنَّه مكانٌ عامٌّ جدًّا و ــ حسنًا، لقَدْ تطرَّقنا إِلَى ذلك. كما قال بادي، أظنُّ أَنَّ الخيار الَّذِي نملكه في الحادي والثَّلاثين بسيطٌ جدًّا. إنَّه بين الفأر والرَّجل. هَلْ لدى أَيِّ شخصٍ أَيُّ مشكلةٍ في التَّصويت عَلَى ذلك؟ جوشوا؟»

ارتكز جوشوا عَلَى يديه لكَيْ يرفع نفسه، ويمنح جولي تحكُّمًا أفضل في التَّدليك أعَلَى ظهره. «لا مشكلة عَلَى الإطلاق،» قال.

***

في العشرين مِنْ ديسمبر في تمام السَّاعة 00:00 رَنَّ جرس الهاتف في منزل آل جونز. جرَّت أَيرِي قدميها إِلَى الطَّابق السُّفلي في ثياب نومها ورفعَت السَّمَّاعة.

«همممم. أريد منكِ أَنْ تتذكَّري كلًّا مِنَ *التَّاريخ والوقت* عندما اخترتُ الاتِّصال بكِ.»

«ماذا؟ هه... ماذا؟ هَلْ هذا ريان؟ انظر، يا ريان، لا أقصد أَنْ أكون وقحةً، ولكنَّه منتصف اللَّيل، نعم؟ هَلْ هناك شيءٌ ما تريده أَمْ ــ.»

«أَيرِي؟ يا بنت؟ هَلْ أنتِ هناك؟»

«جدَّتكِ عَلَى وصلة التِّليفون. إِنَّها ترغب في محادثتك أيضًا.»

«أَيرِي،» قالَت هورتنس في حماسٍ. «سينبغي لكِ أَنْ تتحدَّثي، فأنا لا أستطيع أَنْ أسمع أَيَّ شيءٍ ــ»

«أَيرِي، أكرِّر: هَلْ أنتِ مُنتبهةٌ لتاريخ ووقت مكالمتنا؟»

«ماذا؟ انظر، أنا لا أستطيع... إنَّنِي مُرهَقةٌ فعلًا... هَلْ يمكن لهذا أَنْ ينتظر حتَّى....»

«العشرين، يا أَيرِي. في السَّاعة ~~صفر~~ اثنيناتٌ وأصفارٌ....»

«هَلْ تُنصتين، يا بنت؟ يحاول السَّيِّد توبس أَنْ يشرح لكِ أمرًا في غاية الأهميَّة.»

«يا جدَّتي، سيكون عليكما أَنْ تتحدَّثا واحدًا في كُلِّ مرَّةٍ... لقَدْ جررتماني بالكاد مِنَ السَّرير... إنَّنِي، أبدو، مرهقةً جدًّا.»

«اثنيناتٌ وأصفارٌ، يا آنسة جونز. تدلُّ عَلَى العام 2000. وهلْ تعلمين الشَّهر الَّذِي تجري فيه مكالمتي؟»

«ريان، إنَّه ديسمبر. هَلْ هذا حقًّا ـــ»

«الشَّهر الثَّاني عشر، يا أَيرِي. يُناظر الاثني عشر سبطًا مِنْ بني إسرائيل. الَّذِين خُتم اثنا عشر ألفًا مِنْ كُلٍّ منهم. مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ. مِنْ سِبْطِ رَأُوبِينَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ. مِنْ سِبْطِ جَادَ ـــ [1].»

«ريان، ريان... لقَدِ استوعبتُ الصُّورة.»

«هناك أَيَّامٌ مُحدَّدةٌ يرغب الرَّبُّ عندها أَنْ نتصرَّف ـــ أَيَّامٌ تحذيريَّةٌ مُحدَّدةٌ، أَيَّامٌ مُعيَّنةٌ ـــ»

«حيث ينبغي لنا تخليص أرواح الضَّائعين. تحذيرهم قبل الأوان.»

«نحن نُحذِّركِ، يا أَيرِي.»

بدأَت هورتنس في البكاء بهدوءٍ. «إنَّنا نحاول فقط أَنْ نُحذِّركِ، يا حبيبتي.»

«حسنًا. عظيمٌ. سأبقى حذرةً. ليلةٌ سعيدةٌ، للجميع.»

«ليس هذا نهاية تحذيرنا،» قال ريان بشكلٍ رسميٍّ. «إنَّه ـ ببساطةٍ ـ التَّحذير الأوَّل. هناك المزيد.»

«لا تقل لي ـــ أحد عشر أخرى.»

«أوه!» صرخَت هورتنس، وهي تُسقط السَّمَّاعة، ولكنَّها ظلَّت مسموعةً مِنْ عَلَى بُعدٍ. «لقَدْ تمَّت زيارتها مِنْ قِبَل الرَّبِّ! إنَّها تعرف مِنْ قَبْل أَنْ يتمَّ إخبارها!»

---

1 ـ سفر الرؤيا ـ الإصحاح السابع. (المترجم).

«انظر. يا ريان. هَلْ يمكنكَ بطريقةٍ ما أَنْ تكثِّف الأحد عشر إنذارًا الأخرى في واحدٍ - أَوْ عَلَى الأقلِّ، أَنْ تخبرني بأكثرها أهميَّةً؟ وإلَّا، فإنَّني أخشى أنَّني ينبغي أَنْ أعود إِلَى الفراش.»

صمتٌ لمدَّة دقيقةٍ. ثُمَّ: «*إممممم*. حسنًا جدًّا. لا تتورَّطي مع هذا الرَّجل.»

«أوه، يا أَيري! أرجوكِ أَنْ تُنصتي لِلسَّيِّد توبس! أرجوكِ أَنْ تُنصتي إليه!»

«مع *أَيِّ* رجلٍ؟»

«أوه، يا آنسة جونز. أرجوكِ لا تدَّعي أنَّكِ لا تعرفين أيَّ شيءٍ عَنْ خطيئتكِ الكبرى. افتحي روحكِ. دَعِي الرَّبَّ يسمح لي بالوصول إِلَى نفسكِ، وأطهِّركِ مِنْ ــ»

«انظر، إنَّني حقًّا مُتعَبةٌ بشكلٍ فظيعٍ. أيُّ رجلٍ؟»

«العالِم، تشالفين. الرَّجل الَّذِي تسمِّينه صديقًا في حين أنَّه في الحقيقة عدوٌّ للإنسانيَّة كُلِّها.»

«ماركوس؟ أنا لستُ متورِّطةً معه. إنَّني أردُّ عَلَى تليفونه فقط وأقوم بأعماله الورقيَّة.»

«وهكذا جُعِلتِ سكرتيرة الشَّيطان،» قال ريان، ممَّا دفع هورتنس إِلَى المزيد مِنَ الدُّموع والبكاء، «هكذا تصبحين أنتِ نفسكِ عاجزةً.»

«ريان، انصت إِلَيَّ. ليس لدَيَّ وقتٌ لهذا. ماركوس تشالفين يحاول - ببساطةٍ - أَنْ يصل إِلَى بعض الإجابات بخصوص قرفٍ مثل ــ قرفٍ مثل ــ *السَّرطان*. حسنًا؟ لا أعرف مِنْ أين تستقي معلوماتكَ، ولكنْ يمكنني أَنْ أؤكِّد لكَ أنَّه ليس الشَّيطان متجسِّدًا.»

«واحدٌ فقط مِنْ أتباعه!» اعترضَت هورتنس. «واحدٌ فقط مِنْ قوَّاته الأماميَّة!»

«هدِّئي نفسكِ، يا سيِّدة ب. أخشى أنَّ حفيدتكِ ذهبَت بعيدًا بالنِّسبة إلينا. كما توقَّعتُ، منذ غادرتنا، فقَدِ انضمَّت إِلَى الجانب المظلم.»

«اللَّعنة عليكَ، يا ريان، أنا لستُ دارث فيدر[1]. يا جدَّ....»

«لا تتحدَّثي إِلَيَّ، يا بنتُ، لا تتحدَّثي لي؟ أنا وأنا في خيبة أملٍ مريرةٍ.»

«يبدو أنَّنا سوف نراك في الحادي والثَّلاثين، إذنْ، يا آنسة جونز.»

1 - هو العنصر المضاد الرئيس في ثلاثية أفلام حرب النجوم للمخرج جورج لوكاس. هي شخصية تمثل الجانب المظلم ترتدي الزي والقناع الأسود، هو نفسه اناكين سكاي ووكر الذي انضم للجانب المظلم. هي شخصية كانت إنسان ولما انضمت للجانب المظلم أصبحت آلة، ولا يزال بداخله شيء من الإنسانية. (المترجم).

«توقَّف عَنْ مناداتي بآنسة جونز، يا ريان. في الـ..ماذا؟»

«الحادي والثَّلاثين. سيوفِّر الحدثُ منبرًا لرسالة الشُّهود. ستكون صحافة العالم هناك. وكذلك نحن. إنَّنا ننوي ـــ »

«سوف نقوم بتحذيرهم جميعًا!» قاطعَت هورتنس. «وقَدْ خطَّطنا كُلَّ ذلك بشكلٍ لطيفٍ، هَلْ ترين؟ سوف نغنِّي التراتيل مع السَّيِّدة دوبسون عَلَى أوكورديون لأنَّكِ لا تستطيعين نقل بيانو عَلَى طول الطَّريق إِلَى هناك. وسوف نُضرب عَنِ الطَّعام حتَّى يتوقَّف هذا الرَّجل الشِّرير عَنِ العبث بمخلوقات الرَّبِّ الجميلة و ـــ »

«إضرابٌ عَنِ الطَّعام؟ يا جدَّتي، عندما تذهبين بدون وجبة الحادية عشرة[1] الخفيفة ستصابين *بالغثيان*. أنتِ لَمْ تبقي بدون طعامٍ لأكثر مِنْ ثلاث ساعاتٍ أبدًا طوال حياتك. أنتِ في *الخامسة والثَّمانين*.»

«أنتِ تنسين،» قالت هورتنس في اقتضابٍ فظٍّ وباردٍ، «لقَدْ ولدتُ في صراعٍ. ونجوتُ. لا يخيفني القليل مِنْ نقص الطَّعام.»

«وأنتَ سوف تسمح لها بأَنْ تفعل ذلك، هَلْ ستفعل، يا ريان؟ إنَّها في الخامسة والثَّمانين، يا ريان. الخامسة والثَّمانين. لا يمكن لها أَنْ تدخل في إضرابٍ عَنِ الطَّعام.»

«أنا أخبرك، يا أَيرِي،» قالت هورتنس، وهي تتحدَّث بصوتٍ عالٍ وواضحٍ في بوق التِّليفون، «أنا أريد أَنْ أفعل هذا. ولستُ منزعجةً مِنْ بعض النَّقص في الطَّعام. *الرَّبُّ* أعطى بيده اليمنى، وأخذ باليسرى.»

أنصتَت أَيرِي إِلَى ريان وهو يُسقط السَّمَّاعة، ويمشي إِلَى غرفة هورتلس، ويحرِّر السَّمَّاعة ببطءٍ مِنْ يدها، ويقنعها بأَنْ تذهب إِلَى الفراش. أمكن لأَيرِي أَنْ تسمع جدَّتها تغنِّي وهو يقودها عَلَى طول المدخل، وتكرِّر العبارة إِلَى لا أحد بعينه، وتضعها في لحنٍ غير مميَّزٍ: *الرَّبُّ أعطى بيده اليُمنى وأخذ باليسرى!*

ولكنَّه في معظم الوقت، فكَّرَت أَيرِي، *مجرَّد لصٍّ في اللَّيل*. إنَّه يأخذ فقط. إنَّه يأخذ فقط بحقِّ اللَّعنة.

***

1 ـ وجبة تقليدية خفيفة في الجزر البريطانية يتم تناولها في الاستراحة الصباحية من العمل، مع مشروب ساخن، تشبه شاي الساعة الخامسة عصرًا الإنجليزي الشهير. (المترجم).

كان ماجد يفخر بأَنْ يقول إِنَّه شهد كُلَّ مرحلةٍ. شهد التَّصميم المحدَّد للجينات. شهد الحقن الجرثوميَّ. شهد التَّلقيح الصِّناعيَّ. وشهد الولادة، مختلفةً جدًّا عَنْ ولادته. فأرًا واحدًا فقط. بلا صراعٍ في قناة الولادة، ولا أوّل وثانٍ، ولا ناجٍ وغير ناجٍ. لا اعتماد عَلَى ما توفَّر. ولا عوامل عشوائيَّةٍ. لا *أنتَ لديكَ أنف والدكَ وحبُّ أُمِّك للجبن*. لا أسرار تكمن في الانتظار. لا شكَّ في متى يصل الموت. لا اختباء مِنَ المرض، لا هروب مِنَ الألم. لا سؤال بخصوص مَنْ يمسك بالخيوط. لا قدرة كُلِّيَّةً مشكوكًا بها. لا مصير هشًّا. لا سؤال عَنِ الرِّحلة، لا سؤال عَنْ أعشابٍ أكثر خُضرةً؛ لأَنَّه في أَيِّ مكانٍ يذهب إليه هذا الفأر، ستكون حياته نفسها بالضَّبط. هو لَنْ يسافر عبر الزَّمن (والزَّمن عاهرٌ، يعرف ماجد *ذلك* كثيرًا الآن. الزَّمن *عاهرٌ*)؛ لأَنَّ مستقبله مساوٍ لحاضره، الَّذي كان مساويًا لماضيه. صندوقٌ صينيٌّ[1] لفأرٍ. لا توجد طرقٌ أخرى، ولا توجد فرصٌ مفقودةٌ، ولا احتمالاتٌ مُوازيةٌ. لا تخمينٌ ثانٍ، ولا ماذا لَوْ، ولا رُبَّما كان ليحدث. اليقين فقط. اليقين فقط في أنقى صوره. وماذا يكون، فكَّر ماجد ـ ما أَنِ انتهَت الشَّهادة، ما أَنْ تَمَّ نزع القناع والقفَّازات، ما أَنْ عاد المعطفُ الأبيضُ إِلَى معلاقه ـ الرَّبُّ أكثر مِنْ *ذلك*؟

1 ـ الصناديق الصينية هي مجموعة من الصناديق بأحجام متداخلة، يستقر كُلّ واحد منها في داخل التالي الأوسع. (المترجم).

الفصل التاسع عشر
الفضاء الأخير

الخميس، 31 ديسمبر، 1992

هكذا قال العنوان في أعلى الصَّحيفة. هكذا أعلن المحتفلون الَّذِين يرقصون في شوارع المساء المبكِّر بصفَّاراتهم الفضِّيَّة الصَّاخبة وأعلام الاتِّحاد[1]، ويحاولون تهيئة مشاعرهم تلك الَّتِي ترتبْط بتاريخ اليوم، مُستعجلين الظَّلام (كانت الخامسة عصرًا فقط) لرُبَّما حصلَت إنجلترا عَلَى حفلتها السَّنويَّة؛ يعبثون، ويتقيؤون، ويقبِّلون، ويلمسون، ويطعنون؛ المفاجئة يقفون عَلَى أبواب القطارات ويمسكون بها مفتوحةً لأجل الأصدقاء، ويتجادلون مع التِكتيكات الضَّخمة لسائقي سيَّارات الأجرة الخاصَّة[2] الصُّوماليِّين، ويقفزون في الماء أَوْ يلعبون مع النَّار، وكُلُّ ذلك في ضوء مصابيح الشَّارع الذَّابلة، الخفيَّة.

تلك هي اللَّيلة الَّتِي تتوقَّف فيها إنجلترا عَنْ قول *مِنفضلكشكرًالكلَوْسمحت معذرةًرجاءًهَلَّأنا*؟ وتبدأ في قول *مِنفضلكاللَّعنةعَليَّاللَّعنةعليكأيُّهاالحقير* (ولا نقول قطُّ؛ إنَّ اللَّكنة خاطئةٌ؛ سنبدو سخيفين). اللَّيلة الَّتِي تعود فيها إنجلترا إِلَى الأساسيَّات. ليلة رأس السَّنة. لكنَّ جوشوا كان يواجه وقتًا صعبًا في الاقتناع بذلك. أين ذهب الوقت؟ لقَدْ تسرَّب بين الانفراجة بين ساقَي جولي، وهرب إِلَى الجيوب السِّرِّيَّة لأذنَيها، وأخفى نفسه في الشَّعر الملبَّد لإبطَيها. وعواقب ما هو بصدد القيام به، في هذا اليوم الأكبر في حياته، وضعٌ حرِجٌ كان ليشرَّحه منذ ثلاثة شهورٍ، ويجزِّئه، ويزنه، ويحلِّله بالقوَّة التشالفينيَّة - تلك أيضًا هربَت إِلَى فجواتها. لَمْ يتَّخذ أَيَّة قراراتٍ حقيقيةٍ في ليلة

1 - علم الاتحاد والمعروف أيضًا باسم جاك الاتحاد، هو علم المملكة المتحدة. ويحتفظ به بشكل رسمي أو شبه رسمي في بعض ممالك الكومنولث. ويعود تاريخ التصميم الحالي للعلم إِلَى اتحاد أيام بريطانيا العظمى وأيرلندا في عام 1801. (المترجم).

2 - «ميني كاب»: سيارات أجرة يتم حجزها بالتليفون وغير مسموح لها بأن تقل الركاب من الشارع مثل التاكسيات العادية. (المترجم).

رأس السَّنة هذه، لا قرارات حاسمةً. لقَدْ شعر بالطَّيش بالقدْر الَّذِي يترنَّح به الشَّباب خارج الحانات، باحثِين عَنِ المتاعب؛ وشعر بالخفَّة بالقدْر الَّذِي يشعر به طفلٌ جالسٌ مُنفرِج السَّاقين عَلَى كتفَي والده متوجِّهًا إِلَى حفلةٍ عائليَّةٍ. ومع ذلك فلَمْ يستمتع معهم، هناك في الخارج في الشَّوارع - كان هُنا، هُنا تمامًا، يرتجُّ نحو قلب المدينة، صانعًا خطًّا مباشِرًا نحو معهد بيريه مثل صاروخٍ يبحث عَنِ الحرارة. هُنا، محشورًا مع الأعضاء العشرة لـ فيت في ميني باصٍ حمراء لامعةٍ، تندفع مِنْ ويلْزدن نحو ميدان ترافالجار، يُنصت بنصفِ انتباه إِلَى كيني وهو يقرأ اسم والده بصوتٍ عالٍ لأجل كريسبن، الَّذِي يقود الحافلة الصَّغيرة في الأمام.

«عندما يقدِّم د. ماركوس تشالفين فأرمستقبله في عرضٍ جماهيريٍ هذا المساء فإِنَّه يبدأ فصلًا جديدًا في مستقبلنا الوراثيّ»

ألقى كريسبن رأسه إِلَى الوراء لكَيْ يصرخ بـ «ها!» في صوتٍ عالٍ.

«نعم، صحيحٌ، بالضَّبط،» واصل كيني، وهو يحاول في فشلٍ أَنْ يسخر ويقرأ في وقتٍ واحدٍ، كما، بحسب التَّقرير الصَّحفيّ الموضوعيّ. اممم، أين كنتُ... حسنًا جدًّا: الأكثر أهميَّةً، أنَّه يكشف عَنْ هذا الفرع المتحفِّظ، شديد التَّخصُّص، والمعقَّد مِنَ العلم في العادة لجمهورٍ غير مسبوقٍ. وبينما يرتِّب معهد بيريه لفتح أبوابه طوال الوقت لمدَّة سبع سنواتٍ، يَعِد د. تشالفين بحدثٍ وطنيٍّ سيكون «مختلفًا بشكلٍ قاطعٍ عن مهرجان بريطانيا في 1951[1] أَوْ معرض الإمبراطوريَّة البريطانيَّة في 1924 لأَنَّه لا يحمل أَيَّة أجندةٍ سياسيَّةٍ.»

«ها!» نخر كريسبن مرَّةً أخرى، وهو يستدير نحو اليمين في مقعده ما جعل الحافلة الصَّغيرة لـ فيت (الَّتِي لَمْ تكنْ رسميًّا حافلة فيت؛ لا تزال تحمل حروف وحدة خدمات كنسال رايز بعرض عشر بوصاتٍ عَلَى جانبيها؛ تمَّت استعارتها مِنْ موظَّف اجتماعيٍّ في مجال العطف عَلَى حيوانات الفراء) تتجاوز - بالكاد - زمرةً مِنَ الفتيات السَّكرانات ذوات الكعوب العالية اللَّائي يترنَّحن عبر الطَّريق. «لا أجندة سياسيَّةً؟ هَلْ يعبث هذا الحقير معنا؟»

1 - مهرجان بريطانيا 1951 كان معرضًا وطنيًّا أقيم في جميع أنحاء بريطانيا في صيف 1951. نظمته الحكومة البريطانية بهدف منح البريطانيين شعورًا بالتعافي من آثار ما بعد الحرب العالمية وتعزيز المساهمة البريطانية في العلوم والتكنولوجيا والتصميمات الصناعية والعمارة والفنون. (المترجم).

«ابقِ عينيكَ عَلَى الطَّريق، يا حبيبي،» قالت جولي، وهي تلقي له قبلة في الهواء. «نريد أَنْ نصل إِلَى هناك قطعةً واحدةً عَلَى الأقلِّ. امم، يسارًا هنا...عَلَى طريق إدجوار.»

«سافلٌ،» قال كريسبن، وهو يلقي نظرةً غاضبةً عَلَى جوشوا ثُمَّ يستدير مجدَّدًا. «يا له مِنْ *سافلٍ*.»

« بحلول عام 1999،» قرأ كيني، وهو يتبع السَّهم مِنَ الصَّفحة الأولى إِلَى الصَّفحة الخامسة: «العام الَّذِي يتوقَّع الخبراء فيه أَنْ تصل عمليَّة الحمض النَّوويِّ المؤتلف إِلَى استقلاليَّتها ـ سيكون قرابة خمسة عشر *مليونًا* قَدْ رأوا معرض فأرالمستقبل، وسوف يكون كثيرون غيرهم في أنحاء العالم قَدْ تابعوا تطوّر فأرالمستقبل في الصَّحافة العالميَّة. بحلول ذلك الوقت، سيكون د. تشالفين قَدْ نجح في هدفه في تثقيف الأُمَّة، وإلقاء الكرة الأخلاقيَّة في محكمة الشَّعب.»

«مرِّر. لي. دلـوًا. حقيرًا،» قال كريسبن، كما لَوْ كانت الكلمات نفسها قيئًا. «ماذا تقول الصُّحف الأخرى؟»

رفع بادي كتاب إنجلترا الوسطى المقدَّس حتَّى يمكن لكريسبن أَنْ يراها في مرآة الرُّؤية الخلفيَّة. العنوان: هوس الفأر.

«إِنَّها تأتي مع ملصقٍ مجَّانيٍّ لـ فأر المستقبل،» قال بادي، وهو يهزُّ كتفَيه ويثبِّت الملصق عَلَى البيريه الَّذِي يرتديه. «لطيفٌ جدًّا، في الواقع.»

«صحف التَّابلويد فائزٌ مفاجئٌ، عَلَى الرَّغم مِنْ ذلك،» قالت ميني. ميني جديدة تمامًا في التَّحوُّل إِلَى مدافعةٍ عَنِ الحيوان: جوَّابة آفاقٍ في السَّابعة عشرة مِنَ العمر، بجدائل شقراء مجعَّدةٍ وحلمتَين مثقوبتَين، اعتبر جوشوا لفترةٍ وجيزةٍ أَنَّها سوف تصبح مهووسةً به. حاول لبعض الوقت، ولكنَّه وجد أَنَّه لَمْ يستطع فقط أَنْ يفعل ذلك؛ فهو لا يستطيع ـ إطلاقًا ـ أَنْ يترك عالمه المُهوَّس الصَّغير بجولي ويخرج بحثًا عَنْ حياةٍ عَلَى كوكبٍ جديدٍ. ورصدَت ميني ذلك مباشرةً، بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، وانجذبَت إِلَى كريسبن. كانت ترتدي أقلَّ ما يمكن أَنْ يسْمح به طقس الشِّتاء وتنتهز كُلَّ فرصةٍ لكَيْ تدفع حلماتها المثقوبة المرحة في حيِّز كريسبن الشَّخصي، كما فعلَت الآن، وهي تحاول الوصول إِلَى كابينة القيادة لكَيْ تريه الصفحة الأولى مِنْ جريدة الفضائح اليوميَّة الَّتِي تحدَّثَت عنها. حاول كريسبن، وفي الوقت نفسه أَنْ يأخذ دوران قوس النَّصر وأَنْ يتجنَّب ضرب مرفقه في حلمة ميني، وأَنْ ينظر إِلَى الجريدة دون جدوى.

«لا أستطيع رؤيتها بشكلٍ صحيح. ما هذا؟»

«إنَّه رأس تشالفين بأذنَي فأرٍ، مُلتصقًا بجذع ماعزٍ، موصولًا بدوره بمؤخِّرة خنزيرٍ. وهو يأكل مِنْ حوضٍ صغيرٍ مكتوبٌ (الهندسة الوراثيَّة) عَلَى أحد جانبيه و(أموالٌ عامَّةٌ) عَلَى الجانب الثَّاني. العنوان: تشالفين يزدرد.»

«لطيفٌ. كُلُّ شيءٍ يفيد حتَّى ولَوْ كان قليلًا.»

دار كريسبن حول الصِّينيَّة مرَّةً أخرى، وأخذ المنحنى الَّذِي أراده هذه المرَّة. تمطَّت ميني نحوه وأسندَت الصَّحيفة إلى لوحة القيادة.

«يا إلهي، إنَّه يبدو أكثر تشالفينيَّةً حقيرةً مِنْ أيِّ وقتٍ مضى!»

شعر جوشوا بندمٍ مريرٍ عَلَى إخبار كريسبن عَنْ هذه الخصوصيَّة البسيطة لعائلته، عادتهم في الإشارة إِلَى أنفسهم كأفعالٍ، وأسماءٍ، وصفاتٍ. بدَت فكرةً حسنةً وقتها؛ أَنْ يمنح الجميع ضحكةً، وتأكيدًا، إذا ما كان هناك أيُّ شكٍّ، في أيِّ جانبٍ هو. لكنَّه لَمْ يشعر قطُّ أنَّه خان والده ـ لَمْ يصدمه ثقل ما فعله حقًّا ـ حتَّى سمع السُّخرية مِنَ التشالفينيَّة تخرج مِنْ فم كريسبن.

«انظر إليه يشلفن حول هذا الحوض. يستغلُّ كُلَّ شيءٍ وكُلَّ شخصٍ، إنَّها طريقة آل تشالفين، هه يا جوش؟»

نخر جوشوا وأدار ظهره لكريسبن، نحو النَّافذة ومشهد الصَّقيع عَلَى متنزَّه الهايد بارك.

«تلك صورةٌ كلاسيكيَّةٌ، هناك، هَلْ ترى؟ تلك الَّتِي استخدموها للرَّأس. أنا أتذكَّرها؛ كان ذلك في اليوم الَّذِي قدَّم فيه الأدلَّة في محاكمة كاليفورنيا. تلك النَّظرة المتعلِّقة بالتَّفوُّق الحقير التَّامّ. تشالفينيسكيَّةٌ جدًّا!»

عضَّ جوشوا لسانه. لا تستجب لاستفزازه. إذا لَمْ تستجب لذلك، ستنال تعاطفها.

«لا تفعل يا كريسب،» قالت جولي بحزمٍ، وهي تلمس شعر جوشوا. «حاوِل فقط أَنْ تتذكَّر ما نحن بصدد القيام به. إنَّه ليس بحاجةٍ إِلَى ذلك اللَّيلة.»

يِنْجو.

«نعم، حسنًا....»

ضغط كريسبن بقدمه عَلَى دوَّاسة البنزين. «ميني، هَلْ تحقَّقتِ أنتِ وبادي مِنْ أَنَّ الجميع لديهم كُلُّ ما يحتاجونه؟ الأقنعة وما إِلَى ذلك؟»

«نعم، تَمَّ تنفيذ كُلِّ شيءٍ. الأمر رائعٌ.»

«حسنٌ.» سحب كريسبن صندوقًا فضيًّا صغيرًا مملوءًا بكُلِّ مستلزمات لفِّ سيجارةٍ وألقاها في اتِّجاه جولي، لترتطم بقصبة ساق جوشوا بشكلٍ مؤلمٍ.

«اعدِّي لنا واحدةً، يا حبيبتي.»

حقيرٌ.

استعادَت جولي الصُّندوق مِنْ عَلَى الأرضيَّة. وانحنَت تعمل، وأوراق اللَّفِّ مستقرَّةٌ عَلَى ركبة جوشوا، وعنقها الطَّويل مكشوفٌ، ونهداها يهبطان أمامها حتَّى كانا عَمَليًّا في يديه.

«هَلْ أنتَ مُتوتِّر؟» سألَته، وهي تحرِّك رأسها للوراء ما أَنْ لفَّت السِّيجارة.

«ما تقصدين، بمتوتِّر؟»

«بخصوص اللَّيلة. أعني، الحديث عَنْ صراع الولاءات.»

«صراع؟» غمغم جوش بغموضٍ، وهو يتمنَّى لَوْ كان هناك في الخارج مع النَّاس السُّعداء، النَّاس المتحرِّرين مِنَ الصِّراع، أهل السَّنة الجديدة.

«يا إلهي، إنَّني معجبةٌ حقًّا بكَ. أعني، إنَّ فيت مكرَّسون للعمل المتطرِّف... وتعرف، حتَّى الآن، أجد أَنَّ بعض الأشياء الَّتِي نقوم بها... صعبةٌ. ونحن نتحدَّث عَنْ أكثر المبادئ الَّتِي أتمسَّك بها عَلَى نحوٍ صارمٍ في حياتي، أتعرف؟ أعني، كريسبن وفيت... تلك حياتي بالكامل.»

أوه عظيمٌ، فكَّر جوشوا، أوه رائعٌ.

«وأنا ما زلتُ مرعوبةً لأقصى حدٍّ بخصوص اللَّيلة.»

أشعلَت جولي السيجارة الملفوفة وسحبَت نفسًا. ومرَّرَتها مباشرةً إِلَى جوشوا، بينما أخذَت الميني باص الجانب الأيمنْ بمحاذاة البرلمان. «الأمر مثل ذلك الاقتباس: (إذا كان عَلَيَّ الاختيار بين خيانة بلدي وخيانة صديقي، فإنَّني أتمنَّى أَنْ أملك الشَّجاعة

لخيانة بلدي)[1]. الاختيار بين واجبٍ أَوْ مبدإٍ، هَلْ تعلم؟ كما ترى، أنا لا أشعرْ بتمزُّقٍ مثل هذا. لا أعرف إِنْ كان بوسعي أَنْ أفعل ما أفعله إِذا فعلتُ. أقصد، إذا كان *أبي*. إِنَّ التزامي الأَوَّل هو للحيوانات وذلك التزام كريسبن الأَوَّل أيضًا، لذا فليس هناك أَيُّ صراعٍ. إِنَّه أمرٌ سهل نوعًا ما بالنِّسبة إلينا. لَكِنْ أنتَ، يا جوشي، *لَقَدْ* قمت بأكثر القرارات تطرُّفًا مِنْ بيننا جميعًا... وأنتَ تبدو فقط هادئًا جدًّا. أعني، إِنَّه أمرٌ مثيرٌ للإعجاب... وأعتقد أَنَّك *أثَّرتَ* في كريسبن فعلًا، لأَنَّه كما تعرف، كان غير واثقٍ نوعًا ما بخصوص ما إذ ....»

واصلَت جولي الحديث، وواصل جوش الإيماء في المناطق الضَّروريَّة، واصطاد المخدِّر التَّايلنديُّ القوي الَّذِي يدخِّنه كلمةً واحدةً منها ـ *هادئًا* ـ وعَقَدَها في شكل سؤالٍ. *لماذا أنتَ هادئٌ جدًّا، يا جوشي؟* أنتَ بصدد الدُّخول في بعض المتاعب الخطيرة جدًّا ـ *لماذا أنتَ هادئٌ جدًّا؟*

لأَنَّه تصوَّر أَنَّه *بدا* هادئًا مِنَ الخارج، هادئًا بشكلٍ غير طبيعيٍّ، يتمتَّع أدريناليته بعلاقةٍ عكسيَّةٍ مع بزوغ العام الجديد، مع الأعصاب المتوتِّرة لقوَّات فيت القليلة، وتأثير هذا البغيض (كريسبن) عَلَى رأس كُلِّ ذلك... الأمر أشبه بالمشي تحت الماء، عميقًا تحت الماء، بينما يلعب الأطفال بالأعلى. ولكنَّه ليس هدوءًا بقدر ما هو قصورٌ ذاتيٌّ. ولَمْ يستطع أَنْ يستنتج، بينما تقدَّمَت الحافلة عَلَى طريق وايت هول، ما إذا كان هذا ردَّ فعلٍ صحيحًا ـ أَنْ يترك العالم يغمره، أَنْ يترك الأحداث تأخذ مجراها ـ أَوْ ما إذا كان ينبغي أَنْ يكون أكثر مثل أولئك النَّاس، أولئك النَّاس هناك في الخارج، الَّذِين يصيحون، ويرقصون، ويتعاركون، ويمارسون الجنس...ما إذا وجب أَنْ يكون أكثر ـــ ما ذلك المتكرِّر الفظيع في أواخر القرن العشرين؟ استباقيَّةً. أكثر *استباقيَّةً* في مواجهة المستقبل.

ولكنَّه أخذ نفسًا عميقًا آخر مِنْ سيجارة المخدِّر وأعاده ذلك إِلَى الثَّانية عشرة، حيث كان في الثَّانية عشرة، طفلًا ناضجًا بشكلٍ مُبكِّرٍ، يستيقظ كُلَّ صباحٍ وهو يترقَّب *اثنتي عشرة ساعةً حتَّى إعلان النِّهاية النَّوويَّة*، ذلك السِّيناريو القديم المفتعل لنهاية العالم. فكَّر كثيرًا في ذلك الوقت في قراراتٍ متطرِّفةٍ، بخصوص المستقبل ومواعيده النِّهائيَّة. وحتَّى في ذلك الوقت فقَدْ صدمه أَنَّه مِنَ المستبعد أَنْ يقضي تلك السَّاعات الاثنتي عشرة الأخيرة يضاجع

1 ـ الاقتباس لـ إي إم فورستر (إدوارد مورجان فورستر): روائي وقاص وكاتب مقالات بريطاني ولد في لندن 1 يناير 1879 وتوفي في 7 يوليو 1970. تُظهر رواياته اهتمامه بالعلاقات الشخصية والعقبات الاجتماعية والنفسية والعرقية الَّتي تقف في طريق مثل هذه العلاقات. (المترجم).

أليس جليسة الأطفال ذات الخمس عشرة سنةً في الجوار، أَوْ يخبر النَّاس أَنَّه يحبُّهم، أَوْ يتحوَّل إِلَى الأرثوذكسيَّة اليهوديَّة، أَوْ يفعل كُلَّ الأشياء الَّتِي يريدها وكُلَّ الأشياء الَّتِي لَمْ يجرؤ قطُّ عَلَى فعلها. بدا الأكثر ترجيحًا دائمًا بالنِّسبة إليه، الأكثر ترجيحًا بكثيرٍ، أَنَّه سوف يعود فقط إِلَى غرفته وينهي في هدوءٍ بناء ليجو قلعةٍ مِنَ العصور الوسطى. ماذا يمكن أَنْ يفعل غير هذا؟ ما الخيارات الأخرى الَّتِي يمكن أَنْ يكون واثقًا بخصوصها؟ الخيارات تتطلَّب وقتًا، المتَّسَع مِنَ الوقت، وكون الوقت هو المحور الأفقيُّ للفضيلة ـ فأنتَ تتَّخذ قرارًا ومِنْ ثَمَّ تنتظر وترى، تنتظر وترى. وهو خيالٌ ممتعٌ، هذا الخيال بانعدام الوقت (الباقي مِنَ الزَّمن اثنتا عشرة ساعةً، الباقي مِنَ الزَّمن اثنتا عشرة ساعةً)، النُّقطة الَّتِي تختفي عندها العواقب وأَيُّ عملٍ مسموحٌ به («أنا مهووسٌ ـــ أنا مهووسٌ لأقصى حدٍّ بالأمر!» جاءَت الصَّيحة مِنَ الشَّارع). ولكنَّ جوش ابن الاثني عشر عامًا كان عصابيًّا جدًّا، نَيِّقًا جدًّا، وأكثر تشالفينيَّةً مِنْ أَنْ يستمتع بذلك، أَوْ يفكِّر حتَّى فيه. وبدلًا مِنْ ذلك فهو هُناك يفكِّر: *ولكنْ ماذا لَوْ لَمْ ينته العالم وماذا لَوْ ضاجعتُ أليس رودويل وأصبحَت حاملًا وماذا لَوْ ـــ*

الأمر نفسه الآن. الخوف مِنَ العواقب دائمًا. هذا الجمود الرَّهيب دائمًا. ما هو بصدد أن يفعل بوالده كبيرٌ جدًّا، *وهائلٌ* جدًّا، لدرجة أَنَّ العواقب لا يمكن تصوُّرها ـــ لَمْ يستطع أَنْ يتصوَّر أَيَّ لحظةٍ تحدث بعد ذلك الفعل. الظَّلام فقط. اللَّاشيء. شيءٌ ما مثل نهاية العالم. ومواجهة نهاية العالم، أَوْ حتَّى نهاية العام، منح جوش شعورًا غريبًا بالانفصال.

كُلُّ ليلة رأس سنةٍ هي نهاية عالمٍ مُصغَّرةٌ. أنتَ تضاجع حيث تريد، وأنتَ تتقيَّأ متى تريد، وأنتَ تلكم مَنْ تريد ـ الحشود الضَّخمة في الشَّارع؛ والحصاد التِّليفزيونيُّ للأشياء الحسنة والسَّيِّئة مِنَ الزَّمن الماضي؛ والقبلات الأخيرة المحمومة: 10! 9! 8!

حدَّق جوشوا غاضبًا عَلَى امتداد وايت هول في النَّاس السُّعداء وهم يقومون ببروفات ملابسهم. يثقون جميعهم مِنْ أَنَّ ذلك لَنْ يحدث أَوْ متأكِّدين مِنْ أنهم سيمكنهم التَّعامل مع الأمر إذا حدث. ولكنَّ العالَم يحدث لكَ، فكَّر جوشوا، ولستَ أنتَ مَنْ يحدث للعالم. لا يوجد شيءٌ يمكن أَنْ تفعله. آمن بذلك حقًّا، لأَوَّل مرَّةٍ في حياته. وآمن ماركوس تشالفين بالعكس تمامًا. وهناك باختصارٍ، انتبه، كيف جئتُ إِلَى هنا، منعطفًا مِنْ وستمنستر، أشاهد بيج بن تقترب مِنَ السَّاعة الَّتِي سأطيح عندها بمنزل والدي. تلك هي الطَّريقة الَّتِي جئنا ـ جميعًا ـ بها إِلَى هنا. بين الصُّخور والأماكن الوعرة. بين المقلاة والنار.

***

الخميس 31 ديسمبر 1992، عشية رأس السنة

إنذار بمشكلات في شارع بيكر

لا قطارات متجهة جنوبًا على خط اليوبيل من شارع بيكر
ينصح العملاء بالتغيير إلى خط المتروبوليتان في طريق فينشلي
أو التغيير في شارع بيكر فوق الأرض إلى بيكرلو
لا توجد خدمة حافلات بديلة
القطار الأخير في الساعة 0200

يتمنى جميع موظفي مترو أنفاق لندن لكم عامًا جديدًا سعيدًا وآمنًا!

مدير محطة ويلزدن جرين، ريتشارد دالي

وقف الإخوة مِلَّة، وهيفان، وتيرون، ومو حسين إسماعيل، وشيڤا، وعبدول كولين، وعبدول جيمي ثابتين مثل أعمدة مايو[1] في قلب المحطَّة، بينما تواصل رقص رأس السَّنة مِنْ حولهم.

«*رائعٌ*،» قال مِلَّة. «الآن ماذا نفعل؟»

«ألا يمكنك أَنْ *تقرأ*؟» تساءل عبدول جيمي.

«نفعل ما تقترحه اللَّوحة، يا إخوتي،» قال عبدول كولين، حاسمًا أيَّ جدل بصوته الجهير العميق الهادئ. «نُبدِّل في طريق فينشلي. بفضل الله.»

كان السَّبب الَّذِي لَمْ يستطع معه مِلَّة أَنْ يقرأ الكتابة عَلَى الحائط بسيطًا. أَنَّه مخدَّرٌ. هذا هو اليوم الثَّاني مِنْ رمضان وكان مُخدَّرًا. كُلُّ ناقلٍ عصبيٍّ[2] في جسمه وقَّع

1 ـ عمود مايو، أوْ سارية مايو، هو عمود خشبي مرتفع يقام كجزء من مختلف المهرجانات الشعبية الأوروبية، ويتجمع الراقصون حوله غالبًا. وقد تقام المهرجانات في عيد العمال، أوْعيد العنصرة (عيد حلول الروح القدس ـ عيد اليوم الخمسين)، على الرغم من أنه يقام في منتصف الصيف في بعض الدول. وينصب العمود في بعض الأحوال كنصب دائم يقام المهرجان حوله، فيما قد يقام خصيصًا لأجل المهرجان في أحوال أخرى. (المترجم).

2 ـ النواقل العصبية هي مواد كيميائية موجودة في منطقة ارتباط خلية عصبية بخلية عصبية أخرى (المشبك) وتنظم هذه المواد الكيميائية الإشارة العصبية القادمة من أوْالمتجهة إِلَى الدماغ. تتكون هذه المواد الكيميائية في منطقة تدعى ما قبل منطقة التشابك وتقوم بإرسال الإيعازات إِلَى ما بعدها. يوجد عادة ما لا يقل عن 10,000 من نواقل الإرسال العصبية في منطقة تشابك اي خليتين عصبيتين وعندما يصل إيعاز معين من الدماغ إِلَى نهاية خلية عصبية يتحفز الآلاف من النواقل لتنقله إِلَى الخلية العصبية المجاورة عبر الاتحاد مع مستقبلات موجودة في الخلية المستقبلة. (المترجم).

بالانصراف لليلةٍ وذهب إِلَى البيت. ولكنَّ هناك عاملًا ما ضميريًّا يدور فِي حلقة مفرغة مِنْ دماغه، يؤكِّد عَلَى فكرةٍ واحدةٍ سرَت فِي جمجمته: *لماذا؟ لماذا تتناول المخدِّر، يا مِلَّة؟ لماذا؟* سؤالٌ جيِّدٌ.

فِي منتصف النَّهار وجد ثُمن أوقيَّةٍ مِنَ الحشيش، لفافةً صغيرةً مِنَ السِّيلوفان لَمْ يطاوعه قلبه عَلَى رميها منذ ستَّة شهورٍ. ودخَّنها بالكامل. دخَّن بعضها عَلَى نافذة غرفة نومه. ثُمَّ مشى إِلَى متنزَّه جلادستون ودخَّن بعضًا آخر. ودخَّن الجزء الأكبر منها فِي موقف سيَّارات مكتبة ويلْزدِن. وأنهاها فِي مطبخ الطَّالب وارن تشابمان، متزلِّج جليدٍ جنوب أفريقيٍّ اعتاد أَنْ يتسكَّع معه منذ فترةٍ طويلةٍ. وكنتيجةٍ لذلك، فهو مُخدَّرٌ جدًّا الآن، يقف عَلَى الرَّصيف مع البقيَّة، مُخدَّرًا جدًّا للدَّرجة الَّتِي لَمْ يستطع معها فقط أَنْ يسمع أصواتٍ فِي داخل أصواتٍ بَلْ أصواتٍ فِي داخل أصواتٍ *فِي داخل* أصواتٍ. يستطيع أَنْ يسمع الفأر ينطلق عَلَى القضبان، خالقًا مستوًى أعلَى مِنَ الإيقاع المتناغم مع خشخشات نظام الصَّوت والرَّائحة الغريبة للمرأة العجوز الَّتِي تبعد عشرين قدمًا. حتَّى عندما انطلق القطار، ظَلَّ يستطيع أَنْ يسمع هذه الأشياء تحت السَّطح. الآن، هناك مستوًى مِنَ الخدَر يمكنك أَنْ تكون عليه، يعرف مِلَّة، عندما تكون مخدَّرًا *جدًّا جدًّا* فعلًا لدرجةٍ تصل عندها إِلَى حالةٍ تشبه صحو الزِّنِّ وتخرج مِنَ الجانب الآخر وأنتَ تشعر أَنَّك فِي ذروةٍ لَمْ تبلغها فِي المرَّة الأولى قطُّ. أوه، كَمْ حنَّ مِلَّة لذلك. كَمْ تمنَّى أَنْ يقطع هذا الشَّوط إِلَى نهايته. ولكنْ فقط لَمْ يكن هناك ما يكفي لهذا الحدِّ.

«هَلْ أنتَ عَلَى ما يرام، يا أخ مِلَّة؟» سأل عبدول كولين باهتمامٍ بينما انزلَقت أبواب المترو مفتوحةً. «يبدو لونك فظيعًا.»

«بخيرٍ، بخيرٍ،» قال مِلَّة، وقدَّم انطباعًا ذا مصداقيَّة عَلَى كونه بخيرٍ لأَنَّ الحشيش ليس مثل الشَّراب؛ أَيًّا كانت درجة سوء الأمر، فإِنَّكَ تستطيع دائمًا، فِي مستوًى ما، أَنْ تستجمع نفسك. ولكَيْ يؤكِّد هذه النَّظريَّة لنفسه، مشى بطريقةٍ بطيئةٍ، ولكنَّها واثقةٌ عَلَى طول العربة وأخذ مقعدًا فِي الطَّرف البعيد مِنْ صفِّ الإخوة، بين شيڤا وأستراليٍّ متحمِّسٍ يتَّجه إِلَى ميدان سباق الخيل.

عَلَى العكس مِنْ عبدول جيمي، كانت لـ شيڤا حصَّته مِنَ الأوقات الجامحة واستطاع أَنْ يرصد العين الحمراء الفاضحة مِنْ عَلَى مسافة خمسين قدمًا.

«مِلَّة، *يا رجل،*» قال مِنْ بين أسنانه، واثقًا مِنْ أَنَّ باقي الإخوة لَنْ يسمعوه مع ضجيج القطار. «ماذا كنتَ *تفعل* بنفسك؟»

نظر مِلّة إِلَى الأمام مباشرةً وتحدَّث إِلَى انعكاسه عَلَى نافذة القطار. «أنا أهيّئ نفسي.»

«بأَنْ تعبث بنفسك؟» هسهس شيڤا. حدَّق في نسخةٍ مُصوَّرةٍ مِنَ السُّورة رقم 52 (الطُّور) الَّتِي لَمْ يحفظها تمامًا. «هَلْ أنتَ مجنونٌ؟ مِنَ الصَّعب بما يكفي أَنْ تتذكَّر هذا الشَّيء بدون أَنْ تكون عَلَى كوكب المرّيخ بينما أنتَ تفعل ذلك.»

تمايل مِلَّة قليلًا، والتفت إِلَى شيڤا في اندفاعٍ سيِّءِ التَّوقيت. «لا أُهيِّئ نفسي *لذلك*. إِنَّنِي أُهيِّئ نفسي *للعمل*. لأَنَّ أحدًا آخر لَنْ يفعلها. ما نكاد نفقد رجلًا واحدًا حتَّى تخونوا القضيَّة جميعكم. أنتم تفرّون. ولكنَّنِي أقف صامدًا.»

سقط شيڤا في الصَّمت. فـ مِلَّة يشير إِلَى «الاعتقال» الحديث للأخ إبراهيم الدِّين شكر الله في تُهمٍ ملفَّقة بالتَّهرُّب الضَّريبيّ والعصيان المدنيّ. لَمْ يأخذ أحدٌ الاتِّهامات بشكلٍ جدِّيٍّ، غير أَنَّ الجميع عرفوا أَنَّه تحذيرٌ ليس لطيفًا جدًّا مِنْ شرطة العاصمة بأَنَّ لديهم عينًا فاحصةً عَلَى أنشطة كيڤن. في ضوء هذا، كان شيڤا أوَّل المتراجعين عَنِ الخطَّة المقررة (أ)، وأُتبع بسرعةٍ بعبدول جيمي وحسين إسماعيل، الَّذِي عَلَى الرَّغم مِنْ رغبته في أَنْ ينتقم بعنفٍ مِنْ شخصٍ ما، أَيِّ شخصٍ، فإِنَّ لديه محلَّه لكَيْ يفكِّر فيه. واحتدم الجدل لمدَّة أسبوعٍ (مع مِلَّة الَّذِي يدافع بشدَّةٍ عَنِ الخطَّة أ) لَكِنْ في السَّادس والعشرين اعتبر كُلٌّ مِنْ عبدول كولين، وتيرون، وأخيرًا هيفان أَنَّ الخطَّة أ قَدْ لا تكون في صالح **كيڤن** عَلَى المدى الطَّويل. لَمْ يستطيعوا، بأَيِّ حالٍ، أَنْ يضعوا أنفسهم قيد الاحتجاز ما لَمْ يثقوا أَنَّ في **كيڤن** قادةً يمكنهم أَنْ يحلُّوا محلَّهم. وعليه تَمَّ إلغاء الخطَّة أ. وارتجال الخطَّة ب عَلَى عجلٍ. وتتعلَّق الخطَّة ب بوقوف مُمثِّلي **كيڤن** في منتصف مؤتمر ماركوس تشالفين الصَّحفيّ والاقتباس مِنَ السُّورة 52، «الطُّور»، بالعربيَّة أوَّلًا (سيقوم عبدول كولين وحده بهذا) ومِنْ ثَمَّ بالإنجليزية. أشعرَت الخطَّة ب مِلَّة بالغثيان.

«وهذا كُلُّ شيءٍ؟ سوف تذهبون فقط لكَيْ *تقرأوا* له؟ تلك هي عقوبته؟»

ماذا حدث للانتقام؟ ماذا حدث لما يستحقُّه تمامًا، للقصاص، للجهاد؟

«هَلْ تفترض،» استفسر عبدول كولين بشكلٍ رسميٍّ، «أَنَّ كلمة الله كما أُعطيَت للنَّبيِّ محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - لا تكفي؟»

حسنًا، لا. وهكذا عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّ الأمر أصابه بالغثيان، فقَدْ وجب عَلَى مِلَّة أَنْ يتنحَّى.

وبدلًا مِنْ أسئلة الشَّرف، والتَّضحية، والواجب، أسئلة الموت والحياة تلك الَّتِي تأتي مع التَّخطيط الحَذِر لحرب العشيرة، السَّبب ذاته الَّذِي جعل مِلَّة ينضمُّ إِلَى كيفْن - بدلًا مِنْ ذلك، جاء *سؤال* التَّرجمة. اتَّفق الجميع عَلَى أَنَّه ليسَت هناك ترجمةٌ للقرآن يمكنها أَنْ تدَّعِي أَنَّها كلام الله، ولكنِ اعترف الجميع في الوقت نفسه بأَنَّ الخطَّة ب سوف تفقد شيئًا ما في توصيلها إذا لَمْ يستطع أحدٌ أَنْ يفهم ما يقال. ولذا كان السُّؤال *أَيَّ* ترجمةٍ *ولماذا*. هَلْ ستكون ترجمةً غير موثوقةٍ ولكنَّها واضحةٌ لأحد المستشرقين: بالمر (1880)[1]، أَوْ بيل (1937 - 39)[2]، أَوْ أربري (1955)[3]، أَوْ داوود (1956)؟ أَمْ غير مترابطةٍ ولكنَّها شعرية لـ ج. م. رودويل (1861)[4]؟ هَلِ النُّسخة القديمة العاطفيَّة المفضَّلة، الَّتِي كُرِّست لتحويل الإنجيليِّين مِنْ قبيل محمد مارمادوك بيكتال (1939)[5]؟

1 - إدوارد هنري بالمر، (1840 - 1882): مستشرق إنجليزي كان من عملاء الاستعمار البريطاني. ولد في أغسطس 1840 في مدينة كامبريدج - إنجلترا -، درس اليونانية واللاتينية، تلقى أصول اللغتين الفارسية والأوردية على يدي «سيد عبد الله» ثم اللغة العربية. في العام 1881 أتم بالمر ترجمة جديدة لـ القرآن طبعت في سلسلة «كلاسيكيات أوكسفورد العالمية». وقد تباينت الآراء حول هذه الترجمة فقد وصفها هاملتون جب «بأنها حرفية وغير مكافئة». (المترجم).

2 - ريتشارد بيل (1876 - 1952) كان مستعربًا بريطانيًا في جامعة أدنبرة. نشر ترجمة للقرآن بين 1937 و1939، وفي عام 1953 نشرت مقدمته للقرآن (تم تعديلها في 1970 من قبل جورج مونتجومري وات). وكان للعملين تأثيرهما في الدراسات القرآنية في الغرب. (المترجم).

3 - آرثر جون آربري (12 مايو 1905 - 2 أكتوبر 1969): مستشرق بريطاني اختصّ في التصوّف والأدب الفارسي. درس العربية على يدي الأستاذ رينولد نيكلسون في العام 1927 ثم ارتحل إِلَى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية، عاد إِلَى مصر؛ ليعمل في كلية الآداب رئيسًا لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان. في أوائل الخمسينيات قام آربري بترجمة جديدة للقرآن فأصدر أولًا ترجمة لمختارات من بعض آيات القرآن مع مقدمة طويلة وصدر ذلك تحت عنوان «القرآن الكريم» وفى العام 1955 نشر الترجمة المفسرة للقرآن تحت عنوان «القرآن مفسرًا»، كما قام بتعريف الغرب على جلال الدين الرومي عبر ترجمة بعض من أعماله، كما أن تفسيراته لمؤلفات محمد إقبال معروفة أيضًا. (المترجم).

4 - جون ميدوس روديل (1808 - 1900): صديق لتشارلز داروين منذ كانا مسجلين في كامبريدج. أصبح رجل دين لكنيسة إنجلترا. ودارس غير مسلم للعالم الإسلامي. شغل منصب رئيس جامعة سان بيتر في لندن ما بين 1836 - 1843. استمر في مراسلة داروين بعد تخرجهما. أصدر ترجمة للقرآن في عام 1861. (المترجم).

5 - محمد مارمادوك بكتال أَوْ مارمادوك بكتال (19 مايو 1875 - 1936) هو بريطاني راحل مختص في الدين الإسلامي، اشتهر بترجمته لمعاني القرآن الكريم إِلَى الإنجليزية والَّتِي كتبها بأسلوب أدبي شعري. كان مارمادوك بكتال روائيًا وصحفيًّا وقياديًّا دينيًّا وسياسيًّا. وقد أعلن تحوله من المسيحية إِلَى الإسلام بشكل دراماتيكي مثير عقب تقديمه لخطاب حول «الإسلام والتقدم» في 29 نوفمبر، 1917. (المترجم).

أَمْ إحدى ترجمات الإخوة العرب، المبتذَلة لشاكر[1] أَوْ المبهرَجة ليوسف علي[2]؟ تجادلوا بخصوص الأمر قبل خمسة أَيَّامٍ عندما دخل مِلَّة إِلَى قاعة كيلبورن كان عليه أَنْ ينعطف فقط لكَيْ يتجاوز دائرة المقاعد الثَّرثارة تلك، هؤلاء الَّذِين يُفترض أَنَّهم أصوليُّون متعصِّبون، لأجل اجتماع تحريرٍ في مجلَّة *لندن لعروض الكتب*.

«لكنَّ داوود ثقيلًا» سيجادل الأخ هيفان بشدَّةٍ. «أُرجعكم إِلَى الآية 52:44 (الطُّور: 44)[3]. *إذا رأوا قطعةً مِنَ السَّماء تسقط، سيظلُّون يقولون*: (إِنَّها ليسَت سوى كتلةٍ مِنَ السُّحب!) كتلةٍ مِنَ السُّحب؟ إِنَّها ليسَت حفلة روك. عَلَى الأقلِّ مع رودويل هناك محاولةٌ ما لاقتناص الشِّعر، الطَّبيعة الرَّائعة للعربيَّة: *ما إِنْ يروا جزءًا مِنَ السَّماء يسقط، حتَّى يقولوا: إِنَّه فقط سحابٌ كثيفٌ*. جزءًا، وكثيفٌ - إِنَّ الأثر أكثر قوَّةً، أَنْشا؟»

ومِنْ ثَمَّ، يقول مو حسين إسماعيل في تردُّدٍ: «أنا لستُ سوى جزَّارٍ - قليل العمل - ومالك محلٍّ في الزَّاوية. لا أستطيع ادِّعاء أَنَّنِي أعرف الكثير عَنْ هذا. لكنَّنِي أحببتُ هذا السَّطر الأخير كثيرًا، إِنَّه رودويل... هه، أظنُّ، نعم، رودويل.52:49 [4]: *وفي أوان اللَّيل: سبِّحه عندما تغيب النُّجوم*. أوان اللَّيل. أعتقد أَنَّها عبارةٌ رائعةٌ. تبدو مثل أغنية لألفيس. أفضل بكثيرٍ مِنَ الأخرى، الخاصة ببيكتال: *وفي وقت اللَّيل أيضًا ترنَّم بتسبيحه، وعند مغيب النُّجوم*. أوان اللَّيل أكثر جمالًا بكثيرٍ.»

«وهَلْ هذا ما نحن هنا لأجله؟» صرخ مِلَّة فيهم جميعًا. «هَلْ هذا ما انضممنا إِلَى كيفْن مِنْ أجله؟ أَلَّا نتَّخذ أَيَّ فعلٍ؟ أَنْ نجلس مُتجمِّعين عَلَى مؤخِّراتنا نلعب بالكلمات؟»

لكنْ تَمَّ اعتماد الخطَّة ب، وها هم هُنا، يقطعون طريق فينشلي، مُتَّجهين إِلَى ميدان ترافالجار لكَيْ ينفِّذوها. ولهذا كان مِلَّة مُخدَّرًا. لكَيْ يمنح نفسه ما يكفي مِنَ الشَّجاعة لكَيْ يفعل شيئًا آخر.

---

1 - محمد حبيب شاكر (1866 - 1939) كان قاضيًا مصريًا ولد في القاهرة وتخرج في جامعة الأزهر. هناك جدل حول ترجمة منسوبة إليه للقرآن بعنوان «القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم»، مع وجود آراء منسوبة إليه لا ترى بجواز ترجمة القرآن. (المترجم).

2 - عبد الله يوسف علي، (14 أبريل 1872 - 10 ديسمبر 1953) عالم هندي مسلم، ترجم القرآن الكريم للغة الإنجليزية. تعد ترجمته للقرآن الكريم الأكثر شهرةً واستخدامًا في الدول الناطقة بالإنجليزية. جاء في مقدمة طبعة لاهور من ترجمته: «ينبغي لهذا الكتاب أن يعكس الإيقاع، الموسيقى ونبرته تعإلَى من النسخة الأصلية العربية إِلَى النسخة الإنجليزية. قد يكون الانعكاس خافتًا، لكن سيكون أقصى ما أستطاع قلمي تقديمه من جمال وقوة. أريد أن تكون الإنجليزية نفسها لغة إسلامية، قد يستحيل عليَّ فعل هذا ولكن ما أستطيع تقديمه لك الآن هو كافة ما قد يساعدك على استيعاب القرآن الكريم». (المترجم).

3 - (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ). (الطور - 44). (المترجم).

4 - وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ. (الطور: 49).

«إنَّنِي ثابتٌ عَلَى موقفي،» قال مِلَّة، في أذن شيفا، وهو يدغم كلماته. «ذلك ما نحن هُنا مِنْ أجله. أَنْ نثبت عَلَى مواقفنا. لذلك انضممتُ أنا. لماذا انضممتَ أنتَ؟»

حسنًا، في الحقيقة فقَدِ انضمَّ شيفا إِلَى **كيفْن** لثلاثة أسبابٍ. الأوَّل؛ لأَنَّه انزعج مِنَ الوضع الَّذِي نجم عن كونه الهندوسيَّ الوحيد في مطعمٍ بنجاليٍّ مسلمٍ. الثَّاني؛ لأَنَّ كونه رئيس الأمن الدَّاخلي لـ **كيفْن** أفضلَ بكثيرٍ مِنْ أَنْ يكون النَّادل الثَّاني في القصر. والثَّالث، لأجل النِّساء. (ليس نساء **كيفْن**، اللَّائي كُنَّ جميلاتٍ ولكنْ عفيفاتٍ إِلَى أقصى حدٍّ، ولكنْ جميع النِّساء في الخارج اللائي يئسن مِنْ طرقه الجامحة وكُنَّ معجباتٍ - الآن - بشكلٍ هائلٍ بزهده الجديد. لقَدْ أحببن اللِّحية، وأُعجبن بالقبَّعة، وأخبرن شيفا أَنَّه توقَّف أخيرًا في الثَّامنة والثَّلاثين عَنْ أَنْ يكون طفلًا. لقَدِ انجذبن بشكلٍ هائلٍ إِلَى حقيقة أَنَّه تخلَّى عَنِ النِّساء وكُلَّما ازداد تخلِّيه عنهنَّ، كُلَّما أصبح أكثر نجاحًا. بالطَّبع لا يمكن لهذه المعادلة أَنْ تعمل لفترةٍ طويلةٍ جدًّا، والآن يحصل شيفا عَلَى نساءٍ أكثر بكثيرٍ مما كان يناله قطُّ ككافرٍ). عَلَى أَيَّة حالٍ، فقَدْ شعر شيفا أَنَّ الحقيقة لَمْ تكنْ ما هو مطلوبٌ هُنا، لذا قال: «لكَيْ أقوم بواجبي.»

«إذنْ نحن عَلَى نفس الموجة، يا أخ شيفا،» قال مِلَّة، في طريقه لأَنْ يربِّت عَلَى ركبة شيفا غير أَنَّه أخطأها بالكاد. «السُّؤال الوحيد هو: هَلْ ستفعل؟»

«عفوًا، يا زميلي،» قال شيفا، وهو يزيح ذراع مِلَّة عَنْ حيث سقطَت بين ساقيه. «لكنَّنِي أفكِّر، بالنَّظر إِلَى... امم... وضعكَ الحاليِّ... فالسُّؤال هو، هَلْ ستفعل *أنتَ*؟»

الآن هناك سؤال. كان مِلَّة نصف واثقٍ مِنْ أَنَّه مِنَ المحتمل رُبَّما سوف يفعل شيئًا ما أَوْ أَنَّ ما سيفعله سيكون صحيحًا وسخيفًا ولائقًا وغير مناسبٍ.

«يا مِلّ، لدينا خطَّةٌ بديلةٌ،» واصل شيفا، وهو يرى سحبًا مِنَ الشَّكِّ تعبر وجه مِلَّة. «دعنا فقط نعتمد الخطَّة ب، نعم؟ لا فائدة مِنَ التَّسبُّب في مشكلةٍ. أنتَ مثل أبيكَ تمامًا. إقبال كلاسيكيٌّ. لا يمكنكَ أَنْ تترك الأشياء تمضي. لا يمكنكَ أَنْ تترك القطط النَّائمة تموت أَوْ أَيًّا كانت العبارة اللَّعينة[1].»

التفتَ مِلَّة عَنْ شيفا ونظرَ إِلَى قدمَيه. لقَدْ كان واثقًا بشكلٍ أكبر عندما بدأ، تخيَّل الرِّحلة كوَثبةٍ واحدةٍ واثقةٍ وباردةٍ عَلَى خطِّ اليوبيل: ويلْزدن جرين - تشيرنج كروس، بدون تغييرٍ للقطارات، لا هذه الرِّحلة المرتبكة جدًّا؛ خطًّا مُباشِرًا فقط إِلَى ترافالجار، ومِنْ ثَمَّ يتسلَّق السُّلَّم إِلَى الميدان ويواجه عدو جدِّه الكبير الأوَّل، هنري هافلوك فجأةً عَلَى

1 - العبارة المقصودة هي: دع الكلب النائم يموت، ويقصد لا تحاول تغيير الوضع فتسبب وقوع مشكلات كثيرة. (المترجم).

عارضةٍ حجريَّةٍ لوَّثها الحمام بفضلاته. سوف يمنحه هذا الجرأة؛ وسيدخل معهد بيريه مع الانتقام والإصلاحيَّة[1] في عقله والمجد الضَّائع في قلبه، وسوف، وسوف، وسوف

«أظنُّ،» قال مِلَّة بعد وقفةٍ: «أنَّني سأتقيَّأ.»

«شارع بيكرا!» صاح عبدول جيمي. وبمساعدةٍ خفيَّةٍ مِنْ شيڤا، عبر مِلَّة الرَّصيف إلَى قطار الرَّبط.

وبعد عشرين دقيقةً أوصلهم خط بيكرلو إلَى ساحة ترافالجار المجلَّدة الباردة. عَلَى الطَّرف بيج بن. وفي السَّاحة، نيلسون. وهاڤلوك. ونابير[2]. وجورج الخامس. ثُمَّ المتحف الوطنيُّ، هناك في الخلف قريبًا مِنْ كنيسة سانت مارتن. كُلُّ التماثيل الَّتِي تواجه السَّاعة.

«إنَّهم يحبُّون رموزهم الكاذبة فعلًا في هذا البلد،» قال عبدول كولين، بمزيجه الغريب مِنَ الوقار والسُّخرية، غير متأثِّرٍ بالحشد المعتبر للعام الجديد، الَّذِين يبصقون في الوقت الحاضر على، ويرقصون حول، ويزحفون فوق الكتل الكثيرة مِنَ الحجر الرَّماديِّ. «الآن هَلْ يمكن لأحدٍ ما رجاءً أَنْ يخبرني: ما هذا الأمر المتعلِّق بالإنجليز الَّذِي يجعلهم يبنون تماثيلهم بظهورها لثقافتهم وأعينها عَلَى الوقت؟» توقَّف لبرهةٍ لكَيْ يمنح إخوة كيڤن المرتجفين فرصةً للتَّفكير في السُّؤال البلاغيِّ.

«لأنَّهم ينظرون إلَى مستقبلهم كَيْ ينسوا ماضيهم. أحيانًا تكاد تشعر بالأسف لأجلهم، هَلْ تعلم؟» واصل، وهو يدور دورةً كاملةً لكَيْ ينظر حوله عَلَى الحشد المخمور.

«ليس لديهم أيُّ إيمانٍ، الإنجليز. إنَّهم يؤمنون بما يصنعه الرِّجال، لكن ما يصنعه الرِّجال ينهار. انظروا إلَى إمبراطوريَّتهم. إنَّها كُلُّ ما يملكونه. شارع تشارلز الثَّاني ومنزل جنوب أفريقيا والكثير مِنَ الرِّجال الحجريِّين الَّذِين يبدون حمقى عَلَى أحصنةٍ حجريَّةٍ. تشرق الشَّمس عليها وتغرب في اثنتي عشرة ساعةً، لا مشكلة. هذا هو ما تبقَّى.»

---

1 ـ الإصلاحية أو النظرية التعديلية: هي افتراض أن التغييرات التدريجية خلال وداخل المؤسسات القائمة يمكنها أن تغير هياكل النظام الاقتصادي والبنى السياسية للمجتمع. تنامت هذه الفرضية للتغيير الاجتماعي من معارضة الاشتراكية الثورية الَّتي تدعي أن الثورة ضرورية لتحقيق تغييرات هيكلية جوهرية. (المترجم).

2 ـ جون نابيرولد في مآرشيستون قُرب العاصمة الأسكتلندية أدنبرة سنة 1550 وتوفي في 14 أبريل سنة 1617، لاهوتي، وفيزيائي، وفلكي ورياضي أسكتلندي، ينحدر من عائلة غنية وكان أيضًا بارون مآرشيستون. أنشأ عدة صيغ في علم المثلثات الكروية، وكان الهدف منها تبسيط الحسابات الفلكية، كما ألف أول جدول للوغاريتمات سمي بجدول نابير الذي استخدم لتسهيل العمليات الحسابية كالضرب والقسمة. (المترجم).

«أنا بردان بشكلٍ فظيعٍ،» تشكّى عبدول جيمي، وهو يصفّق بيديه في داخل القفّازين معًا (يجد خطابات عمّه مزعجةً جدًّا). «دعونا نذهب،» قال، بينما اصطدم به رجلٌ إنجليزيٌّ ذو بطنٍ ضخمٍ مِنَ البيرة، مُبلَّلٌ مِنَ النَّوافير، «بعيدًا عَنْ هذا الجنون الهائل. إنَّه في شارع شاندوس.»

«يا أخي؟» قال عبدول كولين لِمِلَّة، الَّذِي وقف عَلَى مسافةٍ مِنْ بقيَّة المجموعة. «هَلْ أنتَ مستعدٌّ؟»

«سوف ألحق بكم خلال دقيقةٍ.» هشَّهم بعيدًا في ضعفٍ. «لا تقلقوا، سأكون هناك.»

هناك شيئان أراد أَنْ يراهما أوّلا. الأَوَّل منهما مقعدٌ خشبيٌّ بعينه، ذلك المقعد هناك، بالقُرب مِنَ الجِدارِ البعيدِ. مشى نحوه، في رحلةٍ طويلةٍ ومتعثّرةٍ، وهو يحاول أَنْ يتجنَّب صفَّ راقصي الكونجا الجامحين (أدّى الكثير مِنَ الحشيش في رأسه؛ إِلَى تثاقلٍ في كُلِّ خطوةٍ)؛ ولكنَّه نجح في الوصول. جلس. وهناك كانت.

إقبال

حروفٌ بحجم خمس بوصاتٍ، بين أحد ساقي المقعد والآخر. إقبال. لَمْ تكن واضحةً، وشحب لونها مِنَ الصَّدأ، ولكنها هناك. وقصَّتها قديمةٌ.

بعد بضعة أشهرٍ مِنْ وصول والده إِلَى إنجلترا، جلس عَلَى هذا المقعد لعلاج إبهامٍ نازفٍ، قُطِع طرفه بضربةٍ خرقاء غير منتبهةٍ مِنْ نادلٍ مُسنٍّ. عندما حدث ذلك في البداية، في المطعم، لَمْ يشعر صمد به لأَنَّه كان في يده الميّتة. لذا فقَدْ لفَّها في منديلٍ لكَيْ يوقف النَّزيف وواصل العمل. غير أَنَّ المواد غرقت في الدَّم، ما جعل الزَّبائن يعزفون عَنْ طعامهم وفي النّهاية صرفه أردشير إِلَى المنزل. أخذ صمد إبهامه إِلَى خارج المطعم، بعيدًا عَنْ أرض المسرح، وإِلَى طريق سانت مارتن. عندما وصل إِلَى السَّاحة ألصقه بالنَّافورة وشاهد الأحمر في داخله يتدفَّق خارجًا إِلَى المياه الزَّرقاء. ولكنَّه تسبَّب في فوضًى وكان النَّاس ينظرون. قرَّر أَنْ يجلس عَلَى المقعد الخشبيّ بدلًا مِنْ ذلك، وهو يقبض عَلَى إبهامه مِنْ جذره حتَّى يوقف النَّزيف. ولكنْ ظلَّ الدَّم يخرج. بعد فترةٍ، تخلَّى عَنِ القبض عَلَى إبهامه بشكلٍ قائمٍ وتركه معلَّقًا نحو الأرض مثل اللَّحم الحلال، عَلَى

أملٍ أَنْ يسرِّع ذلك مِنْ عمليَّة النَّزف. ثُمَّ، بيده بين ساقيه، وإبهامه ينزف عَلَى الرَّصيف، داهمه دافعٌ بدائيٌّ. ببطءٍ، وبالدَّم الَّذِي يقطر، كتب *إقبال* مِنْ إحدى ساقي المقعد الخشبيِّ حتَّى الثانية. ثُمَّ، في محاولةٍ لجعلها أكثر ديمومةً، مَرَّ عليها مرَّةً أخرى بمطواةٍ، خدش بها الحجر.

«غمرَني خزيٌ عظيمٌ في اللَّحظة الَّتِي انتهيتُ فيها،» أوضح لابنيه بعد أعوامٍ. «هربتُ منه إِلَى اللَّيل؛ كنتُ أحاول الهرب مِنْ نفسي. أعرف أَنَّنِي مكتئبٌ في هذا البلد... ولكنْ هذا مختلفٌ. انتهى بي الأمر متشبِّثًا بسور سيرك البيكاديللي، راكعًا عَلَى ركبتيَّ وأدعو، أنتحب وأدعو، مقاطِعًا الموسيقيِّين المتجوِّلين. لأَنَّنِي عرفتُ ما يعنيه الأمر، هذا الفعل. يعني أَنَّنِي أردتُ *أَنْ أكتب اسمي عَلَى هذا العالم*. يعني أَنَّنِي *تجرَّأتُ*. مثل الإنجليز الَّذِين أطلقوا أسماءهم عَلَى الشَّوارع في كيرلا بعد زوجاتهم، ومثل الأمريكان الَّذِين غرسوا رايتهم عَلَى القمر. كان هذا تحذيرًا مِنَ الله. يقول: يا إقبال، أنتَ *تصبح مثلهم*. هذا ما عناه ذلك.»

لا، فكَّر مِلَّة، في المرَّة الأولى الَّتِي سمع فيها هذا، لا، ليس هذا ما يعنيه الأمر. إنَّه يعني مجرَّد *أنَّك لا شيء*. وبينما ينظر إليه الآن، لَمْ يشعر مِلَّة بشيءٍ سوى الاحتقار. أراد طول حياته أبًا روحيًّا، وكُلَّ ما ناله كان صمد. نادلًا خاطئًا ومحطَّمًا وغبيًّا بيدٍ واحدةٍ، رجلًا قضى ثمانية عشر عامًا في أرضٍ غريبةٍ ولم يصنع علامةً أكثر مِنْ هذه. *إِنَّه يعني مجرَّد أنَّك لا شيء*، كرَّر مِلَّة، وهو يتقدَّم في طريقه عبر القيء المبكِّر (تشرب الفتيات كؤوسًا مُضاعَفةً منذ الثَّالثة عصرًا) نحو هافلوك؛ لكَيْ ينظر إِلَى هافلوك في عينه الحجريَّة. *إِنَّه يعني أنَّك لا شيء وأنَّه شيءٌ ما*. وهذا كُلّ ما في الأمر. لذلك السَّبب تدلَّى باندي عن شجرةٍ بينما جلس هافلوك الجلَّاد عَلَى أريكةٍ طويلةٍ في دلهي. كان باندي لا أحد وكان هافلوك أحدًا ما. لا حاجة لكُتب المكتبة والمناقشات وإعادة البناء. *ألستَ ترى، يا أبًا؟* همس مِلَّة. *هذا كُلُّ ما في الأمر. هذا هو التَّاريخ الطَّويل الطَّويل لنا ولهم. ذلك ما عليه الأمر. ولكنْ ليس بعد الآن.*

لأن مِلَّة هنا لكَيْ ينهي المسألة. لكَيْ ينتقم مِنْ ذلك. لكَيْ يغيِّر ذلك التَّاريخ. يجبُ أَنْ يفكِّر في أَنَّ لديه موقفًا مختلفًا، موقفًا يخصُّ جيلًا ثانيًا. إذا كان ماركوس تشالفين في طريقه لكتابة اسمه في جميع أنحاء العالم، فمِلَّة في طريقه لكتابة اسمه بشكلٍ أكبر. لَنْ يكون هناك خطأٌ في تهجِّي اسمه في كتب التَّاريخ. ولَنْ تُنسى التَّواريخ والمواعيد. حيث زلقَت قدم باندي سوف يقف هو واثقًا. وحيث اختار باندي أ، فإِنَّ مِلَّة سوف يختار ب.

نعم، كان مِلَّة مُخدَّرًا. وقَدْ يكون سخيفًا بالنِّسبة إلينا أَنَّ واحدًا مِنْ آل إقبال يمكن أَنْ يصدِّق أَنَّ فتات الخبز الَّذِي وضعه إقبال آخر، قبله بأجيالٍ، لَمْ يتطاير مع النَّسيم بعد. ولكنْ ليس مُهمًّا ما نعتقده فعلًا. فمِنَ الواضح أَنَّه لَنْ يوقف الرَّجل الَّذِي يظنُّ أَنَّ هذه الحياة تقودها حياةٌ أخرى يعتقد أَنَّه عاشها مِنْ قبل، ولا الغجريَّة الَّتِي تقسم عَلَى المِلكات في أوراق تاروتها المقلوبة. ومِنَ الصَّعب تغيير رأي امرأةٍ شديدة التَّوتُّر تضع مسئوليَّات جميع أفعالها عند قدمي والدتها، أَوِ الرَّجل الوحيد الَّذِي يجلس في كرسيِّه القابل للطَّيِّ عَلَى تلَّةٍ في قلب اللَّيل ينتظر الرِّجال الصِّغار الخضر. محاطًا بالمناظر الطبيعية الَّتِي حلَّت مكان إيماننا بالنُّجوم، ليس مِلَّة أرضًا غريبةً. إنَّه يعتقد أَنَّ القرارات الَّتِي اتُّخذَت، تعود. إنَّه يؤمِنْ بأَنَّنا نعيش في دوائر. ودائرته بسيطةٌ، قدريَّةٌ أنيقةٌ. كما تزرع تحصد.

«دينج، دينج،» قال مِلَّة بصوتٍ مُرتفعٍ، وهو ينقِّر عَلَى قدم هاڤلوك، قبل أَنْ يستدير عَلَى عقبيه لكَيْ يقطع طريقه الضَّبابيَّة نحو شارع شاندوس. «الجولة الثَّانية.»

***

31 ديسمبر 1992

وَالَّذِي يَزِيدُ عِلْمًا يَزِيدُ حُزْنًا

سفر الجامعة، الإصحاح الأول، آية 18

عندما طُلب مِنْ ريان توبس أَنْ يجمع حكمة *اليوم* مِنْ أجل تقويم مكتب قاعة المملكة في لامبيث لـ 1992، اعتنى بتجنُّب أخطاء سابقيه بشكلٍ خاصٍّ. ففي أحيانٍ كثيرةٍ في الماضي، كما لاحظ ريَّان، عندما يصل القائم بالتَّجميع إِلَى اختيار اقتباساتٍ للأَيَّام العلمانيَّة الحمقاء تمامًا، فإنَّه يترك المشاعر تخرج أفضل ما لديه، ولذا ففي يوم القالانتين في 1991 نجد *لاَ خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ*، يوحنا 4:18، كما لَوْ أَنَّ يوحنا كان يفكِّر في مشاعر تافهةٍ تطالب النَّاس بإرسال الشيكولاتة ودمى الدِّببة الرَّخيصة للآخرين، بدلًا مِنْ محبَّة يسوع المسيح الَّتِي لا يدانيها شيءٌ. أخذ ريان التَّوجُّه المعاكس تمامًا. في يومٍ مثل ليلة رأس السَّنة - عَلَى سبيل المثال - عندما تسابق الجميع في اتِّخاذ قراراتهم للعام الجديد، وهم يقيِّمون عامهم الماضي، ويخطِّطون لنجاحهم في القادم، شعر هو بأَنَّه مِنَ الضَّروريِّ إعادتهم

إلَى الأرض بصدمةٍ. أراد أَنْ يقدِّم تذكيرًا صغيرًا بأَنَّ العالم قاسٍ وبلا جدوًى: أَنَّ جميع مساعي الإنسان في نهاية المطاف بلا طائلٍ، وأَنَّه لا يوجد تقدُّمٌ في هذا العالم يستحقُّ القيام به إلَى جوار اكتساب رضا الرَّبِّ وتذكرة دخولٍ إلَى النِّصف الأفضل في الآخرة. ومع انتهائه مِنْ تقويم العام الماضي، ونسيانه لما قام به، فقد فوجئ بسعادةٍ ـ عندما نزع ورقة الثَّلاثين ونظر إلَى الورقةِ البيضاءِ النَّقيَّةِ للحادي والثَّلاثين ـ كَمْ كان التَّذكير فعَّالًا تمامًا. لا توجد فكرةٌ يمكن أَنْ تكون أكثر ملاءمةً لليوم القادم. لا تحذير أكثر مناسبةً. نزَعَها مِنَ التَّقويم، وحشرها في جلد سرواله الضَّيِّق، وأخبر السَّيِّدة ب أَنْ تركب في العربة الجانبيَّة.

«*هذا الَّذِي سيكون شجاعًا في مواجهة كُلِّ الكوارث!*» ترنَّمَت السَّيِّدة ب بينما اندفعا عَلَى جسر لامبيث، متَّجهَين نحو ساحة ترافالجار. «دعوه *يتبع السَّيِّد في ثباتٍ!*[1]»

حرص ريان عَلَى الإشارة قبل وقتٍ كافٍ مِنَ الاتِّجاه إلَى اليسار حتَّى لا ترتبك سيِّدات المملكة في الميني باص في الخلف. قام بجَرْدٍ عقليٍّ سريعٍ للأشياء الَّتِي وضعها في الحافلة الصَّغيرة: كتب ترانيم، وأجهزةٌ، ولافتاتٍ، ومنشورات برج *المراقبة*. كُلُّها حاضرةٌ وصحيحةٌ. لَمْ تكنْ لديهم تذاكر فعليَّةٌ، ولكنَّهم سيقومون باحتجاجهم في الخارج، في البرد، يعانون مثل المسيحيِّين الحقيقيِّين. الحمد للرَّبِّ! يا له مِنْ يومٍ مجيدٍ! كُلُّ البشائر حسنةٌ. حتَّى أَنَّه رأى في حلمٍ في اللَّيلة الماضية أَنَّ ماركوس تشالفين هو الشَّيطان نفسه، وأَنَّهما وقفا متواجهَين أنفًا لأنفٍ. قال ريان: *أنا وأنتَ في حربٍ. ولا يمكن أَنْ يكون سوى فائزٍ واحدٍ*. ثم اقتبس جزءًا مِنَ الكتاب المقدَّس في وجهه (لَمْ يستطع أَنْ يستعيد بالضَّبط ما كان الآن، ولكنَّه شيءٌ مَا مِنْ سفر الرُّؤيا) مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ومرَّاتٍ مِنْ جديدٍ، حتَّى أصبح الشيطان/ماركوس أصغر وأصغر، بأذنَين كبيرتَين وذيلٍ متقلِّبٍ طويلٍ، وهُرع بعيدًا في النِّهاية، كفأرٍ شيطانيٍّ صغيرٍ. مثلما في تلك الرُّؤيا، سوف يحدث في الحياة. سوف يظلُّ ريان صامدًا، لا يتزعزع، ثابتًا تمامًا، وفي النِّهاية، فإِنَّ العاصي سوف يتوب.

تلك هي الكيفيَّة الَّتِي قارب ريان بها جميع الصِّراعات اللَّاهوتِّية والعمليَّة والشَّخصيَّة. لَمْ يتزعزع، ولا بوصة. لَكِنْ أيضًا، فتلك موهبته دائمًا، لديه إدراكٌ أُحاديٌّ، وقدرةٌ عَلَى التَّمسُّك بفكرةٍ واحدةٍ في مثابرةٍ هائلةٍ، لَمْ يجد ما يناسبها مطلقًا أكثر مِنْ كنيسة شهود يَهْوَه. ريان يفكِّر بالأبيضِ والأسودِ. ومشكلته مع شغفه السَّابق

---

1 ـ ترنيمة بعنوان «تقدم الحاج» لجون بانيان، كاتب في المسيحية وواعظ بريطاني. (المترجم).

- قيادة الڤيسبا وموسيقى البوب - أنَّ هناك دائمًا ظلالًا مِنَ الرّماديّ (عَلَى الرَّغم مِنْ أنَّه رُبَّما كان أقرب اثنين في الحياة العلمانيَّة لواعظٍ مِنَ الشُّهود هما ذلك الفتى الَّذِي يرسل خطاباتٍ إلَى مجلَّة *التَّعبير الموسيقيّ الجديد*[1]، وأولئك المتحمِّسون الَّذِين يكتبون مقالات لمجلَّة *الدَّرَّاجات البخاريَّة اليوم*). هناك - دائمًا - تلك الأسئلة الصَّعبة بخصوص ما إذا وجب عَلَى المرء أَنْ يمزج تقديره لـ «كنكس» مع القليل مِنْ الـ «وُجُوه صغيرة»، أَوْ ما إذا كانت إيطاليا أَمْ ألمانيا أفضل الصَّانعين لقطع غيار المحرّكات. بدَت تلك الحياة غريبةً جدًّا بالنِّسبة إليه الآن ولا يكاد يتذكَّر أنَّه عاشها. ويشفق عَلَى هؤلاء الَّذِين يعانون تحت وطأة تلك الشُّكوك والمعضلات. أشفَق عَلَى البرلمان بينما أسرع هو والسَّيِّدة ب عَلَى الدَّرَّاجة البخارية بجواره؛ أشفَق عليه لأنَّ القوانين في داخله مؤقَّتةٌ بينما قوانينه أبديَّةٌ...

«*لا تُوجد عقبةٌ تُثنيه لمرَّةٍ، فنيَّته المعلنة الأولى أَنْ يكون حاجًّا!*» ردَّدَت السَّيِّدة ب. «*هؤلاء الَّذِين يزعجونه بالقصص الكئيبة... لا يربكون سوى أنفسهم - وهو يزداد قوَّةً...*»[2].

لقَدِ استمتَع بالأمر. استمتَع بالوقوف في مواجهةٍ مع الشَّيطان وأَنْ يقول: «أنتَ نفسكَ: تثبت ذلك لي. استمرَّ، *إثبته*.» لَمْ يشعر أنَّه يحتاج إلَى أيَّة حججٍ مثل المسلمين أَوِ اليهود. لا براهين معقَّدةً ولا دفاعاتٍ. فقط إيمانه. ولا شيء عقلانيًّا يمكنه أَنْ يحارب الإيمان. لَوْ أَنَّ حرب *النُّجوم* - فيلم ريان السِّرِّيَّ المفضَّل - الطَّيِّب! الشِّرِّير! القويّ! *البسيط* جدًّا! *الحقيقيّ* جدًّا - هو مجموع كُلِّ الأساطير القديمة وأكثر الرُّموز نقاءً في الحياة فعلًا (كما اعتقد ريان)، فإنَّ الإيمان، إيمان الأنقياء والجهلة هو أكبر سيفٍ هائلٍ للضَّوء في الكون. *هيَّا، إثبت ذلك*. لقَدْ فعل ذلك كُلَّ يوم أحدٍ عَلَى عتبات الأبواب وسوف يفعل الشَّيء نفسه بالضَّبط لماركوس تشالفين. *إثبت لي أنَّكَ عَلَى حقّ. إثبت لي أنَّكَ أكثر صوابًا مِنَ الرَّبّ*. لا شيء عَلَى الأرض سوف يفعل ذلك. لأنَّ ريان لا يؤمن ولا يهتمُّ بأيِّ شيءٍ آخر عَلَى الأرض.

.«هَلْ وصلنا تقريبًا؟»

ضغط ريان يد السَّيِّدة ب الواهنة وزاد السُّرعة عبر شارع ستراند، ثُمَّ شقَّ طريقه مِنْ وراء المتحف الوطنيّ.

---

1 - التعبير الموسيقي الجديد: إصدار صحفي موسيقي بريطاني أسسه تيودور إنجهام، بدأ صدوره منذ مارس 1952. وهو مرتبط بشكل موسع بموسيقى الروك والروك البديل والموسيقى المستقلة. بدأ صدوره كجريدة موسيقية، ومن ثم تحولت إلَى مجلة خلال الثمانينيات والتسعينيات. (المترجم).

2 - ترنيمة «تقدم الحاج». (المترجم).

«لا أعداء سيكبحون قوّته، علَى الرَّغم مِنْ أنَّه يصارع العمالقة، سوف ينجح في بلوغ حقِّه في أَنْ يصبح حاجًّا!»

أحسنتِ القول، يا سيِّدة ب! الحقُّ في أَنْ تكون حاجًّا! الَّذِين لا يتجرَّؤون ومع ذلك يرثون الأرض! الحقُّ في أَنْ تكون عَلَى حقٍّ؛ لأَنْ تعلِّم الآخرين، لأَنْ تكون في الأوقات تمامًا لأَنَّ الرَّبَّ فرض أَنْ تكون، الحقُّ في أَنْ تذهب إِلَى أراضٍ غريبةٍ وأماكن غريبةٍ وتتحدَّث إِلَى الجاهل، واثقًا مِنْ أَنَّك لا تتكلَّم بشيءٍ سوى الحقيقة. الحقُّ في أَنْ تكون *دائمًا علَى* حقٍّ. أفضل بكثيرٍ مِنَ الحقوق الَّتِي تمسَّك بها ذات يومٍ: الحقّ في الحرِّيَّة، حرِّيَّة التَّعبير، والحرِّيَّة الجنسيَّة، والحقِّ في تدخين الماريجوانا، والحقّ في الاحتفال، والحقّ في قيادة درَّاجةٍ بخاريَّةٍ بسرعة خمسةٍ وستِّين ميلًا في السَّاعة عَلَى الطَّريق الرَّئيسة بدون خوذةٍ. ما يمكن لريان أَنْ يطالب به أكثر بكثيرٍ مِنْ كُلِّ ذلك. لقَدْ كان يمارس حقًّا نادرًا جدًّا، في الفترة الأخيرة مِنَ القرن، كالحقِّ في أَنْ تكون قديمًا عَلَى وجه التَّحديد. الحقِّ الأساسيِّ للجميع. الحقّ في أَنْ تكون شخصًا طيِّبًا.

***

في: 31/12/1992
أتوبيسات نقل لندن
الطريق 98
من: ويلزدن لين
إلى: ساحة ترافالجار
الوقت: 17:35
الأجرة: للأفراد الكبار 0.70
احتفظ بالتذكرة للفحص

مُدهشٌ (فكَّر آرشي) *لَمْ يعودوا يصنعونها كما كانت. لا يعني ذلك أَنَّهم يصنعونها بشكلٍ أسوأ.* إنَّهم ـــ فقط ـ يصنعونها بشكلٍ مختلفٍ جدًّا جدًّا. بالكثير مِنَ المعلومات. في الدَّقيقة الَّتِي تنزع فيها واحدةً عَنِ الجزء المثقَّب تشعر بأَنَّك مُحاصَرٌ ومُحتَجزٌ مِنْ قِبَل بعض خبراء التَّصنيف الَّذِين يرون كُلَّ شيءٍ، تشعر أَنَّك تجمَّدتَ في إطارٍ مع الوقت، تشعر أَنَّه *تَمَّ القبض عليكَ.* لَمْ يكن الأمر هكذا، تذكَّر آرشي. منذ أعوامٍ طويلةٍ كان لديه ابن عمٍّ، بيل، الَّذِي يعمل عَلَى خطِّ 32 القديم عبر طريق أوكسفورد. كان مِنْ نوعٍ طيِّبٍ،

بيل. ابتسامةٌ وكلماتٍ لطيفةٍ للجميع. تعوَّد أَنْ يقطع التَّذكرة مِنْ واحدةٍ مِنْ تلك الأشياء ذات المقبض الكبير الَّتِي تُحدث صوتًا (وأين ذهبَت؟ أين لَطْخة الحبر؟) كما لَوْ بشكلٍ سرّيٍ، وبدون أَنْ تقدِّم مالًا: *ها أنتَ ذا يا آرش*. ذلك بيل، دائمًا ما يساعدك. عَلَى أَيَّة حالٍ، تلك التَّذاكر، القديمة منها، لَمْ تكن تخبركَ إِلَى أين أنتَ ذاهبٌ، ناهيك عَنْ مِنْ أين جئتَ. لَمْ يستطع أَنْ يتذكَّر أَيَّ تواريخ عليها أيضًا، ولَمْ تكنْ هناك بالتَّأكيد أَيُّ إشارةٍ للوقت. إنَّها مختلفةٌ تمامًا الآن، بالطَّبع. كُلُّ هذه المعلومات. تساءل آرشي لماذا ذلك. نقَّر عَلَى كتف صمد. كان يجلس أمامه مُباشَرةً، في المقعد الأماميِّ مِنَ الطَّابق العلويِّ. التَفتَ صمد إليه، وحدَّق في التَّذكرة الَّتِي عُرضَت عليه، وأنصت للسُّؤال، ومنح آرشي نظرة استغرابٍ.

«ما هو، *بالتَّحديد*، ما تريد أَنْ تعرفه؟»

بدا سريع الغضب بعض الشَّيء. كُلُّ شخصٍ سريع الغضب بعض الشَّيء في الوقت الحاليِّ. حدث بعضٌ مِنَ الجدال الحادِّ في وقتٍ سابقٍ بعد الظَّهيرة. طالبَت نينا بأَنْ يذهب الجميع إِلَى مسألة الفأر، ورؤية كيف تورَّطَت أَيرِي، وتورَّط ماجد. وعَلَى الأقل فما يستطيعونه هو أَنْ يذهبوا ويدعموا العائلة؛ لأَنَّه أَيًّا كان ما تصوَّروه عَنِ الأمر فإِنَّ هناك الكثير مِنَ العمل الَّذِي تَمَّ إنجازه، والشَّباب يحتاجون إِلَى الدَّعم مِنْ آبائهم، وهي ستذهب حتَّى لَوْ لَمْ يكونوا ذاهبين؛ لأَنَّه سيكون عرضًا فقيرًا جدًّا إذا لَمْ تلتفت العائلة ليومها المهمِّ... حسنًا، استمرَّ الأمر واستمرَّ. ثُمَّ بعدها الخطأ العاطفيُّ. انفجرَت أَيرِي بالبكاء (ما الَّذِي تعانيه أَيرِي؟ إِنَّها بكَّاءةٌ بعضَ الشَّيء بشكلٍ مُستمرٍّ هذه الأَيَّام)، واتَّهمَت كلارا نينا بالابتزاز العاطفيِّ، وقالت ألسانا إِنَّها ستذهب لَوْ ذهب صمد، وقال صمد إِنَّه قضى عشيَّات رأس السَّنة في أوكونيل لثمانية عشر عامًا ولَمْ يكن ليتوقَّف الآن. قال آرشي، مِنْ جانبه، إِنَّه ليزعجه إِلَى أقصى حدٍّ لَوْ أَنَّه سيستمع إِلَى هذه الجلبة طوال الليل ـ كان ليجلس عوضًا عَنْ ذلك عَلَى تلَّةٍ هادئةٍ مع نفسه. نظروا جميعهم إليه بنظرةٍ غريبةٍ عندما قال ذلك. لَمْ يعرفوا أَنَّه يأخذ بمشورةٍ رؤيويَّةٍ تسلَّمها مِنْ أيبلجوفتس في اليوم السَّابق:

28 ديسمبر، 1992

صديقي الأعزُّ آرشيبالد:

هذا موسمٌ للمرح... هكذا يزعمون، ولكنْ مِنْ نافذتي أرى الاضطراب فقط. في الوقت الحاليِّ هناك ستَّة أشرارٍ مُتعطِّشين للأرض يتحاربون في حديقتي. ولَمْ تكف هوايتهم الخريفيَّة في غمر أرضهم بالبول، وإِنَّما جلب

الشّتاء لهم المزيد مِنَ الاندفاع المتعصِّب... يصل الأمر إلَى المخالب والفراء الطّائر... ويبقيني الصُّراخ مستيقظاً طوال اللّيل! لا أستطيع أَنْ أمنع نفسي مِنَ التّفكير في أَنَّ قطِّي، جابرييل، لديه الفكرة الصائبة، بالجلوس أعلَى سقيفتي، يائسًا مِنَ المطالبة بأرضه في مقابل حياةٍ هادئةٍ.

لكنْ في النّهاية، حدَّدَت ألسانا القانون. سيذهب آرشي والبقيَّة سواءً أحبُّوا ذلك أَمْ لَمْ يحبُّوه. ولَمْ يحبُّوه. ولذا فقدْ أخذوا ـ الآن ـ نصف الباص في محاولتهم للجلوس فُرادى: كلارا خلف ألسانا الّتي كانت خلف آرشي الّذِي كان خلف صمد الّذِي كان في الجهة المقابلة مِنْ نينا. وجلسَت أيرِي في مقابل آرشي، ولكنْ؛ لأَنَّه لَمْ تكن هناك أَيُّ مساحةٍ أخرى فقط.

«كنتُ فقط أقول... كما تعلم،» قال آرشي، في محاولةٍ لأوَّل مُحادثةٍ تجترح الصَّمت البارد منذ غادروا ويلْزدن: «إِنَّه مثيرٌ للاهتمام فعلًا كَمُّ المعلومات الّتي يضعونها عَلَى تذكرة الباص هذه الأيَّام. مقارنةً، كما تعرف، بالأيَّام القديمة. أتساءل لماذا. إنَّه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام فعلًا.»

«يجب أَنْ أكون أمينًا، يا آرشيبالد،» قال صمد عابسًا، «إِنَّنِي أجده أمرًا غير مُهِمٍّ بشكلٍ ملحوظٍ. أراه أمرًا غبيًّا لأقصى درجةٍ.»

«أوه، حسنًا،» قال آرشي. «أنتَ عَلَى حقٍّ.»

قام الباص بواحدةٍ مِنْ تلك الانعطافات المقوَّسة الّتي تشعر معها أَنَّ مجرَّد نسمةٍ سوف تقلبه رأسًا عَلَى عقبٍ.

«أمم... إذن لَمْ تكنْ لتعرف لماذا ـــ»

«لا، يا جونز، ليس لدَيَّ أَيُّ أصدقاءٍ حميمين في جراج الأتوبيسات ولا أَيُّ معلوماتٍ داخليَّةٍ عَنِ القرارات التَّقدُّميَّة الّتي تُتَّخذ بدون شكٍّ يوميًّا في مواصلات لندن. لكِنْ إذا كنتَ تسألني عَنْ تخميني الجاهل، فإذنْ أتصوَّر أَنَّ ذلك جزءٌ مِنْ عمليَّة مراقبةٍ حكوميَّةٍ ضخمةٍ لتعقُّب كُلِّ حركةٍ لآرشيبالد جونز، مِنْ أجل التَّأكُّد مِنْ أين وماذا يفعل في كُلِّ يومٍ وكُلِّ لحظةٍ ـــ»

«يا إلهي،» قاطعَت نينا بانفعالٍ، «لماذا يجب عليكَ أَنْ تكون مُتنمِّرًا هكذا؟»

«معذرةً؟ لَمْ أُدرك أَنَّه كان بيني وبينكِ أَيُّ حوارٍ، يا نينا.»

«إِنَّه يسأل سؤالًا فقط وأنتَ تردُّ عليه بكُلِّ غضبٍ. أعني، لقَدْ تنمَّرتَ عليه عَلَى مدى نصف قرنٍ. أَلَمْ تكتفِ بعد؟ لماذا لا تتركه فقط وشأنه؟»

يا نينا بيجوم، أقسم أَنَّكِ إذا أعطيتِني توجيهًا واحدًا آخر اليوم فإِنَّني ـ شخصيًّا ـ سأنزع لسانك مِنْ جذره وأرتديه كربطة عنقٍ.

«اهدأ قليلًا، يا سام،» قال آرشي، قلقًا مِنَ الفوضى الَّتي أحدَثها بدون قصدٍ، «كنتُ فقط ــ»

«لا تهدِّد ابنة أخي،» علَّقت ألسانا مِنْ آخر الباص. «لا تصبَّ غضبكَ عليها فقط لأَنَّك تفضِّل أَنْ تأكل فاصولياءكَ وأصابع بطاطسكَ المقليَّة.» ـ *آه!* (فكَّر آرشي، بحزنٍ) *فاصولياء وأصابع بطاطس مقليَّة!* ـ «عَلَى الذِّهاب لرؤية ابنك يحقِّق شيئًا ما في الواقع و ــ»

«لا أتذكَّر كونكِ بهذا الحزم،» قالت كلارا، مضيفةً رأيها. «تعلمين، إِنَّ لديكِ طريقةً مريحةً للغاية، يا ألسي، في نسيان ما حدث منذ دقيقتَين.»

«هذا مِنَ المرأة الَّتي تعيش مع آرشيبالد جونزا» سخر صمد. «رُبَّما أذكِّركِ بأَنَّ النَّاس في البيوت الزُّجاجيَّة ــ»

«لا، يا صمد،» اعترضَت كلارا. «لا تحاول حتَّى أَنْ تبدأ في انتقادي. أنتَ الَّذِي لديكَ اعتراضاتٌ حقيقيَّةٌ عَلَى القدوم... ولكنَّكَ لا تتمسَّك بقرارٍ قطُّ، أليس كذلك؟ دائمًا تـ ـ باندي[1] هُنا. عَلَى الأقلِّ فآرشي، كما تعرف...» تلعثمَت كلارا، غير معتادةٍ عَلَى الدِّفاع عَنْ زوجها وغير واثقةٍ مِنَ الصِّفة اللَّازمة، «عَلَى الأقلِّ هو يتَّخذ قراراتٍ ويتمسَّك بها. عَلَى الأقلِّ فإِنَّ آرشي *ثابتٌ عَلَى موقفه.*»

«أوه بالتَّأكيد، نعم،» قالت ألسانا في سخرية. «بنفس الطريقة الَّتِي يثبت فيها حجرٌ عَلَى موقفه، بنفس الطَّريقة الَّتِي تثبت بها جدَّتي العزيزة لسببٍ بسيط جدًّا أَنَّها مدفونةٌ تحت الأرض منذ ــ»

«أوه، *اخرسي*،» قالت أَيري.

أُسكِتَتْ ألسانا للحظة، ومِنْ بعدها تراجعَت الصَّدمة ووجدَت لسانها. «أَيرِي جونز، لا تخبريني ــ»

«لا، سوف أخبركِ،» قالت أَيرِي، ووجهها يحمرُّ بشكلٍ كبيرٍ، «في الواقع. نعم.

1 ـ صياغة لتصريف فعل من اسم باندي. (المترجم).

سأفعل. *اخرسي*. اخرسي، يا ألسانا. واخرسوا جميعكم. حسنًا؟ *اخرسوا* فقط. في حال أنَّكم لَمْ تلاحظوا، يبدو أن هناك *أشخاصًا آخرين* في هذا الباص، وصدِّقوا ذلك أَوْ لا، فليس كُلُّ شخصٍ في *الكون* يريد أَنْ ينصت إليكم جميعًا. لذا اخرسوا. هيَّا. حاولوا ذلك. *الصَّمت. آه.*» سحبَت شهيقًا كأنَّها تحاول أَنْ تلمس الهدوء الَّذِي خلقته. «أليس ذلك شيئًا؟ هَلْ علِمتم أَنَّ هذا ما تكون عليه العائلات الأخرى؟ إنَّهم *هادئون*. اسألوا واحدًا مِنْ هؤلاء النَّاس الَّذِين يجلسون هنا. سوف يخبرونكم. إنَّ لديهم عائلاتٌ. *هذا ما تكون عليه بعض العائلات طوال الوقت*. ويحبُّ بعض النَّاس أَنْ يعتبروا هذه الأسر مقموعةً، أَوْ مُخدَّرةً عاطفيًّا أَوْ أَيًّا كان، لَكِنْ هَلْ تعرفون ما أقوله؟»

لَمْ يكن لدى آل إقبال وآل جونز المذهولين إِلَى حدِّ الصَّمت جنبًا إِلَى جنبٍ مع البقيَّة في الحافلة (حتَّى فتيات الرَّاجا[1] الصَّاخبات في طريقهنَّ إِلَى ضجيج قاعة براكستون للرَّقص في رأس السَّنة) أَيُّ ردٍ.

«أقول: *يا لهم مِنْ ملاعين محظوظين*. ملاعين، *ملاعين* محظوظين.»

«أَيرِي جونز!»، صاحَت كلارا. «احفظي لسانكِ!» غير أَنَّ أَيرِي لَمْ تتوقَّف.

«يا له مِنْ تعايشٍ سلميٍّ. يا لها مِنْ *بهجةٍ* لا بدَّ أَنَّها حياتهم. إِنَّهم يفتحون بابًا وكُلُّ ما لديهم وراء ذلك هو حمَّامٌ وغرفة معيشةٍ. مساحاتٌ محايدةٌ فقط. لا هذه المتاهة الَّتِي لا تنتهي مِنْ غُرف الحاضر وغُرف الماضي والأشياء الَّتِي قيلَت فيها منذ سنواتٍ وقرف كُلِّ شخصٍ التاريخيِّ القديم كُلِّها في جميع أنحاء المكان. هم لا يفعلون نفس الأخطاء القديمة باستمرارٍ. هم لا يسمعون نفس الهراء القديم دائمًا. هم لا يقدِّمون عروضًا لهمومهم في مواصلةٍ عامَّةٍ. حقًّا، هؤلاء النَّاس موجودون. إِنَّنِي أقول لكم. إِنَّ أكبر صدمات حياتهم هي أشياء مِنْ نوع إعادة وضع السِّجَّاد. دفع الفواتير. وإصلاح البَّوابة. هم لا يمانعون فيما يفعله أطفالهم في الحياة ما داموا، تعرفون، *أصحَّاء* بشكلٍ معقولٍ. *سعداء*. وكُلُّ يومٍ سخيفٍ واحدٍ ليس هو المعركة الهائلة بين ما هم عليه وما يجب أَنْ يكونوه، ما كانوا عليه وما سوف يكونونه. هيَّا، اسألوهم. وسيخبرونكم. لا مسجد. رُبَّما القليل مِنَ الكنيسة. وبالكاد أَيُّ ذنبٍ. الكثير مِنَ الغفران. لا سندرات. لا قرف في السَّندرات. لا هياكل عظميَّةٌ في الخزانات. ولا أجداد عظامًا. سأراهن بعشرين جنيهًا *الآن* عَلَى أَنَّ صمد هو الشَّخص الوحيد هُنا الَّذِي يعرف القياس اللَّعين لداخل

1 ـ أسلوب لموسيقى الرقص مستمد من الريجي نشأ في جامايكا، ويتم فيه ارتجال الكلمات على مقطوعات موسيقية معينة. (المترجم).

ساق جدِّه الأكبر. وهَلْ تعرفون *لماذا* لا يعرفون؟ لأنَّه *ليس مهمًّا بحقِّ اللَّعنة*. بالقدر الذي يهتمُّون به، فإنَّه *الماضي*. هذا ما يبدو عليه الأمر في العائلات الأخرى. ليسوا مُنغمسين في الملذَّات. ولا يركضون في الجوار، مُستمتعين، *مستمتعين* بحقيقة أنَّهم مختلُّون تمامًا. وهم لا يقضون وقتهم في محاولة العثور علَى طرقٍ؛ لكَيْ يجعلوا حياتهم أكثر تعقيدًا. *إنَّهم يمضون فقط قُدُمًا*. أبناء حرامٍ محظوظون. ملاعين محظوظون.»

زاد القدر الهائل مِنَ اندفاع الأدرينالين الَّذي نبع مِنْ هذه الفَورة الغريبة الَّتي تصاعدَت في جسد أيرِي، مِنْ ضربات قلبها إلَى حدِّ الرَّكض ودغدغ النِّهايات العصبيَّة لجنينها؛ لأنَّ أيرِي حاملٌ في ثمانية أسابيع وعرفَت ذلك. ما لَمْ تعرفه، وما لاحظَت أنَّها رُبَّما *لَنْ تعرفه أبدًا* (في اللَّحظة نفسها الَّتي رأَت عندها الخطوط الشَّبحيَّة الزَّرقاء الباهتة تتشكَّل في الاختبار المنزليِّ، مثل وجه العذراء في حبَّة القرع لربَّة منزلٍ إيطاليَّة)، هو هويَّة الأب. لا فحص في العالم سوف يخبرَها. نفس الشَّعر الكثيف الأسود. نفس العيون الوامضة. نفس عادة مضغ أغطية الأقلام. نفس مقاس الحذاء. نفس الحمض الرِّيبوزيِّ منقوص الأكسجين. لَمْ تعرف قرار جسدها، أيَّ اختيارٍ اتَّخذ، في السِّباق نحو الأمشاج، بين النَّاجية وغير النَّاجية. لَمْ تستطع أَنْ تعرف إذا كان الاختيار ليُحدث أيَّ اختلافٍ؛ لأنَّه أيَّ الأخوَين كان، فهو الآخر أيضًا. لَمْ تكن لتعرف قطُّ.

في البداية بدَت هذه الحقيقة مُحزنةً لأيرِي بشكلٍ لا يُوصف؛ استسلمَت عاطفيًّا للحقائق البيولوجيَّة بشكلٍ غريزيٍّ، وهي تضيف قياسها المنطقيَّ الفاسد: إذا لَمْ يكن طفلًا لأحدٍ بعينه فهل مِنَ الممكن أنْ يعني ذلك أنَّه ليس طفل أيِّ أحدٍ؟ فكَّرَت في خرائط البيانات الخياليَّة المتقنة المطويَّة تلك في كتب جوشوا القديمة للخيال العلميِّ، في مغامراته الخياليَّة. هكذا يبدو ابنها. شيئًا مرسومًا بعنايةٍ، بدون أيَّة إحداثيَّاتٍ حقيقيَّةٍ. خريطةً لأرض آباءٍ متخيَّلةٍ. ولكنْ بعدها، بعد الانتحاب ودحرجة بيض الفصح[1]

1 ـ استخدمت الكاتبة جناسًا يتعلق بلعبة تقليدية بريطانية تعرف بـ «دحرجة البيض»، كانت ـ قديمًا ـ تعرف بـ «بيض الفصح»، تقام في عيد الفصح لتجسيد فكرة قيامة المسيح من خلال مباراة بين البطل والشرير، وتكون النتيجة وفاة الشرير، الذي تتم إعادته للحياة من قبل طبيب مزيف. يرى البعض أن بيض الفصح هو تقليد احتفالي قديم، عيد الفصح؛ حيث كانت البيضة ترمز إلَى بداية الحياة على سطح الأرض حسب المعتقدات. يذكر التقليد الأرثوذكسي المسيحي أن القديسة مريم المجدلية كمواطنة رومانية ذهبت إلَى قيصر في روما؛ لرفع احتجاجها على صلب المسيح، وقامت بشرح قصة محاكمة المسيح وصلبه وقيامته، عندها أوقفها القيصر وقال لو أن البيض يصير بلون أحمرَ أصدق أن المسيح قام من الأموات عندها أخذت المجدلية بيضة وقالت:(المسيح قام) فتحول لون البيض إلَى أحمرَ، واتبعت الكنيسة هذا التقليد بصبغ البيض في الفصح تأكيدًا على قيامة المسيح. كما أن فرخ الدجاج يشق البيضة ويخرج إلَى الحياة هكذا المسيح شق القبر وقام من الأموات. (المترجم).

مرَّاتٍ ومرَّاتٍ في عقلها، فكَّرَت: *أيًّا كان*، هَلْ تعرف؟ *أيًّا كان*. سوف ينتهي الأمر دائمًا إِلَى هذا، ليس هكذا تحديدًا، ولكنَّه متورِّط به. إنَّه مِنْ آل إقبال ما نتحدَّث عنه، هنا. وإِنَّه مِنْ آل جونز. كيف أمكن لها أَنْ تتوقَّع شيئًا أقلَّ مِنْ هذا؟

وهكذا هدَّأت نفسها، بوضع يدها عَلَى الخفقان في صدرها وتنفَّسَت بعمقٍ بينما بلغ الباص الميدان وساحة الحمام. سوف تخبر واحدًا منهما وليس الآخر؛ سوف تقرِّر مَنْ، وسوف تفعل ذلك اللَّيلة.

«هَلْ أنتِ بخيرٍ، يا حبيبتي؟» سألها آرشي، بعد فترةٍ طويلةٍ مِنَ الصمت جلس فيها وهو يضع يده الوردية الكبيرة، الَّتي تعاني مِنْ نَمَشٍ شمسيٍّ مثل بقع الشَّاي، عَلَى ركبتها. «تحملين الكثير في صدركِ، إذنْ.»

«بخيرٍ، يا أبي. أنا بخيرٍ.»

ابتسم آرشي في وجهها، ودسَّ شعرةً شاردةً وراء أذنها.

«أبي.»

«نعم؟»

«تلكَ المسألة بخصوص تذاكر الباص.»

«نعم؟»

«تذهب نظريَّةٌ إِلَى أَنَّه بسبب أَنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس يدفعون أقلَّ ممَّا يجب لرحلتهم. عانَت شركات الباص خلال السَّنوات الماضية مِنْ عجزٍ يتَّسع ويتَّسع. هَلْ ترى حيث تقول *احتفظ بالتَّذكرة للفحص*؟ لهذا سيمكنهم أَنْ يفحصوها في وقتٍ لاحقٍ. وهي تحتوي عَلَى كُلِّ التَّفاصيل هناك؛ لذا لا يمكنكَ أَنْ تُفلت مِنَ الأمر.»

وفي الماضي، تساءل آرشي، هَلْ كان الأمر -فقط- أَنَّ عددًا أقلَّ مِنَ النَّاس يغشُّون؟ هَلْ كانوا أكثر أمانةً، يتركون أبوابهم الأماميَّة مفتوحةً، يتركون أطفالهم مع الجيران، يجرون مكالماتٍ اجتماعيَّةً، يفتحون حساباتٍ عند الجزَّار؟ المضحك في أَنْ تكبر في السِّنِّ في بلدٍ هو أَنَّ النَّاس يريدون أَنْ يسمعوا ذلك منكَ. هم يريدون أَنْ يسمعوا أنَّها كانت أرضًا خضراءَ سعيدةً ذات يومٍ. هم *يحتاجون* إِلَى ذلك. تساءل آرشي إذا ما كانت ابنته تحتاج إليه. كانت تنظر إليه بشكلٍ غريبٍ. فمها مقلوبٌ، وعيناها تكادان

تتوسَّلان. ولكنْ ماذا يمكنه أنْ يخبرها؟ السَّنوات الجديدة تجيء وتذهب، ولكنْ لا يبدو أنَّ أيَّ قدرٍ مِنَ القرارات سيغيِّر مِنْ حقيقة أنَّه يوجد رجالٌ أشرارٌ. هناك الكثير دائمًا مِنَ الرِّجالِ الأشرارِ.

«عندما كنتُ طفلةً،» قالَت أَيرِي بلطفٍ، وهي تدقُّ الجرس لأجل محطَّتهم، «اعتدْتُ أنْ أفكِّر في أنَّها ذرائع بسيطةٌ. تذاكر الباص. أعني، انظر: يوجد عليها الوقت. التَّاريخ. والمكان. وإذا استُدعيتُ إلَى المحكمة، ووجب عَلَيَّ أنْ أدافع عَنْ نفسي، وأثبت أنَّني لَمْ أكن حيث قالوا إنَّني كنتُ، أفعل ما قالوا إنَّني فعلتُ، عندما قالوا إنَّني فعلته، فسأُخرج واحدةً مِنْ تلك.»

صمت آرشي، وفوجئَت أَيرِي الَّتِي افترضَت أَنَّ المحادثة انتهت، عندما مرَّت عدَّة دقائِقَ، بعد أَنْ كافحوا عبر الحشد السَّعيد بالعام الجديد والسُّيَّاح الواقفين مِنْ حولهم بلا هدفٍ، بينما يصعدون درجات معهد بيريه، بوالدها يقول: «الآن، أنا لَمْ أفكر في ذلك قطُّ. سوف أتذكَّر ذلك. لأنَّكِ لا تعرفين مطلقًا، أليس كذلك؟ أعني، هَلْ تفعلين؟ حسنًا. هناك فكرةٌ. يجب أَنْ تلتقطها مِنَ الشَّارع، كما أفترض، وتضعها في جرَّةٍ ما. كعذرٍ لكُلِّ حدثٍ.»

***

وكُلُّ هؤلاء النَّاس يتوجَّهون إلَى نفس الغرفة. الفضاء الأخير. غرفةٍ كبيرةٍ، وواحدةٍ مِنْ كثيراتٍ في معهد بيريه؛ غرفةٍ منفصلةٍ عَنِ المعرض ما زالت تُعرف كغرفة عرضٍ؛ كمكانٍ للشَّركات، كأرضٍ نظيفةٍ؛ بيضاء/معدنيَّةٍ/نقيَّةٍ/بسيطةٍ (هذا هو موجز التَّصميم)، تُستخدم للقاءات النَّاس الَّذِين يرغبون في اللِّقاء في مكانٍ مُحايدٍ في نهاية القرن العشرين؛ مكانٍ عمليٍّ حيث يمكن لأعمالهم (سواءً أكانت إطلاق علامةٍ تجاريَّةٍ جديدةٍ، أم ملابس داخليَّةٍ، أم إطلاق علامةٍ تجاريَّةٍ لملابس داخليَّةٍ) أَنْ تُنجز في فراغٍ ما، في تجويفٍ غير مُلوَّثٍ، نقطة النِّهاية المنطقيَّة لألف سنةٍ مِنَ الفضاء المزدحم جدًّا والدَّمويِّ جدًّا. هذه الغرفة يتمُّ ترتيبها، وتُعقيمها، وتجديدها كُلَّ يومٍ مِنْ قِبَل سيِّدة تنظيفٍ نيجيريَّةٍ بمكنسةٍ صناعيَّةٍ وتتمُّ حراستها في اللَّيل مِنْ قِبَل السَّيِّد دي وينتر، حارسٍ ليليٍّ بولنديٍّ (هكذا يدعو نفسه - مُسمَّاه الوظيفيُّ هو المنسِّق الأمنيُّ للممتلكات)؛ يمكن رؤيته يحمي الفضاء، يمشي حول حدود الفضاء مع جهاز استماعٍ يدير ألحانًا فُلكلوريَّةً بولنديَّةً؛ يمكنكَ أَنْ *تراه*، ويمكنك أَنْ ترى ذلك من خلال واجهةٍ زجاجيَّةٍ

أماميَّةٍ كبيرةٍ إذا عبرتَ ـ فدادين مِنَ الفراغ المحميّ مع علامةٍ بالأسعار لكُلِّ قدمٍ مُربَّعةٍ مِنْ هذه الأقدام المربَّعة مِنْ فضاء فضاء المفضِاءِ، أطول مِنْها عريضةً وعاليةً بما يكفي لاستيعاب ثلاثةٍ مِنْ آرشي بالكامل مع نصف ألسانا عَلَى الأقلّ، وسوف يوجد اللَّيلة (لَنْ يوجد غدًا) اثنان مِنَ البوسترات المتطابقة الضَّخمة، ينزلقان عَلَى طول جانبي الغرفة مثل ورق الحائط، ويقول النَّصُّ لجنة العلوم الألفيَّة في تنوُّعٍ واسعٍ مِنَ الخطوط الَّتِي تتراوح مِنَ المهجور بشكلٍ عمديٍّ مِنَ الفايكينج إِلَى تأثير الحداثة، للحصول عَلَى الشُّعور بألف سنةٍ مِنَ الكتابة (هذا هو الملخَّص)، وكُلُّ ذلك في ألوانٍ مُتبادَلةٍ رماديَّةٍ، وزرقاءَ خفيفةٍ، وخضراءَ داكنةٍ؛ لأَنَّها الألوان الَّتِي يكشف البحث أَنَّها تعبِّر عَنِ النَّاس المرتبطين بـ«العلوم والتِّكنولوجيا» (البنفسجيُّ والأحمر تدلِّل عَلَى الفنون، والأزرق الملكيُّ يدلُّ عَلَى «الجودة و/أَوِ البضائع المعتمَدة»)؛ لأَنَّه لحسن الحظِّ فبعد سنواتٍ مِنَ التَّرافق الحسيِّ[1] للشَّركات (زُرقة الملح والخلِّ، وخضرة الجبن والبصل) يمكن للنَّاس أخيرًا أَنْ يقدِّموا الإجابة المطلوبة عندما يتمُّ تصميم الحيِّز، أَوْ يتمُّ تغيير العلامة التِّجاريَّة لشيءٍ ما، غرفةٍ/أثاثٍ/بريطانيا (هذا هو الاختصار: غرفةٍ بريطانيَّةٍ جديدةٍ، فضاءٍ لأجل بريطانيا، الانتماء إِلَى بريطانيا، مساحةٍ مِنْ بريطانيا، فضاءٍ صناعيٍّ بريطانيٍّ، فضاءٍ ثقافيٍّ، فضاءٍ)؛ فإِنَّهم يعرفون ما يعنيه الأمر عندما يُسألون كيف يجعلهم اللَّون المعدنيُّ الباهت يشعرون؛ وهم يعرفون ما تعنيه الهويَّة الوطنيَّة؟ الرُّموز؟ اللُّوحات؟ الخرائط؟ الموسيقى؟ مكيِّفات الهواء؟ الأطفال السُّود المبتسمون أَوِ الأطفال الصِّينيُّون المبتسمون أَوْ [ضَع علامةً عَلَى المربَّع]؟ موسيقى العالم؟ صوفٌ أَمْ وبرٌ؟ بلاطٌ أَمْ ألواحٌ للأرضيَّة؟ نباتاتٌ؟ مياهٌ جاريةٌ؟

إِنَّهم يعرفون ما يريدون، خصوصًا هؤلاء الَّذِين عاشوا هذا القرن، وتَمَّ دفعهم مِنْ فضاءٍ إِلَى آخر مثل السَّيِّد دي وينتر (فولجيف سابقًا)، مُعاد التَّسمية، مُعاد التَّصنيف، الإجابة عَلَى كُلِّ استبيانٍ هي لا شيء مسافةٌ لا شيء رجاءً فقط مسافةٌ لا شيء رجاءً لا شيء مسافةٌ.

1 ـ تداع مبهم ملازم للولادة بين الأحاسيس الطبيعية المختلفة، الَّتِي تشعر بأنها رمز لهذا الإحساس أَوْ ذاك: مثاله أن كُلّ صوت يوحي بفكرة لون معين (سمع ملون) فتبدو الأيام التاريخية كما لو كانت تحتل، واحدا واحدا، مكانة ثابتة، محددة في المكان؛ ويتم تذكر الأرقام بالصورة البصرية لأشخاص محبوبين أَوْ غير محبوب ـ (المترجم).

الفصل العشرون
عن الفئران والذاكرة

إِنَّه مثلما في التِّليفزيون تمامًا! وتلك هي المجاملة المفرطة لأقصى درجةٍ الَّتِي يمكن لآرشي أَنْ يفكِّر بها تجاه أَيِّ حدثٍ في الحياة الحقيقيَّة. باستثناء أَنَّ هذا كما في التِّليفزيون تمامًا ولكنْ أفضل. إِنَّه حديثٌ جدًّا. إِنَّه مصمَّمٌ بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا حتَّى أَنَّكَ لَنْ ترغب في التَّنفُّس فيه، ناهيك عَنِ الضُّراط فيه. هناك تلك الكراسي، بلاستيكيَّةٌ ولكنْ بدون أرجلٍ، مُنحنيةٌ مثل حرف الـ S ويبدو أَنَّها تعمل بأسلوب طيِّها الخاصّ؛ وتتناسب مع بعضها بشكلٍ كبيرٍ، قرابة مئتَين منها في عشرة صفوفٍ، وتضمُّكَ نوعًا ما عندما تجلس عليها ـ ناعمةٌ وداعمةٌ مع ذلك! مريحةٌ! حديثةٌ! ويجب أَنْ تُعجب بالطَّيِّ بهذه الطَّريقة، فكَّر آرشي، وهو يُجلس نفسه في أحدها، مستوًى مِنَ الطَّيِّ أَعَلَى بكثيرٍ ممَّا تعامل معه عَلَى الإطلاق. *جميلٌ جدًّا.*

الشَّيء الآخر الَّذِي يجعل الحدث أفضل مِنَ التِّليفزيون تمامًا هو أَنَّه حاشدٌ بالنَّاس الَّذِين يعرفهم آرشي. هناك الفتى مِلَّة في آخر القاعة (النَّذل) مع عبدول جيمي وعبدول كولين؛ وجوش تشالفين أقرب للمنتصف، وماجد يجلس في المقدِّمة مع زوجة تشالفين (لَمْ تكن ألسانا لتنظر إليها، ولكنَّ آرشي يلُّوح عَلَى أَيِّ حالٍ؛ لأَنَّه سيكون وقحًا أَلَّا يفعل)، وفي مواجهتهم جميعًا (بالقُرب مِنْ آرشي ـــ فقَدْ حصل آرشي عَلَى أفضل مقعدٍ في المكان) يجلس ماركوس عَلَى طاولةٍ طويلةٍ، كما في التليفزيون بالضَّبط، مع ميكروفوناتٍ تغطِّيها بالكامل، مثل سربٍ هائلٍ، البطون السَّوْداء الضَّخمة للنَّحل القاتل. يجلس ماركوس بجوار أربعة أشخاصٍ آخرين، ثلاثةٍ في نفس عمره ورجلٍ مُسنٍّ بشكلٍ حقيقيٍّ، ذي نظرةٍ باردةٍ ـ *جافَّةٍ* إِنْ كانت تلك هي الكلمة. وجميعهم بلا استثناءٍ يرتدون نظَّاراتٍ، بالطَّريقة الَّتِي يبدو عليها العلماء في التِّليفزيون. لا معاطف بيضاء، مع ذلك. فالجميع بملابس غير رسميَّةٍ: رقبةٍ مُثلَّثةٍ، وربطات عنقٍ، وأحذيةٍ بدون كعوبٍ. *أمرٌ مُخيِّبٌ للآمال بعض الشَّيء.*

الآن لقَدْ رأي الكثير مِنْ مفارقات هذه المؤتمرات الصَّحفيَّة البريئة. فَعَل آرشي (والدَين باكيَين، وطفلًا مفقودًا، أَوِ العكس، إذا كان السِّيناريو أجنبيًّا للأيتام، فطفلًا باكيًا ووالدَين مفقودَين). غير أَنَّ هذا أفضل *بأميال*؛ لأَنَّه يوجد في وسط الطَّاولة شيءٌ ما مثيرٌ جدًّا للاهتمام (الأمر الَّذِي لا تحصل عليه في العادة في التِّليفزيون، وإِنَّما فقط عَلَى أُناسٍ يبكون): فأرٌ. فأرٌ عاديٌّ تمامًا، بُنِّيٌّ، وليس مع أَيَّة فئرانٍ أخرى، ولكنَّه نشيطٌ للغاية، يهرول في جميع أنحاء هذا الصُّندوق الزُّجاجيِّ الَّذِي بحجم تليفزيونٍ مع فتحات هواءٍ. شعر آرشي بالقلق نوعًا ما عندما رآه لأَوَّل مرَّةٍ (سبع سنواتٍ في صندوقٍ زجاجيٍّ!) لكنِ اتَّضح أَنَّ هذا مؤقَّتٌ، للتَّصوير الفوتوغرافِيِّ فقط. أوضحَت أَيرِي أَنَّ هناك هذا الشَّيء الضَّخم لأجله في المعهد، مليئًا بالأنابيب والأماكن السِّرِّيَّة. فضاءٌ فوق فضاءٍ، ولذا فإِنَّه لَنْ يشعر بالكثير مِنَ الملل، وسوف يتمُّ نقله إِلَى هناك لاحقًا. لذا فكُلُّ شيءٍ عَلَى ما يرام. ولديه غمَّامةٌ صغيرةٌ ذات مظهرٍ ماكرٍ أيضًا. وهو يلوي وجهه في معظم الوقت. تنسى أمامه كيف تبدو الفئران حذرةً. رعايته مشكلةٌ فظيعةٌ، بالطَّبع. لهذا لَمْ يُحضر واحدًا لأَيرِي مطلقًا عندما كانت صغيرةً. السَّمكة الذَّهبيَّة أكثر نظافةٍ - بذاكرةٍ أقصر. في تجربة آرشي فأَيُّ شيءٍ يملك ذاكرةً طويلةً لديه ضغينةٌ ما، وحيوانٌ أليفٌ يحمل ضغينةً (تلك المرَّة الَّتِي حصلتُ فيها عَلَى الطَّعام الخطأ، وتلك اللَّحظة الَّتِي حمَّمتَنِي فيها) ليس ما تريده بالمرَّة.

«أوه، أنتَ محقٌّ في ذلك،» يوافق عبدول ميكي وهو يرمي نفسه في المقعد المجاور لآرشي، بدون أَيِّ تقديرٍ لغياب أقدام المقعد. «أنتَ لا تريد أحد القوارض السَّخيفة المستاءة في يديك.»

يبتسم آرشي. فميكي هو هذا النَّوع مِنَ الرِّجال الَّذِين تحبُّ أَنْ تذهب معهم لمشاهدة كرة القدم، أَوِ الكريكيت، أَوْ إذا رأيتَ معركةً في الشَّارع فأَنتَ تتمنَّى أن يكون هناك؛ لأَنَّه مِنَ النَّوع الَّذِي يُعلِّق عَلَى الحياة. فيلسوفٌ نوعًا ما. إِنَّه محبطٌ فعلًا مِنْ حياته اليوميَّة؛ لأَنَّه لا ينال الكثير مِنَ الفرص لكَيْ يُظهر هذا الجانب في نفسه. لكنِ التَقِ به حُرًّا مِنْ مئزره وبعيدًا عَنِ الفرن، وامنحه مساحةً للمناورة - سيعود فعلًا إِلَى طبيعته. ولَدَى آرشي الكثير مِنَ الوقت لأجل ميكي. الكثير مِنَ الوقت.

«متى سوف يبدؤون، إذنْ؟» يقول لآرشي. «يأخذون وقتهم، هه؟ لا أستطيع النَّظر إِلَى الفأر طوال اللَّيلة السَّخيفة. هَلْ تستطيع أنتَ؟ أقصد، لديكَ كُلُّ هؤلاء النَّاس هنا في عشيَّة رأس السَّنة. يلزمك شيءٌ ما يشبه التَّرفيه.»

«نعم، حسنًا،» يقول آرشي، ليس أنَّه غير موافقٍ ولكنَّه ليس موافقًا تمامًا أيضًا، «أتوقَّع أنَّهم يجب أنْ يراجعوا ملاحظاتهم وما إلَى ذلك... الأمر ليس مجرَّد أنْ تقوم وتقول بعض الأشياء الغبيَّة. أليس كذلك؟ أقصد، لا يتعلَّق الأمر بإرضاء كُلِّ النَّاس طوال الوقت ـ الآن ـ أليس كذلك؟ إنَّه *العِلم*.» يقول آرشي *العِلم* بنفس الطريقة الَّتِي يقول بها عصريٌّ، كما لَوْ أنَّ أحدهم أقرضَه الكلمات وجعله يقسم عَلَى عدم كسرها. «*العِلم*،» يكررها آرشي، وهو يعالجها بشكلٍ أكثر رسميَّةً: «أمرٌ مختلفٌ تمامًا.»

يومئ ميكي عند هذا، ويفكِّر بجدِّيَّة في الطَّرح، وهو يحاول أنْ يقرِّر القدر الَّذِي يمكن له أنْ يقبل به حُجَّة *العِلم* المضادَّة، بكُلِّ دلالاتها مِنَ الخبرات والمستويات الأعلى، مِنَ الأماكن الافتراضيَّة الَّتِي لَمْ يزرها لا ميكي ولا آرشي قطُّ (الإجابة: لا شيء)، وما مقدار الاحترام الَّذِي ينبغي أنْ يقدِّمه في ضوء هذه الدِّلالات (الإجابة: اللَّعنة عَلَى كُلِّ ذلك. جامعة الحياة، أليس كذلك؟)، وكَمْ ثانيةً ينبغي أنْ ينتظر قبل أنْ يمزِّقها إربًا (الإجابة: ثلاثًا).

«عَلَى العكس، يا آرشيبالد، عَلَى العكس السَّخيف مِنْ ذلك. حُجَّةٌ زائفةٌ، تلك. خطأٌ سخيفٌ مُعتادٌ، ذلك. لا يختلف العِلم عَنْ أيِّ شيءٍ آخر، أليس كذلك؟ أقصد، عندما تشرع فيه. في نهاية اليوم، ينبغي له أنْ يرضي النَّاس، هَلْ تعرف ما أقصده؟»

يُومئ آرشي. هو يعرف ما يقصده ميكي. (بعض النَّاس ـ صمد عَلَى سبيل المثال ـ سوف يخبرونك ألَّا تثق بالنَّاس الَّذِين يفرطون في استخدام عبارة *في نهاية اليوم* ـ مديري الكرة، ووكلاء العقارات، والباعة مِنْ جميع الأنواع ـ غير أنَّ آرشي لَمْ يشعر بهذه الطَّريقة قطُّ بخصوص الأمر. لَمْ يفشل الاستخدام الحصيف للفقرة المذكورة في إقناعه بأنَّ مُحاوِره وصل إلَى جوهر المسألة، إلَى الأساسيَّات).

«وإنْ ظننتَ أنَّ هناك أيُّ اختلافٍ بين مكانٍ مثل هذا ومقهاي،» يواصل ميكي، بفمٍ ممتلئٍ وإن كان لا يرفع صوته عَنْ مستوى الهمس بقياس الدِّيسيبل[1] قطُّ. «لَنْ تحصل سوى عَلَى ضحكةٍ. فالأمر نفسه في النِّهاية. الأمر كُلُّه مُتعلِّقٌ بالزُّبون في النِّهاية. *عَلَى سبيل المثال السَّخيف*: فليس جيِّدًا بالنِّسبة إليَّ أنْ أضع *البطَّ بالبرتقال* في القائمة إذا لَمْ يكن أحدٌ يريده. *وبالقياس*، فلا يوجد منطقٌ في هذا الكثير مِنْ إنفاق الكثير مِنَ الأموال عَلَى بعض الأفكار الذَّكيَّة ما لَمْ تكن ستعود بمنفعةٍ لعينةٍ عَلَى شخصٍ ما. *فكِّر في ذلك*،» يقول ميكي، وهو ينقر عَلَى صدغه، ويتبع آرشي التَّعليمات بأقصى ما يستطيع.

1 ـ وحدة لوغاريتمية لقياس شدة الصوت. (المترجم).

«ولكنْ لا يعني ذلك ألَّا تمنح الأمر فرصةً لعينةً،» يواصل ميكي، مُستمتعًا بطَرْحِه. «ينبغي لكَ أَنْ تمنح تلك الأفكارالجديدة فرصةً. وإلَّا كنتَ مجرَّد بُرجوازيٍّ صغيرٍ، يا آرش. الآن، في نهاية اليوم، أنتَ تعرف أَنَّني دائمًا نوعكَ المتطوِّر مِنَ الرِّجال. لهذا السَّبب قدَّمتُ طبق العِجَّة منذ عامَين.»

يومئ آرشي بحكمةٍ. كانت العِجَّة اكتشافًا مِنْ نوعه.

«الأمر نفسه ينطبق هُنا. ينبغي أَنْ تمنح هذه الأشياء فرصةً. ذلك ما قلته لعبدول كولين وابني جيمي. قلتُ: قبل أن تقفزا إِلَى البندقيَّة، تعاليا وامنحا الأمر فرصةً. وها هما هناك.» حرك عبدول ميكي رأسه للوراء، في اتِّجاه أخيه وابنه، في إشارةٍ ماكرةٍ؛ لأَنَّه لاحظ الاثنين اللَّذَين ردًّا بالمثل. «رُبَّما لا يحبَّان ما يسمعان، بالطَّبع، ولكنْ لا يمكنك الاعتماد عَلَى ذلك، أليس كذلك؟ ولكنَّهما عَلَى الأقلِّ جاءا بعقلٍ *منفتحٍ*. الآن، أنا شخصيًّا، أنا هنا بسلطةٍ مُناسِبةٍ مِنْ ماجد إك-بول ذلك-وأنا أثق به، أثق بحكمه. ولكنْ، كما أقول، ينبغي أَنْ ننتظر ونرى. نحن نعيش ونتعلَّم، بحقِّ اللَّعنة، يا آرشيبالد،» يقول ميكي، ليس ليكون هجوميًّا، ولكنْ لأَنَّ كلمة لعنةٍ تعمل مثل بِطانةٍ بالنِّسبة إليه، وهو أمرٌ لا حيلة له فيه؛ هي مُجرَّد حشْوٍ مثل: الفاصولياء أَوِ البازلَّاء: «نحن نعيش ونتعلَّم بحقِّ اللَّعنة. وأنا أستطيع أَنْ أخبرك، إذا أقنعني أيُّ شيءُ ممَّا قيل هنا اللَّيلة بأَنَّ ابني جيمي رُبَّما لا يكون لديه أطفالٌ ببشرةٍ مثل سطح القمر اللَّعين، فإِنَّني سوف أتحوَّل يا آرش. سوف أقول ذلك الآن. ليسَت لدَيَّ الضَّبابيَّة اللَّعينة بخصوص ما قَدْ يفعله فأرٌ ما لبشرة يوسف المسنِّ، لكنَّنِي أخبرك، سوف أضع حياتي في يدي ابن إك-بول ذاك. لدَيَّ شعورٌ جيِّدٌ فعلًا تجاه ذلك الفتى. يساوي دستةً مِنْ أخيه،» يضيف ميكي بمكرٍ، وهو يخفض صوته لأَنَّ سام خلفه. دستةٌ سهلةٌ. أقصد، ما الَّذِي كان يفكِّر فيه بحقِّ اللَّعنة، هه؟ أنا أعرف أَيَّ واحدٍ كنتُ لأرسله بعيدًا. بدون خوفٍ.»

يهزُّ آرشي كتفيه. «لقَدْ كان قرارًا صعبًا.»

يشبك ميكي ذراعيه ويسخر: «لا يوجد شيءٌ هكذا يا زميلي. أنتَ إِمَّا مُحقٌّ وإمَّا لا. وبمجرَّد أَنْ تلاحظ ذلك، يا آرش، تصبح حياتك فجأةً أكثر سهولةً لعينةً. خُذْ كلمتي بهذا الشَّأن.»

يأخذ آرشي كلمات ميكي بامتنانٍ، وهو يضيفها إِلَى القطع الأخرى مِنْ حكمة القرن الَّتِي قدَّمها له: *أنتَ إِمَّا مُحِقٌّ وإمَّا لا. العصر الذَّهبيُّ لبطاقات الغداء قَدِ انتهى. لا يمكن أَنْ تقول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك. الرُّؤوس أَمِ الذُّيول؟*

«وِيْ-وِيْ، ما هذا؟» يقول ميكي مع ابتسامةٍ. «ها نحن ننطلق. الحركة. الميكروفون يعمل. واحدٌ ـ اثنان، واحدٌ ـ اثنان. يبدو أَنَّ الرَّجل سوف يبدأ.»

***

«... وهذا العمل رائدٌ، *إِنَّه* شيءٌ يستحقُ أموالًا عامَّةً واهتمامًا عامًّا، وهو عملٌ بالأهمِّيَّة الَّتِي تتجاوز، في رأي أيِّ شخصٍ منطقيٍّ، الاعتراضات الَّتِي شُنَّت ضدَّه. ما نحتاجه....»

ما *نحتاجه*، يفكِّر جوشوا، مقاعد أقرب إِلَى المقدمة. تخطيطٌ نموذجيٌّ بغيضٌ مِنْ جانب كريسبن. طلب كريسبن مقاعد في قلب الأمر، حتَّى يمكن لـ فيت أَنْ يندمجوا مع الجمهور نوعًا ما ويضعوا الأقنعة في اللَّحظة الأخيرة، غير أَنَّ هذه كانت فكرة مغفَّلٍ اعتمدَت عَلَى وجود ممرٍّ أوسط بين المقاعد، الأمر الَّذِي لَمْ يكن هنا فعلًا. الآن سيتوجَّب عليهم أَنْ يقوموا برحلةٍ صعبةٍ إِلَى الممرَّين الجانبيَّين، مثل إرهابيِّين يبحثون عَنْ مقاعدهم في السِّينما، مبطئين مِنَ العمليَّة بالكامل، عندما تكون تكتيكات السُّرعة والصَّدمة هي المسألة اللَّعينة بالكامل. يا له مِنْ أداءٍ. تثير الخطَّة بأكملها إحباط جوش. تفصيليَّةٌ جدًّا وسخيفةٌ، ومصمَّمةٌ بالكامل مِنْ أجل مجدٍ أعظم لكريسبن. يشرع كريسبن في أداء بعض الصُّراخ، يبدأ كريسبن في بعض التَّلويح ببندقيَّةٍ، يقوم كريسبن ببعض تشنُّجات ـ جاك نيكلسون[1] ـ النَّفسيَّة الزَّائفة مِنْ أجل الدِّراما في الأمر. رائعٌ. كُلُّ ما عَلَى جوش أَنْ يقوله هو *يا أبي، أرجوكَ. اعطهم ما يريدون*، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه يعرف بشكلٍ خاصٍّ أَنَّ لديه أملٌ في الارتجال: *يا أبي، أرجوكَ. أنا صغيرٌ جدًّا بشكلٍ سخيفٍ. أريد أَنْ أعيش. اعطهم ما يريدون بحقِّ المسيح. إِنَّه ليس سوى فأرٍ... أنا ابنكَ*، ومِنْ ثَمَّ رُبَّما إغماءةٌ زائفةٌ استجابةً لضربة مسدَّسٍ زائفةٍ إذا بدا والده متردِّدًا. الخطَّة بأكملها مُبتذَلةٌ جدًّا. لكنَّها سوف تنجح (قال كريسبن)، ذلك النَّوع مِنَ الأشياء ينجح دائمًا. لكنْ مع قضائه الكثير جدًّا مِنَ الوقت في مملكة الحيوان، كان كريسبن مثل

1 ـ جون جوزيف نيكلسون معروف بـ (جاك نيكلسون): ولد في 22 أبريل 1937 مدينة نيويورك في ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية. وهو ممثل، ومخرج، منتج أمريكي؛ يعتبر واحدًا من أعظم الممثلين في تاريخ السينما، وهو الممثل الأكثر حصولًا على جائزة الأوسكار في التاريخ، رُشح لجائزة الأوسكار 12 مرة وفاز بها ثلاث مرات، والأدوار التي حصل بها على الجائزة وهي: جائزة أفضل ممثل رئيسي مرتين، في عام 1975 عن دوره في «وطار فوق عش الوقواق»، وعام 1997 في فيلم «أفضل ما يمكن حصوله»، وجائزة أفضل ممثل ثانوي عام 1983 عن دوره في فيلم «شروط إظهار العاطفة». وقد حصل على جائزة الجولدن جلوب 7 مرات. (المترجم).

ماوكلي[1]: لا يعرف شيئًا عَنْ دوافع النَّاس. هو يعرف عَنْ نفسيَّة حيوان الغرير[2]. أكثر ممَّا سوف يعرف بالمرَّة عَنِ الأعمال الدَّاخليَّة لِشخصٍ مِنْ آل تشالفين. لذا ـ وهو ينظر إلَى ماركوس هناك مع فأره الرَّائع ـ يحتفل بالإنجاز العظيم لحياته ورُبَّما *لهذا الجيل*، لَمْ يستطع جوشوا أَنْ يمنع دماغه العنيد مِنَ التَّساؤل ما إذا أمكن أَنَّه وكريسبن وفيت قَدْ أخطأوا الحكم *بالكامل*. أَنْ يكونوا مُختلِّين جدًّا. أَنَّهم استهانوا بقوَّة التشالفينيَّة والتزامها الملحوظ بالعقلانيَّة؛ لأَنَّه مِنَ المحتمل جدًّا أَنَّ والده ببساطةٍ وبدون الكثير مِنَ التَّفكير لَنْ ينقذ الشَّيء الَّذِي يحبُّه مثل بقيَّة العوام. مِنَ المحتمل جدًّا حتَّى ألَّا يتعلَّق الأمر بالحبِّ. وكان مجرَّد التَّفكير في ذلك يجعل جوشوا يبتسم.

***

«... وأودُّ أَنْ أشكركم جميعًا، وخصوصًا الأسرة والأصدقاء الَّذِين ضحُّوا بأمسيتهم لرأس السَّنة... أودُّ أَنْ أشكركم جميعًا عَلَى وجودكم هنا في بداية ما أنا واثقٌ مِنْ أَنَّ الجميع يقرُّون بأَنَّه مشروعٌ مثيرٌ للغاية، ليس لي فقط ولبقيَّة الباحثين وإِنَّما عَلَى نطاقٍ أوسع بكثيرٍ مِنْ....»

يبدأ ماركوس، ويشاهد مِلَّة الأخوة في كيفن يتبادلون النَّظرات. إنَّهم يحسبون قرابةعشر دقائِقَ لكَيْ يبدؤوا. رُبَّما خمس عشرة دقيقةً. سيأخذون دورهم مِنْ عبدول كولين. إنَّهم يتبعون التَّعليمات. مِلَّة، عَلَى الجانب الآخر، لا يتبع التَّعليمات، عَلَى الأقلِّ ليس النَّوع الَّذِي يتمُّ تمريره مِنْ فمٍ لفمٍ أَوْ كتابته عَلَى قطعٍ مِنَ الورق. تعليماته حتميَّةٌ مخفيَّةٌ في الجينات، والصُّلب البارد في جيبه الدَّاخليِّ هو الإجابة عَلَى مطلبٍ وُضع عَلَى كاهله منذ زمنٍ بعيدٍ. إنَّه باندي في أعماقه. وهناك تمرُّدٌ في دمه. أَمَّا بالنِّسبة إلى التَّرتيبات العمليَّة، فلَمْ تكن أمرًا صعبًا: مكالمتان لبعض الأشخاص مِنَ الطَّاقم القديم، واتِّفاقٌ ضمنيٌّ، وبعض أموال كيفن، ورحلةٌ إلَى بريكستون، ومرحبًا بالمعزوفة! كان في يده، أثقل ممَّا تصوَّر، لكن، بعيدًا عَنْ ذلك، لَمْ يكن شيئًا يصعب التَّعامل معه. لقَدْ تعرَّف عليه بشكلٍ تقريبيٍّ. وذكَّره تأثيره بسيَّارةٍ صغيرةٍ مفخَّخةٍ رآها تنفجر، منذ سنواتٍ طويلةٍ، في القسم الأيرلنديِّ مِنْ كيلبورن. كان في التَّاسعة فقط، يمشي إلَى جوار صمد.

1 ـ الشخصية الرئيسة في كتاب الشاعر البريطاني روديارد كبلينغ بعنوان كتاب الأدغال. وهو طفل رضيع يضيع في إحدى غابات الهند وتقوم قبيلة من الذئاب بتربيته. كما يتولى الدب بالو تعليمه وتلقينه الدروس الحكمية، أما الفهد باجيرا فيعلمه كيفية العيش في الغابة. (المترجم).

2 ـ حيوان ينتمي إلى فصيلة ابن عرس. (المترجم).

ولكنْ بينما انتفض صمد، انتفض فعليًّا، فإنَّ مِلَّة لَمْ يتراجع سوى بالكاد. بالنِّسبة إلى ملَّة، ذلك *مألوفٌ* جدًّا. كان *رابط الجأش* بدرجةٍ كبيرةٍ. لأنَّه لا توجد أيُّ أجسامٍ أَوْ أحداثٍ غريبةٍ بعد الآن، تمامًا كما أنَّه ليسَت هناك أيُّ أشياء مقدَّسةٍ. جميعها مألوفةٌ. جميعها في التِّليفزيون. وهكذا أمسك بالمعدن البارد، وهو يشعر به بالقرب مِنْ جلده للمرَّة الأولى تمامًا: الأمر سهلٌ. وعندما تأتي الأشياء إليكَ بسهولةٍ، عندما تصبح الأشياء واضحةً فجأةً بدون جهدٍ، يكون الأمر مُغريًا جدًّا لاستخدام الكلمة ذات الأربعة حروف. **مصير**. الَّتي تشبه التِّليفزيون بالنِّسبة إلى مِلَّة إلَى حدٍّ كبيرٍ: سردٌ لا يتوقَّف، تمَّت كتابته وإنتاجه مِنْ قِبَل شخصٍ ما آخر.

وبالطَّبع، مع كونه الآن هنا، ومع كونه الآن مُخدَّرًا وخائفًا، ولا يبدو الأمر سهلًا جدًّا، يبدو الجانب الأيمنْ مِنْ سترته كما لَوْ أنَّ أحدهم وضع سندانًا كارتونيًّا لعينًا هناك - فهو يرى الآن الاختلاف الهائل بين التِّليفزيون والحياة، وينخسه الأمر مباشرةً في أعَلَى الفخذ. العواقب. لكنْ حتَّى أَنْ تفكِّر في الأمر فهو أَنْ تنظر إلَى الأفلام كمرجعٍ (لأنَّه ليس مثل صمد أَوْ مانجال باندي؛ فهو لَمْ يخض حربًا، ولَمْ يرها فعليًّا قطُّ، وليسَت لديه أيَّ مقارناتٍ أَوْ نوادر)، هو أَنْ تتذكَّر باتشينو في الجزء الأول مِنَ *العرَّاب*، يقبع في دورة مياه المطعم (كما قبع باندي في غرفة الثُّكنات). يفكِّر للحظةٍ فيما يعنيه أَنْ تنطلق مِنْ حمَّام الرِّجال وتفجِّر الجحيم في الرَّجلَين عَلَى الطَّاولة ذات المربَّعات. ويتذكَّر مِلَّة. يتذكَّر إعادة العرض وتجميد اللَّقطة وإبطاء عرض ذلك المشهد مرَّاتٍ لا تُحصى عَلَى مرِّ السَّنوات. يتذكَّر أنَّه بغضِّ النَّظر عَنِ المدَّة الَّتي تتمسَّك خلالها باللَّحظة القصيرة جدًّا مِنْ تفكير باتشينو العميق، وبغضِّ النَّظر عَنْ عدد المرَّات الَّتي تعيد فيها عرض الشَّكِّ الَّذي يبدو أنَّه يعبر وجهه، فإنَّه لا يفعل أيَّ شيءٍ آخر سوى ما كان دائمًا في طريقه لأنْ يفعله.

***

«... وعندما نضع في الاعتبار المغزى الإنسانيَّ لهذه التِّكنولوجيا... الَّتي سوف تثبت، كما أعتقد، تعادل اكتشافات هذا القرن في مجالات الفيزياء: النِّسبيَّة، وميكانيكا الكمِّ... عندما نضع في الاعتبار الاختيارات الَّتي يتيحها لنا... ليس بين عينٍ زرقاء وعينٍ بُنِّيَّة، ولكنْ بين عيونٍ مِنْ شأنها أَنْ تكون عمياء وتلك الَّتي قَدْ ترى....»

ولكنَّ أَيرِي تعتقد - الآن - أَنَّ هناك أشياء لا يمكن للعين البشريَّة أَنْ تكشفها، ليس مع أَيِّ عدسةٍ مُكبِّرةٍ، ولا مناظير، ولا ميكروسكوباتٍ. كان يجب أَنْ تعرف، وقَدْ حاولَت. لقَدْ نظرَت إِلَى واحدٍ، ومِنْ ثَمَّ إِلَى الآخر، واحدٍ ومِنْ ثَمَّ الآخر - مرَّاتٍ كثيرةٍ جدًّا حتَّى أَنَّهما لَمْ يعودا يبدوان كوجهين، وإِنَّما فقط لوحات زيتٍ بُنِّيَّة مع انثناءاتٍ غريبة، مثل أَنْ تقول كلمةً كثيرا جدًّا حتَّى لا تعود ذات معنى. ماجد ومِلَّة. مِلَّة وماجد. *ماجلة* وملجد.

طلبَت مِنْ جنينها أَنْ يقدِّم لها علامةً مِن نوعٍ ما، ولكنْ لا شيء. كانت لديها ترنيمةٌ مِنْ منزل هورتنس تدور في رأسها - المزمور 63 - *إِلَيْكَ أُبَكِّرُ. عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي*... ولكنَّه يطلب الكثير جدًّا منها. إِنَّه يطلب منها أَنْ ترجع إِلَى الوراء، إِلَى الوراء، إِلَى الوراء إِلَى الجذور، إِلَى اللَّحظة الجوهريَّة عندما يلتقي حيوانٌ مَنَويٌّ ببويضةٍ، عندما تلتقي بويضةٌ بحيوانٍ مَنَويٍّ - في وقتٍ مبكِّرٍ جدًّا في هذا التَّاريخ لا يمكن تتبُّعه. طفلُ أَيرِي لا يمكن تعيينه بشكلٍ دقيقٍ ولا الحديث عنه بأَيِّ موثوقيَّةٍ. بعض الأسرار دائمةٌ. في رؤيا، رأَت أَيرِي لحظةً، لحظةً ليسَت بعيدةً عن الآن؛ حيث لَمْ تعد الجذور مهمَّةً بعد الآن لأَنَّها لا تستطيع لأَنَّها لا يجب أَنْ تفعل لأَنَّها طويلةٌ جدًّا وهي متعرِّجةٌ جدًّا وهي - فقط - مدفونةٌ عميقًا حدَّ اللَّعنة. إِنَّها تتطلَّع إِلَى تلكَ اللَّحظة.

***

«*هذا الَّذِي سيكون شجاعًا في مواجهة كُلِّ الكوارث*....»

لبضع دقائِقَ الآن، في مستوًى أقلِّ مِنْ حديث ماركوس وغوالق الكاميرات، كان هناك صوتٌ آخر (تَوَافَقَ مِلَّة بالتَّحديد معه)، صوت غناءٍ خافتٍ، مسموعًا. بذل ماركوس أقصى جهده لكَيْ يتجاهله ويواصل، لكنَّه أصبح أعَلَى تمامًا بشكلٍ ملحوظٍ. بدأ في التَّوقُّف بين كلماته لكَيْ ينظر حوله، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّه مِنَ الواضح أَنَّ الأغنية ليسَت في الغرفة.

«*دعوه يتبع السَّيِّد في ثباتٍ*....»

«يا إلهي،» تغمغم كلارا، وهي تنحني إِلَى الأمام لكَيْ تهمس في أذن زوجها. «إِنَّها هورتنس. إِنَّها هورتنس. يا آرشي، يجب أَنْ تذهب وتحلَّ الموضوع. أرجوكَ. مِنَ الأسهل لكَ أَنْ تخرج مِنْ مقعدك.»

ولكنَّ آرشي مستمتع تمامًا بالوقت. بين حديث ماركوس وتعليق ميكي، يشبه الأمر مشاهدة تليفزيونَين في الوقت نفسه. معلوماتيٌّ للغاية.

«اطلبي مِنْ أيري.»

«لا أستطيع. إنَّها بعيدةٌ جدًّا لا تستطيع الخروج. يا آرشي،» تهدر، وهي تنزلق إِلَى لهجةٍ عاميَّةٍ مُهدِّدةٍ: «لا يمكنكَ فقط أَنْ تتركها تغنِّي خلال الحدَث بالكامل!»

«سام»، يقول آرشي، وهو يحاول أَنْ يرسل همسته. «سام، اذهب أنتَ. أنتَ لا تريد حتَّى أَنْ تكونَ *هنا* في الدَّاخل. اذهب. أنتَ تعرف هورتنس. اخبرها فقط أَنْ تخفض صوتها. لأنَّني أرغب - فعلًا - في الاستماع إِلَى بقيَّة هذا، أنتَ تعرف. *معلوماتيٌّ للغاية.*»

«بكُلِّ سرورٍ،» يهسهس صمد، وهو يخرج مِنْ مقعده بشكلٍ مفاجئٍ، ولا يُقلق نفسه بالاعتذار بينما يخطو بقوَّةٍ عَلَى أصابع قدمَي نينا. «لا حاجة، أظنُّ، لأَنْ تحتفظي بمقعدي.»

ينظر ماركوس، الَّذِي هو الآن في ربع المسافة مِنَ الوصف التَّفصيليِّ لسنوات الفأر السَّبع، مِنْ ورقته إِلَى المقاطعة، ويتوقَّف لكَيْ يشاهد الشَّخصيَّة الَّتِي تتوارى مع البقيَّة مِنَ الجمهور.

«أظنُّ أَنَّ أحدًا ما اكتشف أَنَّ هذه القصَّة ليسَت لها نهايةٌ سعيدةٌ.»

بينما يضحك الجمهور بشكلٍ خفيفٍ ويستقرُّون مرَّةً أخرى في صمتٍ، يدفع ميكي آرشيبالد في ضلوعه بخفَّةٍ. «الآن أنتَ ترى، ذلك يجعل الأمر أفضل،» يقول. «البعض مِنْ لمسة الفكاهة - يبهج الأمور بعض الشَّيء. تعبيرات العامَّة، أليس كذلك؟ لَمْ يذهب الجميع إِلَى أوكسبريدج اللَّعينة. ذهب البعض منا إلى ـــ»

«جامعة الحياة،» يوافق آرشي، وهو يومئ؛ لأَنَّهما كلاهما كانا هناك، وإِنْ في أوقاتٍ مختلفةٍ. «لا يمكن هزيمتها.»

***

في الخارج: يستشعر صمد عزمه، قويًّا عندما يغلق الباب بقوَّةٍ مِنْ ورائه، ويضعف بينما يقترب مِنْ سيِّدات الشُّهود الهائلات، عشرةٍ منهنَّ، يرتدين الشَّعر المستعار بشكلٍ مُفرطٍ، يقفن عَلَى السَّلالم الأماميَّة، يحدثن ضجيجًا كبيرًا بإيقاعهنَّ كما لَوْ يرغبن في هزيمة شيءٍ ما أكثر أهميَّةً مِنَ الإيقاع. جميعهنَّ بأعَلَى صوتٍ. اعترف خمسةٌ مِنْ حُرَّاس الأمِنْ فعليًّا بالهزيمة، وحتَّى ريان توبس بدَا في رهبةٍ بعض الشَّيء مِنْ

فرانكشتايند[1]ه الكوراليّ، مفضِّلاً أَنْ يقف عَلَى مسافةٍ عَلَى الرَّصيف، يوزِّع نسخًا مِنْ برج *المراقبة* للحشود الضَّخمة المتوجِّهة نحوهو.

«هَلْ أحصل عَلَى مزايا؟» تساءلَت فتاةٌ سكرانةٌ، وهي تفحص لوحةً كيتشيَّةً[2] للجنَّة عَلَى الغلاف، وتضيفها إِلَى حفنة نشرات نادي رأس السَّنة. «هَلْ لها نمط ثيابٍ محدَّد؟»

بنوعٍ مِنَ القلق، ينقر صمد عَلَى أكتاف لاعبي الرُّجبي الأماميَّة الَّتي ترتديها عازفة المثلَّث. ويجرِّب مجموعةً كاملةً مِنَ المفردات المتاحة لرجلٍ هنديٍّ يخاطب امرأةً جامايكيَّةً عجوزًا تبدو خطيرةً (*إذاأمكنَرجاءًمعذرةًبالإمكانرجاءًمعذرَة* ـ أنتَ تتعلَّم ذلك في محطَّات الباص)، ولكنَّ الطُّبول تمضي قدمًا، والمزمار يطِنُّ، والصِّنج تتصادم. والسَّيِّدات يواصِلن دقَّ أحذيتهن المسطَّحة في الصَّقيع. وهورتنس بودين، المسنَّة جدًّا عَلَى المسير، والَّتي تجلس عَلَى كرسيٍّ مطويٍّ، تواصل التَّحديق بحَزمٍ في كتلة النَّاس الرَّاقصين في ساحة ترافالجار. ومعها لافتةٌ بين ركبتيها تنصُّ ـ ببساطةٍ ـ على:

لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ ـ سفر الرُّؤيا 1:3

«السَّيِّدة بودين؟» يقول صمد، وهو يخطو إِلَى الأمام في وقفةٍ بين الآيات. «أنا صمد إقبال. صديقٌ لآرشيبالد جونز.»

لأَنَّ هورتنس لا تنظر إليه أَوْ تُبدي أَيَّ علامةٍ عَلَى تمييزه، يشعر صمد بأَنَّه مضطرٌّ للتَّنقيب بشكلٍ أعمق في شبكة علاقاتهما المعقَّدة. «زوجتي صديقةٌ جيِّدةٌ لابنتكِ، وابنة أخي زوجتي أيضًا. ابناي صديقان لـــ »

تمصُّ هورتنس أسنانها. «أنا أعرف مَنْ أنت، يا رجل. أنتَ تعرفني، أنا أعرفكَ. لكنْ عند هذه النُّقطة، هناك نوعان فقط مِنَ النَّاس في العالم.»

---

1 ـ فرانكنشتاين: رواية للمؤلفة البريطانية ماري شيلي صدرت سنة 1818. تدور أحداث الرواية عن طالب ذكي اسمه فيكتور فرانكنشتاين يكتشف في جامعة ركنسبورك الألمانية طريقة يستطيع بمقتضاها بعث الحياة في المادة. يبدأ فرانكنشتاين بخلق مخلوق هائل الحجم، ولكنه يرتكب خطأ فيكتشف أن مخلوقه غاية في القبح. (المترجم).

2 ـ يعود أصل كلمة «كيتش» إِلَى اللغة الألمانية؛ حيث ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر كتعبير عن موجة فنية أنتجت وقتها فنونًا رديئة اعتمدت على التقليد والمبالغة. وانتقلت الكلمة من بلد إِلَى بلد، ثم اشتهرت مع قراءات خاصة للكلمة من قبل بعض الكتاب، خصوصًا ذلك التقديم الذي أضافه الأديب التشيكي ميلان كونديرا لملايين القراء حين ركز على وجه آخر لهذه الكلمة. فالكيتش لديه ليس فقط الفن الرخيص كما يظن البعض، بل هو سلوك وموقف وصفة لفئة من البشر ترى نفسها في الكذب المجمل. (المترجم).

«الأمر فقط أَنَّنا كُنَّا نتساءل،» يقاطعها صمد، وهو يرصد الخطبة ويرغب في قطعها مِنْ جذرها: «إذا أمكنكِ رُبَّما أَنْ تخفضي الضَّوضاء إِلَى حدٍّ ما... إذا فقط ـــ»

ولكنَّ هورتنس تشتبك معه بالفعل، العينان مغلقتان، والذِّراع مرفوعةٌ، تشهد بالحقيقة عَلَى الطَّريقة الجامايكيَّة القديمة: «نوعان مِنَ النَّاس: هؤلاء الَّذِين يغنُّون للرَّبِّ وهؤلاء الَّذِين يرفضونه بسبب موبقات أرواحهم.»

تستدير إِلَى الخلف. وتقف. وتهزُّ لافتتها بشدَّةٍ في اتِّجاه حجافل السَّكارى الَّذِين يتحرَّكون صعودًا وهبوطًا ككتلةٍ واحدةٍ في نوافير ترافالجار، وعندها يُطلب منها أَنْ تفعل ذلك مرَّةً ثانيةً لأجل مُصوِّرٍ صحفيٍّ ساخرٍ مع مساحةٍ تنتظر لملئها في الصَّفحة السَّادسة.

«أعلَى قليلًا باللافتة، يا عزيزتي،» يقول، والكاميرا مرفوعةٌ للأعلى، وإحدى ركبتيه في الجليد. «هيَّا، اغضبي، هذا هو! رائعٌ.»

ترفع نساء الشُّهود أصواتهنَّ، مُرسلاتٍ أغنيةً إِلَى السَّماء. «*إِلَيْكَ أُبَكِّرُ*»[1] تغنِّي هورتنس. «*عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي فِي أَرْضٍ نَاشِفَةٍ وَيَابِسَةٍ بِلاَ مَاءٍ....*»

يشاهد صمد ذلك كاملًا ويجد نفسه، لدهشته، غير راغِب في إسكاتها. جزئيًّا لأَنَّه مُرهَقٌ. وجزئيًّا لأَنَّه مُسنٌّ. ولكنْ معظم الأمر لأَنَّه كان ليفعل الأمر نفسه، وإِنْ كان باسمٍ مُختلفٍ. إِنَّه يعرف عَمَّ يبحث. وهو يعرف الجفاف. وقَدْ شعر بالعطش الَّذِي تعانيه في أرضٍ غريبةٍ ـ فظيعًا ومستمرًّا ـ العطش الَّذِي يستمرُّ طوال حياتك.

لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك، يُفكِّر، لا يمكن قول ما هو أكثر عدلًا مِنْ ذلك.

***

في الدَّاخل: «لكنِّي ما زلتُ أنتظر أَنْ يصل إِلَى الجزء الخاصِّ ببشرتي. لَمْ أسمع شيئًا بعد، هَلْ فعلتَ، يا آرش؟»

«لا، لا شيء بعد. أتوقَّع أَنَّ لديه الكثيرَ لِكَيْ يتطرَّق إليه. الثَّوريَّة، وكُلَّ هذا.»

«نعم، طبيعيٌّ... لكنَّكَ تدفع نقودكَ، وتحصل عَلَى اختياركَ.»

1 ـ يا الله، إلهي أنت. إليك أبكر. عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء. (مزمور 63:1).

«أنتَ لَمْ تدفع لتذكرتكَ، أليس كذلك؟»

«لا. لا، لَمْ أفعل. لكنَّني ما تزال لدَيَّ توقُّعَاتٌ. المبدأ هو نفسه، أليس كذلك؟ وِي ـ وي، اصمت للحظةٍ... ظننتُ أنَّني سمعتُ جِلْد للتَّوِّ عند....»

سمع ميكي جِلْد بالفعل. الأورام الحليميَّة عَلَى الجِلد، عَلَى ما يبدو. خمس دقائِق ثمينةٍ. لَمْ يفهم آرشي كلمةً واحدةً منها. لكن في نهايتها، يبدو ميكي راضيًا، كما لَوْ أنَّه حصل عَلَى كُلِّ المعلومات الَّتِي يبحث عنها.

«ممم، الآن لذلك جئتُ، يا آرش. مثيرٌ جدًّا. طفرةٌ طبيَّةٌ عظيمةٌ. عمَّالٌ إعجازيُّون لعناء، هؤلاء الأطبَّاء.»

«... وفي هذا،» يقول ماركوس، «وكان أساسيًّا ولا غنى عنه. ليس أنَّه فقط مصدر إلهامٍ شخصيٍّ، ولكنَّه وضع الأسس العامَّة للكثير مِنْ هذا العمل، لا سيَّما في ورقته المؤثِّرة، الَّتِي سمعتُ عنها لأوَّل مرَّةٍ في....»

أوه، ذلك لطيفٌ. الاعتراف بفضل الرَّجل المسنِّ. ويمكنكَ أَنْ تقول، إنَّه سعيدٌ بسماع ذلك. يبدو دامعًا بعض الشَّيء. لَمْ أسمع اسمه عندما قدَّموه. ومع ذلك، فمِنَ اللَّطيف أَلَّا تأخذ كُلَّ المجد لنفسكَ. ولكنْ بعد ذلك مرَّةً أخرى، أنتَ لا تريد أَنْ تبالغ في الأمر. الطَّريقة الَّتِي يواصل بها ماركوس، تبدو كما لوْ أَنَّ الرَّجل المسنَّ قَدْ فعل كُلَّ شيءٍ.

«يا ويلي،» يقول ميكي، وهو يفكِّر في الشَّيء نفسه: «ثناءٌ مُفرِطٌ، هه؟ ظننتكَ قلتَ إِنَّ تشالفين هذا هو الرَّجل المهمُّ.»

«رُبَّما هما شريكان في الجريمة،» يقترح آرشي.

«... موسِّعًا نطاق البحث، عندما كان العمل في هذه المجال يعاني مِن نقصٍ شديدٍ في التَّمويل وبدَا أَنَّه سيظلُّ في عالم الخيال العلميِّ. لهذا السَّبب وحده فقَدْ كان الرُّوح الموجِّهة، إذا أحببتم، خلف فريق البحث، وهو، مثلما دائمًا، مُرشِدي، وهو الموقع الَّذِي شغَلَه لعشرين عامًا الآن....»

«هلْ تعلم مَنْ مرشدي؟»، يقول ميكي. «محمد علي. بدون شكٍّ. نزاهة العقل، ونزاهة الرُّوح، ونزاهة الجسد. رجلٌ عظيمٌ. مقاتل الأشرار. وعندما قال إنَّه الأعظم، لَمْ يقل فقط (الأعظم).»

يقول آرشي: «لا؟»

«لا، يا زميل،» يقول ميكي، بشكلٍ رسميٍّ. «قال إنَّه *الأعظم علَى مرِّ العصور*. الماضي، والحاضر، والمستقبل. لقدْ كان ابن حرامٍ مغرورًا، علي. هو ـ قطعًا ـ مُرشِدي.»

مُرشِدٌ... يفكِّر آرشي. بالنِّسبة إليه، كان دائمًا صمد. يمكنك أَنْ تخبر ميكي بذلك، بوضوحٍ. يبدو سخيفًا. يبدو غريبًا. لكنَّها الحقيقة. دائمًا سامي. في السَّرَّاء والضَّرَّاء. حتَّى عندما كان العالم ينتهي. لَمْ يتَّخذ قرارًا بدونه في أربعين عامًا. سام العجوز الطَّيِّب. سام الرَّجل.

«... وهكذا إذا كان أَيُّ شخصٍ يستحقُّ نصيب الأسد مِنَ التَّقدير للمعجزة الَّتِي ترونها أمامكم، فهو د. مارك ـ بيير بيريه. رائعًا كرجلٍ ورائعًا....»

كُلُّ لحظةٍ تحدثُ مرَّتَين: في الدَّاخل وفي الخارج، وهما تاريخان مختلفان. يلاحظ آرشي الاسم، بصوتٍ خافتٍ، في مكانٍ ما بالدَّاخل، ولكنَّه كان ملتفًّا في مقعده بالفعل عندها، يحاول أَنْ يرى ما إذا كان صمد عائدًا. لا يستطيع رؤية صمد. بدلًا مِنْ ذلك يرصد مِلَّة، الَّذِي يبدو غريبًا. الَّذِي يبدو مُضحكًا بلا جدالٍ. غريبًا أكثر منه مُضحكًا. يتمايل بعض الشَّيء في مقعده أكثر مِنْ أَيِّ وقتٍ مضى، ولا يستطيع آرشي أَنْ يلاقي عينيه لأجل نظرة أنتَ بخيرٍ يا زميل؛ لأَنَّ عينيه مُثبَّتتان عَلَى شيءٍ، وعندما يتتبَّع آرشي مسار هذا التَّحديق، يجد نفسه ينظر إِلَى نفس الشَّيء الغريب: رجلٍ مُسنٍّ يذرف دموعًا صغيرةً مِنَ الفخر. دموعًا حمراء. دموعًا يميزها آرشي.

ولكنْ ليس قبل أَنْ يميزها صمد: *الكابتن صمد مياه*، الَّذِي خطا ـ بالكاد ـ في صمتٍ عبر الباب الحديث بآليَّته الصَّامتة؛ *الكابتن صمد مياه*، الَّذِي يتوقَّف للحظةٍ عَلَى العتبة، ويمعن النَّظر عبر نظَّارات قراءته، ويلاحظ أَنَّه تعرَّض للكذب مِنْ صديقه الوحيد في العالم لمدَّة خمسين عامًا. أَنَّ حجر الزَّاوية في صداقتهما لَمْ يكن مصنوعًا مِنْ شيءٍ أكثر رسوخًا مِنَ المارشيميللو وفقَّاعات الصَّابون. أَنَّ هناك مسافةً، مسافةً هائلةً إِلَى آرشيبالد جونز أبعد بكثيرٍ ممَّا تصوَّر عَلَى الإطلاق. يدرك كُلَّ شيءٍ مرَّةً واحدةً مثل ذروة موسيقى هنديَّةٍ سيِّئةٍ. ثُمَّ عندها، في بهجةٍ فظيعةٍ بعينها، يصل إِلَى الحقيقة الأساسيَّة في الأمر، الإدراك. *تلك الحادثة وحدها ستحفظنا نحن الاثنَين فتيَين كبيرَين للأربعين عامًا القادمة*. إنَّها القصَّة الَّتِي تُنهي كُلَّ القصص. إنَّها الهديَّة الَّتِي تظلُّ تعطي.

«آرشيبالدا» يلتفت عَنِ الدُّكتور إِلَى الملازم ويطلق ضحكةً هيستيريَّةً صاخبةً قصيرةً؛ ويبدو مثل عروسٍ جديدةٍ تنتظر ـ بالكادِ ـ إِلَى عريسها في إدراكٍ كاملٍ في اللَّحظة الَّتِي يكون فيها كُلُّ شيءٍ بينهما هما ـ الاثنين ـ قَدْ تغيَّر. «أنتَ يا ذا الوجهين يا لوطيُّ يا ابن الحرام يا محتالُ يا ميسا ما تا، ناكح أختك، شورا ـ بايشا، سيوت ـ مورا نِي، حرامٌ جدًّا....»

ينزلق صمد إِلَى العامِّيَّة البنجاليَّة، المسكونة جدًّا بألوان الكذَّابين، وناكحي الأخوات، وأبناء وبنات الخنازير، والنَّاس الَّذِين يمنحون أمهاتهم هم أنفسهم متعة الجنس الفمويّ.

ولكنْ حتَّى قبل هذا، أَوْ عَلَى الأقلِّ بالتَّزامنْ مع هذا، بينما الجمهور يتابع، ممتعضًا مَنْ هذا الرَّجل المسنُّ البُنِّيُّ الَّذِي يصرخ عَلَى هذا الرَّجل المسنّ الأبيضِ بلسانٍ أجنبيٍّ، يشعر آرشي بأَنَّ هناك شيئًا ما آخر يجري، حركةً ما في هذا الفضاء، حركةً محتملةً في كُلِّ أنحاء الغرفة (الرِّجال الهنود في الخلف، والصِّغار الَّذِين يجلسون بالقُرب مِنْ جوشوا، وأَيرِي الَّتِي تنظر مِنْ مِلَّة إِلَى ماجد، مِنْ ماجد إِلَى مِلَّة، مثل حكمٍ في مباراةٍ) ويرى أَنَّ مِلَّة سوف يصل إِلَى هناك أوَّلًا؛ وأَنَّ مِلَّة يمدُّ يده مثل باندي؛ وآرشي رأى التِّليفزيون ورأى الحياة الحقيقيَّة ويعرف ما يعنيه مدٌّ مثل هذا لليد، لذا فهو يقف. لذا فهو يتحرَّك.

لذا ما يكاد المسدَّس يرى الضَّوء، حتَّى يكون هناك، هو هناك بدون أَيِّ عملةٍ لكَيْ تساعده، هو هناك قبل أَنْ يستطيع صمد إيقافه، هو هناك بدون أيِّ حُجَّةٍ، هو هناك بين قرار مِلَّة إقبال وبين هدفه، مثل اللَّحظة ما بين الفكرة والكلام، مثل تداخل لحظةٍ بين الذِّكرى أَوِ النَّدم.

***

عند نقطةٍ ما في الظَّلام، توقَّفا عَنِ المشي عبر السُّهول ودفع آرشي الطَّبيب إِلَى الأمام، جعله يقف في مواجهته تمامًا، حيث يمكنه أَنْ يراه.

«ابق هناك،» قال، بينما خطا الطَّبيب بدون قصدٍ إِلَى شعاعٍ مِنْ ضوء القمر. «ابق هناك بالضَّبط بِكُلِّ لعنةٍ.»

لأَنَّه أراد أَنْ يرى الشَّرَّ، الشَّرَّ الخالص؛ لحظة الاعتراف العظيم، كان بحاجةٍ لأَنْ يراها ـ ومِنْ ثَمَّ يمكنه أَنْ يمضي في الأمر كما تَمَّ التَّرتيب سابقًا. غير أَنَّ الطَّبيب انحنى بشدَّةٍ وبدا ضعيفًا. وجهه مغطًّى بالدَّم الأحمر الشَّاحب كما لَوْ أَنَّ المهمَّة قَدْ أُنجزَت

فعلًا. لَمْ يَرَ آرشي مِنْ قبل رجلًا منهارًا بهذا القدر، مهزومًا تمامًا بهذا القدر. سحب ذلك الرّيح مِنْ أشرعته نوعًا ما. تملّكه إغراءٌ أَنْ يقول *أنتَ تبدو بنفس حالتي*؛ لأنَّه إذا كان هناك تجسيدٌ ما للصُّداع العنيف، مِنَ الغثيان الكحوليِّ الَّذِي يصعد مِنْ بطنه، فهو واقفٌ أمامه الآن. لكنَّ أيًّا مِنَ الرَّجلين لَمْ يتحدَّث؛ وقفا هناك فقط لبعض الوقت، ينظران أحدهما إِلَى الآخر عبر البندقيَّة المذخَّرة. ولدى آرشي هذا الشُّعور المضحك بأَنَّه يمكنه أَنْ يطوي هذا الرَّجل بدلًا مِنْ قتله. أَنْ يطويه ويضعه في جيبه.

«انظر، أنا آسفٌ بشأن ذلك،» قال آرشي يائسًا، بعد ثلاثين ثانيةً طويلةً مِنَ الصَّمت. «الحرب انتهت. ليس لديَّ شيءٌ ضدَّكَ بشكلٍ شخصـ..لكنَّ صديقي، سام...حسنًا، أنا في موقفٍ ما. وهذه هي المسألة.»

طرف الطَّبيب بعينيه عدَّة مرَّاتٍ وبدا أَنَّه يكافح لكَيْ يسيطر عَلَى تنفُّسه. ومِنْ خلال شفتين حمراوين مِنْ دمه قال: «عندما كُنَّا نمشي قلتَ إِنَّني قَدْ أدافع...؟»

تحرَّك الطَّبيب، وهو يحتفظ بيديه خلف رأسه، لكَيْ يركع عَلَى ركبتَيه، غير أَنَّ آرشي هزَّ رأسه وتذمَّر. «أنا أعرف ما قلتُ... لكنْ ليس هناك... الأمر أَنَّه مِنَ الأفضل فقط لَوْ ـــ» قال آرشي بحزنٍ، وهو يمثِّل سحب الزِّناد في صمتٍ وارتداد البندقيَّة. «ألستَ تظنُّ. أقصد، مِنَ الأسهل...مِنْ كُلِّ الجهات؟»

فتح الطَّبيب فمه كما لَوْ ليقول شيئًا ما، ولكنَّ آرشي هزَّ رأسه مرَّةً أخرى. «أنا لَمْ أفعل هذا مِنْ قبل مطلقًا، وأنا نوعًا ما... حسنًا، سكران، بصراحةٍ... لقَدْ شربتُ الكثير فعلًا...ولَنْ يساعد في الأمر... سوف تقف هناك تتكلَّم ولَنْ أكون قادرًا رُبَّما عَلَى فهم أيِّ شيءٍ، كما تعرف، لذلك....»

رفع آرشي ذراعيه حتَّى كانا عَلَى خطٍّ واحدٍ مع جبهة الطَّبيب، وأغلق عينيه، وحرَّر البندقيَّة للإطلاق.

ارتفع صوت الطَّبيب أوكتافًا[1] واحدًا. «سيجارةٌ؟»

وكان هذا في تلك اللَّحظة الَّتِي بدأَت عندها الأشياء تسوء. كما ساءَت بالنِّسبة إِلَى باندي. كان يجب أَنْ يطلق النَّار عَلَى الرَّجل في ذلكَ الوقت وذلك المكان. رُبَّما. ولكنَّه فتح عينيه بدلًا مِنْ ذلك لكَيْ يرى ضحيَّته وهو يكافح لكَيْ يسحب حزمة سجائر مسحوقةٍ وعلبة ثقابٍ مِنْ جيبه العلويِّ مثل إنسانٍ.

1 ـ الأوكتاف: النغمة الثامنة في التتابع بين درجات السلم الموسيقي. (المترجم)

«هَلْ يمكن لي ـــ أرجوكَ؟ قبل....»

أطلق آرشي مِنْ أنفه كُلَّ النَّفَس الَّذِي استجمعه لكَيْ يقتل رجلًا. «لا يمكن أَنْ تقول لا للطَّلب الأخير»، قال آرشي، لأَنَّه شاهد الأفلام. «لدَيَّ ثقابٌ، إذا أحببتَ.»

أومأ الطَّبيب، وأشعل آرشي عود ثقابٍ، مال الطَّبيب إلَى الأمام ليشعل السِّيجارة.

«حسنًا، انجز الأمر،» قال آرشي، بعد لحظةٍ، لَمْ يستطع أبدًا *مقاومة* نقاشٍ بلا معنًى: «إذا كان لديكَ ما تقوله، فقله. ليسَت لدَيَّ اللَّيلة بأكملها.»

«أيمكنني الحديث؟ هَلْ سنجري محادثةً؟»

«لَمْ أقل إِنَّنا سنجري محادثةً،» قال آرشي بوضوحٍ. لأَنَّ هذا تكتيكٌ لنازيِّي الأفلام (ويجب عَلَى آرشي أن يعرف؛ لقَدْ قضى السَّنوات الأولى للحرب يشاهد أفلام النَّازيّين في برايتون أوديون)، إِنَّهم يحاولون الحديث لكَيْ يجدوا مَخرجًا مِنَ الأشياء. «لقَدْ قلتُ إِنَّك ستتحدَّث ومِنْ ثَمَّ سوف أقتلك.»

«أوه نعم، بالطَّبع.»

استخدم الطَّبيب كُمَّه لكَيْ يمسح وجهه، ونظر إِلَى الفتى بغرابةٍ، وهو يتحقَّق مرَّتَين لكَيْ يرى إِنْ كان جادًّا. وبدا الفتى جادًّا.

«حسنًا، إذنْ... إذا أمكنني أَنْ أقول ذلك، يا....» تعلَّق فم الطَّبيب مفتوحًا، في انتظار آرشي لكَيْ يُدرج اسمًا لكنْ لَمْ يأتِ شيءٌ. «يا ملازم...إذا أمكنني أَنْ أقول ذلك، يا ملازم، يبدو لي أَنَّكَ في شيءٍ ما مِنْ... مِنْ...المأزق الأخلاقِيّ.»

لَمْ يعرف آرشي ماذا يعني مأزقٌ. ذكَّره ذلك بالفحم، والمعادن، وويلز، في مكانٍ ما بين المحجر والمسبك[1]. في حيرةٍ تامَّة، قال ما يقوله دائمًا في تلك المواقف. «ينبغي أَنْ أقول ذلك!»

«امم ... نعم، نعم،» قال الدُّكتور مريضٌ، وهو يحصل عَلَى بعض الثِّقة، فهو لَمْ يكنْ قَدْ تلقَّى طلقةً بعد ومرَّت دقيقةٌ كاملةٌ حتَّى الآن. «يبدو لي أَنَّ لديك معضلةً. مِنْ جهةٍ...أنا لا أعتقد أَنَّك ترغب في قتلي ـــ »

تنمَّر آرشي مُظهرًا تصميمه. «الآن انظر، يا نور الشَّمس ـــ »

1 ـ الإشارة هنا للتقارب الصوتي بين quandary ـ مأزق، و quarry ـ مسبك. (المترجم).

«ومِنَ الجهة الأخرى، فقَدْ وعدتَ صديقكَ المتحمِّس أَنَّك سوف تفعل. لكنَّ الأمر *أكثر* مِنْ ذلك.»

نفضَت يدا الطَّبيب المرتعشتان سيجارته بدون قصدٍ، وشاهد آرشي الرَّماد يسقط مثل ندف ثلجٍ رماديَّةٍ عَلَى حذائه.

«مِنْ جهةٍ، لديكَ واجبٌ تجاه ـــ تجاه ـــ بلدكَ وتجاه ما تؤمِنْ بأَنَّه صوابُ. ومِنَ الجهة الأخرى، أنا إنسانٌ. أنا أتحدَّث إليكَ. أنا أتنفَّسٍ وأنا أنزف كما تفعل أنتَ. وأنتَ لا تعرف، عَلَى وجه اليقين، أيَّ نوعٍ مِنَ النَّاس أنا. لديكَ فقط شائعاتٌ؛ لذاأنا أتفهَّم صعوبة موقفك.»

«ليسَت لديَّ صعوبةٌ. *أنتَ* مَن لديه صعوبةٌ، يا نور الشَّمس.»

«ومع ذلك، عَلَى الرَّغم مِنْ أَنَّني لستُ صديقكَ، فإِنَّ لديكَ واجبٌ تجاهي؛ لأَنَّني إنسانٌ. أعتقد أنَّكَ عالقٌ بين الواجبات. أظنُّ أَنَّكَ تجد نفسكَ في وضعٍ مُثيرٍ جدًّا للاهتمام.»

خطا آرشي إِلَى الأمام، ووضع الفوَّهة عَلَى بعد بوصتَين مِنْ جهة الطَّبيب. «هَلِ انتهيتَ؟»

حاول الطَّبيب أَنْ يقول نعم لكنْ لَمْ يأتِ شيءٌ سوى لعثمةٍ.

«جيِّدٌ.»

«انتظر! *أرجوكَ*. هَلْ تعرف سارتر؟»

تنهَّد آرشي، مستاءً. «لا، لا، لا ـــ ليس لدينا أيُّ أصدقاء مشتركين ـــ أعرف ذلكَ، لأَنَّ لدَيَّ صديقٌ واحدٌ فقط واسمه إكـ-بول. انظر، سوف أقتلكَ. أنا آسفٌ بخصوص ذلك لكنْ ـــ »

«ليس صديقًا. هو فيلسوفٌ. سارتر. السَّيِّد ج.-ب.»

«مَنْ؟» قال آرشي، منفعلًا، ومتشكِّكًا. «يبدو فرنسيًّا.»

«إنَّه فرنسيٌّ. رجلٌ فرنسيٌّ عظيمٌ. لقَدِ التقيتُ به بشكلٍ وجيزٍ في 41، عندما سُجن. لكنْ عندما التقيتُ به طرح مشكلةً، تماثِل، في ظنِّي، مشكلتكَ.»

«استمرَّ،» قال آرشي ببطءٍ. في الحقيقة فقَدْ استطاع أَنْ يفعل مع بعض المساعدة.

«المشكلة،» واصل الدُّكتور مريضٌ، وهو يحاول السَّيطرة عَلَى تسارع أنفاسه، ويتعرَّق كثيرًا، كانت هناك بحيرتان صغيرتان مِنَ العرق في التَّجويفين في قاعدة عنقه: «هي عَنْ طالبٍ فرنسيٍّ شابٍّ ينبغي عليه رعاية أُمِّه المريضة في باريس ولكنَّه مُطالَبٌ في الوقت نفسه بالذِّهاب إِلَى إنجلترا لمساعدة فرنسا الحرَّة في محاربة الاشتراكيّين القوميِّين. الآن، مع تذكُّر أَنَّ هناك أنواعًا كثيرةً مِنَ *الواجب* - المرء يجب أَنْ يعطي للأعمال الخيريَّة - عَلَى سبيل المثال - ولكنَّ المرء لا يفعل ذلك دائمًا؛ هذا مثاليٌّ، ولكنَّه ليس مطلوبًا - مع تذكُّر هذا، ماذا ينبغي عليه أَنْ يفعل؟»

سخر آرشي: «ذلك سؤالٌ سخيفٌ غبيٌّ. فكِّر *في الأمر*.» لوَّح بالبندقيَّة، مُحرِّكًا إيَّاها عَنْ وجه الطَّبيب ومُربِّتًا عَلَى صدغه بها. «في نهاية الأمر، سيفعل ما يهتمُّ به أكثر. إمَّا أَنَّه يحبُّ بلده وإمَّا والدته العجوز.»

«لكنْ ماذا لَوْ أَنَّه يهتمُّ بالخيارين، بالتَّساوي؟ أقصد، البلد، والوالدة العجوز. ماذا لَوْ كان مُلزمًا بالقيام بالأمرين؟»

لَمْ يتأثَّر آرشي. «حسنًا، مِنَ الأفضل له أَنْ يختار أحدهما ويشرع فيه.»

«يتَّفق الرَّجل الفرنسيُّ معكَ،» قال الطَّبيب، وهو يحاول الابتسام. «إذا لَمْ يكنْ ممكنًا تجاوز ما هو غير ضروريٍّ، فاختر واحدًا إذنْ، وكما تقول، اشرع فيه. يصنع الرَّجل نفسه، في النِّهاية. وهو مسئول عَمَّا يقوم به.»

«ها أنتَ ذا، إذنْ. انتهت المحادثة.»

باعد آرشي ما بين ساقيه، ووزَّع وزنه، مستعدًّا لسحب صمام الأمان - وأعدَّ البندقيَّة مرَّةً ثانيةً.

«لكنْ - لكنْ - فكِّر - أرجوكَ، يا صديقي - حاول أَنْ تفكِّر ــــ.» سقط الطَّبيب عَلَى ركبتَيه، مُرسلًا سحابةً مِنَ الغبار ارتفعَت وحطَّت مثل تنهيدةٍ.

«انهض،» غصَّ آرشي، وقَدْ روَّعه تيَّار نزيف العين، واليد عَلَى ساقه، والفم مِنْ ثَمَّ عَلَى حذائه. «أرجوكَ - ليسَت هناك حاجةٌ لـــ»

لكنَّ الطَّبيب جذب بطن ركبتَي آرشي. «فكِّر - أرجوكَ - أَيُّ شيءٍ قَدْ يحدث... رُبَّما ما زلتُ أكفِّر عَنْ ذنبي في رأيكَ... ورُبَّما تكون مخطئًا - رُبَّما يعود عليكَ قرارك مثلما عاد قرار أوديب إليه، بَشِعًا ومشوَّهًا! لا يمكنكَ أَنْ تقول عَلَى سبيل التَّأكيد!»

أمسك آرشي بذراع الطَّبيب النَّحيلة، وجذبه إلَى الأعلى، وبدأ في الصُّراخ: «انظر، يا زميل. أنتَ تزعجني الآن. أنا لستُ عرَّافًا لعينًا. رُبَّما ينتهي العالم غدًا بالنِّسبة إلى كُلِّ ما أعرفه. لكنْ ينبغي لي أَنْ أقوم بهذا الآن. سام ينتظرني. أرجوكَ.» قال آرشي؛ لأَنَّ يده كانت ترتعش وعزمه يهرب منه: «أرجوكَ توقَّف عَنِ الكلام. أنا لستُ عرَّافًا للمستقبل.»

لكنَّ الطَّبيب تهاوى مرَّةً أخرى، مثل عفرِيت العلبة. «لا... لا... نحن لسنا عرَّافين. لَمْ أتصوَّر قطُّ أَنَّ حياتي سوف تنتهي بين يدي طفلٍ... رسالة كورنثوس الأولى، الإصحاح الثَّالث عشر، الآيات مِنْ ثمانيةٍ إِلَى عشرةٍ: *اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَسْقُطُ أَبَدًا. وَأَمَّا النُّبُوَّاتُ فَسَتُبْطَلُ، وَالأَلْسِنَةُ فَسَتَنْتَهِي، وَالْعِلْمُ فَسَيُبْطَلُ. لأَنَّنَا نَعْلَمُ بَعْضَ الْعِلْمِ وَنَتَنَبَّأُ بَعْضَ التَّنَبُّؤِ. وَلكِنْ مَتَى جَاءَ الْكَامِلُ فَحِينَئِذٍ يُبْطَلُ مَا هُوَ بَعْضٌ*. لكنْ متى سوف يأتي ذلك؟ بالنِّسبة إليَّ، لقَدْ سئمت الانتظار. إنَّه لشيءٌ فظيعٌ، أَنْ تعرف فقط بشكلٍ جزئيّ. شيءٌ بشعٌ ألَّا تملك الكمال، الكمال الإنسانِّي، عندما يكون متاحًا بسهولةٍ.» رفع الطَّبيب نفسه، وحاول أَنْ يبلغ آرشي تمامًا عندما تراجع آرشي بعيدًا. «إذا كُنَّا فقط شجعان بما يكفي لنتَّخذ قراراتٍ ينبغي اتِّخاذها... بين أولئك الَّذِين يستحقُّون إنقاذهم والبقيَّة... هَلْ هي جريمةٌ أَنْ تريد ـــ»

«أرجوكَ، أرجوكَ.» قال آرشي، وهو يشعر بالخجل أَنْ يجد نفسه يبكي، ليس بدموعٍ حمراءَ مثل الطَّبيب، ولكنْ كثيفةٍ وشفَّافةٍ ومالحةٍ. «ابقَ هناك. *أرجوكَ* توقَّفْ عَنِ الكلام. أرجوكَ.»

«ومِنْ ثَمَّ أفكِّر في الألمانيِّ المنحرف، فريدريك[1]. تخيَّل العالم بلا بدايةٍ ولا نهايةٍ، يا فتًى.» بصق هذه الكلمة الأخيرة، فتًى، وكانت لصًّا غَيَّرَ التَّوازن في القوَّة بينهما، سرق أَيًّا كانت القوَّة الَّتِي تبقَّت في آرشي وذرَّاها في الرِّياح. «تخيَّل، إذا كنتَ قادرًا، والأحداث تقع في العالم بشكلٍ متكرِّرٍ، بلا نهايةٍ، بالطَّريقة الَّتِي كانت دائمًا....»

«ابقَ حيث أنتَ بكُلِّ لعنةٍ!»

«تخيَّل هذه الحرب أكثر وأكثر مليون مرَّةٍ....»

«لا شكرًا،» قال آرشي، مختنقًا بالبلغم: «إِنَّها سيِّئةٌ بما يكفي في المرَّة الأولى.»

---

1 ـ فريدريك نيتشة: الحياة خالدة أبدية بلا بدء ولا نهاية فهي تعيد نفسها ـ مرارًا وتكرارًا ـ بكل معاناتها وتعاستها وآثامها. (المترجم).

«ليس هذا اقتراحًا جادًّا. إِنَّه اختبارٌ. وحدهم أولئك الَّذِين هم أقوياء بما يكفي ويدعمون الحياة لكَيْ يثبتوها ـ حتَّى ولَوْ كلنتسيوف تواصل التِّكرار فقط ـ لديهم ما يلزم لكَيْ يتحمَّلوا السَّواد الأسوأ. يمكنني أَنْ أرى الأشياء الَّتِي قمتُ بها تتكرَّر بشكلٍ لا نهائيّ. أنا واحدٌ مِنَ الواثقين. ولكنَّك لستَ واحدًا منهم....»

«أرجوكَ، توقَّف عَنِ الحديث فقط، *أرجوكَ*، حتَّى أستطيع ــ »

«القرار الَّذِي تتَّخذه، يا آرشي،» قال الدُّكتور مريضٌ، فاضحًا المعرفة الَّتِي امتلكها مِنَ البداية، اسم الفتى، والَّتِي انتظر توظيفها عندما تكون لها القوَّة القصوى: «هَلْ يمكنكَ أَنْ ترى الأمر يتكرَّر مرَّاتٍ ومرَّاتٍ خلال الأبديَّة؟ هَلْ يمكنكَ؟»

«أنا لدَيَّ عُملةٌ!» صاح آرشي، *صارخًا* بذلك في فرحٍ؛ لأَنَّه تذكَّرها للتَّوّ. «أنا لدَيَّ عُملةٌ!»

بدَا الدُّكتور مريضٌ في حيرةٍ، وأوقف خطواته المتعثِّرة إِلَى الأمام.

«ها! لدَيَّ عُملةٌ، يا ابن الحرام أنتَ. ها! إذنْ اللَّعنة عليكَ!»

ثُمَّ خطوةٌ أخرى. تمتدُّ يداه، وكفَّاه مرفوعتان، ببراءةٍ.

«ابقَ إِلَى الوراء. ابقَ حيث أنتَ. حسنًا. هذا ما سوف نفعله. يكفي كلامًا. سوف أضع بندقيَّتي هنا... ببطءٍ... *هنا*.»

جلس آرشي القرفصاء ووضعها عَلَى الأرض، بينهما هما ـ الاثنَين ـ تقريبًا. «ذلك حتَّى يمكنكَ أَنْ تثق بي. سألتزم بكلمتي. والآن سأطوِّح هذه العملة. وإذا كانت رؤوسًا، سوف أقتلك.»

«لكنْ ــ » قال د. مريضٌ. ولأوَّل مرَّةٍ رأى آرشي شيئًا ما مثل خوفٍ حقيقيٍّ في عينَيه، نفس الخوف الَّذِي شعر آرشي تمامًا معه أَنَّه يستطيع بالكاد الكلام.

«وإذا كانت ذيولًا، لَنْ أفعل. لا، لا أريد الحديث عَنْ ذلك. أنا لستُ مُفكِّرًا بشكلٍ كبيرٍ، عندما يتعلَّق الأمر بذلك. ذلك هو أفضل ما أستطيع تقديمه. حسنًا، لنبدأ.»

ارتفعَت العُملة وتقلَّبَت كما كانت العملة لترتفع وتتقلَّب في كُلِّ مرَّةٍ في العالم المثاليّ، وهي تعكس ضوءَها ثُمَّ تكشف عَنْ جانبها المظلم عددًا كافيًا مِنَ المرَّات حتَّى تخطف لُبَّ المرء. ثُمَّ عند نقطة ما في صعودها الظَّافر، بدَأَت في التَّقوُّس، وذهب القوس في

اتّجاهٍ خاطئٍ ولاحظ آرشي أنَّها لَمْ تكنْ عائدةً إليه بالمرَّة وإنَّما ذهبَت خلفه، عَلَى مسافةٍ معقولةٍ وراءه، والتفت مع الجميع لكَيْ يشاهدها تسقط في التُّراب. انحنى لكَيْ يلتقطها عندما دوَّت طلقةٌ، وشعر بألمٍ عنيفٍ في فخذه اليمنى. نظر إلَى أسفل. دمٌ. عبرَت الطَّلقة مباشرةً خلاله. أخطأَت العظم بالكاد، ولكنْ تركَت كِسرةً مِنْ غطاء المقذوف كجزءٍ لا يتجزَّأ عميقًا في اللَّحم. كان الألم شديدًا وللغرابة بعيدًا في الوقت نفسه. استدار آرشي ليرى د. مريض، نصف منحنٍ، والبندقيَّة تتدلَّى في ضعفٍ في يده اليمنى.

«بحقِّ اللَّعنة، لماذا فعلتَ ذلك؟» قال آرشي، غاضبًا، وهو يستولي عَلَى البندقيَّة مِنَ الطَّبيب، بسهولةٍ وقوَّةٍ. «إنَّها ذيولٌ. هَلْ ترى؟ إنَّها ذيولٌ. انظر. ذيولٌ. لقَدْ كانت ذيولًا.»

***

وإذن كان آرشي هناك، هناك في مسار الرُّصاصة، يوشك أَنْ يقوم بشيءٍ غير معتادٍ، حتَّى بالنِّسبة إلى التِّليفزيون: ينقذ الرَّجل نفسه مرَّتَين وبدون أيِّ سببٍ أَوْ مُناسبةٍ أكثر مِنَ المَّرة الأولى. وإنَّه لعملٌ فوضويٌّ، مزاج إنقاذ النَّاس هذا. كان كُلُّ شخصٍ في الغرفة يشاهد في رعبٍ وهو يأخذها في الفخذ، تمامًا في عظم الفخذ، ويدور حول نفسه مع بعض الميلودراما ويسقط عبر صندوق الفأر الزُّجاجيِّ مباشرةً. وشظايا الزُّجاج في جميع أنحاء المكان. يا له مِنْ أداءٍ. لَو كان ذلك في التِّليفزيون كنتَ لتسمع السَّاكسفون مِنْ حولكَ؛ وكانت لتهبط التِّترات.

لكنْ ألعاب النِّهاية أوَّلًا. لأنَّه يبدو أنَّه أيًّا كان ما تظنُّه بخصوصها، فلا بُدَّ أنَّه تَمَّ أداؤها، حتَّى إذا كانت النِّهاية، مثل استقلال الهند أَوْ جامايكا، مثل توقيع معاهدات السَّلام أَوْ رسوِّ قوارب الرُّكاب، فهي البدء - ببساطةٍ - لقصَّةٍ أكثر طولًا أيضًا. سوف تقوم نفس المجموعة البؤريَّة الَّتِي اختارت لون هذه الغرفة، والسِّجَّاد، وخطوط البوسترات، وارتفاع الطَّاولة، بدون شكٍّ، بفحص الصَّندوق الَّذِي يتطلَّب رؤية كُلِّ هذه الأشياء تؤدِّي في نهاياتها...وهناك - بالتَّأكيد - نمطٌ ديموغرافيٌّ لكُلِّ هؤلاء الَّذِين يرغبون في رؤية شهادات العيان تلك الَّتِي عُرِّفَت ماجد في مرَّاتٍ كثيرةٍ كما لَوْ كان مِلَّة، النُّسختان المحيِّرتَان، وشريط الفيديو للضَّحيَّة غير المتعاونة والعائلات، في دعوَى قضائيَّةٍ مُستحيلةٍ جدًّا استسلم القاضي فيها وحدَّد أربعمئة ساعةٍ خدمة مجتمعٍ لكُلٍّ مِنَ التَّوأمَين، قاما بها - بطبيعة الحال - كبستانيَّين في مشروع جويس الجديد، حديقة ألفيَّةٍ ضخمةٍ عَلَى ضفاف التَّايمز...

هَلْ هؤلاء نساءٌ صغيراتٌ ـ عمليًّا ـ في أعمارٍ بين الثَّامنة عشرة والثَّانية والثَّلاثين اللائي يرغبن في لقطةٍ للسَّنوات السَّبع التَّالية لأَيرِي، وجوشوا، وهورتنس يجلسون عَلَى البحر الكاريبيّ (لأَنَّ أَيرِي وجوشوا أصبحا حبيبَين في النِّهاية، يمكن لكَ فقط أَنْ تتجنَّب مصيرك لوقتٍ طويلٍ)، بينما ابنة أَيرِي الَّتِي بلا أبٍ تكتب بطاقاتٍ بريديَّةٍ حانيةٍ إِلَى *العَمِّ الشِّرِّير مِلَّة، والعَمِّ الطَّيِّب ماجد*، وتشعر بالحرِّيَّة مثل بينوكيو، دميةً قطعَت خيوط الأبوَّة؟ وهَلْ يمكن بشكلٍ موسَّعٍ أَنْ يكون هواة الجريمة أَوِ الأكبر سنًّا هم مَن يجدون أنفسهم يريدون أَنْ يضعوا رهاناتٍ عَلَى الفائز في لعبة البلاك جاك، الَّتِي تجري بين ألسانا وصمد، وآرشي وكلارا، في أوكونيل في 31 ديسمبر 1999، في تلك اللَّيلة التَّاريخيَّة عندما فتح عبدول ميكي أبوابه أخيرًا للنِّساء؟

ولكنْ مِنَ المؤكَّد أَنْ نقول إِنَّ رواة هذه الحكايات وآخرين يشبهونهم سيكونون مدفوعين سريعًا نحو الأسطورة، والكذب الشِّرِّير، بأَنَّ الماضي ـ دائمًا ـ متوتِّرٌ، والمستقبل مثاليٌّ. وكما يعرف آرشي، فالأمر ليس كذلك. لَمْ يكنْ كذلك قطُّ.

رُبَّما مِنْ شأن ذلك أَنْ يصنع استطلاعًا مثيرًا للاهتمام (ما النَّوع الَّذِي سيكون عليه قراركَ) لاختبار الحاضر وتقسيم المتفرِّجين إِلَى مجموعتَين: هؤلاء الَّذِين تسقط عيونهم عَلَى رجلٍ ينزف، يتراجع عبر الطَّاولة، أَمْ أولئك الَّذِين شاهدوا باب الخروج لفأرٍ بُنَيٍّ متمرِّدٍ. آرشي، مِنْ جانبه، شاهد الفأر. شاهده يقف ثابتًا جدًّا لثانيةٍ واحدةٍ مع نظرة اعتدادٍ كما لَوْ أَنَّه لَمْ يتوقَّع أقلَّ مِنْ ذلك. شاهدَه يهرول بعيدًا، مِنْ فوق يدَيه. شاهده يندفع عبر الطَّاولة، وعبر أيدي هؤلاء الَّذِين تمنَّوا أَنْ يحتجزوه. شاهده يقفز قبالة النِّهاية ويختفي عبر فتحة التَّهوية. *انطلِق يا بُنَيَّ!* فكَّر آرشي.

◆ طبعت بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ◆

"أسنان بيضاء" هي قطعة زادي الفنية الأولى التي قدمتها إلى القارئ. الرواية التي وصفها النقاد بأنها احتفاء حقيقي بالواقعية المجنونة، وبالرواية الرائعة الصغيرة السهلة، ما بعد الحداثية. ضمنتها سير ثلاث عائلات إنجليزية من أصول عرقية مختلفة، وشخصيات استقتها من مكان إقامتها ومسقط رأسها، في حي شمال لندن، الذي يقطنه إلى جانب الطبقات العمالية والوسطى، أكبر عدد من المهاجرين متنوعي الجنسيات (هنود، وسود، وإنجليز) مع كل ما يتضمنه هذا التنوع من مفارقات ثقافية وصدامات حضارية وثراء قصصي.
غير أن زادي تتحفظ على فكرة تمثيلها للتعدد الثقافي البريطاني في رواياتها، وتقول: "حسنًا، نعم، باستثناء أنني لست على هذا القدر من الإيغال في نزعة تعدد الثقافات. كل ما هناك أنني نصف إنجليزية ونصف جامايكية. وقد جرى وصفي على الدوام وكأنني ممثلة لكل الأمم. وأنا لست مؤهلة لذلك.
لكن "أسنان بيضاء"، وافقت زادي أم نفت، هي تجل حقيقي لفكرة التعددية الثقافية، وربما الصدام في مجتمعات المهاجرين، على اختلاف إثنياتهم وأعراقهم، واختلاف مصائرهم أيضًا.

الروائية: زادي سميث، روائية بريطانية من أصول جامايكية.
الجائزة: جائزة وايتبريد عام 2000.

تصميم الغلاف: د. هند سمير

ISBN# 9789779114927
6 221149 047754

٥٥
جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب